رواية

الحسُّون

مكتبة 500

« عمل عظيم »
The Times -

« تحفةٌ أدبية مُحلِّقة »
Washington Post -

« إنه إنجاز »
ستيفن كينغ
New York Times Book Review -

العمل الفائز بجائزة بوليتزر

دونا تارت



ترجمة: الحارث النبهان

دونا تارت

الحسُّون

I



الكتاب: الحسُّون / رواية (الجزء الأول)
المؤلف: دونا تارت
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 544 صفحة
الترقيم الدولي: 2-059-472-614-978
الطبعة الأولى: 2019



هذه ترجمة مرخصة لرواية:
The Goldfinch by Donna Tartt

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية قاسم فارس (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة - 2شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com

دونا تارت

الحسُّون

I

ترجمة: الحارث النبهان

مكتبة | 500



إلى أُمّي

وإلى كلود

الجزء الأول

السخف ليس محرِّراً؛ إنه قيدٌ!

البير كامو

الفصل الأول

صبيٌّ وجمجمةٌ

1

كنت لا أزال في أمستردام عندما حلمت بأمي أول مرة منذ سنين كثيرة. مرَّ أكثر من أسبوعٍ أمضيته حبيس غرفتي في الفندق خائفاً من الخروج أو الاتصال هاتفياً بأي إنسان؛ وكان قلبي يثب من موضعه مرتعشاً حتى لسماع أكثر الأصوات براءة: جرس المصعد، والقرقعة الخفيضة لعربة الميني بار، بل حتى دقات ساعات الكنيستين، «ذي فسترتو هم» و«كريبيت برغ»... حدةٌ قاتمة في رنين تلك الأجراس، وإحساس بالفناء مغروسٌ عميقاً في قصة خيالية. كنت أجلس على سريري في النهار محاولاً أن أحزر ما يقال باللغة الهولندية في الأخبار على شاشة التلفزيون (كان هذا جهداً عقيماً لأنني ما كنت أعرف كلمة واحدة من تلك اللغة). وعندما أستسلم، أذهب فأجلس قرب النافذة محدقاً إلى الخارج، صوبالقنال، وقد وضعت معطفي المصنوع من شعر الجمل على كتفي فوق ملابسي ـ لأنني غادرت نيويورك مستعجلاً، ولأن الملابس التي أتيت بها معي ما كانت دافئة، حتى داخل الغرفة. كان كل شيء نشطاً مبتهجاً في الخارج. إنها ليلة عيد الميلاد... أضواء متألقة على جسور القنال في الليل؛ وسادة وسيدات حمر الوجنات تتطاير في الهواء أطراف أوشحة طوّقوا رقابهم

بها. كانوا يتقاطرون في الطرق المرصوفة وقد ربطوا أشجار عيد الميلاد إلى درّجاتهم. وكانت فرقة من الهواة تعزف بعد الظهر ترانيم الميلاد فيظل رنينها الهش معلقاً في هواء الشتاء.

صواني خدمة الغرفة ذات الطراز القوطي؛ وسجائر كثيرة كثيرة؛ وفودكا فاترة أتيت بها من السوق الحرة. خلال تلك الأيام القلقة، أيام احتباسي في غرفتي، صرت أعرف كل إنش في تلك الغرفة مثلما يعرف سجين تفاصيل زنزانته. كانت أول مرة لي في أمستردام؛ ولم أكد أرى شيئاً من المدينة بعد. إلا أن الغرفة نفسها -بجمالها الكالح البارد- كانت تعطيني إحساساً قوياً بشمال أوروبا كأنها نموذج مصغر عن هولندا: استقامة معقّمة بروتستانتية مازجتها رفاهية داكنة الألوان أتت بها سفن التجّار من بلاد الشرق. أمضيت قدراً غير معقول من الوقت مدققاً في لوحتين زيتيتين ضئيلتين لهما إطاران ذهبيا اللون. كانتا معلقتين فوق طاولة المكتب: في إحداهما فلاحون يتزلّجون على بركة متجمّدة عند إحدى الكنائس؛ وفي الثانية قارب شراعي متراقص بين أمواج بحر شتائي متلاطمة: نسختان تزيينيتان. ما من شيء خاص. رغم أنني رحت أتملّاهما بكل دقة كما لو أن مفتاحاً ما إلى قلب أسرار قدامى الفنانين الفلمنكيين[1] كان خبيئاً فيهما. وفي الخارج، مطر متجمد ينقر إطارات النوافذ ويتهاطل على القنال. على الرغم من غنى ستائر الغرفة ونعومة سجادتها، لم يزل ضياء الشتاء، إلى اليوم، حاملاً نفحة من برد سنة 1943 القارس وشيئاً مما كان في تلك السنة من حرمان وتقشف وشايٍ خفيف من غير سكر وجوعٍ إلى دفء الفراش.

كنت أنزل لأشتري صحفاً في وقت مبكّر من كل صباح، قبل أن تنقشع الظلمة في الخارج، وقبل أن يأتي الموظفون الإضافيون إلى عملهم ويبدأ

---

(1) نسبة إلى «فلاندر» التي هي الجزء الجنوبي الغربي من البلاد المنخفضة. وهي الآن موزعة بين بلجيكا وفرنسا وهولندا، لكنها كانت إمارة قوية في العصور الوسطى.

امتلاء ردهة الفندق بالناس. كان العاملون في الفندق يتحرّكون بخطوات هادئة ويتكلّمون بأصوات خفيضة فتنزلق نظرات عيونهم عليّ انزلاقاً هيّناً كما لو أن أحداً منهم لا يراني حقاً... الأميركي ذو السبعة والعشرين عاماً الذي لا ينزل أثناء النهار. وقد حاولت طمأنة نفسي إلى أن المدير الليلي (بدلة داكنة متقنة التفصيل، ونظارة لها إطار عظم) قد يكون مستعداً لتقديم تنازلات عند الحاجة حتى يتفادى المشكلات أو حتى يتجنّب الهرج والمرج.

لم تكن في صحيفة «هيرالد تريبيون» أية أخبار عن مشكلتي، لكن القصة كانت منشورة في الصحف الهولندية كلها: سطور كثيفة بحروف لغة أجنبية ظلت معلّقة فوق حدود فهمي على نحو محيّر. ***جريمة قتل لم تُحلّ. شخص مجهول***[1]. كنت أعاود الصعود إلى غرفتي وأجلس في سريري (مرتدياً ملابسي كلها لأن الغرفة شديدة البرودة)، وأفتح الصحف فوق اللحاف: صور لسيارات شرطة، والشريط المحيط بمسرح الجريمة، وتعليقات تحت الصور كانت قراءتها مستحيلة عليّ فظللت عاجزاً عن معرفة إن كان فيها وصف لي أو إن كانوا يحجبون بعض المعلومات عن الجمهور، رغم عدم ورود اسمي فيها على ما بدا لي: ***الغرفة. مشعّ التدفئة. أميركي له سجل جنائي***[2]. الماء الأخضر الزيتوني في القنال. ولأنني كنت معتلاً أعاني البرد، وكنت معظم الوقت لا أعرف ما أفعله (لم أنتبه إلى جلب كتاب معي، تماماً مثلما لم أنتبه إلى ضرورة الملابس الدافئة)، فقد كنت ألازم الفراش معظم النهار. بدا لي أن الليل كان يخيم منذ منتصف فترة ما بعد الظهر. وكثيراً ما كانت تأخذني غفوة ـ وسط خشخشة الصحف المفتوحة ـ ثم أستيقظ، ثم أغفو من جديد. كان أكثر أحلامي مشوباً بذلك النوع نفسه من القلق غير المحدّد الذي يمازج

(1) باللغة الهولندية في الأصل.
(2) باللغة الهولندية في الأصل.

ساعات يقظتي كلها: دعاوى قضائية، وحقائب مفتوحة على الأسفلت وقد تناثرت ملابسي من حولها، وممرات مطارات لا آخر لها أجري فيها محاولاً اللحاق بطائرات أعرف أنني لن أستطيع اللحاق بها.

جادت عليّ حالة الحمّى التي كنت فيها كثرةً من أحلام غريبة حية نشطة إلى حد كبير، وتعرّقاً وتقلباً من غير أن أميّز إن كان الوقت نهاراً أو ليلاً. وأما في آخر تلك الليالي وأسوأها، فقد حلمت بأمي: حلم غامض سريع جعلني أحس كما لو أنه زيارة، لا حلم! أكون في متجر صديقي هوبي أو، على نحو أكثر دقة، في حيّزٍ حُلميّ مشؤوم أُقيمَ لكي يكون نسخة عن ذلك المتجر- تأتي إليّ فجأة من خلفي فأرى صورتها في المرآة. تشلني السعادة لمرآها؛ إنها هي... هي، وصولاً إلى أصغر التفاصيل... نمشها الكثير، وابتسامتها لي، أكثر جمالاً لكنها ليست أكبر عمراً، وشعر أسود، وانحناءة شفتيها الغريبة إلى الأعلى... ليس حلماً، بل حضور ملموس يملأ الغرفة كلها: قوة قائمة بذاتها، واختلاق حي. كنت عاجزاً عن الاستدارة صوبها رغم رغبتي الشديدة في أن أستدير. كان النظر إليها مباشرة انتهاكاً لقوانينها وعالمها. كانت تأتي إليّ بالطريقة الوحيدة التي تستطيعها! تتلاقى عيوننا لحظة طويلة ساكنة في زجاج المرآة، لكنّ بخاراً ينداح بيننا لحظة يبدو لي أنها موشكة على الكلام ـ مع شيء كان أشبه بمزيج من السخط والعاطفة والمرح ـ فأستيقظ من نومي.

2

لو لم تمتْ أمي لسارت الأمور سيراً أحسن. لكنها ماتت عندما كنت طفلاً؛ ومع أنني أتحمل مسؤولية كاملة عن كل ما جرى لي منذ ذلك الوقت فإنني، عندما فقدتها، فقدت رؤية أية علامة تهديني، أيه علامة يمكن أن ترشدني إلى مكان أكثر سعادة، إلى حياة أكثر انسجاماً وحلاوة... إلى حياة أكثر حياة.

كان موتها نقطة فاصلة: قبل، وبعد! وعلى الرغم من كآبة ما أُقِرُّ به بعد

هذه السنين كلها، فإنني لم ألتقِ بعد أحداً يجعلني أحس بأنني محبوب مثلما كانت تفعل. بصحبتها، كان كل شيء يسير حيّاً؛ وكانت تلقي من حولها نوراً مسرحيّاً مسحوراً حتى ليصير أي شيء أراه عبر عينيها أزهى ألواناً مما هو معتاد ـ أتذكّر كيف تناولت معها طعام العشاء في مطعم إيطالي في قلب نيويورك قبل موتها بأسابيع معدودة. أتذكّر كيف أمسكتْ بكم قميصي فجأة، وأتذكّر ذلك الجمال الذي يكاد يكون مؤلماً عندما أتت حلوى عيد ميلادي بشموعها المشتعلة محمولة من المطبخ ودائرة من ضوءٍ واهٍ تتراقص على السقف الداكن؛ ثم استقرّت الحلوى بنورها على الطاولة وسط أفراد الأسرة فجعلت وجه سيدة عجوز يصير جميلاً، وانبعثت الابتسامات من حولها، وتنحّى عمال المطعم جانباً واضعين أيديهم خلف ظهورهم ـ عشاء عيد ميلاد عادي من الممكن أن تراه في أي مكان، في أي مطعم من المطاعم الرخيصة في مركز المدينة. وأنا واثق من أنني ما كنت لأتذكر ذلك لولا أنها ماتت بعده بفترة قصيرة، لكنني صرت أفكر فيه مرات كثيرة بعد موتها، وأظنني سأظل أفكر فيه طيلة حياتي: كانت تلك الدائرة من ضوء الشموع لوحة حيّة من سعادة يومية عادية فقدتها عندما فقدت أمي.

كانت أمي جميلة أيضاً. يكاد هذا يكون أمراً ثانوياً؛ لكنها كانت جميلة، رغم ذلك! عندما أتت إلى نيويورك قادمة من كانساس أول مرة، عملت عارضة أزياء بدوام جزئي على الرغم من أنها لم تبرع في هذا العمل لشدة اضطرابها أمام الكاميرا. ومهما تكن نتائج عملها ذاك، إلا أنها لم تترجَم إلى فيلم.

لكنها كانت حقيقية كلها: أمر نادر! بل إنني غير قادر على تذكر أي شخص يشبهها حقاً. شعر داكن وجلد أشقر يتنمّش في الصيف، وعينان زرقاوان فيهما نور كثير. كان في ميلان عظمَيْ وجنتيها ذلك المزيج الغريب من الطابع القبَلي و«الصحوة السلتية» التي تجعل الناس

يخمّنون أحياناً أنها من آيسلندا. أما في الحقيقة، فقد كان نصفها إيرلندياً ونصفها من الشيروكي... كانت من بلدة في ولاية كانساس قريبة من حدود أوكلاهوما. وكانت تحب أن تُضحكني بأن تدعو نفسها «أوكي»[1] على الرغم من أنها كانت حسنة المظهر متأنقة حادة المزاج كأنها فرس سباق. لكن المؤسف أن تلك الشخصية الغريبة المتميزة كانت ظاهرة بسطوع زائد على نحو لا تتقبله الصور الفوتوغرافية -نمشها مغطى بمواد التجميل، وشعرها مردود مربوط خلف رأسها مثل ذيل حصان حتى لكأنها من النبلاء في رواية «قصة غينجي»[2]- وأما ما كان يبدو غير منسجم في الصور أكثر من أي شيء آخر فهو دفئُها وجذَلها وطبعها الذي يصعب توقّعه، أي تلك الأشياء التي كانت أكثر ما أحبه فيها. وقد كان السكون الذي تشعّه في الصور دلالة واضحة على مقدار عدم ثقتها بالكاميرا؛ كانت صورها موحية دائماً بالتأهّب الشرس كما لو أنها مستعدة لصد هجوم. لكنها ما كانت كذلك في الحياة. كانت سريعة الحركة إلى حد مدوِّخ؛ وكانت التفاتاتها خفيفة مفاجئة، ثم إنها كانت تجلس دائماً على حافة كرسيها كأنها طائر مائي طويل الساقين موشك على القفز والتحليق بعيداً. كنت أحب عطر خشب الصندل الذي تضعه... عطرٌ خشن غير متوقَّع؛ وكنت أحب حفيف قميصها المنشّى عندما تنحني لتقبّلني على جبهتي. أما ضحكتها، فكانت شيئاً كافياً لجعلك تلقي ما بين يديك وتسير خلفها في الشارع. حيثما ذهبت، كان الرجال ينظرون إليها بطرف عيونهم، بل ينظرون إليها أحياناً بطريقة تزعجني بعض الشيء.

كان موتها غلطتي أنا. ولطالما تسرّع الناس الآخرون في التأكيد لي على أنها لم تكن كذلك: *كنتَ طفلاً فحسب! ومن عساه يكون قادرا*

(1) أوكي: شخص من ولاية أوكلاهوما، أو شخص يعيش فيها.

(2) قصة غينجي: من أولى الروايات المعروفة في اللغة اليابانية، وقد تكون أكثرها شهرة. ظهرت في أوائل القرن الحادي عشر، وهي من تأليف موراساكي شيكيبو.

على معرفة ما سيجري. حادثة فظيعة؛ حظ بالغ السوء... من الممكن أن يحدث هذا لأي إنسان.

هذا صحيح إلى أقصى حدٍّ. وهذا ما لا أصدّق كلمة واحدة منه.

حدث ذلك في نيويورك، يوم العاشر من نيسان؛ أي قبل أربعة عشر عاماً. (تتردّد يدي عندما أكتب هذا التاريخ فيكون عليَّ أن أرغمها إرغاماً حتى يتابع القلم سيره على الورق. كان يوماً عادياً تماماً، لكنه صار الآن بارزاً على التقويم مثل مسمار صدئ). لو سار ذلك اليوم مثلما كان مخطَّطاً له لاختفى وذاب في السماء من غير أية علامة تدلّ عليه... لاقتُلع من غير أثر مثلما اقتُلعت بقية سنتي الثامنة في المدرسة. فماذا كنت لأتذكّر منه الآن؟ القليل، أو لا شيء! لكن نسيج ذلك الصباح ظل، بطبيعة الحال، أكثر وضوحاً حتى من الحاضر. لا يزال واضحاً في ذاكرتي حتى ذلك الإحساس بهواء الصباح الرطب. كانت قد أمطرت في الليل، هبّت عاصفة مخيفة، وغمرت المياه المتاجر، وأُغلقت محطتان من محطات المترو. كنا واقفين معاً على السجادة أمام مدخل بنايتنا في حين راح بوابها المفضل غولدي، الذي كان يعبد أمي، يسير خلفاً في الشارع رقم سبعة وخمسين رافعاً ذراعيه يصفّر لسيارات التاكسي. كانت السيارات تمر به مثيرة رشاش الماء القذر؛ وكانت غيوم عابقة بالمطر تسبح عالياً فوق ناطحات السحاب فتبتلع بقعاً من السماء لا تزال زرقاء صافية. وأما في الأسفل، في الشارع، تحت دخان عوادم السيارات، فكانت الريح رطبة طرية كالربيع نفسه.

صاح غولدي محاولاً أن يعلو بصوته على هدير الشارع: «آه، إنها مشغولة يا سيدتي»، ثم ابتعد من طريق سيارة انعطفت عند زاوية الشارع والماء يتطاير من حولها وأطفأت أنوارها. كان بواباً ضئيل الحجم: رجل نحيل شاحب قصير نشط غير داكن البشرة من بورتوريكو؛ وكان في السابق ملاكماً من وزن الريشة. صحيح أن وجهه كان منتفخاً نتيجة

الشراب (تفوح منه أحياناً رائحة الويسكي عندما يأتي إلى نوباته الليلية)، إلا أنه كان مشدود الجسم، سريع الحركة، بارز العضلات -وكان يمازح هذا وذاك على الدوام، ويخرج كثيراً إلى زاوية الشارع حتى يدخن فينطّ على هذه القدم وتلك وينفخ في يديه المكتسيتين بقفازين أبيضين عندما يكون الطقس بارداً، ويقول نكتاً باللغة الإسبانية ويضحك من بقية البوابين.

سأل غولدي أمي: «هل أنت على عجلة من أمرك هذا الصباح؟». كانت اللوحة الصغيرة المعلّقة على صدره تقول إن اسمه بورت د. لكن الجميع كان يدعوه غولدي بسبب سنّه الذهبية وبسبب اسم عائلته، «دي أورو»، الذي يعني «الذهب» في اللغة الإسبانية.

«لا. لدينا وقت كافٍ، فلا بأس». لكنها كانت تبدو مرهقة، وكانت يداها مرتعشتين عندما أعادت إحكام وشاحها على رقبتها لأن أطرافه كانت تنفلت وتتطاير في الريح. لكن غولدي لاحظ أن هنالك أمراً غير طبيعي لأنه ألقى نظرة سريعة في اتجاهي (كنت واقفاً إلى الخلف قليلاً محتمياً بإطار بوابة البناية الإسمنتي أنظر في كل اتجاه إلا في اتجاه أمي). كان في نظرته تلك شيء من عدم الاستحسان.

سألني: «ألن تذهبا بالقطار؟».

عندما أدركت أمي أنني لم أكن أعرف ما أقوله له، أجابته من غير أن يكون كلامها مقنعاً كثيراً: «أوه، إن علينا القيام ببضع مهمات». لم أكن ألقي كبير اهتمام إلى ملابسها عادة، لكن ما ارتدته ذلك الصباح، معطف مطر أبيض، ووشاحاً ورديًّا رقيقاً، وحذاءً منخفضاً أبيض الكعب، ظل منطبعاً في ذاكرتي حتى صار من الصعب عليَّ أن أتذكرها في أية صورة أخرى.

كنت في الثالثة عشرة. ويسوؤني كم كان سلوك كل منا تجاه الآخر غريباً في ذلك الصباح الأخير؛ بل إن ذلك كان واضحاً حتى لعين

البواب. ففي أي وقت آخر، كنا نتبادل الحديث بقدر معقول من العاطفة. وأما في ذلك الصباح، فما كان لأيٍّ منا ما يقوله للآخر... لأنهم أنذروني بالفصل من المدرسة. لقد اتصلوا بمكتبها في اليوم السابق فعادت إلى البيت صامتة حانقة. وكان أسوأ ما في الأمر أنني لم أعرف السبب الذي دعاهم إلى التهديد بفصلي رغم كوني متأكداً بنسبة خمسة وسبعين بالمئة أن السيد بيمان (في طريقه إلى مكتبه) قد نظر من نافذة فسحة السلم في الطابق الثاني في لحظة غير مناسبة أبداً فرآني أدخن في باحة المدرسة (أو لعله رآني واقفاً مع توم كيبل وهو يدخن وهذا ما كان يرقى في مدرستي إلى مرتبة ارتكاب الجريمة نفسها من الناحية العملية). كانت أمي تكره التدخين. وكان والداها -اللذان أحببت سماع القصص عنهما، لكنهما ماتا قبل أن تسنح لي فرصة معرفتهما- مدرّبَي خيول لطيفين يرتحلان في الولايات الغربية ويربيان خيولاً من نوع مورغان من أجل كسب عيشهما: حفلات الكوكتيل، وجلسات لعب الورق الصاخبة. كانا يذهبان إلى سباق الخيل في كنتاكي كل سنة ويضعان سجائر في علب فضية في أنحاء البيت. وذات يوم، انحنت جدتي وراحت تسعل وتبصق دماً عندما وصلت إلى الإسطبل. ظلت أسطوانات الأوكسجين على شرفة البيت الأمامية طيلة ما تبقى من سنوات مراهقة أمي، وظلت ستائر غرفة نوم أمها مسدلة على الدوام.

لكن ما كنت أخشاه، ليس من غير سبب، هو أن سيجارة توم ما كانت إلا قمة جبل الجليد. لقد كانت لي مشكلات كثيرة في المدرسة منذ فترة طويلة. بدأ الأمر كله، أو لعله بدأ يكبر، عندما هجرنا أبي وتركنا أنا وأمي وحيدَيْن قبل بضعة شهور. لم نكن نحبه كثيراً؛ كما أن أمي -وأنا أيضاً- كنا أسعد حالاً من غيره، أسعد حالاً بكثير على وجه العموم. إلا أن الناس الآخرين بدت عليهم الصدمة والاستياء الشديد لهجرانه المفاجئ (إعالة طفل، ومن غير مال، ومن غير إشارة إلى مكان إقامته). وكان المعلمون

والمعلمات في مدرستي في الناحية الشمالية الغربية من المدينة في غاية الأسف من أجلي، بل كانوا توّاقين إلى التعبير عن التفهّم، وإلى تقديم المساعدة فأعطوني ـ أنا التلميذ المنتسب إلى المدرسة بموجب منحة دراسية ـ مختلف أنواع التسهيلات، إضافة إلى تمديد المواعيد النهائية لفروضي المدرسية وإعطائي فرصة ثانية وفرصة ثالثة: ظلوا يطيلون لي الحبل عدة شهور إلى أن نجحت في إيقاع نفسي في حفرة عميقة حقاً.

وهكذا تم استدعاؤنا -أمي وأنا- إلى اجتماع في المدرسة. كان موعد الاجتماع في الحادية عشرة والنصف، لكن أمي اضطرت إلى التغيب عن عملها ذلك اليوم فقررتْ أن نذهب إلى مكان قريب من المدرسة في وقت مبكر من أجل تناول طعام الإفطار هناك (من أجل حديث جدّي أيضاً، كما كنت أتوقع)، إضافة إلى اعتزامها شراء هدية لبعض زملائها في العمل. ظلت ساهرة حتى الثانية والنصف بعد منتصف الليلة الماضية، وكانت قسمات وجهها تبدو متوترة في ألق شاشة الكمبيوتر عندما جلست تكتب رسائل بالبريد الإلكتروني وتحاول إنجاز جزء من عملها الصباحي في المكتب.

«لست أعرف شيئاً عن رأيك؟...». كان غولدي يخاطب أمي بشيء من الحدّة... «لكني أقول إنني اكتفيت من هذا الربيع ومن هذه الرطوبة كلها. مطر، مطر...». ارتعد جسمه وشدَّ ياقته بحركة تمثيلية، ثم نظر إلى السماء. قالت له: «أظنها ستصحو بعد الظهر».

أجابها وهو يفرك كفيه: «صحيح، أعرف هذا. لكني مستعد للصيف. يترك الناس المدينة، يكرهونها، ويتذمرون من شدة الحر. أما أنا... أنا عصفور استوائي. كلما ازداد الطقس حرارة كلما كنت أحسن حالاً. أعطوني حراً!». صفق بيديه واستدار على عقبيه عائداً إلى الشارع من جديد. «و... هل تعرفين ما أحبه في الصيف؟ إنه الهدوء الذي يسود هنا. تعال يا شهر تموز! البناية خالية نائمة، والجميع قد سافر، كما تعلمين!».

طقطق بأصابعه عندما مرت سيارة تاكسي مسرعة... «تلك هي عطلتي».

«لكن، ألا تحترق هنا؟» هذا ما كان أبي المتحفّظ يكرهه فيها: ميلها إلى الخوض في أحاديث مع البوابين والندل والعجائز متقطعي الأنفاس في محل تنظيف الملابس... «أعني، في الشتاء، يستطيع المرء أن يرتدي معطفاً إضافياً على الأقل...».

«اسمعي... هل تعملين عند الباب في الشتاء؟ أقول لك إن الطقس يكون بارداً حقاً. لا يهمني كم معطفاً يمكنك ارتداؤه وكم قبّعة يمكنك وضعها. تخيّلي أن تكوني واقفة هنا في كانون الثاني وفي شباط، والريح تهب من جهة النهر! بررر».

رحت أقضم ظفر إبهامي وأحدّق منزعجاً في سيارات التاكسي المسرعة التي لا تلقي بالاً إلى ذراع غولدي المرفوعة. كنت أعرف أن أمامي عذاب الانتظار حتى موعد الاجتماع في الحادية عشرة والنصف؛ وما كنت قادراً على فعل شيء غير الوقوف ساكناً من غير أن أثرثر وأطرح أسئلة تزيد من إداناتي. لم أكن أعرف أبداً ما يمكن أن يقولوه لأمي ولي عندما نصير عندهم في المكتب؛ بل إن كلمة «اجتماع» نفسها توحي باستدعاء السلطات وبالاتهامات وبالعقوبة، بل ربما بالطرد النهائي من المدرسة. ستكون كارثة إن خسرت منحتي الدراسية. نحن مفلسان منذ أن رحل أبي؛ ولا يكاد يتوفر لدينا المال الكافي لدفع الإيجار. وفوق هذا كله، يكاد يصيبني بالغثيان قلقي من أن يكون السيد بيمان قد اكتشف -على نحو ما- أن توم كيبل وأنا كنا نقتحم بيوت العطلات الخالية من السكان خلال فترة إقامتي عنده في هامبتونز. إنني أستخدم كلمة «اقتحام» رغم أننا لم نكسر قفلاً ولم نخرب شيئاً (تعمل والدة توم وكيلة عقارية؛ فكنا ندخل تلك البيوت مستخدمين المفاتيح الإضافية الموضوعة على الرف في مكتبها)؛ كنا نفتش الخزائن وننظر في دروج الملابس، لكنا كنا نأخذ بعض الأشياء أيضاً: بيرة من البراد، وبعض الأقراص المدمجة التي

عليها لعبة Xbooks أو ألبومات أغانٍ حديثة، فضلاً عن بعض النقود... بلغ مجموعها نحو اثنين وثمانين دولاراً: خمسات وعشرات في وعاء صغير في المطبخ، وأكوام من قطع النقود المعدنية الصغيرة في غرف الغسيل. كان الغثيان يصيبني كلما فكّرت في هذا الأمر. مرت شهور منذ أن كنت عند توم؛ وعلى الرغم من محاولتي إقناع نفسي بأن من المستحيل أن يكون السيد بيمان قد عرف شيئاً مما فعلناه في تلك البيوت... لكن، من يدري؟ كانت مخيلتي تطير وتندفع هنا وهناك في مسارات متعرجة مذعورة. صمّمت على عدم الوشاية بتوم (على الرغم من عدم ثقتي بأنه لم يشِ بي)، لكن ذلك كله كان يتركني في وضع صعب حقاً. كيف كنت غبياً إلى هذا الحد؟ دخول البيوت بهذه الطريقة جريمة، جريمة يذهب الناس إلى السجن عندما يرتكبونها. مرت أربع ساعات من الليل وأنا راقد مستيقظاً أتقلّب يميناً وشمالاً وأنظر إلى وابل المطر المتقطّع يصفع نافذتي وأتساءل عما قد أستطيع قوله إذا ما ووجهت بهذا الأمر. فكيف أستطيع الدفاع عن نفسي إذا كنت أجهل ما يعرفونه عني.

أطلق غولدي زفرة كبيرة، ثم أنزل يده وسار عائداً إلى حيث تقف أمي.

قال وعينه لا تزال على الشارع: «غير معقول... لقد غمرت المياه حي سوهو، فهل سمعت عن ذلك؟ نعم... كان كارلوس يقول إنهم أغلقوا بعض الشوارع على مقربة من مقر الأمم المتحدة».

رحت أنظر بكآبة إلى مجموعة من عمال ينزلون من الباص كئيبين كأنهم سرب من الدبابير. لعل حظنا يكون أفضل إذا سرنا غرباً مسافة كتلة سكنية أو اثنتين، لكن لدى أمي (ولديَّ أيضاً) معرفة كافية بغولدي لكي ندرك أنه سيشعر بإساءة إذا تركناه واعتمدنا على نفسينا. على أنه، في تلك اللحظة تماماً ـ على نحو مفاجئ لنا جميعاًـ انحرفت سيارة تاكسي في اتجاهنا مطلقة زخّة من رشاش الماء الفائح برائحة المجارير.

صاح غولدي وهو يثب جانباً مع تباطؤ سرعة السيارة حتى وقفت:

«انتبه!». ثم لاحظ أن أمي لا تحمل مظلة، فقال لها: «انتظري» واتجه صوب البناية قاصداً مجموعة المظلات المفقودة والمنسية التي يحتفظ بها في وعاء نحاسي كبير عند الموقد فيوزّعها على الناس في الأيام المطيرة.

صاحت أمي وهي تبحث في حقيبتها عن مظلتها الصغيرة القابلة للطي: «لا، لا تهتم يا غولدي. إنني مستعدة لـ...». عاد غولدي إلى حافة الرصيف فأغلق باب السيارة من خلفها. ثم نقر على زجاج السيارة قائلاً: «أتمنى لكما يوماً مباركاً».

3

أحب أن أعتبر نفسي شخصاً متبصّراً (هذا ما أظننا نحبه جميعاً). وعندما أسرد هذه التفاصيل، أجد من المغري أن أرسم ظلاً يزحف فوق هذا كله. لكنني كنت أصمَّ وأعمى في ما يتعلّق بالمستقبل لأن ذلك الاجتماع في المدرسة كان خوفي الوحيد الذي يسحقني في تلك اللحظة. عندما اتصلت بتوم لأقول له إنهم أنذروني بالفصل من المدرسة وفصلوني فصلاً مؤقتاً (كنت أهمس بذلك في سماعة الهاتف الأرضي لأن أمي أخذت مني هاتفي المحمول ـ عقوبة)، لم يبدُ لي أنه فوجئ بهذا الخبر على الإطلاق. قاطعني وقال لي: «انظر! لا تكن غبياً يا ثيو. لا يعرف أحد شيئاً. ما عليك إلا أن تحتفظ بفمك مطبقاً». وقبل أن أفلح بقَول أية كلمة، قال لي: «آسف لأن عليَّ أن أذهب الآن»، ثم أنهى المكالمة.

حاولت إنزال زجاج نافذة التاكسي قليلاً حتى يدخل بعض الهواء، لكني لم أستطع. كانت في السيارة رائحة تجعل المرء يظن أن أحداً قد بدَّل حفاضات طفل صغير هنا، أو أنه فعلها بنفسه فتبرز هنا، ثم حاول أن يموّه الرائحة مستخدماً مجموعة من عبوات معطر الهواء برائحة جوز الهند الشبيهة برائحة زيت التسمير. كانت المقاعد دبقة ألصقت على شقوقها بعض الشرائط البلاستيكية اللاصقة؛ بل كان حشو تلك المقاعد

شبه مفقود. كلما مرّت السيارة بحفرة في الطريق، تصطك أسناني وتتصادم مجموعة من التمائم الدينية المتدلية من مرآة الرؤية الخلفية: ميداليات وسيف معقوف مصغر متدلٍّ من سلسلة بلاستيكية، وصورة رجل دين معمم ملتح يحدق في اتجاه المقعد الخلفي بعينين ثاقبتين وقد مدّ كفّه كأنما يمنح الجالسين فيه البركة.

على امتداد شارع «بارك آفينيو»، كانت صفوف أزهار التوليب الحمراء ممتدة كأنها جنود في حالة انتباه. خفتَ صوت الأغاني الهندية حتى صار أشبه بأنين غير واعٍ وراح يدور في السيارة ويتلألأ كأنه منوِّم مغناطيسياً... ظلّ واقفاً عند عتبةٍ سمعي.

كانت براعم الأشجار في أول تفتحها. ورأيت صبيان توصيل الطلبات في «داغوستينو» و«غريستد» يدفعون عربات محملة بالبقالة؛ ورأيت نساء موظفات ينتعلن أحذية عالية يسرن على الرصيف جارّات خلفهن أطفالاً صغاراً لا يريدون الإسراع في السير؛ ورأيت عاملاً يكنس القاذورات من مسرب المياه عند الرصيف ويلقيها في سلة قمامة محمولة على عمود قصير؛ ورأيت محامين ومضاربين يرفعون أكفّهم ويعقدون حواجبهم متجهمّين وهم ينظرون إلى السماء. وخلال سيرنا في ذلك الشارع (بدت لي أمي في حالة بائسة. كانت متمسّكة بالمسند إلى جانبها حتى تثبت نفسها)، نظرت من النافذة إلى وجوه الناس الكئيبة في يوم العمل هذا (أشخاصٌ ذوو مظهر مهموم في معاطف مطرية يتقاطرون صفوفاً كالحة إلى تقاطع الطرق؛ وأناس يشربون القهوة من كؤوس ورقية ويتكلّمون في هواتفهم ويتبادلون نظرات خفية سريعة خلال وقوفهم واحداً بجانب الآخر). حاولت قدر المستطاع ألّا أفكر في القدر البشع الذي لعله الآن مختبئ ينتظر الانقضاض عليّ: قد يشتمل شيء من هذا على ذهابي إلى محكمة الأحداث الجانحين، أو إلى السجن.

انعطفت سيارة التاكسي انعطافاً مفاجئاً حاداً فدخلت الشارع رقم ستة

وثمانين. انزلقت أمي في اتجاهي وأمسكت بذراعي. رأيتها شاحبة رطبة كأنها سمكة.

نسيت متاعبي في تلك اللحظة وقلت لها: «هل أصابك الدوار؟».

كان على وجهها تعبير جامد حزين، تعبير أعرفه معرفة جيدة: شفتاها منضغطتان، وجبهتها لامعة بالعرق، وعيناها متسعتان مبتلتان لامعتان.

بدأت تقول لي شيئاً، ثم وضعت يدها على فمها لحظة توقف السيارة عند إشارة السير توقّفاً مفاجئاً جعلنا نندفع إلى الأمام ثم إلى الخلف مصطدمين بالمقعد.

قلت لها: «انتظري لحظة»، ثم ملت في اتجاه السائق ونقرت على الزجاج المتّسخ ففوجئ الرجل ونظر إليّ (كان سيخياً مُعمماً).

قلت له بصوت مرتفع عبر الفتحة الصغيرة: «انظر... لا بأس، سوف ننزل هناك».

نظر السيخي إلى المقعد الخلفي عبر المرآة ـ كانت عيناه مركّزتين عليّ: «هل تريد التوقّف هنا؟».

«نعم، من فضلك».

«لكننا لم نصل إلى العنوان الذي أعطيتماني إياه».

أجبته وأنا ألقي نظرة سريعة في اتجاه أمي التي ساحت الماسكارا على وجهها وبدت لي ذابلة وهي تبحث عن محفظتها الصغيرة داخل حقيبتها: «أعرف هذا. لكننا نريد أن ننزل هنا».

سألني سائق السيارة متشكّكاً: «هل هي على ما يرام؟».

«نعم، نعم، إنها بخير. نريد أن ننزل من السيارة فقط، شكراً لك».

بيدين مرتعشتين، أخرجت أمي من محفظتها بضعة دولارات مجعّدة بدت لي رطبة ودفعتها إليه عبر تلك الفتحة. وبينما السيخي يمد يده ليأخذها (مستسلماً... من غير أن ينظر إلى أمّي)، نزلت من السيارة وظللت ممسكاً بالباب من أجلها حتى تخرج.

تعثرت أمّي قليلاً عند حافة الرصيف فأمسكت بها من ذراعها. لحظة ابتعاد السيارة، سألتها بصوت خائف بعض الشيء: «هل أنت بخير؟».

كنا في نهاية الجادة الخامسة عند تلك البيوت الكبيرة المواجهة للحديقة.

أخذتْ أمي نفَساً عميقاً ثم مسحت عينيها وشدت على ذراعي. قالت وهي تهوّي وجهها بيدها: «أوووف!» كانت جبهتها لامعة وعيناها لا تزالان زائغتين بعض الشيء. كان فيها شبه طفيف ما بطائر بحري طوّحت به الريح... «آسفة، لا أزال أحس نفسي مشلولة. أشكر الرب على أننا صرنا خارج تلك السيارة. سأكون بخير. إنني في حاجة إلى شيء من الهواء».

كان الناس يتقاطرون من حولنا مسرعين عند زاوية الشارع التي تعصف بها الريح. تلميذات في زيّهن المدرسي ضاحكات متراكضات مارّات بنا من الجانبين؛ ومربيات تدفعن عربات متقنة الصنع فيها أطفال صغار جالسون مثنى وثلاث. مر بنا أب مستعجل له هيئة المحامين يجر خلفه ابنه الصغير ممسكاً به من معصمه. سمعته يقول للصبي الذي كان يجري حتى يساير سرعة أبيه: «لا يا برادون! لا يجوز أن تفكر على هذا النحو، فالأكثر أهمية هو أن يكون للمرء عمل يحبّه حقاً...» خطونا جانباً حتى نتفادى رغوة الصابون التي كان أحد البوابين يسكبها من دلو في يده على الرصيف أمام بنايته.

قالت لي أمي وهي تمسّ صدغها برؤوس أصابعها: «قل لي... هل المشكلة عندي، أم إن سيارة التاكسي تلك كانت...».

«كانت قذرة! معطر الجو وبراز طفل صغير!».

راحت تلوّح بكفها لتهوية وجهها: «صدقاً... لولا تلك المرات كلها من التوقف المفاجئ ثم الانطلاق لكان الأمر محتملاً. كنت على أحسن ما يرام، ثم أصابني هذا...».

«لماذا لا تسألين السائق أبداً إن كان في وسعك الجلوس في المقعد الأمامي؟».

«أنت تتحدّث مثل أبيك تماماً».

أشحت بوجهي، وكنت محرجاً... لأنني سمعت تلك النبرة أيضاً، سمعتها في صوتي: كانت لمحة من نبرة صوته التي تحس كأنها تقول لك إنه يعرف كل شيء... «فلنمش إلى شارع ماديسون حتى نجد مكاناً نجلس فيه». قلت لها هذا لأنني كنت شديد الجوع، ولأن في ذلك الشارع مطعماً يعجبني كثيراً.

لكنها أجابتني -مع شيء يشبه الارتجاج في جسمها كله: موجة غثيان ظاهرة للعيان- بأن هزت رأسها رافضةً فتناثر شيء من الماسكارا تحت عينيها: «الهواء! ما أحسن الهواء!».

قلت لها متعجلاً بعض الشيء، حريصاً على أن أبدو متفهماً: «بالتأكيد. مهما يكن!».

كنت أحاول بذل جهدي حتى أكون لطيفاً مقبولاً، لكن أمي -أمي المرهقة المشوَّشة- التقطت تلك النبرة في صوتي فنظرت إليّ نظرة متفحّصة محاولة أن تستنتج ما كنت أفكر فيه. (كانت تلك عادة سيئة أخرى وقعنا فيها بفعل سنوات من الحياة مع أبي: محاولة كل منا قراءة ما في ذهن الآخر).

قالت لي: «ماذا؟ هل هنالك مكان بعينه تريد الذهاب إليه؟».

أجبتها: «أممم، لا، ليس كذلك». تراجعت خطوة إلى الخلف ورحت أنظر من حولي مذعوراً: صحيح أنني كنت جائعاً، لكني ما كنت في وضع يسمح لي بالإصغاء إلى أي شيء.

«سأكون بخير. أعطني دقيقة واحدة فقط».

«ربما، ...». كنت مستثاراً، أرمش بعيني... ما الذي تريده؟ ما الذي يمكن أن يسرَّها؟ ... «ما رأيكِ أن نذهب لنجلس في الحديقة؟».

أراحني أنها أومأت برأسها موافقة. أجابتني بصوت أحسسته متلطفاً... «لا بأس. لكننا سنجلس إلى أن ألتقط أنفاسي فقط». ثم سرنا معاً في اتجاه ممر لعبور المشاة في الشارع رقم تسعة وسبعين: مررنا بشجيرات تزيين مرتّبة في مجموعات أنيقة، وبأبواب ثقيلة مزيّنة بأشغال من الحديد. كان ضياء الشمس قد خفتَ كثيراً حتى صار رمادياً، واشتد النسيم فصار ريحاً. إلى الجهة الأخرى من الشارع، عند الحديقة، كان فنانون يضعون مقاعدهم ويفردون اللوحات ويثبّتونها: نسخ بالألوان المائية عن لوحات لكاتدرائية باتريك ولجسر بروكلين.

سرنا صامتَيْن. وكان عقلي شديد الانشغال بمشكلاتي ومتاعبي (هل تلقّى أهل توم اتصالاً هاتفياً؟ لماذا لم أفكر في سؤاله عن هذا؟). إضافة إلى تفكيري في ما سأطلبه من طعام لفطوري حتى أستطيع جعلها تذهب إلى ذلك المطعم: (عجة البيض مع بطاطس مقلية بيتية، وقطعة من البيكون، أما هي فستطلب ما تطلبه دائماً، خبز الجاودار المحمّص مع بيض مخفوق وفنجان من القهوة السوداء)؛ ثم لم أكن متنبهاً تماماً إلى اتجاه سيرنا عندما قالت شيئاً ما. لم تكن تنظر إليّ، بل إلى الحديقة. جعلني تعبير وجهها أتذكّر فيلماً فرنسياً شهيراً لا أعرف اسمه يسير فيه أشخاص مذهولون في شوارع تعصف فيها الريح ويتكلمون من غير أن يبدو عليهم أنهم يخاطب بعضهم بعضاً.

سألتها بعد بضع لحظات من الارتباك وقد أسرعت في خطواتي قليلاً حتى ألحق بها: «ماذا قلت؟ حاوِل أكثر...؟».

بدا لي كأنها أجفلت... كما لو أنها نسيت وجودي معها. معطفها الأبيض يخفق في الريح، ومظهرها الذي يعطي انطباعاً بأنها طائر مائي طويل الساقين... كما لو أنها موشكة على فتح جناحيها والتحليق بعيداً عن الحديقة.

«أحاول أكثر... ماذا؟».

«أوه...» خلا وجهها من التعبير، ثم هزّت رأسها وضحكت ضحكة سريعة بطريقتها الحادة الطفولية... «لا. لقد قلت: *تشوّه الزمن*». على الرغم من أن قول تلك العبارة كان أمراً غريباً، إلا أنني فهمت ما تعنيه، أو حسبت أنني فهمت ما تعنيه. كانت ارتجافة ظهوري تلك، والثواني الضائعة على الرصيف، أشبه بقفزة صغيرة في الزمن أو ببضع لحظات مفقودة من فيلم.

«لا، لا يا جروي... إنه تأثير هذا الحي». راحت تعبث بشعري فجعلتني أبتسم ابتسامة معوجّة نصف محرجة: «جروي»... هكذا اعتادت أن تناديني عندما كنت طفلاً صغيراً. لم يعد هذا يعجبني، ولم يعد يعجبني عبثها بشعري، لكنّي فكرت (خانعاً على ما أظن) في أنني مسرور برؤيتها قد صارت أحسن حالاً... «هذا ما يحدث لي دائماً هنا. كلما أتيت إلى هذا المكان أحس كأنني صرت في الثامنة عشرة من جديد، وأنني نزلت الآن من الباص الذي أتى بي إلى نيويورك».

«هنا؟...». قلت هذا متشككاً، وسمحت لها أن تمسك بيدي... الشيء الذي لا أسمح به عادة... «أمر غريب».

كنت أعرف كل ما يتّصل بأيام شباب أمي في مانهاتن البعيدة كثيراً عن الجادة الخامسة ـ كانت تعيش في شقة صغيرة فوق بار في الجادة (ب) حيث ينام متشردون في الممر ويعلو ضجيج المشاجرات في البار فيبلغ الشارع، وحيث كانت هنالك امرأة عجوز مجنونة اسمها (مو) تربّي عشرة أو اثني عشر قطاً من غير رخصة في آخر بيت السلم في الطابق العلوي.

هزّت أمي كتفيها وقالت: «نعم، لكن المكان هنا لا يزال على حاله مثلما كان أول مرة... كأنه نفق في الزمن! أما في الحي الشرقي... أنت تعرف كيف هو الحال هناك... هنالك دائماً شيء جديد. أما أنا فيأتيني دائماً هذا الإحساس بأن الزمن يطير طيراناً، بأنه يبتعد أكثر فأكثر. كنت أستيقظ أحياناً فأحس كما لو أنهم قد أتوا وأعادوا ترتيب واجهات

المتاجر في الليل. مطاعم قديمة تغلق، وبار جديد أنيق يفتتح حيث كان محل تنظيف الملابس...».

حافظت على صمتي الموحي بالاحترام. لقد صار مرور الزمن فكرة تَرِدُ كثيراً في ذهنها في الآونة الأخيرة... لعل هذا لأن يوم ميلادها صار قريباً! *لقد كبرت على هذه الأشياء*، هذا ما قالته منذ عدة أيام عندما رحنا نفتش الشقة معاً ونبحث تحت وسائد الأريكة وفي جيوب المعاطف والسترات محاولين العثور على ما يكفي من قطع نقدية صغيرة حتى ندفع ثمن موادَّ البقالة التي جاء بها الصبي من متجر ديلي.

دست يديها في جيبَيْ معطفها وقالت: «الوضع هنا أكثر استقراراً...». صحيح أن صوتها كان مرحاً بعض الشيء، إلا أنني رأيت في عينيها ضباباً. من الواضح أنها لم تنم جيداً تلك الليلة... بسببي أنا... «منطقة الحديقة هنا من الأماكن القليلة التي لا تزال تستطيع أن ترى فيها كيف كانت هذه المدينة في تسعينات القرن التاسع عشر. الأمر نفسه في حديقة غرامرسي، وفي منطقة فيليدج... في قسم منها! عندما جئت إلى نيويورك أول مرة، ظننت أن هذا الحي كان إيديث وارتون، *وفراني وزووي*، *وفطور لدى تيفاني*[1]... كلها مجتمعة معاً».

«تدور أحداث فاني وزووي في القسم الغربي من المدينة».

«صحيح، لكني كنت أكثر غباءً من أن أعرف هذا. لا أستطيع قول شيء غير أن هذه المنطقة كانت مختلفة تمام الاختلاف عن المنطقة الجنوبية، وكان المشرَّدون يشعلون النار في صفائح القمامة. كان كل شيء سحرياً في هذا المكان ـ التجوّل في المتحف، والخبب وحدي في أنحاء الحديقة...».

---

(1) فطور عند تيفاني: فيلم أنتج سنة 1961 وكان من بطولة أودري هيبورن وجورج ديبارت.
إيديث وارتون: كاتبة روائية أميركية شهيرة تميزت أعمالها بوصف مفصل للمجتمع الأرستقراطي الأميركي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.
فراني وزووي كتاب من تأليف ج. د. سالينجر؛ يضم هذا الكتاب قصة قصيرة «فاني» ورواية قصيرة «زووي».

«*الخبب؟...*». كان كثير من كلامها غريباً على أذني. بدت لي كلمة «خبب» أشبه بمصطلح من مصطلحات عالم الخيول باقٍ لديها من أيام طفولتها. لعلها تعني الجري البطيء المتكاسل!

«أوه، أنت تعرف، إنه ذلك السير المتمايل بوثبات صغيرة، مثلما أفعل. كنت من غير مال، وكانت جواربي مثقبة، وكنت أعيش على الشوفان. صدق أو لا تصدق أنني كنت أسير حتى هذا المكان في بعض العطلات. كنت أوفّر على نفسي أجرة القطار حتى أعود إلى البيت. كانت تلك القطع المعدنية المدورة التي تشتريها لتركب القطار لا تزال مستخدمة حتى ذلك الوقت قبل أن يتحولوا إلى استخدام البطاقات. وحتى دخول المتحف... كان من المفترض أن يدفع المرء مالاً لدخوله. وكانوا يسمّون ذلك «تبرّعاً مقترَحاً. حسناً، أظن أن أعصابي كانت أكثر قوة في ذلك الوقت، أو لعلهم كانوا يشفقون عليّ لأن... لا...». قالت ذلك بنبرة صوت مختلفة وقد توقّفت عن الحركة توقّفاً مفاجئاً جعلني أسبقها بعدة خطوات قبل أن ألاحظ ما جرى.

استدرت إليها: «ماذا؟ ما الأمر؟».

«أحسست شيئاً...». فتحت كفّها ونظرت إلى السماء... «هل أحسست أنت؟».

بدا لي كما لو أن النور انسحب من حولنا لحظة قالت هذه الكلمات. أظلمت السماء سريعاً، وراحت تزداد ظلمة مع كل ثانية. عبثت الريح بأشجار الحديقة، وظهرت أوراق الأشجار النابتة حديثاً رقيقة صفراء على خلفية الغيوم السوداء.

قالت أمي: «أوووف، ألم يكن هذا واضحاً؟ سوف يهطل مطر غزير».

مالت في اتجاه الشارع ونظرت صوب الشمال: ما من سيارات تاكسي.

أمسكتُ بيدها من جديد وقلت لها: «هيا بنا. سيكون حظنا أفضل في الناحية الأخرى من الشارع».

وقفنا منتظرين الثواني الأخيرة أمام إشارة «لا تعبر» المضاءة، لكنا كنا نافدَيْ الصبر. كانت قصاصات ورقية تتطاير في الهواء وتجري في الشارع. قلت وأنا أنظر في اتجاه الشارع الخامس: «ها هي سيارة تاكسي». ولحظة قلت هذه الكلمات، رأيت رجلاً في ملابس رجال الأعمال يجري صوب حافة الرصيف فاتجهت السيارة إليه وانطفأ المصباح الذي فوقها.

على الناحية الأخرى من الشارع، أسرع الفنانون لتغطية لوحاتهم بالنايلون. وكان بائع القهوة يغلق أبواب عربته. أسرعنا فعبرنا الشارع. ومع وصولنا إلى الناحية الأخرى، سقطت قطرة مطر كبيرة على خدي وتناثرت رذاذاً. بدأت تظهر على الرصيف بقع متناثرة بنية كبيرة.

صاحت أمي: «أوه، اللعنة! ...». وراحت تبحث في حقيبتها عن مظلتها التي كانت أصغر من أن تقي شخصاً واحداً من المطر، فكيف بشخصين اثنين؟

وعندها، انهمر المطر غزيراً، انهالت زخات باردة مائلة تدفعها الريح. وبدأت هبات شديدة تتقاذف ذرى الأشجار وتطوّح بالأغصان. كانت أمي تحاول جاهدة فتح مظلتها البائسة، لكن من غير كبير نجاح. وكان الناس في الشارع والحديقة يرفعون صحفهم وحقائبهم فوق رؤوسهم ويصعدون درجات السلم عند مدخل المتحف المسقوف لأنه المكان الوحيد في الشارع الذي يمكن أن يلوذوا به. كان هنالك شيء احتفالي سعيد في مظهرنا، نحن الاثنين، عندما أسرعنا نصعد تلك الدرجات تحت مظلّة واهية مخططة بالأحمر والأبيض، سريعاً، سريعاً، سريعاً، كأننا نفرّ من شيء مخيف، لا كأننا نجري إليه!

4

أشياء هامة ثلاثة حدثت لأمي بعد وصولها إلى نيويورك بالباص القادم من ولاية كانساس. كانت من غير أصدقاء، ومن غير مال على الإطلاق. حدث الأمر الأول عندما كانت تعمل نادلة في أحد المقاهي

في منطقة فيليدج في نيويورك، فرآها شخص اسمه ديفي جو بيكريغ يعمل وكيلاً لعقود العمل: مراهقة سيئة التغذية في حذاء شبه عسكري وملابس من متاجر رخيصة ولها ضفيرة منحدرة على ظهرها طويلة إلى حد يجعلها قادرة على الجلوس عليها. عندما أتته بقهوته، عرض عليها سبعمئة دولار، ثم جعلها ألفاً حتى تحلّ محل فتاة لم تأت إلى عملها في موقع تصوير لقطات من أجل كاتالوغات أزياء عند الرصيف المقابل. أشار لها إلى الشاحنة المغلقة المتوقفة هناك وإلى المعدات التي كان يجري تجهيزها في حديقة شريدان سكوير. عد الرجل النقود ووضعها على الطاولة. أجابته أمي: «أعطني عشر دقائق»، ثم أتت بما بقي من طلبات الفطور وخلعت مريلتها وعلقتها وخرجت معه.

كانت حريصة دائماً على أن تكلّف نفسها عناء القول للناس «لم أكن إلا موديلاً من أجل التقاط صور للملابس التي يطلبها الناس عبر البريد» ـ وكانت تعني بهذا أنها لم تعمل لدى مجلات الأزياء أو لدى دور تصميم الأزياء، بل كانت صورها تظهر في نشرات دعائية تصدرها شبكات متاجر الألبسة... ملابس يومية مقبولة الثمن من أجل الآنسات الشابات في ولايتي ميزوري ومونتانا. وبحسب ما قالته، كان الأمر ممتعاً بعض الأحيان، وغير ممتع معظم الأحيان. ملابس السباحة في يناير وهي ترتعش من الحمى؛ والملابس الصوفية في حرّ الصيف وهي تحترق ساعات طويلة وسط أوراق الأشجار الخريفية الزائفة بينما تقذفها مروحة الاستوديو بالهواء الحار ويندفع إليها بين اللقطات شخص من فريق التجميل فيمسح العرق عن وجهها. لكنها، خلال تلك السنوات من العمل في التصوير والتظاهر بأنها طالبة في الجامعة -فتظهر لها صورٌ في محيط جامعيٍّ زائف مع شخص أو شخصين ومع كتب تحضنها إلى صدرها- تمكّنت من جمع المال الكافي لكي تذهب إلى الجامعة حقاً: درست تاريخ الفن في جامعة نيويورك. لم تكن قد رأت في حياتها كلها

أيّ لوحة عظيمة إلى أن صارت في الثامنة عشرة وانتقلت إلى نيويورك. وكانت شديدة اللهفة إلى تعويض ذلك الوقت الضائع ـ «روعة خالصة، جنة حقيقية»... هكذا كانت تقول وهي غارقة في كتب الفن، أو هي تنظر من جديد إلى السلايدات القديمة نفسها (لوحات لمونيه وفوييار) إلى أن تزوغ عيناها. (كانت تقول: «هذا جنون! لكني سأكون سعيدة تماماً إذا استطعت الجلوس والنظر إلى هذه اللوحات القديمة نفسها طيلة ما بقي من حياتي. لا يمكنني التفكير في طريقة أفضل من أجل الإصابة بالجنون»).

كان الذهاب إلى الجامعة الأمر الهام الثاني الذي حدث لها في نيويورك ـ ولعله أهم الأشياء التي حدثت لها على الإطلاق. ولولا حدوث الأمر الثالث (لقاؤها أبي وزواجها منه ـ وهو ما لم يكن حظاً طيباً مثل الأمرين الأولين) لحصلت على شهادة الماجستير وبدأت دراسة الدكتوراه. هذا ما أنا شبه واثق منه. كانت تذهب إلى أحد المتاحف كلما تيسر لها بعض الوقت، ولو بضع ساعات. وهذا ما جعلني لا أتفاجأ حين كنا واقفين في مدخل المتحف المسقوف ننظر إلى الجادة الخامسة التي تلوح ضبابية من هناك وتتقافز قطرات مطر بيضاء في الشارع، عندما نفضت مظلّتها وقالت لي: «ربما يكون من الأفضل أن ندخل ونلقي نظرة لبعض الوقت... إلى أن يتوقف المطر».

«مممم، بالتأكيد!»، لكن أريد إفطاراً.

ألقت إلى ساعتها نظرة سريعة: «يمكننا الدخول. لن نفلح في العثور على سيارة تاكسي في هذا المطر».

لقد كانت محقة، لكني كنت جائعاً. *متى نأكل؟* هكذا رحت أفكر واجماً عندما تبعتها وصعدنا السلم. كنت واثقاً من أنها ستكون في غاية الغضب بعد الاجتماع في المدرسة وستأخذني إلى البيت من غير طعام على الإطلاق. وسوف أكون مضطراً إلى الذهاب وأكل ما تيسّر هناك.

إلا أنني كنت أشعر بأن دخول المتحف شيء أشبه بعطلة. فعندما صرنا في الداخل مع صخب السائحين السعيد من حولنا، شعرت بعزلة غريبة عن كل ما قد يخبئه اليوم لي. كانت القاعة الكبرى ضخمة، وقد سيطرت فيها رائحة المعاطف الرطبة. مر بنا جمع مبتل من المواطنين الآسيويين المتقدّمين في السن يسيرون خلف دليل يبدو أشبه بالمضيفين؛ وكانت مجموعة من فتيات الكشافة المتّسخات تتهامسن قرب مكتب استلام المعاطف. وإلى جانب مكتب الاستعلامات، وقف صف من طلاب المدرسة العسكرية ببدلاتهم الرمادية وقد نزعوا قبعاتهم ووضعوا أيديهم خلف ظهورهم.

أما أنا -ابن المدينة المحبوس دائماً بين جدران الشقة- فقد كانت جاذبية المتحف الأهم عندي كامنة في اتساعه الهائل؛ كان قصراً تتتالى حجراته من غير نهاية، وتتزايد عزلة كلما تعمق المرء فيها. بعض غرف النوم المهملة وغرف المعيشة المجرّدة من أثاثها في أعماق قسم «الديكور الأوروبي» كان يبدو لي مفعماً بالسحر كأن أحداً لم يضع قدمه فيه منذ مئات السنين. بعد أن بدأت أستخدم القطار منفرداً، كنت أحب الذهاب إلى المتحف وحدي والتجوّل في أرجائه إلى أن أضل طريقي فأمضّي أعمق فأعمق في متاهة الممرات إلى أن أجد نفسي أحياناً في صالات منسية فيها دروع وبورسلين، صالات لم أرها من قبل (بل كنت، بعض الأحيان، غير قادر في العثور عليها مرة أخرى).

عندما كنت واقفاً خلف أمي في صف الداخلين إلى المتحف، ملت برأسي إلى الخلف ونظرت بعينين ثابتتين إلى قبة السقف المجوّفة المرتفعة فوقنا بمقدار طابقين: لو حدّقت فيها بالقوة الكافية، أكون قادراً بعض الأحيان على جعل نفسي أشعر كما لو أنني أعوم في الأعلى هناك كأنني ريشة... حيلة باقية من أيام طفولتي الأولى، لكنها تضمحل كلما كبرت.

في تلك الأثناء، كانت أمي تبحث عن محفظتها ـ كانت محمرّة الأنف منقطعة الأنفاس بعد اندفاعنا السريع في المطر. كانت تقول لي: «ربما أدخل متجر الهدايا هنا عندما نخرج. أنا واثقة من أن كتاباً فنياً هو آخر ما تريده ماتيلد. لكنها ستجد صعوبة في التذمر من غير أن تبدو غبية».

قلت: «عجباً! هل الهدية من أجل ماتيلد؟».

كانت ماتيلد المديرة الفنية في الشركة التي تعمل فيها أمي. وهي ابنة ثري فرنسي كبير يستورد المنسوجات. وكانت أصغر من أمي وكثيرة الجلبة إلى حد عجيب... بل كان من الممكن أن تنفجر غاضبة إذا لم يعجبها إصلاح السيارة أو إذا لم تُرضِها خدمة تقديم الطعام.

قالت: «نعم». ومن دون أية كلمة أخرى، ناولتني قطعة من العلكة فأخذتها، ثم أعادت العلبة إلى حقيبتها... «أعني هكذا هي ماتيلد دائماً. لا تكلف الهدية المختارة جيداً مالاً كثيراً، ومن الممكن ألّا يتعدى الأمر شراء ثقالة ورق غير غالية الثمن من سوق الأشياء المستعملة. أظن أن هذا سيكون رائعاً لو كان لدى أي منا وقت للذهاب إلى مركز المدينة والبحث في سوق الأشياء المستعملة. في السنة الماضية، عندما كان دور برو...؟ أصابها الذعر وجرت إلى محلات ساكس خلال استراحة الغداء فانتهى بها الأمر إلى إنفاق خمسين دولاراً من مالها الخاص، إضافة إلى ما جمعته من الآخرين! لقد اشترت لها نظارة، أظنها كانت من صنع توم فورد؛ فما كان من ماتيلد إلا أن أظهرت استياءها من الأميركيين ومن الثقافة الاستهلاكية. لكن برو ليست أميركية أصلاً... إنها استرالية».

سألتها: «هل تحدّثت في الأمر مع سيرجيو؟». كان سيرجيو -الذي لا يتواجد في المكتب على الرغم من ظهوره مرات كثيرة على صفحات المجتمع في المجلات مع أشخاص من قبيل دوناتيلا فيرزاتشي- المليونير صاحب الشركة التي تعمل فيها أمي؛ وكان «*الحديث في الأمر* مع سيرجيو شيئاً يشبه السؤال: *ما رأي يسوع المسيح في هذا؟*

«إن فكرة سيرجيو عن الكتب الفنية لا تتجاوز هلموت نيوتن، أو ربما شيئاً من قبيل المطبوعات الفنية التي توضع على طاولة القهوة كذلك الكتاب الذي أصدرته مادونا منذ فترة من الزمن».

كنت موشكاً على سؤالها عن هلموت نيوتن لأنني لا أعرف هذا الاسم، لكن فكرة أفضل جاءتني: «لماذا لا تشترين لها بطاقة متروكارد؟».

اتسعت عينا أمي: «صدقني... يجب أن أفعل هذا».

منذ فترة، كانت هنالك ضجة في العمل عندما علقت سيارة ماتيلد في الزحام مما اضطرها إلى الانتظار طويلاً في استوديو مجوهرات في ويليامزبورغ.

«أعني... من غير أن تعرف مصدرها. ضعي بطاقة متروكارد على مكتبها... بطاقة قديمة ليس فيها رصيد... فقط حتى تري ما تفعله عند ذلك».

قالت أمي وهي تمد بطاقة العضوية في المتحف عبر نافذة شراء التذاكر: «يمكنني إخبارك بما ستفعله ماتيلد. ستطرد مساعدتها، وقد تطرد أيضاً نصف العاملين في قسم الإنتاج».

كانت الشركة التي تعمل فيها أمي متخصّصة في الإكسسوارات النسائية. وكانت تمضي النهار كله، تحت عيني ماتيلد المستشارتين الخبيثتين قليلاً، في الإشراف على لقطات تتألق فيها أقراط كريستالية على خلفية ركام من ثلج العطلات الزائف، وحقائب يد من جلد التمساح متروكة في المقعد الخلفي لسيارة ليموزين مهجورة، حقائب مزينة بتشكيلات من أنوار سماوية. كانت ماهرة في عملها؛ وكانت تفضّل العمل خلف الكاميرا، لا أمامها. أعرف أنها كانت تتحمّس عندما ترى ثمرة عملها على ملصقات في محطات المترو وعلى لوحات إعلانية في تايمز سكوير. لكن ساعات العمل في تلك الوظيفة كانت طويلة، على الرغم مما فيها من لمعان وتألق (وجبات إفطار فيها شامبانيا، وحقائب

تأتيها هدية من محلات بيرج دورث)، إضافة إلى الخواء الذي ساد حياتها قبل ذلك كله... خواء أعرف أنه كان يجعلها حزينة. وأما ما كانت تريده حقاً فهو العودة إلى الدراسة على الرغم من معرفتنا، هي وأنا، أن ذلك صار أمراً صعباً بعد أن هجرنا أبي.

قالت وهي تستدير مبتعدة عن نافذة التذاكر وتناولني الشارة التي يجب أن أضعها على صدري: «لا بأس، ساعدني في الانتباه إلى الوقت، من فضلك! إنه معرض كبير...». أشارت إلى ملصق مكتوب عليه: فن البورتريه والطبيعة الصامتة: أعمال لكبار فناني الشمال في العصر الذهبي... «لسنا قادرين على رؤيته كله خلال هذه الزيارة، لكن هنالك بضعة أشياء...».

خفت صوتها عندما استدارت وسارت فتبعتها على درجات السلم الكبير. كنت ممزقاً بين ضرورة البقاء قريباً منها وذلك الدافع لأن أتأخر عنها بضع خطوات حتى أتظاهر بأنني لست معها.

كانت تقول عندما لحقت بها في أعلى السلم: «لا أحب أن أمضي في المعرض مسرعة هكذا، لكنه واحد من تلك المعارض التي يجد المرء نفسه في حاجة إلى العودة إليه مرتين أو ثلاث مرات. لديهم هنا لوحة درس *التشريح* التي يجب أن نراها، لكن ما أريد رؤيته حقاً لوحة صغيرة نادرة لرسام كان أستاذ فيرنر. أعظم الفنانين الكبار القدامى، لكنك لم تسمع باسمه. إن لوحات فرانز هاوز كبيرة الأهمية أيضاً. أنت تعرف هاوز، أليس كذلك؟ لوحة *السكير السعيد*؟ ولوحة: *مديرو مأوى الفقراء*؟ ».

قلت متردداً: «نعم!». فمن بين اللوحات التي ذكرتها أمي، ما كنت أعرف إلا لوحة درس *التشريح*. كان جزءاً من تلك اللوحة ظاهراً على الجزء الدعائي لذلك المعرض: اللحم البشري الشاحب، وتدرّجات كثيرة للون الأسود، وجرّاحون يبدو عليهم أنهم من مدمني الكحول... بعيونهم وأنوفهم المحمرّة.

قالت أمي: «الغرفة رقم مئة وواحد. هنا. انعطف يساراً».

كان المكان شديد البرودة في الأعلى، خاصة أن شعري لا يزال رطباً بعد ذلك المطر.

أمسكت أمي بكمي وقالت: «لا، لا، من هنا!». كان العثور على ذلك المعرض أمراً معقداً. وقد رحنا نتجوّل في الصالات المزدحمة (ندخل ضمن حشود الناس، ثم نخرج، ثم ننعطف يميناً، ثم ننعطف يساراً، ثم نعود أدراجنا في تلك المتاهة من العلامات والإشارات التي شوّشتنا)، وكنت أرى نسخاً كبيرة قاتمة من *درس التشريح* تظهر عشوائياً عند منعطفات غير متوقعة وعند لافتات مضلّلة... تلك الجثة نفسها بذراعها المسلوخة، ومن تحتها سهم أحمر كتب عليه: *غرفة العمليات، في هذا الاتجاه*.

لم أكن شديد الحماسة لرؤية لوحات كثيرة فيها أشخاص هولنديون واقفون هنا وهناك بملابسهم السود. وعندما عبرنا باباً زجاجياً فانتقلنا من الصالات التي تتردّد فيها الأصداء إلى سكون صنعه السجاد الذي يمتص وقع الخطوات، ظننت أول الأمر أننا دخلنا صالة غير التي نقصدها. كانت الجدران متألقة بغمامة ثقيلة دافئة من الفخامة، وكانت في الصالة تلك النعومة المصقولة لكل ما هو عتيق؛ وعند ذلك، تمايزت الأشياء من حولي فصارت وضوحاً ولوناً وضياءً شمالياً نقياً... بورتريهات، وغرف صامتة... بعضها صغير وبعضها كبير: سيدات مع أزواجهن، وسيدات مع كلاب صغيرة، وجميلات وحيدات في فساتين مطرّزة، وتجار وحيدون متزيّنون بالجواهر والفراء. طاولات ولائم منتهية تناثرت عليها قشور التفاح والجوز وأدوات الطعام الفضية ومناديل القماش المتغضّنة، وثقوب فيها حشرات زاحفة، وأزهار متعدّدة الألوان. كلما تعمّقنا أكثر في تلك الصالة، كلما صارت تلك اللوحات أكثر غرابة وجمالاً. برتقالات مقشّرة قست قشورها قليلاً حيث مسها حد السكين، وظِلٌّ مخضرٌّ لبقعة عفن صغيرة. ونور ساقط على حافة كأس نبيذ نصف فارغة.

«تعجبني هذه اللوحة أيضاً»... همست أمي وهي تأتي إلى جانبي عند لوحة طبيعة صامتة صغيرة الحجم لكنها من تلك اللوحات التي يصعب تجاهلها أو نسيانها: على خلفية داكنة، فراشة بيضاء تطير فوق قطعة فاكهة حمراء. كان في الخلفية لون أسود غني كالشوكولاته ـ دفء غير بسيط موحٍ بمخازن مزدحمة وبتاريخ موحٍ بمرور الزمن.

«كانوا يعرفون حقاً كيف يحقِّقون هذا التأثير، أولئك الرسامون الهولنديون ـ النضج المنزلق صوب الفساد والتفسّخ. قطعة الفاكهة كاملة لا عيب فيها، لكنها لن تدوم، وستمضي. انظر إلى هذه النقطة خاصة... «. قالت أمي هذا وهي تمد يدها من فوق كتفي لتشير بإصبعها... «هذا الممر ـ الفراشة». كان باطن جناح الفراشة دقيقاً ناعماً حتى بدا كما لو أن اللون يمكن أن يتشوّه إن هي لمسته... «ما أجمل أداءه هنا. السكون مع ارتجافة اللحظة».

«كم من الوقت أمضى في رسمها؟».

كانت أمي واقفة على مقربة شديدة من اللوحة فتراجعت خطوة ونظرت إليها ـ كانت غير ملقية انتباهاً إلى الحارس الأمني الذي كان يمضغ علكة. لقد لفتت انتباهه، وكان ينظر إلى ظهرها من غير أن تتحول عيناه عنها.

قالت: «نعم ... لقد اخترع الهولنديون المجهر. كانوا يشتغلون بالجواهر، وكانوا يصقلون العدسات. وكانوا راغبين في الوصول بالتفاصيل إلى أقصى حد ممكن لأن هنالك معنى حتى في أصغر الأشياء. كلما رأيت ذبابات أو حشرات في لوحة الطبيعة الصامتة -بتلة زهرة ذابلة، أو بقعة سوداء على تفاحة- فعليك أن تعرف أن الرسام ينقل إليك رسالة سرية. يقول لك إن الأشياء الحيّة لا تدوم ـ كل شيء مؤقت، كل شيء عابر. الموت في الحياة. ولهذا يطلقون على هذا النوع من اللوحات اسم 'طبيعة ميتة'. قد لا ترى هذا أول الأمر، قد لا تراه في وجود هذا الجمال

والتفتّح كله... قد لا ترى شذرة العفن الصغيرة. وأما إذا أمعنت النظر... فإنك تراها».

انحنيت حتى أقرأ الملاحظة المطبوعة على الجدار بحروف لا تكاد تبين ففهمت منها أن الرسام -أدريين أورت، تاريخ الولادة والوفاة غير مؤكد- ظل شخصاً غير معروف خلال حياته، ولم يكتشف العالم لوحاته حتى خمسينات القرن العشرين. قلت: «انظري يا أمي! هل رأيت هذا؟».

لكنها كانت قد تحرّكت. كانت الصالات باردة مكتومة الصوت لها سقوف أكثر انخفاضاً من غيرها؛ وما كان فيها شيء من صخب وصدى الصالة الكبرى الفخيمَيْن. وعلى الرغم من أن عدد الناس الموجودين في صالة هذا المعرض ما كان قليلاً، فقد كان فيه سكون رزين يأتيك الإحساس به على نحوٍ متعرّج... كان فيه هدوء أكيد كأنه مكان مفرغ من الهواء: زفرات طويلة، وتنهّدات حارّة كما في غرفة فيها طلاب يجرون امتحاناً. سرتُ في أثر أمي وهي تنتقل في مسار متعرّج من لوحة إلى أخرى بسرعة أكبر من سرعة تحرّكها المعتاد في أي معرض فني. كانت تنتقل من لوحات الأزهار إلى لوحات فيها طاولات للعب الورق، إلى لوحات الفاكهة متجاهلة لوحات أخرى كثيرة جداً (إبريق أو طائر حجل ميت). وكنت أراها تندفع إلى لوحات أخرى من غير أي تردد («والآن، إنه هالز. يكون في غاية الابتذال أحياناً، مع هؤلاء السكارى كلهم ومع هاته النساء كلهن... وأما عندما يريد أن يكون متميزاً، فإنه متميز حقاً. لا شيء من تلك الدقة والزخرفة؛ يتابع العمل قبل أن يجف اللون، ضربة فرشاة، ضربة فرشاة، إنه سريع جداً. الوجوه والأيدي ـ مرسومة بدقة حقيقية لأنه يعرف ما يجتذب العين. لكن، انظر إلى الملابس ـ كأنه رسم تقريبي لها، أو رسم أولي! انظر كم حديثة منفتحة هي ضربات فرشاته!»). أمضينا بعض الوقت أمام بورتريه لهالز يصوّر صبياً حاملاً جمجمة ـ («لا تغضب يا سيرجيو، لكن، قل لي من يشبه هذا الصبي في رأيك؟ ألا يشبه

شخصاً ما؟». قالت هذا وهي تشد شعري من الخلف «مَن الذي يجب أن يقصّ شعره؟»)ـ وأيضاً، بورتريهان كبيران لهالز فيهما عدد من الضباط يجتمعون إلى مأدبة. قالت لي إن هاتين اللوحتين شهيرتان كثيراً كثيراً، وكان لهما أثر هائل على رامبراندت. («كان فان غوخ يحب هالز أيضاً. لقد كتب عنه في مكان ما فقال: *إن لدى فرانز هالز ما لا يقل عن تسع وعشرين درجة من اللون الأسود!* أو، لعله قال إنها سبع وعشرون؟»).
سرتُ خلفها بنوع من الإحساس الذاهل بالوقت الضائع، وكنت مسروراً لانشغالها ولأنها تبدو ناسية تماماً تلك الدقائق التي تطير. بدا لي أن نصف الساعة الذي خصَّصناه للمعرض كاد ينتهي؛ لكنني كنت راغباً في إلهائها وتشتيت انتباهها... كنت ألاحق أملاً طفولياً بأن يسبقنا الوقت ونتأخر على موعد الاجتماع في المدرسة.

قالت أمي: «والآن، إلى رامبراندت. يقول الجميع دائماً إن هذه لوحة عن العقل والاستنارة، وإنها فجر حب الاستطلاع العلمي، وكل تلك الأشياء؛ لكنني أرى هيئة التهذيب والرسمية فيها أمراً مفزعاً لأنهم مجتمعون من حول طاولة التشريح كأنها بوفيه في حفلة كوكتيل. إنما...». قالت هذا وهي تشير بإصبعها... «انظر إلى هذين الشخصين الحائرين في الخلف، هناك! إنهما لا ينظران إلى الجثة -إنهما ينظران إلينا! ينظران إليَّ وإليك. ينظران كما لو أنهما يريانا واقفَيْن هنا أمامهما- كأنهما يريان شخصين آتيين من المستقبل... كأنهما فوجئا بنا، وكأنهما يقولان: *ما الذي تفعلانه هنا؟* شيء شديد الواقعية. لكن...». تتبعتْ خطوط الجثة بإصبعها، في الهواء... «الجثة ليست مرسومة بطريقة طبيعية على الإطلاق. ترى هذا عندما تنظر إليها. ترى ألقاً غريباً منبعثاً منها... ألا ترى؟ كأنه تشريح كائن فضائي! انظر كيف ينير الألق المتصاعد منها وجوه الرجال الناظرين إليها؟ كأنها تشعّ من منبع ضوء فيها! لقد رسمها فأضفى عليها هذه الخصّيصة المشعَّة لأنه يريد أن يلفت انتباه أعيننا إليها

ـ يريد أن يجعل هذا المعنى يقفز إلينا قفزاً. وهنا...». تشير بإصبعها إلى اليد المسلوخة... «انظر كيف لفت الانتباه إليها بأن رسمها كبيرة إلى هذا الحد، غير متناسبة أبداً مع بقية الجسد! لكنه جعلها مقلوبة حتى صار الإبهام على الجهة الخاطئة، ألا ترى هذا؟ نعم، هذه لم تكن غلطة ارتكبها. الجلد مسلوخ عن اليد -نرى هذا على الفور، ونرى أنه خاطئ تماماً- لكنه يجعل الأمر خاطئاً أكثر عندما يقلب الإبهام هكذا... ينتبه لا وعينا إلى هذا حتى إذا كنا غير قادرين على وضع الإصبع عليه ـ شيء غير مألوف حقاً، غير صحيح. حيلة شديدة البراعة». كنا واقفين خلف مجموعة من السياح الآسيويين؛ وكانت أمامنا رؤوس كثيرة جعلتني غير قادر تقريباً على رؤية شيء من اللوحة؛ لكني لم أكن شديد الاكتراث للأمر لأنني رأيت تلك الفتاة.

لقد رأتني أيضاً. كان كل منا يسترق نظرات إلى الآخر خلال سيرنا في صالات المعرض. بل إنني لم أكن متأكداً تماماً مما أثار اهتمامي بها لأنها كانت أصغر مني، ولأنها كانت غريبة المظهر بعض الشيء ـ لا تشبه أبداً تلك الفتيات اللواتي كنت مولعاً بهن عادة... جميلات جادات رائعات يلقين في الممر نظرات ازدراء وهن خارجات مع شبان ذوي أجساد ضخمة. كان لهذه الفتاة شعر أحمر لامع؛ وكانت حركاتها شديدة السرعة ووجهها حادّاً شقيّاً غريباً. كان لون عينيها غريباً... بنّيٌّ عسليٌّ ذهبيّ. وعلى الرغم من كونها شديدة النحول، ناتئة العظام على نحو واضح تماماً، فقد كان فيها أيضاً شيءٌ لفت نظري بشدة. كانت تؤرجح من يدها علبة فلوت زرية المظهر ـ فتاة مدينة؟ هل هي في طريقها إلى درس الموسيقى؟ لكن، ربما لا تكون كذلك... هكذا قلت في نفسي عندما كنت محوّماً خلفها وأنا أسير في أثر أمي إلى الصالة التالية. كانت ملابسها بسيطة جداً كأنها بنت من بنات الضواحي. لعلّها سائحة! لكنها كانت تتحرّك بثقة أكبر من معظم الفتيات اللواتي عرفتهن؛ وأيضاً تلك

الالتفاتات الخفية المحسوبة التي كانت تلقيها في اتجاهي كلما مرّت بجانبي... كانت تصيبني بالجنون.

كنت أسير خلف أمي نصف منتبه إلى ما تقوله لي عندما توقفتْ فجأة أمام إحدى اللوحات. كان توقفها مفاجئاً إلى حد جعلني أصطدم بها.

قالت من غير أن تنظر إليّ: «أوه، آسفة!»، ثم تراجعت إلى الخلف خطوة حتى تفسح لي مكاناً. بدا وجهها كأن أحداً قد أوقد فيه مصباحاً.

قالت: «هذه هي اللوحة التي كنت أتحدث عنها؟ أليست مدهشة؟».

ملت برأسي في اتجاه أمي متّخذاً هيئة من يصغي منتبهاً بينما راحت عيناي تفتشان عن الفتاة. كانت برفقة شخص غريب المظهر أبيض الشعر خمّنت من وجهه الحاد أنه واحد من أقاربها، أو لعلّه جدها: معطف مخطّط، وحذاء طويل ضيق مرتفع الساق لامع كالزجاج. كانت عيناه متقاربتين بعض الشيء وأنفه أشبه بمنقار طائر؛ وكان يسير بخطوات فيها شيء من العرج ـ الحقيقة أن جسمه كله كان مائلاً إلى أحد جانبيه، وكان واحد من كتفيه أعلى من الآخر؛ لو كان ذلك أكثر وضوحاً، لجاز للمرء أن يقول إنه أحدب. على الرغم من ذلك كله، كان في ذلك الرجل شيء أنيق. وكان واضحاً من ملازمته جانب الفتاة ملازمة حانية مُحِبة أنه يعبدها... كان شديد الانتباه إلى حركة قدميه، وكان رأسه على الدوام مائلاً في اتجاهها.

كانت أمي تقول: «هذه أول لوحة أحببتها حبّاً حقيقياً. لن تصدق هذا أبداً، لكنها كانت في كتاب عندي اعتدت أن آخذه من المكتبة عندما كنت طفلة. كنت أجلس على الأرض عند السرير وأحدّق في هذه اللوحة ساعات طويلة، وأكون مسحورة بالكامل ـ هذا الكائن الصغير! أعني... أمر لا يصدق كم يستطيع المرء أن يعرف أموراً عن لوحة من خلال قضاء وقت طويل في تأمّل نسخة عنها، بل حتى إنها لم تكن نسخة جيدة. بدأ الأمر بأن أحببت الطائر مثلما يمكن أن تحب حيواناً منزلياً، ثم انتهى بي

المطاف إلى محبة طريقة رسمه...». ضحكت ... «كانت لوحة درس *التشريح* موجودة في الكتاب نفسه، لكنها كانت تخيفني كثيراً. وكنت أغلق الكتاب على الفور إذا ما أخطأت ففتحته على تلك الصفحة».

كانت الفتاة والرجل العجوز قد جاءا ووقفا خلفنا. ملت إلى الأمام ورحت أنظر إلى اللوحة. لوحة صغيرة، بل لعلّها أصغر لوحة في المعرض كله، وأبسطها أيضاً: طائر حسون أصفر على خلفية شاحبة بسيطة، وسلسلة تربط بين ساقه والعود الجاثم عليه.

قالت أمي: «لقد كان تلميذ رامبراندت، وكان أستاذ فيرنر. وهذه اللوحة الصغيرة هي، في الواقع، الحلقة المفقودة بين الاثنين ـ ضوء النهار الصافي النقي؛ ترى هنا من أين أتى فيرنر بطبيعة اللون في لوحاته. من المؤكد أنني لم أكن أعرف شيئاً من هذا، ولم أكن مهتمة به، عندما كنت طفلة... أعني الأهمية التاريخية!... لكنها موجودة بالفعل».

رجعت خطوة إلى الخلف حتى ألقي نظرة أفضل. كان الطائر مخلوقاً صغيراً واقعياً مباشراً ليس فيه شيء يوحي بأية عاطفة خاصة. لكنني رأيت في تجمعه الأنيق على نفسه... في تألقه وتعبيره اليقظ المنتبه... ما جعلني أتذكّر صورة لأمي عندما كانت صغيرة: كانت في تلك الصورة حسوناً أسود الشعر له عينان ثابتتان.

سمعت أمي تقول لي: «لقد كانت مأساة شهيرة في التاريخ الهولندي. دُمّر قسم كبير من المدينة».

«ماذا؟».

«إنها كارثة ديلفت. الكارثة التي قتلت فابريتيوس. ألم تسمع تلك المعلمة هناك تخبر الأطفال عنها؟».

لقد سمعتها! كانت هنالك مجموعة من ثلاث لوحات فيها مناظر مروّعة رسمها فنان اسمه إغبرت فاندربول. كانت مشاهد مختلفة للدمار الرهيب نفسه: أنقاض بيوت محترقة، وطاحونة هوائية ممزقة الأجنحة،

وغربان تدور في سماء يلفّها الدخان. كانت سيدة لها مظهر رسمي تشرح بصوت مرتفع لمجموعة من تلاميذ المدرسة المتوسطة وتقول إن مصنعاً للبارود انفجر في مدينة ديلفت في وقت ما من القرن السابع عشر. قالت لهم أيضاً إن الرسام ظلّ مسكوناً بذلك الدمار الذي حل بمدينته فرسمه مرات كثيرة.

«لقد كان إغبرت جاراً لفابريتيوس ففقد عقله، نوعاً، بعد انفجار البارود. أو... هكذا يبدو الأمر لي؛ إلا أن فابريتيوس قُتل في ذلك الانفجار وحل الدمار بمرسمه. وأودى بلوحاته كلها تقريباً، باستثناء هذه». بدا لي أنها تنتظر مني قول شيء. لكنّي لم أقل شيئاً فتابعت كلامها: «كان من أعظم رسّامي زمانه، في عصر من أعظم عصور الرسم. وكان واسع الشهرة في ذلك الزمان. ومن المحزن أن خمس لوحات فقط، أو ربما ست لوحات، بقيت من أعماله كلها. لقد ضاعت بقية أعماله... ضاع كل ما أنجزه».

كانت الفتاة وجَدّها يتلكآن بهدوء خلفنا ويصغيان إلى ما تقوله أمي، وهذا ما كان محرجاً بعض الشيء. أشحت بنظري بعيداً عنها، ثم لم أستطع المقاومة فنظرت إليها من جديد. كانا واقفَيْن على مقربة شديدة، فلو مددت يدي للمستهما. كانت ممسكة بكم الرجل العجوز تشد ذراعه حتى تهمس له شيئاً في أذنه.

كانت أمي تقول: «على أيّ حال، إن أردت رأيي فهذه أهم لوحة في المعرض كلّه. يوضح فيها فابريتيوس شيئاً اكتشفه بنفسه من غير مساعدة أحد، يوضح شيئاً لم يعرفه رسّام في العالم قبله... ولا حتى رامبراندت».

بصوت منخفض كثيراً... منخفض إلى حد يكاد لا يُسمع... سمعت الفتاة تهمس: «هل كان عليه أن يعيش حياته كلها هكذا؟».

كنت أسأل نفسي السؤال ذاته؛ تلك الساق المقيَّدة، وتلك السلسلة الرهيبة. تمتم لها جدها بإجابة ما، لكن أمي (التي بدت غير منتبه إليهما

على الإطلاق مع أنهما كانا إلى جانبنا تماماً). خطت خطوة إلى الخلف وقالت: «لوحة شديدة الغرابة، شديدة البساطة. شيء رقيق حقاً... يدعوك إلى الوقوف قريباً منه. بعد طيور الحجل الميتة كلها هناك، يأتي هذا الكائن الحي الصغير!».

سمحت لنفسي بلفتة مختلَسة أخرى في اتجاه الفتاة. كانت واقفة على ساق واحدة وقد نتأ ردفها جانباً. عندها-على نحو مفاجئ تماماً- استدارت ونظرت إليَّ نظرة مباشرة، في عينيّ. أصاب قلبي ارتباك شديد فأدرت وجهي.

ماذا كان اسمها؟ ولماذا هي ليست في المدرسة الآن؟ كنت أحاول قراءة الاسم المكتوب على علبة الفلوت، لكني بقيت غير قادر على قراءة ما كُتب هنالك بضربات سريعة من قلم عريض حتى عندما انحنيت مقترباً من العلبة إلى أقصى حد سمحت لي الجرأة به من غير أن تكون حركتي ملحوظة. كان الاسم كأنه مرسوم رسماً لا مكتوب كتابةً، مثل شيء مكتوب برذاذ الطلاء على عربة مترو. كان اسم عائلتها قصيراً، أربعة حروف أو خمسة؛ وبدا لي الحرف الأول من اسمها شيئاً كأنه (ر)... أو لعله (ب)!

كانت أمي تقول: «الناس يموتون. هذا صحيح. لكننا نفقد الأشياء على نحو غير ضروري، على نحو يحطّم القلوب. نفقدها بفعل الإهمال الصرف. الحرائق، والحروب. لقد كانوا يستخدمون البارثينون[1] مخزناً للذخائر. أظن أنّ أي شيء من التاريخ نفلح في الاحتفاظ به يكون أعجوبة.

كان الجد قد ابتعد قليلاً، ابتعد مسافة بضع لوحات؛ لكنها ظلّت تتلكّأ خلفه بعدة خطوات، وظلّت تلقي التفاتات سريعة في اتجاه أمي

---

(1) بارثينون: معبد من القرن الخامس قبل الميلاد في الأكروبول في مدينة أثينا كان مكرساً للربة أثينا. استخدم مستودعاً للذخائر خلال الاحتلال العثماني للمدينة وتهدم سنة 1687 نتيجة انفجار محتوياته بفعل قصف الفينيسيين الذين كانوا يحاصرون المدينة.

وفي اتجاهي. جلد جميل: أبيض حليبي، وذراعان كأنهما منحوتتان من المرمر. من المؤكد أنها بدت رياضية على الرغم من أن بياضها أكثر من أن تكون لاعبة تنس؛ لعلها ترقص الباليه أو تلعب الجمباز، أو حتى لعلّها تمارس رياضة الغطس فتتمرّن في أوقات متأخرة من النهار في برك سباحة مغلقة ظليلة... أصداء وانعكاسات، وأرضيات داكنة اللون. تقفز من الأعلى بصدر مشدود وأصابع قدمين منبسطة حتى تصل قعر البركة، اصطدام صامت، وثوب سباحة أسود لامع، وفقاعات تندفع على امتداد هيكلها الصغير المتوتر.

لماذا أهجس بالناس هكذا؟ هل كان طبيعياً هذا التثبيت على أشخاص غرباء بهذه الطريقة الحيّة النشطة المحمومة؟ لا أظنه أمراً طبيعياً. كان من المستحيل عليَّ تخيّل أن يتشكّل لدى شخص ما عابر في الشارع اهتمام بي على هذا النحو. لكن هذا الأمر كان السبب الأول الذي جعلني أذهب إلى تلك البيوت مع توم. كنت مسحوراً بالغرباء، وكنت أريد معرفة ما يأكلون من طعام وما يستخدمون من أطباق عندما يأكلون، وما يشاهدون من أفلام، وما يستمعون إليه من موسيقى... كنت أريد النظر تحت أسرّتهم وفي أدراجهم السرّية وطاولاتهم الليلية الصغيرة وداخل جيوب معاطفهم. كثيراً ما كنت أرى في الشارع أشخاصاً يثيرون اهتمامي فأفكر فيهم أياماً من غير انقطاع وأتخيّل حياتهم وأختلق قصصاً عنهم في المترو أو في الباص الذي يعبر المدينة كلها. مرت السنين، ولم أتوقف بعد عن التفكير في طفلين داكنَيّ الشعر في زيّ المدرسة الكاثوليكية -أخ وأخته- رأيتهما في محطة غراند سنترال. كانا يحاولان جر أبيهما -حرفياً- حتى يبعدانه عن باب حانة تعِسة... كانا يشدّانه من كمَّيْ سترته. ولم أنس أيضاً البنت الواهنة ذات المظهر الغجري على كرسي ذي عجلات أمام فندق كارلايل تتكلّم ملهوفة باللغة الإيطالية مع كلب طويل الشعر جالس في حضنها بينما كان شخص حاد المظهر على وجهه نظارة شمسية (أبوها؟

حارس شخصي؟) قد وقف خلف كرسيها ويبدو عليه أنه يجري بعض الصفقات على هاتفه. وعلى امتداد سنوات كثيرة، كنت أدير هؤلاء الغرباء في ذهني متسائلاً عمن كانوا وعمَّ كانت مجاري حياتهم؛ وكنت أعرف أنني سأعود إلى البيت فأفكر في هذه الفتاة وفي جدها مثلما أفكر في الآخرين. كان العجوز موسراً؛ يمكن للمرء أن يعرف هذا من ملابسه. لماذا هما وحدهما هنا؟ من أين هما؟ لعلهما جزء من عائلة كبيرة قديمة في نيويورك ـ أناس مهتمون بالموسيقى، أو أكاديميون... واحدة من تلك الأسر الكبيرة في الجانب الغربي من المدينة، أسرة حريصة على إظهار اهتمامها بالفن، واحدة من تلك الأسر التي تراها حول مسرح كولومبيا أو في الحفلات النهارية في مركز لينكولن. أو... لعل هذا الكائن العطوف المتمدّن العجوز لم يكن جدها على الإطلاق. لعله أستاذ الموسيقى، ولعلها معجزة الفلوت التي اكتشفها في بلدة صغيرة ما فأتى بها حتى تعزف في صالة كارنيغي...

قالت أمي على نحو مفاجئ: «ثيو؟ ألم تسمعني؟».

أعادني صوتها إلى نفسي. كنا في القاعة الأخيرة من قاعات المعرض. كان المتجر التابع للمعرض بعد تلك القاعة -بطاقات بريدية، وصندوق محاسبة، وأكداس لامعة من كتب فنية- لسوء الحظ، لم تنس أمي أن تنتبه إلى مرور الزمن!

كانت تقول لي: «يجب أن ننظر إن كان المطر مستمراً. لا يزال لدينا بعض الوقت...». نظرت إلى ساعتها، ثم التفتت إلى شارة المخرج من خلفي «لكني أظن أن من الأفضل أن أنزل إلى الطابق السفلي حتى أحاول العثور على شيء ما من أجل ماتيلد».

لاحظت أن الفتاة كانت تنظر إلى أمي وهي تتكلم -كانت نظرتها المستطلعة تنزلق على شعر أمي الأسود المنسدل في حزمة خلف رأسها وعلى معطفها المطري الساتاني المحزوم عند خصرها- أسعدني أن أراها

لحظة مثلما تراها الفتاة، بعين غريبة. هل رأت تلك الحدبة الصغيرة جداً في أعلى ظهرها، حيث كسرته عندما سقطت عن شجرة في طفولتها؟ أو هل ترى تلك الحلقات السود حول حدقتَيْ عينَيْ أمي الزرقاوين، وكيف تعطيها ملمحاً برِّيّاً بعض الشيء كأنها طائر جارح ثابت النظرة متوحّد في سهل من السهول؟

«هل تعرف...». نظرت أمي من فوق كتفي... «إذا لم يكن لديك مانع، فمن الممكن أن أعود مسرعة لألقي نظرة أخيرة على لوحة *درس التشريح* قبل أن نذهب. لم أرها جيداً، وأخشى ألا تتاح لي فرصة العودة لرؤيتها قبل انتهاء المعرض». بدأت السير، طقطقات حذائها السريعة ـ ثم التفتت إليّ كما لو أنها تسألني: *هل أنت آت معي*؟ كان ذلك غير متوقَّع فجعلني، لجزءٍ من ثانية، عاجزاً عن العثور على ما أقوله لها. استعدت نفسي سريعاً وقلت: «ممم، أراك عند المتجر».

قالت: «لا بأس. اشترِ لي بعض البطاقات من فضلك! سأعود سريعاً».

ابتعدَتْ مسرعة قبل أن تسنح لي فرصة قول كلمة أخرى. كان قلبي يقفز في صدري غير قادر على تصديق هذا الحظ. نظرت إليها تبتعد عني مسرعة في معطفها الأبيض. كانت تلك فرصتي لكي أتكلّم مع الفتاة؛ *لكن، ماذا أقول لها؟ ماذا يمكن أن أقول؟* هكذا رحت أفكر محموماً. دسست يدي في جيبي واستنشقت نفَساً عميقاً، أو نفَسَيْن، حتى أستجمع شتات نفسي، ثم استدرت لأواجهها والإثارة تغلي في جوفي غلياناً.

يا للخيبة... لقد ذهبت! لم تذهب بكل معنى الكلمة لأنني لا أزال أرى رأسها الأحمر يتحرّك متردداً (أو، هكذا بدا لي) عبر الصالة. رأيت جدّها وقد شبك ذراعه بذراعها وراح يهمس لها شيئاً بحماسة شديدة. كان يأخذها لكي ينظرا إلى لوحة ما على الجدار المقابل.

كنت قادراً على قتله في تلك اللحظة. ألقيت نظرة عصبية سريعة في اتجاه الممر الخالي. ثم دسست يديَّ في جيبَيَّ على نحو أكثر عمقاً،

وسرت بخطوات مخاتلة على امتداد الصالة ـ أحسست وجهي ملتهباً. كانت الثواني تمر؛ وسوف تعود أمي في أية لحظة. وعلى الرغم من معرفتي بأنني لن أمتلك الشجاعة حتى أقحم نفسي وأقول لها شيئاً، فإنني قادر، على الأقل، على النظر إليها نظرة أخيرة. منذ فترة غير بعيدة، سهرت مع أمي حتى وقت متأخّر، وكنا نشاهد فيلم «المواطن كيم». سحرتني كثيراً فكرة أن الشخص يمكن أن يلاحظ امرأة غريبة ساحرة فيتذكّرها طيلة ما بقي من حياته. وأنا أيضاً، سأكون في يوم ما مثل ذلك العجوز في الفيلم... سأميل إلى الخلف على مقعدي وفي عينيَّ نظرة إلى البعيد، ثم أقول: «كان ذلك قبل ستين سنة، ولم أرَ بعد ذلك تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر. لكن، هل تعرفون ماذا؟ لم يمر بي شهر خلال ذلك الوقت كله، لم أتذكّرها فيه».

كنت قد اجتزت أكثر من نصف الصالة عندما حدث شيء غريب. جرى أحد حراس المتحف عبر الممر المفضي إلى متجر المعرض. كان حاملاً شيئاً بين ذراعيه.

رأته الفتاة أيضاً. التقت نظرة عينيها الذهبيتين البنيتين عينَيّ: نظرة مجفلة مستفهمة.

وفجأة، رأيت حارساً آخر يجري خارجاً من المتجر. كان رافعاً ذراعيه، وكان يصيح بشيء ما.

ارتفعت الرؤوس كلها. وسمعت أحداً يقول بصوت غريب من خلفي: *أوه!* وفي اللحظة التالية، هزّ الصالة انفجار هائل مزق أسماعي.

تعثر الرجل العجوز -بوجهٍ خالٍ من أي تعبير- وسار عدة خطوات جانبية. كانت ذراعه الممدودة -أصابعها ذات العقد مفرودة- آخر ما أتذكّر رؤيته. وفي اللحظة عينها تقريباً، أتت موجة مندفعة سوداء، فضلات ومهملات تنجرف وتدور من حولي، وزئير ريح حارّة صفعني فألقى بي على الأرض. كان ذلك آخر ما عرفته، إلى حين.

5

لست أدري كم من الوقت مرَّ عليّ فاقداً وعيي. عندما عدت إلى نفسي، بدا لي كأنني منبطح على بطني في حوض الرمل في حديقة لألعاب الأطفال ـ مكان لا أعرفه، حي مهجور. كانت عصبة من أولاد أقزام قساة متحلّقة من حولي. كانوا يركلونني في أضلاعي وعلى رأسي. كانت رقبتي مائلة جانباً وقد صرت عاجزاً عن التقاط أنفاسي. لم يكن ذلك أسوأ ما في الأمر... كان في فمي رمل، وكنت أتنفس رملاً.

كان الأولاد يقولون لي، بصوت مسموع: *انهض أيها الحقير. انظروا إليه، انظروا إليه. إنه لا يعرف شيئاً!*

انقلبت على ظهري ووضعت ذراعي فوق رأسي، ثم -مع ارتعاشة غريبة فوق طبيعية- رأيت أن ما من أحد هناك.

بقيت لحظة غير قادر على الحركة لشدّة ذهولي. كان صوت أجراس الإنذار المكتوم آتياً من البعيد. وعلى الرغم من غرابة الأمر، فقد كنت واقعاً تحت انطباع بأنني راقد في باحة مسوَّرة في مشروع سكنيّ منسيّ ما.

لقد ضربني أحد ضرباً شديداً حقّاً: آلمني جسمي كله، آلمتني أضلاعي. أحسست كما لو أن أحداً قد ضربني على رأسي بقضيب معدنيّ. كنت أحرّك فكي حتى أتأكد من ثباته وأمد يدي إلى جيوبي لأرى إن كانت معي نقود كافية لكي أعود بالقطار، ثم انتبهت فجأة إلى أنني لا أعرف أين أنا. كنت راقداً متيبّساً وقد بدأت أعي أن شيئاً شديد السوء قد حدث. كان الضياء من حولي غير طبيعيٍّ على الإطلاق، وكذلك كان الهواء: هواء حاد لاذع، ضباب كيميائيّ يحرق حنجرتي. كانت العلكة التي في فمي قد امتلأت تراباً، وعندما انقلبت حتى أبصقها، وجدت نفسي أنظر عبر طبقات من الدخان إلى شيء شديد الغرابة جعلني أحدق فيه بضع لحظات.

كنت في كهف متهدّم أبيض. وكانت في الكهف رواسب وصخور متدلية من السقف. كانت أرض الكهف مقلوبة مزدحمة بأكوام من مادة رمادية كأنها حجارة قمرية، وكان عليها زجاج مكسور وحجارة صغيرة وإعصار من قمامة متنوّعة وقطع قرميد وقطع معدنية وأشياء ورقية غطتها كلها طبقة رماد رقيقة تشبه أول حلول الصقيع. عالياً فوق رأسي، كان مصباحان يشعّان عبر الغبار كأنهما مصباحا سيارة آتية في الضباب، كأنهما مصباحا سيارة في وضع غير طبيعي، كعيون مقتلَعة، واحد منحرف إلى الأعلى والثاني منزاح جانباً... كانا يلقيان ظلالاً ملتوية مشوَّشة.

طنين في أذنَيّ، وطنين في جسمي، وإحساس مقلق كثيراً: عظام، ودماغ، وقلب... تنبض كلها مثل صنج تنقره مطرقة. وبصوت خافت، من مكان بعيد، كان زعيق أجهزة الإنذار الميكانيكي يدوي من غير انقطاع، ومن غير معنى. كان من الصعب عليَّ معرفة إن كان هذا الصوت آتياً من داخلي أو من خارجي. كان لديّ إحساس قوي بأنني وحدي في هذا الموات الشتوي. ما كان لأي شيء معنى، في أي اتجاه.

استندت بيدي إلى كومة من الركام، على سطح غير ذي شكل محدّد، ثم وقفت مكشِّراً لشدة الألم في نفسي. رأيت في هيئة المكان الذي كنت فيه شيئاً غير طبيعي، شيئاً خاطئاً حتى أعماقه. فإلى جانبي، كان الغبار والدخان معلقَيْن ساكنَيْن في الهواء، طبقات خلف طبقات. وإلى الناحية الأخرى، كتلة كبيرة من مواد ممزقة متدلية حيث يجب أن يكون السقف.

آلمني فكي، وكان وجهي مجرّحاً وركبتاي مجرّحتين وفمي شديد الجفاف. رحت أطرف بعيني وأنظر إلى الفوضى من حولي فرأيت فردة حذاء تنس، وكومة من شيء مجعَّد مبقّع بألوان قاتمة؛ وعكاز مطعوج من الألمنيوم. كنت أترنّح هناك، مختنقاً، مخبولاً، وما كنت أعرف أين أذهب ولا ماذا أفعل عندما ظننت فجأة أنني سمعت رنين هاتف.

شككت في الأمر لحظة فأصغيت بكل ما أوتيت من قدرة على

الإصغاء فسمعته يرن من جديد: صوت خافت ممطوط، غريب بعض الشيء. رحت أصارع بحركات خرقاء حتى أشق طريقي وسط الركام ـ أزيح حقائب أطفال صغيرة ووجبات طعام، وأسحب يدي سريعاً كلما اصطدمتا بشيء حار أو بكسرات زجاج، وأخاف كلما تهاوى الركام تحت قدمي في بعض الأماكن، وأخاف كلما لمحت بطرف عيني تلك الكتل الطرية الخامدة من غير حركة.

حتى بعد أن صرت مقتنعاً بأنني لم أسمع رنين هاتف، وبأن الرنين الذي في أذني كان يخدعني، فقد واصلت النظر محبوساً ضمن حركات البحث الميكانيكية ذات الشدة والإصرار الروبوتيين، من غير تفكير. وبين الأقلام والمحافظ النسائية والرجالية والنظارات المكسَّرة ومفاتيح الفنادق وعلب التجميل النسائية وعبوات العطور والأدوية الكثيرة (رويت مان، وأندريا، وألبرا زولام 25 ملغ)، اكتشفت سلسلة مفاتيح لامعة وهاتفاً لا يعمل (نصف مشحون، ومن غير إشارة شبكة)، فألقيت بهما في كيس تسوّق بلاستيكي قابل للطي وجدته في إحدى الحقائب النسائية.

كنت ألهث نصف مختنق بغبار الجص، وكان ألم رأسي شديداً إلى درجة جعلتني غير قادر على الرؤية تقريباً. كنت أريد الجلوس، لكني لم أجد مكاناً أجلس فيه.

ثم لمحت زجاجة ما. عادت عيناي سريعاً إلى تلك البقعة وراحتا تبحثان بين الركام إلى أن وجدتاها من جديد. كانت على مسافة نحو خمس عشرة قدماً مني، نصف مدفونة في كومة من الحطام: كانت اللصاقة التي عليها لا تكاد تُرى، لكن شكلها كان أزرق مألوفاً.

وبحركة ثقيلة خدرة كمن يسير عبر الثلج، بدأت أشق طريقي بصعوبة عبر الركام فتتكسر أشياء تحت قدمَيَّ مصدرة فرقعات حادة كصوت تكسر الجليد. لكني لم أفلح في اجتياز مسافة كبيرة قبل أن أرى بطرف

عيني حركة على الأرض، حركة مريبة وسط هذا السكون... تحرك بياض على بياض.

توقفت. وبعد ذلك اقتربت بضع خطوات. رأيت رجلاً مستلقياً على ظهره مبيضّاً من رأسه إلى قدميه لكثرة ما عليه من غبار. كان مموَّهاً تماماً تحت الحطام الذي كساه الرماد فاقتضاني الأمر برهة قبل أن أتبين هيكله: بياض على بياض، يحاول الجلوس كأنه تمثال أسقط عن قاعدته. وعندما اقتربت أكثر، رأيت أنه رجل عجوز شديد النحول يوحي مظهره بأنه محدودب بعض الشيء. وكان شعره -ما بقي لديه من شعر- منتصباً فوق رأسه؛ وأما جانب وجهه فكان مرقّطاً برشاش بشع من حروق صغيرة. رأيت على رأسه، فوق إحدى أذنيه، بقعة لزجة سوداء مخيفة الشكل.

كنت أقترب منه، لكنه رفع ذراعه المبيضة بالغبار -رفعها بسرعة لم أتوقّعها- وأمسك بيدي. أجفلت وتراجعت، لكنه أمسك يدي بقوة أكبر وراح يسعل سعالاً دبقاً مريضاً.

أين؟ هذا ما بدا لي أنه يقوله. أين؟ كان يحاول النظر إليَّ، لكن رأسه كان متدلياً بثقل على رقبته، وكانت ذقنه تمس صدره، فكان مضطراً إلى النظر إليّ من تحت حاجبيه مثلما ينظر طائر كاسر. لكنّ تلك العينين، في ذلك الوجه الخرِب، كانتا فطنتين، وكانتا يائستين.

انحنيت لأساعده. قلت: «أوه، يا إلهي! انتظر، انتظر»، ثم توقّفت غير عارف بما يتعيّن علي فعله. كان نصفه الأسفل على الأرض كأنه كومة من ملابس متّسخة، لا أكثر.

أسند نفسه بذراعيه بحركة بدت لي باسلة حقاً. كانت شفتاه تتحركان. وكان يواصل محاولته رفع نفسه. فاحت منه رائحة شعر محترق، رائحة صوف محترق. لكن نصفه السفلي بدا كأنه لا علاقة له بالنصف العلوي. سعل الرجل، ثم تهاوى في الركام من جديد.

نظرت من حولي محاولاً استجماع شتات نفسي وقد دوّختني الضربة

التي أصابتني على رأسي وما عاد لدي إحساس بالوقت وما عدت أعرف إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً. حيرتني ضخامة المكان وعزلته ـ سقفه المرتفع الذي يندر أن يُرى المرء مثله وقد تعلّقت تحته طبقات من الدخان وتدلت منه أشياء كثيرة فصار المكان الذي يجب أن يكون ذلك السقف فيه (أو السماء!) كأنه خيمة، على الرغم من أنه لم تكن لدي أية فكرة عن مكان وجودي، ولا عن سبب وجودي في ذلك المكان، فقد ظل في عقلي ما يشبه الذكرى بفعل ذلك الحطام وبفعل تلك الشحنة السينمائية في مواجهة ضوء مصباحَي الطوارئ. رأيت على الإنترنت مقطعاً مصوَّراً لفندق ضربه انفجار في الصحراء فبدت غرفه مثل خلايا النحل؛ ولحظة انهياره، بدا لي كأنه تجمَّد في موجة من ضياء.

ثم تذكّرت زجاجة الماء. خطوت عائداً ورحت أنظر من حولي إلى أن رأيت الزجاجة الزرقاء المغبرة فارتعش قلبي.

قلت وأنا أبتعد عن الرجل: «انظر... فقط سوف...». كان الرجل العجوز يحدّجني بنظرة فيها أمل وفيها يأس كنظرة كلب يكاد يموت جوعاً لكنه أضعف من أن يستطيع السير.

«لا... انتظر. إنني عائد إليك».

سرت عبر الركام مترنّحاً كأنني ثمل... سرت سيراً متمايلاً ورحت أحرث دربي فتغوص ساقي حتى الركبة في تلك الأشياء وتصطدم بقطع القرميد والإسمنت، وبأحذية وحقائب يد وبالكثير الكثير من أشياء محترقة متفحمة لم أرد النظر إليها عن كثب.

كان في الزجاجة ثلاثة أرباعها. لمستها فوجدتها حارة. لكن ظمأ حلقي غلبني فابتلعت أكثر من نصف ذلك الماء بجرعة واحدة –ماء بطعم البلاستيك دافئ كأنه خارج من آلة غسل الأطباق– ثم أدركت ما كنت أفعله فأرغمت نفسي على إغلاقها من جديد ووضعتها في الكيس البلاستيكي حتى أعود بها إليه.

ركعت إلى جانبه. خدشت الحجارة الصغيرة ركبتي. كان الرجل يرتعش، وكان تنفسه صريراً غير مستقر. لم تلاق عيناه عيني بل شردتا من فوقي... كانت نظرته متعلّقة بشيء لم أره.

كنت أحاول فتح زجاجة الماء عندما ارتفعت يده إلى وجهي. وبحرص، أزاح شعري عن عيني بأصابعه العظمية العجوز المسطحة ونزع عن حاجبي نثرة زجاج، ثم ربّت على رأسي.

«ها أنت، ها أنت». كان صوته خافتاً واهناً فيه صرير كثير وفيه حنوٌ كثير وفيه صفير رئوي مخيف. نظر كل منا إلى الآخر لحظة طويلة غريبة لم أنسها بعد ذلك أبداً. كانت نظرة حادة مركّزة كنظرة حيوانين يلتقيان عند الغسق... نظرة بدا لي خلالها أن شرارة صافية جميلة انطلقت من عينيه فجعلتني أرى حقيقة ذلك الشخص ـ وأظن أنه رآني أيضاً. مرت لحظة كنا فيها متصلين متناغمين كأننا محركان في دارة كهربائية واحدة.

ثم تراخى من جديد... تراخى حتى ظننته مات. «هاك...». قلت هذه الكلمة بطريقة غريبة وأنا أدسّ يدي تحت كتفه... «هذا جيد». رفعت رأسه قدر ما استطعت، ثم ساعدته في الشرب من الزجاجة. لم يستطع أن يأخذ منها إلا قليلاً، ثم سال أكثر ذلك القليل على ذقنه.

تهاوى من جديد. لقد بذل جهداً كبيراً.

«بيبا...». قالها الرجل مشدّداً على الكلمة.

نظرت إلى وجهه المحروق المحمرّ وقد حرّك في نفسي شيء مألوف في عينيه الواهنتين الصافيتين. لقد رأيته من قبل. ورأيت الفتاة أيضاً، رأيتها لمحة خاطفة، رأيتها بوضوح كوضوح ورقة خريفية: حاجبان أحمران بلون الصدأ، وعينان بنيتان عسليتان. كان وجهها منعكساً في وجهه. أين هي؟

كان يحاول قول شيء ما. تحركت شفتاه المتشقّقتان. كان يريد أن يعرف مكان وجود بيبا.

يئزّ ويلهث حتى يتنفّس. أربكني فقلت له: «اهدأ، وحاول أن تستلقي».

«يجب أن تأخذ القطار لأنه أسرع بكثير. إلا إذا أتوا بها في سيارة».

قلت وأنا أنحني مقترباً منه: «لا تقلق...!». لم أكن قلقاً. عما قريب، سوف يأتي أحد ويأخذنا من هنا. كنت واثقاً من هذا... «سأنتظر إلى أن يأتوا».

«أنت لطيف جدّاً...». شدّت يده على يدي ـ يد باردة جافة كالغبار... «لم أرك منذ أن كنت طفلاً صغيراً. وجدتكم قد كبرتم جميعاً عندما تحدّثنا آخر مرة».

قلت له بعد صمت قصير حائر: «لكني ثيو!».

«بالطبع، أنت ثيو...» كانت نظرة عينيه ثابتة لطيفة كإطباقة يده على ذراعي... «وقد كان خياركما ممتازاً. أنا واثق من هذا. مقطوعة موزارت أجمل بكثير من مقطوعة غلوك، ألا ترى هذا؟».

لم أعرف ما يمكنني قوله له.

«سيكون الأمر أكثر سهولة عندما تكونان معاً. إنهم يقسون عليكم كثيراً، أنتم الأطفال، في تجارب الأداء...» راح يسعل. بلل الدم شفتيه، دم كثيف أحمر... «لا يمنحونكم فرصة ثانية».

«اسمع...» بدا لي أمراً خاطئاً أن أتركه يظنني شخصاً آخر.

«أوه، لكنكما تعزفان تلك المقطوعة عزفاً جميلاً جدّاً، أنتما الاثنان. مقام جي ماجور. لا أزال أسمع عزفكما في رأسي. برقّة، برقّة، لمسة، واذهب...».

راح يهمهم ببضع نغمات لا شكل لها. أغنية. لقد كانت أغنية.

«... لا بد أنني أخبرتك عن دروس البيانو عند السيدة الأرمنية العجوز، ألم أخبرك بهذا؟ كانت هنالك سحلية خضراء تعيش في شجرة نخيل؛ سحلية خضراء كقطعة من حلوى الجيلاتين. كنت أحب النظر إليها وهي تلمع عند إطار النافذة... أضواء سحرية في الحديقة... من

بلاد قدسية[1]... كنت آخذها في نزهة مدة عشرين دقيقة، لكنها تبدو أميالاً...».

بدا لي أنه غاب دقيقة؛ شعرت بانتباهه يبتعد عني ويغيب عن نظري كورقة شجر تسقط في غدير. ثم رجع إليه انتباهه، وعاد إلي من جديد.

«وأنت! كم صار عمرك الآن؟».

«ثلاثة عشر عاماً».

«وهل أنت في المدرسة الفرنسية؟».

«لا. مدرستي في الجهة الغربية من المدينة».

«لا فرق، كما أظن. هذه الصفوف الفرنسية كلها! مفردات كثيرة جدّاً بالنسبة إلى الطفل. *الاسم الأول واسم العائلة*، النوع والأسرة. ليس هذا إلا نوعاً من جمع الحشرات».

«عفواً؟».

«كانوا يتكلّمون الفرنسية دائماً في مقهى جروبي[2]. هل تتذكّر محل جروبي؟ هل تتذكر المظلة المخططة والآيس كريم بالفستق الحلبي؟».

مظّلة مخطّطة! كان التفكير من خلال الصداع الذي يشق رأسي أمراً صعباً. اتجه نظري إلى الجرح الطويل في رأسه وقد صار داكناً وتخثّر عليه الدم... كان يشبه ضربة فأس. وشيئاً بعد شيء، بدأت أصير مدركاً تلك الأشكال المخيفة التي تشبه الأجساد؛ كانت ملقاة من حولنا في الركام، سفن داكنة غير مرئية بوضوح تضغط علينا صامتة، وظلام في كلّ مكان، وتلك الأجساد التي تشبه دمى قماش... لكنها كانت ظلمة تسمح للمرء بأن ينسحب فوقها، ظلمة فيها شيء نائم، ويقظة مزبدة كموجة تكسّرت ثم اختفت في محيط أسود بارد.

أحسست فجأة بأن هنالك شيئاً خاطئاً جدّاً، كان الرجل مستيقظاً،

---

(1) بالفرنسية في الأصل (du pays saint).

(2) المقصود هنا كافيتيريا جروبي في القاهرة.

وكان يهزّني. يداه تصطفقان. كان يريد شيئاً. راح يتنفّس تنفّساً صافراً وهو يحاول رفع نفسه.

هززت نفسي لأستعيد انتباهي وقلت له: «ما الأمر؟».

كان يلهث مستثاراً، ويشدني من ذراعي. انتصبت جالساً، وكنت خائفاً إذ توقّعت رؤية خطر جديد آت إلينا: أسلاك كهربائية سائبة، أو حريق، أو سقف موشك على الانهيار.

كان ممسكاً بيدي، يشد عليها شدّاً قوياً. أفلح في القول: «ليس هناك...».

«ماذا؟».

«لا تتركها. لا...». كان ينظر إلى ما خلفي محاولاً الإشارة إلى شيء ما... «خذها معك. خذها من هنا».

«استلقِ... أرجوك».

«لا! لا يجوز أن يروها». كان محموماً. أمسك الآن بذراعي محاولاً شد نفسه إلى أعلى... «لقد سرقوا السجّادات؛ سوف يأخذونها إلى مستودع الجمارك...».

رأيت أنه كان يشير إلى لوح مغبر مستطيل الشكل يكاد يكون غير مرئي وسط الأنقاض والعوارض الخشبية المكسَّرة. كان جسماً أصغر من اللابتوب الذي عندي في البيت.

«ذاك؟» سألته وأنا أمعن النظر في ذلك الشيء. كانت عليه نقاط شمع متناثرة، وظهرت عليه أيضاً لصاقات كثيرة غير منتظمة... «أهذا ما تريده؟».

«أرجوك!» أغمض عينيه بشدّة. كان غاضباً، وكان سعاله الشديد يجعله شبه عاجز عن الكلام.

مددت يدي وأمسكت بذلك اللوح من حافته. بدا لي ثقيلاً على نحو مفاجئ، بدا لي ثقيلاً بالقياس إلى شيء صغير إلى هذا الحد. تدلّت من زاويته شظية خشب صغيرة من إطار مكسور.

مسحت السطح المغبر بكمّي. طائر صغير أصفر يظهر باهتاً تحت غلالة الغبار البيضاء. *كانت لوحة* درس *التشريح في ذلك الكتاب نفسه في واقع الأمر، لكنها كانت تخيفني كثيراً.*

«نعم...» هكذا أجبتها ناعساً. استدرت إليه حاملاً اللوحة حتى أجعلها تراها، ثم أدركت أنها لم تكن هناك.

أو أنها... كانت هناك ولم تكن هناك. كان جزء منها موجوداً. لكنه غير مرئي. الجزء غير المرئي هو الجزء الهام. كان هذا شيئاً لم أفهمه من قبل. وعندما حاولت أن أقول هذا بصوت مرتفع، خرجت كلماتي مشوشة وأدركت، مع صفعة باردة، أنني كنت مخطئاً. لا بد من أن تكون كلها هنا... لا بد من أن يكون الجزءان معاً. لا يستطيع المرء الحصول على جزء من غير الآخر.

مسحت جبهتي بذراعي وحاولت تنظيف عينيَّ من التراب؛ وحاولت بجهد كبير، كأنني أرفع وزناً أكبر بكثير مما أستطيع حمله، حاولت توجيه عقلي إلى حيث كنت أعرف أنه يجب أن يكون. أين هي أمي؟ قبل قليل، مرّت لحظة كنا فيها ثلاثة أشخاص هنا؛ وكانت أمي واحداً من الثلاثة ـ كنت واثقاً تماماً. أما الآن فليس هنا غير اثنين فقط.

ومن خلفي، كان العجوز قد بدأ يسعل ويرتعش من جديد غير قادر على ضبط نفسه، وكان يحاول الكلام. استدرت إليه وحاولت أن أناوله اللوحة. قلت له: «خذ...» وقلت لأمي -في المكان الذي بدا لي أنها كانت فيه-: «أعود بعد لحظة».

لكنّ اللوحة لم تكن ما أراده. دفعها صوبي عابساً مغمغماً بشيء ما. كان وجهه الأيمن غارقاً بدم دبق. وكانت أذنه غير ظاهرة تقريباً.

أجبته -وعقلي لا يزال مع أمي-: أين هي؟... «ماذا؟ عفواً؟».

«خذها!».

«انظر، سأعود إليك. عليّ أن...». لم أستطع قول ذلك، لم أستطع

إكمال جملتي... لكن أمي كانت تريد مني أن أعود إلى البيت، أن أعود فوراً؛ كان من المفترض أن نلتقي هناك، وكان ذلك الشيء الوحيد الذي حرصتْ على إيضاحه لي.

دفع باللوحة في اتجاهي: «خذها معك! اذهب!». كان يحاول الانتصاب جالساً. وكانت عيناه لامعتين بريتين. أخافتني حماسته... «لقد أخذوا المصابيح كلها، وحطّموا نصف البيوت التي في الشارع...». جرت على ذقنه قطرة دم.

أجبته ويداي حائرتين لأنني كنت خائفاً من لمسه: «أرجوك، أرجوك، استلقِ...».

هز رأسه وحاول أن يقول شيئاً، لكن ذلك الجهد جعله ينطوي على نفسه وينفجر صوت سعاله البائس الرطب. وعندما مسح فمه، رأيت على ظهر يده خطاً من دم ساطع الوضوح.

«هنالك أحد قادم إلينا». لم أكن واثقاً من أنني أصدّق ما قلته، ولم أهتدِ إلى شيء آخر.

نظر إلى وجهي نظرة مباشرة مفتشاً فيه عن بارقة من فهم؛ وعندما لم يجدها بدأ يحاول الجلوس من جديد.

قال بصوت متحشرج: «حريق. الفيلا في المعادي. *ضاع كل شيء!*»[1].

انفجر سعاله من جديد. خرجت من منخرَيه فقاعات من زبد محمرّ. وفي وسط كل ما كنت فيه من اللامعقول، من حجارة وكتل محطمة، كان لدي إحساس حلميّ بأنني خذلته كما لو أنني فشلت في مهمة خيالية شديدة الأهمية، فشلتُ نتيجة جهلي وخراقتي. وعلى الرغم من عدم وجود أي حريق أو أية نار مرئية في أي مكان في هذا الركام من الحجارة، فقد زحفت ووضعت اللوحة في كيس التسوق البلاستيكي حتى أبعدها عن نظره... كانت تزعجه كثيراً.

---

(1) بالفرنسية في الأصل: (ضاع كل شيء On a tout perdu). المعادي هو حي المعادي في القاهرة.

قلت له: «لا تقلق، فسوف...» كان قد هدأ. وضع يده على معصمي وكانت عيناه لامعتين مستقرتين. عصفت بي ريح اللامعقول الباردة. لقد فعلت ما كان يجب أن أفعله. وسوف يسير كل شيء على ما يرام.

وبينما كنت مستمتعاً بهذه الفكرة المريحة، ضغط الرجل على يدي مطمئناً كما لو أنني قلت ذلك بصوت مرتفع. قال لي إننا سنخرج من هذا المكان.

«أعرف هذا».

«غَلِّفِ اللوحة بورق الجرائد وضَعْها في أسفل حقيبتك يا عزيزي. ضعها هناك مع بقية التحف».

كنت مرتاحاً لأنه هدأ أخيراً، وكنت مضنى لشدة صداعي. خبتْ ذكرى أمي وما بقي منها غير لمعة صغيرة مثل يراعة ليلية. استلقيت إلى جانبه وأغمضت عينيَّ فأتاني إحساس غريب بالراحة والأمان. كان غائبَ الذهن، حالماً. وكان يغمغم بشيء ما بين أنفاسه: أسماء أجنبية، ومبالغ، وأرقام، وبضع كلمات فرنسية... لكن معظم كلماته كانت بالإنكليزية. رجل سيأتي حتى يلقي نظرة على الأثاث. عبدو واقع في مشكلة لأنه رمى حجارة. لكن ذلك كلّه أوحى لي بشيء من المعنى... على نحو ما... ورأيت حديقة فيها أشجار نخيل وبيانو وسحلية خضراء على جذع شجرة. رأيت ذلك كله كأنني أقلّب صفحات في ألبوم صور.

هل ستكون بخير إذا عدت وحدك يا عزيزي؟ تذكرت أنه سألني هذا في لحظة ما.

«بالطبع...». كنت مستلقياً على الأرض إلى جانبه، وكان رأسي عند مستوى صدره المعتلّ العجوز، فكنت قادراً على سماع كلّ توقّف وكل أزيز في أنفاسه... «إنني أذهب وحدي بالقطار كل يوم».

«وأين قلت لي إنك تعيش الآن». وضع يده على رأسي برقّة شديدة، كما تضع يدك على رأس كلب تحبّه.

«في الشارع رقم سبعة وخمسين».

«أوه، نعم! هل هو قريب من مطعم *العجل الذهبي*؟ »[1].

«على بعد بضع كتل سكنية منه». كانت أمي تحب الذهاب إلى مطعم العجل الذهبي، في الماضي، عندما كان لدينا مال. وقد أكلت الإسكارغو[2] هناك أول مرة؛ وهناك تذوّقت من كأسها أول رشفة من نبيذ *مارك دور جوني*.

«هل تقول إنك تعيش في اتجاه الحديقة؟».

«لا، بل أقرب إلى النهر».

«هذا قريب يا عزيزي. حلوى الميرنغ والكافيار. كم أحببت هذه المدينة عندما رأيتها أول مرة! لكنها ليست كما كانت، أليس هذا صحيحاً؟ أشتاق إليها كثيراً، ألا تشتاق إليها أنت؟ الشرفة، والـ...».

«والحديقة». استدرت ونظرت إليه. العطور وأنغام الموسيقى. في غمرة تشوشي، صار يبدو لي أنه صديق قريب أو فرد من أفراد الأسرة نسيت أمره، قريب من أقارب أمي ضاع منذ زمن بعيد...

«أوه، أمك! تلك العزيزة! لن أنسى أبداً عندما أتت لكي تعزف أول مرة. كانت أجمل فتاة صغيرة رأيتها في حياتي».

كيف عرف أنني كنت أفكر في أمي؟ بدأت أسأله عن ذلك، لكنه كان نائماً. كانت عيناه مغمضتين، لكن أنفاسه متلاحقة سريعة خشنة كأنه يجري هارباً من شيء ما.

وأنا أيضاً كنت أخبو -أذناي تطنان، وهدير فارغ، وطعم معدنيّ في فمي ذكرني بطبيب الأسنان- ولربما كنت سأنجرف إلى حالة فقدان الوعي لولا أنه لم يهزّني في لحظة ما فاستيقظت وقد ألمَّت بي موجة

---

(1) بالفرنسية بالأصل: (Le Veau d'Or).

(2) الحلزون عندما يكون معداً للأكل.

ذعر. كان يغمغم ويخزني بإصبعه. رأيت أنه قد خلع خاتمه -خاتم ذهب ثقيل عليه حجر كريم مصقول-. كان يحاول إعطائي إياه.

قلت مبتعداً عنه: «ماذا؟ لا أريد هذا الخاتم. لماذا تفعل هذا؟».

لكنه دسّه في راحة يدي. كانت أنفاسه مزبدة بشعة. قال لي بصوت من يغرق من داخله إلى الخارج: «هوبارت وبلاكويل. اقرع الجرس الأخضر».

كررت من خلفه غير واثق من أنني قد سمعته جيداً: «الجرس الأخضر».

راح يهز رأسه إلى الأمام والخلف كأنه ثمل تماماً، وراحت شفتاه ترتجفان. كانت عيناه غائمتين. سرَتْ في جسدي رعدة عندما انزلقت نظرتهما مارة بي من غير أن تراني.

قال بصوت غليظ: «قل لهوبي أن يخرج من المتجر».

نظرت غير مصدق إلى الدم الذي بدأ يجري خارجاً من زاوية فمه. جذب ربطة عنقه فأرخاها. قلت له وأنا أمد يدي حتى أساعده: «انتظر»، لكنه أزاح يدي.

حشرج قائلاً: «عليه أن يغلق السجل ويخرج! سوف يرسل أبوه بعض الأشخاص لكي يوسعوه ضرباً...».

انقلبت عيناه، وارتعش جفناه. ثم غرق داخل نفسه وهمد وتهاوى فبدا كأن الهواء كله قد خرج منه. ثلاثون ثانية، أربعون ثانية، صار أشبه بكومة ملابس عتيقة. لكن، عندها -أجفلت بقوة- انتفخ صدره بصوت كصوت المنفاخ، ثم سعل فخرجت من فمه كتلة دم تناثرت عليّ. رفع نفسه على مرفقيه، بقدر ما استطاع، وظل نصف دقيقة أو أكثر يلهث مثلما يلهث كلب، وراح صدره يخفق خفقاً عنيفاً، صاعداً هابطاً، صاعداً هابطاً، وتعلّقت عيناه بشيء لم أكن قادراً على رؤيته. ظل طيلة ذلك الوقت ممسكاً يدي كما لو أنه سيكون بخير إذا استطاع الضغط عليها بقوة كافية.

سألته محموماً، موشكاً على البكاء: «هل أنت بخير؟ هل أنت قادر على سماعي؟».

راح يصارع ويتلوّى -سمكة أخرجت من الماء- فرفعت رأسه، أو حاولت رفعه من غير أن أعرف كيف أفعل ذلك، لأني خفت أن أؤلمه؛ وظلّ طيلة الوقت قابضاً على يدي كأنه متعلّق من حافة بناء ويوشك على السقوط. كان كل نفس من أنفاسه تنهّداً منعزلاً مقرقعاً... حجر ثقيل يرفعه بجهد خارق ثم يسقطه إلى الأرض من جديد. وفي لحظة، نظر إليّ مباشرة، والدم ينبع من فمه، وبدا كأنه يقول شيئاً، لكن الكلمات سالت على ذقنه.

ثم -ويا لارتياحي الشديد- صار الرجل أكثر سكوناً، أكثر هدوءاً، وارتخت قبضته على يدي، ذابت، إحساس بالغرق والتدحرج بعيداً. كأنه -تقريباً يعوم على ظهره مبتعداً عني، يعوم على الماء-. هل هذا أفضل؟ سألت نفسي ثم... بحذر، جعلت بعض الماء يقطر على فمه. تحرّكت شفتاه، رأيتهما تتحرّكان، وعندها جثوت على ركبتيَّ مثل خادم صبي في قصة من القصص ومسحت بعض الدم عن وجهه بمنديل هنديٍّ مربع سحبته من جيبه. وبينما كان ينسحب بعيداً، ينسحب في السكون -بقسوة، على نحو متدرّج متّسع المدى- ارتددتُ إلى الخلف ونظرت في وجهه المهشّم.

سألته: «هل تسمعني؟».

ارتجف جفن عينه نصف المغلق، وبان فيه عِرقٌ أزرق متشنّج.

«اضغط على يدي إن كنت تسمعني».

لكن يده صارت هامدة في يدي. بقيت جالساً هناك أنظر إليه غير عارف ما أفعله. لقد حان وقت الذهاب، بل حان وقت الذهاب منذ حين. كانت أمّي واضحة تماماً في هذا. لكني لم أستطع رؤية درب يخرج من ذلك الحيّز الذي كنت فيه، بل إنه كان -على نحو ما- صعباً علي تخيّل

أن أكون في أي مكان آخر في العالم. كان صعباً علي تخيّل أن هناك عالماً آخر خارج هذا العالم. كنت كأنني لم تكن لي حياة أخرى من قبل، على الإطلاق.

سألته مرة أخيرة: «هل يمكنك سماعي؟». وانحنيت مقترباً منه، وضعت أذني على فمه المدمى. لا شيء!

6

لم أكن راغباً في إزعاجه -إن كان يستريح فحسب- فوقفت محاولاً أن أظل هادئاً إلى أقصى حد ممكن. كان جسدي كلّه يؤلمني. وقفت برهة أنظر إليه وأمسح يدي بسترتي المدرسية. كان دمه عليّ، وكانت يداي غارقتين في دمه. ثم نظرت إلى الركام القمري من حولي محاولاً العثور على أفضل طريق للخروج.

عندما شققت طريقي بصعوبة إلى مركز ذلك الحيّز، أو إلى ما بدا لي مركز ذلك الحيّز، رأيت باباً كان مطموراً خلف حطام متدلٍّ، فاستدرت وبدأت السير في الاتجاه الآخر. وهناك، كان إطار باب قد تهاوى ملقياً كومة من حجارة قرميدية ارتفاعها يقارب طولي ومن خلفها فراغ ضبابي في الأعلى، فراغ كافٍ لمرور سيارة فيه. بدأت أتسلّق الحجارة بعناء متجاوزاً كتل الإسمنت أو ملتفاً حولها، لكني لم أسر شوطاً كبيراً قبل أن أدرك أن عليَّ أن أذهب من الجهة الأخرى. كانت ألسنة لهب واهنة تلعق الجدران البعيدة لما كان متجر المعرض، لهب يبرق ويبصق في تلك الظلمة. وكان بعض ذلك اللهب أخفض كثيراً من حيث يجب أن تكون أرضية الصالة.

لم يعجبني مظهر الباب الآخر (حجارة من مادة رغوية عليها بقع حمراء، ومقدمة حذاء رجل بارزة من كومة من الأنقاض، لكن القسم الأكبر من المواد التي تسد ذلك الباب لم يكن شديد الصلابة. عدت أدراجي إليه، وسرت منحنياً تحت أسلاك تطلق شرارات في السقف،

وضعت الكيس البلاستيكي على كتفي واستنشقت نفساً عميقاً وبدأت الخوض في ذلك الركام من غير تردّد).

وعلى الفور، خنقني الغبار وخنقتني رائحة كيميائية حادة. رحت أسعل، وأتحسس طريقي في الظلام راجياً ألا تكون أمامي أسلاك كهربائية متدلية. بدأ مختلف أنواع المواد المحطمة يصطدم بي وينصبُّ في عينيَّ: حجارة صغيرة، وفتات جصّي، وشظايا وقطع من مواد لا يعلم طبيعتها إلا الرب.

كان بعض مواد البناء خفيف الوزن، وبعضها ليس كذلك. وكلما تعمّقت في الركام، كلما ازدادت الصعوبة وصار موضع خطواتي أكثر حرارة. كثيراً ما كان الدرب يضيق، أو ينغلق تماماً على نحو غير متوقّع، وأسمع في أذني صوت حشد هادر لا أعرف من أين يأتي. كان عليَّ أن أحشر نفسي حشراً من حول الأشياء؛ أمشي أحياناً، وأزحف أحياناً... أجساد في الحطام أشعر بها ولا أراها، وضغط طريّ مقلق يتهاوى تحت وزني؛ إلا أن الرائحة كانت أسوأ ما في الأمر: قماش محترق، وشعر محترق، ولحم بشري، ورائحة دم طري، نحاس وقصدير وملح.

تجرحت يداي، وتجرحت ركبتاي. انحنيت فعبرت من تحت أشياء، ودرت ملتفاً من حول أشياء، وسرت متحسساً طريقي ويصطدم ردفيَّ طيلة الطريق بشيء كأنه عارضة طويلة، إلى أن وجدت نفسي أمام سد من كتلة صلبة بدت لي جداراً. وبصعوبة استدرت -كانت تلك البقعة ضيقة- مددت يدي أبحث في الكيس عن مصباح صغير.

كنت أريد المصباح الصغير المعلّق بسلسلة المفتاح في أسفل الكيس تحت اللوحة -لكن أصابعي أمسكت بالهاتف. شغلته، لكنه سقط من يدي على الفور لأنني لمحت على وهج شاشته يد رجلٍ بارزة من بين كتلتين إسمنتيتين. وحتى في غمرة ذعري، أتذكّر أنني شعرت بالامتنان لأنها كانت يداً فحسب على الرغم من مظهر تلك اليد القاتم المسلوخ

المنتفخ... منظر لم أستطع نسيانه أبداً. لا أزال أجفل مذعوراً عندما يحدث، من حين لآخر، أن يمد متسوّل في الشارع يده في اتجاهي، يمد يداً كتلك اليد... منتفخة متسخة بسخام أسود من حول أظافرها.

كان لديَّ المصباح، لكني أردت استخدام الهاتف. كان يلقي ضوءاً شحيحاً ضعيفاً في ذلك التجويف حيث كنت؛ لكني لم أستجمع شتات نفسي بالقدر الكافي لأن أبدأ الاستفادة منه حتى انطفأت شاشته. طفا في الظلمة أمامي ذلك الألق الأخضر الحامضي الذي يملأ العين بعد ذهاب الضوء. ركعت على ركبتي وزحفت في الظلمة متلمساً بيدي الاثنتين ما بين الحجارة وكسرات الزجاج. كنت مصمماً على العثور عليه.

ظننت أنني أعرف مكانه، أو أنني أعرفه على وجه التقريب. فواصلت البحث عنه زمناً أطول مما يجب. وعندما فقدت الأمل في العثور عليه، حاولت الوقوف من جديد فأدركت أنني قد زحفت إلى بقعة واطئة حيث يستحيل أن أقف لأن سطحاً صلباً ما كان على مسافة ثلاثة إنشات فوق رأسي. لم تكن الاستدارة تنفعني؛ ولم تكن العودة إلى الوراء تنفعني؛ فقررت متابعة الزحف إلى الأمام آملاً أن أجد طريقاً ما. سرعان ما وجدت نفسي أتقدَّم إلى الأمام بصعوبة وقد استولى عليّ إحساس يائس بالانسحاق وصار رأسي مائلاً جانباً بقوة.

عندما كنت في الرابعة من عمري، علقت داخل سرير مورفي[1] في شقتنا القديمة في الجادة السابعة. أظنني كنت سأعاني كثيراً لولا أن خادمتنا في ذلك الوقت، اسمها ألاميدا، سمعت صرخاتي المكتومة فأتت وأخرجتني. قد يبدو هذا ورطة مضحكة، لكنه لم يكن كذلك في حقيقة الأمر. كانت محاولة المناورة في ذلك الحيز منعدم الهواء في مثل صعوبة التملّص من السرير الذي علقت فيه، بل أسوأ: في وجود قطع الزجاج، والمعدن الحار، ورائحة الملابس المحترقة اللاذعة، ومن حين

(1) سرير مورفي: سرير من النوع الذي يُرفع فيطوى إلى الحائط.

لآخر شيء طري ينضغط عليّ ولا أريد التفكير في تفسير له. كان التراب يتساقط علي من الأعلى؛ وكان حلقي يمتلئ غباراً فرحت أسعل سعالاً شديداً وبدأ الذعر يصيبني. أدركت في تلك اللحظة نفسها أنني صرت قادراً على رؤية (بالكاد رؤية) أشكال الحجارة القرميدية المتكسّرة المحيطة بي. كان النور -شعاع نور خافت إلى أقصى حد يمكن تخيله- يتسلّل إلي من جهة اليسار، من مكان على مستوى الأرض لا يبعد عني أكثر من ستة إنشات.

اقتربت من تلك النقطة فوجدت نفسي أنظر من الأعلى إلى الأرضية الرخام في الصالة التي تحتي. رأيت على تلك الأرضية كومة فوضوية من أشياء بدا لي كأنها معدّات إنقاذ (حبال، وفؤوس، وعتلات، وأسطوانة أوكسجين كتب عليها «دائرة إطفاء نيويورك»... كانت كلها مبعثرة على الأرض هناك).

صحت -ومن غير انتظار إجابة، بدأت الانسلال عبر تلك الفتحة بأقصى سرعة استطعتها. كانت الفتحة ضيّقة؛ ولو كنت أكبر سناً ببضع سنين، أو أكثر وزناً ببضعة كيلوغرامات، فأظن أنني لم أكن لأمرَّ منها. علق كيسي بشيء ما ففكرت لحظة في أن أتركه وأتحرّر منه، بصرف النظر عن تلك اللوحة التي فيه؛ فكّرت في فعل ما تفعله السحلية عندما تتخلّى عن ذيلها. لكني جذبته جذبة أخيرة فتحرّر وتساقط علي شلال من فُتات الجص. ومن فوقي، رأيت عارضة بدا لي أنها تسند كمية كبيرة من مواد البناء الثقيلة. وعندما مضيت متلوّياً من تحتها، انتابني خوف شديد من أن تنزلق فتقطعني نصفين قبل أن أرى أن أحداً قد ثبّتها بدعامة حديد.

وبعد أن عبرت، انتصبت واقفاً على قدميَّ وقد بللني العرق ودوخني شعور بالانفراج. صحت من جديد متسائلاً عن سبب وجود هذه المعدّات كلها من حولي من غير أن أرى حتى رجل إطفاء واحد. كانت الصالة خافتة الإضاءة، لكن القسم الأكبر منها غير متضرّر. وكانت فيها طبقات شبه شفافة

من دخان يزداد كثافة كلما ارتفع. ينظر المرء فيدرك على الفور أن قوة عاتية ما قد اجتاحت تلك الصالة، وذلك من منظر المصابيح وكاميرات المراقبة التي كانت كلّها متجهة إلى السقف. كنت في غاية السرور لأنني تمكّنت من الخروج إلى حيّز مفتوح من جديد فاقتضاني الأمر برهة قبل أن أدرك غرابة كوني الشخص الوحيد الواقف على قدميه في صالة غاصة بالناس. كان كل من في الصالة راقداً على الأرض، إلا أنا.

رأيت أكثر من عشرة أشخاص على الأرض -لم تكن أجساد جميعهم سليمة-. كان لهم مظهر من ألقي به من ارتفاع كبير. رأيت ثلاثة أو أربعة أجساد مغطاة جزئياً بمعاطف رجال الإطفاء، ورأيت أقدامها بارزة. وكانت بقية الأجساد ممددة على نحو واضح في العراء وسط بقع متفجرة. كانت تلك اللطخ والاندفاعات تحمل عنفاً، كأنها عطاس دموي كبير، كأنها إحساس هستيري بالحركة وسط السكون. أتذكّر خاصة امرأة في أواسط العمر في بلوزة ملطّخة بالدم عليها رسوم مزخرفة، كأنها بلوزة اشترتها من متجر الهدايا في المتحف. كانت عيناها -المؤطرتان بكحلٍ أسودَ- تحدّقان في الفراغ، إلى السقف؛ وكان من الواضح أن اسمرارها مضافٌ إليها إضافة لأن جلدها كان بلون المشمش في بعض الأماكن على الرغم من أن قمة رأسها قد اختفت.

زيوت كالحة، ولمعان جلّله الغبار. سرت بخطوات صغيرة جدّاً فتقدمت إلى وسط القاعة متمايلاً أكاد أفقد توازني. كنت أسمع صرير أنفاسي، داخلة خارجة؛ وكانت في ذلك الصوت ضحالة غريبة، خفة كابوسية. ما كنت أريد النظر، لكن... عليّ أن أنظر! رجل آسيوي قصير محزن المظهر في سترته البنية الواقية من المطر والريح. كان متجمعاً على نفسه وسط بركة دم واسعة. رأيت حارساً (لباسه أوضح شيء فيه، ووجهه محترق كثيراً)... إحدى ذراعيه مطوية خلف ظهره، وحُطامٌ بشع حيث ينبغي أن تكون ساقه.

لكن الأمر الأساسي، الأمر الهام... هو أنها لم تكن بين هؤلاء الناس المنطرحين أرضاً. أرغمت نفسي على النظر إليهم جميعاً، على النظر إلى كل واحد منهم على حدة، واحداً واحداً، حتى عندما أعجز عن النظر إلى وجوههم، فأنا أعرف قدمَي أمي وملابسها وحذاءها الأبيض ذا البقع السوداء - وحتى بعد أن صرت واثقاً من الأمر، بقيت واقفاً وسطهم منطوياً عميقاً داخل نفسي كأنني حمامة متوعكة مغمضة عينيها.

وفي الصالة التي بعدها: مزيد من الموتى. ثلاثة موتى. رجل بدين في صدار رسميٍّ مزرَّر؛ وسيدة عجوز متقرّحة؛ وفتاة صغيرة مثل بطة بيضاء على صدرها سحجات حمر لا تكاد تظهر عليها علامات غيرها. ثم... ما عاد هنالك من مزيد. سرت عبر عدد من الصالات التي تناثرت فيها معدات كثيرة، لكني لم أجد موتى أبداً على الرغم من بقع الدم على الأرض. عندما دخلت الصالة التي تبدو أبعد من غيرها، حيث كانت أمي، حيث ذهبت، تلك الصالة التي فيها لوحة *درس التشريح* -عيناي مغمضتان بقوة، ورجائي في أقصاه- لم أجد غير النقّالات نفسها والمعدّات نفسها. رحت أسير عبر الصالة في ذلك الصمت الصارخ على نحو غريب، فلم أجد فيها أحداً ينظر إلى ما يجري غير الهولنديَّيْن الحائرين اللذين نظرا إليَّ وإلى أمي من ذلك الجدار: ماذا تفعلان هنا؟

ثم تغير شيء ما تغيراً مفاجئاً. بل إنني لا أتذكّر كيف حدث ذلك الشيء لأنني وجدت نفسي في مكان مختلف، وكنت أجري وأجري عبر غرف فارغة إلا من ضباب دخانيّ جعل اتساع تلك الغرف غير واقعي، وغير ملموس. في ما مضى، كانت الصالات تبدو لي متتالية تماماً، كان فيها تعرّج وكان فيها تتابع منطقي حيث تقود الروافد كلها إلى متجر الهدايا. وأما عندما كنت عائداً عبرها، مسرعاً، في الاتجاه المعاكس، فقد أدركت أن الدرب لم يكن مستقيماً على الإطلاق. صرت أنعطف، أكثر فأكثر، في اتجاه جدران مصمتة، وأنحرف فأدخل غرفاً لا مخارج لها. لم تكن

الأبواب والمداخل حيث توقعت أن تكون؛ وراحت تظهر لي من العدم قواعد أعمدة ليس عليها شيء. وعندما انعطفت حول إحدى الزوايا انعطافاً حاداً بعض الشيء، كدت أصطدم اصطداماً مباشراً بعصبة من حرس فرانز هالز: رجال طوال خشنون، متوردو الخدود، منتفخون لكثرة البيرة كأنهم جماعة من رجال شرطة مدينة نيويورك في حفلة تنكرية. راحوا يلقون عليَّ نظرات باردة من مكانهم على الجدار... عيون قاسية ساخرة... فتوقّفت ريثما استجمعت شتات نفسي، ثم تراجعت وبدأت أجري من جديد.

كنت أتجوّل في المتحف أحياناً، حتى في أيام يكون طقسها جميلاً، فأسير من غير هدف في صالات فن الجزر النائية والطواطم والزوارق المنحوتة من جذوع الأشجار. وكنت أجد نفسي بعض الأحيان مضطراً إلى الصعود إلى الأعلى لكي أطلب من أحد الحراس أن يدلّني على طريق الخروج. كانت صالات اللوحات محيّرة أكثر من غيرها لأنهم لا يكفّون عن إعادة ترتيبها. والآن، بدأ خوفي يزداد ويزداد عندما رحت أجري في الصالات الفارغة في هذا الضياء الشبحي الخافت. ظننت أنني أعرف طريقي إلى سلّم المدخل الرئيسي، لكن الأشياء صارت تبدو لي غير مألوفة في حال خروجي من صالات «المعارض الخاصة»، فجريت على غير هدى دقيقة أو اثنتين عبر منعطفات لم أعد واثقاً منها فأدركت أنني ضعت تماماً. وعلى نحو ما، انعطفت يميناً فدخلت صالة الأعمال الفنية الإيطالية الكبيرة (صور المسيح المصلوب، والقديسين الدَّهشين، والثعابين، والملائكة المحاربين)، ثم انتهيت إلى صالة إنجلترا في القرن الثامن عشر، قسم من المتحف لم أزره قبل ذلك إلا نادراً ولم أكن أعرفه على الإطلاق. امتدت أمامي مناظر كثيرة في صفوف كثيرة طويلة، وصالات كالمتاهة تعطي انطباعاً بقصور مسكونة: لوردات في شعر مستعار، وجميلات من جينزبورو، ينظرون جميعاً نظرة غطرسة إلى

معاناتي. كانت صالونات البارونات هذه مثيرة للغضب لأنني لم أجد فيها ما يشير إلى سلم أو إلى ممر رئيسي، بل كان كل واحد منها مفضياً إلى صالون باروني آخر مثله تماماً. كدت أنفجر باكياً عندما رأيت، على نحو مفاجئ، باباً غير ظاهر تماماً في جدار جانبي في واحد من تلك الصالونات.

على المرء أن ينظر مرتين حتى يراه، ذلك الباب. كان طلاؤه بلون طلاء الجدار. كان من تلك الأبواب التي تبدو في الأحوال العادية أبواباً مغلقة على الدوام. لكنه لفت انتباهي لأنه ما كان مغلقاً تماماً -لم تكن الجهة اليسرى منه على مستوى الجدار، إما لأن أحداً أغلقه على نحو غير صحيح أو لأن القفل لم يكن يعمل نتيجة انقطاع الكهرباء. لكن فتح الباب لم يكن سهلاً فقد كان باباً فولاذياً ثقيلاً، وكان عليَّ أن أجذبه بكل ما أوتيت من قوة. وفجأة، انفتح مندفعاً مطلقاً ما يشبه زفرة ضاغط هوائي، فتعثّرت.

دخلته فوجدت نفسي في ممر مظلم سقفه أخفض كثيراً من سقف الصالة التي كنت فيها. كان نور مصابيح الطوارئ أضعف بكثير منه في الصالة الرئيسية فلم تتكيّف عيناي مع الضوء إلا بعد وقت.

بدا لي كما لو أن ذلك الممر يمتد أميالاً. سرت فيه خائفاً ملقياً نظرات داخل غرف المكاتب التي كانت أبوابها مفتوحة. *كاميرون جيزلر، أمين السجلات. مياكو فوجيتا، معاونة أمين السجلات*. كانت الأدراج مفتوحة والكراسي مدفوعة بعيداً عن الطاولات. وفي مدخل واحدة من تلك الغرف، رأيت فردة حذاء نسائية مرتفعة الكعب راقدة على جنبها.

كان ملمح الهجران في ذلك المكان مخيفاً على نحو يصعب وصفه. بدا لي أنني أسمع صفارات الشرطة في البعيد البعيد، بل ربما كنت أسمع أصوات الكلاب وأجهزة اللاسلكي. لكن أذنيَّ كانتا تطنان طنيناً شديداً بعد الانفجار فخيل لي أن ما أسمعه ليس إلا وهماً. بدأت أفقد أعصابي أكثر فأكثر لأنني لم أرَ إطفائياً ولا شرطياً ولا حارساً أمنياً – لم أرَ شخصاً حيّاً واحداً!

لم تكن الظلمة شديدة إلى حد يجعلني في حاجة إلى إشعال المصباح المعلق بسلسلة المفاتيح لأنظر في منطقة «العاملين فقط»، لكن ذلك الضياء كان أقل مما يكفي لأن أرى جيداً. كنت في مكان من أماكن السجلات أو من أماكن التخزين. وكانت المكاتب مكتظة بخزائن الملفات، من الأرض إلى السقف، وبرفوف معدنية فيها صناديق من الكرتون ووحدات فرز الرسائل البلاستيكية ذات الطبقات الكثيرة. جعلني الممر الضيّق متوتراً خائفاً، وراحت أصداء خطواتي تتردّد في المكان كلّه تردّداً مجنوناً جعلني أتوقف مرة أو مرتين وأستدير وأنظر من حولي لأرى إن كان في الممر أحد آتٍ من خلفي.

«يا من هناك!». صحت متردّداً وأنا ألقي نظرة داخل إحدى الغرف التي مررت بها. كان بعض المكاتب حديثاً متقشّفاً، وكان بعضها مزدحماً عليه مظهر القذارة وفيه أكوام فوضوية من الكتب والأوراق.

فلورانس كلونر، قسم الآلات الموسيقية. موريس عرابي روسل، الفن الإسلامي. فيتوريا جابيتي، الأقمشة. مررت بغرفة مظلمة تشبه كهفاً رأيت فيها منضدة عمل طويلة عليها قطع متباينة الأحجام من النسيج كأنها قطع أحجية تنتظر من يركّبها. وفي نهاية تلك الغرفة، رأيت مجموعة فوضوية من رفوف الملابس القابلة للحركة علّقت عليها كمية كبيرة من أكياس الملابس البلاستيكية كأنها رفوف الملابس في مصاعد الخدمة في محل *بندلز* أو *بيرجدورفز*.

وعند تفرّع الممر، نظرت إلى هذه الناحية وتلك غير عارف كيف أمضي. شممت رائحة شمع الأرضيات والتربنتين ومواد كيميائية، ونفحة من رائحة دخان. كانت تلك المكاتب والورشات ممتدة إلى ما لا نهاية: شبكة هندسية متكاملة ثابتة لا ملامح لها.

رأيت إلى يساري ضوءاً متقطعاً صادراً عن مصباح نيون في السقف. كان المصباح يهمهم وينطفئ لحظة ثم يعود إلى العمل كأنه مصاب بنوبة دائمة. وفي ذلك الضياء المرتجف، رأيت في الممر براداً لشرب الماء.

جريت إليه -جريت مسرعاً حتى كادت قدماي تنزلقان من تحتي-. ثم بدأت أشرب ضاغطاً فمي على الفوهة. شربت كمية كبيرة من الماء البارد، شربتها بسرعة شديدة فأحسست لسعة ألم في صدغي. داهمني الفواق، فغسلت الدم عن وجهي بيدي ورششت الماء على عينيَّ الملتهبتين. نثرات زجاج صغيرة -لا تكاد تُرى- تساقطت في صينية البراد المعدنية كأنها إبر من جليد.

استندت إلى الجدار. ضوء الفلوريسانت من فوقي -ضوء نابض يشتعل وينطفئ-. جعلني ذلك الضوء أشعر بالغثيان. بذلت جهداً، وتحاملت على نفسي من جديد؛ ثم تابعت سيري المتعرّج في ومضات الضوء غير المستقرّة. بدت لي الأشياء في هذا الاتجاه أكثر ميلاً إلى الطابع الصناعي: ألواح خشب، وعربة مسطحة للتحميل، وانطباع بأشياء مغلّفة تُنقل وتخزَّن هنا. عبرت تقاطع ممرات أكبر حيث وجدت ممراً شحيح الضوء ذاهباً في الظلمة وكنت على وشك تجاوزه ومواصلة سيري عندما رأيت في آخره توهج حروف حمراء: مخرج.

تعثّرت وسقطت على الأرض، ثم نهضت من جديد. لم يتركني الفواق بعد. جريت في ذلك الممر الطويل. وفي آخره، وجدت باباً عليه مزلاج معدني. كان مثل أبواب الطوارئ في مدرستي.

انفتح الباب مطلقاً عواءً. ركضت نازلاً سلماً مظلماً... اثنتا عشرة درجة، ثم انعطافة ومنبسط، ثم اثنتا عشرة درجة أخرى حتى بلغت القاعة. كانت أطراف أصابع يدي تنزلق على الدرابزين المعدني، وكان الصوت الصادر عن حذائي يتردّد أصداءً مجنونة حتى لكأن هناك أكثر من عشرة أشخاص يجرون معي. وجدت عند نهاية الدرجات ممراً جديداً رمادياً عليه باب موصد آخر. رميت بنفسي عليه ففتحته بيديَّ الاثنتين - صفع المطر وجهي، وصفعه عويل صفارات يصم الآذان.

أظنني صرخت بصوت مرتفع... كنت في غاية الفرح لأنني صرت

في الخارج رغم أن أحداً ما كان يمكن أن يسمعني في ذلك الضجيج كله. كان ذلك كأنني أحاول الصراخ أعلى من صوت محرّكات نفاثة في مطار لاغوارديا أثناء عاصفة رعدية. بدا لي أن كل سيارة إطفاء، وكل سيارة شرطة، وكل عربة إسعاف، وكل عربة طوارئ، في أقسام نيويورك الخمسة، وفي نيوجرسي أيضاً، كانت متجمّعة تموء كالقطط عند الجادة الخامسة... ضجيج فرح حتى الهذيان: كأنه عيد الميلاد في نيويورك والألعاب النارية في اليوم الرابع من تموز[1] وقد اجتمعا معاً.

لفظني ذلك المخرج في حديقة *سنترال بارك* عبر باب قليل الاستخدام واقع بين بوابات التحميل ومواقف السيارات. رأيت ممرات المشاة في الحديقة خالية في البعيد الرمادي-الأخضر؛ ورأيت قمم الأشجار البيضاء تتهادى وتتداخل في الريح. وفي الشارع الغارق في المطر خلف ذلك، كانت الجادة الخامسة مغلقة. ومن خلال المطر المنهمر، من حيث كنت واقفاً، استطعت رؤية الحركة النشطة هناك: روافع وآليات ثقيلة ورجال شرطة يدفعون بجموع الناس إلى الخلف وأضواء حمراء، وأضواء صفراء وزرقاء، وأنوار كشّافة تتحرّك وتدور وتومض في خضم اضطراب زئبقي.

رفعت ذراعيَّ حتى أقي وجهي من المطر وبدأت الجري عبر الحديقة الخالية. كانت قطرات المطر تدخل إلى عينيَّ وتسيل على جبهتي فتحيل الأضواء عند الجادة غبشاً متحرّكاً في البعيد.

إدارة شرطة مدينة نيويورك، وإدارة الإطفاء في مدينة نيويورك، وشاحنات مغلقة لا تتوقف ماسحات زجاجها عن الحركة: فصيلة كلاب الشرطة، وكتيبة عمليات الإنقاذ، وقسم المواد الخطرة. كانت سترات سود واقية من المطر ترفرف في الريح. وكان شريط «مسرح الجريمة» الأصفر ممتداً عبر مدخل الحديقة عند بوابةماينرز. من غير تردّد، رفعت الشريط وعبرت من تحته، ثم عدوت إلى وسط ذلك الحشد.

---

(1) الرابع من تموز (يوليو): اليوم الوطني في الولايات المتحدة الأميركية.

لم يلاحظني أحد في ذلك الهياج كله. مرت لحظة أو لحظتان وأنا أجري في الشارع من غير معنى، جيئة وذهاباً، وقطرات المطر تنقر وجهي. وحيثما نظرت، كانت صور من ذعري تندفع من حولي. كان الناس يتقاطرون مندفعين من حولي كأنهم لا يرون أمامهم: عناصر شرطة، وعناصر إطفاء، ورجال في خوذات معدنية، ورجل متقدم في السن يحمل ذراعه المكسورة، وامرأة مدماة الأنف يرافقها شرطي كهل في اتجاه الشارع رقم تسعة وسبعين.

لم أر قبل ذلك أبداً هذا العدد من سيارات الإطفاء في مكان واحد: الفرقة رقم 18، ومجموعة مكافحة النيران رقم 44، وفرقة السلالم رقم 7، وفرقة الإنقاذ الأولى، وفرقة الشاحنات الأربع «فخر مركز المدينة». رحت أشقّ طريقي في ذلك البحر من المركبات المتوقّفة ومن المعاطف الرسمية السود، فرأيت سيارة إسعاف «هاتزولاه»: حروف عبرية على مؤخرة السيارة، وغرفة مستشفى صغيرة مُنارة ظاهرة عبر الباب المفتوح. كان العاملون الطبيون منكبّين على امرأة يحاولون تثبيتها على السرير، أما هي فكانت تحاول النهوض. رأيت يداً متغضنة أظافرها مطلية بالأحمر تعارك الهواء.

طرقت الباب بقبضة يدي. صحت بهم: «عليكم أن تعودوا إلى الداخل. لا يزال هناك أناس...».

صاح بي أحدهم من غير أن ينظر في اتجاهي: «هنالك قنبلة أخرى. علينا إخلاء المكان». وقبل أن يتاح لي وقت لفهم ما سمعته، انقضّ عليَّ شرطي ضخم كأنه قصف الرعد: رجل غبي قوي البنية عضلات ذراعيه بارزة كأنه لاعب رفع أثقال. أمسكني من أعلى ذراعي بقبضة خشنة وراح يجرني إلى الناحية الأخرى من الشارع.

صاح بي مغرقاً احتجاجاتي بصوته بينما كنت أحاول تخليص نفسي منه: «ما الذي تفعله هنا؟».

«سيدي...». أتت امرأة مدماة الوجه محاولة لفت انتباه ذلك الشرطي إليها... «سيدي، أظن أن يدي مكسورة».

صاح بها مبعداً ذراعها عني: «ابتعدي عن المبنى».

ثم قال لي: «اذهب!».

«لكن...».

دفعني بيديه الاثنتين. دفعني بقوة جعلتني أترنح، بل جعلتني أكاد أقع. زعق قائلاً: «ابتعد عن المبنى! الآن». ثم لوّح بيديه فرفرف معطفه الواقي من المطر...

لم يكن ينظر إليَّ في تلك اللحظة؛ كانت عيناه الصغيرتان الدُّبّيتان متعلقتين بشيء يجري فوق رأسي، بعيداً في الشارع. أخافني ذلك التعبير في وجهه.

سرت مستعجلاً واخترقت حشد عمال الإغاثة المتجمع على الرصيف المقابل، تماماً فوق الشارع رقم تسعة وسبعين. كانت عيناي تبحثان عن أمّي، لكني لم أرها. كثرة هائلة من سيارات الإسعاف والمركبات الطبية: *لينوكس هيل*، وإسعاف *بيف إسرائيل*، ونيويورك *درسبوتيريان*، و*كابريني إي إم إس باراميديك*. رأيت رجلاً في بدلة رسمية راقداً على ظهره خلف حافة خشب للتزيين في الفناء الصغير المسوّر لبيت فاخر في الجادّة الخامسة. كان كلّه دماً. رأيت الشريط الأمني الأصفر معلقاً، ورأيته يهتز ويطقطق في الريح - لكن رجال الشرطة الذين أغرقهم المطر، ومعهم رجال الإطفاء وذوي الخوذات المعدنية كانوا يرفعون ذلك الشريط ويعبرون من تحته جيئة وذهاباً كما لو أنه غير موجود.

كانت الأعين كلّها متّجهة إلى الأعلى، ولم أعرف سبب ذلك إلا في وقت لاحق؛ ففي الشارع رقم أربعة وثمانين (أبعد كثيراً من أن أراه من حيث كنت)، كان رجال الشرطة يحاولون «إبطال» قنبلة غير منفجرة عن طريق قذفها بمدفع مائي. كنت توّاقاً إلى الحديث مع أحد ما وإلى معرفة

ما قد حدث، فحاولت شق طريقي صوب واحدة من سيارات الإطفاء، لكني رأيت عناصر شرطة مندفعين عبر جمع الناس يلوّحون بأذرعهم ويصفقون بأيديهم ويضربون الناس حتى يتراجعوا.

أمسكت بمعطف رجل إطفاء -شاب لطيف المظهر يمضغ علكة-. صحت به: «لا يزال هنالك أشخاص!».

صاح رجل الإطفاء من غير أن ينظر إليّ: «نعم، نعم، نعرف هذا. لقد أمرونا بالخروج. يقولون إن علينا أن ننتظر خمس دقائق، وسوف يتركوننا ندخل بعدها».

دفعة سريعة في ظهري. سمعت أحداً يصرخ: «تحرّك، تحرّك!».

وسمعت صوتاً خشناً مع لكنة ثقيلة: «أبعد يديك عني!».

«الآن.. فليتحرك الجميع!».

دفعني شخص آخر في ظهري. رأيت رجل إطفاء منحنياً من فوق سيارة الإطفاء ذات السلم، رأيته ينظر إلى الأعلى صوب معبد بيندور؛ ورأيت رجال الشرطة واقفين صفاً مرصوصاً، كتفاً لكتف. جامدين تحت المطر. مررت بهم وقد حملني تيار الناس المتحركين. رأيت عيوناً متّقدة، ورؤوساً تتحرك، وأقداماً تنقر الأرض كأنها تعد عداً تنازلاً لا تعيه.

عندما سمعت صوت تمزق القنبلة، وصيحات التهليل الخشنة المرتفعة من الجادة الخامسة كأنها صيحات في ملعب كرة قدم، كنت قد ابتعدت كثيراً في اتجاه شارع ماديسون. كان رجال شرطة -شرطة السير- يلوّحون بأذرعهم كطواحين الهواء ويدفعون بجمهرة الناس المذهولة إلى الخلف. «هيا.. هيا، تحرّكوا، تحرّكوا».

ساروا عبر الحشد مصفّقين بأيديهم: «فليتّجه الجميع شرقاً. فليتّجه الجميع شرقاً». رأيت شرطياً -رجلاً ضخماً له لحية مدبّبة وقرط في أذنه، كأنه مصارع محترف- رأيته يمد يده ويدفع عامل توصيل طلبات

في سترة ذات قبعة كان يحاول التقاط صورة بهاتفه. اصطدم العامل بي فكاد يوقعني.

صاح العامل بصوت مرتفع بشع: «انتبه!». فدفعه الشرطي من جديد. دفعه هذه المرة بقوة جعلته يسقط على ظهره في مجرى الماء إلى جانب الرصيف.

صاح به: «أأنت عاجز عن السمع أم ماذا، يا فتى؟ تابع السير!».

«لا تمسّني!».

«وما رأيك إذا ما ضربتك فشققت رأسك؟».

كانت المسافة بين الجادة الخامسة وشارع *ماديسون* أشبه بمستشفى مجانين. هدير مراوح طائرات الهليكوبتر في الأعلى، وكلام غير مفهوم في مكبرات الصوت. وعلى الرغم من أن الشارع رقم تسعة وسبعين كان مغلقاً أمام حركة السير، إلا أنه كان مكتظاً بسيارات الشرطة وعربات الإطفاء والحواجز الإسمنتية وحشود الناس الزاعقين المذعورين الذين يقطرون ماءً. كان بعضهم يجري قادماً من الجادة الخامسة؛ وبعضهم يحاول شق طريقه بالقوة عائداً في اتجاه المتحف؛ وأناس كثيرون في أيديهم هواتفهم مرفوعة عالياً يحاولون التقاط صور؛ وآخرون يقفون من غير حركة وقد فتحوا أفواههم بينما راحت أفواج الناس تندفع من حولهم... كانوا يحدّقون في الدخان الأسود في السماء الماطرة فوق الجادة الخامسة كما لو أنهم يرون مخلوقات فضائية قادمة من تلك الناحية. صفارات، ودخان أبيض متصاعد من فتحات التهوية في خط المترو. رجل متشرد يلف نفسه ببطانية قذرة راح يتجوّل جيئة وذهاباً؛ كان التشوّش والحماسة ظاهرين عليه. رحت أنظر من حولي آملاً أن أرى أمي بين الناس؛ كنت أتوقع كثيراً أن أراها. أمضيت وقتاً قصيراً في محاولة السباحة عكس التيار في مواجهة جموع الناس التي يدفعها رجال الشرطة. «كنت أشبّ على رؤوس أصابعي وأمد رقبتي إلى الأعلى حتى

أرى»... إلى أن أدركت عقم محاولة مواجهة الناس والبحث عنها في ذلك المطر الغزير، وفي ظل وجود تلك القنبلة. قلت في نفسي: *سأراها في البيت. كان من المفترض أن نلتقي في البيت؛ وكان البيت نقطة اللقاء في حالات الطوارئ. لا بد أنها أدركت أيضاً عقم محاولة البحث عني هنا*. لكني بقيت أشعر بأن توقّفي عن البحث عنها فيه شيء من الوضاعة... ظلّت في نفسي وخزة خيبة غير منطقية. وعندما سرت عائداً إلى البيت (صداع يشق رأسي، وعيناي زائغتان)، واصلت البحث عنها، واصلت النظر في وجوه أناس لا أعرفهم، في وجوه منشغلة مهمومة من حولي. *لقد خرجَتْ... هذا هو الأمر المهم*! أعرف أنها كانت على مسافة عدة صالات من مكان الانفجار. وأعرف أنها لم تكن واحدة من الجثث هناك. لكن، بصرف النظر عمَّ كنا قد اتفقنا عليه من قبل، وبصرف النظر عن منطقية هذا الترتيب، فقد بقيت غير قادر على تصديق أنها قد سارت مبتعدة عن المتحف من دوني.

الفصل الثاني

درس التشريح



1

عندما كنت صغيراً، في الرابعة أو في الخامسة، كان خوفي الأكبر أن يأتي يوم لا تأتي فيه أمي إلى البيت عائدة من عملها. كانت الفائدة الأولى من تعلم عمليات الجمع والطرح، حتى ذلك الوقت، منحصرة في مساعدتي في تتبّع حركتها (كم دقيقة بقي على خروجها من المكتب، وكم دقيقة ستسير من المكتب إلى محطة المترو؟). وحتى قبل أن أتعلّم العد، كان هاجسي أن أتعلم قراءة الساعة: كنت أدرس تلك الدائرة الغامضة المرسومة على صفحة وجه الساعة الورقية آملاً أن أتمكن، عندما أتقنها، من اكتشاف مخطط مجيء أمي وذهابها. عادة كانت تصل إلى البيت في الوقت الذي تقول إنها ستصل فيه. وإذا تأخرت عشر دقائق، فإنني أبدأ بالقلق وأجلس على الأرض عند باب الشقة كأنني جرو تركوه وحيداً أطول مما يجوز. أجلس هناك مصغياً مترقباً سماع صوت المصعد يتوقف عند طابقنا.

وعندما كنت في المدرسة الابتدائية، كنت أسمع كل يوم تقريباً أشياء تقلقني في أخبار القناة السابعة. ماذا لو دفع أمي متشرّد في سترة عمل قذرة فألقاها على السكة أثناء انتظارها قطار الساعة السادسة؟ وماذا لو

جرّها أحد بالقوة إلى مدخل مظلم فطعنها حتى يأخذ محفظتها؟ ماذا لو أسقطت مجفف الشعر في حوض الاستحمام؟ وماذا لو صدمتها دراجة فألقتها أمام سيارة عابرة؟ وماذا لو أعطاها طبيب الأسنان دواء غير صحيح فماتت كما حدث لأم أحد زملائي في الصف؟

كان تفكيري في حدوث أي شيء لأمي مخيفاً على نحو خاص لأن أبي كان شخصاً لا يُعتمد عليه. وأظن أن استخدامي عبارة «*لا يُعتمد عليه*» طريقة شديدة الدبلوماسية للتعبير عن الأمر. حتى عندما يكون في مزاج حسن، فإنه يفعل أشياء غريبة من قبيل إضاعة شيك الراتب، والنوم مع ترك باب الشقة مفتوحاً لأنه يكون مخموراً. وأما عندما يكون في مزاج سيئ -أي أكثر الوقت- فقد كنت أراه محمرَّ العينين مشعّث المظهر في ملابس مجعّدة كأنه كان يتمرّغ فيها على الأرض، ومسحة من هدوء غير طبيعي تنبعث منه كأنها منبعثة من شيء مضغوط موشك على الانفجار.

وعلى الرغم من عدم إدراكي سبب كونه بائساً هكذا، فقد كان من الواضح لي أننا مذنبان في بؤسه ذاك. كنا نرهق أعصابه كثيراً، أمي وأنا، وبسببنا كان يعمل في وظيفة لا يطيقها. وكل ما نفعله كان مزعجاً له. وعلى نحو خاص، لم يكن يسرّه أن أكون موجوداً معه في مكان واحد؛ لكن هذا لم يكن يحدث كثيراً: ففي الصباح، عندما أستعد للذهاب إلى المدرسة، كان يظل جالساً مُفتّح العينين صامتاً قبالة قهوته وقد وضع أمامه صحيفة وول ستريت جورنال وجلس بثوب حمام مفتوح وقد انتصب الشعر فوق مقدمة رأسه. كانت يداه ترتعشان كثيراً بعض الأحيان إلى حد يجعل بعض القهوة ينسكب من الفنجان وهو يرفعه إلى فمه. وكان ينظر إليَّ نظرات حذرة عندما أعود إلى البيت، ويحمرّ منخراه إذا ما صدر صوت زائد عن ملعقتي أو طبقي.

لم أكن أراه كثيراً، بمعزل عن هذه الغرابة اليومية. وهذا لأنه ما كان يتعشى معنا ولا يحضر النشاطات المدرسية. ما كان يلعب معي ولا

يكلّمني كثيراً خلال وجوده في البيت. والحقيقة أنه نادراً ما كان يأتي إلى البيت قبل أن أذهب إلى النوم؛ بل كانت عودته تتأخر بعض الأيام -أيام استلام أجره خاصة، أي يوم الجمعة كل أسبوعين -ـ فلم يكن يأتي قبل الثالثة أو الرابعة في الصباح: يقفل الباب، ويسقط حقيبته على الأرض، ويصطدم بالأشياء ويصدر أصواتاً هنا وهناك على نحو عشوائي يجعلني أحياناً أستيقظ فزعاً وأحدق في الكواكب والنجوم المرسومة على سقف غرفتي وأتساءل إن كان قد اقتحم شقتنا قاتل ما. أما عندما يكون ثملاً، فإن خطواته تصير بطيئة ويكون لها صرير وإيقاع لا تخطئهما الأذن -إنها خطوات فرانكنشتاين-... هكذا كنت أقول في نفسي؛ خطوات بطيئة متثاقلة تفصل لحظات طويلة بين وقع الخطوة والأخرى. وعندما أدرك أن تلك خطوات أبي تجوس في الظلام وليست خطوات قاتل متسلسل أو شخص مختل نفسياً، أعود إلى نومي القلق المتقطّع. وفي اليوم الذي يلي ذلك، يوم الأحد، أتواطأ مع أمي حتى نخرج من الشقة قبل استيقاظه من نومه المضطرب المتعرق على الأريكة. إذا لم نفعل ذلك، يكون علينا أن نمضي بقية النهار كلها في حالة حذر خائفين من إغلاق الباب بقوة من دون قصد أو من إزعاجه بأية طريقة من الطرق. وأما هو فيجلس متحجّر الوجه قبالة شاشة التلفزيون وأمامه زجاجة بيرة صينية وفي عينيه نظرة زجاجية. يجلس ويتابع أخباراً أو مادة رياضية وقد كتم صوته.

نتيجة هذا، لم أنزعج كثيراً، ولم تنزعج أمي كثيراً، عندما استيقظنا صباح يوم من أيام السبت واكتشفنا أنه لم يعد إلى البيت على الإطلاق. لم يساورنا شيء من القلق إلا بعد انقضاء يوم الأحد؛ وحتى ذلك الوقت لم نقلق مثلما يقلق الناس عادة... كنا في بداية موسم مباريات كرة القدم الجامعية، وكنا واثقين تماماً من أنه راهن على إحدى المباريات فكسب مالاً فظننا أنه قد سافر بالباص إلى أتلانتك سيتي من غير إخبارنا. ثم جاء اليوم التالي، واتصلت لوريتا، سكرتيرة المكتب حيث يعمل أبي، لأنه

لم يأت إلى العمل. عند ذلك بدأ يظهر لنا أن في الأمر شيئاً غير طبيعي. خشيت أمي أن يكون قد قُتل أو تعرّض للسلب وهو عائد ثملاً من البار فاتصلت بالشرطة. أمضينا عدة أيام من التوتّر في انتظار مكالمة هاتفية أو قرع على الباب. ثم، تلقينا، مع اقتراب نهاية الأسبوع، رسالة من أبي (عليها ختم بريد مدينة نيوارك بولاية نيوجرسي) يخبرنا فيها، بكلمات خربشها سريعاً، أنه منطلق إلى «بدء حياة جديدة» في مكان لم يفصح عنه. أتذكّر أنني رحت أفكر في عبارة «حياة جديدة» كما لو أنها يمكن أن تكشف لي عن مكان ذهابه؛ فقد أمضيت أياماً في إزعاج أمي ومطالبتها والإلحاح عليها بأن تعطيني الرسالة لأراها بنفسي، فوافقت أخيراً (قالت مستسلمة وهي تفتح درج طاولة المكتب وتخرج الرسالة منه: «لا بأس، لا بأس. لا أعرف ما يتوقّع مني قوله لك، لكن من الأفضل أن تقرأ كلامه بنفسك»). كانت الرسالة مكتوبة على ورقة عليها شعار فندق *دوبلاتير إن* القريب من المطار. ظننت قبل أن أرى تلك الرسالة أنها قد تحمل دليلاً قيّماً عن مكان وجوده، لكني اكتشفت أنها كانت مكتوبة بأقصى درجة من الإيجاز (أربعة سطور أو خمسة)، وأنها مكتوبة بسرعة وإهمال ولا مبالاة كأنما هي شيء ألقاه من يده قبل أن يخرج مسرعاً إلى متجر البقالة.

من نواحي كثيرة، كان خروج أبي من الصورة مصدر راحة حقيقياً. من المؤكد أنني لم أفتقده كثيراً. ولم يبد لي أيضاً أن أمي قد افتقدته على الرغم من تلك اللحظة الحزينة عندما وجدت نفسها مضطرة إلى الاستغناء عن خدمات سينزيا التي كانت تساعدها في أعمال البيت لأننا لم نعد قادرين على دفع أجرها (بكت سينزيا وعرضت البقاء والعمل مجاناً؛ لكن أمي كانت قد وجدت لها عملاً جزئياً في البناية نفسها لدى رجل وامرأة عندهما طفل رضيع. صارت سينزيا تأتي إليهما مرة في الأسبوع، ثم تمر بشقتنا لتزور أمي وتشرب معها فنجان قهوة وهي لا تزال في المريلة التي تلبسها فوق ثيابها أثناء التنظيف). ومن غير جلبة، أزيلت

عن الجدار صورة أبي الشاب الذي لوّحته الشمس واقفاً عند قمة منحدر تزلج وحلّت محلها صورة لي ولأمي في سنترال بارك. وفي الليل، كانت أمي تسهر مع آلتها الحاسبة لتراجع الفواتير المترتبة عليها. كان إيجار شقتنا ثابتاً، لكن الاستمرار من غير دخل أبي كان مغامرة دائمة؛ فمهما يكن نوع «الحياة الجديدة» الذي أرادها لنفسه، فإنها لم تكن مشتملة على إرسال مال لإعالتي. إلا أننا كنا راضين بأن نغسل ملابسنا بآلة الغسيل الموجودة في القبو، وأن نذهب إلى أفلام السينما التي تُعرض في الفترة الصباحية بدلاً من دفع ثمن التذكرة الكامل بعد الظهر، وأن نأكل خبزاً بائتاً ومأكولات صينية رخيصة (نودلز، وفومونغ بالبيض)، وأن نحصي قطع النقود المعدنية الصغيرة من أجل الباص. لكني عدت من المتحف مشياً ذلك اليوم -مبللاً، أشعر بالبرد وبصداع يجعلني أصر على أسناني- ففاجأتني فكرة أن أحداً في العالم كله، بعد ذهاب أبي، لن يقلق عليَّ أو على أمي: لن يجلس أحد متسائلاً عن سر غيابنا طيلة فترة بعد الظهر أو عن سر عدم سماعه شيئاً عنا. أينما كان أبي في تلك اللحظة، في حياته الجديدة -في المناطق المدارية أو في الصحاري، في بلدة تزلّج صغيرة أو في مدينة أميركية كبرى- فمن المؤكّد أنه جالس متسمّراً أمام التلفزيون؛ بل كان من السهل أيضاً أن أتخيّله مهتاجاً مستثاراً بعض الشيء، بل مجروحٌ بعض الشيء، مثلما يصيبه أحياناً عندما يرى في التلفزيون أحداثاً كبيرة لا علاقة لها به على الإطلاق: أعاصير أو انهيار جسور في ولايات بعيدة. لكن، هل سيقلق علينا إلى حد يجعله يتّصل حتى يطمئن؟ من المستبعد أن يفعل هذا... مثلما هو مستبعَد أن يتّصل بمكتبه القديم ليرى ما يحدث هناك على الرغم من ثقتي بأنه يفكر الآن في زملائه القدامى في وسط المدينة ويتساءل عمَّ يفعلونه في مكتبه القريب من مكان الانفجار. سيفكّر أيضاً في السكرتيرات المذعورات وهن يجمعن الصور التي وضعنها على مكاتبهن ويضعن أحذية المشي ثم يعدن إلى البيت! أو لعله يتخيلهم جميعاً مجتمعين في احتفال صامت

ما في الطابق الرابع عشر حيث يطلبون سندويتشات ويتحلّقون حول التلفزيون في غرفة الاجتماعات!).

لا أتذكّر الشيء الكثير من رحلة عودتي إلى البيت على الرغم من أن سيري تواصل دهراً. لكني لا أزال أتذكر ذلك الجو الرمادي البارد الغارق في المطر في جادة ماديسون–مظلات تفتح، وجموع الناس على الرصيف سائرين بصمت في اتجاه مركز المدينة، وإحساس بكثرة من الناس المجهولين مثلما كنت أحس عندما أنظر إلى صور قديمة بالأبيض والأسود عن الانهيارات المصرفية وطوابير الخبز في الثلاثينات[1]. تعاون صداعي والمطر على جعل العالم من حولي محدوداً ضمن دائرة ضيّقة مريضة غدوت معها غير قادر على رؤية شيء غير ظهور الناس المنحنية أمامي على الرصيف. والحقيقة أن ألم رأسي كان شديداً إلى حد جعلني أكاد لا أستطيع رؤية طريقي؛ وكدت أتعرّض للدهس مرتين عندما بدأت أجتاز الشارع من غير أن ألقي انتباهاً إلى الإشارة الضوئية. لم يبدُ لي أن أحداً قد عرف ما حدث بالضبط، لكني سمعت على نحو عارض صوت الراديو في إحدى سيارات التاكسي المتوقّفة يقول: «كوريا الشمالية»، وسمعت «إيران» و«القاعدة» من عدد من الناس السائرين في الطريق. رأيت رجلاً أسود شديد الهزال مشعّث الشعر بلّله المطر حتى العظام يسير جيئة وذهاباً أمام متحف ويتني ويضرب الهواء بقبضتيه ويصرخ من غير أن يوجّه الكلام إلى أحد بعينه: «استعدّي يا مانهاتن! أسامة بن لادن يضربنا من جديد!».

أحسست بأنني موشك على الإغماء، وكنت في حاجة إلى الجلوس، لكني تابعت، على نحو ما، خطواتي المتعرّجة المتعثّرة وقد انعقدت ساقي كأنها لعبة مكسورة. رجال شرطة يشيرون للسيارات، ورجال

(1) أي خلال فترة الأزمة الاقتصادية الكبرى التي أصابت الولايات المتحدة (واقتصاد العالم كله) قبل الحرب العالمية الثانية.

شرطة يصفرون ويوجّهون حركة السير. ماء يقطر من طرف أنفي. وعيناي تطرفان أكثر فأكثر في محاولة لحماية عينيَّ من المطر، وفكرة تجول في ذهني: يجب أن أصل إلى البيت، إلى أمي، في أسرع وقت ممكن. سوف تكون منتظرة في الشقة، قلقة عليّ. لا بد أنها تشد شعرها قلقاً وخوفاً وتلعن نفسها لأنها أخذت مني هاتفي. في تلك اللحظة، كان الجميع يعاني مشكلة في الاتصالات الهاتفية، وكان عدد من السائرين في الشارع قد اصطفوا بالعشرات أمام هواتف الشارع ذات الحصالة. *أمي*... قلت في نفسي ... *أمّي*... كنت أحاول أن أبعث إليها برسالة «نفسية» تقول لها إنني حي. أردت أن تعرف أنني بخير، لكني أتذكّر أنني كنت أقول لنفسي أيضاً إن من الأفضل أن أسير هكذا بدلاً من أن أجري. لم أكن أريد أن أفقد وعيي وأسقط في طريق عودتي إلى البيت. كم كان حظاً طيباً أن تبتعد أمي قبل لحظات فقط! لقد أرسلتني مباشرة إلى قلب الانفجار. ولا بد أنها الآن واثقة من موتي.

آلمتني عيناي عندما فكّرت في تلك الفتاة التي أنقذت حياتي... بيبا، اسم غريب جاف لفتاة صغيرة ظريفة حمراء الشعر: اسم مناسب لها! كلما تذكّرت عينيها اللتين نظرتا في عينيّ أشعر بدوار لأنها -هي الغريبة عني تماما- قد أنقذتني من الخروج من صالة المعرض والذهاب إلى حيث الوميض الأسود في متجر البطاقات هناك... أنقذتني من العدم، من نهاية كل شيء. هل يقيّض لي يوماً إخبارها بأنها أنقذت حياتي؟ وأما الرجل العجوز... لقد دخل رجال الإطفاء وعمال الإنقاذ المبنى بعد دقائق فقط بعد ذهابي. لا يزال لدي أمل بأن يكون أحد ما قد وصل إلى تلك الصالة البعيدة وأنقذه -كان باب الصالة مفتوحاً-، ولا بد أن يعرفوا بوجود أحد هناك. هل أرى أحد منهما مرة أخرى؟

كان البرد قد بلغ عظامي عندما وصلت إلى البيت آخر الأمر، وكنت أسير مترنحاً كأنني ثمل من الشراب. كان الماء يقطر من ملابسي الغارقة ويترك من خلفي أثراً متعرجاً على أرض ردهة المدخل.

بعد زحام الناس في الشارع، كان خواء المكان هنا ضاغطاً على أعصابي. رأيت جهاز التلفزيون النقال يعمل في الغرفة الصغيرة، وسمعت أصوات أجهزة لاسلكي تهمهم داخل البناية، لكني لم أعثر على أثر لغولدي، أو كارلوس، أو خوسيه، أو أي شخص ممن يمكن أن يراهم المرء عادة.

وفي آخر الردهة، كان المصعد المضاء فارغاً، منتظراً، كأنه مقصورة على خشبة المسرح في عرض سحري. راحت مسنناته تعلق وترتجف، واحداً بعد الآخر؛ وراحت الأرقام العتيقة اللؤلؤية تومض في طريق الصعود إلى الطابق السابع. إحساس غامر بالارتياح عندما خطوت في ممر طابقنا الرتيب الكئيب ذي اللون البني، في ذلك الممر الفائح برائحة خانقة لمستحضرات تنظيف السجاد.

دار المفتاح في القفل مصدراً صوتاً مرتفعاً. صحت: «مرحباً!». وخطوت في عتمة الشقة: الستائر مسدلة، وكل شيء هادئ.

سمعت همهمة البراد في الصمت. قلت في نفسي وقد انتابتني رعشة مخيفة: *يا إلهي! ألم تعد إلى البيت حتى الآن؟*

صحت من جديد: «ماما!». اجتزت الممر مسرعاً، وكان قلبي يقفز في صدري مسرعاً أيضاً، ثم وقفت حائراً في وسط غرفة المعيشة.

لم أر مفاتيحها معلّقة عند الباب؛ ولم تكن حقيبة يدها على الطاولة. سرت إلى المطبخ. كان صوت قدمي في حذائي كمن يغوص في الوحل. لم يكن المطبخ كبيراً: تكهّف صغير فيه موقد ذو رأسين وأمامه فتحة تهوية. رأيت هناك فنجانها الذي شربت فيه قهوة الصباح، فنجان أخضر من سوق الأدوات المستعملة. رأيت على حافته أثر أحمر الشفاه.

وقفت أنظر إلى الفنجان غير المغسول الذي لا يزال في قعره إنش من القهوة الباردة، ورحت أتساءل عمَّ يمكن لي فعله. كان في أذني طنين، أو رنين... وكان ألم رأسي شديداً يكاد يجعلني عاجزاً عن التفكير: موجات

من السواد عند أطراف مجال رؤيتي. لقد تركّز تفكيري كله على تخيل شدة قلقها علي، وعلى ضرورة عودتي في أسرع وقت ممكن حتى تعرف أنني بخير؛ ولم يخطر في ذهني أبداً أنني قد لا أجدها هنا، أنها لم تعد بعد.

متألّماً مع كل خطوة، سرت في الممر إلى غرفة أبي وأمي: لم تتغيّر هذه الغرفة منذ رحيل أبي، لكنها صارت أكثر ترتيباً وصار فيها الآن ملمح أنثوي أكثر وضوحاً بعد أن صارت لها وحدها. نظرت إلى الهاتف على الطاولة عند السرير الذي لم ترتبه أمي في الصباح فلم أجد أيّ رسائل صوتية.

كنت واقفاً بباب الغرفة مترنّحاً من الألم... حاولت التركيز. اجتاح جسدي إحساس صارخ بأحداث هذا اليوم كأنني سافرت بالسيارة مسافة طويلة جداً، جداً.

لا بد لي من ترتيب الأولويات: عليّ أن أجد هاتفي وأن أتفقد ما فيه من رسائل. لكني لم أكن أعرف أين وضعَته أمي. لقد أخذَته مني بعد مشكلة المدرسة. وفي الليلة الماضية، عندما كانت أمي في الحمام، حاولت العثور عليه بأن اتصلت به، لكني أدركت أنها قد أغلقته قبل إخفائه.

أتذكّر كيف بحثت يداي في أعماق الدرج العلوي مفتشة بين أوشحة كثيرة كانت فيه: أوشحة حريرية ومخملية، وأوشحة هندية مطرزة.

بعد ذلك، وبجهد هائل، جرجرت المقعد الصغير عند سريرها (لم يكن ثقيلاً في واقع الأمر)، ثم صعدت عليه حتى أتمكن من النظر في الرف العلوي في خزانتها. وبعد ذلك، جلست على السجادة كأنني في غيبوبة... خدي مستند إلى المقعد، وزئير أبيض بشع في أذني.

هنالك شيء غير طبيعي. أتذكر كيف رفعت رأسي في لمحة خاطفة من الاقتناع بأن الغاز يتسرب من موقد المطبخ وبأنه يسمّمني... لكني لم أشم رائحة غاز!

لعلي دخلت الحمام الصغير المتّصل بغرفتها ونظرت في خزانة

الأدوية بحثاً عن أسبيرين، عن شيء من أجل رأسي... لست أدري. لست واثقاً إلا من شيء واحد: صرت في غرفتي في لحظة ما، لا أعرف كيف وصلت إليها... كنت مستنداً بإحدى يدي إلى الجدار الذي إلى جانب سريري، وكنت أشعر بأنني موشك على التقيؤ. ثم اختلط كل شيء وما عدت أعرف ما حدث إلى أن وجدت نفسي جالساً مشوشاً على الأريكة في غرفة المعيشة وسمعت صوت شيء كأنه صوت فتح الباب.

لكنه لم يكن باب شقتنا. كان باب شقة أخرى في الممر. كانت الغرفة مظلمة، وكنت أسمع صوت حركة السير الكثيفة بعد الظهر، ساعة الزحام، آتية من الشارع. في تلك الظلمة الخفيفة، جلست لحظة توقّف فيها قلبي، لحظة أو لحظتين، بينما رحت أميّز تلك الأصوات من حولي وأميز الخطوط المألوفة لمصباح الطاولة ومساند الكراسي المحفورة في أعلاها على شكل طبقات وهي تتضح شيئاً فشيئاً على خلفية النافذة التي ينيرها ضوء الغسق. قلت: «ماما!؟»... كان صوتي عابقاً بالخوف... كان خوفي مسموعاً بكل وضوح.

سقطت نائماً في ثيابي المبلّلة المتّسخة. صارت الأريكة مبلّلة أيضاً وانطبع حيث كنت مستلقياً عليها أثر رطب واضح لجسدي. تخلّلت نسمة باردة ستائر النافذة التي تركتها أمي مفتوحة جزئياً عندما خرجنا في الصباح. نظرت إلى الساعة فوجدتها قد بلغت السادسة وسبعاً وأربعين دقيقة. وبخوف متنامٍ، سرت في الشقة متيبساً وأضأت الأنوار كلها... أضأت حتى مصابيحَ السقف في غرفة المعيشة، تلك المصابيح التي لا أضيئها إلا نادراً لشدة نورها.

وقفت بباب غرفة أمي فرأيت ضوءاً أحمر وامضاً في الظلام. غمرتني موجة ارتياح لذيذ: اندفعت ملتفاً حول السرير. وراحت أصابعي تبحث عن مفتاح الرسائل الصوتية في جهاز الهاتف. مرت ثوانٍ كثيرة قبل أن أدرك أن الصوت لم يكن صوت أمي على الإطلاق بل صوت امرأة تعمل

معها... صوت بدا لي مبتهجاً على نحو غير مسؤول: «مرحباً يا أودري. إن برو معي هنا، يتفقّد الأمور. كان يوماً مجنوناً، أليس كذلك؟ استمعي... وصلت النماذج التجريبية للمعرض... نماذج باريغا... وصار علينا أن نتحدّث في الأمر. لكنهم أجّلوا الموعد النهائي مما يعني أنه ما من سبب للقلق، الآن على الأقل. آمل أن يكون يومك جميلاً. محبتي لك. اتصلي بي عندما تستطيعين».

بقيت واقفاً زمناً طويلاً، وكنت أنظر إلى جهاز الهاتف بعد أن أظلمت شاشته. ثم أزحت زاوية الستارة وألقيت نظرة إلى حركة السير في الشارع.

لقد كانت تلك الساعة: ساعة عودة الناس إلى بيوتهم. كانت أصوات أبواق السيارات تتناهى إليّ صاعدة فتُسمع خافتة من الشارع. وكان صداعي العنيف لا يزال مستمراً، ومعه ذلك الشعور (شعور جديد عليّ في ذلك الوقت لكن المؤسف أنه صار الآن مألوفاً إلى حد كبير)... شعور من يستيقظ فيجد نفسه واقعاً تحت أثر الإكثار من الشراب ويحس كما لو أنه نسي أشياء هامة فتركها من غير أن ينجزها.

عدت إلى غرفتها، وبيدين مرتجفتين رحت أطلب رقم هاتفها المحمول. طلبت الرقم بسرعة كبيرة جعلتني أخطئ فأعدت المحاولة من جديد. لكنها لم تجبني. تركت لها رسالة: «ماما؛ هذا أنا. قلقت عليك. أين أنت؟».

ثم جلست على حافة سريرها واضعاً رأسي بين يديَّ.

بدأت رائحة طهو الطعام تتصاعد من الطوابق السفلية. وأتت عائمة في الهواء أصوات غير واضحة من شقق الجيران: خبطات غير مفهومة، وشخص يفتح أبواب خزانة ثم يغلقها. صار الوقت متأخراً: كان الناس يعودون إلى بيوتهم بعد العمل فيلقون بحقائبهم ويحيّون قططهم وكلابهم وأطفالهم، ويشغلون أجهزة التلفزيون على نشرات الأخبار ويستعدون للخروج من أجل عشاء في الخارج. فأين هي؟ حاولت التفكير في أي

سبب قد يجعلها تتأخّر، قد يجعلها غير قادرة على الوصول حتى الآن... فمن يدري؟ ربما أغلقت الطرق في مكان ما فلم تستطع العودة إلى البيت. لكن، لماذا لم تتصل؟

لعل هاتفها سقط منها؟ هكذا رحت أقول في نفسي. لعله تحطم؟ لعلها أعطته لأحد كان في حاجة إليه أكثر منها!

صار هدوء الشقة ضاغطاً على أعصابي. كنت أسمع غناء الماء في الأنابيب، ونسمات الهواء التي تهز الستائر هزاً خبيثاً. ولأنني كنت جالساً على حافة سريرها من غير نفع شاعراً بأن عليَّ أن أفعل شيئاً ما، أعدت الاتصال بها، ثم تركت لها رسالة أخرى. لكني عجزت عن إخفاء ارتجاف صوتي هذه المرة. *ماما، نسيت إخبارك بأنني في البيت. اتصلي، أرجوكِ. اتصلي عندما تصيرين قادرة على الاتصال، ولا تتأخري، اتفقنا؟* ثم اتصلت بمكتبها وتركت لها رسالة صوتية أخرى... من باب الاحتياط!

عدت إلى غرفة المعيشة وقد بدأت تتسرب إلى صدري برودة قاتلة. وقفت بضع لحظات، ثم ذهبت إلى المطبخ ونظرت إلى اللوحة المعلقة هناك لأرى إن كانت قد تركت لي رسالة ما على الرغم من معرفتي بأن من المستبعد تماماً أن أجد رسالة. عدت إلى غرفة المعيشة وألقيت من النافذة نظرة أخرى في اتجاه الشارع المزدحم. أيمكن أن تكون قد ذهبت إلى الصيدلية أو إلى متجر ديلي ولم ترِد إيقاظي؟ أراد جزء مني أن أخرج إلى الشارع حتى أبحث عنها، لكن من الجنون التفكير في أنني سأكون قادراً على رؤيتها وسط هذا الزحام كله، فضلاً عن خوفي الشديد من احتمال اتصالها أثناء غيابي عن الشقة.

كان الوقت قد تجاوز ساعة تبديل نوبة عمل البوابين. عندما اتصلت بغرفتهم في الأسفل، كنت آمل أن يجيبني كارلوس (أقدم البوابين وأكثرهم لياقة واحتراماً)؛ وحتى من الأفضل أن يجيبني خوسيه: رجل ضخم سعيد من الدومينيكان... الشخص المفضّل عندي.

لكن أحداً لم يجبني. مر زمن طويل، ثم أتاني صوت نحيل متردّد بدا لي أجنبياً: «مرحباً!».

«هل خوسيه موجود؟».

أجابني الصوت: «لا. لا. اتصل في ما بعد».

أدركت أنه صوت الرجل الآسيوي ذي المظهر الخائف، ذلك الذي يضع نظارة واقية على عينيه وقفازاً مطاطياً في يديه ويعمل على آلة تشميع الأرضيات، ويهتم بجمع القمامة ويقوم بأعمال كثيرة أخرى في البناية. وكان البوابون (الذين بدا لي أنهم لا يعرفون له اسماً بأكثر مما أعرف) يطلقون عليه اسم «الرجل الجديد»؛ كما كانوا يتذمّرون من الإدارة التي أتت بشخص لا يتكلم الإنكليزية ولا الإسبانية. كانوا يلومونه على كل غلطة تحدث في البناية كلّها: الرجل الجديد لم يجرف الثلج من الممرات بشكل صحيح؛ الرجل الجديد لم يضع البريد حيث يجب وضعه، ولم ينظّف الفناء مثلما ينبغي تنظيفه.

سمعت الرجل الجديد يقول لي مرة أخرى... آملاً أن أتركه وشأنه: «يمكنك الاتصال في وقت لاحق».

كان على وشك إغلاق الهاتف عندما قلت له: «لا، انتظر! أريد أن أكلم أحداً».

صمت مرتبك.

قلت له: «أرجوك... إذا كان هناك شخصٌ غيرك... إنها حالة طارئة».

أجابني بصوت قلق: «لا بأس...». لكنه قالها بنبرة تعطي انطباعاً بأن الكلام لم ينته، فمنحتني أملاً. سمعت صوت تنفسه الثقيل في ذلك الصمت.

قلت له: «اسمي ثيو بيكر. في الشقة رقم 7 س. رأيتك مرات كثيرة في الأسفل. أمي لم تعد إلى البيت. ولا أعرف ما يمكنني فعله».

صمت حائر طويل. سمعته يقول: «سبعة»... كأن ذلك الجزء الوحيد الذي لم يفهمه مما قلته.

قلت من جديد: «أمي... أين هو كارلوس؟ أليس عندك أحد منهم؟».

أجابني بصوت خائف: «آسف؛ شكراً»، وأغلق الهاتف.

أغلقت الهاتف بدوري، وكنت غاضباً حقّاً. بقيت بضع لحظات واقفاً متجمداً وسط غرفة المعيشة، ثم شغلت التلفزيون. كانت المدينة كلها في حالة فوضى. الجسور المفضية إلى الضواحي مغلقة؛ وهذا ما يفسر عدم قدرة كارلوس وخوسيه على الوصول إلى مكان عملهما. لكني لم أرَ شيئاً يمكن أن يساعدني في فهم السبب الذي جعل أمي تتأخّر إلى هذا الحد. رأيت على الشاشة رقم هاتف من أجل الاتصال في حالة فقدان شخص ما. نسخت الرقم على قصاصة ورق، ثم عقدت اتفاقاً مع نفسي بأن أتصل على هذا الرقم إذا لم تأتِ أمي خلال ساعة ونصف الساعة.

جعلتني كتابة ذلك الرقم على الورقة أشعر بأنني صرت أحسن حالاً. ولسبب ما، كانت عندي ثقة بأن كتابة الرقم ستجعل أمي -على نحو سحري- تأتي داخلة من باب الشقة. لكنَّ خمساً وأربعين دقيقة انقضت، ثم انقضت ساعة، ولم تظهر أمي. سقطت مقاومتي آخر الأمر واتصلت بذلك الرقم، (كنت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً وعيناي متعلّقتين بشاشة التلفزيون طيلة الوقت الذي أمضيته منتظراً إجابة أحد على اتصالي. وطيلة ذلك الوقت، كنت أسمع إعلانات تجارية عن أسرّة وأجهزة استيريو وخدمة توصيل سريعة من غير حاجة إلى بطاقة ائتمان). ثم أتاني صوت امرأة نشط، صوت شخص مهتم بعمله. أخذت المرأة اسم أمي، وسجلت رقم هاتفنا، وقالت لي إن أمي ليست «على قائمتها»، لكني سأتلقّى اتصالاً إذا ظهر اسمها. أغلقت الهاتف قبل أن أنتبه قبل سؤالها عن طبيعة تلك القائمة التي تحدّثت عنها. ثم مر زمن من الشكوك والظنون لا أعرف كم استطال كنت أسير خلاله في دورة معذّبة أجول فيها على الغرف الأربع، فأفتح الدروج وألتقط كتباً ثم أضعها من جديد، وأفتح كمبيوتر أمي لأرى ما أستطيع التوصل إليه عبر البحث في جوجل (لا شيء)... ثم اتصلت حتى أسأل من جديد.

قالت امرأة أخرى بصوت بدا لي قليل الاكتراث إلى حدٍّ غريب: «اسمها ليس مسجلاً في قائمة الموتى، ولا في قائمة المصابين».

انتعش قلبي: «هل يعني هذا أنها بخير؟».

«أقول لك إنه ليست لدينا معلومات على الإطلاق. هل تركت لدينا رقم هاتفك حتى نتمكّن من الاتصال بك».

أجبتها بأن رقم هاتفي موجود عندهم. وأخبرتها بما قالوه لي من أنهم سيعاودون الاتصال.

كان الإعلان في التلفزيون يقول: «توصيل مجاني، وتركيب مجاني. احرص على السؤال عن خطة التمويل لستة شهور».

سمعت المرأة تقول: «أتمنى لك حظّاً طيباً». ثم أغلقت الهاتف.

صار السكون في الشقة غير طبيعي؛ بل إن صوت التلفزيون المرتفع لم يفلح في دفعه بعيداً. قُتل واحد وعشرون شخصاً، وهنالك (عشرات) من المصابين حاولت عبثاً أن أطمئن نفسي بتكرار هذا الرقم: واحد وعشرون قتيلاً ليس بالأمر السيئ كثيراً، أليس كذلك؟ واحد وعشرون شخصاً ليسوا أكثر من جمهور صغير جداً في صالة سينما، بل حتى في أحد الباصات. هذا أقل بثلاثة أشخاص من عدد التلاميذ في صف اللغة الإنكليزية. لكنّ شكوكاً ومخاوف جديدة لم تلبث أن تجمعت من حولي فصرت عاجزاً عن فعل أي شيء يتجاوز منع نفسي من الجري خارجاً من الشقة وأنا أصيح باسمها.

وبقدر رغبتي في الخروج إلى الشارع حتى أبحث عنها، كنت أعرف أن من المفترض أن أظلّ في مكاني، كان من المفترض أن أظل في الشقة، هكذا كان اتفاقنا. هكذا كان اتفاقنا الثابت المتين منذ أن كنت في المدرسة الابتدائية عندما كانوا يرسلونني من المدرسة إلى البيت مزوداً بكراس «التأهب في حالات الكوارث»، الذي فيه صور أشبه بأفلام الكارتون تصوّر نملات في أقنعة واقية من الغاز تجمع المؤن استعداداً لحالة طوارئ

لا يحدّد الكراس طبيعتها. وقد أنجزت حل الكلمات المتقاطعة في ذلك الكراس، بالإضافة إلى الإجابة عن أسئلة استبيان غامض («ما هي أفضل الملابس التي يجب وضعها في صندوق مستلزمات حالات الكوارث؟ أ- ثوب السباحة؛ ب- ملاءات؛ ج- تنورة طويلة؛ د- رقائق ألمنيوم»). وقد وضعت -مع أمي- «خطة عائلية لمواجهة حالات الكوارث». كانت خطتنا بسيطة: نلتقي في البيت. وإذا لم يتمكّن أحدنا من الوصول إلى البيت، فإن عليه أن يتّصل. لكن الوقت كان يمرّ، ولم يرنّ الهاتف أبداً؛ ثم ارتفعت حصيلة القتلى في التلفزيون إلى اثنين وعشرين، ثم صارت خمسة وعشرين. هذا ما جعلني أتّصل برقم الطوارئ من جديد.

قالت المرأة التي أجابت: «نعم. أرى هنا أنك اتصلت قبل الآن. وقد سجّلنا اسمها لدينا». قالت هذا بصوت هادئ إلى حد يثير الغضب.

«لكن... لعلّها في المستشفى، أو شيء من هذا القبيل!».

«قد تكون في المستشفى. لكني لا أستطيع تأكيد ذلك، للأسف. قل لي اسمك من جديد. هل تحب أن تتحدّث مع أحد الاستشاريين النفسيين لدينا؟».

«ما المستشفى الذي يأخذون الناس إليه؟».

«إنني آسفة. ففي الحقيقة... أنا لا أستطيع أن...».

«هل هو بيث *إسرائيل*؟ هل هو *لينوكس هيل*؟».

«أرجو أن تدرك أن الأمر يكون معتمداً على نوع الإصابة. هنالك أشخاصٌ لديهم إصابات في العين، أو حروق، أو غير ذلك. هنالك الآن أشخاص يخضعون للجراحة في مختلف أنحاء المدينة و...».

«وماذا عن الأشخاص الذين أعلن قبل دقائق قليلة عن مقتلهم؟».

«اسمع... إنني أفهم حالتك. وأريد أن أساعدك، لكني أؤكد لك أن اسم أودري بيكر غير موجود على القائمة التي عندي».

راحت عيناي تتنقّلان متوترين في أرجاء غرفة المعيشة تنقّلاً عصبياً.

كان الكتاب الذي تقرأه أمي (جين *والتعقل* لباربرا بايم) مقلوباً على وجهه فوق ظهر الأريكة، وواحد من شالاتها الكشمير على ذراع الكرسي. إن لديها شالات من مختلف الألوان. كان هذا الشال بلون أزرق شاحب.

«قد يكون من الأفضل أن تأتي إلى مقر الترسانة. لقد أقاموا شيئاً للعائلات هناك -لديهم طعام والكثير من القهوة الحارة. هناك أيضاً أشخاص يمكن الحديث معهم».

«لكنّي أسألك إن كان هناك قتلى لم تعرفوا أسماءهم... أو إن كان هناك أشخاص مصابون!».

«إنني أفهم قلقك. وأتمنّى حقّاً أن أساعدك في هذا الأمر. لكني لا أستطيع. سوف نتصل بك فور تمكّننا من الحصول على معلومات محددة».

«يجب أن أجد أمي! من فضلك! قد تكون الآن في مستشفى في مكان ما. هل يمكنك إعطائي فكرة عن المكان الذي يجب أن أذهب إليه حتى أبحث عنها؟».

قالت المرأة بنبرة متشككة: «كم عمرك؟».

جعلني سؤالها أصمت لحظة، ثم أغلق الخط. رحت أحدّق في الهاتف عدة لحظات انتابني فيها نوع من الدوار. كنت أشعر بارتياح، لكني شعرت بالذنب أيضاً، كما لو أنني أوقعت شيئاً وكسرته. عندما نظرت إلى يديّ فرأيتهما مرتجفتين، فاجأني ذلك على نحو غير شخصي على الإطلاق وكأنني أرى أن بطارية الآيبود عندي قد فرغت... كل ما في الأمر هو أنني لم آكل منذ وقت. لم يحدث في حياتي أبداً، إلا عندما أصاب بفيروس في المعدة، أن أمضيت هذا الوقت الطويل كلّه من غير طعام. وهكذا ذهبت إلى البراد فوجدت علبة من الكرتون فيها بقايا طعام من اليوم السابق فوضعتها على الطاولة والتهمت محتوياتها واقفاً، مكشوفاً تحت وهج مصباح السقف. كان في البراد أيضاً بقايا أرز

وفومونغ بالبيض، لكني تركتها لها لأنها قد تكون جائعة عندما تأتي. كاد الليل ينتصف: سرعان ما يصير الوقت متأخراً على طلب طعام جاهز من متجر ديلي. بعد انتهائي من الأكل، غسلت شوكتي، وغسلت فنجان القهوة المتروك منذ الصباح، ثم مسحت الطاولة حتى لا تكون أمي مضطرة إلى فعل أي شيء عندما تعود إلى البيت. سوف يسرّها هذا (هكذا أكّدت لنفسي) عندما ترى أنني نظفت المطبخ من أجلها. وسوف يسرّها أيضاً (هذا ما ظننته، على الأقل) رؤية أنني أنقذت اللوحة التي تحبها. قد تغضب مني؛ لكني قادر على شرح ما جرى.

كانوا يقولون في التلفزيون إنهم صاروا الآن عارفين بالجهة المسؤولة عن التفجير: جماعات تأرجحت القصص الإخبارية بين تسميتها «يمينية متطرفة» و«إرهابية محلية». لقد جرى تعاون بين تلك الجماعات وشركة للنقل والتخزين؛ وبتعاون من شخص غير معروف في المتحف، تمكّنوا من إخفاء المتفجرات داخل منصّات العرض الخشبية المفرغة في متاجر المتحف حيث تباع البطاقات البريدية والكتب الفنية. قتل واحد من مرتكبي هذه الجريمة، وهناك بعض منهم رهن الاحتجاز. هناك أيضاً آخرون لا يزالون طلقاء. وبعد ذلك، استرسلوا في الحديث عن بعض الأشياء المحدّدة، ومضوا إلى مزيد من التفاصيل، لكن ذلك كان أكثر من أن أستطيع استيعابه.

كنت في تلك اللحظة أحاول فتح الدرج العالق في المطبخ. إنه عالق منذ ما قبل رحيل أبي. لم يكن فيه شيء إلا أدوات تقطيع الفطائر، وعدد من قضبان الشي المعدنية القديمة، وعصّارة ليمون لم نكن نستخدمها أبداً. تحاول أمّي منذ أكثر من سنة أن تأتي بأحد من البناية حتى يصلحه (إلى جانب مقبض الباب المكسور وحنفية يتسرب منها الماء وبضعة أشياء مزعجة أخرى). أخرجت سكين الزبدة وحاولت إدخاله عند حواف الدرج محاذراً أن أكشط الطلاء أكثر مما كان مكشوطاً. كانت قوة

الانفجار لا تزال مدوية عميقاً في عظامي... صدى داخلي لذلك الرنين الذي في أذنيَّ. وأسوأ من هذا أنني كنت لا أزال أشم رائحة الدم وأحس طعمه في فمي... طعم هو مزيج من الملح والقصدير. (سوف تلازمني تلك الرائحة أياماً، لكني ما كنت أعرف هذا آنذاك).

أثناء عملي على الدَّرج وانشغالي به، رحت أتساءل إن كان عليَّ أن أتصل بأحد ما؛ وإن كان عليَّ أن أفعل ذلك، فبمن أتصل؟ كانت أمي وحيدة أبويها. على الرغم من أن لدي، من الناحية الشكلية، جد وجدة على قيد الحياة ـ والد أبي وزوجة والده في ولاية ميريلاند -فقد كنت جاهلاً كيفية الاتصال بهما. كانت العلاقات في أسوأ أحوالها بين أبي وزوجة أبيه، دوروثي، التي كانت مهاجرة من ألمانيا الشرقية عملت في تنظيف المكاتب لكي تكسب عيشها قبل زواجها من جدي. (كان أبي ماهراً ذكياً في التقليد. وكان يؤدّي تقليداً مضحكاً قاسياً لدوروثي: يصورها كما لو أنها ربة منزل تعمل على البطارية... شفتان مضغوطتان وحركات مفاجئة متشنّجة ولكنة شبيهة بلكنة كورت غورغنز في فيلم «*معركة بريطانيا*»). وعلى الرغم من أن أبي كان يكره دوروثي بما فيه الكفاية، فقد كان جدي، بيكر، عدوه الأول: رجل طويل بدين مخيف المظهر له، وجنتان حمراوان وشعر أسود (مصبوغ على ما أظن)، يكثر من ارتداء الصدارات والملابس المنقوشة بمربعات صارخة الألوان ويؤمن بعقوبة الجلد بالحزام للأطفال. كانت العبارة الأولى التي ارتبطت بجدي بيكر في ذهني «*لا نزهة*» ـ كما في قول أبي «*كان العيش مع ذلك الوغد عذاباً، لا نزهة*»، أو «*صدّقني، لم يكن وقت العشاء في بيتنا نزهة على الإطلاق*». لم أرَ جدي بيكر وزوجته دوروثي إلا مرتين في حياتي. وكانت تلك المرتان مناسبتين متوتّرين مشحونتين؛ أتذكّر كيف كانت أمي فيهما جالسة على الأريكة مائلة إلى الأمام، مرتدية معطفها واضعة حقيبة يدها في حضنها، وأتذكّر محاولاتها الجاهدة في أن تفتح معهما أحاديث لا تلبث أن تتعثّر وتغرق في رمال

متحركة. وأهم ما أتذكّره تلك الابتسامات القسرية والرائحة الثقيلة لتبغ الغليون بنكهة الكرز، والتحذير غير الودي الذي تلقيته من جدي بيكر بألا أضع *«قفازي الصغير الدبق»* على نموذج القطار الذي كان لديه (نموذج قطار في قرية بجبال الألب كان يحتل غرفة كاملة في بيتهما. وكان جدي يقول إن قيمته تبلغ عشرات آلاف الدولارات)». نجحت في لي سكين الزبدة عندما أدخلته أعمق مما يجب في ذلك الشق عند جانب الدرج العالق -كان واحداً من السكاكين القليلة الجيّدة عند أمي-: سكين فضي ورثته عن أمها. بذلت أقصى جهدي حتى أعيد النصل إلى وضعه الطبيعي ورحت أعض على شفتي حتى أركّز على تلك المهمة، لكنّ لمحات بشعة من ذلك اليوم الذي عشته ظلت تطير أمامي وتصفعني على وجهي. كانت محاولة الكف عن التفكير في ذلك أشبه بمحاولة الكف عن التفكير في بقرة بنفسجية. لا يستطيع المرء منع نفسه من التفكير في بقرة بنفسجية!

انفتح الدرج على نحو غير متوقع. نظرت إلى ما فيه: بطاريات صدئة، وأداة مكسورة لبَشْر الجبن، وقوالب للمعجّنات على شكل بلورات الثلج لم تستخدمها أمي منذ أن كنت في الصف الأول. كانت تلك القوالب ملفوفة بوصفات قديمة مجعّدة من محل *«فياند آند شول لي بالاس»* ومن محل *«بيلمونز»*. تركت الدرج مفتوحاً بحيث يكون أول ما تراه أمي عندما تدخل المطبخ، ثم مضيت إلى الأريكة فلففت نفسي ببطانية واستلقيت بحيث أظلّ قادراً على رؤية باب الشقة.

كان عقلي يدور في دوائر عنيفة مضطّربة. مر عليَّ وقت طويل وأنا أرتجف محمر العينين في وهج شاشة التلفزيون بينما كانت الظلال الزرقاء المنبعثة منه تتراقص هنا وهناك. لم تكن لديهم أخبار جديدة في حقيقة الأمر. واظبت الصور على العودة إلى اللقطات الليلية المأخوذة من المتحف (صار الآن طبيعي المظهر باستثناء شريط الشرطة التحذيري الأصفر الذي بقي معلقاً على امتداد الرصيف، والحراس المسلحون أمام البوابة، وبقع متفرّقة من دخان يتصاعد من السقف إلى سماء تنيرها الكشّافات).

أين هي؟ ولماذا لم تعد بعد إلى البيت؟ سيكون لديها تفسير منطقي، بالتأكيد! وسوف تجعل الأمر كله كأنه لا شيء. وعندها، سيبدو قلقي هذا كله أمراً غبياً تماماً.

محاولاً إبعادها عن ذهني، ركزت بكل قوتي على مقابلة كانوا يعرضونها من جديد... مقابلة أُجريت في وقت سابق من تلك الأمسية. واحد من الأوصياء على المتحف في نظارة وسترة صوفية وربطة عنق على شكل فراشة -كان من الواضح أنه مهزوز- راح يتحدّث معترضاً على عدم سماحهم للمختصّين بدخول المتحف للعناية بالأعمال الفنية.

كان يقول: «نعم... أفهم أنه مسرح جريمة؛ لكن هذه اللوحات شديدة الحساسية لأي تغير في طبيعة الهواء ودرجة الحرارة. ومن الممكن أن تتضرّر بفعل الماء أو المواد الكيميائية أو الدخان. ولعلّها تتلف الآن أثناء حديثنا. من الأهمية بمكان أنيُسمح للقيّمين على المتحف وللمختصّين في ترميم اللوحات بالدخول إلى المناطق الحساسة حتى يتمكنوا من تقدير الأضرار بأسرع ما يمكن...».

رن الهاتف على نحو مفاجئ تماماً -كان رنينه مرتفع الصوت إلى درجة غير طبيعية كأنه ساعة منبه توقظني من أسوأ حلم في حياتي كلها-. كانت موجة الارتياح التي غمرتني عصية على الوصف. تعثّرت وكدت أقع على وجهي عندما قفزت تلك القفزة الطويلة حتى أصل إلى الهاتف. من المؤكّد أنها أمّي؛ لكن اسم المتصل الذي ظهر على الشاشة جعلني أتجمد في مكاني: NYDoCFS. دائرة نيويورك لـ... لماذا؟ وبعد نصف لحظة من الارتباك، رفعت السماعة وقلت: «ألو؟».

أجابني صوت فيه لطف هادئ يكاد يكون خبيثاً: «مع من أتكلم؟».

فوجئت بهذا، فقلت: «أنا ثيودور بيكر. مَن المتكلّم؟».

«مرحباً يا ثيودور. اسمي مارغوري بيث وينبرغ. إنني عاملة اجتماعية في دائرة خدمات الطفل والأسرة».

«ما الأمر؟ هل تتّصلين لأمر متعلّق بأمي؟».
«أنت ابن أودري بيكر... هل هذا صحيح؟».
«أمي! أين أمي؟ هل هي بخير؟».
صمت طويل ـ صمت مخيف!
صحت في الهاتف: «ما الأمر؟ أين هي أمي؟».
«هل والدك في البيت؟ هل يمكنني التحدّث معه؟».
«لا يستطيع المجيء إلى الهاتف. ما الأمر؟».
«إنني آسفة، لكن الأمر طارئ. الأمر في غاية الأهمية، ويجب أن أتحدّث مع والدك في الحال».
نهضت واقفاً وقلت لها: «ماذا عن أمّي؟ من فضلك! أخبريني بمكانها! ماذا حدث؟».
«أنت لست وحدك في البيت يا ثيودور، أليس كذلك؟ هل معك في البيت شخص كبير؟».
«لا. لقد خرجوا لتناول القهوة». قلت لها هذا وأنا ألقي نظرة مجنونة في أنحاء غرفة المعيشة. شبشب أبيض صغير في وضعية مائلة تحت الكرسي. وزنابق بنفسجية في أصيص مغلّف بورق الألمنيوم.
«هل خرج والدك أيضاً؟».
«لا. إنه نائم. أين أمي؟ هل أصيبت؟ ماذا حدث؟».
«يؤسفني أن أطلب منك إيقاظ والدك يا ثيودور».
«لا، لا أستطيع إيقاظه».
«الأمر في غاية الأهمية».
«لا يستطيع أبي أن يأتي إلى الهاتف. لماذا لا يمكنك إخباري بالأمر؟».
«لا بأس. إذا كان والدك غير قادر على الكلام الآن، فأظن أن من الأفضل أن أعطيك رقم هاتفي». صحيح أن ذلك الصوت كان لطيفاً،

ناعماً ومتعاطفاً، لكنه كان في أذني أشبه بصوت الكمبيوتر هال في فيلم «*2001: أوديسا الفضاء*»... «أرجو أن تخبره بضرورة الاتصال بي في أسرع وقت ممكن. من المهم كثيراً أن يتّصل».

بعد انتهاء المكالمة، جلست ساكناً زمناً طويلاً جداً. بحسب الساعة فوق الموقد -كنت قادراً على رؤيتها من مكان جلوسي- كان الوقت قد بلغ الثانية وخمساً وأربعين دقيقة صباحاً. لم يسبق لي أبداً أن كنت وحيداً مستيقظاً إلى هذه الساعة. كانت غرفة المعيشة -غرفة فسيحة مفتوحة عادة، غرفة عابقة بحضور أمي- قد انكمشت إلى مكان مزعج، شاحب، بارد، كأنها بيت عطلات في الشتاء: أقمشة هشّة، وسجادة ليفية تخدش الأقدام، ومصابيح بأغلفة ورقية من الحي الصيني، وكراسي أخف وأصغر مما ينبغي. بدا لي الأثاث كلّه هشاً، ضعيفاً مهتزاً كأنه واقف على أطراف أصابعه لشدة توتّره. كنت أحس بنبض قلبي وأسمع تكتكات البناية الضخمة العتيقة وطقطقاتها وهسيسها من حولي. الناس نائمون جميعاً. حتى أبواق السيارات البعيدة وقعقعة عارضة لشاحنة آتية من الشارع رقم سبعة وخمسين بدت أصواتاً واهنة غير مؤكّدة... بدت لي أصواتاً متوحّدة كأنها آتية من كوكب آخر.

كنت أعرف أن سماء الليل ستصير بنية داكنة عما قريب؛ وسوف يبين أول شعاع رقيق بارد من ضياء النهار النيساني فيدخل الغرفة متسلّلاً. سوف تسمع زمجرة شاحنات جمع القمامة وقرقعتها في الشارع؛ ويبدأ غناء الطيور الربيعي في الحديقة؛ وينطق رنين الساعات المنبهة في غرف النوم في المدينة كلّها. سوف يلقي رجال متعلّقون بظهور الشاحنات على الأرصفة عند أكشاك الجرائد حزماً ضخمة من صحف تايمز وديلي نيوز. وسوف يتحرّك الآباء والأمهات في شققهم في المدينة كلّها مشعثي الشعر في ملابسهم الداخلية أو في مناشف الحمام فيحضِّرون القهوة ويشغلون محامص الخبز ويوقظون أطفالهم للذهاب إلى المدرسة.

فماذا أفعل أنا؟ كان جزءٌ مني خامداً خدره القنوط مثل تلك الفئران

التي تفقد الأمل أثناء التجارب في المختبرات فتؤثر الرقود في المتاهة إلى أن تتضوّر جوعاً.

حاولت لملمة شتات أفكاري. بدا لي لحظة أنني إذا ما جلست ساكناً إلى الحد الكافي، وانتظرت، فسوف تصلح الأمور نفسها بنفسها... على نحو ما! راحت الأشياء في الغرفة تتمايل لشدة إعيائي: هالات متلألئة من حول مصباح الطاولة، والخطوط التي على ورق الجدران بدت مهتزة.

تناولت دليل الهاتف، ثم وضعته من يدي. أخافتني فكرة الاتصال بالشرطة. ثم... ماذا يمكن للشرطة أن تفعل؟ كنت أعرف جيداً، من التلفزيون، أن الشرطة لا تتحرّك قبل أن تمر على اختفاء شخص من الأشخاص أربع وعشرون ساعة. كنت موشكاً على إقناع نفسي بأن عليَّ أن أسير في المدينة باحثاً عنها بصرف النظر عن الوقت، ليلاً أو نهاراً... وإلى الجحيم بالخطة التي وضعناها، «الخطة العائلية لمواجهة الكوارث»، عندما حطّم الصمت رنين مُصمّ -جرس الباب- فقفز قلبي من مكانه فرحاً.

أسرعت إلى الباب متعثّراً، متمايلاً، ورحت أعبث بالقفل محاولاً فتحه. صحت: «ماما؟» وأنا أفتح الباب... ثم قفز قلبي وسقط من ارتفاع سبعة طوابق. كان بالباب شخصان لم أرهما في حياتي كلها: امرأة كورية بدينة لها شعر قصير منتصب، ورجل من أميركا اللاتينية يرتدي قميصاً وربطة عنق ويبدو شديد الشبه بشخصية لويس في *«شارع السمسم»*. ما كان في هذين الاثنين أي شيء موحٍ بالخطر، بل على العكس تماماً: كانا ممتلئين، قصيرين، متوسطي السن على نحو مطمئن، وكانت ملابسهما أشبه بملابس معلّمي المدارس البدلاء. لكن، على الرغم من اللطف الظاهر في تعبير وجهيهما، أدركت لحظة رأيتهما أن حياتي، كما كنت أعرفها، قد انتهت وأنها لن تعود.

الفصل الثالث

بـارك آفينيو

1

أجلسني العاملان الاجتماعيان في المقعد الخلفي في سيارتهما الصغيرة، ثم أخذاني إلى مطعم في وسط المدينة غير بعيد من مقر عملهما. كان المطعم واحداً من تلك الأماكن التي تتظاهر بالفخامة بكل ما فيه من مرايا مشطوفة وشمعدانات صينية رخيصة. وما إن صرنا في إحدى المقصورات داخل المطعم (جلسا معاً إلى أحد الجانبين، وجلست قبالتهما) حتى أخرج الرجل من حقيبته لوح كتابة وقلماً، ثم حاولا معاً جعلي أتناول بعض الطعام بينما جلسا يرشفان القهوة ويطرحان علي أسئلة. كان الظلام لا يزال مخيماً في الخارج؛ وكانت المدينة في أول استيقاظها. لا أتذكّر أنني بكيت، ولا أنني أكلت، رغم أن السنين التي مرّت كلها لم تجعلني أنسى رائحة البيض المخفوق المقلي الذي طلباه لي: لا تزال ذكرى ذلك الطبق الممتلئ والبخار المتصاعد منه تجعل معدتي منقبضة.

كان المطعم شبه خالٍ من الناس. رأيت مجموعة من عمال التوصيل الناعسين تفتح علباً من الكعك والفطائر الحلوة خلف طاولة البيع. ومجموعة باهتة من الراقصين في أحد النوادي الليلية على وجوههم بقايا

مشوّهة من الكحل كانت جالسة في مقصورة قريبة. أتذكّر كيف كنت أنظر إليهم بانتباه شديد يائس -شاب متعرٍّ في سترة صينية، وفتاة مشعّثة في شعرها خصل وردية اللون- وكنت أنظر أيضاً إلى سيدة عجوز في مكياج كامل ومعطف فرائي أدفأ كثيراً مما يتطلبه الطقس كانت جالسة وحدها، معزلة عند الزاوية، تأكل شريحة من فطيرة تفاح.

بدا لي أن العاملين الاجتماعيين يفهمان كم كنت غير راغب في استيعاب ما يحاولان قوله لي -فعلا كل شيء حتى يجعلاني أنظر إليهما، باستثناء هزّي والفرقعة بأصابعهما أمام وجهي. راحا يتناوبان الكلام ويميلان صوبي من فوق الطاولة ويكرران ما كنت غير راغب في سماعه. لقد ماتت أمي. أصابتها حجارة متطايرة في رأسها. ماتت على الفور. قالا إنهما يأسفان لاضطرارهما إلى إخباري بذلك؛ وقالا إن هذا أسوأ ما في عملهما، لكنهما يريدان -حقّاً حقّاً حقّاً- أن أفهم ما حدث. أمي ماتت. وهي موجودة الآن في «مستشفى نيويورك». فهل فهمت؟

وبعد صمت طويل أدركت خلاله أنهما ينتظران مني قول شيء ما، أجبتهما: «نعم». كان استخدامهما المباشر المُلحّ لكلمتي «*ماتت*» و«موت» أمراً يصعب التوفيق بينه وبين صوتيهما الهادئين المنطقيين وملابسهما المصنوعة من البوليستر، ملابس العمل، وموسيقى البوب الإسبانية المنبعثة من الراديو والإعلانات الحيوية النشطة المعلّقة خلف طاولة البيع (*سموذي الفاكهة الطازج؛ دايت ديلايت؛ تذوق هامبرجر الديك الرومي لدينا!*).

«البطاطس المقلية؟»... كان هذا صوت النادل الذي ظهر عند طاولتنا حاملاً طبقاً كبيراً في يده.

بدا لي كما لو أن العاملين الاجتماعيين أجفلا معاً. قال الرجل (عرفت اسمه الأول فقط: إنريك) للنادل شيئاً باللغة الإسبانية وأشار إلى طاولة بعيدة بعض الشيء حيث كان راقصو النادي الليلي يلوّحون له بأيديهم.

كنت جالساً مصدوماً، محمرّ العينين وأمامي طبق البيض المقلي الذي يبرد سريعاً؛ وكنت شبه عاجز عن إدراك الجوانب العملية المتصلة بوضعي. وفي ضوء ما حدث، بدت لي أسئلتهم عن أبي خارج الموضوع تماماً؛ ثم إنني كنت أعاني صعوبة كبيرة في فهم السبب الذي يحملهم على مواصلة السؤال عنه بذلك الإصرار كلّه.

قالت المرأة الكورية التي كانت قد طالبتني عدة مرات بأن أخاطبها باسمها الأول (حاولت تذكره، لكني لم أستطع): «إذاً، متى رأيت والدك آخر مرة؟». لا أزال قادراً، إلى اليوم، على رؤية يديها الممتلئتين متشابكتين على الطاولة أمامها على الرغم من طلاء أظافرها المزعج: لون رمادي فضي... شيء من الأزرق ولون الخزامى.

استحثّني الرجل، إنريك: «تقريباً، متى رأيت والدك؟».

أردفت السيدة الكورية: «يمكننا الاكتفاء بأية إجابة تقريبية. متى تظن أنك رأيته آخر مرة؟».

قلت: «مممم....». كان التفكير مرهقاً... «في وقت ما خلال الخريف الماضي». كان موت أمي لا يزال يبدو لي أشبه بغلطة قد يمكن إصلاحها والرجوع عنها إذا استطعت استجماع شتات نفسي والتعاون مع هؤلاء الناس.

عندما لم أستجب، قالت لي المرأة بنبرة لطيفة رقيقة: «تشرين الأول؟ أيلول؟».

كان ألم رأسي شديداً جداً، وكنت أحس بنفسي موشكاً على البكاء كلّما حركته... لكن صداعي ذاك كان أهون مشكلاتي. قلت لها: «لست أدري. كان ذلك بعد بداية المدرسة».

سألني إنريك وهو يرفع رأسه بعد أن سجّل شيئاً على لوحته: «هل تظن أنك رأيته في شهر أيلول؟». كان رجلاً خشن المظهر -شخص مخيف ضخم يرتدي بدلة وربطة عنق كأنه مدرب رياضي أصابه قدر

من البدانة- لكن نبرة صوته حملت إحساساً مطمئناً... إحساساً بالعالم العادي المتكرر كل يوم: خزائن الملفات في المكاتب، والأرضيات الصناعية، والأعمال كما تسير عادة في مانهاتن... «لا تواصل ولا هواتف منذ ذلك الوقت؟».

قالت السيدة الكورية وهي تميل في اتجاهي بحركة أمومية: «قل لنا اسماً واحداً من أصحاب أبيك أو أصدقائه المقرّبين يمكن أن يكون قادراً على الوصول إليه؟».

فاجأني هذا السؤال. لم أكن على علم بوجود أي شخص من هذا النوع. بل إن مجرد الإشارة إلى أن لأبي («أصدقاءً مقرّبين» أو «أصحاباً») كانت تحمل قدراً كبيراً من سوء فهم شخصيته... كان ذلك سوء فهم عميقاً جعلني عاجزاً عن الاستجابة أو الرد.

لم أفهم الوجهة التي تتخذها هذه الأسئلة التي بدت لي غير ذات صلة بحالتي: أسئلتهما عن أبي وعن جدي بيكر وزوجته (في ميريلاند؛ لكني لم أستطع تذكر اسم البلدة: منطقة شبه ريفية واقعة خلف متجر هوم ديبوت)، واكتشافهما عدم وجود عمات وأخوال، إلا بعد أن رفعت الأطباق عن الطاولة سليمة كما أتت، فلم يبد أي منهما ما يوحي بالاستعداد للانصراف. لقد كنت طفلاً قاصراً من غير وصي يرعاه. سوف يجري نقلي من بيتي على الفور (أو من «بيئتي» مثلما ظلا يقولان). سوف تكون سلطات المدينة مسؤولة عن رعايتي إلى أن يتم التواصل مع جدي وزوجته.

سألتهما للمرة الثانية وأنا أدفع كرسيَّ إلى الخلف وقد ظهرت في صوتي علائم الخوف: «لكن، ما الذي ستفعلانه بي؟».

كان كل شيء قد بدا عادياً، غير رسمي، عندما أغلقتُ جهاز التلفزيون وخرجت من الشقة معهما... حتى نأكل شيئاً... مثلما قالا لي. لم يقل أحد أية كلمة في ما يتعلّق بـ«نقلي» من بيتي.

أطرق إنريك برأسه ناظراً إلى لوحته: «لا بأس يا تيو...» كلاهما كان ينطقه هكذا -لكن هذا غير صحيح- «أنت طفل قاصر في حاجة إلى رعاية فورية. سوف نكون مضطرين إلى وضعك في نوع من احتجاز مؤقت من أجل رعايتك».

«احتجاز؟»... جعلت تلك الكلمة معدتي تنقبض لأنها أوحت لي بقاعات المحاكم وبمهاجع مقفلة وبملاعب كرة سلة مسوّرة بأسلاك شائكة.

«لا بأس... فلنقل إنه مركز رعاية. ثم إنك لن تبقى هناك إلا ريثما يقوم جدك وجدتك بـ...».

قلت له: «انتظر...». شعرت بالانسحاق تحت وطأة سرعة سير الأمور وخروجها من أية قدرة لي على التحكّم بها، وكذلك نتيجة ذلك الافتراض الزائف... افتراض أن هناك دفئاً وألفة في طريقة قوله تينك الكلمتين: *جدك وجدتك*.

قالت السيدة الكورية وهي تميل في اتجاهي من جديد: «إن علينا القيام ببعض الترتيبات المؤقتة فقط إلى أن نتمكّن من التواصل مع جدك وجدتك...». شممت رائحة النعنع في أنفاسها، لكني شممت أيضاً أثراً طفيفاً من رائحة الثوم... «نعرف أنك في غاية الحزن، لكن ما من شيء يدعوك إلى القلق. عملنا هو أن نحافظ على سلامتك إلى أن نتواصل مع الناس الذين يحبونك ويهتمون بك... هل اتفقنا؟».

كان هذا أمراً بشعاً إلى حد لا يمكن أن يكون معه حقيقيّاً. رحت أنظر إلى الوجهين الغريبين الجالسين قبالتي: وجهان شاحبان تحت الأضواء الاصطناعية. وكان سخيفاً أيضاً ذلك الإيحاء بأن جدّي بيكر وزوجته دوروثي شخصان يمكن أن يهمّهما أمري.

قلت لهما: «لكن، ماذا سيحدث لي؟».

أجابني إنريك: «النقطة الأكثر أهمية هي أنك ضمن وضع يسمح

برعايتك في الوقت الحاضر. ستكون مع شخص يعمل ضمن تعاون وثيق مع دائرة الخدمات الاجتماعية من أجل تطبيق خطة رعايتك».

كان جهدهما المشترك لتهدئتي -صوتاهما المتعاطفان الهادئان، وتعابيرهما المنطقية- يصيبني بخوف متزايد. قلت لهما وأنا أنتفض مبتعداً عن السيدة الكورية التي مدّت يدها فوق الطاولة وكانت موشكة على الإمساك بيدي على نحو رقيق حانٍ: «لا تفعلي هذا!».

«اسمع يا تيو. دعني أوضح لك شيئاً مهمّاً. لا أحد هنا يتحدّث عن احتجاز أو عن مركز للأحداث...».

«فماذا إذاً؟».

«إنه مكان إقامة مؤقت. معنى هذا أننا سنأخذك إلى مكان آمن فيه أشخاص يقومون برعايتك والاهتمام بك نيابة عن سلطات الولاية...».

«وماذا لو كنت غير راغب في الذهاب؟». قلت هذا بصوت مرتفع جعل الناس يلتفتون وينظرون إلينا.

قال إنريك وهو يستوي في مقعده ويشير للنادل طالباً منه أن يأتيه بمزيد من القهوة: «اسمع! إن لدى سلطات المدينة بيوتاً مرخّصة للتعامل مع حالات الأزمات في ما يتعلّق بصغار السن الذين هم في حاجة إلى رعاية. وهي أماكن جيدة. وفي هذه اللحظة، يمكن اعتبار هذا واحداً من الخيارات التي ننظر فيها. ففي كثير من الحالات التي تشبه حالتك...».

«لا أريد الذهاب إلى بيت رعاية».

قالت الفتاة ذات خصلات الشعر الوردية الجالسة إلى الطاولة القريبة: «من المؤكد أنك لا تريد هذا يا فتى...». قالت هذه الكلمات بصوت واضح مسموع. لقد نشرت صحيفة نيويورك بوست في الآونة الأخيرة أخباراً عن جونتاي وكيشاون دايفنز التوأمين في الحادية العشرة من العمر اللذين تعرضا للاغتصاب والتجويع الذي جعلهما مشرفين على الموت من قبل الشخص المكلّف برعايتهما. حدث ذلك في مكان ما بالقرب من مورنينغسايد هايتس.

تظاهر إنريك بأنه لم يسمع ما قالته الفتاة. قال لي وهو يشبك يديه فوق الطاولة من جديد: «انظر... نحن هنا من أجل مساعدتك. وسوف ننظر أيضاً في بدائل أخرى لنرى إن كانت صالحة لتلبية احتياجاتك والمحافظة على سلامتك».

«لم تقولا لي أبداً إنني لن أكون قادراً على العودة إلى الشقة!».

«الحقيقة أن سلطات المدينة لديها عمل كثير الآن... نعم، أشكرك...».

كان الشكر موجهاً إلى النادل الذي أتى حتى يملأ فنجانه من جديد... «لكن من الممكن أحياناً اللجوء إلى ترتيبات أخرى إذا حصلنا على إذن مؤقت بذلك، وذلك في الحالات الخاصة مثل حالتك».

نقرت السيدة الكورية بأظافرها على فورمايكا الطاولة حتى تلفت انتباهي إليها: «ما يقوله هو أن ذهابك إلى واحد من بيوت الرعاية ليس أمراً منقوشاً على الصخر بحيث لا يمكن تغييره... إذا كان هنالك شخص ما يمكن أن يأتي ويقيم معك في الشقة بعض الوقت، أو يمكن أن تذهب لكي تقيم معه بعض الوقت».

كرّرت من خلفها: «بعض الوقت؟».

كان ذلك الجزء الوحيد الذي فهمته من كلامها.

«كأن يكون لديك مثلاً شخص آخر يمكننا الاتصال به، شخص قد تكون مرتاحاً إذا أقمت عنده يوماً أو يومين... قد يكون أحد معلّميك مثلاً، أو أحد أصدقاء الأسرة».

أعطيتهما أول ما خطر في ذهني فكان رقم هاتف صديقي القديم آندي باربر -كان ذلك أول رقم هاتف أتذكّره، ربما لأنه أول رقم أحفظه عن ظهر قلب- إلى جانب رقم هاتفي. صحيح أننا، آندي وأنا، كنا أصدقاء مقربين في المدرسة الابتدائية (كنا نذهب إلى السينما وينام أحدنا عند الآخر ونذهب إلى دروس صيفية في سنترال بارك حيث نتمرّن على استخدام الخريطة والبوصلة)، إلا أنني لا أزال حتى اليوم غير واثق من

السبب الذي جعل اسمه أول اسم أقوله على الرغم من كون الصداقة التي بيننا لم تعد كما كانت.

لقد ابتعدت عنه في السنة الأولى من المدرسة الثانوية، وصرت لا أراه إلا كل عدة شهور.

بعد أن سألني إنريك عن تهجئة اسم العائلة ـ *باربر* ـ ودوّنه لديه، نظر إلي وسألني: «من هم هؤلاء الناس؟ هل هم أصدقاء؟».

أجبته بأنهم أصدقاء أعرفهم طيلة حياتي. تعيش أسرة باربر في بارك آفينيو. وقد كان آندي أقرب أصدقائي منذ السنة الثالثة في المدرسة. قلت: «يعمل والده في وظيفة كبيرة في وول ستريت». ثم أطبقت فمي. تذكّرت في تلك اللحظة أن والد آندي أمضى زمناً لا أعرف مقداره في مستشفى للأمراض العقلية في ولاية كونكتيكت بسبب «الإجهاد».

«وماذا عن الأم؟».

«إنها صديقة مقربة من أصدقاء أمي». (كان هذا صحيحاً على نحو تقريبي، لكنه لم يكن صحيحاً تماماً. كانت أمّي وأمه تتصرّفان كما يتصرف الأصدقاء في ما بينهم، إلا أن أمي لم تكن ثرية ولا صاحبة صلات واسعة تؤهّلها لأن تكون سيدة ممن يظهرن في الصفحات الاجتماعية في المجلات مثلما كانت السيدة باربر).

«لا أقصد هذا... ما عملها؟».

قلت بعد صمت قصير مشوّش: «العمل الخيري... من قبيل معارض الأنتيكات في دار الترسانة!».

«هذا يعني أنها أم وربة منزل».

أومأت برأسي موافقاً مسروراً لأنها زودتني بالعبارة المناسبة التي كانت، على الرغم من صحتها الشكلية، بعيدة كل البعد عن أي وصف يمكن أن يطلقه على السيدة باربر شخص يعرفها معرفة جيدة.

وضع إنريك إمضاءه المزركش تحت ما كتبه في لوحه، ثم قال وهو يغلق قلمه ويعيده إلى جيبه: «سننظر في الأمر. لكننا لا نعدك بشيء. من

المؤكد أننا قادران على أخذك إلى هؤلاء الناس حتى تمضي عندهم بضع ساعات... إذا كنت راغباً في قضاء هذا الوقت عندهم».

خرج من المقصورة وسار في اتجاه الشارع. كنت قادراً على رؤيته عبر الزجاج وهو يسير عبر الرصيف جيئة وذهاباً وهو يتكلّم عبر الهاتف وقد وضع إصبعه على أذنه الأخرى. ثم اتصل برقم آخر فتحدّث زمناً أقل. سوف نمر على شقتنا مروراً سريعاً ـ أقل من خمس دقائق، أي الزمن الضروري لأن آتي بحقيبتي المدرسية وببضع قطع من الملابس أسأت اختيارها ـ وبعد ذلك نذهب من جديد بسيارتهما («هل وضعت حزام الأمان؟»)، كنت مستنداً بخدي إلى الزجاج البارد أنظر إلى إشارة السير الخضراء في شارع بارك آفينيو الخالي ساعة الفجر.

كان بيت آندي في أعلى منطقة سيكستيز، في واحدة من البنايات القديمة الضخمة البيضاء المشرفة على الحديقة حيث تكون ردهة المدخل أشبه بمشهد مأخوذ من فيلم للممثل ديك باول، وحيث لا يزال أكثر البوابين من الإيرلنديين. إنهم موجودون هناك منذ زمن بعيد جداً. وقد تذكّرت الرجل الذي لاقانا عند الباب: كينيث، الحارس الليلي. كان كينيث أصغر سناً من معظم البوابين الآخرين: شخص شديد الشحوب، رديء الحلاقة، بطيء قليلاً معظم الأحيان نتيجة عمله الليلي. وعلى الرغم من كونه شخصاً لطيفاً ـ أحياناً، كان يصلح كرة القدم التي ألعب بها مع آندي، ويقدم إلينا نصائح ودية في ما يتعلق بكيفية التعامل مع الأولاد المتنمرين في المدرسة ـ إلا أنه كان معروفاً بأن لديه مشكلة شراب، نوعاً ما! عندما خطا جانباً مفسحاً لنا الطريق عند بوابة البناية ونظر إلي أول نظرة تقول *يا إلهي، يا فتى، إنني في غاية الأسف!*... نظرة سأتلقى الكثير مما يشبهها خلال الشهور التالية، شممت مزيجاً حامضاً من رائحة النوم والبيرة الفائحة منه.

قال كينيث للعاملين الاجتماعيين: «إنهم في انتظاركما. اصعدا إليهم».

فتح الباب لنا السيد باربر: شقه قليلاً أول الأمر ثم فتحه على اتساعه. قال لنا: «صباح الخير، صباح الخير»، ثم تنحى مفسحاً الطريق. كان السيد باربر غريب المظهر بعض الشيء. كان مظهره موحياً بشيء من الشحوب وبشيء من اللون الفضي كما لو أن المعالجة التي تلقاها في «المزرعة» في كونكتيكت (هكذا كان يسمي ذلك المستشفى) جعلته متوهجاً. كان لون عينيه رمادياً غريباً غير مستقر، وشعره خالص البياض، مما جعله يبدو أكبر سناً مما هو عليه في حقيقة الأمر... إلى أن ينتبه المرء إلى وجهه الشاب الوردي ـ بل حتى الطفولي. خداه المتوردان، وأنفه الطويل الموحي بشيء على الطراز القديم، إضافة إلى الشيب المبكر في شعره... كان هذا كله يعطيه مظهراً محبباً: ليس واحداً من الآباء المؤسسين[1]، بل عضو صغير السن من أعضاء المؤتمر القاري نُقل دفعة واحدة إلى القرن الحادي والعشرين. كان مرتدياً ما بدا لي كأنه ثياب العمل التي ارتداها في اليوم الماضي: قميص مجعد وبنطلون يبدو غالي الثمن ويبدو أيضاً كأنه التقطه قبل قليل عن أرضية غرفة النوم.

قال بسرعة وهو يدعك عينيه بقبضة يده: «ادخلوا. مرحباً يا عزيزي...». قال هذا لي ـ كانت كلمة عزيزي مفاجئة منه حتى في حالتي المشوشة تلك.

تقدَّمنا حافياً عبر الردهة المرمرية. في غرفة المعيشة ذات الديكورات الغنية (ستائر ثقيلة وآنية صينية) كان الجو أشبه بمنتصف الليل منه في الصباح: مصابيح خافتة الضوء مجللة بقماش حريري، ولوحات كبيرة داكنة تصوّر معارك بحرية، وستائر مسدلة تحجب ضوء الشمس. هناك

---

(1) الآباء المؤسسون: قادة الثورة الأميركية للاستقلال عن التاج البريطاني. من أبرزهم جورج واشنطن وتوماس جيفرسون وجون آدمز وبنيامين فرانكلين. وهم الموقعون على «إعلان الاستقلال» الصادر سنة 1776.

المؤتمر القارّي (1774 – 1789): هو الهيئة الحاكمة في الولايات المتحدة طيلة الثورة الأميركية؛ وقد تشكّل من مندوبين عن «المستعمرات الثلاث عشرة».

ـ عند البيانو، إلى جانب باقة زهور ضخمة بحجم حقيبة سفر ـ كانت السيدة باربر واقفة في رداء منزلي طويل، وكانت تصبّ القهوة في فناجين مصفوفة على صينية.

عندما استدارت حتى تلقي التحية علينا، أحسست بالعاملَين الاجتماعيَّين ينظران إلى تفاصيل المكان كله. كانت السيدة باربر من عائلة بارزة في المجتمع، وكانت تحمل اسماً هولندياً قديماً: امرأة شديدة اللطف، شديدة الشقرة، شديدة الرتابة، حتى ليبدو أحياناً كما لو أن الدم قد سحب منها. ثم إنها كانت فنانة في ضبط النفس... لا شيء على الإطلاق يمكن أن يصيبها بالكدر أو الإزعاج. وعلى الرغم من عدم كونها امرأة جميلة، إلا أن لهدوئها تلك الجاذبية المغناطيسية التي يتمتّع بها الجمال ـ هدوء شديد القوة يجعل الجزئيات تعيد ترتيب نفسها من حولها عندما تدخل غرفة من الغرف. كانت كأنها رسم من رسوم مجلات الأزياء قد دبت فيه الحياة، وكانت الرؤوس تستدير إليها أينما ذهبت لكنها تمر بها من غير أن يبدو عليها أي انتباه إلى ذلك الاضطراب الذي تتركه في أعقابها.

كانت عيناها متباعدتين بعض الشيء، وأذناها صغيرتين مرتفعتين شديدتي القرب من رأسها. وكانت طويلة الخصر نحيلته كأنها ابن عرس رشيق. (كانت لآندي هذه الصفات أيضاً، لكنّ تناسُبها كان غليظاً أخرق خالياً من فتنة والدته).

في الماضي، كان تحفظها (أو برودتها، بحسب نظرتك إلى الأمر) يجعلني أحياناً أشعر بعدم الارتياح. لكني كنت في ذلك الصباح ممتناً لبرودة دمها. قالت لي من غير مداورة: «مرحباً! سوف نضعك في الغرفة مع آندي. لكنه لم يستيقظ بعد من أجل المدرسة. إذا كنت تريد الاستلقاء بعض الوقت، ففي وسعك الذهاب إلى غرفة بلات». كان بلات شقيق آندي الأكبر، وكان مسافراً للدراسة... «أنت تعرف مكانها بالطبع!».

قلت لها إنني أعرف تلك الغرفة.

«هل أنت جائع؟».

«لا».

«حسناً إذن. أخبرنا بما نستطيع فعله من أجلك».

كنت مدركاً أنهم ينظرون إليَّ جميعاً. كان صداعي أكبر من أي شيء آخر في تلك الغرفة. كنت أرى في المرآة المقعرة المعلقة فوق رأس السيدة باربر كل ما في الغرفة، لكن مصغراً: الآنية الصينية، وصينية القهوة، وعاملي الإغاثة ذوي المظهر المرتبك قليلاً، وكل شيء.

وفي النهاية، كان السيد باربر هو من كسر السحر. قال وهو يضع يده على كتفي ويوجهه بحركة حازمة إلى الخروج من الغرفة: «إذاً، تعال معي ودعنا نضعك في الغرفة. لا ـ عد، من هنا ـ إلى الخلف، إلى الخلف. ارجع إلى هنا».

لم أدخل غرفة بلات إلا مرة واحدة منذ سنين طويلة. وفي تلك المرة، هددنا بلات ـ الذي كان بطلاً في لعبة لاكروس، إضافة إلى كونه «مختلاً» بعض الشيء ـ بأن يضربنا ضرباً مبرحاً، أنا وآندي، إن دخلنا غرفته مرة أخرى. عندما كان يعيش في هذا البيت، كان يلازم غرفته طيلة الوقت ويقفل الباب عليه (قال لي آندي إنه كان يدخن الماريغوانا). وأما الآن، فقد أزيلت ملصقاته كلها وصارت الغرفة شديدة النظافة ذات مظهر فارغ لأنه يدرس الآن في جامعة ببلدة غروتون. رأيت في الغرفة أثقالاً للتمرينات الرياضية، وأكواماً من نسخ قديمة من مجلة ناشيونال جيوغرافيك، وحوض أسماك فارغ. راح السيد باربر يفتح الأدراج ويغلقها ويثرثر بعض الشيء: «فلنر ماذا لدينا هنا؟ ما رأيك؟ ملاءات للسرير. وهنا... مزيد من الملاءات. أظنني لا أدخل هذه الغرفة أبداً. وآمل أن تسامحني ـ آه، ملابس سباحة! لسنا في حاجة إليها هذا الصباح، أليس كذلك؟». ثم فتح درجاً ثالثاً فأخرج آخر الأمر بيجاما جديدة لا

تزال بطاقتها عليها. كانت في غاية القبح... صورة وعل على خلفية زرقاء ساطعة. هذا يفسر بقاءها غير مستعملة حتى الآن.

قال وهو يمرر أصابعه في شعره ويلقي صوب الباب نظرة قلقة: «لا بأس إذاً، سوف أتركك الآن. يا إلهي... ما أسوأ ما حدث! لا بد أنك في حالة سيئة جداً. لكن النوم العميق أفضل شيء من أجلك في العالم كله. ألست متعباً؟». قال هذا وهو ينظر إليَّ نظرة مدقّقة.

هل كنت متعباً؟ كنت مستيقظاً تماماً، لكن جزءاً مني كان مجمّداً مخدراً كأنني في حالة غيبوبة.

«لعلّك تفضل الآن شيئاً من الصحبة؟ ربما... إذا أشعلت نار الموقد في الغرفة الأخرى حتى نجلس هناك... قل لي ما تريده؟».

أحسست بموجة قنوط حادّة عندما سمعت هذا السؤال ـ إنه غير قادر على فعل شيء من أجلي مهما يكن وضعي سيئاً؛ ومن وجهه أدركت أنه يعرف هذه الحقيقة أيضاً.

«لا بأس، نحن في الغرفة المجاورة إذا احتجت شيئاً ـ وسوف أخرج إلى العمل بعد قليل، لكن أحداً سيكون هنا». راحت عيناه الشاحبتان تتجوّلان في الغرفة، ثم عادتا إليَّ... «قد يكون أمراً غير صحيح إن قلت لك هذا... لكن، في ظل الظروف الراهنة، لا أظن أن ما كان أبي يطلق عليه اسم رشفة صغيرة سيكون أمراً سيئاً لك. إذا وجدت نفسك راغباً في شيء من هذا القبيل...». ثم أضاف متعجلاً بعد أن لاحظ ارتباكي وحيلتي: «أنت لست راغباً في هذا بالطبع، أمر غير مناسب على الإطلاق، لا تهتم لما قلته».

اقترب مني، ثم مرت لحظة غير مريحة ظننت فيها أنه قد يمسني أو يحتضنني. لكنه أطبق يديه معاً وراح يفركهما واحدة بالأخرى... «على أية حال، إننا مسرورون جداً بأن تكون لدينا وآمل أن تجد نفسك مرتاحاً إلى أقصى حد. إذا كنت في حاجة إلى أي شيء، فسوف تخبرنا على الفور، أليس كذلك؟».

لم يكد يخرج من الغرفة حتى سمعت خلف الباب همساً كثيراً. ثم طرق أحدهم الباب. قالت لي السيدة باربر: «هنالك من أتى لرؤيتك»، ثم انسحبت.

ثم دخل آندي بخطوات ثقيلة: كانت عيناه ترفرفان ويداه تعبثان بنظارته. كان واضحاً أنهم أيقظوه وأخرجوه من سريره. صدرت عن نوابض السرير زقزقة مرتفعة عندما جلس إلى جانبي على حافة فراش بلات. لم ينظر إلي بل إلى الجدار المقابل لنا.

تنحنح، ثم دفع بنظارته فوق أنفه. ثم تلا ذلك صمت طويل. صدرت عن مشع التدفئة أصوات قرقعة وهسيس. كان أبوه وأمه قد خرجا من الغرفة مسرعين كما لو أنهما سمعا صوت إنذار الحريق.

وبعد فترة من الصمت، قال بصوته المسطح الغريب: «واو... أمر سيئ».

أجبته: «صحيح». ثم بقينا صامتين جالسين جنباً إلى جنب محدّقين في جدران غرفة بلات الخضراء الداكنة وفي المربعات المحاطة بشريط لاصق حيث كانت ملصقاته معلّقة.

ماذا يمكن أن نقول غير ذلك؟

حتى الآن، لا يزال تذكّر تلك الأوقات يجعلني غارقاً في مشاعر خانقة يائسة. كان كل شيء فظيعاً. كان الناس يقدمون لي مشروبات باردة، وسترات إضافية، وطعاماً لا أستطيع أكله: موز، وقطع حلوى، وسندويشات، وآيس كريم. كنت أقول نعم أو أقول لا عندما يكلّمني أحد. وأمضي وقتاً طويلاً محدّقاً في السجادة حتى لا يرى الناس أنني أبكي.

وعلى الرغم من أن شقة أسرة باربر ضخمة، بحسب معايير مدينة نيويورك، فقد كانت في طابق منخفض مما جعل الضوء فيها شحيحاً حتى في الناحية المطلة على بارك آفينيو. وعلى الرغم من أن الليل فيها لم يكن ليلاً بكل معنى الكلمة، ولم يكن النهار نهاراً بكل معنى الكلمة، فإن نور المصابيح على خشب البلوط الداكن اللامع كان يعطي إحساساً بالمودّة

والأمان كما لو أن المرء في نادٍ خاصّ. كان أصدقاء بلات يطلقون على هذه الشقة اسم «بيت الخوف»، وأما أبي الذي أتى إليها مرة أو مرتين حتى يأخذني بعد نومي فيها، فكان يشير إليها باسم *«فرانك إ. كامبلز»* قاصداً تشبيهها بمكتب دفن الموتى الذي يحمل الاسم نفسه. لكني كنت أجد السلوى في هذه الكآبة المتّسعة الوافرة لأنها تجعل من السهل علي أن ألوذ بها إذا لم تكن لدي رغبة في الكلام أو في تحمّل نظرات الآخرين.

كان الناس يأتون لرؤيتي ـ العاملون الاجتماعيون، بالتأكيد، وطبيب نفسي متطوع أرسلته سلطات المدينة، وأيضاً شخص من مكان عمل أمي، كنت خبيراً في تقليد بعضهم، كماتيلد مثلاً التي كنت أقلّدها حتى أضحكها، وعدد كبير من أصدقاء أمي أيام الجامعة وكاتالوغات الأزياء. جاء أيضاً ممثل نصف شهير اسمه جيد كان يمضي معنا ليلة عيد الشكر أحياناً («في رأيي، كانت أمك ملكة الجامعة»). أتت أيضاً امرأة لها مظهر فاسق بعض الشيء... كان اسمها كيكا، وقد أتت مرتدية معطفاً برتقالي اللون. حكت لي كيف أقامتا حفلة في إيستفليغ، هي وأمي ـ عندما كانتا مفلستين تماماً؛ وكيف لقيت تلك الحفلة نجاحاً كبيراً رغم أنهما استضافتا اثني عشر شخصاً بأقل من اثني عشر دولاراً (قدمتا، من بين أشياء أخرى كثيرة، مظاريف السكر ومبيض القهوة المسروقة من أحد المقاهي، وكذلك أعشاباً اقتلعتاها خلسة من حوض على نافذة واحد من الجيران). أتت آنيت التي كانت أرملة إطفائي في السبعينات من عمرها، وكانت جارة أمي في لوور إيست سايد... جلبت معها علبة فطائر حلوة من مخبز إيطالي قريب من المنطقة التي كانتا تعيشان فيها. كانت تلك الفطائر مثل فطائر الزبدة بالصنوبر التي كانت تجلبها لنا دائماً عندما تزورنا في شقتنا في سوتون بليس. ثم أتت سينزيا، التي كانت تساعد أمي في الشقة، فانفجرت دموعها عندما رأتني وطلبت مني صورة لأمي حتى تضعها في محفظتها.

دأبت السيدة باربر على إنهاء هذه الزيارات إذا طالت أكثر مما ينبغي، وذلك استناداً إلى أنني صرت سريع التعب؛ لكني أظن أيضاً بأنها كانت تنهيها لعدم قدرتها على تحمل احتكار أشخاص مثل سينزيا وكيكا غرفة المعيشة في بيتها زمناً لا نهاية له. فبعد خمس وأربعين دقيقة، أو نحو ذلك، كانت تأتي وتقف بباب الغرفة من غير أن تقول شيئاً. وإذا لم يدرك الزائر تلك الإلماحة، فإنها تتكلّم وتشكره على المجيء ـ تتكلم بأدب تام، لكن بطريقة يدرك الناس معها أن وقت نهوضهم وذهابهم قد حان. (كان صوتها كصوت ابنها آندي، عميقاً مجوفاً يبدو للمرء دائماً أنه آتٍ من مسافة بعيدة. فحتى عندما تكون واقفة إلى جانبك تماماً، يبدو صوتها كأنه ينقل بثاً آتياً من كوكب بعيد).

من حولي، ومن فوق رأسي، كانت حياة الأسرة ماضية في سبيلها. ففي كل يوم، كان جرس الباب يرن مرات كثيرة: مدبرات منزل، ومربِّيات، وأشخاص يأتون بمواد غذائية، ومعلمون، ومدرّب البيانو، وسيدات الصفحات الاجتماعية، ورجال أعمال فاشلون على صلة بالنشاطات الخيرية التي تمارسها السيدة باربر. كان تودي وكيتزي، شقيق وشقيقة آندي الصغيران، يجريان في الغرف ذات الإنارة الخافتة برفقة أصحابهما في المدرسة. وخلال فترة بعد الظهر، كثيراً ما كانت تأتي سيدات تفوح منهن رائحة العطور حاملات أكياس تسوّق، فيجلسن قليلاً لتناول القهوة والشاي. وفي المساء، يأتي أزواج متأنقون من أجل العشاء فيتجمّعون حول النبيذ والماء والمياه الغازية في غرفة المعيشة حيث يجري تبديل الزهور كل أسبوع... زهور تأتي من محل أزهار فاخر في ماديسون آفينيو. كانت تأتي إلى البيت أيضاً أحدث أعداد مجلة «آركيتيكشرال دايركت» و«نيويوركرز» فتوضع على شكل مروحة فوق طاولة القهوة.

إن كان السيد والسيدة باربر قد تعرضا لمضايقة كبيرة عندما ألقي إليهما بطفل إضافي، من غير إشعار مسبق، فقد كان لديهما من اللياقة ما جعلهما

لا يُظهران ذلك أبداً. كانت والدة آندي، صاحبة المجوهرات كبيرة القيمة والابتسامة «غير المهتمة تماماً» ـ امرأة من النوع الذي يمكنه أن يتصل بالهاتف مع عمدة المدينة مباشرة في حال الحاجة إلى طلب شيء منه ـ قد بدت كما لو أنها تتجاوز العقبات التي تضعها بيروقراطية مدينة نيويورك في طريقها. فحتى في حالة الحزن والتشوّش التي عشتها، كان لدي إحساس ينبئني بأنها تدير الأمور كلها من خلف ستار، فتجعل كل شيء أكثر سهولة عليّ وتحميني من أسوأ جوانب «آلة الخدمات الاجتماعية». ثم إنني صرت الآن واثقاً تماماً من أنها حمتني من الصحافة أيضاً. كانت المكالمات الهاتفية الواردة إلى هاتف البيت الذي لا ينقطع رنينه تحوّل مباشرة إلى هاتفها المحمول. وكانت تجري أحاديث بأصوات منخفضة، وأوامر توجّه إلى البوابين. وبعد خضوعي إلى واحد من استجوابات إنريك الكثيرة التي لا تعرف الكلل من أجل معرفة مكان أبي ـ استجوابات كثيراً ما كانت تجعلني موشكاً على البكاء كما لو أنه يعذبني لكي يعرف مواقع إخفاء الصواريخ في باكستان ـ طلبت مني الخروج من الغرفة ثم أنهت الأمر كله بصوتها الرتيب المضبوط («حسناً... أعني، من الواضح تماماً أن الصبي لا يعرف مكان أبيه، وأن أمه لم تكن تعرف أيضاً... نعم، أدرك أنك تريد العثور عليه؛ لكن من الواضح أن ذلك الرجل لا يريد أن يعثر عليه أحد. لقد اتخذ التدابير اللازمة حتى لا يعثر عليه أحد... لم يكن يدفع نفقات إعالة طفله، وقد ترك خلفه ديوناً كثيراً، وأرجّح أنه فرَّ من المدينة من غير أن يقول كلمة واحدة. لهذا، وبصراحة، أنا لست واثقة تماماً مما تريد تحقيقه إذا تمكنت من الاتصال بهذا الوالد الرائع، بهذا المواطن الممتاز!... نعم، نعم، أعرف أن نيّتك حسنة، لكن، إذا كان دائنو هذا الرجل غير قادرين على اصطياده، وإذا كانت مؤسستك غير قادرة على اصطياده أيضاً، فلست أدري ما الذي يمكن أن تكسبه من مواصلة تعذيب هذا الصبي، فهل تدري أنت؟ هل يمكننا الاتفاق على إنهاء هذا الأمر؟»).

وهذه بعض عناصر قانون الطوارئ الذي فرض في البيت منذ وصولي: لم يعد مسموحاً للخادمات، على سبيل المثال، الاستماع إلى إذاعة تين تين وينز أثناء عملهن («لا، لا»، هكذا كانت تقول الطباخة إيتا وهي تلقي نظرة تحذير في اتجاهي عندما تحاول واحدة من الخادمات اللواتي ينظفن البيت تشغيل الراديو). وفي كل صباح، كانت صحيفة تايمز، تؤخذ مباشرة إلى غرفة مكتب السيد باربر ولا تترك في الخارج حتى يستطيع بقية أفراد الأسرة قراءتها. من الواضح أن ذلك لم يكن أمراً معتاداً في البيت ـ «لقد أخذ أحدهم الصحيفة من *جديد*» هذا ما كانت تقوله كيتزي الصغيرة بصوت يكاد يكون نواحاً قبل أن يحل عليها صمت من يشعر بالذنب عقب نظرة من أمها ـ وسرعان ما استنتجتُ أن الصحيفة بدأت تختفي في مكتب السيد باربر لأن فيها أشياء يُعتقد أن من الأفضل ألا أقرأها.

ومن حسن حظي أن آندي، الذي كان رفيقي في الشدائد منذ زمن بعيد، فهم أن الكلام آخر ما أريده. جعلوه ينقطع عن المدرسة ويظل في البيت معي خلال تلك الأيام الأولى من إقامتي لديهم. كنا نجلس في غرفته المزينة مكتومة الهواء على ذلك السرير ذي الطابقين الذي نمت فيه ليالي سبت كثيرة عندما كنا في المدرسة الابتدائية. كنا نجلس إلى رقعة الشطرنج فيلعب آندي عنه وعني لأنني ـ في ذلك الضباب الذي يلف عقلي ـ كنت لا أكاد أستطيع تذكّر كيفية تحرّك قطع الشطرنج. كان يقول لي وهو يرفع نظارته على أنفه: «لا بأس. جيد. هل أنت واثق تماماً من أنك تريد أن تفعل ذلك؟».

«أفعل ماذا؟».

يجيبني: «نعم، لقد فهمت...». يجيبني آندي بذلك الصوت الناعم المزعج الذي كان يدفع الكثير الكثير من الأولاد المتنمّرين إلى دفعه على الرصيف أمام المدرسة على امتداد سنوات كثيرة... «إن فيلك في خطر؛

هذا صحيح تماماً، لكني أقترح أن تلقي على وزيرك نظرة أكثر انتباهاً... لا، لا، قلت وزيرك. إنه على المربع D5».

كان يجد نفسه مضطراً إلى مخاطبتي باسمي حتى يلفت انتباهي. مرة بعد مرة، كنت أعيش تلك اللحظة مجدداً، لحظة عدوْت مع أمي فصعدنا درجات بوابة المتحف. مظلّتها المخططة. والمطر يتساقط ويندفع في وجهينا. كنت أعرف أن ما حدث لا يقبل الإبطال، وفي الوقت نفسه، كان يبدو لي أنّ من المحتمل أن تكون هنالك طريقة تمكنني من الرجوع إلى ذلك الشارع الغارق في المطر وجعل الأمر كله يحدث بطريقة مختلفة.

قال لي آندي: «منذ أيام، كتب شخص... أظنه مالكوم ـ ماذا كان اسمه ـ أو لعله كاتب آخر من المفترض أنه محترم ـ على أية حال... كتب ذلك الشخص في مجلة *ساينس تايمز* يقول إن في الشطرنج إمكانيات لألعاب مختلفة يزيد عددها على عدد حبات الرمل في العالم كله. أمر سخيف أن يجد كاتب علمي في مجلة كبرى نفسه مضطراً إلى تكرار حقائق على هذا القدر من الوضوح».

أجبته وأنا أعود بصعوبة من حيث كانت أفكاري: «صحيح».

«كأنه لا يعرف أن عدد حبات الرمل على هذا الكوكب يظل عدداً منتهياً، مهما يكن كبيراً! غريب حقاً أن يكون هنالك من يعلّق على هذا الهراء كأنه... أنت تعرف... كأنه خبر جديد مفاجئ! مجرد إلقاء هذه الحقيقة هناك كما لو أنها... أنت تعرف... كما لو أنها حقيقة عجيبة غامضة!».

بدأت صداقتي بآندي في المدرسة الابتدائية في ظل شروط شديدة القسوة: بعد ترفيعنا بحيث تجاوزنا إحدى السنوات الدراسية نتيجة الدرجات الممتازة التي حصلنا عليها، بدا أن الجميع صار متفقاً على أن تلك كانت غلطة في ما يتعلق بكلينا، على الرغم من اختلاف الأسباب. في تلك السنة، كنا نسير مغمغمين حائرين بين أولاد أكبر منا وأطول منا،

أولاد يدفعوننا ويوقعوننا ويصفقون أبواب الخزائن على أيدينا ويمزقون واجباتنا المدرسية ويبصقون في حليبنا... أولاد يطلقون علينا أسماء بشعة... «*اليرقة*» و«*اللوطي*» و«*رأس القضيب*» (يحزنني أن ذلك الاسم الأخير كان خاصاً بي لأن اسم عائلتي بيكر)[1] ـ خلال تلك السنة كلها (أو خلال «سبينا البابلي» كما كان آندي يقول بصوته الواهن الكئيب)، كنا نكدح معاً، جنباً إلى جنب، كأننا نملتان هزيلتان تحت عدسة مكبرة: يركلوننا على سيقاننا، ويسدّدون إلينا لكمات مفاجئة، وينبذوننا... كنا نتناول غداءنا في أبعد الزوايا عن الأعين حتى لا يقذفوننا بمطاريف الكاتشب وقطع الدجاج. مرت سنتان تقريباً كان آندي فيهما صديقي الوحيد؛ وكنت صديقه الوحيد. يحزنني ويحرجني تذكر تلك الأيام: حروبنا الإلكترونية وسفن الفضاء التي نبنيها من قطع اللِّيغو، والشخصيتان السريتان اللتان اتخذناهما من مسلسل «*ستار تريك*» (اتخذت شخصية كيرك واتخذ آندي شخصية سبورك) في محاولة منا لتحويل معاناتنا إلى لعبة... *كابتن، يتضح أن هؤلاء الفضائيين يحبسوننا في نسخة مزيفة عن مدرسة لأطفال بشريين على كوكب الأرض.*

لم أتعرّض لأية حالة تحقير أو إذلال في المدرسة قبل الإلقاء بي ضمن عصبة متماسكة من أولاد أكبر مني سناً لديهم ميل شديد إلى المنافسة وقد عُلّقت من رقبتي لوحة كتب عليها «موهوب». لكن آندي المسكين ـ حتى قبل دفعه إلى الأمام سنة دراسية كاملة ـ كان على الدوام طفلاً لديه صفات مزمنة تستقطب مختلف أنواع الإزعاجات: نحيل، ضعيف الأعصاب، لا يتحمّل اللاكتوز، له جلد شاحب يكاد يكون شفافاً، وميّال إلى إطلاق كلمات من قبيل «مؤذٍ» و«غريب عن العالم» في سياق أحاديث اعتيادية. وعلى الرغم من ذكائه، فقد كان شخصاً أخرق؛ صوته مسطّحاً، وعادة التنفس من الفم نتيجة انسداد مزمن بالأنف

(1) (dick) تعني «قضيب». ومن هنا تأتي المقاربة الشكلية بين الكلمتين: «دِك» و «بيكر».

أعطته مظهر شخص غبي بعض الشيء بدلاً من أن يبدو ذكياً جدّاً. بين إخوته المرحين الرياضيين ذوي الأسنان الحادة ـ يجرون هنا وهناك بين أصدقائهم وألعابهم وفرقهم الرياضية وبرامجهم الإضافية بعد المدرسة ـ كان يبدو مختلفاً كأنه شخص وضعته مصادفة خاطئة معهم في الملعب.

وفي حين تمكّنت من التعافي، إلى حد ما، من تلك الكارثة التي أصابتنا في الصف الخامس، فإن آندي لم يستطع ذلك. ظل يلازم البيت ليالي الجمعة والسبت، وما كان لديه أحد يدعوه إلى الحفلات أو إلى نزهة في الحديقة. وعلى حد علمي، كنت لا أزال صديقه الوحيد. وعلى الرغم من حرص أمه على ارتدائه ملابس مناسبة، بل ملابس مناسبة جدّاً ـ كان أيضاً يضع العدسات اللاصقة بعض الوقت ـ فإن أحداً لم تخدعه هذه المظاهر: لا يزال محبّو النكات العدائية يتذكرونه من «الأيام السيئة الخوالي» ويدفعونه ويطلقون عليه اسم *«ثريبيو»* بسبب غلطته القديمة عندما ذهب إلى المدرسة بقميص عليه صور من *«حرب النجوم»*.

لم يكن آندي شخصاً كثير الكلام في يوم من الأيام، حتى عندما كان صغيراً، إلا في حالات عارضة من اندفاعات الكلام الناتجة عن الضغط (كان القسم الأكبر من صداقتنا مكوَّناً من تبادل الكتب المصورة بيننا، جيئة وذهاباً، من غير كلام). لقد جعلته سنوات من المضايقة والإزعاج في المدرسة أكثر ميلاً إلى الصمت وأبعد عن التواصل مع الآخرين ـ صار أيضاً أقل قابلية لاستخدام مفردات مأخوذة من *لوفكرافت*[1]. ونجمَ عن هذا كله تفضيله أن يدفن نفسه في دراسات متقدّمة في الرياضيات والعلوم. لم يكن لدي كبير اهتمام بالرياضيات في يوم من الأيام ـ كنت ما يطلقون عليه اسم «سريع البديهة» لا أكثر ـ وعندما بدأ تقصيري بالمقارنة مع التوقعات الدراسية التي كانت في فترة أبكر من ذلك (بدأ تقصيري في كل شيء)، وصرت غير مهتم بتحصيل درجات حسنة إن كان عليَّ أن

(1) هـ. ب. لوفكرافت: كاتب أميركي اشتهر بتأليف روايات رعب واسعة الانتشار.

أبذل جهداً من أجلها، ظل آندي متفوقاً في كل شيء، وكان متقدماً على طلاب الصف جميعاً. (من المؤكد أن أهله كانوا يودّون إرساله إلى جامعة غروتون مثل شقيقه بلات ـ وهو ما كان أمراً مفزعاً له منذ الصف الثالث ـ لكنهم كانوا قلقين قلقاً مبرَّراً بعض الشيء من إرسال هذا الابن الذي يتعرّض للاضطهاد من قبل زملائه في الصف حتى إنه كاد يختنق ذات مرة بكيس بلاستيكي وضعه أحدهم على رأسه. كانت لديهم مخاوف أخرى أيضاً؛ فقد كان ما جعلني أعرف بقصة الوقت الذي أمضاه السيد باربر في *«المزرعة»* هو أن آندي أخبرني بتلك الحكاية، بطريقته التقريرية الباردة، وقال إن لدى أبيه وأمه خوفاً من أن يكون قد ورث عن والده شيئاً من ذلك الضعف... هكذا عبّر عن الأمر).

وخلال الأيام التي أمضاها آندي معي في البيت عندما جعله أهله يتغيّب عن المدرسة، كان يعتذر مني لأن عليه أن يدرس. كان يقول وهو ينشق بأنفه ويمسحه بكمه: «لكن... من المؤسف أن هذا ضروري». كانت الواجبات المطلوبة منه كثيرة إلى حد لا يصدق؛ وما كان بقادر على تحمل تضييع يوم واحد. وبينما كان يجلس ويكدح لإنجاز ما بدا لي كمية لا نهائية من تلك الواجبات المدرسية (كيمياء وجبر وتاريخ أميريكي ولغة إنكليزية وفلك ولغة يابانية)، كنت أجلس على الأرض مستنداً بظهري إلى جانب الخزانة وأحصي الأيام بصمت وأتحدّث مع نفسي صامتاً: كانت أمي حية في مثل هذا الوقت قبل ثلاثة أيام فقط، في مثل هذا الوقت قبل أربعة أيام، في مثل هذا الوقت قبل أسبوع. استرجعت في ذهني الوجبات التي تناولناها معاً في الأيام التي سبقت موتها: زيارتنا الأخيرة إلى المطعم اليوناني، وزيارتنا الأخيرة إلى مطعم شون *لي بالاس*، ووجبة العشاء الأخيرة التي حضّرتها لي (سباجيتي كاربونارا)، ووجبة العشاء التي كانت قبلها (طبق اسمه «دجاج هندي» تعلّمته من أمها عندما كانت تعيش في ولاية كانساس). وفي بعض الأحيان، كنت أقلّب صفحات

أعداد قديمة من *«فولميتال الكيميست»* حتى أبدو منشغلاً بشيء ما، أو أقلب كتاباً مصوراً لـ هـ. ج. ويلز كان في غرفة آندي. لكن، حتى الصور كانت أكثر مما أستطيع استيعابه. كنت أمضي معظم الوقت في النظر إلى حمامات ترفرف عند النافذة بينما يملأ آندي صفحات لا تنتهي في دفتر اللغة اليابانية وتهتز ركبته تحت الطاولة وهو يعمل.

كانت غرفة آندي مواجهة لشارع بارك آفينيو ـ كانت في الأصل غرفة كبيرة قسّمها أهله إلى نصفين. ترتفع أصوات أبواق السيارات عند التقاطع وقت الزحام، ويستحيل ضوء الشمس المتسلل عبر النوافذ ذهبياً في الشوارع ثم يخبو في الوقت نفسه تقريباً الذي يخبو فيه زحام السير في الخارج. ومع تقدّم ساعات الليل (تظل الغرفة منارة من مصابيح الشارع... ليل المدينة البنفسجي الذي لا تصير ظلمته سوداء أبداً)، كنت أتقلب من جنب لآخر وأحس السقف المنخفض فوق سريري في الطابق الثاني ضاغطاً عليَّ بقوة وثقل يجعلانني أستيقظ أحياناً فأتخيل نفسي راقداً تحت السرير، لا فوقه.

كيف يكون ممكناً أن يفتقد المرء شخصاً مثلما كنت أفتقد أمي؟ افتقدتها إلى حد جعلني راغباً في الموت: اشتياق شديد، جسدي، يشبه توق الإنسان إلى التنفس عندما يكون تحت الماء. كنت أرقد مستيقظاً وأحاول استعادة أفضل ذكرياتي معها ـ أحاول تجميدها في عقلي حتى لا أنساها ـ لكني لم أكن أتذكّر الأوقات السعيدة ولا أعياد الميلاد، بل أشياء من قبيل ما حدث قبل أيام قليلة من مقتلها عندما أوقفتني وأنا خارج من الباب حتى تلتقط خيطاً عالقاً بسترتي المدرسية. لسبب ما، كانت هذه الذكرى واحدة من أشد ذكرياتي عنها وضوحاً: حاجباها المعقودان، وحركة يدها الدقيقة المقتربة مني، وكل شيء. وفي مرات كثيرة ـ عندما أكون في حالة مراوحة غير مستقرة بين النوم والحلم ـ كنت أجلس فجأة في السرير عند سماع صوتها يكلّمني بكل وضوح ويقول لي أشياء لا بد

أنها قالتها لي في وقت ما لكني لم أكن أتذكرها... أشياء من قبيل «*ارمِ لي تفاحة من فضلك*»، و«*لا أعرف إن كان هذا القميص يزرر من الأمام أو من الخلف*»، و«*صارت هذه الأريكة في حالة سيئة جداً*».

ضوء آتٍ من الشارع رسم أشرطة قاتمة على أرض الغرفة. ومن غير أمل، رحت أفكر في غرفتي التي بقيت خالية على مسافة بضعة وحدات سكنية فقط: سريري الضيق ولحافه الأحمر المهترئ. ونجوم وامضة في الظلام في سقف الغرفة، وبطاقة مصورة من فيلم *فرانكشتاين* لجيمس ويل. عادت الطيور إلى الحديقة من جديد، ونبت فيها النرجس؛ في هذا الوقت من السنة، عندما يصير الطقس لطيفاً. كنا نستيقظ أحياناً في وقت مبكر أكثر من المعتاد ونمشي في الحديقة معاً بدلاً من الذهاب في الباص.

فقط... لو كنت قادراً على العودة وتغيير ما حصل، على منعه من أن يحصل... على نحو ما. لماذا لم أصرّ على أن نذهب لتناول الإفطار بدلاً من الذهاب إلى المتحف؟ ولماذا لم يطلب السيد بيمان منا المجيء إلى المدرسة يوم الثلاثاء، أو يوم الخميس؟ لماذا يوم الأربعاء؟

في الليلة الثانية بعد موت أمي، أو في الليلة الثالثة ـ على أية حال، كان ذلك بعد أن أخذني السيد باربر إلى الطبيب لينظر في أمر صداعي ـ أقامت أسرة باربر حفلة كبيرة في الشقة، وذلك لأن الوقت تأخر كثيراً على إمكانية إلغائها. كان هنالك همس، وكانت هنالك حركة كثيرة لم أكن قادراً على استيعابها. قالت السيدة باربر عندما أتت إلى غرفة آندي: «أظن أنك وثيو ستستمتعان أكثر بالبقاء هنا، في الغرفة». على الرغم من نبرة صوتها المرحة، كان من الواضح أن ذلك ليس اقتراحاً، بل أمرٌ... «ستكون الحفلة مملّة لكما، ولست أظن أنكما ستكونان مستمتعين بها. سأطلب من إيتا أن تأتي لكما بطبقي طعام من المطبخ».

جلست جنباً إلى جنب مع آندي على السرير السفلي، أي على سريره،

وأكلنا القريدس والأرضي شوكي في طبقين ورقيين ـ الواقع أنه هو الذي أكل بينما بقيت أنا جالساً والطبق على ركبتي، لم أمسّه. كان قد شغل قرص دي في دي، فيلم من أفلام الحركة فيه روبوتات متفجرة وشلالات من اللهب والحطام المعدني. ومن غرفة المعيشة: رنين كؤوس، ورائحة شموع وعطور، وصوت يعلو من حين لآخر مطلقاً ضحكة رنانة. صوت البيانو الصادح يعزف بإيقاع سريع مقطوعة «انتهى كل شيء الآن، بيبي بلو»، بدا كأنه سابح إلينا من كون آخر. كان كل شيء قد ضاع، وكنت قد سقطت من الخريطة: تشوّش كوني في شقة غير شقتي، وتشوش كوني في أسرة غير أسرتي... كان هذا مرهقاً لي فأحسست بالدوار وأحسست كأنني ثمل حتى غاية الثمالة، إنني موشك على البكاء مثل سجين تحت الاستجواب محروم من النوم منذ أيام. ومرة بعد مرة، كنت أقول لنفسي: يجب *أن أذهب إلى البيت*، ثم أقول لنفسي، للمرة المليون: *لا أستطيع*.

4

بعد أربعة أيام، أو بعد خمسة أيام، وضع آندي كتبه في حقيبته الظهرية الواسعة وعاد إلى المدرسة. جلست في غرفته طيلة ذلك اليوم، وطيلة اليوم الذي تلاه، وقد وضعت التلفزيون على قناة تيرنر للأفلام الكلاسيكية، تلك القناة التي كانت أمي تضع التلفزيون عليها عندما تعود إلى البيت بعد العمل. كانوا يعرضون أفلاماً مأخوذة عن روايات جراهام جرين: «*وزارة الخوف*»، «*العامل البشري*»، «*المثال الساقط*»، «*هذه البندقية للإيجار*». في مساء اليوم الثاني، عندما كنت أنتظر فيلم «*الرجل الثالث*»، وقفت السيدة باربر بالباب (بكامل أناقتها في طريقها إلى مناسبة مقامة في متحف *فريك*) وأعلنت أنني سوف أستأنف الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي.

قالت: «من الممكن أن يصاب أي شخص بالجنون عندما يظل جالساً وحده هنا. هذا ليس جيداً لك».

لم أدرِ ما أقوله لها. كان جلوسي وحدي، ومتابعة الأفلام، الشيء الوحيد الذي فعلته منذ موت أمي فجعلني أحس بأنني طبيعي، وإن على نحو غامض.

قالت لي عندما لم أجبها بشيء: «لقد حان وقت عودتك إلى نوع ما من النظام اليومي. ستذهب إلى المدرسة غداً. أعرف أن الأمر لا يبدو جيداً هكذا يا ثيو...» ـ لم تتلق أية إجابة مني ـ «لكنّ بقاءك منشغلاً هو الشيء الوحيد في العالم الذي يمكن أن يجعلك تشعر بأن حالتك تتحسن».

ظللت مصمماً على مواصلة التحديق في شاشة التلفزيون. لم أذهب إلى المدرسة منذ اليوم الذي سبق موت أمي؛ وطالما بقيت بعيداً عن المدرسة، سيظل موتها يبدو لي ـ على نحو ما ـ أمراً غير رسمي بعد. وأما عندما أعود، سوف يصبح ذلك حقيقة عامة شائعة. بل هنالك ما هو أسوأ: بدت لي فكرة العودة إلى أية نوع من أنواع النظام اليومي المعتاد أمراً خاطئاً، قلة وفاء. كانت تصيبني صدمة كلما تذكرت الأمر، صفعة جديدة: لقد رحلت! وكل حدث جديد ـ كل شيء أفعله طيلة ما تبقى من حياتي ـ سيعمل على فصلنا أكثر فأكثر: أيام لم تعد أمي جزءاً منها، ومسافة بيننا لا تنفك تتزايد. ستصير أكثر بعداً عني مع كل يوم من أيامي الباقية في حياتي.

«ثيو!».

أجفلت ورفعت رأسي ناظراً إليها.

«خطوة فخطوة! ما من طريقة أخرى لتجاوز هذه الحالة».

كانوا سيعرضون في اليوم التالي مجموعة متتالية من أفلام الجاسوسية في فترة الحرب العالمية الثانية: «*كايو، العدو الخفي، الاسم الرمزي: إميرالد*»، وقد وددت حقاً أن أبقى في البيت حتى أشاهدها. لكني جرجرت نفسي من السرير عندما مد السيد باربر رأسه من الباب حتى يوقظنا. («انهضوا وانطلقوا أيها الجنود!»). ثم سرت إلى موقف الباص

مع آندي. كان يوماً ماطراً، وكان بارداً إلى حد جعل السيدة باربر ترغمني على أن أرتدي، فوق ملابسي، معطفاً مطرياً قديماً (محرجاً) من معاطف بلات. كانت كيتزي، شقيقة آندي الصغيرة، تتقافز أمامنا بمعطفها المطري الوردي وتنط من فوق برك الماء متظاهرة بأنها لا تعرفنا.

كنت مدركاً أن الأمر سيكون مخيفاً، وقد كان كذلك منذ لحظة دخولي الصالة ذات الإضاءة الساطعة، لحظة شممت روائح المدرسة المألوفة: مواد التنظيف برائحة الليمون، وشيء يشبه رائحة جوارب متسخة. إعلانات في الممر مكتوبة بخط اليد: أوراق تسجيل من أجل «مختبر التنس» ودروس الطبخ، واختبارات أداء لمسلسل *«الزوج الغريب»*، ورحلة إلى جزيرة إليس، وبطاقات لا تزال متوفرة من أجل حفلة الربيع الموسيقية... يصعب تصديق أن هذه النشاطات السخيفة كلها ظلت مستمرة بطريقة ما على الرغم من أن العالم كله قد انتهى!

أمر غريب: عندما كنت في هذه المدرسة آخر مرة، كانت أمي حيّة. ظللت أفكر في هذا؛ وظللت أراه أمراً جديداً... كل مرة: عندما فتحت هذه الخزانة آخر مرة، وعندما لمست كتاب *«أفكار في البيولوجيا»* الغبي اللعين آخر مرة، وعندما رأيت لينديماينز تضع على شفتيها مطرّياً من أنبوب بلاستيكي صغير. بدا لي أمراً صعب التصديق أنني غير قادر على اللحاق بهذه اللحظات، غير قادر على المضي خلفاً إلى عالم لم تكن فيه أمي قد ماتت.

كان الأشخاص الذين أعرفهم يعبّرون لي عن أسفهم، وكذلك فعل أشخاص لم أتبادل معهم كلمة واحدة من قبل. كانوا جميعاً ـ يضحكون ويتحدّثون في الممرات ـ يصمتون لحظة أمرّ بهم ويلقون في اتجاهي نظرات جادة أو متهكّمة. لكن بعض الأشخاص تجاهلوني تجاهلاً تامّاً مثلما تتجاهل كلاب مرحة تحب اللعب كلباً مصاباً أو مريضاً تجده بينها: كانوا يرفضون النظر إليّ ويصخبون ويتمازحون من حولي في الممرات كما لو أنني غير موجود.

وعلى نحو خاص، كان توم كيبل أكثر من حرص على تجنّبي كأنني فتاة كان على علاقة معها ثم هجرها وألقاها بعيداً. عندما جاء وقت الغداء، لم يكن ظاهراً في المكان كله. وفي درس اللغة الإسبانية، تأخّر عن موعد الدرس فلم يكن موجوداً لحظة ذلك المشهد الغريب الأخرق عندما تحلّقَ الجميع من حول مقعدي متجهمين وعبّروا لي عن حزنهم وأسفهم؛ ثم أتى فلم يجلس إلى جانبي كعادته بل جلس في المقاعد الأمامية وغطس في مقعده مادّاً ساقيه جانباً.

كانت حبات المطر تقرع ألواح النوافذ ونحن نعاني ترجمة سلسلة جمل عجيبة، جمل من شأنها أن تجعل سلفادور دالي معتزاً بنفسه: أشياء عن سرطانات ومظلات على الشاطئ وفتاة لعينيها أهداب طويلة تذهب إلى المدرسة بسيارة تاكسي خضراء ليمونية.

وعندما انتهت الدروس وبدأنا الاستعداد للخروج من المدرسة، تعمّدت أن أذهب إليه وأحييه بينما كان يجمع كتبه.

قال لي وهو يبعد نفسه عني ويميل إلى الخلف مستنداً إلى المقعد بمؤخرته ومرفق ذراعه: «أوه، مرحباً، كيف الحال؟ سمعت بما جرى».

«نعم». هكذا كان أسلوبنا المعتاد: أن نظهر لأعين الجميع مرتاحين تماماً، وأن نكرر النكتة نفسها دائماً.

«حظ سيئ. أمر مؤلم حقاً».

«شكراً».

«اسمع... كان يجب أن تتظاهر بالمرض. قلت لك هذا! انفجرت أمي غاضبة أيضاً. صارت تقفز حتى بلغت السقف! حسناً، لا...» قال هذا وهزّ كتفيه قليلاً خلال لحظة الشلل التي أعقبت كلامه، ثم نظر إلى الأعلى وإلى الأسفل ومن حوله كمن يقول: من، *أنا*؟ مثلما يفعل شخص قذف بكرة ثلج وضع بداخلها حجراً.

ثم قال بصوت اعتيادي تماماً: «على أية حال، ما قصة هذه الملابس؟».

«ماذا؟».

«في الحقيقة...» تراجع إلى الخلف خطوة وألقى نظرة ساخرة على معطفي المطري الكبير... «من المؤكد أنك ستحتل المرتبة الأولى في مسابقة الظهور بمظهر بلات هاربر!».

ضحكت على الرغم من نفسي ـ كانت تلك صدمة بعد أيام من الرعب والخدر والتشنّج الشديد.

أجبته متّخذاً هيئة بلات العدوانية المتشدقة: «محاولة رائعة يا كيبل». كنا ماهرين في التقليد، أنا وهو، وكثيراً ما كنا نؤدّي أحاديث طويلة بأصوات أشخاص آخرين: مذيعون أغبياء، وبنات كثيرات الشكوى، ومعلمون حمقى لهم أصوات مرائية... «غداً، سآتي مرتدياً ملابس مثل ملابسك».

لكن توم لم يجبني بالمثل، ولم يلتقط الخيط. لقد فقد اهتمامه بالأمر. قال لي وهو يهز كتفيه قليلاً مع ابتسامة صغيرة متكلفة: «امممم ـ ليس الآن. في ما بعد».

«صحيح؛ فيما بعد». لكن ذلك ضايقني ـ ما مشكلته؟ إلا أن ذلك كان جزءاً من أسلوبنا الدائم في الكوميديا السوداء، أسلوبنا المسلي لنا نحن فقط... أن يهين أحدنا الآخر ويسيء إليه. كنت واثقاً تماماً من أنه سيبحث عني بعد درس اللغة الإنكليزية أو سيلحق بي في طريق العودة إلى البيت فيجري من خلفي ويضربني بكتاب الجبر. لكنه لم يفعل ذلك.

وفي صباح اليوم التالي، لم ينظر إليّ أبداً عندما سلمت عليه، ثم فاجأني خلو وجهه من أي تعبير عندما سار وتجاوزني. استدارت كل من ليندي ميزل وماندي كايفي عند خزانتَيْهما ونظرت كل منهما إلى الأخرى مقهقهتين بشيء من الصدمة: *«أوه، يا إلهي!»*، وإلى جانبي، كان سام وينغارتن، شريكي في المختبر، يهز رأسه مستغرباً. قال بصوت مرتفع: «يا لك من أبله»... قالها بصوت شديد الارتفاع جعل كل من في الممر يلتفت إليه... «أنت أبله حقيقي يا كيبل؛ فهل تعرف هذا؟».

لكني لم أبال ـ أو، على الأقل، لم أشعر بجرح أو بقنوط. إلا أنني غضبت. لطالما كانت صداقتنا، أنا وتوم، صداقة برّية مجنونة، ولطالما كان فيها شيء مشوش محموم خطر. وعلى الرغم من أن تلك الطاقة ظلت موجودة، إلا أن اتجاهها قد تغيّر وصار تيّارها سائراً في وجهة معاكسة؛ فبدلاً من تقافزي من حوله في قاعة القراءة، صرت راغباً في وضع رأسه في المبولة واقتلاع ذراعه من مكانها وضرب وجهه بالرصيف إلى أن أدميه، وجعله يأكل براز الكلاب والقمامة التي في الشارع. كلما ازداد تفكيري في هذا، كلما ازداد غضبي. وكان ذلك الغضب يبلغ بعض الأحيان حداً يجعلني أذرع الحمام جيئة وذهاباً مدمدماً لنفسي. لو أن كيبل لم يشِ بي لدى السيد بيمان («أعرف الآن يا ثيو أن تلك السجائر لم تكن لك»)... ولو أن كيبل لم يتسبّب في إنذاري بالفصل من المدرسة... ولو أن أمي لم تتغيب عن عملها في ذلك اليوم... ولو لم نكن في ذلك المتحف في ذلك التوقيت تحديداً... نعم، حتى السيد بيمان اعتذر لي عن ذلك، إلى حد ما. صحيح أن درجاتي المدرسية كانت تعاني مشكلات في ذلك الوقت (كما كانت هنالك مشكلات أخرى لم يعرف بها السيد بيمان) لكن الحادثة التي كانت فاتحة ذلك كله، الشيء الذي جعل السيد بيمان يستدعيني، وقصة تدخين السجائر في الباحة من أولها ـ من المسؤول عن هذا كله؟ إنه كيبل! لا يعني هذا أنني توقّعت منه اعتذاراً. والحقيقة أنني ما كنت أعتزم الحديث معه في هذا الأمر على الإطلاق. لكني... صرت الآن منبوذاً! صرت شخصاً لا يريده أحد! حتى هو لا يريد أن يكلمني! كنت أقصر من كيبل، لكن ليس كثيراً. كلما قال شيئاً في الصف، محاولاً أن يتظارف... (هذا ما لا يستطيع منع نفسه من فعله)، وكلما مر بي في الممر مع صديقيه المقرّبين الجديدين بيني واغنر وثاند راغنول (مثلما كنا نسير معاً ذات يوم، بخطوات نبالغ في اتساعها، وبمظهر موح بالجنون والخطر) ـ لا يمكنني التفكير في أي شيء غير رغبتي الشديدة في أن

أوسعه ضرباً فأرى البنات يضحكن وهو يبتعد عني باكياً خائفاً: *أوه، توم! بو بو بو! هل تبكي يا توم؟* (فعلت كل ما أستطيعه حتى أختلق مشاجرة، وضربته على أنفه ـ مصادفة مقصودة ـ بأن صفقت باب الحمام في وجهه، ودفعته فاصطدم بآلة بيع المشروبات الباردة وسقطت البطاطس المقلية بالجبن ـ البطاطس المقرفة ـ على الأرض... لكنه لم يكن ينقضّ علي كما كنت آمل أن يفعل، بل كان يكتفي بابتسامة متكلّفة ويسير مبتعداً عني من غير أن ينطق بحرف).

لم يكن الجميع يتجنّبني، بطبيعة الحال. وضع كثيرون رسائل وهدايا في خزانتي في المدرسة (بمن فيهم إيزابيلا أوشينغ ومارتينا بيتشبلاو، الفتاتان الأكثر شعبية في المدرسة)؛ كما أن عدوي القديم وين تيمبل من الصف الخامس فاجأني عندما أتاني وعانقني بقوة. أكثر الناس كان يتصرّف تجاهي بتأدّب حذر فيه شيء من الخوف. لكن هذا لا يعني أنني كنت أسير هنا وهناك باكياً، أو أتصرّف تصرّف شخص مشوَّش، لكنهم كانوا يصمتون إذا جلست إلى جانبهم وقت الغداء.

وأما من ناحية أخرى، فقد أعاني كثرة الاهتمام بي من جانب الكبار. نصحني بعضهم بأن أكتب يومياتي وأتحدّث مع أصدقائي وأقوم بما أطلقوا عليه اسم «تجميع الذاكرة» (كنت أرى تلك النصائح غريبة حقاً؛ وذلك أن بقية الأولاد كانوا يشعرون بالضيق عندما أقترب منهم مهما حاولت أن أتصرف بشكل طبيعي. وكان آخر ما أريده لفت الأنظار إليّ من خلال الإفصاح عن مشاعري أمام الآخرين أو من خلال ممارسة «مهارات علاجية» في دروس الفنون). كان يبدو لي أنني أقف أزماناً طويلة في غرف ومكاتب فارغة (محدّقاً في الأرض أومئ برأسي على نحو لا معنى له) مع معلمين يبدون قلقهم عليّ أو يطلبون مني البقاء بعد الدرس أو يأخذونني جانباً للحديث معي. بل إن السيد نيوس بيل، معلم اللغة الإنكليزية جلس على حافة طاولته وحكى لي عن موت أمه

المخيف على يدي جراح فاشل، ثم ربت على ظهري وأعطاني دفتراً صغيراً لأكتب فيه. كما علمتني السيدة سوانسون، الاستشارية النفسية في المدرسة، تمرينين من تمارين التنفس وقالت إن من الممكن أن يكون مفيداً لي أن أنفس عن حزني بالذهاب إلى الخارج ورمي مكعبات جليدية على شجرة من الأشجار. وحتى السيد بوروفسكي (أستاذ الرياضيات، وكنا نعتبره أقل فطنة من معظم المعلمين الآخرين) فقد انتحى بي جانباً في الممر وراح يكلمني بهدوء شديد ـ كان وجهه على مسافة إنشين من وجهي ـ فأخبرني أن إحساسه بالذنب كان بالغ القوة بعد موت أخيه في حادث سيارة. (كان التطرّق إلى فكرة الإحساس بالذنب كثير الورود في هذه الأحاديث كلّها. فهل كان المعلمون يظنون ـ مثلما ظننت أنا ـ أنني مذنب بالتسبب بموت أمي؟ كان هذا واضحاً لي). كان إحساس السيد بوروفسكي الشديد بالذنب ناتجاً عن سماحه لأخيه الثمل بقيادة السيارة في طريق العودة إلى البيت تلك الليلة بعد أن كانا في حفلة؛ بل إنه فكر بعض الوقت في أن يقتل نفسه. ربما أكون قد فكّرت في الانتحار أيضاً، لكن الانتحار لم يكن حلاً.

تقبّلت أشكال المواساة هذه بكل تهذيب مع ابتسامة زجاجية وإحساس صارخ بالبعد عن الواقع. وبدا لي أن أشخاصاً كباراً كثيرين فسّروا حالة الخدر هذه بأنها علامة إيجابية. أتذكّر خاصة كيف كان السيد بيمان (رجل من أصل بريطاني يبالغ في قص شعره قصيراً ويضع قبعة غبية من التويد صرت أكرهه، على الرغم من مواساته لي، باعتباره واحداً من العوامل التي أدت إلى موت أمي ـ مهما يكن ذلك أمراً غير عقلاني) يمتدح نضجي ويقول لي إنني «أتلاءم بشكل جيد جداً» على ما يبدو. لعلّي كنت أتلاءم بشكل جيد حقاً... لست أدري. من المؤكد أنني لم أكن أنوح بصوت مرتفع أو أضرب النوافذ بقبضة يدي أو أفعل أي شيء مما يمكن تخيل أن الناس يفعلونه عندما يحسّون ما أحسّه. لكن الأسى كان

يفيض أحياناً فيغمرني بموجات تتركني شبه عاجز عن التنفس. وعندما تنحسر تلك الموجات، أجد نفسي كمن ينظر إلى حطام بشع يضيئه نور شديد الوضوح، نور فارغ قانط، فأصير شبه عاجز عن تذكّر أن العالم الذي من حولي ليس ميتاً.

5

أكون صادقاً كل الصدق إذا قلت إن جدي بيكر وزوجته كانا آخر ما يمكن أن أفكر فيه؛ وكان هذا أمراً حسناً طالما ظلّت دائرة الخدمات الاجتماعية غير قادرة على العثور عليهما استناداً إلى المعلومات الشحيحة التي تمكّنتُ من تقديمها إليهم. وفي يوم من الأيام، طرقت السيدة باربر باب غرفة آندي وقالت: «ثيو، هل يمكن أن نتحدّث قليلاً، من فضلك؟».

كان في طريقة قولها هذه الكلمات شيء موحٍ بأنباء سيئة مع أنه كان من الصعب، في وضعي، أن أتخيّل كيف يمكن أن تصبح الأمور أسوأ مما كانت. عندما جلسنا في غرفة المعيشة، إلى جانب تشكيلة بارتفاع ثلاث أقدام من أغصان التفاح المزهرة وأغصان الصفصاف ذات البراعم البيضاء أرسلها متجر الأزهار قبل قليل، وضعتْ ساقاً فوق ساق وقالت لي: «تلقيت اتصالاً من الخدمات الاجتماعية. لقد تمكّنوا من الاتصال ببيت جدك. من المؤسف أن جدتك ليست على ما يرام».

أصابتني الحيرة لحظة، سألتها بعدها: «دوروثي؟».

«إن كان ذلك هو اسمها، نعم».

«أوه. إنها ليست جدتي في حقيقة الأمر».

قالت السيدة باربر: «أرى هذا...» لكنها قالتها كما لو أنها لم ترَ أو تفهم شيئاً... «على أية حال، يبدو أنها ليست على ما يرام ـ أظن أن لديها مشكلة في ظهرها ـ وجدك يعتني بها. وهكذا ترى أن الأمور لديهم... أنا واثقة من أنهما في غاية الأسف لذلك... لكنهما يقولان إن وجودك

عندهما الآن لن يكون مناسباً من الناحية العملية. لا يمكنك أن تقيم معهما في بيتهما»... ثم أضافت عندما لم أقل شيئاً... «لقد عرضا تسديد تكلفة إقامة في فندق، في الوقت الراهن... لكن ذلك يبدو أمراً غير مناسب أيضاً، فما رأيك؟».

كان في أذني طنين مزعج. كنت جالساً هناك تحت نظرة عينيها الثابتتين الرماديتين الباردتين كالجليد، فاعتراني ـ لسبب ما ـ خجل شديد من نفسي. كانت فكرة ذهابي إلى جدّي بيكر وزوجته دوروثي فكرة ثقيلة فظيعة إلى حد جعلني ألغيهما من عقلي على نحو شبه تام؛ لكن معرفتي أنهما لا يريدانني كانت أمراً مختلفاً تمام الاختلاف.

رأيت لمحة تعاطف في وجهها. قالت لي: «لا تنزعج من هذا الأمر؛ ولا ينبغي أن يصيبك القلق على الإطلاق. تم الاتفاق على أن تبقى عندنا خلال الأسابيع القادمة، وبالحد الأدنى، إلى أن تنهي هذه السنة في المدرسة. اتفق الجميع على أن هذا هو الحل الأفضل. لكن، بالمناسبة...». قالت هذا وهي تميل مقتربة مني... «هذا خاتم جميل. هل أتاك من عائلتك؟».

أجبتها: «ممم، نعم». لأسباب أجد من الصعب عليَّ أن أوضحها، اعتدت أن أحمل معي الخاتم الذي أعطاني إياه ذلك الرجل المحتضر في المتحف أينما ذهبت. كنت أعبث به في جيب سترتي، معظم الأوقات؛ لكنني كنت أضعه أحياناً في إصبعي الأوسط على الرغم من كونه كبيراً سهل الانزلاق من يدي.

«جميل! هل أتى من عائلة أمك أم من عائلة أبيك؟».

قلت لها بعد صمت قصير: «من عائلة أمي». لم تعجبني الوجهة التي اتخذها الحديث.

«هل يمكنني أن أراه؟».

خلعت الخاتم من إصبعي ووضعته في راحة يدها.

رفعته في اتجاه النور وقالت: «جميل. إنه من العقيق. وهذا الرسم الذي عليه. أظنه شيئاً يونانياً ـ رومانياً! ـ أو لعله شعار العائلة».

«ممم، شعار العائلة، هذا ما أظنه».

راحت تتفحّص النقش الذي يمثل وحشاً أسطورياً له مخالب كبيرة. «يبدو لي أسداً مجنحاً. أو لعله أسد مجنح برأس طائر». أدارت الخاتم في الضوء ونظرت داخله... «إن فيه كتابة منقوشة!».

جعلتها الحيرة الظاهرة على وجهي تعبس قليلاً. قالت لي: «لا تقل لي إنك لم تلاحظها. انتظر لحظة...» نهضت ومضت إلى طاولة المكتب التي كان فيها عدد كبير من الفتحات والأدراج. عادت بعدسة مكبرة.

قالت وهي تنظر عبر العدسة: «ستكون هذه أفضل من نظارة القراءة. لكن هذه الكتابة تظل صعبة القراءة...» قرّبت العدسة المكبرة قليلاً، ثم أبعدتها قليلاً... «بلاكويل. هل يوحي لك هذا بشيء ما؟».

«آه...» لقد أوحى إليّ بشيء في حقيقة الأمر... شيء يتجاوز الكلمات، لكن الفكرة أتتني واختفت سريعاً قبل أن أتمكّن من التقاطها.

«أرى بعض الحروف اليونانية أيضاً. شيء جميل!». أعادت الخاتم إليَّ، ثم قالت: «إنه خاتم قديم. يتضح هذا من الصدأ المحيط بالحجر ومن اهتراء بعض جوانبه. هل ترى؟ هنا! كان الأميركيون يشترون هذه الزخارف الكلاسيكية عندما يذهبون إلى أوروبا ـ منذ أيام هنري جيمس ـ ثم يضعونها على خواتم. تذكارات من أسفارهم الأوروبية».

«إذا كانا لا يريدانني، فأين أذهب؟».

للحظة صغيرة جداً، بدا على السيدة باربر أنها فوجئت بهذا السؤال. لكنها استعادت نفسها على الفور وقالت: «حسناً، ليس هذا سبباً للقلق الآن. ولعل من الأفضل لك أن تبقى عندنا بعض الوقت ريثما تنهي سنتك الدراسية. ألست معي في هذا؟ والآن...» نظرت إلى الخاتم ... «انتبه إلى هذا الخاتم واحرص على ألا يضيع منك. أرى أنه واسع على إصبعك. من الأفضل أن تضعه في مكان آمن بدلاً من حمله بهذا الشكل».

6

لكني واصلت حمل الخاتم. أو، بالأحرى، تجاهلت نصيحتها بأن أضعه في مكان آمن. ظل الخاتم في جيبي آخذه معي أينما ذهبت. كنت أحسّه شديد الثقل عندما أضعه في كفي. وإذا أطبقت أصابعي عليه، يصير ذهبه دافئاً من حرارة يدي، لكن الحجر المصقول يظل بارداً. كان وزنه وقِدمه، وامتزاج الرصانة والتألق فيه، مما يريحني على نحو غريب. إذا ركزت انتباهي عليه بالشدة الكافية، فإن له قدرة غريبة على تثبيت أفكاري ومنعها من الانجراف بعيداً، وكذلك على حجب العالم المحيط عني. لكني، لهذه الأسباب كلها، كنت غير راغب حقّاً في التفكير في المصدر الأصلي لهذا الخاتم.

وأيضاً، ما كنت راغباً في التفكير في مستقبلي ـ لأنني، على الرغم من عدم رغبتي في بدء حياة جديدة في منطقة ريفية في ولاية ميريلاند تحت الرحمة الصقيعية لكل من جدي بيكر وزوجته، فقد بدأ الآن يساورني قلق جدّي في شأن ما سيحدث لي. بدا لي الجميع مصدوماً بفكرة إقامتي في فندق كما لو أن جدي بيكر وزوجته دوروثي اقترحا أن أقيم في سقيفة في بيت مهجور في حديقتهما. لكن الفكرة لم تبدُ لي شديدة السوء! لطالما كنت راغباً في العيش في واحد من الفنادق. وعلى الرغم من أن الفندق المقترح ـ *هوليداي إن* ـ لم يكن من الفنادق التي تخيلتها، فمن المؤكد أنني قادر على تدبر أمري هناك: الهامبرغر من خدمة الغرف، وتلفزيون مدفوع الأجر، وبركة سباحة في الصيف... فهل هذا سيئ حقاً؟

واصل الجميع إخباري (العاملان الاجتماعيان، والطبيب النفسي ديف، والسيدة باربر) مرة بعد مرة، بأن من غير الممكن أن أعيش وحدي في فندق *هوليداي إن* في منطقة ريفية في ميريلاند. لن يصل الوضع إلى هذا الحد مهما يكن من أمر. بدوا لي أنهم غير مدركين أن كلماتهم التي يظنون أنها تطمئنني كانت تزيد قلقي أضعافاً. قال لي ديف، الطبيب

النفسي الذي كلّفته سلطات المدينة بمتابعة حالتي: «يجب أن تتذكّر شيئاً، ألا وهو أنه سيكون لديك من يرعاك دائماً». كان رجلاً في الثلاثينات من عمره بملابس داكنة ونظارة أنيقة، وكان يبدو دائماً كما لو أنه قادم من أمسية شعرية في قبو إحدى الكنائس... «وهذا لأن هنالك الكثير الكثير من الناس المهتمين بأمرك ممن لا يريدون لك إلا الخير كله».

كان قد نما عندي شك تجاه الأشخاص الغرباء الذين يكلّمونني عما هو خير لي لأن ذلك، بالضبط، ما قاله لي العاملان الاجتماعيان قبل طرح فكرة وضعي في بيت للرعاية. قلت له: «لكن ـ لا أظن أن جدي وزوجته مخطئان».

«مخطئان في ماذا؟».

«في ما يتعلّق بإقامتي في فندق *هوليداي إن*. قد يكون المكان مناسباً لي».

فهم ديف ما كان كامناً خلف كلماتي، فأجابني: «هل تقول لي إن الوضع سيكون غير مناسب إذا أقمت في بيت جدك؟».

«ليس هكذا!». كنت أكره هذا الأمر فيه ـ أكره أن يُقوّلني كلاماً لم أقله.

«لا بأس. ربما يكون ممكناً أن أعبّر عن الأمر بطريقة أخرى...». شبك يديه وراح يفكر، ثم قال: «لماذا تفضّل العيش في فندق على العيش في بيت جدك؟».

«أنا لم أقل هذا».

مال برأسه جانباً ونظر إليّ: «لا، لم تقله. لكني أراك تكرّر طرح فكرة الذهاب إلى الفندق كما لو أنها خيار معقول. كأنني أسمعك تقول إن هذا هو ما تفضّله».

«يبدو لي أفضل كثيراً من ذهابي إلى بيت رعاية».

مال إلى الأمام وقال لي: «نعم ـ لكن، أرجو أن تسمع ما أقوله لك. أنت لا تزال في الثالثة عشرة. وقد فقدت للتو من كان يرعاك. لا يمكن

الآن أن يكون عيشك وحيداً خياراً مقبولاً. ما أحاول قوله هو أن من المؤسف جدّاً أن تكون لدى جدّيك هذه المشكلات الصحية؛ لكني أرجو أن تصدق أنني واثق من قدرتنا على التوصل إلى ترتيب أفضل بكثير عندما تتحسّن حالة جدتك».

لم أقل شيئاً. من الواضح أنه لا يعرف جدي بيكر ولا دوروثي. صحيح أنني لم أذهب إليهما منذ وقت طويل جداً. لكن أهم ما أتذكره هو ذلك الانعدام التام لأي شعور بالقرابة بيننا... نظراتهما القاتمة إلي كما لو أنني ولد أتاهما مصادفة من السوق. كانت فكرة ذهابي للعيش عندهما شيئاً لا أستطيع تخيّله. وكنت أرهق دماغي في محاولة تذكر أي شيء عن زيارتي الأخيرة إلى بيتهما، لكني لم أستطع تذكر الشيء الكثير لأنني كنت في السابعة آنذاك. كانت لديهم عبارات مطرزة باليد معلقة على الجدران، ووعاء بلاستيكي كبير على طاولة المطبخ تستخدمه دوروثي لغسل الطعام. وفي لحظة من اللحظات ـ بعد أن صاح جدي بيكر بي قائلاً لي أن أبعد قفازيَّ الدبقَيْن عن نموذج القطار الذي لديه ـ خرج أبي من البيت حتى يدخن سيجارة (كان الوقت شتاء) ولم يعاود الدخول. وعندما صرنا جميعاً في الخارج وجلسنا في السيارة، قالت أمي: «يا إلهي!» (كانت هي صاحبة فكرة أنه من الواجب أن أتعرف على عائلة أبي). وبعد ذلك لم نعد أبداً إلى بيتهما.

بعد عدة أيام من «عرض» الإقامة في الفندق، وصلتني إلى بيت آل باربر بطاقة تحية. (ملاحظة جانبية: أهو تفكير خاطئ أن أقول في نفسي إنه كان على بوب ودوروثي أن يرفعا سماعة الهاتف ويتّصلا بي؟ أو أن يجلسا في السيارة ويأتيا بنفسيهما إلى المدينة لرؤيتي؟ لكنهما لم يفعلا هذا ولا ذاك. والحقيقة أنني لم أتوقّع منهما أن يقفا إلى جانبي ولو حتى من خلال رسالة تعاطف. لكن، لو فاجآني ببادرة عطف صغيرة، وإن لم تكن من طبعهما، لكان ذلك أمراً لطيفاً).

في الحقيقة، كانت البطاقة آتية من دوورثي (وكان من الواضح أن التوقيع باسم «بوب» كان بخط يدها. وأنها حشرته إلى جانب اسمها في اللحظة الأخيرة). وقد لفت انتباهي أن مظهر المغلف كان موحياً بأنه قد فتح باستخدام البخار ثم أعيد لصقه ـ من قبل السيدة باربر؟... الخدمات الاجتماعية؟ ـ إلا أن البطاقة نفسها كانت تحمل، بالتأكيد، تلك الكتابة بخط يد دوروثي الأوروبي المتيبس المماثل لما كنت أراه على بطاقات عيد الميلاد التي تأتينا منها... كان خطها ـ هكذا قال أبي ذات مرة ـ يبدو من الأفضل أن يستخدم في كتابة أسماء أطباق الأسماك اليومية في مطعم *لا جولو*. كانت على البطاقة صورة زهرة توليب ذابلة، وتحتها شعار مطبوع: *ما من نهايات*.

لم تكن دوروثي (من خلال القليل الذي أتذكره عنها) ممن يهدرون الكلمات جزافاً. ولم تكن بطاقتها استثناء من هذه القاعدة. فبعد افتتاحية شديدة الودية ـ أسفٌ على خسارتي المأساوية، وتفكير في الحزن الذي أعيشه الآن ـ كانت تعرض عليَّ أن ترسل بطاقة سفر بالباص إلى بلدة وودبريار في ولاية ميريلاند، مع الإلماح إلى وجود حالة صحية غامضة تجعل من الصعب عليها وعلى جدي بيكر «تلبية متطلباتي» في ما يتعلق بمسألة الرعاية.

قال آندي: «متطلباتك؟ إنها تجعل الأمر يبدو كما لو أنك تطلب منهما عشرة ملايين دولار».

بقيت صامتاً. من الغريب أن الصورة التي كانت على بطاقة التحية هذه قد سببت لي اضطراباً. كانت صورة كالصور التي يراها المرء على رف البطاقات في متجر من المتاجر... صورة عادية تماماً... لكنها تظل، على الرغم من ذلك، صورة وردة ذابلة، مهما تكن جميلة من الناحية الفنية! لم تبدُ لي صورة يصح إرسالها إلى شخص ماتت أمه منذ وقت قريب جداً.

«ظننت أنها مريضة! فلماذا قامت هي بإرسال البطاقة؟».

«لست أدري!».
لقد دار في ذهني هذا التساؤل نفسه؛ ولم يبد لي أمراً غريباً أن جدي الحقيقي لم يكتب شيئاً بنفسه ولم يهتم حتى بكتابة اسمه.
قال آندي بشيء من العبوس: «لعل جدك مصاب بداء ألزهايمر؛ ولعلها جعلته سجيناً في بيته. حتى تحصل على ماله. أنت تعرف أن هذا يحدث كثيراً عندما تكون الزوجة أصغر سناً».
«لا أظنه صاحب مال كثير».
قال آندي متنحنحاً على نحو متصنّع: «لعله ليس ثرياً، لكن المرء غير قادر على استبعاد فرضية التعطش إلى السلطة. إنه قانون الطبيعة! ولعلها لا تريد قدومك حتى لا تكون شريكاً لها في الميراث».
قال والد آندي وهو ينظر إلينا على نحو شبه مفاجئ وهو يرفع رأسه عن صحيفة فاينانشال تايمز وينظر إلينا نظرة شبه مفاجئة: «كفى يا شباب! لا أظن هذا الحديث مفيداً بأية حال من الأحوال».
قال آندي كما لو أنه ناطق بأفكاري: «حسناً، إذا أردت الصدق، فأنا لا أفهم السبب الذي يمنع ثيو من البقاء معنا. إنني مستمتع بصحبته؛ وهنالك متسع كافٍ في غرفتي».
قال السيد باربر بطريقة لم تكن مقنعة ولا نابعة من القلب مثلما كنت أحب أن تكون: «من المؤكد أننا نحب جميعاً أن نحتفظ به لأنفسنا. ولكن، ماذا ستقول عائلته؟ بحسب معلوماتي، لا يزال اختطاف الناس أمراً مخالفاً للقانون».
قال آندي بصوته البعيد المزعج: «طيب... أعني، يا بابا... لا يبدو لي أبداً أن الوضع هكذا».
نهض السيد باربر واقفاً حاملاً كأس الصودا في يده. لم يكن مسموحاً له أن يشرب بسبب الأدوية التي يتناولها: «ثيو، لقد نسيت! هل تحسن الإبحار بالزورق؟».
مرت لحظة قبل أن أدرك معنى سؤاله: «لا».

«أوه، هذا سيئ. لقد حظي آندي بأروع وقت في حياته عندما ذهب إلى معسكر تعلم الإبحار بالزوارق في ولاية ماين السنة الماضية. أليس كذلك يا آندي؟».

ظل آندي صامتاً. لقد أخبرني من قبل، بل أخبرني مرات كثيرة، أن تلك الرحلة كانت أسوأ أسبوعين في حياته كلها.

سألني السيد باربر: «وهل تعرف قراءة الرايات الملاحية؟».

قلت له: «عفواً؟».

«لديّ في مكتبي لوحة رائعة توضح مختلف أنواع الإشارات الملاحية باستخدام الرايات. وسوف أكون سعيداً بأن أطلعك عليها. لا تكشر هكذا يا آندي. من المفيد جداً أن يمتلك كل ولد هذه المهارة».

«بالتأكيد، بالتأكيد، إذا كان في حاجة للإشارة إلى زورق عابر».

أجابه السيد باربر: «هذه العبارات الذكية التي تقولها مزعجة جداً...». لكنه بدا منشغل الذهن أكثر منه منزعجاً... وقال ملتفتاً في اتجاهي: «وفوق هذا، أظنك ستُدهش تماماً عندما تعرف كم تظهر تلك الرايات الملاحية في المهرجانات والأفلام وفي...، لا أدري، على المسرح».

كشر آندي من جديد. قال لأبيه ساخراً: «على المسرح!».

التفت السيد باربر ناظراً إليه: «نعم، على المسرح. هل تجد هذا التعبير مضحكاً؟».

«بل هو تعبير طنّان في حقيقة الأمر».

«لا بأس... أظنني عاجزاً عن رؤية ما يجعلك تراه طناناً هكذا. من المؤكد أن هذه الكلمة التي كان من الممكن أن تستخدمها جدة أبيك». (كان اسم جد السيد باربر قد أسقط من «السجل الاجتماعي»[1] لأنه تزوج ممثلة مغمورة اسمها أولغا أوز جود).

---

(1) السجل الاجتماعي: نشرة نصف سنوية كانت تصدر في الولايات المتحدة وتضم أسماء أفراد «المجتمع الراقي». ظهرت أول الأمر في ثمانينات القرن التاسع عشر؛ وكان صاحبها الصحافي لويس كيلر، لكنها صارت في ما بعد لمالكولم فوربز، ثم تطورت حتى صارت قائمة فوربز المعروفة الآن.

«هذا ما قصدته بالضبط».
«إذاً، ما التعبير الذي تريد أن أستخدمه؟».
«الحقيقة يا بابا أنني أود فعلاً أن أعرف متى كانت آخر مرة رأيت فيها رايات ملاحية معروضة في أي إنتاج مسرحي؟».
أجابه السيد باربر بسرعة: «ساوث باسيفيك».
«غير ساوث باسيفيك!».
«لقد أثبتُّ وجهة نظري».
«لا أصدّق أنك رأيت عرض ساوث باسيفيك. ولا أصدق أن أمي رأته».
«بحق الرب يا آندي!».
«حسناً، حسناً... حتى إذا كنت قد شاهدته. مثال واحد غير كافٍ لإثبات وجهة نظرك».
«أرفض متابعة هذا الحديث السخيف. تعال معي يا ثيو».

7

بدأتُ منذ تلك اللحظة خاصة أحاول كل ما أستطيعه حتى أكون ضيفاً جيّداً: أرتب فراشي في الصباح، وأحرص دائماً على قول «شكراً» و«من فضلك»، وأفعل كل ما أعرف أن أمي كانت تريد مني فعله. لكن المؤسف أن منزل آل باربر لم يكن بيتاً يمكنك فيه أن تظهر امتنانك لأهله عن طريق رعاية الأطفال الصغار أو غسل الأطباق. فبين المرأة التي كانت تأتي لتهتم بشأن النباتات ـ عمل كئيب لأن الضوء قليل في الشقة مما يجعل النباتات تموت أكثر الأحيان ـ ومساعدة السيدة باربر التي بدا لي أن عملها كان محصوراً في إعادة ترتيب الخزائن ومجموعة آنية الخزف الصيني، كان يعمل لديهم قرابة ثمانية أشخاص. (عندما سألت السيدة باربر عن مكان الغسالة، نظرت إلي كما لو أنني طلبت منها موادَّ أولية لكي أصنع صابوناً).

على الرغم من أن شيئاً لم يكن مطلوباً مني، فقد واصلت بذل جهدي حتى أندمج أكثر بتلك الأسرة الملمَّعة المعقَّدة، فكان ذلك مصدر توتّر كبير عندي. كنت في أشد التوق إلى الاختفاء في خلفية المشهد... إلى جعل نفسي أنزلق من غير أن يراني أحد فأضيع بين الزخارف الصينية كأنني سمكة مختبئة في حيد مرجاني... لكن النتيجة كانت أنني صرت أجتذب انتباهاً لا أريده، وأنني صرت أجتذب ذلك الانتباه مئة مرة في اليوم الواحد (من خلال سؤالي عن كل شيء صغير سواء كان منشفة أو شريطاً لاصقاً أو مبراة لقلم الرصاص؛ وبما أنني لم أكن أحمل مفتاح الشقة، فقد وجدت نفسي مضطراً إلى قرع الجرس كلما خرجت وعدت. وحتى محاولاتي حسنة النية لترتيب فراشي في الصباح باءت بالفشل. (قالت لي السيدة باربر موضحة إن من الأفضل أن أترك إينكا أو إسبيرينزا تفعلان ذلك. لأنهما اعتادتا ذلك ولأنهما تتقنان توضيب زوايا الفراش أكثر مني).

إلا أنني نجحت في كسر إحدى نهايات مشجب أثري للمعاطف عندما فتحت باب الخزانة فاصطدم به؛ ونجحت مرتين في جعل جهاز الإنذار ضد السرقة ينطلق (عن طريق الخطأ)؛ بل إنني دخلت أيضاً غرفة السيد والسيدة باربر عندما كنت أبحث عن الحمام.

ولحسن الحظ أن والديّ آندي كانا لا يتواجدان في البيت إلا قليلاً بحيث بدا لي أنني لا أسبب لهما أي إزعاج تقريباً. عندما لا تمضي السيدة باربر وقتها في التسلية بشيء ما في البيت، فإنها تكون خارج الشقة منذ الساعة الحادية عشرة صباحاً، ثم تأتي قبل وقت العشاء بساعتين فتتناول كأساً من الجن مع الليمون وتستخدم المرحاض ـ هذا ما كانت تعبر عنه بأنه «استخدام المغسلة قليلاً» ـ ثم تخرج ثانية فلا تعود إلا بعد أن أنام. وأما السيد باربر، فقد كانت رؤيتي له أقل من ذلك إلا في بداية عطلة الأسبوع عندما يعود من عمله فيجلس ويشرب الصودا من كأس لفَّها

بمنديل طعام... ينتظر أن تنتهي السيدة باربر من ارتداء ملابسها حتى يذهبا لقضاء الأمسية في الخارج.

كانت مشكلة أخوة آندي أكبر مشكلة أواجهها، بفارق كبير عن كل ما سواها من مشكلات. صحيح أن بلات كان، لحسن الحظ، بعيداً ينزل الرعب بقلوب أطفال أصغر منه سناً في غروتون، إلا أن كيتزي وشقيقها الأصغر تودي الذي كان في السابعة فحسب، كانا يمقتان وجودي في البيت لأنني أغتصب ذلك القدر الطفيف من الاهتمام الذي اعتادا تلقيه من أبويهما. كان هنالك الكثير من نوبات الغضب ومن الصياح، والكثير من النظر شزراً ومن القهقهة العدائية من جانب كيتزي، إضافة إلى إزعاج مربك آخر (مربك لي) لم يجد له حلاً على الإطلاق ـ لقد كانت تشتكي، كذباً، لصديقاتها ولمدبّرات المنزل، ولكل من قد يستمع إليها، من أنني أذهب إلى غرفتها وأعبث بمجموعة الحصالات (على شكل حيوانات) التي كانت لديها على الرف. وأما تودي، فقد كان انزعاجه في تزايد مستمر مع انقضاء مزيد من الأسابيع على وجودي لديهم. كان ينظر إليَّ خلال الإفطار نظرة ثابتة لا خجل فيها، ويطرح في مرات كثيرة أسئلة تجعل أمه تمد يدها وتقرصه من تحت الطاولة. يسألني أين كنت أعيش؟ وكم سأبقى لديهم، وهل لي أب، وأين هو ذلك الأب!

أما أنا فكنت أقول له: «سؤال وجيه!»، فأثير ضحك كيتزي التي كانت ذات شعبية كبيرة في مدرستها، وكانت في التاسعة من عمرها، بيضاء شقراء جميلة بقدر ما كان بياض آندي وشقاره سخيفين.

8

كان من المقرر أن يأتي، في وقت ما، أشخاص متخصّصون في نقل الأثاث والحاجيات حتى يحزموا أشياء أمي ويضعوها في مستودع. وقبل مجيئهم، كان عليَّ أن أذهب إلى الشقة لآخذ أي شيء قد أكون محتاجاً إليه أو راغباً فيه. وكنت دائماً، أتذكّر تلك اللوحة ـ أتذكرها بطريقة ملحّة ـ

لكنها غامضة، على نحو غير متناسب على الإطلاق مع أهميتها الفعلية... كنت أتذكّرها كما يتذكر المرء مشروعاً مدرسياً أهمله وتركه من غير أن يكمله.

كان لا بد لي من إعادتها إلى المتحف، في وقت ما، رغم أنني كنت غير قادر بعد على التوصل إلى طريقة تسمح لي بفعل ذلك من غير إثارة ضجة كبيرة حول الأمر.

كنت قد ضيّعت للتو فرصة لإعادة اللوحة عندما صرفت السيدة باربر اثنين من المحقّقين جاءا إلى الشقة يسألان عني. كان الأمر على النحو التالي: فهمت أنهما محقّقان، أو حتى أنهما من رجال الشرطة، من الفتاة ويلزية الأصل (كان اسمها كيلين) التي تهتم برعاية الطفلين الصغيرين. أخبرتني أنها كانت عائدة بتودي من روضة الأطفال النهارية عندما ظهر هؤلاء الغريبان وسألا عني. قالت لي وهي ترفع حاجبيها على نحو محمّل بدلالات لم أفهمها: «بدلات رسمية، كما تعلم!». كانت فتاة ثقيلة الوزن سريعة الكلام لها وجنتان محمرّتان يجعلانها تبدو كأنها كانت واقفة عند الموقد... «نعم، لقد كانا لهما ذلك المظهر!».

خفت خوفاً شديداً لم يسمح لي بسؤالها عما عنته بـ«ذلك المظهر». وعندما دخلت، بكل حذر، لمعرفة ما ستقوله السيدة باربر عن الأمر، وجدتها مشغولة. قالت لي حتى من غير أن تنظر إلي: «إنني آسفة. لكن، هل يمكننا أن نتكلم في هذا الأمر لاحقاً... من فضلك؟». كان ضيوفها موشكين على الوصول بعد نصف ساعة. وكان من بينهم معمار شهير معروف وراقص شهير في باليه مدينة نيويورك. كانت تعبث بنهاية عقدها، وكانت في ضيق لأن مكيف الهواء لا يعمل على نحو سليم.

«هل أنا واقع في مشكلة؟».

خرج هذا السؤال مني قبل أن أدرك ما كنت أقوله لها. توقّفت السيدة باربر وقالت لي: «ثيو، لا تكن سخيفاً! لقد كانا لطيفَيْن جداً، مهذّبين

جداً... كل ما في الأمر، هو أنني لا أستطيع استقبالهما من غير اتصال هاتفي. على أية حال قلت لهما إن الوقت غير مناسب. وهذا ما كانا قادرين على رؤيته بنفسيهما...» أشارت إلى الأشخاص الذين يأتون بالطعام والشراب وهم يدخلون ويخرجون، وإلى العامل الفني الذي كان واقفاً على سلم يفحص جوف مكيف الهواء مستخدماً مصباحاً كاشفاً...

«اذهب الآن. أين هو آندي؟».

«سيكون في البيت بعد ساعة. ذهب مع صف الفلك إلى المرصد الفلكي».

«لا بأس؛ هنالك طعام في المطبخ. ليست لدي كمية فائضة من قطع التارت الصغيرة، لكنك تستطيع أن تأكل قدر ما تشاء من أصابع السندويشات. وسوف يسرّني أيضاً أن تأكل شيئاً من التورتة بعد أن نقطعها».

رأيت أنها غير مهتمة بالأمر إلى درجة جعلتني أنسى كل ما يتعلّق بهذين الزائرين إلى أن ظهرا من جديد في المدرسة بعد ثلاثة أيام من ذلك. ظهرا في درس الهندسة: أحدهما شاب والثاني أكبر سناً. كانت ملابسهما من النوع العادي تماماً. قرعا الباب المفتوح بلباقة: قال الأصغر سناً، الذي كان مظهره إيطالياً للسيد بوروفسكي: «هل نستطيع رؤية ثيودور بيكر؟»، بينما ألقى الأكبر سناً نظرة ودية داخل غرفة الصف.

قال لي الرجل الأكبر سناً عندما سرنا في غرفة الصف قاصدين غرفة الاجتماعات المخيفة التي كنت سألتقي فيها، بصحبة أمي، السيد بيمان يوم وفاتها: «نريد الحديث معك فقط، فهل لديك مانع؟ لا تخف!». كان رجلاً شديد السواد له لحية صغيرة رمادية ـ رجل صلب المظهر لكنه يبدو لطيفاً أيضاً مثل الشرطي الطيب في برنامج تلفزيوني... «إننا نحاول تجميع أشياء كثيرة بخصوص ذلك اليوم، ونأمل أن تكون قادراً على مساعدتنا».

كنت مذعوراً أول الأمر. وعندما قال لي: «لا تخف»، صدقته... إلى أن فتح باب غرفة الاجتماعات. كان في الغرفة خصمي ذو القبعة المصنوعة من قماش التويد، السيد بيمان، الذي يبدو شديد الفخامة والأبهة بصداره وساعته ذات السلسلة، كان في الغرفة أيضاً العامل الاجتماعي إنريك والمشرفة النفسية السيدة سوانسون (هي نفسها من قالت لي إنني قد أشعر بالتحسن إذا قذفت شجرة بمكعبات الجليد)؛ والطبيب النفسي ديف في بنطلونه الأسود وكنزته ذات الياقة المرتفعة... وفوق هذا كله، رأيت أيضاً السيدة باربر بحذائها ذي الكعب المرتفع ومعطفها الفضّي الذي كان يبدو كما لو أنه كلّف مالاً أكثر مما يتقاضاه بقية الموجودين في الغرفة خلال شهر كامل.

لا بد أن خوفي كان مرسوماً على وجهي بكل وضوح. ولعلّي ما كنت أصاب بهذا التوتر والذعر إلى هذا الحد لو أنني كنت أكثر فهماً لما لم يكن واضحاً لدي في ذلك الوقت: لقد كنت قاصراً، ولا بد من وجود أحد الوالدين ـ أو وصي ما ـ في أية مقابلة رسمية. هذا هو السبب الذي جعل كل من يمكن اعتباره «ناصحاً» لي، ولو من بعيد، يُستدعى إلى حضور هذه الجلسة. لكن ما فهمته عندما رأيت تلك الوجوه كلّها، إضافة إلى آلة تسجيل موضوعة في مركز الطاولة، هو أن الجهات الرسمية قد اجتمعت كلها حتى تقرّر مصيري وتتخلّص منّي بالطريقة التي تراها مناسبة.

جلست متيبّساً وتحملت الأسئلة الاستهلالية (هل لديَّ هوايات؟ وهل أمارس أي نوع من أنواع الرياضة؟)، إلى أن صار واضحاً للجميع أن هذه «الدردشة» الأولية ما كانت كبيرة النفع لامتصاص توتري.

رُن الجرس معلناً انتهاء الدرس. وسُمع صفق أصوات أبواب الخزائن ودمدمة الأصوات من الممر المجاور. صاح أحد الأولاد بصوت مبتهج: «أنت ميت أيها الوغد».

جذب الرجل الإيطالي ـ قال إن اسمه راي ـ كرسياً ووضعه أمامي.

ثم جلس عليه فتلامست ركبنا. كان فتياً، لكنه ثقيل ضخم له هيئة سائق سيارة ليموزين طيّب القلب. كان لعينيه المنحرفتين قليلاً مظهر رطب سائل ناعس كما لو أنه يشرب كثيراً.

قال لي: «نريد فقط أن نعرف ما تتذكّره. فتش في ذاكرتك واستعد الصورة العامة لذلك الصباح. وذلك لأنك قد تتذكّر قسماً من تلك الأشياء الصغيرة، وقد يكون من بينها شيء يساعدنا».

كان شديد القرب مني فشممت رائحة مزيل العرق الذي يستخدمه. سألته: «مثل ماذا؟».

«مثل ما أكلته على الإفطار ذلك الصباح. هذه نقطة صالحة للبدء، أليس كذلك؟».

«مممم... ». حدّقت في بطاقة التعريف التي يضعها على معصمه كأنها سوار. لم يكن هذا ما توقعت أن يسألوه. كانت الحقيقة هي أننا لم نتناول إفطارنا في البيت لأنني كنت واقعاً في مشكلة في ما يخص المدرسة ولأن أمي كانت غاضبة مني. لكن حرجي الشديد منعني من قول ذلك.

«ألا تتذكر؟».

أجبته من غير تفكير: «فطائر منزلية».

نظر راي إلي نظرة فيها شيء من الدهاء: «أوه، حقّاً! هل أعدّتها أمك؟».

«نعم».

«وماذا وضعت فيها؟ هل وضعت فيها توتاً أم رقائق من الشوكولاته؟».

أومأت برأسي.

«الاثنان معاً؟».

كنت أحسّ بنظرات الجميع موجّهة إليَّ. ثم قال السيد بيمان: «لست مضطراً إلى اختراع إجابة إذا كنت لا تتذكّر». قالها بطريقة مفخّمة كما لو أنه واقف في درس «الأخلاق والمجتمع».

ألقى الرجل الأسود ـ كان واقفاً في الزاوية حاملاً لوحة كتابة لتسجيل ملاحظاته ـ نظرة لوم حادّة باتجاه السيد بيمان.

تدخّلت السيدة سوانسون بصوت خفيض وهي تعبث بقطع الزجاج المعلقة من سلسلة حول عنقها: «الحقيقة... يبدو أنه مصاب بمشكلة في الذاكرة». كانت السيدة سوانسون جدّة ترتدي قمصاناً بيضاء فضفاضة، وكانت لها جديلة رمادية طويلة على امتداد ظهرها. وكان الأطفال الذين يرسَلون إلى مكتبها من أجل المساعدة أو النصيحة يطلقون عليها اسم «سواني»[1]. وخلال جلساتها معي في المدرسة علّمتني طريقة التنفس على ثلاث مراحل من أجل التنفيس عن مشاعري (إضافة إلى إعطائي نصيحة مكعبات الجليد)، وجعلتني أرسم رموز ماندالا[2] تمثّل قلبي الجريح... «لقد أصيب في رأسه، أليس كذلك يا ثيو؟».

قال راي وهو يرفع رأسه وينظر إلي نظرة مباشرة صادقة: «هل هذا صحيح؟».

«صحيح».

«وهل فحصك طبيب؟».

قالت السيدة سوانسون: «ليس على الفور».

صالبت السيدة باربر كاحليها وقالت بصوت هادئ: «لقد أخذته إلى غرفة الإسعاف في مستشفى نيويورك بريسبوتيريان. عندما وصل إلى بيتي، كان يشكو صداعاً شديداً. وقد مر يوم أو يومان قبل أن نأخذه لمعالجة صداعه. يبدو لي أن أحداً لم يفكر في سؤاله عمَّ إذا كان قد أصيب أم لا».

بدأ العامل الاجتماعي إنريك يقول شيئاً محاولاً التعليق على كلامها، لكن نظرة من الشرطي الأسود الأكبر سناً (تذكّرت اسمه الآن: موريس) أسكتته على الفور.

---

(1) سواني: في الديانة الهندوسية، هو شخص روحاني رفيع المرتبة.

(2) ماندالا: رمز طقسي / روحاني يمثّل الكون، مستخدم في الديانتين البوذية والهندوسية.

ربت الشرطي راي على ركبتي وقال لي: «انظر يا ثيو! أعرف أنك تريد مساعدتنا. أنت تريد مساعدتنا، أليس هذا صحيحاً؟».

أومأت برأسي.

«هذا شيء عظيم. لكن، إذا سألناك عن شيء ما وكنت لا تعرفه... فلا بأس في أن تقول إنك لا تعرفه».

قال موريس: «نريد أن نطرح عليك كمية كبيرة من الأسئلة لنرى إن كنت قادراً على التذكر حول أي شيء. فهل هذا مناسب لك؟».

قال راي وهو ينظر في وجهي: «هل تريد شيئاً؟ ربما تريد أن تشرب ماء!... زجاجة صودا؟».

هززت رأسي ـ كان شرب الصودا في المدرسة غير مسموح ـ هززت رأسي في اللحظة التي نطق فيها السيد بيمان قائلاً: «آسف... غير مسموح بشرب الصودا في المدرسة».

ظهرت على وجه راي علامات نفاد الصبر، لكني لست واثقاً إن كان السيد بيمان قد رأى ذلك. قال راي ملتفتاً إلي من جديد: «آسف يا صغيري، لقد حاولت. سوف أخرج وأشتري لك صودا من المتجر القريب إذا رغبت بذلك في ما بعد، فما رأيك؟ والآن» ضم كفيه معاً... «ما الوقت الذي تظن أنك أمضيته مع أمك قبل حدوث الانفجار الأول؟».

«ساعة تقريباً... على ما أظن».

«تظن أم تعرف؟».

«أظن».

«أتظن أن الوقت كان أكثر من ساعة أم أقل من ساعة».

قلت له بعد صمت طويل بعض الشيء: «لا أظننا بقينا أكثر من ساعة».

«صف لنا ما تتذكّره عن الحادثة».

«لم أرَ ما حدث. كان كل شيء ممتازاً، ثم كان هناك انفجار ولمعان مرتفع...».

«لمعان مرتفع!؟».

«ليس هذا ما عنيته. عنيت أن صوت الانفجار كان مرتفعاً».

قال موريس الضخم وهو يخطو إلى الأمام: «قلت إنك سمعت انفجاراً. فهل تعتقد بأنك قادر على أن تقدّم لنا وصفاً أكثر تفصيلاً لصوت ذلك الانفجار؟».

«لست أدري. كان انفجاراً... فقط»؛ لكنهما ظلا ينظران إليَّ كما لو أنهما يتوقّعان سماع المزيد.

سمعت صوت نقرات خافتاً خلال الصمت الذي أعقب ذلك: كانت السيدة باربر مطرقة برأسها تتفقّد خلسة الرسائل على هاتفها (بلاك بيري).

تنحنح موريس ثم قال: «ماذا عن الرائحة؟».

«عفواً؟».

«هل لاحظت أية رائحة بعينها في اللحظات التي سبقت الانفجار؟».

«لا أظن هذا».

«لا شيء على الإطلاق؟ هل أنت متأكد؟».

«مع استمرار هذا الاستجواب ـ الأسئلة نفسها مرة بعد مرة، لكنها تتغير قليلاً في هذا الاتجاه أو ذاك فتشوّشني؛ فضلاً عن أنهم كانوا يدسّون فيها شيئاً جديداً، من حين لآخر، حاولت التماسك وانتظرت قانطاً أن تصل الأسئلة إلى اللوحة. كان عليّ ـ بكل بساطة ـ أن أعترف بالأمر وأن أواجه عواقبه مهما تكن تلك العواقب (قد تكون عواقب وخيمة لأنني سأصير «ضيفاً على سلطات الولاية»، على أية حال). وفي موضعين اثنين، في غمرة ذعري، كنت على شفير النطق بما أخفيه. لكني بدأت أدرك، مع ازدياد أسئلتهم (أين كنت عندما أصبت في رأسي؟ وهل رأيت أحداً أو تحدّثت مع أحد في طريق الخروج؟)، إنهم لا يعرفون شيئاً عمّا حدث لي ـ لا يعرفون الصالة التي كنت فيها عندما انفجرت القنبلة، ولا يعرفون حتى الباب الذي خرجت منه مغادراً المبنى.

كان لديهم مخطط لذلك الطابق؛ وكانت للصالات أرقام، لا أسماء: الصالة 19 أ، والصالة 19 ب... أرقام وحروف في رسم أشبه بالمتاهة ممتد حتى الصالة رقم 27. قال راي مشيراً إلى المخطط: «أين كنت عندما وقع الانفجار الأول؟...». وضع إصبعه على إحدى الصالات... «هل كنت هنا؟».

«لست أدري».

«خذ ما يلزمك من وقت».

كررت بشيء من الغضب: «لست أدري!».

كان لمخطط الصالات مظهر مربك (شيء أنتجه الكمبيوتر) كأنه آتٍ من لعبة فيديو أو كأنه إعادة إنشاء لمخطط ملجأ هتلر الذي رأيته مرة على قناة «التاريخ»... لم أفهم شيئاً من ذلك المخطط ولم أر فيه أي شيء يشبه المكان الذي أتذكّره.

أشرت إلى نقطة مختلفة فقال لي: «في هذا المربع؟ هذه منصة عرض عليها لوحات. أعرف أن هذه الغرف تبدو متشابهة؛ لكن لعلك تستطيع تذكر المكان الذي كنت فيه اعتماداً على هذه النقطة!

حدّقت يائساً في ذلك المخطط ولم أجبه بشيء. (كان جزء من السبب في ذلك أنه بدا لي أمراً ليس طبيعياً على الإطلاق أن يجعلوني أرى المكان الذي عثروا فيه على جثة أمي ـ على مبعدة عدة صالات من مكان انفجار القنبلة ـ على الرغم من أنني لم أدرك هذا إلا في وقت لاحق).

قال لي موريس مشجعاً... كرّر ما قلته لهم قبل قليل: «أنت لم ترَ أحداً في طريق خروجك من المكان».

هززت رأسي نفياً.

«ألا تتذكّر شيئاً على الإطلاق».

«حسناً... أعني... رأيت جثثاً مغطاة. ومعدات منتشرة في المكان».

«ألم ترَ أحداً يدخل منطقة الانفجار أو يخرج منها؟».

كررت بإصرار: «لم أرَ أحداً». لقد قلت لهم هذا من قبل!

«هذا يعني أنك لم ترَ رجال إطفاء أو عمال إنقاذ؟».

«لم أر أحداً».

«إذاً، أرى أن في وسعنا استنتاج أنهم كانوا قد تلقّوا أمر مغادرة المبنى قبل خروجك منه. هذا يعني أننا نتحدّث عن فسحة زمنية امتدت من أربعين دقيقة إلى ساعة ونصف الساعة بعد الانفجار الأول. هل ترى هذا الافتراض معقولاً؟».

رفعت كتفي عاجزاً عن قول شيء.

«هل هذا نعم أم لا؟».

نظرت إلى الأرض وقلت: «لا أعرف».

«ما الذي لا تعرفه؟».

«لا أعرف». ثم كان الصمت الذي تلا ذلك طويلاً مزعجاً إلى درجة جعلتني أظن أنّني موشك على الانفجار باكياً.

«هل تتذكّر سماع الانفجار الثاني؟».

قال السيد بيمان: «اعذرني على هذا السؤال، لكن، هل هذا ضروري حقاً؟».

التفت إليه راي الجالس قبالتي: «عفواً، ماذا قلت؟».

«لست واثقاً من أنني أدرك الغاية من تعريضه لهذا الضغط كلّه».

قال موريس بنبرة محايدة حذرة: «إننا نحقّق في جريمة. مهمتنا هي اكتشاف ما حدث هناك».

«نعم، لكن من المؤكد أن لديكم وسائل أخرى للقيام بهذه الأشياء الروتينية. وأعتقد بأن لديهم هناك وسائل كثيرة وكاميرات مراقبة متنوّعة الأشكال».

قال راي بشيء من الحدة: «لديهم كاميرات بالتأكيد. لكن الكاميرات لا تستطيع الرؤية عبر الدخان والغبار. وهي لا ترى شيئاً عندما يعصف

بها الانفجار فيجعلها موجّهة صوب السقف. والآن...» قال هذا وهو يعود إلى جلسته السابقة مطلقاً زفرة... «كنت تحدثني عن الدخان. هل رأيت الدخان أم شممت رائحته؟».

أومأت برأسي.

«أيهما، رأيت أم شممت؟».

«الاثنان معاً».

«من أي اتجاه أتى الدخان، بحسب ظنك؟».

كنت موشكاً على القول من جديد إنني لا أعرف، لكن السيد بيمان لم يكن يشعر بأن فكرته قد صارت واضحة. قال: «سامحوني، لكنني عاجز تماماً عن فهم الغاية من كاميرات المراقبة الأمنية إذا كانت غير قادرة على العمل في ظروف الطوارئ...». كان يخاطب الموجودين جميعاً... «مع هذه التكنولوجيا المتوفّرة لدينا اليوم، وفي وجود تلك الأعمال الفنية كلها...».

التفت راي إليه كأنه موشك على قول كلام غاضب، لكن موريس الواقف في الزاوية رفع يده وتكلّم.

«الصبي شاهد هام. ونظام المراقبة غير مصمَّم لتحمل أحداث من هذا القبيل. والآن، إنني آسف، لكننا سنكون مضطرين إلى أن نطلب منك مغادرة الغرفة، يا سيدي، إذا كنت غير قادر على الكف عن هذه التدخلات».

«أنا موجود هنا بصفة راعٍ لهذا الفتى. ومن حقّي أن أطرح أسئلة».

«لا يحق لك طرح أسئلة غير متعلّقة مباشرة بما هو في صالح الطفل».

«أمر غريب... كان لديَّ انطباع بأن أسئلتي متعلّقة بصالحه».

في تلك اللحظة، استدار راي الجالس أمامي وقال له: «سيدي! إذا واصلت عرقلة الإجراءات، فسوف يكون عليك أن تخرج من الغرفة».

قال السيد بيمان في لحظة الصمت المتوترة التي أعقبت ذلك: «ليست

لدي أية نية في عرقلة عملكما. أؤكد أنني لا يمكن أبداً أن أفعل هذا. تابع من فضلك...» قال هذا وهو يلوّح بيده مرتبكاً... «لا يمكن أبداً أن أعطل عملكما».

ثم استمرت الأسئلة. من أي اتجاه أتى الدخان؟ وما لون وميض الانفجار؟ ومن دخل المنطقة وخرج منها في اللحظات التي سبقت الانفجار؟ وهل لاحظت شيئاً غير طبيعي، أي شيء على الإطلاق، قبل الانفجار أو بعده؟ نظرت إلى الصور التي وضعوها أمامي: وجوه بريئة لأشخاص في عطلة، لم أعرف أحداً منهم. صور من جوازات سفر سياح آسيويين ومواطنين كبار في السن... أمهات ومراهقون على وجوههم حب الشباب مبتسمون ومن ورائهم خلفية الاستوديو الزرقاء ـ وجوه عادية يصعب أن يتذكّرها المرء؛ لكنها تفوح كلها ـ لا أدري كيف ـ برائحة المأساة. ثم عدنا إلى مخطط المتحف. هل يمكنني أن أحاول، مرة إضافية واحدة فقط، تحديد موقعك على هذه الخريطة؟ هنا؟ أم هنا؟ أم لعلك كنت هنا؟

«لا أعرف»... «لست أدري!». واصلت قول هذا لهم: لأنني لم أكن واثقاً في حقيقة الأمر، وكذلك لشدة خوفي وتوقي إلى انتهاء هذه المقابلة؛ لكن أيضاً نتيجة الجو الذي ساد الغرفة كلها، جو من التوتر ونفاد الصبر. بدا لي أن هؤلاء الكبار قد اقتنعوا في أنفسهم بأنني لم أكن أعرف شيئاً وبأن من الأفضل تركي وشأني.

ثم، قبل أن أدرك الأمر، انتهت تلك المحنة كلها. قال راي وهو يقف ويضع يده اللحيمة على كتفي: «ثيو، أريد أن أشكرك يا صديقي لأنك فعلت كل ما استطعت فعله من أجلنا».

قلت له وقد هزّني انتهاء الأمر كلّه على هذا النحو المفاجئ: «لا بأس».

«أعرف تماماً كم كان هذا صعباً عليك. لا يحب أحد أبداً أن يعيش هذا

النوع من الأشياء مرة أخرى. إنه مثل...». شكّل بيديه ما يشبه صورة... «إننا نحاول جمع أجزاء أحجية ونحاول فهم ما حدث في ذلك المكان. وقد يكون بعض قطع تلك الأحجية موجوداً لديك ولا يعرفه أحد غيرك. لقد ساعدتنا كثيراً عندما قبلت بالحديث معنا».

قال موريس وهو ينحني فوقي ويناولني بطاقة (تدخّلت السيدة باربر بكل سرعة وأخذت البطاقة ودستها في حقيبة يدها): «إذا تذكّرت أي شيء، فسوف تتّصل بنا، أليس كذلك؟ وسوف تذكّرينه بهذا، من فضلك، يا آنسة...». توجه بهذه الكلمات إلى السيدة باربر... «ذكّريه بأن يتصل بنا إذا كان لديه شيء آخر يقوله لنا. أرقام المكتب موجودة على البطاقة، لكن...». أخرج قلما من جيبه... «هل تسمحين بإعادة البطاقة لحظة... من فضلك؟».

من غير أن تقول شيئاً، فتحت السيدة باربر حقيبتها وأعادت إليه تلك البطاقة.

ضغط على رأس قلمه، ثم سجل رقماً على ظهر البطاقة: «هكذا، هكذا. إنه رقم هاتفي المحمول. يمكنكم دائماً ترك رسالة في مكتبي. أما إذا لم تستطيعوا الوصول إليّ، فأرجو أن تتصلوا على هاتفي المحمول».

عندما اتّجه الجميع إلى باب الغرفة، أتت إليَّ السيدة سوانسون وأحاطتني بذراعيها... بطريقتها الدافئة. قالت لي بثقة كأنها أقرب صديق لي في العالم كله: «مرحباً، أنت... كيف تسير الأمور؟».

أشحت بنظري عنها واتخذ وجهي هيئة *لا بأس، على ما أظن!*

راحت تمسّد ذراعي كأنني قطتها الحبيبة: «هذا جيد. أعرف أن الأمر كان صعباً عليك. هل تحب أن تأتي إلى مكتبي بضع دقائق؟».

أصابني الغم عندما رأيت ديف، الطبيب النفسي، يراوح منتظراً في آخر الغرفة ومن خلفه إنريك وقد وضع يديه على خصره وارتسمت على وجهه ابتسامة ترقّب صغيرة.

لا بد أن قنوطي كان مسموعاً في صوتي عندما قلت لها: «أرجوك... أريد أن أعود إلى الصف».

شدّت على ذراعي، ثم ـ لاحظت هذا ـ ألقت نظرة في اتجاه ديف وإنريك قبل أن تقول لي: «بالتأكيد، أين هو صفك؟ سوف أرافقك في الطريق إليه».

9

بحلول ذلك الوقت، كان لدينا درس لغة إنكليزية ـ آخر درس في ذلك اليوم. كنا ندرس شعراً لووالت وايتمان:

سيظهر كوكب المشتري، فكوني صبورةً وترقبيه ليلة أخرى، وستظهر نجوم الثريا

إنها خالدة، تلك النجوم كلها... فضية وذهبية، وسوف تشعّ من جديد.

وجوه فارغة! كانت غرفة الصف حارة ناعسة أواخر فترة ما بعد الظهر. النوافذ مفتوحة، وضجيج حركة السير يطفو قادماً إلينا من الشارع. كان الأطفال مستندين إلى مرافقهم يرسمون صوراً على هوامش دفاترهم ذات السلك الملتف.

نظرت من النافذة، نظرت إلى خزان الماء المتسخ على السطح المقابل. سبب لي ذلك الاستجواب (هكذا اعتبرته) اضطراباً عظيماً وهدم جداراً من مشاعر مفكّكة انهارت كلها فوقي في لحظة غير متوقعة: رائحة احتراق مواد كيميائية خانقة ودخان وشرارات وأسلاك كهربائية والضوء الأبيض البارد المنبعث من مصابيح الطوارئ، ضوء شديد القوة أعمى عينَيّ. كان ذلك يحدث لي في أوقات عشوائية، لا على التعيين... في المدرسة أو في الشارع ـ أتجمّد في منتصف الخطوة عندما تجتاحني تلك الموجة من جديد... عينا الفتاة متعلّقين بعينَيَّ في لحظة عجيبة معوجة قبل أن يباعد العالم بيننا. كنت في بعض الأحيان أستعيد نفسي غير مدرك ما قيل لي قبل لحظة، فأجد شريكي في مختبر البيولوجيا ينظر

إليَّ، أو أرى شخصاً اعترضت طريقه أمام آلة بيع المشروبات الباردة في سوق كورية وأسمعه يقول لي: *ابتعد يا فتى، ليس لدي النهار كله!*

إذاً، يا طفلتي الحبيبة، هل حزنت على المشتري وحده؟

أما فكرتِ في موت تلك النجوم؟

لم أتعرّف على الفتاة في الصور التي جعلوني أراها ـ ولا على الرجل العجوز. أدخلت يدي في جيب سترتي وتلمّست الخاتم. قبل بضعة أيام، ورد في قائمة المفردات والتعابير الجديدة في الصف، تعبير «*أخوة الدم*». كان وجه الرجل العجوز مشوَّهاً إلى حد يجعلني غير قادر على تحديد ملامحه تحديداً واضحاً. لكني أتذكّر جيداً ذلك الإحساس الدافئ الزلق على يدي، إحساسي بدمه ـ ظل هذا الإحساس مرافقاً لي، خاصة لأن الدم ظل على يدي ـ بطريقة ما ـ وكنت لا أزال أشم رائحته وأحس طعمه في فمي. جعلني هذا أدرك السبب الذي يجعل الناس يتحدّثون عن أخوة الدم وعن أن الدم يربط الناس معاً. في الخريف، قرأنا قصة *ماكبث* في درس اللغة الإنكليزية. لكني لم أبدأ إلا الآن فهم السبب الذي جعل الليدي ماكبث عاجزة عن إزالة ذلك الدم عن يديها... السبب الذي أبقاه عليهما بعد أن غسلتهما.

10

كان يحدث أحياناً أن أوقظ آندي ليلاً نتيجة تخبطي وصراخي في نومي. ومن الواضح أن هذا ما جعل السيدة باربر تبدأ إعطائي قرصاً أخضر صغيراً من دواء اسمه *إيلافيل* قالت لي إنه يقيني من الخوف في الليل. كان هذا أمراً محرجاً لي لأن أحلامي لم تكن كوابيس بالمعنى الحقيقي، بل فترات مضطربة صعبة أرى فيها أمي تعمل حتى وقت متأخر ثم لا تجد وسيلة مواصلات تعود فيها إلى البيت ـ تعلق في مكان بعيد من الولاية، في منطقة محترقة فيها سيارات تالفة وكلاب مربوطة بسلاسل تعوي من أفنية البيوت. وكنت أبحث عنها بصعوبة في مصاعد الخدمة

وفي بنايات مهجورة، وأنتظرها في الظلام عند مواقف باصات غريبة، وألمح نساء يشبهنها في نوافذ قطارات عابرة، وأتأخر في الوصول إلى الهاتف ورفع سماعته عندما تحاول الاتصال بي إلى بيت آل باربر ـ كانت هذه الخيبات، وهذه الحالات التي أضيّعها فيها بعد أن أكاد أصل إليها تضربني ضرباً عنيفاً وتوقظني شبه مختنق فأجد نفسي راقداً متعرّقاً مصاباً بالغثيان في ضياء أول الصباح. لم تكن محاولاتي للعثور عليها أسوأ ما في الأمر، بل استيقاظي وتذكري أنها ماتت.

وعندما صرت أتناول أقراص الدواء الخضراء، ذوت تلك الأحلام وتلاشت في ظلمة لا هواء فيها. (يدهشني الآن ـ لكنه لم يكن يدهشني في ذلك الوقت ـ أن السيدة باربر كانت تتصرّف تصرفاً خاطئاً تماماً عندما تعطيني دواء لم يصفه لي الطبيب إلى جانب تلك الكبسولات الصفراء وأقراص الدواء البرتقالية الصغيرة الشبيهة بالكرات التي وصفها لي الطبيب النفسي ديف). صار النوم ـ عندما يأتيني ـ أشبه بالوقوع في حفرة؛ وكثيراً ما كنت أجد صعوبة في الاستيقاظ عندما يأتي الصباح.

«الشاي الأسود... إنه الحل الصحيح». هذا ما قاله لي السيد باربر ذات صباح عندما كنت شبه عاجز عن فتح عينيَّ عندما جلست معهم من أجل الإفطار. صب لي فنجاناً من إبريق الشاي المخمَّر جيداً... «إنه من صنف آسام الممتاز. شاي ثقيل تماماً. وسوف يغسل جسمك من أثر الأدوية. هذا ما كانت تتناوله جودي غارلاند![1]... قبل عروضها. كانت جدتي تقول لي إن سِد لوفت اعتاد أن يتّصل دائماً بالمطعم الصيني ليطلب لها إبريق شاي كبيراً حتى تزيل به الأشواك من جسمها. أظن أن هذا كان في لندن، في مسرح بالاديوم؛ وكان الشاي القوي الشيء الوحيد الذي يفلح

---

(1) جودي غارلاند: ممثلة / مغنية أميركية حقّقت شهرة عالمية من خلال أدوارها في أفلام غنائية ودرامية، وعلى المسرح.

سِد (سدني) لوفت: الزوج الثالث لجودي غارلاند. ورجل أعمال هام في المجال الفني. شارك في عدة أفلام وألف كتاباً عن حياته مع جودي غارلاند.

في حل المشكلة لأنهم كانوا يجدون أحياناً صعوبة حقيقية في إيقاظها... هل تسمع هذا؟... في جعلها تنهض من سريرها وترتدي ملابسها...».

قالت السيدة باربر: «لا يمكنه أن يشرب هذا. إنه أشبه بأسيد البطاريات...» ألقت مكعَّبَين من السكر في الفنجان، ثم أضافت إليه كمية كبيرة من الحليب قبل أن تناولني إياه... «ثيو، لا أحب أن ألح عليك دائماً، لكن عليك أن تأكل شيئاً!».

قلت ناعساً: «حسناً»، لكني لم أتحرك ولم أتناول لقمة من فطيرة التوت التي وضعتها أمامي. صار مذاق الطعام في فمي كمذاق الورق؛ ولم أحس جوعاً منذ أسابيع.

«هل تفضّل التوست بالقرفة؟ أو الشوفان؟».

قال آندي: «أمر لا معنى له أبداً... أنت لا تسمحين لنا بتناول القهوة...». كانت قد نشأت لديه عادة شراء قهوة ستاربكس، من القياس الكبير، في طريقه إلى المدرسة، وفي طريق عودته إلى البيت، من غير أن يعرف والداه شيئاً عن ذلك.

«أنت متأخرة كثيراً عن زماننا في هذا الأمر».

أجابته السيدة باربر بنبرة باردة: «ربما».

حتى نصف فنجان يمكن أن يكون مفيداً. أمر غير منطقي أن تتوقعي مني الذهاب إلى درس الكيمياء المتقدمة في الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً من غير كافيين».

أجابته السيدة باربر من غير أن ترفع رأسها عن الصحيفة: «ما أكثر نواحك».

«موقفك غير بنّاء أبداً. إنهم يسمحون للجميع بشرب القهوة».

قالت السيدة باربر: «أعرف أن هذا غير صحيح. قالت لي بيتسي إنغرسول...».

«لعل السيدة إنغرسول لا تسمح لسابين بشرب القهوة؛ لكن سابين

إنغرسول في حاجة إلى ما يتجاوز كثيراً تناول فنجان من القهوة حتى تصير قادرة على تلقّي دروس في الكيمياء المتقدمة، أو في أي شيء».

«هذا لا يجوز يا آندي؛ ثم إنه كلام غير لطيف أبداً».

أجابها آندي بصوت بارد: «لا بأس... أنا لم أقل شيئاً غير الحقيقة. سابين غبية كأنها عمود. وأظن أن من المستحسن أن تهتم بالمحافظة على صحتها لأنها لا تكاد تملك شيئاً غيرها».

قالت السيدة باربر: «الذكاء ليس كل شيء يا عزيزي...» ثم التفتت في اتجاهي... «هل تحب أن أطلب من إيتا أن تسلق لك بيضة؟ أو ربما تفضّلها مقلية؟ أو مخفوقة؟... كيفما شئت».

قال تودي الصغير: «أنا أحب البيض المخفوق. أستطيع أكل أربع بيضات».

أجابه السيد باربر: «لا، لا تستطيع يا صديقي».

«بل أستطيع! أستطيع أكل ست بيضات. أستطيع أكل علبة بيض كاملة».

قال آندي: «لم أطلب إلا قهوة. لم أطلب ديكسرديم[1] رغم أنني قادر على شراء القهوة في المدرسة إذا أحببت ذلك».

سألتني السيدة باربر: «ثيو، كيف تريد البيض؟».

لاحظت أن الطباخة إيتا كانت واقفة في الباب.

قالت كيتزي: «لا يسألنا أحد أبداً عن الطعام الذي نحب تناوله على الإفطار».

تظاهر الجميع بعدم سماعها على الرغم من أن صوتها كان شديد الارتفاع.

11

صبيحة يوم أحد، صعدت إلى النور من حلم ثقيل معقَّد لم يبق شيء

(1) ديكسرديم: اسم نوع من حبوب الهلوسة.

منه في ذاكرتي غير رنين في أذنيّ ووجع شيء انزلق من قبضة يدي وسقط في هوة حيث لا يمكن أن أراه بعد ذلك. ولكن، على نحو ما، في قلب هذا الغرق العميق والحبال المتقطّعة وشظايا ضاعت من غير أثر، ظلت باقية جملة واحدة تنبض في الظلام مثل خبر عاجل يظهر في أسفل شاشة التلفزيون: *هوبارت وبلاكويل. اقرع الجرس الأخضر.*

بقيت راقداً أحدّق في السقف غير راغب في الحركة. كانت الكلمات شديدة الوضوح، طازجة كأن شخصاً ناولني إياها مطبوعة على قطعة ورق. كما أن مساحة من ذاكرة منسية ـ ما أعجب هذا! ـ انفتحت مع تلك الكلمات وطفت إلى السطح كأنها واحدة من تلك الكريّات الورقية الصينية التي تتفتح وتزهر عند إلقائها في كأس من الماء.

أصابني شك حمل نفحة من دلالات مثقلة: هل كان هذا ذكرى حقيقية، وهل قال لي حقاً هذه الكلمات، أم إنني كنت أحلم؟ قبل موت أمي بوقت غير طويل، كنت أستيقظ بعض الأحيان مقتنعاً بأن معلم مدرسة (لا وجود له) اسمه السيد مالت قد وضع في طعامي زجاجاً مطحوناً لأنني قليل الانضباط ـ كان ذلك حدثاً منطقياً تماماً في عالم الحلم. فكنت أظل مستلقياً تحت وطأة القلق، ثم تمضي دقيقتان أو ثلاث دقائق قبل أن أعود إلى رشدي وأدرك أنني كنت أحلم.

قلت: «آندي؟». وانحنيت من فوق حافة السرير حتى أنظر إليه في السرير السفلي؛ لكن سريره كان خالياً.

بقيت لحظات كثيرة مستلقياً فاتحاً عيني إلى أقصاهما، محدقاً في السقف، ثم نزلت وأخرجت الخاتم من جيب سترتي المدرسية ورفعته في الضوء حتى انظر إلى الكتابة المنقوشة بداخله. ثم أسرعت فأعدته إلى مكانه وارتديت ملابسي. وبعدها خرجت لأنضم إلى بقية الأسرة على الإفطار ـ كان إفطار يوم الأحد أمراً هاماً عندهم. وكنت أسمع أصواتهم آتية من غرفة الطعام. صوت السيد باربر يهدر بكلام لم أستطع تمييزه...

هكذا كان يفعل أحياناً فيسترسل في كلام كثير. توقفت لحظة في الصالة، ثم سرت في الاتجاه الآخر نحو غرفة معيشة الأسرة. تناولت دليل الهاتف من الخزانة الصغيرة تحت جهاز الهاتف، ثم أخرجته من غلافه المطرز.

هوبارت وبلاكويل. ها هو ـ من الواضح أنه اسم شركة ما على الرغم من أن الدليل لم يذكر نوع تلك الشركة. شعرت بشيء من الدوار. بعثت في نفسي رؤية هذا الاسم مطبوعاً موجة من إثارة غريبة كمن يرى أجزاء أحجية تسقط في أماكنها الصحيحة بعد أن كانت خفية.

كان العنوان واقعاً في منطقة فيلدج، في الشارع العاشر - غرب. بعد شيء من التردّد، وبقدر كبير من القلق، طلبت ذلك الرقم. بدأ الهاتف يرن. وبدأت أعبث بالساعة النحاسية الموضوعة على الطاولة في غرفة المعيشة. وقفت أعض على شفتي السفلى ناظراً إلى صور الطيور المائية فوق طاولة الهاتف. لم أكن واثقاً مما سأقوله وكيف سأفسر اتصالي أو كيف سأسأل عمَّ أريد معرفته.

«ثيو؟».

قفزت في مكاني وانتابني إحساس بالذنب. كانت السيدة باربر قد دخلت الغرفة ـ في ردائها الرمادي المصنوع من الكشمير ـ كان في يدها فنجان قهوة.

«ماذا تفعل؟».

كان رنين الهاتف لا يزال مستمراً. أجبتها: «لا شيء».

«حسناً، أسرع. إن طعامك يبرد. أعدَّت لك إيتا التوست الفرنسي».

أجبتها: «شكراً. سآتي على الفور». في تلك اللحظة، كان صوت مجيب آلي من شركة الهاتف يقول لي إن عليَّ أن أحاول الاتصال في وقت لاحق.

انضممت إلى الأسرة في غرفة الطعام، لكن ذهني كان مشغولاً ـ كنت آمل أن يجيب أحد على اتصالي، ولو كان مجيباً آلياً ـ ثم فوجئت عندما

رأيت بلات باربر جالساً حيث أجلس عادة (كان أكبر حجماً، وكان وجهه أكثر احمراراً منذ آخر مرة رأيته).

«آه...». صاح السيد باربر مقاطعاً نفسه في منتصف جملته، ثم مسح شفتيه بمنديل الطعام وقفز واقفاً... «ها أنت هنا، ها أنت هنا. صباح الخير، هل تتذكّر بلات؟ ألا تتذكره؟ بلات، هذا ثيودور بيكر، صديق آندي، ألا تتذكره؟».

أثناء كلامه، ابتعد عن الطاولة ثم عاد حاملاً كرسياً إضافياً من أجلي حشره بصعوبة عند الزاوية الحادة.

جلست على هامش المجموعة ـ كنت أخفض منهم بثلاثة أو أربعة إنشات، وكنت جالساً في كرسي هزيل من الخيزران مختلف عن كراسي الآخرين ـ قابل بلات نظرتي من غير اهتمام كبير، ثم أشاح بوجهه. كان آتياً من مكان دراسته لحضور حفلة في نيويورك؛ وبدت عليه آثار الشرب.

كان السيد باربر قد جلس من جديد واستأنف كلامه في موضوعه الأثير: الإبحار. قال: «مثلما كنت أقول لك. يتلخّص الأمر كله في الافتقار إلى الثقة بالنفس. تكون غير واثق من نفسك عندما تجد نفسك في الزورق يا آندي. لكن، ما من سبب أبداً يجعلك غير واثقٍ من نفسك غير أنك قليل التجربة في الإبحار وحيداً».

أجابه آندي بصوته البعيد: «لا... المشكلة أساساً هي أنني أكره القوارب».

قال السيد باربر: «هذا كلام لا معنى له...». ثم غمزني بعينه كما لو كنت مدركاً نكتته، لكني لم أفهم شيئاً... «أنا لا أقبل هذا الموقف الرخو! انظر إلى تلك الصورة على الجدار. إنها في سانيبيل قبل ربيعين! لم يكن البحر يضجر ذلك الصبي، ولا السماء ولا النجوم... لا يا سيدي».

كان آندي يتأمل منظر الثلج على زجاجة شراب المابل بينما استمر أبوه في حديثه الحماسي بطريقته المدوّخة التي تصعب متابعتها. كان

يتحدّث عن الانضباط الذي يكونه الإبحار في المركب، وعن التأهب الذي يخلقه لدى الأولاد، إضافة إلى ما يكتسبونه من قوة وشخصية كما كان يفعل البحّارة القدامى. كان آندي قد أخبرني أنه لم يكن يمانع، في السنوات الماضية، أن يذهب مع أبيه في الزورق لأنه قادر على البقاء في الكابين الأسفل حيث يقرأ ويلعب الورق مع أشقائه الصغار. أما الآن، فقد صار كبيراً إلى الحد الكافي لأن يساعد طاقم المركب. وهذا ما كان يعني أياماً طويلة شاقة في الشمس يمضيها في العمل على سطح المركب إلى جانب بلات المزعج: الانحناء تحت عارضة الشراع، وحالة التشوّش التام، وبذل جهد كبير حتى لا يتعثّر بالحبال وحتى لا يقع عن المركب عندما يصرخ أبوه بأوامره مستمتعاً برشاش الماء المالح.

«يا إلهي... هل تتذكّر الضوء في تلك الرحلة في سانيبيل؟». دفع والد آندي كرسيه إلى الخلف، ونظر إلى السقف... «ألم يكن ذلك شيئاً رائعاً؟ تلك الأماسي الحمراء البرتقالية؟ النار والجمر؟ شيء يكاد يكون أشبه بقنبلة نووية! لهب صاف يشق السماء وينسكب منها! ثم، تذكر ذلك القمر الكبير الجميل والضباب الأزرق الذي كان يلفّه... قبالة هاتيراس... أم إن ذلك يشبه ما كان يرسمه ماكسفيلد باريش يا سامانثا؟...». فتح ذراعيه على اتساعهما. «... عفواً، آسف يا ثيو فأنا لم أقصد أن أصيبك على أنفك؟ ماكسفيلد باريش؟ ذلك الفنان الذي أحبه؟ تلك السموات الكبيرة والغيوم المتراكمة فيها؟».

«كونستابل هو من يرسم الغيوم».

«لا، لا، ليس هو من أعنيه، بل أعني رساماً أكثر إشباعاً بكثير. على أية حال، كنت أقول... إن السماء كانت رائعة الجمال عندما كنا هناك، في الماء، أثناء الليل. شيء ساحر. جنة حقيقية».

«أيّ ليلة كانت؟».

«لا تقل لي إنك لا تتذكّرها! لقد كانت أجمل لحظة في الرحلة كلها».

استرخى بلات في كرسيه وقال بخبث: «كانت أروع لحظة في رحلة آندي، تلك اللحظة التي توقفنا فيها للغداء عند ذلك المطعم».

قال آندي بصوت هزيل: «أمنا لا تحب الإبحار أيضاً».

قالت السيدة باربر وهي تمدّ يدها لتأخذ ثمرة فراولة أخرى: «ليس كثيراً، لا... ثيو، أتمنّى حقاً أن تأكل ولو لقمة صغيرة من طعامك. لا يجوز أن تجوّع نفسك هكذا. لقد بدأ يظهر عليك نحول شديد».

على الرغم من الدروس التي ارتجلها السيد باربر اعتماداً على لوحة الرايات الملاحية في غرفة مكتبه، لم أستطع ـ بدوري ـ أن أجد ما يدفعني إلى الانغماس في هذا الموضوع. كان السيد باربر يقول بجدّية تامّة: «البحر أكبر هبة تلقيتها من أبي. حب البحر ـ ذلك الإحساس. لقد أعطاني أبي المحيط. إنها خسارة مأساوية يا آندي ـ آندي، انظر إليَّ عندما أكلمك ـ خسارة فظيعة أن تدير ظهرك للشيء الذي أعطاني حريتي، للشيء الذي أعطاني...».

«حاولت أن أحبَّه! لكنْ لدي كرهٌ طبيعيٌّ تجاهه».

«كره؟...». أصيب السيد باربر بدهشة كبيرة... «كره ماذا؟ هل هو كره النجوم والريح، هل هو كره السماء والشمس؟ هل هو كره الحرية؟».

«نعم، طالما أن هذه الأشياء لها علاقة بالإبحار... نعم».

«حسناً...». راح ينظر إلى الجالسين من حول الطاولة بمن فيهم أنا... ثم توجّه إلى آندي بكلامه: «كل ما في الأمر أنه يحاول أن يبدو عنيداً. إن البحر... يمكنك أن تنكر الأمر كما تريد، لكنه في دمك، لكنه بالولادة، رجوعاً إلى الفينيقيين والإغريق القدامى...».

لكن السيد باربر مضى في الحديث عن ماجلان[1]، وعن الاسترشاد بالنجوم في الملاحة، وكذلك عن *بيلي باد*[2]. «أتذكّر تاف الويلزي عندما

---

(1) ماجلان (1480– 1521): مستكشف برتغالي قاد بعثة استكشافية في اتجاه جزر الهند الشرقية نتج عنها إثبات كروية الأرض.

(2) بيلي باد: رواية للكاتب الأميركي هِرمان مِلفيل. «تاف»: تسمية عامة للويلزيين.

غرق/ وكان اللون الوردي مثل برعم على خدّه»، فوجدت أفكاري تسبح عائدة إلى هوبارت وبلاكويل: من يمكن أن يكون هذان الشخصان؟ وما الذي يفعلانه على وجه التحديد؟ بدا لي هذان الاسمان كأنهما لزوج من المحامين العجائز، أو حتى لساحرَيْن يؤديان عروضهما على المسرح، أو لشريكين في عمل ما يتجولان هنا وهناك في ظلمة ينيرها ضوء شموع.

كان خط الهاتف في شقتنا قد فُصل؛ فبدا لي كون رقم الهاتف الذي اتصلت به لا يزال عاملاً إشارة مشجعة. وعندما سنحت لي فرصة الانسلال ـ على نحو لائق ـ من جلسة الإفطار تلك تاركاً طبقي من غير أن أمسّه، عدت إلى الهاتف في غرفة الجلوس حيث كانت إيرينكا تتجوّل فيها بمكنستها الكهربائية وتمسح الغبار عن الأشياء الكثيرة الموزّعة من حولي، وكانت كيتزي جالسة إلى الكمبيوتر في الناحية الأخرى من الغرفة مصممة على تجاهلي، بل حتى على عدم النظر في اتجاهي.

قال لي آندي ـ الذي جاء من خلفي بهدوء فلم أسمعه، تماماً مثلما يفعل أفراد أسرته جميعاً: «بمن تتصل؟».

كنت قادراً على عدم إخباره بأي شيء، لكنني كنت أعرف أيضاً أنني قادر على الثقة بأن فمه سيظل مطبقاً. لا يتحدّث آندي مع أحد أبداً، وبالتأكيد لا يتحدّث مع أبيه وأمه.

قلت له بصوت منخفض وأنا أتراجع خطوة إلى الخلف حتى لا أكون مرئياً من باب الغرفة: «هؤلاء الناس... أعرف أن الأمر يبدو غريباً. لكن رأيت الخاتم الذي معي!».

حدّثته عن الرجل العجوز، وكنت أحاول التفكير في طريقة تسمح لي في إخباره عن الفتاة أيضاً. وعن الصلة التي أحسست بأنها ربطتني بها، وكذلك عن شدة رغبتي في رؤيتها من جديد. لكن آندي كان قد قفز قفزة إلى الأمام ـ كما هو متوقّع منه ـ مبتعداً عن الجوانب الشخصية، مفكّراً في الجوانب العملية في ذلك الوضع. نظر إلى دليل الهاتف المفتوح على الطاولة، ثم سألني: «هل هما في المدينة؟».

«في الشارع العاشر- غرب».

عطس آندي، ثم مسح أنفه. لديه حساسية ربيعية شديدة. قال لي وهو يعيد طي منديله ويضعه في جيبه: «إذا لم تستطع الاتصال بهما، فلماذا لا تذهب إليهما؟».

أجبته: «هل أنت جاد؟ هل تظن هذا؟». بدا لي الذهاب إليهما من غير أن أتصل مسبقاً أمراً مخيفاً بعض الشيء.

«هذا ما أفعله لو كنت مكانك».

قلت: «لست أدري. قد لا يتذكّراني».

«عندما يريانك شخصياً، فمن المحتمل أكثر أن يتذكراك...». كان كلامه منطقياً... «وإلا فقد يعتبرانك مجرد شخص غريب الأطوار يتّصل بهما ويتظاهر بأمر ما. لا تقلق...». قال هذا وهو يلقي نظرة من فوق كتفه... «لن أخبر أحداً إذا كنت تريدني أن أكتم الأمر».

قلت: «غريب الأطوار؟ يتظاهر بماذا؟».

قال آندي من غير كبير اهتمام: «أعني... تأتيك اتصالات كثيرة من أشخاص غرباء».

بقيت صامتاً غير عارف كيف أستوعب هذا.

«ثم... إنهما لا يجيبان على الهاتف؛ فما الذي يمكنك فعله غير الذهاب إليهما؟ إذا لم تذهب اليوم فلن تكون قادراً على الذهاب حتى عطلة نهاية الأسبوع القادمة. وأيضاً...»، اتجهت عيناه ناحية الممر حيث كان تودي يقفز في حذاء فيه نوابض صغيرة، وحيث كانت السيدة باربر تسأل بلات عن الحفلة التي سيذهب إليها في بيت مولي وولتر بيك... «هل هذا حديث من النوع الذي تريد أن...».

لقد كان محقّاً. أجبته: «صحيح».

دفع آندي بنظارته على أنفه: «سأذهب معك إن كنت تريد مني ذلك».

قلت له: «لا، لا حاجة!». كنت أعرف أن آندي يقوم بعد الظهر بـ«تجربة

يابانية» من أجل الحصول على درجات إضافية ـ مجموعة دراسية تذهب إلى بيت الشاي *«تورايا»*، ثم تتوجّه إلى مركز لنكولن لمشاهدة فيلم جديد للمخرج نيازاكي؛ لا لأن آندي في حاجة إلى درجات إضافية، بل لأنه يعتبر هذه الرحلات الصفّيّة نشاطاً اجتماعياً كافياً له.

قال لي وهو يدس يده في جيبه ويخرج هاتفه المحمول: «خذ هذا، من باب الاحتياط. انتظر...» راح ينقر على شاشة الهاتف... «لقد ألغيت رمز إقفال الهاتف. اذهب الآن».

نظرت إلى هاتفه الصقيل الصغير الذي ظهرت على شاشته صورة «الفتاة الافتراضية آكي» (عارية، في جزمة طويلة تبلغ فخذيها): «لست في حاجة إليه».

«حسنا... يجب أن تأخذه. لا تعرف ماذا يمكن أن يحدث. اذهب...».
ثم أضاف عندما رأى تردّدي: «هيا، خذه!».

12

وهكذا كانت الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً عندما صرت في الباص الذاهب إلى منطقة فيلدج حاملاً معي عنوان هوبارت وبلاكويل في جيبي مكتوباً على ورقة أخذتها من أوراق الملاحظات الصغيرة الموضوعة إلى جانب الهاتف. كانت مزيّنة كلها بالحرفين الأولين من اسم السيدة باربر.

عندما نزلت من الباص في واشنطن سكوير، تجوّلت نحو خمس وأربعين دقيقة باحثاً عن العنوان. كانت تلك المنطقة ذات التنظيم الغريب (مكاناً يسهل فيه أن يضل المرء سبيله. وكان عليَّ أن أتوقّف ثلاث مرات حتى أسأل الناس (كتل سكنية مثلثة الشكل، وشوارع مسدودة منحرفة في هذا الاتجاه وذاك): توقفت مرة عند كشك صحف عامر بغلايين الماريغوانا والمجلات الإباحية المثلية، ومرة في مخبز مزدحم تصدح فيه أنغام أوبرا، ومرة أخيرة سألت فتاة ترتدي أوفرولاً فوق قميص داخلي

أبيض كانت تنظف واجهات مكتبة مستخدمةً ممسحة مطاطية ودلواً فيه ماء.

عندما عثرت على الشارع عشرة غرب آخر الأمر ـ كان شارعاً خالياً من الناس ـ سرت فيه ورحت أعد أرقام البيوت. بلغت جزءاً من الشارع كان رث المظهر بعض الشيء... منطقة سكنية في أكثرها. كانت بضع حمَامات تدرج على الرصيف الرطب أمامي تتقدّمها ثلاثة منها كانت أشبه بجنود مشاة صغار فضوليين. كان بعض أرقام البيوت غير مسجل بشكل واضح. وعندما وقفت متسائلاً إن كنت قد تجاوزت الرقم المقصود وإن كان عليَّ أن أعود أدراجي قليلاً، وجدت نفسي فجأة أنظر إلى لافتة أنيقة مقوَّسة على الطراز القديم معلقة فوق واجهة أحد المتاجر. كان مكتوباً على تلك اللافتة «هوبارت وبلاكويل». رأيت عبر واجهة المتجر المغبرة تماثيل صغيرة لكلاب وقطط، وقطع كريستال كساها الغبار، وقطعاً فضية فقدت بريقها، وكراسي عتيقة، ومقاعد منجّدة عليها تطريز باهت قديم، وقفص عصافير صينياً مزخرفاً، ومسلّات مرمرية صغيرة موضوعة على طاولة رخامية السطح، وببغاءين مصنوعين من الرخام. كان واحداً من تلك المتاجر التي يمكن أن تحبها أمي ـ متجر شديد الازدحام، مهلهل بعض الشيء، فيه أكداس من كتب قديمة موضوعة على الأرض. لكن المتجر كان مغلقاً.

معظم المتاجر في تلك المنطقة لا تفتح حتى الظهر، أو حتى الساعة الواحدة بعد الظهر. قررت أن أضيّع بعض الوقت. فسرت إلى شارع غرينويتش حتى وصلت إلى مطعم *«الفيل والقلعة»* الذي كنت آكل فيه أحياناً مع أمي عندما ننزل إلى قلب المدينة. لكني أدركت غلطتي في أول خطوة أخطوها في المطعم. الأفيال الخزفية غير المتناسبة، والنادلة ذات القميص الأسود التي اقتربت مني مبتسمة وكان شعرها مربوطاً خلف رأسها... كان وقع ذلك عليَّ شديداً. رأيت تلك الطاولة في الزاوية حيث

تغديت مع أمي في هذا المطعم آخر مرة. غمغمت بعذر ما، ثم خرجت من الباب.

كنت واقفاً على الرصيف. قلبي يخفق بين أضلعي. حمَامات تطير منخفضة في السماء الرمادية. كان شارع غرينويتش آفينيو شبه خالٍ: رجلان اثنان غائما المظهر يبدوان كما لو أنهما أمضيا الليل كله في القتال؛ وامرأة مشعّثة الشعر في كنزة مدوَّرة الياقة كبيرة المقاس تسير مع كلب كبير في اتجاه الجادة السادسة. كان وجودي وحيداً في هذا المكان غريباً بعض الشيء، فهو ليس بالمكان الذي ترى فيه أطفالاً كثيرين سائرين في الشارع صبيحة عطلة نهاية الأسبوع؛ كان مكاناً موحياً بأنه للكبار، بأنه مُقعَد، بل كحولي بعض الشيء. كان مظهر كل من فيه يوحي بأنه شرب كثيراً الليلة الماضية، أو بأنه نهض من الفراش قبل قليل.

لأن أكثر المحلات كان مغلقاً، ولأنني شعرت بالضياع إلى حد ما وما كان لدي شيء آخر أفعله، فقد بدأت بالعودة في اتجاه متجر هوربات وبلاكويل. في نظري، أنا القادم من الأحياء الحديثة في المدينة، كان كل شيء هنا يبدو صغيراً، قديماً، مع شجيرات اللبلاب والكرمة المتسلقة إلى أسطح المباني، والأعشاب وشتلات الطماطم في براميل في الشارع. حتى البارات كانت لها لافتات مكتوبة بخط اليد كلافتات الحانات الريفية: خيول وقطط وديكة وإوزّات وخنازير. لكن حميمية هذا المشهد، وصغر عناصره، جعلني أحس بأنني غريب عنه. وجدت نفسي أسير مسرعاً من أمام المداخل المغرية المرحّبة وقد أطرقت برأسي شاعراً بكل ما كان من حولي من حياة تتفتح، في خصوصيتها، صبيحة يوم أحد بهيج.

لم يزل متجر هوبارت وبلاكويل مغلقاً. كان لدي إحساس بأنه لم يفتح أبوابه منذ زمن... كان المكان شديد البرودة، شديد الظلمة؛ وما كان فيه شيء موحٍ بنشاط أو بحياة داخلية على غرار بقية الأماكن في ذلك الشارع.

كنت أحاول النظر عبر واجهة المتجر وأحاول التفكير في ما أفعله بعد ذلك عندما رأيت حركة مفاجئة: شكل إنسان ضخم يتحرّك في آخر المتجر. توقفت مذهولاً. كانت حركة ذلك الشخص خفيفة مثلما يقولون عن تحرك الأشباح... مر سريعاً أمام أحد الأبواب، ثم اختفى في الظلمة من غير أن يلتفت يميناً أو شمالاً.

كنت أنظر إليه، لكنه اختفى. ظللت جبهتي بكفي وحاولت النظر في أعماق المتجر المزدحمة المظلمة، ثم نقرت على الزجاج.

هوبارت وبلاكويل. اقرع الجرس الأخضر.

الجرس؟!

لم أر جرساً. كان مدخل المتجر محمياً بشبكة حديد منزلقة. سرت في اتجاه المدخل المجاور. المدخل 12. كان بناية سكنية متواضعة ـ ثم عدت إلى الرقم 8 الذي كان بيتاً من الحجر البني. كان هنالك ممر مائل صاعد إلى الطابق الأول؛ لكني رأيت هذه المرة شيئاً لم أره من قبل: مدخل ضيق في نهايته باب. كان المدخل محشوراً بين الرقم 8 والرقم 10. نصف مختفٍ خلف صف من حاويات القمامة المعدنية العتيقة. كانت في الممر أربع أو خمس درجات نازلة إلى باب ليست عليه أية كتابة، وكان ذلك الباب منخفضاً عن الرصيف بنحو ثلاث أقدام. لم أجد لوحة، ولا علامة، لكن عيني لمحت شيئاً أخضر اللون: قطعة من شريط لاصق كهربائي أخضر مثبتة تحت مفتاح جرس في الجدار.

اجتزت تلك الدرجات وقرعت الجرس، ثم قرعته مرة أخرى مجفلاً لرنينه الهستيري (جعلني راغباً في الفرار). رحت أستنشق أنفاساً عميقة حتى أشجع نفسي. ثم انفتح الباب ـ كان ذلك مفاجئاً جداً فرجعت خطوة إلى الخلف ووجدت نفسي أنظر إلى شخص ضخم ذي مظهر لم أكن أتوقعه.

كان طوله ست أقدام وأربعة إنشات، أو ست أقدام وخمسة إنشات...

على الأقل. رجل شاحب، كبير الفكين، ثقيل، فيه شيء يذكّر بالصور القديمة لشعراء إيرلندا وكذلك بأولئك الملاكمين السابقين الذين كانوا يرتادون الحانة التي يحب أبي الذهاب للشرب فيها. كان أكثر شعره رمادياً لم يقصه منذ زمن طويل، وكان بياض جلده غير صحّي. ومن حول عينيه، رأيت ظلالاً بنفسجية داكنة كالتي تكون من حول أنف مكسور. وفوق ملابسه، كان مرتدياً ثوباً طويلاً فضفاضاً يكاد يبلغ كاحليه مزيناً بطيات من الساتان... شيء يشبه ما قد يرتديه قائد من القادة المحاربين في أفلام الثلاثينات: ثوب بال، لكنه لا يزال مؤثّراً في النفس.

فوجئت بأن كلماتي قد هجرتني كلها. لم يكن في مظهر الرجل ما يوحي بنفاد الصبر، بل على العكس تماماً لأنه نظر إليّ بعينيه ذات الأهداب السوداء نظرة خالية من أي تعبير... كان ينتظر أن أتكلم.

«اعذرني...». ابتلعت ريقي. كان فمي جافاً... «لا أود إزعاجك...».

في الصمت الذي تلا ذلك، رفرفت عيناه كأنهما تقولان إنه يفهم ذلك تماماً ولا يمكن أبداً أن يخطر في ذهنه أنني أريد إزعاجه.

بحثت في جيبي، وأخرجت الخاتم وجعلته يراه مستلقياً على راحة يدي المفتوحة.

غدا وجه الرجل المتسع الشاحب متهدلاً. نظر إلى الخاتم، ثم نظر إلي. قال لي: «من أين أتيت بهذا؟».

أجبته: «هو أعطاني إياه. قال لي أن آتي به إلى هنا».

ظل الرجل واقفاً. كان ينظر إليّ نظرة متمعّنة. مرت لحظة حسبت فيها أنه سيقول لي شيئاً من قبيل إنه لا يعرف عمَّ أحدّثه. ثم، من غير أية كلمة، خطا خطوة إلى الخلف وفتح لي الباب.

قال عندما رآني متردّداً: «اسمي هوبي. ادخل!».

الفصل الرابع

مصّاصة المورفين

1

زخارف ذهبية كثيرة تتألّق من تحت الواجهات المائلة التي كساها الغبار: تماثيل كيوبيد المذهّبة، وشمعدانات مطلية بالذهب، ورائحة نفاذة لزيت الخشب والورنيش والتربنتين تتخلل رائحة الخشب القديم التي ملأت المكان. سرت خلفه عبر الورشة في ممر مكنوس على أرض كستها نشارة الخشب، ثم مررنا بلوحة فيها ثقوب علقت عليها أدوات عمل كثيرة، وبكراسي فقدت بعض قوائمها وطاولات مقلوبة علت قوائمها في الهواء. كان أنيق الحركة على الرغم من ضخامته ـ لو رأته أمي لقالت إنه «يطفو» ـ كان في حركته شيء من الانزلاق من غير جهد. تبعته وعيناي مثبتتين على نهايتي شبشبه المنزلي، فصعدنا سلماً ضيّقاً انتهى إلى غرفة مظلمة بعض الشيء مفروشة بالسجاد فيها مزهريات سود على قواعد كقواعد التماثيل. كانت ستائر تزيينية مسدلة على النوافذ حتى تحجب نور الشمس.

شعرت ببرودة في قلبي أمام هذا الصمت. رأيت أزهاراً ميتة تعفنت في فازات صينية مزخرفة. كان جو الغرفة ثقيلاً معزولاً: هواء راكد يصعب التنفس فيه... تماماً كذلك الإحساس الخانق الذي أتاني عندما أخذتني

السيدة باربر إلى شقتنا حتى آخذ بعض الأشياء التي كنت في حاجة إليها. أعرف هذا السكون: هكذا ينغلق بيت على نفسه عندما يموت أحد من أهله.

وعلى غير انتظار، تمنيت لو أنني لم آت. لكن الرجل ـ هوبي ـ بدا كأنه أحس بإحساسي لأنه استدار في اتجاهي على نحو مفاجئ تماماً. صحيح أنه لم يكن شاباً، لكنه لا يزال محتفظاً بوجه صبي... عيناه، فيهما زرقة طفولية، عينان صافيتان ظهر فيهما قدر من الدهشة.

سألني: «ما الأمر؟... «. ثم أضاف: «هل أنت بخير؟».

أحرجني اهتمامه. وقفت غير مرتاح في تلك الظلمة الراكدة المزدحمة بأشياء عتيقة غير عارف ما ينبغي لي قوله.

بدا عليه، بدوره، أنه لا يجد شيئاً يقوله. فتح فمه، ثم أغلقه، ثم هز رأسه كما لو أنه يحاول إرغام ذهنه على التفكير. بدا لي في الخمسين، أو في الستين؛ ذقن غير محلوقة جيداً، ووجه مريح خجِل ضخم التقاطيع... وجه ليس جميلاً ولا قبيحاً ـ كان رجلاً من أولئك الرجال الذين يجدون أنفسهم أكبر حجماً من معظم الرجال في أي مكان، لكنه بدا عليلاً على نحو غامض يصعب تحديده... الدوائر السود حول عينيه، والشحوب الذي ذكّرني بشهداء الجزويت الذين رأيت صورهم في كنيسة في مونتريال التي ذهبنا إليها في رحلة مدرسية: أوروبيون فيهم شحوب الموت، ضخام الأجساد، أقوياء، مقيَّدون في معسكرات الهورون[1].

«اعذرني، إنني في...». كان يلقي من حوله نظرات مرتبكة متعجّلة مثلما كانت أمي تفعل عندما تنسى أين وضعت شيئاً من الأشياء. كان صوته خشناً، لكنه صوت مهذّب مثل صوت السيد أوشيا، معلم التاريخ في مدرستي، الذي ترعرع في أحياء بوسطن الخشنة ثم انتهى به الأمر إلى جامعة هارفارد.

«يمكنني المجيء في وقت آخر، إن كان هذا أفضل».

---

(1) الهورون: من الشعوب الأصلية في شرق الولايات المتحدة الأميركية وكندا.

تنبّه عندما قلت ذلك ونظر إلي قائلاً: «لا، لا...». كانت ياقتا كمَّيْ ثوبه مفتوحتين متدليتين عند معصميه... «أعطني لحظة فقط... حتى أستجمع شتات نفسي. إنني آسف ـ نعم...». قال هذه الكلمات بذهن شارد وهو يزيح عن وجهه خصلة شعر رمادية... «هنا، هنا». كان يشير إليَّ بالجلوس على أريكة ضيقة تبدو صَلبة ولها مسندان جانبيان مدوران وظهر منحنٍ. لكني رأيت على الأريكة وسادة وبطانيات فبدا لي أننا لاحظنا معاً، في وقت واحد، أن وجود هذه الأشياء على الأريكة يجعل جلوسي عليها أمراً غريباً بعض الشيء.

سمعته يتمتم: «آه، آسف». ثم تراجع إلى الخلف بسرعة جعلته يكاد يصطدم بي... «إنني أنام هنا، كما ترى. ليس بالمكان المناسب تماماً، لكنه وافٍ بالغرض لأنني لا أستطيع السماع جيداً في ظل كل ما يجري...». استدار مبتعداً عني (فلم أسمع بقية جملته) وسار متجنّباً كتاباً موضوعاً على السجادة وفنجان شاي طليت حافته الداخلية بلون بني، ثم أشار لي بالجلوس على كرسي مزيَّن منجَّد عليه خيوط متقاطعة وجدائل تزيينية على حافته وتشكيلة معقّدة من أزرار معدنية ـ كرسي تركي... هكذا عرفت في وقت لاحق، وعرفت أن هوبي واحد من الأشخاص القلائل في نيويورك ممن يجيدون تنجيد هذه الكراسي.

تماثيل مجنّحة من البرونز، وحلي فضية صغيرة. ريشات نعام رمادية مغبرة موضوعة في مزهرية فضية. جلست بحذر على حافة الكرسي ونظرت من حولي. كنت أفضل البقاء واقفاً على قدمي لأن المغادرة تصير أكثر سهولة.

انحنى إلى الأمام ضاماً يديه بين ركبتيه. لكنه لم يقل شيئاً... ظل ينظر إلي منتظراً.

قلت متعجلاً بعد أن طال الصمت أكثر مما ينبغي، وأحسست بحرارة في وجهي كأنه موشك على الاتقاد لهيباً.

«أنا ثيو. ثيودور بيكر. يناديني الجميع باسم ثيو. أعيش في ضواحي المدينة». أضفت الجملة الأخيرة غير واثق من أنني أريد إضافتها».

«حسناً. أنا جيمس هوبارت. لكنّ الجميع ينادوني باسم هوبي...». كانت نظرته كئيبة باردة... «أعيش في مركز المدينة».

أشحت بوجهي غير عارف إن كان يسخر مني أم لا.

أغمض عينيه لحظة ثم فتحهما. نظر إلى الخاتم في راحة يده وقال: «آسف، لا تؤاخذني. لقد كان ويلتي شريكي في العمل».

كان؟

صدر صوت عن الساعة القمرية[1]، صوت طقطقة ورنين مرتفع في ذلك السكون قبل أن يستقر عقربها عند ربع الساعة.

قلت: «أوه... لقد... ظننت فقط...».

«لا، إنني آسف. ألم تعرف؟». أضاف هذا وهو ينظر إلي نظرة متمعنة.

أدرت وجهي. لم أدرك قبل تلك اللحظة كم كنت أراهن على أنني سأرى ذلك الرجل العجوز من جديد. فعلى الرغم مما رأيته ـ ومما عرفته ـ استطعت، على نحو ما، أن أرعى في نفسي أملاً طفولياً بأن يكون قد نجا بأعجوبة مثلما يحدث لضحية جريمة قتل في التلفزيون عندما نراه، بعد الفاصل الإعلاني، حيًّا يتعافى بهدوء في أحد المستشفيات.

«كيف صار هذا الخاتم عندك؟».

قلت: «ماذا؟». أفزعني سماع صوته. لاحظت أن قراءة الساعة كانت خاطئة تماماً: العاشرة قبل الظهر، أو العاشرة بعد الظهر... لم تكن قريبة من الوقت الصحيح على الإطلاق.

«هل قلت لي إنه أعطاه لك؟».

تململت غير مرتاح في جلستي: «نعم. أنا...». صمتّ. كان لدي إحساس جديد بموته كما لو أنني خذلته مرة ثانية، كما لو أن ذلك الموت يحدث مرة ثانية، لكن من زاوية مختلفة تماماً.

---

(1) ساعة لا تعطي التوقيت الصحيح إلا ليلة اكتمال البدر.

«هل كان في وعيه؟ هل كلمك؟».

«نعم،...» ثم صمتُّ. شعرت بالبؤس. أعادني وجودي في بيت ذلك الرجل العجوز، بين أشيائه، إلى الإحساس به من جديد وبقوة شديدة: هذا الجو الحالم في الغرفة كما لو أنها تحت الماء، ومخاملها العتيقة، وغناها، وهدوؤها.

قال هوبي: «يسعدني أنه لم يمت وحيداً. لو كان وحيداً لكره ذلك».
أطبق أصابع كفه على الخاتم ورفع يده إلى فمه، ثم نظر إلي وقال:
«يا إلهي: أنت لا تزال فتًى صغيراً!».

ابتسمت مرتبكاً... لم أكن متأكداً من الاستجابة التي يتوقّعها مني.

قال بنبرة أكثر عملية أظنها كانت بغرض طمأنتي: «آسف. كان هذا... أعرف أنه كان سيئاً. أنا كنت سيئاً. لقد كانت جثته...». بدا كأنه يبحث عن كلمات... «قبل أن يستدعوا المرء للتعرف على الجثة، يقومون بتنظيفها إلى أقصى حد ممكن. ثم يقولون لك إن شكلها لن يكون سارّاً لك؛ وهو أمر تعرفه بطبيعة الحال. لكن ـ لا بأس. لا يمكن للمرء إعداد نفسه لشيء من هذا القبيل. كانت لدينا مجموعة من صور ماثيو برادي الفوتوغرافية أتت إلى المتجر منذ عدة سنين ـ صور من الحرب الأهلية، صور في غاية البشاعة. وقد عانينا حتى تمكنا من بيعها».

لم أقل شيئاً. لم يكن من عادتي أن أساهم في أحاديث الكبار إلا بكلمتَيْ «نعم»، أو «لا» عندما يضغطون عليّ. لكني الآن، كنت في حالة ذهول أصلاً. لقد ذهب مارك، صديق أمي الذي كان طبيباً للتعرف على جثتها، ولم يقل لي أحد أشياء كثيرة عند ذلك.

«أتذكر قصة قرأتها ذات مرة؛ قصة عن جندي... هل كان ذلك في شيلو؟...». كان يكلمني، لكن ليس بكامل انتباهه... «لعلها كانت غيتسبرج! جندي جن لشدة الصدمة فراح يدفن العصافير والسناجب في ميدان المعركة. يُقتل كثير منها في المعارك، تحت تقاطع النيران، تلك الحيوانات الصغيرة. قبور صغيرة كثيرة».

قلت فجأة: «مات أربعة وعشرون ألف رجل في شيلو خلال يومين».

عادت عيناه إلي، متنبهتَيْن، يقظتين.

«ومات خمسون ألفاً في غيتسبرج. كانوا يستخدمون أسلحة جديدة. الطلقات التي اخترعها نينييه والبنادق متعددة الطلقات. هذا هو سبب كثرة الضحايا. كانت لدينا في أميركا حروب خنادق قبل زمن طويل من الحرب العالمية الأولى. هذا أمر لا يعرفه كثير من الناس».

كان واضحاً أنه لا يملك أيّ فكرة عما يفعله بهذا الشيء.

قال لي بعد صمت قصير حَذر: «هل أنت مهتم بالحرب الأهلية؟».

أجبته بشيء من الفظاظة: «اممم... نعم؛ نوعاً».

كنت أعرف الكثير عن مدفعية يونيون للميدان لأنني كتبت عنها ورقة بحث في المدرسة فكانت مليئة بالحقائق والمعلومات الفنية إلى حد جعل المعلم يطلب مني إعادة كتابتها. وكنت أعرف أيضاً صور برادي الفوتوغرافية، صور القتلى في آنتييتام: رأيت تلك الصور على الإنترنت. شباب انطفأت عيونهم وتجمع دم أسود عند أفواههم وأنوفهم... «أمضى صفنا ستة أسابيع في دراسة لينكولن».

«كان لبرادي استوديو تصوير غير بعيد عن هذا المكان. هل سبقت لك أن رأيته؟».

«لا». كانت هنالك فكرة حبيسة موشكة على الظهور، شيء بشع بالغ الأهمية أطلقه ذكر أولئك الجنود الذين علا وجوههم السواد. لكن الفكرة اختفت ولم تختف الصورة: شباب ميتون تباعدت أطرافهم... يحدّقون في السماء.

كان الصمت الذي أعقبَ ذلك مضنياً. وبدا أن أحداً منا لا يعرف كيف يتجاوزه. وآخر الأمر، وضع هوبي ساقاً فوق ساق وقال لي: «أردت القول... إنني آسف. آسف لأنني ضغطت عليك...». قال هذه الكلمات على نحو متردّد، متعثّر.

ارتبكت! عندما أتيت إلى قلب المدينة، كنت مفعماً بفضول جعلني غير قادر على رؤية أنني قد أكون مطالباً بالإجابة على بعض الأسئلة.

«أعرف أنه أمر يصعب الحديث عنه. إنه، فقط... لم أفكر قط في...».

حذائي! غريب حقاً كيف أنني لم أنظر إلى حذائي أبداً. حذاء معقوف عند مقدمته، حذاء بلي شريطه. *«سنذهب إلى متجر بلومغيديل يوم السبت ونشتري لك حذاء جديداً. لكن ذلك لم يحدث أبداً»*.

«لست راغباً في تذكيرك بما جرى. لكن، هل كان في وعيه؟».

«نعم، إلى حد ما. أعني...». وجهه اليقظ، القلق، جعل جزءاً قصيّاً من نفسي راغباً في قول أشياء كثيرة لا حاجة به إلى معرفتها وليس من الصواب أن أقولها له... الأحشاء المتناثرة، ووميض الضوء المتكرر البشع الذي لا يفتأ يتفجر في أفكاري وعقلي حتى عندما أكون مستيقظاً.

لوحات قديمة، وتحف صينية على الرف، وبندول الساعة الذهبي المتراقص، تك تك تك تك.

«سمعته ينادي...». مسحت عيني... «عندما صحوت». كان ذلك كمن يحاول تفسير حلم. أمر غير ممكن... «وقد ذهبت إليه وكنت معه و... لم يكن الأمر شديد السوء. أو، لعله لم يكن سيئاً بالقدر الذي تظنّه». أضفت هذه الكلمات لأن ما قلته قبلها بدا كأنه كذبة... ظهر على حقيقته.

«هل كلمك؟».

أومأت برأسي وأنا أبتلع ريقي بصعوبة. خشب الماهوغاني الداكن. أشجار نخيل صغيرة مزروعة في أصص.

«هل كان في وعيه؟».

أومأت برأسي من جديد. طعم كريه في فمي. ما كان هذا شيئاً يمكن إيجازه... أشياء لا معنى لها ولا قصة لها... الغبار، وأجراس الإنذار، وكيف أمسك بيدي، عمر كامل هناك ونحن الاثنان وحدنا، جمل مختلطة وأسماء مدن وأشخاص... أسماء لم أسمع بها من قبل. أسلاك كهربائية يتطاير منها الشرر.

كانت عيناه لا تزالان متعلقتين بي. كان حلقي جافاً. أحسست شيئاً من الغثيان. لم تكن تلك اللحظة تريد الانتقال إلى اللحظة التي بعدها مثلما يجب أن يحدث، فظللت منتظراً حتى يطرح أسئلة أخرى، أي شيء... لكنه لم يفعل.

هز رأسه آخر الأمر كأنه يحاول جعله يصفو. «إن هذا...». بدا حائراً مرتبكاً مثلما كنت؛ ثوبه، وشعره الفضي المسدل... بدا مثل ملك من غير تاج في مسرحية تنكرية للأطفال.

هز رأسه من جديد وقال: «إنني آسف. هذا كله جديد علي».

«عفواً، ماذا قلت؟».

مال إلى الأمام ورفرفت عيناه رفرفة سريعة مستثارة... «نعم، أنت ترى، إنه مجرد... هذا كله شديد الاختلاف عمَّ قالوه لي. قالوا إنه مات على الفور. لقد أكدوا على هذه النقطة كثيراً... كثيراً».

«لكن...». نظرت إليه مشدوهاً. هل ظن أنني أختلق هذا؟

قال متعجلاً وهو يرفع يده لكي يطمئنني: «لا، لا. إنه مجرد... أنا واثق من أنهم يقولون هذا الكلام للجميع. مات على الفور!». قال هذا بصوت بائس حزين. كنت مستمرّاً في التحديق فيه... «من غير ألم على الإطلاق! لم يعرف أبداً ما أصابه!» عندها ـ على نحو مفاجئ تماماً ـ فهمت الأمر... تسرب معناه إلى عقلي ببرودة قاتلة. كانت أمي أيضاً قد «ماتت على الفور». وكان موتها «من غير ألم على الإطلاق». لقد كرر العاملان الاجتماعيان هذه الكلمات مرات كثيرة فلم يخطر في بالي أن أشك في ثقتهما التامة تلك بما قالاه لي.

«على الرغم من ذلك، يتعيّن عليَّ القول إنني وجدت صعوبة في تخيل موته بهذه الطريقة...». قال هوبي هذه الكلمات فقطع الصمت المفاجئ الذي حل علينا... «صاعقة. صاعقة تسقط على المرء من غير أن ينتبه. كان لدي إحساس بأن الأمر لم يكن مثلما قالوا... يكون لدى المرء هذا الإحساس أحياناً، أليس كذلك؟».

قلت له من جديد وأنا أرفع رأسي وأنظر إليه: «عفواً؟»، شوَّشني وأفقدني صوابي ذلك الاحتمال الجديد البشع الذي رأيته الآن.

قال هوبي: «وداع عند البوابة...». بدا لي كما لو أنه يكلّم نفسه، جزئياً... «هذا ما كان ليتمناه لنفسه. لمحة الفراق، قصيدة الموت ـ ما كان ليحب أن يذهب من غير أن يتوقف قليلاً حتى يتحدث مع شخص في الطريق. 'بيت شاي وسط أشجار الكرز المزهرة، في الطريق إلى الموت'!».

لقد نسي وجودي. في الغرفة الظليلة، شقَّ نصل وحيد من أشعة الشمس طريقه بين ستارتين وامتد عبر الغرفة فاصطادته وتألقت به صينية فيها دوارق زجاجية راحت تلقي مواشيرها المتراقصة المتقافزة هنا وهناك، وانتشرت على الجدران عالياً كما تنتشر وحيدات الخلية تحت المجهر. على الرغم من رائحة دخان الحطب القوية، كان الموقد مطفأً، أسود المظهر، شبكته مختنقة بالرماد كأنه لم يعرف ناراً منذ حين.

قلت خجلاً خائفاً: «الفتاة».

عادت نظرته إلي.

«كانت هنالك فتاة أيضاً».

مرت لحظة بدا لي فيها أنه لم يفهم ما قلته. ثم استوى في مقعده ورفرفت عيناه سريعاً كأن ماء رُشق على وجهه.

فوجئت، فقلت: «ماذا؟ أين هي؟ هل هي بخير؟».

حك أرنبة أنفه: «لا، لا».

«لكنها حيّة؟». كنت لا أكاد أصدق ما أقوله.

رفع حاجبيه بطريقة فهمت منها أنه يقول نعم. سمعت صوته: «كانت محظوظة». لكن ذلك الصوت بدا كأنه يقول شيئاً معاكساً؛ وكذلك بدت هيئته.

«أهي هنا؟».

«الحقيقة أنها...».

«أين هي؟ هل أستطيع رؤيتها؟».

تنهّد الرجل وبدا عليه شيء يشبه الغضب. قال: «يجب أن تظل هادئة وألّا تستقبل زواراً...». راح يبحث في جيوبه... «لم تعد كما كانت؛ لم تعد هي نفسها... تصعب معرفة كيف يمكن أن تكون ردة فعلها».

«لكنها ستتحسّن، أليس كذلك؟».

«فلنأمل هذا. لكنها لم تخرج من الغابة بعد. إنني أستخدم الجملة غير الواضحة على الإطلاق التي يصر الأطباء على استخدامها». أخرج سجائره من جيب ثوبه. وبيدين مرتجفتين، أشعل سيجارة، ثم ألقى بالعلبة على الطاولة اليابانية المطلية التي كانت بيننا.

قال وهو يلوّح بيده حتى يبعد الدخان عن وجهه: «ماذا؟...». رآني أنظر إلى علبة السجائر المجعّدة، سجائر فرنسية كالتي يدخنها الناس في الأفلام القديمة... «لا تقل لي إنك تريد سيجارة أيضاً!». بعد صمت قصير صعب، أجبته: «لا، شكراً». كنت واثقاً كل الثقة من أنه يمزح، لكني لم أكن واثقاً من ذلك كل الثقة.

أما هو، فقد كان يرفرف بعينيه وينظر إلي عبر دخان التبغ. كان في نظرته قلق كما لو أنه أدرك، في هذه اللحظة، أمراً بالغ الأهمية في ما يتعلق بي. قال من غير انتظار: «إنه أنت، أليس كذلك؟».

«عفواً، لم أفهم؟».

«أنت هو الصبي، أليس هذا صحيحاً؟ الصبي الذي ماتت أمه هناك».

فوجئت كثيراً، وبقيت لحظة غير قادر على قول أي شيء.

قلت: «ماذا؟...». عنيت بها: كيف عرفت؟ لكني لم أستطع جعل هذه الكلمات تخرج من فمي. فرك عينه منزعجاً ثم ارتد إلى الخلف فجأة كما يفعل شخص دلق كأساً من الماء على الطاولة من غير انتباه... «آسف. إنني لست... أعني... لم أقل ذلك على النحو الصحيح. يا إلهي.

إنني...». أشار بيده إشارة غامضة كأنه يقول لي إنه مرهق غير قادر على أن يفكّر بشكل صحيح.

بحركة غير مهذّبة تماماً، أشحت بوجهي بعيداً عنه ـ غشت عينَيَّ موجة غير مرحَّب بها من مشاعر نبعت فجأة. منذ موت أمي، لم أبكِ إلا قليلاً جداً؛ ولم أبك أبداً أمام أي إنسان ـ لم أبك حتى في القداس التذكاري الذي أقيم من أجلها حيث كان أناس لا يكادون يعرفونها (معهم شخص أو شخصان ممن كانوا يجعلون حياتها جحيماً... ماتيلد مثلاً) ينشجون من حولي ويمسحون أنوفهم.

رأى شدة كَربي؛ وبدأ يقول شيئاً، لكنه أحجم.

ثم قال من غير توقّع: «هل أكلت؟».

فوجئت كثيراً فلم أستطع الإجابة بشيء. كان الطعام آخر ما يمكن أن يخطر في بالي.

قال لي وهو ينهض بصعوبة على قدميه الكبيرتين: «آه، هذا ما توقّعته. فلنذهب ونبحث عن شيء ما».

قلت له بجلافة جعلتني آسفاً على الفور: «لست جائعاً». منذ موت أمي، صار يبدو لي أن الناس جميعاً يريدون حشوي بالطعام.

«لا، لا، بالطبع لا...». لوّح بيده حتى يطرد عن وجهه غيمة دخان... «لكن، هيا، من فضلك. سايرني. أنت لست نباتياً، أليس كذلك؟».

شعرت بنوع من الإهانة فأجبته: «لا، ولماذا تظنّ هذا؟».

أطلق ضحكة قصيرة حادّة: «مَهلك، مهلك! أصدقاؤها نباتيون في أكثرهم، وهي نباتية أيضاً».

قلت بصوت واهٍ: «أوه!». فنظر إلي نظرة فيها روح فكاهة متمهّلة حيّة.

قال لي: «لا بأس... هل تعرف أنني لست نباتياً أيضاً؟ إنني آكل أي شيء مهما يكن سخيفاً. أظن أنّنا متّفقَان».

فتح باباً فتبعته في ممر مزدحم اصطفَّت فيه مرايا متسخة ولوحات

عتيقة. سار أمامي مسرعاً، لكنني حرصت على التلكؤ حتى أنظر من حولي: تجمعات عائلية، وأعمدة بيضاء، وشرفات، وأشجار نخيل، ملعب تنس، وسجادة فارسية مفروشة على العشب. خدم ذكور في ملابس بيضاء واقفون بوقار جنباً إلى جنب. حط نظري على صورة السيد بلاكويل ـ حاد، أنيق، ملابسه رشيقة بيضاء، محدودب الظهر حتى في شبابه. كان مستنداً إلى جدار عند البحر في مكان ما فيه نخل كثير. وإلى جانبه ـ فوق ذلك الجدار، يدها على كتفه ورأسها أعلى من رأسه ـ بيبا عندما كانت في روضة الأطفال، مبتسمة. وعلى الرغم من ضآلة جسمها، كانا متشابهين على نحو ظاهر: لونها، وعيناها، ورأسها المائل في الزاوية نفسها، وشعرها الأحمر مثل شعره.

قلت: «إنها هي، أليس كذلك؟»ـ وفي اللحظة عينها، أدركت أنها لا يمكن أن تكون هي. هذه الصورة، بألوانها الحائلة وما فيها من ملابس عفى عليها الزمن، ملتقَطة قبل مولدي بزمن طويل.

استدار هوبي وعاد إلي حتى ينظر إلى الصورة. قال بصوت هادئ وقد وضع يديه خلف ظهره: «لا. هذه جولييت، إنها والدة بيبا».

«أين هي؟».

«جولييت؟ ماتت. سرطان. أتمت ست سنين في شهر مايو الماضي». وعندها، بدا كأنه أدرك أنه أجابني باقتضاب زائد... «كان ويلتي شقيق جولييت الأكبر. بل كان أخاً غير شقيق. أب واحد ـ زوجتان مختلفتان بينهما ثلاثون سنة. لكنه رباها كما لو أنها ابنته».

اقتربت حتى ألقي نظرة أقرب. كانت مائلة عليه، خدها يمسّ أعلى كم سترته بحركة جميلة.

تنحنح هوبي، ثم قال بصوت هادئ: «ولدَت عندما كان أبوهما في الستينات من عمره. كان أكبر سناً بكثير من أن يشغل نفسه بطفلة صغيرة؛ ثم إنه ما كان واحداً ممن لديهم ضعف تجاه الأطفال». كان في آخر

الممر باب نصف مفتوح. دفعه وراح ينظر هناك في الظلمة. اقتربت منه على رؤوس أصابعي، لكنه تراجع من فوره، تقريباً وأغلق الباب.

«أهي هنا؟». كانت الغرفة مظلمة إلى حد لا يسمح برؤية الكثير، لكني التقطت بريق عيني حيوان غير ودودتين... لمعة مخضرَّة مفزعة من أعماق الغرفة.

«ليس الآن». كان صوته شديد الانخفاض فلم أكد أسمعه.

همست له وأنا أتلكأ عند الباب غير راغب في الحركة: «ما الذي هناك في الداخل، معها؟ أهي قطة؟».

«بل كلب. الممرضة غير موافقة على هذا، لكن بيبا تريده معها في السرير. والحقيقة أنني غير قادر على إبقائه خارج الغرفة لأنه يخمش الباب وينوح ـ من هنا، من هذه الجهة». كان يتحرّك بطيئاً بخطوات غير مستقرة وقد ظهر عليه ذلك المَيَلان إلى الأمام الذي يكون لدى كبار السن. فتح باباً مفضياً إلى مطبخ مزدحم له سقف زجاجي وفيه موقد قديم رشيق الشكل: موقد أحمر اللون كالطماطم له خطوط رشيقة كسفن الفضاء في الخمسينات. كتب مكدسة على الأرض ـ كتب طبخ، وقواميس، وروايات قديمة، وموسوعات. ورفوف مزدحمة بأنتيكات خزفية بأشكال كثيرة. وعلى مقربة من النافذة، عند فتحة النجاة، قديس خشبي باهت في يده سعفة نخيل يمنح بها البركات. وعلى خوان خشبي إلى جانب مجموعة شاي فضية، كانت أزواج من الحيوانات تسير مسرعة، زوجاً بعد زوج، فوق الجسر المفضي إلى سفينة نوح. لكن المجلى كان غاصّاً بأطباق كثيرة؛ وعلى الطاولة وطوار النافذة اصطفت زجاجات أدوية وفناجين متسخة ومجموعات من رسائل غير مفتوحة ونباتات من متجر الأزهار... جافة بنّية في أصصها.

جلس إلى الطاولة وأزاح جانباً فواتير شركة الكهرباء ونسخاً من مجلة «آنتيك». قال كما لو أنه تذكّر شيئاً على قائمة المشتريات: «شاي؟».

بينما كان منشغلاً عند الموقد، رحت أنظر إلى دوائر القهوة على مفرش الطاولة. كنت غير مرتاح، فاستويت في الكرسي ونظرت من حولي.

قلت: «آآ...».

«ماذا؟».

«هل أستطيع رؤيتها في ما بعد؟».

أجابني من غير أن يلتفت في اتجاهي ـ كانت الملعقة تصطدم بجدران الوعاء الخزفي الأزرق... تاك تاك تاك... «إذا كانت مستيقظة. إنها تعاني ألماً غير قليل. كما أن الأدوية التي تتناولها تجعلها نعسة على الدوام».

«ماذا حدث لها؟».

«الحقيقة...». كانت نبرة صوته خافتة مكبوتة... فهمت هذه النبرة على الفور لأنها النبرة التي أستخدمها عندما يسألني الناس عن أمي... «أصابتها ضربة كبيرة في رأسها من الخلف، كسر في الجمجمة. والحقيقة أنها ظلت فترة في غيبوبة، كما أصيبت ساقها اليسرى بكسور كثيرة فكادت تفقدها... حجارة في كيس...». قال هذا بضحكة لا بهجة فيها... «هذا ما قاله الطبيب عندما نظر إلى صورة الأشعة. اثنا عشر كسراً. خمس عمليات جراحية. وفي الأسبوع الماضي...». استدار صوبي نصف استدارة... «أزالوا الغرزات فرجتهم كثيراً أن تعود إلى البيت. قالوا إن في وسعها أن تعود شرط أن تكون معها ممرضة بضع ساعات في اليوم».

«وهل صارت قادرة على السير؟».

«طبعاً لا...». قال هذا وهو يرفع سيجارته ليأخذ منها نفساً. كان يعِدّ الشاي بإحدى يديه ويدخن بالأخرى كأنه قبطان زورق أو طباخ في مخيم للحطابين في فيلم قديم... «لا تكاد تستطيع الجلوس في سريرها أكثر من نصف ساعة».

«لكنها ستكون بخير».

«هذا ما نأمله...». قالها بنبرة لم تبدُ لي شديدة التفاؤل. التفت إليَّ من جديد وقال: «أتدري؟... إن كنت هناك، مثلها، فمن العجيب أنك لا تزال على ما يرام».

لم أكن أعرف أبداً كيف أستجيب عندما يعلّق الناس ـ هذا ما يفعلونه كثيراً ـ على كوني «على ما يرام». سعل هوبي، ثم أطفأ سيجارته. كان واضحاً من تعبير وجهه إدراكه أنه أزعجني وأنه آسف لذلك. «أظنهم تحدّثوا إليك، أنت أيضاً! المحققون!».

نظرت إلى مفرش الطاولة وقلت: «صحيح». لا أحب الحديث في هذا الأمر.

«حسناً... لا أعرف كيف ترى الأمر، لكني وجدتهم في غاية اللباقة. لديهم اطلاع ممتاز. هذا الشرطي الإيرلندي... لقد رأى الكثير من هذه الأشياء. أخبرني عن قنابل الحقائب في إنجلترا وفي مطار باريس وفي مقهى في طنجة... هل تعرف؟... عشرات القتلى، لكن الشخص الذي كان إلى جوار القنبلة لم يصبه أذى على الإطلاق. قال لي الشرطي إنهم يرون آثاراً غريبة جداً... في المباني القديمة خاصة. أماكن مغلقة، وسطوح غير مستوية، ومواد عاكسة ـ أشياء لا يمكن توقّعها. قال الشرطي إن هذا يشبه سلوك الصوت. أمواج الانفجار تشبه الأمواج الصوتية ـ إنها تنعكس وتتكسَّر وتتشتت. بعض الأحيان، تتحطّم واجهات المتاجر على بعد أميال من مكان الانفجار. أو...». أزاح شعره بيده... «في أحيان أخرى، يكون المكان القريب من الانفجار واقعاً ضمن ما أطلق عليه الشرطي اسم 'تأثير الدرع'. أشياء قريبة جداً من الانفجار تظل سليمة ـ فنجان شاي غير مكسور في كوخ للجيش الجمهوري الإيرلندي، أو حالتك أنت. يقتل أكثر الناس نتيجة تطاير الزجاج والحجارة؛ وغالباً ما يكون ذلك على مسافة بعيدة. عندما تنطلق الحصى وقطع الزجاج بتلك السرعة، تصير قاتلة كطلقات الرصاص».

مررت بإصبعي على زهرة مرسومة على مفرش الطاولة. «إنني...».
«آسف. لعل هذا ليس موضوعاً مناسباً الآن».
قلت مسرعاً: «لا، لا...». في حقيقة الأمر، كان مبعث راحة كبيرة لنفسي أن أسمع شخصاً يتحدّث هكذا... مباشرة... يتحدّث حديث العارف عمّاَ يجهد أكثر الناس أنفسهم في تجنّب الحديث عنه... «الأمر ليس هكذا. إنه، فقط...».
«ماذا؟».
«لقد كنت أتساءل... كيف خرجَتْ من المتحف؟».
«إنها ضربة حظ في حقيقة الأمر. لقد كانت عالقة تحت كمية كبيرة من الركام. ما كان لرجال الإطفاء أن يعثروا عليها لو لا أن أحد الكلاب نبههم إلى مكانها. شقّوا طريقهم إليها، ثم رفعوا العارضة التي كانت فوقها ـ أعني... الشيء المدهش أيضاً هو أنها كانت في وعيها، وكانت تكلّمهم طيلة الوقت على الرغم من أنها لا تتذكر الآن أي شيء من ذلك. والمعجزة أنهم تمكنوا من إخراجها قبل نداء الإخلاء... كم من الوقت قلت لي إنك بقيت فاقداً وعيك؟».
«لست أتذكر هذا».
«نعم. لقد كانت محظوظةً. لو أنهم اضطروا إلى الخروج وتركها هناك، عالقة في مكانها، وهذا ما علمت أنه حدث لبعض الناس... آه، صار الشاي جاهزاً...». قال هذا عندما انطلق صفير غلاية الشاي.
كان شكل طبق الطعام الذي وضعه أمامي غير جذّاب على الإطلاق ـ قطع من التوست عليها مادة صفراء منتفخة. لكن رائحتها كانت جيدة. تذوّقتها بحذر. كانت جبناً ذائباً فيه قطع صغيرة من الطماطم والفلفل وأشياء أخرى لم أميّزها. كان طعاماً لذيذاً.
قضمت لقمة حذرة أخرى، ثم قلت له: «عفواً، ما هذا؟».
بدا عليه شيء من الحرج: «الحقيقة أنه... ليس له اسم».

أجبته: «إنه لذيذ». فوجئت بشدة جوعي. كانت أمي تعدّ لي توستاً بالجبن شديد الشبه بهذا، وكنا نتناوله في ليالي الأحد الشتائية، بعض الأحيان.

«هل تحب الجبن؟ كان علي أن أسألك أولاً».

أومأت برأسي. كان فمي مليئاً فلم أستطع الإجابة. على الرغم من أن السيدة باربر كانت تلح عليَّ دائماً لكي آكل الحلويات والآيس كريم، إلا أنني شعرت الآن بأنني لم أكد آكل وجبة طبيعية منذ موت أمي ـ على الأقل، لم آكل شيئاً شبيهاً بتلك الوجبات التي كانت معتادة لدينا، البيض المقلي أو البيض المخفوق أو المعكرونة بالجبن (كنا نشتريها جاهزة). وكنت أجلس على السلم الخشبي الصغير في المطبخ فآكل وأخبرها عن حوادث يومي.

تابعت الأكل؛ أما هو فكان جالساً قبالتي إلى الناحية الأخرى من الطاولة مسنداً ذقنه إلى يده الكبيرة البيضاء.

سألني على نحو مفاجئ بعض الشيء: «ما الأمر الذي أنت متفوّق فيه؟ الرياضة؟».

«عفواً؟».

«ما الذي يثير اهتمامك؟ الألعاب، وتلك الأشياء؟».

«في الحقيقة، ألعاب الفيديو، ألعاب مثل *إيج أوف كونكويست*... *ياكوزا فريك آوت*!».

بدا عليه شيء من الحيرة: «فماذا عن المدرسة؟ ما هي موادك المفضلة؟».

«التاريخ، على ما أظن. واللغة الإنكليزية أيضاً...». ثم أضفت عندما وجدته لم يعلّق بشيء... «لكن دروس اللغة الإنكليزية ستغدو مملة خلال الأسابيع الستة القادمة ـ توقّفنا عن دراسة الأدب وعدنا إلى كتاب قواعد اللغة. نعمل الآن على تركيب الجمل».

«أنت تحب الأدب! الأدب الإنجليزي أم الأدب الأميركي؟».

«الأدب الأميركي. ندرسه الآن. أو... كنا ندرسه. أحب أيضاً التاريخ الأميركي في هذه السنة. أحبه على الرغم من أنه كان مملاً في الآونة الأخيرة. إننا الآن على وشك الانتهاء من دراسة فترة الكساد الكبير، لكنه سيصير ممتعاً من جديد عندما نصل إلى الحرب العالمية الثانية».

كان ذلك الحديث بيننا أكثر الأحاديث متعة منذ فترة غير قليلة. كان يطرح علي أسئلة كثيرة تعجبني... ما الأدب الذي أحب قراءته، وما هو الاختلاف بين المدرسة المتوسطة والمدرسة الابتدائية، وما هي المادة الأكثر صعوبة في نظري (اللغة الإسبانية)، وما هي الفترة التاريخية المفضلة عندي (لم أكن متأكداً من ذلك... أي شيء ما عدا «*يوجين دِبس وتاريخ الحركة العمالية*» الذي أنفقنا فيه وقتاً غير قليل). وماذا أريد أن أعمل عندما أكبر (لا أعرف). كان يسألني عن أمور عادية، لكني وجدت هذا الحديث مع شخص كبير يبدو مهتماً بي، بصرف النظر عن محنتي، كان أمراً منعشاً حقّاً... لم يكن يحاول الحصول على معلومات أو إنجاز بنود على «قائمة المهام» الخاصة بالأطفال الذين يعانون مشكلات.

ثم انتقلنا إلى الحديث عن الكتّاب ـ من ت. هـ. وايت وتولكين إلى إدغار آلان بو الذي كان من الكتّاب المفضَّلين عندي. قلت: «كان أبي يقول إن بو كاتب من الدرجة الثانية. كان يعتبره فنست برايس الأدب الأميركي. لكني لا أظن ذلك منصفاً».

أجابني هوبي بجدية وهو يصب لنفسه فنجان شاي: «لا، ليس منصفاً، حتى إذا كنت لا تحب بو ـ لقد اخترع القصة البوليسية، واخترع قصص الخيال العلمي. من حيث الجوهر، اخترع بو قسماً كبيراً من أدب القرن العشرين. أعني... صدقاً... لم يعد يعجبني كثيراً مثلما كان يعجبني أيام كنت صغيراً؛ لكنك لا تستطيع التقليل منه واعتباره رديئاً، حتى إذا لم تحبه».

«هذا ما كان يفعله أبي. كان يقرأ لي قصيدة آنابيل بصوت غبي حتى يثير غضبي لأنه كان يعرف أنني أحب تلك القصيدة».

«هل والدك كاتب؟».

«لا...». لم أدر من أين أتى بهذه الفكرة... «إنه ممثل. أو... كان ممثلاً». قبل ولادتي، شارك أبي في أدوار ثانوية في عروض تلفزيونية كثيرة. لم يلعب دور البطولة أبداً، بل دور صديق البطل العابث المدلّل، أو الشريك الفاسد في العمل الذي يُقتل آخر الأمر.

«وهل أكون قد سمعت باسمه؟».

«لا. إنه يعمل الآن في أحد المكاتب. أو كان يعمل في أحد المكاتب».

سألني: «فما عمله الآن؟». كان قد وضع الخاتم في إصبعه الصغير، ومن حين لآخر، كان يديره بإبهام يده اليمنى وسبابتها كما لو أنه يتأكّد من أنه لا يزال موجوداً.

«من يدري؟ لقد هجرنا؟».

فوجئت عندما ضحك وقال: «هل يعني هذا أنكما ارتحتما للتخلّص منه؟».

هززت كتفي: «الحقيقة... لست أدري. كان جيداً بعض الأحيان. كنا نشاهد مباريات رياضية ومسلسلات بوليسية، وكان يخبرني كيف يصنعون المؤثرات الخاصة في الأفلام... الدم، وتلك الأشياء كلها. لكن، كان الأمر... لست أدري. كان ثملاً بعض الأحيان عندما يأتي لأخذي من المدرسة!...». انتبهت إلى أنني لم أتحدث عن هذا الأمر مع ديف، الطبيب النفسي، ولا مع السيدة سوانسون، ولا مع أي شخص... «خفت أن أخبر أمي بذلك، لكن والدة أحد زملائي أخبرتها. وعندها...». كانت تلك قصة طويلة، وقد أحسست بالحرج وأردت اختصارها... «كُسرت يده في أحد البارات. تشاجر مع شخص في البار. كان لديه بار يحب الذهاب إليه كل يوم. لكننا لم نعرف بذلك لأنه كان يقول دائماً إن

عليه أن يعمل في المكتب حتى وقت متأخر. وكانت لديه مجموعة من الأصدقاء لا نعرف عنها شيئاً. إلا أنهم صاروا يرسلون إليه بطاقات بريدية عندما يذهبون في عطلات ورحلات إلى أماكن من قبيل جزر العذراء. وكانت تلك البطاقات تصل إلى عنوان بيتنا. هكذا عرفنا بالأمر. حاولت أمي جعله يذهب إلى أحد مراكز المساعدة النفسية، لكنه لم يرد الذهاب. وفي بعض الأحيان، كان البوابون يأتون ويقفون في الممر عند باب الشقة ويصدرون أصواتاً كثيرة حتى يسمعهم ـ وهكذا كان يعرف أنهم هناك... أرأيت هذا؟ وبالتالي، لم تكن الأمور تخرج عن السيطرة أكثر من ذلك».

«تخرج عن السيطرة؟».

«كان هناك الكثير من الصياح وغير ذلك. وكان هو من يفعل ذلك». ولكن، كنت غير مرتاح لإدراكي أنني قلت أكثر مما كنت أريد قوله... «كان هو من يصدر الضجيج، في المقام الأول. مثل... أوه، لست أدري، مثلما كان يحدث عندما يضطر إلى البقاء معي أثناء غياب أمي في العمل. كان في مزاج سيئ على الدوام، فلا يمكن التحدّث معه عندما يتابع الأخبار أو الرياضة... كانت تلك قاعدة في البيت. أعني...». توقّفت منزعجاً عندما شعرت بأنني تكلّمت إلى أن حشرت نفسي في زاوية... «على أية حال ـ كان ذلك منذ زمن بعيد».

استند في كرسيه ونظر إلي: رجل ضخم متعقّل واثق من نفسه، على الرغم من تلك اللمحة الصبيانية الزرقاء القلقة في عينيه.

قال: «والآن، هل أنت مرتاح مع الناس الذين تقيم لديهم؟».

«إنهم...» توقّفت، وكان فمي ممتلئاً... كيف أشرح له الوضع في بيت أسرة باربر؟... «أظنهم أناساً لطيفين».

«يسعدني هذا. أعني... لا يمكنني القول إنني أعرف سامانثا باربر، لكني قمت ببعض الأعمال من أجل أسرتها، في الماضي. إن لها عيناً ذكية».

توقفت عن الأكل عندما سمعت هذا: «هل تعرف أسرة باربر؟».
«لا أعرف الزوج. أعرفها هي. صحيح أن أمها كانت جامعة تحف حقيقية... لكني أظن أن تلك التحف ذهبت كلها إلى الأخ... نتيجة خلاف عائلي. لو كان ويلتي معنا لأخبرك أشياء أكثر عنهم...». أضاف بسرعة: «لا أعني أنه كان ثرثاراً أو نماماً! لقد كان ويلتي كتوماً إلى أقصى حدٍّ، لكن الناس كانوا يعهدون إليه بأسرارهم... كان من ذلك النوع من الأشخاص... هل فهمت؟ ينفتح الغرباء معه ـ العملاء، وأشخاص لا يكاد يعرفهم... كان من ذلك النوع من الرجال الذين يحب الناس أن يُسرّوا لهم بأحزانهم...». طوى ذراعيه على صدره... «لكن، نعم! كل من يتاجر بالأعمال الفنية والتحف والأنتيكات في نيويورك يعرف سامانثا باربر. كانت شديدة الولع بهذه الأمور قبل زواجها. لكنها لم تكن تشتري الكثير على الرغم من أن ويلتي كان يراها أحياناً في بعض المزادات؛ ومن المؤكد أن لديها بعض المقتنيات الجميلة».
«من أخبرك أنني مقيم مع أسرة باربر؟».
رفرفت عيناه سريعاً وقال: «كان ذلك في الصحيفة، ألم تره؟».
«في الصحيفة؟».
«في صحيفة تايمز. ألم تقرأها؟ لا؟».
«هل كان في الصحيفة شيء عني أنا؟».
أجابني مسرعاً: «لا، لا. ليس عنك أنت، بل عن الأطفال الذين فقدوا بعض أفراد أسرهم في المتحف. كان أكثرهم من السائحين. وكانت من بينهم طفلة صغيرة... رضيعة في واقع الأمر... ابنة دبلوماسي من أميركا الجنوبية...».
«وماذا قالوا عني في الصحيفة؟».
كشّر قليلاً: «أوه، محنة صبي يتيم... وشخص محب للإحسان له موقع في المجتمع يتدخّل في الأمر... تلك الأشياء. يمكنك تخيّلها».

نظرت إلى طبقي، وشعرت بالحرج. يتيم؟ إحسان؟

قال لي وهو يخفض رأسه الرمادي الضخم حتى تصير عيناه على مستوى عيني: «كانت مقالة لطيفة جداً. فهمت منها أنك دافعت عن واحد من أبنائها عندما اعتدى عليه المتنمّرون!... في المدرسة؟ ذلك الصبي الموهوب الذي جعلوه يسبق صفه».

هززت رأسي: «عفواً؟».

«أليس هو ابن سامانثا؟ الصبي الذي دافعت عنه في مواجهة مجموعة أكبر سناً في المدرسة. تلقيت الضربات بدلاً منه... وتلك الأشياء».

هززت رأسي من جديد... كنت حائراً تماماً.

ضحك وقال: «يا للتواضع! لا ينبغي أن تكون محرَجاً هكذا».

قلت مرتبكاً: «لكن... لم يكن الأمر هكذا! كانوا يعترضوننا ويضربوننا، معاً، كل يوم».

«لكن ذلك ما قالته الصحيفة. وهو ما جعل الأمر أكثر تميزاً... وقوفك إلى جانبه. زجاجة مكسورة؟...». وعندما لم أجبه، تابع يقول... «كان أحدهم يحاول أن يجرح ابن سامانثا باربر مستخدماً زجاجة مكسورة، فقمت أنت بـ...».

قلت محرجاً من جديد: «آه، ذلك الأمر... لم يكن شيئاً».

«لكنك جُرحت، جُرحت عندما حاولت مساعدته».

«لم يكن الأمر هكذا. لقد هجم كافندال علينا معاً، وكانت على الرصيف قطعة زجاج مكسورة».

ضحك من جديد ـ ضحكة رجل ضخم، ضحكة غنية خشنة غير منسجمة مع صوته المنضبط. قال: «لا بأس... كيفما جرى الأمر، فمن الواضح أن لك حظوة لدى أسرة مثيرة للاهتمام». نهض واقفاً ومضى إلى الخزانة فأتى بزجاجة ويسكي وصب لنفسه مقدار إصبعين في كأس لم تكن نظيفة.

قال لي: «لا تبدو سامانثا باربر شخصية شديدة الدفء أو شديدة الكرم... على الأقل، هذا هو الانطباع الذي يأخذه المرء عنها. لكن الظاهر أنها تقوم بأعمال خير كثيرة في هذا العالم من خلال تلك المؤسسات وتلك الحملات لجمع التبرعات، أليس هذا صحيحاً؟».

بقيت صامتاً ريثما أعاد الزجاجة إلى الخزانة في مكانها. وفي الأعلى، من خلال السقف الزجاجي، كان ضوء النهار رمادياً متدرّج اللون؛ وكان مطر خفيف يتساقط على الزجاج.

قلت له: «هل ستعيد افتتاح المتجر من جديد؟».

«الحقيقة أنني...». تنهّد ثم تابع... «كان ويلتي يتولّى هذا الجانب من العمل بالكامل ـ العملاء والمبيعات! أما أنا... إنني أصنع الخزائن، ولست رجل أعمال. أصنع التحف وأقوم بمختلف الأعمال اليدوية. نادراً ما كنت أصعد إلى المتجر ـ أنا في الأسفل دائماً... أصقل الخشب وألمّعه. لكنه رحل الآن ـ نعم، لا يزال الوضع جديداً تماماً. يتّصل أشخاص من أجل أشياء كان يبيعها، ولا تزال تأتي أشياء لم أكن أعرف أنه يشتريها... ولا أعرف أين يضع الأوراق والوثائق... ولا أعرف شيئاً عن أي شخص. هناك مليون أمر يجب أن أسأله عنها. أقبل التنازل عن أي شيء مقابل الحديث معه خمس دقائق. وعلى نحو خاص، ما يتعلق ببيبا خاصة. أمور رعايتها الصحية و... لا بأس».

قلت: «صحيح!». لكني كنت مدركاً سخافة إجابتي. لقد كنا سائرين في اتجاه تلك المنطقة المزعجة... جنازة أمي ودفنها، ولحظات الصمت التي تطول، والابتسامات التي في غير محلها... موضع لا تجدي فيه الكلمات نفعاً.

«كان رجلاً لطيفاً محبباً. أمثاله قلائل. رجل لطيف. ساحر. كان الناس يشعرون دائماً بالأسف عليه بسبب ظهره المحدودب، لكني لم أعرف أبداً شخصاً موهوباً مبتهج الطبع مثله. وبطبيعة الحال، كان عملاء

المتجر يحبونه... شخص منطلق منفتح، اجتماعي إلى أقصى حد. كان يقول دائماً: العالم لن يأتي إليّ؛ عليَّ إذاً، أن أذهب إليه...».

وعلى نحو مفاجئ تماماً، رُن هاتف آندي في جيبي: إنها رسالة نصية. أجفل هوبي إجفالاً عنيفاً. كانت الكأس في منتصف الطريق إلى فمه... «ما هذا؟».

أجبته وأنا أضع يدي في جيبي: «انتظر لحظة». كانت الرسالة آتية من هاتف واحد من الأولاد في صف اللغة اليابانية مع آندي اسمه فيل ليفكاو: *مرحباً ثيو. أنا آندي. هل أنت بخير؟* أغلقت الهاتف مسرعاً وأعدته إلى جيبي.

قلت له: «إنني آسف. ماذا كنت تقول؟».

«نسيت...». راح يحدّق في الفضاء لحظة أو اثنتين، ثم هز رأسه وقال: «لم أكن أظن أنني سأرى هذا من جديد...» كان ينظر إلى الخاتم... «صحيح، هذا هو طبعه حقّاً ـ أن يطلب منك جلبه إليّ حتى أضعه في يدي. إنني... الحقيقة لم أقل شيئاً لكنني ظننت... بل كنت واثقاً... أن أحداً سرقه في المشرحة».

ومن جديد، أطلق الهاتف رنينه المزعج الحاد. قلت: «اللعنة، آسف!». ثم أخرجت الهاتف من جيبي.

قالت رسالة آندي: «*إنني أتأكد فقط من أنك لم تُقتل!!!*».

قلت: «آسف...». ثم وضعت الهاتف على الوضعية الصامتة حتى أضمن ألّا يرن من جديد... «صار الآن صامتاً».

لكنه ابتسم فحسب... ابتسم ونظر في كأسه. كانت حبات المطر تتقاطر على السقف الزجاجي فتلقي ظلالاً مائية تسيل على الجدار. منعني خجلي من قول أي شيء. فانتظرت أن يتابع الكلام من جديد. وعندما لم يقل شيئاً، بقينا جالسين بهدوء ورحت أرتشف الشاي الذي بدأ يبرد (شاي لابسانغ؛ شاي غريب مدخّن). شعرت بغرابة حياتي، وبغرابة المكان الذي كنت فيه.

دفعت بطبقي جانباً وقلت له بدافع الواجب وعيناي تتجولان في أرجاء الغرفة: «شكراً لك. كان لذيذاً حقاً». كنت أتكلم من أجل أمي... إن كانت تسمعني... لأنها تريدني أن أتكلم هكذا (صارت هذه عادة عندي).

قال: «أوه، كم أنت مهذب!». ثم ضحك؛ لكنها لم تكن ضحكة غير لطيفة؛ بل ودية... «هل يعجبك؟».

«ماذا؟».

أشار برأسه إلى الرف: «جسر سفينة نوح. أظنك كنت تنظر إليه». الحيوانات الخشبية المهترئة (فيلان ونمران وثوران وحماران وحشيان... أنواع الحيوانات كلها، وصولاً إلى زوج من الفئران الصغيرة...) كانت واقفة في الصف، صابرة، تنتظر الصعود إلى السفينة.

سألته: «أهو لها؟». كان ذلك بعد لحظة صمت مسحورة لأن الحيوانات كانت مرتبة بكل حب وعناية (قط وقطة كبيران يتجاهل كل منهما الآخر؛ وذكر الطاووس مبتعد عن أنثاه ينظر معجباً إلى انعكاس صورته على محمصة الخبز). تخيلتها تنفق الساعات في ترتيب هذه الحيوانات وفي محاولة صفّها على نحو صحيح تماماً.

ضم يديه فوق الطاولة: «لا! كان هذا من أول التحف التي اشتريتها... منذ ثلاثين سنة. اشتريتها من عرض بأسعار مخفضة لأشياء فولكلورية أميركية. لست شديد البراعة في ما يتعلق بالفنون الفولكلورية ولم أكن كذلك في يوم من الأيام. وهذه المجموعة ليست مرتفعة الجودة، كما أنها غير متناسبة مع أي شيء آخر أملكه. لكن... ألا نجد دائماً أن الشيء غير المناسب، الشيء الذي لا يكون ناجحاً تماماً، هو ـ على نحو غريب ـ الشيء الأعز لدينا؟».

دفعت بالكرسي إلى الخلف غير قادر على إبقاء قدمَيَّ ساكنتين. قلت له: «هل أستطيع رؤيتها الآن؟».

«إذا كانت مستيقظة...». شد على شفتيه... «نعم، لا أرى ضرراً في ذلك. لكن لمدة دقيقة واحدة فقط، من فضلك». وعندما نهض واقفاً، فاجأني هيكله الضخم ذو الكتفَيْن المائلتين، فاجأني من جديد... «لكنّي أحذّرك... إنها مشوشة بعض الشيء...». استدار عندما بلغ الباب... «ومن الأفضل عدم ذكر ويلتي على الإطلاق، إن استطعت ذلك».

«ألم تعرف بموته؟».

أجابني بصوت حاد بعض الشيء: «أوه، نعم... لقد عرفت. لكن حزنها يتجدّد أحياناً عندما تسمع ذلك. تسألني: متى حدث، ولماذا لم يخبرني أحد؟».

2

عندما فتح باب الغرفة، كانت الستائر مسدلة. فمرت لحظة قبل أن تألف عيناي الظلمة التي كانت فائحة برائحة عطر تخالطها آثار من رائحة أدوية ومرض. رأيت ملصقاً معلقاً فوق السرير، كان من فيلم *«ساحر أوز»*. ورأيت شمعة معطرة مشتعلة تتلألأ في زجاجة حمراء ومن حولها مجموعة حلي صغيرة ومسابح وأوراق عليها نوتات موسيقية، وزهور مصنوعة من المناديل الورقية وبطاقات معايدة قديمة ـ إضافة إلى ذلك كله، رأيت ما بدا لي أنه مئات من بطاقات التمنيات بالشفاء العاجل مزينة بشرائط ملونة، ومجموعة بالونات فضية تحلق عند السقف وقد تدلت منها خيوط معدنية اللون تشبه أهداب قنديل البحر.

قال هوبي بصوت مرتفع مبتهج: «لدينا زائر أتى لرؤيتك يا بيبا».

رأيت الغطاء يتحرّك قليلاً. ورأيت مرفق ذراع يبرز من تحته وسمعت صوتاً ناعساً يقول: «ممم؟».

«الغرفة مظلمة يا عزيزتي. ألن تسمحي لي بفتح الستائر؟».

«لا، أرجوك، لا تفتحها. الضوء يؤذي عينيّ».

كانت أصغر حجماً مما تذكرتها؛ وكان وجهها ـ الغائم في الظلمة ـ

شديد البياض. كان شعر رأسها محلوقاً باستثناء خصلة واحدة في غرّتها. وعندما اقتربت منها، متهيباً بعض الشيء، رأيت لمعة شيء معدني عند صدغها. ظننته مشطاً أو مشبك شعر قبل أن أدرك أنه مجموعة مشابك طبية معدنية فوق أذنها.

قالت بصوت واهن منخفض وهي تنقل نظراتها مني إلى هوبي: «سمعتك في الممر».

سألها هوبي: «ماذا سمعت يا حمامتي؟».

«سمعتك تتكلّم. كوزمو سمعك أيضاً».

لم أر الكلب أول الأمر، ثم رأيته ـ كلب رمادي من نوع تيرير متجمّع على نفسه إلى جانبها وسط الوسائد والدمى القماشية. عندما رفع رأسه، أدركت من خطمه المنقَّط وعينيه الغائمتين المبيضتين أنه عجوز جداً.

قال لها هوبي وهو يمد يده ليداعب رأس الكلب: «ظننتك نائمة يا حمامتي».

قالت وهي ترفع رأسها وتنظر إليَّ: «أنت تقول هذا دائماً، لكني مستيقظة دائماً».

«مرحباً!».

«من أنت؟».

«اسمي ثيو».

«ما هي الموسيقى المفضّلة لديك؟».

«لست أدري». ثم قلت، حتى لا أبدو غبياً: «بيتهوفن».

«هذا شيء عظيم. يوحي مظهرك بأنك تحب بيتهوفن».

أجبتها وقد طغت عليّ مشاعري: «هل أبدو كذلك؟».

«عنيت هذا بطريقة لطيفة. أنا غير قادرة على الاستماع إلى الموسيقى بسبب رأسي. إنها تؤلمني كثيراً. لا...». وجّهت كلمتها الأخيرة إلى هوبي الذي كان يرفع الكتب وعلب الشاش والمناديل الورقية عن كرسي

إلى جانب السرير حتى أجلس عليه... «دعه يجلس هنا...». ثم قالت لي وهي تتحرّك قليلاً في السرير حتى تفسح لي مكاناً... «يمكنك أن تجلس هنا».

ألقيت نظرة سريعة باتجاه هوبي حتى أتأكد من أن لا ضرر من جلوسي إلى جانبها، ثم جلست على حافة السرير حذراً. حرصت أيضاً على عدم إزعاج الكلب الذي نظر إليَّ غاضباً.

نظرت إلي بعينين ناعستين: «لا تقلق. لن يعضّك. الحقيقة أنه يعض أحياناً...». ثم قالت... «إنني أعرفك».

«هل تتذكرينني؟».

«هل أنت من أصدقائي؟».

قلت من غير تفكير: «نعم». ثم التفتّ إلى هوبي محرَجاً لأنني كذبت.

«نسيت اسمك. إنني آسفة. لكني أتذكّر وجهك». راحت تداعب رأس الكلب، ثم قالت: «لم أتذكّر غرفتي عندما أتيت إليها. تذكرت سريري وتذكرت أشيائي كلها، لكن الغرفة كانت مختلفة».

الآن، بعد أن اعتادت عيناي الظلام، رأيت في زاوية الغرفة كرسياً ذا عجلات، ورأيت زجاجات الأدوية على الطاولة إلى جانب السرير.

«ما الذي تحبه لدى بيتهوفن؟».

«آآ...». كنت أنظر إلى ذراعها المستريحة فوق اللحاف... الجلد الناعم على باطن ذراعها، واللصاقة الطبية في باطن مرفقها.

كانت تحاول النهوض قليلاً في السرير وتنظر إلى ما خلفي، إلى هوبي الذي بدا مثل ظلٍّ قاتم واقف بالباب المُضاء. قالت: «لا يجوز أن أتكلّم كثيراً، أليس كذلك؟».

«لا يجوز يا حمامتي».

قالت: «لا أظن أنني متعبة كثيراً. لكني لست واثقة. وأنت، هل تتعب خلال النهار؟».

«أتعب أحياناً...». بعد موت أمي، صار عندي ميل إلى النوم في صف المدرسة، وصرت أغفو قليلاً في غرفة آندي بعد عودتنا... «لكني لم آلف ذلك».

«وأنا لم آلفه أيضاً. صرت الآن أحسّ نعاساً طيلة الوقت. ولا أعرف السبب! أظنه شيئاً مضجراً كثيراً».

لاحظت أن هوبي، الذي كان ينظر خلفه في الممر المنار، قد ابتعد لحظة. وعلى الرغم من أنني لم أكن على الإطلاق شخصاً يتصرّف هكذا، فقد أحسست دافعاً شديداً ـ لسبب غريب ـ يحدوني إلى الإمساك بيدها. وبما أننا صرنا وحيدين، فقد فعلت.

سألتها: «هل يزعجك هذا؟». بدا كل شيء بطيئاً كأنني أتحرّك في مياه عميقة. كان أمراً غريباً تماماً أن أمسك يد شخصٍ ـ يد فتاة ـ لكنه بدا أمراً طبيعياً... لست أدري كيف. لم أفعل شيئاً كهذا من قبل.

«لا، هذا لطيف». وبعد صمت قصير سمعت خلاله شخير الكلب، قالت لي: «هل يزعجك أن أغمض عيني بضع ثوانٍ؟».

أجبتها: «لا». وجرى إبهام يدي فوق أصابعها متتبعاً عظامها.

«أعرف أن هذا ليس لطيفاً، لكني مضطرة إليه».

نظرت إلى جفنيها المطبقين وشفتيها المتقشّرتين، وإلى شحوبها وكدماتها والعلامة المعدنية القبيحة فوق أذنها. جعلني هذا المزيج الغريب بين ما كان يشدني إليها وما كان جديداً في مظهرها أحس شيئاً من الدوار والحيرة.

التفتّ إلى الخلف فرأيت هوبي واقفاً عند الباب. سرتُ على رؤوس أصابعي فخرجت إلى الممر وأغلقت الباب من خلفي بكل هدوء. أراحني أن الممر كان مظلماً.

عدنا معاً إلى الردهة. قال لي بصوت خفيض لا يكاد يُسمع: «كيف ترى حالتها؟».

كيف أجيب على هذا السؤال؟ قلت له: «لا بأس، على ما أظن».

«لم تعد هي نفسها...». توقّف عن الكلام، وبدا تعساً. دسّ يديه عميقاً في جيوب ردائه... «هكذا الأمر... إنها هي، وليست هي. ما عادت تعرف أشخاصاً كثيرين كانوا قريبين منها فصارت تتكلّم معهم بطريقة رسمية جداً. لكن تجدها أحياناً شديدة الانفتاح مع أشخاص غرباء، وتجدها أَلوفاً تحب الكلام... أشخاص لم ترهم من قبل، لكنها تعاملهم كما لو أنهم أصدقاء قدامى. قيل لي إن هذا أمر يحدث كثيراً».

«لماذا لا يجوز أن تستمع إلى الموسيقى؟».

رفع حاجبيه: «أوه، إنها تستمع إلى الموسيقى بعض الأحيان، وأما في أحيان أخرى، في وقت متأخر من النهار، فإن الموسيقى تحزنها ـ تفكّر في أن عليها أن تتمرّن، وأن تحضّر مقطوعة من أجل المدرسة. وهذا ما يجعلها حزينة متوترة. إنه وضع صعب. من الممكن تماماً أن تتوصل في يوم من الأيام إلى العزف على مستوى الهواة، لا أكثر. أو... هكذا قالوا لي».

وعلى نحو مفاجئ تماماً، رن جرس الباب فأجفلنا معاً.

قال هوبي وقد بدا مكروباً ونظر في ساعة يده التي بدت لي ساعة قديمة بالغة الجمال: «آه... إنها ممرضتها».

نظر كل منا إلى الآخر. لم نفرغ من الكلام؛ وما زال لدينا الكثير مما نقوله.

رن الجرس من جديد. جاءنا نباح الكلب عبر الممر. قال هوبي: «لقد وصلت مبكرة»، ثم أسرع في اتجاه الباب. بدا لي حزيناً يائساً.

«هل أستطيع المجيء مرة أخرى؟... حتى أراها؟». توقّف وقد بدا عليه الفزع لأنني طرحت هذا السؤال أصلاً. قال لي: «لكن، بالطبع يمكنك أن تأتي. عد مرة أخرى، من فضلك...».

رن جرس الباب مرة جديدة.

قال هوبي: «تعال في أي وقت تراه مناسباً. من فضلك. يسعدنا دائماً أن نراك».

3

سألني آندي عندما كنا نرتدي ثيابنا للخروج إلى العشاء: «إذاً، ما الذي جرى هناك؟ هل كان الأمر غير طبيعي؟». كان شقيقه بلات قد غادر لكي يسافر بالقطار عائداً إلى جامعته. وكانت السيدة باربر تتناول عشاء مبكراً مع مجلس إحدى الجمعيات الخيرية. وأما السيد باربر، فسوف يأخذ البقية لتناول العشاء في نادي اليخوت (لا نذهب إليه إلا عندما يكون لدى السيدة باربر شيء آخر تفعله).

«إنه يعرف أمك، ذلك الرجل».

كان آندي يعقد ربطة عنقه. نظر إليَّ مكشّراً بعض الشيء: الجميع يعرف أمه.

قلت: «كان الوضع غريباً بعض الشيء. لكن من الحسن أنني ذهبت». أخرجت الهاتف من جيبي وقلت له: «خذ. أشكرك لأنك أعرتني هاتفك».

تفقد آندي الرسائل، ثم أقفله ووضعه في جيبه. توقّف لحظة وكانت يده لا تزال في جيبه. رفع رأسه لكنه لم ينظر إلي.

قال على نحو غير متوقع: «أعرف أن الأمور سيئة. يؤسفني أن أمورك مضطربة كلها الآن».

لكن صوته المسطح من غير تعبير كما يكون الصوت الآلي في الهاتف منعني لحظة من إدراك ما قاله لي.

«لقد كانت شديدة اللطف». قال هذا من غير أن ينظر إلي حتى تلك اللحظة... «أعني...».

قلت متمتماً: «صحيح، لا بأس». كنت غير راغب في متابعة هذا الحديث.

قال آندي وقد قابل عينيَّ بنظرة مذعورة بعض الشيء: «أعني أنني اشتقت إليها. إنها المرة الأولى التي يموت فيها شخص أعرفه. صحيح، لقد مات جدي فاندربلين. لكن، لم يمت أحد أحبه».

لم أقل شيئاً. كانت لدى أمي نقطة ضعف دائمة تجاه آندي. وكانت تعرف كيف تحدّثه عن محطة الأرصاد الجوية التي أقامها في بيته، وتناكفه في ما يتصل بالدرجات التي يحرزها في لعبة المعارك الفضائية إلى أن يحمرّ لونه كله لشدة سروره. كانت شابة، مرحة، محبّة للمزاح، حنوناً... كانت كل شيء لم تكنه أمه: كانت أمّاً تلعب معنا بقرص الفريزبي في الحديقة، وتناقش معنا أفلام الزومبي، وتسمح لنا بالاستلقاء في سريرها صباحات يوم الأحد فنأكل لاكي *تشارمز* ونشاهد أفلام الرسوم المتحركة. وكان يزعجني أحياناً ـ يزعجني قليلاً ـ كم يصير آندي أحمق شديد السعادة في حضورها فيجري خلفها مجعجعاً بشيء ما عن المستوى الرابع في لعبة يلعبها غير قادر على إبعاد عينيه عن مؤخرتها عندما تنحني لتأخذ شيئاً من البراد.

قال آندي بصوته الذي يبدو على الدوام بعيداً: «كانت ألطف الناس. هل تتذكّر يوم أخذتنا بالباص إلى تجمّع أنصار أفلام الرعب في مكان بعيد في نيوجرسي؟ وهل تتذكّر ذلك التافه الذي كان اسمه ريب عندما ظل يلاحقنا هنا وهناك محاولاً إقناعها بأن تشارك في فيلم عن مصاصي الدماء؟».

كنت أعرف أنه لا يقصد سوءاً. لكني كنت أجد أي كلام عن أي شيء له علاقة بأمي، أو بـ«ما قبل موتها» شيئاً يكاد يكون غير محتمل. أشحت بوجهي بعيداً.

تابع آندي بصوته الواهن المزعج: «لا أظنه كان شخصاً يعمل في مجال أفلام الرعب. بل أعتقد بأنه كان نوعاً من هؤلاء الفيتيشيين. تلك الزنزانات المليئة بفتيات مقيَّدات إلى طاولات مختبرية كانت كلها شيئاً شديد الشبه بتلك الأفلام الإباحية الشاذة التي فيها استرقاق للنساء. هل تتذكّر كيف راح يرجوها أن تجرب أسنان مصاص الدماء التي كانت معه؟».

«نعم. كان ذلك عندما ذهبت لكي تشكوه إلى الحارس الأمني».

«بنطلون جلد. وكل تلك الوشوم والثقوب. أعني... أنت تعرف... لعله كان يصنع فيلماً عن مصاصي الدماء، لكن من المؤكد أنه شخص منحرف تماماً... هل لاحظت ذلك؟ هل لاحظت الابتسامة الخبيثة؟ وهل لاحظت كيف كان مصراً على محاولة النظر عبر فتحة بلوزتها؟».

رفعت إصبعي الأوسط في وجهه وقلت له: «هيا بنا، إنني جائع».

«أوه، حقاً؟».

كنت قد فقدت تسعة أو عشرة باوندات منذ موت أمي ـ انخفاض وزن كان كافياً لجعل السيدة سوانسون (كانت محرَجة!) تبدأ قياس وزني في مكتبها على الميزان الذي تستخدمه من أجل الفتيات اللواتي لديهن اضطرابات في الأكل.

«ماذا؟ ألست جائعاً؟».

«بلى، لكني ظننت أنك تراقب وزنك كما تفعل البنات حتى لا يكون فستان حفلة التخرج ضيقاً عليك».

شتمته شتيمة مقذعة (لكن بروح ودية)، ثم فتحت الباب فكدت أصطدم بالسيد باربر الذي رأيته واقفاً خلف الباب مباشرة... لعله كان يسترق السمع، أو لعله كان موشكاً على قرع الباب... يصعب التحديد!

كان موقفاً مخزياً، فبدأت أتأتئ ـ كانت تلك الشتائم مخالفة خطيرة للقواعد المتبعة في بيت أسرة باربر ـ لكن السيد باربر لم يظهر انزعاجاً كبيراً.

قال بصوت جاف وهو ينظر من فوق رأسي: «هيا يا ثيو! يسعدني حقاً سماع أنك صرت تشعر بتحسّن حالتك. هيا الآن، ولنذهب إلى المطبخ».

4

خلال الأسبوع الذي أعقب ذلك، لاحظ الجميع أن شهيتي قد تحسّنت، حتى تودي الصغير لاحظ ذلك. سألني ذات صباح بطريقة فضولية: «هل أنهيت إضرابك عن الطعام؟».

«تودي، اهتم بطعامك».
«لكني أظن أن اسمه هكذا. عندما يمتنع الناس عن الأكل».
قالت كيتزي بنبرة باردة: «لا، لأن الإضراب عن الطعام هو ما يفعله الناس في السجن».
قال لها السيد باربر بنبرة تحذيرية: «يا قطة!».
قال تودي وهو ينقل نظراته الحانقة بين أبويه غير المهتمين محاولاً جعلهما يشاركانه رأيه: «نعم، لكن أكل البارحة ثلاث قطع من الوافل. أنا أكلت اثنتين فقط. وهذا الصباح، أكل طبقاً من حبوب الإفطار مع ست قطع من اللحم، لكنكم قلتم إن خمس قطع من اللحم كثيرة علي! لماذا لا أستطيع أكل خمس قطع؟».

5

قال لي الطبيب النفسي ديف عندما أغلق باب مكتبه وجلس على كرسي قبالتي: «حسناً، مرحباً، تحياتي». كانت في مكتبه بسط قماش ورفوف مليئة بكتب دراسية (المخدرات والمجتمع؛ علم نفس الطفل: مقاربة جديدة). وكانت فيه ستائر بنية تنفتح مهمهمة عندما يضغط المرء على مفتاح كهربائي.
ابتسمت مرتبكاً وعيناي تجولان في الغرفة كلها... نخلات صغيرة مزروعة في أصص، وتمثال برونزي لبوذا (قد يشبه أي شيء، إلا بوذا).
«إذاً...». ضجيج حركة السير الخافت الآتي من الجادة الأولى جعل الصمت بيننا يبدو متسعاً كالمسافات بين المجرّات... «كيف هي الأحوال؟». كنت أخشى جلساتي مع ديف: محنة تتكرّر كل أسبوع وتكاد تكون أصعب من جراحة الأسنان. كنت أشعر بالذنب لأنني لم أفلح في حبه، ولو قليلاً، بعد كل الجهد الذي بذله، فهو يسألني دائماً عن الأفلام التي أستمتع بها، وعن الكتب، وينسخ لي أقراصاً مدمجة، ويقتطع مقالات من مجلة مهتمة بالألعاب يظن أنها قد تثير اهتمامي - بل

كان يأخذني أحياناً إلى مطعم لتناول الهامبرجر ـ لكني أتجمّد، أتيبّس، كلما بدأ يطرح أسئلته، كما لو أن أحداً دفع بي إلى خشبة المسرح من غير أن أحفظ كلمة واحدة من المسرحية.

«يبدو لي اليوم أن ذهنك شارد بعض الشيء».

«اممم...». لم تفتني ملاحظة أن عدداً من الكتب على الرف تحمل عناوين فيها كلمة «جنس: *الجنسانية عند المراهقين*، *الجنس والإدراك*، *أنماط الانحراف الجنسي*...». والكتاب الذي أفضله: *خارج الظلال: فهم الإدمان الجنسي*... «إنني بخير، على ما أظن».

«على ما تظن؟».

«لا، إنني بخير. أموري جيدة».

«أوه، حقاً؟...». استوى ديف في كرسيه فصدرت فرقعة عن حذائه الرياضي... «هذا ممتاز. لماذا لا تضعني في صورة ما يجري؟».

حككت حاجبي، وأدرت وجهي، ثم قلت: «أوه... لا تزال اللغة الإسبانية صعبة جداً. ولا يزال يتعيّن عليَّ إجراء اختبار تعويضي من الممكن أن يكون يوم الاثنين. لكني نلت درجة تامة في تقرير عن ستالينغراد. والظاهر أن درجاتي المتواضعة في التاريخ سترتفع قليلاً».

ظلّ ديف هادئاً زمناً طويلاً وهو ينظر إلي، ثم بدأت أشعر بأنني محاصر ففتشت عن شيء آخر أقوله له.

وعندها سألني: «أي شيء آخر؟».

«حسناً...». نظرت إلى يدي.

«وكيف صار قلقك وتوترك؟».

أجبته: «الوضع ليس سيئاً». رحت أفكر في أن عدم معرفتي أي شيء عن ديف يجعلني غير مرتاح على الإطلاق. كان واحداً من أولئك الأشخاص الذين يضعون خاتم زواج من النوع الذي لا يبدو خاتم زواج ـ أو، لعله ليس خاتم زواج على الإطلاق... ولعله شديد الاعتزاز

بأصله الإيرلندي. لو أردت التخمين لقلت إنه متزوج حديثاً، ولديه طفل رضيع... إن له مظهر أب شاب مرهق كأنه كان مضطراً إلى الاستيقاظ ليلاً حتى يغير حفاضات ابنه. لكن، من يدري؟

«وماذا عن أدويتك؟ ماذا عن آثارها الجانبية؟».

حككت أنفي: «أوه... أفضل، على ما أظن». كنت قد توقّفت عن تناول الأدوية لأنها تجعلني مرهقاً وتصيبني بالصداع فرحت أرميها في مصرف الحمام.

ظل ديف صامتاً بعض الوقت: «إذن... هل يكون صحيحاً القول إنك صرت أحسن، بشكل عام؟».

أجبته بعد فترة صمت كنت فيها أنظر إلى الجدار الذي خلفه: «أظن أن هذا صحيح». بدا لي ذلك الجدار أشبه بمِحسَب غير متوازن مصنوع من كرات طينية وحبال فيها عقد... أحسست بأنني أمضيت قسماً كبيراً من حياتي، في الآونة الأخيرة، محدّقاً في ذلك المحسب.

ابتسم ديف وقال: «أنت تقول هذا كما لو أنه شيء ينبغي الخجل منه. لكن شعورك بأنك صرت في حال أفضل لا يعني أنك نسيت أمك، ولا يعني أيضاً أن حبك لها قد تراجع».

نفّرني هذا الافتراض الذي لم يخطر في ذهني أبداً، فحوّلت نظري عنه وتركته يمتد عبر النافذة إلى ذلك المشهد الكئيب، مشهد بناية بيضاء من حجارة قرميدية على الناحية الأخرى من الشارع.

«هل لديك أية فكرة عن السبب الذي يجعلك تشعر بالتحسن؟».

أجبته باقتضاب: «لا، في الحقيقة... لا». بل إن كلمة «*أفضل*» لم تكن كلمة مناسبة لوصف إحساسي. ما من كلمة لوصف ذلك الإحساس. شيء مؤلَّف من أمور صغيرة جداً، أصغر من أن تُذكر ـ الضحك في ممر المدرسة، وسحلية حية تجري في صندوق في مختبر العلوم ـ جعلتني أحس بنفسي سعيداً ثم راغباً في البكاء بعد لحظة واحدة فقط. أحياناً، في

الأماسي، تهب ريح رطبة فيها رمل وتراب فتعصف بالنوافذ وتهاجمها من ناحية بارك آفينيو، تماماً عندما يبدأ انخفاض زحمة السير وفراغ شوارع المدينة استعداداً لليل. كان طقساً ماطراً... أشجار بدأت تكتسي أوراقاً، وربيع يتحوّل إلى صيف؛ وصراخ أبواق السيارات البائس آتياً من الشارع، ورائحة رطوبة متصاعدة من الأرصفة المبتلّة أحس كما لو أن فيها جاذبية كهربائية، وإحساس بأعداد كبيرة من الناس وبسكرتيرات جامدات وحيدات ورجال بدينين حاملين معهم حقائب لأعمال يتابعونها في البيت... وفي كل مكان حزن أخرق عند مخلوقات تتدافع وتصارع حتى تعيش. مرّت عليَّ أسابيع كنت فيها متجمّداً، معزولاً عن كل شيء؛ والآن، أدخل الحمام وأفتح ماء الدوش إلى أقصاه، ثم أبكي صامتاً. كان كل شيء بارداً فجّاً، مؤلماً، مربكاً، خاطئاً، لكنني صرت أحس، كمن أخرجوه من مياه متجمّدة عبر فتحة في الجليد فوضعوه في برد ملتهب تحت الشمس.

قال ديف محاولاً التقاط نظرة عيني: «أين ذهبتَ الآن؟».

«عفواً؟».

«ما الذي كنت تفكّر فيه؟».

«لا شيء».

«أوه، حقاً. من الصعب جداً ألا يفكر المرء في أي شيء على الإطلاق».

هززت كتفي. لم أخبر أحداً غير آندي عن ذهابي بالباص إلى بيت بيبا، فلوّن هذا السر كل شيء كما يفعل ألقٌ متبقٍّ من حلم: زهور مصنوعة من مناديل ورقية، وضوء خافت من شمعة تذوب وتسيل، وحرارة دبقة من يدها تحت يدي. لكن، على الرغم من أن ذلك كان أكثر ما حدث لي منذ وقت طويل أثراً وامتلاكاً لمعنى حقيقي، فإنني لم أكن راغباً في إفساده بأن أتكلم عنه... مع ديف خاصة.

ظللنا برهة طويلة جالسين من غير أن نقول شيئاً. ثم مال ديف في

اتجاهي وقد اكتسى وجهه تعبير قلق. قال لي: «هل تعرف يا ثيو عندما أسألك عمّا كنت تفكّر فيه خلال فترات الصمت هذه فإنني لا أحاول أن أكون مزعجاً لك ولا أن أحاسبك على أي شيء».

قلت مرتبكاً: «أوه، بالتأكيد! أعرف هذا». كانت أصابعي تعبث بالنسيج الذي يغلف ذراع الأريكة.

«إنني هنا حتى نتحدّث في أي شيء تجد نفسك راغباً في الحديث عنه. أو...». صرّ خشب الكرسي عندما غيّر جلسته عليه... «وإلا فما من حاجة إلى حديثنا على الإطلاق! لقد تساءلت فقط عما كنت تفكر فيه».

أجبته بعد لحظة صمت طويلة أخرى كنت فيها أقاوم إغراء إلقاء نظرة جانبية على الساعة: «نعم... أعني أنني... فقط...» كم دقيقة بقي لدينا؟ أربعون؟

قال عندما لم أجبه بشيء: «أقول هذا لأنني أسمع من أشخاص كبار في حياتك أنك تحسّنت تحسناً ملحوظاً في الآونة الأخيرة. لقد ازدادت مشاركتك في الصف، وصرت اجتماعياً أكثر. عدت تأكل وجبات طبيعية...». جاء في ذلك الهدوء صوت سيارة إسعاف عابرة... «ولهذا أظنك قادراً على مساعدتي في فهم ما تغيّر».

رفعت كتفيَّ حائراً، ثم حككت جانب وجهي. كيف يستطيع المرء أن يشرح هذا النوع من الأشياء؟ بدت محاولة ذلك أمراً غبياً. بل إن الذكرى نفسها بدأت تبدو لي غائمة بعيدة كالنجوم، كأنها شيء غير واقعي، مثلما يحدث للأحلام عندما تغدو تفاصيلها أكثر خفوتاً كلما أزداد المرء إلحاحاً على محاولة تذكرها. الإحساس هو ما له أهمية أكبر، ذلك التيار الحلو الغني الذي يهيمن على كل شيء، في الصف، وفي باص المدرسة، وعندما أستلقي في فراشي محاولاً التفكير في شيء مفرح آمن، في حالة أو محيط يجعل صدري غير منقبض قلقاً وتوتراً... في تلك اللحظات، ما كان عليَّ فعل شيء غير أن أغرق في ذلك التيار الدافئ ـ كالدم ـ وأترك له

أن يجرفني إلى ذلك المكان السري حيث كان كل شيء صحيحاً. جدرانٌ بلون القرفة، ومطر على زجاج النوافذ، وهدوء فسيح كذلك الورنيش في خلفية لوحة من القرن التاسع عشر. بساط مهترئ بانَت خيوطه، ومراوح يابانية ملوّنة، وبطاقات الفالنتاين العتيقة تتراقص في ضوء شمعة، ومهرّجون صغار وحمائم وقلوب تتوجها أزهار. وجه بيبا الشاحب في الظلام.

6

قلت لآندي بعد عدة أيام من ذلك ـ كنا خارجَيْن من ستاربكس بعد المدرسة: «اسمع! هل يمكنك التغطية علي اليوم خلال فترة بعد الظهر؟».

أجابني آندي وهو يأخذ جرعة شرهة من فنجانه: «بالتأكيد، ما المدة؟».

«لا أدري». هذا يعتمد على الزمن الذي يستغرقه تغيير المترو في الشارع رقم أربعة عشر. وقد تلزمني خمس وأربعون دقيقة حتى أبلغ قلب المدينة؛ وأما الذهاب بالباص، في يوم عمل، فسوف يستغرق زمناً أكثر من ذلك... «ما رأيك في ثلاث ساعات؟».

كشر آندي قليلاً. إذا كانت أمه في البيت فسوف تطرح أسئلة. سألني: «ماذا أقول لها؟».

«قل لها إنني اضطررت إلى البقاء في المدرسة حتى وقت متأخر، أو أي شيء».

«ستظن أن لديك مشكلة في المدرسة».

«ومن يبالي؟».

«صحيح، لكني لا أريد أن تتّصل أمي بالمدرسة وتسأل عنك».

«قل لها إنني ذهبت إلى السينما».

«ستسألني لماذا لم أذهب معك أيضاً. لماذا لا أقول لها إنك تقرأ في المكتبة».

«هذه رواية ضعيفة جداً».

«إذاً، لا بأس. لماذا لا نقول لها إن لديك أمر مستعجلاً كثيراً مع الشرطي المكلف بمتابعة وضعك. أو نقول لها إنك عرّجت لكي تتناول كأسين من الشراب في بار فندق الفصول الأربعة؟».

كان يقلد والده؛ وكان الانطباع الذي أعطاه صحيحاً تماماً، فضحكت وأجبته بصوت السيدة باربر: «هذا رائع!...». ثم أضفت... «مضحك جدّاً».

هز كتفيه وقال بصوته الخافت الخالي من أي تلوين: «الفرع الرئيسي لديهم يعمل الليلة حتى السابعة. لكني لست مضطراً إلى معرفة الفرع الذي ذهبت إليه... لأنك نسيت أن تقول لي ذلك».

7

فتح الباب بأسرع مما توقعت بينما كنت أنظر إلى الشارع مفكّراً في أمر آخر. كان هذه المرة حليق الذقن فائحاً برائحة الصابون، وكان شعره الرمادي الطويل مسرّحاً بعناية ومصففاً خلف أذنيه. كان ملبسه يثير انطباعاً قوياً مثلما كان ملبس السيد بلاكويل عندما رأيته.

ارتفع حاجباه. من الواضح أنه فوجئ برؤيتي.

«مرحباً!».

«هل أتيت في وقت غير مناسب؟». قلت هذا وأنا أنظر إلى ثنية قميصه الأبيض كبياض الثلج؛ كانت كتابة بلون أحمر مطرزة عليها... مجموعة حروف صغيرة مزخرفة لا تكاد ترى.

«لا، على الإطلاق. الحقيقة أنني كنت آمل أن تأتي إلينا». كانت ربطة عنقه حمراء اللون عليها رسم أصفر باهت؛ وكان حذاؤه أسود جلدياً؛ وقد ارتدى بدلة زرقاء جميلة التفصيل... «ادخل من فضلك!».

نظرت إليه خجلاً، ثم قلت له: «هل أنت ذاهب إلى مكان؟». جعلته تلك البدلة يبدو شخصاً مختلفاً أقل كآبة وتشوّشاً، وأكثر قدرة. كان مختلفاً عن هوبي الذي رأيته في زيارتي الأولى، هوبي بمظهره المشعث، مظهر دب قطبي أنيق رائع لكنه يمرّ بوقت عصيب.

«الحقيقة... نعم. لكن، ليس الآن. بصراحة تامة إننا في عجلة من أمرنا، لكن، لا يهم».

ما معنى هذا؟ تبعته إلى داخل البيت عبر غابة الورشة وقوائم الطاولات والكراسي ثم صعدنا إلى الردهة ذات الإضاءة الخافتة، ومنها إلى المطبخ حيث كان الكلب كوزمو يذرع الأرض بخطوات عصبية ويصدر صوتاً كالبكاء ومخالبه تنقر الأرض.

تراجع بضع خطوات عندما دخلنا ونظر إلينا نظرة عدائية.

سألته وأنا أركع إلى جانبه وأمسّد على رأسه: «لماذا هو هنا؟». ثم سحبت يدي عنه عندما رأيته ينكمش ويبعد رأسه عني.

قال هوبي: «ماذا؟». بدا لي منشغل البال.

«أسألك عن كوزمو. ألا يحب أن يكون معها؟».

«آوه... عمّتها! إنها لا تريده هناك».

كان يملأ غلاية الشاي. لاحظت أن الغلاية تهتز في يده.

«عمّتها؟».

أجابني وهو يضع الغلاية على النار ثم يتوقّف ليداعب رأس الكلب: «نعم، عمّتها. أيها الأحمق المسكين...». بدأ يخاطب الكلب... «أنت لا تفهم ما يجري، أليس كذلك؟...». ثم عاد إلي... «إن لدى مارغريت آراء متشدّدة فيما يتعلّق بوجود الكلاب في غرف المرضى. لا شك في أنها محقّة. وها أنت هنا...». قال هذا وهو يلقي عليَّ نظرة غريبة... «ها قد أتيت من جديد. كانت بيبا تتحدّث عنك منذ أن كنت هنا في المرة الماضية».

سألته مسروراً: «حقاً؟».

«أين هو ذلك الصبي؟ كان لدينا صبي هنا. قالت لي بالأمس إنك ستأتي مرة أخرى. إنك ستأتي سريعاً». قال هذا بضحكة دافئة بدت لي أشبه بضحكة شخص صغير السن... «وها أنت هنا».

كان واقفاً وركبتاه تئنان من تحته. مسح حاجبه الأبيض المشعث بظهر يده وقال: «إذا انتظرت قليلاً، يمكنك الدخول لرؤيتها».

«كيف حالها؟».

ردّ بسرعة من غير أن ينظر في اتجاهي: «تحسّنت كثيراً. وقد حدثت أمور كثيرة. ستأخذها عمّتها إلى تكساس».

جعلتني المفاجأة أصمت لحظة قلت بعدها: «تكساس؟».

«نعم».

«متى؟».

«بعد غد».

«لا!».

ظهرت على وجهه تكشيرة صغيرة ـ مجرّد أثر اختفى لحظة رأيته. قال لي بصوت مبتهج غير متناسب مع لمحة الحزن التي أخفاها سريعاً: «نعم. إنني أحزم حوائجها استعداداً للسفر. أتى إليها أشخاص كثيرون. أصدقاء من المدرسة.... الحقيقة أن هذه هي الفترة الهادئة الأولى التي نحظى بها منذ فترة. كان أسبوعاً مزدحماً حقّاً».

«ومتى تعود من تكساس؟».

«الحقيقة... ستبقى هنالك زمناً، في واقع الأمر. ستأخذها مارغريت لتعيش معها».

«إلى الأبد؟».

«أوه، لا! ليس إلى الأبد». قال هذا بصوت جعلني أدرك أن عبارة *إلى الأبد* كانت ما عناه بالضبط... «ليس الأمر كما لو أن أحداً يغادر الكوكب...». أضاف هذا عندما رأى وجهي... «ومن المؤكد أنني سأسافر حتى أزورها هناك. من المؤكد أيضاً أنها ستأتي لزيارتي».

«لكن...». أحسست كما لو أن السقف قد سقط فوقي... «ظننت أنها تعيش هنا... معك».

«نعم، كانت تعيش معي. حتى الآن. لكني واثق من أنها ستكون أحسن حالاً في تكساس...». أضاف هذا من غير اقتناع كبير... «هذا تغير كبير بالنسبة إلينا جميعاً. لكني واثق من أنه تغير في اتجاه الأفضل... على المدى البعيد».

كان واضحاً لي من أنه لا يصدّق كلمة مما قاله لي. «لكن، لماذا لا يمكنها البقاء هنا؟».

تنهّد وقال: «مارغريت أخت ويلتي غير الشقيقة. إنها أخته الأخرى غير الشقيقة. وهي أول أقربائها الموجودين. على أية حال، إنها قريبتها بالدم، وأنا لست كذلك. ترى مارغريت أن بيبا ستكون أحسن حالاً في تكساس بعد أن تعافت قليلاً وصارت قادرة على السفر».

أجبته وقد تملّكني ذهول: «لا يمكن أن أرغب في العيش في تكساس! الحرارة شديدة هناك!».

قال هوبي وهو يمسح يديه: «ولا أظن أيضاً أن في تكساس أطباء جيدين مثل الذين هنا. لكني مختلف مع مارغريت في هذه النقطة».

جلس ونظر إلي، ثم قال: «تعجبني نظارتك».

«شكراً لك». ما كنت أريد الحديث عن نظارتي الجديدة التي كانت تطوراً غير مرحَّب به على الرغم من أنها ساعدتني ـ في حقيقة الأمر ـ على الرؤية بشكل أوضح. انتقت لي السيدة باربر إطار هذه النظارة من متجر إ. ب. ميروفيتز بعد أن أجرت لي ممرضة المدرسة اختباراً للنظر فتبين أن عندي مشكلة. كانت نظارة مدورة جميلة، وتبدو غالية الثمن وتمنحني مظهراً أكبر سناً. أشخاص كبار كثيرون بالغوا أشد المبالغة في التأكيد لي على أن مظهري في تلك النظارة كان رائعاً.

قال هوبي: «كيف هي الأمور هناك، حيث تقيم؟ لا يمكنك تخيّل ما أحدثته زيارتك من تغير هنا. في حقيقة الأمر، كنت أفكر في الذهاب لرؤيتك. والسبب الوحيد الذي جعلني لا أذهب هو أنني لا أحب أن أترك

بيبا... فهي مسافرة عمَّ قريب. حدث هذا بسرعة كبيرة، كما ترى. وهذا الأمر مع مارغريت، إنها مثل أبيها، مثل السيد بلاكويل العجوز ـ ما إن تضع شيئاً في رأسها حتى تنطلق، فيكون منجزاً».

«وهل سيذهب كوزمو معها إلى تكساس؟».

«أوه، لا... سيكون بخير هنا. لقد عاش في هذا البيت منذ إن كان عمره اثني عشر أسبوعاً».

«ألن يكون حزيناً؟».

«آمل ألا يكون كذلك. حسناً ـ بكل صدق ـ سوف يشتاق إليها. إن بيني وبينه صداقة قوية، على الرغم من التدهور الكبير منذ موت ويلتي. كان كلب ويلتي في حقيقة الأمر؛ ولم يعتد العلاقة مع بيبا إلا في الآونة الأخيرة. هل تعرف أن كلاب تيريير الصغيرة التي كان يقتنيها ويلتي ليست مولعة بالأطفال؟ لقد كانت تشيسي، أم كوزمو، مرعبة حقاً».

«لكن، لماذا يتعيّن على بيبا أن تذهب إلى تكساس؟».

قال وهو يفرك عينيه: «في الحقيقة... هذا هو الأمر المنطقي الوحيد، مارغريت هي أقرب الأشخاص إليها من بين أقاربها جميعاً. صحيح أن التواصل بين مارغريت وويلتي كان أمراً نادراً عندما كان ويلتي حياً... في السنوات الأخيرة على أقل تقدير».

«لماذا؟».

«الحقيقة أن...». كان واضحاً لي أنه غير راغب في تفسير الأمر... «الحالة معقّدة. لم تكن العلاقة بين مارغريت ووالدة بيبا جيدة على الإطلاق».

لحظة قوله تلك الكلمات الأخيرة، دخلت المطبخ امرأة طويلة حادّة الأنف تبدو عليها ملامح القوة والعزم. كانت في سن جدة صغيرة؛ لها وجه روماني حاد وشعر أحمر بلون الصدأ بدأ الشيب يظهر فيه. ذكّرني حذاؤها وملابسها بالسيدة باربر، لكن الألوان كانت مما لا يمكن أن ترتديه السيدة باربر على الإطلاق: أخضر ليموني!

نظرت إلي، ثم نظرت إلى هوبي وقالت بنظرة باردة: «ما هذا؟».
تنهّد هوبي بصوت مسموع وبدا عليه قدر من الاستياء: «لا مشكلة يا مارغريت. هذا هو الصبي الذي كان مع ويلتي عندما مات».
نظرت إليَّ من فوق نظارتها النصفية، ثم أطلقت ضحكة حادة مرتفعة، ضحكة شخص معتد بنفسه.
قالت لي: «لكن، مرحباً...». صارت في غاية اللطف على نحو مفاجئ تماماً ومدت إلي يدها المحمرّة النحيلة، الممتلئة خواتم ماسية... «أنا مارغريت بلاكويل بيرس. أخت ويلتي. أخته غير الشقيقة...». صحَّحَت وصفها لنفسها عندما رأتني أعبس قليلاً، وألقت نظرة سريعة في اتجاه هوبي... «أنا وويلتي لنا الأب نفسه، كما ترى. كانت أمي سوزي ديلافيلد».
قالت اسم أمها كما لو أن من المفروض أن يعني لي شيئاً. نظرت إلى هوبي علّني أفهم. رأتني أنظر إليه فالتفتت إليه التفاتة حادة قبل أن يعود انتباهها ـ المتألق ـ إليّ.
كانت نهاية أنفها الطويل وردية بعض الشيء. قالت لي: «أي صبي رائع بديع أنت! ما أسعدني برؤيتك. لقد أخبرني جيمس وبيبا بالكثير عن زيارتك ـ كانت أروع شيء. وكنا مسرورين بها غاية السرور ـ وأيضاً...». أطبقت يدها على يدي... «علي أن أشكرك من أعماق قلبي لأنك أعدت لي خاتم جدي. إنه يعني لي الكثير».
خاتمها؟ ومن جديد، نظرت حائراً إلى هوبي.
«لو كان أبي حيّاً لكانت عودة الخاتم قد عنت له الكثير أيضاً...». كان لطفها مقصوداً، محسوباً (لو كان السيد باربر موجوداً لقال: «إنه دلاءٌ من اللطف والسحر»)؛ لكن مسحة الشبه ذات اللون النحاسي التي كانت تجمعها بالسيد بلاكويل وبيبا جذبتني على الرغم منّي... «أنت تعرف كيف ضاع في المرة السابقة، أليس كذلك؟».

انطلق صفير غلاية الشاي فقال هوبي: «ألا تريدين كأساً من الشاي يا مارغريت؟».

أجابته بسرعة: «نعم، من فضلك، مع الليمون والعسل. ومع شيء من الويسكي أيضاً». ثم قالت لي بصوت أكثر وداً: «أنا في غاية الأسف... أخشى أن هنالك بضعة أمور من مشاغل الكبار يجب أن نهتم بها الآن. سوف نلتقي مع المحامي بعد قليل. سنذهب حال وصول ممرضة بيبا».

سعل هوبي سعلة خفيفة: «لا أرى أي ضرر في...».

لم أطق صبراً إلى أن ينهي جملته، فقلت: «هل أستطيع الدخول لرؤيتها؟».

أجابني هوبي مسرعاً قبل أن تتمكّن مارغريت من التدخّل: «بالطبع». استدار استدارة ذكية مبتعداً عنها وعن تعبير الانزعاج الذي ظهر على وجهها... «أنت تتذكّر الطريق، أليس كذلك؟ اسلك هذا الممر».

8

كان أول ما قالته لي: «هلا أطفأت الضوء من فضلك؟». كانت نصف جالسة في السرير، وفي أذنيها سماعتا الآيبود؛ وبدت لي غير واضحة في ضوء المصباح المرتفع الذي يعمي عينيها.

أطفأت النور. كانت الغرفة أقل امتلاء من ذي قبل؛ ورأيت صناديق من الورق المقوى مصفوفة عند الجدار. كان مطر ربيعي خفيف ينقر على زجاج النافذة. وفي الخارج، في الفناء المظلم، كانت شجرة إجاص مزهرة تلوح أزهارها كأنها زبد أبيض شاحب على خلفية الجدار القرميدي الرطب.

قالت لي وهي تشبك يديها فوق الغطاء: «مرحباً».

أجبتها: «مرحباً»... متمنياً لو أن صوتي بدا أقل خراقة.

«عرفت أنه أنت! سمعتك تتحدّث في المطبخ».

«حقّاً؟ وكيف عرفت أن هذا صوتي؟».

«أنا موسيقية! لديَّ أذنان حادّتا السمع».

بعد أن اعتادت عيناي الظلمة، رأيت أنها صار تبدو أقل هشاشة مما كانت في زيارتي السابقة. طال شعرها قليلاً، واختفت المشابك المعدنية فوق أذنها، لكن خط الجرح المجعد كان ظاهراً.

قلت لها: «كيف تجدين نفسك الآن؟».

ابتسمت: «نعسة...». كان النعاس بادياً في صوتها، خشناً حلو النهايات... «هل تزعجك المشاركة؟».

«مشاركة ماذا؟».

أدارت رأسها جانباً ونزعت إحدى السماعتين فناولتني إياها: «استمع».

جلست إلى جانبها على السرير ووضعت السماعة في أذني: نغمات أثيرية لا اسم لها، نغمات تدخل القلب كأنها إشارة لاسلكية من الفردوس.

نظر كل منا إلى الآخر. قلت لها: «ما هذا؟».

«ممم...». نظرت إلى الآيبود... «إنه بالسترينا»[1].

«أوه!». لكني لم أكن مهتماً بأن أعرف شيئاً عن تلك الموسيقى. كان السبب الوحيد الذي جعلني أسمعها هو ذلك الضياء الماطر، والشجرة البيضاء في النافذة، وصوت الرعد، وهي.

كان الصمت بيننا سعيداً غريباً، وكنا متّصلين بسلك السماعة وبتلك الأصوات الجليدية التي يتردّد صداها خافتاً. قالت لي: «لسنا مضطرَّيْن إلى الكلام إذا كنت غير راغب فيه...». كانت أجفانها ثقيلة، وصوتها نعساً كأنه سر من الأسرار... «الناس يريدون الكلام دائماً، أما أنا فأحب أن أكون صامتة».

قلت وقد صرت أنظر إليها عن قرب أكثر من السابق: «هل كنت تبكين؟».

---

(1) بالسترينا: مؤلف موسيقي إيطالي من عصر النهضة.

«لا. نعم... بكيت قليلاً».

بقينا جالسين، ولم نكن نقول شيئاً، ولم يكن لدي إحساس بالغرابة أو بعدم الراحة.

قالت فجأة: «عليَّ أن أرحل. هل عرفت بهذا؟».

«أعرف. لقد أخبرني».

«كان ذلك بشعاً. لا أريد الذهاب». كانت رائحتها ملحاً ودواء وشيئاً آخر يشبه رائحة شاي البابونج الذي كانت أمي تشتريه: رائحة عشبية حلوة.

قلت بشيء من الحذر: «تبدو عمّتك لطيفة، على ما أظن».

«على ما أظن...». رددت كلماتي متجهمة وجرى رأس إصبعها على امتداد غطائها... «قالت لي أشياء عن بركة سباحة، وعن خيول».

«لا بد أن هذا أمر لطيف».

رفرفت عيناها مرتبكتين: «ربما».

«هل تركبين الخيل؟».

«لا».

«ولا أنا. لكن أمي كانت تركب الخيل. كانت تحب الخيول. كانت تتوقف دائماً لكي تكلم الخيول التي تجر العربات في سنترال بارك. وكأن...». لم أعرف كيف أقول هذا... «كان هذا وكأن الخيول تكلّمها أيضاً. كانت تدير رؤوسها، على الرغم من الأغطية التي كانوا يضعونها على عيونها... تدير رؤوسها في اتجاهها».

قالت وجلة: «هل أمك ميتة أيضاً؟».

«نعم. أمي ميتة منذ...». توقّفت وفكّرت، ثم... «لا أستطيع التذكّر. ماتت بعد عطلة الربيع في المدرسة، ذات سنة. وهكذا تغيبت عن المدرسة طيلة العطلة، ثم أسبوعاً بعد العطلة أيضاً. كان من المفترض أن نذهب في رحلة إلى المتحف النباتي، لكني لم أستطع الذهاب. إنني أشتاق إليها».

«كيف ماتت؟».

«لقد مرضت. هل مرضت أمك أيضاً؟».

«لا. ماتت في حادثة».

وعند ذلك ـ غير راغب في المخاطرة بمزيد من التعمق في هذا الأمر، قلت لها: «لكنها كانت تحب الخيول كثيراً، أمي. كان لديها حصان في صغرها وقد أخبرتني أنه كان يشعر بالوحدة. كان يحب أن يقترب من البيت ويمرّر رأسه عبر النافذة حتى يرى ما يحدث في الداخل».

«ماذا كان اسمه؟».

«بينتبوكس». كنت أستمتع بما تحكيه لي أمي عن الإسطبلات التي كانت لديهم في كانساس: خفافيش وبومات تعيش في عوارض السقف، وصهيل الخيول وتنفّسها. كنت أعرف أسماء كل ما كان في طفولتها من خيول وكلاب.

«بينتبوكس! هل كانت له ألوان مختلفة كثيرة؟»[1].

«كان مبقعاً، نوعاً ما. رأيت صوراً له. أحياناً ـ في الصيف ـ كان يأتي إلى النافذة وينظر إليها وهي نائمة بعد الظهر. كانت تسمع صوت تنفسه لأنه يدخل رأسه بين الستائر.

«ما ألطف هذا! وأنا أحب الخيول. لكن الأمر... فقط...».

«ماذا؟».

«أفضّل البقاء هنا...». بدت لي فجأة كأنها موشكة على البكاء... «لا أعرف لماذا يجب أن أذهب».

«عليك أن تقولي لهما إنك تريدين البقاء». متى بدأت يدانا تتلامسان؟ لماذا كانت يدها حارة هكذا؟

«قلت لهما! لكن الجميع يرون أن من الأفضل أن أذهب».

«لماذا؟».

---

(1) بينتبوكس (Paintbox): علبة الطلاء أو علبة الألوان.

قالت عابسة: «لست أدري. قالوا إن المكان هناك أكثر هدوءاً. لكني لا أحب الهدوء؛ لا أحبه إلا عندما تصير الأصوات كثيرة جداً».

«سوف يجعلونني أرحل، أنا أيضاً».

رفعت نفسها قليلاً مستندة إلى مرفقها وقالت: «لا! متى؟». بدا عليها شيء من الذعر.

«لست أدري. أظن ذلك سيكون قريباً. عليَّ أن أذهب للعيش مع أهل أبي».

«أوه...». قالتها بتوق وهي تسقط على وسادتها... «ليس لدي جدّ ولا جدّة».

شبكت أصابعي بأصابعها: «جدي وجدتي ليسا لطيفَيْن».

«يؤسفني هذا».

قلت بصوت حاولت جعله طبيعياً قدر ما استطعت: «لا بأس». لكن قلبي كان ينبض عنيفاً فصرت أحس بنبضاته تتقافز في أطراف أصابعي. يدها، في يدي، كانت مخملية، حارة كأنها محمومة، دبقة قليلاً، قليلاً جداً.

«أليس لديك أقارب آخرون؟». كانت عيناها داكنتين كثيراً في ذلك الضوء الخافت القادم من النافذة. كانتا داكنتين إلى حد جعلهما سوداوين.

«لا. في الحقيقة...». هل لوجود أبي أية أهمية؟... «لا».

تلا ذلك صمت طويل. كنا لا نزال متصلَيْن عن طريق السماعات: واحدة في أذنها وواحدة في أذني. أصداف بحرية تغني. جوقات ملائكة ولآلئ. وفجأة صار كل شيء شديد البطء؛ كان ذلك كأني نسيت كيف أتنفّس فوجدت نفسي، مرة بعد مرة، أحبس أنفاسي ثم أطلقها متقطعة مرتفعة الصوت.

سألتها... فقط حتى أقول شيئاً: «ما اسم صاحب هذه الموسيقى الذي قلته لي؟».

ابتسمت ابتسامة ناعسة، ثم مدّت يدها إلى مصّاصة غير جذابة الشكل موضوعة فوق ورقة قصدير على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير.

وضعت المصاصة في فمها وقالت لي من حول عودها: «بالسترينا. معزوفة *القداس العالي*، أو شيء من هذا القبيل. كلها متشابهة».

قلت: «هل تحبينها؟ أقصد عمَّتك؟».

ظلّت تنظر على امتداد نبضات طويلة كثيرة. ثم أعادت المصاصة إلى مكانها بعناية وقالت: «تبدو لطيفة، أظن هذا. لكني لا أعرفها، الأمر غريب».

«فلماذا أنت مضطرة إلى الرحيل؟».

«الأمر متعلّق بالمال. لا يستطيع هوبي أن يفعل أي شيء ـ إنه ليس عمّي الحقيقي. وهي تطلق عليه اسم مدعي العمومة».

قلت: «ليته كان عمّك الحقيقي. أريدك أن تبقي هنا».

فجأة انتصبت في جلستها ثم طوّقتني بذراعيها و... قبلتني. غاض الدم من رأسي، غاض دفعة واحدة كأنني أسقط من جرف.

«أنا». أصابني الذعر.

وبنوع من فعل انعكاسي، في غمرة الدوار، مددت يدي لأمسح القبلة. لكني لم أمسحها لأنها دبقة، أو فاضحة... ظللت أحس بها متألقة على ظهر يدي.

«لا أريدك أن تذهبي».

«وأنا لا أريد ذلك».

«هل تتذكّرين أنك رأيتني؟».

«متى؟».

«قبل... مباشرة».

«لا».

قلت: «أنا أتذكّرك». وعلى نحو ما، وجدت يدي طريقها إلى وجنتها

فسحبتها مرتبكاً وألزمتها على البقاء ملتصقة بجانبي... شددت قبضتي، بل جلست عليها... «لقد كنتُ هناك». في تلك اللحظة، أدركت أن هوبي كان واقفاً بالباب.

«مرحباً يا حبّي». صحيح أن ذلك الدفء في صوته كان من أجلها، في أكثره، إلا أنني عرفت أن قسماً منه كان لي أنا... «قلت لك إنه سيعود».

قالت وهي تدفع بنفسها إلى الأعلى قليلاً: «لقد أخبرتني! إنه هنا».

«نعم، فهل ستصغين إليَّ في المرة القادمة؟».

«كنت مصغية إليك. كل ما في الأمر أنني لم أصدقك».

مسّت حاشية الستارة طوار النافذة. وسمعت غناء حركة السير في الشارع. كان إحساسي وأنا جالس على حافة سريرها أشبه بإحساس لحظة اليقظة بين الحلم وضوء النهار حيث يتداخل كل شيء ويختلط، تماماً كما لو أنه موشك على التغيّر، فيصير سائلاً، يصير بهجة منهمرة: نور ماطر، وبيبا جالسة، وهوبي واقف بالباب، وقبّلتها (بذلك الطعم الغريب لما أظن الآن أنه كان مصاصة مورفين) لا تزال دبقة على شفتيّ. لكني لست واثقاً من أن المورفين نفسه يمكن أن يكون سبباً في دوار تلك اللحظة... فكم كنت مدثَّراً بالسعادة الباسمة وبالجمال! كنت في نصف وعيي عندما تبادلنا كلمات الوداع (لم نتبادل وعوداً بالكتابة؛ بدا لي أنها عليلة إلى حد لا يسمح بذلك)، ثم صرت بالممر، والممرضة واقفة هناك، والعمة مارغريت تتكلّم بصوت مرتفع يثير ارتباكي، ويد هوبي المطمئنة على كتفي: ضغط قوي مريح كأنما هو مرساة تخبرني أن كل شيء بخير. لم أحس لمسة كهذه منذ أن ماتت أمي ـ لمسة ودود تجعلني ثابتاً وسط حوادث مربكة محيّرة ـ ومثلما يحس كلب ضال جائع إلى لمسة حنان، أحسست نوعاً من تحوّل عميق في انتمائي، تحول سرى بعيداً في دمي، واقتناع مفاجئ جعل عيني تفيضان، اقتناع بأن هذا المكان جيد، وبأن هذا الشخص آمن... يمكنني أن آمن له... لن يؤذيني أحد هنا.

صاحت العمة مارغريت: «آه... هل تبكي؟ هل ترين هذا؟...». كانت تخاطب الممرضة (ابتسمت لها الممرضة وأومأت برأسها توّاقة إلى إرضائها. من الواضح أنها كانت واقعة تحت تأثير سحرها)... «ما ألطف هذا! سوف تشتاق إليها، أليس كذلك؟». كانت ابتسامتها عريضة، واثقة من نفسها، واثقة من صوابيتها... «يجب أن تأتي لزيارتنا. ستأتي بالتأكيد. يسعدني دائماً أن أستقبل الضيوف. وأهلي... كان لديهم بيت من أكبر البيوت الجميلة في تكساس...».

واصلت ثرثرتها، ودودة كأنها ببغاء. لكن عواطفي كانت في مكان آخر. وظلّت نكهة قبلة بيبا ـ مرة حلوة غريبة ـ معي طيلة طريق عودتي متمايلاً نعساً في الباص الذي أعادني، ذائباً بين الحزن والسحر... وجَعٌ سماويٌّ رفعني عالياً فوق المدينة التي تعصف بها الريح... كأنني طائرة ورقية: رأسي بين الغيوم الماطرة، وقلبي في السماء.

9

كرهت التفكير في رحيلها. ما كنت أطيق التفكير في رحيلها. وفي يوم سفرها، استيقظت بقلب متألم حزين. نظرت إلى السماء فوق بارك آفينو، سماء زرقاء سوداء متوعِّدة كأنها واحدة من تلك السماوات المكفهرّة في لوحات كالفاري. تخيلتها تنظر إلى تلك السماء نفسها من نافذة طائرتها. سرت مع آندي إلى موقف الباص؛ العيون المسدلة إلى الأرض، وذلك الجو الرصين في الشارع انعكاس لحزني على رحيلها، ويضخّمه.

قال آندي بين عطستين: «نعم، تكساس مملّة، مملّة حقّاً». كانت عيناه محمرتين دامعتين نتيجة تحسسه الربيعي، وكان يبدو أشبه بفأر المختبرات أكثر منه في أي وقت آخر.

«هل ذهبت إلى تكساس؟».

«نعم ـ دالاس. عاش العم هاري والعمة تِس فيها بعض الوقت. لا شيء يفعله المرء هناك غير الذهاب إلى السينما، ثم إنك لا تستطيع السير

إلى أي مكان، فلا بد من أحد يأخذك بالسيارة. ولديهم أيضاً الأفاعي ذات الجرس، وعقوبة الإعدام التي أراها شيئاً بدائياً غير أخلاقي في تسعة وثمانين بالمئة من الحالات. لكن من الممكن جداً أن يكون وجودها هناك أفضل لها».

«لماذا؟».

قال آندي وهو يمسح أنفه بالمنديل القطني المكوي الذي يأخذه كل صباح من كدسة مناديل في درج في غرفته: «إنه المناخ قبل كل شيء. يتحسّن الناقهون بشكل أسرع في المناخ الدافئ. هذا ما جعل جدي فاندربلين ينتقل للعيش في بالم بيتش».

بقيت صامتاً. كنت أعرف أن آندي مخلص. وكنت أثق به وأقدِّر آراءه، لكن كلامه يجعلني أحياناً أحس كما لو أنني أتحدّث مع واحد من البرامج الحاسوبية التي تقلد الاستجابات البشرية.

«إذا كانت في دالاس، فستذهب بالتأكيد إلى متحف العلوم والطبيعة. لكني أظنها ستجده صغيراً قديماً بعض الشيء. ذهبت إلى السينما هناك، لكنها لم تكن ثلاثية الأبعاد. ثم إنهم يأخذون مالاً أكثر عند الدخول إلى القبة السماوية. وهذا أمر سخيف بالنظر إلى أنها أقل بكثير من قبة هايدن السماوية هنا».

«هكذا». كنت أتساءل أحياناً عمّا هو ضروري فعلاً لإيقاف هذر آندي العلمي هذا: موجة مَدّية؟ غزو فضائي؟ انقضاض غودزيللا عبر الجادة الخامسة. كان آندي كوكباً من غير غلاف جويّ.

10

هل شعر أحد بهذه الوحدة كلها في يوم من الأيام؟ العودة إلى بيت آل باربر وسط صخب وكثرة أسرة ليست أسرتي! صرت أحس بنفسي وحيداً أكثر من المعتاد، خاصة منذ أن شارفت السنة الدراسية على الانتهاء ولم يكن واضحاً لي (ولا لآندي) إن كنت سأذهب معهم إلى بيتهم الصيفي

في ولاية ماين أم لا. نجحت السيدة باربر، برقّتها المميزة، في تجنب طرح الموضوع حتى بعد أن ملأت الحقائب المفتوحة وصناديق الورق المقوّى البيت كله. بدت الحماسة على السيد باربر وعلى الطفلين الصغيرين، إلا أن آندي كان ينظر إلى ما هو آت بذعر صريح. كان يقول بنبرة احتقار: «شمس ومرح»، ثم يدفع بنظارته على أنفه (نظارة مثل نظارتي، لكن عدستيها أكثر سماكة). «على الأقل، ستكون على أرض جافة عندما تذهب إلى جدَّيك. وسيكون لديك ماء حار، واتصال بالإنترنت أيضاً».

«لست حزيناً عليك».

«لا بأس... إذا كان عليك أن تذهب معنا، فانظر كيف تجعل الأمر يعجبك. هذا يشبه فيلم *المختطَف*... عندما يبيعونه ليصير عبداً على تلك السفينة».

«ما رأيك في ذلك الجزء من الفيلم حيث يتعيّن عليه الذهاب إلى قريبه المخيف في منطقة نائية مع أنه لا يعرفه أبداً؟».

«نعم، كنت أفكر في هذا...». قالها آندي بنبرة جدّية وهو يستدير في كرسي مكتبه وينظر إلي... «إلا أنهم، على الأقل، لا يخطّطون لقتلك ـ فالأمر ليس كما لو أن هنالك ميراثاً متنازَعاً عليه».

«لا، ليس هنالك ميراث بكل تأكيد».

«هل تعرف ما هي نصيحتي إليك؟».

«ما هي؟».

قال آندي وهو يحكّ أنفه بممحاة قلم الرصاص الذي بيده: «نصيحتي هي أن تبذل أقصى جهدك في الدراسة عندما تذهب إلى مدرستك الجديدة في ميريلاند. إن لديك ميزة ـ أنت متقدّم سنة دراسية ـ يعني هذا أنك ستنهي المدرسة عندما تصير في السابعة عشرة. إذا بذلت جهدك في الدراسة، فسوف تخرج من هناك بعد أربع سنين، بل ربما بعد ثلاث سنين، وتحصل على منحة دراسية في أي مكان تريد الذهاب إليه».

«لكن درجاتي ليست جيدة بهذا القدر».

قال آندي بجدية تامة: «أعرف، لكن السبب الوحيد هو أنك لا تبذل جهداً. وأظن أيضاً أن من المنطقي افتراض أن متطلبات مدرستك الجديدة لن تكون مثل متطلبات مدرستنا الآن».

«أتمنّى أن يكون الأمر مثلما تقول».

قال آندي: «أعني... مدرسة عامة في ميريلاند! لا أريد التقليل من احترام ميريلاند. أعني أن لديهم مختبر التطبيقات الفيزيائية ومعهد علوم التلسكوبات الفضائية في جامعة جون هوبكنز؛ هذا إن لم نقل شيئاً عن مركز غودارد لطيران الفضاء في غرينبلت. أعرف أيضاً أن في تلك الولاية مشاريع هامة لوكالة ناسا. كيف كانت نتائجك في السنة الماضية؟».

«لست أتذكّرها».

«حسناً، إذا كنت غير راغب في إخباري فلا بأس. الفكرة هي إنهاء المدرسة بدرجات جيدة عندما تكون في السابعة عشرة ـ بل ربما في السادسة عشرة إذا عملت جيداً ـ وعندها تصير قادراً على الذهاب إلى الجامعة في أي مكان يعجبك».

«لكن ثلاث سنوات مدة طويلة!».

«طويلة بالنسبة إلينا. وأما ضمن الإطار العام للأمور، فهي ليست كذلك. أعني...». كان كلامه منطقياً... «انظر إلى بعض الفقراء الأغبياء من أمثال سابين إنغرسول أو ذلك الأحمق جيمس فيليبرز. أو ذلك التافه فورست لونغستريت».

«هؤلاء ليسوا فقراء. رأيت والد فيليبرز على غلاف الإيكونوميست».

«ليسوا فقراء، لكنهم أغبياء كتلك الوسائد على الأريكة. أعني أن سابين لا تكاد تعرف كيف تخطو خطوة واحدة. لو أن أسرتها لا تملك مالاً، ولو أنها مضطرة للاعتماد على نفسها، فإن عليها أن تصير... لست أدري... أن تصير عاهرة! وأما لونغستريت... فمن المحتمل تماماً أن يزحف إلى زاوية ويجلس فيها ويتضور جوعاً كأنه هامستر تافه نسيتَ إطعامه».

«أنت تثير الكآبة في نفسي».

«ما أحاول قوله هو أنك ذكي. ثم إنك تثير إعجاب الكبار».

سألته متشكّكاً: «ماذا؟».

قال آندي بصوته المزعج الباهت: «بالتأكيد! أنت تتذكّر أسماء الناس، وتنظر في عيني من تكلمه، وتصافح الناس عندما يتوقّعون منك ذلك. إنهم يهتمون بك كثيراً في المدرسة».

«صحيح، لكن...». لم أكن راغباً قول إن ذلك بسبب موت أمي.

«لا تكن غبيّاً. أنت شخص قادراً على تخليص نفسه من جريمة قتل. ولديك ما يكفي من الذكاء لأن تتدبّر أمرك بنفسك».

«فلماذا لم تستطع أن تتدبر أمرك حتى لا تذهب إلى تلك الرحلة بالزورق؟».

«أوه، لقد تدبّرت أمري بالفعل». قال آندي هذا وهو مكفهرّ الوجه بينما يعود إلى واجب اللغة اليابانية... «اكتشفت أن لدي أربع عطلات صيفية كالجحيم، في أحسن الأحوال، بل أسوأ من الجحيم. أو ثلاث عطلات إذا سمح لي أبي بالذهاب إلى الجامعة في وقت مبكر، عندما أكون في السادسة عشرة، وعطلتان إذا استطعت تحمّل مشقّة الذهاب إلى البرنامج الصيفي، في السنة الأخيرة من المدرسة... إلى برنامج المدرسة الجبلية حيث أتعلّم الزراعة العضوية. وبعد ذلك، لن أضع قدميَّ في زورق أبداً».

11

قال هوبي: «يصعب التكلّم معها على الهاتف، ويا للحسرة... لم أكن أتوقّع هذا. لم تكن أمورها حسنة على الإطلاق».

سألته: «ماذا بها؟». لم يكن قد مر على سفرها أكثر من أسبوع؛ وعلى الرغم من عدم تفكيري في العودة لرؤية هوبي، إلا أنني زرته من جديد: جلست إلى طاولة المطبخ في بيته والتهمت طبقي الثاني من ذلك الشيء

الذي بدا لي أول الأمر كتلة سوداء أشبه بالوحل، لكنه كان خليطاً لذيذاً من التين والزنجبيل مع الكريمة المخفوقة وشذرات صغيرة من قشر البرتقال.

دعَكَ هوبي عينيه. لقد كان يُصلح كرسياً في القبو عند وصولي. قال لي: «كان ذلك محزناً كثيراً...». شعره مربوط خلف رأسه، ونظارته متدلية من سلسلة حول رقبته. وتحت الرداء الأسود الذي يضعه أثناء العمل، لكنه خلعه الآن وعلّقه على مشجب، كان في بنطلون قطن قصير ملوّث بشمع النحل وبزيوت معدنية، ومن فوقه قميص قطن حائل اللون طوى أكمامه حتى مرفقيه. قالت مارغريت: «إن بيبا ظلت تبكي ثلاث ساعات بعد انتهاء مكالمتي معها ليلة الأحد».

«لماذا لا تستطيع العودة؟».

أجابني هوبي: «الحقيقة... أتمنّى لو كنت أعرف كيف أجعل الأمور في حال أحسن». بدا لي قويّاً حزيناً، وكانت كفاه الضخمتان البيضاوان مبسوطتين أمامه على الطاولة. كان في شكل كتفيه ما يذكر بحصان جَرٍّ طيِّب القلب، أو برجل يعمل في حانة استبد به التعب بعد نهار طويل... «وددت أن أطير إليها لأهتم بها، لكن مارغريت رفضت. قالت إن بيبا لن تشعر بالاستقرار هناك إذا ظللت أحوم حولها».

«أظن أن عليك الذهاب، على أية حال». رفع هوبي حاجبَيْه: «أتت مارغريت بمعالج ـ شخص من الواضح أنه شهير؛ وهو يستعين بالخيول عندما يعمل مع أطفال مصابين. صحيح أن بيبا تحب الحيوانات لكنها... ليست شديدة الميل إلى البقاء خارج البيت طيلة الوقت. لقد أمضت القسم الأكبر من حياتها في دروس الموسيقى وغرف التمرين. مارغريت متحمّسة كثيراً لبرنامج الموسيقى في كنيستها. لكن جوقة أطفال هواة في كنيسة لن تفلح في إثارة اهتمام بيبا».

دفعت بطبقي الزجاجي جانباً ـ لم يبق فيه شيء ـ وقلت بشيء من التردّد والخجل: «لماذا لم تكن بيبا على معرفة بمارغريت قبل الآن؟...».

ثم أضفت عندما رأيت أنه لم يجبني... «هل الأمر متعلّق بالمال؟».

«ليس كثيراً! ولكن... نعم. أنت محق. كان للمال دائماً علاقة بالأمر...». مال إلى الأمام واضعاً كفيه الكبيرتين المعبّرتين على الطاولة... «كان لدى والد ويلتي ثلاثة أطفال. ويلتي ومارغريت وجوليت، أم بيبا. ثلاثة أطفال من ثلاث أمهات مختلفات».

«أوه».

«كان ويلتي أكبرهم. لكنه أصيب بسل العظام عندما كان في السادسة تقريباً، أي عندما كان أهله مقيمين في أسوان ـ لم تدرك المربية أن ذلك المرض خطير؛ وهذا ما أدى إلى تأخّره كثيراً في الذهاب إلى المستشفى ـ كان صبياً ذكياً لامعاً، وكان جميلاً أنيقاً. إلا أن السيد بلاكويل العجوز لم يكن رجلاً ممن يحتملون الضعف أو حالات العجز والمرض. أرسله إلى أميركا حتى يعيش مع بعض الأقارب، وما عاد مهتماً به أبداً».

صدمني هذا الظلم فقلت: «هذا شيء فظيع».

«صحيح. إن لدى مارغريت رواية مختلفة تماماً، بالطبع... إلا والد ويلتي كان رجلاً قاسياً. على أية حال، وبعد طرد أسرة بلاكويل من مصر -لعل كلمة *طرد* ليست بالكلمة المناسبة تماماً!- عندما وصل ناصر إلى السلطة، كان على الأجانب جميعاً أن يغادروا البلاد ـ كان والد ويلتي يعمل في مجال البترول، ومن حسن حظه أنه كان صاحب مال وممتلكات في أماكن أخرى أيضاً. لم يُسمح للأجانب بأن يُخرِجوا من البلاد مالاً أو شيئاً كبير القيمة».

تناول سيجارة أخرى: «على أية حال، لقد ابتعدتُ عن القصة قليلاً. النقطة الهامة هنا هي أن ويلتي ما كان يعرف مارغريت إلا قليلاً لأنها كانت أكبر منه باثني عشر عاماً. كانت والدة مارغريت من تكساس؛ وكانت وارثة ولديها مال كثير. كان زواجها من السيد بلاكويل آخر زيجاته وأطولها عمراً ـ تقول مارغريت إنها قصة حب رائعة. زوجان بارزان في هيوستن. كثير من الشرب، وطائرات مستأجرة، ورحلات

صيد إلى أفريقيا. كان والد ويلتي يحب أفريقيا. وما كان قادراً على البقاء بعيداً عنها حتى بعد اضطراره إلى مغادرة القاهرة».

توهّج عود الثقاب مشتعلاً، وسعل هوبي عندما نفث من فمه سحابة دخان: «على أية حال، كانت مارغريت أميرة أبيها وقرة عينه. إلا أنه، طيلة فترة زواجه، واصل إقامة علاقات مع نادلات وعاملات فنادق، ومع بنات أصدقائه أيضاً. وفي لحظة من اللحظات، عندما كان في الستينات، أنجب طفلة من فتاة كان يقص شعره عندها. كانت تلك الطفلة والدة بيبا».

لم أقل شيئاً. عندما كنت في الصف الثاني، سَرَت موجة كبيرة من الكلام والنمائم (كان لها توثيق يومي في صفحات النمائم في نيويورك بوست) عندما أنجب والد زميلي في الصف، إيلي، طفلاً من امرأة غير والدته. وهذا ما جعل كثيراً من الأمهات يتخذن مواقف مع هذا الجانب أو ذاك فكففنا عن تبادل الكلام عندما كنّ ينتظرن أمام المدرسة حتى يأخذن أطفالهن بعد الظهر.

صحيح أنه كان يتحدّث معي مثلما يتحدث مع شخص كبير (أعجبني هذا) إلا أنه لم يبد مرتاحاً لفتح هذا الموضوع... أضاف هوبي بصوت متقطّع بعض الشيء: «كانت مارغريت آنذاك في جامعة فاسار. وأظنّها انقطعت عن الكلام مع أبيها مدة سنتين. حاول السيد بلاكويل العجوز أن يدفع مالاً لأم الطفلة حتى يتفادى الفضيحة، لكن بخله غلبه! لقد كان بخيلاً مع الأشخاص المعتمدين عليه. وهكذا ترى أن مارغريت... لم يحدث أي لقاء بين مارغريت ووالدة بيبا، جولييت، إلا في المحكمة عندما كانت جولييت لا تزال رضيعة. نشأ لدى والد ويلتي بغض تجاه أم جولييت جعله ينص في وصيته على ألا تتلقى قرشاً من ماله، لا هي ولا جولييت، عدا القدر الطفيف من المال الذي يُلزمه القانون بدفعه على شكل نفقة من أجل طفلته. لكن ويلتي...». أطفأ هوبي سيجارته... «لكن السيد بلاكويل العجوز كانت لديه أفكار أخرى في ما يتعلق بويلتي

فأوصى له بقدر طيّب من المال. وخلال تلك المشاجرات القانونية كلها ـ وقد استمرت بضع سنين ـ نشأ لدى ويلتي استياء شديد إزاء ما لقيته الطفلة جوليت من نبذ وإهمال. لم تكن جولييت تريدها؛ ولم يرِدها أحد من أقاربها؛ وبالتأكيد، لم يكن السيد بلاكويل العجوز يريدها أيضاً. أقول لك صراحة إن رؤية تلك الطفلة مرمية في الشارع كان أمراً يسرُّ مارغريت وأمها. ثم إن أم جولييت كانت مضطرة إلى تركها في الشقة وحيدة عندما تذهب إلى عملها. حالة سيئة من كل ناحية... لم يكن ويلتي ملزَماً بأي نوع من أنواع التدخّل، لكنه كان رجلاً عاطفياً من غير أسرة، وكان يحب الأطفال. فما كان منه إلا أن دعا جولييت ـ كان اسمها في ذلك الوقت جولييت آن ـ إلى قضاء العطلة عنده عندما كان عمرها ستة أعوام...».

«هنا؟ في هذا البيت؟».

«نعم. هنا. وعندما انتهى الصيف وحان وقت إرسالها، راحت الصغيرة تبكي لأنها لا تريد العودة. ولم تردّ أمها على اتصالاته الهاتفية، فألغى تذكرتي الطائرة وأجرى اتصالات لكي يسجّلها في الصف الأول في المدرسة. لم يكن ذلك ترتيباً رسمياً. لقد خشي أن يوقظ الكلاب النائمة، كما يقولون ـ لكن الناس هنا افترضوا أنها ابنته ولم يدقّقوا في الأمر كثيراً. كان في أواسط الثلاثينات؛ أي إنه كان في عمر مناسب لأن يكون أباً. وقد كان أباً حقيقياً من كل ناحية...».

رفع رأسه وتابع بنبرة صوت مختلفة: «لكن، بصرف النظر عن هذا كله، قلت لي إنك راغب في إلقاء نظرة على الورشة. هل تحب النزول إلى الأسفل؟».

أجبته: «نعم، من فضلك. أرجو ذلك».

عندما وصلت إلى البيت، وجدته في الأسفل يعمل على كرسي مقلوب، فوقف وتمطّى وقال لي إنه جاهز لأخذ استراحة، لكني لم أكن راغباً في الصعود إلى الأعلى لأن الورشة كانت ساحرة شديدة الغنى:

كهف غاصٍّ بالكنوز، أكبر مما يظنه المرء عندما ينظر إليه من الخارج؛ مكان يدخله الضوء من نوافذ مرتفعة وفيه نماذج زخرفية وشباك تزيينية وأدوات غريبة لا أعرف أسماءها وروائح حادة محيّرة... روائح الورنيش وشمع النحل. وحتى تلك الكرسي التي كان يشتغل عليها ـ كرسي بقائمتين أماميتين مقوَّستين من النوع الذي يطلقون عليه اسم *قوائم الماعز*، لهما حافران منحوتان ـ لم تبد لي قطعة أثاث فحسب، بل كائنٌ حيٌّ وقع عليه سحر... كأنها موشكة على استعادة نفسها والقفز عن طاولة العمل والجري في الشارع.

تناول هوبي مئزر العمل وارتداه من جديد. على الرغم من لطفه كله، ومن هدوء طباعه، فقد كانت بنيته أشبه ببنية رجل ينقل البرادات أو يُحمّل الشاحنات حتى يكسب عيشه.

قال لي وقد تقدّمني نازلاً السلم: «حسناً... إنها الورشة خلف الورشة!».

«عفواً؟ لم أفهم».

ضحك وقال: «أعني المتجر الخلفي. ليس ما يراه العملاء إلا خشبة مسرح ـ الوجه المكشوف أمام الجمهورـ وأما العمل الهام فيحدث هنا في الأسفل».

نظرت إلى تلك المتاهة عند آخر السلم: خشب أشقر اللون كالعسل، وخشب داكن اللون كأنه دبس مسكوب، ولمعان نحاس أصفر وفضة وذهب في ذلك النور الشحيح. وكما هو الأمر في جسر سفينة نوح في المطبخ، كان كل نوع من أنواع الأثاث مرتباً مع بني جنسه: الكراسي مع الكراسي، والأرائك مع الأرائك، والساعات مع الساعات، والمكاتب والخزائن ومجموعات الأدراج واقفة في صفوف جامدة إلى الناحية الأخرى قبالة ذلك كله. طاولات طعام في الوسط تتخلّلها ممرات ضيقة أشبه بالمتاهة حتى يتمكن المرء من المرور بينها. وفي آخر تلك الصالة،

جدار عليه مرايا قديمة بعضها معلّق من إطارات بعضها الآخر... مرايا متألقة كلها بضياء مفضَّض من صالات رقص وصالونات تنيرها الشموع.

التفت هوبي ناظراً إلي. كان واضحاً له أنني في غاية السرور. سألني: «أتحب الأشياء القديمة؟».

أومأت برأسي ـ كان هذا صحيحاً لأنني أحب الأشياء القديمة مع أني لم أدرك ذلك في نفسي إلا في تلك اللحظة.

«هذا يعني أن بيت آل باربر يثير اهتمامك. أعتقد بأن ما لديهم من قطع الملكة آن ومن قطع تشيبنبيل لا يقل جودة عما قد تراه في المتحف».

قلت متردّداً: «صحيح، لكن الوضع هنا مختلف. إنه أكثر لطفاً». أضفت الجملة الأخيرة تحسباً لاحتمال عدم إدراكه المعنى الذي رميت إليه.

«وكيف هذا؟».

أغمضت عينيَّ بشدة محاولاً استجماع أفكاري... «أعني المكان عظيم هنا، في الأسفل، مع هذه الكراسي كلها... كراسي كثيرة مختلفة. يمكنك أن ترى شخصياتها المختلفة؛ هل فهمت قصدي؟ أعني أن المرء، نوعاً ما...». لم أهتد إلى الكلمة المناسبة... «حسناً، هذا سخيف بعض الشيء. لكن المرء يشعر شعوراً حسناً، شعوراً يبعث الراحة في النفس. ثم هنالك هذا النوع الأكثر توتراً بقوائمه النحيلة الطويلة...».

«إن لديك عين ذوّاقة في ما يتعلّق بالأثاث».

«حسناً...». كان المديح يربكني على الدوام؛ لا أعرف كيف ينبغي لي أن أستجيب له بشيء غير أن أتصرّف كما لو أنني لم أسمع شيئاً... «عندما تكون مصطفَّة معاً، يمكنك أن ترى كيف صُنعت. أما في بيت باربر...». ما كنت أعرف كيف أشرح الأمر... «لست أدري، يشبه ما لديهم تلك المشاهد التي يراها المرء في متحف التاريخ الطبيعي... مشهد الحيوانات المحنَّطة».

تبخّرت عنه لمحة الكآبة والقلق عندما ضحك. كان حسن طبعه واضحاً محسوساً، كان كأنه منبعث منه، كأنه إشعاع.

قلت له مصمماً على المتابعة وتوضيح فكرتي، رغم المشقّة: «لا، إنني أعني ذلك. طريقة ترتيب الأثاث عندها، طاولة منفردة وضوء مسلط عليها، وتلك الأشياء كلّها مرتّبة بحيث يكون من المفترض ألا تمسّها ـ هذا أشبه بالمجسّمات التي يضعونها من حول ثور الياك[1]، أو أي حيوان آخر، حتى يبيّنوا طبيعة موطنه. مشهد لطيف، لكني أعني...». نظرت إلى ظهور الكراسي المصفوفة عند الجدار... «تلك الكرسي آلة هارْب، وتلك أشبه بالملعقة، وتلك...». حاكيت انحناءتها بحركة من يدي.

«هذا النوع اسمه *ظهر الترس* لكني أقول لك إن تلك الأضلاع الرقيقة ذات الشرّابات في ظهر الكرسي هي ألطف ما فيه من تفاصيل. قد لا تدرك الأمر...». قال هذا قبل أن أفلح في سؤاله عن معنى شرابة... «لكني أعتبر رؤية قطع الأثاث التي عندك كل يوم، الرؤية بحد ذاتها، تثقيفاً حقيقياً ـ رؤيتها في ضوء مختلف كل مرة، وقدرتك على أن تمر بيدك على زواياها وامتداداتها كلما أحببت...». نفخ على نظارته فضببتها أنفاسه، ثم مسحها بطرف مئزره... «هل أنت في عجلة من أمرك للعودة إلى البيت؟».

بدأ الوقت يتأخر، لكني قلت له: «لا، لست في عجلة».

قال: «إذاً، تعال معي، ولتعمل قليلاً. يمكنني الاستفادة من مساعدتك في هذا الكرسي الصغير هناك».

«ساق الماعز؟».:

«صحيح، ساق الماعز. هنالك مئزر آخر على المشجب ـ أعرف أنه كبير عليك كثيراً، لكني طليت الكرسي بزيت بذر الكتان، ولا أريد أن تتسخ ملابسك».

---

(1) ثور الياك: نوع مستأنس من الثيران يعيش في المناطق الجبلية الممتدة من هملايا وهضبة التيبت حتى روسيا.

12

كان الطبيب النفسي ديف قد ذكر لي أكثر من مرة أنه يتمنّى أن أتخذ هواية لنفسي ـ نصيحة لم تعجبني أبداً لأن الهوايات التي اقترحها (كرة المضرب وتنس الطاولة والبولينج) بدت لي كلها غير مناسبة. إن كان يظن أن لعب تنس الطاولة مرة أو مرتين سيساعدني في نسيان أمي، فقد كان مخطئاً إلى أقصى حد. لكن تلك الفكرة نفسها كانت موجودة عند كثير من الأشخاص الكبار: اتضح لي هذا من دفتر المذكّرات الذي قدمه لي معلم اللغة الإنكليزية السيد نيوزبيل، ومن اقتراح السيدة سوانسون بأن أنتسب إلى دورة للفنون بعد المدرسة، وكذلك من العرض الذي قدمه إنريك بأن يأخذني لحضور مباراة لكرة السلة في ملاعب الجادة السادسة، بل كان ذلك واضحاً في محاولات السيد باربر المتفرّقة لإثارة اهتمامي بعلامات الخرائط وبالرايات الملاحية.

«لكن، ما الذي تحبّ أن تفعله في أوقات فراغك؟».

هكذا سألتني السيدة سوانسون في غرفة مكتبها المخيفة ذات اللون الرمادي الشاحب... غرفة لها رائحة تشبه رائحة المريمية وشاي الأعشاب، وفيها نسخ من مجلتي «**سفنتين**» و**تين بيبول**» مكوّمة على طاولة القراءة، وكذلك فيها موسيقى آسيوية فضية تطفو في الخلفية.

«لست أدري. أحب القراءة. ومشاهدة الأفلام. وأحب بعض ألعاب الفيديو...» عندما رأيتها مستمرة في النظر إلي، قلت من جديد... «لست أدري».

قالت وقد بدا عليها شيء من القلق: «لا بأس، هذه كلّها أشياء لطيفة يا ثيو. لكن من المستحسن أن تحاول البحث عن نشاط جماعي. شيء فيه فريق، شيء يمكن فعله مع أولاد آخرين. هل فكرت في ممارسة نوع من أنواع الرياضة؟».

«لا».

«إنني أمارس فناً قتالياً اسمه آيكيدو. لا أعرف إن كنت قد سمعت به. إنه أسلوب في استخدام حركات الخصم كنوع للدفاع عن النفس».

أشحت بوجهي عنها ونظرت إلى اللوحة الكبيرة ذات المظهر البالي التي كانت معلّقة خلف رأسها، لوحة *«سيدة غواديلوب»*.

«أو، ربما هواية التصوير...». ضمت يديها بخواتمها التركوازية اللون فوق طاولة المكتب... «إذا كنت غير مهتم بدروس الفنون... مع أن عليَّ القول إن السيد شينكوف جعلني أرى بعض رسومك في السنة الماضية. تلك السلسلة من السقوف وخزانات المياه المرتفعة والمناظر التي ترى من نافذة الاستوديو... عينك دقيقة الملاحظة ـ أعرف ذلك المنظر، وأعرف أنك التقطت بعضاً من أهم ما فيه من خطوط وطاقة» ـ أظنها استخدمت كلمة حركة بدلاً من طاقة... «لديك مهارة واضحة في ذلك... كل تلك المساحات المسطّحة التي تثير الاهتمام، وزوايا سلالم الحريق. ما أحاول قوله هو أن الأمر الهام ليس نوع الشيء الذي تفعله ـ أتمنى أن نتمكن من العثور على طريقة تجعلك أكثر اتصالاً».

سألتها بنبرة صوت بدت سيئة فعلاً: «أكثر اتصالاً بماذا؟».

بدت عليها الحيرة: «أكثر اتصالاً مع الناس الآخرين! و...». أشارت إلى النافذة... «ومع العالم من حولك!». ثم أضافت بألطف وأعذب صوت لديها... «اسمع، أعرف أن صلتك بأمك كانت قوية جداً. لقد جرى حديث بيننا. كما رأيتكما معاً. أعرف بالضبط كم أنت مشتاق إليها، وكم تفتقد وجودها».

قلت في نفسي وأنا أنظر في عينيها بطريقة وقحة: *لا، أنت لا تعرفين!*

نظرت إليَّ نظرة غريبة وقالت وهي تسند ظهرها إلى كرسيها المجلل بشال كبير: «سوف يدهشك، يا ثيو، كيف تكون الأشياء اليومية الصغيرة قادرة على إخراجك من هذا اليأس والقنوط. لكنّ أحداً لا يستطيع فعل هذا من أجلك. أنت الذي يتعيّن عليك أن تبحث عن الباب المفتوح».

كنت واثقاً من حُسن مقصدها، لكني خرجت من غرفة مكتبها مطرق الرأس وقد ملأت عينيَ دموع الغضب. ما الذي تعرفه عن هذا، بحق الجحيم؟ تلك الخفاش العجوز؟ كانت عائلة السيدة سوانسون هائلة الحجم ـ نحو عشرة أطفال، وثلاثين حفيداً، إذا احتكمنا إلى الصور المعلّقة على جدار مكتبها. وكانت لدى السيدة سوانسون شقة كبيرة في حي سنترال بارك ويست، وبيت في ولاية كونكتيكت. وما كانت لديها أية فكرة كيف يمكن أن يحدث أمر مفاجئ فيضيع كل شيء في دقيقة واحدة. ما أسهل أن تجلس مرتاحة في كرسيها الوثير وتثرثر عن النشاطات الإضافية في المدرسة وعن الأبواب المفتوحة!

ولكن... من غير توقّع... كان باب قد انفتح حقّاً، باب في مكان لم يفكر أحد فيه: ورشة هوبي. كانت «المساعدة» في إصلاح الكرسي (اقتصر أكثرها على وقوفي إلى جانب هوبي وهو يُشرّح ذلك الكرسي حتى يريني الضرر الذي سببه سوس الخشب، وسببته إصلاحات سابقة أُجريت كيفما اتفق، ومساوئ كثيرة أخرى تحت وجه الكرسي المنجّد) قد تحولت سريعاً إلى عصرين أو ثلاثة في الأسبوع، فترات كانت تستغرقني استغراقاً غريباً تاماً: وضع لصاقات على الأوعية تحمل أسماء ما تحتويه من مواد، ومزج صمغ جلد الأرنب، والبحث في علب مستلزمات الدروج («الأشياء الصغيرة الغريبة المعقدة») أو الاكتفاء بالنظر إليه وهو يصنع قوائم الكراسي على المخرطة. صحيح أن المتجر الذي في الأعلى ظلّ مظلماً، وظلت أبوابه المعدنية مغلقة؛ لكن الساعات ذات الصناديق الطويلة في «الورشة التي خلف الورشة» ظلت تتكتك، وظل خشب الماهوغاني يتألق، والضوء ينسكب بركة ذهبية على طاولات الطعام، وظلت حياة ذلك المعرض الغريب في الأسفل مستمرّة.

كانت بيوت المزادات في المدينة كلّها تتّصل به، إضافة إلى عملاء أفراد. وكان يصلح قطع الأثاث لصالح دور سوذبي وكريستيز وتيبر

ودويل. وسط التكتكات الناعسة للساعات الجدارية الطويلة، كان يعلمني ـ بعد المدرسة ـ ملمس وبريق أنواع مختلفة من الأخشاب، وألوانها، وتموّج خشب القيقب ولمعانه، وحبحبة عقد خشب الجوز، وثقل كل نوع من أنواع الخشب في يدي، بل حتى روائحها المختلفة ـ «أحياناً، عندما لا تكون واثقاً مما لديك، يكون تشمم الخشب أسهل الحلول» ـ خشب الماهوغاني له رائحة التوابل، وخشب البلوط له رائحة كرائحة الغبار، والكرز الأسود بنكهته المميزة المزهرة، ورائحة الصمغ/ الكهرمان في خشب الورد. مناشير ورؤوس حفر، ومبارد مسطّحة ومدوّرة، وأنصال معقوفة وأخرى كالملاعق، ومثبّتات. تعلمت أشياء عن التغليف بقشرة خشب وعن الطلاء والتذهيب، وتعلمت معنى النُّقرة واللسان، وتعلمت الفرق بين الأبنوس الحقيقي والخشب المعالج لكي يبدو كالأبنوس، وكذلك الفرق بين قضبان مسند الكرسي المصنوعة في نيوبورت وتلك المصنوعة في كونيكتيكت أو فيلادلفيا، وكذلك كيف ينفتح سطح مكتب من تصميم شيبنبيل فيكشف عن مكتب آخر له الاستخدام نفسه وله أعمدة مربعة وما كان يحب أن يسميه «*النِّسب الرفيعة لأبعاد الدرج*».

في الأسفل، ضوء ضعيف ـ وقشور الخشب على الأرض ـ كان هناك شيء من الإحساس بتلك الوحوش الكبيرة الثابتة... واقفة، صابرة، في ما يشبه العتمة. جعلني هوبي أرى الطبيعة الحية لقطع لأثاث الجيد؛ جعلني أرى ذلك من خلال حديثه عنها بصيغ التذكير والتأنيث... الطبيعة الذكورية، التي تكاد تكون حيوانية، لقطع ضخمة متميزة... طبيعة تتبدّى أيضاً في أقرانها من قطع جامدة كبيرة... جعلني أرى ذلك في مرور يده الحنون على الجوانب الداكنة المتألقة للخزائن الكبيرة والصغيرة، كأنها حيوانات أليفة. كان معلماً جيداً؛ وقد علمني خلال وقت قصير ـ علمني كيف أكتشف القطع المقلَّدة بأن سار معي، يداً بيد، عبر عملية الفحص

والمقارنة: البلى المستوي المتوازن أكثر مما ينبغي (تبلى القطع القديمة دائماً على نحو غير متناظر)؛ ومن خلال الحواف التي قطعتها آلة، لا يد بشرية (يمكن لإصبع حساس أن يشعر بالحواف التي أنتجتها الآلة، حتى إن كان الضوء شحيحاً)؛ لكن ما يكشفها أكثر من ذلك هو خشبها ذو الطبيعة الميتة، الخشب المفتقر إلى ذلك الألق: سحر آت من قرون من الاستخدام واللمس والتنقل من يد بشرية لأخرى. أن يتأمل المرء في حياة المكتبات والخزائن الجليلة التي تعيش عمراً أطول وأكثر لطفاً من عمر الإنسان... جعلني أغرق في الهدوء مثلما يغرق حجر في ماء عميق. وعندما يحين وقت عودتي إلى البيت، أسير في أضواء الجادة السادسة مذهولاً ترفرف عيناي ولا أكاد أعرف أين أنا.

لكن سروري بهوبي نفسه كان أكثر من سروري بالورشة («المستشفى»، كما كان يسميها): ابتسامته المتعبة، ومشية الرجل الضخم الأنيقة، وكماه المطويان حتى مرفقيه، وعيناه، وطبيعته المازحة، وعادته العمالية بأن يمسح جبهته بباطن رسغ يده، وفكاهته الطيبة الصبور، وحسه السليم الثابت. ما كان في كلامنا شيء بسيط على الإطلاق مع أنه كان كلاماً عادياً متقطعاً. فحتى «كيف حالك» عابرة كانت سؤالاً قادراً على أن يحمل تلاوين كثيرة من غير أن يبدو عليه شيء من ذلك. ومثلها إجابتي الدائمة («بخير»)، كان قادراً على قراءتها بكل سهولة من غير اضطرار مني إلى شرح أي شيء. ما كان ينظر إليّ مستطلعاً، ولا يطرح عليّ أسئلة، إلا في ما ندر؛ لكني كنت أشعر بأن لديه إحساساً بي أكثر مما لدى أشخاص كبار كثيرين كانت مهمتهم أن «يدخُلوا إلى رأسي» مثلما كان إنريك يحب أن يقول.

لكن الأمر الذي جعلني معجباً به ـ أكثر من أي أمر آخر ـ هو أنه ظل يعاملني معاملة الرفيق الذي يحب أن يحدّثه. وما كان ذلك ليتغير إن أراد أحياناً أن يتحدث عن جاره الذي أجرى عملية استبدال مفصل الركبة،

أو عن الحفلة الموسيقية المبكرة التي ذهب إليها. وإذا قصصت عليه أمراً مضحكاً حدث في المدرسة، فإنه يكون مستمعاً منتبهاً، مهتماً على العكس من السيدة سوانسون التي تتجمّد وتبدو مذهولة عندما أروي نكتة. أو ديف، الذي يضحك، لكنه يضحك بطريقة غريبة؛ وتأتي ضحكته دائماً متأخّرة لحظة صغيرة. كان يحب الضحك، وكنت أحب أن يحكي لي قصصاً من حياته: أعمام صخّابون تزوجوا في وقت متأخر، ومربيات فضوليات أيام طفولته، ومدرسة داخلية من الدرجة الثالثة عند الحدود مع كندا يظل معلموها ثملين دائماً، وبيت كبير في المنطقة الشمالية من الولاية كان أبوه يبقيه بارداً إلى حد يجعل الجليد يتجمع على النوافذ من الداخل، وأماسي شهر كانون الأوّل الرمادية عندما يجلس ويقرأ كاسيتوس أو كتاب «*صعود الجمهورية الهولندية*» لموت لي. («لقد أحببت التاريخ، دائماً! الدروب غير المطروقة! وكان أكبر طموح عندي في فترة الصبا أن أصير أستاذاً للتاريخ في جامعة نوتردام. إلا أنني أظن أن ما أفعله الآن ليس إلا طريقة مختلفة من العمل في التاريخ»). أخبرني عن طائر الكناري ذي العين الوحيدة الذي أنقذه عندما اشتراه من متجر وولوورث وكان غناؤه يوقظه كل صباح خلال طفولته كلها. أخبرني عن هجمة الحمّى الرثوية التي أبقته طريح الفراش ستة أشهر كاملة؛ وكذلك عن مكتبة الحي العتيقة الخَرِبة ذات السقوف المزينة بلوحات كبيرة («تمزّقت الآن؛ يا حسرتي عليها!»)، حيث كان يذهب فراراً من البيت. حدّثني أيضاً عن السيدة دي بيستر، الوارثة الوحيدة العجوز التي كان يزورها بعد المدرسة؛ كانت في الأصل من عائلة *بيل أوف آلباني*، وكانت مؤرّخة محلّية «توقوق» من حول هوبي وتطعمه كعكات *دوندي* التي تأتيها في علب معدنية من إنجلترا... كان يسعدها أن تقف ساعات كاملة تشرح فيها لهوبي عن كل قطعة من القطع المصطفة في فترينة الخزف الصيني. كانت لديها، من بين أشياء كثيرة أخرى، تلك الأريكة من خشب

الماهوغاني التي قيل إنها كانت للجنرال هيركيمر[1]، وكانت أول ما أثار اهتمام هوبي بالأثاث. («لكني لم أستطع تصوّر الجنرال هيركيمر مستلقياً على تلك الأريكة القديمة المتهالكة ذات المظهر الإغريقي»). كما حدّثني عن أمه التي توفيت بعد فترة قصيرة من وفاة أخته التي كان عمرها ثلاثة أيام وتركته وحيداً مع أبيه؛ وأيضاً عن الأب اليسوعي الشاب (كان أيضاً مدرب كرة قدم) الذي اتصل بالخادمة الإيرلندية المذعورة عندما كان والد هوبي يضربه بالحزام («يمزّقني إرباً») ـ ثم اندفع إلى البيت مشمراً عن ذراعيه ولكم والد هوبي فألقاه أرضاً. («الأب بيغان! كان هو القس الذي أتى إلى بيتنا خلال مرضي بالحمى الرثوية حتى يكون معي ساعة موتي. كنت صبي المذبح في كنيسته. وكان يعرف حقيقة القصة لأنه رأى من قبل آثار الضرب على ظهري. كان هنالك قساوسة كثر ممن يسيئون معاملة الأولاد، لكنه كان طيباً معي ـ أتساءل دائماً عمَّ حل به؛ وقد حاولت معرفة ذلك، لكني لم أستطع. اتصل أبي بالأسقف، فما كان منهم إلا أن نقلوا الأب بيغان إلى الأورغواي»). كان ذلك كله شديد الاختلاف عن جو بيت أسرة باربر ـ على الرغم من مناخ اللطف العام فيه ـ حيث كنت ضائعاً على الهامش أو كنت موضوعاً لاستقصاءات رسمية. كانت تريحني معرفة أن هوبي لا يبعد عني إلا مسافة سفرة واحدة بالباص، غير بعيد عن الجادة الخامسة. وفي الليل، عندما أستيقظ مرتجفاً مذعوراً، ويجتاحني ذلك الانفجار من جديد، كنت قادراً أحياناً على تهدئة نفسي والعودة إلى النوم عن طريق التفكير في بيته حيث أنزلق، من غير أن أدرك ذلك، إلى منتصف القرن السابع عشر، إلى عالم من تكتكة الساعات والأرضيات الخشبية التي تصدر صريراً، وقدور النحاس وسلال اللفت والبصل في المطبخ، ولهب الشموع المائل جهة اليسار في تيار الهواء

(1) نيكولاس هيركيمر (1728– 1777): من قادة التشكيلات المسلحة التي حاربت البريطانيين خلال "الحرب الثورية الأميركية".

القادم من باب مفتوح، ونوافذ الردهة الطويلة التي تتراقص وتتمايل في ذلك الضوء كأنها أثواب طويلة في حفلة راقصة... وتلك الغرف الهادئة حيث تنام أشياء عتيقة.

كانت صعوبة تبرير غيابي عن البيت في ازدياد مستمر (غالباً ما كان غياباً عن أوقات العشاء أيضاً)؛ وشارفت قدرة آندي على اختراع المبررات على النفاد. قال هوبي ذات يوم عندما كنا في مطبخه نأكل تارت الكرز الذي اشتراه من سوق الفلاحين: «هل أذهب معك وأتحدّث إليها؟ يسعدني الذهاب إلى بيتها ولقاؤها. أو يمكنك أن تدعوها لتأتي إلى هنا».

فكرت في الأمر، ثم أجبته: «ربما».

«قد تكون مهتمة برؤية خزانة تشيبنديل ذات الدروج ـ هل عرفتها؟ إنها ذات السطح المتحرك. لا لكي تشتريها، بل لتراها فقط. أو من الممكن، إن أحببت، أن ندعوها إلى الغداء في مطعم لا غرين وي...». ضحك قليلاً... «أو حتى إلى مطعم صغير في هذه المنطقة من الممكن أن تجده مسلّياً».

أجبته: «دعني أفكر في الأمر»؛ ثم عدت إلى البيت بالباص مبكراً. كنت أفكر في الأمر. بمعزل تماماً عن ازدواجيتي المزمنة مع السيدة باربر ـ التأخر الليلي المتكرر في المكتبة، ومشروع التاريخ الذي لا وجود له ـ فإنه سيكون من المحرج أن أعترف لهوبي بأنني قلت لها إن خاتم السيد بلاكويل كان شيئاً يخص عائلتي. إذا التقى هوبي والسيدة باربر، فمن المؤكد أن كذبتي ستفتضح، على هذا النحو أو ذاك، ولم أر مهرباً من الأمر.

سألتني السيدة باربر بنبرة حادة: «أين كنت؟». كانت قد ارتدت ملابسها للخروج إلى العشاء، لكنها لم تنتعل حذاءها بعد. أتت حاملة بيدها كأس الجن مع الليمون.

جعلني شيء في هيئتها أحس بأن ثمة فخاً منصوباً لي. قلت: «كنت في المدينة أزور شخصاً من أصدقاء أمي».

التفت آندي ونظر إلي نظرة خالية من أي تعبير.

قالت السيدة باربر متشكّكة وهي تلقي نظرة جانبية على آندي: «أوه، نعم؟ كان آندي يقول لي قبل لحظة إنك ذهبت للقراءة في المكتبة من جديد».

أجبتها بيسر فاجأني: «ليس الليلة».

قالت السيدة باربر: «حسناً، عليّ القول إنني مرتاحة لسماع ذلك لأن فرع المكتبة الرئيسي يغلق أيام الاثنين».

«لم أقل إنه كان في الفرع الرئيسي يا ماما».

أردت إبعاد تركيزها عن آندي فقلت: «أظنك قد تعرفين ذلك الشخص في واقع الأمر؛ أو أنك سمعت عنه».

قالت السيدة باربر وقد عادت نظرتها إليّ: «من هو؟».

«الصديق الذي كنت في زيارته، اسمه جيمس هوبارت. وهو يدير متجراً للأثاث في قلب المدينة ـ الأحرى أنه لا يديره، بل يعمل في ترميم قطع الأثاث القديمة».

نظرت إلي مدقّقة: «هوبارت؟».

«إنه يعمل مع كثيرين في المدينة. يعمل مع سوذبي أحياناً».

«هل يزعجك أن أجري اتصالاً معه؟».

أجبتها: «لا. قال لي إن من الممكن أن نخرج معاً لتناول الغداء. أو يمكن أن ترغبي بالذهاب إلى متجره في وقت ما».

قالت السيدة باربر بعد أن ظهرت عليها الدهشة لحظة: «أوه!...». هي من فوجئ الآن! لا أدري إن كانت السيدة باربر قد ذهبت يوماً إلى المناطق الواقعة جنوب الشارع الرابع عشر لأي سبب من الأسباب...

«حسناً... سوف نرى».

«لا تشتري شيئاً. اذهبي وانظري فحسب. إن لديه أشياء جميلة».

رفرفت عيناها قليلاً وقالت: «بالطبع...». بدت مضطربة على نحو غريب، وكان في عينيها شيء من التشوش والانشغال... «لا بأس، هذا شيء جميل. أنا واثقة من أن لقائي معه سيكون سارّاً. أتظنني التقيته في السابق؟».

«لا، لا أظن هذا».

«على أية حال... إنني آسفة يا آندي! وأنا أيضاً مدينة لك بالاعتذار يا ثيو».

أنا؟ لم أدر ما يمكن أن أقوله لها. كان آندي يعض طرف إبهامه بطريقة موحية بشيء من المكر ـ هز كتفه عندما استدارت أمه وخرجت من الغرفة.

سألته بصوت منخفض: «ما الأمر؟».

أجابني: «إنها منزعجة. لا علاقة لك بالأمر. بلات في البيت».

الآن، بعد أن ذكر آندي ذلك، صرت منتبهاً إلى صوت موسيقى مكتوم منبعث من أعماق الشقة ـ إيقاع عميق لا يكاد يُدرك.

سألته: «لماذا؟ ماذا حدث؟».

«هنالك شيء حدث في جامعته».

«أهو شيء سيئ؟».

قال بنبرة مسطحة: «لا يعرف هذا إلا الرب».

«أهو واقع في مشكلة؟».

«أظن هذا، لكن أحداً لا يفصح عن شيء».

«لكن، ماذا حدث؟».

اتخذ وجه آندي تعبير: *من يدري؟*... «كان هنا عندما عدنا من المدرسة، كان صوت الموسيقى منبعثاً من غرفته. فرحت كيتزي كثيراً وجَرَت للسلام عليه، لكنه صرخ عليها وأغلق الباب في وجهها».

عجيب! كيتزي تعبده عبادة.

«ثم أتت ماما إلى البيت. لقد كانت في غرفته. ثم تكلّمت بالهاتف وقتاً طويلاً. أظن أن بابا في طريق العودة الآن. كان من المفترض أن يخرجا الليلة لتناول العشاء مع آل تيكنور، لكن يبدو لي أن تلك الخطة قد ألغيت».

سألته بعد صمت قصير: «وماذا عن عشائنا؟». فعادة ما كنا نتناول عشاء مبكراً أمام التلفزيون أيام المدرسة، ونكتب واجباتنا في الوقت نفسه. وأما في وجود بلات في البيت، وإذا كان السيد باربر في طريق العودة فعلاً، وإذا كانت خطتهما المسائية قد ألغيت، فمن المرجّح أن يكون عشاءً عائليّاً في غرفة الطعام.

عدّل آندي وضع نظارته بطريقته الخرقاء المرتبكة كما تفعل النساء العجائز. على الرغم من شقرة شعره، ومن أن شعري داكن اللون، فقد كنت شديد الانتباه إلى تطابق النظّارتين اللتين اختارتهما السيدة باربر لنا فجعلتانا نبدو توأمين، لكنني كنت صاحب مظهر التوأم الذكي المثقف ـ خاصة بعد أن سمعت مصادفة عدة بنات في المدرسة يطلقن علينا اسم «الأخوان الأحمقَان»، أو لعل ذلك كان «الأخوان الغبيّان» ـ لم يكن ذلك مديحاً، في الحالتين.

قال لي: «فلنذهب إلى سيرنديبتي ونأكل الهامبرغر. أفضّل ألا أكون هنا عندما يصل البابا إلى البيت».

على نحو غير متوقّع، جرت كيتزي إلينا وتوقّفت أمامنا متوردة الخدين مبهورة الأنفاس وقالت: «خذاني معكما».

نظر كلٌّ منا إلى الآخر. عادة، لا تحب كيتزي أن يراها أحد واقفة معنا، حتى على موقف الباص!

قالت بصوت شاكٍ وعيناها تتنقّلان بيننا: «أرجوكما. ذهب تودي إلى تمرين كرة القدم. وأنا لديَّ نقود. لا أريد أن أبقى معهم وحدي... أرجوكما».

قلت لآندي: «أوه، فلنأخذها». رمقتني كيتزي بنظرة شكر.

وضع آندي يديه في جيبيه وقال لها بصوته البارد: «لا بأس».

نظرت إليهما... زوج من الفئران البيضاء ـ لكن كيتزي كانت حلوة، كانت الفأرة الجنية الأميرة؛ أما آندي فكان أشبه بفأر سيئ الحظ مصاب بفقر الدم قابع في متجر للحيوانات الأليفة... فأر يمكن أن تشتريه حتى تقدّمه طعاماً لأفعى عاصرة.

قال لها عندما وجدها لا تزال واقفة تنظر إليه: «اذهبي وارتدي ملابسك. هيا. لن أنتظرك. ولا تنسي أن تأتي بنقودك لأنني لن أدفع عنك شيئاً».

13

مضت عدة أيام بعد ذلك لم أذهب فيها إلى بيت هوبي، وذلك بدافع من حسّ الولاء تجاه آندي. إلا أن إغراء الذهاب كان كبيراً نتيجة جو التوتّر الذي كان مخيماً على الأسرة كلها. اتضح لي أن آندي محقّاً: كان تحديد ما فعله بلات أمراً مستحيلاً. لأن السيد والسيدة باربر راحا يتصرّفان كأن ما من شيء خاطئ على الإطلاق (لكن المرء كان يرى أن هنالك شيئاً ليس على ما يرام)؛ ثم إن بلات نفسه ما كان ليقول شيئاً، وما كان يفعل شيئاً إلا الجلوس على وجبات الطعام متجهّماً وقد انسدل شعره على وجهه.

قال لي آندي: «صدّقني إذا قلت لك إن الوضع يكون أفضل في وجودك. إنهما يتحدّثان ويبذلان جهداً أكبر حتى يظهرا طبيعيين».

«ما الذي تظنّ أن بلات فعله؟».

«صدقاً، لا أعرف. ولا أريد أن أعرف».

«كيف لا تريد؟».

أجابني آندي مستسلماً: «لا بأس، أريد! لكن الحقيقة أنني لا أملك أدنى فكرة عن الأمر».

«أتظنّ أنه غش؟ أو سرق؟ أو أساء السلوك في الكنيسة؟».

هز آندي كتفيه.

«عندما وقع في مشكلة المرة الماضية كان ذلك نتيجة ضربه شخصاً على وجهه بعصا لعبة لاكروس. لكن تلك الحالة لم تكن مثل ما نراه الآن...». ثم أضاف آندي منزعجاً: «أمي تحب بلات أكثر من الجميع».

سألته مراوغاً على الرغم من معرفتي التامة بأن ما قاله صحيح: «أتظن هذا؟».

«بابا يحب كيتزي أكثر من الجميع. وأمي تحب بلات».

قلت له قبل أن أدرك تماماً كيف يمكن أن يبدو كلامي له: «كما أنها تحب تودي كثيراً».

كشَّر آندي وقال: «لولا أنني أشبه أمي كثيراً لقلت إنهم أبدلوني عند الولادة».

14

لسبب ما، خطر في ذهني خلال هذه الفترة المتوتّرة (ربما لأن مشكلة بلات الغامضة ذكرتني بمشكلتي) أنه قد يكون عليَّ إخبار هوبي بأمر اللوحة، أو... على أقل تقدير... طرح الأمر بطريقة مواربة حتى أرى كيف تكون ردة فعله. لكن الصعوبة كانت في كيفية طرح الأمر. كانت اللوحة لا تزال باقية في شقتنا، تماماً حيث تركتها، في الكيس الذي خرجت به من المتحف. عندما رأيت ذلك الكيس مستنداً إلى الأريكة في غرفة المعيشة في ذلك العصر المخيف يوم عدت لآخذ أشياء تلزمني من أجل المدرسة. يومها، مررت بجانبها، وحرصت على الابتعاد قليلاً أثناء مروري مثلما يمكن أن أبتعد عن متشرد قبيح جالس على الرصيف. كنت أشعر طيلة الوقت بعينيّ السيدة باربر الباردتين الشاحبتين مسلطتين على ظهري وعلى شقتنا وأشياء أمي بينما كانت واقفة بالباب طاوية ذراعَيْها على صدرها.

كان الوضع معقّداً. وكانت معدتي تنقبض كلما فكرت في ذلك الأمر

مما جعل ردة فعلي الأولى أن أبعد المشكلة عن ذهني وأفكر في أمر آخر. ولسوء الحظ، كنت قد أجّلت الأمر زمناً طويلاً إلى حد جعلني غير قادر على قول شيء عنه لأي شخص، ثم بدأت أشعر بأن الوقت قد تأخّر. وكلما أمضيت وقتاً أكثر مع هوبي ـ ومع خزائنه وأرائكه الكسيحة وتلك الأشياء القديمة التي يعتني بها ـ كلما ازداد إحساسي بأن بقائي على ذلك الصمت غير صحيح. ماذا لو عثر أحد على اللوحة؟ ماذا سيحدث لي؟ كنت أعرف أن صاحب الشقة يمكن أن يذهب إليها ـ لديه مفتاح. لكن، حتى إن ذهب إلى الشقة، فإنني ما كنت أظن أنه سيرى اللوحة بالضرورة. لكني كنت أعرف أنني أغري القدر بأن ينقلب ضدي من خلال تركها هناك وتأجيل اتخاذ القرار بشأن ما أفعله بها.

لم يكن ذلك لأنني ممتنع عن إعادتها؛ فلو كنت قادراً على فعل ذلك بطريقة سحرية ما، من خلال التمنّي، لفعلته في ثانية واحدة. لكني لم أستطع التفكير في طريقة صالحة لإعادتها من غير أن أعرّض نفسي، أو أعرّضها، للخطر. منذ ذلك التفجير في المتحف، نُشرت في المدينة كلها إعلانات تقول إن أي طرد متروك، لأي سبب كان، سوف يتعرّض للإتلاف. وهذا ما أودى بخططي اللامعة لإعادتها من غير أن أكشف عن هويتي. قالوا إنهم سيفجّرون أية حقيبة مشبوهة، أو أي طرد مشبوه من غير تردّد ومن غير طرح أي سؤال.

ومن بين من أعرفهم من الأشخاص الكبار، ما كان هنالك غير اثنين فكّرت في إمكانية الثقة بهما: هوبي، والسيدة باربر. وبطبيعة الحال، فقد بدا هوبي وجهةً أكثر تعاطفاً معي وأقل إثارة لخوفي. سيكون من الأسهل كثيراً أن أشرح لهوبي كيف حدث أن أخرجت اللوحة معي من المتحف. سيفهم أن ذلك كان غلطة... نوعاً ما. سيفهم أنني كنت أنفذ ما قاله لي ويلتي؛ فضلاً عن أنني كنت مصاباً بارتجاج دماغيّ. سيفهم أنني لم أفكر في ما كنت أفعله؛ وسيفهم أنني لم أقصد ترك اللوحة هذه الفترة كلها.

لكني، في حالة الشلل التي كنت أعيشها، رأيت أن من الجنون أن أتقدّم بنفسي وأقر بما كنت أعرف أن أناساً كثيرين سيعتبرونه فعلة خاطئة بكل معنى الكلمة. وعندها، بفعل المصادفة ـ تماماً عندما بدأت أدرك أنني غير قادر على الانتظار أكثر مما انتظرت قبل أن أفعل شيئاً ـ رأيت صورة صغيرة بالأبيض والأسود لتلك اللوحة في قسم الأعمال في صحيفة تايمز.

لعل حالة الاضطراب التي ألمّت بالأسرة عقب ما حل ببلات من خزي هي ما سمحت بأن تجد تلك الصحيفة ـ مصادفةً ـ طريق الخروج من مكتب السيد باربر، فتوزّعت صفحاتها وصارت تظهر هنا وهناك، في أوقات مختلفة. وكانت تلك الصفحات، المطوية على نحو غريب، متناثرة بالقرب من كأس الصودا المغلّف بمنديل طعام على طاولة القهوة في غرفة المعيشة. كانت مقالة طويلة مضجرة تتناول قطاع التأمين ـ تحدّثت عن الصعوبات المالية التي ترافق إقامة معارض فنّية كبيرة في ظل اقتصاد مضطرب، وخاصة صعوبة التأمين على الأعمال الفنية المسافرة من أجل المعارض. لكن ما لفت نظري كان سطراً من الكتابة تحت الصورة: ***تلف العمل الفني الكبير: لوحة «الحسون» لكاريل فابريتيوس ـ 1654.***

ومن غير تفكير، جلست في كرسي السيد باربر وراحت عيناي تمسحان النص الكثيف بحثاً عن أي ذكر آخر للوحتي. كنت قد بدأت التفكير فيها باعتبارها *لوحتي*؛ وقد انزلقت تلك الفكرة إلى دماغي كما لو أنني صاحب تلك اللوحة طيلة حياتي.

في حالات الإرهاب الثقافي، تظهر أسئلة متعلّقة بالقانون الدولي، وبينها هذا السؤال الذي جعل القشعريرة تسري في القطاع المالي، وفي عالم الفن أيضاً. يقول موراي تويتشيل، وهو محلّل للمخاطر التأمينية في لندن: «إن خسارة عمل واحد من هذه الأعمال أمر يستحيل تقييمه بالمال. فإلى جانب اثني عشر عملاً فنياً يفترض تلفها، لحقت أضرار

كبيرة بسبعة وعشرين عملاً آخر؛ علماً أن إصلاح بعضها أمر ممكن. وفي ما قد يبدو في نظر الكثيرين إلماحة مشؤومة، قامت قاعدة بيانات الأعمال الفنية المفقودة...».

كانت تتمة المقالة على الصفحة التالية، لكن السيدة باربر دخلت الغرفة في تلك اللحظة، فكان علي أن أضع الصحيفة من يدي.

قالت لي: «ثيو، لدي اقتراح أقدّمه من أجلك».

سألتها بحذر: «ماذا؟».

«هل تحب الذهاب معنا إلى ولاية ماين هذه السنة؟».

مرّت لحظة غمرني الفرح فيها إلى حد جعلني غير قادر على قول شيء... ثم أجبتها: «نعم! واو! سيكون ذلك رائعاً!».

لم تستطع منع نفسها من الابتسام، قليلاً. قالت: «لا بأس. ستكون فرصة سعيدة لجعلك تعمل على القارب. والظاهر أننا سنذهب هذه السنة في وقت أبكر قليلاً من المعتاد ـ الحقيقة أن تشانس والأطفال سيذهبون في وقت أبكر، أما أنا فسأبقى في المدينة لأن عليَّ إنجاز بعض الأمور قبل أن ألتحق بالبقية بعد أسبوع أو بعد أسبوعين».

كنت سعيداً إلى حد جعلني غير قادر على التفكير في قول شيء لها.

«لنر إن كنت تحب الإبحار. ولعلّه يعجبك أكثر مما يعجب آندي. فلنأمل هذا على أية حال!».

قال لي آندي مكتئباً عندما ركضْت عائداً إلى الغرفة (جريت، ولم أذهب مشياً) لأزف إليه الخبر الطيب: «أتظن ذلك سيكون شيئاً ممتعاً؟ لن يكون ممتعاً. وسوف تكرهه». على الرغم من هذا، كان واضحاً لي أن هذا التطور قد سرَّه. وفي تلك الليلة، قبل النوم، جلسنا معاً على حافة السرير السفلي لنتحدّث في أمر اختيار ما سنأخذه معنا من كتب وألعاب؛ كما شرح لي آندي أعراض دوار البحر حتى أتمكن من تصنّعها للتخلص من العمل على سطح المركب إذا لم يعجبني.

15

كان التطوران الجديدان ـ وكلاهما حسن ـ قد تركاني مفعماً بالراحة. بما أن لوحتي قد تلفت ـ إن كانت تلك هي الرواية الرسمية ـ فإن لدي الكثير من الوقت لتقرير ما أفعله. وبفعل ذلك السحر نفسه، بدا لي أن دعوة السيدة باربر ممتدة إلى بعد العطلة الصيفية، ممتدة حتى الأفق كما لو أن المحيط الأطلسي كله صار فاصلاً بيني وبين جدّي بيكر. كانت الحياة رائعة، مدوخة؛ وما كان علي إلا الاستمتاع بتلك الراحة. كنت أعرف أن علي تسليم اللوحة لهوبي أو للسيدة باربر، وأن عليَّ وضع نفسي تحت رحمتهما بأن أخبرهما بكل شيء وأرجو مساعدتهما ـ وفي زاوية مظلمة قصية من زوايا عقلي، كنت أعرف أنني سأندم إن لم أفعل ذلك. لكن عقلي كان شديد الامتلاء بولاية ماين وبالإبحار، فما كنت قادراً على التفكير في أي شيء آخر. وقد بدأ يخطر في ذهني أن من البراعة والذكاء أن أحتفظ باللوحة بعض الوقت لتكون نوعاً من التأمين من أجل السنوات الثلاث القادمة... تأمين احتياطي من أجل احتمال ذهابي للعيش مع جدي بيكر وزوجته دوروثي. بل كان من علائم سذاجتي المدهشة تفكيري في أنني قد أتمكن من بيعها، إذا ما اضطررت إلى ذلك. وهكذا لزمت الصمت واهتممت بالنظر إلى الخرائط والإشارات مع السيد باربر، وتركت السيدة باربر تأخذني إلى متجر بروكس براذرز لتشتري لي حذاء مناسباً للمركب وبعض الكنزات القطنية الخفيفة لكي أرتديها في البحر عندما يبرد الجو قليلاً في الليل. وهكذا، لم أقل لأحد شيئاً.

16

قال لي هوبي: «كانت كثرة التعليم مشكلتي. أو، هكذا كان رأي أبي!». كنت وقتها أعمل معه في الورشة وأساعده في تصنيف وترتيب عدد لا نهاية له من قطع خشب الكرز القديمة التي كان بعضها ميالاً إلى

اللون الأحمر وبعضها الآخر ميالاً إلى البني. وكلها مأخوذ من قطع أثاث قديمة تالفة. كنا نفعل ذلك بحثاً عن اللون الدقيق اللازم لترقيع واجهة ساعة جدارية كبيرة كان يعمل عليها. «كانت لدى أبي شركة نقل للشاحنات...». (كنت أعرف هذا من قبل؛ وكان اسم تلك الشركة شهيراً إلى حد جعله معروفاً لدي)... «وكان يجعلني أعمل في تحميل الشاحنات خلال عطلة الصيف وخلال عطلة عيد الميلاد ـ كان يقول إن عليَّ أن أقود شاحنة في المستقبل. وكان الرجال العاملون على أرصفة التحميل يصمتون جميعاً لحظة أسير في اتجاههم. أنت تعرف هذا... ابن صاحب الشركة. لم يكونوا مخطئين في ذلك لأن أبي كان رب عمل في غاية السوء. وعندما بلغت الرابعة عشرة، جعلني أعمل بعد عودتي من المدرسة وفي عطلة نهاية الأسبوع. كنت أواصل تحميل الصناديق، حتى تحت المطر. كنت أعمل في المكتب أحياناً ـ مكان زريّ بائس، مكان شديد البرودة في الشتاء شديد الحرارة في الصيف. وكنت أجد نفسي مضطراً إلى الصراخ حتى عندما أتكلم مع شخص جالس إلى جانبي... يعلو صوتي بسبب ضجيج مراوح التهوئة. اقتصر ذلك في البدء على العطلة الصيفية وعطلة عيد الميلاد. لكنه أعلن عندما أنهيت سنتي الثانية في الجامعة أنه لن يدفع نفقات تعليمي بعد ذلك».

وجدت قطعة خشب بدت لي شبيهة بالقطعة المكسورة فدفعتها في اتجاهه قائلاً: «هل كانت درجاتك سيئة في الجامعة؟».

«لا... كان أدائي حسناً...». قال هذا وهو يرفع قطعة الخشب في اتجاه الضوء وينظر إليها ثم يضعها مع مجموعة القطع المختارة التي يمكن أن تكون مناسبة... «كانت المشكلة أنه لم يذهب إلى الجامعة، لكنه يجد نفسه ناجحاً في الحياة! فهل أظن نفسي أحسن منه؟». لكن، كان في الأمر ما يتجاوز ذلك... نعم، كان أبي من ذلك النوع من الرجال الذي يحب إزعاج كل شخص حوله والتنمّر عليه ـ أنت تعرف هذا النوع ـ وأظن أن

الفكرة التي استقرت في رأسه آنذاك هي أن امتناعه عن دفع مصاريف دراستي كان الطريقة المثلى لإبقائي تحت سلطته لكي أستمر في العمل معه مجاناً! في البداية...». أمضى لحظات في تأمّل قطعة أخرى من قشر الخشب، ثم وضعها ضمن كومة القطع المرشحة... «أخبرني في البداية أن عليّ أن أنقطع سنة عن الجامعة ـ أربع سنين، خمس سنين، مهما تكن المدة ـ حتى أشتغل وأكسب مالاً كافياً لتغطية بقية مصاريفي في الجامعة. لم أر قرشاً مما جنيته. كنت أعيش في البيت، وكان يضع ذلك المال كلّه في حساب خاص... أنت ترى، من أجل مصلحتي! أمر قاس، خشن، لكنه منصف... هكذا اعتبرته! ثم... بعد أن عملت لديه طيلة الوقت مدة ثلاث سنين... تغيرت قواعد اللعبة. فجأة...». ضحك وهو يقول هذا... «نعم، ألم أفهم الصفقة منذ البداية؟ لقد كنت أسدد له مصاريف السنتين اللتين أمضيتهما في الجامعة! لم يحتفظ لي بأي شيء!».

قلت له بعد صمت قصير نتيجة الصدمة: «هذا فظيع!». لم أفهم كيف كان قادراً على الضحك من أمر ظالم إلى هذا الحد!

«حسناً... كنت لا أزال غرّاً بعض الشيء، وأدركت أنني سأفني عمري وأصير عجوزاً قبل أن أفلح في الإفلات منه. لكني ما كنت أمتلك مالاً، ولا مكاناً أعيش فيه، فما الذي أستطيع فعله؟ كنت أُعمِل التفكير من أجل التوصّل إلى حلٍّ ما عندما أتى ويلتي إلى المكتب ذات يوم وكان أبي يوبخني في تلك اللحظة. كان أبي يحب إهانتي أمام عماله؛ يتجوّل في الغرفة مختالاً كأنه زعيم من زعماء المافيا ويقول إنني مدين له بالمال من أجل هذا الأمر وذاك، ويقول إنه يأخذ ماله من 'راتبي' المزعوم. وكان يقول أيضاً إنه يحجب عني راتبي لأنني ارتكبت مخالفات وهمية... وذلك النوع من الأشياء...».

«... لم تكن تلك أول مرة أرى فيها ويلتي. لقد جاء إلى المكتب سابقاً من أجل الاتفاق على شحن مواد اشتراها من واحد من القصور الريفية

القديمة ـ كان يزعم دائماً أن ظهره المحدودب يضطره إلى بذل جهد أكبر لإحداث أثر حسن ولجعل الناس يتجاوزون هذا التشوّه ويتعاملون معه، وأشياء من هذا القبيل... لكنه أعجبني منذ البداية. كان محط إعجاب أكثر الناس ـ حتى أبي الذي لا أجدني في حاجة إلى القول إنه لم يكن رجلاً ودوداً مع الآخرين. على أي حال فقد اتصل ويلتي في اليوم التالي مع أبي، بعد أن شهد هذا التوبيخ، وقال إنه يريدني لمساعدته في توضيب الأثاث في القصر الذي اشترى محتوياته. كنت فتى ضخماً قوياً، وبالتالي عاملاً مجدّاً... هذا ما أراده. نعم...». وقف هوبي وتمطط رافعاً ذراعيه فوق رأسه... «كان ويلتي عميلاً جيداً، فوافق أبي على طلبه...».

«كان القصر الصغير الذي ساعدته في توضيب أثاثه بيت السيدة دي بيستر. وشاءت الصدف أن أكون على معرفة جيدة بتلك السيدة. فمنذ طفولتي، كنت أحب الذهاب لزيارتها. امرأة عجوز طريفة تضع شعراً مستعاراً لماعاً أصفر اللون؛ وكانت منجماً للمعلومات إذ لديها صحف في كل مكان وتعرف كل شيء في ما يتعلّق بالتاريخ المحلّي. كانت لديها أيضاً قدرة عجيبة على حكاية القصص بطريقة مسلّية جذابة. وكان بيتها كبيراً مليئاً بزجاج تيفاني وببعضٍ من قطع الأثاث الممتازة من القرن التاسع عشر. كنت قادراً على المساعدة في تحديد مصادر قطع كثيرة بأفضل مما تستطيعه ابنة السيدة دي بيستر التي لم تبدِ أدنى اهتمام بالكرسي الذي جلس عليه الرئيس ماكِنلي ذات مرة، ولا بأي شيء من تلك الأشياء...».

«... كنت مغطّى بالغبار من رأسي إلى قدمي يوم انتهيت من مساعدته في ذلك البيت ـ كان ذلك قرابة السادسة مساء ـ فتح ويلتي زجاجة نبيذ فجلسنا على الصناديق وشربناها... أرضيات خالية وأصداء تردّد كل صوت في ذلك البيت الخاوي. كنت مرهقاً؛ وقد دفع لي أجري مباشرة، نقداً، وترك أبي خارج الأمر. عندما شكرته وسألته إن كان على علم بأي

عمل آخر لي أجابني: انظر، لقد افتتحت متجراً في نيويورك منذ فترة بسيطة؛ وإذا كنت تريد عملاً، فقد حصلت عليه. وهكذا اتفقنا وقرعنا كأسَيْنا. عدت إلى البيت وحزمت حقيبة ملأت أكثرها بالكتب وودعت خادمتنا، ثم خرجت إلى الطريق واستوقفت شاحنة أخذتني إلى نيويورك التي وصلتها صباح اليوم التالي. ولم أنظر خلفي أبداً».

تلت ذلك فترة صمت. كنا مستمرِّين في البحث بين تلك القطع الخشبية: رقائق خشبية صغيرة تتصادم وتقرقع كأنها لعبة صينية، وخفةٌ غريبة في أصواتها جعلتني أحس بنفسي ضائعاً في صمت أكثر اتساعاً.

رأيت قطعة فالتقطها قائلاً: «ها هي!». ثم ناولتها له مزهواً: اللون نفسه تماماً؛ أقرب من أية قطعة وضعناها جانباً منذ بداية بحثنا.

أخذها مني ونظر إليها في ضوء المصباح. ثم قال: «لا بأس بها!».

«ما مشكلتها؟».

وضع تلك القطعة على واجهة الساعة وقال لي: «هل ترى؟... في هذا النوع من العمل، لا بد لك من مطابقة تعريقة الخشب. هنا مكمن الأمر كله. لا صعوبة في معالجة اختلافات بسيطة في اللون. انظر إلى هذه...». تناول قطعة أخرى كان واضحاً أن لونها مختلف عدة درجات عما هو مطلوب... «باستخدام شيء من شمع النحل وقليل من صباغ مناسب... ربما. ثنائي كرومات البوتاسيوم، ولمسة من اللون البني المائل إلى الرمادي... أحياناً، مع تعريقات تصعب مطابقتها في بعض أنواع خشب الجوز خاصة أستخدمُ الأمونيا لكي أجعل الخشب الجديد قاتماً قليلاً. لكني لا أفعل هذا إلا عندما لا أجد سبيلاً آخر. من الأفضل دائماً استخدام خشب مأخوذ من مصدر شبيه بمصدر القطعة التي تصلحها، إن كان متوفراً لديك».

سألته بعد لحظة صمت ناجمة عن خجلي وترددي: «كيف تعلّمت هذا كله؟».

ضحك وقال: «مثلما تتعلّمه أنت الآن! عن طريق وجودي في الورشة ومراقبة ما يجري. وعن طريق جعل نفسي مفيداً في العمل».

«هل علّمكَ ويلتي؟».

«أوه، أوه، لا. كان يفهم الأمر كله ويعرف كيف يقوم به. لا بد لك من ذلك في عمل من هذا النوع. لقد كانت له عين يمكن الاعتماد عليها تماماً؛ وكثيراً ما كنت أصعد إلى المتجر فآتي به عندما أريد نصيحة. لكن، كان يعطيني أحياناً قطعاً في حاجة إلى استصلاح، قبل انضمامي إليه إلى هذا العمل. هذا عمل يستلزم وقتاً طويلاً، ويتطلّب ذهنية مناسبة. لم يكن لدى ويلتي المزاج المناسب ولا الطاقة الجسدية لكي يقوم به. كان أكثر ميلاً إلى الجزء المتعلّق بشراء القطع ـ أي الذهاب إلى المزادات ـ أو إلى البقاء في المتجر والتحدّث مع العملاء. كنت أصعد إليه بعد ظهر كل يوم، نحو الساعة الخامسة، لنشرب الشاي. وكان يقول لي: 'هل خرجت من زنزانتك؟' ففي تلك الأيام، كان القبو في حالة سيئة حقّاً، وكانت فيه عفونة ورطوبة. عندما جئت للعمل لدى ويلتي...». ضحك عندما قال هذا... «كان لديه شخص اسمه آبنر موسبانك. ساقان شبه كسيحتين، وأصابع مصابة بالتهاب المفاصل، وعينان لا تكادان تبصران. كان إنجازه قطعة واحدة يستغرق بعض الأحيان سنة كاملة. لكني صرت أقف إلى جانبه وأنظر إليه عندما يعمل. كان أشبه بطبيب جراح! لم أكن قادراً على طرح أسئلة. صمت مطبق. لكنه كان يعرف كل شيء، كل شيء على الإطلاق. يعرف كيف يقوم بأمور لا يعرفها غيره ـ أو لا يهتم غيره بأن يتعلّمها ـ هذه مهنة معلّقة بخيط طويل ممتد من جيل إلى جيل».

«هل أعطاك أبوك النقود التي كسبتها؟».

ضحك هوبي ضحكة دافئة: «لم يعطني قرشاً واحداً! ولم يكلمني بعد ذلك أبداً. كان وغداً حقوداً... مات بسكتة قلبية أثناء طرده واحداً من أقدم موظفيه. كانت جنازته من أصغر الجنازات التي يمكن أن تراها.

ثلاث مظلات سوداء تحت المطر الثلجي. يصعب ألا يتذكر المرء شخصية إبينيزر سكروج»[1].

«وهل عدت لإكمال دراستك في الجامعة؟».

«لا، لم أعد ولم أكن راغباً في ذلك. لقد وجدت ما أحب فعله. وهكذا...». وضع يديه خلف ظهره وتمطّط. جعلته سترته الفضفاضة المتّسخة قليلاً المهترئة عند المرفقين يبدو أشبه بسائس خيل طيّب القلب ذاهب إلى الإسطبلات... «مغزى القصة كلها... من عساه يدري أين يأخذك هذا كله؟».

«هذا كلّه؟».

ضحك وقال وهو ينهض متجهاً إلى الرف الذي اصطفت عليه زجاجات الصباغ مثلما تكون زجاجات الأدوية مرتبة على رف في الصيدلية... ألوان بنية متدرّجة، وألوان خضراء سامة، ومساحيق من الفحم والعظام المحروقة: «أعني رحلتك البحرية! قد تكون تلك لحظة حاسمة. هكذا يجتذب البحر بعض الناس».

قلت: «يصاب آندي بدوار البحر. يحمل معه على المركب كيساً حتى يتقيأ فيه».

تناول دورقاً فيه صبغة فاحمة السواد: «لا بأس... البحر لم يجتذبني أبداً. عندما كنت طفلاً، لم تستهوني تلك الأغاني عن البحارة القدامى ولا تلك الرسوم الملونة... لا، كان المحيط يخيفني؛ لكني لم أذهب أبداً في مغامرة مثل مغامرتك هذه. لا يمكنك توقّع شيء. لأن...» تغضّن حاجباه وهو يذرو شيئاً من ذلك المسحوق الناعم على القطعة الخشبية... «لم أكن أفكر أبداً في أن ذلك الأثاث العتيق لدى دي بيستر سيكون الشيء الذي أضع فيه مستقبلي كله. ربما تسحرك سرطانات الناسك فتجعلك

(1) إبينيزر سكروج: بطل رواية "ترنيمة عيد الميلاد" لتشارلز ديكنز: شخصية رجل بارد القلب شديد البخل.

مهتماً بدراسة البيولوجيا البحرية. أو من الممكن أن تقرر العمل في بناء السفن، أو أن ترسم لوحات بحرية، أو أن تؤلف كتاباً عظيماً عن لوسي تانيا»[1].

قلت وأنا أضع يدي خلف ظهري: «ربما...». لكني لم أكن لأجرؤ على الإفصاح عمَّ كان معقد آمالي. بل إن التفكير فيه كان يحملني على الارتجاف. أقول هذا لأن كيتزي وتودي صارا أكثر لطفاً معي... أكثر لطفاً بكثير... كأن أحداً يدفعهما إلى ذلك دفعاً. وكنت أرى لمحات وإشارات خفية بين السيد والسيدة باربر جعلتني أجرؤ على الأمل... بل على ما هو أكثر من الأمل. والحقيقة أن آندي هو من وضع الفكرة في رأسي. قال لي عندما كنا في طريقنا إلى المدرسة منذ أيام: «يظنان أن وجودك معي مفيد لي، وأنك تخرجني من قوقعتي وتجعلني اجتماعياً أكثر من ذي قبل. أظنهما سيعلنان شيئاً ما بعد أن نصل إلى ماين».

«يعلنان شيئاً؟».

«لا تكن غبياً! لقد صارا متعلقَيْن بك كثيراً ـ أمي خاصة. لكن، أبي أيضاً! أظن أنهما قد يكونا راغبَيْن في بقائك معنا دائماً».

17

عدت بالباص؛ وكنت ناعساً بعض الشيء أتمايل مرتاحاً مع حركة الباص، أماماً وخلفاً، وأنظر إلى شوارع يوم الأحد المبللة تمر بي خطفاً. عندما دخلت الشقة ـ كنت أشعر بالبرد نتيجة السير تحت المطر ـ جرت كيتزي إلى الردهة ونظرت إليَّ بعينين متسعتين تفيضان دهشة كأنني نعامة دخلت الشقة من غير قصد. وبعد بضع ثوانٍ من التحديق، جرت في اتجاه غرفة المعيشة... صندلها يطقطق على الأرضية الخشبية وهي تصيح: «ماما! لقد وصل».

---

(1) لوسي تانيا: سفينة ضخمة أغرقتها غواصة ألمانية في المحيط الأطلسي سنة 1915.

ظهرت السيدة باربر وقالت لي: «مرحباً يا ثيو». كانت هادئة تماماً، لكني رأيت في هيئتها شيئاً شبه متكلّف رغم أنني لم أستطع تحديده تماماً... «تعال، لديّ مفاجأة لك».

لحقت بها إلى مكتب السيد باربر الذي كان معتماً بعض الشيء نتيجة الغيوم الكثيفة... كانت لوحات المخططات الملاحية في إطاراتها والمطر المنسكب على زجاج النوافذ الرمادي أشبه بمشهد مسرحي لقمرة سفينة في بحر هائج. وفي الناحية الأخرى من الغرفة، نهض شخص عن مقعد جلد وقال لي: «مرحباً يا صاحبي، لم أرك منذ وقت طويل».

وقفت بباب الغرفة متجمداً. لا يمكن أن أخطئ هذا الصوت: «إنه أبي!».

تقدّم فصار في الضوء الواهن الآتي من النافذة. نعم، إنه هو على الرغم مما أصابه من تغير منذ رأيته آخر مرة: صار أكثر ثقلاً وأشد سُمرة، وكان منتفخ الوجه في بدلة جديدة وتسريحة شعر جعلته أشبه بعامل بار في قلب المدينة. وفي غمرة فزعي، التفتّ إلى السيدة باربر فابتسمت لي ابتسامة متألّقة، لكنها عديمة الحول كأنها تقول لي: *أعرف، لكني لا أستطيع فعل شيء!*

كنت لا أزال واقفاً مصدوماً، عاجزاً عن الكلام عندما نهض شخص آخر وتقدم في اتجاهي حتى صار أمام أبي. سمعت صوتاً عميقاً يقول: «مرحباً، أنا كساندرا!».

وجدت نفسي أنظر إلى امرأة غريبة ناحلة لوَّحتها الشمس: عينان رماديتان من غير تعبير، وجلد نحاسي، وأسنان فيها شيء من التباعد والميلان إلى الداخل. كانت أكبر من أمي، أو هكذا بدت لي على الأقل؛ لكن ملابسها كانت ملابس امرأة أصغر سناً: صندل مسطح أحمر، وبنطلون جينز منخفض الخصر، وحزام عريض، وحلي ذهبية كثيرة. كان شعرها أشقر فيه شيء من لون الكراميل... شعر سَبط منسدل، لكن نهاياته مشعّثة. كانت تمضغ علكة بنكهة الفاكهة فاحت منها رائحتها القوية.

قالت بصوتها الأجش: «اسمي كساندرا، بحرف الكاف، وليس ساندرا...». عينان صافيتان عديمتا اللون من حولهما خطوط ماسكارا داكنة... نظرتها قوية واثقة ثابتة... «وبالتأكيد، لست ساندي. كثيراً ما ينادونني بهذا الاسم، لكنه يزعجني تماماً».

كانت تتكلّم، وكانت دهشتي في ازدياد. لم أستطع استيعابها: صوتها العميق، وذراعاها بارزتا العضلات، وتلك الكلمة الصينيّة الموشومة على إبهام قدمها، وأظافر يديها الطويلة المربعة التي صبغت نهاياتها بلون أبيض، وقرطاها الشبيهان بنجمَي بحر.

تنحنح أبي وقال: «ممم، وصلنا إلى مطار لا غوارديا منذ ساعتين»... كما لو أن هذا يوضح كل شيء.

أهذه هي المرأة التي تركَنا أبي من أجلها؟ مذهولاً، التفتُّ إلى السيدة باربر من جديد، لكني اكتشفت أنها قد اختفت.

قال أبي وهو ينظر إلى مكان ما في الجدار فوق رأسي: «إنني أعيش في لاس فيغاس الآن يا ثيو...». لا يزال لديه ذلك الصوت الواضح المضبوط الذي تعلّمه عندما كان ممثلاً؛ لكني كنت أرى أنه ليس مرتاحاً أكثر مني أبداً على الرغم من النبرة السلطوية المعهودة في كلامه... «أظن أنه كان من الأفضل أن أتصل قبل وصولي، لكني ظننت أيضاً أنه سيكون أكثر سهولة أن نأتي مباشرة لنأخذك».

أجبته بعد صمت طويل: «تأخذاني».

قالت له كساندرا: «أخبره يا لاري...». ثم انتقلت إليّ... «يجب أن تكون فخوراً بأبيك. لقد تمكّن من فعل ذلك... كم يوماً مر عليك من غير شرب حتى الآن؟ واحد وخمسون يوماً؟ لقد فعل هذا بمفرده... لم يذهب إلى أي مصح... بل تخلّص من آثار الشرب وهو مستلقٍ على الأريكة ومعه سلة من حلوى عيد الميلاد وزجاجة فاليوم».

كنت في غاية الحرج من النظر إليها أو من النظر إلى أبي. نظرت إلى

باب الغرفة من جديد فرأيت كيتزي باربر واقفة في الممر مصغية إلى كل ما يقال وقد اتسعت عيناها المدوَّرتان. أضافت كساندرا: «هذا لأنني لم أكن قادرة على احتمال استمرار ذلك...». قالت هذا بنبرة موحية بأن أمي كانت السبب في إدمان أبي على الكحول، كما لو أنها كانت تشجعه على ذلك... «أعني كانت أمي سكيرة يمكن أن تتقيأ في كأسها، ثم تتابع الشرب منه. وفي إحدى الليالي، قلت له: لاري، لن أقول لك ألا تشرب بعد الآن. وأظن، بصراحة، أن جمعية المساعدة للتخلّص من الكحول أكثر بكثير مما تتطلبه المشكلة التي لديك...».

تنحنح أبي من جديد والتفت إليّ بوجه لطيف لا يستخدمه عادة إلا مع الأشخاص الغرباء. لعله توقّف عن الشرب فعلاً، لكن هيئته لا تزال منتفخة، لامعة، مذهولة قليلاً كأنه أمضى الشهور الثمانية الأخيرة في شرب الروم وتناول المقبلات.

قال لي: «اممم، يا بني... لقد وصلنا بالطائرة قبل قليل، ثم جئنا لأن... لأننا أردنا رؤيتك بأسرع ما يمكن، بالطبع...».

انتظرت تتمة الكلام.

«نريد مفتاح الشقة».

كانت الأمور تتطوّر بسرعة يصعب عليَّ استيعابها.

قلت له: «المفتاح؟».

قالت كساندرا بصراحة مباشرة: «لا نستطيع الدخول. لقد حاولنا ذلك».

«المسألة يا ثيو...». قال أبي هذا بصوت واضح لطيف وهو يمر بيده على شعره متخذاً مظهر من يعقد صفقة من صفقات الأعمال... «يجب أن أدخل إلى الشقة في سوتون لأرى كيف هو الوضع هناك. لا بد أن الشقة في حالة فوضى؛ ولا بد من ذهاب أحد إليها حتى يعتني بها».

لو أنك لا تتركين كل شيء في حالة فوضى لعينة... كانت هذه كلمات

سمعت أبي يصرخ بها مخاطباً أمي عندما حدثت بينهما أكبر مشاجرة أشهدها ـ قبل اختفائه بأسبوعين ـ وكان ذلك عندما اختفى قرطا أمي المطعَّمَيْن بالماس والزمرد من الطبق الصغير الذي تضعه على الطاولة إلى جانب السرير. قال لها أبي (محمرّ الوجه ساخراً متهكماً) إن الغلطة غلطتها لأن من المحتمل أن تكون سينثيا قد أخذت القرطين... أو أي شخص آخر... فليس من الحكمة أن يترك المرء المجوهرات مكشوفة هكذا؛ ولعل هذا يعلّمها درساً ويجعلها تهتم بأشيائها وتحرص عليها حرصاً أكبر. لكن أمي قالت له بصوت هادئ بارد ـ كان الغضب قد جعلها شاحبة كلها ـ إنها نزعت القرطين مساء الجمعة وإن سينثيا لم تأت منذ ذلك الوقت.

صاح أبي حانقاً: *ما الذي تحاولين قوله، بحق الجحيم؟*

صمت.

هذا يعني أنني لص؟ أليس كذلك؟ أنت تتهمين زوجكِ بسرقة مجوهراتك! فأي جنون مريض هذا! أنت في حاجة إلى مساعدة، هل تعرفين هذا؟ أنت في حاجة حقيقية إلى مساعدة تخصّصية...

لكن الاختفاء ما كان مقتصراً على اختفاء القرطين. فبعد أن جعل أبي نفسه يختفي من البيت، اتضح أن هنالك أشياء أخرى قد اختفت أيضاً، من بينها نقود وقطع عملات أثرية كانت لوالد أمي. فما كان من أمي إلا أن غيّرت أقفال البيت وحذّرت سينثيا والبوابين في الأسفل من السماح له بالدخول إذا أتى أثناء غيابها في العمل. أما الآن، فقد صار كل شيء مختلفاً، وما عاد أحد يستطيع منعه من دخول الشقة والعبث بحاجياتها وفعل ما يريده بها. إلا أنني بقيت واقفاً أنظر إليه محاولاً التفكير في شيء أقوله... كانت في رأسي أشياء كثيرة، وكانت اللوحة أول تلك الأشياء. مرت أسابيع وأنا أقول لنفسي كل يوم إن عليَّ أن أذهب لكي أهتم باللوحة، وإن عليَّ أن أتدبّر الأمر على نحو ما؛ لكنني واصلت تأجيل الأمر وتأجيله إلى أن جاء أبي وصار واقفاً أمامي.

كان لا يزال مبتسماً تلك الابتسامة الثابتة: «ماذا يا صاحبي؟ أتظن أنك راغب في مساعدتنا؟». لعله كف عن الشرب لكن تلك الرغبة الشديدة في تناول الشراب لا تزال واضحة عليه، لا تزال واخزة كالورق الرملي.

قلت: «ليس لديَّ مفتاح».

أجابني أبي سريعاً: «لا بأس. يمكننا استدعاء مصلح أقفال. أعطني الهاتف يا كساندرا».

فكرت سريعاً. لم أكن أريد ذهابهما إلى الشقة من دوني. قلت: «من الممكن أن يفتح لنا الباب خوسيه أو غولدي... إذا ذهبت معكما».

قال أبي: «عظيم... فلنذهب!». أوحت لي نبرة صوته أنه أدرك كذب قولي إن مفتاح الشقة ليس معي. أخفيته في مكان آمن في غرفة آندي. كنت أعرف أيضاً أن إدخال البوابين في الأمر لم يعجبه لأن أكثر الأشخاص العاملين هناك ما كان يقيم لأبي كبير اعتبار بعد رؤيته مرات ومرات في حالة ثمل شديد. لكني قابلت نظرة عينيه بأكثر ما قدرت عليه من هدوء إلى أن هز كتفيه وأشاح بوجهه عني.

18

«مرحباً يا خوسيه!».

صاح خوسيه: «مفاجأة!». وتراجع إلى الخلف خطوة مرحّبة عندما رآني على الرصيف. كان أصغر البوابين سناً وأكثرهم مرحاً؛ وكان يحاول دائماً أن ينسلّ قبل أن ينتهي وقت عمله حتى يلعب كرة القدم في الحديقة... «ثيو! كيف حالك أيها الرجل الصغير؟»[1]. ابتسامته المنفتحة البسيطة قذفت بي إلى الماضي بكل قوة. كان كل شيء على حاله: المظلة الخضراء فوق الباب، والظل الشاحب، وبركة الماء البنية الصغيرة في بقعة منخفضة من الرصيف. وقفت أمام بوابة البناية الأنيقة

(1) بالإسبانية في الأصل.

ـ معدن فضي لامع رصّعته بقع تجريدية من أشعة الشمس، وأبواب من تلك التي يمكن أن نرى صحافيين في قبعات لبادية يعبرونها في أفلام الثلاثينات ـ تذكّرت تلك المرات كلها التي اجتزت فيها هذه البوابة لأجد أمي في الداخل تفتش الرسائل البريدية أو تنتظر المصعد. تكون آتية من عملها... حذاء مرتفع الكعب، وحقيبة في يدها، ومعها أزهار أرسلتُها إليها من أجل عيد ميلادها. تقول لي: حسناً... *من يدري؟ لعله ذلك المعجَب الغامض مرة أخرى!*

كانت عينا خوسيه تنظران إلى ما بعدي... لقد رأى أبي وكساندرا المتأخرَيْن عني قليلاً. قال بنبرة أكثر رسمية وهو يلتف من حولي حتى يصافح أبي: «مرحباً يا سيد بيكر...». قالها بنبرة مهذبة، لكن من غير مودة أو حب... «مسرور برؤيتك».

ابتسم له أبي ابتسامته الساحرة وأراد أن يجيبه، لكني كنت شديد التوتر فقاطعته: «خوسيه...». لقد أجهدت عقلي في الطريق حتى أرتب جملة بالإسبانية وأتمرن عليها في سري... «مي بابا كويريه إنتار إين إيل أبارتامينتو، لو لينيسيسي تاموس أبرير لا بورتا»[1]. وبعد ذلك، أسرعت وقلت السؤال التي تمرنت عليه في الطريق: أوستيد بويدي سوبير كون نوسوتروس؟»[2].

مضت عينا خوسيه مسرعتين في اتجاه أبي وكساندرا: كان رجلاً ضخماً وسيماً من جمهورية الدومينيكان؛ وكان فيه شيء يشبه محمد علي كلاي. طبع حلو، ومزاح دائم... لكن أحداً لا يمكن أن يفكر بالعبث معه. ذات مرة، في لحظة ثقة، رفع خوسيه طرف سترته الرسمية وأراني ندبة باقية من طعنة سكين في بطنه. قال لي إنه تلقى هذه الطعنة خلال مشاجرة في الشارع في ميامي.

(1) بالإسبانية: «والدي يريد دخول الشقة. من الضروري أن تفتح لنا الباب».
(2) بالإسبانية: «هل يمكن أن تأتي معنا؟».

أجابني بنبرة لينة، باللغة الإنكليزية: «يسرّني هذا».

كان مستمراً بالنظر إليهما، لكني عرفت أنه يخاطبني... «سوف آخذكم إلى الشقة، هل هناك مشكلة؟».

قال أبي بنبرة مقتضبة: «لا؛ نحن بخير». كان هو من أصرّ على أن أدرس اللغة الإسبانية في المدرسة، كلغة أجنبية، بدلاً من الألمانية («حتى يكون لدينا في العائلة، شخص، على الأقل، قادر على التواصل مع هؤلاء البوابين الملاعين»).

أطلقت كساندرا ـ التي كنت قد بدأت أراها شخصية سخيفة غريبة الأطوار ـ ضحكة عصبية وقالت بصوتها السريع المتقافز: «صحيح، نحن بخير. لكن سفرنا بالطائرة كان متعباً حقاً. المسافة طويلة جداً من لاس فيغاس. ونحن لا نزال، قليلاً...». قلبت عينيها إلى أعلى وراحت تحرّك أصابعها بطريقة توحي بأنها مصابة بالدوار.

قال خوسيه: «نعم، حقاً؟ اليوم؟ هل أتيتم عبر مطار لا غوارديا؟». على غرار بقية البوابين، كان خوسيه شديد المهارة في هذه الأحاديث الصغيرة، خاصة إذا كانت أحاديث عن الطقس أو زحمة السير، أو عن أفضل طريق إلى المطار ساعة الزحام... «سمعت اليوم عن تأخّر رحلات كثيرة... مشكلة لدى عمال نقل الأمتعة... النقابة، أليس هذا صحيحاً؟».

طيلة رحلتنا بالمصعد، ثابرت كساندرا على ثرثرة مستمرّة وحماسية: قذارة نيويورك بالمقارنة مع لاس فيغاس («صحيح، أعترف بهذا، لأن كل شيء في الغرب أكثر نظافة. أظن أن الدلال أفسدني»). وعن سندويتش الديك الرومي الفاسد في الطائرة، وعن المضيفة التي «نسيت» (رسمت كساندرا هذين المزدوجين بأطراف أصابعها) أن تأتي لها بخمسة دولارات كانت بقية حساب النبيذ الذي طلبته لنفسها.

قال خوسيه وهو يخطو خارجاً من المصعد إلى الممر ويهز رأسه بتلك الطريقة الساخرة/ الجدية التي اعتادها: «نعم يا سيدتي! طعام

الطائرات... إنه أسوأ الطعام. في هذه الأيام، يكون المرء محظوظاً إن قدموا له شيئاً. لكنني سوف أخبرك أمراً عن نيويورك. ستجدين هنا طعاماً جيداً حقاً. تجدين ما يعجبك... طعام فيتنامي جيد، طعام كوبي جيد، طعام هندي جيد».

«لا أحب المأكولات كثيرة التوابل».

«أنت إذاً تريدين الطقس الجيد. إن لدينا طقساً جيداً. لحظة واحدة!...». قال هذا وهو يرفع إصبعه في الهواء ويبحث بيده الثانية عن المفتاح في حلقة المفاتيح التي يحملها.

فُتح القفل مصدراً تكة صماء أحسست بها تجري عميقاً بدمي. على الرغم من الهواء المحبوس في الشقة المغلقة، إلا أن رائحة البيت النفاذة غلبت كل شيء: الكتب والبسط ومنظف الأرض برائحة الليمون، وشموع برائحة المر[1] الداكنة اشترتها أمي من متجر بارني.

كان الكيس الذي أتيت به من المتحف لا يزال على الأرض، عند الأريكة، تماماً حيث تركته منذ... كم أسبوعاً مضى؟ كان في رأسي ما يشبه الدوار فأسرعت إلى الكيس بينما كان خوسيه لا يزال واقفاً بالباب مصغياً إلى كساندار وقد طوى ذراعَيه على صدره. كان يسد الطريق على أبي المنزعج، لكن من غير أن يبدو عليه فعل ذلك. ذكّرني ملمح وجهه الهادئ الشارد قليلاً بشكله عندما كان عليه ـ عملياً ـ أن يحمل أبي إلى الأعلى ذات ليلة صقيعية لأنه كان على درجة من السكر جعلته يفقد معطفه. يومها قال خوسيه بابتسامة عديمة المعنى: *يحدث هذا في أحسن العائلات!* ورفض أن يأخذ عشرين دولاراً حاول أبي تقديمها إليها... أبي المشوَّش الذي تقيأ على سترته وصار مشعثاً قذراً كما لو أنه كان يتدحرج على الرصيف... وعلى الرغم من ذلك، ظل يحاول دفع تلك النقود في وجه خوسيه.

سمعت كساندرا تقول له: «إنني من الشاطئ الشرقي، في حقيقة الأمر!

---

(1) هامش: المر مادة صمغية (راتنجية) تفرزها أغصان البيلسان عند تجريحها.

من فلوريدا...» ومن جديد، أطلقت تلك الضحكة العصبية المرتجفة المفرقعة... «من وِست بالم إذا أردت الدقة».

سمعت خوسيه يجيبها: «أتقولين إنك من فلوريدا؟ المكان جميل هناك».

«صحيح، إنه مكان رائع. إن لدينا شمساً، على الأقل، في لاس فيغاس ـ لست أدري إن كنت قادرة على قضاء الشتاء هنا. سوف أتحوّل إلى قطعة آيس كريم...».

أدركت أن الكيس خفيف جداً، لحظة التقطته ـ يكاد يكون فارغاً. أين هي اللوحة إذاً؟ كاد الذعر يعميني، لكني لم أكن قادراً على التوقف فتابعت السير في الممر بحركة آلية فدخلت غرفتي وأنا أحس ريحاً تعصف برأسي وتطحنني أثناء سيري.

تذكّرت الأمر على نحو مفاجئ ـ تذكّرته عبر ذكرياتي المشتتة عن تلك الليلة. كان الكيس مبتلاً. ولم أشأ ترك اللوحة فيه خشية أن تتعفن أو أن تذوب ألوانها أو... لا أدري ماذا. كيف نسيت هذا الأمر؟ وضعتها على البيرو في غرفة أمي بحيث تكون أول ما تقع عينها عليه عندما تعود إلى البيت. من غير أن أتوقّف تركت الكيس يسقط أمام باب غرفتي المغلق واستدرت سريعاً ودخلت غرفة أمي وأنا أشعر بما يشبه الدوار وآمل ألا يكون أبي آتياً في أعقابي... إلا أن خوفي الشديد منعني من الالتفات والنظر.

سمعت صوت كساندرا آتياً من غرفة المعيشة: «لا بد أنك ترى الكثير من المشاهير في الشارع، هنا، أليس كذلك؟».

«أوه، هذا صحيح. أرى لي برون، ودان آو كرويد، وتارا ريد، وغاي زي، ومادونا...».

كانت غرفة أمي مظلمة باردة، وكان شذا عطرها الخفيف الذي لا يكاد يُحَسّ أكثر مما أطيق احتماله. رأيت اللوحة هناك، بين مجموعة صور في إطارات فضية ـ صور والديها، وصوراً لي في أعمار مختلفة، وكذلك

صوراً كثيرة لخيول وكلاب: فرس أبيها التي كان اسمها تشوكبورد، وكلبها الكبير برونو، وجرو من نوع داتشوند مات عندما كنت في حضانة الأطفال. كان مروري بنظارتها التي تستخدمها للقراءة لكنها الآن متروكة على سطح البيرو، وبنطلونها الأسود المتيبس حيث علقته حتى يجف، وخط يدها على مفكرتها، ومليون شيء آخر، أمراً يمزق القلب. تناولت اللوحة ووضعتها تحت ذراعي وعدت مسرعاً فعبرت الممر إلى غرفتي.

كانت غرفتي مواجهة لمنور التدفئة ـ مثل المطبخ. غرفة مظلمة عند إطفاء المصابيح. رأيت منشفة الحمام الرطبة فوق كومة من الملابس المتسخة حيث ألقيتها بعد حمامي في ذلك الصباح الأخير. رفعتها ـ كشّرت لسوء رائحتها ـ وفي ذهني أن أغطي اللوحة بها ريثما أعثر على مكان أفضل لإخفائها... ربما في... «ماذا تفعل هنا؟».

كان أبي واقفاً بالباب: شبح قاتم ينيره مصباح الممر من خلفه.

«لا شيء».

توقف والتقط الكيس الذي أسقطته في الممر: «ما هذا؟».

أجبته بعد صمت قصير: «إنه كيس كتبي»... قلت هذا على الرغم من أن الكيس كان كيساً للتسوق... ما كان شيئاً يمكن أن آخذه، أو أن يأخذه أي طفل، إلى المدرسة.

قذف بالكيس عبر الباب المفتوح وتغضن أنفه عندما شم الرائحة. قال وهو يلوّح بيده أمام وجهي: «أف.. ما أسوأ الرائحة هنا!». ولحظة مد يده داخل الغرفة فأضاء المصباح، كنت قد أفلحت في رمي المنشفة فوق اللوحة بحركة معقّدة متشنجة آملاً ألا يستطيع رؤيتها.

«ما الذي لديك هناك؟».

«إنه ملصق».

«لا بأس... اسمع... آمل ألا تأخذ معك إلى لاس فيغاس أشياء كثيرة لا نفع منها. لا حاجة إلى جلب ملابسك الشتوية لأنك لن تكون في

حاجة إليها، ربما باستثناء مستلزمات التزلج على الجليد. لن تصدّق كم هو رائع التزلج في تاهو ـ شيء لا يشبه هذه الجبال الجليدية الصغيرة في شمال الولاية».

أحسست بأن عليَّ أن أقدم إجابة، خاصة لأن ذلك بدا أطول ما قاله منذ ظهوره، وأكثر ما قاله وداً، لكني لم أتمكن من استجماع أفكاري.

قال أبي فجأة: «لم يكن العيش مع أمك سهلاً كما تعلم...». التقط عن الطاولة شيئاً بدا كأنه امتحان قديم في الرياضيات. نظر إليه ثم رماه بعيداً حيث كان... «كانت تحاول دائماً تصعيد الأمور إلى أقصى حد. وأنت تعرف ما كانت تفعله. كانت تشلّني. كانت تجمّدني. وكانت حريصة دائماً على أن تكون لها الكلمة الأخيرة. تلك لعبة قوة، كما ترى. كانت أمك متحكّمة حقّاً. بصدق تام، وأنا لا أحب قول هذا أبداً... كانت الأمور تصل إلى نقطة يصعب عندها أن أجد نفسي في غرفة واحدة معها. أعني... لا أقصد القول إنها كانت شخصاً سيئاً. لكن الأمر كان جيداً في إحدى اللحظات، ثم ـ بوووم ـ في اللحظة التالية... وأما ما كنت أفعله، تلك الطريقة القديمة في المعالجة الصامتة...».

لم أقل شيئاً ـ بقيت واقفاً هناك، مرتبكاً. كانت المنشفة المتعفنة ملقاة على اللوحة، وكان وهج مصباح الممر متألقاً في عينيّ. تمنّيت أن أكون في أي مكان آخر (في التيبت، في بحيرة تاهو، في القمر)، ولم أثق بنفسي إلى حد يجعلني أجيبه بشيء. كان ما قاله عن أمي كان صحيحاً تماماً: كثيراً ما كان التواصل معها صعباً، وكان يصعب أيضاً تخمين ما تفكر فيه عندما تكون غاضبة أو منزعجة. لكني ما كنت مهتماً بمناقشة مثالب أمي لأنها لم تبد لي أكثر من أغلاط صغيرة إذا ما قورنت بأغلاط أبي.

كان أبي يقول: «... هذا لأنني ما كنت أريد إثبات أي شيء؛ هل فهمت؟ إن في كل لعبة طرفين. ليست المسألة مسألة من هو محق ومن هو مخطئ. وبالطبع... اعترف بهذا... إنني ملوم في بعض الأمور أيضاً.

لكني سأقول لك هذا، وأنا واثق من أنك تعرفه أيضاً، كانت لديها طريقة في إعادة كتابة التاريخ حتى يصير كل شيء في صالحها...».

كان أمراً غريباً أن أكون معه في غرفة واحدة من جديد، خاصة بعد أن صار مختلفاً إلى هذا الحد: رائحته قد تكون مختلفة. وفيه ثقل ووزن مختلفان، فيه نعومة كأنه مغلّف كله بنصف إنش من الدهن الناعم... «أظن أن زيجات كثيرة تمر بمشكلات مثل مشكلاتنا ـ لكنها كانت تصير لاذعة جداً... هل فهمت؟ تصير متمنّعة في كل شيء! صدقاً... لم أكن أحس بأنني قادر على العيش معها أكثر من ذلك. لكن الرب يعلم أنها ما كانت تستحق هذا...».

قلت في نفسي: *لم تكن تستحقه، بالتأكيد.*

قال أبي مستنداً بمرفقه إلى إطار الباب ناظراً إليّ نظرة فطنة: «أقول هذا لأنك تعرف موضوع المشكلة... تعرف سبب رحيلي. اضطررت إلى سحب بعض المال من حسابي المصرفي حتى أسدد الضرائب فصارت تنظر إلي كما لو أنني سرقت ذلك المال...» كان يراقبني بكل انتباه منتظراً استجابة مني... «كان حسابنا المصرفي المشترك. أعني، في جوهر الأمر، أن أمك لم تكن تثق بي عندما تسوء أمورنا. لم تكن تثق بزوجها».

لم أعرف ماذا أقول له. كانت تلك أول مرة أسمع فيها عن الضرائب، على الرغم من أن عدم ثقة أمي به في ما يتعلّق بالمال لم تكن سرّاً على الإطلاق.

قال مع زفرة نصف ساخرة وهو يمسح وجهه بيده: «يا إلهي... كانت قادرة على التمسك بالضغينة؛ وعلى مقابلة كل شيء بمثله. كانت حريصة دائماً على عدم ترك شيء من غير رد. هذا لأنها... أعني... لم تكن تنسى شيئاً. حتى لو اضطرت إلى الانتظار عشرين سنة. فسوف تردّ عليك. وبالتأكيد، كنت أنا الذي أبدو شخصاً سيئاً آخر الأمر؛ ولعلي شخص سيئ بالفعل...».

على الرغم من صغر اللوحة، فقد بدأت تصير ثقيلة. وأحسست بأن وجهي قد جمّده الجهد الذي أبذله لإخفاء اضطرابي وانزعاجي. بدأت أعدّ في سري باللغة الإسبانية حتى أحجب صوته عني: أونو، دوس، تريس، كواترو، سينكو، سيز...

ظهرت كساندرا عندما بلغت التاسعة والعشرين.

قالت له: «لاري! كان لك ولزوجتك بيت جميل حقاً...». جعلتني طريقة قولها ذلك أشعر بالأسف عليها، لكن نظرتي إليها لم تتحسّن على الرغم من ذلك.

لف أبي وسطها بذراعه وشدها إليه بحركة قوية أثارت غثياني. قال بنبرة تواضع: «نعم، كان ذلك بفضلها أكثر مما كان بفضلي».

قلت بنفسي: يمكنك *قول هذا من جديد.*

قال لها أبي وهو يمسك يدها ويأخذها معه إلى غرفة أمي وقد نسيني تماماً: «تعالي. أريد أن تري شيئاً هنا». التفتُّ ونظرت إليهما ذاهبين وقد اعتصرت قلبي فكرة أن كساندرا وأبي سيعبثان بأشياء أمي؛ لكني كنت مسروراً برؤيتهما مبتعدين عني، فلم أبالِ بالأمر كثيراً.

التففت حول السرير حتى بلغت نهايته الأخرى، لكن عيني ظلت معلقة بالممر. خبأت اللوحة هناك، بعيداً عن الأنظار. رأيت على الأرض نسخة قديمة من صحيفة نيويورك بوست ـ الصحيفة نفسها التي قذفت أمي بها صوبي في آخر يوم أحد لنا معاً. مدت رأسها من الباب وقالت لي: *خذ يا طفلي. اختر فيلماً*. رأيت في الصحيفة أفلاماً كثيرة يمكن أن تعجبنا، نحن الاثنين، لكني اخترت فيلماً صباحياً من مهرجان أفلام بوريس كارلوف: *مختطف الجثث*. قبلت أمي اختياري من غير كلمة اعتراض، ثم ذهبنا إلى ذلك الفيلم وشاهدناه؛ وذهبنا إلى بعده إلى مطعم *موندانس* لتناول الهمبرغر بعد ظهر يوم سبت ممتع، لكنه كان آخر يوم لها على وجه الأرض. صرت أشعر بالبؤس كلما فكرت في ذلك اليوم،

لأن آخر فيلم شاهدته أمي كان (بفضلي) فيلم رعب قديماً بائساً يتحدّث عن الجثث وسرقة القبور (لو أنني اخترت الفيلم الذي تحب مشاهدته ـ فيلم عن أطفال باريس في الحرب العالمية الأولى حظي بمراجعة جيدة في الصحيفة ـ لربما ظلّت على قيد الحياة... على نحو ما! كثيراً ما كانت أفكاري تسير في هذه الدروب المتطيّرة المظلمة).

على الرغم من إحساسي بقدسية تلك الصحيفة، بأنها وثيقة تاريخية، فقد فتحتها عند منتصفها، ثم وزعت صفحاتها، وبعد ذلك رحت أغلف اللوحة بها، صفحة بعد صفحة، وألصقتها بالشريط اللاصق نفسه الذي استخدمته منذ بضعة شهور في تغليف هدية عيد الميلاد التي قدمتها إلى أمي. قالت لي: *رائع!* كانت الهدية مجموعة ألوان مائية ملفوفة بأوراق ملونة كثيرة، فانحنت ملتفة بمنشفة الحمام وقبلتني... لم تحمل تلك الهدية إلى الحديقة في صباحات السبت في صيف لن تراه أبداً.

لطالما بدا لي سريري ـ سرير نحاسي ضيق من سوق الأثاث المستعمل، سرير متين مطمِئن ـ أكثر الأماكن أماناً في العالم لإخفاء شيء ما. لكني رحت أنظر من حولي (طاولة مكتب عتيقة، وملصق ياباني لغودزيلا، وفنجان كبير عليه صورة بطريق أتيت به من حديقة الحيوان وكنت أستخدمه فنجاناً للأقلام)، ففاجأني مفاجأة شديدة عدم ثبات تلك الأشياء كلها. أحسست بالدوار عندما فكرت في أشيائنا كلّها تطير خارجة من الشقة، قطع الأثاث والفضّيات وملابس أمي كلّها... فساتين كانت نماذج دعائية في مواسم تخفيض الأسعار لا تزال بطاقاتها عليها، وتلك الأحذية الخفيفة الملوَّنة كلها، وقمصان مفصَّلة تحمل الحرفين الأولين من اسمها على ياقاتها. كراسي ومصابيح يابانية، وتسجيلات جاز قديمة على أسطوانات الفينيل اشترتها من مركز المدينة، ومرطبانات المرملاد والزيتون والخردل الألماني الحادّ في البرادّ. وفي الحمام، تشكيلة من زيوت عطرية وكريمات مرطّبة وصابون الحمام الملوّن وعبوات نصف

فارغة من شامبوات غالية الثمن متزاحمة على حافة المغسلة (كيهل، وكلورين، وكيراستيز... كانت لدى أمي دائماً خمسة أنواع أو ستة أنواع معاً)... كيف لهذه الشقة أن تبدو ثابتة مستدامة في حين لم تكن إلا خشبة مسرح تنتظر أن يفكّكها عمال في ملابس موحَّدة وينقلوها بعيداً؟

عندما دخلت غرفة المعيشة، واجهتني كنزة من كنزات أمي راقدة على الكرسي حيث تركتها... شبحٌ لها، شبح أزرق سماوي. أصداف جمعناها معاً عند شاطئ فيتويل وزنابق اشترتها من السوق الكوري قبل موتها بأيام، زنابق اسودّت سوقها وماتت وتعفّنت على حافة المزهرية. وفي سلة القمامة: كاتالوغات من مكتبة دوفر بوكس، وحذاء صيفي منخفض الكعب، وغلاف عبوة نيكو ويفرز التي كانت حلواها المفضلة. حملتها وشممتها. كنت أعرف أنني سأشم رائحتها في الكنزة أيضاً إذا التقطتها ووضعتها على وجهي... لكن مجرد النظر إليها كان شيئاً لا أستطيع احتماله.

عدت إلى غرفتي، وصعدت فوق كرسي المكتب حتى أتناول حقيبتي من فوق الخزانة ـ حقيبة طرية الجوانب، صغيرة بعض الشيء. ملأت الحقيبة بملابس داخلية نظيفة وبملابس مدرسية نظيفة، إضافة إلى قمصان مطوية. ثم وضعت اللوحة وأضفت فوقها طبقة أخرى من الملابس. أغلقت الحقيبة ـ حقيبة من غير قفل، كما أنها مصنوعة من قماش قوي ـ ثم وقفت ساكناً تماماً. خرجت إلى الممر بعد ذلك فسمعت أصوات فتح الدروج وإغلاقها في غرفة أمي. سمعت صوت ضحكات أيضاً.

ناديت بصوت مرتفع: «أبي، سأنزل وأتحدّث مع خوسيه».

انقطع صوتاهما تماماً.

بعد ذلك، صاح أبي عبر الباب المغلق بنبرة ودية إلى حد غير طبيعي: «فلتذهب».

عدت إلى الغرفة فأخذت الحقيبة وخرجت بها من الشقة تاركاً بابها

مفتوحاً قليلاً حتى أستطيع العودة إليها. ثم نزلت بالمصعد ورحت أحدق في المرآة المواجهة لي محاولاً بكل ما استطعته من جهد أن أمنع نفسي من التفكير في كساندرا في غرفة أمي... أن أمنع نفسي من التفكير فيها وهي تعبث بملابس أمي. هل كان على علاقة بها قبل أن يهجر البيت؟ أوَلم يداخله شيء من الرهبة عندما سمح لها بأن تفتش أشياء أمي؟

كنت سائراً في اتجاه البوابة حيث يقف خوسيه عندما سمعت صوتاً يناديني: «انتظر لحظة».

استدرت فرأيت غولدي مسرعاً، آتياً صوبي من غرفة الأمتعة.

قال لي: «ثيو، يا إلهي... يؤسفني كثيراً ما حدث». وقفنا وهلة لا أعرف كم طالت، وكان كل منا ينظر إلى الآخر، ثم... بحركة عفوية، غريبة تكاد تكون مضحكة، فتح ذراعيه واحتضنني.

راح يهز رأسه ويكرر: «يؤسفني كثيراً ما حدث. يا إلهي. يا له من شيء فظيع!».

كان غولدي يعمل ـ منذ طلاقه ـ خلال ساعات الليل وفي أيام العطلات فيقف عند الباب من غير أن يضع قفازاً... يقف حاملاً بيده سيجارة لم يشعلها، وينظر إلى الشارع. كانت أمي ترسلني إليه أحياناً لآخذ له فنجان قهوة أو بعض المعجّنات الحلوة عندما يكون وحده في ردهة البناية، عندما يكون من غير رفقة باستثناء الشمعدان الكهربائي وشجرة عيد الميلاد فأراه يرتب الجرائد في الخامسة صباحاً من ليلة العيد. ذكّرني التعبير الذي رأيته على وجهه بصباحات العطلات الميتة تلك، وبالنظرة الخالية من أي تعبير، وبوجهه الرمادي غير الواثق في لحظة غير منتبهة قبل أن يراني فترتسم على وجهه ابتسامة ناطقة: *مرحباً يا صبي!*

قال لي وهو يمسح حاجبه بكف يده: «كنت أفكر كثيراً فيك وفي أمك. فليباركك الرب. لا أستطيع... لا أستطيع حتى أن أفكر في ما مررت به».

أجبته مشيحاً بوجهي: «نعم؛ كان ذلك صعباً». كانت تلك هي العبارة

التي أرد بها عندما يعبّر لي الناس عن أسفهم لموت أمي. قلتها للناس مرات كثيرة جداً فبدأت تبدو لي عبارة عفوية مبتذلة، بل زائفة بعض الشيء.

قال غولدي: «يسعدني أنك عرّجت علينا. لقد كنت هنا في ذلك الصباح، ألا تتذكّر؟ وقفنا هناك، على الرصيف».

أجبته: «أتذكّر بالطبع»، وعجبت لسؤاله... فهل يظن أنني لا أتذكر ذلك الصباح؟

«أوه...» مسح جبهته بيده وبدا مضطرباً بعض الشيء كما لو أنه نجا ـ بنفسه ـ من موت شبه محقّق... «أفكّر كل يوم في ما جرى. لا أزال أرى وجهها وهي تجلس في السيارة! لوّحت لي بيدها... كانت سعيدة».

انحنى في اتجاهي وقال كمن يبوح لي بسر كبير: «ماذا فعلتُ عندما سمعت بموتها؟ لقد اتصلت بزوجتي السابقة. كنت حزيناً إلى هذا الحد!». تراجع إلى الخلف خطوة ثم نظر إليَّ رافعاً حاجبيه كأنه لا يتوقّع أن أصدق ما قاله لي. كانت معارك غولدي مع زوجته السابقة كبيرة جداً.

قال: «أعني أننا لا نكاد نتبادل أي كلام. لكن... من الذي أستطيع إخباره بهذا؟ كان عليَّ أن أتحدّث مع أحد ما! هل تفهم هذا؟ وهكذا اتصلت وقلت لها: روزا، لن تصدقي هذا. لقد فقدت البناية سيدة جميلة جداً».

رآني خوسيه من مكانه عند الباب فأتى لينضم إلى الحديث؛ أتى بخطواته المتميزة الوثابة. قال: «السيدة بيكر...». وراح يهزّ رأسه كما لو أن العالم لم يعرف شخصاً مثلها... «تلقي بالتحية دائماً، وتبتسم ابتسامة لطيفة دائماً. كم كانت مراعية للآخرين!».

قال غولدي ملتفتاً من فوق كتفه: «لم تكن مثل هؤلاء الناس الذين في البناية! أنت تعرفهم...». اقترب مني أكثر وقال... «متكبّرون! ما أقوله هو أن الواحد منهم يكون فارغ اليدين، من غير أمتعة أو أي شيء، ثم يقف منتظراً أن تفتح له الباب».

قال خوسيه وهو مستمرٌّ في هز رأسه هزات كبيرة كأنه طفل حزين يعبّر عن رفضه: «لم تكن هكذا. كانت السيدة بيكر من أحسن مستوى».

رفع غولدي يده وقال: «اسمع... هل تنتظرني لحظة هنا؟ سأعود على الفور. لا تذهب...». ثم قال مخاطباً خوسيه: «لا تتركه يذهب».

نظر خوسيه إلى الحقيبة وسألني: «أتريد أن أوقف لك سيارة تاكسي يا صغيري؟».

ألقيت نظرة سريعة في اتجاه المصعد ثم أجبته: «لا، اسمع يا خوسيه، هل تحتفظ لي عندك بهذه الحقيبة إلى أن أعود وآخذها؟».

قال وهو يمسك بالحقيبة ويرفعها: «بالتأكيد، يسعدني هذا».

«سوف آتي بنفسي حتى آخذها. لا تترك أحداً غيري يستلمها».

قال مبتسماً: «بالتأكيد؛ فهمت. سرت خلفه فدخلنا غرفة الأمتعة حيث رفع الحقيبة ووضعها على واحد من الرفوف العلوية.

قال: «أرأيت؟ وضعتها خارج الطريق يا عزيزي. نحن لا نضع شيئاً على الرفوف العلوية إلا بعض الطرود التي يكون على أصحابها وضع إمضائهم عند استلامها، إضافة إلى الأمتعة التي تخصّنا، نحن العاملين هنا. لا يمكن أن يستلم أحد تلك الحقيبة من غير إمضائك الشخصي. أفهمت؟ لا يمكن أن يسلّمها لعمك أو ابن عمك، أو لأي شخص. وسوف أخبر كارلوس وغولدي وبقية الشباب. سأقول لهم ألّا يسلموا الحقيبة لأحد غيرك. هل يعجبك هذا؟».

أومأت برأسي وكنت على وشك أن أشكره عندما سمعت نحنحة خوسيه من خلفه. قال بصوت منخفض: «اسمع، لا أريد أن أسبب لك قلقاً أو أي شيء. لكنْ هناك أشخاصٌ، في الآونة الأخيرة، أتوا وسألوا عن والدك؟».

أجبته بعد وقت قصير: «أشخاص؟». عندما يستخدم خوسيه هذه الكلمة فإنها تعني شيئاً واحداً: رجال يدين لهم أبي بالمال.

«لا تقلق. لم نقل لهم شيئاً. أعني... أبوك غائب منذ فترة، منذ نحو سنة. قال لهم كارلوس إن أحداً منكم لم يعد يعيش هنا. فلم يأتوا بعد

ذلك. لكن...». ألقى نظرة في اتجاه المصعد... «بما أن والدك هناك، فمن الأفضل ألا يمضي الآن وقتاً طويلاً في البناية... هل تدرك ما أعنيه؟».

كنت أشكره على ما قاله عندما عاد غولدي حاملاً ما بدا لي حزمة نقود ضخمة. قال لي بنبرة ميلودرامية بعض الشيء: «هذا لك».

مرت لحظة ظننت فيها أنني لم أسمع جيداً ما قاله. سعل خوسيه وأشاح بوجهه. كانت على شاشة التلفزيون الصغير في غرفة الأمتعة ـ تلفزيون غير ملون لا تتجاوز شاشته مساحة غلاف سي دي ـ كانت امرأة جميلة يتأرجح قرطاها الطويلان وتلوّح بقبضتَيْ يديها وتصيح بكلمات إسبانية بذيئة مخاطبة قسّاً يتراجع أمامها.

قلت لغولدي الذي كان لا يزال مادّاً يده لي بالنقود: «ما الذي يجري؟».

«أمك، ألم تخبرك؟».

حيّرني ذلك فقلت له: «أخبرني بالأمر».

اتضح أن غولدي كان قد طلب ـ قبل عيد الميلاد بيوم واحد ـ شراء جهاز كمبيوتر وإيصاله إليه في البناية. كان الجهاز من أجل ابنه الذي وجد نفسه في حاجة إليه من أجل المدرسة؛ لكن غولدي لم يدفع ثمن الجهاز، أو لم يدفع إلا جزءاً من ثمنه (كان غامضاً بعض الشيء بخصوص هذه النقطة)؛ أو لعله كان من المفترض أن تدفع زوجته السابقة ثمن الجهاز بدلاً منه. مهما يكن الأمر، فقد كاد الناس الذين أتوا بالجهاز يحملونه عائدين إلى سيارتهم عندما كانت أمي نازلة من الشقة فرأت ما يحدث.

قال لي غولدي: «لقد دفعت المال بنفسها، تلك السيدة الجميلة. رأت ما يجري ففتحت محفظتها وأخرجت دفتر الشيكات. قالت لي: غولدي، أعرف أن ابنك في حاجة إلى هذا الكمبيوتر من أجل واجباته المدرسية. أرجو يا صديقي أن تسمح لي بفعل هذا الأمر من أجلك؛ وسوف تعيد لي المبلغ عندما تصير قادراً على ذلك».

قال خوسيه بعنف غير متوقَّع وهو ينظر إلي بعد أن كانت عيناه متجهتين إلى شاشة التلفزيون حيث صارت المرأة الآن واقفة في مقبرة تجادل رجلاً يضع نظارة شمسية ويبدو عليه الثراء: «أرأيت؟ إنها أمك من فعلت ذلك...». أشار إلى النقود بحركة من رأسه، بحركة تكاد تكون حانقة... «نعم، هذا صحيح... لقد كانت من الدرجة الأولى. كانت تهتم بالناس! وأما بقية النساء، أكثرهن، فينفقن المال على شراء عطور أو أقراط ذهبية أو أشياء من هذا النوع لأجل أنفسهن».

لأسباب كثيرة، كان لدي إحساس غريب بخصوص أخذ ذلك المال. فحتى في حالة الصدمة التي كنت أعيشها، أحسست بأن في القصة شيئاً من التحايل (ما المتجر الذي يمكن أن يأتي بجهاز كمبيوتر إلى بيتك قبل أن تدفع ثمنه؟) وقد صرت أتساءل في ما بعد: هل كنت أبدو معوزاً إلى ذلك الحد الذي يجعل البوابين يجمعون مالاً من أجلي؟ ما زلت أجهل مصدر تلك النقود. وما زلت أتمنّى لو طرحت يومها مزيداً من الأسئلة. لكني كنت مصعوقاً بكل ما حدث في ذلك اليوم (بفعل الظهور المفاجئ لأبي، أكثر من أي شيء آخر، وكذلك بظهور كساندرا معه)، فلو وقف غولدي أمامي وأعطاني قطعة علكة قديمة التقطها عن الأرض لمددت يدي وأخذتها بالقدر نفسه من الطاعة.

«هذا ليس من شأني كما تعلم...». كان خوسيه يقول هذا وهو ينظر من فوق رأسي... «لكني، لو كنت مكانك، لما أخبرت أحداً عن هذه النقود. هل تفهم ما أقوله لك؟».

قال غولدي: «صحيح. ضعها في جيبك. لا تسر هنا وهناك تحملها في يدك كما تفعل الآن. إن في الشوارع أشخاص كثيرين لا يتورّعون عن قتلك من أجل هذا المال».

قال خوسيه وقد غلبته ضحكة مفاجئة: «كثير من الناس في هذه البناية أيضاً».

قال غولدي: «ها!». ثم تمطّى وقال شيئاً باللغة الإسبانية لم أستطع فهمه.

قال خوسيه وهو يهز رأسه كما يفعل عادة... حركة ساخرة ـ جادة... من غير أن يستطيع منع نفسه من الابتسام: «فليباركك الرب! هذا سبب امتناعهم عن السماح لنا بالعمل في الطابق نفسه، أنا وغولدي. يحرصون دائماً على إبقائنا منفصلَيْن. إننا نمضي وقتاً طيباً معاً».

19

بدأت الأمور تتحرّك سريعاً بعد مجيء أبي وكساندرا. وعندما كنا نتناول العشاء تلك الليلة (في مطعم سياحي فوجئت بأن يقع اختيار أبي عليه)، تلقى اتصالاً هاتفياً من شخص من شركة التأمين التي كانت أمي مسجلة فيها ـ أتمنى، حتى بعد هذه السنين كلها، لو كنت قادراً على سماع تلك المكالمة بشكل أفضل. لكن المطعم كان صاخباً، وكانت كساندرا (بين كل جرعتين من النبيذ الأبيض ـ لعله ترك الشرب، لكنها لم تتركه) تتذمّر باستمرار لأنها غير قادرة على التدخين في المطعم وتحكي لي بأسلوب متشتت بعض الشيء عن أنها تعلمت ممارسة السحر من كتاب قرأته عندما كانت في المدرسة الثانوية، في مكان ما في فورت لوترديل. («الحقيقة أن الكتاب كان يطلق على ذلك اسم *ويتشا*. إنه نوع من الدين المتعلّق بالأرض»). لو كان الحديث مع أي شخص آخر، لأحببت معرفة معنى ذلك بالضبط، ولسألته عمَّ يتضمّنه كون المرء ساحراً (الأضحيات، والتعويذات؟ صفقة مع الشيطان؟) لكنها غيَّرت الموضوع قبل أن تتاح لي فرصة قول أي شيء وراحت تخبرني كيف تسنّت لها فرصة الذهاب إلى الجامعة، وكيف أنها أسفت أسفاً شديداً لأنها لم تذهب («سأقول لك ما كنت مهتمة به. التاريخ الإنجليزي، وأشياء من هذا القبيل. هنري الثامن، وماري ملكة الإسكتلنديين»). لكن الأمر انتهى بها إلى عدم

الذهاب إلى الجامعة نتيجة شغفها الكبير بذلك الشخص. قالت بصوت كالفحيح وهي تثبتني بعينيها الحادّتين عديمتي اللون: «شغف كبير».

لم أعرف السبب الذي جعل افتتان كساندرا بذلك الشخص يمنعها من الذهاب إلى الجامعة لأن أبي أنهى مكالمته الهاتفية في تلك اللحظة. طلب زجاجة شامبانيا (استغربت ذلك).

قالت كساندرا الموشكة على إنهاء كأسها الثانية من النبيذ: «لا أستطيع شرب الزجاجة كلها فسوف يسبب لي ذلك صداعاً».

قال أبي وهو يرتد إلى الخلف في كرسيه: «لا بأس... إذا كنت غير قادر على تناول الشامبانيا، فهذا لا يعني حرمانك منها».

أومأت كساندرا برأسها في اتجاهي وقالت: «دعه يشرب شيئاً منها...». ثم رفعت صوتها مخاطبة النادل: «اجلب لنا كأساً أُخرى».

قال النادل الذي كان رجلاً إيطالياً حاد المظهر بدا لي أنه قد اعتاد التعامل مع شطط السياح: «آسف، تناول الكحول غير مسموح به لمن لم يبلغ الثامنة عشرة».

بدأت كساندرا تبحث عن شيء في حقيبة يدها. كانت في فستان بني من غير كمَّين، وتحت عينيها مسحوق برونزي أو بني شديد الكثافة جعلني أقاوم رغبة في مسحه برأس إصبعي.

قالت لأبي: «فلنذهب إلى الخارج وندخّن...». مرت لحظة طويلة تبادلا خلالها نظرة متكلفة جعلتني أنكمش على نفسي. ثم دفعت كساندرا كرسيها إلى الخلف ـ سقط منديل طعامها عن الكرسي ـ ونظرت من حولها بحثاً عن النادل ثم قالت: «أوه! لقد ذهب». وتناولت من أمامي كأس الماء شبه الفارغة فسكبت فيها شيئاً من الشامبانيا.

وصل الطعام؛ وسكبت لنفسي ـ خفية ـ كأس شامبانيا جديدة كاملة قبل أن يعودا. بدت لي كساندرا متوردة لامعة بعض الشيء. سوّت تنورتها القصيرة، ثم استدارت وجلست في كرسيها من غير أن ترجعه إلى

الخلف. فردت منديلها في حضنها وقرّبت منها طبق المانيكوتي الأحمر الضخم: «يبدو رائعاً!».

قال أبي: «يبدو طبقي رائعاً أيضاً». كان شديد التدقيق في ما يتعلق بالطعام الإيطالي؛ وقد اعتدت أن أسمعه ينتقد كل طبق باستا بالطماطم والصلصة... أطباق مثل هذا الطبق الذي هو أمامه الآن.

انكبا على تناول طعامهما (الذي صار بارداً بعض الشيء نظراً لطول فترة مكوثهما في الخارج)، وتابعا حديثهما. قال لها وهو يستند إلى الخلف في مقعده ويعبث بسيجارة ما كان قادراً على إشعالها داخل المطعم: «نعم... لم ينجح الأمر على أية حال. هذا ما كان».

«لا بد أنك كنت رائعاً».

هز كتفيه وقال: «ليس الأمر سهلاً حتى عندما يكون المرء شاباً. فالمسألة ليست مسألة موهبة فحسب. هناك الكثير مما يعتمد على الشكل، وعلى الحظ أيضاً».

قالت كساندرا وهي تمسح طرف شفتها بمنديلها الملفوف على إصبعها: «على الرغم من ذلك... يمكنني أن أفهم الأمر تماماً». كانت مسيرة أبي الفاشلة في ميدان التمثيل موضوع الحديث المفضَّل لديه. لكن، خُيّل لي ـ على الرغم مما بدا عليها من اهتمام ـ أن تلك لم تكن المرة الأولى التي يتحدثان فيها عن الأمر.

«نعم... فهل أتمنّى لو أنني تابعت؟...». قال أبي هذا وهو يتأمّل كأس البيرة الخالية من الكحول (أم إن نسبة الكحول فيها كانت ثلاثة بالمئة، ما كنت قادراً على رؤية الكتابة على الزجاجة من مكان جلوسي)... «لا بد لي من قول نعم، أتمنّى ذلك. هذا شيء من الأشياء التي يندم عليها المرء طيلة حياته. ليتني فعلت شيئاً بهذه الموهبة التي لدي. لكني لم أمتلك رفاهية فعل ذلك. إن للحياة طرقاً غريبة في التدخل».

كانا غارقَين عميقاً في عالمهما الخاص؛ وما كانا منتبهَيْن إليَّ بأكثر من لو أنني كنت بعيداً جداً عنهما، في ولاية أخرى. لكن هذا لم يزعجني؛ ثم

إنني كنت أعرف قصّته كلها. كان أبي نجماً مسرحياً في الجامعة؛ ثم ظل فترة وجيزة يكسب عيشه من العمل في التمثيل: تسجيلات صوتية في الإعلانات التجارية، وبضعة أدوار صغيرة في التلفزيون والسينما (شاب عابث، أو ابن مدلل لزعيم عصابة غوغائي). وبعد ذلك ـ بعد زواجه من أمي، بدأ يفشل في ذلك العمل. كانت لديه قائمة طويلة من الأسباب التي جعلته غير قادر على المتابعة وتحقيق النجاح؛ لكنني كنت أسمعه يقول أكثر الأحيان: *لو كانت أمي أكثر نجاحاً في عملها في الأزياء، أو لو أنها بذلت جهداً أكبر، لتوفر مال كافٍ لكي يستطيع التركيز على التمثيل من غير أن يشغل نفسه بوظيفة نهارية ثابتة.*

دفع أبي بطبقه جانباً ـ لاحظت أنه لم يأكل كثيراً ـ مع أبي، غالباً ما تكون هذه علامة على أنه كان يشرب أو أنه موشك على بداية الشرب.

قال بعد أن كوَّر منديل الطعام ورماه على الطاولة أمامه: «في لحظة ما، كان عليَّ أن أقلل خسائري وأخرج من الأمر كله». تساءلت في نفسي إن كان قد أخبر كساندرا عن ويكي رورك الذي يعتبره، بمعزل عني وعن أمي، صاحب الدور الشرير الأكبر في إفشال سيرته الفنية.

تناولت كساندرا جرعة كبيرة من كأسها: «وهل فكّرت في يوم من الأيام أن تعود إلى التمثيل؟».

«أفكّر في الأمر، بالتأكيد، لكن...». هزّ رأسه كما لو أنه يرفض طلباً في غاية الغرابة... «لا. الإجابة من حيث الأساس لا».

أحسست بوخز الشامبانيا اللذيذ في باطن فمي. فقاعات فوّارة مغبرة وضعوها داخل هذه الزجاجة في سنة أكثر سعادة، في سنة كانت لا تزال أمي فيها حية... «أعني، أنني عرفت، لحظة رآني، أنه لم يحبني». سمعت أبي يقول هذا بصوت منخفض. يعني هذا أنه أخبرها عن ويكي رورك.

أمالت رأسها إلى الخلف وأفرغت ما بقي من نبيذها في فمها: «لا يستطيع هذا النوع من الأشخاص تحمّل أي قدر من المنافسة».

«كان الكلام كلّه: ويكي فعل هذا، ويكي فعل ذلك، وويكي يريد أن يراك... لكني فهمت أن الأمر انتهى لحظة دخولي ذلك المكان».

قالت: «من الواضح أنه كان شخصاً غير طبيعي».

«ليس في ذلك الوقت. لم يكن كذلك. وهذا لأن... سأقول لك الحقيقة... كان هناك تشابه حقيقي في ذلك الوقت... لا من الناحية الجسدية وحدها، بل من ناحية الأسلوب المتماثل في التمثيل. أو، دعيني أقول إنني تلقيت تدريباً كلاسيكياً فصار لدي مجال واسع من الأشياء التي أستطيع القيام بها. لكني كنت قادراً على الأداء بذلك النوع من السكون الذي لدى ويكي... ذلك الهدوء الهامس...».

«أووو... أنت تخيفني. هامس! تماماً مثلما نطقت هذه الكلمة».

«نعم، لكن ويكي هو النجم. وما كان هنالك متسع لاثنين».

عندما جلست أنظر إليهما وهما يتشاركان قطعة حلوى كأنهما زوج من عصافير الحب في إعلان تجاريّ، غرق ذهني في تدفّق حر دامٍ لم أعهده من قبل: مصابيح صالة المطعم شديدة السطوع، ووجهي حار من الشامبانيا، وتفكيري مشوّش منطلق انطلاقاً محموماً في تذكّر أمي بعد موت أبويها عندما وجدت نفسها مضطرة إلى العيش مع خالتها بيس في بيت عند سكة القطار له ورق جدران بني وأغلفة من النايلون فوق قطع الأثاث. كانت الخالة بيس ـ التي تقلي كل شيء بزيت بذر القطن ـ قد قصّت أحد فساتين أمي بالمقصّ لأن عليه رسوماً تزعجها وتشعرها بالهلوسة. كانت عانساً إيرلندية أميركية مكتنزة الجسم، ممتلئة مرارة، تركت الكنيسة الكاثوليكية لتلتحق بطائفة مجنونة صغيرة تؤمن بأن من بين الخطايا فعل أشياء من قبيل شرب الشاي أو تناول الأسبرين. وفي صورتها الوحيدة التي رأيتها، كان لون عينيها مثل لون عيني أمي الأزرق الفضّي المفاجئ، لكنهما تبدوان مجنونتين محاطتين بإطارين ورديين في وجهها الخالي من التعبير كأنه حبة بطاطس. كانت أمي تتحدّث عن ثمانية عشر شهراً قضتها عند خالتها بيس باعتبارها أكثر فترات حياتها

حزناً ـ بيعت الخيول، وأعطيت الكلاب لأناس آخرين... وداعات باكية كثيرة عند الطريق، وذراعاها ملتفّتان من حول رقبة هذا الحصان أو ذاك. وعندما تعودان إلى البيت كانت الخالة بيس تقول لأمي إنها مدللة كثيراً وإن الناس الذين لا يخشون الرب يتلقّون دائماً ما يستحقون.

كان أبي يقول: «ثم... تلك الإجراءات، أنت تعرفين... أعني أنهم كانوا يعرفون جميعاً كيف هو ويكي... كل واحد منهم عرف ذلك لأن ويكي كان قد بدأ يكتسب سمعة شخص صعب...».

قاطعتُ الحديث عندما قلت بصوت مرتفع: «لم تكن تستحق ذلك».

توقف أبي وكساندرا عن الكلام ونظرا إليَّ كما لو أنني تحوّلت إلى وحش عجيب. قلت: «أعني... لماذا يمكن أن يقول أي شخص هذا الكلام عن أمي؟». لم يكن أمراً صحيحاً أن أتكلم بذلك الصوت المرتفع، لكن الكلمات كانت تخرج من فمي من غير عائق كما لو أن أحداً قد ضغط على مفتاح ما... «كانت رائعة... فلماذا كان الجميع سيئاً معها؟ لم تكن تستحق أي شيء من كل ما جرى لها».

تبادل أبي وكساندرا نظرة سريعة، ثم أشار أبي للنادل طالباً الحساب.

20

كان وجهي ملتهباً كالنار عندما خرجنا من المطعم، وكان في أذني زئير متوهّج. لم يبلغ الوقت ساعة متأخرة كثيراً عندما وصلت إلى بيت أسرة باربر، لكني تعثّرت ـ لا أدري كيف ـ بمنصب المظلات عند الباب وأحدثت قدراً كبيراً من الضجة أثناء دخولي؛ وعندما رآني السيد والسيدة باربر أدركت (من وجهيهما، لا من إحساسي بنفسي) أنني كنت ثملاً.

أطفأ السيد باربر التلفزيون مستخدماً جهاز التحكم ثم قال لي بصوت حازم، لكنه ودي: «أين كنت؟».

مددت يدي واستندت إلى ظهر الأريكة: «كنت في الخارج مع أبي و...». لكن اسمها غاب عن ذهني ولم أتذكر منه غير حرف ك.

رفعت السيدة باربر حاجبيها وهي تنظر إلى زوجها كأنما تقول له: *ماذا قلت لك؟*

قال السيد باربر بنبرة مبتهجة هذه المرة، أي بنبرة أفلحت في جعلي أشعر بأنني أحسن حالاً بعض الشيء تجاه الحياة عموماً: «لا بأس... انطلق إلى فراشك يا فتى. لكن، حاول ألّا توقظ آندي».

قالت السيدة باربر: «هل تشعر بالغثيان؟».

أجبتها: «لا». على الرغم من شعوري بالغثيان؛ ثم أمضيت الشطر الأكبر من الليل راقداً مستيقظاً في سريري العلوي أتقلّب بائساً والغرفة تدور من حولي. نهضت مرتين مفزوعاً وقلبي يثب من مكانه دهشة لأنه بدا لي أن كساندرا تدخل الغرفة وتكلّمني كلمات غير واضحة، لكن نبرة صوتها الخشنة المتقافزة كانت واضحة تماماً.

21

جلسنا لتناول الإفطار صباح اليوم التالي، فقال السيد باربر وهو يضع يده على كتفي ويسحب كرسياً حتى يجلس إلى جانبي: «إذاً... كان عشاء احتفالياً مع أبيك، أليس كذلك؟».

«نعم يا سيدي». كان الصداع يشق رأسي؛ وجعلتني رائحة التوست الفرنسي موشكاً على التقيؤ. جلبت لي إيتا، بطريقة شبه خفية، فنجان قهوة من المطبخ وأتت معه بقرصي أسبرين في طبق صغير.

«هل قلت لي إنه مقيم في لاس فيغاس؟».

«هذا صحيح».

«وكيف يتدبر أمر خبزه؟».

«عفواً؟».

«بأي شيء يشغل وقته هناك؟».

قالت السيدة باربر بنبرة صوت حيادية: «الحظ».

قال السيد باربر وقد أدرك أنه صاغ سؤاله بطريقة قد تكون غير لطيفة: «حسناً، أعني... ما أريد قوله هو: ما طبيعة عمله؟».

قلت: «أممم...» ثم توقفت. ما عمل أبي؟ لم تكن لدي أية فكرة.

بدا لي أن السيدة باربر لم تكن مرتاحة للوجهة التي اتخذها الحديث؛ وبدا لي أنها موشكة على قول شيء ما. لكن بلات الجالس إلى جانبي قال بصوت غاضب: «من الذي يجب أن أتوسّل إليه حتى أحصل على فنجان قهوة في هذا المكان؟». كان بهذا يخاطب أمه. وكان قد أمال كرسيه إلى الخلف مستنداً بيده إلى الطاولة.

ساد صمت فظيع.

قال بلات مومئاً برأسه في اتجاهي: «لقد أتته القهوة. يأتي إلى البيت ثملاً... ثم تأتيه القهوة!!».

بعد صمت مخيف آخر ـ تكلمَ السيد باربر بصوت جليديّ أكثر بكثير حتى مما تستطيعه السيدة باربر: «يكفي هذا».

غضّنت السيدة باربر حاجبيها الباهتين وحاولت متابعة ما كانت تقوله: «الحظ...».

«لا، لن تغطي عليه هذه المرة...». ثم قال لبلات: «اذهب إلى غرفتك الآن».

جلسنا جميعاً نحدق في أطباقنا ونصغي إلى وقع خطوات بلات الغاضبة، ثم إلى صوت اصطفاق باب غرفته المدوّي، ثم ـ بعد بضع ثوان ـ صوت الموسيقى المرتفع ينطلق من جديد.

لم يكد أحد ينطق بكلمة طيلة وقت الوجبة.

22

أبي الذي كان يحب دائماً أن يستعجل كل شيء، ويحب دائماً أن «ننطلق في الطريق» كما كان يفضل القول، قال إنه خطط لانتهاء حزم الأمتعة وكل شيء في نيويورك، ولأن نكون نحن الثلاثة في لاس فيغاس خلال أسبوع واحد، وقد التزم بما قاله. ففي الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين، أتى عمال النقل إلى شقتنا في سوتون بليس وباشروا تفكيك محتويات الشقة

وتوضيبها في صناديق. جاء تاجر كتب مستعملة حتى يلقي نظرة على كتب أمي الفنية، وجاء واحد آخر لكي يعاين الأثاث. وقبل أن أستوعب ما يجري، بدأ بيتنا يختفي أمام عيني... يختفي بسرعة تثير الدوار. عندما كنت أنظر إلى الستائر تُزال من أماكنها وإلى الصور تُنزل عن الجدران وإلى السجادات تطوى وتؤخذ بعيداً، تذكرت فيلم رسوم متحركة شاهدته ذات مرة وكانت فيه شخصية كرتونية تحمل ممحاة وتزيل المكتب، ثم المصباح، ثم الكرسي، ثم النافذة وكل ما في ذلك المكتب المريح إلى أن ظلت الممحاة آخر الأمر معلقة وسط مساحة بيضاء كبيرة.

عذبني ما كان يحدث، لكني ما كنت قادراً على إيقافه، فرحت أحوم هنا وهناك وأنظر إلى الشقة تتلاشى قطعة بعد قطعة كأنني نحلة تنظر إلى خراب خليّتها. تلك الصورة لأمّي معلقة على الجدار فوق مكتبها (وسط عدد كبير من الصور الملتقطة في العطلات، وكذلك الصور المدرسية). كانت صورة بالأبيض والأسود ملتقطة في سنترال بارك من أيام عملها في عرض الأزياء؛ صورة طباعتها شديدة الوضوح والدقة بحيث كان أصغر تفاصيلها بارزاً بوضوح يكاد يكون مؤلماً: نمَشها، ونسيج معطفها الخشن، الندبة الباقية من أثر الجدري فوق حاجبها الأيسر. كانت تنظر مبتهجة إلى الاضطراب والفوضى في الغرفة، وإلى أبي الذي يرمي بأوراقها وأدواتها الفنية ويضع الكتب في صناديق حتى يبيعها... مشهد لعلها لم تر مثله حتى في أحلامها، أو... آمل أنها لن تراه.

23

انقضت أيامي الأخيرة في بيت أسرة باربر بسرعة شديدة إلى حد جعلني شبه عاجز عن تذكّرها، ما عدا غسل وتنظيف بعض ملابسي في اللحظة الأخيرة، فضلاً عن مشاوير مستعجلة كثيرة إلى متجر النبيذ في شارع ليكس لجلب صناديق كرتون فارغة. كتبت على الصناديق عنواني الجديد بقلم أسود عريض. عنوان يبدو غريباً:

ثيودور بيكر و/ كساندرا تيريل
6219، طريق ديزرت إند
لاس فيغاس، نيفادا

كنا نقف محزونين، أنا وآندي، وننظر إلى تلك الصناديق المعنونة في غرفته.

قال لي: «يبدو هذا كما لو أنك تنتقل إلى كوكب آخر».

«نوعاً ما».

«لا، إنني جاد. هذا العنوان. كأنه عنوان مستعمرة منجمية في كوكب المشتري. أتساءل كيف ستكون مدرستك هناك؟».

«الرب وحده من يعرف ذلك».

«أعني... من الممكن أن تكون مكاناً من تلك الأماكن التي تقرأ عنها. مكان فيه عصابات وأجهزة الكشف عن المعادن». كان آندي يتلقى معاملة بالغة السوء في مدرستنا التي (يفترض أن تكون) مدرسة تقدمية متنوّرة بحيث صارت أية مدرسة عامة تبدو، في نظره، شيئاً أشبه بسجن من السجون... «فماذا ستفعل؟».

أجبته: «أظن أنني سأحلق شعري كله وأدقّ وشماً». راقني أنه لم يحاول إظهار بهجة أو حماسة في ما يتعلق برحيلي، خلافاً لسلوك السيدة سوانسون أو ديف (الذي كان من الواضح أنه مرتاح لعدم اضطراره بعد الآن إلى مزيد من التفاوض مع جدي وزوجته). لم يقل أحد في بارك آفينيو، غير آندي، أي شيء عن ذهابي على الرغم من التعبير المتوتّر الذي يرتسم على وجه السيدة باربر كلما طُرح شيء متعلّق بأبي و«صديقته». كان ذلك التعبير ينبئني بأن ما يجري كله ليس خيالاً. ثم إن المستقبل مع أبي وكساندرا ما كان يبدو لي سيئاً كثيراً أو مخيفاً كثيراً بقدر ما كان يبدو شيئاً يصعب عليَّ فهمه: بقعة من حبر أسود في الأفق.

24

قال هوبي عندما ذهبت لرؤيته مرة أخيرة قبل سفري: «نعم... قد تكون رؤية شيء جديد أمراً حسناً بالنسبة إليك حتى إذا لم يكن ذلك الشيء الجديد من اختيارك أنت». كنا نتناول طعام العشاء في غرفة الطعام على سبيل التغيير. جلسنا معاً عند رأس الطاولة التي كانت كبيرة بما يكفي لاثني عشر شخصاً. وكانت أباريق وتزيينات فضية ممتدة حتى الظلمة الغنية في الناحية الأخرى. لكن ذلك العشاء بدا لي ـ على نحو ما ـ أشبه بعشائنا الأخير في شقتنا القديمة في الجادة السابعة عندما جلست مع أمي وأبي على الصناديق وتناولنا طعاماً صينياً جاهزاً.

لم أقل له شيئاً. كنت في حالة بؤس؛ وكان تصميمي على المعاناة الصامتة قد جعلني غير ميّال إلى كثرة الكلام. خلال فترة القلق والتوتّر التي عشتها على امتداد الأسبوع السابق بينما كانت الشقة تجرَّد من محتوياتها وأشياء أمي تُطوى وتوضع في صناديق وتُنقل حتى تباع، كنت أحن إلى الظلمة والطمأنينة في بيت هوبي، إلى غرفته المزدحمة، وإلى رائحة الخشب العتيق وأوراق الشاي ودخان التبغ وأوعية البرتقال على طاولة المطبخ، والشموع التي تكلل قواعدها برك صغيرة من شمع النحل الذائب.

«أعني أن أمّك...». تلا ذلك صمت قصير لطيف... «ستكون تلك بداية جديدة».

رحت أنظر إلى طبقي. لقد أعدَّ لحم الخروف بالكاري مع صلصة بلون الليمون كان مذاقها فرنسياً أكثر منه هندياً.

«أنت لست خائفاً، أليس كذلك؟».

«خائف، من ماذا؟».

«من الذهاب للعيش معه».

فكّرت في الأمر وأنا أنظر إلى الظلال التي خلف رأسي، ثم قلت له: «لا، لست خائفاً في حقيقة الأمر». مهما يكن السبب في ذلك، فقد

بدا لي أبي منذ عودته أكثر استرخاء وأكثر تسامحاً. ما كنت قادراً على إرجاع ذلك التغيير إلى حقيقة أنه توقف عن الشرب، لأن أبي ـ عادة ـ يصير صامتاً، محتقناً، بائساً فور جلوسه في السيارة، ويصير على وشك الانفجار بحيث أنتبه جيداً إلى البقاء بعيداً عن متناول يده.

«هل أخبرت أحداً آخر بما قلته لي؟».

«أخبرت أحداً بماذا؟...».

خفضت رأسي محرَجاً وتناولت لقمة من طبقي. كان طعاماً لذيذاً حقاً شريطة أن يعتاد المرء على فكرة أنه ليس طبقاً بالكاري.

أعقب ذلك صمت، ثم قلت: «أظنّه توقّف عن الشرب فعلاً... إن كان ذلك ما تعنيه. يبدو أحسن من ذي قبل. لذا... نعم». أنهيت جملتي بطريقة غريبة.

«وهل تعجبك صديقته؟».

كان عليَّ أن أفكّر قليلاً مرة أخرى. قلت مقِرّاً: «لست أدري».

ظل هوبي صامتاً صمتاً لطيفاً ومد يده إلى كأس النبيذ من غير أن تفارقني عيناه.

«الحقيقة أنني لا أعرفها. أظن أنها... لا بأس. لا أستطيع فهم ما يعجبه فيها».

«لم لا؟».

«الحقيقة...» لم أعرف بأي شيء أبداً. يستطيع أبي أن يكون ساحراً مع «السيدات» كما يدعوهن، فيفتح لهن الأبواب ويمس رسغ الواحدة منهن مسّاً رقيقاً عندما يتكلّم. لقد رأيت نساءً يذبن أمامه... مشهد كنت أنظر إليه ببرود متسائلاً كيف يمكن أن يُخدع أي إنسان بهذه الحركات المكشوفة. كان هذا أشبه برؤية أطفال صغار تنطلي عليهم الحيل التي يرونها في عرض لساحر رخيص. «لست أدري». أظنني توقّعت أن تكون أكثر جمالاً.

قال هوبي: «لا أهمية للجمال إذا كانت لطيفة».

«صحيح، لكنها ليست لطيفة أبداً».

«أوه... هل يبدو لك أنهما سعيدان معاً؟».

«لست أدري. في الحقيقة...». لكني أقررت... «نعم، لأنه لا يبدو غاضباً طيلة الوقت!».

تحت وطأة إحساسي بثقل السؤال الضاغط الذي لم ينطقه هوبي، أضفت: «ثم إنه أتى لكي يأخذني. أعني أنه لم يكن مضطراً إلى فعل ذلك. كان يمكنهما البقاء مختفيَيْن لو أنهما لم يريداني».

لم نقل بعد ذلك أي شيء عن هذا الأمر. أنهينا طعامنا ونحن نتكلّم في أمور أخرى. وعندما أردت الذهاب؛ عندما سرنا في الممر الذي اصطفت على جداره صور كثيرة ـ مررنا بغرفة بيبا التي كان بابها مفتوحاً ومصباحها الليلي مضاء. كان كوزمو نائماً على حافة سريرها ـ قال لي وهو يفتح باب البيت حتى أخرج: «ثيو».

«نعم».

«إن لديك عنواني. ولديك رقم هاتفي».

«بالتأكيد».

«لا بأس إذاً». بدا منزعجاً بقدر انزعاجي، تقريباً... «آمل أن تكون رحلتك جيدة. انتبه لنفسك».

أجبته: «وأنت أيضاً». راح كل منا ينظر إلى الآخر.

«حسناً...».

«حسناً. تصبح على خير».

دفعت الباب فانفتح؛ وخرجت من البيت ـ خرجت من ذلك البيت آخر مرة؛ هكذا ظننت. لكن ظنّي كان خاطئاً على الرغم من أنني لم أتصوّر أبداً أنني سأراه بعد ذلك أبداً.

الجزء الثاني



من عساه يتراجع . عندما نكون في أوَجِّ قوتنا ؟
ومن عساه يسقط ضاحكاً . إذا كنّا في أوجِّ بهجتنا ؟
ما الذي يستطيعون فعله لنا . إن كنّا في غاية السوء ؟

آرتور رامبو

الفصل الخامس:

بدر الدين

1

على الرغم من أنني قررت ترك الحقيبة في غرفة الأمتعة في بنايتي القديمة لأنني كنت واثقاً من أن خوسيه وغولدي سوف ينتبهان إليها، فقد ازداد توتري شيئاً فشيئاً مع اقتراب موعد الرحيل؛ وفي اللحظة الأخيرة، قررت أن أعود لسبب يبدو لي الآن غبياً كل الغباء: في غمرة استعجالي لكي أخرج اللوحة من الشقة، وضعت معها في الحقيقة أشياء كثيرة كيفما اتفق، كان من بينها القسم الأكبر من ملابسي الصيفية. وهكذا اتخذت قراري قبل يوم من مرور أبي حتى يأخذني من بيت آل باربر فأسرعت عائداً إلى الشارع السابع والخمسين معتزماً فتح الحقيبة وإخراج زوج من أحسن قمصاني التي كانت آخر ما وضعته فيها.

لم أجد خوسيه هناك؛ لكن رجلاً جديداً عريض المنكبين (قرأت اسمه على البطاقة الصغيرة على صدره: ماركو فيند) تقدّم فوقف أمامي معترضاً طريقي بحركة أشبه بحركات الحراس الأمنيين منها بسلوك البوابين. قال لي: «عفواً، هل أستطيع خدمتك؟».

شرحت له قصة الحقيبة. لكنه راجع السجل ماراً بإصبعه الثخين على عمود التواريخ فلم يبد عليه أي استعداد لدخول غرفة الأمتعة وجلب

حقيبتي من ذلك الرف المرتفع. قال لي بنبرة شك وهو يحك أنفه: «ولماذا تركتها هنا؟».

«قال خوسيه إنني أستطيع تركها».

«هل أعطاك وصلاً؟».

أجبته بعد لحظة صمت متردّد: «لا».

«الحقيقة أنني لا أستطيع مساعدتك. ليس لدي شيء مسجّل هنا. ثم إننا لا نحتفظ لدينا بأمتعة لأشخاص من غير سكان البناية».

لقد عشت في هذه البناية زمناً طويلاً كافياً لأن أعرف أن ما قاله لم يكن صحيحاً؛ لكني لم أرد مجادلته في هذه النقطة. قلت له: «كنت أعيش هنا. أعرف غولدي وكارلوس والجميع. أعني... هيا...». قلت هذا بعد لحظة صمت متجمّدة غير مناسبة أحسست خلالها بأن انتباهه قد بدأ يتحوّل عني... «إذا أدخلتني إلى الغرفة، فإنني قادر على تحديد الحقيبة».

«آسف. دخول الغرفة ممنوع على أي شخص من غير العاملين والسكان».

«إنها حقيبة قماش على مقبضها شريط مربوط. اسمي مكتوب عليها أيضاً. هل ترى؟ اسمي بيكر!». قلت هذا وأنا أشير إلى البطاقة التي لا تزال مثبتة على صندوق البريد لأنني أردت أن أثبت له كلامي. لكن غولدي أتى في تلك اللحظة عائداً من استراحته.

«مرحباً! انظروا من عاد إلينا! هذا الفتى صديقي...». قال الجملة الأخيرة لماركو... «أعرفه منذ أن كان صغيراً. ما أخبارك يا صديقي ثيو؟».

«لا شيء. أعني... حسناً... إنني راحل عن المدينة».

قال غولدي: «أوه، حقاً؟ هل أنت ذاهب إلى لاس فيغاس بهذه السرعة؟». مع صوت غولدي، ومع يده المستقرة على كتفي، صار كل شيء سهلاً مريحاً... «إنه مكان جنوني للعيش، أليس ما أقوله صحيحاً؟».

قلت بنبرة متشكّكة: «أظن هذا».

يقول لي الناس دائماً إن كل شيء سيكون جنونياً في لاس فيغاس

رغم أنني لا أفهم السبب في ذلك. فليس من المحتمل أبداً أن أمضي وقتاً طويلاً في نوادي القمار!

فتح غولدي عينيه وهز رأسه بحركة هزلية كانت أمي قادرة على تقليدها في بعض لحظات الشقاوة: «أنت تظن هذا! أوه، يا إلهي! بل أنا الذي أقوله لك، تلك المدينة، والنقابات التي فيها، أعني العمل في المطاعم والعمل في الفنادق... كل يوم على امتداد السنة. سوف يعجبك العيش هناك يا صديقي. متى قلت إنك ذاهب؟».

«أمم، اليوم. أعني غداً. لهذا أردت...».

«أوه، هل أتيت من أجل حقيبتك؟».

«نعم، بالتأكيد».

قال غولدي لماركو شيئاً بلغة إسبانية حادّة، فهز الرجل كتفيه وتوجّه إلى غرفة الأمتعة.

قال لي غولدي بصوت منخفض: «إنه جيد. هذا الماركو. لكنه لا يعرف شيئاً عن حقيبتك لأننا لم ندخلها في السجلات. هل فهمت ما قلته لك؟».

كنت أفهم ما قاله لي. يجب أن يجري تسجيل دخول الأمتعة كلها، وكذلك تسجيل خروجها من البناية. ومن خلال عدم وضع لصاقة على الحقيبة، أو إدخالها في السجل الرسمي، كان غولدي وخوسيه يحميانني من قدوم أحد ما ومحاولة المطالبة بحقيبتي.

قلت محرَجاً: «اسمع... أشكرك على حرصك من أجلي...».

قال غولدي: «لا مشكلة. آه، شكراً يا رجل...». قال هذا بصوت مرتفع مخاطباً ماركو عندما رآه قادماً بالحقيبة، ثم تابع يخاطبني بصوت منخفض إلى حد جعلني مضطراً إلى الاقتراب منه حتى أسمعه... «كما قلت لك، ماركو شخص طيب. لكن شكاوى السكان كانت كثيرة لأن عدد العاملين في البناية كان منخفضاً خلال... أنت تعرف...». نظر إلي

نظرة ذات مغزى... «أعني أن كارلوس لم يستطع القدوم إلى عمله ذلك اليوم. أظن الغلطة لم تكن غلطته، لكنهم طردوه».

«كارلوس؟».

كان كارلوس أقدم البوابين وأكثرهم تحفّظاً. كان أشبه بنموذج ساحر لرجل مكسيكي بشاربه الدقيق، وصدغَيْه الشائبين، وحذائه الملمع بشدة، وقفازيه اللذين يفوقان قفازات الجميع بياضاً: «هل طردوا كارلوس؟».

«أعرف... شيء لا يصدق. أربعة وثلاثون عاماً و...». أشار غولدي بإبهامه إلى الخلف... «أووف. والآن... صارت الإدارة شديدة الحرص على الجوانب الأمنية... موظفون جدد وقواعد جديدة، وتسجيل الدخول والخروج، وتلك الأشياء كلها».

دفع الباب بظهره حتى يفتحه وقال: «على أي حال، دعني أوقف لك سيارة تاكسي يا صديقي. هل أنت ذاهب إلى المطار؟».

قلت وأنا أمد يدي حتى أوقفه: «لا!». كنت منشغل الذهن إلى درجة كبيرة فلم أكن ألاحظ ما كان يفعله؛ إلا أنه أزاح اعتراضي جانباً بحركة احتجاج على ما قلته.

قال لي وهو يضع الحقيبة عند حافة الرصيف: «لا، لا. لا بأس يا صديقي، فقد فهمت». أدركت مذعوراً أنه ظنني أحاول إيقافه حتى أحمل الحقيبة إلى الخارج بنفسي لأنني لا أملك مالاً حتى أعطيه بقشيشاً.

قلت له: «اسمع، انتظر». لكن غولدي صفر في اللحظة نفسها ونزل إلى الشارع رافعاً يده وصاح: «هنا، تاكسي؟».

وقفت ببوابة البناية يائساً عندما اقتربت السيارة من الرصيف. قال غولدي وهو يفتح بابها الخلفي: «ممتاز! ما رأيك بهذا التوقيت؟». وقبل أن أتمكّن من التفكير في طريقة تسمح لي بإيقافه من غير أن أبدو شخصاً أحمق، أجلسني غولدي في المقعد الخلفي ووضع الحقيبة في صندوق السيارة، ثم صفع سقفها صفعة خفيفة بطريقته الودية اللطيفة.

قال لي وهو ينظر إلي ثم ينظر إلى السماء: «أتمنى لك رحلة طيبة يا صديقي. استمتع بضياء الشمس هناك. استمتع به هناك من أجلي. تعرف كم أحب الشمس. إنني طائر استوائي كما تعلم! لا أطيق انتظار العودة إلى موطني في بورتوريكو والحديث مع النحلات. همهم...». قالها كمن يغني وقد أغمض عينيه ومال برأسه جانباً. إن لدى أختي خلية نحل أليف. وأنا أغني لتلك النحلات حتى تنام. هل لديهم نحل في لاس فيغاس؟».

«لست أدري». قلتها وأنا أتلمّس جيوبي بهدوء حتى أرى إن كنت أستطيع معرفة مقدار ما لديّ من مال.

«إذا رأيت نحلات، فأبلغهن سلامي. قل لهن إنني قادم».

«مرحباً! توقّف!». كان ذلك صوت خوسيه. أتى رافعاً يده... لا يزال في ملابسه الرياضية لأنه كان يلعب كرة القدم ولأنه جاء من لعبة في الحديقة. أتى في اتجاهي بمشية متمايلة ورأسه يعلو وينخفض... مشية رياضية.

قال لي وهو ينحني ويدخل رأسه من شباك السيارة: «مرحباً! هل أنت ذاهب يا صديقي؟ يجب أن ترسل لنا صورة من هناك!». في الأسفل، في قبو البناية حيث يبدّل البوابون ملابسهم، هناك جدار تغطّيه بطاقات بريدية وصور ملونة فورية من ميامي وكانكون وبورتوريكو والبرتغال أرسلها البوابون والسكان على امتداد سنين طويلة.

قال غولدي: «هذا صحيح! أرسل لنا صورة. لا تنسَ هذا!».

«أنا...». كنت موشكاً على القول إنني سأشتاق إليهم جميعاً. لكن قول ذلك بدا لي شيئاً سخيفاً، فلم أقل لهما إلا... «لا بأس، كونا بخير».

أجابني خوسيه وهو يتراجع عن السيارة رافعاً يده بالتحية: «وأنت أيضاً، ابقَ بعيداً عن طاولات القمار».

قال سائق التاكسي: «ماذا يا فتى؟ هل تريد أن آخذك إلى مكان ما، أم ماذا؟».

قال له غولدي: «انتظر، انتظر، تمهّل قليلاً. لا بأس عليك...». ثم قال

لي: «ستكون أمورك بخير يا ثيو. حظاً طيباً يا رجل. أتمنّى أن أراك قريباً. فليباركك الرب». ثم ضرب بيده على السيارة ضربة ودية أخيرة.

2

قال أبي عندما وصل بسيارة تاكسي إلى بيت آل باربر حتى يأخذني: «لا تقل لي إنك ستأخذ معك هذه القمامة كلها إلى الطائرة». قال هذا لأن معي حقيبة أخرى غير الحقيبة التي فيها اللوحة، أي تلك الحقيبة التي كنت أعتزم أخذها في الأصل.

قالت كساندرا بطريقة هستيرية بعض الشيء: «أظنك ستتجاوز حدود الوزن المسموح لك». في ذلك الحر السام على الرصيف، كنت قادراً على أن أشم رائحة رذاذ الشعر الذي استخدمته حتى من موضع وقوفي على الرصيف... «إنهم لا يسمحون لك بحمل ما يزيد على وزن محدّد بعينه».

كانت السيدة باربر قد نزلت معي إلى الرصيف فقالت بصوت ناعم: «أوه، لن تكون هنالك مشكلة في هاتين الحقيبتين. إنني أتجاوز حدود الوزن دائماً».

«نعم، لكنك تدفعين مزيداً من المال».

قالت السيدة باربر: «في الواقع، أظنكم ستجدون المبلغ مقبولاً تماماً». كان ذلك في وقت مبكّر من الصباح، وكانت السيدة باربر من غير حليّ أو أحمر شفاه؛ إلا أنها ظلت قادرة ـ على نحو ما ـ حتى وهي في صندلها وفستانها القطني البسيط على إعطاء الانطباع المعهود بأنها متأنّقة... «قد يتطلّب الأمر دفع عشرين دولاراً زيادة في المطار؛ لكن ذلك لن يكون مشكلة، أليس كذلك؟».

نظر كل من أبي والسيدة باربر إلى الآخر كما لو أنهما قطتان، ثم أشاح بوجهه عنها. كنت خجلاً محرَجاً بعض الشيء بسبب سترته الرياضية الطويلة التي ذكّرتني بالأشخاص الذين تظهر صورهم في «ديلي نيوز» على أنهم من المشتبه بهم في تجارة المخدرات.

قال متجهماً في فترة الصمت (صمت ترحيبي من أجلي) التي أعقبت ما قالته السيدة باربر: «كان عليك إخباري بأن لديك حقيبتين. لست أدري إن كان هنالك متسع في صندوق السيارة».

كنت واقفاً على الرصيف أمام صندوق السيارة المفتوح فكدت أصل إلى التفكير في ترك الحقيبة مع السيدة باربر، ثم الاتصال بها لاحقاً وإخبارها بما تحتوي. لكن، وقبل اتخاذ قراري في قول شيء ما، كان سائق التاكسي الروسي ذو الظهر العريض قد أخرج حقيبة كساندرا من الصندوق ووضع فيه حقيبتي الثانية فتمكن، بشيء من الضغط والدفع، من العثور على مكان لها.

قال وهو يغلق غطاء الصندوق ويمسح جبهته بيده: «أرأيتم، ليست ثقيلة جداً، ثم إنها طرية الجوانب».

قالت كساندرا وقد بدا عليها الفزع: «لكن، ماذا عن حقيبتي الصغيرة؟».

«لا مشكلة يا سيدتي. يمكنني وضعها على المقعد الأمامي إلى جانبي، أو عندك في الخلف إذا كنت تفضّلين ذلك».

قالت السيدة باربر وقد انحنت وقبّلتني قبلة سريعة... القبلة الأولى منذ وصولي إلى بيتهم، قبلة سيدة تتناول العشاء في الخارج، قبلة برائحة النعنع والغاردينيا. قالت: «هذا يعني أن كل شيء على ما يرام. مع السلامة جميعاً. أتمنى لكم رحلة رائعة». كان آندي قد ودّعني في اليوم السابق. وعلى الرغم من معرفتي بأن رؤيتي ذاهباً أمر محزن له، إلا أن مشاعري تأذّت قليلاً لأنه لم يبق لوداعي بل ذهب مع بقية أفراد الأسرة إلى ذلك البيت في ولاية ماين، البيت الذي من المفترض أنه يكرهه، وأما السيدة باربر، فلم يبدُ عليها أي حزن خاص لرؤيتي مسافراً على الرغم من أنني كنت شديد التأثر لرحيلي.

عيناها الرماديتان على عيني، صافيتان باردتان. قلت لها: «أشكرك كثيراً يا سيدة باربر. أشكرك على كل شيء. بلّغي آندي تحياتي».

أجابتني: «سأفعل بالتأكيد. لقد كنت ضيفاً جيّداً جدّاً يا ثيو». ظللت ممسكاً بيدها لحظة في حرارة الصباح الرطبة في بارك آفنيو ـ كان لديّ

بعض الأمل في أن تقول لي أن أتصل بها إذا احتجت أي شيء ـ لكنها لم تقل إلا «حظّاً طيباً». ثم قبلتني قبلة باردة صغيرة أخرى وتراجعت مبتعدة عني.

3

لم أستطع أن أستوعب تماماً أنني راحل عن نيويورك. طيلة حياتي، لم أخرج من المدينة كلها مدة أكثر من ثمانية أيام. وفي طريقنا إلى المطار، رحت أنظر من النافذة إلى لوحات إعلانية لنوادي التعري ولمحامين متخصّصين في الإصابات الشخصية... أشياء من المستبعد أن أراها حيناً من الزمن. سكنتني هذه الفكرة التي بعثت القشعريرة في نفسي. وماذا عن التفتيش الأمني في المطار؟ لم أسافر جواً إلا قليلاً (مرتين فقط كانت واحدة منهما أيام حضانة الأطفال)، ولم أكن واثقاً مما قد يشتمل عليه ذلك التفتيش: فحص بالأشعة؟ تفتيش مباشر للأمتعة؟

سألت بصوت خافت وجل: «هل يفتحون كل شيء في المطار؟». ثم كررت السؤال لأن أحداً لم يسمعني، على ما يبدو. كنت جالساً في المقعد الأمامي حتى لا أفسد على أبي وكساندرا خصوصيتهما الرومانتيكية.

أجابني سائق التاكسي: «أوه، بالتأكيد...». كان سوفييتياً بديناً عريض المنكبين: ملامح خشنة جافية، ووجنتان متعرّقتان محمرّتان كالتفاح (كأنه رافع أثقال أصابته البدانة)... «وإذا لم يفتحوا الحقيبة فإنهم يفحصونها بالأشعة».

«حتى إذا تأكدت منها بنفسي».

أجابني كأنه يطمئنني: «أوه، إنهم يدقّقون بحثاً عن المتفجرات، يدققون في كل شيء. الوضع آمن تماماً».

«لكن...».

حاولت التفكير في طريقة لصياغة ما كنت في حاجة إلى السؤال عنه من غير أن أفضح نفسي، لكني لم أهتدِ إلى شيء.

قال السائق: «لا مبرر للقلق. هناك أعداد كبيرة من عناصر الشرطة في المطار. هل تعرف أنهم وضعوا حواجز في الطرق منذ ثلاثة أو أربعة أيام؟»

قالت كساندرا بصوتها الأجش: «الحقيقة أنني لا أستطيع قول شيء غير أنني توّاقة إلى مغادرة هذا المكان اللعين». مرت لحظة حيرة ظننت خلالها أنها تكلّمني، لكني نظرت إلى الخلف فرأيتها ملتفتة إلى أبي.

وضع أبي يده على ركبتها وقال لها شيئاً بصوت منخفض لم أستطع سماعه. كان قد وضع نظارته المظللة وأراح رأسه إلى الخلف على مسند الكرسي. كان هناك شيء متراخٍ وشبابيّ في صوته الرتيب، شيء غامض سرى بينهما عندما ضغطت يده على ركبتها. أشحت بوجهي عنهما ورحت أنظر من النافذة إلى المنطقة التي نجتازها: بنايات طويلة ومنخفضة، ومتاجر بقالة كبيرة، وصالات لياقة بدنية، ومواقف سيارات متوهّجة في حرارة الصباح.

سمعت كساندرا تقول بصوت منخفض: «أرأيت أنه لا مانع لدي من وجود العدد سبعة في رقم الرحلة؟ العدد ثمانية هو ما يخيفني».

«أعرف، لكن العدد ثمانية يجلب الحظ الطيب في الصين. انظري إلى لوحة الرحلات الدولية عندما نصل إلى صالة ماكاران. انظري إلى الرحلات القادمة من الصين، كلها! ثمانية ثمانية ثمانية».

«أنت وحكمتك الصينية».

«هذا التكرار العددي. كله طاقة. لقاء السماء والأرض».

«السماء والأرض! تجعل الأمر يبدو كأنه سحر».

«إنه سحر».

«حقاً؟».

كانا يتهامسان. وفي المرآة الداخلية في السيارة، كان وجهاهما غبيّيْن متقارِبَين كثيراً؛ وعندما أدركت أنهما موشكان على التقبيل (شيء لا يزال

يصدمني، بصرف النظر عن المرات الكثيرة التي رأيتهما فيها يتبادلان القبل)، أدرت رأسي ونظرت إلى الأمام مباشرة.

خطر في ذهني أن ما من قوة في الأرض كان يمكنها إقناعي بأنهما لم يقتلا أمي لولا علمي بكيفية موتها.

4

وقفنا ننتظر حصولنا على بطاقات الصعود إلى الطائرة فكنت متيبساً من الخوف لتوقعي أن يفتحوا حقيبتي خلال التفتيش الأمني ويكتشفوا وجود اللوحة في تلك اللحظة، في صف الانتظار. لكن المرأة ذات الوجه المتجهم والشعر المشعث، المرأة التي لا أزال أتذكّر شكل وجهها، وضعت حقيبتي على السير الناقل ولم تكد تنظر إليها (كنت أُصلّي حتى لا يكون علينا أن نذهب إلى تلك المرأة عندما يأتي دورنا).

وقفت أنظر إلى حقيبتي تتهادى مبتعدة ذاهبة صوب موظفين آخرين وإجراءات لا أعرف عنها شيئاً فأحسست بأنني محاصر مذعور تحت ضغط المسافرين الغرباء الذين من خلفي ومن حولي ـ كنت متوجساً أيضاً لأحساسي بأن أنظارهم كلهم مصوَّبة إلي. لم أجد نفسي وسط حشد كثيف من الناس، ولم أر هذا العدد الكبير من الشرطة في مكان واحد منذ ذلك اليوم الذي شهدَ موت أمي. كان عناصر الحرس الوطني واقفين ببنادقهم عند أجهزة كشف المعادن، مرتدين ستراتهم الواقية من الرصاص وعيونهم الباردة تراقب جموع الناس.

طرود وحقائب وأكياس تسوّق وعربات أطفال ورؤوس تتهادى متحركة على امتداد المدخل، بعيداً إلى آخر ما كنت قادراً على رؤيته. كنت أنظر إلى صف عناصر الأمن عندما سمعت صيحة ـ ظننت بأنني سمعت أحداً يصيح اسمي. تجمدت مكاني.

إنه أبي وهو يقفز من خلفي على قدم واحدة محاولاً خلع حذائه.

كان يلكز ظهري بمرفقه ويقول: «هيا، هيا! لا تقف هنا. أنت تعطّل تقدم الصف كله...».

مررت عبر بوابة كشف المعادن وظلت عيناي متعلقتَيْن بالبساط الذي على الأرض ـ كانت حركاتي متشنجة متيبسة لشدة ذعري؛ وكنت أتوقع في كل لحظة أن تهوي يدٌ على كتفي.

بكاء أطفال رضَّع. وأشخاص متقدمون في السن يتحرّكون على عربات صغيرة ذات محركات. ما الذي سيفعلونه بي؟ هل أستطيع جعلهم يدركون أن الأمر ليس مثلما يبدو تماماً؟ تخيلت غرفة معزولة تماماً كالغرف التي أراها في الأفلام، وأبواباً مغلقة؛ وتخيلت عناصر شرطة غاضبين في قمصان مطوية الأكمام يقولون لي: *انسَ الأمر! لن تسافر إلى أي مكان يا فتى!*

عبرنا التفتيش الأمني وصرنا في الممر ذي الأصداء فسمعت خطوات واضحة مصممة تسير خلفي، على مقربة مني. توقفت مرة أخرى.

قال أبي وهو يلتفت إليَّ بنظرة غاضبة: «لا تقل لي إنك نسيت شيئاً هناك».

أجبته وأنا أنظر من حولي: «لا، أنا...». لم أر أحداً من خلفي. راح المسافرون المسرعون يتجاوزونني من الجانبين.

قالت كساندرا: «يا إلهي، كم هو شاحب! كأنه ملاءة بيضاء!». ثم خاطبت أبي: «هل به شيء؟».

أجابها أبي وهو يعاود السير من جديد: «أوه، سيكون بخير عندما نصير في الطائرة. كان أسبوعاً صعباً علينا جميعاً».

قالت كساندرا بصراحة فجّة: «نعم... لو كنت مكانه لأفزعني الصعود إلى الطائرة أيضاً... بعد كل ما مرَّ به».

كان أبي يجر حقيبته ذات العجلات؛ حقيبة اشترتها له أمي في عيد ميلاده قبل سنين كثيرة؛ لكنه توقّف من جديد.

فاجأتني نظرة عطف في عينيه عندما قال: «يا طفلي المسكين! هل أنت خائف؟».

أجبته متعجلاً: «لا». كان اجتذاب انتباه الناس إليّ أو ظهور خوفي، ولو حتى ربع ما كنت فيه، آخر ما أريده في تلك اللحظة.

نظر أبي إليَّ عاقداً حاجبيه، ثم التفت إلى كساندرا وقال لها وهو يميل برأسه: «كساندرا! لماذا لا تعطيه واحدة من تلك... ما رأيك؟».

أجابته كساندرا: «فهمت!». ثم توقفت وراحت تبحث في حقيبة يدها، فأخرجت قرصي دواء بيضاوين كبيرين للواحد منهما شكل رصاصة. وضعت قرصاً في كف أبي الممدودة إليها، ثم ناولتني القرص الثاني.

قال لها أبي وهو يضع القرص في جيب سترته: «شكراً. فلنذهب ونبحث عن شيء نشربه حتى يساعدنا في ابتلاع هذين القرصين. ضعه في جيبك». قال هذا لي عندما رآني حاملاً القرص بين سبّابتي وإبهامي مستغرباً مقدار ضخامته.

قالت كساندرا لأبي وقد أمسكت بذراعه ومالت جانباً لتصلح وضع شريط صندلها: «ليس في حاجة إلى القرص كله».

أجابها أبي: «صحيح». أخذ القرص مني وكسره بحركة شخص خبير فصار نصفين متساويين. أسقط أحدهما في جيب معطفه وأعطاني الآخر، ثم سارا أمامي يجر كل منهما حقيبته.

5

لم يكن قرص الدواء قوياً إلى حد يجعلني أنام، لكنه أبقاني منتشياً سعيداً متقافزاً بين الأحلام. كان المسافرون يتهامسون في المقاعد التي من حولي بينما راحت مضيفة جوية غير ظاهرة لي تعلن نتائج سحب اليانصيب الترويجي في الطائرة: عشاء مع المشروب لشخصين في «تريغر آيلاند». جعلتني وعودها الضبابية أغرق في حلم جديد رأيت نفسي فيه أسبح مبتعداً في ماء أسود مخضرّ... مسابقة على ضوء المصابيح الكاشفة

مع أطفال يابانيين يغوصون تحت غلاف وسادة ممتلئ بلآلئ وردية. وخلال ذلك كله، كان هدير الطائرة صافياً أبيض مستمراً كهدير البحر، ثم جاءت لحظة غريبة كنت فيها متدثراً ببطانيتي ذات اللون الأزرق الملكي حالماً بمكان ما عالياً فوق الصحراء، فبدا لي أن صوت المحركات قد اختفى وساد الصمت ووجدت نفسي عائماً منطلقاً وقد تلاشت الجاذبية بينما كنت لا أزال مثبتاً بالحزام إلى مقعدي الذي تحرك مبتعداً عن بقية المقاعد وراح يطوف داخل الطائرة على هواه.

أعادتني صدمة إلى جسدي عندما مست العجلات مدرج المطار فراحت الطائرة تجري مهتزة بعض الشيء، ثم توقّفت.

سمعت صوت الطيار يعلن في مكبر الصوت: «أهلاً بكم في لاس فيغاس، نيفادا. الساعة الآن الحادية عشرة وسبع وأربعون دقيقة قبل الظهر بحسب التوقيت المحلي في المدينة».

كنت شبه أعمى وسط الواجهات الزجاجية الكبيرة والسطوح العاكسة عندما سرت خلف أبي وكساندرا عبر صالة المطار وقد أذهلتني أصوات آلات الألعاب والتماعاتها وصوت الموسيقى المرتفع كثيراً غير المتناسب مع هذا الوقت المبكر من النهار. كان المطار أشبه بنسخة ضخمة من تايمز سكوير: نخلات باسقة، وشاشات عرض سينمائي فيها ألعاب نارية وزوارق جندول وعارضات أزياء ومغنون وبهلوانيون.

تأخر كثيراً ظهور حقيبتي الثانية على سير استلام الأمتعة. وقفت أقضم أظافري وقد تعلّقت أنظاري بلوحة عليها صورة تنين ضخم مبتسم. كان ذلك إعلاناً ترويجياً لكازينو ما: «أكثر من ألفي نوع من الزواحف في انتظارك!». كان حشد الناس المنتظرين أمتعتهم أشبه بمجموعة ملوّنة من المتشرّدين المبرقشين أمام ملهى ليلي من الدرجة الثالثة: قمصان زاهية، وسوالف طويلة، وسيدات آسيويّات ضئيلات الحجم، متزينات بالمجوهرات وبنظارات شمس ضخمة. كان السير يدور ويدور فارغاً

معظم الوقت؛ وراح أبي (كنت أعرف أنه متلهف إلى تدخين سيجارة) يتمطّط ويسير هنا وهناك ويفرك خده بظهر أصابعه مثلما يفعل عندما يكون راغباً في الشراب. ثم أتت الحقيبة، آخر حقيبة، حقيبة قماش كاكية اللون عليها بطاقة حمراء وذلك الشريط متعدّد الألوان الذي ربطته أمي على مقبضها.

بخطوة كبيرة واحدة، اقترب أبي من السير وأمسك بالحقيبة قبل أن أتمكّن من الوصول إليها. قال بنبرة مرحة وهو يلقي بها فوق بقية الأمتعة في عربتنا الصغيرة: «حان الوقت. هيا... فلنخرج من هنا».

عبرنا الأبواب الأوتوماتيكية فاصطدمنا بجدار من حرارة تقطع الأنفاس. أميال من سيارات واقفة كانت ممتدة في كل اتجاه من حولنا؛ سيارات مغطاة، ساكنة. كنت أنظر أمامي مباشرة بعينين غير قادرتين على الحركة ـ سكاكين متألقة من ضياء لامع مثل الكروم، وأفق بعيد يتلألأ كأنه زجاج متماوج ـ وقفت كما لو أن التردد أو النظر إلى الخلف يمكن أن يجعل شخصاً في ملابس رسمية يعترض طريقنا. لكن أحداً لم يلقِ القبض عليّ ولم ينادني طالباً مني التوقف. ما كان أحد ينظر إلينا! كنت في حالة تشوّش شديد وسط هذا الوهج، فتعثّرت وكدت أسقط على الرصيف عندما توقّف أبي أمام سيارة ليكزس فضية جديدة وقال: «حسناً، هذه سيارتنا».

قلت: «أهي لكما؟». راحت عيناي تتنقّلان بين أبي وكساندرا.

قالت كساندرا بصوت غنج وهي تلتف حول السيارة بحذائها ذي الكعب المرتفع لحظة ضغط أبي على الزر فانفتح قفل السيارة: «ماذا؟ ألا تعجبك؟».

ليكزس؟ كنت أفاجأ كل يوم بأشياء كثيرة، كبيرة أو صغيرة، فأحسّ بحاجة ملحة إلى إخبار أمي بها. وقفت في هذه اللحظة أنظر إلى أبي وهو يضع الحقائب في صندوق السيارة فكانت أول فكرة تمر في ذهني:

واو، انتظر إلى أن تسمع أمي بهذا الخبر! لا عجب في أنه لم يكن يرسل لنا مالاً!

ألقى أبي جانباً بسيجارة الفايسروي التي لم يدخن إلا نصفها وقال: «هيا، اصعد إلى السيارة».

كأنما أكسبه هواء الصحراء قوة مغناطيسية. خلال وجوده في نيويورك، كان يبدو مرهقاً متوعكاً زريّ المظهر؛ أما في هذه الحرارة اللاهبة فقد صارت لسترته البيضاء ولنظّارته الشمسية الغريبة معنًى جديدٌ.

انطلقت السيارة ـ التي تقلع بالضغط على مفتاح ـ بهدوء شديد، فلم أدرك أول الأمر أنها بدأت الحركة. انزلقنا سائرين في فضاء لا عمق له. لقد اعتدت الاهتزاز والقلقلة في المقاعد الخلفية لسيارات التاكسي، فكانت سلاسة الرحلة في هذه السيارة أمراً غريباً جعلني أحس بنفسي مفصولاً عن كل شيء: رمل بنّي، ووهج حاد، وصمت وذهول، وبقايا قمامة ساقتها الريح فعلقت بالأسيجة السلكية تصفعها مرفرفة. كنت لا أزال في حالة خدر وانعدام وزن بسبب القرص الذي تناولته؛ وكانت الواجهات المجنونة والمنشآت الكبيرة في منطقة «ستريب» والضياء الوامض العنيف عند التقاء كثبان الرمل بالسماء، قد جعلني أشعر كما لو أنني صرت في كوكب مختلف.

كان أبي وكساندرا يتحدّثان بصوت منخفض في المقعد الأمامي، ثم استدارت في اتجاهي مطقطقة بعلكتها، وحليها تلمع في الضياء الشديد، وقالت لي مطلقة من فمها موجة قوية من رائحة عصير الفاكهة: «ما رأيك؟».

قلت: «شيء مدهش» ـ كنت أنظر إلى هرم يبحر مارّاً بنافذتي، وإلى برج إيفل... كانت كثرة ما أراه تربكني ولا أستطيع استيعابها.

قال أبي وهو ينقر بأظافره على عجلة القيادة بتلك الطريقة التي اعتدت ربطها بتوتّر أعصابه وبمشاجرات مع أمي آخر الليل عندما يأتي إلى البيت

عائداً من المكتب: «أتظن الآن أن ما تراه رائع؟ انتظر حتى تراه مُناراً في الليل».

قالت كساندرا وهي تمد يدها وتشير عبر النافذة التي من جهة أبي: «انظر هناك، انتبه جيداً. إنه البركان. وهو يعمل حقاً».

«أظنهم يصلحونه في الوقت الحاضر. أما من الناحية النظرية، فنعم. هناك لافا بركانية حارّة تنطلق عند تمام الساعة، في كل ساعة».

قال صوت نسائي آلي: «مخرجٌ إلى جهة اليسار على مسافة ميلين».

ألوان مهرجانية، ورؤوس مهرجين عملاقة، ولافتات إعلانية: أذهلتني غرابة ذلك كله، بل أخافتني قليلاً. في نيويورك، كان كل شيء يذكّرني بأمي - كل سيارة تاكسي، وكل زاوية شارع، وكل غيمة تمر أمام الشمس - أما هنا، في هذا الخواء المعدنيّ الحار، فقد أحسست كما لو أنها لم توجد قط؛ وما عدت قادراً حتى على تخيل روحها تنظر إلي. بدا كما لو أن كل أثر لها قد احترق وتلاشى في هذا الهواء الصحراوي فلم يبق منه شيء.

ومع تقدّمنا، تحوّل الأفق المستحيل فظهر فيه كثير من ساحات وقوف السيارات ومن المولات التجارية، وحلقة بعد حلقة من تجمعات تسوّق لا وجهَ لها، و«مدينة السيرك»، و«توْيز آر أص»، ومتاجر كبيرة وصيدليات وشيء كتب عليه «مفتوح أربعاً وعشرين ساعة». لا بداية لهذا كله ولا نهاية. كانت السماء فسيحة لا شائبة فيها، كسماء فوق بحر. كنت أبذل جهدي حتى أظل مستيقظاً - وترفرف عيناي تحت وهج الشمس - كنت أجتر ما أراه بطريقة مترنّحة مبلبلة جالساً في رفاهية السيارة وفرشها الداخلي الذي تفوح منه رائحة ثمنه الباهظ. كنت أفكّر في قصة سمعتها من أمي مرات كثيرة: خلال فترة بداية علاقتهما، أتى ذات مرة في سيارة بورش استعارها من أحد أصدقائها حتى يثير إعجابها. ولم تعرف إلا بعد زواجها أن تلك السيارة لم تكن له في واقع الأمر. كان يبدو لي أنها

كانت تجد ذلك أمراً طريفاً؛ لكني أتساءل عما كان يجعلها قادرة على أن ترى في القصة أي شيء مسلٍّ بالنظر إلى كثرة الأشياء غير المسلّية التي اكتشفتها بعد زواجهما (أشياء من قبيل اعتقاله عندما كان حَدَثاً بتهمة لم تعرف عنها شيئاً).

قلت محاولاً رفع صوتي فوق الكلام الدائر بينهما في المقعد الأمامي: «منذ متى لديك هذه السيارة؟».

«أوه، يا إلهي، مضى عليها الآن أكثر من سنة، أكثر قليلاً، أليس هذا صحيحاً يا كساندرا؟».

سنة؟ كنت أفكر في هذا ـ معناه أن أبي امتلك هذه السيارة (وكساندرا أيضاً) قبل أن يختفي ـ عندما رفعت رأسي فرأيت أن تلك المنطقة التجارية قد أخلت مكانها لمساحة لا نهاية لها من بيوت صغيرة مطلية بالجص.

على الرغم من هذا التماثل الأبيض المعلب ـ صفوف بعد صفوف مثل شواهد القبور في مقبرة كبيرة ـ فقد كان بعض تلك البيوت مطلياً بألوان زاهية (الأخضر النعنعي، والوردي البسيط، والأزرق الحليبي الصحراوي)؛ تناغم غريب مدهش في تلك الظلال الحادة وفي النباتات الصحراوية ذات الأوراق المدببة. بما أنني ترعرعت في المدينة حيث لا وجود أبداً لمتسع كافٍ، فقد كان ما أراه الآن مفاجأة سارّة لي. سيكون شيئاً جديداً أن أعيش في بيت له فناء حتى إن لم يكن فيه إلا حجارة بنية ونبتة صبار.

«ألا نزال في لاس فيغاس؟». على سبيل التسلية، كنت أحاول التقاط ما يجعل بيتاً ما مختلفاً عن البيوت الأخرى: باب هنا مقوس من الأعلى، أو بركة سباحة، أو نخلة هناك.

قال أبي وهو يزفر بقوة ويطفئ سيجارة الفايسروي الثالثة: «أنت ترى الآن جزءاً مختلفاً تماماً. هذا ما لا يراه السائحون أبداً».

لم يكن هنالك أي معلَم متميّز من حولنا على الرغم من سيرنا في

تلك المنطقة زمناً غير قليل. كان من المستحيل أن يعرف المرء إلى أين نحن ذاهبون أو في أي اتجاه. أفق سماوي رتيب لا تغيّر فيه! خشيت أن نتجاوز تلك البيوت كلها ونصير في البرية الحارقة التي بعدها، أن نصير في ساحة لوقوف الشاحنات تسوطها أشعة الشمس كما كنت أرى في الأفلام. لكنني فوجئت عندما بدأت البيوت تصير أكبر من ذي قبل: بيوت من طابقين فيها حدائق من الصبار ولها أسوار وبرك سباحة ومواقف سيارات كثيرة.

قال أبي: «نعم، ها نحن هنا»، ثم انعطف بالسيارة في طريق انتصبت عند أوله لافتة غرانيتية كبيرة كتب عليها بأحرف زخرفية من نحاس: **مزارع ظلال الوادي**.

قلت مذهولاً: «هل تعيشان هنا؟ وهل يوجد وادٍ حقاً؟».

قالت كساندرا: «لا. هذا اسم فحسب».

«انظر، إن لديهم هنا مجموعة من مشاريع البناء المختلفة». قال أبي هذا وهو يرفع يده إلى أنفه. فهمت من نبرة صوته ـ الصوت الخشن المألوف لشخص يريد شراباً ـ إنه متعب وليس في مزاج حسن تماماً.

قالت كساندرا: «يطلقون على هذه المناطق اسم تجمّعات المزارع السكنية».

«نعم. مهما يكن. أوه، اخرسي أنت». قال أبي بنبرة حادّة وهو يمد يده ويخفض الصوت عندما بدأت امرأة نظام التوجيه تعطي تعليماتها من جديد.

قالت كساندرا التي كانت تدهن برأس إصبعها مادة مُطرّية على شفتيها: «إن لكل مجموعة من البيوت هنا نمطاً مختلفاً بعض الشيء. لدينا ’نسيم بيبلو‘[1] و’*قمة الأشباح*‘ و’*فيلات الوعل الراقص*‘. وأما ’*سبيريت فلاغ*‘ فهي تجمُّع الغولف. و’*إن تانتادا*‘ هي المنطقة الأفضل

---

(1) شعب من سكان أميركا الأصليين كان يعيش في غرب الولايات المتحدة.

لأن فيها الكثير من العقارات الاستثمارية ـ انتبه، انعطف هنا يا عزيزي». قالت هذا وهي تمسك بذراعه.

واصل أبي القيادة بخط مستقيم ولم يجبها بشيء.

استدارت كساندرا في مقعدها ونظرت إلى الطريق الفرعي المبتعد من خلفنا: «عجباً! لماذا تصرُّ دائماً على أن تأخذ الطريق الطويل؟».

«لا تحدّثيني عن الطرق المختصرة. أنت مزعجة كأية امرأة تكون في سيارة ليكزس».

«نعم، لكنه أسرع. أسرع بخمس عشرة دقيقة. علينا الآن أن ندور حول منطقة *الوعل الراقص* كلّها».

أطلق أبي زفرة غاضبة وقال: «انظري...».

«ما الصعوبة في العبور إلى *غيتانا* *ترينز*، ثم الانعطاف يساراً مرتين ويميناً مرة واحدة؟ هذا كل ما في الأمر. أما إذا ذهبت على طريق *فيزاتويا*...».

«انظري. هل تريدين قيادة السيارة؟ أم إنك ستتركينني أقود هذه السيارة اللعينة؟».

كنت أعرف أن ليس من المستحسن أن يتحدّى المرء أبي عندما يتخذ تلك النبرة في الكلام. ومن الواضح أن كساندرا كانت تعرف ذلك أيضاً. استدارت في مقعدها، وبطريقة متأنية بدت لي محسوبة على نحو يغيظه، رفعت صوت الراديو كثيراً وبدأت تنتقل بين محطات الأخبار والإعلانات التجارية.

كان صوت استيريو السيارة مرتفعاً إلى حد جعلني أحسه نابضاً من خلال ظهر مقعدي الجلدي الأبيض... أغنية *«العطلة، كل ما كنت أريده...»*. كان الضياء يتصاعد ويتفجّر منتشراً في غيوم الصحراء المجنونة... سماء لا نهاية لها، سماء ذات زرقة حارقة كما في لعبة من ألعاب الكمبيوتر أو كما في هلوسة طيران تجريبي حاسوبي.

قال صوت سريع مستثار في الراديو: «فيجاس 99، نقدم خدمات الثمانينات والتسعينات. ولدينا هنا صديقنا بات بينيتار آتياً من أجلكم في برنامجنا على الغداء' *سيدات الثمانينات الراقصات'* !».

بلغنا *«مزارع بيوت ديساتويا رانتش»*، في 6219 طريق ديزرت *إند* حيث كانت أكداس من الحطب مكوَّمة في أفنية بعض البيوت، وحيث كان الرمل يتطاير في الشوارع، فانعطفنا عند مدخل بيت ضخم إسباني الطابع (أو لعله طابعٍ مغربي!)... بيت مجصَّص بلون بني فاتح، نوافذه مغلقة، سقفه بحوافٍ مقنطرة عليه قرميد صلصالي يتخذ أشكالاً غريبة عند الزوايا. عجبت لاتساع ذلك البيت وعبثيته، وعجبت لأعمدته وأفاريزه، وللبوابة الحديد المتقنة، ولما يشيعه ذلك كله من إحساس بخشبة مسرح لتقديم عرض عليها كأنه بيت مأخوذ من مسلسلات قناة *تيليموندو* التي كنت أراها دائماً على شاشة التلفزيون في غرفة الأمتعة مع البوابين في بنايتنا.

ترجّلنا من السيارة وسرنا ملتفين في اتجاه المدخل حاملين حقائبنا فسمعت صوتاً مفزعاً محزناً: زعيق أو بكاء آت من داخل البيت.

فقدت أعصابي فأفلتت حقيبتاي من يدي فقلت: «يا إلهي، ما هذا؟».

كانت كساندرا تسير متعثّرة بعض الشيء بحذائها ذي الكعب المرتفع وتبحث في حقيبتها عن مفاتيحها. كانت تدمدم بصوت منخفض: «أوه، اخرس، اخرس، اخرس». وقبل أن تتمكّن من فتح الباب إلى آخره، اندفع منه اندفاعاً هستيرياً شيء كأنه خرقة مكورة متوترة، وراح يزعق ويتقافز ويرقص ويثب من حولنا.

كانت كساندرا تصيح به: «اهدأ!». ومن الباب نصف المفتوح، أتت موسيقى البراري (أصوات أفيال، وزعيق قرود). كان صوت الموسيقى شديد القوة؛ واكتشفت أنني كنت أسمعه منذ لحظة خروجي من السيارة.

قلت وأنا ألقي نظرة إلى داخل البيت: «واو!». كان الهواء فيه راكداً

وحارّاً: دخان سجائر قديم، وسجادة جديدة، وبراز كلب... لم أكن مخطئاً في هذا.

صاح صوت في التلفزيون: «لمحبي الحيوانات... قطط كبيرة تؤدي مجموعة فريدة من التحديات. تابعوا أندريا ومجموعتها في جولاتها الصباحية».

قلت وأنا أجتاز عتبة الباب حاملاً حقيبتي: «انظري. لقد تركت التلفزيون يعمل طيلة الوقت».

قالت كساندرا وهي تمر بجانبي وتسبقني: «نعم. إنها محطة *أنيمال بلانيت*. تركتها من أجله. من أجل بوبر. قلت لك أن تهدأ!». زعقت بالكلب الذي كان يحك ركبتيها بقائمتيه بينما راحت تبدّل حذاءها وتنتعل صندلها، ثم ذهبت إلى التلفزيون وأغلقته.

قلت محاولاً أن يعلو صوتي فوق صوت الكلب وصراخه: «هل ظل وحده في البيت؟». كان كلباً من تلك الكلاب البنّاتية طويلة الشعر... ومن المفترض أن يكون منفوش الشعر أبيض اللون، لو كان نظيفاً.

قالت كساندرا وهي تمسح جبهتها بظهر يدها وتخطو من فوق الكلب: «أوه، أتينا له بزجاجة للشرب من متجر بتكو، وكذلك بواحد من تلك الأشياء الكبيرة التي يوضع فيها الطعام».

«ما نوعه؟».

«إنه كلب مالطي. من سلالة صافية. لقد ربحته في اليانصيب. أعني... أعرف أنه في حاجة إلى حمّام، لكن العناية بهذه الكلاب أمر متعب حقاً...»، ثم تحوّلت. إلى الكلب... «هذا صحيح، انظر ما فعلته ببنطلوني. جينز أبيض!».

كنا واقفين في الغرفة الكبيرة المفتوحة ذات السقف المرتفع والسلم المفضي إلى صف من الغرف المرتفعة أمامه ممر له درابزين. لا تقلّ مساحة هذه الغرفة عن كامل مساحة الشقة التي ترعرعت فيها. لكن عينيَّ

تكيفتا بعد الدخول والابتعاد عن وهج الشمس ففاجأني مدى عري هذا المكان. جدران بيضاء بلون العظام. موقد حجري يعطي انطباعاً كاذباً بكوخ للصيد. وأريكة كأنها آتية من صالة انتظار في أحد المستشفيات. ومن خلف أبواب الشرفة الزجاجية المسقوفة، امتد صف من الرفوف المبنية في الجدار... كان بيتاً شبه فارغ.

دخل أبي مسرعاً وألقى بالحقائب على السجادة: «يا إلهي، يا كساندرا... الرائحة كريهة هنا».

كشّرت كساندرا وهي منحنية لأن الكلب بدأ يقفز عليها كأنه يحاول تسلقها. قالت: «في الحقيقة، كان من المفترض أن تأتي جانيت لكي تخرجه لقضاء حاجته...». قالت هذا محاولة أن يعلو صوتها على زعقات الكلب المرتفعة... «إن لديها المفتاح وكل شيء». ثم صاحت وهي تجعّد أنفها وتدير وجهها جانباً: «يا إلهي... رائحتك كريهة يا بوبر!».

أدهشني خواء هذا المكان. حتى تلك اللحظة، لم أطرح على نفسي أية أسئلة عن ضرورة بيع كتب أمي وسجاداتها وأنتيكاتها، أو إرسال أشياء كثيرة للتبرّع بها أو لرميها في القمامة. لقد نشأت في شقة من أربع غرف حيث كانت الخزائن تكاد تفيض بما فيها، وحيث كانت تحت كل سرير صناديق كثيرة، وكانت القدور والمقالي تعلّق من السقف لأن خزائن المطبخ ليس فيها متسع لها. لكن... كم كان أمراً سهلاً أن نأتي معنا ببعض أشيائها، كذلك الصندوق الفضي الذي كان لأمها أو لوحة الفرس الكستنائية التي تبدو كأنها واحدة من لوحات الرسام جورج ستابز، أو حتى تلك النسخة من «*الجمال الأسود*» التي كانت لها في طفولتها! لم يبدُ لي أن أبي غير قادر على الاستفادة من بضع لوحات جيّدة أو عدة قطع أثاث ورثتها أمي عن أهلها. لقد تخلّص من أشيائها كلّها لأنه يكرهها!

سمعت أبي يقول بصوت مرتفع غاضب: «يا ربي... لقد خرَّب هذا الكلب المكان كلّه. خرّبه بكل معنى الكلمة».

«نعم... لا أعرف... أعني... أعرف أن المكان في حالة فوضى، لكن جانيت قالت...».

«قلت لك إنه يجب أن تضعي هذا الكلب في مؤسسة للكلاب. أو، لست أدري، أن تأخذيه إلى زريبة ما. لا يعجبني وجوده في البيت. مكانه في الخارج. ألم أقل لك إن هذا سيسبّب مشكلة. ليست جانيت أكثر من امرأة مجنونة لعينة...».

«نعم، لقد فعلها على السجادة بضع مرات! فماذا؟ إلى أي شيء تنظر أنت؟». قالت كساندرا الجملة الأخيرة بصوت مرتفع وهي تخطو من فوق الكلب مرة أخرى فاكتشفت مجفلاً أنها تنظر إليّ غاضبة.

6

بدت لي غرفتي الجديدة شديدة الوحدة شديدة العري إلى حد جعلني، بعد أن أفرغت حقائبي، أترك باب الخزانة المنزلق مفتوحاً حتى أرى ملابسي معلّقة داخلها. ومن الأسفل، كنت أسمع صوت أبي مستمراً في الصراخ من أجل السجادة المتسخة. ولسوء الحظ، كانت كساندرا تصرخ أيضاً، فتزيد في غضبه مما كان طريقة خاطئة تماماً للتعامل معه (كنت أستطيع إخبارها بهذا لو أنها سألتني). في البيت، كانت أمي تعرف كيف تخنق غضب أبي بأن تصمت تماماً... شعلة احتقار صغيرة ثابتة تمتص الأوكسجين من الغرفة وتجعل كل ما يقوله ويفعله سخيفاً. وفي آخر المطاف، كان يندفع خارجاً من الشقة ويصفق الباب بقوة فظيعة. وعندما يعود ـ بعد ساعات من ذلك، يفتح الباب فلا يُسمع له صوت غير تكة القفل الناعمة، ويدخل الشقة كما لو أن شيئاً لم يحدث. يفتح البراد ويأخذ منه زجاجة كبيرة، ويسأل عن وجبة عشائه بصوت عادي تماماً.

اخترت لنفسي أكبر غرفة من الغرف الفارغة الثلاث في الطابق العلوي. كان لها حمامها الصغير الخاص إلى جانبها كما في غرف الفنادق. سجادة زرقاء وثيرة تغطي أرضها. وفراش عارٍ عليه ملاءات جديدة لا تزال في

غلافها البلاستيكي: ماركة *«ليجندز بيركيل»*، حسم بنسبة عشرين بالمئة. همهمة ميكانيكية خفيضة منبعثة من الجدران تشبه همهمة فلتر حوض الأسماك. بدت لي الغرفة أشبه بتلك الغرف التي يمكن أن تُقتل فيها، على التلفزيون، مضيفةٌ ما أو فتاة ممن يطلبوهن بالهاتف.

جلست على الفراش وأذني تلتقط صوتَيْ أبي وكساندرا، وكانت اللوحة المغلّفة على ركبتيَّ. صحيح أنني أقفلت الباب، لكني بقيت متردداً في نزع الغلاف الورقي عنها تحسّباً لصعودهما إلى الطابق العلوي. لكني كنت غير قادر على مقاومة رغبتي في النظر إليها. وبحذر، بكل بحذر، قشرت حافة الشريط اللاصق بظفر إبهامي، ثم نزعت ذلك الشريط ممسكاً به من طرفيه.

انزلقت اللوحة خارجة من غلافها بسهولة أكبر مما توقّعت، فوجدت نفسي أكتم شهقة فرح. كانت تلك أول مرة أرى فيها اللوحة في ضوء النهار. ففي تلك الغرفة القاحلة ـ جدران عارية وبياض ـ انتعشت الألوان الكامدة وغدت حيّة؛ وعلى الرغم مما علا وجهها من غشاوة غبار بسيطة، كان المناخ الذي أشاعته أشبه بالبهجة المغسولة بالضوء على جدار قبالة نافذة مفتوحة. أهذا ما يجعل أشخاصاً مثل السيدة سوانسون يسترسلون في الحديث عن ضياء الصحراء؟ كانت تحبَ أن تشدو بكلام كثير عما تدعوه «إقامتها» في نيو مكسيكو (آفاق رحبة، وسماوات خالية، وصفاء روحاني). لكن اللوحة بدت لي كما لو أنها تتغير، كما لو أن ذلك كان لعبة من ألعاب الضوء، لأنني رأيت فيها منظر أسطح البنايات الداكنة وخزّانات المياه فوقها عليها مثلما يظهر من نافذة غرفة أمي. ظل شيء ما متوهجاً مكهرَباً بضع لحظات غريبة في ضياء العصر العاصف، تماماً قبل انهمار وابل من مطر صيفي.

دقّ أبي الباب بخفّة وسمعت صوته يقول: «ثيو؟ ألست جائعاً؟».

نهضت واقفاً راجياً ألا يحاول فتح الباب حتى لا يكتشف أنه مقفل.

كانت غرفتي الجديدة عارية كزنزانة سجن. لكن في الخزانة رفوف مرتفعة أعلى من مستوى عينيه... رفوف عميقة جداً.

«سوف أذهب لجلب طعام صيني جاهز. ألا تريد أن أحضر لك شيئاً؟».

إن رأى أبي هذه اللوحة، فهل سيعرف حقيقتها؟ ما كنت أظن هذا... لكني أدركت أن أي أحمق ينظر إليها في ضوء النهار قادر على رؤية ذلك الألَق الذي يشعُّ منها. صحت بصوت بدا لي زائفاً خشناً: «سآتي حالاً»، ثم أدخلت اللوحة في غلاف الوسادة الإضافي وخبأتها تحت السرير قبل أن أخرج مسرعاً من الغرفة.

عرفت عدداً من الحقائق التي أثارت اهتمامي خلال الأسابيع التي سبقت بدء المدرسة عندما كنت أتجوّل في الطابق السفلي واضعاً سماعتيّ الآيبود في أذنَيَّ مع إخفاء الصوت تماماً. على سبيل البداية، لم تكن وظيفة أبي السابقة مشتملة على أسفار عمل كثيرة إلى شيكاغو وفينيكس مثلما جعلنا نظن. فمن غير علم أمي ومن غير علمي، كان يطير إلى لاس فيغاس على امتداد شهور كثيرة. وهناك التقى كساندرا ـ في بار آسيوي في فندق بيلاجيو. استمرت لقاءتهما فترة من الزمن قبل أن يختفي أبي؛ أي إن ذلك طال أكثر من سنة، كما استنتجت. بدا لي أنهما احتفلا بـ«الذكرى السنوية الأولى» قبل وقت قصير من موت أمي عندما ذهبا إلى العشاء في مطعم *دلمونيكو* ثم توجها إلى حفلة غنائية لجون بون غوفي في مسرح *إم جي إم غراند*. «بون غوفي!» من بين الأشياء الكثيرة التي كنت أموت شوقاً إلى إخبار أمي بها ـ كانت لدي آلاف من تلك الأشياء، إن لم أقل ملايين ـ بدا لي عدم سماعها هذا الخبر المضحك أمراً فظيعاً على نحو خاص.

ثمة شيء آخر فهمته بعد أيام قليلة من إقامتي في ذلك البيت في ديزرت *إند* رود: ما كان أبي وكساندرا يعنياه حقاً عندما قالا إن أبي كف

عن الشرب هو أنه تحول من الويسكي (كان مشروبه المفضل) إلى بيرة كورونا لايتس وأقراص فيكودين[1]. وقد كانت تحيّرني كثرة تكرار إشارة السلام، أو إشارة النصر «V»، بينهما في سياقات كثيرة لا رابط بينها. ولعل ذلك كان يمكن أن يبقى لغزاً عندي زمناً أطول بكثير لو لم يأت أبي ذات يوم ويسأل كساندرا صراحة عن الفيكودين عندما ظن أنني لا أسمعه.

لم أكن أعرف عن هذا الدواء شيئاً غير أن ذكره كان يرد دائماً في الصحف الصفراء مع ظهور صور ممثلة سينمائية ذات سلوك متهوّر كانت تعجبني: صورها وهي تترجّل من سيارتها المرسيدس وأنوار سيارات الشرطة تومض في أرجاء المكان. وبعد بضعة أيام من ذلك، وجدت مصادفة كيساً بلاستيكياً فيه ما لا يقل عن ثلاثمئة قرص فيكودين ـ كان على طاولة المطبخ إلى جانب زجاجة دواء بروبيكيا الذي يستخدمه أبي لمقاومة الصلع، فضلاً عن كدسة فواتير غير مدفوعة ـ فما كان من كساندرا إلا أن تناولت ذلك الكيس خطفاً ورمته في حقيبة يدها.

سألتها: «ما هذه الأقراص؟».

«ممم، إنها فيتامينات»

«ولماذا هي في كيس هكذا؟».

«أخذتها من زميل لي في العمل يهتم بكمال الأجسام».

لكن الأمر الغريب ـ وهذا شيء آخر تمنيت لو أنني كنت قادراً على مناقشته مع أمي ـ هو أن أبي الجديد المخدَّر دائماً كان شخصاً أكثر أنساً من أبي القديم، بل أكثر قابلية لتوقّع سلوكه وردات أفعاله. كان أبي يصير كتلة متوترة من الأعصاب عندما يشرب: نكات كثيرة غير ملائمة، وانفجارات عدوانية تتواصل حتى لحظة فقدانه وعيه. ثم يصير أسوأ من ذلك عندما لا يشرب. كان يسبقنا على الرصيف بعشر

---

(1) فيكودين: دواء مسكّن شديد المفعول شاع استخدامه بمثابة مادة مخدرة لأن له آثاراً تشبه آثار الأفيون، كالاسترخاء والبهجة. يحمل قرص فيكودين الحرف V.

خطوات على الأقل ويكلّم نفسه ويربّت بيديه على جيوب سترته كما لو أنه يبحث فيها عن سلاح. وكان يأتي إلى البيت بأشياء لا نريدها ولا نستطيع تحمل أثمانها الباهظة مثلما حدث عندما أتى لأمي بحذاء فاخر من جلد التمساح (مع أنها تكره الكعب المرتفع). بل إن ذلك الحذاء لم يكن مناسباً لمقاس قدميها.

كان يأتي إلى البيت بأكداس من أوراق المكتب ويجلس إلى ما بعد منتصف الليل فيشرب القهوة المثلّجة ويحسب أرقاماً على الآلة الحاسبة ويتصبّب منه العرق كأنه أنهى لتوه أربعين دقيقة على واحدة من الآلات الرياضية. وفي مرات أخرى، كان يصرّ إصراراً كبيراً على الذهاب إلى حفلة ما في مكان بعيد جداً في بروكلين («ماذا تعنين بأنني 'ربما يجب ألا أذهب'؟ أتظنين أنني يجب أن أعيش كما يعيش ناسك تافه؟ أهذا هو الأمر؟»)؛ ثم يطردونه من الحفلة بعد عشر دقائق لأنه وجّه إهانة لشخص ما أو سخر منه في وجهه، فيخرج مجرجراً أمي معه.

وأما مع هذه الأقراص فقد صارت طاقة حضوره مختلفة. صارت أكثر مودةً. صارت مزيجاً من البلادة والسطوع... شيئاً ذا طبيعة حائرة مرتبكة، ذا طبيعة عائمة بلهاء. صارت مشيته أكثر ارتخاء. صارت إغفاءاته العابرة أكثر عدداً، وكذلك إيماءات الموافقة، وفقدان تسلسل الحديث. صار يتجوّل في البيت حافي القدمين في مئزر الحمام المفتوح إلى منتصفه. ومن شتائمه الملطفة، ونسيانه حلاقة ذقنه أحياناً، وطريقته المسترخية في الكلام مع سيجارة في زاوية فمه، كان يبدو كأنه يلعب شخصية ما: شخص ظريف من فيلم من أفلام الخمسينات السوداء، أو شخصية من فيلم «أوشنز إلفن»، رجل عصابات متخم كسول ليس لديه الكثير مما يخسره. لكن، حتى في حالته المرتاحة الجديدة هذه، ظل يظهر عليه ذلك الملمح المجنون البطولي بعض الشيء، ملمح صبي المدرسة المنعزل... عزلة لا تنفك تزداد تململاً لأنها منحدرة صوب خريف العمر، ولأنها نصف خربة لا مبالية بنفسها.

في ذلك البيت في ديزرت *إن رود*، حيث كان لديهما اشتراك باهظ الثمن بحزمة قنوات تلفزيونية كبيرة ما كانت أمي أبداً لتقبل بأن نحصل عليها، كان أبي يغلق الستائر لحجب وهج الشمس، ويجلس فيدخن أمام التلفزيون خابياً مثل مدمني المورفين ويتابع قناة (ESPN) الرياضية مع إخفاء الصوت تماماً. ما كان مهتماً بأي نوع بعينه من الرياضة، بل يشاهد كل شيء وأي شيء يظهر على الشاشة: كريكت، وجاي آلاي، والريشة الطائرة، والكروكيت. مبالغة في تبريد هواء الغرفة، مع رائحة بائتة مبردة بدورها... يجلس ساعات من غير حركة، ويتصاعد دخان سيجارة الفايسروي إلى السقف مثل خيط من دخان البخور. كان ينظر إلى قوائم الرياضيين المتصدّرين في لعبة الغولف أو أية لعبة أخرى كأنه شخص يتأمل في بوذا أو كارما أو سانغا.

وأما ما لم يكن واضحاً لي فهو عمل أبي: هل لديه وظيفة أم لا؟ أو، إن كان لديه عمل، فما هو؟ كان الهاتف يرن في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، يذهب أبي إلى الممر حاملاً الهاتف فيوليني ظهره ويقف مستنداً بذراعه إلى الجدار ناظراً إلى السجادة وهو يتكلّم. شيء في وقفته كان يوحي لي بمظهر مدرب يتحدّث مع اللاعبين بعد مباراة صعبة. عادة ما كان يتكلّم بصوت منخفض جداً، لكن فهم كلامه كان صعباً حتى عندما لا يفعل ذلك؛ كلمات غريبة: *نشط*، *خط المال*، *الفارق المفضّل*، *مباشر عكس الاتجاه!* كان يمضي معظم وقته خارج البيت، ويخرج في مشاوير لا تفسير لها. وفي أيام كثيرة، كانا يبيتان في الخارج. يقول وهو يدعك عينيه ويجلس مسترخياً بين وسائد الأريكة مطلقاً زفرة مرهقة: «دفعنا مالاً كثيراً في فندق *إم جي إم غراند*»... فأرى فيه، من جديد، لمحة من تلك الشخصية التي يلعبها، الفتى المزاجي المستهتر، بقية من فترة الثمانينات، شخص يصيبه الضجر بسهولة... «آمل ألا يزعجك هذا. فقط عندما تعمل كساندرا حتى ساعة متأخرة، يكون من الأسهل علينا أن نمضي الليلة هناك».

8

«ما هذه الأوراق المنتشرة في كل مكان». هكذا سألت كساندرا ذات يوم بينما كانت في المطبخ تحضّر لنفسها شراب الحمية الغذائية الأبيض التي تتناوله دائماً. حيّرتني تلك البطاقات المطبوعة التي أجدها دائماً في أنحاء المنزل كله: شبكة من الخطوط المتقاطعة كتبت في مربعاتها صفوف متتالية من الأرقام. شيء ذو مظهر علمي غامض يعطي إحساساً مخيفاً بسلاسل الدي إن إيه، أو ربما برسالة كتبها جاسوس مستخدماً شيفرة خاصة.

أوقفت الخلاط وأزاحت شعرها عن عينيها: «عفواً، ماذا قلت؟».

«هذه الجداول، أو... لا أدري ما هي».

قالت كساندرا: «باكاـرّا!». قالتها مشدّدة على حرف الراء وهي تفرقع بأصابعها.

قلت بعد صمت قصير: «أوه»؛ لكني لم أسمع بتلك الكلمة من قبل.

غمست إصبعها في الشراب، ثم لعقتها، وقالت: «إننا نذهب كثيراً إلى صالة الباكارّا في *إم جي إم غراند*. يحب أبوك متابعة الألعاب التي يلعبها».

«هل أستطيع الذهاب معكما في وقت ما؟».

«لا! بل في الحقيقة، نعم... أظن أنه يمكنك ذلك». قالت هذا كما لو أنني أستفهم عن إمكانية الذهاب في عطلة إلى بلد إسلامي مضطرب... «إلا أنهم لا يرحّبون كثيراً بذهاب الأطفال إلى الكازينوات. ليس مسموحاً لك أن تأتي وتشاهدنا نلعب».

قلت في نفسي: *وما أهمية الأمر؟* لم يكن وقوفي هناك للفرجة على أبي وكساندرا يقامران أمراً يمكن أن ينفعني. قلت لها: «لكني كنت أظن أن لديهم نموراً وسفن قراصنة وشيئاً من هذا القبيل».

«نعم. أظن أن ...». كانت ترفع يدها لتتناول كأساً عن الرف فكشفت عن مستطيل صغير فيه حروف صينية بحبر أزرق على ظهرها بين قميصها وبنطلونها ذي الخصر المنخفض... «حاولوا منذ بضع سنوات الترويج لهذه الحزمة التي تناسب العائلات؛ لكنهم لم ينجحوا في ذلك».

9

لعله كان ممكناً أن تعجبني كساندرا في ظروف أخرى ـ وهذا ما أظنه يشبه القول إنه قد يكون محتملاً أن أحب ولداً ضربني في المدرسة لو أنه لم يضربني. كانت كساندرا أول معرفتي بأن امرأة تجاوزت الأربعين يمكن أن تكون مثيرة وجذابة ـ بل حتى يمكن أن تكون كذلك على الرغم من أنها امرأة ليست رائعة المظهر! صحيح أن كساندرا لم تكن جميلة الوجه (عينان صغيرتان، وأنف صغير أفطس بعض الشيء، وأسنان صغيرة)، لكن جسمها كان رشيقاً متناسباً وكانت تمارس التمرينات الرياضية، كما أن أطرافها ـ ذراعيها وساقيها ـ كانت لامعة لوّحتها الشمس تبدو كأنها مرشوشة برذاذ زيت، وكأنها دهنت نفسها بالكثير من الكريمات والزيوت. كانت تسير بخطى متمايلة بحذاء ذي كعب مرتفع، لكنها تسير سريعاً وتشد على الدوام تنورتها بالغة القصر... مشية مائلة إلى الأمام، جذّابة على نحو غريب. كنت أنفر منها، على مستوى ما ـ أنفر من صوتها المتأتئ ومن أحمر الشفاه الكثيف اللامع الذي تضعه من عبوة كتب عليها «Lipglass»، وكانت تنفّرني أيضاً تلك الثقوب الكثيرة في أذنيها والفرجة بين أسنانها الأمامية (كانت تحب أن يعبث لسانها بتلك الفرجة دائماً). لكني كنت أرى فيها أيضاً شيئاً شهوانياً مثيراً خشناً: قوة حيوانية، شيء زاحف مزمجر أراه عندما تخلع حذاءها وتسير حافية القدمين.

كوكا كولا بالفانيليا، وملمّع الشفاه بالفانيليا، وشراب «دايت» بالفانيليا، وفودكا بالفانيليا. تعود من العمل فأراها في ملابس أشبه بما قد ترتديه أم في ملابس التنس: تنورات قصيرة بيضاء، وحلي ذهبية كثيرة. حتى حذاء التنس كان جديداً ناصع البياض. وكانت تستلقي لكي تتشمّس عند بركة السباحة مرتدية بكيني أبيض من الكروشيه. كان ظهرها عريضاً من غير امتلاء، أضلاع كثيرة ظاهرة، كأنه ظهر رجل خلع قميصه. «آه ـ أوه... خطأ فنّي»... قالت هذا ذات مرة عندما نهضت من كرسي

الاسترخاء من غير أن تتذكّر تثبيت حمالة صدرها فرأيت أن ثدييها قد لوحتهما الشمس مثل بقية جسدها.

كانت تحب برامج تلفزيون الواقع: *سرفايفر* و*أميركان آيدول*. وكانت تحب التسوق في «*إنترمكيس*» و«*أو تور*». كانت تحب أيضاً أن تتّصل بصديقتها كورتي و«تروّح عن نفسها» بالحديث معها. لكن القسم الكبير من ذلك الترويح عن النفس كان، للأسف، كلاماً عنّي. سمعتها تقول على الهاتف ذات يوم عندما كان أبي خارج البيت: «هل يمكنك تصديق هذا؟ أنا لم أقدّم طلباً للحصول عليه! طفل؟ ماذا؟».

تابعت تقول بعد أن أخذت نفَساً كسولاً من سيجارتها ـ مارلبورو لايت: «نعم، أمر مزعج كثيراً... صحيح...». توقفت لحظة عند الباب الزجاجي المفضي إلى بركة السباحة ونظرت إلى أظافر قدميها التي صبغتها قبل قليل بلون أخضر لامع... «لا! لا أعرف كم من الوقت سيستمر هذا. أعني... ماذا يتوقّع مني أن أظن؟ لا أريد أن أكون أماً مجنونة تلعب كرة القدم مع أولادها».

بدا لي تذمّرها أمراً روتينياً؛ لم يكن تذمّراً شديداً، ولا شخصياً. لكن، كان من الصعب عليَّ أن أعرف كيف أجعلها تحبّني. كنت في السابق أتصرف على أساس أن النساء اللواتي في عمر الأمومة يسرّهن أن يكون المرء قريباً منهن وأن يتحدّث إليهن، لكني سرعان ما فهمت أن من الأفضل ألا أمازح كساندرا وألا أطرح عليها أسئلة كثيرة عن يومها عندما تعود معكّرة المزاج. في بعض الأحيان، عندما نكون في البيت وحدنا، كانت تشغل التلفزيون على شبكة (ESPN) فنجلس ونأكل سلطة الفاكهة، ونتابع فيلماً على محطة *لايف تايم* بقدر معقول من الهدوء والسلام. وأما عندما تكون منزعجة مني، فإن لديها طريقة باردة في قول كلمة «هذا واضح» ردّاً على أي شيء أقوله؛ فيجعلني هذا أرى نفسي غبياً.

«ممم، لا أستطيع العثور على أداة فتح العلب».

«هذا واضح».

«سيحدث خسوف للقمر هذه الليلة».

«هذا واضح».

«انظري، هنالك شرارات كهربائية في ذلك المقبس في الجدار».

«هذا واضح».

كان عمل كساندرا ليلياً. وعادة ما تخرج من البيت قرابة الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر مرتدية ملابس العمل الأنيقة: سترة سوداء، وبنطلون أسود مصنوع من قماش ضيق لدن، وبلوزة مفتوحة الأزرار عند رقبتها. وعلى البطاقة الاسمية المعلقة على صدر سترتها كتب اسمها كساندرا بحروف كبيرة ومن تحته كلمة «فلوريدا». عندما كنا في نيويورك وذهبنا لتناول العشاء تلك الليلة قالت لي إنها تحاول النجاح في مجال الوساطة العقارية؛ لكن عملها الحقيقي (سرعان ما عرفت هذا) كان إدارة بار اسمه *«نيكلز»* في كازينو في منطقة *«ستريب»*. وكانت بعض الأحيان تعود إلى البيت بأطباق بلاستيكية فيها مأكولات خفيفة من البار مغلّفة بالسيلوفان. أشياء من قبيل كرات اللحم وقطع دجاج ترياكي، فتجلس مع أبي قبالة التلفزيون العامل من غير صوت يأكلان وقد حمل كل منهما طبقه أمامه.

كنت أرى العيش معهما أشبه بالعيش مع زميلَي سكن لست منسجماً معهما كثيراً. ألازم غرفتي وأغلق بابها عندما يكونان في البيت. وعندما يذهبان ـ كان يغيبان عن البيت معظم الوقت ـ أتجوّل في أقصى زوايا البيت محاولاً اعتياد اتساعه وانفتاحه. كان أكثر الغرف خالياً من الأثاث، أو شبه خالٍ. وما كان في الأماكن المفتوحة المعرّضة لوهج النهار الذي ما من ستائر لحجبه إلا سجادة وسطوح متوازية كثيرة تجعلني أحس بالضياع بعض الشيء.

على الرغم من هذا كله، كان مبعث راحة لي ألّا أحس بأنني تحت الأنظار دائماً (كأنني على منصة مسرح) مثلما كان الوضع في منزل آل

باربر. كانت السماء غنية خالية البال؛ زرقة لا نهاية لها كأنها وعد بمجد سخيف لا وجود له في حقيقة الأمر. وما كان أحد ليبالي إن غيّرت ملابسي أو لم أغيّرها، أو إن اهتممت بنظافتي الشخصية أو لم أهتم. كانت لي حرية تامة في التكاسل والاستلقاء في السرير طيلة الصباح ومشاهدة خمسة أفلام لروبرت ميتشوم على التوالي، إن أحببت ذلك.

كان باب غرفة أبي وكساندرا مقفلاً على الدوام ـ وهذا ما كان أمراً في غاية السوء، لأنها الغرفة التي تترك فيها كساندرا اللابتوب فيتعذّر عليّ استخدامه إلا عندما تكون موجودة في البيت، فتأتي به إلى الأسفل حتى أستخدمه في غرفة المعيشة. خلال تجوالي في فترات غيابهما عن البيت، عثرت على منشورات متعلّقة بأعمال الوساطة العقارية، وعلى كؤوس نبيذ جديدة لا تزال في علبها، بالإضافة إلى كدسة من فهارس قديمة للبرامج التلفزيونية، وصندوق من الكرتون فيه كتب شعبية قديمة: «*علاماتك القمرية*،» و«*حمية الشاطئ الجنوبي*،» و«*كتاب كارو لحيل لعبة البوكر*»، و«*محبون ولاعبون*» لجاكي كومينز.

كانت البيوت التي من حولنا خالية كلّها ـ ما من جيران!

وعلى مسافة خمسة بيوت أو ستة على امتداد الشارع، على الرصيف المقابل، كنت أرى سيارة بونتياك قديمة متوقّفة هناك. كانت السيارة لامرأة ذات هيئة مرهقة لها ثديان كبيران وشعر قصير مشعّث كنت أراها بعض الأحيان واقفة حافية القدمين أمام بيتها قبيل المساء وفي يدها علبة سجائر وتتحدّث على هاتفها الخليوي. كنت أطلق عليها اسم «اللاعبة» لأنها كانت ترتدي ـ عندما رأيتها أول مرة ـ قميصاً قطنياً مكتوباً عليه «لا تكره اللاعب، اكره اللعبة». وإضافة إلى «اللاعبة»، كان الشخص الحي الوحيد الذي رأيته في شارعنا رجل كبير البطن في قميص أسود بالغ الطول. رأيته في الزقاق المفضي إلى بيته وهو يدفع أمامه حاوية قمامة ذاهباً بها في اتجاه الرصيف (كان يمكنني إخباره بأنهم لا يأتون لأخذ

القمامة من شارعنا. عندما يحين وقت رمي القمامة، كانت كساندرا تجعلني أخرج بالكيس فأرميه في حاوية مخلفات البناء في بيت مهجور لا يزال قيد الإنشاء على مسافة عدة بيوت من بابنا). وفي الليل، تسود ذلك الشارع كله ظلمة تامة باستثناء بيتنا وبيت «اللاعبة». كان المكان معزولاً ذكّرني بكتاب قرأناه في الصف الثالث عن طلاب روّاد ذهبوا إلى ولاية نبراسكا. لكن الاختلاف هنا أن هذا المكان ما كانت فيه حيوانات مزرعة لطيفة وما كان فيه «بابا» ولا «ماما».

وأصعب ما في الأمر كله، بفارق كبير، كان إحساسي بأنني عالق في لا مكان ـ ما من دور سينما، ولا مكتبات، ولا حتى متجر عند زاوية الشارع. سألت كساندرا ذات مساء عندما كانت في المطبخ تزيل غلاف طبق العشاء في تلك الليلة ـ أجنحة الدجاج مع صلصة الجبن الأزرق: «ألا يوجد هنا باص أو شيء ما؟».

قالت كساندرا وهي تلعق بقعة من الصلصة كانت على إصبعها: «باص؟».

«أليس لديكم هنا وسائل مواصلات عامة؟».

«لا».

«فماذا يفعل الناس؟».

مالت كساندرا برأسها جانباً وقالت: «يقودون السيارات!». قالتها كما لو أنها تخاطب شخصاً متخلّفاً لم يسمع بشيء اسمه سيارة.

إلا أن وجود بركة السباحة كان أمراً مختلفاً. فمنذ اليوم الأول، تركت نفسي أحترق بالشمس حتى صرت محمرّاً كالقرميد، خلال ساعة واحدة فقط، ثم عانيت ليلة كاملة من غير نوم على ملاءات السرير الخشنة التي تخدش جلدي. وبعد ذلك، صرت أخرج إلى البركة بعد أن يقترب مغيب الشمس. كان وقت الغسق هناك ميلودرامياً مبهرجاً: امتدادات كبيرة من اللونين البرتقالي والقرمزي، وكذلك من اللون الأحمر الصحراوي، ثم

يأتي الليل مظلماً، يخيم سريعاً كأن باباً قد أغلق. وكان كلب كساندرا، بوبر، الذي يعيش أكثر الوقت في كوخ بلاستيكي على شكل قبة في زاوية ظليلة عند السور، يجري جيئة وذهاباً عند بركة السباحة وهو ينبح نباحاً سعيداً وأنا أعوم على ظهري محاولاً تمييز كوكبات النجوم التي أعرفها وسط رشاش النجوم الأبيض الكثيف في تلك السماء: ليرا وكاسيوبيا والعقرب ذو النجمين التوأمين في نهاية ذيله... كل تلك الرسوم اللطيفة في طفولتي التي كانت تغمز لي إلى أن أنام تحت سقف غرفتي المرصع بنجوم متلألئة في الظلام... أيام كنت في نيويورك. لكنها تغيّرت الآن ـ صارت باردة جليلة كأنها آلهة خلعت عنها تنكّرها. كانت كأنها طارت مخترقة سقف الغرفة فبلغت السماء مستعيدة منازلها الحقيقية.

10

بدأت المدرسة في الأسبوع الثاني من شهر آب. وكان مجمع المدرسة المسيَّج المؤلف من مبانٍ طويلة منخفضة بلون الرمل تصل بينها ممرات مسقوفة يبدو من بعيد شيئاً يجعل المرء يفكر في سجن ليست فيه إجراءات أمنية مشدّدة. لكني، ومع أول خطوة أخطوها عبر الباب، أحسست بأن الملصقات زاهية الألوان والممرات التي تردّد أصداء الأصوات قد أعادتني إلى حلم مدرسة مألوف قديم: السلالم المزدحمة، والمصابيح ذات الطنين الخفيض، وصف البيولوجيا الذي فيه إغوانة[1] ضخمة في حوض بحجم بانيو الحمام. ممرات فيها خزائن على امتداد جدرانها كانت في وعيي كأنها لقطة من برنامج تلفزيوني أشاهده كثيراً. وعلى الرغم من أن شبهها بمدرستي القديمة كان ظاهرياً فقط، إلا أن هذه المدرسة بدت لي حقيقية مريحة أيضاً.

في موضوع *«كبار كتّاب اللغة الإنكليزية»*، كان قسم من التلاميذ

(1) إغوانة (Iguana): نوع من الزواحف التي تتغذّى على النباتات وتنتشر في أميركا الوسطى.

يدرس *«الآمال الكبيرة»* لديكينز. أما أنا فكان لديَّ كتاب لوالدن؛ فخبأت نفسي في صمت الكتاب وبرودته. كانت تلك القراءة ملجأ لي من وهج الصحراء المعدني الشديد.

وخلال الاستراحة الصباحية، جعلونا نخرج إلى فناء مسوَّر بسلاسل معدنية قريب من آلات بيع المأكولات والمشروبات. وقفتُ في الزاوية الأكثر ظلاً حاملاً كتابي ذي الغلاف الورقي ورحت أقلب الصفحات وأضع بقلم رصاص أحمر خطوطاً تحت جمل أجدها متينة على نحو خاص: «كانت جمهرة الرجال تعيش حياة يأس هادئ». «يكون اليأس النمطي، لكن غير المدرك، خبيئاً حتى تحت ما ندعوه ألعاباً وتسليات بشرية». ما الذي يمكن أن يقوله ثورو عن لاس فيغاس: أضواؤها وضجيجها، وقمامتها وأحلام يقظتها، وآمالها وواجهاتها الفارغة.

في مدرستي الجديدة، كان الإحساس بالطابع المؤقت مزعجاً. كان فيها عدد غير قليل من أبناء العسكريين، وعدد غير قليل من الأجانب ـ أطفال موظفي شركات كبار أتوا إلى لاس فيغاس من أجل وظائف مهمة في مجالَي الإدارة والبناء. كان بعضهم قد عاش في تسع أو عشر ولايات مختلفة خلال العدد نفسه من السنوات. وكان قسم منهم قد عاش في الخارج أيضاً: في سيدني وكاراكاس وبيكين وتايبيه. كان لدينا أيضاً عدد غير قليل من صبيان وبنات خجولين شبه مختفين عن الأنظار هرب أهلهم من مشقّات الحياة الريفية فأتوا ليعملوا في حمل الأمتعة وخدمة الغرف في الفنادق. وفي هذا المحيط الجديد، لم يبدُ لي أن المال، ولا حتى الشكل الحسن، هو ما يقرر شعبية الصبي أو البنت. وذلك لأنني أدركت سريعاً أن الأمر الأكثر أهمية هو طول فترة الإقامة في لاس فيغاس. وهذا ما كان يجعل الجميلات المكسيكيات المسكينات وأولاداً وبناتٍ سوف يرثون مشاريع عقارية كبيرة يجلسون وحدهم وقت الغداء في حين يحتل أولاد وبنات عاديون متوسطون من أطفال بائعي السيارات

ووكلاء العقارات، مواقع زعماء وزعيمات الفرق الرياضية والصفوف: كانوا نخبة المدرسة من غير منازع.

مرّت الأيام جميلة صافية. وخلال شهر أيلول، بدأ وهج الحر البغيض يتحول إلى نوع من التألق الذهبي المغبر. كنت أتناول طعام الغداء على الطاولة الإسبانية بعض الأحيان، وذلك حتى أتمرن على اللغة الإسبانية. وفي أحيان أخرى، كنت آكل على الطاولة الألمانية على الرغم من أنني لا أعرف شيئاً عن اللغة الألمانية. كنت آكل معهم لأن عدداً كبيراً منهم كان من أبناء موظفي شركات من قبيل *دوت شبانك* و*لوفتهانزا* ممن ترعرعوا في نيويورك. وأما عن دروسي، فقد كان درس اللغة الإنكليزية الدرس الوحيد الذي أتوق إليه على الرغم من صدمتي عندما اكتشفت أن قسماً كبيراً من زملائي لا يحبّون كتابات ثورو، بل يقفون ضده في واقع الأمر، كما لو أنه عدو وليس صديقاً (زعم ثورو أنه لم يتعلّم أي شيء ذي قيمة من أشخاص كبار). وقد دعا الاحتقار الذي أبداه ثورو تجاه التجارة ـ كان احتقاراً أثار حماستي ـ عدداً غير قليل من الأطفال المفوَّهين في دروس اللغة الإنكليزية إلى التعبير عن الغضب. صاح صبي كريه ذو شعر مشبع بالجِل ومسرّح على نحو متيبس كأنه شخصية في *«دراغون بول زي»*: «كيف سيكون هذا العالم إذا عمد كل شخص إلى ترك المجتمع والتجول في الغابات...؟».

قال صوت شبه باكٍ من آخر الصف: «أنا، أنا».

تدخّلت فتاة مرتفعة الصوت تدخلاً حماسياً في غمرة الضحك الذي أعقب ذلك فقالت: «هذا معادٍ للمجتمع...» ـ كانت تتململ في كرسيها وتلتفت صوب المعلمة (امرأة عرجاء طويلة العظام اسمها السيدة سبير تنتعل دائماً صندلاً بني اللون وترتدي ملابس بدرجات مختلفة من لون التراب فتبدو كأنها مصابة بحالة متقدمة من الاكتئاب)... «لا يفعل ثورو أكثر من الجلوس على تلك الصفيحة وإخبارنا بأنه ماهر جداً في فعل ذلك...».

قال صبي *«دراغون بول زي»*: «... هذا لأنه، إذا انسحب كل شخص من المجتمع مثلما يقول إنه فعل، فأي مجتمع سينتج إن لم يكن لدينا أشخاص إلا مثله؟ لن تكون لدينا مستشفيات، ولا شيء. لن تكون لدينا طرق». كان صوته مرتفعاً، مبتهجاً.

غمغم صوت آخر: «غبي». كان ذلك الصوت مرتفعاً بالقدر الضروري لأن يسمعه الجميع.

استدرت لأرى من قال هذا: إنه الصبي الذي يبدو كمن أحرقته الشمس. كان جالساً إلى الناحية الأخرى من الممر الذي بين المقاعد مسترخياً ينقر على مقعده بأصابعه. عندما رآني أنظر إليه، بادلني تلك النظرة ورفع حاجبين كما لو أنه يقول لي: *أيمكنك تصديق كم هو غبيٌّ أحمق؟*

قالت السيدة سبير: «هل لدى أحد منكم في الخلف ما يقوله؟».

قال الصبي الذي أحرقته الشمس: «لقد أهمل ثورو أمر الطرق». فاجأتني لكنته: لكنة أجنبية لم أستطع تحديدها.

قال السيدة سبير: «كان ثورو أول مناصر للبيئة».

قالت فتاة في الخلف: «كان أيضاً أول شخص نباتي».

قال شخص آخر: «أرقام، يا آكلة الدجاج المحمَّص!».

قال *دراغون بول زي* مستثاراً: «أنتم لا تدركون فكرتي على الإطلاق. لا بد أن يبني أحد طرقاً. ولا يمكن الاكتفاء بالجلوس في الغابة والنظر إلى النمل والبعوض. هذا ما أدعوه حضارة».

أطلق جاري ضحكة ازدراء حادّة. كان نحيلاً شاحباً، غير نظيف تماماً. كان شعره داكناً، طويلاً، منحدراً فوق عينيه. أوحى له مظهره بسجين خطر هارب: يدان مجرّحتان، وأظافر مسودّة مقضومة حتى اللحم ـ لم يكن يشبه تلك الفئران ذات الشعر البرّاق والبشرة التي لوحتها شمس التزلج على الثلج في مدرستي السابقة في نيويورك... غلمان يعمل أباؤهم

مديرين تنفيذيين وأطباء في بارك آفينيو. كان هذا ولداً من النوع الذي يمكن أن تراه جالساً على حافة الرصيف في مكان ما ومعه كلب ضال ربطه من عنقه بحبل.

كانت السيدة سبير تقول: «لا بأس... لنتناول بعض هذه الأسئلة. أريد أن يعود كل واحد منكم إلى الصفحة رقم خمس عشرة حيث يتحدّث ثورو عن تجربته في العيش.

قال *دراغون بول زي*: «تجربته في ماذا؟ ما الذي يجعل عيشه في الغابات، كما فعل، مختلفاً عن حياة الإنسان في الكهوف؟».

عبس الصبي ذو الشعر الداكن وغطس في مقعده أكثر من قبل. ذكّرني بالأطفال الذين لهم مظهر المتشردين ممن يقفون معاً ويمررون السيجارة من واحد لآخر في ساحة سانت مارك ويقارنون بين ندوبهم ويتسوّلون قروشاً... الملابس الممزقة نفسها والذراعان الأبيضان الهزيلان؛ وتلك الأساور الجلدية السوداء المتداخلة عند الرسغين. كانت التركيبة المعقّدة متعدّدة الطبقات لتلك الأساور إشارة لا أستطيع قراءتها على الرغم من أن مغزاها العام كان واضحاً إلى الحد الكافي: *قبيلة مختلفة، ومن الأفضل أن تنسى الأمر لأنني أحسن منك بكثير. لا تحاول حتى أن تكلّمني!* هكذا كان انطباعي المغلوط الأول عن الشخص الذي صار صديقي الوحيد في لاس فيغاس، ثم اتضح أنه واحد من أهم الأصدقاء في حياتي كلها.

كان اسمه بوريس. لا أعرف كيف وجدنا نفسينا واقفين معاً بين بقية الأولاد عندما كنا ننتظر الباص عند انتهاء المدرسة ذلك اليوم.

نظر إلي وقال لي: «هاه، هاري بوتر؟».

أجبته من غير تردد: «اللعنة عليك!».

لم تكن تلك المرة الأولى في لاس فيغاس التي يدعوني فيها أحد «هاري بوتر». كانت ملابسي النيويوركية ـ البنطلون الكاكي والقميص الأبيض والنظارات ذات الإطار العظمي، التي كنت، للأسف، في حاجة

إليها حتى أرى ـ تجعلني أبدو غريب الشكل في مدرسة يأتي أكثر الناس إليها بشبشب وقميص من غير أكمام.

«أين هي مكنستك ذات العصا؟».

«تركتها في *هوغوارتس*[1]. وماذا عنك أنت؟ وأين هو لوح التزلج؟».

قال: «ماذا؟»، ومال في اتجاهي واضعاً يده خلف أذنه بحركة تشبه حركة عجوز لديه شيء من الصَمَم. كان أطول مني بقليل؛ وكان في حذاء شبه عسكري وبنطلون عتيق غريب الشكل ممزق عند الركبتين، إضافة إلى قميص أسود ضيق الياقة عليه واحد من شعارات التزلج على الثلج مكتوباً بحروف زخرفية بيضاء.

قلت مع إيماءة صغيرة من رأسي: «أعني قميصك! لا أظن أن هناك الكثير من التزلج على الثلج في الصحراء».

قال بوريس وهو يزيح شعره المتدلّي فوق عينيه: «صحيح. أنا لا أحسن التزلج على الثلج. لكني أكره الشمس».

انتهى بنا الأمر جالسين معاً في الباص على المقعد الأقرب إلى الباب ـ من الواضح أنه لم يكن مكاناً ذا شعبية بالنظر إلى اندفاع بقية الأولاد مستعجلين متدافعين صوب المقاعد الخلفية. لكني لم أعتد ركوب باص المدرسة في ما مضى؛ ومن الواضح أنه كان مثلي. فقد بدا لي أنه يرى أمراً طبيعياً أن يجلس المرء على أول مقعد شاغر يجده. مرت وهلة لم نكد نقول فيها شيئاً، لكن الطريق كان طويلاً فلم نلبث أن بدأنا نتجاذب أطراف الحديث. اتضح لي أنه يعيش، مثلي، في مجمع «ظلال الوادي»، لكن على مسافة أبعد حيث تحاول الصحراء استعادة تلك المساحة وحيث لا يزال عدد كبير من البيوت غير منتهٍ بعد... هناك، حيث يتجمّع الرمل في الشوارع.

سألته: «منذ متى أنت مقيم هنا؟». كان ذلك سؤالاً يطرحه الجميع

---

(1) Hogwarts: مدرسة السحر والشعوذة في رواية هاري بوتر.

على الجميع في مدرستي الجديدة، كأننا سجناء يسأل كل منهم الآخر عن مدة حبسه.

«لست أدري. شهران على ما أظن!». على الرغم من طلاقته في اللغة الإنكليزية التي كانت فيها لكنة أسترالية قوية، إلا أنني لمست أثراً خفياً باقياً من شيء آخر: نفحة من الكونت دراكولا، أو شيء مأخوذ من عملاء كَي جي بي... «من أين أنت؟».

أجبته: «نيويورك...». فارتحت لصمته ولحركة وجهه التي بدت كأنها تقول: *جيّد جداً*. سألته: «وماذا عنك؟».

كشّر قليلاً، ثم قال: «لا بأس، فلنر...». استوى في مقعده وبدأ يحصي البلدان على أصابعه: «عشت في روسيا، وفي اسكوتلندا التي كانت جيّدة لكني لا أتذكّرها، وكذلك في أستراليا وبولندا ونيوزيلندا، ثم عشت شهرين في تكساس، ثم آلاسكا وغينيا الجديدة وكندا والمملكة العربية السعودية والسويد وأوكرانيا...».

«يا إلهي».

هز كتفيه: «لكني عشت أكثر الوقت في أستراليا وروسيا وأوكرانيا؛ في هذه الأماكن الثلاثة».

«وهل تتكلّم الروسية؟».

أومأ إيماءة كأنه يقول: *إلى حد ما*: «والأوكرانية، والبولونية. لكني نسيت الكثير. حاولت منذ أيام أن أتذكّر كيف يقولون كلمة ُ يعسوبَ ، فلم أستطع».

«قل شيئاً».

فعل ما طلبته منه، فقال عبارة بدت لي كأنها آتية من مكان عميق من حلقه، كأنه يبصق.

«ما معنى هذا؟».

ضحك وقال: «إنها شتيمة بذيئة».

«صحيح؟ بالروسية؟».

ضحك من جديد مظهراً أسناناً رمادية بعض الشيء لا تشبه الأسنان الأميركية: «بل الأوكرانية».

«كنت أظنّهم يتكلّمون الروسية في أوكرانيا».

«في الحقيقة، صحيح. لكن الأمر يختلف بين منطقة وأخرى في أوكرانيا. إلا أن اللغتين ليستا مختلفتين كثيراً...». طقطق بلسانه واتسعت عيناه... «ليستا مختلفتين كثيراً. الأعداد مختلفة، وكذلك أيام الأسبوع وقسم من المفردات. كما أن نطق اسمي يكون مختلفاً في اللغة الأوكرانية. لكن من الأسهل لي في أميركا الشمالية أن أستخدم التهجئة الروسية لاسمي بحيث يكون *بوريس*، لا *بورايس*. يعرف الجميع في الغرب اسم بوريس يلتسن...» مال برأسه جانباً وأضاف... «وبوريس بيكر...».

«بوريس بادينوف[1]...».

«ماذا؟». قالها بنبرة حادّة وهو يستدير كما لو أنني وجهت إليه إهانة.

قلت: «بولوينكل؟ بوريس وناتاشا!».

«أوه، نعم. الأمير بوريس! رواية *الحرب والسلم*. اسمي مأخوذ منها. إلا أن اسم عائلة الأمير بوريس كان دروبتسكوي، وليس ذلك الاسم الذي قلته».

«فما هي لغتك الأولى؟ أهي الأوكرانية؟».

هز كتفيه وقال وهو يسترخي في جلسته ويزيح شعره عن عينيه بحركة من يده: «أظنها البولونية». كانت عيناه باردتين ساخرتين شديدتي السواد... «كانت أمي بولندية من مدينة غاشوف القريبة من الحدود الأوكرانية. الروسية، الأوكرانية ـ أنت تعرف أن أوكرانيا كانت تابعة

---

(1) بوريس بادينوف: شخصية في برنامج للرسوم المتحركة اسمه "عرض *بولوينكل*". يتضح من بقية الحوار أن بوريس لا يعرف هذه الشخصية.

للاتحاد السوفييتي ـ ولهذا فإنني أتكلّم اللغتين. لعلي لا أحسن الروسية تماماً... لكنها لغة مناسبة للشتائم والسباب. إن اللغات السلافية... الروسية والأوكرانية والبولونية، بل حتى التشيكية... إذا كنت تعرف واحدة منها فإنك قادر على تدبر أمرك في بقيتها، إلى حد ما. إلا أن اللغة الإنكليزية هي اللغة الأكثر سهولة عندي الآن. كان الأمر في ما مضى عكس ذلك تماماً.

«ما رأيك في أميركا؟».

«يبتسم الجميع ابتسامات كبيرة جداً. نعم، معظم الناس. لكني لا أظنك تبتسم. أظن أن هذه الابتسامات تبدو غبية». كان طفلاً وحيداً، مثلي. يعمل أبوه في مجال المناجم والتنقيب (مولود في سيبيريا، إلا أنه أوكراني من لوفوغانسك)... «عمل كبير هام. وهو يسافر في أنحاء العالم كله». وأما أم بوريس فهي متوفية ـ لقد كانت زوجة أبيه الثانية.

قلت له: «أمي متوفية أيضاً».

هز كتفيه وقال: «ماتت أمي منذ زمن بعيد. كانت مدمنة على الكحول. سكرت ذات ليلة وسقطت من النافذة وماتت».

قلت: «واو»؛ لكني فوجئت بالخفّة التي قال بها ذلك.

قال من غير مبالاة: «نعم، أمر سيئ». وراح ينظر من النافذة.

قلت بعد صمت قصير: «فما هي جنسيتك إذاً؟».

«ماذا؟».

«أعني... إذا كانت أمك بولندية، وأبوك أوكرانياً، وأنت مولود في أستراليا، فإنك تكون...».

أجابني مع ابتسامة خبيثة: «إندونيسي». كان له حاجبان أسودان شيطانيان، شديدا التعبير، دائما الحركة عندما يتكلّم.

«ما معنى هذا؟».

«يقول جواز سفري إنني أوكراني. كما أنني أحمل جنسية جزئية في بولندا أيضاً. لكن إندونيسيا هي المكان الذي أرغب في العودة إليه...».

قال بوريس هذا وهو يزيح شعره عن وجهه مرة أخرى... «وعلى وجه الدقة... ب غ ج».

«ما هذا؟».

«بابوا-غينيا الجديدة، هذا ما أفضّله من بين الأماكن التي عشت فيها».

«غينيا الجديدة؟ أظنهم يأكلون لحوم البشر هناك».

«لم يعودوا يفعلون ذلك. أو، ليس كثيراً. هذا السوار من هناك...». قال هذا وهو يشير إلى واحد من الأساور الجلدية الكثيرة في معصمه... «صنعه لي صديقي بامي؛ لقد كان طباخنا».

«كيف هي تلك البلاد؟».

قال وهو ينظر إليّ نظرة جانبية... تلك النظرة المتفكّرة الساخرة... «كان لدي ببغاء. وكانت لدي إوزّة أليفة. كنت أتعلم ركوب الأمواج أيضاً. لكن أبي جرّني معه منذ ستة شهور إلى تلك البلدة المعتمة في ألاسكا. شبه جزيرة سيوارد، تحت الدائرة القطبية الشمالية مباشرة! وبعد ذلك، سافرنا بطائرة مروحية في منتصف شهر أيار إلى مدينة فيربانكس في ألاسكا، ثم أتينا إلى هنا».

قلت: «واو».

قال بوريس: «الضجر قاتل هناك. أكوام من أسماك ميتة، خدمة إنترنت سيئة. كان عليَّ أن أهرب... ليتني هربت». قالها بمرارة.

«وماذا تفعل إذا هربت؟».

«كنت سأعيش في غينيا الجديدة. أعيش على الشاطئ. لكن، والحمد لله، لم نبق في تلك البلدة طيلة الشتاء! منذ بضع سنين، كنا في أقصى شمال كندا، في ولاية ألبيرتا. بلدة قريبة من نهر توس كوب فيها شارع واحد! ظلام طيلة الوقت، من تشرين الأول حتى آذار؛ ولا شيء يمكنك أن تفعله غير القراءة والاستماع إلى قناة (CBC)، كان علينا أن نذهب بالسيارة خمسين كيلومتراً حتى نغسل ملابسنا. ومع ذلك...». ضحك... «كانت أحسن بكثير من أوكرانيا. يمكنك اعتبارها ميامي بيتش بالمقارنة معها».

«قل لي من جديد: ماذا يفعل أبوك؟».
قال بوريس بمرارة: «يشرب، غالباً».
«هذا يعني أنه يجب أن يتعرّف إلى أبي».
أطلق من جديد تلك الضجّة الانفجارية المفاجئة ـ كأنه يبصق على المرء، تقريباً: «نعم، رائع. وماذا عن العاهرات؟».
فوجئت، فأجبته بعد صمت قصير: «لن يفاجئني هذا». صحيح أنني لم أكن أجد مفاجأة في أن يفعل أبي أي شيء. إلا أنني لم أتصوره أبداً ذاهباً إلى أماكن من قبيل *«لايف غيرلز»* و*«جنتيلمنز كلوب»*، اللذين نمرّ بهما على الطريق السريع أحياناً.
كاد الباص يفرغ من ركابه. وصرنا على مسافة شارعين من بيتي. قلت له: «سنصل الآن إلى موقفي».
قال بوريس: «هل تحب أن تأتي معي إلى البيت لمشاهدة التلفزيون؟».
«الحقيقة، ...».
«أوه، هيا! لا أحد هناك. ولدي فيلم *إس أو إس آيسبرغ*».

11

لم يكن خط باص المدرسة يصل إلى *«ظلال الوادي»* حيث يعيش بوريس. كان البيت على مسيرة عشرين دقيقة من آخر موقف للباص. مسافة يجتازها المرء تحت الشمس الحارقة عبر شوارع تعصف بها الرمال. على الرغم من وجود لافتات كثيرة في شارعنا تحمل كلمات من قبيل «مغلق» أو «للبيع». (من الممكن سماع صوت راديو سيارة على مسافة أميال في الليل)، إلا أنني لم أكن مدركاً كيف تصير *«ظلال الوادي»* عند أطرافها القصيّة: بلدة أشباح تتلاشى شيئاً فشيئاً عند حافة الصحراء تحت سماء منذرة بالخطر. كان شكل أكثر البيوت موحياً بأن أحداً لم يسكنها. أما بقية البيوت ـ غير المنتهية ـ فكانت لها نوافذ غير محدّدة المعالم بعد، ومن غير زجاج عليها. كانت السقالات تحيط بكل بيت من

تلك البيوت التي جعلتها الرمال المتطايرة رمادية اللون. وأمامها أكداس من مواد البناء المُصفرّة. كانت النوافذ المغطاة بألواح خشب تُكْسِبُ تلك البيوت مظهراً مشوَّشاً، محطماً، أعمى كأنها وجوه مهشمة مضمّدة. ومع استمرار سيرنا، كان ذلك الإحساس بالهجران يصير مخيفاً أكثر فأكثر كما لو أننا نسير في كوكب فقد سكانه بفعل وباء أو إشعاع ما.

قال بوريس: «لقد بنوا هذا الخراء في منطقة بعيدة جداً. لكن الصحراء تستعيدها الآن. والمصارف...». ضحك... «اللعنة على ثورو، أليس كذلك؟».

«هذه المدينة كلّها كأنها لعنة كبيرة على ثورو».

«سأقول لك مَنِ الذين حلّت عليهم تلك اللعنة. إنهم أصحاب هذه البيوت. لا يستطيعون حتى تأمين الماء لكثير منها. وقد استعادتها المصارف لأن أصحابها غير قادرين على الدفع. هذا ما جعل أبي يستأجر بيتنا بسعر منخفض جداً».

فوجئت وبقيت صامتاً. لم يخطر في ذهني أن أفكر قبل الآن في كيفية تمكّن أبي من دفع إيجار بيت كبير إلى هذا الحد.

قال بوريس فجأة: «أبي يحفر المناجم».

«عفواً؟».

أزاح عن وجهه شعره الذي بلّله العرق: «الناس يكرهوننا أينما ذهبنا. يكرهوننا لأنهم يعدونهم بأن المنجم لن يسبب ضرراً للبيئة؛ لكنهم يجدون بعد ذلك أنه قد سبب ضرراً. وأما هنا...». هز كتفيه بطريقة قدَرية روسية... «يا إلهي. في حفرة الرمل اللعينة هذه... من عساه يبالي بالأمر؟».

قلت وقد أدهشني تردد أصداء صوتينا في ذلك الشارع المهجور: «واو! المكان هنا خالٍ حقاً، أليس كذلك؟».

«نعم. إنه مقبرة. لا تعيش هنا إلا عائلة أخرى... هؤلاء الناس، هناك. شاحنة كبيرة أمام البيت، هل تراها؟ أظنهم مهاجرين غير شرعيين».

«أنت وأبوك... إقامتكما شرعية هنا، أليس كذلك؟». كانت تلك مشكلة في المدرسة: كان بعض الأطفال من المهاجرين غير الشرعيين؛ وكانت هناك ملصقات عن هذا الأمر في ممرات المدرسة.

نفخ نفخة مضحكة: «بالطبع، يهتم المنجم بهذا الأمر. أو هناك من يهتم به. وأما الناس الذين يعيشون في هذا البيت، لعلهم عشرون شخصاً، أو ثلاثون شخصاً... كلّهم رجال ويعيشون في بيت واحد. قد يكونون من تجار المخدرات!».

«أتظن هذا؟».

قال بوريس متجهّماً: «ما يجري شيء غريب جدّاً. هذا كل ما أعرفه».

كان بيت بوريس شديد الشبه ببيت أبي وكساندرا (تحفّ به من الجانبين، قطعتا أرض خاليتان تجمعت فيهما قمامة كثيرة): سجادة من الجدار إلى الجدار، وأدوات كهربائية جديدة تماماً، وأثاث قليل، ومخطّط بناء مماثل تماماً. لكن داخل البيت كان حاراً على نحو غير مريح. كانت بركة السباحة جافة في أسفلها بضعة إنشات من الرمل. وما كان في فناء البيت أي شيء يشبه الحديقة، ولا حتى صبّار. طبقة خفيفة من الغبار كانت تغطي السطوح كلها: الأجهزة الكهربائية، والطاولات، وأرض المطبخ.

فتح بوريس البراد فظهر صف لامع من زجاجات البيرة الألمانية، فسألني: «أتشرب شيئاً؟».

«أوه، واو، شكراً».

قال وهو يمسح جبهته بظهر يده: «في غينيا الجديدة، عندما عشت هناك... حدثت فيضانات كبيرة. ظهرت ثعابين ضخمة... خطرة، وأغلفة ألغام من الحرب العالمية الثانية راحت تعوم فجأة في فناء البيت... ماتت إوزات كثيرة...». فتح زجاجة بيرة... «تلوثت مياه الشرب. وانتشر مرض التيفوس. لم يكن لدينا شيء غير البيرة. انتهى ما لدينا من البيبسي ومن زجاجات العصير. انتهت أقراص اليود. أمضينا ثلاثة أسابيع من غير شيء

نشربه... إلا البيرة، أنا وأبي وحتى المسلمون الذين كانوا معنا. فطور وغداء، وكل شيء».

«لا يبدو لي هذا أمراً شديد السوء».

كشّر قليلاً: «لازمني الصداع طيلة الوقت. بيرة محلية، في غينيا الجديدة. طعمها سيئ جداً. لكن هذه البيرة جيدة. وأيضاً.. لدينا هنا فودكا في الفريزر».

كنت موشكاً على قول نعم، حتى أُحدث انطباعاً حسناً لديه؛ لكني تذكّرت الحر وتذكرت أن عليَّ أن أسير عائداً إلى البيت. فقلت له: «لا، شكراً».

قرع زجاجته بزجاجتي: «أوافقك. الجو حارّ جداً لشرب الفودكا في النهار. يشرب أبي كثيراً... إلى درجة جعلت الأعصاب في قدميه تموت».

«هل هذا معقول؟».

«يطلقون على هذه الحالة اسم...». تغضّن وجهه وهو يحاول تذكّر الكلمات... «اعتلال الأعصاب المحيطي. عندما كان في المستشفى، في كندا، اضطروا إلى تعليمه المشي من جديد. كان يقف، فيسقط من جديد، كان أنفه ينزف دماً. شيء مضحك جدّاً».

قلت: «تبدو حالة مثيرة للاهتمام».

رحت أفكّر في ذلك الوقت عندما رأيت أبي زاحفاً على يديه وركبتيه حتى يجلب مكعبات ثلج من البراد.

«نعم، مثير للاهتمام. ما الذي يشربه أبوك؟».

«ويسكي، عندما يشرب. يفترض أنه كف عن الشراب الآن».

قال بوريس بطريقة من سمع هذا الكلام من قبل: «هاه! إن على والدي أن يغير مشروبه... الويسكي الجيد رخيص هنا. اسمع، ألا تريد رؤية غرفتي؟».

كنت أتوقّع رؤية شيء شبيه بغرفتي، ففوجئت عندما فَتح أمامي باب

ما بدا لي خيمة اجتمعت فيها أشياء من كل حدب وصوب... بقايا رائحة سجائر مارلبورو، وكتب مكدسة في كل مكان، وزجاجات بيرة قديمة، وأطباق سجائر، وأكوام من مناشف وملابس غير مغسولة منتشرة على السجادة. كانت الجدران مغطاة بقطع قماش مطبوعة خضراء وصفراء وقرمزية، إضافة إلى علم أحمر عليه منجل ومطرقة معلق فوق الفراش المغلف بملاءة مطبوعة على الطريقة الإندونيسيّة. كان ذلك كما لو أن رائد فضاء روسياً تحطّمت مركبته في الغابات، فبنى لنفسه مأوى وضع فيه علم بلاده وما تيسّر له من أقمشة وأثواب محلية الصنع.

قلت له: «هل هذا من صنعك أنت؟».

قال بوريس وهو يلقي بنفسه على الفراش ذي الألوان الجامحة: «إنني أطويه كله وأضعه في حقيبة، فلا يستغرق ذلك أكثر من عشر دقائق. وعشر دقائق لإعادة كل شيء كما كان. ما رأيك بأن نشاهد فيلم *إس أو إس آيسبرغ*؟».

«بالتأكيد».

«فيلم رائع. لقد شاهدته ست مرات. أحب ذلك المقطع عندما تصعد إلى طائرتها لكي تنقذهم من الجليد».

لكني لا أعرف ما جعلنا نصرف النظر عن مشاهدة *إس أو إس آيسبرغ* في ذلك اليوم؛ لعل ذلك لأننا لم نستطع التوقّف عن الحديث فترة كافية للنزول إلى الطابق السفلي وتشغيل التلفزيون. كان بوريس قد عاش حياة أكثر إثارة للاهتمام من حياة أي شخص عرفته؛ وكان أيضاً من عمري. بدا لي أنه لم يكن يذهب إلى المدرسة إلا لماماً؛ ثم إن المدارس التي ذهب إليها كانت من أسوأ الأنواع. كان أبوه يعمل في مناطق نائية معزولة نادراً ما تتوفّر فيها مدارس لكي يذهب إليها. قال لي وهو يأخذ رشفة من زجاجة البيرة وينظر إليَّ بعين واحدة: «لدي أشرطة تسجيل. وكانت لدي اختبارات حتى أؤدّيها. لكن يجب عليك أن تكون في مكان فيه إنترنت؛

وهذا غير متوفر بعض الأحيان في المناطق الشمالية في كندا، أو في أوكرانيا».

«فماذا تفعل؟».

هز كتفيه: «أظنني أقرأ كثيراً»؛ قال لي إن معلماً في تكساس اختار له من الإنترنت مجموعة قراءات كبيرة تقوم مقام منهاج دراسي.

«لا بد أن لديهم مدرسة في آليس سبرينغز»[1].

ضحك بوريس وقال: «بالتأكيد لديهم مدرسة». أزاح بيده خصلة شعر مشبعة بالعرق... «لكنا عشنا في المنطقة الشمالية بعد موت أمي؛ عشنا فترة في مقاطعة *أرض آرنهم*، في بلدة اسمها كارني والاغ. يطلقون على ذلك المكان اسم بلدة! لكنها بعيدة أميالاً كثيرة عن أي شيء آخر. وليس فيها إلا مقطورات يقطنها العاملون في المناجم، إضافة إلى محطة بترول يقدَّم فيها الويسكي والبيرة والسندويتشات. وكانت هناك زوجة ميك، صاحب البار. كان اسمها جودي. وكان كل ما أفعله...». أخذ جرعة كبيرة من بيرته... «كل ما أفعله في كل يوم مشاهدة المسلسلات مع جودي، والجلوس معها خلف البار في الليل، بينما يجلس أبي مع مجموعته من المنجم ويشربون حتى السكر. وخلال فترة هبوب الرياح الموسمية، يصبح تشغيل التلفزيون مستحيلاً. كانت جودي تضع تسجيلاتها في البراد حتى لا تتلف».

«لماذا تتلف؟».

«تتلف من العفن الذي يظهر وينمو في الرطوبة. عفن على حذائك، وعفن على كتبك. في ذلك الوقت، لم أكن أتكلّم كثيراً مثلما أفعل الآن لأنني لم أكن أحسن اللغة الإنكليزية. كنت خجولاً جداً، أفضل البقاء وحدي. وأما جودي...! كانت تكلمني؛ وكانت لطيفة معي على الرغم من عدم قدرتي على فهم أي شيء. كنت أذهب إليها كل صباح فتعدّ

---

(1) آليس سبرينغز: بلدة نائية في الناحية الشمالية من أستراليا.

لي المأكولات المقلية الشهية نفسها. مطر، مطر، مطر. كنت أكنّس معها وأغسل الأطباق وأساعدها في تنظيف البار. كنت أتبعها في كل مكان مثلما تفعل إوزة صغيرة. هذا فنجان، وهذه مكنسة، وهذا كرسي البار، وهذا قلم. تلك كانت مدرستي. التلفزيون ـ أغاني دُوران دُوران وأغاني بوي جورج ـ كان كل شيء باللغة الإنكليزية. كان ' *ابنة ماكليود* ' برنامجها التلفزيوني المفضل. دائماً نشاهده معاً؛ فماذا تفعل جودي عندما لا أفهم شيئاً؟ إنها تشرحه لي. كنا نتحدّث عن الأخوات في ذلك المسلسل؛ وقد بكينا لموت كلير عندما تحطّمت سيارتها. قالت لي إنها، لو كان لديها بيت مثل آل دروفر، لأخذتني إليه حتى نعيش هناك ونكون سعيدين معاً، ولتعمل لدينا تلك النساء كلهنّ مثل اللواتي يعملن لدى أسرة ماكليود. كانت شابة صغيرة السن؛ وكانت جميلة: شعر أشقر متموّج وعينان زرقاوان. كان زوجها يدعوها عاهرة، ويدعوها مؤخرة الحصان، لكني كنت أراها مثل جودي في المسلسل. كانت تكلّمني طيلة اليوم، وكانت تغني. علّمتني كل ما لديها من الأغاني المسجلة. ' *ظلام في المدينة، وليل حي...* ' . وسرعان ما تطوّرت لديَّ القدرة على استخدام ما تعلّمته من كلمات. تكلم بالإنكليزية يا بوريس! كنت أتذكّر شيئاً من اللغة الإنكليزية من مدرستي في بولندا: مرحباً، اعذرني، أشكرك كثيراً... لكني صرت أتكلّم وأثرثر بعد شهرين قضيتهما معها! ثم لم أتوقّف عن الكلام بعد ذلك. كانت امرأة في غاية اللطف، وكانت تعطف عليّ دائماً. لكنها كانت تذهب إلى المطبخ وتبكي كل يوم لأنها تكره *كارني والاغ* كثيراً».

بدأ الوقت يتأخّر، لكن الجو في الخارج لم يزل حاراً، ولم يزل الضياء شديداً. نهض بوريس واقفاً وتمطّط فبانت مساحة من بطنه بين بنطلونه وقميصه: بطن مقعر شديد البياض كأنه بطن قديس يكاد يموت جوعاً. قال: «اسمع، إنني جائع كثيراً».

«ماذا لديك للأكل؟».

«خبز وسكّر».

«أنت تمزح».

تثاءب بوريس، ثم دعك عينيه الحمراوين: «ألم تأكل من قبل خبزاً عليه سكّر؟».

«أليس لديك شيء آخر؟».

هز كتفيه بطريقة بدا معها ضجراً: «لديَّ كوبون للحصول على بيتزا. بيتزا ممتازة. لكنهم لا يوصلون البيتزا إلى هذا المكان لأنه بعيد جداً».

«ظننت أنه كان لديك طباخ حيث كنت تعيش».

«صحيح، كان لدينا طباخ، في إندونيسيا، وفي السعودية أيضاً». كان يدخّن سيجارة ـ رفضت السيجارة التي قدمها لي. بدا كما لو أنه شخص محطَّم... يندفع في الغرفة ويثب هنا وهناك كأنه يرقص على أنغام موسيقى؛ لكن من غير موسيقى... «كان الطباخ شخصاً طيباً جدّاً اسمه عبدالفتاح. يعني هذا الاسم 'خادم من يفتح أبواب الرزق'!».

«لا بأس... اسمع... فلنذهب إلى بيتي».

ألقى بنفسه على الفراش ووضع يديه بين ركبتيه: «لا تقل لي إن تلك المرأة تطبخ!».

«لا، لكنها تعمل في بار فيه بوفيه. أحياناً، تجلب معها طعاماً وبعض الأشياء».

قال بوريس وهو ينهض مترنحاً بعض الشيء: «ممتاز». لقد شرب ثلاث زجاجات من البيرة، وكان موشكاً على إنهاء الرابعة. وعند الباب، أخذ مظلّة وناولني إياها.

«لماذا المظلة؟».

فتح مظلته وخطا إلى الخارج: «تصير الحرارة أهون تحت المظلة؛ ولا تحرقك الشمس». قال هذا وبدا وجهه مزرقاً في ظل مظلّته.

12

قبل ظهور بوريس، كان لدي الصبر الكافي لتحمّل وحدتي من غير أن أدرك كم كنت وحيداً. وأظن أن أياً منا، لو عاش في أسرة طبيعية أو نصف طبيعية، لو عاش عيشة فيها قيود وواجبات وإشراف من قبل أشخاص كبار، لما أمكن أن نصير قريبين إلى هذا الحد، وبهذه السرعة... أن نصير غير قابلين للانفصال. لكننا صرنا معاً منذ ذلك اليوم. صرنا معاً طيلة الوقت نقتات على ما نختلسه من طعام ونتشارك ما لدينا من مال.

عندما كنت في نيويورك، ترعرعت على مقربة من أطفال كثيرين يعرفون العالم... أطفال عاشوا في الخارج وصاروا يتكلّمون ثلاث لغات، أو أربع لغات... أطفال يذهبون إلى برامج دراسية صيفية في هايدلبرغ[1]، ويمضون عطلاتهم في أماكن مثل ريو دي جانيرو أو إنزبروك أو كاب دانتيب. لكن بوريس تفوّق عليهم جميعاً. كان أشبه بقبطان بحري عتيق.

لقد ركب الجِمال، وأكل يرقات الديدان، ولعب الكريكيت، وأصيب بالملاريا، وعاش في الشوارع في أوكرانيا («مدة أسبوعين فقط»)، وأشعل بنفسه حزمة ديناميت، وسبح في أنهار أسترالية فيها تماسيح. لقد قرأ تشيخوف بالروسية، وقرأ بالأوكرانية والبولندية لكتّاب لم أسمع بهم. عانى ظلمة الشتاء في روسيا في أماكن تنخفض الحرارة فيها حتى أربعين درجة تحت الصفر. عواصف لا نهاية لها، وثلوج، وجليد أسود. أماكن لا شيء مبهجاً فيها غير نخلة من مصابيح النيون الخضراء تظل مضيئة أربعاً وعشرين ساعة في اليوم أمام بار محلي كان أبوه يحب الشرب فيه. وعلى الرغم من أنه كان أكبر مني بسنة واحدة فقط ـ كان في الخامسة عشرة ـ فقد مارس جنساً حقيقياً مع فتاة في ألاسكا. طلب منها سيجارة في ساحة لوقوف للسيارات أمام أحد المتاجر، فسألته الفتاة إن كان راغباً

---

(1) هايدلبرغ: مدينة في ألمانيا. إنزبروك: مدينة في النمسا. كاب دانتيب: بلدة ساحلية في فرنسا.

في الجلوس معها في السيارة. وكان ما كان. قال لي وهو ينفث دخان سيجارته من زاوية فمه: «لكن، هل تعرف؟ لا أظن أن ذلك أعجبها كثيراً».

«وأنت، هل أعجبك؟».

«يا إلهي... طبعاً. لكني أقول لك... أعرف أنني لم أقم بالأمر على الوجه الصحيح. كان المكان داخل السيارة شديد الضيق».

كنا نعود معاً بالباص من المدرسة كل يوم. وفي المركز الاجتماعي نصف المنجَز على أطراف *«مزارع بيساتويا»*، حيث الأبواب مقفلة وأشجار النخيل بنية ميتة وهي واقفة في أحواضها. كانت هناك ساحة ألعاب مهجورة نذهب إليها فنشتري الصودا والحلوى الذائبة من المخزون المتناقص في آلات البيع، ثم نجلس على الأراجيح في الخارج وندخن ونتحدّث. كانت نوبات مزاجه السيئ وحالاته السوداء التي تأتيه كثيراً تتبادل موقعها مع موجات عميقة من الابتهاج... كان جامحاً، وكان كئيباً، وكان قادراً أحياناً على جعلي أضحك حتى يؤلمني خصريّ. وفوق هذا، كان لدينا دائماً الكثير الكثير مما نقوله، فيؤدي بنا ذلك أحياناً كثيرة إلى عدم الانتباه إلى الوقت، وإلى الاستمرار في أحاديثنا إلى ما بعد حلول الظلام. لقد رأى في أوكرانيا موظفاً منتخَباً يتلقّى طلقات رصاص وهو متجهٌ إلى سيارته. شاءت المصادفة أن يكون شاهداً على ذلك. لكنه لم ير من أطلق النار... لم ير غير الرجل ذي المنكبين العريضين والمعطف الضيق يسقط جاثياً على ركبتيه في الظلمة وسط الثلج. حدّثني عن مدرسته الصغيرة ذات السقف المعدني بالقرب من محمية تشيبيوا في ولاية ألبيرتا الكندية، وغنى لي أغاني الأطفال باللغة البولندية («في بولندا، كان الواجب المدرسي البيتي أن نحفظ قصيدة أو أغنية، أو ربما صلاة، شيء من هذا القبيل»)، وعلّمني كيف أشتم باللغة الروسية («هذه هي المادة الحقيقية... من *الغولاغ*[1]»). حدثني أيضاً كيف تحوّل إلى

(1) الغولاغ: الإدارة الحكومية السوفييتية التي كانت مسؤولة عن نظام معسكرات العمل الإجباري.

الإسلام في إندونيسيا على يد صديقه الطباخ بامي: الإقلاع عن أكل لحم الخنزير، والصيام في شهر رمضان، والصلاة متوجّهاً نحو مكة خمس مرات في اليوم. قال موضحاً وهو يرسم خطاً بإصبع قدمه في التراب: «لكني لم أعد مسلماً...». كنا مستلقيين على ظهرينا في الأرجوحة الدوارة، دائخَين قليلاً، لكثرة الدوران... «تخليت عن ذلك منذ فترة».

«لماذا؟».

«لأنني أشرب». (كان ذلك أقل من الحقيقة بكثير، لأن بوريس كان يشرب البيرة مثلما يشرب الأطفال الآخرون البيبسي كولا؛ بل إنه كان يبدأ الشرب لحظة عودتنا من المدرسة).

قلت: «لكن، من يهتم بهذا؟ ولماذا يعرف به أي إنسان؟».

أصدر صوتاً ينم عن نفاد صبره: «لأن من الخاطئ أن أزعم الإيمان عندما لا ألتزم به على الوجه الصحيح. هذه إساءة للإسلام».

«على الرغم من ذلك فإن لـُ بوريس *الجزيرة العربية*' رنيناً خاصاً».

«اللعنة عليك».

قلت له ضاحكاً وأنا أنهض مستنداً إلى مرفقي: «لا، إنني جاد... هل آمنت بتلك الأشياء فعلاً؟».

«أية أشياء؟».

«أنت تعرف... الله، ومحمد، و'لا إله إلا الله'».

أجابني غاضباً بعض الشيء: «لا. كان إسلامي أمراً سياسياً بعض الشيء».

«ماذا؟ هل تعني شيئاً من قبيل 'عبوة الحذاء'؟»[1].

أطلق ضحكة كالنخير: «اللعنة، لا. ثم إن الإسلام لا يحضّ على العنف».

---

(1) إشارة إلى إرهابي اسمه ريتشارد ريد حاول سنة 2001 إدخال عبوة متفجرة زرعها في حذائه إلى طائرة أميركية كانت متوجّهة من باريس إلى ميامي.

«فماذا إذاً؟».

نزل عن الأرجوحة الدوّارة... كانت نظرة عينيه منتبهة ومستنفَرة: «ماذا تعني بهذا؟ ما الذي تحاول قوله؟».

«مهلك! إنني أطرح سؤالاً».

«ما هو سؤالك؟».

«إذا كنت قد تحوّلت إلى الإسلام، وكل شيء، فبماذا تؤمن؟».

سقط على ظهره وأطلق ضحكة لاهثة كما لو أنني حرّرته من خطّاف كان معلقاً به: «أؤمن؟ ها! لست مؤمناً بأي شيء».

«ماذا؟ هل تعني الآن؟».

«بل أعني أبداً. نعم... أؤمن بمريم العذراء بعض الشيء. وأما الإيمان بالرب... وبالله؟ ليس بهذه الدرجة».

«فلماذا أردت أن تكون مسلماً؟».

مد يديه كما يفعل أحياناً عندما يكون حائراً: «لأنني... لأنهم كانوا أشخاصاً رائعين. كانوا في غاية الطيبة والود معي!».

«كانت تلك بداية».

«صحيح، كانت بداية في حقيقة الأمر. لقد أطلقوا عليَّ اسماً عربياً. بدر الدين... بدر تعني قمر؛ ويعني الاسم كله قمر الإيمان. لكنهم قالوا لي: 'بوريس، أنت الآن بدر لأنك تنير كل شيء بعد أن صرت مسلماً، لأنك تنير العالم بدينك وتشع ضياء أينما ذهبت'. أعجبني الأمر، أعجبني أن أكون بدراً. ثم إن الجامع كان رائعاً. كان قصراً متهدّماً: تتلألأ النجوم عبر سقفه في الليل؛ وطيور معشّشة في ذلك السقف. كان هنالك رجل عجوز من جاوا يعلّمنا القرآن. كانوا يطعمونني أيضاً، وكانوا لطيفين، كما كانوا يحرصون على نظافتي ونظافة ملابسي. كنت أنام على سجّادة الصلاة أحياناً. وكنا نصلّي قبيل الفجر، عندما تستيقظ الطيور ونسمع صوت رفرفة أجنحتها».

على الرغم من شدة غرابة لكنته الأسترالية ـ الأوكرانية، فقد كان طلق اللسان في اللغة الإنكليزية مثلما كنت. وبالنظر إلى قصر المدة التي عاشها في أميركا، فمن المؤكد أنه كان كثير الكلام على نحو أميركانسكي[1].

كان دائماً ينظر إلى قاموس الجيب الذي يحمله (كُتب اسمه على غلافه الأمامي بالأحرف الكريريلية إضافة إلى كتابته تحته بالأحرف الإنكليزية بكل عناية: بوريس فولودوميروفيتش بافليكوفسكي). وكنت دائماً أرى مناديل وقصاصات ورق كتب عليها قوائم من الكلمات والتعابير.

كان يسألني عندما يخذله قاموسه. سألني ذات مرة وهو ينظر إلى لوحة الإعلانات في صالة المدرسة: «ما معنى سوفومور[2]؟»، و«ما معنى هوم إكـ؟ وبولي سكي؟»[3]، كان يلفظها دائماً بوليتزي (على الطريقة الروسية). لم يكن قد سمع بمعظم أسماء المأكولات التي تقدّم على وجبة الغداء في المدرسة: فاهيتا، فلافل، تترازيني الديك الرومي. وعلى الرغم من معرفته بكثير من الأفلام والأغاني، فقد كان متأخّراً عن زماننا عشرات السنين. ما كان يعرف شيئاً عن الألعاب أو الرياضة أو برامج التلفزيون. وبمعزل عن بعض ماركات السيارات الأوروبية الشهيرة، كمرسيديس وبي إم دبليو، ما كان قادراً على التمييز بين سيارة وأخرى. كانت النقود الأميركية تربكه وتحيّره؛ وكانت الجغرافيا الأميركية تحيّره أحياناً: في أي منطقة تقع كاليفورنيا؟ وهل يمكنك أن تخبرني باسم عاصمة نيو إنغلاند؟[4].

لكنه كان قد ألِفَ تدبّر أموره بنفسه. ينهض مبتهجاً ويستعد للذهاب إلى المدرسة، ويشير للسيارات العابرة حتى تنقله مجاناً، ويوقّع بنفسه

(1) أي أميركي، لكن وفق طريقة صياغة الصفات في اللغات السلافية.

(2) سوفومور: طالب السنة الثانية في المدرسة العليا.

(3) هوم إكـ: الاقتصاد المنزلي ـ بولي سكي: العلوم السياسية.

(4) كاليفورنيا ولاية أميركية كبيرة قائمة بذاتها. ونيو إنغلاند اسم يطلق على مجموعة ولايات في شمال شرقي الولايات المتحدة.

على تقاريره المدرسية، ويختلس من المتاجر حاجته من الطعام والمستلزمات المدرسية. ومرة كل أسبوع، أو نحو ذلك، كنا نسير أميالاً في غير طريقنا المعتاد فنمضي وسط الحر الحارق محتمين بمظلتينا كأننا من رجال القبائل الإندونيسيّة، ثم نأخذ الباص المحلّي المهلهل الذي يسمونه (CAT) الذي ـ على حد علمي ـ ما كان أحد يستخدمه غير السكارى والأطفال والفقراء الذين ليست لديهم سيارات. كانت مواعيد ذلك الباص غير مضبوطة؛ وإذا ضيّعناه فإننا نجد نفسينا مضطرين إلى الانتظار زمناً غير قليل حتى يأتي الباص التالي. لكن، كان عند أحد مواقف ذلك الباص مجمّع تسوّق كبير فيه سوبر ماركت أنيق مبرَّد الهواء لا يضم إلا عدداً قليلاً من العاملين. وهناك، كان بوريس يسرق شرائح اللحم من أجلنا، وكذلك الزبدة وعلب الشاي والخيار (يجد الخيار شهيّاً جداً)، ورُزماً من اللحم المدخَّن... بل سرق أيضاً شراباً للسعال عندما أصابني سعال ذات مرة. كان يدسّ هذه الأشياء داخل البطانة الممزقة لمعطفه المطري الرمادي القبيح (معطف رجالي أكبر من قياسه بكثير له كتفان متهدلان وعليه الهيئة الكالحة للكتلة الشرقية... هيئة موحية بتقنين الأغذية وبمصانع الحقبة السوفييتية والمجمّعات الصناعية في لفوف أو أوديسا). وبينما يتجوّل بوريس هنا وهناك، كنت أقف مراقباً عند أول الممر بأعصاب شديدة التوتر تجعلني أحياناً قلقاً من احتمال أن أفقد الوعي. لكني سرعان ما بدأت أملأ جيوبي بالتفاح والشوكولا (وهذه مادة غذائية أخرى يفضّلها بوريس) قبل أن نسير بكل وقاحة صوب صندوق المحاسبة لكي نشتري الخبز والحليب وأشياء أخرى كبيرة الحجم لا نستطيع سرقتها.

عندما كنا نعيش في نيويورك، وكان عمري أحد عشر عاماً، أو نحو ذلك، سجّلتني أمي في دروس «*أطفال في المطبخ*» خلال المعسكر النهاري الصيفي. وقد تعلّمت هناك إعداد بعض الوجبات البسيطة:

شطائر الهامبرغر، وشرائح الجبن المشوية (كنت أعدّها لأمي أحياناً عندما يكون لديها عمل حتى ساعة متأخرة)؛ وكذلك ما كان بوريس يسميه «بيض على التوست». كان بوريس يجلس فوق طاولة المطبخ مؤرجحاً ساقيه، ضارباً أبواب الخزائن الصغيرة بعقبَيْ قدميه؛ وكان يحدّثني أثناء قيامي بتحضير الوجبة. ثم يغسل الأطباق بعد فراغنا من الطعام. قال لي إنه أقدم، عندما كان في أوكرانيا، على «نشل» الجيوب حتى يحصل على مال من أجل طعامه. قال: «لاحقوني مرة أو مرتين، لكنهم لم يقبضوا عليَّ أبداً».

قلت: «لعلّه علينا أن نذهب إلى منطقة ستريب أحياناً». كنا واقفين عند طاولة المطبخ في بيتي وقد أمسك كل منا بشوكة وسكين؛ وكنا نأكل شرائح اللحم من المقلاة مباشرة... «إذا أردنا أن نفعل ذلك، فإن تلك المنطقة هي المكان المناسب. لم أر في أي مكان آخر هذا العدد الكبير من الثملين، ثم إنهم جميعاً من خارج المدينة».

توقّف بوريس عن المضغ، وبدا لي مصدوماً: «لماذا نفعل هذا؟ عندما تكون سرقة الطعام سهلة إلى هذا الحد من متاجر كبيرة جداً؟».

«مجرّد كلام!» من الممكن أن يدوم المال الذي تلقّيته من البوّابين في نيويورك حيناً من الزمن، لكنه لن يدوم إلى الأبد. كنا ننفق منه، أنا وبوريس، بضعة دولارات في المرة الواحدة فنشتري من آلات البيع في متجر «7-11EMV» القريب من المدرسة الذي كان بوريس يسميه «المجلة»[1].

«ها! وماذا أفعل إذا ألقي القبض عليك يا هاري بوتر؟». قال هذا وهو يلقي قطعة لحم كبيرة إلى الكلب الذي علّمه كيف يرقص على ساقيه الخلفيتين... «من سيطبخ طعام العشاء؟ ومن سيعتني بسنابز هنا؟». كان يطلق على بوبر، كلب كساندرا، أسماء مختلفة: «آميل» و«نتريت»

---

(1) Magazine: تعني مجلة في اللغة الإنكليزية. وتعني "متجر" للمواد الغذائية في بعض اللغات السلافية.

و«بوبتشيك» و«سنابز»... أي شيء ما عدا اسمه الحقيقي. وكنت قد بدأت أسمح للكلب بالدخول إلى البيت (كان من المفترض ألّا أفعل هذا لكني فعلته لأنني تعبت كثيراً من عوائه وشده سلسلته إلى أقصى حد ممكن حتى ينظر عبر الباب الزجاجي). لكنّ هدوءه داخل البيت كان مفاجئاً. كان لدى ذلك الكلب جوع شديد إلى الاهتمام، فصار يلازمنا أينما ذهبنا ويثب عند أقدامنا... يصعد معنا عندما نصعد، وينزل عندما ننزل، فيتكوَّر على نفسه وينام على السجادة عندما نقرأ أو نتشاجر أو نصغي إلى الموسيقى في غرفتي.

قلت وأنا أزيح الشعر عن وجهي (كنت في حاجة شديدة إلى قصّه، لكني لم أرغب في إنفاق المال على ذلك): «صدقاً، يا بوريس... لست أجد اختلافاً كبيراً بين سرقة المحافظ وسرقة شرائح اللحم».

«الاختلاف كبير يا بوتر...». باعد بين يديه حتى يجعلني أرى كم هو كبير ذلك الاختلاف... «بين السرقة من الناس الذين يعملون، والسرقة من شركات كبيرة غنية تسلب الناس مالهم!».

«إن متجر كوسكو لا يسلب الناس مالهم. إنه سوبر ماركت رخيص».

«لا بأس... لكن تلك تظل سرقة أساسيات الحياة من مواطنين أفراد. أهذه هي خطتك الذكية؟ اسكت!». كانت الكلمة الأخيرة موجّهة إلى الكلب الذي راح ينبح بحدة مطالباً بمزيد من اللحم.

قلت وأنا ألقي إليه بقطعة لحم جديدة: «لن أسرق مالاً من شخص عامل فقير. هنالك الكثير من الوضيعين الذين يتجوّلون في المدينة حاملين أكداساً من النقود».

«وضيعون؟».

«محتالون. كاذبون».

ارتفع حاجباه الداكنان المدببان: «آه... هذا معقول. لكن، إذا سرقت مالاً من شخص وضيع، واحد من أفراد العصابات مثلاً، فمن المحتمل كثيراً أن يؤذيك، أليس كذلك؟».

«ألم تكن تخاف أن يؤذيك أحد في أوكرانيا؟».

هز كتفيه: «كان من الممكن أن أتلقى شيئاً من الضرب، لا أن يطلَق عليَّ الرصاص».

«رصاص؟».

«نعم، رصاص. لا تكن مندهشاً هكذا. هذه بلاد رعاة البقر! لديهم مسدسات، كلهم».

«لست أقول لك إننا سنسرق شرطياً. أقول إننا سنسرق سائحين سكارى. يعج المكان بهؤلاء السائحين ليلة السبت».

وضع المقلاة على الأرض حتى يتولّى الكلب إنهاء ما فيها: «ها! سينتهي بك الأمر في السجن، على الأرجح، يا بوتر. أنت صاحب أخلاق ضعيفة... عبد للاقتصاد. أنت مواطن سيئ جداً».

13

في ذلك الوقت ـ تشرين الأول، أو نحو ذلك ـ صرنا نأكل معاً كل ليلة تقريباً. كان بوريس يشرب ثلاث أو أربع زجاجات بيرة قبل العشاء، ثم يتحوّل إلى شرب الشاي الساخن بعد تناول الطعام. ثم... بعد قدح من الفودكا يعقب وجبة العشاء (عادةٌ سرعان ما التقطتها منه... «الفودكا تساعد في هضم الطعام»، بحسب توضيح بوريس)، كنا نجلس لنقرأ وننجز فروضنا المدرسية ونتجادل بعض الأحيان. وكثيراً ما كنا نسكر إلى أن ننام أمام التلفزيون.

كنا في بيته ذات ليلة، فقال لي عندما نهضت قبيل نهاية *«الرائعون السبعة»* ـ المعركة الأخيرة، عندما يجمع يول براينر رجاله: «لا تذهب! سوف يفوتك القسم الأفضل من الفيلم».

«صحيح، لكنها قاربت الحادية عشرة».

كان بوريس مستلقياً على الأرض فنهض على يديه. شعر قليل وصدر ضيّق هزيل... كان نقيضاً ليول براينر من كل النواحي باستثناء تشابه واحد

غريب: كان لكل منهما تلك العينان الماكرتان الحذرتان الساخرتان القاسيتان بعض الشيء... عينان فيهما ميل تتري أو مغولي.

قال متثائباً: «اتصل بكساندرا وقل لها أن تأتي لكي تأخذك. في أية ساعة ينتهي عملها؟».

«كساندرا؟ انسَ الأمر!».

تثاءب بوريس من جديد وقد أثقلت كثرة الفودكا أجفانه: «نم هنا إذاً...». قال هذا وهو ينقلب على ظهره ويدعك وجهه بإحدى يديه... «هل سينتبهان إلى غيابك؟».

وما أدراني إن كانا سيعودان إلى البيت أصلاً، إنهما لا يعودان في بعض الليالي. أجبته: «أشك في ذلك».

قال بوريس وهو يتناول علبة السجائر: «اسكت. انظر الآن، لقد جاء الأشرار».

«ألم تر هذا الفيلم من قبل؟».

«رأيته مترجماً إلى الروسية، إن كنت قادراً على تصديق هذا. لكن الترجمة كانت ضعيفة جداً. كانت ترجمة مخنَّثة. هل مخنثة هي الكلمة التي أريدها هنا؟ كانت أشبه بلغة معلمي المدارس منها بلغة أشخاص يقاتلون بالأسلحة النارية... هذا ما أحاول قوله».

14

على الرغم من أن حزني على أمي كان يجعلني بائساً خلال إقامتي لدى آل باربر، فقد صرت الآن أفكّر مشتاقاً في تلك الشقة في بارك آفنيو وأنظر إليها كأنها جنة عدن التي فقدتها. صحيح أنني كنت قادراً على استخدام البريد الإلكتروني على الكمبيوتر في المدرسة. إلا أن آندي كان ممن لا يحبون الكتابة. أتتني منه رسالة جوابية فكانت باردة إلى حد محبط. «مرحباً يا ثيو. آمل أنك تمضي صيفاً ممتعاً. اشترى أبي قارباً جديداً [اسمه اكسالوم]. لن تقبل أمي أبداً بالصعود إلى ذلك القارب، لكن المؤسف

أنني مضطر إلى ذلك. دروس المرحلة الثانية في اللغة اليابانية تشعرني بالصداع، لكن كل ما عداها على ما يرام». كما أجابت السيدة باربر على الرسالة الورقية التي وصلتها مني ـ سطر أو اثنان على بطاقة مراسلة من متجر *بندسي وكارول* مطبوعٌ عليها اسمها ـ لكن رسالتها نفسها كانت خالية من أي ملمح شخصي. تسأل دائماً «*كيف حالك؟*». وتختتم بـ«*أتذكرك دائماً*»؛ لكنها لم تكتب أبداً شيئاً من قبيل «*لقد اشتقنا إليك*»، أو «*نتمنّى أن نراك*».

كتبت أيضاً إلى بيبا، في تكساس، على الرغم من معرفتي بأنها مريضة إلى حد لا يسمح لها بالإجابة ـ لا مشكلة في هذا لأنني لم أرسل معظم ما كتبته لها من رسائل.

عزيزتي بيبا،

كيف حالك؟ هل أعجبتك تكساس. إنني أفكر فيك كثيراً. هل تمتطين ذلك الحصان الذي أعجبك. الأمور ممتازة هنا. أتساءل إن كان الطقس حارّاً عندكم، لأنه شديد الحرارة هنا.

كان ذلك شيئاً مملاً. رميت الرسالة وبدأت كتابة رسالة أخرى.

عزيزتي بيبا،

كيف حالك؟ إنني أفكر فيك وآمل أن تكوني بخير. أتمنى أن تكون أمورك في تكساس رائعة. عليّ القول إنني لا أحب المكان هنا، لكني تعرفت على بعض الأصدقاء وبدأت أعتاد المكان إلى حد ما... على ما أظن.

لا أعرف إن كان لديك حنين إلى نيويورك! إنني مشتاق إليها كثيراً. ليتنا كنا نعيش في مكانين متقاربين. كيف صار رأسك الآن؟ آمل أن يكون قد تحسن. يؤسفني أن...

سألني بوريس وهو يقضم تفاحة ويقرأ ما أكتبه من فوق كتفي: «هل هي صديقتك؟».

«ابتعد عني».

قال: «ماذا حدث لها؟». وعندما لم أجبه أكمل: «هل ضربتها؟».

قلت وأنا نصف مصغ إليه: «ماذا؟».

«ما حكاية رأسها؟ ألهذا تعتذر منها؟ هل ضربتها أو فعلت لها شيئاً؟».

قلت: «نعم، صحيح...». ثم أدركت من تعبير وجهه المهتم أنه جاد تماماً في سؤاله.

قلت له: «أتظنني شخصاً يضرب الفتيات؟».

هز كتفيه وقال: «لعلها استحقت الضرب!».

«نحن في أميركا لا نضرب النساء».

تجهم وجهه، وقذف من فمه بذرة تفاح، ثم قال: «لا! لا يفعل الأميركيون شيئاً أكثر من اضطهاد البلدان الأصغر حجماً عندما تخالفهم الرأي».

«بوريس، أطبق فمك واتركني وحدي».

لكن ملاحظته تلك ضايقتني، وبدلاً من رسالة لبيبا، بدأت أكتب لهوبي.

> عزيزي السيد هوبارت،
>
> مرحباً، كيف حالك؟ آمل أن تكون بخير. لم أكتب لك قبل الآن لكي أشكرك على لطفك خلال أسابيعي الأخيرة في نيويورك. آمل أن تكون بخير، وآمل أن يكون كوزمو بخير، على الرغم من معرفتي أنكما تفتقدان بيبا. كيف حالها؟ أتمنى أن تكون في حال تسمح لها بالعودة إلى الموسيقى. أتمنى أيضاً...

لكني لم أبعث بتلك الرسالة أيضاً. ومن هنا، كانت سعادتي كبيرة عندما وصلتني رسالة (رسالة طويلة على ورق حقيقي). وما كان صاحب تلك الرسالة إلا هوبي.

«ما الذي لديك هنا؟». سألني أبي متشككاً وقد رأى ختم نيويورك على غلاف الرسالة فاختطفها من يدي.

«ماذا؟».

لكن أبي كان قد فتح المغلف. مسحت عيناه الرسالة سريعاً، ثم لم يلبث أن فقد اهتمامه. قال وهو يعيدها إلي: «خذ، آسف يا صغيري، لقد أخطأت».

كانت الرسالة في حد ذاتها جميلة كأنها تحفة فنية: ورق فاخر، وخط متقن ومتأنٍ... همسة من غرف هادئة ومال.

عزيزي ثيو،

كانت لدي رغبة في أن أسمع عن أحوالك، لكني مسرور بأنني لم أسمع شيئاً، فأنا آمل أن يكون معنى هذا أنك سعيد وأنك لا تجد وقتاً للكتابة. بدأ تساقط أوراق الأشجار عندنا، وصارت ساحة واشنطن صفراء مبتلة. وبدأ الطقس يزداد برودة. أخرج مع كوزمو صباحات السبت فنتسكّع في قلب المدينة. أحمله وأدخل إلى محل لبيع الأجبان ـ لست واثقاً من أن ذلك أمر قانوني تماماً؛ لكن الفتيات هناك تقدمن إليه قطعاً من الجبن. إنه يفتقد بيبا كثيراً، بقدر ما أفتقدها. لكنه لا يزال يستمتع بطعامه، مثلي. صرنا الآن نأكل عند الموقد أحياناً لأن البرد قد اشتد.

آمل أن تكون أمورك قد استقرت هناك وأن يكون لك أصدقاء جدد. عندما أتحدّث مع بيبا على الهاتف، لا تبدو لي مسرورة كثيراً بوجودها هناك. لكن صحتها تتحسن بالتأكيد. سوف أطير إليها في عيد الشكر. لست أدري إن كان قدومي سيسر مارغريت، لكن بيبا تريدني أن أذهب إليها. إذا سمحوا لي بحمل كوزمو في الطائرة، فقد آخذه إليها أيضاً.

أدرجت مع الرسالة صورة أظنها ستسرك. إنها صورة بيرو تشيبنديل وصلني قبل فترة وجيزة، وهو في حالة شديدة السوء. قيل لي إنه كان مخزوناً في سقيفة من غير تدفئة في مكان قريب من ووتربليت في نيويورك. فيه خدوش كثيرة، وفيه حزوز كثيرة، كما أن أعلاه مكسور إلى نصفين... لكن، انظر إلى هذه المخالب الانسيابية التي تحمل وزنه من تحت تلك الكرة! ليست الساق ظاهرة جيداً في الصورة، لكنك قادر على رؤية الإحساس بضغط هذه المخالب المنغرسة. إنه تحفة فنية... ليته حظيَ بعناية أفضل! لا أعرف إن كنت تستطيع رؤية هذه التعريقات المتميزة على سطحه... إنها استثنائية حقاً!

وأما في ما يتعلق بالمتجر فإنني أفتحه بضع مرات في الأسبوع بموجب مواعيد. إلا أنني أمضي معظم الوقت في الأسفل فأعمل على

أشياء يرسلها إليّ عملاء. سألتني عنك السيدة سكولنيك وأشخاص كثيرون في الحي. لا يزال كل شيء هنا على حاله باستثناء أن السيدة تشو في السوق الكوري قد أصابتها سكتة دماغية (سكتة صغيرة جداً! لقد عادت الآن إلى العمل)؛ كما أن ذلك المقهى الذي أحبه كثيراً في شارع هدسون قد أغلق أبوابه... شيء محزن جداً. مررت به هذا الصباح فبدا لي أنهم يحولونه إلى شيء... لا أعرف كيف أسميه. نوع من متجر يبيع سلعاً يابانية صغيرة.

أرى أنني استرسلت كثيراً، كعادتي، وأن الورقة قد امتلأت. لكني آمل حقاً أن تكون بخير، وأن تكون سعيداً. وآمل أن يكون مكان إقامتك أقل وحشة مما كنت تظن. إن كان هنالك أي شيء أستطيع فعله من أجلك هنا، أو إذا كنت قادراً على مساعدتك بأية طريقة فأرجو أن تعرف أنني لن أتأخر أبداً.

15

أمضيت تلك الليلة عند بوريس. كان مستلقياً ثملاً على جانب من فراشه ذي الملاءة الإندونيسيّة. حاولت أن أتذكر شكل بيبا. لكن القمر كان كبيراً مرئياً بوضوح عبر النافذة العارية من الستائر فجعلني أفكر في قصة حكتها لي أمي. كانت قصة عن السفر بالسيارة مع أمها وأبيها إلى عروض الخيل وهي جالسة في المقعد الخلفي في تلك البويك العتيقة: («كنا نسافر كثيراً ـ عشر ساعات في بعض الأحيان، عبر طرقات سيئة. الأراجيح القلابة الكبيرة، وحلبات الثيران المفروشة أرضها بنشارة الخشب، وكل شيء فائح برائحة تشبه الفشار وعلف الخيل. كنا في سان أنتونيو ذات ليلة، وكنت حزينة ـ أردت أن أكون في غرفتي، وأردت كلبي وفراشي ـ فحملني أبي في تلك الساحة وطلب مني أن أنظر إلى القمر. قال لي: 'عندما تشتاقين إلى الديار، ما عليك إلا أن ترفعي رأسك وتنظري إلى القمر لأنه يظل هو نفسه أينما ذهبت'. وبعد موته واضطراي إلى الذهاب

للعيش مع خالتي بيس... أعني حتى الآن، في المدينة، عندما أرى القمر بدراً، أحس كأنه يقول لي ألّا أنظر إلى الماضي وألّا أشعر بالحزن على شيء لأن الديار هي حيث أكون. قبّلتْني على أنفي وقالت: أو حيث تكون أنت، يا جروي. أنت مركز الأرض بالنسبة إليَّ '»).

تحرّك بوريس إلى جانبي وقال: «بوتر؟ هل أنت مستيقظ؟».

قلت: «هل أستطيع أن أسألك عن شيء؟ كيف يبدو شكل القمر في إندونيسيا؟»

«ماذا تقصد بهذا؟».

«أو... لست أدري، في روسيا؟ هل يكون شكله مثلما يبدو هنا؟».

نقر بخفة على جانب رأسي بمفاصل أصابعه ـ حركة من حركاته صرت أعرفها... تعني: أحمق. قال لي متثائباً وهو ينهض مستنداً إلى يده ذات الأساور الجلدية الهزيلة: «هو نفسه في كل مكان. لماذا تسأل؟».

قلت: «لست أدري...». وبعد صمت متوتّر قصير... «هل سمعت هذا؟».

صوت اصطفاق باب. قلت وأنا أنقلب في اتجاهه: «ما هذا؟».

نظر كل منا إلى الآخر، ورحنا نصغي. أصوات في الأسفل. ضحكات، وأشخاص يصطدمون بأشياء، وصوت كما لو أن أحداً قد أسقط شيئاً ما.

جلست في الفراش وسألته: «أهو أبوك؟»... ثم سُمع صوت امرأة، صوت ثمل حاد.

جلس بوريس أيضاً فبدا هزيلاً شاحباً في ضوء القمر المنسكب من النافذة. وفي الأسفل، بدا لي أنهم راحوا يقذفون بالأشياء ويدفعون بقطع الأثاث هنا وهناك.

همست: «ماذا يقولون؟».

أصغى بوريس. كنت أرى كل ما في رقبته من عقد وتجاويف. قال: «خراء. إنهم سكارى».

بقينا جالسين وواصلنا الإصغاء ـ كان بوريس مصغياً بانتباه أكبر من انتباهي.

قلت له: «من هي التي معه؟».

«عاهرة ما». واصل الإصغاء لحظة مقطّب الحاجبين، حاد المظهر في ضوء القمر، ثم استلقى من جديد... «بل عاهرتان».

انقلبت ونظرت إلى الساعة في الآيبود. كانت الثالثة وسبع عشرة دقيقة صباحاً.

قال بوريس بصوت كالأنين وهو يحكّ بطنه: «اللعنة عليهم، لماذا لا يخرسون؟».

قلت بعد صمت قصير متردّد: «أريد أن أشرب».

نخر ضاحكاً: «ها! أنت لا تريد النزول إلى الأسفل الآن... صدّقني».

سألته: «ماذا يفعلون؟». كانت إحدى المرأتين قد زعقت... زعقت خائفة أو ضاحكة، لست أدري.

ظللنا راقدين، متيبسَين كأننا قطعتَا خشب. ورحنا نحدّق في السقف ونصغي إلى تلك الأصوات المشؤومة، أصوات التحطّم والتخبّط.

سألته من جديد: «أوكرانيات». صحيح أنني لم أكن قادراً على فهم كلمة مما يقال في الأسفل، لكني على علاقة مع بوريس منذ زمن كان كافياً لكي أبدأ تفريق نغمة الكلام الأوكراني عن الكلام الروسي.

قال لي: «درجة تامة يا بوتر». ثم أضاف: «أشعل لي سيجارة».

دخنا السيجارة معاً إلى أن سمعنا صوت اصطفاق باب آخر في مكان ما، ثم اختفت الأصوات. تنفس بوريس الصعداء آخر الأمر وأطلق زفرة أخيرة كلها دخان، ثم انقلب فسحق السيجارة في طبق السجائر إلى جانب السرير.

قال لي: «تصبح على خير».

غفا بوريس على الفور. كان ذلك واضحاً من صوت تنفسه. أما أنا

فبقيت مستيقظاً زمناً طويلاً. كان حلقي جافاً، وانتابني دوار وغثيان نتيجة تلك السيجارة. كيف أُتِي بي إلى هذه الحياة الجديدة الغريبة حيث يصيح أجانب سكارى من حولي في الليل... حيث صارت ثيابي كلها متسخة، حيث لا أحد يحبني؟ كان بوريس يشخر إلى جانبي غائباً عن ذلك كله. وأخيراً، عندما نمت قبيل الفجر، حلمت بأمي: رأيتها جالسة قبالتي في مقعد في قطار الساعة السادسة، تتمايل قليلاً، وجهها هادئ في النور الاصطناعي المتراقص.

قالت لي: *ماذا تفعل هنا؟ عد إلى البيت. عد الآن. سنلتقي في الشقة.*

لكن الصوت لم يكن صوت أمي تماماً. وعندما نظرت بإمعان أكبر، رأيت أن تلك لم تكن أمي أبداً... امرأة ما تتظاهر بأنها أمي. أفقت وأنا أشهق مجفلاً.

16

كان والد بوريس شخصية غامضة. هكذا شرح لي بوريس الأمر: غالباً ما يكون أبوه في موقع العمل في مكان بعيد في منجمه حيث يظل هناك مع طاقمه عدة أسابيع متواصلة في المرة الواحدة. قال بوريس متجهماً: «لا يستحم. يظل ثملاً قذراً طيلة الوقت». في المطبخ، كان جهاز الراديو التالف الذي يعمل على الموجة القصيرة لأبيه (قال بوريس: «من حقبة بريجنيف. لا يقبل أن يرميه»). وكانت له المجلات الروسية ومجلة *يو اس ايه توداي* التي كنت أراها في المكان أحياناً. دخلت في يوم من الأيام واحداً من الحمامات في بيت بوريس (كانت الحمامات بشعة حقاً ـ لا ستارة حمام، ولا مقعد مرحاض لا في الطابق العلوي ولا في الطابق السفلي... وأوساخ سوداء متراكمة في المغاسل. ففزعت عندما رأيت واحدة من بدلات أبيه. كانت مبتلة كريهة الرائحة معلقة من قضيب الدوش كأنها شيء ميت: شيء مشعّث قبيح مصنوع من صوف متكتل

بني بلون يشبه لون الجذور عند اقتلاعها من الأرض. كان الماء يسيل منها على الأرض كأنها غولم[1] آت من بلدهما القديم أو كأنها قطعة ملابس شخص غريق انتشلتها الشرطة من الماء).

سألني بوريس عندما خرجت: «ماذا؟».

أجبته: «لقد غسل أبوك سترته بنفسه! غسلها بنفسه... في المغسلة هناك!».

رفع بوريس كتفيه متفادياً التعليق ـ كان متكئاً على إطار الباب يقضم ظفر إبهامه بأسنانه.

قلت له: «هذا غير معقول...». وعندما رأيته مستمراً في النظر إلي، قلت: «ماذا؟ ألا توجد محلات تنظيف ملابس في روسيا؟».

دمدم بوريس من حول إبهامه الذي في فمه: «إن لديه الكثير من المجوهرات والمال. ساعة رولكس، وحذاء فيراغامو. وهو قادر على تنظيف سترته كيفما شاء».

قلت له: «صحيح»، ثم غيّرت الموضوع. مرت بضعة أسابيع لم أفكر خلالها على الإطلاق في والد بوريس. ثم أتى يوم جاء فيه بوريس متأخراً إلى درس الأدب الإنكليزي، وكانت كدمة أرجوانية ظاهرة تحت عينه.

قال بصوت مبتهج عندما سألته السيدة سبير عمَّ حدث بنبرة متشكّكة (كان بوريس يدعوها «سبيرسيتسكايا»): «أصابتني كرة القدم في وجهي».

كنت أعرف أنه يكذب. رحت أنظر إليه، عبر الممر الفاصل بيننا، على امتداد الدرس الذي كان موضوعه مناقشة فاترة لكتابات رالف والدن إيمرسون، وأتساءل في نفسي: كيف أصابته هذه الضربة بعد أن تركته الليلة الماضية حتى أعود إلى البيت فأُخرِج بوبر في نزهة قصيرة ـ كانت كساندرا تتركه مربوطاً في الخارج زمناً طويلاً جداً، فبدأت أشعر بأنني مسؤول عنه.

---

(1) غولم: في الأساطير اليهودية، هو شخصية من صلصال دبّت فيها الحياة بفعل سحر.

سألته عندما التقيته بعد الدرس: «ماذا فعلت؟».

«ماذا؟».

«كيف أصابك هذا؟».

غمزني بعينه وقال وهو يضرب كتفه بكتفي.

«أوه، ماذا بك؟ ماذا؟ هل كنت ثملاً؟».

قال: «عاد أبي إلى البيت». وعندما لم أجبه بشيء، قال لي: «ماذا تريد أيضاً يا بوتر؟ ماذا كنت تظن؟».

«يا إلهي! لماذا؟».

هز كتفيه ثم قال وهو يدعك عينه السليمة: «سرَّني أنك ذهبت قبل ذلك. لم أصدّق ظهوره المفاجئ. كنت نائماً على الأريكة في الطابق السفلي. ظننته أنت أول الأمر».

«وماذا حدث؟».

أطلق بوريس تنهيدة كبيرة. لقد كان يدخن في طريقه إلى المدرسة، لأن رائحة الدخان كانت واضحة في أنفاسه: «آه. رأى زجاجات البيرة على الأرض».

«هل ضربك لأنك كنت تشرب البيرة؟».

«ضربني لأنه كان في حالة سكر شديد. هذا هو السبب. كان في غاية السكر... لا أظنه كان مدركاً أنه يضربني أنا. رأى وجهي هذا الصباح فبكى وقال لي إنه آسف. على أي حال، سيغيب عن البيت زمناً طويلاً».

«لماذا؟».

«قال لي إن لديه عملاً كثيراً هناك. قال إنه لن يعود قبل ثلاثة أسابيع. إن المنجم قريب من واحد من تلك الأماكن حيث توجد مواخير تديرها الدولة، فهل فهمت؟».

قلت: «لا تدير الدولة تلك المواخير...». ثم وجدت نفسي أتساءل إن كان الأمر كذلك حقاً.

«لا بأس... أنت تفهم ما أريد قوله. لكنْ، هناك أمرٌ حسنٌ، على الرغم من ذلك... لقد ترك لي مالاً».

«كم ترك لك؟».

«أربعة آلاف».

«أنت تمزح».

«لا، لا...». ضرب جبهته بكف يده... «كنت أحسبها بالروبل. آسف! نحو مئتي دولار... لكن هذا جيد. كان علي أن أطلب منه المزيد، لكني لم أجرؤ على ذلك».

في تلك اللحظة، وصلنا إلى تقاطع الممرات في المدرسة حيث كان عليّ أن أذهب في اتجاه صف الجبر بينما يذهب بوريس إلى صف «*نظام الحكومة في أميركا*»: عذاب حياته! كان ذلك الموضوع إلزامياً. وكان سهلاً حتى بمعايير مدرستنا الفضفاضة الهزيلة. لكن محاولة جعل بوريس يفهم شيئاً يتعلّق بوثيقة إعلان الحقوق أو بسلطات الكونغرس المنصوص عليها وبالسلطات غير المنصوص عليها، كان يذكرني بالوقت الذي أمضيته في محاولة إفهام السيدة باربر معنى «مُخدِّم إنترنت».

قال بوريس: «لا بأس. أراك بعد الدرس. اشرح لي من جديد: ما الفرق بين البنك الفيدرالي والاحتياطي الفيدرالي؟»

سألته: «هل أخبرت أحداً؟».

«بماذا؟».

قلت: «أنت تعرف».

قال بوريس ضاحكاً: «ماذا؟ هل تريد أن تبلغ عني؟».

«ليس عنك. عنه!».

أجاب: «ولماذا؟ لماذا تكون تلك فكرة حسنة؟ قل لي! ... حتى يرحّلوني؟».

قلت بعد صمت قصير منزعجاً: «صحيح».

قال بوريس: «الليلة، يجب أن نأكل في الخارج، في المطعم. ربما نذهب إلى المطعم المكسيكي».

كان بوريس قد بدأ يحب الطعام المكسيكي بعد فترة طويلة من التذمّر والشكوك. قال لي إنهم لا يعرفون الطعام المكسيكي في روسيا. وقال إنه ليس سيئاً عندما يعتاده المرء. لكنه لا يمسه إذا كان حارّاً كثيراً... «نستطيع الذهاب بالباص».

«المطعم الصيني أقرب. والطعام عندهم أحسن».

«نعم. لكن، هل تتذكر؟».

قلت: «آوه، نعم، صحيح. لقد نسيت ذلك». عندما أكلنا في المطعم الصيني آخر مرة، انسللنا خارجين من غير أن ندفع الحساب.

17

كان بوريس يحب كساندرا أكثر مما أحببتها بكثير: يقفز مندفعاً حتى يفتح الباب لها ويقول لها إن تسريحة شعرها جميلة ويعرض عليها أن يساعدها في حمل الأشياء. وكنت أناكفه منذ أن رأيته ينظر إلى ثدييها عبر فتحة قميصها عندما تنحني لتأخذ هاتفها عن طاولة المطبخ.

قال لي ذات مرة عندما كنا في غرفتي: «يا إلهي... إنها مثيرة. أتظن أن والدك يمانع؟».

«أظنه لا يلاحظ شيئاً».

«لا، أسألك جاداً... ما الذي تظن أن والدك يمكن أن يفعله بي؟».

«إذا فعلت ماذا؟».

«إذا... أنا وكساندرا».

«لست أدري، ربما يتصل بالشرطة».

أطلق ضحكة هازئة، وقال: «لماذا؟».

«ليس من أجلك، بل من أجلها. اغتصاب شخص قاصر!».

«أتمنى هذا».

قلت: «اذهب وضاجعها إن أردت. لست أبالي إن انتهى بها الأمر إلى السجن».

انقلب بوريس على بطنه ونظر إليّ نظرة ماكرة: «إنها تتعاطى الكوكايين... هل تعرف هذا؟».

«ماذا؟».

«كوكايين...». ثم قلد حركة استنشاق الكوكايين.

قلت له: «لا بد أنك تمزح». لكني رأيته يبتسم ابتسامة متكلّفة ساخرة، فقلت: «كيف تعرف هذا؟».

«أعرف وحسب. أعرف من طريقة كلامها. كما أنها تصر على أسنانها. انتبه إليها».

لم أكن أعرف ما الذي يجب أن أنتبه إليه. لكننا أتينا إلى البيت عصر ذات يوم. لم يكن أبي موجوداً. رأيناها تنتصب في جلستها بعد أن كانت منحنية فوق طاولة القهوة وفي يدها أنبوب استنشاق المسحوق. كانت يدها ممسكة بشعرها خلف رقبتها. عندما ألقت برأسها إلى الخلف فاستقرت عيناها علينا، أتت لحظة لم يقل أحد فيها شيء؛ ثم استدارت في غير اتجاهنا كما لو أننا غير موجودين.

تابعنا سيرنا وصعدنا السلم إلى غرفتي. على الرغم من أنني لم أر قبل ذلك شخصاً يتنشّق المخدرات، فقد كان من الواضح لي - حتى لي - ما كانت كساندرا تفعله.

قال بوريس بعد أن أغلقتُ باب غرفتي علينا: «يا إلهي... كم هي مثيرة! أتساءل أين تخبئه».

قلت وأنا أجلس على السرير: «لست أدري». كانت كساندرا خارجة من البيت. سمعت صوت سيارتها في الممر.

«أتظن أنها تعطينا شيئاً منه؟».

«ربما تعطيك أنت».

جلس بوريس على الأرض إلى جانب السرير. ارتفعت ركبتاه عندما طوى ساقيه واستند إلى الجدار بظهره: «أتظن أنها تبيعه؟».

أجبته: «مستحيل!» وبعد لحظة صمت... «أتظن هذا؟»

«ها! إن كانت تبيعه فهذا من حسن حظك».

«وكيف هذا؟».

«هذا يعني أن في البيت مالاً».

«هذا ينفعني كثيراً».

حدّجني بنظرته الذكية الخبيثة كأنه يقيّمني. سألني: «من الذي يدفع الفواتير هنا يا بوتر؟».

كانت تلك أول مرة أنتبه فيها إلى هذا السؤال الذي أدركت على الفور أنه سؤال ذو أهمية عملية كبيرة... «لا أعرف. أظن أن أبي يدفعها. لكن كساندرا تدفع بعض المال أيضاً».

«ومن أين يأتي أبوك بالمال؟ أعني ماله».

قلت: «لا فكرة عندي. يكلم أشخاصاً بالهاتف، ثم يخرج من البيت».

«وهل ترى في البيت دفاتر شيكات؟... هل ترى نقوداً؟».

«لا. أبداً. أرى أحياناً بعض الأقراص البلاستيكية التي يستخدمونها في الكازينو».

قال بوريس سريعاً وهو يقذف من فمه قطعة قضمها من ظفر إبهامه فسقطت على الأرض: «إنها تعادل مالاً».

«هذا صحيح. لكنك لا تستطيع صرفها في الكازينو إذا كان عمرك أقل من ثمانية عشر عاماً».

أطلق بوريس ضحكة صغيرة: «ماذا بك؟ يمكننا أن نخترع شيئاً إذا اضطررنا. نجعلك ترتدي سترة المدرسة ذات المظهر الفاخر، ونضع عليها تلك الشارات والشعارات، ونرسلك إلى الكوّة: *من فضلك يا آنستي* ...».

انقلبت على الفراش في اتجاهه وقرصت ذراعه قرصة قوية. قلت له: «اللعنة عليك!»... أزعجتني نبرته البطيئة المتكبّرة عندما قلّد صوتي.

قال بوريس مبتهجاً وهو يدعك ذراعه حيث قرصته: «لا يمكنك أن تكلمهم بتلك الطريقة يا بوتر لأنهم لن يعطوك قرشاً واحداً. كل ما أقوله هو إنني أعرف المكان الذي يحتفظ به أبي بدفتر شيكاته. فإذا كانت هناك حالة طارئة...». فتح كفيه ومدّهما إلى الأمام... «صحيح؟».

«صحيح».

قال بوريس بنبرة فلسفية: «أعني... إذا كان علي أن أحرّر شيكاً من غير رصيد، فسوف أحرره! شيء جيد أن أعرف أنني أستطيع فعل ذلك. لست أقول لك أن تقتحم غرفتهما وتفتش حوائجهما. ومع ذلك، من الأفضل أن تظلّ عيناك مفتوحتين. أليس ما أقوله صحيحاً؟».

18

لم يكن بوريس وأبوه ممن يحتفلون بعيد الشكر. وكان أبي وكساندرا قد حجزا لهما مكاناً في حفلة كبيرة في المطعم الفرنسي في فندق *إم جي إم غراند*. سألني أبي عندما رآني أنظر إلى بروشور الحفلة الذي كان على طاولة المطبخ... كانت عليه صورة قلوب وألعاب نارية وعلم ثلاثي الألوان يرفرف فوق طبق فيه ديك رومي محمص: «هل تحب أن تأتي معنا؟ أم إن لديك شيئاً خاصّاً بك؟».

«لا، شكراً! لدي خططي». كان يحاول ملاطفتي؛ لكن فكرة كوني مع أبي وكساندرا في جلسة رومانتيكية ضايقتني بعض الشيء.

«ما الذي تعتزم فعله؟».

«سأحتفل بعيد الشكر مع أشخاص آخرين».

قال أبي في اندفاعة مفاجئة للاهتمام الأبوي: «مع من؟ صديق؟».

قالت كساندرا التي كانت واقفة حافية القدمين وهي تنظر داخل

البراد... كانت مرتدية قميص دلافين ميامي الذي تنام فيه: «دعني أحزر!... إنه الشخص نفسه الذي يأكل دائماً البرتقالات والتفاحات التي آتي بها إلى البيت».

قال أبي بصوت ناعس وهو يأتي من خلفها ويلفها بذراعيه: «أوه، ماذا بك؟ أنت تحبين ذلك الروسي الصغير... ما اسمه... بوريس».

«بالتأكيد أحبه. هذا أمر حسن في ما أظن لأنه يمضي الكثير من الوقت هنا. اللعنة...». قالت هذا وهي تبتعد عن أبي وتصفع فخذها العاري بكف يدها... «من ترك هذه البعوضة تدخل البيت؟ ثيو... لا أعرف السبب الذي يجعلك عاجزاً عن إبقاء الباب من ناحية بركة السباحة مغلقاً على الدوام. لقد قلت لك هذا!».

قلت بطريقة ودية... أو متملّقة: «الحقيقة... أنتما تعرفان أن من الممكن دائماً أن أكون معكما في ليلة عيد الشكر إذا كنتما راغبَيْن في ذلك... فما المانع؟».

قلت هذا قاصداً إغاظة كساندرا فسرَّتني رؤية أنه أغاظها فعلاً.

قالت وهي تلقي بشعرها إلى الخلف وتنظر إلى أبي: «لكن لدينا حجز لشخصين فقط».

«لا بأس... لا بد أنهم قادرون على تدبر الأمر».

«يجب الاتصال بهم مسبقاً».

قال أبي وهو يربت على ظهرها بقوة زائدة بعض الشيء ثم يسير متثاقلاً صوب غرفة المعيشة حتى يتفقّد نتائج مباريات كرة القدم: «هذا جيد، اتصلي بهم».

وقفنا لحظة، أنا وكساندرا، ينظر كل منا إلى الآخر، ثم أدارت وجهها كما لو أنها تنظر إلى صورة مستقبل كالح غير مقبول أبداً. قالت بصوت ضجر: «أريد قهوة».

«لست أنا من ترك ذلك الباب مفتوحاً».

«لا علم لي بمن يتركه مفتوحاً على الدوام. كل ما أعرفه أن أسرة

أوموبا الغريبة التي باعت بيتها هناك لم تفرغ البركة قبل الرحيل فصرت أرى مليون بعوضة أينما نظرت... أعني... ها هي واحدة أخرى! اللعنة!».

«اسمعي... لا تغضبي. ليس من الضروري أن أذهب معكما».

وضعت من يدها علبة فلاتر القهوة وقالت: «فما الذي تريده إذاً؟ هل أغيّر الحجز، أم لا؟».

«ما الذي تناقشانه هناك؟». جاءنا صوت أبي خافتاً من الغرفة الأخرى، من عشّه المزدحم بالأطباق البلاستيكية الفارغة وعلب السجائر القديمة وأوراق لعبة الباكارا المليئة بالأرقام.

صاحت كساندرا: «لا شيء». وبعد بضع دقائق، عندما بدأت آلة القهوة تهسهس وتفرقع، دعكت عينيها وقالت بصوت جعله النوم أكثر خشونة: «لم أقل أبداً أنني لا أريد ذهابك معنا».

«أعرف هذا. لم أقل أبداً إنك قلت ذلك. وأيضاً، فقط حتى تعرفي، فإنني لست من يترك الباب مفتوحاً. إنه أبي يتركه مفتوحاً عندما يخرج ليتكلّم على الهاتف».

مدت كساندرا يدها إلى خزانة المطبخ لتتناول فنجان القهوة الذي تستخدمه دائماً ونظرت إلي من فوق كتفها وقالت: «لا تقل لي إنك ستتعشى هنا في هذا البيت! مع الروسي الصغير، أو أي شيء!».

«لا. سوف نكون هنا لمشاهدة التلفزيون فقط».

«وهل تحب أن آتي لكما بشيء معي؟».

«يحب بوريس كوكتيل النقانق الذي تجلبينه أحياناً. وأنا أحب أجنحة الدجاج. الأجنحة الحارّة».

«هل تريد شيئاً آخر؟ ما رأيك في لفافات التاكيتو[1] تلك؟ أنت تحبها أيضاً، أليس كذلك؟».

(1) تاكيتو: طبق مكسيكي يتألف عادة من لفافات صغيرة من عجين رقيق تحشى بالجبن ولحم البقر والدجاج، ثم تقلى.

«سيكون هذا رائعاً».

«عظيم. سوف آتي لكما بهذه الأشياء كلّها. لكن، ابقيا بعيداً عن سجائري، هذا كل ما أطلبه منكما. لست أبالي بأن تدخنا...». قالت هذا وهي ترفع يدها حتى تسكتني... «لا أقصد إصدار الأوامر إليكما؛ لكن هنالك من يسرق علب سجائري. إنني أنفق على السجائر خمسة وعشرين دولاراً كل أسبوع».

19

منذ أن أتى بوريس إلى المدرسة بعينه المكدومة، بنيت لأبيه في ذهني صورة رجل سوفييتي غليظ العنق له عينان خنزيريتان وشعر قصير. لكنني فوجئت، عندما رأيته آخر الأمر، بأنه شخص نحيل شاحب كأنه شاعر فتك به الجوع. كان بادياً عليه فقر الدم... صدر غائر، وتدخين من غير توقف. كان يرتدي قمصاناً رخيصة حال لونها لكثرة الغسل، ويشرب من غير توقف أكواباً من شاي حلو. لكنك تدرك عندما تنظر في عينيه أن هشاشته تلك ليست إلا مظهراً خداعاً. كان رجلاً مشدود الأعصاب يشعّ مزاجه السيئ إشعاعاً ـ صغير الهيكل حاد الوجه، مثل بوريس، لكن له نظرة شريرة من عينين محمرّتين، وأسنان كأسنان المنشار ضاربة إلى اللون البني. كان في ذهني أشبه بثعلب مسعور.

على الرغم من أنني لمحته من قبل، أثناء مروري، وعلى الرغم من أنني سمعته (أو سمعت شخصًا افترضت أنه هو) يتحرّك في بيت بوريس خلال الليل، فإنني لم أقابله وجهاً لوجه إلا قبل عيد الشكر بأيام قليلة. ففي أحد الأيام، دخلت البيت مع بوريس، وكنا نضحك ونتحدّث، فوجدناه جاثماً عند طاولة المطبخ وأمامه زجاجة وكأس. بمعزل عن رثاثة ملابسه، كان حذاؤه غالي الثمن، إضافة إلى حليّه الذهبية الكثيرة. توقّفنا عن الكلام فوراً عندما رفع رأسه ونظر إلينا بعينين محمرّتين.

صحيح أنه كان رجلاً قصيراً ضئيل البنية، إلا أن في وجهه ما يجعلك غير راغب في الاقتراب منه كثيراً.

قلت متردداً: «مرحباً».

أجاب: «مرحباً» ـ وجه حجري، لكنه أثقل بكثير مما لدى بوريس. ثم التفت إلى بوريس وقال شيئاً باللغة الأوكرانية، دار بينهما حديث قصير راقبته مهتماً. لفت نظري ذلك التغير الذي اعترى بوريس عندما راح يتكلّم لغة أخرى، نوع من الانتعاش أو التأهب أو إحساس بشخص مختلف أكثر قوة يحتل جسده.

عندها، على غير توقع، مد السيد بافليكوفسكي يديه الاثنتين وقال بصوت غليظ: «شكراً لك». كنت خائفاً من الاقتراب منه (أحسست بأن الاقتراب منه يشبه الاقتراب من حيوان متوحّش)، لكني خطوت إلى الأمام وأمسكت بيديه الاثنتين بحركة خرقاء. أحاطت يديه بيدي... كانتا باردتين، خشنتين.

قال: «أنت شخص جيد». كانت عيناه محتقنتين دماً، وكان وقع نظراتهما شديداً. أردت إبعاد عيني عنهما فجعلني ذلك أخجل من نفسي.

قال لي: «فليكن الرب معك وليباركك دائماً. أنت مثل ابني. أقول هذا لأنك تسمح لابني بالذهاب إلى بيت أسرتك».

أسرتي؟ التفتُّ حائراً ونظرت إلى بوريس.

مضت عينا السيد بافليكوفسكي إليه، سأله: «هل أخبرته بما قلته لك؟».

قال بوريس بصوت ضجر: «قال إنك جزء من أسرتنا هنا. وسأل إذا كان هناك أي شيء يمكنه فعله من أجلك...».

وكم دهشت عندما جذبني السيد بافليكوفسكي إليه وعانقني عناقاً شديداً في حين أغمضت عينيَّ وحاولت تجاهل رائحته: كريم الشعر،

ورائحة جسمه، والكحول، ورائحة كولونيا حادة واخزة كريهة.

قلت بصوت هادئ بعد أن صرنا في غرفة بوريس في الأعلى، وبعد أن أغلقنا الباب من خلفنا: «ما سبب ذلك؟».

نظر بوريس إلي نظرة تبرّم وقال: «صدقني... أنت لا تحب أن تعرف».

«هل يكون أبوك دائماً مشحوناً إلى هذا الحدّ؟ إن كان كذلك، فكيف يمكنه أن يحافظ على عمله؟».

ضحك بوريس وقال: «إنه موظف رفيع المستوى في الشركة، أو شيء من هذا القبيل».

سهرنا في غرفة بوريس القاتمة بفراشها ذي الملاءات الإندونيسيّة إلى أن سمعنا صوت سيارة أبيه تتحرّك مغادرة البيت. أزحت الستارة لأنظر، وعندما تركتها قال بوريس: «لن يعود قبل فترة من الزمن. ليس مرتاحاً لتركي وحدي هذا الوقت كلّه. يعرف أن هناك فترة إجازة قريبة؛ وقد سألني إن كنت أستطيع قضاءها في بيتك؟».

«لا مشكلة... أنت تذهب إلى بيتي طيلة الوقت على أية حال».

أزاح بوريس شعره عن عينيه وقال: «هذا ما يعرفه أبي. ولذلك فقد شكرك. لكني... آمل ألا يزعجك هذا... أعطيته عنواناً خاطئاً لك».

«لماذا؟».

من غير أن أطلب ذلك، أزاح بوريس ساقيه حتى يفسح لي متسعاً للجلوس إلى جانبه: «لأنني... لأنني لا أظنك تريد قدومه إلى بيتكم في منتصف الليل. لا تريده أن يوقظ أباك وكساندرا من نومهما. وأيضاً ـ إذا سألك ـ يجب أن أقول لك إنه يظن أن اسم عائلتك هو بوتر».

«لماذا؟».

قال بوريس بصوت هادئ: «هكذا أفضل... صدقني».

20

كنا مستلقيين على الأرض أمام التلفزيون في بيتنا نأكل رقائق البطاطا ونشرب الفودكا ونتابع مسيرة ماسي الاستعراضية بمناسبة عيد الشكر[1]. كان الثلج يهطل في نيويورك. مر أمامنا على الشاشة عدد من البالونات الضخمة الطائرة في سماء المدينة ـ سنوبي، ورونالد ماكدونالد، وسبونج بوب، ومستر بي نَت ـ وكانت مجموعة من راقصات هاواي في تنورات من الأعشاب تؤدي عرضاً راقصاً في هيرالد سكوير.

قال بوريس: «يسرّني أنني لا أرقص معهن. لا بد أن مؤخراتهن تتجمد الآن في هذا البرد».

أجبته: «صحيح»، لكني لم أكن أنظر إلى البالونات أو الراقصات أو أي شيء من ذلك. جعلتني رؤية هيرالد سكوير على التلفزيون أحس كما لو أنني بعيد عن الأرض ملايين السنين الضوئية... كما لو أنني ألتقط إشارات من أوائل أيام الراديو وأسمع صوت المذيعين وتصفيق الجمهور آتيَيْن من حضارة قد اختفت.

«حمقاوات. لا أصدق أنهن ارتدين هذه الملابس! سينتهي بهن الأمر إلى المستشفى... تلك الفتيات». بقدر ما كان بوريس يتذمّر بعنف من الحر في لاس فيغاس، كانت لديه أيضاً قناعة لا تتزعزع بأن أي شيء «بارد» كفيل بأن يجعل الناس مرضى: برك السباحة غير المدفأة، وتكييف الهواء في بيتنا، بل حتى وضع مكعبات الثلج الصغيرة في كأس الشراب.

انقلب على ظهره وناولني زجاجة الفودكا: «هل كنت تذهب إلى هذه المسيرة مع أمك؟».

«لا».

(1) أكبر مسيرة استعراضية تقام بمناسبة عيد الشكر تقام في الولايات المتحدة. تنظمها سلسلة متاجر ماسي.

قال بوريس وهو يطعم بوبر رقاقة بطاطس: «لم لا؟».

أجبته: «نيكولتورني[1]...». كانت هذه كلمة تعلّمتها منه... «ثم إن هنالك الكثير جداً من السائحين».

أشعل بوريس سيجارة وقدّمها لي: «هل أنت حزين؟».

قلت: «حزين قليلاً». ثم ملت صوبه حتى أشعل سيجارتي من عود الثقاب الذي في يده. ما كنت قادراً على منع نفسي من التفكير في عيد الشكر في السنوات الماضية: ظلت تلك الصور تتكرّر وتتكرّر كأنها فيلم لا أستطيع إيقافه... أمي تتجوّل في الشقة حافية القدمين مرتدية بنطلون جينز عتيقاً ممزقاً عند الركبتين، وتفتح زجاجة نبيذ، وتسكب لي شراباً غير كحولي في كأس شامبانيا، وتضع على الطاولة طبقاً صغيراً من الزيتون، وتشغّل الاستيريو، وترتدي مريلة العطلة المضحكة، وتفتح كيساً فيه صدر ديك رومي اشترته من متجر، لكن أنفها يتجعد بحركة مشمئزّة بفعل تلك الرائحة: «أوه، يا إلهي... يا ثيو، إنه فاسد. افتح لي الباب؛ رائحة نشادر نفاذة تحرق العينين...». تحمل ذلك الكيس أمامها وهي مادة ذراعيها كأنه قنبلة لم تنفجر وتجري به نازلة سلم الحريق حتى تصل إلى حاوية القمامة في الشارع؛ أما أنا فأطل عليها من النافذة وأطلق مبتهجاً من الأعلى أصواتاً تحاكي صوت التقيؤ. تناولنا بعد ذلك وجبة متقشّفة من فاصوليا خضراء معلبة وتوت بري معلب وأرز بني فيه حبات لوز محمّصة. أطلقت أمي على هذه الوجبة اسم «وجبتنا الاشتراكية النباتية في عيد الشكر». أهملنا تخطيط الاحتفال بالعيد في تلك السنة نتيجة انشغالها بمشروع في العمل تأخّر عن موعده. تعبنا من كثرة الضحك: لسبب ما، جعلَنا لحم الديك الرومي الفاسد في مزاج مبتهج! وعدتني بأن نستأجر في السنة التالية سيارة نذهب بها لزيارة صديقها جِيد في فيرمونت، أو بأن نحجز طاولة في مطعم رائع... *غرامرسي*

---

(1) نيكولتورني: كلمة روسية بمعنى غير ثقافي أو غير حضاري.

تافِرن، على سبيل المثال. لكن ذلك المستقبل لم يتحقّق، فاحتفلتُ بعيد الشكر مع الكحول ورقائق البطاطا أمام التلفزيون في صحبة بوريس.

سألني وهو يحك بطنه: «ماذا سنأكل يا بوتر؟».

«ماذا؟ هل أنت جائع؟».

راح يفتل يده يميناً وشمالاً: «كوم سي، كوم سا[1]. وأنت؟».

أجبته: «ليس تماماً». كان سقف حلقي يؤلمني بعد تناول تلك الكمية كلها من رقائق البطاطس؛ كما بدأت السجائر تجعلني أشعر بشيء من الغثيان.

انفجر بوريس ضاحكاً على نحو مفاجئ. انتصب جالساً وقال وهو يركلني بقدمه ويشير إلى التلفزيون: «اسمع!... هل سمعت هذا؟».

«ماذا؟».

«إنه المذيع. لقد تمنّى قبل لحظة عيداً سعيداً لطفليه: باستارد[2] وكيزي!».

قلت: «أوه، ماذا تقول؟».

كثيراً ما كان بوريس يخطئ سماع كلمات إنكليزية من هذا القبيل. وكان هذا أمراً مسلياً في بعض الأحيان، لكنه مزعج في أكثرها.

«باستارد وكيزي! هذه قوية، أليس كذلك؟ كيزي... لا بأس؛ وأما أن يدعو ابنه باستارد على التلفزيون يوم العيد...!!!».

«ليس هذا ما قاله».

«عظيم... أنت، يا من يعرف كل شيء... ماذا قال؟».

«وكيف أعرف ما قاله؟».

«فلماذا تجادلني إذاً؟ لماذا تظنّ دائماً أنك تعرف أكثر مني؟ ما مشكلة هذه البلاد؟ كيف حدث أن صارت بلادٌ على هذا القدر من

---

(1) كوم سي كوم سا: وردت بالفرنسية بمعنى «بين بين».

(2) باستارد: ابن حرام (بالإنكليزية).

الغباء ثريةً مغرورة إلى هذا الحد؟ الأميركيون... نجوم السينما... نجوم التلفزيون... يطلقون على أطفالهم أسماء من قبيل تفاحة وبطانية وأزرق وابن حرام، تلك الأسماء الغبية كلها!».

«ما الذي تريد قوله بهذا؟».

«ما أريد قوله هو أن الديمقراطية حجة لفعل أي شيء غبي أو سيئ. العنف... الجشع... الحماقة... لا بأس بأي شيء إن فعله الأميركيون. أليس هذا صحيحاً؟ ألست محقّاً؟».

«هل يصعب عليك كثيراً أن تطبق فمك؟».

«أعرف ما سمعته، ها! ابن حرام! أأقول لك ماذا؟ إن كنت أظن أن طفلي ابن حرام فمن المؤكد تماماً أنني سأطلق عليه اسماً آخر».

كانت لدينا في البراد أجنحة دجاج وتاكيتو وكوكتيل النقانق، أي تلك الأشياء التي أتت بها كساندرا إلى البيت، إضافة إلى كرات الزلابية باللحم من المطعم الصيني في مول منطقة ستريب حيث كان أبي يحب أن يأكل. لكن زجاجة الفودكا (مساهمة بوريس في عيد الشكر) كانت قد فرغت حتى منتصفها فجعلتنا نقترب كثيراً من مرحلة الغثيان عندما حان وقت الأكل. كان يظهر عند بوريس طبع جاد، بعض الأحيان، عندما يشرب، فيسيطر عليه ذلك الميل الروسي إلى مناقشة المواضيع الثقيلة والأسئلة التي لا إجابات عليها. كان في تلك اللحظة جالساً إلى طاولة المطبخ الرخامية يؤرجح في يده شوكة لا تزال عليها قطعة نقانق ويتحدث حديثاً محموماً بعض الشيء عن الفقر والرأسمالية وعن التغير المناخي وعن حالة الناس السيئة.

قلت له في لحظة تشوش: «اخرس يا بوريس. لا أريد سماع هذا». كان قد صعد إلى غرفتي وأتى بكتاب والدون وراح يقرأ بصوت مرتفع مقطعاً طويلاً يؤيد وجهة النظر التي كان يحاول إثباتها. أصابني الكتاب المقذوف في خدي... قال لي: «انقلع! اخرج من هنا!».

«إنه بيتي أيها الغبي الجاهل».

طارت قطعة النقانق ـ كانت الشوكة لا تزال مغروسة فيها ـ من فوق رأسي فأخطأتني بمسافة بسيطة. لكننا كنا نضحك. صرنا ثملين تماماً، منذ العصر: نتدحرج على السجادة، ويركل كل منا الآخر، ونشتم، ونزحف على أيدينا وركبنا. كان التلفزيون يعرض مباراة كرة قدم، وعلى الرغم من أنها كانت مزعجة لكلينا، فقد كان العثور على جهاز التحكم مشقة لا قِبل لنا بها. اختلط الأمر على بوريس إلى حد جعله يستمر في محاولة الكلام معي باللغة الروسية.

قلت له وأنا أحاول الإمساك بالدرابزين لكي أظل واقفاً وأحاول في الوقت نفسه تفادي ضربة منه فسقطتُّ فوق طاولة القهوة.

«تيمينيا دوستال!! بوشل تي!»[1].

أجبته بصوت بنّاتي شاكٍ وأنا منكبٌ على وجهي فوق السجادة: «واك واك واك... بالالايكا باتيكيك».

قال بوريس وهو يسقط على الأرض إلى جانبي ويرفس بساقيه في اتجاه التلفزيون بحركة سخيفة: «أيها الأحمق الملعون. لا أحب مشاهدة هذا».

قلت وأنا أنقلب على ظهري وأمسك ببطني: «نعم، اللعنة عليك... وأنا أيضاً لا أريد مشاهدة هذا». لم تكن عينايَ تبصران الأشياء على نحو صحيح لأنني صرت أرى من حولها هالات تجعلها أكبر من حجمها الطبيعي.

قال بوريس وهو يسير على ركبتيه عابراً غرفة المعيشة: «فلننظر إلى الطقس. ألا تريد معرفة أحوال الطقس في غينيا الجديدة؟ عليك أن تعثر على ذلك لأنني لا أعرف في أي قناة يكون».

قال بوريس وهو يهبط على أربعته: «دبي!» ثم اندفعت من فمه عبارات روسية التقطت منها كلمة أو كلمتين بذيئتين.

---

(1) بالروسية بمعنى أنت محق!! انقلع!

«أنغليسكي. تحدّث بالإنكليزية».

قال: «الثلج يهطل هناك! يقول الرجل إنها تثلج... رجل مجنون... تي فيديش[1]؟!».

«ثلج في دبي!... هذه معجزة يا بوتر».

«هذه دبلن يا حمار، ليست دبي».

«فالي أوتسودا[2]. انقلع من هنا!».

لا بد أنني فقدت الوعي في تلك اللحظة (أمر عادي تماماً كلما أتى بوريس بزجاجة فودكا) لأنني صحوت بعد ذلك فكان ضوء النهار مختلفاً تماماً، وكنت راكعاً عند الباب الزجاجي المنزلق وقد تشكّلت إلى جانبي على السجادة بقعة قيء، وكنت أضغط بجبهتي على الزجاج. رأيت بوريس غارقاً في نوم عميق. كان منكباً على وجهه وقد راح يشخر سعيداً وتدلت إحدى يديه من الأريكة. كان الكلب نائماً أيضاً. كانت ساقه مرتاحة فوق رأس بوريس. شعرت بالقرف. كانت فراشة ميتة تطفو على سطح بركة السباحة. هدير آلي مسموع. وجنادب وخنافس غارقة تدور في حوض فلتر الماء البلاستيكي. وفي الأعلى، كان ضياء الشمس الغاربة مبهرجاً غير إنساني، ورفوف من سَحاب بلون الدم كأنها خبر تلفزيوني عن لحظة القيامة... كارثة وخراب: انفجارات على جزر المحيط الهادي، وحيوانات برّية تجري هاربة أمام جدار من لهب.

لو لم يكن بوريس هناك، لبكيت. لكني ذهبت إلى الحمام وتقيأت من جديد، ثم شربت ماء من الصنبور وعدت ببضعة مناديل ورقية لأنظف تلك البقعة على الرغم من ألم رأسي الشديد الذي جعلني شبه عاجز عن الرؤية. كان القيء ذو لون برتقالي فظيع بسبب أجنحة الدجاج المشوية. كانت إزالته صعبة أيضاً فقد ترك بقعة على السجادة. بدأت أدعك تلك

(1) بالروسية: هل ترى؟

(2) بالروسية: [الثلج] يهطل هناك!

البقعة بسائل تنظيف الأطباق، ورحت أحاول بكل ما استطعت من قوة أن أثبّت في ذهني أفكاراً مريحة عن نيويورك... شقة أسرة باربر بما فيها من بورسلين صيني، وبوّابوها الودودون، وأيضاً هدوء خارج الزمان في بيت هوبي: كتب قديمة وساعات تكتكاتها مسموعة، وقطع أثاث قديم وستائر مخملية ورواسب الماضي في كل مكان، وغرف هادئة فيها أشياء مريحة لها معنى. عندما تغلبني غرابة المكان الذي كنت فيه، كثيراً ما كنت أهدّئ نفسي لكي أنام ليلاً من خلال التفكير في الورشة وروائح الشمع القوية ورقاقات خشب الورد، وكذلك السلم الضيّق الصاعد إلى الردهة حيث تشع حزم مغبرة من ضوء الشمس وتسقط على سجادات شرقية.

سوف أتصل؛ لم لا ؟... هكذا قلت في نفسي. كنت لا أزال ثملاً إلى الحد الذي يجعلني أظنها فكرة حسنة. لكن الهاتف رن ورن كثيراً. أخيراً ـ بعد محاولتين أو ثلاث محاولات أعقبها نصف ساعة من التحديق الفارغ في التلفزيون وأنا أتعرّق ويداهمني الغثيان وتؤلمني معدتي، وعيناي متعلقتان بقناة الطقس وبالطرق التي أغلقها الثلج، والجبهات الهوائية الباردة التي تكتسح ولاية مونتانا ـ قررت أن أتصل بآندي. لكني قررت أيضاً أن أذهب إلى المطبخ حتى لا أوقظ بوريس. كانت كيتزي مَنْ رفع سماعة الهاتف.

قالت مسرعة عندما عرفتني: «لا نستطيع الكلام الآن. لقد تأخرنا. إننا ذاهبون للعشاء في الخارج».

فوجئت فسألتها: «أين؟». كان الألم في رأسي لا يزال شديداً فلا أكاد أستطيع الوقوف.

«سنذهب إلى أسرة فان نيس في الشارع الخامس. أصدقاء أمي».

وفي الخلفية، سمعت بكاء تودي الصغير غير واضح، وسمعت بلات يصيح به مزمجراً: «ابتعد عني».

وقلت وأنا محدِّقٌ في أرض المطبخ بنظرة ثابتة: «ألا أستطيع إلقاء التحية على آندي».

«لا، في الحقيقة إننا... ماما، أنا قادمة!...». سمعتها تقول هذا صياحاً، ثم عادت تكلّمني... «عيد شكر سعيد».

قلت لها: «لك أيضاً. سلمي على الجميع»؛ لكنها كانت قد أغلقت الهاتف.

21

كانت خشيتي تجاه والد بوريس قد تراجعت بعض الشيء منذ أن أمسك بيدي وشكرني على اهتمامي ببوريس. وعلى الرغم من مظهر السيد بافليكوفسكي («السيد!»... كان بوريس يرى هذا اللقب مضحكاً)، المخيف بحق، فقد صرت أقول لنفسي إنه ليس شخصاً فظيعاً بالقدر الذي يبدو عليه. وخلال الأسبوع الذي أعقب عيد الشكر، عدنا من المدرسة مرتين فوجدناه جالساً في المطبخ، فلم يقل لنا شيئاً أكثر من الغمغمة بالتحيات العادية وهو جالس إلى الطاولة يبتلع أقداحاً من الفودكا، ويمسح جبهته المتعرّقة بمنديل ورقي وقد صار شعره المائل إلى الشقرة داكناً بعض الشيء بسبب كريم للشعر وضعه عليه. كان يستمع إلى أخبار روسية بصوت مرتفع من الراديو العتيق. لكننا كنا في الأسفل ذات ليلة مع بوبر (جئت به من البيت) نتابع فيلماً قديماً لبيتر لور اسمه *«الوحش ذو الأصابع الخمس»* عندما سمعنا باب البيت يُصفق بقوة.

ضرب بوريس جبهته بكف يده... «اللعنة»؛ وقبل أن أدرك ما يجري، كان قد حمل بوبر ووضعه بين ذراعي ثم أمسكني من ياقة قميصي وجعلني أقف ودفعني في ظهري.

«ماذا؟».

أشار لي بيده حتى أخرج وقال هامساً: «الكلب! سوف يقتله أبي. أسرع».

اجتزت المطبخ راكضاً، ثم خرجت من الباب الخلفي بأقصى ما استطعته من هدوء. كانت الظلمة شديدة في الخارج. ولأول مرة في حياته، ظل بوبر صامتاً فلم يصدر أي صوت. وضعته أرضاً لأنني كنت أعرف أنه لن يبتعد عني، ثم درت حول البيت حتى وصلت إلى نوافذ غرفة المعيشة التي كانت من غير ستائر.

رأيت والد بوريس يسير مستنداً إلى عكاز... شيء لم أره من قبل. كان يعرج ويسير معتمداً كثيراً على عكازه، فبدا لي مثل شخصية تتحرك على خشبة مسرح. رأيت بوريس واقفاً طاوياً ذراعيه على صدره الضامر كأنه يحتضن نفسه.

كان أبوه يقول شيئاً... أو، بالأحرى، كان أبوه يكلمه غاضباً. رأيت بوريس ينظر إلى الأرض. تدلى شعره فوق رأسه فلم أر منه شيئاً غير أرنبة أنفه.

وفجأة، رفع بوريس رأسه وقال شيئاً بنبرة حادة، ثم استدار لكي يخرج. عندها، انطلق أبوه انطلاقة مفاجئة كأنه أفعى ـ كان ذلك سريعاً فلم أكد أستوعب ما جرى ـ سار معتمداً على عكازه، ثم ضرب بوريس على أعلى ظهره فأسقطه أرضاً. وقبل أن يتمكن من بوريس من الوقوف ـ كان لا يزال على يديه وركبتيه ـ ركله السيد بافليكوفسكي فأوقعه من جديد. ثم أمسكه بقميصه من الخلف وجذبه حتى نهض متعثّراً ووقف على قدميه. راح يصرخ ويزعق باللغة الروسية وصفعه بيده المحمرة ذات الخواتم: صفعه بباطن يده وبظاهرها. وبعد ذلك، دفعه فمضى إلى وسط الغرفة مترنّحاً، ثم أمسك بالعكاز من أسفله وضرب بوريس على وجهه بمقبضه الذي كان على شكل خطاف.

أصبت بصدمة فتراجعت مبتعداً عن النافذة. كنت مشوشاً مضطرباً فتعثرت وسقطت فوق كيس القمامة. وأما بوبر الذي أفزعته الضجة

فقد راح يجري جيئة وذهاباً وينبح بصوت شاكٍ مرتفع. وقبل أن أفلح في النهوض من بين العلب الفارغة والزجاجات المحطمة وقد أصابني الذعر، انفتح الباب وامتد مستطيل من ضوء أصفر على الأرضية الإسمنتية في الخارج. وقفت على قدمي بأسرع ما استطعت وحملت بوبر، ثم جريت مبتعداً. لكن ذلك لم يكن إلا بوريس. لحق بي وأمسكني من ذراعي فشدني صوب الشارع. تأخرت عنه قليلاً لأنني حاولت النظر إلى الخلف. قلت: «يا إلهي! ما هذا الذي حدث؟».

ومن خلفنا، انفتح باب بيت بوريس من جديد. رأيت شبح السيد بافليكوفسكي واقفاً في الضوء المنبعث من الباب مستنداً إلى العكاز بإحدى يديه وملوحاً باليد الأخرى وهو يطلق شتائم باللغة الروسية.

شدّني بوريس معه: «هيا بنا». فتابعنا الجري في الشارع المظلم. راحت أحذيتنا تصفع الأسفلت صفعاً سريعاً إلى أن تلاشى صوت أبيه في البعيد.

قلت وأنا أخفف سرعتي وأتحوّل إلى خطوات مشي عادية عندما انعطفنا من حول الزاوية: «اللعنة، ما الذي حدث؟».

كان قلبي يقفز من صدري، وأحسست كما لو أن دواراً يعصف برأسي. كان بوبر ينوح بين ذراعي ويحاول النزول. تركته فراح يجري على الأسفلت في دوائر من حولنا.

قال بوريس بصوت فيه ابتهاج غريب: «آه، لا شيء». مسح أنفه مطلقاً صوت نشقة مبللة: «إنها عاصفة في كأس ما، كما يقولون بالبولندية. لقد كان منزعجاً فحسب».

انحنيت مستنداً بيديَّ على ركبتيَّ حتى ألتقط أنفاسي: «هل يعني هذا أنه غاضب أم سكران؟».

«الاثنان معاً. من حسن حظنا أنه لم يرَ بوبتشيك، على الرغم من أن...

أو... لا أدري. يرى أبي أن الحيوانات يجب أن تبقى خارج البيت...».
ثم قال وهو يريني زجاجة فودكا... «انظر ما الذي أتيت به. اختطفتها في طريق خروجي من البيت».

شممت رائحة الدم عليه قبل أن أراه. كان القمر هلالاً، لكن نوره كان كافياً لأن أرى. عندما وقفت ونظرت إليه عن قرب، أدركت أن أنفه ينزف دماً وأن قميصه كان غارقاً بالدم أيضاً.

قلت وأنا مستمر في اللهاث: «يا ربي... هل أنت بخير؟».

قال بوريس: «فلنذهب إلى منطقة الألعاب ونلتقط أنفاسنا هناك». رأيت أن وجهه كان مشوَّهاً: عينان متورمتان، وجرح بشع بشكل مقبض العكاز على جبهته. كان ذلك الجرح أيضاً ينزف دماً.

«بوريس! يجب أن نذهب إلى البيت».

«إلى البيت؟».

«إلى بيتي. لا يهم. تبدو في حالة سيئة».

ابتسم بوريس ابتسامة كبيرة فظهرت أسنانه المدماة بدورها. لكزني بمرفقه بين أضلاعي: «لا. أنا في حاجة إلى الشراب قبل أن أواجه كساندرا. هيا يا بوتر، ألا تريد أن تشرب شيئاً بعد كل ما جرى؟».

22

كانت الألعاب متألقة بلون فضي تحت ضوء القمر في المركز الاجتماعي المهجور. جلسنا على حافة البركة الفارغة ودلّينا سيقاننا في الحوض الجاف. راحت الزجاجة تنتقل بيننا جيئة وذهاباً إلى أن فقدنا إحساسنا بالزمن.

قلت له وأنا أمسح فمي بظهر يدي: «كان ذلك أكثر ما رأيته غرابة في حياتي كلها». كانت النجوم تدور وتهتز قليلاً في سمائها.

كان بوريس مائلاً إلى الخلف مستنداً بكفيه إلى حافة البركة. وجهه مرفوع في اتجاه السماء. كان يغني لنفسه باللغة البولونية.

سريعاً ينام الأطفال كلهم.

ينام الأطفال كلهم، حتى السيئون منهم.

الأطفال ناموا كلهم، إلا أنت.

آ ـ آ ـ آ ـ آ

قلت له: «أبوك مخيف حقاً».

قال بوريس بصوت مبتهج وهو يمسح فمه بكتف قميصه الملطخ بالدم: «صحيح. لقد قتل أشخاصاً. ضرب رجلاً فقتله في المنجم ذات مرة».

«كلام فارغ».

«بل إنه صحيح. حدث ذلك في غينيا الجديدة. حاول أن يجعل الأمر كأن حجارة سائبة قد سقطت فقتلت الرجل. لكننا اضطررنا إلى ترك المنطقة بعد ذلك مباشرة».

فكرت في هذا. قلت له: «ليس أبوك، ممم... قوياً جدّاً. أعني أنني لا أستطيع في حقيقة الأمر أن أرى...».

«لا... ليس بقبضتي يديه. ضربه بـ... ماذا تسمون ذلك الشيء...» قام بحركة كأنه يهوي بشيء على سطح ما... «مفتاح تركيب الأنابيب».

بقيت صامتاً. كان في حركة بوريس ما أكسب قصة ذلك المفتاح الحديدي الثقيل رنةً موحية بأنها حقيقية.

كان يحاول إشعال سيجارة. أطلق نفثة دخان، ثم سألني: «ألا تريد واحدة؟»، وناولني السيجارة قبل أن يشعل واحدة أخرى لنفسه. دعك حنكه بقبضة يده، وراح يحركه إلى الأمام والخلف... «آخ!».

«هل يؤلمك؟».

ضحك ضحكة ناعسة ثم لكمني على كتفي: «ماذا تظن أيها الأحمق؟».

صرنا نضحك ضحكاً عجيباً بعد وقت غير قليل من ذلك؛ ورحنا نحبو على الحصباء. أحسست بأن ذهني بارد، محلّق، صافٍ على الرغم من سُكْري! وفي لحظة ما، وجدنا نفسينا سائرين في اتجاه البيت في ظلمة شبه تامّة (امتلأت ملابسنا غباراً بعد ذلك التدحرج على الأرض)؛ وكانت من حولنا صفوف من بيوت مهجورة وسماء الصحراء الهائلة... نجوم كأنها تفرقع عالياً فوق بوبتشيك المهرول خلفنا ونحن سائران جنباً إلى جنب غارقان في ضحك شديد نتمايل يميناً ويساراً على قارعة الطريق.

كان يغني بأعلى صوته تلك الأغنية نفسها التي غناها من قبل:

سريعاً ينام الأطفال كلّهم.

ينام الأطفال كلّهم، حتى السيئون منهم.

الأطفال ناموا كلهم، إلا أنت.

آ ـ آ ـ آ ـ

ركلته وقلت له: «بالإنكليزية!».

«لا بأس، سوف أعلّمك إياها. *آ ـ آ ـ آ ـ آ*...».

«قل لي معنى كلماتها».

«نعم، سأقول لك: في يوم من الأيام، كانت هنالك قطتان صغيرتان».

قالها بصوت غنائي.

كانتا بنيتين رماديتين.

آآآ، آآآ

«قطتان صغيرتان؟».

حاول أن يضربني فكاد يقع: «اسكت! لم أصل إلى الجزء الأفضل في هذه الأغنية». مسح فمه بيده وألقى برأسه إلى الخلف وغنّى:

أوه، نم يا حبيبي، وسوف أعطيك نجمة من السماء،

سريعاً ينام الأطفال كلهم.

ينام الأطفال كلهم، حتى السيئون منهم.

الأطفال ناموا كلّهم، إلا أنت.
آآآ، آآآ
كانت هنالك قطتان صغيرتان.
كان موقف السيارة خالياً عندما وصلنا إلى بيتي (كنا نطلق أصواتاً شديدة الارتفاع، ويطالب كل منا الآخر بالهدوء): لا أحد في البيت.
قال بوريس بحرارة وهو يخرّ على الأرض الإسمنتية ويسجد شاكراً للرب: «الحمد لله».
أمسكت به من ياقة قميصه: «انهض!».
صرنا في الداخل، تحت ضوء المصابيح، فرأيت وجهه في حالة فظيعة: دم في كل مكان، وإحدى عينيه متورمة لم يبق ظاهراً منها إلا شق صغير لامع. تركته يسقط على سجادة غرفة المعيشة وقلت له: «انتظر». سرت مترنحاً إلى الحمام حتى أجلب شيئاً من أجل جرحه. لكني لم أجد شيئاً إلا الشامبو وزجاجة عطر خضراء أتت بها كساندرا عندما كانوا يوزعونها مجاناً في متجر «واين». تذكّر عقلي المخمور شيئاً كانت أمي تقوله من أن العطر معقم. وهكذا أخذت الزجاجة وعدت إلى غرفة المعيشة حيث وجدت بوريس منبطحاً على السجادة وقد راح بوبر يتشمّم قميصه المدمّى قلقاً مستثاراً.
دفعت الكلب جانباً ومسحت الدم عن جبهته بخرقة مبللة. قلت له: «انتظر. ابقَ ساكناً».
تلوّى بوريس محاولاً الابتعاد عني وقال مزمجراً: «اللعنة، ماذا تفعل؟».
قلت له: «اخرس». وأمسكت بشعره حتى لا يسقط على عينيه.
دمدم شيئاً بالروسية. حاولت أن أكون حذراً، لكني كنت ثملاً مثله. وعندما رششت العطر على الجرح، زعق بوريس ولطمني على فمي.
تلمست شفتي فرأيت دماً على أصابعي: «ماذا دهاك؟ انظر ما فعلته بي».

قال وهو يسعل ويضرب الهواء: «أحمق! إنه لاسع. ماذا وضعت على الجرح أيها القذر؟».

بدأت أضحك. لم أستطع منع نفسي.

زمجر قائلاً: «ابن حرام!». ثم دفعني بقوة جعلتني أسقط على الأرض. لكنه كان يضحك أيضاً. مد لي يده حتى يساعدني بالوقوف، لكني ركلتها.

«ابتعد عني!...». كنت أضحك بشدة جعلتني غير قادر على نطق الكلمات بشكل صحيح.

«صارت رائحتك مثل كساندرا».

«يا إلهي، إنني أختنق. عليَّ أن أزيل هذا الشيء عني».

سرنا إلى الخارج مترنحَيْن، ورحنا نخلع ملابسنا ويقفز كل منا على ساق واحدة حتى يتخلص من بنطلونه، ثم قفزنا في بركة السباحة: أدركت متأخراً في اللحظة التي سبقت لمسي الماء أن تلك كانت فكرة سيئة: نحن في غاية السكر، منهاران إلى حد يجعل حتى المشي صعباً علينا. صفعني الماء البارد صفعة شديدة جعلتني غير قادر على التنفس.

صعدت إلى السطح: عيناي تحرقانني، والكلور يلسع باطن أنفي. قذفني برشة ماء في عيني فبصقت في اتجاهه نافورة ماء. كان شبحاً مغبشاً أبيض في الظلام... خدان غائران، وشعر أسود منسدل على جانبي رأسه. رحنا نضحك ونتدافع ويجذب كل منا الآخر إلى الأسفل، على الرغم من أن أسناني كانت تصطك برداً، ومن كوني أحسست إحساساً تاماً بأنني ثمل متعب إلى حد لا يسمح لي بهذا اللعب العنيف في ماء عمقه ثماني أقدام.

غطس بوريس. أمسكني من كاحلي وشدني إلى الأسفل فوجدت نفسي محدقاً في جدار قاتم من الفقاعات.

تلوّيت، وقاومت. من جديد، شيء يشبه ما كان في المتحف... وجدت نفسي محصوراً في حيّز مظلم... لا طريق إلى الأعلى، ولا طريق إلى الخارج. عدت أتلوّى وأحاول دفعه عني، وطفت أنفاسي المذعورة

أمام عيني: أجراس تحت الماء، وظلام. وفي اللحظة الأخيرة، عندما كنت موشكاً على الانهيار وترك الماء يدخل رئتي، تمكّنت من الإفلات وصعدت إلى السطح.

تعلّقت بحافة البركة لاهثاً، مختنقاً، أحاول التقاط أنفاسي. وعندما صفت عيناي، رأيت بوريس مندفعاً صوب السلم. كان يسعل ويشتم. اندفعت صوبه وقد أعماني الغضب، اندفاعة نصفها وثب ونصفها سباحة، ثم شبكت قدمي بكاحله فانزلقت قدمه عن درجة السلم وسقط في الماء على وجهه.

غمغمت عندما طفا إلى السطح: «حقير». كان يحاول أن يقول شيئاً، لكني قذفت وجهه برشقة ماء، ثم برشقة ماء أخرى، ثم تغلغلت أصابعي بشعره ودفعت برأسه إلى الماء: «أيها القذر البائس». وعندما نهض من جديد، لاهثاً والماء يجري على وجهه صحت به: «أيها القذر البائس. لا تفعل ذلك معي مرة أخرى». وضعت يدي على كتفيه وكنت موشكاً على دفعه إلى الأسفل والغوص فوقه (أردت أن أدفع به إلى الأسفل وأن أبقيه هناك زمناً طويلاً)، أفلح في مد يده والإمساك بذراعي فرأيته مبيضاً مرتجفاً.

قال لاهثاً: «توقف»، فأدركت كم كانت عيناه زائغتين، غريبتين.

قلت له: «ماذا؟ هل أنت بخير؟». لكن سعاله الشديد لم يسمح له بالإجابة على سؤالي. كان أنفه ينزف من جديد والدم يتدفق داكناً من بين أصابعه. ساعدته في الخروج، ثم سقطنا معاً عند أعلى سلم البركة ـ نصفنا في الماء ونصفنا خارج الماء... لكن كنا مستنفذين إلى حد لم يتركنا نتابع طريق الخروج من البركة.

23

أيقظتنا شمس ساطعة. كنا في فراشي: شعرنا رطب، نصف عاريين، مرتجفين في برودة الهواء المكيّف. رأيت بوبر يشخر بيننا.

كانت ملاءات السرير رطبة تفوح برائحة الكلور. صداع عنيف في رأسي، وفي فمي رائحة معدنية بشعة كما لو أنني كنت أمتص نقوداً معدنية.

بقيت راقداً، ساكناً تماماً لإحساسي بأنني قد أتقيأ إذا حركت رأسي ولو قليلاً. ثم استويت جالساً بحذر شديد.

قلت وأنا أدعك جانب خدي براحة يدي: «بوريس؟ هل أنت مستيقظ؟». كانت على غلاف الوسادة بقع بنية من دم جاف.

سمعت أنينه: «أوه، يا إلهي...». كان شديد الشحوب دبقاً لشدة التعرق. انقلب على بطنه وأمسك بالفراش. كان عارياً إلا من أساوره الجلدية وما بدا لي واحداً من سراويلي الداخلية... «سوف أتقيأ».

ركلته: «ليس هنا، انهض!»

قام مترنحاً وهو يتمتم بشيء ما. سمعته يتقيأ في الحمام. أصابني ذلك الصوت بالقرف، لكنه بعث فيّ شيئاً من الهستيريا. رحت أتقلّب وأضحك دافناً رأسي في وسادتي. عندما خرج من الحمام ممسكاً برأسه سائراً بخطوات مترنحة، صدمني منظر عينه المتورمة والدم المتجمد عند منخريه والجرح المتقشر في جبهته.

قلت له: «يا ربي... تبدو في حالة سيئة. تلزمك غرزات لهذا الجرح».

قال بوريس وهو يلقي بنفسه على الفراش منبطحاً على بطنه: «أتعرف ماذا؟».

«ماذا؟».

«تأخّرنا على المدرسة اللعينة».

انقلبنا على ظهرينا وانفجرنا ضاحكين. ظننت أنني لن أستطيع التوقف عن الضحك على الرغم من شدة ضعفي وغثياني.

انقلب بوريس حتى حافة السرير وراح يبحث بيده عن شيء على الأرض. رفع رأسه بعد لحظة: «آه! ما هذا؟».

جلست ومددت يدي إلى ذلك الشيء الذي ظننته كأس ماء، فكدت أتقيأ بسبب رائحته عندما وضع بوريس الكأس تحت أنفي.

صاح بوريس وصار فوقي بسرعة البرق، عظامه الحادة وجسمه الدبق الفائح برائحة العرق والتقيؤ وشيء آخر، رائحة قبيحة وسخة كأنها صادرة عن بركة ماء راكدة متعفنة. قرص خدي قرصة حادة وأمال كأس الفودكا فوق وجهي. قل لي: «حان وقت الدواء، الآن، الآن!»؛ لكني ضربت الكأس فطارت من يده ثم سددت إلى فمه لكمة سريعة لم تكد تصبه. كان بوبر ينبح متحمساً. ثبتني بوريس وأمسك بقميصي القذر الذي خلعته في الليلة السابقة وحاول حشره في فمي، لكني كنت أسرع منه فرميته عن السرير. اصطدم رأسه بالجدار. قال وهو يضحك ويمسح وجهه براحة يده: «آخ، اللعنة عليك».

نهضت واقفاً بحركة غير واثقة وقد بللني عرق بارد، ثم توجهت إلى الحمام حيث تقيأت ـ اندفاعتان قويتان وأنا مستند إلى الجدار ـ ثم أفرغت أمعائي في المرحاض. كنت أسمع ضحكاته آتية من الغرفة.

سمعته يناديني قائلاً: «سوف تسد المرحاض...». ثم أضاف شيئاً لم أتبينه لأن رعدة غثيان جديدة اعترتني.

بصقت مرة أو مرتين بعد زوال تلك الموجة، ثم مسحت فمي بظهر يدي. كان الحمّام في حالة بائسة: ماء يقطر من الدوش، وباب مفتوح، ومناديل ورقية مبللة، وبقع دم على المناشف المتناثرة على الأرض. لم يفارقني الغثيان، ولم يفارقني الارتجاف. شربت من المغسلة مباشرة مستخدماً كفي، ثم رشقت وجهي بشيء من الماء. رأيت صورتي في المرآة: صدر عارٍ، وانحناء، وشحوب. كانت شفتي متورمة قليلاً حيث ضربني بوريس الليلة الماضية.

عدت فوجدت بوريس لا يزال على الأرض. كان راقداً مسترخياً وقد أسند رأسه إلى الجدار. فتح عينه السليمة عندما اقتربت منه وضحك لمظهري: «هل صرت أحسن؟».

«اللعنة عليك! لا تكلمني أبداً».

«أنت تستحق هذا. قلت لك ألا تضع هذه الكأس هنا».

«قلت لي!؟».

«أنت لا تتذكّر ذلك، ها؟». مس شفته العليا بلسانه ليرى إن كانت تنزف من جديد. عندما يخلع بوريس قميصه، يمكنك أن ترى الفراغات بين أضلاعه ومعها علامات باقية من ضربات قديمة، وكذلك مثلث لوَّحته الشمس في أعلى صدره... «تلك الكأس على الأرض. فكرة سيئة جداً. تجلب الحظ السيئ! قلت لك ألّا تتركها هناك! هذا نحس كبير علينا!».

قلت وأنا أبحث عن نظارتي وأتناول أول بنطلون رأيته في كومة الملابس المشتركة القذرة على الأرض: «لماذا سكبتها على رأسي؟».

قرص بوريس أرنبة أنفه وقال ضاحكاً: «كنت أحاول مساعدتك فحسب. قليل من الشراب يجعلك أفضل».

«نعم، أشكرك كثيراً!».

«ما أقوله صحيح. إذا استطعت ابتلاعها، فسوف تجعل صداعك يزول كما لو أن ذلك سحر. ليس أبي شخصاً مفيداً، لكن هذا أمر شديد الفائدة تعلمته منه. البيرة الباردة هي الحل الأفضل، إن توفرت».

قلت: «اسمع. تعال!». كنت واقفاً إلى جانب النافذة أنظر إلى بركة السباحة في الأسفل.

«ماذا؟».

«تعال، وانظر. يجب أن ترى هذا».

دمدم بوريس وهو راقد على الأرض: «قل لي فأنا لست راغباً في النهوض».

«من الأفضل لك أن تأتي». بدا المكان في الأسفل كأنه مسرح جريمة. خط من قطرات دم يمضي متعرّجاً على امتداد الممر المرصوف حتى البركة. أحذية، وبنطلونات، وقميص غارق في الدم. كانت كلها ملقاة هنا وهناك. كانت فردة من حذاء بوريس غارقة عند أسفل الناحية العميقة من

الحوض. وكان هناك شيء أسوأ مما سبق: بقعة قيء عائمة فوق الماء الضحل عند السلم.

24

في وقت لاحق، بعد عدة محاولات غير متحمسة كثيراً لإزالة تلك البقعة باستخدام أداة تنظيف حوض السباحة، جلسنا إلى طاولة المطبخ نتحدّث وندخّن سجائر فايسروي التي لأبي. كاد الوقت يصير ظهراً... تأخّرنا كثيراً حتى على التفكير في الذهاب إلى المدرسة. كان مظهر بوريس زرياً إلى أقصى حد. وكان قميصه متدلياً من كتف واحدة. راح يضرب أبواب الخزائن ويتذمّر بانزعاج شديد لأنه لم يجد شاياً. أعد قهوة فظيعة على الطريقة الروسية بأن غلى البن المطحون في قدر صغيرة.

قال لي عندما رآني أسكب لنفسي المقدار المعتاد من القهوة: «لا، لا. إنها قوية جداً. خذ كمية صغيرة».

تذوقت القهوة، ثم كشّرت.

غمس إصبعه في القهوة، ثم لعقها وقال: «البسكويت لذيذ معها».

«لا بد أنك تمزح».

قال بنبرة أمل: «خبز وزبدة؟».

نهضت ببطء شديد بسبب الألم في رأسي. ثم رحت أبحث حتى وجدت دُرْجاً فيه مغلفات السكر ورقائق من التورتيا المحمّصة التي أتت بها كساندرا من بوفيه البار.

قلت وأنا أنظر إلى وجهه: «هذا جنون».

«ماذا؟».

«أن يفعل أبوك بك هذا».

دمدم بوريس وهو يدير رأسه حتى يتمكّن من إدخال الرقاقة المحمّصة في فمه دفعة واحدة: «هذا لا شيء. لقد كسر لي ضلعاً ذات مرة».

قلت بعد صمت طويل، ولأنني لم أستطع العثور على شيء آخر أقوله: «كسر الضلع ليس أمراً خطيراً».

قال: «لا، لكنه مؤلم. هذا هو...». رفع قميصه وأشار إلى واحد من أضلاعه.

«ظننته أراد قتلك».

ضرب كتفه بكتفي وقال: «آه؛ لقد كنت أستفزه متعمداً. كنت أرد على ما يقوله لي. وذلك حتى تتمكّن من إخراج بوبتشيك. انظر... لا بأس...». قال هذا متلطفاً عندما رآني أواصل النظر إليه... «كان يضربني ويشتمني ليلة أمس، لكنه سيكون آسفاً عندما يراني».

«لعل عليك أن تبقى هنا بعض الوقت».

مال بوريس مستنداً إلى كفيه وابتسم لي ابتسامة رفض: «لا شيء يستحق اهتماماً كبيراً. يكون أبي محبطاً بعض الأحيان... هذا كل ما في الأمر».

«آه... اكتئاب!». في أيام أبي، عندما كان يشرب ويسكي بلاك جوني ووكر ويتقيأ على قمصانه، كان زملاؤه الغاضبون في العمل يتّصلون ببيتنا... لكن أبي كان يعزو (باكياً بعض الأحيان) هذه النوبات إلى «الاكتئاب».

ضحك بوريس بصوت بدا لي أن فيه مرحاً حقيقياً.

«وماذا؟ ألا تجد نفسك حزيناً بعض الأحيان؟».

«يجب أن يوضع في السجن لفعله هذا».

«أوه، ماذا تقول؟...». كان بوريس قد مل قهوته السيئة فنهض ليجلب زجاجة بيرة من البراد... «أبي طبعه سيئ صعب، بالتأكيد؛ لكنه يحبّني. كان في وسعه أن يتركني مع الجيران عندما غادر أوكرانيا. هذا ما حدث لصديقيّ ماكس وسيريوجا، وانتهى الأمر بماكس في الشارع. ثم إنني يجب أن أكون في السجن أنا أيضاً إذا كنت تريد التفكير بهذه الطريقة».

«إنني آسف».

عندما رأى كيف أنظر إليه قال: «لقد حاولت قتله ذات مرة. صدقاً. لقد حاولت».

«لا أصدقك».

ردّ مؤكداً: «إن ما أقوله لك صحيح. يؤسفني أنني فعلت ذلك. احتلت عليه حتى يخرج من البيت في آخر شتاء لنا في أوكرانيا. كان ثملاً، وقد خرج بالفعل. وعندها أغلقت الباب وأقفلته. كنت واثقاً من أنه سيموت في الثلج. يسعدني أنه لم يمت». قال هذا مع ضحكة كبيرة... «لو مات لبقيت عالقاً في أوكرانيا... يا إلهي... آكل من حاويات القمامة، وأنام في محطات القطار».

«ما الذي جرى؟».

«لست أدري. كان الوقت ليلاً، لكنه لم يكن متأخراً كثيراً. رآه شخص ما في الشارع فدعاه ليجلس في سيارته... امرأة ما على ما أظن؛ من يدري؟ إلا أنه واصل الشرب في الخارج ولم يعد إلى البيت إلا بعد بضعة أيام... ولحسن حظي، لم يتذكّر ما جرى! بل إنه جلب لي كرة قدم وقال إنه لن يشرب بعد ذلك إلا البيرة. استمر هذا الوعد شهراً واحداً على ما أظن».

دعكت عيني من خلف نظارتي: «ماذا ستقول لهم في المدرسة؟».

فتح زجاجة البيرة: «ماذا؟».

كانت الكدمة حول عينه بلون اللحم النيء: «أعني... سوف يطرح الناس أسئلة».

ابتسم ولكزني بمرفقه، ثم قال: «سأقول لهم إنك فعلت هذا بي».

«لا، أنا جاد».

«وأنا جاد أيضاً».

«بوريس... هذا ليس مضحكاً».

«ماذا بك؟ كرة القدم، أو كرة السلة، أو لوح التزلج». سقط شعره

الأسود فغطى وجهه كأنه ظل. دفعه جانباً وقال: «أنت لا تريد أن يأخذوني، أليس كذلك؟».

قلت بعد لحظة صمت مزعجة: «صحيح».

ناولني زجاجة البيرة: «لأن بولندا... أظنهم سيرحّلونني إلى بولندا...». أطلق ضحكة مفاجئة جعلتني أجفل... «إلا أن بولندا تظل أحسن من أوكرانيا».

«يا إلهي! لا يمكنهم إعادتك إليها...». نظر عابساً إلى يديه المتّسختين اللتين تجمد الدم تحت أظافرهما. قال بنبرة عنيفة: «لا، لأنني سأقتل نفسي قبل ذلك».

«أوه، بو بو بو!».

كان بوريس يهدّد دائماً بأنه سيقتل نفسه لهذا السبب أو ذاك.

«إنني أعني ما أقول. سأموت قبل أن يحدث ذلك. أفضّل أن أموت».

«لا، لن تموت».

«بل سأموت! الشتاء هناك... أنت لا تعرف كيف هو الشتاء هناك... يكون الهواء نفسه مؤذياً. هواء رمادي كالإسمنت؛ والريح».

«لكن، لا بد أن لديهم صيفاً».

«آه، يا ربي!...». مد يده إلى سيجارتي وأخذ منها نفساً سريعاً، ثم أطلق نفثة دخان صوب السقف... «بعوض، وطين كريه الرائحة. رائحة عفن تفوح من كل شيء. كنت وحيداً أكاد أموت جوعاً... أعني أنني كنت أجوع كثيراً بعض الأحيان... صدقاً... كنت أسير على ضفة النهر وأفكر في إغراق نفسي».

آلمني رأسي. كانت ملابس بوريس (ملابسي في حقيقة الأمر) تدور في آلة تجفيف الملابس. وفي الخارج، كانت الشمس متألقة، مؤذية.

استعدت السيجارة منه وقلت: «لا أدري إن كنت جائعاً، لكني أحبّ أن آكل شيئاً حقيقياً».

«فماذا نفعل؟».
«كان يجب أن نذهب إلى المدرسة».
«أووووف!».
لقد أوضح بوريس تماماً ـ من قبل ذلك ـ أنه لم يكن يذهب إلى المدرسة إلا لأنني أذهب إليها ولأن ما من شيء آخر يفعله.
«لا... إنني أعني هذا. كان يجب أن نذهب. لديهم بيتزا اليوم». تأوه بوريس بأسف حقيقي تماماً. كان ذلك هو الشيء الثاني الذي يشدّه إلى المدرسة... إنهم يطعموننا على الأقل... «لقد تأخر الوقت الآن».

25

كنت أستيقظ باكياً بعض الليالي. كان أسوأ ما في الانفجار هو أنني حملته في جسدي... الحرارة، وصدمة الانفجار التي تطحن العظام. في أحلامي، كنت أرى دائماً سبيلاً مضيئاً للخروج، وسبيلاً مظلماً. كان علي أن أتخذ السبيل المظلم لأن السبيل المضيء كان حارّاً، يتّقد ناراً. لكن السبيل المظلم كان السبيل الذي فيه الجثث.
لحسن الحظ أن بوريس لم يكن يبدي أي انزعاج، بل حتى لم يكن يجفل عندما أوقظه، كما لو أنه آت من عالم ليس فيه شيء أكثر اعتيادية من سماع صرخات ألم ليلية. وفي بعض الأحيان، كان يحمل بوبتشيك ـ النائم عند أسفل سريرنا ـ فيضعه على صدري كومةً مسترخية ناعسة. عندما يصير هذا الثقل فوقي، وأكون محاطاً بدفء هذا وذاك، أظل راقداً وأتذكر العد باللغة الإسبانية أو أحاول تذكّر كل ما أعرفه من كلمات روسية (أكثرها شتائم) إلى أن أغفو من جديد.
في الفترة الأولى التي أعقبت وصولي إلى لاس فيغاس، كنت أحاول جعل نفسي في حالة أفضل عن طريق تخيل أن أمي لا تزال حيّة تمارس نشاطها اليومي المعتاد في نيويورك ـ تتجاذب أطراف الحديث مع

البوابين، وتشتري لنفسها قهوة وفطيرة حلوة من مطعم في الشارع، وتنتظر وصول قطار الساعة السادسة على رصيف المحطة عند كشك الجرائد. لكن نجاح هذه الطريقة لم يستمر طويلاً. الآن، عندما أدفن وجهي في وسادة غريبة لا أشم فيها رائحتها، ولا رائحة البيت، ألجأ إلى التفكير في شقة آل باربر في بارك آفنيو، وأحياناً في بيت هوبي في مركز المدينة.

... يؤسفني أن والدك باع أشياء أمك. لو قلت لي وقتها، فلعلي كنت أشتري بعضاً منها وأحتفظ به من أجلك. عندما نكون محزونين ـ هذا ما يحدث معي، على الأقل ـ يمكن أن يكون التعلّق بأشياء مألوفة أمراً مريحاً لنا... التعلّق بأشياء لا تتغير!

إن وصفك الصحراء رهيب حقاً ـ ذلك الوهج الذي لا نهاية له، كالمحيط ـ لكنه أيضاً جميل جداً. ولعل هنالك ما يمكن قوله في ما يخصّ فجاجة الصحراء وخواءها. إن ضياء الماضي البعيد مختلف عن ضياء اليوم؛ لكني أتذكّر. وأما هنا، في هذا البيت، فإنني أتذكّر الماضي كيفما التفتُّ. وعندما أفكر فيك، أتخيل كما لو أنك ذهبت مبحراً في سفينة... هناك، في ذلك الألق الغريب الذي لا طرق فيه، حيث النجوم والسماء فقط.

وصلتني هذه الرسالة ضمن نسخة قديمة ذات غلاف مقوى من كتاب «*ريح ورمل ونجوم*» لسانت إكزوبري الذي قرأته مرة بعد مرة. أبقيت الرسالة في الكتاب حيث صارت الورقة مجعَّدة متسخة لكثرة ما قرأتها.

كان بوريس الشخص الوحيد في لاس فيغاس الذي رويت له كيف ماتت أمي ـ معلومات استقبلها بهدوء ورباطة جأش جعلتني شاكراً له. كانت حياته عنيفة ومضطربة إلى حد جعله يبدو غير مصدوم بقصتي. لقد شاهد انفجارات كبيرة في مناجم أبيه في باتو هيجاو[1] وفي أماكن

---

(1) باتو هيجاو: منجم ضخم للنحاس والذهب في شرق إندونيسيا.

أخرى لم أسمع بأسمائها من قبل. ومن غير أن يعرف التفاصيل الجزئية، كان قادراً على تقديم توقّع صائب إلى حد مقبول حول نوع المتفجرات المستخدمة. صحيح أنه كان كثير الكلام، إلا أن حفظ السرّ كان خصلة من خصاله أيضاً: وثقت بأنه لن يخبر أحداً من غير أن يسألني أولاً. ولعل كونه من غير أم، إضافة إلى تجاربه السابقة في إقامة روابط وثيقة مع أشخاص غرباء كالطبّاخ بامي و«ملازم» أبيه يفغيني، وكذلك جودي زوجة صاحب البار في كارنيولاغ، هو ما جعله يرى صلتي بهوبي أمراً طبيعياً لا شيء غريباً فيه على الإطلاق. كنا في المطبخ معاً ننظر إلى رسالة هوبي الأخيرة، فقال لي: «يعدُ الناس بأنهم سيكتبون، لكنهم لا يكتبون. أما هذا الشخص فهو يكتب لك على الدوام».

«نعم، إنه شخص لطيف!». كنت قد أقلعت عن محاولة تفسير هوبي لبوريس: البيت، والورشة، وأسلوبه الفطن في الإصغاء... ذلك الأسلوب المختلف كل الاختلاف عن أبي؛ لكن، وأكثر من كل شيء، عقله المتميّز بنوع من الجو الذي يبعث السرور في النفس: جو خريفي، ضبابي، لطيف، مضياف يجعلني أشعر بالأمان والراحة في حضوره.

غمس بوريس إصبعه في وعاء الزبدة المفتوح الموضوعة على الطاولة بيننا، ثم لعقه. لقد صار يحب زبدة الفستق غير المتوفرة في روسيا (مثل المارشميلو الذي يحبه كثيراً). سألني بوريس: «هل هو مِثليّ؟».

فاجأني السؤال فأجبته سريعاً: «لا»؛ ثم قلت بعد لحظة: «لست أدري».

قال بوريس وهو يدفع زبدة الفستق في اتجاهي: «لا أهمية للأمر. كنت أعرف بعض المثليين اللطيفين».

قلت بنبرة غير واثقة: «لا أظنه كذلك».

هز بوريس كتفيه: «ومن عساه يبالي بالأمر إذا كان طيّباً معك؟... لا يجد أي منا القدر الكافي من اللطف في هذا العالم».

شيئاً فشيئاً، صار أبي معجباً ببوريس، والعكس صحيح. لقد فهم بوريس (بأحسن مما فهمت) كيف يجني أبي المال؛ كما تعلم، من غير أن يقول له أحد ذلك، أن يظلّ بعيداً عنه عندما يخسر. فهم أيضاً أن أبي في حاجة إلى شيء ما كنت قادراً على أن أعطيه له، ألا وهو الاستماع إليه عندما يكون في نشوة الربح فيذرع المطبخ جيئة وذهاباً منتشياً محدودباً بعض الشيء، راغباً في أن يصغي أحد إلى قصصه ويمتدحه على ما أنجزه. عندما نسمعه يتحرّك في الأسفل مبتهجاً بالربح، نشطاً، فرحاً، يصدر ضجيجاً كثيراً... كان بوريس يضع كتابه ويتجه إلى الطابق السفلي حيث يقف صابراً وهو يصغي إلى أسلوب أبي الممل في استعادة حوادث تلك الأمسية، ورقة فورقة، على طاولة الباكارا؛ تلك القصص التي تجد طريقها دائماً إلى قصص أخرى (مزعجة لي كثيراً) عن انتصارات مماثلة لا تلبث أن تفضي ـ لا محالة ـ إلى كلام كثير عن أيامه في الجامعة وعن عمله الفاشل في مجال التمثيل.

قال بوريس وهو عائد إلى الأعلى وفي يده فنجان جديد من الشاي البارد: «لم تقل لي إن أباك كان يشارك في الأفلام!».

«لم يشارك في أفلام كثيرة. ربما في فيلمين فقط».

«لكن... ذلك الفيلم... لقد كان فيلماً كبيراً حقاً. الفيلم البوليسي الذي يتحدّث عن رجال شرطة مرتشين. ما اسم ذلك الفيلم؟».

«لم يكن دوره كبيراً. لقد ظهر في الفيلم ثانية واحدة فقط. لعب دور المحامي الذي يطلقون عليه النار في الشارع».

هز بوريس كتفيه: «وما أهمية هذا؟ شيء مدهش حقاً. لو ذهب إلى أوكرانيا، فسوف يعتبره الناس هناك نجماً سينمائياً».

«يمكنه الذهاب إذاً... ويمكنه أن يأخذ كساندرا معه أيضاً».

لقد وجدت حماسة بوريس لما يسميه «أحاديث ثقافية» في أبي متنفَّساً. وبما أنني كنت غير مهتم بالسياسة، بل وأقل اهتماماً بآراء أبي السياسية، فإنني لم أكن مستعداً للمشاركة في تلك المجادلات التي لا معنى لها في ما يتعلّق بالحوادث العالمية... مجادلات كنت أعرف أن أبي يجدها ممتعة. إلا أن بوريس كان سعيداً بتلك الأحاديث، سواء كان صاحياً أو ثملاً. وخلال هذه المناقشات، غالباً ما كان أبي يقلب يديه مقلّداً لكنة بوريس، على امتداد الحديث كله، بطريقة تجعلني أشد على أسناني حنقاً. لكن بوريس نفسه لم يكن يبدي أي انزعاج من ذلك، بل لعله لم يكن يلاحظه أصلاً. ينزل أحياناً ليضع غلاية الشاي على الموقد، لكنه لا يعود. وعندما أتفقّده، أجدهما جالسَين في المطبخ منخرطَيْن في مناقشة سعيدة كأنهما زوج من الممثلين على خشبة مسرح يناقشان تفكك الاتحاد السوفييتي، أو أي شيء آخر.

قال لي بعد أن صعد إلى الأعلى: «آه، يا بوتر! أبوك... يا له من شخص لطيف!».

أبعدت سماعة الآيباد عن أذنيّ وقلت: «إن كنت ترى هذا».

قال بوريس وهو يجلس على الأرض: «إنني أعني ما قلته. كم هو ذكي ماهر في الكلام! ثم إنه يحبك أيضاً».

«لا أعرف من أين أتيت بهذه الفكرة».

«ماذا بك؟ يريد أبوك أن تكون أمورك كلها على خير ما يرام، لكنه لا يعرف كيف يفعل هذا. يتمنّى لو أنك كنت أنت من يجلس معه ويحدّثه ويناقشه، لا أنا».

«هل قال لك هذا؟».

«لا. لكن هذه هي الحقيقة. وأنا أعرف ذلك».

«كدت تخدعني!».

نظر بوريس إلي نظرة متفكّرة وقال: «لماذا تكرهه إلى هذا الحد؟».

«أنا لا أكرهه».

قال بوريس بنبرة الواثق: «لقد كسر قلب أمك! كسره عندما هجرها. لكن عليك أن تسامحه. صار ذلك كله من الماضي».

نظرت إليه. أهذا ما يقوله أبي للناس؟

قلت وأنا أنتصب جانباً وأرمي الكتاب المصوّر الذي كان في يدي: «هذا كلام فارغ! إن أمي...». كيف يمكنني توضيح هذا؟ ... «أنت لا تفهم أنه كان وغداً معنا؛ وكنا سعيدَيْن عندما رحل. أعني... أعرف أنك تراه شخصاً رائعاً، وكل شيء...».

قال بوريس وهو يرفع يديه باسطاً كفيه: «ما الذي يجعله فظيعاً إلى هذا الحد؟ ألأنه كان يرى نساء غير أمّك؟ يحدث هذا أحياناً. إن له حياته. فما علاقتك أنت بالأمر؟».

هززت رأسي غير مصدّق ما أسمعه. قلت له: «يا رجل... لقد سحرك!». كانت تدهشني دائماً قدرة أبي على إلقاء سحره على الغرباء واجتذابهم إليه. كانوا يقرضونه المال، ويزكّونه من أجل الحصول على ترقية في العمل، ويعرّفونه على أشخاص لهم أهميتهم. ويدعونه إلى استخدام بيوت العطلات التي يمتلكونها، ويقعون تحت سحره... ثم يتبدّد ذلك كله هباءً في لحظة ما، فينتقل إلى أناس آخرين».

طوق بوريس ركبتيه بذراعيه وأسند رأسه إلى الجدار. قال موافقاً: «لا بأس يا بوتر. عدوك عدوي. إذا كنت تكرهه، فإني أكرهه أيضاً. ولكن...». مال برأسه جانباً... «ها أنا هنا، مقيم في بيته، فما الذي يتعين عليَّ فعله؟ هل أتحدّث معه وأكون لطيفاً ودوداً؟ أم تريد ألا أبدي احتراماً له؟».

«أنا لا أقول هذا. لا أقول لك إلا أن عليك ألّا تصدق كل ما يقوله لك».

ضحك بوريس، ثم قال وهو يركل قدمي ركلة ودية: «أنا لا أصدق كل ما يقوله لي أي شخص، حتى أنت!».

27

على الرغم من حقيقة أن أبي كان معجباً ببوريس، إلا أنني كنت أحاول دائماً إبقاءه غير منتبه لحقيقة أن بوريس قد انتقل للعيش معنا في حقيقة الأمر. على أن هذا لم يكن أمراً صعباً لأن انتباه أبي كان مشتتاً، موزعاً بين القمار والمخدرات. ولعله ما كان ليلاحظ أي شيء حتى لو أتيت بقط بري وجعلته يعيش معي في غرفتي. إلا أن التعامل مع كساندرا كان أصعب قليلاً نتيجة ميلها إلى التذمّر والشكوى من المصاريف، على الرغم من المواد التي كان بوريس يسرقها من متاجر المواد الغذائية ويساهم بها في المصاريف المنزلية. كان يلازم الغرفة ويظل بعيداً عن طريقها خلال وجودها في البيت. فيمضي الوقت في الاستماع إلى الأغاني عبر مكبرات الصوت النقّالة التي كانت عندي، وفي التجهّم وإطلاق الشتائم بسبب «الغبية»، لكن باللغة الروسية. وكنت آتي له بالطعام والبيرة من الأسفل، كما تعلّمت كيف أعد له الشاي بالطريقة التي تعجبه: حار جداً مع ثلاث قطع من السكر.

كان عيد الميلاد قد اقترب في ذلك الوقت على الرغم من خلو الطقس مما يشير إلى ذلك: برودة لطيفة في الليل، ودفء وشمس ساطعة خلال النهار. وعندما تهبّ الريح، تصدر عن المظلة الكبيرة عند بركة السباحة أصوات فرقعة تشبه طلقات الرصاص. قليل من البرق في الليل، لكن من غير مطر. وفي بعض الأحيان، تثير الريح الرمال فتتطاير مشكّلة زوابع صغيرة تدور وتتحرّك هنا وهناك، في الشارع.

كنت أترقب العطلة حزيناً بعض الشيء، لكن بوريس لم يبدِ كبير اهتمام. قال لي بنبرة ازدراء وهو مستند إلى مرفقيه في السرير: «إنها للأطفال الصغار... هذا كل ما في الأمر! شجرة، وألعاب سيكون لنا برازنِك خاص بنا ليلة الميلاد»، فما رأيك؟».

«برازِنك[1]؟».

«هذا نوع من احتفال بالعيد. ليس *عشاء مقدّساً* حقيقياً، بل مجرد عشاء لطيف. نطهو شيئاً خاصّاً متميزاً. وقد ندعو أباك مع كساندرا. أتظن أنهما قد يرغبا في تناول شيء من الطعام معنا؟».

فوجئت كثيراً بما ظهر على أبي ـ وحتى على كساندرا ـ من سرور بهذه الفكرة. أظن أن السبب الأول لإعجاب أبي بالفكرة كان إعجابه بكلمة برازِنك لأنه جلس مسروراً وراح يطالب بوريس بقولها وتكرارها بصوت مرتفع. ذهبت مع بوريس للتسوّق يوم الثالث والعشرين من الشهر... تسوّق بنقود حقيقية أعطانا إياها أبي (كان هذا من حسن حظنا لأن الازدحام في السوبر ماركت الذي اعتدنا الذهاب إليه كان أشد من أن يتيح لنا سرقة ما يلزمنا بسهولة). عدنا إلى البيت ببطاطس ودجاجة ومجموعة من المكونات غير المشهّية (فطر، وملفوف مخلل، وبازلاء، وكريم الحليب الحامض)، وذلك من أجل إعداد واحد من الأطباق البولندية زعم بوريس أنه يعرف طريقة إعداده. أتينا أيضاً بلفافات من الخبز الألماني المصنوع من دقيق كامل خشن (أصر بوريس على الخبز الأسود قائلاً إن تناول الخبز الأبيض مع تلك الوجبة أمر غير مناسب على الإطلاق)، وإصبعاً واحداً من الزبدة، وخياراً مخلّلاً، وقليل من حلويات عيد الميلاد. قال بوريس إننا سنبدأ الأكل مع ظهور أول نجم في السماء. نجم بيت لحم[2]. لكننا لم نعتد الطبخ لأكثر من اثنين، فكانت النتيجة أن تأخّرت الوجبة. وفي ليلة عيد الميلاد، نحو الساعة الثامنة مساء، صار طبق الملفوف المخلل جاهزاً، ولم يبق على نضج الدجاجة

---

(1) برازِنك: عيد في اللغة الروسية وبعض اللغات السلافية.

(2) نجم بيت لحم أو نجم عيد الميلاد: بحسب إنجيل متى، هو النجم الذي كشف مكان ولادة يسوع المسيح للمجوس الثلاثة (ملوك الشرق الثلاثة) وقادهم إلى بيت لحم. يُعرف أيضاً باسم نجم النبوءة.

(التي اكتشفنا طريقة طهوها من التعليمات المكتوبة على غلافها) إلا عشر دقائق لتصير جاهزة للخروج من الفرن. وفي تلك اللحظة جاء أبي وهو يصفّر بلحن إحدى الأغاني ونقر على إحدى خزائن المطبخ بحركة مرحة حتى يلفت انتباهنا. قال: «هيا يا أولاد». كان وجهه لامعاً متورّداً وصوته مستعجلاً فيه ذلك الطابع المتوتّر المتقطّع الذي كنت أعرفه جيداً. كان قد ارتدى واحدة من بدلاته الأنيقة القديمة من أيام نيويورك، لكن من غير ربطة عنق. وكان قميصه فضفاضاً بعض الشيء غير مزرّر عند عنقه... «اذهبا وسرّحا شعريكما وتأنقا بعض الشيء. سوف نخرج كلنا معاً لتناول الطعام. أليس لديك شيء أفضل من هذا لكي ترتديه يا ثيو؟ لا بد أن لديك شيئاً؟».

نظرت إليه غاضباً: «لكن،...». هكذا كان أبي دائماً... يدخل مستعجلاً ويغيّر الخطة في آخر لحظة.

«أوه، هيا! يمكن للدجاجة أن تنتظر. ألا يمكنها الانتظار؟ يمكنها بالتأكيد!». كان يتكلّم بسرعة شديدة... «يمكنكم وضع الشيء الآخر في البراد أيضاً. سوف نتناوله غداً فيكون غداء عيد الميلاد... هل سيظل اسمه برازِنك؟ هل يكون البرازِنك ليلة عيد الميلاد فقط؟ هل أنا مخطئ في هذا؟ لا بأس، هيا، غداً سيكون لنا برازِنك خاص بنا... يوم عيد الميلاد. فلنعتبره تقليداً جديداً. الطعام البائت أطيب مذاقاً على أيّ حال! اسمعا... سيكون هذا رائعاً. يا بوريس...». كان قد بدأ بالفعل يدفع بوريس خارج المطبخ... «ما قياس القمصان التي ترتديها يا رفيق؟ ألا تعرف ذلك؟ إن لديّ بضعة قمصان من ماركة بوكس براذرز، وعليّ أن أعطيك إياها كلها. قمصان رائعة، فلا تفهمني على نحو خاطئ. ربما تبلغ ركبتيك، لكنها ضيقة بعض الشيء عند الياقة. وإذا طويت أكمام القميص فسوف يبدو جيداً تماماً».

28

على الرغم من وجودي في لاس فيغاس منذ أكثر من نصف سنة، فقد كانت تلك المرة الرابعة أو الخامسة التي أذهب فيها إلى منطقة ستريب. وأما بوريس فلم يكد يزور لاس فيغاس الحقيقية على الإطلاق. كان قانعاً تماماً بمدار حركتنا الصغير بين المدرسة ومركز التسوّق والبيت. رحنا ننظر مذهولين إلى شلالات من أضواء النيون المتألّقة النابضة، إلى تلك الأنوار التي تنسكب على شكل فقاعات في كل جهة من حولنا. كان وجه بوريس المرفوع إلى الأعلى يتقلب بين الأحمر والذهبي في طوفان من الأضواء.

وفي قلب فندق *«ذا فينيسيان»* كانت زوارق الجندول تتحرّك في قناة حقيقية فيها ماء حقيقي فائح برائحة كيميائية؛ وكان مغنو أوبرا في بدلات رسمية يؤدّون أغاني عيد الميلاد، *«ستيل ناخت»* و*«آفي ماريا»*، تحت سماوات اصطناعية. سرت مع بوريس متعثرَيْن بحذاءَينا غير مرتاحين لإحساسنا بأن مظهرنا زري؛ كما كانت دهشتنا بما نراه شديدة إلى حد جعلنا عاجزين عن استيعاب الأمر كله. كان أبي قد حجز لنا في مطعم إيطالي فخم جدرانه مغلّفة بخشب البلوط (كان فرعاً لمطعم أكثر شهرة في نيويورك). قال أبي وهو يسحب الكرسي لكساندرا حتى تجلس: «اطلبوا ما تشاؤون، جميعاً. إنها دعوتي. اطلبوا ولا تتردّدوا».

نزلنا عند كلامه، ولم نخذله في الطلب أبداً. أكلنا فطيرة الهليون مع الكراث المخلل؛ وسمك السلمون المدخن؛ وسابليه كارباتشيو المدخّن[1]؛ وسباغيتي بورسياتيلي مع الخرشوف والكمأة السوداء؛ وسمك الباس الأسود المحمّص مع الزعفران والفول المدمس؛ وشرائح اللحم المشوية؛ وأضلاع الخروف المطهوة على نار هادئة؛ وبعد ذلك

(1) نوع من أطباق السمك المدخّن.

كله كاسترد بانا كوتا؛ وحلوى القرع؛ وآيس كريم بالتين. كانت تلك أفضل وجبة حظيت بها منذ شهور، أو في حياتي كلها. كان بوريس في غاية السرور (أكل وحده طبقين من السابليه). قال للمرة الخامسة عشرة وهو يهرّ كقطة عندما أتت النادلة الصبية الجميلة بطبق إضافي من الحلوى والبسكويت مع القهوة: «آه، رائع! شكراً لكِ، شكراً لكَ يا سيد بوتر ويا كساندرا». ثم قال من جديد: «شيء لذيذ!»

أزاح أبي طبقه جانباً ـ لم يكن قد أكل إلا كمية قليلة جداً بالمقارنة معنا (كساندرا لم تأكل أيضاً). كان شعر صدغيه رطباً؛ وكان وجهه محمرّاً متألّقاً... كان متألّقاً كله. قال: «شكراً لذلك الرجل الصيني ذي القبعة الذي كان يلعب ضد البنك في الصالون عصر اليوم. يا إلهي. كان ذلك كما لو أن من المستحيل أن نخسر!». عندما كنا في السيارة، جعلنا أبي نرى المال الذي كسبه: حزمة كبيرة من فئة المئة دولار مربوطة بشريط مطاط... «ظلّت الأوراق الصحيحة تأتينا... ظلت تأتي. عطارد في المُحاق والقمر مرتفع! أعني... كان ذلك سحراً. أتعرفون أن نوراً يظهر على الطاولة بعض الأحيان كأنه هالة مرئية. وتكون أنت الهالة؟ أنت النور؟ ولدينا هنا هذا الموزّع الرائع للورق، دييغو... أحب دييغو... شيء جنوني. يبدو هذا الرجل مثل الرسام دييغو ريفيرا. لكنه في بدلة سوداء ضيقة. هل أخبرتكم عن دييغو؟ إنه هنا منذ أربعين عاماً؛ منذ أيام نادي فلامنغو القديم. رجل طويل، متين، ضخم المظهر. إنه مكسيكي! يدان زلقتان سريعتان، وخواتم كبيرة...». راح أبي يلعب بأصابعه... «با ـ كا ـ را! يا إلهي... أحب هؤلاء المكسيكيين من المدرسة القديمة في صالة الباكارا... إنهم متأنّقون تماماً... رجال أذكياء أنيقون يعرفون ما يفعلون. على أية حال، كنا على طاولة دييغو، أنا وذلك الرجل الصيني القصير. كان فاشلاً أيضاً: نظارة ذات إطار عظمي. لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الإنكليزية... لا يقول إلا سان بين! سان بين! ويشرب شاي

الجينسينغ العجيب الذي يشربونه جميعاً... شيء مذاقه كالغبار، لكني أحب رائحته؛ كأنها رائحة الحظ. كان ذلك شيئاً لا يصدَّق. كنا نربح باستمرار، يا إلهي... وتلك النساء الصينيات من خلفنا... كان أداؤنا هائلاً... هل تظنين...». كان يخاطب كساندرا... «إن هناك مشكلة إذا أخذتهما وعدت بهما إلى صالة الباكارا حتى يتعرفا على دييغو؟ أنا واثق من أنهما سيتحمسان له كثيراً. لا أدري إن كان قد أنهى عمله لهذه الليلة. ما رأيك؟».

«لن تجده هناك. ليس الآن». كانت كساندرا تبدو في حالة طيبة، عينان متألقتان، بل كلّها متألقة، في فستان من المخمل وصندل مزين بالجواهر وأحمر شفاه أكثر حمرة مما تستعمله عادة.

«أظنه يعمل وردية مضاعفة بعض الأحيان... في العطلات».

«أوه، ليس من المستحسن أن يذهبا إلى ذلك المكان. المسافة بعيدة. لا بد من نصف ساعة حتى نصل إلى الكازينو وندخل من الباب الخلفي».

«صحيح، لكني أعرف أنه سيكون مسروراً بمقابلة ولديّ».

قالت كساندرا بنبرة محبَّذة وهي تمرّر إصبعها على شفة كأس النبيذ: «صحيح، أظنه سيحبهما». كانت الحمامة الذهبية الصغيرة المعلّقة إلى عنقها بسلسلة تلمع عند أسفل رقبتها... «إنه رجل لطيف. لكني كنت أعني ما قلته يا لاري. أعرف أنك لا تأخذني على محمل الجد، لكنك إذا بدأت تتقرّب كثيراً من موزعي الورق، فسوف يأتي يوم تجد فيه عناصر أمن الكازينو قد صاروا يراقبونك».

ضحك أبي وقال مبتهجاً وهو يصفع الطاولة بكفه صفعة شديدة جعلتني أجفل: «يا إلهي! لو أنني لا أعرف حقيقة الأمر، لظننت أن دييغو كان يساعدني حقاً تلك الليلة. لكن، لعله كان يساعدني. الباكارا عن طريق التخاطر...». ثم توجه بكلامه إلى بوريس... «اجعل باحثيك

السوفييت يهتمون بهذا الأمر. سوف يؤدّي ذلك إلى إنعاش نظامكم الاقتصادي هناك».

تنحنح بوريس بلطف ورفع كأس الماء التي أمامه: «عفواً، هل لي أن أقول شيئاً؟».

هل حان وقت إلقاء الكلمات؟ وهل علينا أن نرفع أنخاباً؟

«أشكركم جميعاً على هذه الرفقة الطيبة. وأتمنّى لكم جميعاً الصحة والسعادة وأن نعيش كلنا حتى عيد الميلاد القادم».

في صمت المفاجأة الذي أعقب ذلك، سُمع صوت فتح زجاجة شامبانيا في المطبخ، ثم أعقبته موجة من الضحك. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل: دقيقتان بعد بداية يوم الميلاد. استرخى أبي في كرسيه وضحك. قال بصوت مرتفع: «عيد ميلاد مجيد!». وأخرج من جيبه علبة مجوهرات فوضعها على الطاولة ودفعها صوب كساندرا، ثم وضع أمامنا حزمتي أوراق مالية من فئة عشرين دولاراً: خمسمئة دولار! خمسمئة لكل منا! ألقى الحزمتين من فوق الطاولة، واحدة لبوريس وواحدة لي. على الرغم من أن كلمات من قبيل *«يوم وعيد الميلاد في ليل الكازينو ذي الحرارة المضبوطة والوقت المفتوح»*. كانت كلمات من غير معنى حقيقي، إلا أن كلمة *سعادة* وسط قرع الكؤوس لم تبدُ لي في تلك اللحظات شيئاً مشؤوماً ولا مستحيلاً تمام الاستحالة.

الفصل السادس

ريح ورمل ونجوم



1

على امتداد سنة أعقبت ذلك، انشغلت أشد الانشغال في محاولة حجب نيويورك وحياتي القديمة فيها عن عقلي، فلم أكد ألاحظ مرور الزمن. توالت الأيام بلا تغيير في ذلك الحر الوهّاج الذي لا يعرف الفصول: صباحات نعاني فيها آثار السكر من الليالي السابقة؛ نكون في باص المدرسة بظهرَيْن موجوعَيْن محمرَّيْن قليلاً نتيجة سقوطنا في النوم إلى جانب بركة السباحة، وتنبعث منا بقايا رائحة الفودكا أشبه بروائح البنزين، فضلاً عن عفونة بوبر الدائمة... كلب رطب وكلور! يعلمني بوريس العد والسؤال عن الاتجاهات وتقديم شراب باللغة الروسية، ويصبر عليَّ مثلما كان يصبر عندما علّمني الشتائم. نعم، من فضلك، أريد هذا. شكراً لك، أنت في غاية اللطف. غوفوريتيه *لي في بو أغنليسكي*؟ هل تتكلّم الإنكليزية؟ *يا* مينيو غو بوغوفريو بوروسكي. لا أتكلم الروسية، إلا قليلاً.

كانت أياماً مدوّخة، في الشتاء وفي الصيف. هواء الصحراء يحرق المنخرين ويجفف الحلق. كان كل شيء طريفاً؛ وكل شيء يجعلنا نضحك. وفي بعض الأحيان، قبل غروب الشمس بوقت قصير، تماماً

عندما تبدأ زرقة السماء تحوّلها إلى اللون البنفسجي، نرى تلك الغيوم المجنونة ذات الحواف المتوهّجة كأن فيها كهرباء، نراها مبحرة، ذهبية وبيضاء، في سماء الصحراء كأنها «الرؤيا السماوية» تقود المورمون[1] غرباً. بوغوفوريتي *ميدلينو*؛ بوفتوريتي *بجالوستا*... (تكلم ببطء؛ كرر من فضلك). هكذا كنت أقول له! لكن واحدنا كان قد اعتاد الآخر وصار متناغماً معه إلى حد جعلنا غير محتاجَيْن إلى الكلام إطلاقاً إذا لم نرد ذلك. كان واحدنا يعرف كيف يجعل الآخر في حالة هستيرية من المرح بحركة حاجب أو شفة. وفي الليل، كنا نجلس متربعين على الأرض ونأكل ونخلّف آثار أصابعنا الملوثة بالدسم على كتبنا المدرسية. جعلنا أسلوبنا بالأكل مصابين بسوء التغذية، وظهرت كدمات بنية خفيفة على أذرعنا وسيقاننا. قالت ممرضة المدرسة إن ذلك نتيجة عوَز الفيتامين، فأعطت كلاً منا حقنة مؤلمة في مؤخرته وعبوة ملونة من أقراص للأطفال حتى نمضغها. (قال بوريس وهو يحكّ مؤخّرته ويشتم مقاعد باص المدرسية: «مؤخرتي تؤلمني»). صار جسمي، إلى أصابع قدميَّ، منمّشاً لكثرة السباحة. وصارت في شعري (نما أطول من أي وقت بعد ذلك)، خصل تغير لونها بسبب المواد الكيميائية في البركة. كنت سعيداً من حيث الأساس، لكن ذلك الثقل في صدري لم يفارقني أبداً، وبدأت أسناني تتسوّس من الجهة الداخلية لكثرة ما كنا نأكله من سكاكر. وأما ما عدا ذلك فقد سارت أموري بخير. مر الزمن مروراً ساراً بما فيه الكفاية؛ لكن بوريس تعرّف على فتاة اسمها كوتكو بعد وقت قصير من عيد ميلادي الخامس عشر؛ فتغير كل شيء.

كان هذا الاسم، كوتكو (يمكن أن يصير كوتيكو في اللغة الأوكرانية)، يجعلها تبدو أكثر إثارة للاهتمام مما كانت تبدو عليه من قبل؛ لكنه لم

---

(1) مورمون: طائفة دينية مسيحية تأسست في الولايات المتحدة سنة 1830. تجيز للرجل تعدد الزوجات.

يكن اسمها الحقيقي، بل اسمٌ أطلقه عليها بوريس (يعني «قطيطة» في اللغة البولندية). كان اسم عائلتها هاتشينز، واسمها الأول كايلي أو كيلي. عاشت حياتها كلها في مقاطعة كلارك في ولاية نيفادا. كانت أكبر منا بكثير على الرغم من ذهابها إلى مدرستنا، ومن أنها تسبقنا بصف واحد. أكبر مني بثلاث سنوات كاملة... ومن الواضح أن بوريس قد بدأ يهتم بها منذ فترة، لكني لم أنتبه إليها حتى ظُهر أحد أيام الأحد عندما أتى بوريس ورمى بنفسه على سريري وقال لي: «أنا عاشق».

«أوه، حقاً؟ من هي؟».

«إنها تلك الفتاة من صف التربية المدنية. إنها تلك التي اشتريت منها بعض المخدرات[1]. وهي أيضاً في الثامنة عشرة، فهل تتخيّل هذا؟ يا إلهي... إنها جميلة!».

«وهل لديك مخدرات؟».

انقضّ عليَّ ممازحاً وأمسكني من كتفي. كان يعرف نقطة ضعفي، تلك البقعة تحت لوح الكتف حيث يضغط بأصابعه فيجعلني أتلوى، لكني لم أكن في مزاج مناسب فضربته، ضربته بقوة.

قال بوريس وهو ينقلب مبتعداً عني ويدعك جانب وجهه برؤوس أصابعه: «واو! اللعنة عليك! لماذا فعلت هذا؟».

«آمل أن أكون قد آلمتك. أين هي المخدرات؟».

لم نتكلّم بعد ذلك في اهتمامات بوريس العاطفية (ليس في ذلك اليوم، على الأقل). وبعد بضعة أيام من ذلك، كنت خارجاً من درس الرياضيات فرأيته بالقرب من فتاته عند صف الخزائن في الممر. صحيح أن بوريس لم يكن طويلاً بالنسبة إلى سنّه، إلا أن تلك الفتاة كانت قصيرة بصرف النظر عن تقدّمها علينا في السن: ثديان صغيران، وردفان هزيلان،

(1) المقصود هنا الأعشاب المخدرة من قبيل الماريغوانا والحشيش.

ووجنتان مرتفعتان، وجبهة صقيلة، ووجه مثلث متألق حاد. كانت في قميص أسود من غير كمين. ورأيت أنها تضع حلية في أنفها المثقوب. طلاء أظافر أسود متقشّر، وشعر فيه خصل برتقالية وخصل سوداء، وعينان لامعتان مسطّحتان شديدتا الزرقة مخططتان بقلم عريض أسود. من المؤكد أنها كانت جذّابة... بل حتى مثيرة! لكنها رمتني بنظرة أثارت قلقي: كان فيها شيء موحٍ بموظفة بيع شريرة في محل للمأكولات السريعة أو بجليسة أطفال لئيمة.

سألني بوريس ملهوفاً عندما رآني بعد المدرسة: «ما رأيك فيها؟».

هززت كتفي: «ظريفة، على ما أظن».

«على ما تظن؟».

«الحقيقة يا بوريس... أعني، أعني أنها تبدو كأن عمرها خمسة وعشرون عاماً».

قال وقد بدا عليه أنه مذهول بها: «أعرف! هذا رائع! عمرها ثمانية عشر عاماً! لقد بلغت السن القانونية، يمكنها شراء الكحول من دون أي مشكلة. لقد عاشت هنا طيلة حياتها. هذا يعني أنها تعرف الأماكن التي لا يتحققون فيها من العمر».

2

كانت هيدلي فتاة تجلس إلى جانبي في دروس التاريخ الأميركي. كانت فتاة محبة للكلام ترتدي سترة رياضية عليها شعار المدرسة. جعدت أنفها عندما سألتها عن فتاة بوريس الأكبر سناً: «هي؟ إنها عاهرة تماماً». كانت أخت هيدلي (اسمها جان) في صيف كايلي أو كيلي، أو مهما يكن اسمها... «سمعت أيضاً أن أمها عاهرة علنية. يجب أن يكون صديقك حذراً حتى لا يلتقط منها مرضاً ما».

قلت: «حسناً». فاجأتني ضراوتها في الإجابة؛ ولعله ما كان لي أن

أعجب لذلك. فهيدلي ابنة رجل عسكري، في فريق السباحة في المدرسة؛ كانت تغنّي في كورس المدرسة؛ لها أسرة عادية فيها أربعة أطفال وكلبة من نوع ويمارانر اسمها غريتشن أتت بها من ألمانيا. ولها أيضاً أب يصرخ عليها إذا تأخّرت في العودة إلى البيت.

قالت هيدلي: «لست أمزح. سوف تتودّد إلى أصدقاء بنات أخريات ـ وسوف تتودد إلى البنات الأخريات أيضاً ـ سوف تتودّد إلى أي شخص. وأظن أيضاً بأنها تتعاطى المخدرات».

قلت: «أوه!». لم أكن أرى أن أي عامل من هذه العوامل يمكن أن يكون سبباً موجباً لكره كايلي أو النفور منها، خاصة وأننا (أنا وبوريس) كنا قد بدأنا ندخن بعض المخدرات خلال الأشهر الماضية، وكنا متحمّسَين لها. لكن ما أزعجني ـ كثيراً ـ كان أسلوب دخول كوتكو (سأواصل استخدام الاسم الذي أطلقه بوريس عليها لأنني غير قادر الآن على تذكر اسمها الحقيقي)، حياتنا بين عشية وضحاها فصارت كأنها تملك بوريس ملكية حقيقية. بدأ الأمر بأن صار بوريس مشغولاً ليلة الجمعة. ثم صار مشغولاً طيلة عطلة نهاية الأسبوع، لا في الليل فقط، بل طيلة النهار. وسرعان ما صار كلامه كله: كوتكو فعلت هذا، وكوتكو فعلت ذاك. ثم لم ألبث أن صرت أتناول طعام العشاء وأتابع التلفزيون بصحبة بوبر فقط.

سألني بوريس مرة أخرى بعد أن أتى بها إلى بيتي أول مرة: «أليست مدهشة؟» ـ كانت أمسية فاشلة تماماً سكرنا فيها، ثلاثتنا، حتى صرنا شبه عاجزين عن الحركة. وبعد ذلك، راحا يتعانقان ويتدحرجان على الأريكة في الأسفل؛ أما أنا فجلست على الأرض مديراً ظهري لهما محاولاً التركيز على متابعة إعادة لفيلم *«الحدود الخارجية»*. عاد بوريس يسألني: «ما رأيك؟».

«الحقيقة، أعني...». ما الذي يريد مني قوله... «أنت تعجبها. بالتأكيد».

تململ بوريس. كنا في الخارج، عند بركة السباحة، على الرغم من شدة الريح ومن أن الطقس ما كان دافئاً إلى الحد الذي يسمح بالسباحة... «لا، حقاً! ما رأيك فيها؟ قل لي الحقيقة يا بوتر». قال لي هذا عندما رآني متردّداً.

أجبته متردداً متشككاً: «لست أدري...» وعندما رأيته مستمراً في النظر إلي... «صدقاً. لست أدري يا بوريس. تبدو لي متهوّرة بعض الشيء».

«نعم! هل هذا سيئ؟».

كان في نبرة صوته فضول حقيقي لمعرفة رأيي ـ لم يكن غاضباً؛ ولم يكن ساخراً. فاجأني هذا فأجبته: «الحقيقة... قد لا يكون سيئاً».

كانت وجنتا بوريس متوردتين من الفودكا. وضع يده على قلبه وقال: «أحبها يا بوتر. إنني أعني هذا. إنه أصدق ما عشته في حياتي كلها».

كنت في غاية الحرج، فاضطررت إلى الإشاحة بوجهي عنه.

تنهّد بوريس مبتهجاً: «فتاة قصيرة نحيلة! تكون خفيفة الوزن بين ذراعيّ... أحس بعظامها! إنها كالهواء».

الغريب أن إعجاب بوريس الشديد بكوتكو بدا لي ناجماً عن الأشياء نفسها التي كنت أجدها منفرة: جسمها الشهواني النحيل كأنها واحدة من قطط الشوارع، ونضجها الأعجف المحتاج... «وكم هي شجاعة وحكيمة... ما أكبر قلبها! لا أريد إلا أن أعتني بها وأحميها من ذلك الشاب، مايك. هل تفهم؟».

بكل هدوء، سكبت لنفسي كأس فودكا جديدةً على الرغم من أنني لم أكن أريدها حقاً. كانت قضية كوتكو تحيّرني من ناحيتين، وذلك لأن كوتكو كان لها صديق (هذا ما أخبرني به بوريس نفسه بنبرة اعتزاز لا تخطئها الأذن): شاب في السادسة والعشرين اسمه مايك ماكْنات يعمل في شركة لتنظيف برك السباحة ويمتلك دراجة آلية. قلت لبوريس عندما أخبرني بهذا في وقت سابق: «رائع. علينا أن نأتي به لكي يساعدنا في تنظيف البركة».

كنت قد قرفت وتعبت من العناية ببركة السباحة (عمل وقع القسم الأكبر منه على كاهلي، خاصة لأن كساندرا لم تكن تأتي بالمقدار الكافي من المواد الكيمياوية اللازمة، فضلاً عن أنها لا تأتي بالمواد الصحيحة).

دعك بوريس عينيه بكفّيه: «الأمر خطير يا بوتر. أظنها تخافه. تريد تركه، لكنها خائفة. وهي تحاول إقناعه بأن يتطوّع في الجيش».

«من الأفضل أن تكون منتبهاً حتى لا يهاجمك ذلك الشاب».

قال ساخراً، مع نخرة من أنفه: «يهاجمني! أنا قلق عليها! إنها ضئيلة جداً... واحد وثمانون باونداً فقط!».

«نعم، صحيح». كانت كوتكو تزعم أنها مصابة بـ«مرض فقدان الشهية»؛ وكان من الممكن دائماً أن تجعل بوريس يغضب عندما تقول إنها لم تأكل شيئاً طول النهار.

لطمني بوريس على رأسي وقال وهو يجلس إلى جانبي ويضع قدميه في ماء البركة: «أنت تظل هنا جالساً وحدك زمناً طويلاً. تعال الليلة إلى بيت كوتكو. اجلب معك أحداً».

«مثل من؟».

هز بوريس كتفيه وقال: «ما رأيك في تلك الشقراء المثيرة التي تقص شعرها كالصبيان. إنها معك في درس التاريخ. إنها السبّاحة».

«هيدلي؟». هززت رأسي... «غير ممكن».

«بل يجب عليك أن تأتي بها! أقول هذا لأنها مثيرة. وأنا متأكد تماماً من أنها ستأتي معك».

«صدقني، هذه ليست بالفتاة الحسنة».

«سأطلب ذلك من أجلك أنت. إنها تظهر لك مودّة وتكلمك دائماً. هل نتصل بها؟».

أمسك بكمه عندما بدأ ينهض، وقلت: «لا! ليس الأمر هكذا...».

«أليست لديك الجرأة؟».

كان في طريقه إلى الهاتف في الداخل: «بوريس. لا تفعل هذا. أعني ما أقول. لن تأتي».

«لماذا؟».

ضايقني ما لمسته في نبرة صوته من سخرية. قلت: «بالفعل! لن تأتي لأن...». كنت موشكاً على القول بأن كوتكو عاهرة (كانت تلك حقيقة واضحة)، لكني قلت: «اسمع. إن هيدلي ضمن مجموعة الطلبة المتفوّقين، وإلى ما ذلك. لن تكون راغبة في الذهاب لقضاء الوقت في بيت كوتكو».

قال بوريس وهو يستدير غاضباً: «ماذا؟ تلك العاهرة! ماذا قالت لك؟».

«لا شيء. كل ما في الأمر...».

كان الآن في طريقه عائداً إلى بركة السباحة: «بل قالت لك شيئاً! ومن الأفضل لك أن تخبرني».

«ماذا بك؟ هذا لا شيء. اهدأ يا بوريس...». ثم أضفت عندما رأيت مقدار غضبه... «كوتكو أكبر سناً بكثير. وهما ليستا في سنة دراسية واحدة».

«تلك العاهرة المتكبّرة! ما الذي فعلته كوتكو لها؟».

«اهدأ يا بوريس!». وقعت عيني على زجاجة الفودكا التي كان عليها شعاع متألّق من ضياء الشمس كأنه سيف من نور. لقد شرب بوريس كثيراً؛ ولا أريد الآن أي مشاجرة معه. لكني كنت في حالة سكر شديد لم تسمح لي بالاهتداء إلى طريقة سهلة لإبعاده عن هذا الموضوع.

3

كان في مدرستنا فتيات كثيرات معجبات ببوريس؛ فتيات أفضل من كوتكو. وكانت أبرزهن فتاة دانماركية الأصل تتكلّم الإنكليزية بلكنة بريطانية شديدة الوضوح. كان اسمها سافي كاسبرسن؛ وقد لعبت في ما مضى دوراً صغيراً مع مسرح «*سيرك الشمس*؛ كما كانت، وبفارق كبير، أجمل فتاة في سنتنا كلها. كانت سافي معنا، ضمن مجموعة الطلبة المتفوقين (حيث كانت لديها أشياء مهمة تقولها في ما يتعلّق برواية «*القلب صياد وحيد*). كان بوريس يعجبها على الرغم مما عرف عنها من تحفّظ. كان هذا واضحاً للجميع: تضحك عندما يقول بوريس نكتة، وتتصرّف تصرّفات حمقاء ضمن مجموعته الدراسية، وقد رأيتها تكلّمه متحمسة في الممر ـ كان بوريس يكلّمها بالحماسة نفسها، مع حركات كثيرة بيديه بطريقته الروسية. لكنه ـ أمر في غاية الغرابة ـ لم يبدِ أي انجذاب نحوها على الإطلاق.

سألته: «لكن، لم لا؟ إنها أجمل فتاة في صفنا». كنت أظن دائماً أن الدانماركيين شقر ضخام الأجسام. لكن سافي كانت داكنة الشعر أميل إلى القصر، وكانت في مظهرها لفتة سحرية بدت أكثر وضوحاً في صورتها المسرحية التي رأيتها.

«صحيح أنها جميلة. لكنها ليست مثيرة كثيراً».

«بوريس، إنها مثيرة جدّاً. هل أنت مجنون؟».

قال بوريس وهو يجلس إلى جانبي حاملاً زجاجة بيرة في يده، بينما امتدت يده الأخرى إلى سيجارتي: «أوه... إنها تدرس كثيراً! مستقيمة أكثر مما يجب. تمضي الوقت كله في الدراسة أو في التدرّب على شيء ما. وأما كوتكو...»، أطلق سحابة دخان، ثم أعاد إلي سيجارتي... «إنها مثلنا».

كيف انقلبت من طالب متميّز في كل شيء إلى شخص يمكن تصنيفه مع شخصية منبوذة مثل كوتكو؟

لكزني بوريس: «أظنها تعجبك أنت، سافي».

«لا، هذا ليس صحيحاً».

«بل إنها تعجبك. اطلب منها أن تخرج معك في نزهة».

أجبته: «نعم، ربما أفعل». لكني كنت أعرف أنني لا أمتلك الجرأة لفعل ذلك. في مدرستي القديمة، كان الأجانب والطلبة الآتون إلى المدرسة ضمن برامج التبادل الدراسي ميالين إلى الوقوف على الهامش بكل تأكيد. لو كانت سافي هناك، لكان التقرب منها أكثر سهولة. أما في لاس فيغاس، فإنها شعبية كثيراً، محاطة بأشخاص كثيرين. ثم هنالك أيضاً مشكلة كبيرة: ما الذي أستطيع دعوتها إليه؟ هذا أمر سهل في نيويورك لأنني قادر على أخذها للتزلج على الجليد أو إلى السينما أو إلى القبة الفلكية. لكني لم أستطع تخيل سافي كاسبرسن تتنشّق الصمغ معنا، أو تشرب البيرة من زجاجة في كيس ورقي في حديقة المركز الاجتماعي، أو تفعل أي شيء من تلك الأشياء التي أفعلها مع بوريس.

4

كنت لا أزال مستمراً في رؤيته، لكن ليس كثيراً. صار يمضي ليالي أكثر مع كوتكو وأمها في شقتهما الواقعة في بناية للشقق الفندقية اسمها «*دَبل آر*»: كان ذلك في حقيقة الأمر فندقاً للمسافرين العابرين، فندقاً متداعياً من حقبة الخمسينات على الطريق السريع بين المطار ومنطقة ستريب يقف في فنائه أمام البركة رجال عليهم مظهر مهاجرين غير شرعيين يتحدّثون عن قطع تبديل الدراجات الهوائية. (قالت هيدلي: «دبل آر؟ أنت تعرف معنى هذا، أليس كذلك؟ فئران وصراصير»). ولحسن الحظ، لم تكن كوتكو تأتي مع موريس إلى بيتي كثيراً؛ لكنه كان يتحدّث عنها

طيلة الوقت، حتى إن لم تكن موجودة... كان لديها ذوقٌ حسنٌ بما يتعلق بالموسيقى. وقد أعطته قرص سي دي جمعته بنفسها فوضعت فيه عدداً من أغنيات هيب هوب الرائعة التي كنت أحب الاستماع إليها. كانت كوتكو تأكل البيتزا بالزيتون والفلفل فقط. وكانت كوتكو، حقاً حقاً، راغبة في بيانو كهربائي، وفي قطة سيامية أيضاً، أو في حيوان بيتي صغير، إلا أن اقتناء حيوانات منزلية كان ممنوعاً في مكان إقامتها.

قال لي وهو يضرب كتفه بكتفي: «جدّياً، يجب أن تمضي مع كوتكو وقتاً أكثر يا بوتر. سوف تحبّها».

«أوه، ماذا بك؟». قلت له هذا وأنا أتذكّر طريقتها الغريبة في التصرّف عندما أكون موجوداً: تضحك في الوقت الخاطئ، وبطريقة بشعة؛ وتأمرني دائماً بأن أذهب إلى البراد لأجلب لها بيرة.

«لا! إنها تحبّك! تحبّك فعلاً! أعني أنها تعتبرك مثل شقيقها الأصغر. هذا ما قالته لي».

«إنها لا تعنيني أبداً».

«هذا لأنك لا تكلّمها».

«هل ضاجعتها؟».

أطلق بوريس صوتاً نامّاً عن نفاد الصبر... صوت يطلقه عادة عندما لا تسير الأمور على هواه.

قال: «عقل قذر»، وأزاح شعره عن عينيه، ثم أضاف: «ماذا؟ ماذا تظن؟ هل تريد أن أطلعك في التفاصيل؟».

«يقولون: أطلعك على التفاصيل!».

«ماذا؟».

«هكذا يجب أن تكون الجملة: هل تريد أن أطلعك على التفاصيل؟»

فتح بوريس عينيه على اتساعهما دهشة. راح يلوّح بيديه وعاد يحدّثني من جديد عن مدى ذكاء كوتكو، وعن أنها «في غاية البراعة»، وكذلك

عن حكمتها وغنى الحياة التي عاشتها وعن جَوْري في الحكم عليها واستصغار شأنها من غير أن أكلّف نفسي عناء معرفتها. كنت جالساً معه، مصغياً إلى كلامه بنصف انتباهي، بينما كان النصف الآخر متجهاً إلى الفيلم القديم الذي يعرضه التلفزيون *«الملاك الساقط»* لدانا أندروز؛ إلا أنني لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنه تعرّف على كوتكو من خلال الدروس التعويضية في «التربية المدنية»، أي تلك الدروس المخصصة للطلاب الذين هم غير أذكياء إلى الحد الكافي للنجاح من غير مساعدة إضافية (حتى في مدرستنا ذات المتطلّبات شديدة التدني). كان بوريس جيداً في الرياضيات من غير أن يبذل جهداً. وفي اللغات، كان أحسن من أي شخص عرفته، إلا أنهم أجبروه على دروس «التربية المدنية للمبتدئين» لأنه أجنبي. كان ذلك مقرراً إلزامياً يمقته بوريس أشد المقت. «بسبب ماذا؟ هل من المحتمل أن أشارك يوماً في التصويت لانتخاب أعضاء الكونغرس؟ وأما كوتكو فهي في الثامنة عشرة! مولودة ونشأت في مقاطعة كلارك! مواطنة أميركية، كأنها خارجة من مسلسل *«الفرقة»*! ليس لها عذر في ذلك.

صرت أضبط نفسي، مرة بعد مرة، متلبّساً بأفكار سيئة من هذا القبيل؛ أفكار كنت أبذل أقصى الجهد لكي أبعدها عني. فلماذا أهتم؟ صحيح أن كوتكو كانت عاهرة، وصحيح أنها كانت أكثر غباء من أن تستطيع إنهاء صف التربية المدنية من غير مساعدة، وأنها تضع قرطين طويلين رخيصين يعلّقان دائماً بكل شيء؛ وصحيح أيضاً أن وزنها لم يكن أكثر من واحد وثمانين باونداً، إلا أنها تخيفني كما لو أنها يمكن أن تركلني حتى الموت بحذائها المدبب إذا ما جُن غضبها. («إنها ميالة بعض الشيء إلى القتال»)، هذا ما قاله بوريس بنفسه، متشدّقاً، في لحظة من اللحظات وهو يتقافز هنا وهناك رافعاً أصابعه بإشارات العصابات، أو

بما كان يظنّه إشارات العصابات[1]، ويمتّعني بقصة عن أن كوتكو اقتلعت خصلة شعر مدماة من رأس إحدى الفتيات ـ كانت هذه نقطة أخرى في ما يخص كوتكو إذ إنها تشارك دائماً في معارك الفتيات المخيفة التي تنشب غالباً بين فتيات وضيعات المستوى مثلها، لكنها تكون أحياناً مع بنات عصابات حقيقيات، لاتينيات أو سوداوات. لكن، ما أهمية أن يحب بوريس فتاة من هذا النوع؟ ألم نزل صديقين؟... أقرب صديقين؟... بل أخوان من الناحية العملية!

لكني أتوقّف هنا من جديد: لم تكن هنالك كلمة محدّدة لوصف علاقتنا. قبل ظهور كوتكو، لم أمعن التفكير في هذا الأمر، أبداً. كانت علاقتنا مؤلّفة من أمسيات ناعسة في هواء البيت المكيّف، متكاسلين، ثملين، وقد أسدلنا الستائر لحجب وهج الشمس، وتناثرت من حولنا مظاريف السكر الفارغة وقشور برتقال جافة مرمية على السجادة، وأغنية *«دير برودنز»* من الألبوم الأبيض[2] الذي يعشقه بوريس، أو تلك الأغنية الحزينة نفسها لفرقة *ريديو هيد* التي كنا نعيدها مرة بعد مرة.

لدقيقة واحدة فقط

ضيّعت نفسي، ضيّعت نفسي...

كان للصمغ الذي نتنشقه زئير مكانيكي قاتم يشبه اندفاع الهواء من مراوح طائرة: *المحركات تعمل*! كنا ننقلب على ظهرينا فوق السرير في ظلمة مطبقة مثل الذين يقفزون من الطائرات وهم يسيرون متعثرين إلى الخلف قبل مغادرة فتحة الخروج... ذلك الارتفاع كله، ذلك البعد كله... إلا أن عليك أن تكون حذراً في تعاملك مع الكيس الذي تغطي به

---

(1) في الثقافة الشعبية الأميركية، هنالك ما يدعى «إشارات العصابات». وهي إشارات بالأصابع، أو برموز على الملابس أو القبعات، يعلن الشخص من خلالها انتماءه إلى هذه العصابة أو تلك.

(2) الألبوم الأبيض: اسم ألبوم غنائي شهير لفرقة بيتلز.

وجهك وإلا فستجد عندما تصحو حبيبات صمغ جافة قد التصقت بشعرك وبنهاية أنفك. ننام نوم أشخاص مستنزفين؛ ننام ظَهراً لظهر على ملاءات قذرة فائحة برائحة السجائر والرماد، وبرائحة الكلب... بوبتشيك يشخر نائماً على ظهره، والهواء الخارج من فتحات التهوية في الجدار يهمس همساً سماوياً رقيقاً إن أنت أصغيت إليه جيداً. مرت شهور بأسرها لم تتوقّف فيها الريح أبداً. ريح تهب وتصفع النوافذ. وسطح الماء في بركة السباحة متموّج مشؤوم المنظر. شاي ثقيل في الصباح، وشوكولاته مسروقة. بوريس يشد شعري بملء كفه ويركلني في أضلاعي: *استيقظ يا بوتر، انهض وأشرق!*

كنت أقول لنفسي إنني لا أفتقده، لكنني افتقدته. صرت أسكر وحدي، وأشاهد القنوات الإباحية في التلفزيون، وأقرأ *«عناقيد الغضب»*، و*«البيت ذو الجملونات السبعة»*... بدا لي هذان الكتابان أكثر ما كتب إثارة للملل، لكني أمضيت في ذلك كلّه ما أحسسته كأنه آلاف الساعات: وقت كافٍ لتعلم اللغة الدانماركية، أو لتعلّم عزف الغيتار، لو كنت أحاول ذلك. كنت أتجوّل في الشوارع على لوح التزلج شبه المحطم الذي وجدناه في واحد من البيوت المهجورة في منطقتنا. صرت أذهب إلى حفلات فريق السباحة مع هيدلي ـ حفلات يحضرها الأهل، ولا شرب فيها. وفي عطلات نهاية الأسبوع، كنت أذهب إلى «حفلات غياب الأهل» التي يقيمها أولاد وبنات أكاد لا أعرفهم، وأذهب إلى بارات كساندرا فأشرب أقداحاً من جاكرمستير[1]، ثم أعود إلى البيت بالباص القديم في الساعة الثانية صباحاً، أعود ثملاً إلى حد يجعلني مضطراً إلى التمسك بظهر المقعد الذي أمامي حتى لا أقع في الممر. وبعد المدرسة، إذا كنت ضجراً، لم يكن صعباً أن أذهب فأتسكع مع جمهرة خاملة من متعاطي

---

(1) مشروب مكون من كحول وتوابل ومستخلصات عشبية كثيرة.

المخدرات ممن يتجولون بين متجر *دل تاكو* وملاعب الأطفال في منطقة ستريب.

رغم ذلك كله، كنت وحيداً! وكنت مشتاقاً إلى بوريس، إلى فوضاه المندفعة كلها: متجهم، متهور، حاد الطبع، أحمق إلى حد مخيف. بوريس الشاحب ذو المظهر العليل، وتفاحاته المسروقة من المتاجر، وحكاياته باللغة الروسية، وأظافره التي يقضمها بأسنانه، ورباط حذائه المحلول الذي يتجرجر في التراب. بوريس، الكحولي الناشئ، طلق اللسان في الشتائم بأربع لغات، الذي كان يخطف الطعام من طبقي عندما يعنّ له ذلك وينقلب على الأرض ثملاً بوجه محمرّ كأنما من أثر الصفع. حتى عندما يأخذ الأشياء من غير أن يطلبها. هذا ما كان يفعله كثيراً جداً! كانت أشياء صغيرة تختفي على الدوام: أقراص دي في دي، ولوازم مدرسية من خزانتي، كما ضبطته أكثر من مرة وهو يبحث عن المال في جيوبي ـ كانت مقتنياته الشخصية قليلة الأهمية بالنسبة إليه إلى حد يجعل هذه الأفعال كلها، ليست سرقة. يقسم النقود مناصفة بيني وبينه، كلما كانت معه نقود؛ ويعطيني مسروراً كل شيء لديه إذا طلبته منه (بل حتى عندما لا أطلبه، مثلما فعل بقداحة السيد بافليكوفسكي الذهبية التي أبديت إعجابي بها ذات مرة فوجدتها بعد ذلك في الجيب الخارجي لحقيبتي الظهرية).

كما كان هناك أمر غريب: كان لديَّ قلق، أو شيء يشبه القلق، من أن بوريس كانت لديه «عاطفة»، بعض الشيء... إن كانت «عاطفة» الكلمة الصحيحة هنا. في المرة الأولى، عندما انقلب في السرير ورمى بذراعه فوق وسطي، ظللت مستلقياً لحظة، نصف نائم، غير قادر على معرفة ما يجب فعله. رحت أحدق في جواربي القديمة على الأرض، وفي زجاجات البيرة الفارغة ونسختي ذات الغلاف الورقي من كتاب *«شارة الشجاعة الحمراء»*. وأخيراً ـ كنت محرجاً ـ تصنّعت التثاؤب وحاولت الانقلاب مبتعداً عنه؛ لكنه تنهَّد وجذبني إليه بحركة ناعسة كمن يبحث عن الدفء.

همس من خلف رقبتي: *ششش يا بوتر! هذا أنا فحسب.*

كان ذلك غريباً! هل كان غريباً؟ كان غريباً؛ ولم يكن غريباً. غفوت بعد ذلك بلحظات إذ هدهدتني الرائحة المرّة غير المغسولة، رائحة البيرة، وأنفاسه المنتظمة في أذني. كنت مدركاً أنني غير قادر على شرح الأمر أو الكلام فيه من غير جعله يبدو أخطر شأناً مما كان. في الليالي، عندما كنت أستيقظ وقد خنقني الخوف، أجده معي... يمسك بي عندما أصير مذعوراً من السرير فيجذبني حتى أعود راقداً إلى جانبه تحت الغطاء ويتمتم لي بهراء لا معنى له باللغة البولندية... صوته غريب أجش بفعل النعاس. نغفو متعانقين مصغيين إلى الموسيقى من الآيبود (ثيلونيوس مونك، وفيلفيت آندرغراوند... موسيقى كانت أمي تحبها)؛ بل كنا نستيقظ أحياناً فنكون متعانقين متشابكين كأننا طريدان منبوذان أو كأننا طفلان أصغر سناً بكثير.

ولكن... (هذا ما كان الجزء المعتم من الأمر؛ هذا ما كان يقلقني)، كانت هنالك ليالٍ أخرى أكثر سوءاً وأكثر إثارة للحيرة. نتصارع فيها نصف عاريين، وينساب ضوء خفيف من باب الحمام المفتوح ويصير كل شيء مضبباً غير واضح لأنني لا أضع نظارتي: يد كل منا على الآخر، خشنة، سريعة، ورغوة البيرة تسيل على السجادة من زجاجتين ركلناهما من غير أن ننتبه ـ أمر ممتع لا مشكلة فيه أثناء حدوثه الفعلي، بل أكثر من ممتع عندما أطلق ذلك اللهاث الحاد، وتزوغ عيناي وأنسى كل شيء. لكننا نستيقظ صباح اليوم التالي منبطحين على السرير في اتجاهين مختلفين فيتراجع الأمر كلّه إلى لمحات خافتة غير مترابطة، إلى لمحات متقطّعة سيئة الإنارة كأنها من فيلم تجريبي: ملامح وجه بوريس المعوجّة اعوجاجاً غير مريح خابية في أقصى الذاكرة، وما من أثر على حياتنا الفعلية بأكثر من أثر حلم بعيد.

لم نكن نتحدّث عن ذلك أبداً... لم يكن حقيقياً تماماً! كنا نستعد للذهاب إلى المدرسة فنرمي بالأحذية، ويرشّ كل منا الآخر بالماء، ونبتلع حبات الأسبرين للتخلص من الصداع الباقي من ليلة الشراب، ونمزح ونضحك طيلة الطريق إلى موقف الباص. أدركت أن الناس سينظرون إلى الأمر بطريقة غير صحيحة إن عرفوا به. كنت غير راغب في أن يعرف أحد بذلك. وكنت أعرف أن بوريس لا يريد ذلك أيضاً. لكنه كان يبدو لي خالي البال تماماً في ما يتعلّق بهذا الأمر... إلى حد جعلني واثقاً من أن ذلك كان مزاحاً، شيئاً للضحك، لا أكثر... شيء لا يصح أن ينظر إليه المرء بجدية زائدة ولا أن ينشغل باله به. لكنني تساءلت في نفسي أكثر من مرة إن كان عليَّ أن أتشجّع وأقول شيئاً: أرسم خطاً ما، أو أجعل الأمور أكثر وضوحاً حتى أكون واثقاً تماماً من أنه لا يحمل فكرة مغلوطة. إلا أن تلك اللحظة لم تأت أبداً. والآن، ما عاد هنالك من معنى للحديث في الأمر، ولأن أكون لجوجاً حول هذا كله... إلا أن هذه الحقيقة ما كانت مريحة لي على الإطلاق.

كرهت اشتياقي الشديد إليه. وكان يجري في بيتي الكثير الكثير من الشرب، من جانب كساندرا على الأقل؛ وكان فيه أيضاً الكثير من صفق الأبواب (أسمعها صارخة: «لا بأس، إن لم يكن أنت، فهذا يعني أنني من فعل ذلك»). كانت تلك الأشياء أشد وقعاً على نفسي في غياب بوريس (عند وجوده في البيت، يصير كلاهما أكثر ضبطاً للنفس). كان جزء من المشكلة ناجماً عن أن ساعات عمل كساندرا في البار قد تغيرت ـ جرى نقل مواعيد عملها، وصارت واقعة تحت ضغط كبير لأن الأشخاص الذين كانت تعمل معهم تغيّروا، أو لأن نوبات عملها تغيرت: أيام الأربعاء والاثنين، أنهض للذهاب إلى المدرسة فتكون قد عادت من عملها قبل لحظات. كثيراً ما أراها جالسة وحدها تشاهد برنامجها الصباحي المفضل (من غير الطبيعي أن تذهب إلى النوم في تلك الساعة)، وأجدها تتناول

من الزجاجة مباشرة جرعات من بيبتو بيزمول[1].

تقول مع محاولة للابتسام عندما تراني نازلاً السلم: «كم أنا مرهقة!».

«عليك أن تسبحي قليلاً. ستجعلك السباحة تنعسين».

«لا، شكراً. أظنني سأمضي الوقت هنا مع البيبتو بيزمول. يا له من منتج مدهش!... بالتأكيد، روعة بنكهة العلكة».

وأما أبي... فقد صار يمضي في البيت أوقاتاً أطول بكثير من ذي قبل: يمضي الوقت معي؛ وهذا ما كان يسرّني على الرغم من الإرهاق الذي أحسّه نتيجة تقلّبات مزاجه. كنا في موسم كرة القدم. وكان أبي يسير بخطى نشطة متوثّبة. يضرب كفه بكفي بعد أن يتفقّد هاتفه البلاك بيري، ثم يضرب كفه بكفي من جديد ويدور في غرفة المعيشة راقصاً: «أأنا عبقري أم ماذا؟ ماذا تقول؟». كان يرجع إلى تقارير المباريات وتوزيع الفرق، ويرجع من حين لآخر إلى كتاب اسمه *«برج السرطان: تنبؤات رياضية من أجلك على امتداد السنة»*. يقول لي عندما أجده يدقق النظر في الجداول وينقر مفاتيح الآلة الحاسبة مدخلاً أرقاماً كأنه مواطن يحسب ضريبة دخله السنوية: «إنني أبحث دائماً عن الرقم الرابح. ليس عليك إلا أن تكون مصيباً في ثلاثة وخمسين بالمئة، أربعة وخمسين بالمئة، حتى تجني من هذا الأمر مالاً يجعلك تعيش عيشاً طيباً ـ انظر، الباكارا لعبة للتسلية فقط، حصراً، ولا مهارة فيها. أضع لنفسي حدوداً لا أتجاوزها أبداً؛ لكن من الممكن جني مال حقيقي في الرياضة إذا كان لديك الانضباط الكافي في ما يتعلّق بهذا. عليك أن تتعامل مع الأمر كأنك مستثمر. لا يجوز أن تتعامل معه على أنك هاوٍ ولا على أنك مقامر! فالسر في الأمر هو أن الفريق الأفضل هو الذي يكسب المباراة عادة، وأن من يضع قيم المراهنات شخصاً ماهراً في تحديد الأرقام. إلا أن لهذا

(1) دواء شهير لمعالجة أعراض الحموضة في الجهاز الهضمي العلوي.

الشخص حدوداً في ما يتعلّق بالرأي العام، فهو لا يتنبأ بمن سيفوز بل من يظن الرأي العام أنه يجب أن يفوز. من هنا يأتي هذا الهامش بين التفضيل العاطفي والحقائق الفعلية ـ اللعنة، هل ترى هذا اللاعب الذي يتلقّى الكرة في آخر الملعب؟ وها هو أيضاً لاعب كبير آخر من فريق بيتسبرغ! لا نريد أبداً أن يسجلا الآن هدفاً ـ على أية حال، وكما كنت أقول لك، إذا جلست كما يجب، وقمت بعملي كما يجب (بعكس جو بيفبيرغر الذي يختار فريقه بعد خمس دقائق فقط من النظر إلى صفحة الرياضة)... فمن الذي يتفوق على الآخر في هذه الحالة؟ انظر... أنا لست واحداً من أولئك الأغبياء الذين يذهلهم منظر فريق العمالقة وبريقه ـ لعل أمك أخبرتك بهذا! برج السرطان برج السيطرة والحركة! هكذا أنا! إن لي روحاً تنافسية! أريد أن أربح بأي ثمن! من هنا أتت قدرتي على التمثيل... في الماضي، عندما كنت ممثلاً. الشمس في مدار السرطان، وبرج الأُسد في ارتفاع. كله موجود في المخطط الذي أضعه. أنت الآن من برج السرطان، سرطان ناسك، كتوم مختبئ داخل قشرته، أسلوب مختلف تماماً. هذا ليس سيئاً، وهو ليس جيداً أيضاً، إنه ما هو! على أية حال، ومهما يكن من أمر، فأنا أسترشد دائماً بخطوطي الدفاعية الهجومية، لكن ليس من المؤذي في شيء أن ينتبه المرء إلى هذه التحولات وإلى حركة الكواكب يوم المباراة...».

«هل كانت كساندرا هي من جعلك مهتماً بهذا كله؟».

«كساندرا؟ لدى نصف من يهتمون في الرياضة في لاس فيغاس مُنجّم جاهز دائماً. لكن، وكما قلت لك، وفي حالة تساوي العوامل الأخرى كلها، فهل للكواكب أثر على هذا؟ نعم. من المؤكد أنني سأقول نعم. قد يكون يوم اللاعب طيّباً، وقد يكون يومه سيئاً، وقد يكون على غير ما يرام. صدقاً، إن هذا يساعد المرء في التوصّل إلى التخمين الصحيح عندما يصيبه شيء من... كيف أعبّر عن هذا، ها ها، عندما يصيبه شيء من الاضطراب.

لكن...». أخرج لي حزمة كبيرة من أوراق نقدية بدت لي أنها من فئة المئة دولار... كانت مربوطة بشريط مطاطي... «كانت سنتي هذه مدهشة حقاً. ثلاثة وخمسون بالمئة، ألف لعبة في السنة. هذا هو السحر!».

كان يعتبر الآحاد أيام الربح الكبير. أستيقظ، فأجده في الطابق السفلي وسط عدد كبير من الجرائد هنا وهناك. أراه متألّقاً لا يعرف كيف يهدأ... يتحرّك سريعاً كما لو أنه في صبيحة يوم الميلاد، فيفتح خزائن المطبخ ويغلقها، ويتحدّث على هاتفه مع من يتلقى المراهنات الرياضية، ويقضم رقائق الذرة من الكيس مباشرة. وإذا نزلت وكنت معه، ولو فترة قصيرة، خلال المباريات الكبيرة، فإنه يعطيني عندما يربح ما يدعوه «قطعة»... عشرين دولاراً، أو حتى خمسين. يقول مفسّراً هذا وهو جالس على الأريكة، ومنحنياً في اتجاه التلفزيون، يفرك يديه فركاً متحمّساً: «حتى تكون مهتماً. انظر... ما نريده هو أن نمحو فريق كولتس من الخريطة خلال هذا النصف الأول من المباراة. تدمير! وأما فريقا كاوبوي ماينرز فنريد أن يسجلا أكثر من ثلاثين نقطة خلال النصف الثاني». يصيح ويقفز مبتهجاً رافعاً قبضتيه إلى الأعلى... «نعم! أخطأت! استلم ريدسيكنز الكرة، إننا نفوز!».

لكن الأمر كان محيراً لأن فريق كاوبويز هو من ارتكب الخطأ! كنت أظن أننا نريد فوز الكاوبويز بخمس عشرة نقطة على الأقل. كانت تقلّبات ولائه في منتصف المباراة أكثر سرعة من أن أستطيع مجاراتها؛ وكثيراً ما كنت أحرج نفسي بالهتاف والتهليل للفريق الذي لا يواتينا فوزه. إلا أنني كنت مستمتعاً بشعوره الكبير (ونحن ننتقل انتقالات عشوائية من مباراة إلى أخرى)، وبتناولنا طعاماً دسماً طيلة النهار، وكذلك بتلقي العشرينات والخمسينات التي كان يرميها لي كما لو أنها تسقط من السماء. وفي مرات أخرى، كنت أراه متكسّراً محمولاً على موجة من الحماسة الغليظة المزعجة... انزعاج غامض يستولي عليه من غير أن تكون له علاقة كبيرة (على حد علمي) بمجريات المباريات، فيسير في الغرفة ذاهباً آتياً من غير

سبب مفهوم لي... يشبك يديه فوق رأسه وينظر إلى مجموعة الأوراق متخذاً هيئة رجل هدّه إخفاقه في عمله: يناجي المدربين واللاعبين ويسألهم عما دهاهم، بحق الجحيم، وعما يجري لهم. يتبعني إلى المطبخ أحياناً وقد اكتسى هيئة توسّل غريبة. يقول لي مازحاً، مستنداً إلى الطاولة متخذاً وضعية هزلية: «إنهم يقتلونني، هناك!». فأرى في وقفته منثنياً عند وسطه هيئة لص مصارف أصابه طلق ناري فانحنى إلى الأمام.

هذه الخطوط. وتلك الخطوط. والجري في الملعب. والانتقال إلى الدفاع. في يوم المباريات، حتى الخامسة مساء، أو نحو ذلك، وضياء الصحراء الأبيض قد بدأ يكتسب أول ظلمة يوم الأحد ـ خريف يغرق في الشتاء، ووحدة غسق تشرين الأول عشية الذهاب إلى المدرسة من جديد. إلا أن لحظة طويلة تظل باقية دائماً قبيل أواخر نهارات المباريات تلك، حين يتحوّل مزاج الجمهور ويصير كل شيء كئيباً غير مضمون، على الشاشة وخارج الشاشة، ويخبو الألق المعدني على زجاج نوافذ الردهة متحولاً إلى لون ذهبي ثم رمادي، وتظهر ظلال طويلة ثم يحل الليل على سكون الصحراء، يأتيني حزن لا أستطيع نفضه عن نفسي، إحساس ببشر صامتين يسيرون تباعاً صوب بوابات الخروج من الملعب، ومطر بارد يهطل في بلدات جامعية شرق البلاد.

يكتنفني في تلك اللحظات ذعر يصعب علي تفسيره. سريعاً تنتهي أيام المباريات تلك، بإحساس يكاد يشبه إحساس من فقد دماً كثيراً. شيئاً يذكّرني بإحساسي عندما وقفت أنظر إلى شقتنا في نيويورك توضع في صناديق مغلقة وتنقل بعيداً: حركة مستمرة، ولا قرار... لا شيء أتشبّث به. أصعد إلى الأعلى، وأغلق على نفسي باب غرفتي، وأضيء المصابيح كلّها، وأدخن أعشاباً مخدرة إن كان لدي شيء منها، وأستمع إلى الموسيقى من مكبرات الصوت النقّالة ـ موسيقى لكوستاكوفيتش ولإيريك ساتي لم أستمع إليها في الآونة الأخيرة... وضعتها على الآيبود،

من أجل أمّي، ثم ألم أحذفها ـ أنظر إلى تلك الكتب على الرفوف: أكثرها كتب فنية لأنها تذكّرني بها.

«قمم فن الرسم الهولندي». *«دلفت: العصر الذهبي»*. *«لوحات لرامبراندت، تلاميذه وأتباعه المجهولون»*. من خلال البحث عبر الكمبيوتر في المدرسة، عرفت أن هنالك كتاباً عن فابريتيوس (كتاب صغير، مئة صفحة فقط)، لكنه لم يكن متوفّراً في مكتبة المدرسة، ثم إن الزمن المتاح لي على ذلك الكمبيوتر كان خاضعاً لمراقبة وثيقة جعلتني شديد الخوف من إجراء أي بحث عبر الإنترنت ـ خاصة بعد أن تسرّعت فنقرت على رابط باسم «طائر الحسون، 1654» فأخذني إلى موقع ذي مظهر رسمي مخيف اسمه «قاعدة بيانات الأعمال الفنية». كان تصفّح ذلك الموقع في حاجة إلى تسجيل الدخول: الاسم والعنوان! انتابني ذعر شديد عندما رأيت، على غير توقّع، كلمتي «*انتربول*» و«*مفقود*»، فما كان مني إلا أن أغلقت الكمبيوتر كله، وهو ما كان أمراً لا يصح أن نفعله. سألني أمين المكتبة السيد أوسترو قبل أن أتمكّن من تشغيل الجهاز من جديد: «ماذا فعلت؟» مد يده من فوق كتفي وبدأ يكتب كلمة الدخول إلى الكمبيوتر.

«أنا...». على الرغم من نفسي، أحسست بالارتياح عندما بدأ يبحث في تاريخ التصفّح على الإنترنت لأنني لم أكن أنظر إلى موقع إباحي. كنت قد اعتزمت شراء لابتوب رخيص لنفسي بالمال الذي أعطاني إياه أبي هدية في عيد الميلاد، خمسمئة دولار، لكني أنفقت ذلك المال من غير أن أنتبه إلى نفسي. «الأعمال الفنية المفقودة». فكّرت أن ما من سبب يدعوني إلى القلق بسبب كلمة «*مفقودة*» لأن الأعمال الفنية التالفة مفقودة. صحيح أنني لم أكتب اسمي، إلا أن القلق لم يفارقني لإدراكي أنني دخلت إلى موقع قاعدة البيانات الفنية ذاك من كمبيوتر المدرسة، أي من عنوان إنترنت معروف. كنت أتخيل أن المحقّقين الذين أتوا لرؤيتي

من قبل كانوا يتابعونني، وأنهم يعرفون بوجودي في لاس فيغاس. صحيح أن الصلة ضعيفة، لكنها تظلّ صلة حقيقية.

كانت اللوحة مخفية بطريقة ظننتها ذكية؛ فقد غلفتها بغلاف وسادة قطني، ثم ثبّتها بشريط لاصق عريض إلى ظهر رأس السرير. لقد تعلمت من هوبي ضرورة توخّي الحذر الشديد عند التعامل مع الأشياء القديمة (كان يضع أحياناً قفازات قطنية بيضاء عندما يشتغل على أشياء ذات حساسية خاصة)؛ فلم ألمس اللوحة بيديّ العاريتين أبداً، لم أمسكها إلا من حوافها الخشبية. ولم أخرجها من مكانها إلا عندما يغيب أبي وكساندرا عن البيت وأكون متيقناً من أنهما لن يعودا قبل زمن طويل. وحتى عندما لا أستطيع رؤيتها، كنت أرتاح لعلمي بأنها موجودة هناك لأنها تمنح الأشياء عمقاً وصلابة، ولأنها تعزيز لكل ما هو أساسي كأنها قاعدة متينة خفية من الصحّة والصواب تشيع في نفسي اطمئناناً بقدر ما تشيعه فيها معرفتي بأن هناك، في البعيد، حيتاناً تسبح في مياه بحر البلطيق من غير أن يزعجها أحد، ورهباناً في مناطق زمنية غامضة لا يكفّون عن الترتيل من أجل خلاص هذا العالم.

كان إخراج اللوحة، وإمساكها، والنظر إليها، أموراً لا يجوز فعلها بخفّة. بل إن فعل مد يدي إليها كان يمنحني إحساساً بأنني أكبر وأعلو وأنبعث. وفي لحظة غريبة ما، عندما أكون قد نظرت إليها زمناً كافياً بعينين جففهما هواء الصحراء المبرّد في غرفتي، يبدو لي أن الحيّز الذي يفصلني عنها قد اختفى كله... أنظر إلى اللوحة فتكون هي الحقيقة، لا أنا.

فابريتيوس: 1622 – 1654. ابن معلم مدرسة. أقل من عشرة أعمال قابلة لأن تنسب إليه على نحو دقيق. يقول مؤرّخ مدينة دلفت فان بليزويك إن فابريتيوس كان في مرسمه يعمل على سداسية كنيسة *أوده كيرك* في دلفت في الساعة العاشرة والنصف صباحاً عندما وقع انفجار مخزن البارود. ويقول الكتاب إن المواطنين الجيران انتشلوا جثة الرسام

من تحت أنقاض مرسمه «بأسى عظيم، وبجهد غير قليل». كان عنصر المصادفة هو ما أسرني في القصص المختصرة التي زخر بها ذلك الكتاب الذي في المكتبة: كارثتان عشوائيتان: كارثتي وكارثته... كارثتان تلتقيان عند النقطة الخفية نفسها، عند *الانفجار الكبير* كما كان أبي يدعوه من غير أي قدر من التهكّم أو التقليل من شأن ما حدث، بل بشيء من الاحترام والتسليم لقوى المصادفة التي حكمت حياته. يمكنك أن تمضي سنوات في دراسة تلك الصلات والعلاقات من غير أن تتوصّل إلى إدراكها ـ كان الأمر كله أشياء تجتمع، وأشياء تفترق، وانزياح في الزمن... أمي واقفة أمام المتحف لحظة *تشوّه الزمن* والتحوّل الغريب في الضياء... رِيَبٌ تحوم عند حافة سطوع لا حدود له. الصدفة العمياء التي يمكن أن تغيّر كل شيء، أو يمكن ألّا تغيّر شيئاً.

في الطابق العلوي، كان طعم الكلور في ماء الصنبور في مغسلة حمّامي يجعله غير قابل للشرب. وفي الليالي، كانت ريح جافة تعصف بالقمامة وعلب البيرة الفارغة في الشارع. كان هوبي قد أخبرني أن البلل والرطوبة أسوأ شيء في العالم بالنسبة إلى الأنتيكات. كان يعمل على إصلاح صندوق ساعة طويل عندما رحلت، فجعلني أرى كيف صار الخشب في الأسفل متعفّناً كله بسبب الرطوبة («يبدو أن أحداً كان يدلق دلاء الماء لغسل الأرض. هل ترى كم صار هذا الخشب طرياً، كم صار مهترئاً؟»).

تشوّه الزمن: حالة رؤية الأشياء مرتين، أو أكثر من مرتين. تماماً مثلما كانت طقوس أبي وأساليبه في المراهنة وكل ما يسترشد به من سحر ووحي أموراً مبنية على إدراك أنماط غير مرئية، كذلك كان ذلك الانفجار في دلفت جزءاً من حوادث معقّدة لها ارتدادها في زماننا الحاضر. قد تصيبك كثرة النتائج بالدوار. كان أبي يقول: «ليس المال قيمةً. فكل ما يمثّله المال هو طاقة الأشياء. هكذا تستطيع تعقّبه. إنه جريان المصادفة». كان طائر الحسّون يحدّق في وجهي بنظرة ثابتة... بعينين لامعتين لا

تتغيران. كان الإطار الخشبي رقيقاً، «أكبر من ورقة من قياس A4 بقدر بسيط». هذا ما أشار إليه واحد من الكتب الفنّية التي كانت عندي على الرغم من أن كل ما فيه من تواريخ وأبعاد ومعلومات واردة في النص التعليمي الميت كان عديم الصلة بالأمر مثلما تكون إحصاءات صفحة الرياضة ومعلوماتها عديمة الصلة بما يجري في الملعب في لحظة يكون فيها فريق باكرز متقدّماً بنقطتين في الجزء الرابع من المباراة لحظة يبدأ تساقط ثلج خفيف فوق الملعب. هذه اللوحة، وما فيها من سحر وحياة، كانت أشبه بتلك اللحظة الأثيرية الغريبة، لحظة تساقط الثلج في ضوء مائل إلى الاخضرار فتتهادى شذراته وتدوّم أمام الكاميرات فلا تعودُ مهتماً بالمباراة ولا بمن يفوز بها أو يخسرها، بل تصير راغباً في الشرب في تلك اللحظات التي لا كلام فيها. كنت أنظر إلى اللوحة فأحس ذلك التقارب نفسه في اتجاه نقطة واحدة: لحظةٌ مترجرجة في ضياء الشمس، لحظة موجودة الآن، وإلى الأبد. وما كنت ألاحظ تلك السلسلة في ساق الطائر إلا مصادفة، وما كنت أفكر في تلك الحياة القاسية على كائن حي صغير... يرفرف لحظة، ويجد نفسه دائماً مضطراً إلى أن يحط في ذلك المكان نفسه، المكان الذي لا أمل فيه.

5

الأمر الحسن: كنت مسروراً لحالة أبي. لقد كان يأخذني لتناول العشاء في الخارج ـ مطاعم لطيفة على طاولاتها مفارش بيضاء؛ نحن الاثنان فقط ـ كنا نذهب مرة في الأسبوع، على الأقل. وفي بعض الأحيان، كان يدعو بوريس إلى الذهاب معنا، دعوات كان بوريس يسارع إلى قبولها على الدوام (كان إغراء الوجبات الجيدة قوياً إلى الحد الكافي للتغلّب على قوة جاذبية كوتكو). لكن الغريب أنني صرت أجد نفسي أكثر سروراً عندما أكون وحيداً مع أبي.

قال لي في واحدة من مشاوير العشاء تلك عندما كنا نأكل الحلوى متمهّلين في وقت متأخر ونتحدّث عن المدرسة وعن أشياء كثيرة... هذا الأب الجديد، المهتم! من أين أتى؟...: «هل تعرف؟... إنني مسرور حقّاً بالتعرف عليك بعد أن صرنا هنا، يا ثيو».

قلت محرجاً: «نعم، ممم، صحيح، وأنا أيضاً». لكنني عنيت ما قلته.

مرر أبي أصابع يده في شعري: «أقصد... شكراً لأنك منحتني فرصة ثانية، يا ولدي. هذا لأنني ارتكبت غلطة كبيرة. ما كان يجوز أبداً أن أترك علاقتي بأمك تؤثّر على علاقتي بك...». رفع يده معترضاً على ما كنت أهم بقوله... «لا، لا، لست ألوم أمك أبداً، فقد صار هذا من الماضي. كل ما في الأمر أنها كانت تحبّك حبّاً شديداً، وكنت أحس دائماً كما لو أنني أقحم نفسي بينكما. شيء يشبه حالة: شخص غريب في بيتي! كنتما شديدَيّ القرب...». ضحك ضحكة حزينة... «ما كان هنالك متسع لثلاثة أشخاص!».

«الحقيقة...». كنا أنا وأمي نسير في البيت على أطراف أصابعنا، ونحاول تجنّبه. أسرار، وضحك... «أعني، إنني فقط...».

«لا، لا، لا أريد منك اعتذاراً. أنا هو الأب، وأنا من يجب أن يعرف كيف يتصرّف. لكن ذلك صار شيئاً يشبه حلقة مفرغة... إن كنت تدرك ما أعنيه. صرت أحس بالغربة عن البيت، بأنني منبوذ؛ وصرت أشرب كثيراً. ما كان يجوز لي أن أترك ذلك يحدث. والنتيجة أنني ضيّعت على نفسي عدداً من السنوات المهمّة من حياتك. أنا من يتحمّل مسؤولية هذا».

أحزنني ذلك كثيراً فلم أجد شيئاً أقوله.

«لا أريد أن أجعلك في حالة سيئة يا صاحبي! أريد التعبير عن سعادتي بأننا أصدقاء الآن».

قلت وأنا أنظر إلى طبق كريم روليه الذي لم أترك فيه شيئاً: «حسناً، نعم... وأنا سعيد أيضاً».

«وأنا، أعني... أريد أن أعوّض ذلك. تعرف أنني أحقق نتائج طيبة جداً في الرياضة...» أخذ رشفة من فنجان القهوة... «أريد أن أفتح لك حساب توفير مصرفياً. أنت تعرف كيف، أضع بعض المال جانباً، من أجلك. هذا لأنني كنت غير منصف معك بقدر ما كنت غير منصف مع أمك... أنت تعرف، وتلك الشهور كلها بعد أن تركت البيت».

قلت مرتبكاً: «أبي... لست مضطراً إلى فعل هذا».

«أوه، لكني أريد فعله! إن لديك رقم ضمان اجتماعي، أليس كذلك؟».

«بالطبع».

«لا بأس إذاً. إن لديَّ منذ الآن عشرة آلاف دولار وضعتها جانباً. هذه بداية حسنة. إذا تذكّرت الأمر عندما نعود إلى البيت، فأعطني رقم الضمان الاجتماعي، وسوف أفتح حساباً باسمك عندما أذهب إلى البنك. هل اتفقنا؟».

6

بمعزل عن وجودنا في المدرسة، لم أعد أرى بوريس إلا قليلاً جداً باستثناء واحدة من أمسيات السبت عندما أخذنا أبي إلى مطعم *كارنيجي ديلي* في فندق *ميراج* لتناول السابليه والبياليس[1]. لكنه أتى قبل عيد الشكر ببضعة أسابيع وصعد السلّم إلى غرفتي حين لم أكن أتوقّعه. قال لي: «يمر أبوك بفترة صعبة، فهل تعرف هذا؟».

وضعت من يدي كتاب «سيلاس *مارنر*»[2] الذي كنا نقرأه في المدرسة: «ماذا؟».

قال: «لقد كان يلعب على طاولة المئتي دولار ـ مئتا دولار في المرة الواحدة! من الممكن أن تخسر ألف دولار خلال 5 دقائق... بكل سهولة».

---

(1) بياليس: نوع من الفطائر بالبصل.

(2) سيلاس مارنر: رواية تأملية لليافعين لجورج إيليوت صدرت سنة 1861.

قلت: «ألف دولار ليست شيئاً بالنسبة إليه...». ثم أضفت عندما وجدت أن بوريس لم يجبني بشيء... «ما المبلغ الذي قال إنه خسره؟».

قال بوريس: «لم يقل. لكن المبلغ كبير».

«هل أنت واثق من أنه كان صادقاً؟».

ضحك بوريس، ثم قال وهو يجلس على سريري ويميل إلى الخلف مستنداً إلى مرفقيه: «لعلّه لم يقل لي الحقيقة، ألا تعرف شيئاً عن الأمر؟».

«الحقيقة...». بقدر ما أعلم، فقد حقّق أبي أرباحاً كبيرة عندما فاز فريق *بيلز* منذ أسبوع... «لا أرى كيف يمكن أن يكون قد خسر كثيراً. إنه يأخذني إلى مطعم *بوشون*، وإلى أماكن أخرى من المستوى نفسه».

قال بوريس بحصافة: «نعم، لكن لعل هناك سبباً وجيهاً».

«سبب؟ أي سبب؟».

بدا لي أن بوريس موشك على قول شيء ما لكنه عدّل عن قوله.

قال وهو يشعل سيجارة ويأخذ منها نفساً عميقاً: «نعم، من يدري؟ أبوك هذا... إنه روسي إلى حد ما».

أجبته وأنا أمد يدي إلى السيجارة التي أشعلها: «نعم...». لقد اعتدت سماع «الأحاديث الثقافية» بين بوريس وأبي، وهما يلوّحان بأيديهما ويتكلّمان على مشاهير المقامرين في التاريخ الروسي: بوشكين، ودوستويفسكي، وغيرهما ممن لم أكن أعرف أسماءهم.

«نعم... هذا طبع روسي تماماً كما تعلم... أن يتذمّر المرء طيلة الوقت من سوء الأحوال! حتى إذا كانت الحياة رائعة... احتفظ بذلك سرّاً في نفسك، فأنت لا تريد إغراء الشيطان بأن يأتي إليك». كان مرتدياً قميصاً من القمصان التي تخلّى عنها أبي وقد صار شبه شفافٍ لكثرة الاستخدام... قميص كبير متهدّل عليه كما لو أنه ثوب عربي أو هندي... «لكن من الصعب أحياناً أن يعرف المرء إن كان أبوك مازحاً أم جادّاً!». ثم أضاف بعد أن نظر إليّ نظرة منتبهة: «ما الذي تفكر فيه؟».

«لا شيء».

«يعرف أن الواحد منا يخبر الآخر كل شيء. وهذا ما جعله يخبرني. لو لم يرِد أن تعرف بالأمر لما أخبرني».

كنت واثقاً تماماً من أن الأمر ليس هكذا. لكني قلت له: «صحيح». كان أبي شخصاً من النوع الذي يسرّه أن يناقش شؤون حياته الشخصية مع زوجة مديره، أو مع أي شخص آخر غير ملائم لهذا الأمر، شريطة أن يكون في المزاج المناسب لذلك.

قال بوريس: «لو ظن أنك تريد أن تعرف، لكان أخبرك بنفسه».

كان لدى أبي ميل إلى المازوخية وإلى الإيحاءات المبالغ فيها؛ ففي أيام الأحد التي نمضيها معاً، كان يحب أن يصوّر سوء حظه تصويراً مضخّماً، وأن يشتكي ويئن متذمّراً بصوت مرتفع من أنه تعرّض «للسلب» أو «للدمار» بعد خسارته لعبة ما، على الرغم من كونه قد ربح عدداً من المباريات التي أراه يحسب مكاسبها على الآلة الحاسبة. قلت لبوريس: «اسمع! مثلما قلت لي... إنه يبالغ أحياناً».

قال بوريس: «نعم، صحيح، هذا صحيح...». استعاد السيجارة مني، ونفث الدخان، ثم أعادها إليَّ بكل شهامة... «يمكنك إنهاءها».

«لا، شكراً».

حلّت لحظة صمت كنا نسمع خلالها هدير الجمهور في واحدة من مباريات كرة القدم التي يتابعها أبي على التلفزيون في الأسفل. اتكأ بوريس على مرفقيه من جديد وقال: «ماذا لديكم للأكل في الأسفل؟».

«لا شيء على الإطلاق».

«كنت أظن أن هناك بقايا وجبة صينية».

«لم تعد موجودة. أكلها أحد ما».

«خراء. لعل من الأفضل أن أذهب إلى بيت كوتكو. لدى أمها بيتزا مجلّدة. هل تحب أن تأتي معي؟».

«لا، شكراً».

ضحك بوريس وبدأ يرفع شارات العصابات الزائفة: «كما تريد، يو!». قال هذا بصوت «رجل العصابات» الذي يستخدمه أحياناً (ليس مختلفاً عن صوته العادي في شيء غير حركات يديه وكلمة «يو»). ثم نهض وسار إلى الباب مسرعاً... «علي أن أذهب لكي آكل».

7

كان الأمر العجيب في علاقة بوريس وكوتكو هو سرعة تحوّلها إلى حالة مترنحة استفزازية مضطربة. كانا مستمرَّين في قضاء الوقت معاً على الدوام؛ وكان كل منهما عاجزاً عن إبعاد يديه عن الآخر. لكن الأمر يصير لحظة يفتحان فميهما أشبه بالاستماع إلى شخصين متزوجين منذ خمسة عشر عاماً. كانا يتشاحنان في ما يتعلق بمبالغ صغيرة من المال... من الذي دفع ثمن السندويتشات التي تناولاها آخر مرة. كانت الأحاديث بينهما (عندما أتمكّن من التقاطها) تجري على النحو التالي:

بوريس: ماذا! إنني أحاول أن أكون لطيفاً.

كوتكو: نعم، لكن ذلك لم يكن لطيفاً.

يجري بوريس لكي يلحق بها: إنني أعني هذا يا كوتكو! صدقاً! أحاول أن أكون لطيفاً!

كوتكو: [عبوس]

يحاول بوريس تقبيلها، لكن من غير طائل: ماذا فعلت؟ ما الأمر؟ لماذا تظنين أنني لم أعد لطيفاً؟

كوتكو: [صمت]

كانت مشكلة مايك (غريم بوريس الرومانسي الذي ينظّف برك السباحة) قد حلت من خلال القرار المناسب تماماً الذي اتخذه مايك بأن يذهب وينضم إلى حرس السواحل. لكن من الواضح أن كوتكو

كانت مستمرة في قضاء ساعات معه كل أسبوع؛ وهو ما لم يكن، لسبب ما، أمراً مزعجاً في نظر بوريس («إنها تحاول فقط أن تقدّم له نوعاً من المساندة»). لكن شدة غيرته عليها في المدرسة كانت أمراً يثير القلق. كان يعرف برنامج دروسها عن ظهر قلب. ولحظة انتهاء درسنا، يذهب مسرعاً لكي يبحث عنها وكأنه يشك في أنها تكذب عليه، فتذهب إلى ورشة الأشغال اليدوية بدلاً من درس اللغة الإسبانية. وفي ذات يوم، كنت وحيداً في البيت مع بوبر بعد المدرسة، فاتصل بوريس ليسألني: «هل تعرف شخصاً اسمه كايلر أولوسكا؟».

«لا».

«إنه معك في درس التاريخ الأميركي».

«آسف. لكن عدد الطلاب كبير في ذلك الدرس».

«لا بأس. انظر. هل يمكنك الاستعلام عنه؟ ربما... أين يعيش؟».

«أين يعيش؟ هل الأمر متعلّق بكوتكو؟».

وعلى غير انتظار ـ شيء فاجأني إلى حد كبير ـ رن جرس الباب. أربع رنات طويلة. خلال الفترة كلّها التي قضيتها في لاس فيغاس لم يقرع أحد جرس الباب في بيتنا... ولا مرة واحدة! كان بوريس قد سمع صوت الجرس على الهاتف فسألني: «ما هذا؟». وكان الكلب يجري في دوائر صغيرة وينبح بأقصى قوته.

«أحد ما بالباب».

«بالباب؟...»

كان هذا حادثاً كبيراً في شارعنا المهجور... لا جيران، ولا سيارة قمامة، ولا حتى مصابيح... «من تظنه أتى؟».

«لست أدري. سأرى ثم أتصل بك لاحقاً».

حملت بوبتشيك الذي كان في حالة هستيرية، ثم أفلحت في فتح الباب بيد واحدة (كان يزعق ويتلوى بين ذراعي محاولاً أن ينزل إلى الأرض).

«انظروا إلى هذا!». قالها صوت بهيج فيه لكنة منطقة جيرسي... «يا لهذا الكلب الجميل!».

وجدت نفسي واقفاً ترفرف عيناي في شمس العصر وتنظران إلى رجل شديد الطول، شديد السمرة، شديد النحول، لم أستطع تحديد عمره. كان مظهره شبيهاً بواحد من شباب الروديو من ناحية، ومن ناحية أخرى، شبيهاً بمظهر فنان يقدّم وصلة ضاحكة في أحد الصالونات. كانت نظارته الشمسية ذات الإطار الذهبي مائلة إلى اللون الأرجواني عند أعلاها. سترة رياضية بيضاء فوق قميص كاوبوي أحمر بأزرار لؤلؤية. وبنطلون جينز. لكن شعره كان أكثر ما لفت نظري: مزيج من شعر مستعار وشعر مزروع (أو مرشوش رشّاً)، من طبيعة تشبه الألياف الزجاجية العازلة. كان لون ذلك الشعر بنياً داكناً مثلما يكون لون ورنيش الأحذية في علبته.

قال وهو يومئ برأسه في اتجاه بوبر المستمر في محاولاته للإفلات مني: «هيا، دعه ينزل». كان صوته عميقاً، وكانت هيئته ودّية هادئة. لولا لكنته، لكان نموذجاً لرجل من تكساس... الحذاء، وكل شيء... «دعه يجري! هذا لا يزعجني. أنا أحب الكلاب».

عندما أطلقت سراح بوبتشيك، انحنى الرجل حتى يربت على رأسه بحركة تشبه حركة راعي بقر طويل ضامر عند نار أشعلها في البرية. على الرغم من غرابة مظهر ذلك الشخص، بشعره وكل ما فيه، لم أستطع منع نفسي من الإعجاب بمدى السهولة والراحة التي كانتا باديتين عليه في إهابه هذا.

قال لي: «نعم، نعم. أنت كلب صغير لطيف!». كان خداه اللذان لوّحتهما الشمس ضامرين، مجعّدين، كأنهما تفاحتان ذهبيتان ارتسمت عليهما خطوط دقيقة... «لدي ثلاثة كلاب في البيت، دوبر صغيرة».

«عفواً؟».

انتصب واقفاً وابتسم لي فرأيت أسنانه المنتظمة شديدة البياض. قال: «كلاب دوبرمان من النوع الصغير. إنها عصبية شرسة تعض كل ما في البيت وتتلفه عندما أكون في الخارج. ما اسمك يا فتى؟».

قلت: «ثيودور بيكر»... من يكون هذا الرجل؟

ابتسم مرة أخرى. كانت عيناه صغيرتين لامعتين من خلف نظارته الشمسية نصف القاتمة... «أنت من نيويورك. أستطيع سماع هذا من صوتك. أليس هذا صحيحاً؟».

«هذا صحيح».

«وأنت من مانهاتن. هذا ما خمّنته. صحيح؟».

قلت: «صحيح». كنت أتساءل في نفسي عما سمعه في صوتي. لم يسبق أن استنتج أحد أنني من مانهاتن عندما سمعني أتكلم.

«جيد. أنا من كانارسي[1]. ولدت ونشأت فيها. يسرّني دائماً التقاء أشخاص من الشرق. اسمي ناومان سيلفر». مد لي يده مصافحاً.

«يسرّني لقاؤك يا سيد سيلفر».

ضحك مسروراً: «سيد! يعجبني الولد المهذب. لم يعودوا يصنعون الكثير من أمثالك هذه الأيام. هل أنت يهودي يا ثيودور؟».

أجبته: «لا يا سيدي». ثم تمنّيت لو قلت نعم.

«لا بأس... سأقول لك ما الأمر. كل ولد من نيويورك اسمه موجود في دفتري يكون يهودياً فخرياً. هكذا أنظر إلى الأمور. هل ذهبت إلى كانارسي يوماً ما؟».

«لا يا سيدي؟».

«الحقيقة أنها كانت مجتمعاً صغيراً رائعاً في ما مضى؛ لكنها الآن...». هز كتفيه... «تعيش عائلتي هناك منذ أربعة أجيال. وقد افتتح جدّي صول

---

(1) منطقة في مدينة نيويورك.

أول مطعم كوشير[1] في أميركا، فهل رأيت؟ كان مطعماً كبيراً، شهيراً. لكن المطعم أغلق عندما كنت طفلاً. ثم أخذتنا أمي للعيش في جيرسي بعد موت أبي حتى نكون أقرب إلى خالي هاري وأسرته». وضع يده على خصره النحيل ونظر إليّ... «هل أبوك في البيت يا ثيو؟».

«لا».

نظر إلى ما خلفي، إلى داخل البيت: «لا؟ خسارة. هل تعرف متى يعود؟».

«لا يا سيدي».

«سيدي... أحب هذا! أنت طفل جيد. سأقول لك ما الأمر لأنك تذكّرني بنفسي عندما كنت في سنّك. كنت قد أنهيت اليشيفا[2]... رفع يديه فرأيت في معصميه الأسمرين المشعرين أساور ذهبية... «وكانت هاتان اليدان بيضاوين كالحرير. كانتا مثل يديك».

كنت لا أزال واقفاً بالباب، وكنت محرجاً: «ممم... هل تريد الدخول؟».

لم أكن متأكداً من دعوة شخص غريب في الدخول إلى البيت، إلا أني كنت ضجراً أشعر بالوحدة... «يمكنك انتظاره هنا إن أردت. لكني لا أعرف متى يعود إلى البيت».

ابتسم لي من جديد: «لا، أشكرك. تنتظرني بضعة مشاوير أخرى. لكني سأقول لك... سأكون صادقاً معك لأنك ولد لطيف. لدي خمس نقاط على والدك. هل تعرف معنى هذا؟».

«لا يا سيدي».

«لا بأس... فليباركك الرب. لست مضطراً إلى معرفته، بل آمل ألا تعرفه أبداً. لكن، دعني أقول لك إن هذه الطريقة في العمل ليست جيدة...».

---

(1) كوشير: الأكل الحلال عند اليهود.

(2) يشيفا: مدرسة دينية يهودية متزمّتة.

وضع يداً ودوداً على كتفي... «صدّق أو لا تصدّق يا ثيودور... إنني أقدر مواهب الناس. لا أحب المجيء إلى بيت أحد الرجال والتعامل مع طفله مثلما أفعل الآن. هذا غير صائب. عادة ما أذهب إلى مكان عمل الرجل، فنجلس ونتحدّث. لكن تحديد مكان والدك أمر صعب... وأظنك تعرف ذلك».

سمعت رنين الهاتف آتياً من داخل البيت: كنت واثقاً تمام الثقة من أن المتصل بوريس. قال السيد سيلفر بنبرة ابتهاج: «لعل من الأفضل أن تذهب للإجابة على الهاتف».

«لا، لا مشكلة».

«بل أظن أن عليك أن تذهب. سأنتظرك هنا».

دخلت البيت شاعراً بقدر متزايد من الحيرة والاضطراب. رفعت سماعة الهاتف فكان المتصل بوريس، كما توقعت. قال لي: «من الذي كان في الباب؟ إنها ليست كوتكو؟... ماذا؟».

«ليست كوتكو. اسمع...».

«أظن أنها ذهبت إلى بيت ذلك الشخص، تايلر أولوسكا. إن لديَّ هذا الإحساس الغريب. في الحقيقة... لعلّها لم تذهب معه إلى بيته، لكنهما غادرا المدرسة معاً. كانت تتكلّم معه في ساحة وقوف السيارات. كانا معاً في الدرس الأخير، درس مهارات الأشغال الخشبية، أو أي شيء من هذا».

«إنني آسف يا بوريس. إنني آسف حقّاً، لكنني لا أستطيع الكلام الآن. سأعاود الاتصال بك، هل اتفقنا؟».

قال لي السيد سيلفر عندما عدت إلى الباب: «سوف أصدّق كلامك وأن المتصل لم يكن أبوك...». نظرت إلى ما خلفه فرأيت سيارة كاديلاك متوقفة عند حافة الرصيف. كان في السيارة رجلان اثنان ـ سائق ورجل آخر في المقعد الأمامي... «لم يكن والدك المتصل، صحيح؟».

«لا يا سيدي».

«لو كان هو المتصل، لقلت لي. ألن تقول؟».

«نعم يا سيدي».

«فلماذا لا أصدقك؟».

بقيت صامتاً. فماذا أقول له؟

«لا أهمية للأمر يا ثيودور». قال هذا وانحنى ليداعب بوبر خلف أذنيه... «سوف أجده، عاجلاً أو آجلاً. لكن عليك أن تتذكر إخباره بما قلته لك. قل له إنني أتيت إلى هنا».

«نعم يا سيدي».

أشار إليّ بإصبعه الطويل وسألني: «قل لي اسمي مرة أخرى».

«السيد سيلفر».

«السيد سيلفر. هذا صحيح. إنني أتأكد فحسب».

«ما الذي تريد قوله له؟».

قال: «أخبره بأنني قلت لك إن المقامرة للسائحين، لا لسكان المدينة». وبخفّة شديدة، لمس أعلى رأسي بيده السمراء النحيلة: «فليباركك الرب».

8

عندما ظهر بوريس بباب بيتنا بعد قرابة نصف ساعة من ذلك، حاولت إخباره عن زيارة السيد سيلفر. صحيح أنه أصغى إلى ما قلته (قليلاً) إلا أنه كان حانقاً أشد الحنق لأنها تغازل صبياً آخر... تايلر أولوسكا... أو مهما يكن اسمه. ولد ثريّ يدخن الأعشاب المخدّرة ويكبرنا عمراً بسنة واحدة. كان يلعب في فريق الغولف. قال بوريس بصوت أجش ونحن جالسَين على الأرض في الطابق السفلي ندخن عشبة مخدرة حصل عليها من كوتكو: «اللعنة عليها. لا ترد على هاتفها. كوتكو. أعرف أنها معه الآن».

«ماذا بك؟...». كنت شديد القلق بسبب زيارة السيد سيلفر، لكني

كنت أشد انزعاجاً من الحديث عن كوتكو... «أظنه كان يشتري منها مخدرات».

«صحيح، لكن هنالك ما يتجاوز هذا. إنني أعرف. لم تعد تريد أن أنام عندهم... هل لاحظت هذا؟ ودائماً يكون لديها *أشياء* يجب أن تقوم بها *الآن*. بل حتى إنها لا تضع العقد الذي اشتريته لها».

انزلقت نظارتي قليلاً فدفعتها فوق أنفي. لم يكن بوريس قد اشترى لها ذلك العقد الغبي، بل الحقيقة أنه قد سرقه عندما كنا في المول. اختطفه وجرى به خارجاً. بينما كنت أنا المواطن المحترم في سترتي المدرسية أشغل انتباه البائع بأسئلة غبية عن الهدية التي يجب أن نشتريها أنا وأبي لتقديمها إلى أمي في عيد ميلادها. إلا أنني حاولت الآن أن أبدو متعاطفاً معه.

كان وجه بوريس مكفهراً، وكان حاجباه أشبه بغيمة رعدية: «إنها عاهرة. في ذلك اليوم... كانت تتظاهر بالبكاء في الصف محاولة أن تجعل ذلك الوغد أولوسكا حزيناً عليها. يا لها من ساقطة!».

هززت كتفي ـ لا حاجة بي إلى مجادلته في هذه النقطة ـ ثم أعطيته سيجارة المخدرات.

«يعجبها لأن لديه مالاً فقط. لدى أسرته سيارتا مرسيدس من فئة E».

«إنها سيارة للسيدات العجائز».

«كلام فارغ. في روسيا، كانت سيارة مفضلة لدى أفراد العصابات. و...». أخذ نفساً عميقاً من السيجارة واحتفظ به في رئتيه وعيناه تدمعان وهو يلوّح بيديه كأنه يقول: *انتظر، انتظر، هذا هو الجزء الأهم... انتظر، خذ السيجارة*... «هل تعرف بأي اسم يدعوها؟».

«كوتكو؟».

كان بوريس مصرّاً على استخدام هذا الاسم دائماً مما جعل الناس في المدرسة ـ وحتى المعلمين ـ يدعونها كوتكو.

قال بوريس: «هذا صحيح». قالها غاضباً والدخان يخرج من فمه...

«إنه اسمي أنا! إنه كليتشكا[1] من عندي. رأيتهما في الممر منذ أيام!... كان يعبث بشعرها».

كانت على طاولة القهوة قطعتا سكاكر بطعم النعناع، نصف ذائبتين. كانتا باقيتين هناك مع بعض الإيصالات وقطع النقود المعدنية الصغيرة عندما أفرغ أبي جيوبه. أخرجت واحدة من غلافها ووضعتها في فمي. كنت محلقاً عالياً، كأنني مظلّي... فاخترقتني حلاوتها إلى آخري، كأنها نار. قلت له: «يعبث بشعرها؟ قل هذا من جديد!». كنت أتكلّم فتقعقع قطعة السكاكر مصدرة صوتاً عند اصطدامها بأسناني.

قال وهو يحرّك أصابعه كمن يعبث بشعر أحد ويأخذ نفساً أخيراً من السيجارة قبل أن يطفئها: «هكذا كان يفعل. ألا تعرف كلمة يعبث».

قلت وأنا أسند رأسي إلى الأريكة: «لو كنت مكانك لما أقلقني هذا الأمر. جرّب هذه السكاكر. إن لها طعماً رائعاً حقّاً».

مسح بوريس وجهه بيده، ثم هز رأسه كأنه كلب ينفض عنه الماء. قال وهو يمرّر أصابع يديه الاثنتين في شعره المشعث: «واو».

أجبته بعد صمت قصير نابض: «صحيح... وأنا أيضاً!». كانت أفكاري ممطوطة، لزجة، بطيئة الصعود إلى السطح.

«ماذا؟».

«إنني أحلّق».

ضحك وقال: «أوه، حقّاً؟ أين تحلّق؟».

«أحلّق في الأعالي يا صاحبي». طعم النعناع اللاذع على لساني كان ضخماً، شديداً، كأنه جلمود صخر ضخم. أحسست بأنني لا أكاد أستطيع الكلام في وجود قطعة السكاكر في فمي.

أعقب ذلك صمت هادئ مسالم. بلغت الساعة الخامسة والنصف

---

(1) كليتشكا: تعني لقب بالروسية.

بعد الظهر، لكن ضياء النهار لا يزال نقياً ساطعاً. كانت بضعة قمصان بيضاء من قمصاني معلّقة في الخارج عند بركة السباحة حتى تجف. كانت تتلوّى وتخفق وتبرق كأنها أشرعة. أغمضت عيني، وراح لون أحمر يتوهّج داخل جفني. استندت إلى الأريكة (بدت لي مريحة على نحو مفاجئ)، كما لو أنها مركب يتهادى على صفحة الماء. رحت أفكر في الشاعر هارت كرين الذي كنا نقرأه في صف اللغة الإنكليزية. جسر *بروكلين*. كيف لم أقرأ هذه القصيدة عندما كنت في نيويورك؟ وكيف لم أكن منتبهاً إلى ذلك الجسر على الرغم من رؤيتي له كل يوم تقريباً؟ نوارس بحرية وارتفاعات مدوّخة. *أفكر في السينمات، وفي خدعها البانورامية...*[1].

قال بوريس على نحو مفاجئ: «إنني قادر على خنقها».

سألته مجفلاً: «ماذا؟». لأنني لم أسمع مما قاله إلا كلمة «*خنقها*»، ونبرة صوت بوريس البشعة إلى حد لا تستطيع الأذن أن تخطئه.

«تلك البنت العجفاء اللعينة. إنها تجعلني أصاب بالجنون»... لكزني بكتفه... «ماذا بك يا بوتر؟ ألا تود أيضاً أن تمسح تلك الابتسامة المتكلفة عن وجهها؟».

قلت بعد صمت قصير حائر: «الحقيقة...». كان واضحاً لي أن في سؤاله فخاً... «ما معنى بنت؟»[2].

«مثل معنى عاهرة».

«أوه!».

«أعني... هذا ما تفعله».

«فهمت».

---

(1) من قصيدة جسر بروكلين للشاعر الأميركي هارت كرين.

(2) بنت (Bint) ـ وردت هكذا في النص: كلمة مأخوذة من اللغة العربية، لكنها مستخدمة في الولايات المتحدة بمعنى "عاهرة".

خيم علينا بعد ذلك صمت طويل غريب إلى حد جعلني أفكر في النهوض وتشغيل شيء من الموسيقى لكني لم أستطع تقرير نوع الموسيقى. بدا لي أن أي شيء مرح سيكون غير مناسب الآن؛ ولم أكن أريد أبداً أن أضع شيئاً حزيناً أو سوداوياً لأن من الممكن أن يزيد من شجونه.

قلت بعد انقضاء ما كنت آمل أن يكون فترة صمت طويلة إلى الحد اللائق فقط: «هممم... سوف يعرضون فيلم حرب *الكواكب* على التلفزيون بعد ربع ساعة».

قال بوريس بنبرة قاتمة: «سوف أعطيها حرب الكواكب»، ثم نهض واقفاً.

سألته: «أين تذهب الآن؟ هل أنت ذاهب إليها في *دبل آر*؟».

تجهم وجهه وقال بمرارة وهو يرتدي معطفه *السوفييتي* الرمادي: «هيا، اضحك. سوف يحصل أبوك على *ثلاثة آر* إذا لم يسدد المال المدين به لذلك الرجل».

«ثلاثة آر؟».

قال بوريس مع ضحكة سوداء سلافية الطابع: «مسدس، أو قارعة الطريق، أو سطح»[1].

9

رحت أتساءل: هل كان ذلك اسم فيلم، أم ماذا؟ *ثلاثة آر*؟ من أين أتى بهذه الثلاثة آر؟ بذلت جهداً غير قليل حتى أبعد ما جرى في ذلك العصر عن ذهني، إلا أن بوريس أفزعني حقّاً بتلك العبارة التي قالها قبل ذهابه، فجلست متيبّساً في غرفة المعيشة في الطابق السفلي وبقيت نحو ساعة من الزمن أشاهد فيلم «حرب الكواكب»، لكن من غير صوت لأنني

---

(1) تبدأ أسماء هذه الأشياء كلها بحرف R.

كنت أصغي إلى طقطقة آلات صنع مكعبات الجليد وإلى المظلّة التي في الخارج تفرقع في الريح. التقط بوبر عدوى مزاجي السيئ فصار مكروباً مثلي وراح يعوي بصوت حادٍّ ويقفز عن الأريكة كلما سمع صوتاً في البيت. وبعد حلول الظلام بوقت قصير، انعطفت سيارة في مدخل بيتنا فاندفع بوبر إلى الباب مطلقاً عواء صاخباً أفزعني كثيراً.

لكن القادم كان أبي. بدا لي مشعّثاً فاقد البريق، وبدا في مزاج غير حسن تماماً.

«أبي؟». كنت لا أزال تحت تأثير الأعشاب المخدّرة التي دخّنتها فخرج صوتي من فمي غريباً ممطوطاً.

توقّف عند أسفل السلم ونظر في اتجاهي.

«كان هنا رجل اسمه السيد سيلفر».

قال أبي بنبرة عادية تماماً: «أوه، حقاً؟». لكنه ظل واقفاً في هدوء تام واضعاً يده على الدرابزين.

«قال إنه يحاول العثور عليك».

اقترب أبي وقال: «متى كان هذا؟».

«في الساعة الرابعة بعد الظهر تقريباً، على ما أظن».

«هل كانت كساندرا هنا؟».

«لم أرها».

وضع يده على كتفي وبدا لي أنه فكّر لحظة قبل أن يقول: «لا بأس. آمل ألا تذكر لأحد شيئاً عن هذا الأمر».

انتبهت إلى أن عقب سيجارة بوريس لا يزال في طبق السجائر. رآني أبي أنظر إليه فالتقطه وتشممه.

قال وهو يضع العقب في جيب سترته: «نعم، ظننت أنني شممت رائحة شيء. كما أن الرائحة منبعثة منك يا ثيو. من أين تأتون بهذه الأشياء؟».

«هل كل شيء على ما يرام؟».

بدت لي عينا أبي محمرّتين بعض الشيء زائغتين: «نعم، بالطبع، سوف أصعد إلى الأعلى لإجراء بضع مكالمات هاتفية».

انبعثت منه رائحة قوية، رائحة دخان تبغ بائت وشاي الجنسينغ الذي صار يشربه دائماً بعد أن اكتسب هذه العادة من رجال الأعمال الصينيين في صالة الباكارا: كان ذلك الشاي يعطي عَرَقه رائحة حادة، أجنبيةً. وبينما كنت أنظر إليه صاعداً درجات السلم، رأيته يخرج العقب من جيب سترته ويقربه من أنفه مرة أخرى، متأمّلاً.

10

مضت أفكاري إلى اللوحة بعد أن صعدت إلى غرفتي وأقفلت بابها (كان بوبر لا يزال متوتراً، فراح يدور في الغرفة متحفّزاً). كنت فخوراً بنفسي لأنني توصلت إلى فكرة إخفائها في غلاف الوسادة خلف لوحة رأس السرير. لكني أدركت الآن أن وجود اللوحة في البيت كانت فكرة شديدة الغباء. إلا أنني كنت من غير أية خيارات أخرى إلا إذا أردت إخفاءها في حاوية بقايا البناء في الشارع على مسافة عدة بيوت (لم يفرغها أحد طيلة وجودي في لاس فيغاس)، أو حتى في واحد من البيوت المهجورة في شارعنا. لم يكن بيت بوريس مكاناً أكثر أماناً من بيتي، وما كنت أعرف أحداً آخر أستطيع ائتمانه عليها. كانت المدرسة المكان الوحيد الممكن؛ إلا أن تلك كانت فكرة سيئة أيضاً. كانوا يجرون من فترة لأخرى، على نحو متكرّر كثيراً، تفتيشاً عشوائياً لخزائننا في المدرسة. وبما أنني صرت الآن على ارتباط بكوتكو (من خلال بوريس)، فإن من الممكن أن أكون معرَّضاً للتفتيش في أية حملة من هذه الحملات. ومع ذلك كله، وحتى إن وجدها أحدهم في خزانتي... المدير أو السيد بيتمارز (مدرب كرة السلة المخيف)، أو حتى عناصر شرطة الشركة الأمنية الذين تستأجرهم المدرسة أحياناً لدب الذعر في

نفوس الطلاب... فإن هذا يظل أهون من أن يجدها أبي أو السيد سيلفر.
كانت اللوحة ملفوفة، داخل غلاف الوسادة القطني، بطبقات كثيرة من ورق الرسم المقوّى المثبت بالشريط اللاصق ـ ورق جيد من النوع الذي يعيش طويلاً أخذته من غرفة الرسم في المدرسة، إضافة إلى طبقة داخلية مزدوجة من مناشف المطبخ القطنية النظيفة البيضاء لحماية اللوحة من الأحماض التي يحتوي عليها الورق (رغم ثقتي بأن هذا الورق خالٍ من الأحماض). لكني كنت أخرج اللوحة من الورق مرات كثيرة حتى أنظر إليها: أفتح الحافة العليا المثبتة بالشريط اللاصق، ثم أجعل اللوحة تنزلق إلى الخارج. هذا ما أدى إلى تمزق الغلاف الورقي وإلى فقدان الشريط اللاصق قدرته على الالتصاق. رقدت في السرير بضع دقائق محدّقاً في السقف، ثم نهضت وأتيت ببكرة الشريط اللاصق المتين، ذات الحجم المضاعف التي بقيت عندي منذ إخلاء الشقة في نيويورك، وأخرجت غلاف الوسادة من خلف رأس السرير.

كان كثيراً عليّ أن أمسك باللوحة من غير أن أنظر إليها (مغرية جداً)، زلقتها إلى الخارج سريعاً فاحتواني ألقها على الفور... شيء يكاد يكون موسيقياً، وحلاوة داخلية لا تفسير لها إلا ذلك التناغم العميق الذي يجعل الدم يجري سريعاً مثلما يحدث عندما يخفق قلبك واثقاً متقداً خلال وجودك مع شخص تشعر بأنك تحبه وبأنك آمن معه. انبعثت منها طاقة، وانبعثت موسيقى، وانبعث إحساس منعش مثل نور الصباح في شقتي القديمة في نيويورك... نور رقيق، لكنه بهيج... نور يجعل كل شيء واضح المعالم ويجعله، في الوقت نفسه، أكثر رقة وقرباً إلى القلب مما هو في حقيقة الأمر؛ بل هو أكثر قرباً من القلب لأنه جزء من الماضي الذي لا يستعاد: ورق الجدران المتلامع، ومجسَّم الكرة الأرضية من شركة *راندماكنالي* في زاوية نصف ظليلة.

طائر صغير؛ طائر أزرق. أخرجت نفسي من ذهولي وزلقت اللوحة

داخل منشفة المطبخ المغلفة بالورق، ثم غلّفتها مرة أخرى بصفحتين أو ثلاث (أربع صفحات؟ خمس صفحات؟) من صحف أبي الرياضية القديمة. وبعد ذلك، رحت أطوّقها بالشريط اللاصق، مندفعاً في غمرة خبلي وتصميمي، إلى أن انتهت بكرة الشريط اللاصق الضخمة كلها ولم يبق ظاهراً أي شيء من الجريدة. لن يفتح أحد هذه الحزمة مصادفة. بل إن فتحها سيستغرق زمناً طويلاً، حتى مع استخدام سكين، سكين جيدة، وحتى مع استخدام مقص! عندما انتهيت، بدت اللفافة أشبه بشرنقة عجيبة في فيلم علمي. وضعت اللوحة التي صارت كالمومياء، مع غلاف الوسادة وكل شيء، في حقيبتي المدرسية، ثم وضعت الحقيبة تحت الغطاء، تحت قدمي. تحرك بوبر منزعجاً فأفسح مكاناً لها وهو يطلق أنيناً. على الرغم من صغر حجمه وسخافة مظهره، إلا أنه كان نَبّاحاً عنيفاً شديد الحرص على حَيّزه الخاص. كنت أعرف أنه سيقفز وينبح فينبّهني إذا فتح أي شخص باب الغرفة خلال نومي ـ حتى كساندرا أو أبي الذي لم يكن شديد الحب لأي منهما.

عاد إليّ ما بدأ على هيئة فكرة مُطمْئنة فتشكل من جديد في أفكار عن غرباء وعن اقتحام للبيت. كان مكيّف الهواء شديد البرودة فجعلني أرتعش. عندما أغمضت عينَيّ، أحسست كما لو أنني أرتفع من جسدي وأعوم سريعاً مثل بالون أفلت وهرب... ثم أجفلت وانتفض جسمي كله عندما أغمضت عيني. وهكذا أبقيت عينيَّ مغمضتَيْن وحاولت تذكّر ما أستطيع تذكّره من قصيدة هارت كرين؛ إلا أن ما تذكّرته لم يكن كثيراً على الرغم من أن كلمات مفردة معزولة من قبيل *نورس وشارع وضجيج وفجر* كانت تحمل شيئاً من ذلك البعد السحيق، بُعدُ الطيران في الأعالي وبعد السقوط من أعلى إلى أسفل. وعندما بدأت أغفو، سقطت في نوع من الإحساس/ التذكّر الطاغي للحديقة الصغيرة الفائحة برائحة عوادم السيارات، الحديقة التي تعصف فيها الريح بالقرب من شقتنا القديمة عند

إيست ريفير (هدير حركة السير يأتيني من الأعلى صوتاً مُجرّداً من معناه، والنهر يجري بتيارات سريعة محيّرة تبدو أحياناً كأنها تسير في اتجاهَيْن مختلفين).

لم أنم كثيراً تلك الليلة. استيقظت مرهقاً في الصباح. فذهبت إلى المدرسة ووضعت اللوحة في خزانتي، ولم ألاحظ شفة كوتكو المتورّمة (رأيتها متعلّقة بذراع بوريس كأن شيئاً لم يحدث). لكني انتبهت عندما سمعت إيدي ريزو (الولد القوي الخشن المتقدّم علينا بصف واحد)، يقول لها: «هل صدمتك شاحنة؟». فرأيت أن أحداً قد كال لها ضربة شديدة على وجهها. كانت تتجوّل مطلقة ضحكات عصبية بعض الشيء، وتقول للناس إن باب سيارة صدم فمها. لكنها كانت تقولها بطريقة محرَجة أكسبتها رنة غير صادقة (في نظري، على الأقل).

قلت لبوريس عندما رأيته وحده (أو وحده نسبياً، في درس اللغة الإنكليزية): «هل أنت من فعل هذا؟».

«لم أَرد فعله».

«ماذا تعني بأنك لم ترد فعله؟».

بدا عليه نوع من الصدمة: «لقد أجبرتني!».

كررت ما قاله: «لقد أجبرتك!».

«انظر... لمجرد كونك تغار منها...».

قلت: «اللعنة عليك. لست أبالي بك ولا بكوتكو ـ لديّ ما أهتم به. يمكنك أن تضربها كما شئت، فلست أبالي».

قال بوريس وقد صحا: «أوه، يا إلهي... بوتر! هل عاد ذلك الرجل؟».

أجبته بعد صمت قصير: «لا. لم يعد بعد. أعني... وما همَّني؟...». قلت هذا عندما رأيت بوريس مستمراً في النظر إليَّ... «إنها مشكلته، لا مشكلتي. عليه أن يجد حلاً. كم هو المبلغ المدين به؟».

«لا فكرة عندي».

«ألا يمكنك تأمين المال من أجله؟».

«أنا؟».

أشاح بوريس بوجهه بعيداً عني. لكزته في ذراعه وقلت له عندما لم يجب على سؤالي: «اسمع... ماذا تعني يا بوريس؟ ماذا تعني بسؤالك إن كنت أستطيع تأمين المبلغ؟ ما الذي تتحدث عنه؟».

قال بسرعة وهو يستند إلى الخلف في كرسيه: «لا أهمية للأمر»؛ ثم لم تسنح لي فرصة متابعة الحديث لأن السيدة سبيرسيتسكايا دخلت الغرفة مستعدّة أتم الاستعداد للحديث عن الرواية المملة «*سيلاس مارنر*».

12

عاد أبي إلى البيت في وقت مبكر من تلك الليلة. وكانت معه أكياس طعام جاهز من مطعمه الصيني المفضل، بما في ذلك كمية إضافية من شرائح اللحم المتبّلة التي أحبها. كان أبي في مزاج طيّب جداً كما لو أن زيارة السيدة سيلفر، ومعها كل ما جرى في الليلة الماضية، لم تكن إلا حلماً.

«إذاً...». قلت هذا ثم توقّفت. كانت كساندرا قد فرغت من تناول لفافات اللحم وقامت لتغسل الكؤوس في المجلى، لكني لم أجد رغبة في الحديث أمامها عن أي شيء مما كان يشغل ذهني.

ابتسم أبي ابتسامته الأبوية الكبيرة، تلك الابتسامة التي تجعل المضيفات تأخذنه إلى مقاعد الدرجة الأولى أحياناً.

قال أبي وهو يدفع جانباً علبة الجمبري بصلصة السيشوان لكي يتناول واحدة من كعكات الحظ الحلوة: «إذاً، ماذا؟».

كان صوت الماء المنهمر في المجلى مرتفعاً: «آ... هل تمكّنت من ترتيب الأمور؟».

أجابني بنبرة خفيفة مرحة: «ماذا؟... هل تتحدّث عن بوبو سيلفر؟».

«بوبو؟».

«اسمع... آمل أن ذلك الأمر لم يسبّب لك قلقاً. هل قلقت؟».

«في الحقيقة...».

ضحك أبي وقال: «بوبو... يطلقون عليه أيضاً اسم مينتش[1]. إنه رجل لطيف في حقيقة الأمر... أعرف أنك تحدّثت معه بنفسك... لقد كان بيننا نوع من سوء التفاهم. هذا كل ما في الأمر».

«ما معنى خمس نقاط؟».

قال: «انظر... كان الأمر مجرّد سوء تفاهم. أعني أن هؤلاء الناس شخصيات غريبة. إن لديهم لغتهم الخاصة، وطرقهم الخاصة في إنجاز الأمور. لكن...». ضحك قليلاً... «هذا رائع! عندما قابلته في فندق *كايزارز*؛ ذلك ما يدعوه بوبو 'مكتبه'، عند بركة السباحة في *كايزارز*؛ على أية حالة، التقيته هناك، فهل تعرف ما كان يقوله ويكرّره؟ كان يقول: إن لديك ولداً جيّداً يا لاري! سيد صغير محترم حقّاً! لا أعرف ما قلته له، لكنه ساعدني... وأنا مدين لك بهذا الأمر».

«هاه». قلتها بصوت محايد وأنا أسكب لنفسي مزيداً من الأرز. وأما في داخلي، فقد كنت شبه ثمل بأن أعيش مزاجه الحسن هذا... البهجة نفسها التي كانت تشيع في نفسي عندما يحل الصمت ويعود وقع خطواته خفيفاً، وأسمعه يضحك لشيء ما، ويدمدم أمام مرآة الحلاقة. كسر أبي كعكة الحظ، ثم ضحك. قال وهو يكوّر الورقة الصغيرة التي كانت فيها ويرميها لي: «انظر هذه! يحيرني ذلك الذي يفكّر في كتابة هذه الأشياء في السوق الصيني. قرأت الورقة بصوت مرتفع: «لقد حبتك الطبيعة بأداة رهيبة غير معتادة، استخدمها بحذر!».

(1) مينتش: رجل بكل معنى الكلمة. وهي مستخدمة هنا على سبيل السخرية.

قالت كساندرا وهي تأتي من خلف أبي وتطوّق عنقه بذراعيها: «أداة غير معتادة؟ يبدو هذا كلاماً وسخاً».

استدار أبي وقبّلها: «بل عقل وسخ؛ ينبوع الشباب».

«هذا واضح».

13

قال بوريس: «لقد جعلتُ شفتك تتورّم في تلك المرة». كان إحساسه بالذنب واضحاً في ما يتعلّق بمسألة كوتكو، لأنه تذكّر هذا الأمر الآن من غير أيّ مقدمات عندما كنا صامتَيْن في باص المدرسة ذلك الصباح.

«صحيح... وأنا ضربت رأسك بالجدار».

«لم أقصد فعل ذلك!».

«لم تقصد فعل ماذا؟».

«أن أضربك على فمك».

«وهل كنت تقصد ضربها عندما ضربتها؟».

كانت إجابته مراوغة... «بطريقة ما، نعم».

«بطريقة ما!».

أطلق بوريس زفرة غضب: «قلت لها إنني آسف! عادت الأمور إلى مجاريها الآن. ولا مشكلة بيننا! ثم... ما علاقتك أنت بالأمر؟».

«أنت الذي أثاره، لا أنا».

نظر إلي لحظة غريبة، كأنه لا يراني، ثم ضحك وقال: «هل يمكنني إخبارك بشيء؟».

«ماذا؟».

قرّب رأسه من رأسي، وقال بصوت منخفض: «لقد فعلناها ليلة أمس، أنا وكوتكو! تناولنا حبوب الهلوسة معاً. كان ذلك رائعاً!».

«حقّاً؟ من أين حصلتم عليها؟». في مدرستنا، كان شراء أعشاب

مخدّرة أمراً سهلاً إلى حد معقول. دخّنتها مع بوريس أكثر من عشر مرات، وأمضينا ليالي سحرية صامتة سرنا فيها منتشين تحت نجوم الصحراء... لكن أحداً لم يكن يحصل على حبوب الهلوسة.

حكّ بوريس أنفه وقال: «آه، نعم... تعرف أمها شخصاً مخيفاً اسمه جيمي يعمل في متجر لبيع الأسلحة. أعطانا خمسة أقراص... لست أعرف السبب الذي جعلني أشتري خمسة فقط؛ كان عليَّ أن أشتري ستة. على أية حال، لا يزال لدي منها. يا إلهي، كان ذلك رائعاً!».

«أوه، حقاً؟».

الآن، عندما صرت أنظر إليه من مسافة أقرب، انتبهت إلى أن بؤبؤي عينيه متوسّعَان، غريبا المظهر... «هل التأثير مستمر حتى الآن؟».

«ربما... قليلاً. لم أنم إلا نحو ساعتين. لقد انتشينا إلى أقصى حد. كان ذلك مثل... بل إن تلك الزهور على مفرش سرير أمها بدت جميلة كلها مودّة. كنا كأننا مصنوعَان من المادة نفسها، مثل الزهور؛ وأدركنا كم يحب أحدنا الآخر وكم يحتاج أحدنا إلى الآخر، بصرف النظر عن أي شيء. أدركنا أن كل أمر كريه حدث بيننا ما كان نابعاً إلا عن الحب».

قلت: «واو»؛ لكني قلتها بصوت أظنه بدا أكثر حزناً مما أردته أن يكون، لأن بوريس نظر إليَّ عابساً بعض الشيء.

قلت عندما رأيته يواصل النظر إليَّ بتلك الطريقة: «ماذا؟ ما الأمر؟».

رفرفت عيناه وهز رأسه: «لا... إنني قادر على رؤية هذا. شيء مثل ضباب الحزن يلف رأسك. كأنك جندي يضع خوذة... كأنك شخص من التاريخ يسير في أرض ميدان المعركة حاملاً تلك المشاعر العميقة...».

«بوريس!... أظنك لا تزال تحت تأثير ذلك القرص».

قال بصوت حالم: «ليس تماماً... إنني أدخل الحالة وأخرج منها. لكني لا أزال أرى شرارات ملوّنة تنبعث من الأشياء إذا نظرت إليها من زاوية عيني».

14

انقضى أسبوع، أو نحو ذلك، من غير حدوث شيء... لا من ناحية أبي ولا على جبهة بوريس/ كوتكو. كان ذلك وقتاً كافياً لكي أشعر بالأمان وأعيد غلاف الوسادة إلى البيت. عندما أخرجت اللوحة من الخزانة، لاحظت أنها بدت ضخمة (وثقيلة) على نحو غير معتاد. عدت إلى البيت وصعدت إلى غرفتي، ثم أخرجت الحزمة من غلاف الوسادة فعرفت السبب. من الواضح أنني لم أكن في وعيي عندما لففتها بالشريط اللاصق: تلك الطبقات كلّها من ورق الجرائد، وإهدار بكرة الشريط اللاصق الثقيل المقوى بالألياف الزجاجية؛ بدا لي ذلك احتياطاً حصيفاً عندما كنت خائفاً تلك الليلة، لكني جلست في غرفتي، في ضياء النهار الصاحي، فبدا لي ذلك التغليف كله من فعل شخص فقد عقله، أو من فعل شخص مشرَّد لا مكان لديه حتى يضع اللوحة فيه... كانت كأنها مومياء! لم تعد مربعة الشكل لكثرة ما عليها من أغلفة وشريط لاصق؛ بل صارت زواياها مدورة أيضاً. أتيت بسكين المطبخ الحادة وبدأت أقص الغلاف عند الزاوية. كنت حذراً أول الأمر لأنني خفت أن تنزلق السكين فتؤذي اللوحة. لكني لم ألبث أن صرت أكثر نشاطاً. إلا أنني لم أتمكّن من قص أكثر من ثلاثة إنشات قبل أن تتعب يداي وأسمع صوت كساندرا عائدة إلى البيت. أعدت اللوحة إلى غلاف الوسادة، ثم ألصقتها في مكانها خلف ظهر لوحة رأس السرير، وانتظرت إلى أن عرفت أنهما سيخرجان ويغيبان عن البيت فترة غير قصيرة.

كان بوريس قد وعدني بأن نجرب اثنين من أقراص الهلوسة التي بقيت معه بمجرد أن يعود عقله إلى طبيعته... هكذا عبّر عن الأمر! أقرّ بأنه كان لا يزال يحسّ بشيء غير طبيعي، وبأنه لا يزال يرى أشكالاً تتحرّك في عروق الخشب الاصطناعية على سطح طاولته في المدرسة. قال أيضاً

إنه كان يتعثّر في سيره في المرات الأولى لتدخينه أعشاباً مخدرة بعد أن جرّب حبوب الهلوسة.

قلت له: «يبدو هذا شيئاً عنيفاً جداً».

«لا، إنه رائع! أستطيع جعله يتوقف عندما أريد ذلك. وأظن أن علينا تناولها في منطقة الألعاب في المركز الاجتماعي... ربما نفعل ذلك في عطلة عيد الشكر».

كانت تلك المنطقة المهجورة وجهتنا كلما أردنا تدخين الأعشاب المخدرة بعد تلك المرة الأولى عندما أتت كساندرا وطرقت باب غرفتي طالبة منا مساعدتها في تعديل وضع الغسالة. وبالطبع، لم نكن قادرَيْن على فعل شيء من ذلك، لكننا بقينا واقفين معها في غرفة الغسيل خمساً وأربعين دقيقة إلى أن زال عنا أثر القسم الأكبر من السيجارة.

«هل هي أشد قوة بكثير من الأعشاب؟».

«لا... بل نعم؛ لكنها رائعة. ثق بي. كنت شديد الرغبة في الذهاب مع كوتكو إلى الخارج لنكون في الهواء الطلق، لكن المكان كان شديد القرب من الطريق السريع... أنوار وسيارات... ما رأيك في عطلة نهاية الأسبوع؟».

وهكذا صار عندي موعد أترقّب حلوله. ولكن، تماماً عندما بدأت أشعر بتحسن الحال، وعندما بدأت نظرتي إلى الأمور تصير متفائلة من جديد (انقطع أبي عن متابعة شبكة ESPN مدة أسبوع، وهذا كان أمراً لا سابق له). وجدته في انتظاري في البيت عندما عدت من المدرسة.

قال لي لحظة دخولي البيت: «يجب أن أتكلّم معك يا ثيو. هل لديك دقيقة؟».

توقّفت في مكاني: «نعم، لا بأس، بالتأكيد». بدا لي كما لو أن لصوصاً قد اقتحموا غرفة المعيشة... أوراق الجرائد مبعثرة في كل مكان، ووسائد الأريكة في غير مواضعها.

توقف أبي عن السير في الغرفة ـ كان يتحرّك بخطوات متيبّسة كما لو أن ألماً قد أصاب ركبتيه. قال لي بصوت لطيف ودود: «تعال واجلس هنا».

جلست. أطلق أبي تنهيدة، ثم جلس قبالتي ومرر أصابع يده في شعره.

قال وهو ينحني إلى الأمام بعد أن أطبق يديه ووضعهما بين ركبتيه: «المحامي...». كان ينظر في عيني نظرة صريحة صادقة. بقيت منتظراً.

«محامي أمك. أعني... أعرف أنه كان عليَّ إخبارك بالأمر مسبقاً، لكني أريد منك الآن، من أجلي، أن تتحدّث معه على الهاتف».

كان الطقس عاصفاً. ريح نشطة في الخارج تسفع الرمل على الأبواب الزجاجية وتجعل المظلة في الخارج ترفرف مطلقة أصواتاً تشبه أصوات خفق الأعلام. سألته بعد لحظة صمت قصير حذر: «ماذا؟». كنت قد سمعت أمي تتحدّث عن الذهاب لرؤية محام بعد رحيل أبي (ظننت الأمر متعلّقاً بالطلاق)، لكني لم أعرف شيئاً مما نتج عن ذلك.

أخذ أبي نفساً عميقاً، ثم قال وهو ينظر إلى السقف: «نعم... هذه هي المسألة. أظنك لاحظت أنني توقفت عن المقامرة على المباريات الرياضية... صحيح؟ الحقيقة أنني أريد الإقلاع عن ذلك. أريد ترك المقامرة وأنا في الذروة. الأمر ليس...». توقّف قليلاً وبدا عليه شيء من التفكير... «أعني، بصدق تام، أنني صرت ماهراً جداً في هذا الأمر نتيجة الانضباط ودراسة التفاصيل. أحسب أرقامي بدقة. ولا أتهور في المراهنة. و... أعني، كما قلت لك، إنني أحقق نتائج طيبة. لقد جنيت مالاً كثيراً خلال الأشهر الماضية. لكن الأمر، فقط...».

قلت بنبرة غير واثقة: «صحيح». قلتها في الصمت الذي أعقب ذلك، وكنت أتساءل عما يريد الوصول إليه.

وضع يده على قلبه وقال: «أعني، لماذا أستفز القدر؟ أنا شخص كحولي! وأنا أول من يعترف بهذا. لا أستطيع الشرب على الإطلاق.

كأس واحدة تعادل كؤوساً كثيرة، وألف كأس لا تكفي. كان ترك الشراب أحسن شيء فعلته في حياتي. أعني، في ما يتعلّق بالمقامرة، حتى مع وجود هذه الميول الإدمانية عندي، فقد كان الأمر مختلفاً على الدوام، كان مختلفاً بعض الشيء. من المؤكد أنني أخطئ في بعض المرات، لكنني لم أكن أبداً مثل واحد من هؤلاء الأشخاص الذين... لا أعرف كيف... يذهبون بعيداً جداً ويختلسون المال، ويهدمون شركاتهم العائلية، أو أي شيء. لكن...». ضحك قليلاً قبل أن يكمل كلامه... «إذا كنت لا تريد قص شعرك، لا الآن ولا في وقت لاحق، فمن الأفضل أن تكف عن التسكّع عند محل الحلاقة. أليس هذا صحيحاً؟».

انتظرت تتمة الكلام، ثم قلت بحذر: «إذاً؟».

«إذاً... أوووف...». مرر أصابع يديه الاثنتين في شعره، كان مظهره صبيانياً، ذاهلاً، غير واثق... «هذا هو الأمر. إنني راغب حقاً في الإقدام على تغييرات كبيرة، الآن. وهذا لأن لديَّ فرصة الدخول في مشروع عظيم منذ بدايته. يمتلك أحد أصدقائي مطعماً. و... أعني، أظن أن هذا المشروع سيكون شيئاً رائعاً حقّاً، شيئاً رائعاً لنا جميعاً ـ شيئاً يحدث مرة واحدة في العمر. تمر كساندرا الآن بأوقات عصيبة في عملها لأن مديرها شخص قذر. وأظن أن هذا المشروع سيكون أمراً أكثر منطقية».

أبي؟ مطعم؟ قلت: «واو! هذا رائع! واو!».

«نعم، أمر رائع بالفعل. لكن المسألة، على الرغم من ذلك... حتى تفتح مطعماً من هذا النوع...».

«ما نوع هذا المطعم؟».

تثاءب أبي ودعك عينيه المحمرّتين: «أوه، أنت تعرف ـ مأكولات أميركية بسيطة. شرائح اللحم، والهمبرغر، وأشياء من هذا القبيل. مأكولات بسيطة، لكنها معَدّة على نحو جيد. إلا أن المشكلة هي أنه... حتى يتمكّن صديقي من افتتاح المكان ودفع ضرائب المطعم...».

«ضرائب المطعم؟».

«أوه، يا إلهي، نعم... لن تصدّق مقدار الرسوم التي يتقاضونها هنا. عليك أن تدفع ضرائب فقط... عليك أن تدفع ضرائب رخصة الكحول، وعليك أن تسدّد رسوم التأمينات. لا بد من مبلغ كبير جداً حتى تتمكن من بدء عمل من هذا النوع».

الآن، صرت أرى الغاية من هذا الكلام: «لا بأس. إذا كنت في حاجة إلى المال الذي وضعته باسمي في حساب التوفير...».

بدت الدهشة على أبي: «ماذا؟».

«أعني ذلك الحساب الذي فتحته باسمي. إذا كنت في حاجة إلى المال فلا مشكلة».

«آه، فهمت...». ظل أبي لحظة صامتة، ثم قال: «أشكرك. أقدر لك هذه المبادرة يا عزيزي. لكن الحقيقة...». كان قد نهض واقفاً وراح يسير في الغرفة... «المسألة هي أنني أرى إمكانية لأن نفعل ذلك بطريقة بارعة حقّاً. إنه حل على المدى القصير حتى نتمكن من جعل المطعم يبدأ العمل. أظنك تفهم هذا. وسنكون قادرين على تسديد المبلغ خلال بضعة أسابيع ـ أعني، مكان كهذا، الموقع وكل شيء، هذا أشبه بالحصول على ترخيص لطباعة الأوراق المالية. المشكلة كامنة في النفقات الأولية. تفرض هذه المدينة ضرائب ورسوم جنونية. أعني...». ضحك فكان في ضحكته شيء من الاعتذار... «تعرف أنني ما كنت لأطلب هذا لو لم يكن الأمر عاجلاً...».

قلت بعد لحظة صمت حائر: «عفواً، لم أفهم؟».

«أعني... كما كنت أقول لك، إنني في حاجة حقاً إلى أن تجري هذه المكالمة الهاتفية من أجلي. ها هو الرقم...». كان قد كتب الرقم على

ورقة. لاحظت أن أوله 212[1]... «عليك أن تتصل بهذا الشخص؛ أن تتحدّث معه بنفسك. اسمه بريسغيردل».

نظرت إلى الورقة، ثم نظرت إلى أبي وقلت: «لم أفهم شيئاً».

«ليس عليك أن تفهم. ليس عليك إلا أن تقول ما أقوله لك».

«وما علاقة الأمر بي؟».

«انظر... افعل ما أقوله لك. قل له اسمك؛ وقل إنك تريد أن تحدّثه بشيء، تحدّثه عن عمل ما... كذا كذا كذا...».

«لكن...». من يكون هذا الشخص... «ما الذي تريد مني قوله؟».

استنشق أبي نفساً طويلاً. كان من الواضح أنه حريص على ضبط تعابيره: أمر كان بارعاً في فعله.

قال: «إنه محامٍ. محامي أمك. يجب أن يجري ترتيباته من أجل تحويل هذا المبلغ من المال...». جحظت عيناي عندما سمعت الرقم الذي قاله، 65000 دولار «إلى هذا الحساب...». أشار أبي بإصبعه إلى رقم الحساب المسجل تحت المبلغ... «قل له إنني قررت إرسالك إلى مدرسة خاصة. سوف يطلب منك اسمك الكامل ورقم الضمان الاجتماعي. هذا كل ما في الأمر».

كنت مشوشاً، قلت بعد لحظة صمت: «مدرسة خاصة؟».

«آه، أنت ترى، سنقول هذا لأسباب ضريبية».

«لا أريد الذهاب إلى مدرسة خاصة».

«انتظر، انتظر، اسمع ما أقوله لك. طالما أن هذا المال مستخدم من أجل مصلحتك أنت، بالمعنى الرسمي، فليست لديك أية مشكلة. ثم إن المطعم أمر في مصلحتنا نحن جميعاً، ألا ترى؟ بل قد تكون أنت صاحب المصلحة الأولى فيه، آخر الأمر. أعني... يمكنني إجراء هذه المكالمة

---

(1) الرمز الهاتفي لمدينة نيويورك.

بنفسي، لكن علينا أن نجعل الأمور تجري بالطريقة الصحيحة لكي نوفّر ما قد يبلغ ثلاثين ألف دولار بدلاً من أن تأخذ الحكومة هذا المبلغ. نعم، سأرسلك إلى مدرسة خاصة إذا كنت راغباً في ذلك. إلى مدرسة داخلية. بل حتى يمكنني إرسالك إلى آندوفر بكل ذلك المال الفائض. لكني لا أريد أن تستولي دائرة الضرائب على نصف المال... هل تدرك ما أعنيه؟ كما أن... وفقاً لطريقة ترتيب هذا الأمر... سوف يحين وقت ذهابك إلى الجامعة فتجد نفسك مضطراً إلى دفع المال: في وجود هذا المبلغ كله، ستكون غير مستحق لأية منحة دراسية. وسوف ينظر موظفو المعونات المالية في الجامعة إلى ذلك الحساب المصرفي ويضعون اسمك ضمن فئة دخل مختلفة، ثم يأخذون خمسة وسبعين بالمئة من المبلغ خلال السنة الأولى. أوووف! وأما بهذه الطريقة، فسوف تستفيد من المبلغ كله. هل فهمت الآن؟ سوف تستفيد الآن. عندما يكون المال قادراً على تحقيق فائدة فعلية...».

«لكن...».

«لكن...». قالها بصوت مرتفع ولسان معوجّ ونظرة بلهاء... «أوه، هيا يا ثيو!...». قال هذا بصوته المعتاد عندما رآني مستمراً بالنظر إليه... «أقسم بالرب، ليس لدي وقت لهذا. عليك إجراء المكالمة بأسرع ما يمكن قبل أن تغلق المكاتب أبوابها في نيويورك. إذا كان عليك التوقيع على وثيقة ما، فقل له أن يرسلها بالبريد السريع. أو قل له أن يرسلها بالفاكس. علينا إنجاز هذا الأمر في أسرع وقت. هل اتفقنا؟».

«لكن، لماذا يكون عليّ أنا أن أفعله؟»

تنهّد أبي واتسعت عيناه ناظرتين إلى الأعلى. قال: «انظر، لا تفعل بي هذا يا ثيو. أعرف أنك تدرك حقيقة الوضع لأنني رأيتك تتفقد علبة البريد... نعم»، قال هذا لمنعي من الاعتراض على كلامه... «نعم، أنت تفعل هذا. تخرج كل يوم منطلقاً إلى صندوق البريد بسرعة رصاصة».

أربكني هذا إلى حد جعلني لا أعرف ما أقوله. «لكن...». ألقيت نظرة على تلك الورقة فقفز الرقم في وجهي: خمسة وستون ألف دولار.

ومن غير إنذار، رفع أبي يده وصفعني على وجهي، صفعني بقوة وسرعة. مرت ثانية قبل أن أدرك ما حدث، ثم، حتى قبل أن تطرف عيني، ضربني من جديد، ضربني بقبضته هذه المرة. وميض أبيض كأنه فلاش كاميرا. ترنحت وارتخت ركبتاي. صار كل شيء أبيض اللون. أمسكني من رقبتي وجذبني إلى الأعلى حتى صرت واقفاً على رؤوس أصابعي. صار التنفس صعباً.

«أنظر إلي...». كان يصرخ في وجهي، وكان أنفه على مسافة إنشين من أنفي. لكن بوبر كان يقفز ويعوي كالمجنون. صار الرنين في أذني شديداً إلى درجة جعلتني كما لو أن الأصوات تأتيني عبر الراديو... «سوف تتصل بهذا الرجل...». كان يلوّح بالورقة في وجهي... «وستقول له ما أقوله لك. لا تزد صعوبة الأمر عليّ! لا تجعله أصعب مما ينبغي لأنني سأرغمك على فعل هذا يا ثيو. لست أكذب عليك. سأكسر ذراعك، وسأوسعك ضرباً إذا لم تتصل به الآن، هل فهمت؟». انفجر هذا السؤال في الصمت المجنون، صمت يمزق الأذنين. كانت رائحة السجائر في أنفاسه حامضة قبالة وجهي. ترك رقبتي وتراجع خطوة إلى الخلف... «هل تسمعني؟ قل شيئاً».

أخفيت وجهي بذراعي. كانت الدموع تتدحرج على خدي، لكنها كانت دموعاً تلقائية من غير مشاعر مرتبطة بها... ماء يقطر من صنبور.

أغمض أبي عينيه بشدة، ثم فتحهما. هز رأسه وقال بصوت جاف لا يزال لاهثاً: «انظر... أنا آسف!».

لكني لاحظت بلمحة واضحة قاسية من عقلي أن صوته ما كان فيه أي أسف. أوحى لي ذلك الصوت بأن أبي لا يزال راغباً في أن يوسعني ضرباً... «لكن، أقسم يا ثيو... ثق بي عندما أقول لك هذا... لا بد لك من فعل ما طلبته منك».

صار كل شيء مشوشاً غير واضح. رفعت يدي الاثنتين لكي أعيد نظارتي إلى مكانها. كانت أنفاسي مرتفعة الصوت، بل كانت الأعلى صوتاً في الغرفة كلها.

كان أبي واقفاً واضعاً يديه على خصره. رفع عينيه إلى السقف وقال: «أوه، هيا الآن. كف عن هذا».

لم أقل شيئاً. بقينا واقفين هناك لحظة طويلة أخرى، أو لحظتين. كان بوبر قد كف عن النباح. وصارت نظراته المستفهمة تتنقل بيننا كأنه يحاول إدراك الأمر الغريب الذي يجري أمامه.

«إن الأمر فقط... نعم، أنت تعرف!». عاد صوته منطقياً من جديد... «إنني آسف يا ثيو. أقسم لك بأنني آسف. لكني واقع في مأزق حقيقي. ونحن في حاجة إلى هذا المال الآن، هذه الدقيقة... نحن في حاجة حقيقية إليه».

كان يحاول التقاط عيني: كانت نظرته صاحية، صريحة. سألته وأنا لا أنظر إليه بل إلى الجدار الذي خلفه: «من هو هذا الشخص؟». لا أعرف السبب الذي جعل صوتي يخرج غريباً، خشناً.

«إنه محامي أمك. كم مرة يجب أن أقول لك هذا؟». كان يدلّك مفاصل يده كأنه سبب لها ألماً عندما ضربني... «أنت ترى المسألة يا ثيو...». تنهد من جديد... «أعني، أنا آسف. لكني أقسم لك أن الأمر في غاية الأهمية وإلا لما كنت غاضباً هكذا. أقول هذا لأنني في وضع شديد الخطورة. وأنت تفهم أن هذا إجراء مؤقت فحسب ـ فقط إلى أن نتمكن من بدء العمل. من الممكن أن ينهار المشروع كله، أن ينهار هكذا...». فرقع بأصابعه... «إلا إذا استطعت أن أبدأ تسديد المال لبعض هؤلاء الدائنين. وأما بقية المبلغ فسوف أستخدمها لإرسالك إلى مدرسة أفضل. قد تكون مدرسة خاصة. سيعجبك هذا، أليس كذلك؟».

أخذته الحماسة فبدأ يطلب الرقم. ناولني الهاتف، وقبل أن يجيبني أحد، أسرع فرفع سماعة الهاتف الثاني في الناحية الأخرى من الغرفة.

قلت للمرأة التي ردّت على الاتصال: «مرحباً! ممم، اعذريني...». كان صوتي متقطعاً غير مستوٍ... وكنت لا أزال غير قادر على تصديق ما يجري... «هل يمكن أن أكلم السيد...».

أشار أبي بإصبعه إلى اسم الرجل على الورقة: بريسغيردل.

قلت بصوت مرتفع: «السيد بريسغيردل».

«ومن أقول له إنه يريد الكلام معه؟».

كان صوتي وصوتها شديدي الارتفاع لأن أبي كان مصغياً على السماعة الأخرى.

«ثيودور بيكر».

«أوه، نعم». قالت المرأة هذا، ثم أتاني صوته: «مرحباً! مرحباً يا ثيودور! كيف حالك؟».

«بخير».

«يبدو لي من صوتك أنك مصاب بالزكام. قل لي هل أصابك شيء من الزكام؟».

قلت بشيء من التردد: «ممم، نعم».

كان أبي الواقف في الناحية الأخرى من الغرفة يقول لي بفمه، من غير صوت: *التهاب الحنجرة*.

قال ذلك الصوت ذو الصدى: «هذا سيء...». كان الصوت مرتفعاً إلى حد جعلني مضطراً إلى إبعاد السماعة عن أذني... «لم أكن أظن أن الناس يصابون بالزكام في ضياء الشمس، حيث أنت. على أية حال، يسعدني اتصالك بي. لم أتمكن من العثور على طريقة تسمح لي بالتواصل المباشر معك. أعرف أن الأمور لا تزال صعبة، على الأرجح. لكني آمل

أن تكون في حالة أحسن من حالتك التي كانت عندما رأيتك...». ظللت صامتاً. هل قابلت هذا الشخص؟

قال السيد بريسغيردل مقاطعاً صمتي في اللحظة المناسبة: «كان ذلك وقتاً صعباً».

مس صوته المخملي المنساب وتراً في نفسي. قلت: «نعم، صحيح».

«كانت هنالك عاصفة ثلجية. هل تتذكر؟».

«صحيح».

أظنه أتى بعد نحو أسبوع من موت أمي: رجل متقدّم في السن ملأ الشيب شعره. كانت ملابسه أنيقة... قميص مخطط وربطة عنق على شكل فراشة. بدا عليه وعلى السيدة باربر أنهما على معرفة سابقة، أو بدا لي أنه يعرفها، على الأقل، جلس قبالتي في كرسي ذي ذراعين، الكرسي الأقرب إلى الأريكة، وتكلّم كثيراً في أمور حيّرتني فلم يعلق في ذهني شيء غير قصة تعرّفه على أمي: عاصفة ثلجية هائلة، وما من سيارات تاكسي في الشارع. وفجأة، اقتربت منه سيارة تاكسي ناشرة خلفها مروحة من ثلج رطب: سيارة تاكسي مشغولة أتت إلى تقاطع جادة آفنيو بارك مع الشارع رقم أربعة وثمانين. انفتحت نافذة السيارة ـ أمي ذاهبة إلى الشارع رقم سبعة وخمسين («كانت صورة للجمال») فهل هو ذاهب في هذا الاتجاه؟

قلت: «كانت تتحدّث دائماً عن تلك العاصفة...». رشقني أبي بنظرة حادة ـ السماعة ملتصقة بأذنه... «عندما أغلقت المدينة كلها».

ضحك المحامي: «يا لها من سيدة شابة قريبة من القلب! كنت خارجاً من اجتماع متأخر مع امرأة متقدّمة في السن عند تقاطع بارك آفنيو مع الشارع اثنان وتسعين. كانت وارثة لشركة شحن، لكنها ماتت للأسف. على أية حال، خرجت من بيتها إلى الشارع في تلك اللحظة حاملاً معي حقيبتي ـ بالطبع ـ وكانت سماكة الثلج في الشارع قدَماً. صمت مطبق. أطفال يجرّون الزلاجات في جادة بارك آفنيو. كنت هناك، ولم يكن

القطار الذي يسير في الشارع الثاني والسبعين يعمل في ذلك الوقت. سرت متعثراً تنغرس قدمايَ في الثلج حتى الركبتين. عندما... ها هي! أتت السيارة الصفراء وفيها أمك. توقفت السيارة. أتت كما لو أنها جزء من فرقة إنقاذ. ' *اصعد، وسوف أوصلك*' . كان وسط المدينة مهجوراً تماماً. ندف الثلج تُدوّم في الهواء، وأضواء المدينة منارة كلها. وهكذا مضينا.. كانت السيارة تتقدّم بسرعة ميلين في الساعة، لا أكثر... كأننا في زلاجة. كنا نتجاوز الشارات الضوئية الحمراء، فلا معنى للتوقف عندها. أتذكّر أنني حدثتها عن الرسام فيرفيلد بورتر ـ كان له معرض في نيويورك ـ ثم انتقل الحديث إلى الكاتب فرانك أوهارا والممثلة لانا تيرنر وعن السنة التي أغلق فيها مطعم هورن *آند هارد آرت*، ذلك المطعم المؤتمت. ثم اكتشفنا أننا نعمل في مكانين متقاربين، على ضفتي الشارع نفسه. كانت تلك بداية صداقة جميلة!».

ألقيت نظرة في اتجاه أبي. كان على وجهه ملمح غريب: شفتاه مضبوطتان بشدة كما لو أنه موشك على التقيؤ على السجادة.

قال الصوت على الناحية الأخرى من الخط: «لم نتحدّث كثيراً. لم يكن الوقت مناسباً. لكني كنت آمل أن تأتي لرؤيتي عندما تصير جاهزاً للكلام. لو عرفت أنك راحل عن المدينة لاتصلت بك قبل ذهابك».

نظرت إلى أبي. ونظرت إلى الورقة التي في يدي. قلت بسرعة: «أريد أن أذهب إلى مدرسة خاصة».

قال السيد بريسغيردل: «حقاً؟ أظنها يمكن أن تكون فكرة رائعة. أين هي المدرسة التي تفكر في الذهاب إليها؟ في الساحل الشرقي؟ أو في مكان ما حيث أنت؟».

لم نكن قد فكرنا في هذا الأمر: نظرت إلى أبي.

قلت: «امم، امم». ورأيت أبي يكشر في اتجاهي ويلوّح بيده تلويحاً عنيفاً.

كان السيد بريسغيردل يقول: «إن هنالك مدارس داخلية جيدة في الساحل الغربي، لكني لا أعرف شيئاً عنها. لقد ذهبت إلى مدرسة *ميلتون*، فكانت تلك تجربة رائعة في حياتي. وقد ذهب إليها أيضاً ابني الأكبر وبقي فيها سنة واحدة، لكنها لم تكن مكاناً مناسباً له».

بينما راح الرجل يحدّثني عن المدارس: *ميلتون* وكينت ومدارس داخلية أخرى ذهب إليها أطفال عدد من أصدقائه ومعارفه، كان أبي يكتب شيئاً على الورقة. ألقى إلي بتلك الورقة فقرأت فيها: *أرسل لي النقود. دفعة أولى من أجل المدرسة.*

قلت من غير أن أهتدي إلى طريقة أخرى لفتح الموضوع: «امم... هل تركت لي أمي بعض المال؟».

قال السيد بريسغيردل بنبرة بدت لي أنها صارت باردة بعض الشيء بعد أن سمع سؤالي، أو لعل ذلك كان بسبب خراقة مقاطعتي: «حسناً... ليس تماماً! لقد كانت تمر ببعض المشكلات المالية قبيل مقتلها. وأنا واثق من أنك تعرف هذا. لكن لديك '529'. كما أقامت لك قبل موتها حساب UTMA صغيراً من أجل حقوقك»[1].

«ما معنى هذا؟». كانت عينا أبي متعلقتين بي وكان مصغياً بانتباه شديد.

«إنه التحويل الموحد للقُصَّر. وهو مخصص لكي يستخدم من أجل تعليمك. لكن استخدامه في أي شيء آخر غير ممكن... غير ممكن إلى أن تبلغ سن الرشد على أية حال».

قلت بعد لحظة صمت قصيرة عندما رأيت أنه يشدّد كثيراً على الجانب المالي: «لماذا لا يمكن استخدامه؟».

---

(1) (UTMA) نظام التحويل الموحَّد لصالح القُصّر: نوع من «حساب» يديره وَصيّ، لكن من حق أي شخص أن يضع فيه أموالاً منقولة أو غير منقولة تكون هبة للقاصر المعني.
(Plan 529): نظام توفير من أجل التعليم يتمتّع بجملة مزايا ضريبية. إن بريسغيردل هنا هو الوصي على الحسابين.

قال باقتضاب: «هكذا هو القانون. لكن من المؤكد أن من الممكن تدبّر شيء ما إذا أردت أن تذهب للدراسة. سمعت عن امرأة استخدمت قسماً من '529' الخاص بابنها الأكبر حتى ترسل ابنها الأصغر إلى حضانة أطفال عالية التكاليف. ليس معنى هذا أنني أرى دفع عشرين ألف دولار في السنة يمكن أن يكون إنفاقاً منطقياً في هذا المستوى الدراسي ـ أظنهم يستخدمون أغلى أنواع الأقلام في مانهاتن، بالتأكيد! لكن، أظنك فهمت الآن أن الأمر يجري على هذا النحو».

نظرت إلى أبي: «أفهم من هذا أن ما من طريقة تسمح لك، على سبيل المثال، بأن تحوّل لي خمسة وستين ألف دولار إذا كنت في حاجة إليها الآن، في هذه اللحظة؟».

«لا! بالتأكيد لا! لا تفكّر في هذا الأمر أبداً». تغير موقفه... من الواضح أنه راجع رأيه فيّ ولم يعد يراني ابن أمي، ذلك الطفل اللطيف، بل صار يعتبرني وغداً صغيراً جشعاً. سمعته يقول: «بالمناسبة، هل أستطيع سؤالك عما جعلك تطلب هذا الرقم تحديداً؟».

«آ آ...». ألقيت نظرة سريعة في اتجاه أبي فرأيته قد حجب عينيه بذراعه. قلت في نفسي: خراء... ثم أدركت أنني قلت تلك الكلمة بصوت مسموع.

قال السيد بريسغيردل بصوت حريري: «حسناً، لا بأس. الأمر مستحيل، بكل بساطة».

«أليست هنالك طريقة ما؟».

«ما من طريقة».

«حسناً، لا بأس...». حاولت التفكير، لكن عقلي كان يجري في اتجاهين مختلفين في وقت واحد... «إذاً، هل يمكنك أن ترسل لي قسماً من المبلغ؟ نصفه مثلاً؟».

«لا. لا بد من أن يكون الأمر كله من خلال ترتيب مباشر مع الكلية أو

المدرسة التي تختارها. بكلمات أخرى، يجب أن تصلني فواتير فأقوم بتسديدها. يتطلّب هذا قدراً كبيراً من العمل على الأوراق والوثائق. وإذا افترضنا أنك قررت عدم الذهاب إلى تلك الكلية، فماذا يحدث؟». وبينما راح الرجل يتكلّم كلاماً محيّراً عن المدخلات والمخرجات المختلفة للصناديق التي أقامتها لي أمي (كانت على كل صندوق من تلك الصناديق قيود كثيرة كفيلة بأن يكون أبي، وأنا أيضاً، غير قادرَين على وضع أيدينا مباشرة على أي مبلغ نقدي حقيقي قابل للإنفاق). كان أبي قد أبعد سماعة الهاتف عن أذنه وبدا على وجهه شيء شديد الشبه بالذعر.

قلت محاولاً إنهاء المكالمة: «لا بأس إذاً. أمر حسن أن أعرف هذا. شكراً لك يا سيدي».

«بالطبع، هنالك مكاسب ضريبية. لقد اهتمّت أمك بهذا الأمر. لكن ما كانت تريده حقاً هو التأكد من أن والدك غير قادر على مسّ ذلك المال».

قلت متردّداً: «أوه!». وفي الصمت الطويل الذي حلّ بعد ذلك، انتبهت إلى أنني سمعت في نبرة صوته شيئاً جعلني أشك في أنه قد أحسّ بوجود أبي وفي أنه سمع صوت تنفسه على الهاتف الآخر (كان صوت تنفّسه مسموعاً لي؛ لكنني لم أعرف إن كان مسموعاً عنده).

«وأيضاً، هنالك اعتبارات أخرى. أعني بهذا...». صمت قصير... «لست أدري إن كان عليَّ إخبارك بهذا، لكنْ، هناك شخصُ غير مُخوَّل حاول مرتين أن يسحب مبلغاً كبيراً من الحساب».

قلت بعد لحظة صمت مزعجة: «ماذا؟».

قال السيد بريسغيردل بصوت أحسسته بعيداً كما لو أنه آتٍ من قعر البحر: «تعرف أنني الوصي على هذا الحساب. بعد موت أمك بشهرين تقريباً. دخل شخص مكتب البنك في مانهاتن خلال ساعات العمل وحاول تزوير توقيعك على الأوراق. لكنهم يعرفونني في فرع البنك الرئيسي، فما كان منهم إلا أن اتصلوا بي على الفور، وخلال كلامهم معي على الهاتف،

خرج الرجل من الباب خفية قبل أن يتمكّن الحارس الأمني من اللحاق به للتحقّق من شخصيته. حدث هذا قبل نحو سنتين. وبعد ذلك... في الأسبوع الماضي... هل وصلت الرسالة التي كتبتها إليك عن هذا الأمر؟».

«حسناً، من غير أن أدخل في تفاصيل كثيرة، أتتني مكالمة هاتفية غريبة. كانت المكالمة من شخص زعم أنه محاميك هناك وطلب مني تحويل المبلغ. أجريت بعض التحقيق بعد ذلك فوجدت أن هناك من استخدم رقمك للضمان الاجتماعي فقدّم طلباً لفتح خط ائتماني كبير باسمك. وقد تمّت الموافقة على طلبه. هل تعرف شيئاً عن هذا الأمر؟».

لكنه لم يلبث أن تابع كلامه عندما وجد أنني لم أقل له شيئاً: «لا بأس. لا داعي للقلق. إن لدي هنا نسخة عن شهادة ميلادك. وقد أرسلتها إلى البنك الذي أصدر ذلك الخط الائتماني فما كان منه إلا أن أغلقه على الفور. كما أنني أبلغت هيئة إكويفاكس وغيرها من المؤسسات الائتمانية بهذا الأمر. فعلى الرغم من كونك قاصراً ومن عدم أهليتك القانونية لإبرام عقد من هذا النوع، فإنك تكون مسؤولاً عن أية ديون مسحوبة باسمك عندما تبلغ سن الرشد. على أية حال، أنصحك أن تكون شديد الحرص في ما يتعلق برقم ضمانك الاجتماعي. إن الحصول على رقم ضمان اجتماعي جديد أمر ممكن من الناحية النظرية، لكنه يتطلب إجراءات مرهقة مما يجعلني لا أنصحك به...».

كنت سابحاً في عرق بارد عندما أغلقت الهاتف... وما كنت مستعداً أبداً لذلك العويل الذي أطلقه أبي. ظننته غاضباً (غاضباً مني)؛ لكني رأيته واقفاً هناك والهاتف لا يزال في يده. نظرت إليه عن قرب أكثر فوجدته يبكي. كان ذلك فظيعاً. ولم تكن لدي أية فكرة عما يمكنني فعله. كان عويله كمن يُسكب عليه ماء مغلياً ـ كأنه شخص يتحوّل إلى مستذئب ـ كأنه يتعرّض للتعذيب. تركته هناك ومضيت إلى غرفتي ـ أسرع بوبتشيك أمامي على السلم. من الواضح أنه، هو أيضاً، ما كان يريد سماع شيء

من هذا العويل ـ أغلقت الباب، وأقفلته. ثم جلست على حافة سريري واضعاً رأسي بين يدي. كنت في حاجة إلى أسبرين لكني لم أرغب في النزول إلى الحمّام من أجل ذلك. تمنيت أن تعود كساندرا إلى البيت سريعاً. كان الصراخ القادم من الأسفل شيئاً بغيضاً... كأن ناراً تحرقه. تناولت الآيبود، وحاولت العثور على موسيقى مرتفعة الصوت، لكنها غير مقلقة (صحيح أن السيمفونية الرابعة لكوستاكوفيتش عمل كلاسيكي لكنها تثير القلق بعض الشيء). استلقيت على السرير واضعاً السماعتين في أذني محدّقاً في السقف. أما بوبر فقد ظل واقفاً ناصباً أذنيه محدّقاً في الباب المقفل وقد انتصب شعر رقبته كله.

15

«لقد أخبرني أن لديك ثروة». هذا ما قاله بوريس في وقت لاحق من تلك الليلة عندما كنا جالسين في منطقة الألعاب منتظرَيْن بدء مفعول حبوب الهلوسة. تمنّيت، قليلاً، لو أننا اخترنا ليلة أخرى من أجل تناولها، إلا أن بوريس أصر على أنها ستجعلني في حالة أفضل.

«هل ظننت أن لديَّ ثروة، وأنني لم أخبرك؟». كان قد مضى علينا جالسَيْن في الأرجوحة وقت بدا لي أبدياً... منتظرَيْن ما لم أكن أعرفه.

رفع بوريس كتفيه وقال: «لست أدري. هنالك أشياء كثيرة لا تخبرني بها. لو كنت مكانك لأخبرتك. لكن، لا بأس».

«لا أعرف ما الذي يجب أن أفعله. الأمور تصير مخيفة!».

على الرغم من أن الأمر كان رهيفاً، خفياً إلى حد كبير، إلا أنني بدأت ألاحظ أشكالاً رمادية لامعة تتحرّك حركة بطيئة بين الحجارة الصغيرة عند قدمي... أشكال كأنها قطع جليد متسخة، ماسات، شظايا زجاج متكسّر!

لكزني بوريس وقال: «وأنا أيضاً لدي شيء لم أخبرك به، يا بوتر».

«ماذا؟».

«على أبي أن يسافر. من أجل عمله! إنه عائد إلى أستراليا بعد شهور قليلة. وبعدها، أظنّه سيذهب إلى روسيا».

حل بعد ذلك صمت أظنّه استمر خمس ثوان، لكني أحسستها ساعة كاملة. بوريس؟ يرحل؟ بدا لي كما لو أن كل شيء قد تجمّد. كما لو أن الأرض قد توقّفت عن الدوران.

قال بوريس بصوت هادئ: «لكني لست ذاهباً...». كان وجهه قد اكتسب في ضوء القمر ألقاً مكهرباً كما في الأفلام القديمة بالأبيض والأسود من زمن السينما الصامتة... «اللعنة على هذا. سوف أهرب».

«إلى أين؟».

«لست أدري. هل تحبّ أن تأتي معي؟».

قلت من غير تفكير: «نعم...». ثم أضفت... «هل كوتكو ذاهبة معك؟».

كشّر بوريس: «لا أعرف». صار توهجه الفيلمي أكثر قوة... صار شديد الوضوح بحيث اختفى منه أي شبه بالحياة الحقيقية... صرنا مُحيَّدَيْن، مُتخيّلين، مُسطّحَيْن؛ وصار مجال رؤيتي مؤطّراً بمستطيل أسود. صرت أرى كتابة متحرّكة أسفل المستطيل تكرر ما كان يقوله لي. ثم، في اللحظة نفسها تقريباً، أحسست بأن أسفل معدتي قد سقط. قلت في نفسي: أوه، يا إلهي! ومررت بيدي على شعري وأنا أحس بأن ما كنت أعيشه في تلك اللحظة قد طغى عليّ إلى حد جعلني غير قادر على تفسير شعوري.

كان بوريس مستمراً في الكلام؛ وأدركت أنني إذا لم أرد الضياع إلى الأبد في هذا العالم الشبحي العجيب بظلاله الحادة وتغيرات ألوانه، فإن من المهم جداً أن أصغي إليه وألّا أتعلّق كثيراً بذلك الملمس الاصطناعي للأشياء.

«... أعني، أظنني أفهم موقفها...». سمعته كان يقول هذا بصوت

حزين، وكنت أرى شذرات وقطرات ملونة تتراقص من حوله... «فبالنسبة إليها، ليس الأمر هرباً لأنها قد بلغت سن الرشد، كما تعلم. لكنها عاشت في الشوارع ذات مرة، ولم يعجبها ذلك».

«كوتكو عاشت في الشوارع؟». أحسست بموجة تعاطف غير متوقّعة مع كوتكو. صحيح أن ذلك التعاطف جاءني مترافقاً مع شيء يشبه سحر موسيقى سينمائية، إلا أن إحساس الحزن في حد ذاته كان حقيقياً تماماً.

«وأنا عشت في الشارع أيضاً. في أوكرانيا. لكني كنت مع صديقيَّ ماكس وسيريوجا... ولم يكن ذلك الوضع يستمر أكثر من أيام معدودة في المرة الواحدة. بل إنه كان ممتعاً، بعض الأحيان. كنا نام في أقبية مبانٍ مهجورة... نشرب، ونتناول أقراص بوتريفانول، بل نشعل ناراً أيضاً. لكني كنت أعود إلى البيت دائماً عندما يصحو أبي. كان الأمر مختلفاً بالنسبة إلى كوتكو. ذلك الشخص... صديق أمها... كان يفعل أشياء لها. وهكذا رحلت. صارت تنام في مداخل البنايات. وتتسوّل في الشارع... وتمارس الجنس الفموي مع الرجال من أجل المال. انقطعتْ عن المدرسة فترة من الزمن. وقد كانت لديها الشجاعة اللازمة لكي تعود إليها، لكي تحاول إنهاء دراستها بعد كل ما جرى. هذا لأن الناس يتكلّمون دائماً. أنت تعرف هذا».

بقينا صامتَيْن نتأمل في قبح هذا كله. أحسست بأن هذه الكلمات القليلة جعلتني أعيش ثقل حياة كوتكو وعناءها كله... ثقل حياة بوريس أيضاً.

قلت: «يؤسفني أن كوتكو لم تعجبني». عنيت ما قلته.

قال بوريس بنبرة منطقية: «حسناً... هذا يؤسفني أيضاً». أحسست كما لو أن صوته يمضي إلى دماغي مباشرة من غير أن يمر بأذني... «وهي لا تحبّك أيضاً. ترى أن الدلال قد أفسدك، بمعنى أنك لم تعش ما عاشته، أو ما عشتُه، حتى من بعيد».

رأيت هذا الانتقاد منصفاً فقلت: «يبدو هذا منصفاً».

بدا أن برهة زمنية ثقيلة متلامعة كانت تمر: ظلال مرتعشة، وهمود، وهسيس صادر عن مصباح كاشف غير مرئي. بسطت يدي ونظرت إليها. غبار يكسوها، لكنها متألّقة متوهّجة مثلما يرى المرء الصورة على الشاشة عندما يحترق الفيلم في آلة العرض.

قال بوريس مستديراً صوبي بحركة بدت لي بطيئة متقطعة كأنها حركة من الفيلم نفسه وقد تباطأت سرعته: «واو. وأنا أيضاً أرى ذلك الآن». كان وجهه شاحباً كالطباشير. بؤبؤا عينيه داكنان، كبيران.

سألته منتبهاً: «ترى؟».

لوّح بيده المنيرة، بالأبيض والأسود، في الهواء وقال: «أنت تعرف. يبدو كل شيء مسطحاً، كما في فيلم».

«وأنت أيضاً!...» ـ إنه يرى ما أراه! لست وحدي في هذا!

قال بوريس: «بالطبع». كان مظهره الإنساني يختفي شيئاً فشيئاً، لحظة فلحظة، فيصير أشبه بقطعة متلاشية من نيترات الفضة... أفلام العشرينات... وضوء مشعّ من خلفه آت من مصدر خفي... «لكني أتمنى أن أرى شيئاً ملوناً... ربما فيلم ميري بوبينز».

قال هذا فبدأت أضحك ضحكاً لا أستطيع السيطرة عليه. ضحكت بعنف حتى كدت أقع عن الأرجوحة لأنني تيقّنت في تلك اللحظة من أنه يرى ما أراه، يرى الشيء نفسه بالضبط. بل أكثر من هذا: كنا نخلق ما نراه. مهما يكن ذلك الذي جعلتنا المادة المخدرة نراه، فقد كنا ننشئه معاً. مع ذلك الإدراك، تحوّلت هذه المحاكاة للواقع الافتراضي إلى شيء ملوّن. وأيضاً، حدث لنا هذا معاً، في وقت واحد! رحنا نتبادل النظرات ونقهقه فقط؛ كان كل شيء من حولنا مضحكاً على نحو هستيري؛ وكانت الألعاب من حولنا تبتسم لنا. وفي لحظة ما، في وقت متأخر من الليل، عندما كنا نتأرجح هناك وشلالات من شرر تتطاير من فمينا، تخيلت أن الضحك نور، وأن النور ضحك، وأن هذا هو سر الكون. أمضينا ساعات

في النظر إلى الغيوم تتحرّك راسمة أشكالاً ذات معنى؛ تدحرجنا على التراب مقتنعين بأنه أعشاب بحرية؛ استلقينا على ظهرينا وغنينا «دير برودنس» للنجوم المرحّبة بنا المعجبة بغنائنا. كانت ليلة رائعة... واحدة من أعظم الليالي في حياتي، على الرغم مما حدث بعد ذلك.

16

بات بوريس عندي تلك الليلة لأن بيتي أكثر قرباً إلى المركز الاجتماعي، حيث كنا، وأيضاً لأنه كان *«فـ كافنو»* ـ كانت تلك كلمته المفضلة للتعبير عن حالة السكر، لكن الكلمة تعني «متقزز» أو «في حالة قرف»، أو شيئاً من هذا القبيل. على أية حال، كان في حالة لا تسمح له بالعودة إلى البيت وحده في الظلام. ثم تبين لي أن هذا من حسن حظي لأنني لم أكن وحدي عندما أتى السيد سيلفر في الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر اليوم التالي. ظل الوقت سحرياً ممتلئاً نوراً مثلما كان، على الرغم من أننا لم ننم إلا قليلاً ومن أننا كنا لا نزال واهنَيْن بعض الشيء. كنا جالسَيْن نشرب عصير البرتقال ونشاهد فيلماً من أفلام الرسوم المتحركة (فكرة حسنة، لأن ذلك بدا امتداداً للصور المضحكة التي كنا نراها في رأسَيْنا الليلة السابقة). وأما الفكرة السيئة فكانت أننا تشاركنا سيجارة الأعشاب المخدرة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم قبل فترة وجيزة من سماعنا صوت الجرس. كان بوبتشيك متوتر الأعصاب، فقد أحس بأننا في حالة غير طبيعية، وظل ينبح علينا كأن أرواحاً شريرة قد سكنتنا. وعندما سمع صوت الجرس، جرى إلى الباب مسرعاً كأنه يتوقّع شيئاً ما.

أحسست كما لو أن كل ما كان من حولي قد تهاوى. قلت: «اللعنة على هذا».

قال بوريس على الفور وهو يضع بوبتشيك تحت ذراعه: «أنا سأفتح الباب»، ثم انطلق حافي القدمين، من غير قميص ومن غير أن يبدو عليه

أي انزعاج. لكنه عاد بعدما بدا لي أقل من ثانية واحدة. بدا لي شاحباً.

لم يقل بوريس شيئاً؛ وما كان في حاجة إلى قول شيء. نهضت فأدخلت قدمي في حذائي الرياضي ثم ربطت شريطه بقوة (كنت معتاداً على فعل هذا قبل «مهمات» السرقة من المتاجر، وذلك تحسباً لاضطراري إلى الجري)، ومضيت إلى الباب. رأيت السيد سيلفر واقفاً بالباب من جديد ـ سترته الطويلة البيضاء، وشعره اللامع كحذاء جديد، وكل شيء. لكنني رأيت إلى جانبه هذه المرة رجلاً ضخماً له وشوم زرقاء مغبشة على ذراعيه. كان في يد ذلك الرجل مضرب بيسبول من الألمنيوم.

قال السيد سيلفر: «مرحباً يا ثيودور! كيف حالك؟». بدا عليه سرور حقيقي برؤيتي.

أجبته مستغرباً الصحو المفاجئ الذي أحسسته: «جيد. وكيف حالك أنت؟».

«لا بأس؛ لست أشتكي. ما هذه الكدمة التي على وجهك يا صاحبي».

رفعت يدي بحركة تلقائية فتلمّست خدي: «آه».

«من الأفضل أن تعالجها. قال لي صاحبك إن والدك ليس في البيت».

«هذا صحيح».

«وهل كل شيء هنا على ما يرام؟ هل لديكما أية مشكلة؟».

قلت: «لا، في الحقيقة لا».

لم يكن الرجل الذي معه يلوح بمضربه مهدداً، ولم يبدُ خطراً من أية ناحية. لكنني لم أستطع منع نفسي من التركيز على ذلك المضرب في يده.

قال السيد سيلفر: «أقول هذا لأنني مستعد لمساعدتكما في حل أية مشكلة مهما تكن طبيعتها».

ما الذي يتحدّث عنه؟ نظرت إلى ما خلفه، إلى الشارع، إلى سيارته. كانت نوافذ السيارة داكنة، لكنني استطعت رؤية رجل آخر فيها.

تنهّد السيد سيلفر: «يسعدني سماع أنك لا تعاني أية مشكلة يا ثيودور. لكني أتمنّى أن أستطيع قول الشيء نفسه».

«لم أفهم؟».

واصل كلامه كما لو أنني لم أقل شيئاً: «لأن هناك هذا الشيء... لدي مشكلة. لدي مشكلة كبيرة حقّاً... مشكلة مع أبيك».

نظرت إلى حذائه لأنني لم أجد شيئاً أقوله. كان حذاء أسود من جلد التمساح له كعب مرتفع بعض الشيء؛ وكان مدبباً كثيراً من الأمام ولامعاً لمعاناً شديداً ذكرني بحذاء لوتشي لوبو ذي المظهر البناتي كثيراً، لوتشي الذي كان مصمم أزياء صاحب أفكار غريبة يعمل في مكتب أمي.

قال السيد سيلفر: «هكذا هو الأمر، كما ترى. إن أباك مدين لي بخمسين ألف دولار. وهذا ما يسبب لي مشكلة كبيرة جداً».

قلت مرتبكاً: «إنه يحاول تأمين المال. ربما... لست أدري إن كنت تستطيع منحه المزيد من الوقت...».

نظر السيد سيلفر إلي، ثم عدّل وضع نظارته.

قال بنبرة معتدلة: «اصغ إلي! إن والدك مستعد للمراهنة بقميصه على كيفية تعامل بعض الأغبياء مع كرة لعينة... لكن من الصعب عليَّ أن أعطف على شخص مثله. إنه لا يفي بالتزاماته. تأخّر على الموعد ثلاثة أسابيع. وهو لا يرد على اتصالاتي الهاتفية». كان يحصي هذه الخطايا على أصابع يده... «حدّد لي موعداً ظهر اليوم، لكنه لم يأتِ. هل تعرف كم من الوقت جلست منتظراً ذلك المراوغ؟ انتظرته ساعة ونصف ساعة. وكأنه ليست لدي مشاغل أخرى!...». مال برأسه جانباً... «الأشخاص الذين هم مثل أبيك يعطّلون أشخاصاً مثلي ومثل يوركو هذا عن عملهم. أتظنني أحب أن آتي إلى بيتكم؟... أقود السيارة طيلة هذه المسافة حتى أصل إلى هنا؟». ظننت بأنه يستطرد فحسب. فمن الواضح أن شخصاً

لديه عقل لا يمكن أن يحب قيادة السيارة إلى حيث نعيش. لكن وقتاً طويلاً مر، وظل الرجل ينظر إلي كأنه ينتظر إجابتي حقاً. ضايقني وقع نظرته علي فقلت: «لا».

«لا. عظيم! إجابة صحيحة يا ثيودور. أنا لا أحب هذا بكل تأكيد. لدينا أشياء أخرى نقوم بها، أنا ويوركو، صدّقني... لدينا أشياء أخرى أفضل من مطاردة شخص متهرّب كأبيك. أرجو أن تسدي إلي جميلاً وأن تقول له إننا قادرون على تسوية هذا الأمر مثلما يفعل أي أشخاص محترمين، وذلك لحظة يجلس وينهي أموره معي».

«كيف ينهي أموره؟».

«عليه أن يجلب لي المبلغ المدين به». كان مبتسماً، لكن المسحة الرمادية في أعلى نظارته الشمسية القاتمة أعطت عينيه ملمحاً خفياً مقلقاً... «أريد منك إخباره بأن يفعل هذا من أجلي يا ثيودور. لن أكون لطيفاً هكذا عندما آتي في المرة القادمة، صدقني».

17

عندما عدت إلى غرفة المعيشة، وجدت بوريس جالساً بهدوء ينظر إلى فيلم الرسوم المتحركة وقد أخفى صوت التلفزيون. رأيته يمسّد على ظهر بوبر الذي كان غارقاً في النوم في حضنه على الرغم من انزعاجه الشديد قبل قليل.

قال باختصار: «سخيف!».

لكنه نطق تلك الكلمة بطريقة جعلتني أتأخر لحظة قبل أن أفهمها. أجبته: «صحيح. قلت لك إنه شخص غريب». هز بوريس رأسه ومال على الوسادة.

«لست أعني ذلك الشخص صاحب الشعر المستعار الذي يشبه ليوناردو كوهن».

«أتظنه شعراً مستعاراً؟».

نظر إليَّ كأنه يقول *ما أهمية هذا؟*... «هو أيضاً؛ لكني أعني ذلك الروسي الضخم الذي يحمل شيئاً معدنياً... ما اسم ذلك الشيء؟».

«مضرب بيسبول».

قال بنبرة ازدراء: «كان ذلك للمظاهر فقط. كان يحاول إخافتك، لا أكثر... ذلك التافه».

«كيف تعرف أنه روسي؟».

«لأنني أعرف. لا أحد في الولايات المتحدة لديه وشم كذلك الوشم. مواطن روسي بكل تأكيد. لقد عرف أنني روسيّ أيضاً. عرف ذلك لحظة فتحت فمي».

مر زمن قبل أن أدرك أنني جالس أنظر في الفراغ. حمل بوريس بوبتشيك ووضعه على الأريكة... وضعه برفق شديد فلم يستيقظ. «هل تحب الخروج لبعض الوقت؟».

قلت فجأة وأنا أهز رأسي: «يا إلهي». أحسست بأن أثر تلك الزيارة قد أصابني الآن... ردة فعل متأخرة... «اللعنة. أتمنى لو أن أبي كان هنا، هل تعرف هذا؟ أتمنى لو أن هذا الشخص يوسعه ضرباً. أتمنى هذا حقاً، فهو يستحقه».

ركل بوريس كاحلي. كانت قدماه سوداوين لشدة اتساخهما. وكانت أظافرهما مطلية بلون أسود... هدية من كوتكو!

قال بوريس بنبرة لطيفة: «هل تعرف ما أكلته يوم أمس؟ أكلت قطعتي نستله مع زجاجة بيبسي...». عند بوريس، كانت الشوكولاته المغلّفة كلها *نستلة* والمشروبات الغازية كلها بيبسي... «وهل تعرف ما أكلته اليوم؟». رسم علامة الصفر بإبهامه وسبابته... «لا شيء».

«وأنا لم آكل شيئاً. هذه المادة تجعلك غير جائع».

«صحيح، لكن عليَّ أن آكل شيئاً. معدتي...». كشّر قليلاً.

«هل تريد أن نذهب لشراء معجنات حلوة».

«نعم. فلنشتر شيئاً. هل لديك مال؟».

«سوف أبحث».

«جيد. أظن أن لدي خمسة دولارات».

بينما كان بوريس يبحث عن حذاء وقميص، غسلت وجهي ببعض الماء ونظرت في المرآة إلى حدقتَيْ عينيَّ وإلى الكدمة في وجهي، ثم أعدت تزرير قميصي عندما رأيت أنه مزرَّر على نحو غير صحيح، وبعد ذلك ذهبت لأخرج بوبتشيك إلى الفناء وأرمي له كرة التنس عدة مرات لأن رسنه لا يسمح له بالابتعاد إلّا مسافة قصيرة. كنت أعرف أنه يحس بنفسه سجيناً. كان بوريس قد ارتدى ملابسه عندما عدنا إلى الداخل فأجرينا بحثاً سريعاً في غرفة المعيشة ونحن نضحك ونتبادل النكات ونجمع القطع النقدية من فئتي ربع دولار وعشرة سنتات. كنا نناقش أيضاً تحديد المكان الذي نحب الذهاب إليه وأسرع الطرق للوصول عندما لاحظنا أن كساندرا قد وصلت إلى باب البيت، فوقفت هناك تنظر إلينا وقد علا وجهها تعبير غريب.

توقّفنا عن الكلام فوراً وتابعنا بحثنا صامتين. لم يكن من المألوف أن تعود كساندرا في هذه الساعة. لكن برنامج عملها يكون مضطرباً بعض الأحيان؛ وقد فاجأتنا بعودتها في مرات سابقة.

نطقت كساندرا اسمي بصوت متردّد.

توقفنا عن إحصاء النقود. عادة ما تناديني كساندرا بكلمات من قبيل «يا ولد» أو «أنت» أو أي شيء إلا ثيو. لاحظت أنها لا تزال في ملابس العمل.

قالت: «وقع حادث سيارة لأبيك». كانت كأنها تقول ذلك لبوريس، لا لي.

سألتها: «أين؟».

«وقع الحادث ذلك قبل ساعتين من الآن. اتصل بي المستشفى في مكان عملي».

نظرتُ إلى بوريس. نظر بوريس إليّ. قلت: «آه. ماذا حدث؟ هل تحطمت السيارة؟».

«كانت نسبة الكحول في دمه 39». كان هذا الرقم عديم المعنى عندي. لكن حقيقة أنه ثمل لم تكن كذلك.

قلت وأنا أضع النقود في جيبي: «واو! متى يعود إلى البيت؟».

قابلت كساندرا نظرتي بعينين خاليتين من أي تعبير: «إلى البيت؟»

«من المستشفى؟».

هزت رأسها سريعاً. نظرت من حولها باحثة عن كرسي حتى تجلس عليه. وجدت الكرسي وجلست: «أنت لم تفهم...». كان وجهها فارغاً، غريباً... «لقد مات. إنه ميت».

18

عشت الساعات الست التي تلت ذلك في حالة دوار. أتى كثير من أصدقاء كساندرا: صديقتها الأولى كورتني؛ وزميلتها في العمل جانيت؛ ورجل وامرأة، ستيوارت وليزا، كانا طبيعيين أكثر بكثير من بقية الناس الذين تستضيفهم كساندرا في البيت. وبكل كرم، قدم بوريس إليهم ما بقي من الماريغوانا التي حصل عليها من كوتكو، فلقي ذلك بين الحاضرين جميعاً تقديراً غير قليل. ولحسن الحظ، اتصل أحدهم، لعلها كورتني، وطلب بيتزا... لا أعرف كيف تمكّنت من إقناع «دومينوز» بتوصيل البيتزا على الرغم من بعد المسافة؛ ذلك أننا حاولنا في ما مضى، أنا وبوريس، جعلهم يفعلون ذلك فرجوناهم وتوسلنا إليهم، وجربنا كل طريقة ممكنة لاستعطافهم، لكننا لم ننجح.

كانت جانيت جالسة مطوِّقة كساندرا بذراعها، وكانت ليزا تربت

على رأسها، وذهب ستيوارت إلى المطبخ لإعداد قهوة، ولفّت كورتني على طاولة القهوة سيجارة ماريغوانا فأظهرت براعة وخبرة لا تقلان عما لدى كوتكو. أما بوريس فظل جالساً في آخر الغرفة مخدَّراً تماماً. كان من الصعب عليَّ تصديق أن أبي قد مات عندما أرى سجائره لا تزال موجودة على طاولة المطبخ، وعندما أرى حذاءه الرياضي الأبيض لا يزال موضوعاً عند الباب الخلفي. من الواضح أن تلك الأشياء كلها أتتني بترتيب غير صحيح؛ وكان عليَّ إعادة ترتيبها في عقلي: كان أبي في سيارته على الطريق السريع قبيل الساعة الثانية بعد الظهر فانحرف إلى الجهة الأخرى من الطريق واصطدم مواجهة مع سيارة شاحنة كبيرة فقتل على الفور (لحسن الحظ لم يقتل سائق الشاحنة ولا من كانوا في السيارة التي اصطدمت بها من الخلف، على الرغم من أن سائق تلك السيارة أصيب بكسر في الساق). كان ذلك الخبر عن نسبة الكحول في دمه مفاجئاً وغير مفاجئ: كنت أشك في أن أبي قد عاد يشرب من جديد على الرغم من أنني لم أره يفعل ذلك. لكني رأيت أن ذلك الإفراط في الشرب لم يكن سبباً في حيرة كساندرا (كان في حقيقة الأمر فاقداً وعيه خلف عجلة القيادة لشدة سكره)، بل موقع الحادث... خارج المدينة متجهاً إلى الغرب، إلى الصحراء، كانت تقول بصوت حزين رداً على سؤال ما من أسئلة كورتني: «كان يجب أن يخبرني، كان يجب أن يخبرني». لكني رحت أفكر مبتئساً، وقد جلست على الأرض ووضعت كفَيَّ على عينَيّ، في السبب الذي يجعلها تظن أن من طبيعة أبي أن يقول الحقيقة في ما يتعلق بأي شيء!

وضع بوريس ذراعه على كتفي: «إنها لا تعرف، أليس كذلك؟».

فهمت أنه كان يتحدّث عن السيد سيلفر: «هل علي أن...؟».

كانت كساندرا تسأل كورتني وجانيت بنبرة شبه عدائية: «إلى أين كان ذاهباً؟»... وكأن لديها شكاً في أنهما تخفيان عنها شيئاً... «ما الذي

كان يفعله في ذلك المكان البعيد؟». كان أمراً غريباً أن أراها في ملابس العمل، فعادة ما تبدّلها لحظة دخولها البيت.

همس لي بوريس: «لم يذهب للقاء ذلك الرجل مثلما كان قد وعده».

أجبته: «أعرف هذا». لعله كان يعتزم الذهاب إلى جلسته مع السيد سيلفر. لكن (مثلما كنت أعرف، وتعرف أمي، ذلك الميل الغالب، القاتل، عند أبي)، من الممكن أن يكون قد توقّف في بار في مكان ما من أجل تناول قدح سريع، أو قدحين، حتى يهدئ أعصابه مثلما كان يقول دائماً. وعند تلك اللحظة... من عساه كان يعرف ماذا يدور في رأسه؟ لم يكن لدي شيء مفيد أقوله لكساندرا في تلك الظروف؛ لكن أبي كان معروفاً بترك المدينة وهجران كل شيء عندما تشتد عليه المطالبة بسداد ديونه.

لم أبك! بدا لي الأمر كله غير حقيقي على الرغم من تلك الموجات الباردة من الذعر وعدم التصديق التي ظلت تأتيني، موجة بعد موجة. ظللت أتلفت من حولي باحثاً عنه فيصدمني، مرة بعد مرة، غياب صوته عن هذه الأصوات كلها... ذلك الصوت المرتاح، المتوازن، الذي يشبه صوت إعلان عن الأسبرين (*«يؤكد أربعة من كل خمسة أطباء»*)، الذي يتميز ويعلو فوق أصوات بقية الحاضرين في الغرفة. كانت كساندرا تمر بحالات من الصحو فتمسح دموعها، وتأتي بأطباق من أجل البيتزا، وتصب للجميع نبيذاً أحمر ظهر فجأة، ثم تنهار باكية من جديد. وحده بوبتشيك كان سعيداً؛ فمن النادر أن يكون لدينا هذا العدد من الناس... راح يجري من شخص إلى آخر من غير أن يحبطه تكرار الصَدّ. وفي لحظة مشوشة في وقت متأخر من المساء ـ كانت كساندرا متهاوية بين ذراعي كورتني للمرة العشرين... *أوه، يا إلهي، لقد مات! لا أستطيع تصديق هذا!*... شدّني بوريس جانباً وقال لي: «بوتر، يجب أن أذهب».

«لا، لا تذهب، أرجوك».

«سوف تقلق كوتكو. اتفقنا على أن أكون الآن في بيت أمها! لم ترني منذ قرابة ثمانٍ وأربعين ساعة».

«انظر، قل لها أن تأتي إن كانت تحب ذلك. أخبرها بما حدث. سيكون الوضع في غاية السوء إذا ذهبت الآن».

كانت كساندرا قد بلغت مرحلة متقدّمة من فقدان الانتباه، في وجود هؤلاء الضيوف جميعاً وتلك الدموع وذلك الحزن كله، فتمكّن بوريس من الصعود إلى الأعلى لإجراء اتصال هاتفي من غرفتها ـ تلك الغرفة التي تظلّ مقفلة على الدوام: غرفة لم أدخلها ولم يدخلها بوريس قبل الآن». ظهر من جديد بعد نحو عشر دقائق ونزل درجات السلم سريعاً.

قال لي وهو يجلس جانبي: «قالت لي كوتكو أن أبقى هنا وطلبت مني إبلاغك بحزنها على أبيك».

قلت وأنا موشك على البكاء: «واو».

مسحت وجهي بيدي حتى لا يرى كم كنت متأثراً.

«نعم، أعني أنها تعرف كيف يكون هذا. لقد مات أبوها أيضاً».

«أوه، حقاً؟».

«نعم، مات منذ بضع سنين. مات في حادث سيارة أيضاً. لم تكن العلاقة بينهما وثيقة...».

قالت جانيت وهي واقفة تتمايل أمامنا: «من الذين مات؟ هل مات شخص آخر؟». شعر متموّج، وبلوزة حريرية، وحضور فائح برائحة الأعشاب المخدِّرة ومستحضرات التجميل.

أجبتها باقتضاب: «لا». لم أكن أحب جانيت... شخصية مشوّشة العقل تطوعت للاهتمام ببوبر، ثم تركته حبيساً وحده من غير شيء إلا تلك العلبة التي تعطيه الطعام.

قالت وهي تتراجع خطوة إلى الخلف وتشير بعينيها الزائغتين في اتجاه بوريس: «ليس أنت، هو! هل مات أحدٌ ما؟ هل مات شخص قريب منك؟».

«نعم، أشخاص كثيرون».
رفرفت بعينيها: «من أين أنت؟».
«لماذا؟».
«صوتك غريب جدّاً. كأنك بريطاني أو شيء ما. في الحقيقة، لا! كأنه مزيج من لكنة بريطانية وترانسلفانية».
أجابها بوريس ساخراً وهو يظهر أنيابه: «ترانسلفانية؟ هل تريدين أن أعضك؟»[1].
«أوه، أولاد مضحكون!». قالت هذا على نحو غامض قبل أن تضرب أعلى رأس بوريس ضربة خفيفة بأسفل كأسها. ثم ذهبت متمايلة لكي تودّع ستيوارت وليزا اللذين كانا على وشك الذهاب.
بدا لي أن كساندرا قد تناولت قرصاً ما. (همس بوريس في أذني: «لعلها تناولت أكثر من قرص»). كان واضحاً أنها موشكة على فقدان الوعي. أخذ بوريس منها سيجارتها وأطفأها (لم أكن راغباً في فعل ذلك بنفسي، تصرف سيئ مني!)، ثم ساعد كورتني في أخذها إلى غرفتها في الأعلى حيث استلقت على سريرها ووجهها إلى الأسفل. ظل الباب مفتوحاً، في حين كان بوريس وكورتني يُخلعانها حذاءها. كنت مهتماً بأن أرى، ولو لمرة واحدة، تلك الغرفة التي كان أبي وكساندرا يحرصان على إبقائها مقفلة دائماً. فناجين متّسخة، وأطباق سجائر ممتلئة، وأكداس من مجلة غلامر، ومفرش سرير أخضر منفوش، ولابتوب لم أستخدمه أبداً، ودراجة تمرينات رياضية. من كان يدري أن لديهما دراجة تمرينات رياضية هنا؟
خلعا حذاء كساندرا من قدميها، لكنهما قرّرا أن تظل في ملابسها. كانت كورتني تسأل بوريس بصوت منخفض: «هل تريدان مني أن أبات هنا الليلة؟».

---

(1) ترانسلفانيا: منطقة في وسط رومانيا اشتهرت بالقلاع القديمة، ومن بينها قلعة بران التي ارتبطت بأسطورة دراكولا.

تمطّى بوريس (بكل قلة حياء، ثم تثاءب) كان قميصه منشمراً إلى الأعلى وبنطلونه نازلاً قليلاً، فكان واضحاً أنه من غير سروال داخلي. قال لها: «هذا لطف منك، لكنها نامت، على ما أظن».

«لا مشكلة عندي في هذا». لعلّي كنت مخدّراً ـ لقد كنت مخدّراً ـ لكنها كانت مائلة مقتربة عليه كثيراً حتى بدا لي أنها تحاول التحرّش به، أو شيء ما... كان ذلك مضحكاً.

لا بد أنني أطلقت صوتاً غريباً، أو ضحكة ما، لأن كورتني استدارت إليّ في اللحظة المناسبة فرأت إشارتي الهزلية التي وجهتها إلى بوريس... أشرت بإبهامي إلى الباب... *قل لها أن تذهب من هنا!*

سألتني بنبرة باردة وهي تنظر إلي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي: «هل أنت بخير؟».

كان بوريس يضحك أيضاً، لكنه تمكّن من استعادة تعابير وجهه قبل أن تنظر إليه من جديد. صار وجهه الآن متعاطفاً ومهتماً، فجعلني ذلك أضحك بقوة أكبر.

19

كانت كساندرا فاقدة كل حسٍّ عندما ذهبوا جميعاً. كانت غارقة في نوم عميق مما دفع بوريس إلى إخراج مرآة صغيرة من حقيبة يدها (فتشها بحثاً عن الأقراص والنقود)، ووضعها تحت أنفها ليرى إن كانت تتنفس. وجد في محفظتها مئتين وتسعة وعشرين دولاراً. لم نجد غضاضة في أخذ هذا المال لأننا وجدنا أيضاً بطاقتها الائتمانية وشيكاً بألفين وخمسة وعشرين دولاراً.

قلت وأنا أرمي إليه برخصة قيادة كساندرا: «كنت أعرف أن كساندرا ليس اسمها الحقيقي». صورتها في رخصة القيادة: وجه عليه مسحة من لون برتقالي، وشعر ذو تسريحة مختلفة. كان اسمها ساندرا غايتيريل. لا قيود على رخصة القيادة... «عجباً!... مفاتيح ماذا هذه؟».

كان بوريس جالساً على السرير إلى جانبها يتحسّس نبضها بأصابعه ـ كأنه طبيب في فيلم من الأفلام القديمة ـ رفع المرآة في اتجاه الضوء، وتمتم: «تا، تا»، ثم قال شيئاً لم أفهمه.

«ماذا؟».

«إنها غارقة في نوم عميق». لكز كتفها بإصبعه، ثم انحنى فنظر داخل درج طاولة الزينة الذي كنت قد فتحته ورحت أبحث سريعاً بين محتوياته الكثيرة: قطع نقدية صغيرة، وكوبونات الكازينو، وأحمر الشفاه، ورموش اصطناعية، وأقراص من الورق المقوّى من تلك التي توضع تحت الكؤوس، ومزيل لطلاء الأظافر، وكتب صغيرة شبه ممزّقة، ونماذج دعائية صغيرة لزجاجات عطر، وكاسيتات تسجيل قديمة، وبطاقات تأمين منتهية الصلاحية منذ عشر سنين، وكمية من علب الثقاب المجانية تحمل إعلاناً عن مكتب رينو القانوني كتب عليها: *نتولى قضايا القيادة تحت تأثير الكحول والمخدّرات*.

قال بوريس وهو يتناول من الدرج علبة واقيات ذكرية ويضعها في جيبه: «سآخذ هذه! ما هذا؟».

التقط شيئاً بدا لي أول الأمر شبيهاً بعلبة كوكا كولا؛ لكنه هزه فصدر عنه صوت قرقعة. وضع أذنه عليه ثم صاح: «ها!» وألقاه إليّ... «عمل جيد».

فتحت العلبة. كان واضحاً أنها تقليد لعلبة الكوكا كولا. أفرغت محتوياتها على سطح طاولة الزينة.

قلت بعد لحظة: «واو!». فهمت أن كساندرا تحتفظ في هذه العلبة بالبقشيش الذي تحصل عليه: بعضه أوراق نقدية، وبعضه من كوبونات الكازينو. كان في العلبة أشياء أخرى... أشياء كثيرة لم أستطع استيعابها على الفور. إلا أن عينيَّ ذهبتا مباشرة إلى قرطين من الماس والزمرد: إنهما القرطان اللذان أضاعتهما أمي قبل رحيل أبي مباشرة.

قلت من جديد وأنا ألتقط واحداً منهما بسبابتي وإبهامي: «واو!».

كانت أمي تضع هذين القرطين في كل حفلة تذهب إليها... شفافية حجارتهما الزرقاء المخضرّة، وألقها الموحي بساعة من ساعات الصباح الباكر... كان ذلك جزءاً منها مثلما كان لون عينيها ورائحة شعرها الداكن.

سمعت بوريس يضحك. التقط من بين تلك الأشياء كلّها علبة فيلم فوتوغرافي فتحها بيدين مرتجفتين. غمس طرف إصبعه فيها، ثم ذاقها. قال وهو يدعك لثتيه بإصبعه: «رائع. سوف يطير صواب كوتكو لأنها لم تأت».

مددت إليه القرطين على راحة يدي المفتوحة. ألقى عليهما نظرة سريعة وقال: «نعم، شيء لطيف». رأيته يفرغ كومة من ذلك المسحوق على طاولة الزينة... «قد يبلغ ثمنهما ألفي دولار».

«كان هذان القرطان لأمي».

عندما كنا في نيويورك، سرق أبي معظم ما كان لديها من مجوهرات، بما في ذلك خاتم الزواج. وأما الآن، فقد أدركتُ أن كساندرا قد أبقت لنفسها بعضاً منها. انتابني حزن غريب عندما رأيت ما اختارته... لم تختر اللآلئ ولا البروش العقيقي، بل أشياء رخيصة الثمن من أيام مراهقة أمي. كان من بين تلك الأشياء سوار من أيام المدرسة الثانوية، وجرس صغير عليه حدوة حصان، وحذاء للباليه، وعرق نباتي فيه أربع أوراق. انتصب بوريس واقفاً، ثم دعك منخريه وناولني الورقة النقدية التي لفها على شكل أنبوب: «ألا تريد قليلاً من هذا؟».

«لا».

«هيا. سوف يجعلك في حالة أفضل».

«لا، شكراً».

«لا بد أن لدينا هنا ما يعادل أربعة، أو خمسة أقراص. لعلّها أكثر! يمكننا الاحتفاظ بقليل منها وبيع الباقي.

سألته متشكّكاً وأنا أنظر إلى جسد كساندرا المستلقي أمامنا: «هل

جربت هذه المادة من قبل؟». كان واضحاً أنها غائبة تماماً، لكن هذا الحديث على مقربة منها لم يعجبني.

«نعم. كوتكو تحبّه أيضاً. لكنه غالي الثمن...». بدا لي أنه ذُهل وغاب لحظة، ثم طرف بعينيه سريعاً وتابع كلامه ضاحكاً... «واو! هيا... خذ. أنت لا تدرك ما تفوّته على نفسك».

قلت وأنا أحصي النقود: «إنني في حالة مزرية، حتى من غير هذا».

«أعرف، لكنه سيجعلك تصحو».

قلت وأنا أضع القرطين والسوار في جيبي: «لا أستطيع تضييع الوقت يا بوريس. إذا كنا سنذهب، فعلينا أن نخرج الآن قبل أن يبدأ توافد الناس».

سألني بوريس وهو يتشمّم إصبعه: «أي ناس؟».

«سيحدث ذلك سريعاً، صدّقني! سوف يأتي موظفو دائرة خدمات الأطفال، وأشخاص من هذا القبيل». كنت قد أحصيت المال: ألف وثلاثمئة وواحد وعشرون دولاراً، فضلاً عن القطع النقدية الصغيرة. كانت هنالك كمية أكبر من كوبونات الكازينو. وأظن قيمتها تبلغ خمسمئة دولار؛ لكن كان علينا أن نتركها لها. بدأت قسمة المال إلى مجموعتين متساويتين وقلت لبوريس: «نصفها لك ونصفها لي. إن لدي هنا ما يكفي لشراء تذكرتين بالطائرة. أظننا لن ندرك الطائرة الأخيرة، لكن علينا أن ننطلق ونأخذ سيارة إلى المطار».

«ماذا؟ الليلة؟».

توقّفت عن عد النقود ونظرت إليه: «ليس لديَّ أحد هنا. لا أحد على الإطلاق. سوف يضعونني في مأوى للأطفال؛ وسيفعلون ذلك بسرعة».

أومأ بوريس برأسه في اتجاه كساندرا. كان شكلها مفزعاً بوجهها المدفون في الفراش حتى بدت كأنها جثة هامدة: «وماذا عنها؟».

أجبته بعد لحظة صمت قصيرة: «ماذا تريد؟ ما الذي يجب أن نفعله؟ هل ننتظر إلى أن تستيقظ وتكتشف أننا سلبناها؟».

قال بوريس وهو ينظر إليها نظرة متردّدة: «لست أدري. أشعر بالحزن عليها».

«لا بأس، لا تشعر بالحزن عليها. إنها لا تريدني وسوف تتصل بهم بنفسها فور إدراكها بأنها ستكون مسؤولة عني».

«تتصل بهم؟ لست أفهم من هم».

«بوريس... أنا قاصر!».

كنت أحس بخوفي يتصاعد على نحو مألوف تماماً... لعل الحالة لم تكن حالة حياة أو موت، لكن إحساسي بها كان كذلك: بيت مليء بالدخان، ومخارج مغلقة... «لا أعرف كيف هو هذا الأمر في بلادك، لكني من غير أسرة، ومن غير أصدقاء هنا».

«أنا! لديك صديق هو أنا!».

نظرت إليه: «وماذا ستفعل؟ هل تتبنّاني؟ اسمع... إذا كنت ستأتي فمن الأفضل أن نسرع. هل جواز سفرك معك؟ سوف تكون في حاجة إليه على الطائرة».

رفع بوريس يديه بطريقته الروسية التي تعني كفى: «مهلاً! أمور تجري بسرعة كبيرة جداً!».

توقّفت عند الباب: «ما مشكلتك يا بوريس؟».

«مشكلتي؟».

«قلت لي إنك تريد الفرار. أنت من طلب مني أن أذهب معه! الليلة الماضية!».

«أين تذهب؟ إلى نيويورك؟».

«وأين أذهب إلى غيرها؟».

قال على الفور: «أريد أن أذهب إلى مكان دافئ، كاليفورنيا».

«هذا جنون، من الذي تعرفه...؟».

كرّر بصوت مرتفع: «كاليفورنيا!».

«لا بأس». صحيح أنني لم أكن أعرف عن كاليفورنيا أي شيء تقريباً، لكني كنت واثقاً من أن بوريس كان يعرف أقل مني (بمعزل عن تلك الجملة من أغنية *«كاليفورنيا بوبر آليز»* التي كان يدمدم بها دائماً)... «أين في كاليفورنيا؟ أية مدينة؟».

«وما أهمية هذا؟».

«إنها ولاية كبيرة».

«رائع! سيكون هذا ممتعاً. سنتناول المخدرات طيلة الوقت ـ سنقرأ كتباً. سنوقد ناراً. سننام على الشاطئ».

حدقت فيه لحظة طويلة، ثقيلة. كان وجهه متّقداً، وعلى فمه بقع داكنة خلّفها النبيذ الأحمر.

قلت: «لا بأس»... كنت أعرف تمام المعرفة أنني أتجاوز الحد وأرتكب أكبر غلطة في حياتي: السرقة الصغيرة، وفنجان القطع النقدية المعدنية، والتشرّد على الأرصفة من غير مأوى، عثرات لن أتعافى منها أبداً.

كان بوريس مشرقاً كله: «سنذهب إلى الشاطئ! نعم؟».

هكذا يخطئ المرء: بهذه السرعة! قلت له وأنا أزيح شعري عن عيني: «كما تريد...». كنت في غاية الإرهاق... «لكن علينا أن نذهب الآن. من فضلك».

«ماذا؟ في هذه الدقيقة؟»

«نعم. هل أنت في حاجة للذهاب إلى البيت لتأخذ شيئاً؟».

«الليلة؟».

«لست أمزح يا بوريس. لا يمكنني الجلوس والانتظار...». كانت هذه المجادلة معه تجعل ذعري يتزايد من جديد. كانت اللوحة مشكلة، ولم أكن أعرف كيف أتدبّر أمرها. لكن من الممكن أن أهتدي إلى شيء ما بعد أن يخرج بوريس من البيت... «من فضلك، هيّا».

قال بوريس غير مصدّق: «هل الرعاية الحكومية للأطفال في أميركا سيئة إلى هذا الحد؟ أنت تجعلها تبدو سجناً؟».

«هل أنت آتٍ معي؟ نعم أم لا؟».

قال وهو يسير خلفي: «إنني في حاجة إلى بعض الوقت. أعني أننا لا نستطيع الذهاب الآن! حقاً... أقسم لك. انتظر قليلاً. أعطني يوماً واحداً! يوماً واحداً فقط!».

«لماذا؟».

بدا بوريس مرتبكاً: «الحقيقة، أعني، لأن...».

«لأن ماذا؟».

«لأنني... لأن من الضروري أن أرى كوتكو! ثم... هنالك أشياء كثيرة! صدقاً، لا يمكنك السفر الليلة...». قال هذا عندما لم يسمع مني شيئاً: «ثق بي. سوف تندم. وأنا أعني هذا. تعال إلى بيتي. انتظر حتى الصباح قبل أن تذهب!».

قلت باقتضاب وأنا آخذ نصف المال، وحصتي، وأضعه في جيبي، ثم أتجه صوب باب الغرفة: «لا أستطيع الانتظار».

تبعني وقال: «بوتر؟».

«ماذا؟».

«هنالك أمر مهم يجب أن أخبرك به».

قلت وأنا أستدير نحوه: «بوريس، ماذا دهاك؟ ما الأمر؟». قلت هذا عندما وقفنا معاً عند باب الغرفة ينظر كل منا إلى الآخر... «إن كان لديك شيء فقله؛ قله الآن».

«أخشى أن يغضبك هذا».

«ما الأمر؟ ماذا فعلت؟».

ظل بوريس صامتاً. راح يعض إبهامه.

«حسناً، ماذا؟».

أشاح بوجهه جانباً وقال بطريقة غامضة: «يجب أن تبقى. إنك ترتكب غلطة».

أجبته بنبرة حادة: «انسَ الأمر! إذا كنت لا تريد المجيء معي، فلا تأتي... هل اتفقنا؟ لكني لا أستطيع الانتظار هنا طيلة الليل».

كنت أظن أن بوريس سيسألني عما في غلاف الوسادة. خاصة أن تلك الحزمة كانت كبيرة غريبة الشكل بعد حماستي الكبيرة في تغليفها. لكني ذهبت وأخرجتها من خلف رأس السرير ووضعتها في حقيبتي، مع الآيبود واللابتوب الصغير، والشاحن، وكتاب *ريح ورمل ونجوم*، وبضعة صور لأمي، وفرشاة أسناني، والقليل جداً من الملابس. لم يفعل إلا أن راح ينظر إلي متجهّماً ولم ينطق بشيء. عندما أخرجت سترتي المدرسية القديمة من أعماق خزانتي (صارت صغيرة عليَّ مع أنها كانت كبيرة عندما اشترتها لي أمي).

أومأ برأسه وقال: «هذه فكرة حسنة».

«ماذا؟».

«ستبعد عنك شبهة التشرّد».

أجبته: «إننا في تشرين الثاني. وسوف يكون الطقس بارداً هناك». لم آت من نيويورك إلا بسترة دافئة واحدة. وضعت السترة في حقيبتي، ثم أغلقتها.

استند بوريس إلى الجدار وقال بطريقة وقحة: «فماذا ستفعل؟ هل ستعيش في الشارع وفي محطات القطار؟ أين؟».

«سأتصل بصديقي الذي كنت مقيماً عنده في السابق».

«لو كان هؤلاء الناس يريدونك لتبنّوك عندما كنت لديهم».

«لم يكونوا قادرين على هذا! كيف كان يمكن أن يتبنوني؟».

طوى بوريس ذراعيه على صدره: «تلك الأسرة لم تكن راغبة في ذلك. أنت أخبرتني بنفسك. مرات كثيرة. ثم إنك لم تتلقَ منهم أي اتصال».

أجبته بعد صمت مرتبك قصير: «هذا غير صحيح».

قبل بضعة شهور فقط، أرسل لي آندي رسالة مطوّلة (بالنسبة إليه) بالبريد الإلكتروني أخبرني فيها عن بعض الأمور التي تجري في المدرسة وعن فضيحة مدرب التنس الذي كان يتحسس الفتيات في صفنا؛ لكن تلك الحياة كانت قد صارت شديدة البعد عني إلى درجة أحسست معها بأنني أقرأ عن أشخاص لا أعرفهم.

قال بوريس بشيء من الازدراء، كما بدا لي: «أطفال كثيرون؟ وما من متّسع كافٍ؟ ألا تذكر شيئاً من هذا. قلت لي إن الأم والأب كانا سعيدين برؤيتك راحلاً».

«ابتعد عني». كنت قد بدأت أشعر بصداع شديد. ماذا أفعل إذا أتى موظفو الخدمات الاجتماعية ووضعوني في سيارتهم؟ ليس لدي في الولاية كلها شخص واحد أستطيع الاتصال به! السيدة سبيريتسكايا؟ موظف متجر الألعاب البدين الذي كان يقبل أن يبيعنا الصمغ من غير ألعاب؟

لحق بي بوريس إلى الأسفل حيث توقّفنا في وسط غرفة المعيشة عند بوبر الذي بدت عليه التعاسة ـ جرى على الفور معترضاً سبيلنا، ثم جلس ينظر إلينا كما لو أنه مدرك ما يجري تمام الإدراك.

قلت وأنا أضع حقيبتي: «أوه، اللعنة». ساد الصمت.

قلت: «بوريس، هل يمكنك...؟».

«لا».

«ألا يمكن لكوتكو؟»

«لا».

قلت: «لا بأس. اللعنة على هذا». ثم حملت بوبر ووضعته تحت ذراعي... «لن أبقيه هنا حتى تحبسه كساندرا وتتركه يجوع».

قال بوريس عندما بدأت السير في اتجاه الباب: «إلى أين أنت ذاهب؟».

«ماذا؟».

«هل ستذهب إلى المطار سيراً على قدميك؟».

قلت لبوبتشيك وأنا أضعه على الأرض: «انتظر!». أحسست بالغثيان على الفور... أحسست بأنني موشك على تقيؤ النبيذ الأحمر على السجادة... «هل يقبلون الكلب على الطائرة؟».

قال بوريس جازماً، من غير رحمة، وهو يقذف من فمه قطعة ظفر قضمها من فمه: «لا».

كان مسلكه حقيراً حقاً! وددت أن ألكمه. قلت له: «لا بأس إذاً، قد يريده أحد ما في المطار. وإلا فسأذهب بالقطار».

كان بوريس على وشك قول شيء ساخر، فقد رأيت شفتيه مُطبقتين بطريقة أعرفها جيداً؛ لكن ملامح وجهه تغيّرت على نحو مفاجئ تماماً. استدرت فرأيت كساندرا: عينان مجنونتان، ووجه لطخته الماسكارا. كانت تقف مترنّحة في الفسحة عند أعلى السلم.

تجمّدنا في مكاننا، ونظرنا إليها. فتحت فمها بعدما بدا لنا صمتاً استمر قروناً، ثم أغلقت فمها من جديد وأمسكت بالدرابزين حتى تستطيع أن تظل واقفة. قالت بصوت خشن صدئ: «هل ترك لاري مفاتيحه في خزنة البنك؟».

حدّقنا فيها مذعورين بضع لحظات إضافية قبل أن ندرك أنها تنتظر إجابتنا. كان شعرها أشبه بكومة قش؛ وبدت مشوَّشة مضطربة تماماً؛ بدت أيضاً غير مستقرة في وقفتها حتى لكأنها موشكة على السقوط والتدحرج على درجات السلم.

قال بوريس بصوت مرتفع: «ممم، نعم. أعني لا...». لكنه رأى أنها لا تزال واقفة مكانها... «كل شيء بخير. عودي إلى السرير».

غمغمت بشيء ما، ثم ذهبت بخطوات مترنحة من ساقيها المهتزتين. وقفنا بضع لحظات من دون أية حركة. ثم التقطت حقيبتي وانسللت

خارجاً من الباب بكل هدوء (أحسست وخزاً في رقبتي من الخلف... آخر مرة أرى فيه هذا البيت، وآخر مرة أراها... على الرغم من أنني لم أتوقّف حتى ألقي نظرة أخيرة). خرج بوريس وبوبتشيك من خلفي. سرنا مبتعدَين عن البيت سريعاً، نحن الثلاثة، ولم نتوقف حتى بلغنا نهاية الشارع. كانت مخالب بوبتشيك تنقر بلاط الرصيف.

قال بوريس بالنبرة الساخرة التي يستخدمها عندما نسرق من السوبر ماركت: «لا. لعل الأمر ليس سيئاً إلى الحد الذي توقّعته».

أما أنا فقد كنت سابحاً في عرق بارد. أحسست بهواء الليل لطيفاً، لذيذاً، على الرغم من برودته. بعيداً، إلى جهة الغرب، رأيت بروقاً صامتة تتلوّى في عتمة السماء.

ضحك بوريس: «جيد... إنها ليست ميتة، على الأقل! كنت قلقاً عليها. يا إلهي!».

لبست سترتي وقلت له: «دعني أستخدم هاتفك. يجب أن أطلب سيارة».

أدخل يده في جيبه، ثم ناولني الهاتف. كان هاتفاً من النوع الرخيص. إنه ذلك الهاتف الذي اشتراه حتى يلاحق كوتكو.

عندما حاول إعادة الهاتف إليه بعد أن انتهيت من مكالمتي (لَكي كاب، 777-444، الرقم الملصق على كل مقعد من مقاعد مواقف الباصات في لاس فيغاس). رفع يديه الاثنتين وقال لي: «لا، دعه معك». ثم أخرج حزمة النقود من جيبه ـ نصيبه مما أخذناه من كساندرا ـ وحاول إعطائي إياها.

قلت له: «انسَ الأمر...». كنت ألقي نظرات قلقة في اتجاه البيت. خفت أن تستيقظ كساندرا من جديد فتخرج إلى الشارع باحثة عنا... «إنه نصيبك».

«لا! قد تكون في حاجة إلى هذا المال».

أجبته وأنا أضع يدي في جيبيّ حتى لا أترك له فرصة وضع المال في أي منهما: «لا أريد هذا المال. ثم إنك قد تحتاجه».

«طاوعني يا بوتر! أتمنى ألا تذهب في هذه اللحظة». أشار إلى صف البيوت الفارغة على امتداد الشارع... «إذا كنت لا تريد أن تأتي إلى بيتي، فمن الممكن أن تلجأ إلى واحد من هذه البيوت وتظل فيه يوماً أو يومين! هنالك أثاث في ذلك البيت القرميدي هناك. سأجلب لك طعاماً إذا أردت ذلك».

قلت وأنا أضع الهاتف في جيب سترتي: «أو يمكنني أن أتصل مع بيتزا دومينوز بما أنهم صاروا يوصلون البيتزا إلى هذا المكان».

قال بصوت حزين: «لا تغضب مني».

«لست غاضباً». والحقيقة أنني لم أكن غاضباً ـ كنت مشوشاً فحسب؛ كنت مشوشاً إلى حد أحسست معه أنه يمكن أن أستيقظ فأكتشف أنني كنت نائماً وقد سقط الكتاب على وجهي.

لاحظت أن بوريس كان رافعاً رأسه ناظراً إلى السماء. كان يدمدم بشيء لنفسه... بشيء من أغاني فرقة *«فِلفِت آندر غراوند»* (التي تحبها أمي): *لكن، إذا أغلقت الباب... فقد يستمر الليل إلى الأبد...*

دعكت عيني وقلت له: «وماذا عنك؟».

نظر إلي مبتسماً وقال: «ماذا؟».

«ماذا سيحدث؟ هل سأراك من جديد؟».

قال بتلك النبرة التي تخيلت أنه استخدمها مع الطباخ بامي ومع جودي، زوجة صاحب المقهى في كارنيولاغ، ومع كل شخص وَدَّعه في حياته... «من يدري؟».

«هل تلحق بي بعد يوم أو يومين؟».

«الحقيقة...».

«الحق بي في ما بعد. تعال بالطائرة ـ لديك المال. سوف أتصل بك وأعطيك عنواني. لا تقل لا».

قال بوريس بالصوت المبتهج نفسه: «لا بأس إذاً؛ لن أقول لا». لكن الأمر كان واضحاً في نبرة صوته. لقد كان يقول لا.

أغمضت عينيَّ. «أوه، يا ربي!». كنت مترنحاً لشدة تعبي. وكان عليَّ أن أقاوم الرغبة في الاستلقاء على الأرض، مباشرة حيث أقف، وكأن شيئاً حقيقياً يشدني إلى الرصيف. وعندما فتحت عيني، رأيت بوريس ينظر إليَّ قلقاً.

قال: «انظر إلى حالتك!... تكاد تسقط على الأرض». أدخل يده في جيبه.

تراجعت خطوة إلى الخلف عندما رأيت ما كان في يده: «لا، لا، لا، مستحيل. انسَ الأمر».

«ستجعلك في حال أفضل».

«هذا ما قلته لي عن تلك المادة الأخرى...». لم أكن مستعداً لمزيد من أعشاب البحر والنجوم الصادحة... «حقاً، لا أريد تناول أي شيء».

«لكن هذا شيء مختلف. شيء مختلف تماماً. سوف يجعلك تصفو، سوف يصفو رأسك... أعدك بهذا».

«صحيح!». مادة مخدرة تجعلك تصحو وتجعل ذهنك صافياً... لم يبدُ لي هذا شيئاً مما يشبه النمط الذي اعتدته من بوريس؛ لكنه بدا أحسن مني حالاً، بقليل.

قال بنبرة مقنعة: «انظر إليّ. نعم...». عرف أنه أقنعني... «هل تراني مترنحاً؟ هل ترى زبداً يخرج من فمي؟ لا... أحاول مساعدتك، لا أكثر». قال هذا وهو يفرغ قليلاً من محتويات العلبة في راحة يده... «هيا. دعني أضعها في فمك».

كنت أتوقع، إلى حد ما، أن تلك خدعة من بوريس... توقّعت أن أفقد وعيي على الفور، ثم أستيقظ فأجد نفسي في مكان لا أعرف... ربما في واحد من تلك البيوت المهجورة في الشارع. لكني كنت متعباً إلى حد جعلني غير مهتم بشيء... ثم إن ذلك قد يكون أمراً حسناً على أية حال!

انحنيت إلى الأمام وتركته يضغط على أحد منخري بإصبعه فيغلقه. قال بنبرة مشجعة: «هيا! هكذا. تنشّق الآن».

وعلى الفور تقريباً، أحسست أنني صرت أحسن حالاً. كان ذلك أشبه بمعجزة. قلت وأنا أدعك أنفي في المكان الذي أحسست فيه بتلك الوخزة الحادّة الممتعة... «واو!».

كان يضع مقداراً آخر في كفه: «ألم أقل لك؟ هيا. المنخر الثاني. لا تتنفس. نعم، الآن».

بدا لي كل شيء أكثر وضوحاً وأكثر سطوعاً، بما في ذلك بوريس نفسه.

«ماذا قلت لك؟». رأيته يستنشق المزيد... «ألست آسفاً لأنك لم تصغ إلى ما قلته لك؟».

نظرت إلى السماء وسألته: «هل ستبيع هذه المادة؟».

«يا إلهي، لماذا؟ إن ثمنها مرتفع جداً في حقيقة الأمر. بضعة آلاف من الدولارات».

«هذه الكمية الصغيرة؟».

«ليست كمية صغيرة كما تظنّ! يبلغ وزنها غرامات كثيرة. عشرون غراماً، أو أكثر. قد أجني منها ثروة إذا قسمتها إلى أجزاء صغيرة وبعتها للبنات... كيتي بيرمان، مثلاً».

«هل تعرف كيتي بيرمان؟».

كان لدى كيتي بيرمان سيارتها الخاصة بها ـ سيارة سوداء ذات سقف متحرك. كانت أكبر منا بسنة واحدة. وكانت بعيدة عنا كل البعد، وفقاً لمعيارنا الاجتماعي... كنا نراها أشبه بواحدة من نجوم السينما».

«طبعاً، سكاي، كيتي، جيسيكا... وبقية الفتيات جميعاً، على أية حال...». قدم لي العلبة مرة أخرى... «يمكنني الآن أن أشتري لكوتكو الكيبورد الذي تريده. لقد صار لدي مال كثير».

مشينا على الرصيف جيئة وذهاباً عدة مرات إلى أن بدأت أشعر بقدر أكبر من التفاؤل في ما يخص المستقبل. صرت أرى كل شيء أحسن حالاً. كنا واقفين في الشارع نثرثر ونحك أنفينا، وكان بوبر يرفع رأسه وينظر إلينا نظرة فضولية، فبدا لي أن روعة نيويورك قد صارت في متناول يدي... بدت شيئاً على طرف لساني، شيئاً أستطيع نقله بالكلمات.

قلت: «إنها مدينة رائعة» كانت الكلمات تدور وتدوّم وتتناثر مني... «حقاً، يجب أن تأتي. يمكننا الذهاب إلى شاطئ برايتون. يذهب الروس كلهم إلى ذلك المكان. الحقيقة أنني لم أذهب إلى ذلك المكان من قبل. لكنْ، هناك قطارٌ يسير إلى تلك الوجهة. إنه آخر موقف على خط القطار. وهناك مجتمع روسي كبير: مطاعم لديها أسماك مدخَّنة وكافيار. كنا نتحدّث دائماً، أنا وأمي، عن الذهاب لتناول الطعام في ذلك المكان، في يوم من الأيام. أخبرها الجواهري الذي كانت تعمل معه عن بعض المطاعم الجيّدة؛ لكننا لم نذهب. لا بد أن ذلك المكان رائع. وأيضاً، لديّ مال من أجل المدرسة. قد يمكنك أن تذهب إلى مدرستي. لا... يمكنك أن تذهب بالتأكيد. لديَّ منحة دراسية». في الحقيقة، كانت لديَّ منحة دراسية من أجلي أنا فقط، لكن ذلك المحامي قال إنه يمكن استخدام المال الموجود في الصندوق لتسديد مصاريف التعليم... تعليم أي شخص كان. ليس فقط لتعليمي أنا. «...هناك ما يكفينا نحن الاثنين، ويزيد. لكن المدرسة العامة خيار ممكن أيضاً. فالمدارس العامة في نيويورك جيدة. أعرف أشخاصاً هناك. لا مشكلة عندي أبداً في ما يتعلق بالمدرسة العامة».

كنت ماضياً في هذا الهذر عندما قال بوريس: «بوتر!». وقبل أن أتمكّن من إجابته، أمسك وجهي بيديه الاثنتين وقبلني على فمي. وقفت مرفرفاً بعيني ـ انتهى الأمر حتى قبل أن أدرك ما حدث ـ بينما انحنى بوريس فحمل بوبر من تحت قائمتيه الأماميتين وطبع قبلة على قمة أنفه.

سلمني إياه، ثم قال وهو يمسح بيده على رأس الكلب مرة أخيرة: «ها هي سيارتك هناك».

استدرت فرأيت سيارة تاكسي تتقدّم ببطء في الناحية الأخرى من الشارع وهي تتفحّص عناوين البيوت.

وقفنا وراح كل منا ينظر إلى الآخر ـ كانت أنفاسي ثقيلة، وكنت مذهولاً تماماً.

قال بوريس: «أتمنى لك حظاً طيّباً. لن أنساك...». ثم ربت على رأس بوبر... «مع السلامة يا بوبتشيك. اعتن به يا بوتر!».

في ما بعد ـ في سيارة التاكسي، وبعد ذلك أيضاً ـ كنت أعيد تلك اللحظة في ذهني وأستغرب أنني لوحت بيدي لبوريس وسرت مبتعداً عنه بطريقة عادية تماماً. لماذا لم أشدّه من ذراعه وأرجوه، مرة أخيرة، أن يصعد معي إلى السيارة؟ لماذا لم أقل له: *هيا، هيا يا بوريس!* تماماً مثلما كنا نفعل عندما نهرب من المدرسة... فسوف نتناول طعام إفطارنا في حقول الذرة عندما تشرق الشمس! كنت أعرفه معرفة كافية، وأعرف أن من الممكن أن يفعل بوريس أي شيء إذا طلب المرء منه ذلك بطريقة صحيحة، في اللحظة المناسبة. كنت أعرف عندما استدرت وسرت مبتعداً أنه سيجري خلفي ويقفز في السيارة ضاحكاً لو طلبت منه ذلك مرة أخيرة.

لكني لم أطلب. وفي الحقيقة، أظن أن من الأفضل أنني لم أطلب منه ذلك... أقول هذا الآن على الرغم من مرارة الندم الذي لازمني حيناً من الزمن. وكان أكثر ما أراحني أنني، في حالة الثرثرة غير المألوفة تلك، ورغبتي الشديدة في الكلام، منعت نفسي من التفوه بشيء كان على طرف لساني، بشيء لم أقله أبداً على الرغم من أنه كان شيئاً يعرفه كل منا معرفة كافية من غير حاجة إلى أن أقوله له بصوت مسموع في الشارع... كان ذلك الشيء، بالطبع، أنني أحبه.

20

كنت متعباً إلى حد حال دون استمرار أثر المخدّر طويلاً؛ وعلى الأقل، لم يستمر الجزء الحسن من تأثيره. أدرك سائق السيارة على الفور أن هنالك أمراً ما (كان نيويوركياً منتقلاً إلى لاس فيغاس؛ عرفت ذلك من طريقة كلامه)، فحاول إعطائي بطاقة فيها أرقام للاتصال بمؤسسة الخدمة الوطنية للأطفال الهاربين من بيوتهم. لكني رفضت أخذها. وعندما طلبت منه الذهاب إلى محطة القطار (لم أكن أعرف حتى إن كان هنالك قطار من لاس فيغاس إلى نيويورك... لا بد أن يكون هنالك قطار). هز الرجل رأسه وقال لي: «ألا تعرف؟... أظنّك تعرف، يا صاحب النظارة، أنهم لا يسمحون بوجود الكلاب على متن قطار *آمتراك*!».

غاص قلبي في صدري. قلت له: «ألا يسمحون؟».

«بالطائرة... ربما. لست أدري». كان رجلاً في مقتبل العمر، سريع الكلام، طفولي الوجه، ممتلئ الجسم بعض الشيء. وكان في قميص قطني قصير الكمين كتب عليه «*بن وتيلر: حفلة في ريو*». قال: «يجب أن تكون معك سلة، أو شيء من هذا القبيل. قد يكون الباص خياراً أفضل بالنسبة إليك. لكنهم لا يسمحون بسفر الأطفال تحت سن معينة بغير إذن من الأهل».

«قلت لك إن أبي قد مات. أرسلتني صديقته عائداً إلى عائلتي في الساحل الشرقي».

«لا بأس إذاً. ما من شيء يدعوك إلى القلق، أليس كذلك؟».

أبقيت فمي مطبقاً طيلة ما بقي من المسافة. لم أكن قد استوعبت تماماً حقيقة أن أبي قد مات؛ وكانت أنوار المصابيح التي نمر بها سريعاً تعيدني إلى تلك الحقيقة مرة بعد مرة على نحو مزعج. حادث سيارة! عندما كنا في نيويورك، لم يكن يقلقنا احتمال أن يقود السيارة تحت تأثير

الشراب... بل كنا نخاف سقوطه أمام سيارة ما، أو تعرّضه للطعن من أجل سلب محفظته عندما يخرج مترنحاً من واحد من البارات الرديئة في الساعة الثالثة قبل الفجر. ماذا سيفعلون بجثته؟ لقد نثرت رماد أمي في *سنترال بارك* على الرغم من معرفتي بأن هناك أنظمةً تمنع ذلك. سرت مع آندي ذات أمسية عندما بدأ حلول الظلام، فذهبنا إلى منطقة مهجورة في الجانب الغربي من البركة. وهناك أفرغت الوعاء بينما كان آندي يراقب المكان. لم يثر اضطرابي نثرُ بقايا أمي على ذلك النحو بقدر ما أثاره اكتشافي حقيقة أن الوعاء كان مغلفاً بأوراق مقتطعة من صحيفة فيها إعلانات إباحية: *فتيات آسيويات مع رغوة الصابون؛ نشوة جنسية حارّة*... لفتت هاتان الجملتان انتباهي عندما راح المسحوق الرمادي بلون حجارة القمر يتطاير ويدوّم في غسق تلك الليلة من شهر أيار.

ثم ظهرت أنوار ساطعة، وتوقّفت السيارة. قال السائق وهو يستدير صوبي واضعاً ذراعه على ظهر المقعد. كنا في ساحة وقوف السيارات عند محطة شركة *غرايهاوند* للباصات: «وصلنا يا صاحب النظارة! هل قلت لي اسمك؟».

قلت من غير تفكير: «اسمي ثيو»، ثم ندمت على الفور.

مد يده من فوق المقعد حتى يصافحني: «لا بأس يا ثيو. اسمي جي بي. هل تريد أن تسمع مني نصيحة؟».

قلت متردّداً بعض الشيء: «بالتأكيد». على الرغم من كل ما كان يجري (كان كثيراً حقاً)، انتابتني حالة غير معقولة من عدم الارتياح لأن من الممكن أن يكون هذا الشخص قد رأى بوريس يقبّلني في الشارع.

«هذا ليس من شأني، لكنك في حاجة إلى شيء حتى تضع كلبك الصغير فيه».

«لم أفهم!».

أشار إلى حقيبتي بحركة من رأسه: «هل تتسع له؟».

«ممم...».

«أظنك ستكون مضطراً إلى وضع الحقيبة مع الأمتعة. قد يكون حجمها أكبر مما يمكن إبقاؤه معك... يضعون الأمتعة في الأسفل. الأمر هنا مختلف عن الطائرة».

«أنا...». كان هذا أكثر من أن أستطيع التفكير فيه... «ليس لدي شيء».

«انتظر. دعني ألقي نظرة هناك!». نزل من السيارة وذهب ففتح صندوقها، ثم عاد بحقيبة تسوق قماشية كبيرة من متجر للمأكولات الصحية عليها عبارة *فلنجعل أميركا خضراء*.

قال لي: «لو كنت مكانك لذهبت واشتريت بطاقة السفر من غير أن يكون الكلب معي. اتركه هنا، من باب الاحتياط، ما رأيك؟».

كان صديقي الجديد محقّاً في ما يتعلق بعدم إمكانية السفر بالباص من غير إذن خطي يحمل إمضاء أحد الوالدين. وكانت هنالك قيود أخرى على سفر الأطفال: بدأت الموظفة الجالسة خلف نافذة بيع التذاكر (امرأة بدينة من أصل مكسيكي بشعر مربوط خلف رأسها) تسرد قائمة القيود الطويلة المزعجة بصوت رتيب. لا يحق للطفل الانتقال من باص لآخر. ولا يحق له السفر في رحلات تستغرق أكثر من خمس ساعات. وما لم يظهر الشخص المدوَّن اسمه في «استمارة الطفل المسافر من غير مرافق» لاستلامي عند وصولي، وما لم يبرز أيضاً وثيقة تثبت شخصيته، فسوف يجري تسليمي إلى دائرة خدمات حماية الأطفال أو إلى موظفي إنفاذ القانون المحليين في المدينة التي أسافر إليها.

«ولكن...».

«ينطبق هذا على كل طفل تحت الخامسة عشرة. لا استثناء أبداً».

«لكني لست تحت الخامسة عشرة...» قلت لها هذا وأنا أبحث في حقيبتي ثم أخرج بطاقة إثبات الشخصية الصادرة في نيويورك... بطاقة حكومية المظهر... «لقد بلغت الخامسة عشرة. انظري!» كان العامل

الاجتماعي إنريك قد انتبه إلى احتمال اضطراري إلى المضي عبر ما كان يدعوه «النظام»، فأخذني بعد موت أمي بفترة قصيرة من أجل التقاط صورة لاستخراج هذه البطاقة. صحيح أن الأمر لم يعجبني في ذلك الوقت، ولم تعجبني «مخالب الأخ الكبير» الممتدة في كل مكان... (قال لي آندي وهو ينظر إلى البطاقة بفضول ظاهر: «واو! صار لك رقمك التعريفي الخاص»)، لكني صرت الآن شاكراً لإنريك الذي كان لديه من البصيرة ما جعله يأخذني إلى مركز المدينة ويعمل على تسجيلي رسمياً كما لو كنت سيارة مستعملة. انتظرت تحت مصابيح النيون المتوهجة، عاجزاً كأنني لاجئ، إلى أن تفحَّصتِ الموظفة بطاقتي ونظرت إليها من زوايا مختلفة، ثم قرّرت أنها سليمة.

قالت بنبرة متشكّكة وهي تعيد إلي بطاقتي: «خمس عشرة سنة!».

«هذا صحيح». كنت أعرف أنني لا أبدو في الخامسة عشرة. وأدركت أن ما من إمكانية لأي سؤال مباشر في ما يتعلق ببوبر لأنني رأيت عند المكتب لافتة كبيرة كتب عليها بالأحمر «*يمنع نقل الكلاب والقطط والطيور والقوارض والزواحف، وأي نوع من أنواع الحيوانات*».

وأما في ما يتعلّق بالباص نفسه، فقد كنت محظوظاً. هنالك باص ينطلق في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة بعد منتصف الليل؛ وسيكون هنالك تبديل للباص في مكان ما على الطريق. بقي على انطلاق الباص خمس عشرة دقيقة فقط. طبعت الآلة بطاقتي، ثم أخرجتها بصوت ميكانيكي. لكني بقيت واقفاً أتساءل في نفسي عما يمكن أن أفعله بخصوص بوبر. سرت إلى الخارج، وكان لدي شبه أمل في أن يكون السائق قد ذهب ـ لعله أخذ بوبر إلى مكان أكثر أماناً وحباً ـ لكني وجدته يشرب علبة *ريد بول* ويتكلّم على هاتفه. لم أر بوبر. أنهى مكالمته عندما رآني أمامه. ثم سألني: «ما رأيك؟».

سألته بصوت مرتجف: «أين هو؟». نظرت في المقعد الخلفي... «ماذا فعلت به؟».

ضحك السائق: «أنت لا تعرف... احزر!». وبحركة سريعة، أزاح صحيفة *يو إس أيه توداي* المطوية كيفما اتفق فوق الحقيبة القماشية على المقعد الأمامي إلى جانبه. وهناك، رأيت بوبر جالساً مرتاحاً في صندوق صغير من الورق المقوى. كان يقضم شرائح بطاطا مقلية.

قال الرجل: «التضليل... الصندوق يجعل الحقيبة ممتلئة من غير أن تتخذ شكل الكلب. كما أنه يمنحه فسحة صغيرة للحركة. والصحيفة... غطاء مثالي. إنها تخفيه عن الأعين، وتجعل الحقيبة تبدو ممتلئة من غير أن تزيد وزنها».

«هل تظن أن الأمر سيمضي بسلام؟».

«الحقيقة... أعني... إنه كلب صغير. كم وزنه؟ خمسة باوندات أو ستة. هل هو هادئ الطبع؟».

نظرت إلى بوبر متشكّكاً. كان متجمعاً على نفسه في أسفل الصندوق: «ليس دائماً».

مسح جي بي فمه بظهر يده ثم ناولني علبة من رقائق البطاطس المقلية: «أعطه بعضاً منها عندما تجد أن صبره قد نفد. سوف يتوقف الباص كل أربع ساعات. اجلس في آخر الباص إن استطعت، واحرص على الخروج من المحطة في الاستراحة قبل أن تخرجه من الحقيبة حتى يقضي حاجته».

علّقت الحقيبة بكتفي، وطوقتها بذراعيَّ، ثم سألته: «هل ترى فيها شيئاً مريباً؟».

«لا. لن أرتاب أبداً إذا لم أكن أعرف ما فيها. لكن، هل أعطيك نصيحة؟ سر من أسرار السحرة؟».

«نعم».

«لا تواصل النظر إلى الحقيبة مثلما تفعل الآن. انظر إلى أي شيء غير الحقيبة. انظر إلى المشهد من حولك، إلى رباط حذائك، إلى أي شيء...

تماماً، هكذا. هذا صحيح. كن واثقاً، طبيعياً. تلك هي الخدعة. إذا قمت بحركات خرقاء كأنك تبحث عن عدسة لاصقة سقطت من عينك، فهذا وافٍ بالغرض أيضاً عندما تظن أن هناك من ينظر إليك نظرة متفحصة. تظاهر بأنك أسقطت رقائق البطاطس التي في يدك، أو أنك تعثرت في سيرك، أو أنك غصصت بشيء تشربه... افعل أي شيء».

واو، يا إلهي! من الواضح أنهم لم يختاروا اسم *«تاكسي الحظ»* عبثاً.

ضحك من جديد كما لو أنني قلت تلك الفكرة بصوت مسموع. قال وهو يأخذ جرعة كبيرة أخرى من العلبة التي في يده: «أعرف أنها قاعدة غبيّة... عدم السماح بوجود الكلاب على متن الباص. أعني... ماذا يريدون أن تفعل به؟ هل تلقيه على قارعة الطريق؟».

«هل أنت ساحر، أو شيء ما؟».

ضحك: «كيف عرف؟ أؤدي بعض خدع الورق في بار في فندق *أورليانز* ـ لو كان سنك أكبر قليلاً. لقلت لك أن تأتي لكي تراني هناك. على أية حال، يكون السر على الدوام كامناً في جعل انتباههم مركزاً على شيء آخر غير ما تفعله عندما تنفّذ تلك الخدع. هذا هو القانون الأول للسحرة يا صديقي صاحب النظارة. التضليل! لا تنسَ هذا أبداً».

21

صرنا في آخر ولاية يوتاه. بلغنا صحراء *سان رافاييل سويل* مع شروق الشمس فبدت لي تلك المنطقة أشبه بصور من المريخ: صخور رملية وكتل من الصخر الطيني، ووديان ضيقة، وهضاب مقفرة بلون الصدأ الأحمر. عانيت صعوبة في النوم، بسبب المخدرات من ناحية، ونتيجة خوفي من أن يتحرّك بوبر أو يصدر صوتاً. لكنه ظل هادئاً تماماً ونحن نشقّ طريقنا المتعرج في الجبال. ظل صامتاً في حقيبته التي وضعتها على المقعد إلى جانبي، من ناحية النافذة. اتضح أيضاً أن حقيبة حوائجي

صغيرة فلم يضعوها في الأسفل. بل بقيت معي، وهذا ما أسعدني كثيراً: سترتي، وكتاب: *ريح ورمل ونجوم*. وقبل هذا كلّه لوحتي التي أحسست بأنها شيء يحميني على الرغم من أغلفتها كلها... شيء كأنه أيقونة مقدّسة يحملها محارب في ساحة المعركة. لم يكن في القسم الخلفي من الباص مسافرون آخرون باستثناء رجل وامرأة خجولين من أصول لاتينية وضعا في حضنيهما عدداً من علب الطعام البلاستيكية، وسكير عجوز يكلّم نفسه. مضينا بسلام عبر طرق يوتاه المتعرجة حتى بلغنا *«التقاطع الكبير»* في ولاية كولورادو حيث توقف الباص في استراحة لمدة خمسين دقيقة. وضعت حقيبتي في خزانة الأمانات وأقفلت بابها، ثم أخذت بوبر إلى ما خلف المحطة وسرت به حتى صرنا بعيدين عن أنظار السائق، فاشتريت لنا سندويتشين هامبرغر من برغر كينغ. سكبت الماء لبوبر في غطاء علبة طعام قديمة وجدتها في سلة القمامة. وبعد انطلاقنا من *«التقاطع الكبير»* نمت إلى أن بلغنا نقطة تبديل الباص في مدينة دنفر الذي استغرق وصولنا إليها ست عشرة ساعة. وصلنا دنفر وقت غروب الشمس. وهناك، خرجت مع بوبر، فجرينا وجرينا لشدة ارتياحنا من الخروج من الباص... جرينا بعيداً جداً في شوارع ظليلة لا أعرفها إلى أن بدأت أخاف أن نضيع. لكني سررت بالعثور على مقهى هيبي صغير كان العاملون فيه أشخاصاً ودودين صغار السن (قالت لي الفتاة ذات الشعر الأرجواني الجالسة خلف طاولة البيع في المقهى عندما رأتني أربط بوبر أمام الباب: «أدخله! إننا نحب الكلاب!»). اشتريت منها سندويتشين بلحم الديك الرومي (واحدة لي وواحدة لبوبر)، وقطعة براوني نباتية، وكيساً ورقياً من بسكويت الكلاب النباتي الذي يصنعونه لديهم.

واصلت القراءة حتى ساعة متأخرة من الليل. وظللت أقلب صفحات الكتاب التي بدت صفراء في دائرة النور الضعيف. كنا منطلقين سريعاً

في تلك الظلمة المجهولة على طريق «*كونتينينتال ديفايد*» الذي يخترق الأميركتين إلى أن خرجنا من جبال روكي. كان بوبر مرتاحاً راضياً بعد الجهد الذي بذله في دنفر، فظل غارقاً في نوم عميق داخل حقيبته.

نمت في لحظة ما. ثم أمضيت بعض الوقت في القراءة عندما استيقظت. بلغت الساعة الثانية صباحاً فدخلنا مدينة سالينا في ولاية كانساس («تقاطع طرق أميركا») تماماً عندما كان سانت اكزوبري يروي قصة تحطم الطائرة به في الصحراء. استراحة مدتها عشرون دقيقة تحت مصباح الشارع الغازي المزدان بحشرات كثيرة في موقف السيارات المظلم عند محطة الوقود الخالية. كان رأسي لا يزال ممتلئاً بقصص ذلك الكتاب؛ وكنت في حالة من الابتهاج الشديد بغرابة وجودي في ولاية أمي للمرة الأولى في حياتي ـ هل حدث مرة أن مرَّتْ بهذه المدينة في واحدة من جولاتها الكثيرة مع أبيها؟ وهل كانت السيارات تنطلق مسرعة عند فتحة الخروج من الطريق السريع رقم تسعة العابر للولاية؟ وهل كانت صوامع الحبوب هذه تلوح في الفراغ مُنارة كأنها سفن فضائية على مسافة أميال؟ عدت إلى الباص نعساً متسخاً متعباً أشعر بالبرد. نمت ونام بوبتشيك من سالينا حتى توبيكا، ثم من توبيكا إلى كانساس سيتي في ولاية ميزوري حيث توقّفنا مع شروق الشمس.

كانت أمي قد حكت لي كثيراً عن طفولتها في هذه المنطقة، وكم كانت منطقة مسطحة... مسطحة إلى حد تستطيع معه رؤية الزوابع تتشكل في البراري على مسافة أميال كثيرة. لكني ظللت غير قادر على تصديق ما رأيته من اتساعها وسمائها الرتيبة الهائلة التي تشعر تحتها بالانسحاق تحت وطأة ما لا نهاية له. وفي سانت لويس، قرابة منتصف النهار، كان لدينا توقّف لمدة ساعة ونصف ساعة من أجل تبديل الباص ـ وقت أكثر من كافٍ لنزهة بوبر ولالتهام سندويتش ضخم من لحم البقر المشوي؛

إلا أن ذلك الحي كان مريب المظهر فلم أتجول فيه كثيراً. ثم عدنا إلى المحطة وصعدنا إلى باص جديد. استيقظت بعد ساعة أو ساعتين من انطلاقنا، فوجدت الباص متوقفاً، ووجدت بوبر جالساً في حقيبته بهدوء وقد برز أنفه منها. رأيت أيضاً سيدة سوداء في أواسط العمر واقفة فوقي. كانت شفتاها مطليتين بلون وردي فاقع؛ وكانت تصرخ: «لا يمكنك اصطحاب هذا الكلب على متن الباص».

نظرت إليها غير فاهم ما يجري. ثم أدركت مذعوراً أنها ليست واحدة من المسافرين... إنها سائقة الباص: بقبعتها وملابسها الرسمية.

كانت تقول من جديد وتهز رأسها يميناً وشمالاً بحركة متوعدة: «هل سمعت ما قلته لك؟».

كانت امرأة عريضة المنكبين كأنها ملاكم محترف. وكانت على صدرها الضخم بطاقة كتب عليها اسمها: دينيز. «لا يمكنك اصطحاب هذا الكلب معك على متن الباص». ثم لوحت بيدها بحركة نافذة الصبر كأنها تقول لي: *أعده فوراً إلى تلك الحقيبة.*

غطّيت رأس بوبر فلم يبد عليه أي انزعاج من ذلك. وأحسست بأنني أنكمش وأتقلّص سريعاً. كنا متوقِّفين في بلدة اسمها إفينغهام، في ولاية إيلّينويز: بيوت كالتي يراها المرء في لوحات إدوارد هوبر، ومبنى محكمة، كأنه على خشبة مسرح، وراية كتب عليها بخط اليد: *تقاطع الحظ!*

أشارت سائقة الباص بإصبعها إلى الركاب الذين من حولي: «هل يعترض أحد منكم على وجود هذا الحيوان في الباص؟».

كان في القسم الخلفي من الباص رجل أشعث له شارب يشبه مقود دراجة، وامرأة كبيرة بعكازين، وامرأة سوداء قلقة المظهر معها طفلة في المرحلة الابتدائية، وكهل يشبه الممثل الكوميدي و. س. فيلدز مع أسطوانة أوكسجين تدخل أنابيبها في فمه. بدت الدهشة عليهم كلهم فلم

يقولوا شيئاً باستثناء تلك البنت الصغيرة ذات العينين المدورتين. هزت رأسها بحركة تكاد لا تُرى: لا.

انتظرت سائقة الباص، وراحت تنظر من حولها. ثم استدارت إليَّ من جديد وقالت: «لا بأس. هذه أخبار حسنة لك ولكلبك، يا عزيزي. وأما إذا اشتكى أي شخص من هؤلاء الناس الجالسين هنا...».. رفعت إصبعها وهزته في اتجاهي... «إذا اشتكى أحدهم، في أية لحظة، من أنك تصطحب هذا الكلب في الباص، فسوف أكون مضطرة إلى إنزالك. هل هذا مفهوم؟».

هل هذا يعني أنها لن تنزلني الآن؟ رفرفت بعيني ناظراً إليها خائفاً من الإتيان بأية حركة أو من قول أية كلمة.

كرّرت بنبرة أكثر شدة: «هل هذا مفهوم؟».

«شكراً لكِ».

هزّت رأسها بقدر طفيف من الغضب: «أوه، لا. لا تشكرني يا عزيزي، لا تشكرني لأني سأنزلك من الباص إذا أتتني أية شكوى، ولو كانت شكوى واحدة فقط».

بقيت جالساً، مرتجفاً، بينما عادت المرأة إلى مكانها وشغّلت المحرك. وعندما انطلق الباص بنا خارجاً من فسحة الوقوف، كنت خائفاً حتى من النظر إلى بقية المسافرين على الرغم من إحساسي بأنهم ينظرون إليَّ جميعاً.

وعند ركبتي، أطلق بوبر تنهيدة صغيرة، ثم جلس من جديد. على الرغم من إعجابي ببوبر، ومن حزني عليه، إلا أنني لم أكن أعتبره كلباً متميزاً أو ذكيّاً على نحو خاص. بل كنت أتمنى لو أنه كلب من نوع أحسن، كلب حراسة، أو كلب من نوع لابرادور، أو كلب إنقاذ... كلب من تلك الكلاب الذكية المهجّنة القوية التي تجري خلف الكرات أو تعضّ الناس... أي

شيء غير ما كانه في حقيقة الأمر: كلب بنّاتي، لعبة، مخنّث... كلب أحس نفسي محرجاً عندما أمشي معه في الشارع. لا أقصد بهذا القول إن بوبر لم يكن ظريفاً! كان في الحقيقة من ذلك النوع من الكلاب طويلة الشعر التي تنطّ كثيراً ويحبها كثير من الناس... لم أكن واحداً من الناس المعجبين بهذه الكلاب، لكن من المؤكد أن تلك الفتاة الصغيرة الجالسة في الباص إلى الناحية الأخرى في الممر ستكون سعيدة جداً إذا وجدت واحداً مثله في الطريق، وستأخذه إلى البيت وتضع له شرائط ملونة.

بقيت جالساً في مكاني متيبّساً، أعيش من جديد لحظة الخوف تلك، مرة بعد مرة: وجه السائقة، وصدمتي. كان منبع ذعري الحقيقي في تلك اللحظات هو أنها إذا جعلتني أُخرج بوبر من الباص فسأكون مضطراً إلى الخروج معه أيضاً (ثم أفعل ماذا؟)... حتى إذا كان ذلك في أي مكان في مجاهل سهول ولاية إيلّينويز، المطر، وحقول الذرة الممتدة إلى جانبَي الطريق. كيف صرت مرتبطاً بحيوان سخيف مضحك إلى هذا الحد؟ كلب نسائي اختارته كساندرا!

حافظت على يقظتي وانتباهي طيلة سفرنا عبر ولايتي إيلّينوي وإنديانا: كنت خائفاً من العودة إلى النوم. أغصان الأشجار عارية، ويقطينات الهالوين قد بدأت تتعفن على شرفات البيوت. وإلى الناحية الأخرى من الممر، كانت تلك الأم قد طوّقت ابنتها الصغيرة بذراعيها وراحت تغنّي لها بصوت منخفض كثيراً: «*أنت ضياء شمسي*». لم يبق لديّ شيء للأكل غير قطع قليلة من رقائق البطاطس التي أعطاني إياها سائق سيارة التاكسي، ومعها طعم ملحي بشع في فمي، وسهول فيها مصانع، وبلدات ضائعة صغيرة تتتالى واحدة بعد أخرى. أحسست بالبرد والبؤس وأنا أنظر إلى الأراضي الجرداء وأتذكر أغنية كانت أمي تغنيها لي... منذ زمن بعيد بعيد: *وداعاً يا توت توت توتزي، لا تبك يا توت*

توت توتزي. وفي النهاية، بلغنا ولاية أوهايو عندما حل الظلام، وبدأت تظهر أنوار في نوافذ البيوت الحزينة المتباعدة. عندها أحسست بشيء من الأمان سمح لي بأن أغفو قليلاً. راح رأسي يتأرجح إلى الأمام والخلف إلى أن دخلنا كليفلاند... بلدة باردة ذات إنارة بيضاء حيث بدّلنا الباص في الساعة الثانية صباحاً. خشيت أن أمنح بوبر نزهته الطويلة المعتادة التي كنت أعرف أنه في حاجة إليها، وذلك لخوفي من أن يرانا أحد ما (فماذا أفعل إذا اكتشف أحد أمرنا؟ هل نظل في كليفلاند إلى الأبد؟)، لكنه بدا لي خائفاً مثلي؛ فوقفنا عند زاوية الشارع عشر دقائق مرتجفين من البرد قبل أن أعيده إلى الحقيبة وأرجع إلى المحطة لكي أصعد إلى الباص.

كان الوقت منتصف الليل؛ وبدا لي الجميع نياماً. هذا ما جعل الرحلة أكثر سهولة. وبعد ذلك، غيرنا الباص من جديد عند ظهر اليوم التالي عندما دخل باصنا محطة الباصات في بوفالو وراحت عجلاته تسحق الجليد المتكوِّم فيها. كانت الريح رطبة شديدة البرودة: نسيت كيف يكون الشتاء الحقيقي بعد سنتين من العيش في الصحراء؛ نسيت كيف يكون موجعاً، شديد البرودة. لم يكن بوريس قد رد على أية رسالة من الرسائل التي كتبتها له. ولعل هذا كان أمراً مفهوماً لأني كنت أبعث بتلك الرسائل إلى هاتف كوتكو. لكني كتبت له واحدة أخرى، على أية حال: ***بوفالو. أصل الليلة إلى نيويورك. آمل أن تكون بخير؟ هل سمعت شيئاً عن كساندرا.***

المسافة طويلة بين بوفالو ونيويورك؛ لكني أفلحت في النوم طيلة الطريق تقريباً، باستثناء توقف محموم أشبه بالحلم في مدينة سيراكوز حيث أخرجت بوبر لكي يمشي قليلاً، وأعطيته ماء، واشتريت لنا فطيرتين بالجبن لأنني لم أجد شيئاً آخر. عبرنا بوتافيا، وروتشستر وسيراكوز

وبينغهامتون. خدّي ملتصق بزجاج النافذة، وهواء بارد يأتيني عبر شقٍّ صغيرٍ في نهايتها... أعادني الاهتزاز المتواصل إلى رواية *ريح ورمل ونجوم* وإلى قمرة الطائرة البعيدة فوق الصحراء.

أظنني مرضت، وأن ذلك بدأ وراح يتزايد بصمت منذ توقفنا في كليفلاند. لكني نزلت من الباص آخر الأمر في محطة بورت أوثوريتي في نيويورك. كان الوقت مساء، وكنت مشتعلاً بالحمى. برد شديد... سرت مترنّحاً على ساقيَّ المتيبّستين، وبدت لي المدينة التي كان شوقي إليها شديداً مدينة غريبة باردة شديدة الضجيج: عوادم السيارات، والقمامة، وأشخاص غرباء مندفعون في كل اتجاه.

كان في المحطة عدد كبير من عناصر الشرطة، وحيثما نظرت، كنت أرى لافتات عن ملاجئ وخطوط هاتفية ساخنة من أجل الأطفال الهاربين. رمتني شرطية بنظرة شك واضحة عندما سرت مسرعاً في اتجاه باب الخروج... كنت متّسخاً متعباً بعد أكثر من ستين ساعة من السفر في الباص، وكنت أعرف أن مظهري مريب بعض الشيء. لكنّ أحداً لم يعترض سبيلي، ولم أنظر خلفي إلى أن تجاوزت باب الخروج وابتعدت عنه مسافة غير قليلة. ناداني في الشارع رجال كثيرون من أعمار وأجناس مختلفة، كانت أصواتهم آتية من كل اتجاه: *أنت، أيها الأخ الصغير! إلى أين أنت ذاهب؟ هل تريد سيارة تاكسي؟* كان واحدٌ منهم أحمر الشعر، وبدا لي شخصاً عادياً لا يزيدني سناً بكثير... كأنه شخص يمكن أن يكون واحداً من أصدقائي... لكني كنت نيويوركياً إلى الحد الكافي لأن أتجاهل تحيته المرحة وأتابع سيري كما يفعل شخص يعرف وجهة سيره.

توقّعت أن يكون بوبر في غاية السعادة عندما أخرجه من الحقيبة وأتركه يسير في الشارع. لكن الزحام على رصيف الجادّة الثامنة كان أكثر مما يستطيع احتماله، فانتابه ذعر شديد جعله غير قادر على السير أكثر من

كتلة واحدة من البنايات لأنه لم يعتد شوارع المدينة أبداً، ولأن كل شيء من حوله كان مخيفاً (السيارات وأبواقها وأرجل الناس وأكياس النايلون الفارغة التي تجرفها الريح على امتداد الرصيف). ظلّ يندفع إلى الأمام بقفزات عصبية ويسير مسرعاً في اتجاه معابر المشاة، ويثب هنا وهناك. هرع مذعوراً للاختباء خلفي والتف رسنه على ساقيَّ فتعثّرت وكدت أسقط أمام شاحنة صغيرة مسرعة تحاول أن تسبق تغيّر إشارة السير إلى اللون الأحمر.

رفعته فراح يلوح بقوائمه في الهواء. أعدته إلى حقيبته حيث ظل بعض الوقت يلهث ويتحرّك غير مرتاح قبل أن يهدأ بعض الشيء؛ ثم وقفت وسط زحام الناس محاولاً استعادة روعي. بدا لي كل شيء أكثر اتساخاً وأقل ألفة مما أتذكّره... بدا لي الطقس أكثر برودة أيضاً؛ وبدت الشوارع رمادية كأنها صحف قديمة. كو فير؟[1]. هكذا كانت أمي تحبّ القول. في تلك اللحظة، كدت أسمعها تقولها بصوتها المرح اللامبالي.

تساءلت كثيراً في ما مضى، عندما كان أبي يتجوّل في الشقة ويسقط بين أبواب خزائن المطبخ متشكياً من أنه يريد الشراب، عمَّ يكونه الإحساس (بهذه الحاجة إلى الشراب). كيف يكون الإحساس بالرغبة في الكحول، لا في أي شيء آخر، لا في الماء ولا في البيبسي ولا في أي شيء؟ قلت في نفسي والبؤس يأكلني: *الآن، صرت أعرف*! كنت أموت رغبة في زجاجة بيرة، لكني كنت مدركاً أيضاً أنني لا أستطيع دخول متجر وشراء علبة بيرة من غير أن تكون معي بطاقة شخصية. فكّرت مشتاقاً في فودكا السيد بافليكوفسكي، وفي ذلك الإحساس اليومي بالدفء الذي صرت أعتبره أمراً مفروغاً منه.

لكن الأهم من ذلك كان أنني جائع. وجدت على مسافة صغيرة

---

(1) بالفرنسية: *ما العمل*؟

مخبزاً للمعجنات الفاخرة؛ وكنت في حالة جوع شديد جعلتني أدخل وأشتري أول ما وقعت عليه عيناي. اتضح لي أنها فطيرة حلوة بنكهة الشاي الأخضر لها حشوة بالفانيلا... شيء غريب، لكنه لذيذ. جعلني السكّر أشعر بالتحسن على الفور؛ وبينما رحت آكل وألعق الفتات الحلو عن أصابعي، كنت أحدّق حائراً في جموع الناس المندفعة في كل اتجاه. عندما غادرت لاس فيغاس، كانت لدي ثقة أكبر في كل ما سوف أصادفه هنا. والآن، هل ستتّصل السيدة باربر بالخدمات الاجتماعية وتخبرهم بأنني عدت. كنت أجيب عن هذا السؤال بأنها لن تفعل ذلك. أما الآن فقد صرت أتساءل. هنالك أيضاً سؤال ليس قليل الأهمية على الإطلاق: بوبر؟ إن لدى آندي حساسية عنيفة تجاه الكلاب والقطط والخيول وحيوانات السيرك، (إضافة إلى تحسّسه من منتجات الألبان والجوز واللواصق والخردل، وما لا يقل عن خمسٍ وعشرين مادة أخرى يمكن أن يصادفها المرء في أي بيت). لديه أيضاً تحسُّس من الخنزير الغيني[1] («الخنزير نيوتن الذي كان لدينا في الصف في السنة الثانية. وهذا ما كان سبب عدم وجود حيوانات منزلية في بيت آل باربر»). لسبب ما، لم يبدُ لي هذا مشكلة يصعب التغلّب عليها، عندما كنت في لاس فيغاس... لكني أدركت أنه مشكلة كبيرة عندما كنت واقفاً على رصيف الجادة الثامنة وقد أضناني البرد وصار حلول الليل وشيكاً.

لم أجد شيئاً أفعله غير مواصلة السير شرقاً في اتجاه بارك آفنيو. صفعت الريح الباردة وجهي، وجعلتني رائحة المطر أشعر بالتوتر. بدت لي السماء في نيويورك أكثر انخفاضاً وأكثر ثقلاً مما كانت في الغرب... غيوم متّسخة مسودّة الحواف كأنها مرسومة بقلم رصاص على ورق

(1) الخنزير الغيني: حيوان صغير من جنس القوارض. أشبه بالفأر. يستخدم كثيراً في التجارب العلمية. وهو من غير فصيلة الخنزير.

خشن. كانت عيناي قد تكيّفتا مع الصحراء (انفتاح الصحراء واتساعها)، بدا لي كل شيء هنا مُغلقاً قصيراً.

ساعدني المشي في التغلّب على ارتعاش ساقيَّ. سرت شرقاً حتى بلغت المكتبة (الأسدان! وقفت ساكناً لحظة كأنني جندي توقّف حتى يلتقط أنفاسه مع أول لمحة من دياره)، ثم انعطفت في الجادة الخامسة ـ أضيئت مصابيحها، ولا تزال مزدحمة إلى حد غير قليل على الرغم من بدء تناقص العابرين قبيل المساء ـ وبعد ذلك، تابعت حتى سنترال بارك. على الرغم من شدّة تعبي، ومن شدة البرد، توقف قلبي لحظة عندما رأيت الحديقة فعدوت مجتازاً الشارع رقم سبعة وخمسين (شارع الفرح!) ودخلت العتمة المفروشة بأوراق الأشجار. رفعت روحي المعنوية تلك الروائح والظلال، بل حتى جذوع الأشجار الشاحبة، المبرقشة، العارية... لكني كنت كمن يرى حديقة أخرى تحت تلك الحديقة المحسوسة، حديقة الماضي، حديقة شبحية تلفّها ظلمة الذكرى. رحلات مدرسية، وزيارات إلى حديقة الحيوان قبل زمن بعيد. كنت سائراً على رصيف الجادة الخامسة أنظر إلى الحديقة التي سدّت ظلالُ الأشجار ممراتها وتوّجتها برايات من نور مصابيح الشارع، فصارت غامضة مغرية مثل غابات رواية *«الأسد والساحرة وخزانة الملابس»*. إذا انعطفت وسرت في واحد من تلك الممرات المنارة، فهل أصل من جديد إلى سنة أخرى؟... أو ربما إلى مستقبل آخر أجد فيه أمّي وقد عادت من عملها وجلست تنتظرني على مقعد تعصف به الريح، على مقعدنا، عند البركة: تضع هاتفها من يدها، وتقف لتقبّلني... *مرحباً يا جروي! كيف كانت المدرسة؟ وماذا تريد على العشاء؟* عندها، توقّفت فجأة. مر بي حضورٌ مألوف في بدلة عمل رسمية، وسار أمامي على الرصيف بخطوات واسعة. صدمتني رؤية ذلك الشعر الأبيض البائن في الظلمة... شعر أبيض يبدو كما لو أنه يجب

أن يكون طويلاً ومربوطاً بشريطة. كان مشغولاً، وكان مظهره أكثر تشعّثاً من المعتاد، لكني عرفته على الفور، وعرفت شكل رأسه الذي يحمل صدًى واهياً من آندي: السيد باربر مع حقيبته عائداً من عمله إلى البيت.

جريت حتى لحقت به. ناديته: «يا سيد باربر!». كان يكلّم نفسه، لكني لم أستطع سماع ما يقوله. لكني صحت بصوت مرتفع وأمسكت بكمه: «يا سيد باربر، إنني ثيو». استدار ودفعني عنه بعنف مفاجئ. لقد كان السيد باربر فعلاً؛ سأعرفه أينما رأيته؛ لكنّ عينيه الناظرتين إليّ كانتا عيني شخص غريب... عينان لامعتان، قاسيتان، محتقرتان.

صاح بصوت مرتفع: «لا مزيد من الإحسان. ابتعد عني!».

علي أن أعرف حالة السعار عندما أراها! كان ما رأيته في تلك اللحظة نسخة حيّة من النظرة التي كانت تظهر أحياناً على وجه أبي أيام «المباريات»... أو هي تلك النظرة التي كانت عليه عندما انقضّ وضربني. لم أر أبداً السيد باربر في الفترة التي لم يكن يتناول فيها الأدوية (عادة ما كان آندي متحفظاً في وصف حماسة «والده». لم أره في ذلك الوقت، لكني سمعت قصة اتصاله بوزير الخارجية، وسمعت بتلك القصة عندما أراد الذهاب إلى العمل بالبيجاما). كان غضبه الآن مختلفاً عن غضب السيد باربر الغافل المسلّي الذي عرفته، فما كنت قادراً على فعل أي شيء غير أن أتراجع وأبتعد عنه مَخزيّاً. استمر في النظر إليّ فترة طويلة، ثم نفض كمَّه بيده كما لو أنه ينفض عنه شيئاً (كما لو أنني كنت قذراً فلوّثته عندما لمسته). سار مبتعداً عني.

سمعت صوت رجل آخر يسألني: «هل كنت تطلب مالاً من هذا الرجل؟». ظهر لي فجأة وأنا واقف على الرصيف مذهولاً: «هل كنت تطلب مالاً؟». قال بمزيد من الإلحاح عندما استدرت مبتعداً عنه.

كان قصيراً بديناً بعض الشيء؛ وكانت بدلته بدلة موظف ومظهره

مظهر رجل لديه أطفال. أخافني سلوكه المريب. حاولت الالتفات وتجاوزه، لكنه اعترض سبيلي ووضع يداً ثقيلة على كتفي، فتفاديته مذعوراً وركضت نحو الحديقة.

اتجهت نحو البركة عبر ممرات مصفرّة كستها أوراق الأشجار المتساقطة، فقادتني الغريزة مباشرة إلى «نقطة اللقاء»، الاسم الذي كانت أمي تطلقه على مقعدي، ثم جلست مرتعشاً. كانت مصادفة السيد باربر قد بدت لي حظّاً غير معقول، حظّاً لا يصدق؛ وقد ظننت، لخمس ثوانٍ، أنه سيحييني سعيداً بعد لحظة المفاجأة والحيرة الأولى، ثم يطرح علي بضعة أسئلة ويقول: *أوه، لا أهمية لهذا، لا أهمية لهذا، سيكون لدينا متسع من الوقت في ما بعد*. ثم يسير بي في اتجاه بيتهم... *يا إلهي؛ يا لهذه المغامرة! كم سيكون آندي مسروراً برؤيتك!*

لكني وجدت نفسي جالساً على المقعد أمرّر أصابع يدي في شعري وأقول: يا إلهي! في عالم مثالي، سيكون السيد باربر أول فرد من أفراد الأسرة أرغب في مقابلته في الشارع، أكثر من آندي... وبالتأكيد أكثر من أخويه وأخته، بل حتى أكثر من السيدة باربر بوضعياتها المتجمدة وملاطفاتها الاجتماعية وبكل ما لديها من قواعد سلوك لا أعرفها ونظرات باردة تصعب علي قراءتها.

نظرت إلى هاتفي بحكم العادة. كنت أتفقّد الرسائل لما بدا لي المرة الألف؛ فابتهجت على الرغم من نفسي عندما وجدت رسالة جديدة من رقم لا أعرفه؛ لكنها لا بد أن تكون رسالة من بوريس: ***مرحباً! آمل أن تكون بخير. ليست كساندرا غاضبة كثيراً. اتصل بها لتقول لها إنك بخير، اتصل بها، فقد بدأت تضايقني.***

حاولت الاتصال بذلك الرقم (كنت قد أرسلت إليه نحو خمسين رسالة في الطريق، لكني لم أتلقّ أية إجابة. كما أن هاتف كوتكو كان

ينقلني مباشرة إلى البريد الصوتي. تستطيع كساندرا أن تنتظر قليلاً).
سرت مع بوبر عائداً إلى الحديقة فاشتريت ثلاثة سندويتشات هوت دوغ من بائع كان على وشك الانصراف (واحدة لبوبر واثنتان لي). ثم جلسنا على مقعد في الحديقة بالقرب من بوابة «الباحثين» ورحت أستعرض ما لديَّ من خيارات. في تخيلاتي الصحراوية عن نيويورك، كان ذهني يأتيني أحياناً بصور غريبة لعيشي مع بوريس في الشوارع بالقرب من ساحة *سانت بارك* أو من ساحة *تومب كينز*، فأرانا واقفين هناك نقعقع ببعض القطع النقدية في فنجانَيْنا مع بقية المتشرّدين الذين كانوا ينظرون إليّ وإلى آندي شزراً عندما نمر أمامهم بملابسنا المدرسية. لكن الاحتمال الحقيقي للنوم في الشارع بدا لي أقل جاذبية بكثير في برد تشرين الثاني.

وأسوأ ما في الأمر هو أنني كنت على مسافة بضع بنايات من بيت آندي. فكّرت في الاتصال به ـ قد أطلب منه أن يأتي لملاقاتي ـ ثم قررت ألّا أتصل. بالتأكيد، أستطيع الاتصال به إذا سُدّت في وجهي السبل كلّها؛ وسوف يسرّه أن ينسلَّ خارجاً من البيت ويأتي لي بملابس ونقود يسرقها من حقيبة أمه... ومن يدري، فقد يأتيني أيضاً بشيء من الطعام الزائد... فطائر اللحم أو فطائر الكوكتيل الصغيرة التي يتناولها آل باربر دائماً. لكن كلمة *«حسنات»* كانت لا تزال تحرقني. كنت أحب آندي، لكن غيابي طال نحو سنتين. لم أستطع نسيان نظرة السيد باربر إليّ. من الواضح أن أمراً ما قد جرى، ومن الواضح أنه أمر سيئ، لكني لم أكن أعرف عنه شيئاً غير أن مسؤولية ذلك الشيء واقعة عليّ، بطريقة ما... استولى عليَّ ذلك الإحساس بالعار وبأن لا قيمة لي... إحساس بأنني عبء على الناس، إحساس لم يفارقني تماماً في أي يوم.

كنت أنظر في الفراغ؛ ومن غير أن أقصد ذلك، لاقت عيناي، مصادفة، عيني رجل جالس على مقعد مقابل. سرعان ما أشحت بوجهي بعيداً، لكنّي تأخرت: رأيت الرجل ينهض واقفاً ويسير في اتجاهي.

قال وهو يتوقّف ويربت على رأس بوبر: «كلب جميل...». وعندما لم أجبه أضاف: «ما اسمه؟ هل يزعجك أن أجلس إلى جانبك؟». كان رجلاً مشدود العضلات، قصيراً لكنه يبدو قوياً. فاحت منه رائحة مميزة. نهضت واقفاً متجنّباً نظرة عينيه. وعندما استدرت لأذهب، امتدت يده وأمسك برسغي.

قال بصوت قبيح: «ما الأمر؟ ألا أعجبك؟».

خلّصت نفسي من قبضته وعدوت خارجاً إلى الشارع (جرى بوبر خلفي، لكنه لم يجر بسرعة كافية لأنه لم يألف حركة السيارات في المدينة ولأنه رأى سيارات في الشارع)، فحملته عندما وصلنا إلى الرصيف واجتزت به الجادة الخامسة إلى الرصيف الآخر. أما مطاردي فقد علق على الناحية الأخرى من الشارع بعد أن تغيّرت الإشارة الضوئية وبدأ يجتذب أنظار بعض المارة. وعندما نظرت إلى الخلف مرة ثانية بعد أن صرت آمناً داخل دائرة الضوء المنسكب من مدخل فندق حسن الإضاءة (أزواج في ملابس أنيقة، وبوابون يشيرون لسيارات التاكسي)، وجدت أنه قد اختفى في ظلمة الحديقة من جديد.

كان ضجيج الشوارع أشد مما أتذكّره؛ وكانت تلك الشوارع فائحة بروائح أشد مما أتذكره أيضاً. توقّفت عند زاوية الشارع أمام متجر *آلا فيروسّي* للأنتيكات، فوجدت نفسي غارقاً في روائح وسط المدينة التي ألفتها منذ زمن بعيد: أحصنة العربات، وعوادم الباصات، والعطور، والبول. مرَّ عليَّ وقت طويل كنت أعتبر فيه أن لاس فيغاس شيء مؤقت عابر؛ وأما حياتي الحقيقية فهي في نيويورك... هل كانت كذلك حقّاً؟ انقبض صدري وقلت في نفسي: *لعلّها لم تعد كذلك!* ورحت أنظر إلى المشاة المتضائلين عدداً، المسرعين في ذلك الشارع.

واصلت السير على الرغم من البرد ومن الألم الجسدي الذي

عاودني بفعل الحمّى، فتجاوزت عشر بنايات تقريباً. كنت لا أزال أحاول التخلّص من عدم الاستقرار في ساقي الذي كان ناتجاً عن فترة الاهتزاز الطويلة خلال سفري بالباص. لكن البرد صار آخر الأمر أكثر مما أستطيع احتماله، فاستوقفت سيارة تاكسي. إنها رحلة سهلة بالباص قد لا تزيد على نصف ساعة، من الجادة الخامسة إلى منطقة فيليدج؛ لكن ثلاثة أيام من السفر المستمرّ بالباص جعلتني غير قادر على احتمال فكرة الجلوس على مقعد الباص المتقلقل ولو حتى دقيقة واحدة.

لم أكن مرتاحاً تماماً لفكرة الذهاب إلى بيت هوبي من غير سابق إنذار... بل إنني لم أكن مرتاحاً لتلك الفكرة على الإطلاق لأنني انقطعت عن التواصل معه منذ فترة غير قليلة. كان الذنب في ذلك ذنبي أنا، لا ذنبه؛ ففي لحظة ما، توقفت عن الرد على رسائله. من ناحية، كان ذلك ضمن المجرى الطبيعي للأمور؛ وأما من ناحية أخرى، فقد كان تخمين بوريس العارض (احتمال أن يكون شخصاً مثليّاً) قد نفّرني منه من غير أن أشعر بذلك. وهكذا أهملت الإجابة على آخر رسالتين أو ثلاث رسائل وصلتني منه.

كنت في حالة سيئة؛ بل كنت في حالة فظيعة! وعلى الرغم من قصر المسافة، أظن أنّ النوم قد غلبني في مقعد السيارة الخلفي لأنني انتبهت مجفلاً عندما توقفت السيارة وقال لي السائق: «هل هذا هو المكان؟». فجلست مذهولاً لحظة أحاول أن أتذكر أين أنا.

لاحظت عندما ذهبت السيارة أن المتجر كان مغلقاً، وأنه كان مظلماً، كما لو أنه لم يفتح قط طيلة فترة غيابي عن نيويورك. كانت الواجهة مجلّلة بالسخام. نظرت إلى الداخل فرأيت أن بعض قطع الأثاث قد غُطي بالقماش. لم أرَ أي تغيّر آخر باستثناء طبقات جديدة من الغبار غطت الكتب والتحف الصغيرة والمسلّات الحجرية وتماثيل الببغاوات. غصّ

قلبي. بقيت دقيقة أو دقيقتين طويلتين واقفاً في الشارع قبل أن أستجمع قواي وأقرع الجرس. بدا لي أنني انتظرت دهوراً مصغياً إلى صدى أصوات يأتي من بعيد، على الرغم من احتمال أن وقت انتظاري كان قصيراً في واقع الأمر. كدت أقنع نفسي أن ما من أحد في البيت (وماذا أفعل؟ هل أعود إلى *تايمز* سكوير وأحاول العثور على فندق رخيص في مكان ما، أم أذهب إلى الشرطة وأقول لهم إنني هارب؟)... ثم انفتح الباب على نحو مفاجئ تماماً فوجدت نفسي أنظر لا إلى هوبي بل إلى فتاة في مثل سني.

إنها هي ـ بيبا. لا تزال صغيرة الحجم (صرت أطول منها بكثير)، ولا تزال نحيلة على الرغم من أنها بدت أحسن صحة بكثير مما كانت عندما رأيتها آخر مرة. صار وجهها أكثر امتلاء؛ وكانت كثيرة النمش، مختلفة الشعر أيضاً، بل بدا لي أن شعرها كله قد صار مختلفاً، لوناً وطبيعة... لم يعد أحمر مشقرّاً، بل صار داكناً أكثر، صار بلون الصدأ، مشعّثاً بعض الشيء مثل شعر خالتها مارغريت. كانت ملابسها أشبه بملابس الصبيان: جوارب طويلة، وبنطلون قطن قصير قديم، وكنزة كبيرة عليها... ما كان في ملابسها شيء أنثوي غير وشاح مخطط باللونين الوردي والبرتقالي مما قد تضعه امرأة مسنة غريبة الأطوار. قطبت حاجبيها ونظرت إليّ بعينها البنيتين الذهبيتين نظرة مهذبة متحفّظة فارغة من أي تعبير: شخص غريب!. قالت لي: «بم أستطيع خدمتك؟».

قلت لنفسي خائب الأمل: *لقد نسِيَتْني!*

كيف يمكن أصلاً أن أتوقّع غير ذلك؟ لقد مر زمن طويل؛ وكنت أعرف أن شكلي قد تغير أيضاً. كان ذلك أشبه برؤية شخص ظننته قد مات.

ومن خلفها، جاء وقع خطوات هوبي على السلم؛ جاء خلفها ببنطلونه القطنيّ المبقع بالطلاء وردائه ذي الكمّين القصيرين. *لقد قصّ شعره*. كان

ذلك أول ما فكرت فيه: صار شعره قصيراً، أكثر بياضاً مما أتذكّره. لمحت في تعبير وجهه ظل انزعاج فغار قلبي لحظة عندما ظننت أنه لم يتذكّرني. وبعد ذلك قال: «يا إلهي!»، ثم تراجع إلى الخلف فجأة.

قلت بسرعة: «هذا أنا...». خفت أن يغلق الباب في وجهي... «أنا ثيودور بيكر، هل تتذكّرني؟».

رفعت بيبا رأسها سريعاً، ونظرت إليّ ـ من الواضح أنها تذكّرت اسمي على الرغم من أنها لم تتذكّرني ـ كان تعبير الود المفاجئ الذي علا وجهيهما مفاجأة كبيرة لي، فبدأت أبكي.

«ثيو!». عانقني هوبي عناقاً قويّاً، أبويّاً؛ كان عناقاً شديداً جعل بكائي أشد من ذي قبل، ثم استقرّت يده على كتفي، يد ثقيلة ثابتة هي الأمان وهي القوة في حدّ ذاتها. قادني إلى الداخل، إلى الورشة، إلى بريق الطلاء المذهَّب ورائحة الخشب الغنية التي كنت أحلم بها، ثم صعدنا السلم إلى الردهة التي فقدتها منذ زمن بعيد... بما فيها من مخامل وجرار وبرونز. كان يقول لي: «ما أروع أن أراك!». و«تبدو مرهقاً»، و«متى عدت؟»، و«هل أنت جائع؟»، و«يا إلهي، كم كبرت!»، و«هذا الشعر! كأنك ماوغلي، فتى الأدغال!»، و(بشيء من القلق)... «هل تحسّ الجو مكتوماً هنا؟ هل أفتح النافذة؟...». ثم صاح عندما أخرج بوبر رأسه من الحقيبة... «ها! من هذا؟».

ضحكت بيبا وحملته فأخرجته من الحقيبة واحتضنته بين ذراعيها. أحسست بالدوار نتيجة الحمى ـ كنت محمرّاً، متوهّجاً مثل قضبان مدفأة كهربائية؛ وكنت مضطرباً إلى حد جعلني لا أحس حرجاً في البكاء. لم أكن أحسّ شيئاً غير الراحة بوجودي في ذلك المكان... ارتاح قلبي المتألم الذي فاض بما لم يعد يحتمل.

جلسنا في المطبخ. كان لديهما حساء فطر لم أشعر برغبة في تناوله؛

لكنه كان حارّاً، وكنت أموت برداً ـ رحت أتناول الحساء (جلست بيبا متربعة على الأرض تلعب مع بوبتشيك، وتلوح بأطراف وشاح الجدة أمام وجهه... بوبر/ بيبا. كيف لم ألاحظ هذا القرب بين الاسمين؟) أخبرته القليل، وبطريقة مشوشة، عن موت أبي وعما حدث هناك. جلس هوبي مصغياً إليَّ طاوياً ذراعيه على صدره وقد ظهر على وجهه قلق شديد، وراح حاجباه العريضان يزدادان تقطيباً مع استمراري في الكلام.

قال لي: «يجب أن تتصل بها... زوجة أبيك».

«لكنها ليست زوجته! إنها صديقته فحسب. وهي لا يهمها أمري أبداً».

هز هوبي رأسه وقال: «لا أهمية لهذا. عليك أن تتصل بها وتخبرها بأنك بخير. نعم، عليك أن تفعل هذا». عندما حاولت الاعتراض رفع صوته: «ما من طريق آخر. اتصل بها الآن. في هذه اللحظة. تعالي معي يا بيبا ولنخرج من المطبخ دقيقة» ـ كان في المطبخ جهاز هاتف من الطراز العتيق.

على الرغم من أن كساندرا كانت آخر شخص يمكن أن أشعر برغبة في الحديث معه، خاصة بعد أن فتشنا غرفتها وسرقنا مالها، فقد جعلني ارتياحي الشديد لوجودي في بيت هوبي مستعداً لفعل أي شيء يطلبه مني. طلبت رقمها وقلت في نفسي من المحتمل ألا ترد على الاتصال (يتصل بالبيت عدد كبير من الدائنين ومن الذين يطالبون بتسديد الفواتير، يتصلون طيلة الوقت. وهذا ما يجعلها تمتنع أكثر الأحيان عن الرد على اتصالات من أرقام لا تعرفها). فوجئت عندما ردت من الرنة الأولى.

قالت لي على الفور، وبنبرة صوت متهمة: «لقد تركت الباب مفتوحاً».

«ماذا؟».

«لقد تركت الكلب يخرج، وقد هرب. لا أستطيع العثور عليه في أي مكان. من الممكن أن تكون سيارة قد دهسته أو شيء ما».

«لا». كنت أحدّق بنظرة ثابتة في اتجاه ظلمة الفناء في الخارج. كان

المطر يهطل، وكانت قطراته تجلّد زجاج النوافذ بقوة... أول مطر حقيقي أراه منذ نحو سنتين... «إنه معي».

«أوه...». بدا لي أنها ارتاحت؛ لكنها قالت بحدة: «وأين أنت؟ هل أنت مع بوريس في مكان ما؟».

«لا».

«لقد اتصلت به... بدا لي أنه ذاهل تماماً. لم يرد إخباري عن مكان وجودك. أعرف أنه يعرف...». جاءني صوتها خشناً أجش كما لو أنها كانت تشرب، أو تبكي، على الرغم من أن الوقت لا يزال مبكراً... «فكرت في الاتصال بالشرطة لإخبارهم عن اختفائك يا ثيو. أعرف أنكما سرقتما ذلك المال، والشيء الآخر أيضاً».

«صحيح... تماماً مثلما سرقت قرطَيْ أمي».

«ماذا؟...».

«القرطان الزمرديان. لقد كانا لجدتي».

«لم أسرقهما...». صار صوتها الآن غاضباً... «كيف تجرؤ؟ أعطاني إياهما لاري. أعطاني إياهما بعد أن كنا...».

«نعم، بعد أن سرقهما من أمي...».

«ممم، اعذرني، لكن أمك ميتة».

«صحيح، لكن أمي لم تكن ميتة عندما سرقهما. كان ذلك قبل سنة تقريباً...». رفعت صوتي وأنا أقول لها... «اتصلت أمي بشركة التأمين؛ وقدّمت بلاغاً لدى الشرطة». لم أكن واثقاً من قصة إخبارها الشرطة، لكنها من الممكن أن تكون قد حدثت بالفعل.

«ممم، أظنك لم تسمع أبداً بشيء صغير اسمه ملكية الزوجين المشتركة».

«هذا صحيح. وأظنك لم تسمعي بشيء اسمه الإرث العادي. أنت وأبي لم تكونا متزوجين. ولم يكن من حقّه أن يعطيك القرطين».

صمت. سمعت صوت قداحتها في الناحية الأخرى من الخط، ثم سمعتها تستنشق نفساً متعباً وتقول: «اسمع يا فتى! هل يمكنني أن أقول لك شيئاً؟ لا يتعلّق بالنقود... صدقاً... ولا بذلك الشيء. هذا على الرغم من أنني أستطيع إخبارك بكل ثقة أنني لم أكن أفعل شيئاً من ذلك عندما كنت في مثل سنك. تظن نفسك ذكياً جداً، وأظنك ذكياً حقّاً؛ لكنك تسير في طريق سيئ بالفعل، أنت و... ما اسمه... أيضاً. نعم، نعم...». رفعت صوتها... «إنه يعجبني أيضاً، لكنه شخص سيئ، ذلك الولد».

«وأنتِ من يعرف هذا!!!».

ضحكت ضحكة جافة: «لا بأس، يا ولد... احزر ماذا؟ لقد جرّبت الأمر بنفسي بضع مرات... وأنا أعرف بالفعل. سوف ينتهي به الأمر في السجن عندما يبلغ الثامنة عشرة؛ وأراهن أنك ستكون هناك أيضاً، لكني لا ألومك...». رفعت صوتها من جديد... «لقد أحببت أباك، لكن من المؤكد أنه لم يكن ذو قيمة كبيرة. وأعرف مما أخبرني به أن أمّك لم تكن ذات قيمة كبيرة أيضاً».

«أهكذا إذاً! اللعنة عليك يا عاهرة!...». كنت أرتجف غضباً... «سوف أغلق الآن...».

«لا... انتظر. انتظر. إنني آسفة. ما كان ينبغي أن أقول هذا عن أمّك. ليس هذا ما جعلني أريد الحديث معك. من فضلك. هل تنتظر لحظة؟».

«إنني منتظر».

«الأمر الأول ـ على افتراض أن هذا يهمك ـ سوف أطلب حرق جثمان أبيك. هل لديك مانع؟».

«افعلي ما شئت».

«لم يكن أمره يهمك في يوم من الأيام، أليس كذلك؟».

«أهذا ما تريدين قوله؟».

«شيء آخر. لا يهمني أين أنت... بكل صراحة. لكني في حاجة إلى عنوان حتى أستطيع التواصل معك».

«ولماذا تريدين التواصل معي؟».

«لا تتذاكى هكذا. في يوم ما، سيتصل بي أحد ما من مدرستك، أو من مكان ما...».

«لا أتوقع هذا».

«... ثم إنني سأكون في حاجة إلى... لست أدري... سأكون في حاجة إلى توضيح ما... في ما يتعلّق بمكان وجودك... إلا إذا كنت تريد أن تلقي الشرطة القبض عليّ».

«أظن أن هذا أمر مستبعد كثيراً».

كررت من خلفي مقلدة صوتي على نحو بشع كريه: «*أظن أن هذا أمر مستبعد كثيراً*! لا بأس، قد تكون محقّاً. أعطني عنواناً وسوف أعتبر الأمر بيننا منتهياً...». قالت عندما لم أجبها بشيء... «أعني... دعني أوضح لك هذا الأمر: لست مهتمة بمكان وجودك. لكني لا أريد أن أكون عاجزة عن فعل أي شيء إذا حدثت مشكلة ووجدت نفسي في حاجة إلى التواصل معك».

«هناك محامٍ في نيويورك. اسمه بريسغيردل. جورج بريسغيردل».

«هل لديك رقم هاتفه؟».

أجبتها: «ابحثي عنه بنفسك». كانت بيبا قد دخلت المطبخ حتى تأخذ وعاء من الماء من أجل الكلب؛ وهكذا استدرت فصرت في مواجهة الحائط حتى لا أكون مضطراً إلى النظر إليها.

كانت كساندرا تقول: «بريس كويردل؟ هل أقوله بشكل صحيح؟ ما هذا الاسم الغريب؟».

«انظري، أنا واثق من أنك ستتمكنين من العثور عليه».

قالت كساندرا: «هل تعرف ماذا؟».

«ماذا؟».

«إن الذي مات أبوك. أبوك أنت. وأنت تتصرّف كما لو أنه... لست أدري... كما لو أن كلباً قد مات. كما لو أنه ليس كلبا حتى. أقول هذا لأنني أعرف أنك ستحزن لو أن سيارة دهست الكلب... على الأقل، أظنك ستحزن...».

«فلنقل إنني كنت مهتماً به بقدر ما كان مهتماً بي».

«نعم، دعني أقول لك شيئاً. أنت وأبوك متشابهان أكثر مما تظن بكثير. إنك ابنه حقاً، ابنه بكل معنى الكلمة».

أجبتها بعد صمت مزدرٍ قصير: «لا بأس... وأنت كلك خراء»... بدا لي أن هذا الرد يلخص الموقف كله أحسن تلخيص. لكن عبارتها الأخيرة ظلت تتردّد في ذهني مرة بعد مرة... ظلت تتردد وقتاً طويلاً بعد أن أغلقت الهاتف، عندما كنت جالساً أعطس وأرتجف في حوض الحمام الحار، وفي الضباب المضيء بعد ذلك (ابتلعت الأسبرين الذي أعطانيه هوبي، ثم تبعته إلى غرفة الصالة العتيقة... *تبدو متعباً تماماً. هنالك بطانيات إضافية في الحقيبة. لا، لا مزيد من الكلام. سوف أتركك الآن حتى تنام*). ثم ظلت عبارتها تلك تتردّد في رأسي حتى بعد أن أرحته على الوسادة الثقيلة ذات الرائحة الغريبة. كان ما قالته صحيحاً ـ لم يكن ما قالته صحيحاً، لم يكن أكثر صحة مما قالته عن أمي. بل إن صوتها الجاف الخشن الآتي عبر خط الهاتف، وحتى ذكرى ذلك الصوت، كان يجعلني أحس بنفسي متّسخاً. قلت في ذهني الناعس: *اللعنة عليها*. لماذا لا أنساها؟ إنها على مسافة مليون ميل مني! لكن كلماتها ظلّت مثل خيط ممتد طيلة الليل، عبر أحلامي كلها، على الرغم من شدة تعبي... على الرغم من أنني كنت موشكاً على الموت تعباً... وعلى الرغم من أن ذلك السرير النحاسي المتداعي كان أطرى سرير عرفته في حياتي كلها.

الحسُّون دونا تارت II

الحسُّون دونا تارت I

دونا تارت

الحسّون

II

الكتاب: الحسّون / رواية (الجزء الثاني)
المؤلف: دونا تارت
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 592 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-059-2
الطبعة الأولى: 2019

هذه ترجمة مرخصة لرواية:
The Goldfinch by Donna Tartt

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية قاسم فارس (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة - 2شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com

دونا تارت

الحسُّون

II

ترجمة: الحارث النبهان

مكتبة | 500



الجزء الثالث

لقد اعتدنا إخفاء ملامحنا والتنكّر أمام الآخرين

إلى حدٍّ جعلنا آخر الأمر متنكّرين أمام أنفسنا.

فرانسوا دو لا روشفوكو

الفصل السابع:

الورشة خلف الورشة

1

عندما استيقظت على أصوات شاحنات القمامة في الخارج، أحسست كما لو أنني هبطت بالمظلّة في كون مختلف. ألمٌ في حلقي. كنت مستلقياً تحت اللحاف بهدوء تام أتنفس الهواء القاتم، هواء الورود المجفّفة وحطب الموقد المحترق، وكذلك رائحة واهية جداً، رائحة التربنتين والصمغ والورنيش، تلك الرائحة اللاذعة النضرة دائماً. بقيت مستلقياً بعض الوقت. لم أر أثراً لبوبر الذي نام متكوّراً على الفراش عند قدميّ. لقد نمت بملابسي؛ وكانت ملابسي قذرة كلها. انتصبت جالساً آخر الأمر ـ اضطررت إلى ذلك بفعل نوبة عطاس. ارتديت قميصي، وانحنيت بجهد تحت السرير حتى أتأكد من أن غلاف الوسادة لا يزال في مكانه؛ ثم سرت بخطا مهتزة على الأرض الباردة، وذهبت إلى الحمام. كان شعري قد جف متشابكاً في عقد فشل المشط في حلحلتها. وحتى بعد أن بللت شعري بالماء وبدأت تمشيطه من جديد، ظللت عاجزاً عن فك عقدة إحدى الخصل، فاستسلمت آخر الأمر وقصصتها، بجهد كبير، باستخدام مقص الأظافر الصدئ الذي وجدته في الدُّرْج.

أشحت بوجهي عن المرآة لكي أعطس. يا إلهي! ... لم أنظر في مرآة منذ حين من الزمن؛ ولا أكاد أعرف نفسي الآن: كدمة على فكّي، وبقع من حب الشباب، ووجه تبقّع وتورَّم بفعل المرض ـ عينان متورّمتان أيضاً، ثقيلتان، نعستان... أعطاني ذلك كله مظهر شخص مغفل غير مستقر لا يكاد يخرج من بيته. بدوت أشبه بطفل أنقذه رجال إنفاذ القانون للتو من أَسرِ جماعة دينية مجنونة فخرج مرفرفاً بعينه من قبو تكدست فيه أسلحة نارية وعبوات حليب مجفف.

كان الوقت متأخّراً: الساعة التاسعة. خرجت من غرفتي فسمعت برنامج الموسيقى الكلاسيكية الصباحي على محطة WNYC... شيء حلميّ أليف في صوت المذيع، ومقطوعات موسيقية، وهدوء خدر... هرير الراديو الدافئ نفسه الذي استيقظت عليه في صباحات كثيرة جداً عندما كنت في شقتنا في *سوتون بليس*. وفي المطبخ، وجدت هوبي جالساً ومعه كتاب. لكنه لم يكن يقرأ. كان ينظر إلى الناحية الأخرى من الغرفة. أجفل عندما رآني.

قال وهو ينهض لكي يزيح بحركة غير مبالية بالترتيب كومة من الرسائل والفواتير حتى يفسح لي مكاناً للجلوس. كان قد ارتدى ملابس الورشة: بنطلونه القطني ذو الركبتين المنتفختين، وكنزة قديمة بلون الشمندر البني، كنزة رثة أحدث العث ثقوباً فيها. أعطاه شعره المتراجع وقصته الجديدة مظهراً يشبه ذلك السيناتور الرخامي الثقيل الأصلع على غلاف كتاب اللغة اللاتينية لهادلي.

«كيف أصبحت؟».

«بخير. شكراً لك». كان صوتي خشناً محشرجاً.

انعقد حاجباه من جديد ونظر إلي نظرة مدقّقة. قال لي: «يا إلهي! صوتك هذا الصباح مثل صوت الغراب!».

ما معنى هذا؟ اشتعلت خجلاً، وانزلقت فجلست في الكرسي الذي

أزاح عنه الأوراق من أجلي. حدّقت في كتابه لأن حرجي منعني من ملاقاة عينيه: كتاب ذو غلاف جلدي متشقّق، *«حياة وكتابة»* من تأليف لوردٍ ما، مجلّد قديم لعله حصل عليه من إحدى صفقات شراء المقتنيات القديمة في عزبة ما، من سيدة عجوز في ضواحي نيويورك، حوضها مكسور، من غير أطفال... حالة محزنة جداً.

كان يصبّ لي الشاي ويدفع صوبي طبقاً. حاولت إخفاء ارتباكي فخفضت رأسي ورحت أقضم قطعة التوست فكدت أختنق لأن حلقي كان يؤلمني كثيراً عند البلع. مددت يدي إلى الشاي بسرعة مبالغ فيها فدلقته على مفرش الطاولة وكان عليَّ أن أندفع من جديد محاولاً منع سيلانه.

«لا... لا، هذا لا يجدي. خذ...». صارت فوطتي مبتلّة تماماً فلم أعرف ما أفعله بها. وفي غمرة ارتباكي، ألقيتها في الطبق فوق قطعة التوست، ثم مددت أصابعي تحت نظارتي حتى أمسح عيني.

قلت مسرعاً: «إنني آسف».

«آسف؟». كان ينظر إليه كما لو أنني سألته عن كيفية الوصول إلى مكان لا يعرف الوصول إليه... «أوه، ماذا بك الآن؟».

«أرجوك، لا تطردني!».

«ما هذا؟ كيف أطردك؟ وأين تذهب؟». خفض نظارته ذات العدستين نصف الدائريتين ونظر من فوقها. قال لي بصوت مرح لكن فيه شيء من الانزعاج: «لا تكن سخيفاً. سأقول لك إلى أين يجب أن أطردك... ستعود إلى الفراش فوراً. يبدو صوتك كصوت شخص موشك على الموت من الطاعون».

لكن مرحه لم يستطع إشاعة الاطمئنان في نفسي. أحسست بأن حرجي قد شلّني، وكنت مصمماً على عدم البكاء من جديد، فوجدت نفسي أحدّق بإصرار في تلك البقعة المهجورة عند المدفأة حيث كانت سلة كوزمو في يوم من الأيام.

قال هوبي عندما رآني أنظر إلى تلك الزاوية الخالية: «نعم. هكذا كان الأمر. أصابه صمم تام، كانت تأتيه ثلاث أو أربع نوبات قلبية كل أسبوع، لكننا كنا نأمل أن يعيش إلى الأبد. لقد بكيته كأنني طفل. لو قلت لي إن ويلتي سيرحل قبل كوزمو... أمضى نصف حياته حاملاً ذلك الكلب ذاهباً به إلى الطبيب البيطري وعائداً به من الطبيب البيطري... انظر إليَّ...». قال هذا بصوت مختلف وقد مال إلى الأمام محاولاً التقاط عيني عندما بقيت جالساً في مكاني، صامتاً، بائساً... «هيا. أعرف أنك عانيت الكثير، لكن ما من حاجة أبداً إلى الخوض في ذلك الآن. تبدو في غاية الضعف... الآن، الآن، نعم أنت تبدو كذلك الآن...». قال هذه الكلمات بصوت جاف متقطّع... «أنت في حالة مهزوزة تماماً، وأنت... فليباركك الرب...». أجفل قليلاً... «كأنك تعرّضت لجرعة كبيرة من شيء سيئ... بالتأكيد. لا تقلق. سيكون كل شيء على ما يرام. عد إلى سريرك. فهذا أفضل شيء الآن، وسوف نتحدّث في الأمر لاحقاً».

«أعرف، لكن...». أدرت وجهي حتى أخنق عطسة كبيرة... «ليس لدي مكان أذهب إليه».

استند إلى الخلفِ في الكرسي. قال بحذر وكياسة... كان فيه شيء موحٍ بالقدم. قال وهو ينقر بإصبعه على شفته السفلية: «ثيو... كم عمرُك؟».

«خمسة عشر عاماً. خمسة عشر عاماً ونصف العام».

بدا لي أنه يفكّر في كيفية طرح هذا السؤال: «وماذا عن جدك؟».

«أوه». قلت هذا بعد صمت قصير. قلت هذا بعد أن عجزت في العثور على شيء أقوله.

«هل تكلّمت معه؟ وهل يعرف أن ما من مكان لديك تذهب إليه؟».

«الحقيقة... أف! خراء...». خرجت هذه الكلمة من غير انتباه؛ رفع هوبي يده لكي يطمئنني إلى عدم استيائه مما بدر مني.

«أنت لا تفهم الأمر. أعني... لا أعرف إن كان مصاباً بألزهايمر أو بأي شيء آخر. لكنه لم يطلب حتى أن يتحدث معي عندما اتصلوا به».

أسند هوبي ثقل ذقنه على راحة يده ونظر إليَّ مثلما ينظر معلّم يشك في كلام تلميذه: «هل يعني هذا أنك لم تتحدث إليه؟».

«لا، ليس هكذا... أعني أنني لم أتحدّث إليه شخصياً. كانت تلك السيدة موجودة، تقدّم المساعدة». إنها ليزا، صديقة كساندرا (تتبعني هنا وهناك قلقة، وتقول كلاماً لطيفاً لكنها تبدي اهتماماً متزايداً بضرورة إبلاغ «العائلة»). ذهبت ليزا إلى زاوية الغرفة في لحظة ما حتى تطلب الرقم الذي أعطيتها إياه؛ ثم تركت الهاتف وقد بدت عليها هيئة جعلت كساندرا تطلق الضحكة الوحيدة في تلك الأمسية.

قال هوبي: «هذه السيدة؟...». قالها في الصمت الذي أعقب ذلك بصوت من الممكن أن يستخدمه المرء عند الكلام مع مريض عقلي.

«نعم. أعني...». غطيت وجهي بيدي. كانت ألوان المطبخ قوية جداً؛ شعرت بالدوار وبأنني غير مسيطر على نفسي... «أظن أنّ دوروثي ردّت على الاتصال. وقد قالت ليزا إنها استجابت لخبر موت أبي بشيء من قبيل: *حسناً، انتظري لحظة*... وليس بعبارة: *أوه، لا!* أو *ماذا حدث؟* أو *هذا فظيع!* لم تقل لها غير: *انتظري لحظة، سوف أناديه*. ثم جاء جدي فأخبرته ليزا بما حدث. أجابها بأنه يفهم ذلك وبأن سماع ما حدث يؤسفه كثيراً. لكنه قال هذه الكلمات بتلك *النبرة الغريبة*. لم يقل: ما الذي أستطيع فعله. أو *متى موعد الجنازة؟*... أو أي شيء. كان كلامه كله شيئاً من قبيل: *شكراً لاتصالك. نقدر لك ذلك. مع السلامة!* أعني... كنتُ قادراً على إخبارها بأن هذا ما ستحصل عليه». أضفت الكلمات الأخيرة بنبرة عصبية عندما لم يجبني هوبي بشيء... «لأنني، أعني... لم يكونا يحبان أبي أبداً... لم يكونا يحبان أبي. دوروثي زوجة أبيه، ويكره أحدهما الآخر منذ اليوم الأول. لكن العلاقة بين أبي وجدّي لم تكن حسنة في يوم من الأيام... أبداً».

«لا بأس، لا بأس، تابع».

«... و، أعني... مرَّ أبي ببعض المشكلات عندما كان صغيراً. ولعل ذلك له علاقة بالأمر. لقد اعتُقل، لكني لا أعرف السبب. صدقاً، لا أعرف السبب. لكنهما كانا حريصين على عدم وجود أية علاقة معه لفترة طويلة جداً. لم يريدا أية علاقة معي أيضاً...».

«اهدأ! أنا لا أحاول أن...».

«... لا ... أقسم لك أنني لم أرهما إلا مرات قليلة جداً. وأنا لا أعرفهما في حقيقة الأمر. لكن، ما من سبب يجعلهما يكرهاني... لا أعني القول إن جدي شخص عظيم، بل إنه كان شديد السوء مع أبي في واقع الأمر...».

«ششش... كفّ عن الكلام! لست أحاول الضغط عليك. لا أريد غير معرفة حقيقة الأمر...». ثم قال عندما حاولت مقاطعته... «لا! استمع الآن...». أزاح كلماتي جانباً كما لو أنه يطرد ذبابة حطّت على الطاولة.

«إن محاميَّ هنا. إنه في المدينة. هل يمكنك الذهاب معي لرؤيته؟». قلت هذا حائراً عندما رأيت حاجبيه ينعقدان من جديد... «هو ليس محامياً بكل معنى الكلمة، بل إنه يدير الأمور المالية! لقد تكلّمت معه على الهاتف. تكلّمت معه قبل أن أغادر».

دخلت بيبا ضاحكة متورّدة الخدين. قالت: «ماذا؟ ما مشكلة هذا الكلب؟ ألم ير سيارة في حياته؟».

شعرها الأحمر المتألق؛ وقبعتها الصوف الخضراء؛ وصدمة رؤيتها في ضوء النهار... كان ذلك مثل رشقة من ماء بارد. كان في مشيتها عرج خفيف لعله من آثار الحادث؛ لكني رأيت فيها أيضاً خفة تشبه قفزات جندب كأن في خطوتها ذلك التأهب الاستهلالي قبل الشروع في الرقص. كانت متلفّعة بطبقات ملابس كثيرة لاتقاء البرد فبدت أشبه بدمية قماش ملونة لها قدمان.

قالت وهي تفكّ واحداً من وشاحاتها الملوّنة الكثيرة بينما كان

بوبتشيك يتراقص عند قدميها ممسكاً برسنه بين أسنانه... «هل يطلق ذلك الصراخ الغريب دائماً؟ أعني تمر سيارة فيصرخ ويقفز في الهواء! كنت ممسكة برسنه كأنه طائرة ورقية! انفجر الناس ضاحكين. نعم...». انحنت مخاطبة الكلب وهي تداعب قمة رأسه بأصابعها... «أنت، أنت بحاجة إلى حمام، ألا تعرف هذا؟ هل هو كلب مالطي؟». رفعت رأسها ونظرت إليّ مع هذا السؤال.

أومأت برأسي وقد غطيت فمي بظهر يدي محاولاً كبت موجة عطاس جديدة.

«أحب الكلاب...». كنت لا أكاد أسمع كلماتها لأن عينيها المسلطتين عليَّ دوختاني... «لدي كتاب عن الكلاب. وقد حفظت سلالاتها كلها عن ظهر قلب. إن كان لدي كلب كبير فأنا أحب أن يكون من نوع *نيوفاوندلاند* مثل نانا في بيتر *بان*؛ وإذا كان لدي كلب صغير... حسناً، إنني أغيّر رأيي طيلة الوقت. أحب كلاب *تيريير* الصغيرة كلها ـ وأحب خاصة نوع *جاك روسلز*... تكون هذه الكلاب دائماً لطيفة ومضحكة عندما تسير في الشارع. لكني أعرف نوعاً رائعاً آخر. إنه *باسنجي*. كما رأيت منذ أيام كلباً رائعاً من نوع بيكينغز. كلب صغير جدّاً جدّاً، ذكي جداً. لم يكن أحد في الصين قادر على امتلاك هذه الكلاب إلا إذا كان من الأسرة الملكية. إنها سلالة قديمة جداً».

قلت بصوت متشقّق وقد أسعدني أن تكون لديّ معلومة أساعدها بها: «الكلاب المالطية سلالة قديمة أيضاً. إنها موجودة من أيام اليونان القديمة».

«ألهذا اخترت كلباً مالطياً؟ ألأنه من سلالة مالطية؟».

«ممم...»، تظاهرت بأنني أحاول كتم سعالي.

بدأت تقول شيئاً آخر ـ ليس لي، بل للكلب ـ إلا أنني وقعت في نوبة عطاس جديدة. وسرعان ما تناول هوبي أول ما وقع تحت يده ـ منديل طعام على الطاولة ـ فناولني إياه.

قال لي: «حسناً، هذا يكفي. عد إلى السرير. لا، لا...». قال هذا عندما حاولت إعادة المنديل إليه... «لا، لا. احتفظ به. قل لي الآن...». نظر إلى طبق طعامي وإلى الشاي المسفوح وإلى التوست الذي تنقّع تحت المنديل... «ماذا أجلب لك من أجل الإفطار؟». بما أنني كنت عالقاً في ذلك العطاس كله، فقد اكتفيت بأن هززت كتفي هزة روسية الطابع تعلمتها من بوريس: *أي شيء*.

«لا بأس إذاً. إذا لم يكن لديك مانع، فسوف أعد لك شيئاً من الشوفان. إنه سهل البلع. أليس لديك جوارب؟».

كانت منشغلة بالكلب. كنزة صفراء بلون الخردل، وشعر كأوراق الخريف. كانت ألوانها مختلطة بألوان المطبخ الزاهية، متداخلة معها: تفاحات مخططة تلمع في طبق عميق أصفر، وألق فضّيّ حاد من علبة القهوة التي يضع هوبي فراشي الطلاء فيها.

سمعت هوبي يقول: «بيجاما؟ لا؟ سأرى ما أستطيع العثور عليه في ملابس ويلتي. وعندما تخلع هذه الملابس، فسوف أضعها مع الغسيل. انطلق الآن...». قال هذا وهو يضع يده على كتفي بحركة مفاجئة جعلتني أقفز في مكاني.

«أنا...».

«يمكنك البقاء. يمكنك البقاء بقدر ما تريد. لا تقلق، فسوف أذهب معك لرؤية هذا المحامي. وسيكون كل شيء على ما يرام».

2

مضيت مرتعشاً مترنّحاً عبر الصالة المظلمة، ثم اندسست تحت الأغطية التي كانت ثقيلة باردة كالجليد. كانت الغرفة عابقة برائحة الرطوبة؛ وعلى الرغم من وجود أشياء كثيرة مثيرة للاهتمام يمكن النظر إليها (زوج صلصالي من حيوانات الغريفين[1]، ولوحات فيكتورية

---

(1) غريفين: حيوان أسطوري له جسم أسد ورأس وجناحا نسر.

مصنوعة من الخرز، بل حتى كرة زجاجية)، فقد امتصّتني الجدران البنية الداكنة وسطوحها الجافّة العميقة كأنها مرشوشة بمسحوق الكاكاو... امتصّتني تماماً بإحساس يشبه إحساسي بصوت ويلتي... لون بني ودود أشبعني إلى أعمق أعماقي وكللني بنبرات دافئة عتيقة الطراز، فظللت أحس بأنني محميٌّ مطمئن حتى عندما غرقت مرة أخرى في تيار الحمّى المتوهج... هناك، ألقى صوت بيبا هالة من عندها، هالة من نور متحرّكة ملوّنة فصرت كأنني أرى شيئين مختلطين... أوراق أشجار قرمزية وشرارات نار تتطاير في الظلمة، وأرى أيضاً لوحتي، أرى كيف ستبدو على هذه الخلفية الغنية القاتمة التي تمتصّ الضوء. ريشات صفراء. لمعات قرمزية. عينان سوداوان متألقتان.

استيقظت مفزوعاً ـ كنت مذعوراً أتقلّب يميناً وشمالاً؛ كنت في الباص من جديد وقد سرق أحدهم اللوحة من حقيبتي ـ لكني فتحت عينيَّ فوجدت بيبا تحمل الكلب الناعس. كان شعرها أكثر تألقاً من أي شيء آخر في الغرفة.

قالت لي: «آسفة، لكنه في حاجة إلى الخروج لقضاء حاجته. لا تعطس عليه».

نهضت قليلاً مستنداً إلى مرفقي وقلت لها بطريقة حمقاء: «آسف، مرحباً». ثم حجبت وجهي بذراعي وعطست، وبعد ذلك... «أشعر بأنني صرت أحسن».

جالت عيناها اللتان تشيعان الاضطراب في نفسي، عيناها البنيتان الذهبيتان، في أرجاء الغرفة: «هل أصابك الملل؟ أتريد أن آتيك ببعض الأقلام الملونة؟».

قلت حائراً: «أقلام ملونة؟ لماذا؟».

«أوه، حتى ترسم بها...».

«حسناً...».

قالت لي: «ليس الأمر مهماً. ما كان عليك إلا أن تقول لا».

خرجت من الغرفة بخطواتها المتقافزة، وجرى بوبتشيك خلفها. تركت وراءها رائحة علكة القرفة؛ أما أنا فدفنت وجهي في الوسادة منسحقاً تحت شدة شعوري بغبائي. على الرغم من أنني كنت أفضّل الموت على قول هذا لأي إنسان، فقد أقلقني احتمال أن يكون استخدامي المفرط للمخدرات قد أضر، على نحو غير قابل للإصلاح، بدماغي وبنظامي العصبي، بل ربما حتى بروحي... ربما حدث ذلك بطريقة غير واضحة أو مباشرة!

أصدر هاتفي طنيناً بينما كنت راقداً في السرير تحت وطأة قلقي: *احزر أين أنا؟ بركة السباحة في إم جي إم غراند!!!*

فاجأني هذا، فكتبت رداً: ***بوريس؟***

نعم، هذا أنا!

ما الذي يفعله هناك؟ كتبت له: ***هل أنت بخير؟***

نعم، لكنك لا تزال نائماً! إننا نمرح هنا. يا إلهي!

ثم طنة أخرى من الهاتف: *رائع. ممتع. احتفال. احتفال. وأنت؟ هل تعيش في نفق؟*

أجبته: ***في نيويورك. مريض في الفراش. لماذا أنت هناك؟***

هنا مع كيت وآمبر والبقية!!!

ثم أتت رسالة أخرى بعد ثانية واحدة: ***هل سمعت بشراب اسمه الروسي الأبيض؟ مذاق جميل جداً واسم ليس جيداً تماماً لنوع من الشراب!***

نقرة على الباب. مد هوبي رأسه من الباب وقال: «هل أنت بخير؟ هل أجلب لك شيئاً؟».

وضعت هاتفي جانباً: «لا، شكراً لك».

«لا، أخبرني من فضلك عندما تجوع. لدينا كميات كبيرة من الطعام.

البرّاد محشو إلى حد يجعل إغلاق بابه صعباً. كان لدينا ضيوف في عيد الشكر... ما هذا الصوت؟». قال هذا وهو يتلفّت يميناً وشمالاً.

«إنه هاتفي». كان بوريس قد أرسل رسالة جديدة.

لا يمكنك تصديق ما جرى في الأيام الماضية؟

«حسناً، سأتركك مع هاتفك. أخبرني إذا احتجت إلى أي شيء».

وبعد ذهابه، انقلبت في السرير حتى صرت مواجهاً للجدار وكتبت لبوريس: ***ماواير؟ كيتي بيرمان؟***

أتتني الإجابة على الفور تقريباً: ***نعم، وأيضاً آمبر وميمي وجيسيكا وأخت كيت، اسمها جوردان وهي في الجامعة.***

ماذا؟؟؟

كان ذهابك في وقت سيئ!!!

وعندها على الفور تقريباً، وقبل أن أتمكن من الإجابة: ***يجب أن أذهب الآن، آمبر تريد هاتفها.***

أجبته: ***اتصل بي.*** لكنني لم أتلقَ إجابة ـ سيمر وقت طويل طويل بعد ذلك قبل أن أسمع أي شيء عن بوريس.

3

أمضيت ذلك اليوم، ويوماً بعده، أو يومين، في التقلب في الفراش مرتدياً بيجاما ويلتي الناعمة الحريرية. كنت في حالة حمّى عنيفة جعلت عقلي مضطرباً وجعلتني أجد نفسي قد عدت إلى محطة بورت أوثورتي حيث أهرب من الناس وأتفادى جموعهم، ثم أغطس في قنوات يقطر عليّ فيها ماء زيتي. تخيّلت نفسي في لاس فيغاس من جديد جالساً في باص يعبر مناطق صناعية تعصف بها الريح فيسفع الرمل نوافذ الباص. لا مال معي لدفع الأجرة. كان الزمن ينزلق من تحتي على دفعات كأنني سيارة تنزلق على الجليد في الطريق السريع. وما كان يقطع تلك الانزلاقات غير لحظات توقّف مفاجئة تعلق فيها عجلات السيارة في مكانها، فأجد نفسي

مقذوفاً على الأرض: هوبي يجلب لي الأسبرين وشراب الزنجبيل مع الجليد؛ وبوبتشيك الذي استحم ـ صار نظيفاً مهفهفاً أبيض كالثلج، يقفز إلى أسفل السرير ثم يتنزه جيئة وذهاباً عابراً من فوق قدميّ.

قالت بيبا وهي تأتي إلى السرير وتلكزني في جانبي حتى أفسح لها مكاناً حتى تجلس: «تحرّك قليلاً».

جلست في الفراش باحثاً عن نظارتي. كنت أحلم باللوحة. لقد أخرجتها لأنظر إليها، أو... هل أخرجتها حقّاً؟ وجدت نفسي ألقي نظرات قلقة حتى أتأكد من أنني أعدتها إلى مكانها قبل نومي.

«ما الأمر؟».

أرغمت نفسي على الاستدارة والنظر إلى وجهها: «لا شيء!».

أعرف أنني زحفت تحت السرير عدة مرات، فقط حتى أضع يدي على غلاف الوسادة. لكنني كنت في تلك اللحظة غير قادر على منع نفسي من التساؤل عما إذا كنت واهن الانتباه إلى درجة جعلتني أتركها ظاهرة من تحت السرير. رحت أقول في نفسي: «لا تنظر هناك. انظر إليها».

كانت بيبا تقول: «انظر. لقد صنعت لك شيئاً. افتح يدك».

نظرت إلى المجسَّم الورقي المقصوص ذي النتوءات الذي في يدي. كان لونه أخضر كلون العشب: «واو! شكراً لك».

«هل تعرف ما هو؟».

«ممم...» مزارع؟ غراب؟ وعل؟ رفعت رأسي ونظرت إليها فزعاً لأنني لم أهتد إلى إجابة.

«هل استسلمت؟ إنه ضفدع. ألا ترى ذلك؟ هيا، ضعه على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. من المفترض أن يقفز عندما تضغط عليه عند هذه النقطة. هل رأيت؟».

عندما رحت أعبث بذلك الضفدع، كان لدي إحساس بأن عينيها مسلّطتان عليّ، عينين فيهما نور وفيهما جموح... قوة لا مبالية كتلك التي تكون في عينيّ قطة صغيرة.

«هل يمكنني النظر إلى هذا؟».

كانت قد التقطت الآيبود وراحت تتصفّح ما فيه. قالت: «همم، شيء لطيف! ماغنيتيك فيلدز، ميزي ستار، نيكو، نيرفانا، أوسكار بيترسون. أليس لديك موسيقى كلاسيكية؟».

أحسست بنفسي محرجاً، فقلت لها: «نعم، هناك بعض الموسيقى الكلاسيكية».

كان كل ما ذكرَته، باستثناء فرقة نيرفانا، من الموسيقى التي تركتها أمي... بل حتى بعض أغاني نيرفانا كان لها أيضاً.

«سوف أعدّ لك بعض السيدِيات. لكني تركت الكمبيوتر في المدرسة. أظن أنني أستطيع إرسالها بالبريد. كنت في الآونة الأخيرة أستمع إلى أعمال آرفو بارت... لا تسألني عن السبب! كنت مضطرّة إلى استخدام السماعات لأنه يصيب زميلاتي في الغرفة بالجنون».

كنت مذعوراً من أن تضبطني محدِّقاً فيها؛ وكنت غير قادر على انتزاع عينيَّ عنها. رحت أنظر إليها تتفحص الآيبود حانية رأسها: أذنان ورديتان، وخط الندبة الناتئ قليلاً تحت حافة الشعر الأحمر كأنه نار حارقة. عند النظر إليها بشكل جانبي، كانت أهداب عينيها المسدلتين تبدو طويلة ثقيلة؛ وكانت فيها رِقّة هشّة ذكّرتني بالملائكة والصبية الصغار في كتب الأعمال الفنية الأوروبية الشمالية، التي كنت أنظر إليها كثيراً في المكتبة.

«اسمعي...». جفّت الكلمات في فمي.

«ماذا؟».

«ممم...». لماذا لا يسير الأمر مثلما سار من قبل؟ ولماذا لا أستطيع التفكير في شيء أقوله لها؟

«أوووه...!». نظرت إلي، ثم ضحكت من جديد. كان ضحكها شديداً فلم تستطع الكلام.

«ما الأمر؟».

«لماذا تنظر إليَّ بهذه الطريقة؟».

قلت متحفّزاً: «أية طريقة؟».

«كأن...». لم أكن واثقاً من تفسير تلك الهيئة التي اتخذتها: وجه بعينين جاحظتين. شخص يختنق. شخص مريض منغولي؟ سمكة؟

«لا تغضب. كل ما في الأمر أنك جِدّي كثيراً. كل ما في الأمر...». ألقت نظرة إلى الآيبود، ثم انفجرت ضاحكة من جديد. قالت: «أوه، كوستاكوفيتش، شيء ثقيل؟».

ما مقدار ما تتذكّره؟ كنت أتساءل في نفسي وأنا أحس بلذعة الإذلال من غير أن أستطيع انتزاع عينيّ عنها. لم يكن هذا شيئاً يمكن السؤال عنه، لكني أردت معرفة الإجابة. هل تصيبها الكوابيس أيضاً؟ هل تخاف الزحام؟ هل تتعرّق وتصاب بالذعر؟ هل يأتيها ذلك الإحساس بأنها تراقب نفسها من مسافة بعيدة، كما لو أن الانفجار قد فصل جسدي عن روحي فصارا كيانين مختلفين تفصل بينهما على الدوام مسافة قصيرة؟ كان في انفجار ضحكها ذلك التهوّر اللامبالي الذي يغذّي نفسه بنفسه، ذلك التهور الذي كنت أعرفه معرفة جيدة جداً من تلك الليالي الجامحة مع بوريس... عند حافة الثمالة والهستيريا التي كنت أربطها (في ذهني، على الأقل) بحقيقة أنني نجوت بعد أن كدت أموت. مرت عليَّ في الصحراء ليالٍ كان الغثيان يصيبني فيها لكثرة الضحك، فأتلوى وأتثنى وتؤلمني معدتي ساعات لا تنتهي... كنت مستعداً في تلك اللحظات لإلقاء نفسي تحت سيارة حتى أجعل ذلك الضحك يتوقف.

4

جاء يوم الاثنين، وكنت لا أزال بعيداً جداً عن التحسّن، لكني رفعت نفسي من ضباب الرماد والنعاس وسرت مصمماً إلى المطبخ، فاتصلت بمكتب السيد بريسغيردل. لكن سكرتيرته قالت بعد أن سألتها عنه (وبعد أن جعلتني أنتظر، ثم عادت إلي أسرع قليلاً من الحد الطبيعي): إن السيد

بريسغيردل خارج المكتب و... لا، ليس لديها رقم يمكنني الاتصال به مباشرة من خلاله. قالت لي أيضاً إنها لا تستطيع إخباري متى يمكن أن يعود. فهل هنالك شيء آخر؟

تركت لها رقم هوبي؛ وندمت على أنني تقاعست فلم أطلب منها تحديد موعد.

رن جرس الهاتف.

جاءني صوته الغني الذكي: «ألا تزال في لاس فيغاس؟».

أجبته بصوت غبي: «لقد تركتها...». جعلني البرد الذي في رأسي أبدو كمن يتحدّث من أنفه، أو كشخص أبله... «إنني في المدينة».

«نعم، لقد استنتجت هذا. ما الذي أستطيع فعله من أجلك». كانت نبرة صوته ودّية، لكنها باردة بعض الشيء.

سمعته يأخذ نفساً عميقاً عندما أخبرته عن أبي. قال لي وهو يختار كلماته بعناية: «لا بأس، يؤسفني سماع هذا. متى حدث الأمر؟».

«في الأسبوع الماضي».

استمع إليَّ من غير مقاطعة. وخلال الدقائق الخمس، أو نحو ذلك، التي أمضيتها في إبلاغه بما جرى، سمعته يرفض مكالمتين على الأقل. قال لي عندما انتهيت من الكلام: «عجباً! يا لها من قصة يا ثيودور!».

عجباً؟ لو كنت في مزاج مختلف لابتسمت. من المؤكد أنه شخص عرفَته أمي جيداً، ومن المؤكد أنه أعجبها.

كان يقول لي: «لا بد أن الوضع هناك كان رهيباً بالنسبة إليك. بالطبع، إنني في أشد الأسف للخسارة التي أصابتك. هذا أمر في غاية السوء. لكنني أقول لك بصراحة تامة ـ وأشعر براحة أكبر عندما أقول لك هذا الآن ـ كان أبوك يسبب الإرباك للجميع عندما يأتي. وبالطبع، لقد أسرّت أمك إليك ببعض الأشياء ـ حتى سامانثا كانت قد عبّرت عن شيء من القلق. حسناً، وكما تعرف، كان الوضع صعباً. لكنني لا أظن أن أحداً كان يتوقّع حدوث هذا. أوغاد يحملون مضارب البيسبول!».

«الحقيقة...». *أوغاد يحملون مضارب البيسبول*! لم أقصد حقّاً أن ألفت نظره إلى هذا التفصيل... «كان الرجل واقفاً فحسب وفي يده ذلك المضرب. لا أظن أنه كان يريد ضربي به أو أي شيء». ضحك ضحكة بسيطة هيّنة كسرت التوتر... «بدا لي مبلغ الستين ألف دولار مبلغاً شديد التحديد. وعلي الآن أن أقول لك إنني تجاوزت صلاحياتي تقريباً بصفتي مستشارك ومحاميك، عندما تحدّثنا على الهاتف؛ لكني آمل أن تسامحني بالنظر إلى الظروف التي كانت آنذاك. فعلت ذلك لأنني شممت رائحة شيء غير نظيف».

قلت بعد لحظة صمت شعرت خلالها بالغثيان: «عفواً؟».

«عندما تحدّثنا على الهاتف... الحقيقة هي أنك يمكنك أن تسحب مالاً، من صندوق التعليم على الأقل. هنالك ضريبة كبيرة، لكن الأمر ممكن».

ممكن؟ هل كنت أستطيع أن آخذ ذلك المال؟ كان مستقبل مختلف يلوح في عقلي: نقود السيد سيلفر وقد سددت، وأبي في ثوب الحمام يتفقّد نتائج المباريات على هاتفه البلاك بيري، وأنا في صف سبيرسيتسكايا، وبوريس الناعس على الناحية الأخرى من الممر بين المقاعد.

كان السيد بريسغيردل يقول: «عليَّ إخبارك أن المال الموجود في الصندوق ينقص عن ذلك المبلغ بعض الشيء في واقع الأمر. لكنه محفوظ هناك، وهو يزداد طيلة الوقت! وبالنظر إلى ظروفك، يمكن ترتيب أمر استخدامك جزءاً منه منذ الآن. إلا أن أمك كانت مصممة كل التصميم على ألا تمد يدها إليه على الرغم من مشكلاتها المالية. وما كانت تريد أبداً أن يضع أبوك يده على ذلك المال. وأيضاً، نعم... الكلام بيني وبينك، أظنك كنت ذكياً جداً عندما قررت العودة إلى نيويورك بناء على تقديرك الشخصي. عفواً...». صوت كلام مكتوم... «لدي موعد في الساعة الحادية عشرة. عليَّ أن أسرع الآن. أظنك مقيم عند سامانثا، أليس كذلك؟».

فاجأني سؤاله. قلت: «لا. أنا عند بعض الأصدقاء في منطقة فيليدج».
«نعم، رائع. ابق لديهم ما دمت مرتاحاً. على أيّ حال، يؤسفني إذ عليَّ أن أذهب الآن. ما قولك في متابعة هذا الحديث في مكتبي. سوف أعيدك إلى سكرتيرتي باكسي حتى تحدّد لك موعداً».

أجبته: «عظيم! شكراً لك». لكني أحسست بالغثيان، عندما أغلقت الهاتف كأن أحداً قد مد يده إلى صدري ونثر، بحركة قوية موجعة، قدراً كبيرة من مادة رطبة بشعة أحاطت بقلبي.

كان هوبي يعبر المطبخ، فتوقّف فجأة لينظر إلى التعبير الذي ظهر على وجهي. قال لي: «هل كل شيء بخير؟»ز

«بالتأكيد!». لكن طريقي عبر الممر إلى غرفتي كان طويلاً. وما إن أغلقت باب الغرفة من خلفي وعدت إلى سريري، حتى بدأت أبكي، أو بدأت شيئاً يشبه البكاء، لهاث جاف بشع وقد دفنت وجهي في وسادتي. أما بوبتشيك فراح يشد قميصي ويتشمّم ظهري ورقبتي متوتّراً قلقاً.

5

كنت أحسن حالاً قبل حدوث هذا، لكن تلك الأنباء جعلتني ـ على نحو ما ـ أمرض من جديد. ومع مضي النهار واشتداد الحمى حتى بلغت مستواها المترنح المدوِّخ السابق، ما كنت قادراً على التفكير في شيء غير أبي: يجب *أن أتصل به*... هكذا كنت أقول في نفسي وأحاول النهوض من السرير مرة بعد مرة، تماماً عند اللحظات التي أفقد فيها كل قوتي وأعود إلى النوم. كان ذلك كما لو أن موته ليس حقيقياً، بل تدريبٌ فحسب، جولة تجريبية. وأما الموت الحقيقي (الموت الدائم) فهو لما يحدث بعد، ولا يزال لدي وقت لإيقافه إذا تمكّنت من العثور على أبي... فقط لو أنه يرد على هاتفه الخليوي، أو لو أن كساندرا تستطيع الاتصال به من عملها... يجب *أن أعثر عليه*؛ يجب *أن أخبره*. ثم، في وقت لاحق ـ بعد أن انتهى النهار وأتى الظلام ـ غرقت في ما يشبه حلماً مضطرباً رأيت فيه

أبي يوبّخني لأنني أفسدت حجزاً لسفرة ما بالطائرة. في تلك اللحظة، انتبهت إلى ضوء في الممر، وإلى ظل صغير منار من الخلف... إنها بيبا، آتية من غير صوت، تدخل الغرفة بخطوات متردّدة كما لو أن أحداً يدفعها من الخلف. ألقت نظرة متشككة إلى ما وراءها، وقالت: «هل يجب أن أوقظه؟».

قلت: «لحظة...». كلمة كان نصفها موجهاً إليها والنصف الآخر موجهاً إلى أبي، الذي راح يضمحلّ سريعاً في الظلمة في الناحية الأخرى من بوابة مقنطرة وسط حشد صاخب في ملعب. عندما وضعت نظارتي رأيتها مرتدية معطفها كما لو أنها موشكة على الخروج.

«آسف!». قلت هذا وغطيت عينيَّ بذراعي وقد شوشني توهّج المصباح في الممر من خلفها.

«لا... أنا آسفة. الأمر هو أنني... أعني...». أزاحت خصلة شعر عن شعرها... «إنني راحلة. أردت أن أودّعك».

«تودعينني؟».

تقارب حاجباها الباهتان ونظرت إلى هوبي الواقف في الممر (كان قد اختفى عني)، ثم عادت تنظر إلي: «أوه، صحيح...». أحسست بشيء من الذعر في صوتها... «حسناً! إنني عائدة. الليلة. على أية حال، كانت رؤيتك أمراً لطيفاً. آمل أن تسير أمورك كلها على أحسن ما يرام».

«الليلة؟».

«نعم. سوف أذهب إلى المطار الآن. لقد سجَّلَتْني في مدرسة داخلية...». قالت هذا عندما رأتني مستمراً في النظر إليها... «إنني هنا لقضاء فترة عيد الشكر. وأنا هنا لرؤية الطبيب. ألا تتذكر هذا؟».

«صحيح». كنت محدّقاً فيها بكل قوتي؛ وكنت آمل أن يكون ذلك استمراراً لحلمي. جعل ذكر المدرسة الداخلية جرساً غريباً غامضاً يرن في عقلي لكني ظننته شيئاً مما حلمت به.

بدت لي غير مرتاحة أيضاً، مثلي: «صحيح... من المؤسف أنك لم تأت في وقت أبكر. لقد أمضينا وقتاً ممتعاً. كان هوبي يعد الطعام... وكان يأتينا أشخاص كثيرون. على أيّ حال، كان حظي طيباً لأنني تمكنت من المجيء. كان عليَّ أن أحصل على إذن من د. كانزيند. ليس لدينا عيد الشكر في مدرستي».

«وماذا يفعلون؟».

«إنهم لا يحتفلون بعيد الشكر. ربما... أظنهم يقدّمون الديك الرومي أو شيئاً ما لمن يحتفلون بعيد الشكر».

«أيّ مدرسة هذه؟».

عندما قالت لي اسم المدرسة ـ مع التواءة ساخرة من فمها ـ أصابتني صدمة. كانت *«مؤسسة مونت هايفيلي»* مدرسة في سويسرا؛ وكنت أعرف من آندي أنها لا تكاد تحظى بأي اهتمام. مدرسة لا يذهب إليها إلا أكثر البنات غباء واضطراباً.

«مدرسة مونت هايفيلي؟ حقّاً؟ كنت أظنها مدرسة...». بدا لي استخدام تعبير *للمرضى النفسيين* أمراً خاطئاً... «واو!».

«تقول خالتي مارغريت إنني سأعتاد تلك المدرسة...». كانت تعبث بالضفدع الورقي الموضوع على الطاولة الصغيرة محاولة جعله يقفز، لكنه مال وانقلب على جانبه... «المناظر هناك شبيهة بصورة الجبل على علبة أقلام التلوين. قمم تغطيها الثلوج، ومروج من الأزهار، وكل ذلك. أما من النواحي الأخرى، فالمكان شبيه بواحد من أفلام الرعب البليدة التي لا يحدث فيها الكثير».

«لكن...». أحسست كما لو أن هناك شيئاً لم أفهمه، أو كأنني لا أزال نائماً. كنت أعرف شخصاً واحداً ذهب إلى مدرسة مونت *هايفيلي*: أخت جيمس فيليرز، اسمها دوريت فيليرز. وتقول القصة التي أعرفها إنها ذهبت إلى تلك المدرسة لأنها طعنت صديقها بالسكين.

قالت عيناها الضجرتان اللتان تتنقّلان في أرجاء الغرفة: «صحيح. مدرسة للمجانين. لكن الأماكن التي أستطيع الذهاب إليها بعد تلك الإصابة قليلة جداً. لديهم عيادة ملحقة بالمدرسة. أطباء وعاملون، عيادة أكبر مما تظن. أعني، إن لديّ مشكلات منذ تعرّضي لتلك الإصابة في رأسي، لكن هذا لا يعني أنني مجنونة أو أنني أسرق من المتاجر».

كنت لا أزال أحاول إبعاد تعبير «أفلام رعب» عن ذهني: «نعم، لكن، سويسرا!... مكان جميل جداً».

«إن كنت تقول هذا!».

«أعرف بنتاً اسمها لالي فولتس ذهبت إلى مدرسة لو روزي. قالت إن لديهم استراحة شوكولا كل صباح».

«حسناً... أما نحن فلا نحصل حتى على المربّى لنضعه على التوست...». بدت يدها مبقّعة شاحبة بالمقارنة مع سواد معطفها... «لا تحصل على المربى إلا الفتيات المصابات باضطرابات الطعام. إذا أردت أن تشرب الشاي بالسكر فعليك أن تسرق مظاريف السكر عن طاولة الممرضات».

هذا أسوأ وأسوأ... «ممم... هل تعرفين بنتاً اسمها دوريت فيليرز. لا، لقد كانت هناك، لكنهم أرسلوها إلى مكان آخر. أظنّها حاولت خمش وجه شخص ما. لقد وضعوها في غرفة الاحتجاز بعض الوقت».

«ماذا؟».

قالت وهي تدعك أنفها: «إنهم لا يطلقون عليها هذا الاسم. المكان عبارة عن مبنى صغير يشبه مباني المزارع. يطلقون عليه اسم *الحظيرة*... أنت تعرف، فتاة تحلب البقرة، وتلك المظاهر الريفية الزائفة. أجمل من البيوت السكنية التي نعيش فيها. لكن الأبواب مزودة بأجهزة إنذار، ولديهم حراس، وأشياء من هذا القبيل».

«حسناً، أعني...». كنت أفكر في دوريت فيليرز ـ بشعرها الذهبي

المجعّد؛ وعينيها الزرقاوين الخاليتين من التعبير كأنهما عينا ملاك سخيف على شجرة عيد الميلاد ـ لم أجد شيئاً أقوله.

«لا يضعون هناك إلا البنات المجنونات حقّاً. الحظيرة. إنني في بيت اسمه بيسونيت مع مجموعة من البنات اللواتي يتكلّمن الفرنسية. من المفترض أن هذا سيساعدني على تكلم اللغة الفرنسية بشكل أفضل. لكن المشكلة هي أنني لا أتحدّث مع أحد».

«يجب أن تخبري خالتك بأنك لا تحبين هذه المدرسة».

كشّرت وقالت: «إنني أخبرها بهذا. لكنها تبدأ على الفور إخباري بأنها مدرسة غالية، أو تقول إنني أؤذي مشاعرها. ليس مهماً...». قالت هذا منزعجة وهي تلتفت إلى الخلف، قالته بنبرة: يجب *أن أذهب*.

«هه». قلتها بعد فترة قصيرة من صمت زائف. كانت فترات هذياني، في الليل والنهار، ملونة بإدراكي لوجودها في البيت، وبموجات الفرح المتكررة كلما سمعت صوتها في الممر، كلما سمعت وقع خطواتها: كنا سننصب خيمة من البطانيات، وكانت ستنتظرني عند حلبة التزلج على الجليد... طنين متألق من الإثارة في كل شيء سنفعله عندما تتحسّن حالتي ـ والحقيقة أن ذلك كله كان يبدو كما لو أننا نفعل تلك الأشياء حقّاً، من قبيل جدل عقود من حلوى بألوان قوس قزح بينما يذيع الراديو معزوفة *بيل وسيباستيان*؛ ثم نتجوّل بعد ذلك في أروقة كازينو لا وجود له، في أروقة سكوير. لاحظت أن هوبي كان واقفاً خفية في الممر. ظهر وقال وهو يلقي نظرة سريعة على ساعة يده: «آسف. أكره حقاً أن أستعجلك...».

أجابته: «بالتأكيد»؛ وقالت لي: «إلى اللقاء إذاً. آمل أن تتحسّن سريعاً».

«انتظري!».

قالت وهي تستدير نحوي نصف استدارة: «ماذا؟».

«ستعودين في عطلة الميلاد، أليس هذا صحيحاً؟».

«لا؛ سأذهب إلى خالتي مارغريت».
«متى تعودين إذاً؟».
هزّت كتفها: «حسناً، لست أدري. ربما أعود في عطلة الربيع».
قال هوبي: «بيبا...»، لكنه كان يكلّمني أنا، لا هي.
أجابته وهي تزيح شعرها عن عينيها: «حالاً».
انتظرت إلى أن سمعت صوت إغلاق البيت، ثم نهضت من السرير وأزحت الستارة عن النافذة. وقفت أنظر إليهما ينزلان الدرجات التي أمام الباب، وقفت أنظر عبر الزجاج المغبر، بيبا في وشاحها الوردي وقبعتها تسير مسرعة بعض الشيء إلى جانب هيكل هوبي الضخم حسن الملبس.

بقيت فترة بعد أن انعطفا من حول الزاوية واقفاً عند النافذة أنظر إلى الشارع الخاوي. وبعد ذلك، أحسست بالدوار وبأنني وحيد مهجور، فسرت إلى غرفتها بخطى واهنة. لم أستطع المقاومة... شققت باب الغرفة قليلاً.

كانت الغرفة مثلما رأيتها قبل سنتين؛ لكنها صارت الآن أكثر فراغاً. ملصقات *ساحر أوز* و«*أنقذوا التيبت*». لا وجود للكرسي ذي العجلات. كومة من حبيبات مطر جليدي على طوار النافذة. لكن الغرفة كانت عابقة برائحتها. كانت لا تزال دافئة، وكان حضورها فيها لا يزال حياً. وقفت أتنفس جوها، فأحسست بابتسامة كبيرة ترتسم على وجهي لمجرد أنني واقف هناك مع كتبها الخيالية وزجاجات عطرها ومشابك شعرها في الصينية الصغيرة، ومجموعة بطاقات الفالنتاين: شرائط ورقية، وحمامات، وآلهة حب، وشبان خاطبون من العهد الإدواردي يضمون باقات ورود إلى قلوبهم. سرت بهدوء، على أطراف أصابعي، رغم أنني كنت حافياً، سرت إلى صور ذات إطارات فضية على طاولة الزينة ـ ويلتي وكوزمو، ويلتي وبيبا، بيبا وأمها (الشعر نفسه، العينان نفسهما) مع هوبي الذي كان أصغر سناً وأكثر نحولاً.

صوت خافت في الغرفة. استدرت شاعراً بالذنب... أهنالك أحد قادم؟ لا. إنه بوبتشيك الأبيض كالقطن بعد حمّامه. رأيته مندساً بين وسائدها في سريرها غير المرتب نائماً يشخر بسعادة. وعلى الرغم من كل ما يثير الشفقة في هذه الصورة، شعوري بالراحة بين أشيائها المتروكة كأنني جرو دسَّ نفسه في معطف قديم... زحفت تحت ملاءاتها ورقدت إلى جانبه مبتسماً ابتسامة بلهاء عندما شممت رائحة لحافها وشعرت بملمسه الحريري على وجنتي.

6

قال السيد بريسغيردل بعد أن صافح هوبي، ثم صافحني: «حسناً، حسناً يا ثيودور... عليَّ القول إنك تصير، كلما كبرت، شبيهاً بأمك إلى حد كبير. ليتها كانت قادرة على رؤيتك الآن».

حاولت مقابلة عينيه من غير أي حرج. لكن الحقيقة كانت أن لديَّ شعر أمي السبط وشيئاً من لونها المعتدل، لكني أبدو أكثر شبهاً بأبي، إلى حد كبير... شبه قويّ لم يكن أي عابر طريق، ولا أية نادلة في المقهى، ليتركه من غير التعليق عليه ـ لا أقول هذا مباهياً بأنني أشبه الأب الذي لا أطيقه، بل أقوله للإشارة إلى أن رؤية نسخة شابة من وجهه المتجهم، وجه السكير، في المرآة صارت مزعجة على نحو خاص بعد موته.

كان هوبي والسيد بريسغيردل يتجاذبان أطراف الحديث بصوت منخفض بعض الشيء، وكان السيد بريسغيردل يحكي لهوبي كيف تعرَّف إلى أمي. كان يستعين به لاستحضار بعض الذكريات: «نعم! أتذكّر هذا ـ صار ارتفاع الثلج قدماً في أقل من ساعة واحدة! يا إلهي! خرجت من المزاد فلم أجد شيئاً يتحرّك. كنت في الناحية الأخرى من المدينة، في غاليري بارك بيرنيت...».

«هل هو في ماديسون، قبالة فندق *كارلايل*؟».

«صحيح... مكان بعيد عن البيت».

«قال لي ثيو إنك تتعامل بالأنتيكات في منطقة فيليدج!».
جلست متأدّباً ورحت أصغي إلى حديثهما. أصدقاء مشتركون، جامعو تحف ومقتنيات، وصاحب هذا الغاليري أو ذاك، آل بيكر وريهنبيرغ وفوسيت وفوغل ومايلدبرغر وتيبيو... ثم انتقل الحديث إلى معالم نيويورك القديمة التي اختفت. إغلاق *لوتيس* ولا *كارافيل* و*كافيه دي زارتيست*... ماذا ستقول أمك لو عرفت بإغلاق *كافيه دي زارتيست*، لقد كانت تحب هذا المكان يا ثيودور. سألته كيف عرف هذا.
صحيح أنني لم أصدّق، ولو لحظة واحدة، بعض تلك الأشياء التي كان أبي يقولها عن أمي في بعض لحظات وضاعته، لكن ما اتضح لي هو أن السيد بريسغيردل كان يعرفها معرفة طيبة أكثر بكثير مما كنت أظن. بل إن الكتب على الرف في مكتبه، عدا الكتب القانونية، كانت موحية بشيء من التوافق أو بظل من تقاطع اهتماماتهما. كتب فنية: أغنيس مارتن، وأدوين ديكنسون، وكتب الشعر أيضاً، طبعاتها الأولى: تيد بيريكان، وفرانك أوهارا، وكتاب *«تأملات في حالة طارئة»*. تذكّرت ذلك اليوم عندما عادت متورّدة الخدّين سعيدة حاملة معها نسخة من تلك الطبعة نفسها من كتاب فرانك أوهارا، افترضت وقتها أنها وجدته في مكتبة *ستراند* لأننا لم نكن نملك مالاً لشراء شيء من هذا القبيل. لكنني فكّرت في الأمر فانتبهت إلى أنها لم تقل لي من أين حصلت عليه.
«حسناً يا ثيودور...». أعادني صوت السيد بريسغيردل إلى نفسي. على الرغم من كونه كهلاً فقد كان لديه مظهر شخص لوّحته الشمس. الظاهر أنه يمضي قسماً كبيراً من وقت فراغه في ملاعب التنس. أكسبته الجيوب المنتفخة تحت عينيه مظهراً وقوراً أنيساً... «لقد بلغتَ السن التي يمكن للقاضي عندها أن يأخذ برغباتك الشخصية قبل كل شيء في ما يتعلق بهذا الأمر...». ثم تحوّل إلى هوبي... «وخاصة أن أحداً لن ينازعك الوصاية، بالطبع. يمكننا أن نطلب وصاية مؤقتة من أجل

الفترة القادمة؛ لكني لا أظن أن ذلك سيكون ضرورياً. من الواضح أن هذا الترتيب لمصلحة القاصر... طالما أنك موافق عليه».

قال هوبي: «موافق وأكثر. ما يسعده يسعدني».

«أنت قادر، في الوقت الحاضر، على التصرّف بصفتك وصياً على ثيودور، لكن على نحو غير رسمي».

«غير رسمي، أو رسمي... كيفما يكن الأمر».

«علينا النظر في أمر مدرستك أيضاً. تحدّثنا في ما مضى عن مدرسة داخلية، على ما أذكر. لكن التفكير في هذا الأمر يبدو مبكراً الآن، ألا تظن ذلك؟». قال لي هذا بعد أن لاحظ الصدمة التي ظهرت على وجهي... «لا تزال مرهَقاً بعد سفرك... وبما أن العطلة قد صارت قريبة، فلا حاجة إلى اتخاذ أي قرار الآن؛ هذا ما أراه...». قال ذلك مع التفاتة إلى هوبي... «لا أرى مشكلة في انقطاعك عن المدرسة بقية هذا الفصل؛ وسوف نبحث الأمر في وقت لاحق. أنت تعرف أيضاً أنك قادر، بالطبع، على المجيء إليَّ في أي وقت. في الليل أو النهار...». كان يكتب رقم هاتف على واحدة من بطاقاته... «هذا رقم هاتفي في البيت. وهذا رقم هاتفي الخليوي... ماذا، ماذا... ما هذا السعال الشديد؟...». رفع رأسه عن البطاقة... «يا له من سعال! هل تتناول دواء من أجله؟ وهذا هو رقمي في بريدجهامبتون. آمل ألا تتردّد في الاتصال بي لأي سبب كان... إذا كنت في حاجة إلى أي شيء».

قلت له وأنا أحاول بكل جهدي أن أبتلع موجة سعال جديدة: «شكراً لك».

«أهذا ما تريده تماماً؟...». كان ينظر إليَّ نظرة متمعّنة وقد اكتسب وجهه تعبيراً جعلني أشعر كأنني واقفاً على منصة الشهادة في المحكمة... «هل تريد الإقامة مع السيد هوبارت خلال الأسابيع القادمة؟».

لم تعجبني عبارة *الأسابيع القادمة*، لكني أجبته عبر قبضة يدي التي وضعتها على فمي: «نعم، لكن...».

«أقول هذا لأن المدرسة الداخلية...». ضم كفيه معاً ومال إلى الخلف في مقعده وراح ينظر إليَّ... «أكاد أكون واثقاً من أنها أفضل الخيارات لك على المدى البعيد. لكن، وبصراحة تامة، وبالنظر إلى الظرف الراهن، أظن أنني أستطيع الاتصال بصديقي سام أونغيرر في مدرسة باكفيلد الداخلية بحيث نرتب أمر قبولك فيها على الفور. من الممكن ترتيب شيء ما، إنها مدرسة ممتازة. وأظن أنه من الممكن ترتيب إقامتك في بيت مدير المدرسة أو في بيت واحد من المعلّمين بدلاً من إقامتك في مهجع للطلبة. هكذا تكون في جو عائلي... إذا رأيت أنك تفضل ذلك».

كانا ينظران إليّ، هو وهوبي، نظرة تشجيع، على ما أظن. نظرت إلى حذائي غير راغب في الظهور بمظهر الجاحد، لكنّي تمنّيت أن يختفي هذا الاقتراح كأنه لم يكن.

تبادل السيد هوبي وبريسغيردل نظرة سريعة، هل كنت مخطئاً عندما رأيت لمحة استياء أو خيبة أمل في وجه هوبي؟... «لا بأس! بما أن هذا ما تريده، وبما أن السيد هوبارت موافق عليه، فلست أرى في هذا الترتيب ضيراً في الوقت الحاضر. لكني أحثّك، يا ثيودور، على التفكير في المكان الذي تحب أن تكون فيه، حتى نصير قادرين على القيام بخطوة أخرى وترتيب شيء ما بخصوص الفصل الدراسي المقبل، بل ربما في ما يتعلّق بذهابك إلى مدرسة صيفية، إن أحببت ذلك.

7

وصاية مؤقتة. خلال الأسابيع التي تلت ذلك، بذلت جهداً كبيراً حتى أتجاهل هذا الأمر، أو حتى أمتنع عن التفكير كثيراً عن المعنى المحتمل لكلمة «مؤقتة». كنت قد التحقت ببرنامج تحضيري من أجل المدرسة الثانوية. وكانت الفكرة التي جعلتني أفعل ذلك هو أن هذا البرنامج سيحول دون نقلي إلى مكان بعيد إذا لم تسر الأمور في بيت هوبي سيراً حسناً لأي سبب كان. صرت أجلس في غرفتي طيلة النهار تحت مصباح

ضعيف الإنارة، بينما يغط بوبتشيك في نوم عميق على السجادة عند قدمي، فأنكب زمناً طويلاً على كتيبات الاختبارات التحضيرية، وأحفظ التواريخ والبراهين والفرضيات ومفردات اللغة اللاتينية، والكثير من الأفعال الشاذّة في اللغة الإسبانية، بحيث صرت، حتى في أحلامي، أنظر إلى سطور تلك الجداول الطويلة محاولاً إبقاءها حيّة في ذاكرتي.

كان ذلك كما لو أنني أحاول معاقبة نفسي - بل لعله كان أيضاً نوعاً من محاولة لإرضاء أمي... فقد وضعت لنفسي هدفاً كبيراً. كنت قد فقدت عادة إنجاز فروضي المدرسية اليومية. وبدا لي كأنني لم أتعلّم شيئاً من دراستي في لاس فيغاس. كما كانت كمية المواد الضخمة التي يتعين عليَّ حفظها تخلق في نفسي إحساس شخص يتعرّض للتعذيب... مصابيح مسلطة على الوجه... لا أعرف الإجابة الصحيحة... كارثة إذا أخفقت. كنت أدعك عينيَّ وأحاول إبقاء نفسي صاحياً مستعيناً بدوش بارد أو بقهوة مثلجة. وكنت أستحثّ نفسي ولا أكف عن تذكيرها بأنني أفعل شيئاً حسناً على الرغم من أن ذلك الحشو الذي لا ينتهي كان أكثر شبهاً بتدمير الذات من كل ما أقدمت عليه في الماضي من استنشاق المواد اللاصقة... وعند لحظة ضبابية ما، صار العمل في حدٍّ ذاته نوعاً من المخدّر الذي يتركني مستنفذاً مرهقاً إلى حد يجعلني لا أكاد أدرك ما يحيط بي.

لكني كنت ممتناً لهذا العمل لأنه أبقاني في حالة انشغال ذهني شديد. لم أعرف سبباً أو أصلاً واضحاً لذلك الإحساس بالعار الذي يعذبني ويحفر في نفسي أعمق فأعمق.

لم أعرف السبب الذي يجعلني أشعر بأنني ملوَّث، خاطئ، عديم القيمة... لكنه كان إحساساً موجوداً؛ وكلما رفعت رأسي عن كتابي أجد نفسي غارقاً في مياه قذرة تندفع صوبي من كل اتجاه. لا بد أن جزءاً من ذلك الإحساس كان بسبب اللوحة. كنت أعرف أن ما من شيء حسن يمكن أن ينتج عن استمرار احتفاظي بها؛ لكني كنت أعرف أيضاً أنني

احتفظت بها زمناً طويلاً صار الإفصاح عنها بعده صعباً. كان البوح بسرّي للسيد بريسغيردل تهوراً. كنت في موقع متقلقل لا يسمح لي بذلك، فقد كان الرجل يفكّر في إرسالي إلى مدرسة داخلية. وكلما فكّرت في البوح لهوبي (هذا ما فكّرت فيه كثيراً) وجدت نفسي منساقاً إلى سيناريوات نظرية متباينة لم أستطع ترجيح واحد منها على البقية.

سأذهب إلى هوبي وأعطيه اللوحة فيقول لي: «أوه، ليست مسألة صعبة»؛ وعلى نحو ما، سيعرف كيف يتدبر أمرها (كانت لديَّ مشكلات في هذه النقطة، الأمور اللوجستية، أو سيتصل بشخص ما يعرفه، أو ستكون لديه فكرة عظيمة عما يمكن فعله، أو يمكن ـ أحياناً ـ ألّا يهتم، أو يمكن أن يغضب... وعلى نحو ما، سيجري كل شيء على ما يرام).

أو: سأسلم اللوحة إلى هوبي فيتصل بالشرطة.

أو: سأسلم اللوحة إلى هوبي فيأخذها لنفسه ثم يقول لي: «ماذا، هل أنت مجنون؟ لوحة؟ لا أعرف عن أي شيء تتحدّث؟».

أو: سأسلم اللوحة إلى هوبي، فيومئ برأسه ويظهر لي تعاطفه ويقول إنني فعلت الصواب. لكنه سيتصل بمحاميه فور خروجي من الغرفة؛ وبعد ذلك سيجري إرسالي إلى مدرسة داخلية أو إلى مؤسسة للأحداث الجانحين (النقطة التي ينتهي إليها معظم سيناريواتي المتخيّلة، مع اللوحة ومن غير اللوحة).

لكن الجزء الأكبر من ضيقي، أكبر كثيراً من أي جزء آخر، كان متعلقاً بأبي. كنت أعرف أن موته ليس غلطتي أنا، لكني كنت أعرف أيضاً ـ على مستوى عميق، غير منطقي، غير قابل للاهتزاز أبداً، أنني كنت مسؤولاً عن موته. فعندما أتذكّر كيف ابتعدت عنه بكل برودة في لحظة يأسه الأخيرة، وأرى أن كذبه عليّ كان أمراً لا علاقة له بالموضوع... لعله كان يعرف أنني أستطيع سداد دينه ـ حقيقة سكنتني كأنها شبح من الأشباح منذ أن أفصح عنها السيد بريسغيردل بتلك الخفة الكبيرة. في الظلال

خلف مصباح القراءة، كان حيوانا هوبي الصلصاليين، حيوانا الغريفين، ينظران إليّ بعيون زجاجية ميتة. هل ظن أبي بأنني أردت خذلانه؟ هل ظن أنني أردت موته؟ كنت أحلم به في الليل فأراه مضروباً مطارداً في ساحة وقوف السيارات أمام الكازينو. استيقظت أكثر من مرة مفزوعاً لأراه جالساً على الكرسي إلى جانب سريري ينظر إليَّ بهدوء وطرف سيجارته متوهّجاً في الظلام. *لكنهم قالوا لي إنك مت*... أقولها بصوت مرتفع قبل أن أدرك أنه ليس هناك.

غرق البيت كله في هدوء الموت بعد ذهاب بيبا. كانت الغرف المغلقة فائحة برائحة الطلاء والرطوبة كأنها أوراق شجر ميتة. وكنت أفكر على غير هدى عندما أنظر إلى الأشياء التي تركتها وأتساءل عن مكانها، وعما تفعله، وأحاول جاهداً أن أشعر بأنني متصل بها عبر خيوط واهية: شعرة حمراء في حوض الاستحمام، أو جورب مكوَّر تحت الأريكة. لكني كنت مرتاحاً لوجودي في ذلك البيت بقدر ما كنت مشتاقاً إلى ارتعاشة حضورها العصبية. كنت مرتاحاً لما يشيعه بيت هوبي في نفسي من إحساس بالأمان والإحاطة: لوحات قديمة وممرات خافتة الإنارة، وساعات جدارية تكتكاتها عالية الصوت. كان ذلك كما لو أنني رحت أعمل صبي خدمة على متن سفينة *ماري سيلست*. أتحرّك عبر مساحات الصمت الراكدة وعبر برك من ظلال وشمس عميقة، وتطقطق الأرضيات القديمة تحت خطواتي كأنها سطح سفينة. ويتناهى هدير حركة السير في الجادة السادسة إلى أذني صوتاً خفيضاً شبه مسموع. وفي الأعلى، أجلس حائراً، مدوخاً، منكبّاً على معادلات تفاضلية وعلى قانون انتقال الحرارة لنيوتن، وعلى مسائل المتحوّلات المستقلة... *نستخدم هنا حقيقة أن إكس مقدار ثابت لكي نتمكّن من حذف مُشتقه*... كان وجود هوبي في الطابق السفلي مرساة أمان، كان ثقلاً صديقاً: يريحني سماع صوت مطرقته سابحاً إليَّ من الأسفل فأعرف أنه هناك يعمل بهدوء مع أدواته ولواصقه وأخشابه متعدّدة الألوان.

كانت حاجتي إلى مصروف الجيب مصدر قلق دائم عندي خلال فترة عيشي في بيت أسرة باربر، نتيجة اضطراري الدائم إلى مطالبة السيدة باربر بالمال من أجل الغداء ومن أجل رسوم المختبر في المدرسة، وغير ذلك من النفقات الصغيرة التي كانت تثير عندي خوفاً وقلقاً غير متناسبين إطلاقاً مع حجم المبالغ التي تنفقها مضيفتي من غير اكتراث. لكن المخصّص المالي الذي قرره السيد بريسغيردل لمعيشتي في بيت هوبي أدى إلى تناقص كبير في إحساسي بخراقة قيامي برمي نفسي عليه من غير سابق إنذار. كنت قادراً على تسديد فواتير الطبيب البيطري لبوبتشيك، وهذا ما كان مبلغاً غير قليل لأن أسنانه كانت مصابة ولأنه أصيب بحالة من ديدان البطن. وعلى حد علمي، لم تعطه كساندرا أي قرص دواء ولا أية لقاحات خلال وجودي في لاس فيغاس. صرت أيضاً قادراً على الدفع لطبيب أسناني. كان ذلك مبلغاً معتبراً (ست حشوات، وعشر ساعات جهنمية من الجلوس على كرسي طبيب الأسنان)؛ إضافة إلى أنني اشتريت لنفسي هاتف آيفون ولابتوباً، واشتريت أحذية وملابس شتوية كنت في حاجة إليها. وعلى الرغم من أن هوبي لم يكن ليقبل مساهمة مني في مصاريف الطعام، فقد كنت أخرج إلى متجر البقالة بنفسي وأشتري بعض المواد وأدفع ثمنها: حليب وسكر ومسحوق منظف للغسيل من متجر *غراند يونيون*؛ كما كنت أذهب مرات كثيرة إلى سوق الفلاحين في *يونيون* سكوير لأشتري منتجات طازجة: فطراً برياً وتفاحاً أحمر وخبزاً بالزبيب... مواد رفاهية بسيطة بدا لي أنها تسره، على العكس تماماً من علبة مسحوق *تايد* الضخمة التي نظر إليها نظرة حزينة ثم وضعها في غرفة المؤونة من غير أن يقول كلمة واحدة.

كان ذلك كله مختلفاً اختلافاً كبيراً عن الجو المزدحم شديد التعقيد والرسمية في بيت آل باربر، حيث يخضع كل شيء للتدريب ولمواعيد دقيقة كأنه مسرحية يجري تقديمها في *برودواي*... كمال عديم الروح كان

آندي يهرب منه دائماً، فيقبع في غرفته كأنه سنجاب مذعور. وأما هوبي فقد كان على النقيض من ذلك تماماً: كان يعيش ويتحرّك كأنه مخلوق بحري ضخم في بيئته الطبيعية... بقع الشاي الكثيرة الداكنة، والتبغ... حيث تقول كل ساعة جدارية في البيت شيئاً مختلفاً عن بقية الساعات، وحيث لا تتطابق أوقاتها بل تسير كل واحدة منها وفق تكتكاتها الخاصة الرزينة مطيعة إيقاعات ذلك المكان الراكد المزدحم العتيق... إيقاعات بعيدة كل البعد عن العالم الملمَّع المَصنّع في الخارج. وعلى الرغم من استمتاع هوبي بالذهاب إلى السينما، فقد كان البيت من غير جهاز تلفزيون. كان هوبي يقرأ طبعات قديمة من روايات؛ وما كان لديه هاتف خليوي. كما كان كمبيوتره (جهاز IBM منذ ما قبل التاريخ) بحجم حقيبة؛ وكان جهازاً عديم النفع. في ذلك الهدوء النقي الذي لا تشوبه شائبة، كان يدفن نفسه في العمل فيحني رقائق من الخشب مستخدماً البخار، أو ينحت أرجل طاولة بإزميله فيفيض انشغاله السعيد من الورشة ويتخلّل البيت كله ممتزجاً بدفء موقد الحطب في الشتاء. كان رجلاً لطيفاً شارد الذهن؛ ومهملاً قليل الانتباه قليل التقدير لمواهبه. كثيراً ما كنت أكلمه فلا يسمعني من المرة الأولى، ولا من المرة الثانية أحياناً. كان يضيّع نظارته، وينسى أين وضع محفظته، وينسى مفاتيحه وإيصالات محل تنظيف الملابس. وكثيراً ما كان يناديني إلى القبو حتى أجثو معه على يديَّ وركبتَيَّ لنبحث عن قطعة خشب ضئيلة سقطت منه أو عن أداة من الأدوات وقعت على الأرض. كان يفتح المتجر من حين لآخر، بناء على موعد مسبق؛ يفتحه ساعة أو ساعتين. لكن، وبحسب ملاحظتي، ما كان هذا أكثر من ذريعة لإخراج زجاجة الشيري ورؤية الأصدقاء والمعارف. وإذا ما عرض قطعة أثاث وراح يفتح أدراجها ويغلقها وسط استحسان الحاضرين، فقد كان ذلك يبدو أقرب إلى الروح التي كانت، ذات يوم، تخيم عليَّ وعلى آندي عندما نُخرِج ألعابنا لاستعراضها والمباهاة بها.

لعل هوبي كان يفلح في بيع قطعة من القطع من وقت لآخر؛ لكني لم أر هذا يحدث أبداً. وأما حقل اختصاصه (كما يسميه)، أو «المستشفى»، فكان ورشته حيث تقف صفوف من كراسي وطاولات كسيحة منتظرة عنايته. وكما يفعل بستاني مشغول بنماذج نباتية في بيت زجاجي يمضي بينها، ويمسح المنّ عن كل ورقة من ورقاتها، كان هوبي يترك نفسه تغرق في ملمس كل قطعة بمفردها، وفي عروقها ودروجها الخفية وندوبها وعجائبها. وعلى الرغم من امتلاكه بضع قطع من الأدوات الحديثة للأعمال الخشبية ـ فارزة ومثقب قابل للشحن ومنشار قرصي ـ فقد كان استخدامه لتلك الأدوات أمراً نادر الحدوث («إذا كانت تستلزم سدادات للأذنين فلست في حاجة شديدة إليها»). كان ينزل في وقت مبكر من النهار فيظلّ في الورشة حتى ما بعد حلول الظلام، إن كان لديه مشروع؛ إلا أنه اعتاد أن يصعد السلم مع حلول الظلام وأن يصب لنفسه ـ قبل أن يغتسل من أجل العشاء ـ ذلك الإنش نفسه من الويسكي في قدح صغير، من غير إضافة أي شيء: متعَب، بشوش، وعلى يديه سخام... وفي إرهاقه شيء خشن يكاد يكون عسكرياً. كتبت لي بيبا:

هل أخذك لتناول العشاء في الخارج؟

نعم، ثلاث أو أربع مرات.

لا يحب الذهاب إلا إلى مطاعم شبه خالية لا يذهب إليها أحد.

هذا صحيح. المكان الذي أخذني إليه الأسبوع الماضي كان مثل قبر توت عنخ آمون.

تماماً، إنه لا يذهب إلا إلى أماكن يشعر بالشفقة على أصحابها! لأنه يخاف أن يضطروا إلى إغلاق أعمالهم فيشعر بالذنب تجاههم.

أنا أفضّل الطعام الذي يطهوه بنفسه.

اطلب منه أن يعد لك خبزاً بالزنجبيل. أتمنى لو أن عندي شيئاً منه الآن.

كان وقت العشاء الفترة التي أترقبها أكثر من أي فترة أخرى. في

لاس فيغاس، خاصة بعد انشغال بوريس مع كوتكو، لم أستطع أبداً اعتياد حزن اضطراري إلى النهوض ليلاً والبحث عما آكله، فأجلس على حافة سريري حاملاً علبة من رقائق البطاطس المقلية، أو وعاء من الأرز الجاف الباقي من العشاء الذي طلبه أبي. على النقيض من ذلك، ويا لسعادتي، كان العشاء محور نهار هوبي كله. أين سنأكل؟ من سيأتي إلينا؟ ماذا سأطهو؟ هل تحب اللحم مع الخضار؟ لا؟ ألم تجرّب هذه الأكلة؟ هل تريد أرزّاً بالليمون أم بالزعفران؟ وهل تريد مربى التين أم المشمش؟ هل تحبّ أن تذهب معي في نزهة إلى سوق جيفرسون؟ كان يأتينا ضيوف في بعض أيام الأحد: أساتذة من جامعتَيْ كولومبيا ونيو سكول، وعازفون في أوركسترا الأوبرا، وسيدات من جمعية العاديات، وأصدقاءٌ كثرٌ من شارعنا ومعهم عدد كبير من جامعي التّحف والعاملين بها. بشر من مختلف الأنواع... من سيدات عجائز، خرفات، في قفّازات لا أصابع لها ممن يبعن مجوهرات من العهد الجورجي في سوق الأشياء المستعملة إلى أشخاص أثرياء، كأولئك الذين كان وجودهم في بيت آل باربر أمراً معتاداً. (عرفت أن ويلتي قد ساعد الكثير من هؤلاء الناس في بناء مجموعات مقتنياتهم، من خلال تقديم النصح إليهم عن القطع التي يشترونها). وكان القسم الأكبر من أحاديث هؤلاء الناس يجعلني أرى نفسي جاهلاً تماماً (سان سيمون، مهرجان أوبرا ميونيخ؟ كوماراسوامي؟ الفيلا في باو؟)؛ لكن، حتى عندما تكون الغرفة مليئة بأشخاص رسميين، وعندما تكون الصحبة «من الأذكياء»، فقد كانت وجباته دائماً من النوع الذي لا يجد معه الناس غضاضة في خدمة أنفسهم بأنفسهم، أو في الأكل من أطباق يضعها كل منهم في حضنه، على العكس تماماً من المآدب شديدة الانضباط التي كانت تقام دائماً في بيت آل باربر.

والحقيقة أنني، في دعوات العشاء هذه، وعلى الرغم من جاذبيتها كلّها، كنت دائم القلق من مجيء أحد يعرفني من خلال بيت آل باربر.

كان لدي إحساس بالذنب لأنني لم أتّصل بآندي؛ بل إنني شعرت بمزيد من الخجل من احتمال معرفته أنني عدت إلى المدينة من جديد من غير أن يكون لي فيها مكان يؤويني، بالنظر خاصّة إلى تلك الحادثة عندما التقيت أباه في الشارع.

وأيضاً ـ رغم قلّة أهمية الأمر ـ كنت لا أزال غير مرتاح لطريقة ظهوري المفاجئ في بيت هوبي عندما أتيت إليه أول مرة. صحيح أنه لم يروِ أمامي لأحد ـ أبداً ـ كيف ظهرت على بابه (السبب الأول في ذلك هو رؤيته كم كانت استعادة تلك القصة مزعجة لي)، إلا أنه كان قد أخبر الناس بما جرى. لست ألومه على ذلك، فقد كانت قصة جيدة تستحق أن تروى. ذات مرة، قالت لي السيدة ديفريز التي كانت من أصدقاء هوبي المقربين وكانت تتعامل باللوحات المائية العائدة للقرن التاسع عشر، فضلاً عن كونها (على الرغم من ملابسها الصلبة الخشنة وعطرها القوي) شديدة الميل إلى المعانقة والملامسة الودية بالإضافة إلى تلك العادة التي يراها المرء عند السيدات المتقدّمات في السن، عادة الإمساك بذراع من تحدّثه أو التربيت على يده: «أمرٌ حسنٌ تماماً أن تكون قد تعرّفت على ويلتي، لأنه كان، يا عزيزي، مولعاً بالزحام والأماكن العامة. كان يحب الناس والأماكن العامة. يحب الحركة الدائبة فيها. صفقات وسلع وأحاديث وتبادلات. كانت فيه تلك الخصلة الصغيرة التي اكتسبها في القاهرة أيام كان صبياً، وكنت أقول دائماً إنه قادر على أن يكون سعيداً كل السعادة في أن يتجوّل في السوق بشبشبه ويعرض السجاد على الناس. كانت لديه الموهبة اللازمة للمشتغل بالأنتيكا... وكان يعرف ما يناسب كل إنسان. من الممكن أن يدخل متجره شخص لا يعتزم أبداً شراء أي شيء، شخص لعله دخل المتجر لكي يتقي المطر، لكنه يقدم له فنجان شاي، ثم ينتهي الأمر بأن يشحن له إلى مدينة طاولة لغرفة الطعام. أو يدخل طالبٌ للفرجة فقط فيعرض عليه لوحة صغيرة غير غالية الثمن. هل تعرف أن

الجميع كان سعيداً بذلك. كان ويلتي يعرف أن هنالك أشخاصاً كثيرين لا تسمح لهم ظروفهم بالدخول وشراء قطعة كبيرة مهمّة. كان الأمر كلّه متعلقاً بتحقيق التوافق وبالعثور على مُستَقَرٍّ مناسب لكل قطعة».

قال هوبي وهو آت بقدح تشيري للسيدة ديفريز وبكأس ويسكي لنفسه: «نعم، وكان موضع ثقة لدى الناس. كان يقول دائماً إن إصابته هي ما يجعله بائعاً جيداً. وأظنه كان محقّاً في هذا. المُقعد العطوف. لم يكن هجومياً أبداً. كان دائماً كمن يقف في الخارج وينظر إلى الداخل».

قالت السيدة ديفريز وهي تتقبّل كأس الشيري وتربّت على كم هوبي بحركة رقيقة محبة: «آه... لم يكن ويلتي أبداً خارج أي شيء...». كانت ماسات على شكل وردة تلمع على يدها ذات الجلد الشبيه بالورق... «كان محقّاً دائماً، ويضحك تلك الضحكة ولا يتذمّر أبداً. على أية حال يا عزيزي...». قالت هذا وهي تلتفت إليَّ من جديد... «لا ترتكب هذه الغلطة مرة أخرى. كان ويلتي يعرف ما يفعله تمام المعرفة عندما أعطاك ذلك الخاتم. فبإعطائك الخاتم، جعلك تأتي مباشرة إلى هنا، إلى هوبي... ألا ترى هذا؟».

كنت أقول لها: «نعم، صحيح»؛ ثم أنهض وأذهب إلى المطبخ وقد أصابني اضطراب عظيم لسماعي ذلك... لأن الخاتم لم يكن الشيء الوحيد الذي أعطاني إياه.

8

في الليل، في غرفة ويلتي القديمة التي صارت الآن غرفتي، كان قلم ويلتي ونظارته الخاصة بالقراءة لا يزالان في درج المكتب؛ وكنت أرقد مستيقظاً مصغياً إلى أصوات الشارع وإلى حركته. كان يخطر في ذهني خلال وجودي في لاس فيغاس أن أبي أو كساندرا قد لا يدرك حقيقة اللوحة إذا وجدها مصادفة، أو قد لا يعرف حقيقتها على الفور. لكن هوبي سيعرف بالطبع. وعلى نحو متزايد دائماً، صرت أجد نفسي غارقاً

في سيناريوات متخيلة أعود فيها إلى البيت فأجد هوبي في انتظاري حاملاً اللوحة بين يديه ـ «ما هذا؟» ـ لأن ما من سبيل إلى قول كلام فارغ، وما من أعذار، وما من جملة أستطيع إعدادها مسبقاً لمواجهة كارثة من ذلك النوع. صرت، عندما أجثو على ركبتي وأمد يدي تحت السرير لأضعها على غلاف الوسادة (هذا ما كنت أفعله من غير تبصّر على فواصل لا نواظم لها حتى أتأكد من أن اللوحة لا تزال في مكانها)... صرت أفعل ذلك سريعاً ثم أنهض فوراً كمن مسَّ طبقاً حارّاً خرج لتوه من الفرن.

حريق في البيت. دخول رجال الإطفاء. كلمة «إنتربول» مكتوبة بالأحمر في موقع قاعدة بيانات الأعمال الفنية المفقودة. لو اهتم أي شخص بإقامة الصلة الواضحة... كان خاتم ويلتي دليلاً قاطعاً على وجودي في تلك الصالة مع اللوحة. كان باب الغرفة قديماً جدّاً، وكان غير مستقر تماماً على مفصلاته بحيث لا يمكن إغلاقه جيداً؛ فكان عليَّ أن أسنده بثقل حديدي عندما أغلقه. ماذا لو قرر هوبي، بدافع ما لا يمكن توقّعه، أن يصعد إلى الطابق العلوي وينظف غرفهُ؟ أعترف بأن هذا الأمر كان يبدو غير منسجم مع هوبي شارد الذهن الذي لا يبدي كبير اهتمام بالترتيب والتنظيف ـ كتبت لي بيبا ذات مرة: ***لا، هو لا يبالي إن كنت فوضوياً؛ ولم يكن يدخل غرفتي إلا لتغيير الملاءات وإزالة الغبار*** ـ وهذا ما دفعني إلى تجريد سريري من ملاءته على الفور وإلى قضاء خمس وأربعين دقيقة محمومة في إزالة الغبار عن كل سطح في الغرفة ـ تمثالا الغريفون، والكرة الزجاجية ولوحة رأس السرير ـ مستخدماً قميصاً قطنياً نظيفاً. وسرعان ما صارت إزالة الغبار عادة وسواسية عندي... يكفي أنني ذهبت واشتريت لنفسي قطعة قماش خاصة لإزالته على الرغم من وجود كثير منها في بيت هوبي. لم أكن أريد أن يراني وأنا أزيل الغبار؛ وكان أملي الوحيد ألا تخطر كلمة غبار في ذهنه إذا حدث مرة أن أطل برأسه ونظر داخل غرفتي.

لهذا السبب، ولأنني لم أكن أطمئن إلى الخروج من البيت إلا معه،

رحت أمضي أكثر أوقاتي في غرفتي جالساً إلى مكتبي مع استراحات نادرة لتناول الطعام. وعندما يخرج، كنت أذهب معه إلى المعارض الفنية وإلى لقاءات بيع الأثاث في البيوت القديمة، وكذلك إلى غرف العرض والمزادات حيث نقف معاً في الصف الأخير (قال لي مرة عندما أشرت إلى كراسي شاغرة في الأمام: «لا، لا.. يجب أن نكون حيث نستطيع رؤية المشهد كله»). كان في ذلك شيء من الإثارة أول الأمر، تماماً مثلما يكون الأمر في السينما؛ لكني أصير بعد ساعتين فقط مرهقاً كما لو أنني أقرأ في كتاب: «*الجبر، مفاهيم وعلاقات*».

لكن، وعلى الرغم من محاولتي التصرف (بقدر من النجاح) كما لو أنني غير مبالٍ بشيء فأتبعه في أنحاء مانهاتن أينما ذهب كما لو أنني غير مهتم بوجهتنا، فقد كان التصاقي به في الحقيقة منطلقاً من تلك الروح نفسها التي جعلت بوبتشيك (وقد قتلته الوحدة) يسير دائماً خلفي وخلف بوريس في لاس فيغاس. كنت أذهب معه إلى وجبات غداء فاخرة. وأذهب معه إلى جلسات تقييم المقتنيات. وكنت أذهب معه إلى خياطه. وأذهب معه إلى محاضرات عن صانعي خزائن غامضين في فيلادلفيا في العقد الثامن من القرن الثامن عشر، ومحاضرات لا يأتي إليها إلا قلة من الناس. وكنت أذهب معه إلى الأوبرا على الرغم من أن ما يقدَّم فيها كان مضجراً فيتطاول الزمن هناك حتى أصير في خشية من أن أغفو وأسقط في الممر. كنت أذهب معه لتناول العشاء لدى آل أمستيس (في بارك آفنيو، على مقربة مزعجة من بيت آل باربر)، ولدى آل فوغل وآل كراسنو وآل مايلدبرغر حيث تكون الأحاديث مملّة إلى حد يثير الجنون أو تكون أعلى من مداركي فأصير غير قادر على المشاركة بشيء أكثر من قول مممم. («يا للصبي المسكين! لا بد أننا نبدو لك غير مسلّين على الإطلاق»... كانت السيدة مايلدبرغر تقول هذا مبتسمة من غير أن يبدو عليها أي إدراك لمدى صدق كلامها). كان لديه أصدقاء آخرون من بينهم السيد آبرنافي

ـ رجل في سن أبي كانت في ماضيه فضيحة غير واضحة ـ الذي كان شديد الزئبقية، كثير الكلام، وكان يبدي تجاهي قلّة اعتبار واضحة («من أين قلت لي إنك حصلت على هذا الطفل يا جيمس؟»). فكنت أجلس حائراً بين الأنتيكات الصينية والمزهريات الإغريقية راغباً في قول شيء ذكي، لكنني خائف في الوقت نفسه من اجتذاب الانتباه إليّ، فأحس بنفسي معقود اللسان غير قادر على إدراك أي شيء مما يجري. وكنا نذهب مرة أو مرتين، كل أسبوع، إلى السيدة ديفريز في بيتها العامر بالأنتيكات في الشارع رقم ثلاثة وستين (مثل بيت هوبي، لكنه واقع في الضواحي الشمالية)، حيث أجلس على حافة كرسي غير متين محاولاً تجاهل قططها البنغالية المفزعة، التي تغرس مخالبها في ركبتي («إنه مخلوق صغير نشط اجتماعياً، أليس كذلك؟»... سمعتها مرة تقول هذه الجملة من غير اهتمام بخفض صوتها عندما كانا جالسين في الناحية الأخرى من الغرفة يتحدثان عن بعض اللوحات المائية لإدوارد لير). كانت ترافقنا أحياناً إلى العروض التي تسبق المزادات لدى كريستيز وسوذبيز، فيعاين هوبي كل قطعة معاينة دقيقة ويفتح الدروج ويغلقها ويريني مواضع التميز في المهارة الحرفية، ويسجل بقلم رصاص ملاحظات في دفتره. ومن ثم... بعد وقفة أو اثنتين في معرض ما في طريقنا، تعود السيدة ديفريز إلى بيتها، وأما نحن فنذهب إلى مطعم سانت آمبروز حيث يقف هوبي ببدلته الأنيقة عند البار ويشرب الإسبرسو بينما آكل قطعة كرواسان بالشوكولاته وأنظر إلى الأطفال بحقائبهم المدرسية، آملاً ألا أرى بينهم أحداً أعرفه من مدرستي القديمة.

سألني عامل البار عندما ذهب هوبي إلى دورة المياه: «هل تظن أن أباك راغب في فنجان إسبرسو آخر؟».

«لا، شكراً! أظن أننا نريد الفاتورة». كنت أشعر بالنشوة عندما يخطئ الناس فيظنّون هوبي أبي. كان هوبي في سن تسمح له بأن يكون جدّاً لي، لكن شكله كان موحياً بقوة وحيوية تجعله أقرب إلى الآباء الأوربيين

الكبار الذين يراهم المرء في الناحية الشرقية من نيويورك، متأنقين، ممتلئين، مهتمين بأنفسهم، وقد تزوّجوا للمرة الثانية وأنجبوا أطفالاً من زيجاتهم الجديدة عندما صاروا في الخمسين أو الستين من العمر. عندما يقف هوبي في ملابس الذهاب إلى المعارض فيرتشف الإسبرسو ويلقي نظرات وادعة على الشارع، يمكن أن يظنه المرء واحداً من أقطاب الصناعة السويسرية أو صاحب مطعم بنجمة أو نجمتين، بحسب تصنيف مشيلين: وجيه موسر تزوج بعد أن كبر في السن. فكّرت حزيناً عندما عاد حاملاً معطفه على ذراعه: لماذا؟ لماذا لم تتزوّج أمي شخصاً مثله؟ أو لماذا لم تتزوج السيد بريسغيردل؟ لماذا لم تتزوج شخصاً لديها شيء مشترك معه؟... قد يكون أكبر منها سناً، لكنه أنيق وحسن المظهر... شخص يستمتع بالمعارض والموسيقى، ويتجوّل على متاجر الكتب المستعملة... شخص عطوف، مهتم، مصقول ولطيف؟ شخص يقدّرها حق قدرها، ويشتري لها ملابس جميلة، ويأخذها إلى باريس في عيد ميلادها، ويمنحها حياة تستحقّها! لم يكن صعباً عليها أن تجد شخصاً من هذا النوع، لو حاولت! لقد كانت محط إعجاب الرجال: من البوابين إلى المعلمين في المدرسة إلى آباء أصدقائي، بل حتى إلى سيرجيو الذي كان مديرها في العمل (لا أسباب لا أعرفها، كان يدعوها «العصفورة الجميلة»)؛ بل إن السيد باربر نفسه كان على الدوام ينهض سريعاً لتحيتها لحظة وصولها لأخذي بعد أن قضيت الليلة عند آندي. ينهض سريعاً مبتسماً، فيمسّ مرفق ذراعها وهو يقودها إلى الأريكة قائلاً لها بصوت منخفض أنيس: *ألا تريدين الجلوس؟ هل تحبين أن تتناولي شراباً، أو فنجان قهوة، أو أي شيء؟* ثم إنني لم أكن أظن (لم أكن أظن تماماً)، أن مخيّلتي هي ما جعلني أنتبه إلى عينيّ السيد بريسغيردل المدقّقتين عندما نظر إليَّ: كان كأنه يحاول النظر إليها، أو كأنه يبحث في وجهي عن أثر لِطَيفها. لكن حضور أبي كان غير قابل للاجتثاث، حتى بعد موته، ولم تفلح محاولاتي في وضعه خارج

الصورة... كان موجوداً على الدوام: في يدي وفي صوتي وفي مشيتي وفي التفاتاتي السريعة عندما أخرج إلى المطعم مع هوبي... بل إن وضعية رأسي كانت تذكّرني بعادته القديمة في النظر إلى نفسه في أية مرآة يمرّ بها.

9

أجريت امتحانين في شهر كانون الثاني: الامتحان السهل والامتحان الصعب. جرى الامتحان السهل في مدرسة ثانوية في منطقة برونكس... أمهات حوامل، ومجموعة متنوّعة من سائقي التاكسي، وثلّة صاخبة من فتيات شارع *غراند كونكورس* بستراتهن الفرائية القصيرة وأظافرهن اللامعة. لكن الامتحان لم يكن في حقيقة الأمر سهلاً مثلما توقّعت أن يكون؛ فقد تضمّن أسئلة كثيرة عن أمور غامضة متعلّقة بحكومة ولاية نيويورك. وكانت تلك الأسئلة أكثر مما توقّعته بكثير: كم شهراً في السنة يكون المجلس التشريعي في *ألباني* في حالة انعقاد؟ هل من المفترض أن أعرف هذا، بحق الجحيم؟

عدت إلى البيت بالمترو حزيناً مشغول البال. وأما الامتحان الصعب (جرى في غرفة صف مغلقة يسير في الممرّات المفضية إليها آباء وأمهات خائفون؛ وأما في الغرفة نفسها فقد ساد جو التوتر الذي يراه المرء في مباراة للشطرنج). فقد بدا كأنه مصمَّم من أجل أشخاص مهزوزين منقطعين للعلم من مواليد *معهد ماساشوستس للتقنية*. وكان الكثير من الإجابات على أسئلته ذات الخيارات المتعددة متشابهاً إلى حد جعلني أخرج آخر الأمر من غير أن تكون عندي أية فكرة عن مستوى أدائي.

وماذا إذاً؟... هكذا كنت أقول لنفسي وأنا سائر في شارع القناة حتى أعود بالقطار وقد دسست يدي عميقاً في جيبي وتبقّع إبطاي بعرق قاعة الامتحان. قد لا أتمكّن من الالتحاق بالبرنامج الدراسي المخصص للدخول إلى الجامعة... فما أهمية الأمر إذا لم أستطع ذلك؟ كان علي أن أحقّق نتيجة حسنة، بل حسنة جداً، وأن أكون من ضمن الثلاثين بالمئة الأحسن أداء إن كنت آمل في الحصول على أية فرصة.

فرط الثقة بالنفس: عبارة كانت ظاهرة بكل وضوح خلال فترة ما قبل الامتحان، لكنها لم تظهر أبداً خلال الامتحان. كنت في منافسة مع خمسة آلاف متقدّم على ما يقارب الثلاثمئة مقعد دراسي... وإذا لم أنجح، فلست أعرف ما يمكن أن يحدث. لم أكن أتوقع أن أطيق الذهاب إلى *ماساشوستس* والإقامة مع أسرة أونغيرر التي يتحدث عنها السيد بريسغيردل دائماً: مدير المدرسة الطيّب، وفريقه، مثلما يدعو السيد بريسغيردل أفراد الأسرة: الأم وثلاثة أولاد كنت أتخيّلهم مصطفّين كأنهم مرسومون على لوح، كل واحد منهم أطول بقليل من الذي قبله، وعلى وجوههم صف من ابتسامات بيضاء من تحت قبعاتهم المدرسية... أولاد لديهم تلك الدقّة المفرحة... أولاد مثل الذين كانوا يضربوننا، أنا وآندي، في الأيام السيئة الخوالي، ويجبروننا على أكل كتل من التراب. لكن، إذا أخفقت في الامتحان (أو لأكن أكثر دقة، إذا لم يكن أدائي جيداً إلى الحد الكافي لذلك البرنامج) فكيف أستطيع تدبر أموري بحيث أظل في نيويورك؟ من المؤكد أنه عليَّ أن أسعى إلى هدف أكثر قابلية للتحقيق. مدرسة ثانوية معقولة في المدينة تكون لي، على الأقل، فرصة الانتساب إليها. إلا أن السيد بريسغيردل كان شديد العناد والإصرار في ما يتعلق بالمدرسة الداخلية والهواء النظيف وألوان الخريف والسماء ذات النجوم ومباهج حياة الريف («ستويفيسنت! ولماذا تبقى هنا وتذهب إلى مدرسة ستويفيسنت عندما تكون قادراً على الخروج من نيويورك؟ وقادراً على مد ساقيك والتنفس بسهولة أكبر؟ عندما تكون مقيماً مع أسرة؟») هذا ما جعلني أبتعد عن ذكر المدارس الثانوية كلها، بما فيها أفضل المدارس.

قال لي أكثر من مرة: «أعرف ما ستريده أمك لك لو كانت حيّة يا ثيودور. ستريد لك بداية جديدة. خارج المدينة!». لقد كان محقاً، فهذا ما ستريده أمي. لكن، كيف أشرح له كم صارت هذه الرغبات القديمة عديمة الأهمية في ضوء سلسلة الاضطراب وانعدام المعنى التي أعقبت موتها؟

كنت لا أزال غارقاً في أفكاري عندما انعطفت عند الزاوية متّجهاً نحو المحطة وقد أدخلت يدي في جيبي بحثاً عن بطاقة المترو عندما مررت بكشك للصحف، فرأيت عنواناً يقول:

اكتشاف أعمال فنية من المتحف في منطقة برونكس. تبلغ قيمة اللوحات المسروقة ملايين الدولارات.

توقّفت في مكاني على الرصيف، وكان سيل الداخلين إلى محطة المترو والخارجين منها يمر بي من الجانبين. ثم عدت ـ متيبس الحركات لإحساسي بأنني مراقب. كانت ضربات قلبي عنيفة ـ فاشتريت نسخة من الصحيفة. من المؤكد أن قيام طفل في مثل عمري بشراء صحيفة أمر أقل إثارة للارتياب مما كان يبدو لي...!عدوت، فعبرت الشارع، وجلست على واحد من مقاعد الجادة السادسة، وبدأت أقرأ.

تمكّنتِ الشرطة، اعتماداً على معلومات حصلت عليها ـ من اكتشاف واستعادة ثلاث لوحات من بيت في منطقة برونكس ـ واحدة لجورج فان در مين، وواحدة لوايبراند هِندركس، والثالثة لرامبراندت. اختفت اللوحات الثلاث من المتحف بعد الانفجار. تم العثور على اللوحات في غرفة مستودع في علّية البيت. كانت مغلّفة بورق قصديري، ومخبأة وسط مجموعة من الفلاتر الاحتياطية لنظام تكييف الهواء المركزي في المبنى. وقد تم احتجاز اللص وشقيقه وحماة شقيقه (مالكة البيت) في انتظار إطلاق سراحهم بكفالة. إذا أدين الثلاثة بالاتهامات الموجهة إليهم كلّها، فسوف يتلقّون أحكاماً يبلغ مجموعها عشرين عاماً.

كانت مقالة طويلة على امتداد الصفحة كلها، وتشتمل على تواريخ كثيرة ومخططات بيانية. كان اللص واحداً من العاملين الصحيّين في تلك المنطقة؛ وقد تلكأ في الخروج بعد نداء الإخلاء، فأنزل اللوحات الثلاث ولفها بقطعة قماش، ثم أخفاها تحت نقالة قابلة للطي وخرج بها من المتحف من غير أن ينتبه إليه أحد. قال محقّق من مكتب التحقيقات الفيدرالي جرى التحدث إليه من أجل هذه المقالة: «اختيرت اللوحات

من دون معرفة قيمتها: اخطفْ واهربْ! لم يكن ذلك الشخص يعرف أي شيء عن الفن. لم يعرف ما يفعله باللوحات بعد أن أخذها إلى بيته، فاستشار شقيقه ثم قاما معاً بإخفائها في بيت حماة شقيقه من غير علمها، كما قالت». من الواضح أن الشقيقين أدركا بعد البحث على الإنترنت أن لوحة رامبراندت شهيرة إلى حد يجعلهما غير قادرين على بيعها. لقد كانت محاولتهما لبيع واحدة من اللوحتين الأقل شهرة هي ما قاد المحققين إلى ذلك المخبأ في علّية البيت.

لكن سطور الفقرة الأخيرة من المقالة قفزت في وجهي كما لو أنها مطبوعة باللون الأحمر:

وأما في ما يتعلق باللوحات التي لا تزال مفقودة فقد انتعشت آمال المحققين في العثور عليها، وبدأت السلطات الآن التدقيق في عدد من الخيوط المحلية. قال ضابط ارتباط الشرطة بوحدة الجرائم الفنية في مكتب التحقيقات الفيدرالي ريتشارد لونالي: «في حالات سرقة الأعمال الفنية، عادة ما يجري إخراجها من البلاد بسرعة كبيرة. لكن اكتشاف هذه اللوحات في منطقة برونكس يؤكّد احتمال قيام بعض الهواة بسرقة أعمال فنية من المتحف. وهم أشخاص لا خبرة لديهم يسرقون من غير سابق تخطيط ولا يعرفون كيف يبيعون المسروقات أو كيف يخفونها». وقد قال لونالي إن الشرطة تقوم الآن باستجواب عدد من الأشخاص الذين كانوا في مسرح الجريمة، والاتصال بهم، والتدقيق في رواياتهم: «صار واضحاً الآن أن التفكير متجه إلى احتمال أن يكون قسم كبير من اللوحات المفقودة موجوداً هنا في المدينة تحت أنوفنا».

أحسست بالغثيان. نهضت واقفاً ورميت الصحيفة في أقرب سلة قمامة. ثم تجوّلت عائداً عبر شارع القناة بدلاً من الذهاب إلى محطة المترو، ثم تسكّعت في الحي الصيني قرابة ساعة في ذلك البرد الصقيعي: أجهزة إلكترونية رخيصة، وسجادات حمراء كالدم في مداخل معتمة، وتحديق عبر واجهات مغبشة إلى رفوف خشبية عليها بطّات بكينية محمرة، كنت

أقول في نفسي: *خراء، خراء!* بائعو الشوارع بخدودهم المحمرّة برداً متلفعون بملابسهم كأنهم من منغوليا ينادون على بضاعتهم من خلف دخان نيران أوقدوها في علب صغيرة. النائب العام في المقاطعة. مكتب التحقيقات الفيدرالي. معلومات جديدة. *نحن مصممون على متابعة هذه القضايا إلى أقصى حد يسمح به القانون. لدينا ثقة تامة بأن أعمالاً فنية مفقودة أخرى سوف تظهر عما قريب. إن الإنتربول واليونسكو وجِهات فيدرالية ودولية أخرى تتعاون مع السلطات المحلية في هذا الأمر.*

كان ذلك في كل مكان. نشرته الصحف كلّها: حتى الصحف الصادرة بلغة الماندرين كانت تظهر عليها صورة للوحة رامبراندت المستعادة وسط أعمدة من طباعة صينية... كنت أرى تلك الصورة تطل من صناديق فيها خضار لا أعرفها وأسماك على ألواح من جليد.

قال هوبي في وقت لاحق من تلك الليلة عندما جلسنا نتعشى مع آل آمستيس: «أمر مخيف حقاً!». كان حاجباه مقطبين لشدة انزعاجه؛ وما كان قادراً على الحديث عن شيء غير تلك اللوحات المستعادة... «أشخاص يجرون في كل مكان، ومصابون ينزفون حتى الموت، ثم يكون هناك ذلك الشخص الذي ينتزع اللوحات عن الجدران ويحملها إلى الخارج تحت المطر!».

قال السيد آمستيس الذي كان يحتسي كأسه الرابعة من الويسكي مع قطع الثلج: «نعم... لا أستطيع القول إن هذا فاجأني بعد النوبة القلبية الثانية التي أصابت أمي! لا يستطيع العقل أن يصدّق تلك الفوضى التي خلّفها أولئك الحمقى من منظمة بيت إسرائيل. آثار أقدام سوداء على السجادة كلها. ظللنا مدة نعثر على أغطية الحقن البلاستيكية على الأرض؛ وكاد الكلب يبتلع واحداً منها. كما أنهم كسروا شيئاً ما أيضاً... مارثا، كان ذلك شيئاً في خزانة الخزفيات، ما هو؟».

قال هوبي: «اسمع... لا يمكنك أن تجعلني أتذمّر من العاملين

الطبيين. لقد تأثّرت حقاً بحسن أداء أولئك الذين أتونا عندما كانت جولييت مريضة. إنني سعيد لأنهم عثروا على هذه اللوحات قبل أن تصيبها أضرار كبيرة. لو حدث ذلك، لكان في الحقيقة... ماذا بك يا ثيو؟». سألني على نحو شبه مفاجئ فجعلني أرفع رأسي سريعاً عن طبق الطعام... «هل أنت بخير؟».

«آسف، إنني مرهق».

قالت السيدة آمستيس بنبرة لطيفة: «لا عجب في هذا». كانت أستاذة للتاريخ الأميركي في جامعة كولومبيا؛ وكانت هي، لا زوجها، صديقة لهوبي. أما السيد آمستيس فكان الجزء الأقل حظاً في تلك الحزمة. قالت لي: «لقد كان يومك شاقّاً. هل أنت قلق في ما يتعلق بامتحانك؟».

قلت من غير تفكير: «لا، لست قلقاً»؛ ثم ندمت على هذه الإجابة.

قال السيد آمستيس: «أوه، أنا واثق من أنه سيحقّق نتيجة تسمح له بالالتحاق بذلك البرنامج!». ثم وجّه كلامه إليّ... «سوف تلتحق بي». قال هذا بنبرة فيها إيحاء بأن أي غبيّ يستطيع فعل ذلك، ثم عاد يوجّه كلامه إلى هوبي: «إن أكثر برامج الالتحاق المبكر في الجامعة لا يستحق اسمه. أليس هذا صحيحاً يا مارثا؟ كم يُعلون من شأن المدرسة الثانوية! لا بد من بذل جهد كبير للالتحاق بها. وما إن ينجح المرء، حتى تصبح سخيفة! هكذا صارت الأمور بالنسبة إلى التلاميذ في أيامنا هذه... شارك، كن حاضراً، ثم توقّع جائزة. الجميع رابح. هل تعرف ما قاله أحد طلاب مارثا لها؟ قولي لهما يا مارثا. جاءها هذا الولد بعد انتهاء الدرس. كان يريد الحديث معها. لا يجوز القول إنه ولد... إنه طالب جامعي. فهل تعرفون ما قاله؟».

قالت السيدة آمستيس: «هارولد!».

«قال إنه قلق بسبب أدائه في الامتحان، وإنه يريد نصيحتها لأنه... *يعاني صعوبة في تذكّر الأشياء*. فما رأيكم في هذا؟ طالب جامعي في قسم التاريخ الأميركي!... *يعاني صعوبة في تذكر الأشياء*».

قال هوبي بلطف وهو ينهض حاملاً الأطباق: «حسناً... يعلم الرب أنني أجد صعوبة في تذكّر الأشياء أيضاً»؛ ثم حوّل وجهة الحديث في اتجاه آخر.

في وقت متأخر من تلك الليلة، بعد انصراف الضيفين، وبعد أن نام هوبي، بقيت ساهراً في غرفتي أنظر إلى الشارع عبر النافذة منصتاً في الساعة الثانية صباحاً إلى ضجيج الشاحنات القادم من الجادة السادسة، ومحاولاً إقناع نفسي بأن ما من مبرّر لذلك الذعر.

لكن، ما الذي كان بمقدوري فعله؟ لقد أمضيت ساعات على الإنترنت أنتقل سريعاً بين مئات المقالات، كما بدا لي ـ *لوموند*، *ديلي تلغراف*، *تايمز أوف إنديا*، *لا ريبوبليكا*، ولغات ما كنت قادراً على قراءتها. أوردت النبأ كل صحيفة من صحف العالم! إضافة إلى أحكام الحبس، كانت هناك غرامات مدمّرة: مئتا ألف دولار، نصف مليون دولار. بل كان هناك ما هو أسوأ من هذا: سيوجه الاتهام إلى المرأة صاحبة البيت لأن اللوحات قد وجدت في عقار تملكه. كان معنى هذا، على الأرجح، أن هوبي سيواجه المتاعب أيضاً... سيواجه متاعب أكثر كثيراً من متاعبي. كانت تلك المرأة اختصاصية تجميل متعاقدة. وقد زعمت أنها لا تملك أدنى فكرة عن تلك اللوحات الموجودة في بيتها. لكن، هوبي؟! شخص متخصص في الأنتيكات! لا أهمية لحقيقة أنه آواني في بيته بكل براءة انطلاقاً من طيبة قلبه. فمن سيصدق أنه لم يكن على علم بالأمر؟

راحت أفكاري تتدافع في كل اتجاه... *على الرغم من أن هؤلاء اللصوص قد تصرّفوا من غير سابق تخطيط، وليست في سجلّهم سوابق جنائية، فإن انعدام خبرتهم لن يمنعنا من مقاضاتهم وفق القانون.* كان أحد المعلّقين، في لندن، قد أشار إلى لوحتي في معرض حديثه عن لوحة رامبراندت المستعادة فقال: *هذا ما يلفت الانتباه إلى أعمالٍ فنّية أكثر قيمة لا تزال مفقودة، وعلى الأخص لوحة الحسون لفابريتيوس، سنة 1654... لوحة فريدة في حوليات الفن، وبالتالي فهي لا تقدَّر بثمن.*

أزلت سجل البحث في الكمبيوتر، أزلته للمرة الثانية أو الثالثة أو الرابعة. ثم أغلقت الجهاز. وبعد ذلك اندسست في سريري متيبّساً، وأطفأت المصباح. لا يزال لدي كيس الأقراص الذي سرقته من كساندرا. مئات الأقراص من مختلف الألوان والمقاسات. وكلها من مسكنات الألم كما قال بوريس.

لكن، وعلى الرغم من أنها كانت تجعل أبي ينام على الفور في بعض الأحيان، فقد سمعته مرات كثيرة يتذمّر من أنها تبقيه صاحياً طيلة الليل. وهكذا... بعد استلقائي مشلولاً ساعة أو أكثر من ساعة تحت وطأة عذابي وعدم قدرتي على اتخاذ القرار، بعد إحساسي بالتأرجح كأنني مصاب بدوار البحر، وبعد تحديقي الطويل في خطوط من أنوار السيارات تتدحرج عابرة سقف الغرفة، أضأت المصباح من جديد وبحثت عن ذلك الكيس في درج الطاولة الصغيرة واخترت منه قرصين مختلفَي اللون. قرص أزرق، وقرص أصفر، فقد يفلح أحدهما في جعلي أنام إن عجز الآخر.

لوحة لا تقدَّر بثمن! انقلبت فواجهت الجدار. لقد قدّروا ثمن لوحة رامبراندت المستعادة بأربعين مليون دولار. لكن ذلك المبلغ المهول يظل ثمناً!

وفي الشارع، انطلق زعيق سيارة إطفاء قوياً مرتفعاً قبل أن يخبو ويتلاشى في البعيد. سيارات وشاحنات وأزواج يطلقون ضحكات صادحة وهم خارجون من البارات. كنت راقداً في سريري أحاول التفكير في أشياء تهدّئني، كالثلج ونجوم الصحراء، آملاً ألا يكون المزيج الدوائي الذي ابتلعته قاتلاً من غير أن أقصد ذلك. بذلت كل ما استطعته حتى أتشبّث بحقيقة مفيدة مريحة واحدة استخلصتها مما قرأته على الإنترنت: يكاد يستحيل تتبع اللوحات المسروقة إذا لم يحاول الناس بيعها أو نقلها؛ وهذا هو السبب في أن نسبة من يُلقى عليهم القبض من لصوص الأعمال الفنية لا تكاد تتجاوز عشرين بالمئة.

الفصل الثامن

الورشة خلف الورشة ـ تتمة



1

هذا ما بلغه قلقي وخوفي في ما يتّصل باللوحة فكاد يطغى على وصول الرسالة: لقد قُبلت في الفصل الربيعي من برنامج الدراسة الثانوية للالتحاق المبكّر بالجامعة. كانت صدمة وصول هذا الخبر كبيرة إلى حد جعلني أضع المغلف في درج المكتب حيث ظل قابعاً مدة يومين إلى جوار كدس من أوراق كتابة الرسائل التي تحمل الأحرف الأولى من اسم ويلتي، إلى أن استجمعت شجاعتي فمضيت إلى رأس السلم (كان صوت المنشار الحاد آتياً من الورشة، نثار خفيف من نشارة الخشب يتطاير متصاعداً من ورشة العمل) وقلت: «هوبي!».

توقّف صوت المنشار. «لقد قبلوني».

بان وجه هوبي الكبير الشاحب في أسفل السلم. قال لي وهو لا يزال في نشوة العمل... لم يكن كلّه حاضراً بعد... راح يمسح يديه مخلِّفاً أثراً أبيض على مئزره الأسود: «ماذا قلت؟...». ثم تغير تعبير وجهه عندما رأى المغلّف في يدي... «هل هذا ما أتوقعه؟».

ناولته المغلف من غير أن أقول له شيئاً. نظر إلى المغلف، ثم نظر إلي، ثم ضحك ما ظننته ضحكته الإيرلندية... ضحكة خشنة كأنها فوجئت بنفسها.

قال وهو يحل مئزره ويضعه على درابزين السلم: «أحسنت صنعاً! أنا سعيد بهذا. لن أكذب عليك. كرهت التفكير في جعلك تذهب لتكون وحيداً في تلك المدرسة الداخلية. ومتى كنت تريد إخباري بالأمر؟... في أول أيام المدرسة؟».

ما أفظع إحساسي آنذاك!... يا إلهي، كم كان سعيداً! خرجنا إلى عشاء احتفالي ـ أنا وهوبي والسيدة ديفريز في مطعم إيطالي قريب يكافح من أجل البقاء ـ نظرت إلى رجل وامرأة يشربان النبيذ على الطاولة المشغولة الوحيدة الأخرى إلى جانب طاولتنا؛ و... بدلاً من أن أكون سعيداً كما كنت آمل، لم أشعر بشيء غير الخدر والانزعاج العميق.

قال هوبي: «في صحتكما! انتهت المرحلة الصعبة. صرت الآن قادراً على التنفس بسهولة أكبر».

قالت السيدة ديفريز التي ظلّت شابكة ذراعها بذراعي طيلة السهرة وظلت تضغط على يدي ضغطات صغيرة وتزقزق لي مبتهجة: «لا بد أنك سعيد جداً». («تبدين شديدة الأناقة»... هذا ما كان هوبي قد قاله لها عندما قَبّلها على خدها، شعرها الرمادي مرفوع فوق رأسها، وشرائط مخملية تتخلّل حلقات سوارها الماسي).

قال لها هوبي: «إنه مثال للتفاني في العمل!». كان إحساسي تجاه نفسي يصير أسوأ من ذي قبل كلما سمعته يخبر الأصدقاء عن مقدار اجتهادي في الدراسة ويقول لهم إني طالب رائع.

قالت السيدة ديفريز: «حسناً، هذا رائع! ألست مسروراً؟ ثم إنه أنجز هذا في وقت قصير جداً! حاول أن تبدو أكثر سعادة بقليل يا عزيزي...». ثم تحوَّلَت إلى هوبي... «متى تبدأ مدرسته؟».

2

كانت مفاجأة سارة عندما اكتشفت أن برنامج الدراسة للالتحاق بالجامعة، بعد تلك المعاناة من أجل الالتحاق به، لم يكن صعباً بالقدر

الذي خشيته. فمن بعض النواحي، كان برنامج الدراسة ذاك أقل تطلباً من أية مدرسة مررت بها قبله: لا صفوف دراسية مخصصة للطلاب المتفوقين، ولا أحاديث بنبرة فوقية عن شروط القبول في الكليات الجامعية التي تتطلّب اجتياز امتحان SAT أو جامعات «Ivy League»[1]، ولا أعباء تكسر الظهر في الرياضيات واللغات ـ بل الحقيقة أن ما من أعباء ولا متطلّبات على الإطلاق! وبِحيرة متزايدة، صرت أنظر من حولي إلى تلك الجنة المدرسية العجيبة التي دخلتُها من غير أن أعرف عنها شيئاً، فأدركت السبب الذي جعل الكثيرين من تلامذة المدارس الثانوية الموهوبين في مدينة نيويورك كلّها يبذلون ذلك الجهد كله حتى يتمكنوا من الوصول إلى هذا المكان. لم تكن لدينا اختبارات، ولا امتحانات، ولا درجات، بل صفوف ننشئ فيها ألواحاً للطاقة الشمسية ونجلس في ورشات دراسية مع اقتصاديين حائزين على جوائز نوبل. ودروس لا يفعل المرء فيها شيئاً غير الإصغاء إلى تسجيلات *توباك*[2]، أو مشاهدة حلقات قديمة من مسلسل «*توين بيكس*» البوليسي. كان الطلاب أحراراً في ابتكار وتركيب آلات روبوتية أو تسجيل مقاطع عن «تاريخ الألعاب» الخاص بهم، إن هم أحبوا ذلك. وقد كانت لي حرية انتقاء ما يعجبني من الدروس الاختيارية المثيرة للاهتمام التي لا تستلزم عملاً في البيت أكثر من الإجابة على بعض الأسئلة في منتصف الفصل وتقديم مشروع في آخره. لكني كنت أجد صعوبة كبيرة في الإحساس بالسعادة، أو حتى الإحساس بالامتنان لحظّي الطيب على الرغم من معرفتي بأنني كنت محظوظاً حقاً. كان ذلك كما لو أنني تعرّضت لتغير كيميائي في الروح:

---

(1) Ivy League (رابطة اللبلاب): مجموعة من جامعات النخبة في الولايات المتحدة الأميركية، من بينها جامعات كولومبيا وكورنيل وهارفارد وبرينستون وييل.
SAT: امتحان موحّد في الولايات المتحدة من أجل القبول في عدد كبير من الجامعات الأميركية.

(2) توباك شاكور: ممثل ومغني راب أميركي شهير.

كأن توازن تركيبتي النفسية قد انحرف واستنفد الحياة مني في نواحي يستحيل إصلاحها، أو أحدث تحوّلات غير قابلة للعكس، مثلما يصيب شعبة مرجانية حيّة عندما تتصلّب وتتحجّر.

كنت قادراً على فعل ما يتعين عليَّ فعله. وقد فعلت ذلك من قبل: فقدت كل إحساس، وسرت قدماً. كنت أنهض في الثامنة صباحاً، أربعة أيام في الأسبوع، فآخذ دوشاً في حوض الحمام ذي القواعد الأربع في حمام غرفة بيبا (ستارة الحمام المزينة بأزهار الهندباء، ورائحة الشامبو بالفراولة الذي كانت تستخدمه تلفني بضباب خدّاع يجعلني أرى حضورها مبتسماً في كل مكان من حولي). ثم أهبط إلى الأرض فجأة فأخرج من غمامة البخار وأرتدي ملابسي صامتاً في غرفتي. وبعد أن أجرجر بوبتشيك في الشارع قليلاً حيث يندفع هنا وهناك ويزعق خائفاً، أطلُّ على الورشة إطلالة سريعة فأودّع هوبي وأحمل حقيبتي على كتفي وآخذ القطار مسافة محطتين إلى قلب المدينة.

كان القسم الأكبر من التلاميذ يأخذون خمس مواد دراسية أو ست مواد، إلا أني اخترت الحد الأدنى؛ أربعاً فقط: الفنون الجميلة، واللغة الفرنسية، ومدخل إلى السينما الأوروبية، والأدب الروسي المترجم. أردت أن أدخل صف المحادثة باللغة الروسية، لكن المستوى التمهيدي في اللغة الروسية (المادة رقم 101) لم يكن متاحاً قبل الخريف. كنت آتي إلى الصفوف، وأتكلّم عندما يكلمني أحد، وأنجز ما يطلب مني إنجازه، ثم أعود إلى البيت... وكل ذلك ببرودة تلقائية لم أكن أتصنَّعها تصنُّعاً. وكنت آكل أحياناً، بعد الدروس، في مطاعم مكسيكية وإيطالية رخيصة قريبة من جامعة نيويورك فيها صحون بلاستيكية وآلات ألعاب ومباريات رياضية على شاشة تلفزيون كبيرة، وفيها بيرة بدولار واحد في «الساعة السعيدة»، فترة تخفيض السعر (إلا أنني لم أكن أشربها: كان أمراً غريباً أن أستطيع تعديل حياتي باعتباري قاصراً، بل كان شيئاً في مثل غرابة العودة

إلى زمن الأقلام الملونة وحضانة الأطفال). وبعد ذلك، بعد أن أمتلئ سُكّراً من كؤوس سبرايت التي يستطيع المرء إعادة ملئها مجاناً، عدت أدراجي سيراً على الأقدام إلى بيت هوبي عبر حديقة *واشنطن سكوير* مطرقاً برأسي إلى الأرض، وأنا أستمع إلى موسيقى مرتفعة الصوت من الآيبود. كنت أعاني مشكلات كبيرة في النوم نتيجة قلقي (كانت قصة لوحة رامبراندت المستعادة لا تزال في الصحف)؛ وكلما قرع جرس باب هوبي على نحو غير متوقع، أجد نفسي أقفز كما لو أن حريقاً قد اندلع.

قالت سوزانا، الاستشارية المشرفة عليّ في المدرسة (الأسماء الأولى فقط: كلنا زملاء): «أنت مخطئ يا ثيو لأن النشاطات خارج المنهاج الدراسي هي ما يحتاجه التلميذ لكي يصير وضعه قوياً في أية مدرسة في المدينة. وهذا أمر مهم على نحو خاص لطلبتنا الأصغر سناً. من السهل تماماً أن يُضيّع المرء طريقه».

«في الحقيقة...». لقد كانت محقّة: في المدرسة جو من الوحدة! إن من هم في الثامنة عشرة والتاسعة عشرة لا يخالطون من هم أصغر منهم؛ وعلى الرغم من وجود عدد كبير من الطلبة في مثل سني، بل وأصغر (بل كان لدينا أيضاً ولد طويل نحيل في الثانية عشرة يقال إن لديه معدل IQ[1] يبلغ 260)، فقد كانت حياتهم شديدة الهدوء، وكانت اهتماماتهم غبية، غريبة المظهر، كأنهم يتكلّمون لغة مرحلة دراسية سابقة نسيتها تماماً. كانوا يعيشون في بيوتهم، مع أهلهم؛ وكانت تقلقهم أمور من قبيل الخطوط البيانية لدرجاتهم الدراسية، وتعلّم اللغة الإيطالية، والحصول على فترة تدريب صيفية في الأمم المتحدة. كان الذعر يصيبهم إذا أشعل المرء سيجارة أمامهم؛ وكانوا صادقين مخلصين حسني االنيّات، لم يصبهم أذى أو تشوّه، ولا يعرفون شيئاً. فبالنظر إلى ضآلة ما كان مشتركاً بيني وبينهم، كنت أجد صحبتهم تعادل محاولة قضاء الوقت مع أطفال في الثامنة من العمر.

---

(1) IQ: معدل الذكاء.

«أرى أنك أخذت مادة اللغة الفرنسية. يلتقي طلاب النادي الفرنسي مرة في الأسبوع في مطعم فرنسي في فندق *يونيفرسيتي بليس*. وهم يذهبون كل ثلاثاء إلى مركز *آليانس فرانسيز* ليشاهدوا أفلاماً باللغة الفرنسية. يبدو لي أن هذا قد يكون شيئاً ممتعاً لك».

أجبتها: «ربما...».

كلمني أيضاً رئيس قسم اللغة الفرنسية، وكان جزائرياً متقدّماً في السن (فاجأني عندما وضع يده القوية الكبيرة على كتفي، فقفزت في مكاني كما لو أن أحداً هاجمني من الخلف). قال لي، من غير مقدّمات، إنه يقدّم حلقة دراسية، قد أكون راغباً في الانضمام إليها، عن جذور الإرهاب في العصر الحديث. كم كان يزعجني أن المعلمين جميعاً كانوا يعرفون من أنا ويخاطبونني انطلاقاً من معرفة واضحة بـ«*المأساة*» كما سمّتها معلمة السينما، السيدة ليبويتز... «نادني روثي». وقد كانت السيدة ليبويتز أيضاً تلاحقني وتلحّ عليَّ في الانضمام إلى نادي السينما بعد أن قرأتْ مقالة كتبتها عن فيلم «*سارق الدراجات*». كما أشارت أيضاً إلى أنني قد أستمتع بالانضمام إلى النادي الصيفي الذي يقيم مناقشات أسبوعية يتناول فيها ما دعته «أسئلة كبرى». لكني أجبتها بأدب: «ممم، ربما».

قالت لي: «حسناً؛ في ما يتعلق بمقالتك، يبدو لي أنك منجذب إلى *المجال الميتافيزيقيّ* ... لم أستطع العثور على مصطلح أفضل من هذا. أعني أموراً من قبيل أن الأشخاص الطيبين هم من يتعرضون للمعاناة...». ثم تابعت عندما واصلتُ التحديق فيها... «هل القدر أمر عشوائي؟ إن مقالتك لا تتناول كثيراً الجانب السينمائي للمخرج دوسيكا، بل تركّز على الفوضى واللايَقين الجوهريَّيْن في عالمنا».

أجبتها في الصمت القصير المربك الذي تلا ذلك: «لست أدري».

هل كانت مقالتي تتحدّث عن هذه الأشياء؟ بل إنني لم أحب فيلم «*سارق الدراجات*» ولا أفلام كيس، *والنورس*، ولا كومب *لوسيان*، ولا

أي واحد من تلك الأفلام شديدة الكآبة التي كنا نشاهدها في صف السيدة ليبويتز. حدّجتني السيدة ليبويتز بنظرة طويلة جعلتني أشعر بالضيق، ثم عدّلت نظاراتها الحمراء الفاقعة وقالت: «لا بأس... إن معظم ما ندرسه في موضوع السينما الأوروبية صعب وثقيل حقاً. وهذا ما يجعلني أفكر في أن من الممكن أن يكون من المناسب لك أن تنضم إلى واحدة من الحلقات الدراسية، التي نقيمها للطلاب الذين يدرسون السينما كمادة رئيسية. 'كوميديا الجنون' في الثلاثينات، أو ربما حتى '*السينما الصامتة*' . إننا ندرس فيلم د. *كاليغاي*، لكننا ندرس أيضاً الكثير من أعمال بِستر فيتون، والكثير من أفلام تشارلي تشابلن ـ حالة فوضى، كما ترى، لكنها تظلّ ضمن إطار لا ضرر منه. أمور تغني معرفة المرء بالحياة».

قلت: «ربما». لكني لم أكن أعتزم أبداً الإثقال على نفسي، ولو حتى بقصاصة ورق واحدة أضيفها إلى العمل المطلوب مني، مهما تكن تلك الإضافة من طبيعة تُغني معرفة المرء بالحياة. فمنذ لحظة دخولي باب المدرسة، تقريباً، انهارت فورة الطاقة الكاذبة الخدّاعة التي جعلتني أشق طريقي حتى أصل إلى هذا البرنامج الدراسي. لم يكن للعروض التي يغدقها هذا البرنامج أي أثر في نفسي. وما كانت بي أية رغبة لإجهاد نفسي بما يتجاوز كونه ضرورة مطلقة لا بد لي منها. ما كنت أريد شيئاً غير قضاء تلك الفترة وإنهائها بسلام.

وكان من نتيجة ذلك أن حماسة الترحيب الذي تلقّيته من المعلمين سرعان ما بدأت تضمحل، ويحلّ محلها استياء ونوع من أسف غامض غير منطوٍ على أيّ ضغينة شخصية. لم أكن أبحث عن التحدّيات، ولا عن تطوير مهاراتي، ولا عن توسيع آفاقي أو الاستفادة من الموارد الكثيرة المتاحة لي. كان تعبير سوزانا عن حالتي ملطفاً عندما قالت إنني «أتلاءم» مع البرنامج الدراسي، لا أكثر. ومع تقدم الفصل الدراسي وازدياد ميل المعلمين إلى الابتعاد عني وإظهار استيائهم مني، وإن على نحو متدرّج

بطيء («لا يبدو أن الفرص الأكاديمية المتاحة قد أفلحت في حث ثيودور على بذل جهد أكبر في أي اتجاه»)، راح يتزايد شكّي في أن «المأساة» كانت السبب الوحيد لقبولي في هذا البرنامج. لا بد أن أحدهم قد تولّى رمي طلبي في مكتب القبول، ثم إحالته إلى إدارة ما... يا إلهي، هذا الطفل المسكين، ضحية الإرهاب، كذا كذا كذا، إن المدرسة تتحمّل مسؤوليةً هنا. كم مقعداً بقي عندنا؟ هل تظنّون أننا قادرون على إيجاد مكان له؟ كنت شبه واثق من أنني دمرت حياة شخص ذكي، مستحق في منطقة برونكس ـ خاسرٌ تعسٌ صار يعزف على الكلارينيت، ولا يزال يتعرّض للضرب بسبب واجبه البيتي في مادة الجبر... وسوف ينتهي به الأمر إلى العمل مراقباً للتذاكر في كشك على أحد الطرق، بدلاً من أن يصير أستاذاً لميكانيك السوائل في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا... وذلك فقط لأنني أخذت المكان الذي كان يستحقه.

كان واضحاً لي أن غلطة ما قد حدثت. كتب أستاذ اللغة الفرنسية في تقرير لاذعِ النبرة عند منتصف الفصل: «إن مشاركة ثيودور في الصف قليلة جداً. والظاهر أنه غير راغب أبداً في زيادة اهتمامه بدراسته إلا بالقدر الضروري ضرورة مطلقة. آمل أن تخلق لديه إخفاقاته دافعاً لإثبات نفسه بحيث يستطيع الاستفادة من وضعه خلال النصف الثاني من الفصل الدراسي».

لم يقرأ التقرير أحد غيري بسبب عدم وجود شخص كبير يراقب أدائي المدرسي عن كثب. لكني ما كنت راغباً في الاستفادة من وضعي؛ وكنت أقل من ذلك رغبة في إثبات ذاتي. كنت أجوب الشوارع كأنني شخص فقد ذاكرته (بدلاً من اهتمامي بإنجاز واجباتي البيتية، أو ذهابي إلى مختبر اللغة، أو الانضمام إلى أي نادٍ من النوادي التي دعيت إليها)، وكنت أذهب بالمترو حتى آخر محطة من كل خط حيث أتجوّل وحيداً بين المتاجر وصالونات تصفيف الشعر. لكني سرعان ما فقدت اهتمامي حتى بهذه

القدرة على التنقل التي اكتشفتها مؤخراً ـ مئات الكيلومترات على السكة الحديدية، ذاهباً لمجرد الذهاب! بدلاً من ذلك، صرت كأنني حجر يغرق في ماء لا قرار له، فبدأت أنسى نفسي في أعمال بليدة في قبو هوبي، في ذلك النعاس اللطيف تحت الرصيف حيث كنت معزولاً عن صخب المدينة وعن ناطحات السحاب وأبراج المكاتب التي تلامس السماء، فأنكبُّ سعيداً على تلميع سطوح الطاولات، والإصغاء إلى الموسيقى الكلاسيكية على محطة WNYC على مدى ساعات لا نهاية لها.

فبعد كل حساب، ما الذي يهمني في صيغة *«الماضي المركّب»* في اللغة الفرنسية، أو في أعمال تورغينيف؟ وما المشكلة إن كنت راغباً في النوم حتى ساعة متأخرة طامراً رأسي تحت اللحاف، أو في التجوّل في ذلك البيت الهادئ بدروجه العتيقة الممتلئة أصدافاً بحرية، وبسلاله المصنوعة من قصب مجدول فيها قطع قطنية من أقمشة التنجيد مخزنة تحت طاولة الردهة... هناك حيث تغرب الشمس ملقية ضياء أحمر شرساً كالمرجان عبر فتحة التهوئة فوق الباب؟ قبل انقضاء زمن طويل، موزعاً بين المدرسة والورشة، انزلقت إلى نوع من نعاس ذاهل... نسخة حلمية معوجّة من حياتي السابقة عندما كنت أسير في شوارع ألفتها، على الرغم من عيشي ظروفاً لم آلفها بين وجوه مختلفة. وفي سيري إلى المدرسة، غالباً ما كنت أفكر في حياتي المفقودة مع أمي ـ محطة *شارع القنال*، وأكاليل زهور منارة في السوق الكوري... كان ذلك كما لو أن ستارة سوداء قد أسدلت على حياتي في لاس فيغاس.

لكن ذكرى تلك الحياة كانت تعود إليَ أحياناً في لحظات تأتي من غير انتظار على شكل اندفاعات مجنونة تجعلني أتوقّف حائراً على الرصيف. على نحو ما، ينكمش الحاضر فيصير مكاناً أصغر حجماً وأقل أهمية. لعل ذلك لأنني صحوت بعض الشيء، وما عادت كبيرة الأهمية عندي تلك البقية المزمنة من الجنون والروعة عندما كنا مراهقَيْن متوهّجَيْن

ثمليْن، عندما كنا قبيلة صغيرة من محاربَيْن اثنين تجوس الشوارع. لعل هذا ما يحدث عندما يكبر المرء قليلاً! لكني لم أكن قادراً أبداً على تخيل بوريس (في وارسو، أو في كارني والاغ، أو غينيا الجديدة، أو في أي مكان)، يعيش حياة رزينة تسبق النضج على غرار الحياة التي وجدت نفسي قد سقطت فيها. كثيراً ما كنا نتحدّث مسحورَين، أنا وآندي (بل حتى أنا وتوم كيبل)، عمَّ سنصيره عندما نكبر. وأما مع بوريس، فكنت أحس بأن عقله غير قادر على التعامل مع مستقبل يتجاوز الوجبة التالية. وما كنت أستطيع تخيّله يستعد بأية طريقة لكسب العيش أو لأن يكون عضواً منتجاً في المجتمع. لكن الوجود مع بوريس كان يعني معرفة أن الحياة مليئة بإمكانات واحتمالات سخيفة كبيرة... أكبر من أي شيء يعلّمونه في المدرسة. كنت قد أقلعت منذ زمن بعيد عن محاولة الاتصال به أو كتابة الرسائل النصّية له: لم تأتني أية إجابة على الرسائل التي بعثتها على هاتف كوتكو. وقد قُطع هاتف بيته في لاس فيغاس. وبالنظر إلى مجال حركته الواسع، لم أتخيّل أن من المحتمل أن أراه مرة أخرى. لكني كنت أفكر فيه كل يوم تقريباً. كانت الروايات الروسية التي لا بد لي من قراءتها من أجل المدرسة تذكّرني به؛ الروايات الروسية وكتاب «*أعمدة الحكمة السبعة*»، وكذلك المنطقة الجنوبية الشرقية من المدينة ـ صالونات للوشم، ومحلات فطائر البيروبي، ورائحة دخان الماريغوانا في الهواء، وسيدات بولنديات متقدّمات في السن يتمايلن من جانب إلى آخر وهن يسرن حاملات أكياس البقالة، وأطفال يدخنون في مداخل البارات على امتداد الجادة الثانية.

وكنت أتذكر أبي أيضاً ـ أحياناً، من غير توقّع، بحدةّ تكاد تكون مؤلمة. كان الحي الصيني يذكّرني به... لمحاته الخاطفة وغرابة مزاجه وطباعه الزلقة صعبة القراءة: مرايا وأحواض لأسماك الزينة، وواجهات متاجر فيها زهور بلاستيكية، وأصص من البامبو. كنت أسير أحياناً إلى *شارع*

القنال حتى أشتري لهوبي التربنتين الفينيسي ومسحوق تلميع الأخشاب من متجر «*بيرل بينت*»، فينتهي بي الأمر إلى أن أجد نفسي سائراً في شارع *مالبري* إلى مطعم كان أبي يحبّه، غير بعيد عن محطة القطار... ثماني درجات مؤدّية إلى قبو فيه طاولات متسخة من الفورمايكا حيث أشتري فطائر البصل الأخضر المقرمشة، واللحم المفروم المتبّل. وطبعاً، كان عليَّ أن أشير إليهما لأن قائمة الطعام مكتوبة باللغة الصينية. عندما وصلت إلى بيت هوبي أول مرة حاملاً أكياساً ورقية تفشَّت بقع الزيت عليها، جعلتني نظرته التي كانت من غير أي تعبير أتجمّد في مكاني، فبقيت واقفاً وسط الغرفة كأنني شخص يسير في نومه أيقظه شيءٌ ما في منتصف حلم، فراح يتساءل عما كان يفكّر فيه... بالتأكيد، لم يكن هوبي شخصاً يشتاق إلى الطعام الصيني في أي وقت من النهار والليل.

قال هوبي متعجّلاً: «أوه، إنني أحب هذا! لكنّه لا يخطر في بالي أبداً». فجلسنا في الأسفل، في الورشة، ورحنا نأكل من الأكياس مباشرة. كان هوبي جالساً على كرسي من غير ظهر مرتدياً مئزر العمل الأسود، وقد طوى كمَّيه حتى مرفقيه، وبدا عودا الأكل الصينيان صغيرين بين أصابعه.

3

كانت الطبيعة غير الرسمية لإقامتي في بيت هوبي مصدر قلق إضافي عندي. فعلى الرغم من أن هوبي نفسه، بطيبته وميله الضبابي إلى الإحسان، لم يبدِ أية ممانعة لوجودي في بيته، فقد كان من الواضح أن السيد بريسغيردل كان يرى في ذلك ترتيباً مؤقتاً؛ وقد بذل جهداً كبيراً، وكذلك فعل الاستشاري النفسي في مدرستي، لكي يوضح لي أن من الممكن (في حالتي)، تأمين مكان لسكني في مهاجع الطلبة، على الرغم من كونها لا تستقبل عادة إلا من هم أكبر سناً. لكني كنت ألتزم الصمت كلما طُرح موضوع ترتيبات معيشتي وأصر على النظر إلى حذائي. كانت غرف الإقامة في المدرسة مزدحمة، فيها ذباب كثير، وفيها مصعد شبكي

رسم عليه الطلبة رسوماً جدارية كثيرة؛ وكان ذلك المصعد يقرقع كأنه مصعد في سجن: جدران غطّتها ملصقات الفرق الفنية، وأرضيات دبقة لكثرة البيرة التي تسفح عليها، وجمع من الأولاد المأخوذين (كأنهم من الزومبي) ينعسون ملتفّين ببطانياتهم على الأرائك في صالة التلفزيون، إضافة إلى شباب مهملي المظهر نبت شعر وجوههم، يقذف بعضهم بعضاً بعلب مشروبات فارغة من سعة أربعين أونصة ـ كانوا رجالاً كباراً في نظري، وكانوا شباباً مخيفين تجاوزوا العشرين من أعمارهم. «حسناً، أنت لا تزال صغير السن بعض الشيء»... هذا ما قاله لي السيد بريسغيردل عندما حوصرت فعبّرت عن تحفّظاتي، على الرغم من أن السبب الحقيقي لتلك التحفّظات كان أمراً لا أستطيع مناقشته، فكيف لي (بالنظر إلى ظروفي) أن أستطيع العيش مع شركاء في الغرفة؟

«ماذا عن أماني، وماذا عن أنظمة إطفاء الحريق؟ ماذا عن السرقات؟ ورد في الكتيب الإرشادي الذي أعطوني إياه: «*المدرسة غير مسؤولة عن ممتلكات الطلاب الشخصية. ونحن ننصح بأن يستخرج الطالب بوليصة تأمين في المهجع على ممتلكاته القيّمة التي يمكن أن يأتي بها إلى المدرسة*».

وفي غمرة قلقي، رميت بنفسي رمياً في مهمة خلاصتها أن أصير مفيداً لهوبي على نحو يجعل استغناءه عني أمراً صعباً: تنظيف فَراشي الطلاء، والذهاب لقضاء بعض أشغاله في الخارج، ومساعدته في تسجيل أعمال الاستصلاح التي يقوم بها، وترتيب المستلزمات وقطع الخزائن الخشبية القديمة. فبينما يكون عاكفاً على حني أضلاع ظهور الكراسي وخراطة قوائم جديدة لها تماثل قوائمها القديمة، كنت أذيب شمع النحل مع الصمغ على الموقد لاستخدام هذا المزيج في تلميع الأثاث: ستة عشر جزءاً من شمع النحل، وأربعة أجزاء من الصمغ، وجزء واحد من تربنتين فينيسيا... خليط كثيف، لزج، نافذ الرائحة، دبق كالحلوى، بحيث يصعب تحريكه

في القدر. وسرعان ما بدأ يعلّمني كيف أبسط لوناً أحمر على أرضية بيضاء من أجل التذهيب: ينبغي دائماً دلك البقع التي تمسها الأيدي عادة بمقدار من الصباغ الذهبي، ثم يوضع شيء من الصباغ الداكن مع قليل من السخام على مواضع الفجوات والدعائم الخلفية. («يكون التعتيق على الدوام واحداً من أكبر المشكلات في أية قطعة. وفي حالة الخشب الجديد، تكون طبقة التعتيق المذهَّبة أسهل الحلول إذا كنت تريد إعطاء القطعة مظهر القِدم»). وإذا ظلّ التذهيب ضاجّاً فجّ المظهر بعد الغسل بماء السخام، فقد علّمني هوبي أن أحدث فيه «ندوباً» باستخدام رأس دبوس ـ خدوش خفيفة غير منتظمة لها أعماق متفاوتة ـ وبعد ذلك يجب تطبيق ضغط خفيف عليها باستخدام حلقة مفاتيح قديمة قبل أن يسلط عليها تيار هوائي حتى يخبو اللمعان الذهبي. مسح جبهته بظهر معصمه وقال موضحاً: «في حالة القطع التي أجريت لها عملية استصلاح شاملة، حيث لا تظهر مناطق مهترئة أو عيوب ملحوظة، يكون عليك أن تضيف بنفسك بعضاً منها. اللعبة في الأمر هي أن النتيجة لا يجوز أبداً أن تكون أكثر لطفاً مما ينبغي لها أن تكون». وقد كان يعني باللطف «الانتظام». فأي اهتراء منتظم أكثر مما ينبغي يكون خداعاً مكشوفاً! صرت أرى من القطع الأصلية التي تمر بين يدي أن القِدم الحقيقي يكون متبايناً على الدوام، ويكون معوجّاً، متغيّراً، مرحاً هنا، متجهّماً هناك: خطوط حارّة غير متناظرة على خزانة من خشب الورد تكون دليلاً على أن الشمس كانت تصيب الخزانة من تلك الناحية، بينما نجد الخشب في الناحية الأخرى داكناً كما كان يوم قَصّه. قال لي وهو يتراجع خطوة إلى الخلف بينما كنت أمرّ بإصبعي على سطح خشن عكر المظهر لصندوق من خشب الماهوغاني: «ما الذي يعتّق الخشب؟ أي شيء تريده؟ الحرارة، والبرد، وسخام الموقد، ووجود قطط كثيرة في البيت... أو هذا الشيء. ما الشيء الذي تحسبه قد أتلف هذا السطح؟»

«يا إلهي...». انحنيت لأنظر إلى ذلك الموضع المسوَدّ الدبق كأنه قشرة فطيرة احترقت في الفرن فصارت غير قابلة للأكل... منطقة تبدو متشظّية، محطّمة، بالمقارنة مع بريق السطح النقي الغني من حولها».

ضحك هوبي وقال: «إنه رذاذ تثبيت الشعر. عشرات السنين. هل تستطيع تصديق هذا؟». كشط الحافة بظفر إبهامه حتى انقشرت عنها نسالة سوداء... «كانت صاحبته الجميلة تستخدمه طاولة للزينة. وعلى مر السنين، تراكم هذا الرذاذ حتى صار كأنه طبقة من اللكر. لست أدري ما يضعونه في تلك المنتجات؛ لكن إزالتها كابوس حقيقي، خاصة إذا كانت القطعة من فترة الخمسينات والستينات. لو لم تتعرّض الطبقة الخارجية لهذا التلف، لكان الصندوق قطعة مهمة حقاً. لا نستطيع أن نفعل شيئاً غير تنظيفه من الأعلى حتى يظهر الخشب من جديد. وقد نضيف عليه طبقة شمع خفيفة. لكنه شيء قديم جميل، أليس كذلك؟». قال هذا بنبرة دافئة وهو يمر بإصبعه على جانب الصندوق... «انظر إلى انحناءة ساقه وإلى عروقها، انظر إلى شكلها... هل ترى هذه الأزهار المتفتحة هنا وهنا؟ كم اهتم صانعه بالموافقة بينها!».

«هل ستفكّكه؟». على الرغم من أن هوبي كان ينظر إلى تفكيك قطع الأثاث باعتباره خطوة غير مرغوب فيها، فقد كنت أحب الدراما الجراحية التي تنطوي عليها عملية تفكيك قطعة من القطع ثم إعادة تركيبها ـ نعمل مستعجلين قبل أن يجفَّ الصمغ كأننا طبيبان جرّاحان يحاولان إنجاز استئصال الزائدة الدودية على متن سفينة بأقصى سرعة ممكنة.

أجابني وهو ينقر على الخشب بأصابعه وقد وضع أذنه عليه: «لا، يبدو الخشب بحالة جيدة جداً. لكن سكة الدرج متضررة قليلاً...». قال هذا وهو يسحب أحد الدروج فيصدر صريراً مرتفعاً ثم يعلّق... «هذا ما يحدث عندما يكون الدرج مزدحماً إلى أقصاه بسقط المتاع». جذب الدرج فأخرجه ووجهه يتلوّى لسماع زعيق الخشب على الخشب...

«سوف نصحّح وضع هذه، ونسحج المواضع التي صار فيها انحناء. هل رأيت هذه الاستدارة؟ الطريقة الأفضل لتصحيحها هي توسعة الأخدود الذي تنزلق فيه السكة ـ ستصير أكثر عرضاً، لكني لا أظننا في حاجة إلى فك تعشيقات السكة القديمة. هل تتذكّر ما فعلناه بتلك القطعة المصنوعة من خشب البلوط... لكن، تماماً...». مر بإصبعه على امتداد الحافة... «خشب الماهوغاني مختلف بعض الشيء، وكذلك خشب الجوز. تفاجئني رؤية كيف يسحجون الخشب أحياناً في مواضع لا تسبب أية مشكلة في حقيقة الأمر. عندما تتعامل مع خشب الماهوغاني خاصة، وهو خشب كثيف العروق، خشب الماهوغاني القديم تحديداً، لا يجوز أن تسحجه إلا إذا كنت مضطراً إلى ذلك اضطراراً مطلقاً. ضع على السكك قليلاً من شمع البارافين، وسوف تصير في حالة جيدة».

4

وهكذا مر الزمن. كانت الأيام متشابهة إلى حد جعلني لا أكاد أحس بمرور الشهور. تحول الربيع إلى صيف: رطوبة وروائح قمامة، وشوارع امتلأت بشراً، وتفتحت براعم أشجار الجنة عن أوراق داكنة ممتلئة؛ ثم تحوّل الصيف إلى خريف حزين بارد. كنت أمضي الليالي في قراءة «يوجين *أونيجين*»، أو في تصفّح كتب الأثاث الكثيرة التي كانت كتب ويلتي (كتابي المفضل: عمل قديم في جزأين اسمه *«أثاث تشيبنديل: الأصيل والزائف»*)، أو في قراءة كتاب جانسون الضخم الوافي: *«تاريخ الفن»*. وعلى الرغم من أنني كنت، في بعض الأحيان، أعمل مع هوبي في القبو ست ساعات أو سبع ساعات متواصلة لا نكاد نتكلّم خلالها، فإنني لم أشعر يوماً بالوحدة في ظل عطفه ورعايته: شخص كبير (غير أمّي)، قادر على أن يكون عطوفاً ومتفهماً إلى هذا الحد، أن يكون موجوداً معي كلّه... هذا ما كان يدهشني! وأما فارق السن الكبير بيننا فقد جعل كلاً منا يخجل من الآخر؛ فكان هنالك قدر من الحرص على الشكليات، من

التحفّظ النابع من اختلاف الأجيال؛ إلا أن طريقة للتواصل في الورشة قد نشأت بيننا، فكنت أناوله المسحج أو الإزميل الذي يريده حتى قبل أن يطلبه مني. كان لديه تعبير مختصر يستخدمه للإشارة إلى رداءة الصنع وإلى الأشياء الرخيصة عامة: «*ملصق بالإيبوكسي!*»، كان قد جعلني أرى عدداً من القطع الأصلية التي ظلت نقاط التثبيت فيها متماسكة مئتي سنة، أو أكثر؛ في حين كانت مشكلة كثير من الأعمال حديثة الصنع هي المبالغة في شدّ أجزائها وإلصاقها بقوة شديدة بحيث لا يبقى للخشب حيز للتنفس فيتشقق. «تذكّر دائماً أن الشخص الذي نعمل من أجله حقّاً هو ذلك الذي سوف يعيد استصلاح القطعة بعد مئتي سنة من الآن. إنه من نريد إثارة إعجابه». وكلما عاد تجميع قطعة أثاث بالغراء، يكون عملي تحضير المَلازم والمقامِط المناسبة، وفتح كل منها بالمقدار الصحيح بينما يضع كل جزء قبالة الجزء الذي يرتبط به ـ استعدادات مضنية قبل وضع الغراء وتثبيت المَلازم عندما يكون علينا أن نعمل بأقصى سرعة، وننجز العمل في دقائق معدودة قبل أن يجف الغراء. تصير يدا هوبي كيدَيْ جرّاح، ويلتقط بنفسه القطعة الصحيحة عندما أرتكب غلطة ما، ويكون عملي في المقام الأول أن أمسك الجزأين معاً ريثما يضع الملزمة. (لم يكن الأمر مقتصراً على الملازم المعتادة على شكل حرف G للمراجعة أو على شكل حرف F. فقد كنا نستخدم معها مجموعة غريبة من أشياء يحتفظ بها في متناول يده من أجل هذه الغاية، كنوابض الفراش، ومشابك الملابس، وطارة تطريز قديمة، والأنبوب الداخلي لعجلة دراجة، وكذلك أكياس رمل ملوَّنة ـ لاستخدامها أثقالاً ـ أكياس من قماش قطني، ومعها مجموعة متنوعة أخرى من أشياء مختارة، من بينها مصدات أبواب قصديرية قديمة، وكتل من حديد الصب. وعندما لا يكون في حاجة إلى من يساعده، أجد نفسي مهتماً بكنس نشارة الخشب وإعادة الأدوات إلى أماكنها... وأما عندما لا أعثر على شيء آخر أفعله، فقد كنت أكتفي بالجلوس والنظر

إليه وهو يشحذ الأزاميل أو يثني الخشب على البخار فوق قِدر ماء يغلي على الموقد. كتبت لي بيبا: ***يا إلهي، الرائحة بشعة في الأسفل. الأبخرة فظيعة، فكيف تحتملها؟*** لكني أحببت تلك الرائحة ـ رائحة سامّة تنعشني ـ وكذلك أحببت ملمس الخشب العتيق تحت يدي.

5

خلال هذا الوقت كله، كنت أتابع أخبار أصدقائي سارقي اللوحات الفنية في برونكس. اعترفوا كلهم بالذنب ـ الحُماة أيضاً ـ وتلقوا أشد ما يسمح به القانون من أحكام: غرامات بلغت مئات آلاف الدولارات، وأحكام بالحبس تراوحت من خمس سنين إلى خمس عشرة سنة من غير إمكانية لإطلاق سراح المحكوم بكفالة. بدا لي من النظرة العامة إلى قصتهم، أنه كان من الممكن أن يواصلوا حياتهم السعيدة في موريس *ها*يتس يأكلون وجبات إيطالية عائلية ضخمة على العشاء في بيت أمهم، لو أنهم لم يقدموا على محاولة بيع لوحة هاي براند هندريكس لدى تاجر لوحات ما كان منه إلا أن اتصل بالشرطة على الفور.

لكن هذا لم يهدّئ قلقي. ففي أحد الأيام، عدت من المدرسة فوجدت الطابق العلوي ممتلئاً دخاناً، ورأيت رجال إطفاء يعملون في الممر عند غرفتي. قال هوبي الذي بدا لي شاحباً متسع العينين وهو يتجوّل في البيت بمئزر العمل وقد وضع نظارة حماية العينين فوق رأسه كأنه عالم مجنون: «فئران! لا أطيق استخدام المصائد الصمغية لأنها عملٌ وحشيّ؛ وقد أجّلت رش البيت بمواد سامة... لكن، يا إلهي، هذا فظيع... لا يصح أن أترك الفئران تقضم الأسلاك الكهربائية، فقد كان من الممكن أن يحترق البيت كله لولا جهاز إنذار الحريق. انظروا...». قال مخاطباً رجال الإطفاء... «هل من الممكن أن أجعله يأتي إلى هنا؟ عليك أن ترى هذا...». سار متجنّباً معدات الإطفاء، ثم وقف وأشار إلى مجموعة هياكل عظمية لفئران تجمعت تحت ألواح الأرضية... «انظر إلى هذا!

عش فئران كامل!». صحيح أن بيت هوبي كان مزوداً بأجهزة إنذار كاملة، لا من أجل الحريق فقط، بل من أجل السرقة أيضاً. وصحيح أن الحريق لم يسبب أي ضرر حقيقي باستثناء أحد ألواح أرضية الممر، لكن الحادثة هزّتني هزّاً عنيفاً (ماذا لو أن هوبي لم يكن في البيت؟ وماذا لو أن الحريق بدأ في غرفتي؟) استنتجت من وجود هذا العدد الكبير من الفئران في مساحة قدمين مربعين من الأرضية أن هذا يعني وجود المزيد في أماكن أخرى، مع مزيد من الأسلاك الكهربائية المقضومة. تساءلت إن كان عليَّ أن أنصب بعض الأفخاخ بنفسي على الرغم من أن هوبي يكرهها. اقترحت عليه أن يأتي بقطة، فرحَّب بالاقتراح، وكذلك رحَّبت به السيدة ديفريز التي تحب القطط كثيراً. وعلى الرغم من الموافقة على الاقتراح فإنه لم ينفَّذ؛ وسرعان ما غرق في النسيان. وبعد أسابيع من ذلك، تماماً عندما هممت بطرح موضوع القطة من جديد، كدت أفقد الوعي لشدة ذعري عندما دخلت غرفتي فوجدته راكعاً عند السرير. رأيته يمد يده كما لو أنه يمدها تحت السرير، لكنه كان يلتقط مشرطاً عن الأرض. لقد كان يستبدل لوح الزجاج المتشقق في أسفل نافذة غرفتي.

قال هوبي وهو ينهض واقفاً وينفض الغبار عن ساق بنطلونه: «أوه، مرحباً! آسف! لم أقصد إخافتك! كنت أفكر في استبدال لوح الزجاج هذا منذ يوم وصولك. من الطبيعي أنني أحب استخدام زجاج مموَّج من أجل هذه النافذة القديمة، زجاج *بندهاي*، لكني لا أرى مشكلة في وضع بضع قطع من الزجاج الشفاف... ماذا، انتبه... هل أنت بخير؟». قال الكلمات الأخيرة عندما أسقطت حقيبتي المدرسية من يدي، وألقيت بنفسي جالساً في الكنبة كأنني جندي عائد من ساحة معركة مصاباً بالصدمة لشدة الانفجارات.

لكنها كانت ألعاباً نارية، لا أكثر... على حد تعبير أمي. لم أعرف ماذا أقول. فعلى الرغم من أنني كنت منتبهاً تماماً إلى الطريقة الغريبة

التي ينظر بها إليَّ أحياناً، وعلى الرغم من ثقتي من أنني أبدو مجنوناً في نظره، فقد كنت غارقاً في ضجيج داخلي يلفّني كأنه ضباب: أجفل كلما قرع أحدهم جرس الباب، وأقفز في مكاني كما لو أن ماءً حاراً أحرقني عندما يرن الهاتف؛ ويأتيني شيء يشبه صدمة كهربائية «إحساس داخلي» يرغمني على النهوض من مقعدي ـ في منتصف الدرس ـ والعودة سريعاً إلى البيت حتى أتأكد من أن اللوحة لا تزال في غلاف الوسادة، ومن أن أحداً لم يعبث بها ولم يحاول قص الشريط اللاصق. وعلى الكمبيوتر، كنت أبحث في الإنترنت عن القوانين ذات الصلة بالسرقات الفنية؛ إلا أن الشذرات التي عثرت عليها كانت سطحية كلها ولم تزوّدني بما يسمح لي بتكوين نظرة شاملة حول الأمر. ثم، وبعد أن مضت على إقامتي في بيت هوبي ثمانية شهور لم يحدث فيها شيء، ظهر لي حل لم يكن متوقعاً.

كنت على علاقة طيبة بعمال النقل والتخزين الذين يستعين بهم هوبي. كان أكثرهم من إيرلنديي نيويورك: شباب ثقيلو الحركة، طيبو القلوب لم يتمكّنوا من الالتحاق بالشرطة أو بدائرة الإطفاء... مايك وشون وباتريك وفرانك الصغير (لم يكن صغيراً على الإطلاق!... كان بحجم البراد). وكان من بين العمال أيضاً شابان من إسرائيل، رافيف وآفي، ويهودي روسي اسمه غريشا. كان غريشا الشخص المفضل عندي من هذه المجموعة كلها. (قال لي غريشا وهو يطلق سحابة كبيرة من دخان بنكهة النعنع: «إن في عبارة ' *يهودي روسي* ' تناقضاً في المصطلحات... في الذهنية الروسية على أقل تقدير. وهذا لأن ' *اليهودي* ' في العقل المعادي للسامية لا يمكن أن يكون روسياً حقيقياً ـ إن لروسيا سمعة سيئة في هذا المجال»). كان غريشا من مواليد مدينة سيفاستوبول؛ وكان يزعم أنه يتذكرها («ماء أسود، وملوحة»)، على الرغم من أن والديه هاجرا إلى الولايات المتحدة عندما كان في الثانية من عمره. كان أشقر الشعر، أحمر الوجه، له عينان كعيني طائر أبي الحناء الحذرتين؛ وكان وجهه منتفخاً

لكثرة الشرب، فضلاً عن كونه مهملاً في ملابسه إلى حد أنه يترك أحياناً أزرار قميصه السفلية مفتوحة. لكنه كان يتصرّف ويتحرّك بعفوية تجعل المرء يراه حسن المظهر بعض الشيء (لعله كان حسن المظهر فعلاً ذات يوم، فمن يدري؟). وعلى خلاف السيد بافليكوفسكي ذي الوجه الحجري، كان غريشا محباً للكلام، يروي آنِكدوتي[1] كثيرة بنبرة نارية سريعة مضحكة. قال لي بطيبة قلب ونحن جالسان إلى رقعة شطرنج في زاوية الورشة، حيث اعتاد هوبي أن يجلس أحياناً ليلعب بعد الظهر: «أتظن أنك تعرف الشتائم الروسية يا *ماجور*؟[2] هيا إذاً. أطرِب أذنيَّ!». فما كان مني إلا أن أطلقت سلسلة طويلة من شتائم مقذعة جعلت هوبي ـ الذي لم يفهم كلمة مما قلته ـ يميل إلى الخلف ضاحكاً وقد سد أذنيه بيديه.

وفي ما بعد ظهر يوم كئيب، بعد فترة قصيرة من بداية أول فصل خريفي لي في المدرسة، كنت وحدي في البيت عندما أتى غريشا لإيصال بعض قطع الأثاث. قال لي وهو ينقف عقب سيجارته بعيداً بسبابته وإبهامه المليئين بالندوب: «مرحباً يا *ماجور*...». كانت كلمة *ماجور* واحدة من الأسماء الساخرة الكثيرة التي يطلقها عليّ... «ألا تريد أن تكون مفيداً؟ تعال وساعدني في إدخال هذه النفايات التي في الشاحنة». عند غريشا كان الأثاث كله نفايات.

نظرت إلى الشاحنة المتوقّفة في الشارع، خلفه: «ماذا لديك؟ هل هي قطع ثقيلة؟».

«لو كانت ثقيلة، أيها *النطاط*، فهل أطلب منك المساعدة في حملها؟».

أدخلنا قطع الأثاث. مرآة مذهَّبة الحواف ملفوفة بغلاف لحمايتها؛ وشمعدان؛ ومجموعة من كراسي غرف الطعام. بعد أن أدخلناها وأزلنا

---

(1) آنِكدوتي: نكات، بالروسية.

(2) ماجور (كما تلفظ بالروسية)، أو ميجَر (كما تلفظ باللغة الإنكليزية)، تعني ضابطاً برتبة مقدّم.

عنها مواد التغليف، استند غريشا إلى خزانة صغيرة كان هوبي يعمل عليها (بعد أن مسَّها بإصبعه حتى يتأكد من أنها ليست مطلية حديثاً)، وأشعل سيجارة من نوع *كول*، ثم سألني: «أتريد واحدة؟».

«لا، شكراً». الحقيقة أني أردت سيجارة، لكنني خشيت أن يشم هوبي رائحتها عليّ.

لوَّح غريشا بيده ذات الأظافر المتّسخة حتى يبعد الدخان عن وجهه. قال لي: «ماذا تفعل الآن؟ ألا تريد أن تساعدني اليوم؟».

«كيف أساعدك؟».

«اترك هذا الكتاب الذي عليه صورة امرأة عارية، وتعال بالسيارة معي إلى *بروكلين*». (كان كتاب *«تاريخ الفن»* لجانسون).

«لماذا؟»

«عليَّ أن آخذ بعض هذه النفايات إلى المخزن، ويسرني أن يكون معي من يساعدني. كان من المنتظر اليوم أن يأتي مايك معي. ها! الليلة الماضية، كانت هنالك مباراة لفريق *العمالقة*. خسر مايك الرهان، وكان قد راهن بالكثير على تلك المباراة. لا بد أنه الآن في سريره في شارع *إنوود* يعاني آثار الشراب وبعض الكدمات على وجهه».

6

في طريق خروجنا من *بروكلين* في تلك الشاحنة الصغيرة التي ملأتها قطع الأثاث، لم ينقطع كلام غريشا عن خصال هوبي الجيدة من ناحية، وعن أنه يدمِّر العمل الذي أنجزه ويلتي من ناحية ثانية. «رجل شريف في عالم غير شريف؟ رجل يعيش في عزلة؟ أمر يؤلمني هنا، يؤلمني في قلبي، أن أراه يرمي نقوده من النافذة كل يوم. لا، لا...». رفع يده المتسخة ليسكتني عندما أردت الكلام... «ما يفعله يستلزم زمناً، استصلاح الأثاث، والعمل باليد، كما كان المعلمون القدامى يفعلون. هل فهمت؟ إنه فنان وليس رجل أعمال. لكن، اشرح لي من فضلك السبب الذي يجعله

يدفع المال من أجل هذا المستودع في ساحة البحرية في بروكلين بدلاً من تسويق ما لديه من بضاعة وجني شيء من المال؟ أعني... انظر فقط، انظر إلى تلك الأشياء التي لا قيمة لها في قبو البيت! أشياء اشتراها ويلتي في المزادات... وسوف يأتي المزيد منها كل أسبوع. غرفة المستودع التي في الأعلى ممتلئة إلى آخرها! إنه جالس على ثروة... إنه في حاجة إلى مئة سنة حتى يبيع هذا كله. يأتي الناس وينظرون عبر واجهة المحل حاملين المال في أيديهم... إنهم يريدون الشراء! لكن، ماذا... آسف يا سيدتي! انقلعي من هنا! المتجر مغلق! وأما هو، فتراه جالساً في الأسفل مع أدوات النجارة ينفق عشر ساعات في نحت قطعة بهذا الحجم...». أشار إلى الحجم بسبابته وإبهامه... «قطعة خشب من أجل واحد من كراسي العجائز القديمة التي لا أهمية لها».

«نعم، لكن هنالك عملاء يأتون إليه. لقد باع عدداً غير قليل من القطع الأسبوع الماضي».

قال غريشا حانقاً وهو يلتفت وينظر إليَّ نظرة غاضبة: «ماذا؟ باع؟ لمن؟».

«آل فوغل، لقد فتح المخزن من أجلهم ـ اشتروا خزانة مكتبة، وطاولة للعب الورق...».

تجهّم وجه غريشا: «هؤلاء الناس. إنهم أصدقاؤه، كما يقول. هل تعرف لماذا يشترون من عنده؟ لمعرفتهم بأنهم سيحصلون على أدنى سعر ممكن... ' *يفتح بناء على موعد مسبق* ' ، ها! من الأفضل له أن يُبقي المكان مغلقاً حتى لا يأتيه هؤلاء الكواسر. أعني...». ضم قبضة يده ووضعها على قلبه... «أنت تعرف ما في قلبي. أعتبر هوبي واحداً من عائلتي. لكن...». ضم ثلاثة أصابع معاً وراح يفركها بعضها ببعض، واحدة من حركات بوريس القديمة، مال! مال!... «إنه غير ماهر في صفقات الأعمال. إنه مستعد لإعطاء آخر كسرة طعام عنده، أو آخر عود

ثقاب، أو أي شيء، لأي رجل كاذب محتال. انظر، وسوف ترى... عمَّ قريب، سوف يفلّس ويصير في الشارع خلال أربع أو خمس سنين، إلا إذا وجد من يدير المتجر من أجله».

«من مثلاً؟».

هز كتفيه وقال: «حسناً... شخص مثل، ربما... ابنة عمي ميديا. إن تلك المرأة قادرة على بيع الماء لشخص يغرق».

«يجب أن تخبره. أعرف أنه يريد العثور على شخص مناسب».

أطلق غريشا ضحكة ساخرة: «ميديا؟ ميديا تعمل في تلك الحفرة؟ اسمع، ميديا تبيع الذهب وساعات رولكس، وتبيع الماس الآتي من سيراليون. يأتون لأخذها في سيارة لينكولن فاخرة. ترتدي بنطلوناً من الجلد الأبيض... وتضع فراء سمّور طويلاً يكاد يبلغ الأرض... أظافرها حتى هنا! لا يمكن أن تذهب امرأة مثلها فتجلس طيلة اليوم في متجر يبيع الخردة مع ذلك الغبار كله ومع تلك النفايات». أوقف السيارة، ثم أطفأ المحرك. كنا أمام مبنى ضخم بلون الرماد في منطقة نائية بالقرب من الشاطئ. ساحات فارغة ومتاجر لهياكل السيارات، ذلك النوع من الأحياء حيث يأخذ أفراد العصابات في الأفلام ضحاياهم لقتلهم.

قال غريشا بنبرة تأملية: «ميديا ـ ميديا امرأة مثيرة. ساقان طويلتان... صدر عامر... جميلة المظهر. شديدة الحماسة للحياة. وأما هذا العمل... لا يمكن تصوّر شخص لامع مثلها هناك».

«فما اقتراحك إذاً؟».

«إنه في حاجة إلى شخص مثل ويلتي! كان لدى ويلتي طابع البراءة. كأنه عالم. أو قِسّ. كان جَداً للجميع. لكنه كان أيضاً رجل أعمال شديد البراعة. أمر حسن أن يكون المرء لطيفاً وودوداً طيباً مع الأصدقاء، ومع الجميع. لكن، عندما يصير عميلك واثقاً من أنه يحصل منك على أدنى سعر ممكن، فعليك أن تستفيد من ذلك، هل فهمت؟ هذه هي تجارة المفرّق يا ماجور. هكذا يسير العالم الملعون».

قرعنا الجرس ففُتح الباب ودخلنا. كانت في المكان طاولة مكتب يجلس إليها رجل إيطالي وحيد يقرأ صحيفة. وبينما كان غريشا يسجّل حضوره، رحت أنظر إلى إعلان كان على رف إلى جانب واجهة عرض صغيرة فيها ألواح تغليف من النايلون ذي الفقاعات وشريط لاصق:

مخزن أرستون للفنون الجميلة
مرفق حديث جداً
تجهيزات لإطفاء الحريق، تحكّم بالحرارة والرطوبة، أمن على مدار 24 ساعة
صدق ـ جودة ـ أمان
من أجل كل ما يلزمكم في مجال الأعمال الفنية
نحافظ على سلامة ممتلكاتكم القيمة منذ عام 1968

لم يكن في المكان أحد غير ذلك الموظّف على المكتب. نقلنا حمولتنا إلى مصعد خدمة، ثم استخدم غريشا بطاقة ممغنطة وأدخل رقماً سرّيّاً، فانطلق بنا المصعد إلى الطابق السادس. سرنا في ممر طويل عديم الملامح بعد ممر طويل عديم الملامح. كانت في السقف كاميرات وعلى الجانبين أبواب عليها أرقام، الممر D، الممر E، وجدران لا نوافذ لها كأنها في *«نجم الموت»*[1]، بدت لي ممتدة حتى اللانهاية... إحساس بسراديب الأرشيفات العسكرية السرّية تحت الأرض أو بجدران فيها كوى للدفن في مقبرة مستقبلية ما.

كان مستودع هوبي واحداً من المستودعات الكبيرة ـ باب مزدوج عريضٌ، كافٍ لدخول شاحنة. وضع غريشا المفتاح في القفل ثم فتح الباب الذي صرَّ بصرير معدني، قال: «ها قد وصلنا. انظر فقط إلى هذا الخراء الذي يجمعه هنا». كان المكان مزدحماً بقطع الأثاث، وبأشياء أخرى (مصابيح، وكتب، وخزف، وتماثيل صغيرة من البرونز، وكذلك حقائب قديمة من متجر ب. *آلتمان* محشوة بأوراق وأحذية قديمة).

(1) نجم الموت: محطة فضائية ضخمة في أفلام الخيال العلمي.

ألقيت نظرة مرتبكة أولى فوددت أن أتراجع وأغلق الباب، كما لو أننا دخلنا مصادفة شقة عجوز مهووس بجمع الأشياء مات منذ فترة وجيزة. قال غريشا متجهماً ونحن ننزع الأغلفة عن الكراسي ونصفُّها في وضعية غير مستقرة فوق مكتب مصنوع من خشب الكرز: «يدفع ألفي دولار شهرياً من أجل هذا المكان. يدفع أربعة وعشرين ألف دولار في السنة! لو استخدم هذا المال في إشعال سجائره لكان ذلك أفضل من دفعه إيجاراً لهذه الحفرة النتنة».

رأيت في الممر أبواباً صغيرة جداً، بحجم حقيبة: «ماذا عن الوحدات الصغيرة هنا؟».

قال غريشا متقززاً: «الناس مجانين. كم يدفعون لقاء حيِّز لا يتجاوز حجم صندوق سيارة. مئات الدولارات في الشهر!».

«أعني»... لم أعرف كيف أطرح السؤال... «ما الذي يمنع الناس من الاحتفاظ بأشياء غير قانونية في هذا المكان».

مسح غريشا العرق عن جبهته بمنديل جيب غير نظيف، ثم مد يده بالمنديل ومسح رقبته تحت ياقته: «غير قانونية؟ هل تعني أشياء، ماذا؟... أسلحة مثلاً؟».

«بالضبط. أو، لنقل إنها أشياء مسروقة».

«ما الذي يمنعهم؟ سأقول لك ما يمنعهم. لا شيء... لا يمنعهم من ذلك أي شيء. ادفن أي شيء هنا، فلن يجده أحد، إلا إذا انتهت حياتك أو دخلت السجن أو عجزت عن دفع الإيجار. إن تسعين بالمئة من هذه الأشياء هنا.. صور أطفال قديمة، وسقط المتاع من علّية البيت... لكن، لو كانت الجدران تتكلّم، أنت تعرف! قد تكون ملايين الدولارات مخفية في مكان ما هنا... إن كنت تعرف أين تبحث عنها. مختلف أنواع الأسرار... بنادق، ومجوهرات، وجثث أشخاص مقتولين... أشياء جنونية. انظر...».

أغلق الباب بخبطة قوية، وبدأ يغلق المزلاج الحديدي... «ساعدني في

هذا الشيء اللعين. أكره هذا المكان. يا إلهي، إنه يشبه الموت!...». أشار إلى الممر الخالي من أي شيء، الممر الذي يبدو لا نهاية له... «كل شيء مغلق، بعيد عن الحياة! كلما أتيت إلى هذا المكان، كلما أحسست بأن التنفّس يصير صعباً. إنه أسوأ حتى من مكتبة ملعونة!».

7

في تلك الليلة، أتيت بدليل الصفحات الصفراء من مطبخ هوبي، وأخذته إلى غرفتي، ورحت أبحث في باب *«التخزين والمستودعات»* – قسم *«الأعمال الفنية»*. وجدت عشرات الأماكن في *مانهاتن* وفي أطراف نيويورك. كانت لكثير منها إعلانات بارزة تعدد تفاصيل الخدمات التي تقدمها: قفازات بيضاء، من بابنا إلى بابك! صورة مرسومة لنادل يقدّم بطاقة عمل على صينية من فضة: *بلينجن وتاركويل، منذ 1928. نوفّر لكم حلول التخزين السرّية الموثوقة الحديثة من أجل مجموعة واسعة من الشركات والعملاء الأفراد. آرت تك. هيرتج ويركس. آرتشيفال سَلوشنز. مخازننا مراقبة بمعدات تسجل التغيّرات المكانية والحرارية. نحافظ على درجة الحرارة المقررة وفق نظام الجمعية الأميركية للمتاحف، وهي 70 درجة فهرنهايت، ورطوبة نسبية تبلغ خمسين بالمئة.*

لكن هذا كله كان أكثر مما أريد. لا يجوز أن ألفت الأنظار إلى حقيقة أنني أخزّن عملاً فنياً. كنت أبحث عن شيء آمن لا يثير ريبة. وجدت سلسلة مستودعات كبيرة لها عشرون موقعاً في *مانهاتن*، وكان من بين تلك المواقع واحد في شارع ستين ـ شرق النهر، أي في حيي القديم على مسافة بضعة شوارع من الشقة التي عشت فيها مع أمي. *منشآتنا مؤمّنة بمركز حراسة بشري يعمل ليلاً ونهاراً، وتحتوي على آخر ما توصّلت إليه التكنولوجيا في مجال أجهزة الإنذار من النار والدخان.*

جاءني صوت هوبي من الممر يسألني عن شيء ما. قلت بصوت أجش، مرتفع، زائف، وأنا أغلق دليل الصفحات الصفراء مع إبقاء إصبعي عند تلك الصفحة: «ماذا؟».

«مويرا هنا. هل تحب أن تذهب معنا إلى المطعم المحلّي لتناول الهامبرغر؟». كان ذلك مطعماً اسمه *«الحصان الأبيض»*.

«عظيم... سأكون جاهزاً بعد دقيقة واحدة». عدت إلى الإعلان في الدليل. *لدينا أماكن لمعدات الاصطياف! حلول سهلة من أجل التجهيزات الرياضية ومستلزمات الهوايات!*

كم بدا ذلك سهلاً! لا حاجة إلى بطاقة ائتمان... تدفع المال نقداً، ثم تذهب.

بدلاً من الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي، أخرجت غلاف الوسادة من تحت السرير، وأغلقته من جديد بشريط لاصق قوي، ثم وضعته في حقيبة قماش بنية من متجر *بلومينغديل*، ثم ذهبت بسيارة تاكسي إلى متجر اللوازم الرياضية في *يونيون* سكوير فتجولت فيه قليلاً، ثم اشتريت خيمة صغيرة رخيصة. وأخذت سيارة تاكسي إلى الشارع السادس عشر.

كنت العميل الوحيد في حجرة المكتب الزجاجية العتيقة داخل منشأة التخزين تلك. وعلى الرغم من أنني اهتممت بتحضير قصة مقنعة أقولها لهم (هاوي تخييم متحمِّس، وأم متسلطة)، فقد بدا لي الموظف الجالس خلف المكتب غير مهتم بقصّتي على الإطلاق، ولا ببطاقة المتجر المربوطة إلى غلاف الخيمة والتي تركتها بارزة من حقيبة القماش. لم أجد من يستغرب استعدادي لدفع رسم الخزانة لمدة سنة كاملة مقدّمًا، أو لحتى لسنتين اثنتين! هل من مشكلة في هذا؟

قال الموظف البورتوريكي عند صندوق المحاسبة: «الصراف الآلي هناك». أشار بيده من غير أن يرفع رأسه عن سندويتش اللحم والبيض الذي كان يأكله.

أبهذه السهولة؟ هكذا كنت أسأل نفسي وأنا نازل في المصعد. كان الموظف قد قال لي: «سجّل رقم خزانتك، وسجل الرقم السري. احتفظ بهما في مكان آمن». لكني كنت قد حفظت الرقمين عن ظهر قلب. (رأيت

ما فيه الكفاية من أفلام جيمس بوند بحيث صرت أعرف كيف أحفظ تلك الأرقام بسهولة). رميت بالورقة في الشارع لحظة صرت خارج المكان.

خرجت من المبنى، من صمته الشبيه بصمت الأقبية، ومن نسمة الهواء الراكد الآتية من فتحات التهوية. أحسست بما يشبه الدوار، وبأنني لا أرى جيداً... كانت السماء واسعة فوقي في ضياء الشمس، ومن حولي ضجيج الصباح وروائح عوادم السيارات المألوفة، وصياح، وكلام، وأبواق سيارات بدت لي كلّها ممتدة على طول تلك الجادة، مفضية إلى ما هو أحسن: مملكة مشمسة من حشود الناس والحظ الطيب.

كانت تلك أول مرة أتجوّل فيها بالقرب من *سوتون بليس* بعد عودتي إلى نيويورك. كان ذلك كما لو أنني أسقط عائداً إلى حلم قديم لطيف، إلى تحوّل متدرّج بين الماضي والحاضر، إلى الأرصفة المحفّرة، بل حتى إلى الشقوق القديمة نفسها التي كنت أقفز من فوقها دائماً عندما أعود جرياً إلى البيت، مائلاً بجسدي إلى الأمام متخيّلاً أنني في طائرة يتمايل جناحاها... *إنني عائد*... تلك المسافة الأخيرة التي أقطعها مسرعاً في اتجاه البيت. أكثر المتاجر القديمة لا يزال موجوداً، متجر *ديلي*، ومتجر النبيذ، والمطعم اليوناني... الحي القديم المنسي كله الذي بدأت وجوهه تغيم في ذاكرتي... سَال بائع الأزهار، والسيدة باتاغلينا من المطعم الإيطالي، وفيني من محل تنظيف الملابس وشريط القياس الذي يضعه دائماً حول رقبته... تذكّرته راكعاً على ركبتيه يثبّت تنورة أمي بدبوس.

كنت على مسافة بضع بنايات من بناياتنا القديمة: نظرت في اتجاه الشارع رقم سبعة وخمسين، ذلك الزقاق الأليف اللامع تحت شمس تنعكس أشعتها على النوافذ الذهبية. تذكّرت: غولدي! خوسيه!

تسارعت خطواتي مع تلك الفكرة. كان الوقت صباحاً: يجب أن يكون واحد منهما في العمل الآن، أو الاثنان معاً. لم أرسل تلك البطاقة التي وعدتهما بإرسالها من لاس فيغاس: سوف يسرّان كثيراً برؤيتي، فيحيطان

بي ويحتضناني، ويصفعان ظهري بكفيهما، مهتمين بسماعي أحكي لهما عن كل ما مررت به، بما في ذلك موت أبي. سيدعوانني للجلوس في غرفة الأمتعة، وقد يتّصلان بالمدير هندرسون. سوف يحكيان لي عن كل ما في البناية من قصص. لكني انعطفت عند الزاوية، ووسط حركة السير المتوقّفة وأبواق السيارات، فرأيت من البعيد أن البناية كانت محاطة بسقالات كثيرة. رأيت ملصقات رسمية على النوافذ.

توقفت خائباً. ثم سرت غير مصدق عينَيّ، ثم اقتربت. ثم توقفت وقد هالني المنظر. الأبواب التزيينية قد اختفت؛ وحيث كانت الردهة الباردة بأرضها اللامعة وألواح جدرانها الخشبية التي لوحتها الشمس، رأيت كهفاً فاغراً فاه، ممتلئاً حجارة وكتلاً إسمنتية، وعمالاً في خوذات واقية يدفعون عربات يدوية مليئة بالأنقاض.

سألت رجلاً لوَّثه التراب والغبار... كان يأخذ جرعات سريعة من القهوة وقد تنحّى قليلاً عن الآخرين: «ماذا حدث هنا؟».

«ماذا تعني بماذا حدث؟».

رجعت خطوة إلى الخلف ونظرت إلى الأعلى، فرأيت الدمار غير مقتصر على تلك الردهة؛ إنهم يفكّكون البناية كلّها! صرت قادراً على رؤية الفناء الخلفي من حيث أقف. لا يزال الموزاييك الزجاجي على الواجهة سليماً، لكن النوافذ مغبرة فارغة، لا شيء خلفها... «إنني... كنت أعيش هنا. ما الذي يجري؟».

«لقد بيعت البناية...»، أجابني صارخاً بسبب صوت المطارق الآلية في الردهة... «خرج آخر السكان منذ شهور قليلة».

«لكن...». نظرت إلى السقف الذي صار أشبه بقوقعة فارغة، ثم إلى داخل ذلك الكهف المغبّر. رجال يصيحون، وأسلاك متدلية... «ماذا يفعلون؟».

«يحوّلون المكان إلى شقق فاخرة. ثمن الواحدة خمسة ملايين دولارٍ وأكثر ـ بركة سباحة على السطح ـ هل تصدق هذا؟».

«أوه، يا إلهي!».

«نعم... كنت تظن أن البناية ستظل محميةً، أليس كذلك؟ مكان قديم لطيف... كان عليّ البارحة أن أحطّم درجات الرخام في الردهة، هل تتذكّرها؟ شيء محزن! ليتنا كنا قادرين على فكها بحيث تظل قطعة واحدة. لم يعد المرء يرى رخاماً رفيع المستوى مثل هذا الرخام الجميل المستخدم هنا. لكن، هذه هي المدينة!».

بدأ يصيح مخاطباً شخصاً في الأعلى ـ رجل يُنزل دلواً من الرمل ربطه بالحبل. سرت مبتعداً شاعراً بالغثيان. مررت تحت نافذة غرفة معيشتنا القديمة، أو تحت بقاياها التي صارت كأنها تعرّضت للقصف. ولشدة اضطرابي، لم أستطع النظر إلى الأعلى. تذكّرت كيف قال لي خوسيه وهو يضع حقيبتي على الرف العلوي في غرفة الأمتعة: *هنا ستكون بعيدة عن المتناول، يا عزيزي*. كان بعض السكان، كالسيد ليوبولد العجوز مثلاً، قد عاش في البناية أكثر من سبعين سنة. ما الذي جرى له؟ وأين صار غولدي وخوسيه؟ أو... أين صارت سينزيا؟ سينزيا التي كانت مرتبطة دائماً بأكثر من عشرة أعمال تنظيف، هنا وهناك. وكانت تعمل في هذه البناية بضع ساعات فقط كل أسبوع. لم أفكر في سينزيا قبل تلك اللحظة؛ لكن الماضي كله كان يبدو لي شيئاً شديد الصلابة، غير قابل للتغيّر... ذلك النظام الاجتماعي كله في بنايتنا، ملتجأ يمكنني القدوم إليه دائماً ورؤية الناس فيه وسماع أخبارهم. أشخاص كانوا يعرفون أمي. أشخاص كانوا يعرفون أبي.

كلما ابتعدت بي خطواتي عن المكان، كلما صرت أكثر حزناً على فقدان واحد من الأماكن المستقرة في عالمي... مكان كنت أعتبره مضموناً: وجوه ألفتها، وتحيات بهيجة... *مرحباً، أيها الصغير!* كنت أحسب أن هذه الصلة الأخيرة بالماضي ستظلّ كما تركتها. كان أمراً غريباً أن أفكّر في أنني لم أتمكّن أبداً من شكر خوسيه وغولدي على المال

الذي قدماه إليّ... وأغرب من ذلك أنني لن أتمكن أبداً من إخبارهما بأن أبي قد مات: فمن غيرهما كان يعرفه من بين معارفي جميعاً؟ أو من عساه يبالي؟ حتى الرصيف نفسه، بدا لي كأنه موشك على التحطم تحت قدمي وتركي أسقط عبر الشارع إلى هاوية لا يتوقف سقوطي فيها.

الجزء الرابـع

ليس اللحم والدّم ما يجعلنا آباء وأبناء، بل هو القلب.

شيللر

الفصل التاسع

كل ما هو محتمل



1

في عصر ذات يوم، بعد ثماني سنين ـ بعد أن تركت المدرسة وذهبت للعمل مع هوبي ـ كنت خارجاً من *بنك نيويورك*، سائراً في شارع *ماديسون* منزعجاً، مهموماً، عندما سمعت أحداً يناديني باسمي.

التفتّ. كان الصوت مألوفاً، لكني لم أعرف الرجل: في الثلاثينات، أطول مني، له عينان رماديتان نكدتان وشعر أشقر عديم اللون طويل حتى كتفيه. كانت ملابسه من قماش التويد الخشن الأشعث... كنزة صوف لها ياقة كبيرة ملتفّة على العنق... ثياب أكثر ملاءمة للسير في درب ريفي موحل، لا لشوارع المدينة. كانت لوجهه هيئة غامضة من امتياز اتخذ وجهة خاطئة، كأنه شخص أمضى الليل نائماً على أريكة في بيت صديقه، وتعاطى بعض المخدرات، وأهدر قسماً غير قليل من مال والديه.

قال لي: «أنا بلات. بلات باربر».

قلت بعد صمت المفاجأة: «بلات! مر زمن طويل. يا إلهي». كان من الصعب أن يتعرف المرء على لاعب اللاكروس الجلف القديم في هذا الرجل السائر في الطريق ذي النظرة المهتمة الصاحية. زالت عنه وقاحته وعجرفته، وذلك التألق العدواني الذي كان في ما مضى؛ بدا لي الآن

مرهقاً، ورأيت في عينيه شيئاً قلقاً راضياً بقدره. لعله زوج تعيس قادم من الضواحي مشغول البال بخصوص زوجته غير المخلصة له، أو لعله معلم لحق به الخزي في مدرسة من الدرجة الثانية.

قلت وأنا أتراجع إلى الخلف خطوة بعد صمت غير مريح: «بلات؟ ألا تزال في المدينة؟».

أجابني وهو يمسح رقبته من الخلف بإحدى يديه: «نعم. الواقع، أنني بدأت العمل في وظيفة جديدة...». لم يكن تقدمه في السن يسير على ما يرام؛ ففي ما مضى، كان بلات أشد الإخوة شقرة وأحسنهم مظهراً، لكنه صار الآن ذا رقبة سمينة ووسط ممتلئ، واخشوشن وجهه بعد جمال الشبيبة النازية القديم... «أعمل الآن لدى ناشر أكاديمي. مؤسسة *بليك ـ باروز*. مقرّها في *كامبردج*، لكن لديها مكتب هنا».

قلت كما لو أنني أعرف هذه المؤسسة، على الرغم من أنني لم أسمع بها من قبل: «عظيم...». أومأت برأسي وراحت يدي تعبث بقطع النقود المعدنية في جيبي، وقد بدأت أفكر في طريقة للانسحاب... «حسناً، هذه أخبار رائعة. كيف حال آندي؟».

بدا لي أن وجهه قد اكتسى هدوءاً مفاجئاً: «ألا تعرف؟».

قلت متردّداً: «حسناً... سمعت أنه كان في *معهد ماساشوسيتس للتقنية*. صادفت وين تمبل في الشارع منذ سنة أو سنتين، وقال لي إن آندي قد حصل على منحة دراسية هناك ـ الفيزياء الكونية على ما أظن ـ أعني...». قلت هذه الكلمات بنبرة متوتّرة وقد أزعجتني نظرة بلات... «الحقيقة أنني لم أبق على اتصال مع أصدقاء المدرسة، ليس كثيراً».

مسح بلات مؤخر رأسه بيده: «إنني آسف. أظننا لم نعرف كيف نتواصل معك. لا تزال الأمور في حالة تشوّش شديد. لكني واثق من أنك يجب أن تكون قد سمعت بالأمر».

«سمعت ماذا؟».

«لقد مات».

قلت: «آندي؟». وعندما لم أسمع إجابة... «لا!».

تكشيرة عابرة اختفت لحظة رأيتها: «نعم. يؤسفني القول إن ذلك كان في غاية السوء. مات آندي، ومات أبي أيضاً».

«ماذا؟».

«منذ خمسة شهور. غرق آندي وأبي».

«لا!». نظرت إلى الرصيف.

«انقلب القارب بنا. كان ذلك قبالة قرية *نورث إيست هاربر*. لم نكن قد ابتعدنا كثيراً عن الشاطئ في حقيقة الأمر؛ ربما ما كان يجب أن نذهب إلى ذلك المكان أبداً... لكن أبي، أنت تعرف كيف كان لديه ذلك الـ...».

«أوه، يا إلهي!».

كنا واقفين هناك، في ذلك العصر من يوم شبه ربيعي، وكان أطفال خرجوا من المدرسة قبل قليل يجرون من حولي. أحسست كما لو أن فأساً قد أصابتني، وأحسست بنفسي مضطرباً كأنني تعرّضت لمقلب سخيف. صحيح أنني تذكرت آندي مرات كثيرة خلال هذه السنين، وأحسست مرة أو اثنتين بشوق لرؤيته، إلا أننا لم نتواصل أبداً بعد عودتي إلى نيويورك. كنت واثقاً من أنني سأراه مصادفة في يوم ما، مثلما رأيت وين وجيمس فيليرز ومارتينا ليتشبلو، وبضعة أشخاص آخرين من أيام المدرسة. وعلى الرغم من أنني هممت أكثر من مرة بالاتصال به للسلام عليه، فإنني لم أفعل ذلك أبداً.

قال بلات: «هل أنت بخير؟». كان يمسح رقبته بيده وقد بدت عليه علامات اضطراب كالذي شعرت به.

«امم...». استدرت في اتجاه واجهة المتجر المجاور حتى أحظى بفرصة أتمالك نفسي فيها، فاستدارت صورتي المنعكسة على الزجاج وواجهتني. رأيت في الزجاج الناس العابرين من خلفي.

قلت: «يا إلهي. لا أستطيع تصديق هذا. ولا أعرف ما ينبغي أن أقوله».

قال بلات وهو يحكّ ذقنه: «آسف لأنني فاجأتك بهذا الخبر في الشارع. يبدو لي أنك لست في حالة جيّدة تماماً».

لست في حالة جيدة تماماً! عبارة كان السيد باربر يستخدمها. أحسست بوخزة ألم عندما تذكّرت السيد باربر وهو يفتش الدروج في غرفة بلات ويقترح عليَّ أن يشعل لي ناراً. *لقد حدثت أشياء فظيعة... يا إلهي.*

«وأبوك أيضاً؟». قلت هذا مرفرفاً في عيني كما لو أن أحداً هزّني فأيقظني من نومي... «أليس هذا ما قلته لي؟».

نظر بلات من حوله ورفع ذقنه بحركة أعادت، لحظة واحدة، صورة بلات المغرور المتكبّر الذي أتذكّره، ثم نظر إلى ساعته.

قال لي: «هيا بنا... هل لديك دقيقة؟».

«حسناً...».

قال وهو يخبط بيده على كتفي بحركة ثقيلة جعلتني أجفل قليلاً: «فلنتناول شراباً. أعرف مكاناً هادئاً في الجادة الثالثة، ما رأيك؟».

2

جلسنا في البار شبه الخالي ـ مكان كان شهيراً ذات يوم بجدرانه المكسوَّة بألواح خشب البلوط، وبرائحة دهن الهامبرغر، ورايات الفرق الرياضية على الجدران؛ وراح بلات يتكلّم بصوت مضطرب رتيب منخفض إلى حدٍّ جعلني مضطراً إلى الإصغاء جيّداً حتى أتمكّن من متابعته.

قال محدّقاً في كأس الجن مع الليمون الذي طلبه ـ شراب السيدة باربر المفضّل: «أبي... كنا جميعاً نتفادى الكلام عن الأمر، لكن! كانت جدتي كانت تستخدم تعبير ' *عدم توازن كيميائي* ' للإشارة إلى حالته.

لقد كان مصاباً باضطراب ثنائي القطب[1]. أتته تلك الحالة، أو النوبة، أو مهما يكن اسمها، أول مرة عندما كان في السنة الأولى من دراسة القانون في جامعة هارفارد. لم يتمكن أبداً من بلوغ السنة الثانية. تلك الحماسة والخطط الكبيرة الطموح كلها... عدوانيته في الصف، والكلام في غير محله... بدأ يكتب قصيدة ملحمية تملأ كتاباً كاملاً، وكان موضوعها سفينة A6 لصيد الحيتان، لكنها كانت كلاماً فارغاً، لا أكثر. ثم سافر زميله في الغرفة لقضاء فصل دراسي في ألمانيا. كان من الواضح أن لذلك الزميل أثراً مهدئاً أكثر من أي شخص آخر! اضطر جدي إلى السفر بالقطار إلى بوسطن حتى يعيده إلى البيت. لقد اعتقل لأنه أشعل ناراً أمام تمثال ساموبل إيليوت موريسون[2] في جادة الكومنولث ثم قاوم رجال الشرطة عندما أتوا لاعتقاله».

«كنت أعرف أنه قد عانى مشكلات في ما مضى. لكني لم أعرف أبداً أن الأمر كان على هذا النحو».

حدّق بلات في كأسه من جديد. ثم شربها دفعة واحدة... «حسناً... كان ذلك قبل مولدي بزمن طويل. تغيرت الأمور بعد زواجه من ماما عقب فترة طويلة من تناول الأدوية؛ إلا أن جدتي لم تعد تثق به أبداً بعد كل ما جرى».

«وماذا جرى؟».

قال بسرعة: «أوه، لقد كانت علاقتنا بها حسنة بالطبع، نحن الأحفاد. لكنك لا تستطيع تخيّل المشكلات التي سببها أبي عندما كان أصغر سناً... بدّد مالاً كثيراً، وكانت تصيبه نوبات غضب مخيفة، وتورط في مشكلات فظيعة مع بنات قاصرات. كان ينتحب ويعتذر، ثم يعود إلى ذلك من جديد... ظلّت جدتي تتهمه بأنه سبّب النوبة القلبية التي قتلت

---

(1) الاضطراب ثنائي القطب: مرض عقلي يسبب تقلبات مزاجية مفرطة.

(2) ساموبل إيليوت موريسون: مؤرخ أميركي شهير له كتب كثيرة عن تاريخ أميركا وعن تاريخ الحروب البحرية.

جدي. كانا يتشاجران في مكتب جدي، ثم... بوووم! وأما عندما بدأ يتناول الدواء، فقد صار وديعاً. صار أباً رائعاً، نعم أنت تعرف هذا. صار أباً رائعاً معنا نحن... أطفاله».

«كان ممتازاً عندما عرفته».

هز بلات كتفيه: «صحيح، كان قادراً على ذلك. استقرّت أحواله على خير ما يرام حيناً من الزمن بعد زواجه من ماما. ثم... لا أعرف ما الذي حدث. أقدم على عدة استثمارات خاطئة إلى حد مخيف؛ وكانت تلك العلامة الأولى. اتصالات هاتفية محرجة مع المعارف في وقت متأخر من الليل، وهذا النوع من الأمور. ثم أصابه هوس عاطفي بفتاة جامعية أمضت فترة تدريب في مكتبه... فتاة تعرف ماما أسرتها. كان ذلك أمراً صعباً حقاً».

لسبب أجهله، تأثرت كثيراً بسماعه يدعو السيدة باربر *ماما*. قلت له: «لم أعرف أبداً بأي شيء من هذا».

عبس بلات. تعبير يائس مستسلم أظهر، على نحو حاد، شبهه بآندي. قال بمرارة وهو يمسح إبهامه بمفرش الطاولة: «ونحن لم نكن نعرف شيئاً عن هذا... عندما كنا أطفالاً. ' *بابا مريض* ' ... هذا كل ما كان يُقال لنا. ذهبت إلى الجامعة، كما ترى، عندما أرسلوه إلى المستشفى؛ ولم يسمحوا لي أبداً بالاتصال به هاتفياً. كانوا يقولون إنه مريض جداً! وقد مرت أسابيع وأسابيع ظننت خلالها أن أبي قد مات لكنهم لم يخبروني بذلك».

«أتذكّر ذلك كلّه. كان فظيعاً».

«كل ماذا؟»

«الـ... الاضطراب العصبي».

«نعم، حسناً...». فاجأتني لمعة الغضب في عينيه... «وكيف كان من المفترض أن أعرف إن كان الأمر اضطراباً عصبياً أو سرطاناً قاتلاً؟ كانوا يقولون: ' *آندي شديد الحساسية... من الأفضل لآندي أن يظل في*

المدينة... لا نظن أن المدرسة الداخلية مناسبة لآندي...' حسناً، كل ما أستطيع قوله هو أن أبي وماما أرسلاني إلى تلك المدرسة الداخلية بمجرد أنني صرت قادراً على ربط شريط حذائي... مدرسة غبية ملعونة اسمها برنس جورج، مدرسة من الدرجة الثالثة بكل معنى الكلمة. لكن، واو، إنها تجربة فريدة لبناء الشخصية، وفرصة ممتازة من أجل الاستعداد للذهاب إلى جامعة غروتون. كانت تلك المدرسة تستقبل أطفالاً صغاراً حقاً، من السابعة إلى الثالثة عشرة! كان يجب أن ترى بروشور تلك المدرسة: الصيد في الريف، وكل تلك الأشياء. لكن الحقيقة أن ذلك لم يكن كله تلالاً خضراء وجولات على الخيل مثلما يرى المرء في الصور. تعثّرت فسقطت وكسرت كتفي. وجدت نفسي في المستوصف الذي لا أرى من نافذته غير المدخل الفارغ الذي لا تدخله أية سيارة أبداً. لم يأت لزيارتي أحد، ولا حتى جدتي. ثم إن الطبيب كان سكّيراً، فثبت الكتف بطريقة غير صحيحة. لا أزال أعاني مشكلات في كتفي. ولا أزال أكره الخيل حتى اليوم. على أية حال...».

لمست تغيّراً في نبرة صوته، كما لو أنه انتبه لنفسه... «أخرجوني من ذلك المكان وأرسلوني إلى جامعة غروتون في الوقت الذي ساءت فيه أمور أبي كثيراً وأخذوه إلى المصحّة. فهمت أن حادثة وقعت له في محطة المترو... سمعت قصصاً متضاربة. قال أبي شيئاً، وقالت الشرطة شيئاً آخر. لكن...» رفع حاجبيه بسخرية سوداء مقصودة... «ذهب أبي إلى المصحّة! أمضى فيها ثمانية أسابيع. أخذوا حزامه ورباطَي حذائه، وكل شيء حادّ. لكنهم عالجوه بالصدمات التي اتضح أنها ناجحة حقاً لأنه عاد إلى البيت بعد ذلك فكان شخصاً جديداً تماماً. حسناً... أنت تتذكّره في تلك المرحلة. أب مثالي من الناحية العملية».

تذكّرت لقائي البشع بالسيد باربر في الشارع وقررت ألا أتطرق إلى ذكره: «إذاً... ماذا حدث بعد ذلك؟».

«حسناً! بدأت المشكلات تعاوده منذ بضع سنين؛ وكان عليه أن يعود إلى المصحّة؟».

«أي نوع من المشكلات؟».

أطلق بلات زفيراً ضاجّاً: «أووه! ... المشكلات نفسها بشكل عام؛ اتصالات هاتفية محرجة، وانفجارات غضب أمام الناس، وأشياء من هذا القبيل. وبالطبع، كانت حالته الجسدية حسنة تماماً. كان في أحسن حال. بدأ الأمر عندما كانوا يقومون بأعمال الإصلاح والتجديد في البناية. كان معترضاً على تلك الأعمال: صوت المطارق والمناشير المستمر، وتلك الشركات التي تخرب المدينة... لم يكن ذلك غير صحيح، لكن الأمر بدأ يكبر مثل كرة الثلج حتى بلغ نقطة صار عندها يتخيل أن أحداً يلاحقه ويصوّره ويتجسس عليه طيلة الوقت. كتب بضع رسائل مجنونة وأرسلها إلى عدد من الأشخاص كان من بينهم بعض عملاء شركته... وجعل من نفسه مصدر إزعاج فظيع في نادي اليخوت. اشتكى منه عدد غير قليل من أعضاء النادي، بل حتى بعض أصدقائه القدامى... فكيف يمكن لومهم على هذا؟».

«على أية حال، لم يعد أبي مثلما كان عقب عودته من المستشفى للمرة الثانية. صارت الحالات التي تصيبه أقل شدة، لكنه بات غير قادر على التركيز... إضافة إلى سرعة غضبه وحدة انفعاله طيلة الوقت. غيّر طبيبه منذ نحو ستة أشهر، وأخذ إجازة من العمل، وذهب إلى ولاية *ماين* ـ يمتلك عمي هاري بيتاً على جزيرة صغيرة هناك. لم يكن هناك أحد غير الشخص الذي يعتني بالمكان. قال أبي إن هواء البحر أفاده كثيراً. وصرنا نتناوب في الذهاب إليه حتى نكون معه. كان آندي في *بوسطن* آنذاك، في *معهد ماساشوستس للتقنية*، وكان آخر ما يريده هو أن يتورّط في رعاية أبي. لكن، للأسف، كان هو الأقرب مكاناً إليه فناله النصيب الأكبر من هذه المهمة».

«ألم يعد إلى... إلى حيث ذهب من قبل؟». لم أرد نطق كلمة مصحّة.
«في الواقع... كيف كان يمكن إرغامه على هذا؟ ليس أمراً سهلاً أن ترسل إلى المصحة شخصاً لا يريد الذهاب إليها، خاصة عندما لا يكون ذلك الشخص معترفاً بأن لديه مشكلة. لم يكن أبي مستعداً للاعتراف بالأمر في تلك اللحظة. ثم إننا اعتقدنا بأن الأمر كله ناتج عن الأدوية وأنه سيعود إلى وضعه الطبيعي بمجرد أن يُعطي الدواء الجديد مفعوله. كان الشخص الذي يعتني ببيت عمي يوافينا بأخبار أبي ويحرص على أن يأكل جيداً وأن يتناول أدويته. وكان أبي يتكلّم بالهاتف مع طبيبه النفسي كل يوم... قال الطبيب إن الأمور بخير...». قال الكلمات الأخيرة بنبرة دفاعية... «قال الطبيب إن ما من مشكلة في أن يقود أبي السيارة وأن يسبح وأن يبحر بالقارب إن أحب ذلك. لعلها لم تكن فكرة سيئة تماماً أن نخرج بالقارب في ذلك الوقت المتأخّر من النهار؛ ثم إن الأحوال الجوية لم تكن سيئة تماماً عندما انطلقنا. لكنك تعرف أبي. بحّار جسور، وتلك الأشياء كلها! البطولة، والجرأة!».
«صحيح».
سمعت في ما مضى قصصاً كثيرة جداً عن إقدام السيد باربر على الإبحار بالقارب في «مياه هائجة»، اتضح لي أنها في مناطق الشمال الشرقي أثناء إعلان حالة الطوارئ في ثلاث ولايات لشدة العواصف وانقطاع الكهرباء على امتداد الساحل الشرقي كلّه. أصاب دوار البحر آندي فراح يتقيأ وهو ينزح الماء من القارب. مرت عدة ليالٍ رسا القارب بعدها على لسان رملي في الظلام تحت وابل غزير من المطر. كان السيد باربر قد قصّ ذلك عليَّ أكثر من مرة ـ كان يضحك ضحكته الهادرة وأمامه كأس فيرجن ميري، وفطور الأحد المكون من اللحم والبيض ـ كيف انجرف القارب به وبأطفاله إلى خليج *لونغ آيلاند* عندما هب إعصار وانقطعت الاتصالات اللاسلكية. وروى لي كيف اتصلت السيدة

باربر بقسيس كنيسة *القديس أغناطيوس لوايولا* الواقعة في الشارع رقم أربعة وثمانين، وأمضت الليل كلّه تصلي (السيدة باربر!) إلى أن أتاها اتصال من حرس السواحل الذين قالوا لها إن الزورق قد وصل إلى الشاطئ. («ما إن تهب ريح قوية حتى تبرق إلى روما... ألم تفعلي ذلك يا عزيزتي؟ ها!»).

«أبي...». هز بلات رأسه بحزن... «كانت ماما تقول إنه لم يكن ليقدر على العيش هنا دقيقة واحدة لو لم تكن *مانهاتن* جزيرة. كان التوغل في اليابسة يجعله بائساً. كان يصبو إلى الماء دائماً... يجب أن يراه، ويجب أن يشم رائحته! أتذكّر عندما سافرنا بالسيارة من *كونيكتيكت* أيام كنت صبياً، فبدلاً من المضي مباشرة إلى بوسطن عبر الطريق 84، كنا مضطرين إلى الابتعاد عن ذلك الطريق أميالاً حتى نسافر بمحاذاة الساحل. كان دائم النظر إلى المحيط الأطلسي، وكان لديه إحساس حقيقي تجاهه: كيف تتغير الغيوم كلما سرت مقترباً من المحيط!». أغمض بلات عينيه الرماديتين كالإسمنت؛ أغمضهما لحظة، ثم فتحهما من جديد. قال بصوت مسطح خالٍ من التعبير إلى حد جعلني أظن أنني أخطأت السمع... «تعرف أن أخت أبي الصغيرة قد أغرقت نفسها، أليس كذلك؟».

لم أعرف بم أجيبه. رفرفت عيناي. قلت: «لا. لم أكن أعرف هذا».

قال بلات بالصوت المسطّح نفسه: «نعم، أغرقت نفسها. لقد حملت كيتزي اسمها. قفزت من الزورق في *إيست ريفر*[1] خلال حفلة ـ افترض الناس أن ذلك حدث مصادفة ـ أنه كان نوعاً من المزاح، أو *حادثاً* ـ لكني أعرف أن أحداً لا يمكن أن يمزح على هذا النحو لأن التيارات البحرية هناك مجنونة... لقد شدّتها التيارات إلى القاع. مات فتى آخر أيضاً عندما قفز لينقذها. وفي الستينات، حاول عم أبي ذات ليلة أن يسبح

(1) إيست ريفر : لسان بحري في نيويورك يصل بين خليج نيويورك الشمالي والنهاية الجنوبية لخليج لونغ آيلاند.

إلى البر الرئيسي كنوع من التحدّي فغرق ـ كان اسمه ويندل. تعرف كيف كان أبي يكرر دائماً أن الماء مصدر الحياة بالنسبة إليه، وأنه نبع الشباب، وذلك الكلام كله... لقد كان كذلك بالتأكيد، لكنه لم يكن حياته فقط؛ كان موته أيضاً».

لم أجبه بشيء. تذكّرت قصص السيد باربر عن الإبحار بالمركب، قصص لم تكن مقنعة، ولا واضحة، ولا تحمل معلومات حقيقية في ما يتعلق بتلك الرياضة نفسها، بل كانت محمَّلة دائماً بقدر كبير من الإلحاح الفخيم... نذير ينبئ بالكارثة القادمة.

عاد بلات يقول بشفتين مشدودتَيْن: «و... بالطبع... كان الأمر كارثة. كان أبي يظن نفسه خالداً في الماء. كان يرى نفسه ابن بوسيدون![1]... لا يمكن أن يخطئ أبداً! كلما كان البحر أكثر هياجاً كلما كان ذلك أفضل في نظره. كانت العواصف تسكره! وكان انخفاض الضغط الجوي بالنسبة إليه شيئاً يشبه الغاز الضاحك. كان البحر هائجاً في ذلك اليوم تحديداً، لكنه كان يوماً دافئاً، يوماً من أوفر الأيام شمساً خلال ذلك الخريف، يوماً يجعلك راغباً في الذهاب إلى الماء. انزعج آندي لاضطراره إلى الذهاب في تلك الرحلة. كان مصاباً بالزكام، وكان في منتصف شيء معقَّد ينجزه على الكمبيوتر؛ لكنَّ أحداً منا لم يظن أن في الأمر أي خطر حقيقي. كانت الفكرة تقضي بأن نأخذه إلى الخارج حتى يهدأ. وقد أملت في أن نتمكن من الذهاب إلى ذلك المطعم عند المرسى لنحاول أن نجعله يأكل شيئاً. هل رأيت...». وضع ساقاً على ساق كما لو أنه بات غير قادر على البقاء ساكناً... «لم يكن معه إلا نحن الاثنان، آندي وأنا، وإذا أردت الصراحة أقول لك إن أبي لم يكن في وعيه تماماً. كان متوتّراً منذ اليوم السابق، وكان يتكلم بطريقة عنيفة كأنه موشك على الانفجار. اتصل آندي بماما لأن لديه عملاً يجب أن ينجزه ولأنه شعر بعدم قدرته على التلاؤم مع ذلك الوضع، فاتصلت ماما بي. وعندما وصلت، وأخذت العبّارة

(1) بوسيدون: إله البحر والمياه والزلازل والخيول في الميثولوجيا اليونانية.

إلى الضفة الأخرى، كان أبي كما لو أنه طائر في السماء. كان يتحدّث بما يشبه الهذيان عن رذاذ أمواج البحر وعن الدخان المتطاير في مهب الريح، وأشياء من هذا القبيل... المحيط الأطلسي الأخضر المجنون... كان في حالة غير طبيعية على الإطلاق. وأما آندي، فما كان قادراً على تحمّل أبي عندما يكون في هذه الحالة. وجدته جالساً في غرفته وقد أقفل عليه بابها. أظنه نال كفايته من أبي قبل وصولي».

... «أعرف أن الأمر يبدو قراراً خاطئاً عندما أفكر فيه الآن، لكن... كما ترى، كنت قادراً على الإبحار في القارب وحدي. كان أبي في البيت، موشكاً على الجنون، فما الذي أفعله؟ أأرغمه على الجلوس ساكناً وأحبسه في البيت؟ أنت تعرف أيضاً أن آندي لم يكن يهتم بالطعام على الإطلاق. وجدت الخزانة خالية تماماً، ولا شيء في البراد إلا قطعة بيتزا متجمدة... خروج لفترة قصيرة، ثم نأكل شيئاً عند المرسى... بدا لي ذلك خطة حسنة كما ترى؟ كانت ماما تقول دائماً كلما صار أبي متوتر الأعصاب أكثر مما ينبغي: '*أطعموه، اجعلوه يأكل شيئاً*'. كان ذلك خط الدفاع الأول! اجعله يجلس ـ واجعله يأكل شريحة لحم كبيرة. في معظم الأحيان، كان ذلك كل ما يلزمك حتى تجعله يعود إلى رشده. أعني... فكّرت أيضاً في أننا يمكن أن ننسى أمر المطعم إذا لم يهدأ توتره عندما نكون على البر الرئيسي، فنأخذه إلى قسم الطوارئ إذا رأينا أن الأمر يستدعي ذلك. طلبت من آندي المجيء حتى أظل في الجانب الآمن. قلت في نفسي إن من الأفضل أن يكون لدي من يساعدني ـ أقول لك بصراحة إنني سهرت حتى وقت متأخر في الليلة السابقة، وكنت أحس بأنني لست في أحسن أحوالي، كما اعتاد أبي أن يقول...». توقّف لحظة ودعك فخذيه براحتي يديه... «نعم، لم يكن آندي يحب الماء كثيراً. أنت تعرف هذا».

«صحيح، أتذكّر».

تنهد بلات: «لقد رأيت قططاً تسبح أحسن من آندي. أعني... بصراحة تامة، أنني لم أر في حياتي فتى أخرق مثل آندي، ولم أر أحداً له تلك الحركات

المتشنّجة المتخلّفة... يا إلهي! كان يجب أن تراه في ملعب التنس. كنا نسخر منه ونقول إن عليه أن يذهب إلى *'الأولمبياد الخاص'*، أولمبياد المعوّقين، لأن من الممكن أن يفوز على الجميع هناك. وعلى الرغم من ذلك فقد أمضى آندي ساعات كثيرة على الزورق، يعلم الله... بدا لي أن من المناسب أن يكون معنا شخص إضافي، خاصة لأن أبي لم يكن في حالة طبيعية، كما ترى! كنا قادرين على قيادة المركب بكل سهولة... كان الجو حسناً. وكان كل شيء سيجري على ما يرام لو أنني كنت أراقب السماء كما ينبغي لي أن أفعل. اشتدت الريح. وكنا نحاول تعديل وضع الشراع. كان أبي يلوّح بذراعيه ويصرخ بشيء ما عن المواضع الفارغة بين النجوم... أشياء مجنونة حقّاً... ثم فقد توازنه ووقع في الماء. حاولنا شده لإخراجه من الماء وإعادته إلى سطح المركب،.. آندي وأنا... وفي تلك الأثناء انحرف المركب فاتخذ اتجاهاً خاطئاً، وأتت موجة كبيرة... واحدة من تلك الموجات المنحدرة التي يفور الماء ويزبد عند قمتها ثم تصفعك فتلقي بك بعيداً... اصطدمت الموجة بالمركب فانقلب. صحيح أن الماء لم يكن شديد البرودة، لكنّ ثلاثاً وخمسين درجة فهرنهايت[1] كافية لإصابة المرء بانخفاض درجة حرارة الجسم إذا بقي في الماء فترة طويلة. وقد بقينا في الماء زمناً طويلاً حقّاً... أقصد القول إن هذا ما قتل أبي».

كانت النادلة اللطيفة ـ قد تكون طالبة جامعية ـ تقترب من خلف بلات، وكانت موشكة على سؤالنا إن كنا نريد جولة أخرى من الشراب. نظرت إليها وهززت رأسي هزة خفيفة مشيراً إليها بأن تبتعد عنا.

«كان انخفاض حرارة الجسم هو ما قتل أبي. لقد صار شديد النحول ولم يعد جسده محمياً بأية دهون على الإطلاق. كانت ساعة ونصف الساعة كافية لقتله وهو يتخبط في تلك المياه الباردة. يفقد المرء الحرارة بصورة أسرع إذا لم يبق ساكناً. وأما آندي...». بدا لي أن بلات قد أحس بوجود النادلة خلفه فاستدار نحوها رافعاً إصبعين اثنتين: *جولة أخرى*.

---

(1) 12 درجة حرارة مئوية تقريباً.

«لقد وجدوا سترة النجاة الخاصة بآندي خلف القارب، كانت لا تزال عالقة بالحبل».

«أوه، يا إلهي!».

«لا بد أنها انزلقت من فوق رأسه عندما سقط. إن لها لساناً يربطها من بين الفخذين ـ شيء غير مريح إلى حدٍّ ما؛ ولا يحب أحد ارتداء هذا النوع من السترات ـ على أية حال، لقد وجدوا سترة آندي وكانت لا تزال مربوطة بحبل النجاة. لكن من الواضح أنه لم يزرّرها بشكل كامل. ذلك الخراء الصغير. نعم، أعني...». ارتفع صوته وهو يقول هذا... «هذا من طبعه حقّاً. أنت تعرف. لم يرد إزعاج نفسه بإغلاق سترة النجاة على نحو صحيح! لقد كان على الدوام شديد الخراقة...».

التفتُّ صوب النادلة بحركة عصبية فقد كنت مدركاً شدة ارتفاع صوت بلات في تلك اللحظة.

أزاح بلات كرسيّه إلى الخلف بحركة مفاجئة جداً، وقال: «يا إلهي! كنت أكره آندي كثيراً، على الدوام. ابن حرام حقيقي».

«بلات...». أردت أن أقول له إنه لم يكرهه وإن ذلك لم يكن صحيحاً.

رفع رأسه ناظراً إليّ، ثم هز رأسه وقال: «أعني... أوه، يا إلهي...». كانت عيناه منتفختين، وكانت نظرتهما فارغة من أي تعبير مثل أولئك الطيارين في لعبة الكمبيوتر *(إيركاف تو: كمبوديان إنفيجن)*، التي كنت أحب أن ألعبها مع آندي... «عندما أفكّر في بعض الأشياء التي كنت أفعلها له، أوه، أبداً لن أسامح نفسي، أبداً».

مرت لحظة صمت ثقيلة مزعجة كنت أنظر فيها إلى يدي بلات الكبيرتين المستقرتين فوق الطاولة. يدان لا يزال لهما المظهر العنيف المتوحّش نفسه على الرغم من مرور تلك السنين كلها... بقية من قسوة قديمة كانت فيهما. صحيح أننا عانينا الكثير معاً عندما كان الآخرون يتنمّرون ويعتدون علينا في المدرسة. إلا أن الاضطهاد الذي مارسه بلات على آندي بلغ حد التعذيب

الحقيقي (اضطهاد مبتكر سادي، كان ممتعاً لبلات): كان يبصق في طعامه، نعم، ويحطم ألعابه؛ وكان يضع على وسادته أسماكاً يخرجها من حوض أسماك الزينة، ويضع على الوسادة أيضاً صوراً تشريحية مأخوذة عن الإنترنت. كان يزيح الأغطية عنه ويتبوّل عليه ثم يصيح: «بالَ الأحمقُ في فراشه». كان يضع رأسه في حوض الاستحمام، مثل طريقة التعذيب في سجن أبو غريب، ويمرّغ وجهه في صندوق الرمل في ساحة لعب الأطفال، بينما يصرخ آندي ويكافح حتى يتنفس. يمسك بالمرذاذ[1] فوق رأسه ويتركه يلهث ويتوسل إليه: *هل تريده؟ هل تريده؟* سمعت أيضاً قصة فظيعة... أخذه إلى غرفة في علّية بيت ريفي، وقيَّد يديه، وجعل حزامه على شكل مشنقة... شيء رهيب! أتذكّر كيف كان آندي يقول بصوته البعيد الذي لا مشاعر فيه: *كان سيقتلني لو لم تسمع المربية الجالسة في الأسفل صوت رفساتي على الأرض.*

كان مطر ربيعيٌّ خفيف ينقر نوافذ البار. نظر بلات إلى كأسه الفارغة، ثم رفع رأسه.

قال لي: «تعالَ لرؤية أمي. أعرف أنها تريد رؤيتك حقاً».

أدركت أنه يريد مني الذهاب إليها في تلك اللحظة، فقلت: «الآن؟».

«أوه، تعال من فضلك. إن لم تأتِ الآن، فتعال في وقت لاحق. لا تعدني من غير أن تأتي كما نفعل جميعاً عند اللقاء في الشارع. مجيئُك سيعني لها الكثير».

«حسناً...». جاء الآن دوري في النظر إلى ساعتي. كان لديَّ بعض المهام التي يجب أن أقوم بها. والحقيقة أن ذهني كان مزدحماً بأمور كثيرة وبمشاغل ضاغطة، لكن الوقت كان قد تأخّر، وكانت الفودكا قد جعلت ذهني ضبابياً بعض الشيء... لقد انزلق الوقت وضاع مني بعد ظهر هذا اليوم.

قال من جديد وهو يشير للنادلة حتى تأتي بالحساب: «تعال معي من فضلك! لن تسامحني أبداً إذا عرفت أنني صادفتك في الشارع وتركتك تذهب. ألن تأتي معي دقيقة واحدة؟».

---

(1) مرذاذ الربو المستخدم من أجل توسعة الشّعَب الهوائية.

3

خطوت إلى ردهة البيت كأنني أفتح بوابة تعود بي إلى طفولتي: قطع البورسلين الصيني، ولوحات مضاءة فيها مناظر طبيعية، ومصابيح خافتة الإنارة مظلّلة بالحرير. كان كل شيء باقياً كما رأيته عندما فتح لي السيد باربر باب بيتهم ليلة موت أمي.

قال لي بلات عندما رآني أسير، بفعل العادة، في اتجاه المرآة المدوَّرة المحدبة قاصداً غرفة المعيشة: «لا، لا. عد إلى هنا...». كان متجهاً إلى القسم الخلفي من الشقة... «لم نعد متمسكين بالرسميات الآن. عادة ما تستقبل ماما الناس في الغرف الخلفية، هذا إذا استقبلت أحداً...».

في تلك الأيام الخوالي لم أقترب أبداً من حرم السيدة باربر الداخلي؛ لكنني شممت رائحة عطرها مع اقترابنا كأنها ستارة تتطاير في النسيم عند نافذة مفتوحة ـ عطر لا يخطئه الأنف، زهور بيضاء مع غرابة ناعمة محسوسة في داخلها.

كان بلات يقول لي بصوت منخفض: «لم تعد تخرج مثلما كانت تفعل من قبل. وما عادت لدينا ولائم العشاء والمناسبات الكبيرة... ربما تستقبل أحداً على فنجان شاي مرة في الأسبوع، أو تخرج للعشاء مع بعض الأصدقاء. لا شيء أكثر من هذا».

دقّ بلات بابها وراح يصغي، ثم ناداها: «ماما!». ومع صوت ردّها الآتي من بعيد، شق الباب قليلاً وقال لها: «لديَّ ضيف أتى إليك. لن تحزري أبداً من هذا الذي وجدته في الشارع».

كانت غرفة كبيرة جداً يغلب عليها اللون الدرّاقي الذي كانت السيدات المتقدّمات في السن تفضّلنه في الثمانينات. خلف الباب مباشرة، كان هناك مكان للجلوس فيه أريكة وبضع كنبات صغيرة وكثير من التحف والوسائد المطرّزة، إضافة إلى تسع أو عشر لوحات أصلية قديمة: *طيران إلى مصر*، و*يعقوب والملاك*؛ كان أكثرها لوحات لتلاميذ رامبراندت،

لكني رأيت فيها لوحة صغيرة مرسومة بالقلم، بحبر بنّي، تمثل المسيح جاثياً يغسل قدميّ القديس بطرس. كانت لوحة مرسومة بمهارة فائقة (انحناءة ظهر المسيح المتعبة، والحزن الواهن المعقَّد على وجه القديس بطرس)... لعلها من رسم رامبراندت نفسه.

انحنيت قليلاً حتى أنظر إليها عن كثب. كان في الناحية الأخرى من الغرفة مصباح له ظلة على شكل معبد بوذي. سمعتها تقول: «ثيو؟». ثم رأيتها متكئة على كومة من الوسائد فوق سرير كبير إلى حدٍّ غريب.

مدت ذراعيها في اتجاهي: «أنت! لا أصدق هذا! لقد كبرت كثيراً! أين كنت طيلة هذه السنين كلها؟ هل أنت في المدينة الآن؟».

«نعم. لقد عدت منذ فترة. أنت تبدين رائعة». قلت هذا بنبرة مخلصة على الرغم من أنها لم تبدُ لي كذلك.

وضعت يديها على يدي: «وأنت أيضاً! كم صرت وسيماً! إنني منفعلة كثيراً...». بدت لي أكبر سناً وأصغر سناً مما كنت أتذكّره: شديدة الشحوب، من غير أحمر شفاه، وخطوط عند زاويتي عينيها، لكن جلدها لا يزال أبيض ناعماً. كان شعرها الفضّي الأشقر (هل كان فضّياً على الدوام، أم إنه بدأ يشيب؟)، منسدلاً على كتفيها، غير ممشَّط؛ كانت تضع نظارة لها عدستان نصف دائريتين، وسترة بيتية من الساتان مثبتة ببروش ماسي ضخم على هيئة ندفة ثلج.

«ها أنت تجدني هنا جالسة في سريري مع أشغال التطريز كأنني أرملة بحّار عجوز». قالت هذا وهي تشير إلى لوحة التطريز غير المنتهية على ركبتيها. كان كلبان ضئيلان نائمين على قطعة باهتة من الكشمير عند قدميها. فتح أصغرهما عينيه ورآني فقفز وراح يعوي عواء عنيفاً.

ابتسمت مضطرباً عندما رأيتها تحاول تهدئة الكلب. استيقظ الكلب الآخر وراح يعوي بدوره. نظرت من حولي. كان سريراً حديث الطراز كبير الحجم له رأس مغلّف بالقماش... لكن، كان لديها الكثير من

الأشياء القديمة المثيرة للاهتمام التي ما كنت لأنتبه إليها في صغري. كان واضحاً أن هذه الغرفة هي المستقَرّ الأخير في الشقة للأشياء التي تُرفع من الغرف المعتنى بها كثيراً التي يراها الناس: طاولتان صغيرتان غير متماثلتين؛ وتحف آسيوية كثيرة، ومجموعة متنوعة من أجراس الطاولة الفضية. طاولة من خشب ماهوغاني للعب الورق بدا لي من حيث أجلس أنها من صنع *دولكان فايفي*، ومن فوقها (وسط أطباق سجائر مزخرفة رخيصة، وعدد كبير من القطع المسطحة التي توضع تحت الكؤوس والزجاجات)، رأيت طائر كاردينال محنطاً: هشٌّ، أتلفه العث وصار لون ريشاته باهتاً كالصدأ... رأس مال جانباً بحدة، وعين خرزية سوداء مذعورة كساها الغبار.

«ششش يا تينغالين، اهدأ من فضلك، فأنا لا أستطيع احتمال هذا. إن اسمه تينغالين».

كان الكلب الصغير يقاوم يديّ السيدة باربر التي حملته بين ذراعيها: «إنه الأكثر شقاوة بينهما، أليس هذا صحيحاً يا عزيزي؟ إنه لا يهدأ لحظة واحدة! وهذه، ذات الشريط الوردي، اسمها كليمنتاين». علا صوتها فوق نباح الكلبين... «بلات، هل يمكن أن تأخذه إلى المطبخ؟ يصير مزعجاً حقّاً عند وجود ضيوف». ثم قالت لي: «عليَّ أن آتي بمدرب للكلاب...». جلستُ على الكنبة إلى جانب السرير بينما كانت السيدة باربر تطوي قطعة التطريز وتضعها في سلة بيضوية الشكل. على غطائها لوحة صغيرة مرسومة من العاج. كان تنجيد الكنبة مهترئاً، وكانت خطوط القماش الباهتة مألوفة لي. كنبة كانت في غرفة المعيشة، ثم نُفيت إلى غرفة النوم. الكنبة نفسها التي وجدت أمي جالسة عليها عندما أتت إلى بيت باربر منذ سنين كثيرة حتى تأخذني بعد أن قضيت الليلة مع آندي. مررت بإصبعي على القماش، وعلى الفور رأيت أمي تنهض لتحيّتي مرتدية معطفها الأخضر القصير اللامع، الذي كانت قد لبسته في ذلك

اليوم ـ معطف أنيق إلى حد يجعل الناس يستوقفونها ليعرفوا من أين اشترته؛ لكنه يظلّ أقل سوية من بيت آل باربر!

سمعت السيدة باربر تقول: «ثيو! ألا تحب أن تشرب شيئاً، فنجان شاي؟ أو شيء أقوى؟».

«لا، شكراً لك».

ربتت بيدها على غطاء السرير المزركش: «تعال واجلس إلى جانبي. من فضلك. أريد أن أراك جيداً».

داهمني حزن فظيع عندما سمعت نبرة صوتها، نبرة رسمية ودود في وقت واحد؛ وعندما نظر كل منا إلى الآخر بدا لي أن الماضي كلّه قد اتضح من جديد وتركّز كلّه في هذه اللحظة، نقياً كالزجاج، مزيجاً مركَّباً من سكون عصر ذلك اليوم الربيعي، ومن الكرسي الداكن في الممر ولمسة يدها الخفيفة كالهواء على ظهر يدي.

«أسعدني مجيئك كثيراً».

قلت وأنا أنتقل وأجلس على حافة السرير إلى جانبها: «سيدة باربر، يا إلهي، لا أستطيع تصديق هذا! لم أعرف بالأمر إلا الآن. يؤسفني ما حدث كثيراً».

شدّت على شفتيها مثلما يفعل طفل يحاول منع نفسه من البكاء. قالت: «نعم... لا بأس!». ثم امتد بيننا صمت رهيب بدا كأن شيئاً لا يستطيع ضبطه.

كررت بنبرة أكثر سرعة: «أنا في غاية الأسف»؛ كنت مدركاً مقدار ما كان عليَّ قوله من خراقة... وكأنني قادر على التعبير عن شدة أسفي من خلال رفع صوتي. رفرفت عيناها الحزينتان، ومن غير أن أدرك ما الذي أفعله، مددت يدي ووضعتها فوق يديها، وبقينا جالسين هكذا وقتاً طويلاً إلى حد غير مريح... وفي النهاية، كانت هي أول من تكلّم: «على أية حال...». مسحت عن عينها دمعة بحركة ثابتة مصمّمة بينما كنت أبحث

عن شيء أستطيع قوله... «لقد كان يتحدّث عنك قبل وفاته بأقل من ثلاثة أيام. لقد خطب وكان مزمعاً على الزواج. خطب فتاة يابانية».

«هل تمزحين؟ حقاً!». لم أستطع منع نفسي من الابتسام، قليلاً، على الرغم من حزني. كان آندي قد اختار اللغة اليابانية لتكون لغته الأجنبية الثانية في المدرسة لسبب محدد، ألا وهو ميله الشديد إلى شخصية الفتاة نيكو في الرسوم المتحركة، وإلى فتيات تلك الكتب في مراكز البحارة... «يابانية، من اليابان؟».

«نعم. شيء صغير ضئيل له صوت كصوت الفأرة، ودفتر جيب على هيئة حيوان محنَّط. أوه، نعم، لقد قابلتُها...». قالت هذا وهي ترفع حاجبها... «وكان آندي يتولى الترجمة بينما جلسنا نتناول سندويتشات مع الشاي في مقهى بيير. لقد أتت إلى الجنازة بالطبع. كان اسمها *نيواكو*. ثقافتان مختلفتان، وتلك الأشياء كلّها؛ صحيح ما يقال من أن اليابانيين لا يخفون مشاعرهم».

كانت الكلبة الصغيرة، كليمنتاين، قد تسلّقت كتف السيدة باربر والتفت حول رقبتها كأنها ياقة فرائية. قالت لي وهي ترفع يدها لتربّت على الكلبة: «عليَّ أن أعترف بأنني أفكر في أن آتي بكلب شرس، ما رأيك؟».

قلت مضطرباً: «لست أدري». كان هذا مختلفاً كل الاختلاف عن سلوك السيدة باربر كما، لأنها لم تكن لتطلب رأي أحد في أي موضوع... وبالتأكيد لم تكن تطلب رأيي... «إن الكلبين صارا مصدر راحة كبيرة لنفسي. أتت صديقتي القديمة ماريا مرسيدس دو لا بيريرا بعد أسبوع من الجنازة. أتت على نحو غير متوقَّع حاملة معها سلة فيها جروان صغيران بشرائط ملونة. عليَّ القول إنني لم أكن واثقة أول الأمر، لكني لا أظنني تلقيت في حياتي كلها هدية أكثر ذكاء من هذه الهدية. لم نكن قادرين على اقتناء الكلاب بسبب آندي. كانت لديه حساسية شديدة، ألا تتذكر هذا؟».

«بلى، أتذكّر».

كان بلات قد عاد إلى الغرفة ـ وكان لا يزال مرتدياً سترة التويد التي تشبه ما قد يرتديه مراقب الصيد: جيوب كبيرة متهدّلة من أجل الطيور الميتة وأغلفة الطلقات الفارغة. سحب كرسياً ليجلس عليه وقال وهو يعض على شفته السفلى: «إذاً، يا ماما».

«ماذا يا بلات...». صمت قصير... «هل كان يومك في العمل طيباً؟».

أومأ برأسه كما لو أنه يحاول طمأنة نفسه بهذه الحقيقة: «كان عظيماً، نعم، كان يوماً مزدحماً حقاً».

«يسعدني أن أسمع هذا».

«كتب جديدة، واحد منها عن مؤتمر فيينا».

«وماذا أيضاً؟...»

ثم استدارت إليَّ: «وأنت يا ثيو؟».

«عفواً؟».

كنت أنظر إلى اللوحة الصغيرة المرسومة على العاج على غطاء سلة الخياطة (سفينة صيد حيتان) أفكر في آندي المسكين: ماء أسود، وملح في حلقه، وغثيان، وتخبّط. ما أقسى وما أفظع أن يموت بسبب أكثر شيء يكرهه!... *المشكلة أساساً أنني أكره القوارب*.

«أخبرني... ما الذي تفعله بنفسك هذه الأيام؟».

«ممم، أشتغل في مجال الأنتيكات. الأثاث الأميركي غالباً».

«لا! غير معقول. ما أروع هذا!». كانت في بهجة شديدة.

«نعم... في قلب المدينة. أنا أدير المتجر وأتولى ما يتعلّق بالمبيعات. وشريكي...». لم أعتد استخدام هذه الكلمة لأن الشراكة كانت جديدة... «شريكي في العمل، اسمه جيمس هوربات، إنه صاحب الحرفة... إنه يقوم بأعمال الاستصلاح. يجب أن تأتي لزيارتنا ذات يوم».

تنهّدت وقالت: «أوه، شيء جميل، الأنتيكات. حسناً... أنت تعرف

كم أحب الأشياء القديمة. أتمنى لو كان لدى أطفالي اهتمام بها. كنت آمل دائماً أن يكون بينهم من يهتم».

قال بلات: «لا بأس... لديكِ دائماً كيتزي».

تابعت السيدة باربر كلامها كما لو أنها لم تسمع ما قاله بلات: «أمر غريب! ليس لدى أحد من أطفالي عظمٌ فنيٌّ واحد في جسمه. أليس هذا أمراً شديد الغرابة؟ هؤلاء الهمج الصغار... أربعتهم».

قلت لها بنبرة مرحة إلى أقصى حد استطعته: «أوه، من فضلك، أتذكّر أن تود وكيتزي كانا يتلقيان دروس بيانو كثيرة. وكان لدى آندي كمانه، ماركة سوزوكي». لوَّحت بيدها معترضة: «أوه، أنت تدرك ما أعنيه. ليس لدى أحد منهم حس بصري. ليس لديهم أي تقدير للوحات أو للتصميم الداخلي، أو أي شيء من هذا القبيل...». أمسكت بيدي من جديد... «في طفولتك، كنت أضبطك واقفاً في الممر تنظر إلى لوحاتي. كنت تذهب مباشرة إلى أفضل لوحة بينها. المنظر الطبيعي لفريدريك تشيرتش، أو لوحة فيتز هنري نيم، أو لوحة رفائيل بيل، أو لوحة جون سنغلتون كوكلي. أنت تعرفها، الصورة الجانبية البيضوية، الصورة الصغيرة. فتاة تضع قبعة!».

«هل كانت تلك لوحة لكوكلي؟».

«نعم، لقد رأيتك تنظر إلى لوحة رامبراندت الصغيرة قبل قليل».

«هل يعني هذا حقاً أنها لرامبراندت؟».

«نعم، لوحة واحدة فقط. لوحة غسل القدمين. وأما البقية فهي لفنانين من مدرسته. عاش أطفالي مع هذه اللوحات طيلة حياتهم، فلم تظهر لدى أحد منهم أدنى بارقة اهتمام. أليس هذا صحيحاً يا بلات؟».

«أفضّل القول إن بعضنا قد برع في أشياء أخرى».

تنحنحتُ قليلاً وقلت: «هل تعرفين؟... لقد عرّجت قليلاً حتى ألقي التحية عليك. أمر رائع أن أراك... أن أراكما...». التفتّ قليلاً حتى أشمل بلات بهذه الكلمات... «أتمنّى لو جرى هذا اللقاء في ظروف أكثر سعادة».

«ألا تبقى لتناول العشاء معنا؟».

قلت وقد أحسست بأنني محاصر: «إنني آسف. لا أستطيع البقاء الليلة. لكني رغبت حقاً في زيارة سريعة حتى أراك».

«فهل تعود يوماً لتناول العشاء؟ أو الغداء؟ أو من أجل الشراب؟...».

ضحكت... «أو من أجل أي شيء تريده».

«بالتأكيد، سآتي للعشاء».

قرّبت مني خدها لأقبله... شيء لم تفعله أبداً عندما كنت صغيراً، بل لم تكن تفعله حتى مع أطفالها.

قالت وهي تمسك بيدي وترفعها فتضغط بها على وجهها: «كم يسعدني أن أراك هنا من جديد! مثلما كنا منذ زمن بعيد».

4

قبل خروجي من باب البيت، صافحني بلات مصافحة غريبة ـ خليط من مصافحة رجال العصابات ومصافحة الزملاء الجامعيين ولغة الإشارة الدولية؛ فلم أعرف كيف أستجيب لها. سحبت يدي مرتبكاً وضربت قبضة يدي بقبضة يده لأنني لم أجد شيئاً آخر أفعله. أحسست بالسخف.

قلت في الصمت المرتبك الذي أعقب ذلك: «إلى اللقاء. يسعدني أنني التقيتك مصادفة. اتصل بي».

«من أجل العشاء؟ أوه، نعم. سنأكل في البيت على الأرجح إن كان ذلك مناسباً لك. ماما لا تحب الخروج من البيت كثيراً». دسّ يديه في جيبي سترته، ثم قال بصوت أحسسته مختنقاً: «في الآونة الأخيرة، صرت أرى صديقك القديم كيبل. أراه كثيراً. سوف يسرّه سماع أنني رأيتك».

«توم كيبل؟». ضحكت غير مصدِّق، لكنها لم تكن ضحكة حقيقية تماماً لأنني كنت لا أزال أشعر بالانزعاج والغضب كلما استعدت تلك الذكرى السيئة القديمة عندما هددونا بالطرد من المدرسة معاً، وكذلك عندما تركني بعد أن ماتت أمي. قلت عندما لم يُجب بلات بشيء: «هل أنت على تواصل معه؟ لم أتذكّر توم منذ سنين كثيرة».

ابتسم بلات ابتسامة متكلّفة: «عليَّ أن أعترف بأنني كنت أرى، في تلك الأيام، أن يكون أي واحد من أصدقاء ذلك الولد قادراً على تحمل شخص ساذج مثل آندي شيئاً لا يصدّق...». كان يتحدّث ببطء متكئاً على إطار الباب... «ليس لأنني كنت معترضاً على ذلك، فالله وحده يعلم أن آندي كان في حاجة إلى من يخرج معه في نزهات، ويأتيه بشيء من الأعشاب المخدِّرة أو أي شيء». تذكّرت تلك الأسماء الساخرة الكثيرة التي كان بلات يطلقها على آندي: آندريب. آندرويد. الخصية الواحدة. الوجه ذو البثور. سبونج بوب.

أخطأ بلات فهم نظرتي الفارغة، فقال لي: «ألم تكونا تفعلان ذلك؟ كنت أظنّك تدخّنها. لكني واثق من أن كيبل كان يفعل تلك الأشياء».

«لا بد أن ذلك كان بعد رحيلي».

نظر إليَّ بلات بطريقة لم أكن واثقاً من أنها تعجبني: «حسناً، ربما. بالتأكيد، كانت ماما تراك بريئاً جدّاً، لكني كنت أعرف أنك صديق لكيبل. وقد كان كيبل لصاً صغيراً...». ضحك ضحكة حادّة أعادت إليَّ ذكرى بلات القديم المزعج... «كنت أقول لكيتزي وتودي أن يقفلا غرفتيهما دائماً عندما تكونان في البيت حتى لا تسرق شيئاً».

«أهذا كل ما في الأمر؟». مرّت عليَّ سنوات لم أتذكّر خلالها حادثة حصالة النقود التي كانت على شكل خنزير صغير.

نظر بلات إلى السقف: «حسناً، أعني أن كيبل... لقد كنت على علاقة بأخته جوي... يا إلهي، لقد كانت مثيرة».

«صحيح». كنت أتذكّر جوي كيبل بشكل جيد ـ في السادسة عشرة، مرصوصة الجسم ـ أتذكر كيف احتكت بي في ممر في *هامبتون*. كانت ترتدي قميصاً شديد الضيق من غير أكمام وسروالاً داخلياً أسود.

«جوي القذرة! يا لتلك المؤخرة التي كانت لديها! هل تتذكّر كيف كانت تتجوّل عارية عند حوض الاستحمام الحار هناك؟ على أية حال فقد أمسكوا بكيبل في النادي الذي كان يذهب إليه أبي في *هامبتون* لأنه

كان يسرق ما يجده في خزائن غرف تبديل ملابس الرجال. أظنه لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. ألم يكن ذلك بعد ذهابك».

«لا بد أن يكون الأمر كذلك».

«حدثت هذه الأشياء في عدد كبير من النوادي هناك. فخلال إقامة مباريات كبيرة، أو أشياء من هذا القبيل، كان يتسلّل إلى غرف الخزائن، ويسرق كل ما تطاله يداه. وبعدها، أظنه كان في كلّيتي آنذاك، أوه، أين حدث هذا، ليس في *ميدستون*، لكن، على أية حال، عمل كيبل في وظيفة صيفية في أحد النوادي حيث كان يساعد مرتادي البار، ويرافق الأشخاص المتقدّمين في السن الذين يفرطون في الشرب إلى حد يعجزون معه عن قيادة السيارة. شخص حلو المعشر، متحدّث جيد... نعم، أنت تعرف. كان يجعل أولئك العجائز يتحدّثون عن أيام الحرب، أو عن أي شيء. فكان يشعل لهم السجائر ويضحك لنكاتهم. وأيضاً، كان يساعدهم فيسندهم حتى يصلوا إلى بيوتهم، وفي اليوم التالي يكتشفون أن محافظهم قد ضاعت منهم».

قلت باقتضاب لأنني لم أحب نبرة الصوت التي كان يستخدمها: «حسناً، أنا لم أره منذ سنين كثيرة. ما الذي يفعله الآن على أية حال؟».

«نعم، لقد عاد إلى ألاعيبه القديمة. وفي حقيقة الأمر، هو يقابل أختي من وقت إلى آخر على الرغم من أنني أتمنّى أن أستطيع وضع حدٍّ لهذا». قال هذا وقد تغيّرت نبرته قليلاً... «أظن أنني أعطّلك عن أشغالك. لا أطيق الانتظار إلى أن أخبر كيتزي وتودي بأنني رأيتك ـ تودي خاصة. لقد كان لك أثر حقيقي عليه. وهو يتحدّث عنك طيلة الوقت. سوف يكون في المدينة خلال عطلة الأسبوع القادمة. وأنا واثق من أنه يحب أن يراك».

5

قررت أن أذهب مشياً إلى البيت بدلاً من الذهاب بسيارة تاكسي لأنني أردت أن يهدأ رأسي. كان يوماً ربيعياً صافياً، في سمائه غيوم تخترقها حزم

من أشعة الشمس. كان موظفو المكاتب يتدفّقون في الممرات الفرعية، لكن الربيع في نيويورك كان على الدوام وقتاً مسموماً بالنسبة إليّ، كان صدى موسمياً لموت أمي مع تفتح أزهار النرجس وتبرعم الأشجار، وكان انفجاراً فيه أشلاء ودماء ونُثار من هلوسة ورعب. وبعد أن عرفت بموت آندي، صار الأمر كما لو أن أحداً قد ضغط مفتاح تشغيل الأشعة السينية، فانقلب كل شيء إلى صورة فوتوغرافية سالبة، فما عدت أرى غير الموت على الرغم من وجود النرجس وأشخاص يتنزهون مع كلابهم، وعناصر شرطة السير يصفرون عند زوايا الشوارع. أرصفة غاصة بالموتى، جثث تتدفّق خارجة من الباصات مسرعة في طريقة عودتها من العمل... بعد مئة سنة، لن يبقى منهم أي شيء غير حشوات الأسنان والأجهزة الطبية المزروعة في أجسادهم، وربما نتف قليلة من ملابس وعظام.

كان شيئاً غير معقول. لقد فكرت مليون مرة في الاتصال بآندي ولم يمنعني من ذلك إلا الحرج. صحيح أنني لم أواصل علاقتي مع أي شخص من الأيام القديمة، لكني كنت أصادف من حين لآخر زميلاً من زملاء المدرسة؛ كما صادفت أيضاً زميلتي مارتينا ميتشتبلاو (أقمت معها في السنة السابقة علاقة قصيرة غير مرضية: ضاجعتها ثلاث مرات سريعةً على أريكة قابلة للطي). لقد حدثتني مارتينا عن آندي وقالت إنه كان في *ماساشوستس*. سألتها إن كانت على تواصل معه، فقالت لي إنه لا يزال شديد الهوس بالدراسة مثلما كان، لكنه صار يبالغ في الأمر كثيراً. نظارة بسماكة زجاج الكولا! وبنطلون قطن برتقالي اللون، وتسريحة شعر أشبه بخوذة مقاتل في فيلم حرب النجوم!

واو، آندي! هكذا قلت في نفسي مستغرباً وأنا أمد يدي من فوق كتف مارتينا العاري لأتناول واحدةً من سجائرها. فكرت آنذاك في أن رؤيته ستكون جيدة حقاً ـ مؤسف أنه لم يكن في نيويورك ـ قد أتصل به في وقت ما خلال العطلة عندما يكون في البيت... هكذا حدّثت نفسي يومها.

لكني لم أتصل. لم يكن لي حساب على فايسبوك لأنه يخلق عندي إحساساً بأنني مراقب؛ ونادراً ما كنت أتابع الأخبار. لم أكن قادراً على تخيّل كيف مر الخبر من غير أن أسمع به ـ لكن الحقيقة أنني كنت في الأسابيع التي سبقت ذلك في حالة قلق على المتجر جعلني غير قادر على التفكير في أي شيء آخر. لا أقصد القول إننا كنا في حالة قلق من الناحية المادية، فالواقع أننا كنّا كمن يجمع المال بالمجرفة: مالٌ جعلت كثرته هوبي، الذي نسب إليَّ الفضل في خلاصه (كان على شفير الإفلاس)، مصرّاً أشد الإصرار على أن أكون شريكه، الأمر الذي لم أكن شديد التوق إليه بالنظر إلى الوضع العام. لكن الجهد الذي بذلته لتحسين حالته أدى إلى زيادة تصميمه على أن أشاركه الأرباح. كلما ازدادت محاولاتي لثنيه عن هذا، كلما ازداد الرجل إلحاحاً. فبحكم طبيعته الكريمة، لم يجد ما يفسّر به امتناعي غير «التواضع». على أنني كنت خائفاً حقاً من أن تضفي الشراكة صبغة رسمية على أمور «غير رسمية» كانت تجري في المتجر... أمور كان من شأنها أن تصدم هوبي المسكين صدمة كبيرة إن هو عرف بها. لكنه لم يعرف. لقد عمدت إلى بيع أحد العملاء قطعة أثاث زائفة على أنها قطعة أصلية فاكتشف العميل الأمر وراح يثير ضجة.

لم يكن لديَّ أي مانع من إعادة المال إلى ذلك العميل. والحقيقة أن الشيء الوحيد الذي كان يمكن فعله هو استعادة القطعة مقابل خسارة. لقد حقّق هذا الأسلوب نجاحاً طيباً في ما مضى. كنت أبيع قطعاً أُجرَيت عليها تغييرات كبيرة، أو أعيد بناؤها بالكامل، على أنها قطع أصلية. فإذا أخذ المشتري تلك القطعة إلى بيته ثم لاحظ فيها مشكلة لم تلفت نظره تحت الإنارة الخافتة في متجر هوبارت وبلاكويل («كان هوبي قد نصحني في وقت مبكر من اللعبة بضرورة «أن تحمل معك دائماً مصباح جيب لأن ظلمة متاجر الأنتيكات أمر مقصود»)، فإنني أظهر جزعي الشديد لذلك مع استمراري مصراً على قناعتي بأن القطعة أصلية... ثم أعرض، بكل

شهامة، أن أشتري القطعة بسعر يزيد عشرة بالمئة عمَّ دفعه العميل فيها، وذلك وفق شروط البيع المعتادة. كان هذا يجعلني أبدو شخصاً طيباً واثقاً من سلامة منتجاتي، بل مستعدٌ للمضي إلى درجة من التساهل تبلغ حد السخف حتى يظل عميلي مسروراً. وفي أكثر الأحيان، كان موقف العميل يلين فيقرّر الاحتفاظ بالقطعة. وأما في الحالات الثلاث، أو الأربع، التي قبل فيها المشترون عرضي السخيّ، فقد كان الشيء الذي لم يلاحظه أحد منهم هو أنه قد صار للقطعة المزيفة ـ بين ليلة وضحاها ـ مصدرٌ مُثبَت لأن حيازتها انتقلت إليَّ بموجب فاتورة رسمية تُبيّن سعراً يؤكّد قيمتها. وبعد أن تصير القطعة بين يدي أضع عليها لصاقة تقول إنها كانت جزءاً من المجموعة الشهيرة لدى جامع التحف فلان الفلاني. وعلى الرغم من مبلغ التعويض الذي دفعته لإعادة شراء القطعة من السيد «فلان الفلاني»، الذي يكون في الحالة المثالية مصمم أزياء أو ممثلاً لديه هواية جمع التحف واقتنائها، هذا إن لم يكن جامع تحف معروفاً، فإنني أصير بعد ذلك قادراً على إعادة بيع القطعة نفسها مقابل ثمن قد يعادل أحياناً ضعفي الثمن الذي استعدتها به، فيشتريها واحد من أثرياء وول ستريت الجدد لا يميز بين صنعة تشيبنديل وصنعة إيثان آلن، لكنه انبهر كثيراً بـ«الوثائق الرسمية» التي تثبت أن تلك الخزانة أو الطاولة قد أتت من مجموعة «فلان الفلاني» الذي يكون واحداً ممن اشتهروا بأعمالهم الإنسانية أو مصمماً داخلياً، أو شخصية بارزة في *برودواي*، أو أي شيء مهمّ آخر.

كان الأمر ناجحاً حتى ذلك الوقت. وأما هذه المرة، فإن السيد «فلان الفلاني» لم يبتلع الطعم. كان شخصاً ثرياً مخنثاً من شرق نيويورك اسمه لوسيوس ريف. وكان سبب اضطرابي أنه أكد لي أنني خدعته عامداً، وهذا ما كان صحيحاً؛ إضافة إلى اعتقاده بأن هوبي كان مشتركاً في الأمر، بل إنه العقل المدبّر وراء المخطط الاحتيالي كله، وهذا ما كان بعيداً عن الحقيقة كل البعد. وعندما حاولت حلّ المشكلة عن طريق الإصرار على أنني

مسؤول مسؤولية تامة عن تلك الغلطة... تنحنحت وقلت «صدقاً يا سيدي، لقد أخطأت فهم ما قاله لي هوبي لأنني جديد في الأمر، لذلك آمل ألا تلومني، فالحقيقة أن عمله رفيع الجودة إلى حد يجعل هذه الأغلاط ممكنة الحدوث أحياناً، ألا ترى هذا؟». لكن السيد ريف (حسن الملبس، سنّه غير واضحة، وعمله غير واضح، «نادِني لوسيوس»)، ظل ثابتاً لا يتزعزع: «هذا يعني أنك لا تنكر أن القطعة من صنع جيمس هوبارت!». قال لي هذا خلال غداء مدمّر للأعصاب في *نادي هارفارد*. وكان مسترخياً في كرسيه يمر بطرف إصبعه على حافة كأس الصودا بحركة ماكرة.

أدركت أنني ارتكبت غلطة تكتيكية عندما التقيت به على أرضه، حيث يعرف الجميع في النادي، ويطلب ما يريده كما لو أنه صاحب ذلك المكان. فما كنت قادراً فيه على إظهار كرمي ولا على أن أقترح عليه أن يجرّب هذا الطبق أو ذاك.

«... أو لعله أخذ عامداً هذا الشكل التزييني المنحوت من قطعة لثوماس آفليك، من، نعم... نعم، أظن أنها من صنع آفليك، إنها من فيلادلفيا على أية حال، ثم وضعها على هذه الخزانة الصغيرة التي هي قطعة أنتيكا أصلية من الفترة نفسها لكنها غير متميزة! ألسنا نتحدث عن القطعة نفسها؟».

«من فضلك، لو سمحت لي فقط أن...». كنا جالسين إلى طاولة عند النافذة. وكانت الشمس في مواجهتي. كنت أتصبّب عرقاً، وكنت غير مرتاح على الإطلاق. «فكيف تؤكّد لي أن الخداع لم يكن مقصوداً؟ ... من جانبك ومن جانبه أيضاً؟».

«انظر...». كان النادل قريباً منا؛ وتمنّيت أن يبتعد عنا... «الغلطة غلطتي. لقد قلت لك هذا. وقد عرضت عليك شراء القطعة منك بثمن أكبر؛ وبالتالي فأنا لا أفهم تماماً ما الذي تريده غير ذلك».

كنت شديد القلق على الرغم من نبرة كلامي الهادئة تماماً. ولم تخفّف

قلقي حقيقة أن هذا الكلام كان يجري بعد اثني عشر يوماً، وأن لوسيوس ريف لم يكن بعد قد أودع ثمن القطعة في الحساب ـ كنت أتأكد من ذلك في البنك قبل أن أصادف بلات مباشرة.

لم أستطع معرفة ما يريده لوسيوس ريف. كان هوبي يصنع هذه القطع التي «تتغذّى» على أجزاء من أخواتها؛ قطع أجريت عليها تغييرات كبيرة (كان هوبي يسميها «الأطفال المستبدَلون»)؛ وقد أمضى في صناعتها طيلة حياته، فصار المستودع في ساحة البحرية في بروكلين ممتلئاً حتى آخره بقطع عليها بطاقات تعود إلى ما قبل ثلاثين عاماً، بل إلى أكثر. عندما ذهبت إلى ذلك المكان وحدي أول مرة، وأمضيت بعض الوقت في النّظر إلى القطع الموجودة فيه، صعقت لاكتشافي قطعاً بدت لي أعمالاً أصلية: قطع أثاث بيضاء من صنع هيبل، وقطع من صنع *شيراتون* تبدو حقيقية... كهف علي بابا كله كنوز... قال لي هوبي: «أوه، يا ربي! لا، صدّقني... لو كانت حقيقية لاتصلت بقسم الأثاث الأميركي لدى كريستيز منذ زمن بعيد». كان صوته على الهاتف الخليوي متقطعاً، لأن ذلك المستودع كان أشبه بمعقل عسكري محصَّن من غير تغطية هاتفية، مما جعلني أمضي إلى خارجه حتى أكلّم هوبي حيث وقفت على حافة رصيف التحميل الذي تعصف به الريح ووضعت إصبعي في أذني.

بقيت سنوات كثيرة معجَباً بـ«أطفال هوبي المستبدَلين»، بل إني عملت على بعضهم أيضاً. لكني فوجئت حقّاً عندما خدعتني تلك القطع التي لم أرها قبل ذلك، فدارت في رأسي ظنون مجنونة. من حين لآخر، كانت تمر بالمتجر قطعة ذات جودة تليق بالمتاحف، لكنها مكسورة أو متضررة. كانوا يأتون بها لإنقاذها. وكان هوبي يحزن على تلك البقايا العتيقة الرائعة كما لو أنها أطفال جائعون، أو قطط أسيئت معاملتها. كان واجبه يفرض عليه إنقاذ ما يستطيع إنقاذه. (زوج من التيجان هنا، ومجموعة من القوائم المخروطة بعناية هناك). كان يستعين بمواهبه في

النجارة والتجميع حتى يستخلص من تلك القطع قطعاً جديدة تكون في غاية الجمال أحياناً، وتكون في أحيان أخرى نماذج صادقة عن المرحلة الزمنية التي صنعت القطع الأصلية فيها... لكنها كانت كلّها قطعاً يصعب تمييزها عما هو أصلي.

أحماض، وبقع طلاء، وتذهيب متقشِّر، وسخام، وشمع، وأوساخ، وغبار. مسامير عتيقة جعلها هواء البحر صدئة. وحامض النتريك على خشب جوز جديد. وسكك دروج تآكلت بفعل ورق الزجاج، وبضعة أسابيع تحت مصباح يحاكي نور الشمس لتعتيق الخشب الجديد مئة سنة. من خمسة كراسي طعام محطَّمة من صنع جورج هيبلوايت، كان هوبي قادراً على صنع مجموعة كاملة من ثماني كراسي متينة تبدو أصلية تماماً، وذلك باستخدام الأجزاء الأصلية وإنتاج نسخ عنها (باستخدام خشب من قطع أثاث تالفة من الفترة نفسها)، ثم تجميع تلك القطع بحيث يكون الناتج مكوَّناً من أجزاء أصلية وأجزاء غير أصلية. («هذه قائمة كرسي...»، يمر بإصبعه على امتدادها... «عادة ما تكون على قوائم الكراسي نُقرات وآثار احتكاك في الأسفل ـ وحتى عندما تستخدم خشباً قديماً، فإن عليك أن تستخدم جنزيراً لإحداث الأثر نفسه على القوائم المصنوعة حديثاً إذا أردتها أن تطابق القديمة... اضربها بخفة شديدة جداً... لا يجوز أن تقسو عليها! ثم إن تلك الآثار ليست متماثلة لأن الساقَيْن الأماميين تكونان معرّضَتَيْن لهذه الإصابات أكثر من الخلفيتين، هل رأيت؟»). لقد رأيته يعيد ترتيب خشب أصلي من شظايا ونثرات خشب من خزانة من القرن التاسع عشر، فيصنع منها طاولة من الممكن تماماً أن يظنها المرء قد خرجت من تحت يدي دونكان فايف نفسه. (كان هوبي يرجع إلى الخلف خطوة، وينظر إلى القطعة قلقاً، ويقول: «هل تظن أنها مقبولة؟» كان لا يدرك روعة ما أنتجه). أو يمكن أن تتحوّل تحت يديه قطعة عادية يعمل عليها ـ مثل خزانة الدروج «تشيبنديل» التي اشتراها لوسيوس ـ عن طريق إضافة عنصر

تزييني مأخوذ من قطعة عظيمة تالفة من الفترة نفسها، فتصير شيئاً لا يكاد يمكن تمييزه عن القطع الفنية الأصلية التي أبدعها كبار الصنّاع.

لو كان رجلاً عملياً أكثر، أو لو كان أقل استقامة، لاستخدم هذه المهارة من أجل غايات محسوبة ولجنى ثروة منها (أو «لضاجعها بأعنف من خمسة آلاف عاهرة»... تعبير قوي استخدمه غريشا). لكن، وبحسب معرفتي، فإن فكرة بيع هذه القطع المعدلة على أنها قطع أصلية، أو حتى فكرة بيعها، لم تكن لتخطر في بال هوبي إطلاقاً. كما أن قلة اهتمامه الشديدة بالجلوس في المتجر منحتني حرية كبيرة في إدارة العمل بحيث يتراكم المال وأصير قادراً على تسديد الفواتير. من خلال بيع أريكة *شيراتون* واحدة مع مجموعة من الكراسي ذات الظهور المضلعة بثمن يوازي أسعار متجر *إزرائيل ساك* (اشترتها زوجة مصرفي من كاليفورنيا)، تمكنتُ من تسديد مئات آلاف الدولارات من الضرائب المتأخرة المتراكمة على البيت. وعندما بعت غرفة طعام أخرى مع كنبة *شيراتون* صغيرة لعميل من خارج المدينة، يُفترض أن يكون أكثر دراية لكن بصيرته عميت بفعل السمعة العطرة التي تمتع بها كل من هوبي وويلتي، واستطعت تحرير المتجر من ديونه كلّها.

قال لوسيوس مبتهجاً: «أمر مناسب تماماً أن يترك لك أمور البيع في المتجر! إن لديه ورشة تنتج هذه القطع المزيفة، لكنه يستخدمك لغسل يديه من كيفية بيعها».

«لقد قدّمت إليك عرضي. ولن أجلس هنا طيلة النهار حتى أستمع إلى هذه الأشياء».

«فلماذا بقيت جالساً؟».

لم أكن لأشك لحظة واحدة في أن هوبي سيُدهش كثيراً إذا عرف أنني أبيع تلك القطع المستبدلة على أنها قطع حقيقية. الحقيقة أن الكثير من نتاجاته الأكثر إبداعاً كان زاخراً بأخطاء صغيرة جداً (كأنها نكت

مخفية). والحقيقة أيضاً أن هوبي نفسه لم يكن دائماً شديد التدقيق في ما يتعلّق بالمال، مثلما ينبغي أن يكون شخصاً يتعمّد إنتاج قطع مقلّدة حتى يبيعها على أنها قطع أصلية. لكني كنت قد وجدت أن من السهل كثيراً خداع مشترين لديهم بعض الخبرة إذا وضعت سعراً أقل بعشرين بالمئة مما يجب أن يكون عليه سعر القطعة الأصلية. يحب الناس أن يظنّوا أنهم يحصلون على صفقة جيدة. وفي أربع من كل خمس مرات، كانت عيونهم تتجاوز الأشياء التي لا يريدون رؤيتها. كنت أعرف كيف أشد انتباه الناس إلى الجوانب الرائعة المتميزة في كل قطعة، إلى قشرة الخشب المقطوعة باليد، وإلى التشقّقات الدقيقة والندوب والنقرات التي تثبت تقادم العهد، فأمرّ بإصبعي على امتداد منحنٍ رشيق على شكل حرف S (المنحني الذي اخترعه هوغراف بنفسه وسمّاه «خط الجمال»، حتى أجذب عين المشتري فأجعلها تبتعد عن قطعة مستبدَلة في الخلف حيث يستطيع أن يرى ـ تحت إنارة جيدة ـ أن عروق الخشب غير متطابقة تمام التطابق. لم أكن أقترح على العملاء فحص الجانب السفلي للقطعة؛ وهو الأمر الذي كان يفعله هوبي من غير تأخير لشدة حرصه على تثقيف الناس، ولو أدى هذا إلى إلحاق ضرر قاتل بمصلحته الخاصة. لكني كنت أحرص (تحسّباً لأن يطلب أحد العملاء رؤية أسفل القطعة) على أن تكون الأرض من حولها متسخة جداً جداً؛ وكنت أحرص دائماً على أن يظلّ مصباح الجيب الذي معي ضعيف الإنارة إلى أقصى حد ممكن. كان في نيويورك أناس كثيرون لديهم مال كثير، ولديهم أيضاً اختصاصيو ديكور وتصميم داخلي لا يملكون وقتاً كافياً؛ وإذا جعلتهم يرون في كاتالوج أحد المزادات صورة تبدو شبيهة بالقطعة التي لديك، فإنهم يكونون سعداء بالانقضاض فوراً على ما يعتبرونه تخفيضاً على السعر، خاصّة إذا كانوا ينفقون مال غيرهم. كانت لديَّ حيلة أخرى محسوبة بحيث تضلل عملاء من طبيعة مختلفة (أكثر حصافة وخبرة)، ألا وهي

أن أدفن قطعة في آخر المتجر وأعكس عمل المكنسة الكهربائية بحيث تكتسي غباراً (تعتيق فوري!) ثم أترك العميل الفضولي يكتشفها بنفسه... انظر، كنبة من طراز *شيراتون* تحت هذا الغبار كله! وفي هذا النوع من الغش (الذي كنت أجد فيه متعة كبيرة)، تكمن الخدعة في أن أتظاهر بأنني مغفَّل، وبأنني ضجِر، وبأن أبقى منكبّاً على كتابي وأتصرف كما لو أنني لا أعرف ما لديّ في المتجر بحيث أجعلهم يظنون بأنهم يخدعونني: حتى عندما ترتعش أيديهم لفرط الإثارة، وحتى عندما يحاولون الظهور بمظهر عدم الاستعجال وهم خارجون إلى البنك حتى يسحبوا مبلغاً ضخماً من المال. وإذا كان العميل شخصاً مهمّاً، أو شخصاً شديد الصلة بهوبي، فإنني قادر دائماً على الزعم بأن القطعة ليست للبيع. بل إن عبارة «ليست للبيع» مقتضبة كانت كافية أكثر الأحيان لأن تكون نقطة بداية صحيحة مع الغرباء، أيضاً لأن أثرها لا يقف عند جعل المشتري الذي أَنشُده أكثر توقاً لإبرام صفقة سريعة والدفع نقداً، بل يمنحني أيضاً ذريعة لإجهاض الصفقة في منتصفها إذا أحسست بأن هناك شيئاً ما يجري على غير ما يرام. كان صعود هوبي إلى المتجر في لحظة غير مناسبة أهم ما يمكن أن يحدث فيفسد الصفقة. وكان دخول السيدة ديفريز في لحظة خاطئة حدثاً آخر يمكن أن يفسد الأمر (حدث هذا بالفعل عندما اضطررت ذات مرة إلى الإقلاع عن البيع في اللحظة التي سبقت إنجازه، مما كان إزعاجاً كبيراً لزوجة المخرج السينمائي التي ملّت الانتظار وخرجت من المتجر، ثم لم تعد بعد ذلك). كان القسم الأكبر من «غش» هوبي غير مرئيّ بالعين المجردة ولا بد له من تحليل مختبري أو فحص بالأشعة حتى يظهر. صحيح أن عدداً كبيراً من جامعي الأنتيكات الجادّين كان يأتي إلى المتجر، لكن، كان هناك الكثير من الناس الذين لا يعرفون شيئاً (مثلاً، لا يعرفون أنه ما من وجود لشيء اسمه *«مرآة طويلة قابلة للإمالة من طراز الملكة آن»*). وحتى إذا كان أحد الناس على قدر من الذكاء

يسمح له بالتقاط شيء غير سليم ـ فلنقل إنه أسلوب ما في النحت، أو نوع من أنواع الخشب، غير متوافق مع الزمن الذي تنتسب إليه القطعة، أو مع زمن صانعها ـ فقد امتلكت الجرأة الكافية، مرة أو مرتين، لأن أتجاوز هذه الورطة بالكلام: أزعم أن القطعة قد صُنعت لعميل محدّد بناء على طلبه، وبالتالي فإنها أكثر قيمة من القطع المعتادة.

في حالتي المهتزة المضطربة تلك، وجدت نفسي وقد انعطفت، من غير وعي تقريباً، فدخلت الحديقة وسرت إلى الممر المفضي إلى البركة، حيث كنت أجلس مع آندي ـ كل منا في سترته الفرائية ذات القبعة ـ بعد ظهر أيام شتوية كثيرة عندما كنا في المدرسة الابتدائية. هناك، كنا نجلس وننتظر أن تأتي أمي لتأخذنا إلى حديقة الحيوانات أو إلى السينما... *نقطة اللقاء، الساعة الخامسة بعد الظهر!* لكني صرت أجد نفسي، للأسف، أجلس في ذلك المكان نفسه منتظراً جيروم: مراسل على دراجة كنت أشتري منه المخدرات. كانت الأقراص التي سرقتها من كساندرا قبل تلك السنين كلها قد جعلتني أبدأ طريقاً سيئاً: أقراص *أوكسي*، وأقراص روكسي، ومورفين، و*ديلوديل* عندما أستطيع الحصول عليها. أمضيت عدة سنين في شراء هذه الأقراص من الشوارع؛ لكني التزمت منذ عدة شهور (التزمت معظم الوقت)، بتناول الأقراص يوماً وبالامتناع عنها في اليوم الذي بعده. وعلى الرغم من ذلك، كان يوم «الانقطاع» يشتمل على جرعة صغيرة كافية لوقايتي من الإصابة بالغثيان. صحيح أن ذلك اليوم كان يوم انقطاع، إلا أنني كنت أشعر بحزن وتجهّم متزايدَيْن. وكانت كؤوس الفودكا التي تناولتها مع بلات تفعل فعلها. كنت أعرف تمام المعرفة أنني لا أحمل شيئاً معي، لكنّ يديَّ ظلتا تتسلّلان إلى جيوب سترتي ومعطفي مرة بعد مرة علّهما تجدان شيئاً.

لم يكن لي في الكلية أي إنجاز يستحق الثناء، ولا حتى الذِّكر، فقد جعلتني سنوات لاس فيغاس غير صالح لأي نوع من أنواع الدأب

والاجتهاد. وعندما تخرجت آخر الأمر، (كنت في الحادية والعشرين. استغرقني ذلك ستة أعوام بدلاً من الأعوام الأربعة المتوقَّعة)، كانت الدرجات التي حصلت عليها غير متميّزة من أية ناحية. وكانت الاستشارية المشرفة قد قالت لي: «بصدق تام، لست أرى شيئاً يمكن أن يمنحك فرصة الانتساب إلى برنامج جديد لمواصلة الدراسة، خاصة وأنك ستكون شديد الاعتماد على المساعدة المالية».

لكني لم أجد في ذلك بأساً، فقد كنت أعرف ما أردته. بدأ عملي في بيع الأثاث والأنتيكات عندما كنت في السابعة عشرة، عندما صعدت إلى المتجر بعد ظهر يوم من الأيام النادرة التي كان هوبي يقرّر فيها أن يفتح أبوابه. بحلول ذلك الوقت، كنت قد صرت منتبهاً إلى مشكلات هوبي المالية؛ وقد كان ما قاله غريشا عن العواقب الوخيمة التي ستأتي إذا استمر هوبي في مراكمة ذلك المخزون من غير أن يبيعه كلاماً صحيحاً كل الصحة. («ستجده لا يزال جالساً في الأسفل يطوي وينحت في ذلك اليوم عندما يأتون لوضع إنذار الإخلاء على باب المتجر»). وعلى الرغم من تلك المظاريف التي كانت تأتي من هيئة الضرائب فتتراكم بين كاتالوغات كريستيز وبرامج الحفلات الموسيقية القديمة على طاولة الردهة، (إشعار بحساب غير مدفوع، ومذكّرة من أجل حساب مستحق، ومذكرة ثانية من أجل حساب مستحق). فإن هوبي لم يكن يعبأ بفتح المتجر أكثر من نصف ساعة في المرة الواحدة، إلا إذا شاءت المصادفة أن يأتي بعض الأصدقاء. وعندما يقرّر أصدقاؤه الانصراف، غالباً ما كان يصرف العملاء الفعليين الذين يريدون الشراء، ويغلق الباب من خلفهم. وفي مرات كثيرة، كنت أعود من المدرسة، فأرى لافتة «مغلق» على الباب، وأرى أشخاصاً يحاولون النظر عبر الواجهة. والأسوأ من ذلك كله اعتياد هوبي (في المرات النادرة التي يظل فيها المتجر مفتوحاً فيها بضع ساعات)، التجوّل ودخول البيت لإعداد فنجان من الشاي مع ترك باب المتجر مفتوحاً

وصندوق المحاسبة وحيداً. وعلى الرغم من أن واحداً من عمال النقل، اسمه مايك، كان فطناً بحيث أقفل خزائن الفضة والمجوهرات أكثر من مرة، فقد اختفى عدد من قطع الكريستال والخزف الإيطالي الفاخر.

صعدت إلى المتجر ذات مرة فوجدت امرأة رياضية الجسم عادية الملابس بدت لي كأنها آتية لتوها من الصالة الرياضية، ورأيتها تمسك بثقالة ورق وتدسّها خلسة في حقيبتها.

قلت: «هذه ثمنها ثمانمئة وخمسون دولاراً». فتجمّدت المرأة عند سماع صوتي ونظرت إليَّ مذعورة. كان ثمن القطعة في حقيقة الأمر مئتين وخمسين دولاراً. لكنها ناولتني بطاقتها الائتمانية من غير أن تقول كلمة واحدة وتركتني أسحب المبلغ الذي ذكرته. لعل ذلك كان أول عملية بيع مربحة حدثت منذ موت ويلتي؛ وهذا لأن أصدقاء هوبي (هم عملاؤه الأساسيون)، كانوا على معرفة تامة بأنهم يستطيعون جعل هوبي يخفض الأسعار من أجلهم وصولاً إلى مستويات إجرامية على الرغم من كونها أسعاراً منخفضة أصلاً. كان مايك يقدّم المساعدة في المتجر أحياناً، فيرفع الأسعار اعتباطاً لكنه يرفض أي مساومة. وبالتالي، كانت مبيعاته قليلة جداً.

قال لي هوبي وهو يرفرف بعينيه مسروراً تحت وهج المصباح عندما نزلت وأخبرته بصفقة البيع التي أجريتها: «أحسنت صنعاً». (قلت له إنني بعت إبريق شاي فضياً؛ لم أرِد جعل الأمر يبدو كما لو أنني سلبت تلك المرأة مالها على نحو مباشر. ثم إنني كنت أعرف تماماً أنه غير مهتم بما يسميه «الأشياء الصغيرة» التي صرت مدركاً، عبر متابعة السجلات، أنها تشكل قسماً كبيراً مما في المستودع)... «إن لك عيناً تميّز العميل الذي يريد أن يشتري. لو كان ويلتي هنا لسرّه كثيراً ما فعلته!... أنت مهتم بفضّياته!».

منذ ذلك اليوم، صرت أجلس في الأعلى بعد الظهر فاتحاً كتبي المدرسية على الطاولة، في حين يشتغل هوبي في الأسفل. كان ذلك لمجرد التسلية أول الأمر... تسلية لم أكن أجدها في حياة الطالب القاحلة: فناجين قهوة في

الردهة، ومحاضرات عن وولتر بنيامين[1]. كان من الواضح أن متجر هوبارت وبلاكويل قد اكتسب سمعة مكان مواتٍ للصوص خلال السنوات التي أعقبت موت ويلتي. لقد كانت نشوة الانقضاض على أولئك السارقين المخادعين ذوي الملابس الأنيقة، واحتلاب مبالغ مالية ضخمة منهم، لا تقل عن نشوة السرقة من المتاجر عندما كنت أمارسها في لاس فيغاس.

لكنّي تعلمت الدرس: درس لم يستقر في داخلي إلا على مراحل، إلا أنه كان أكثر الدروس صدقاً في جوهر ممارسة الأعمال. إنه السر الذي لا يقوله أحد لك، الشيء الذي عليك أن تتعلّمه بنفسك: أدركت أن تجارة الأنتيكات ليس فيها أبداً ما يمكن اعتباره سعراً «صحيحاً». فالقيمة الموضوعية ـ أو القيمة الاسمية ـ كانت شيئاً لا معنى له. إذا جاءني عميل جاهل حاملاً المال في يده (مثلما يفعل أكثرهم)، فلا أهمية لما يقوله السجل، ولا أهمية لما يقوله الخبراء، ولا أهمية للمبلغ الذي بيعت به مؤخراً قطع مماثلة في مزاد كريستيز. إن قيمة الشيء ـ أي شيء ـ هي ما تستطيع جعل شخص ما يدفعه مقابل الحصول عليه!

ومن هنا، بدأت أتجوّل في المتجر وأزيل بعض اللصاقات (حتى يضطر العميل إلى الذهاب إليَّ وسؤالي عن السعر)، وأغير الأرقام المكتوبة على لصاقات أخرى... ليس كلها، بل بعضها فقط. وكانت اللعبة هنا (هذا ما اكتشفته عن طريق التجربة والخطأ) في إبقاء ما لا يقل عن ربع الأسعار منخفضاً، ورفع بقيتها كثيراً بحيث تبلغ نسبة الزيادة أحياناً أربعة أو خمسة أضعاف. أدت سنوات من البيع بأسعار منخفضة انخفاضاً غير طبيعي إلى بناء قاعدة واسعة من العملاء المخلصين. وقد كان ترك ربع الأسعار منخفضاً كفيلاً بجعلهم يبقون على إخلاصهم، وضمان أن يتمكّن الشخص الذي يأتي باحثاً عن اصطياد صفقة مربحة، قادراً على العثور عليها إن هو نظر جيداً. وأيضاً، كان من أثر ترك ربع الأسعار منخفضاً (بفعل كيمياء شاذّة غريبة) أن صارت الأسعار المرفوعة تبدو مشروعة بالمقارنة معها: فلسبب أجهله، كان بعض الناس يصير

(1) وولتر بنيامين (1892 – 1940): فيلسوف ألماني له أيضاً كتابات في نقد الثقافة.

أكثر استعداداً لدفع ألف وخمسمئة دولار في إبريق شاي من صنع بلدة نيسن إن كان إلى جواره إبريق آخر أكثر بساطة، لكنه قابل للمقارنة به، يبلغ ثمنه بضع مئات الدولارات فحسب (سعر معقول، لكنه منخفض بعض الشيء).

هكذا بدأ الأمر؛ وهكذا بدأ متجر هوبارت وبلاكويل ينتقل إلى مرحلة تحقيق الأرباح تحت رعايتي بعد أن تأخر وراوح في مكانه سنوات طويلة. لكن الأمر ما كان متعلّقاً بالمال وحده؛ فقد أحببت تلك اللعبة! على النقيض من هوبي، الذي يفترض مخطئاً أن أي شخص يدخل متجره لا يمكن أن يكون إلا مسحوراً بقطع الأثاث تلك، مثله، فيحاول تثقيفه ويشير إلى عيوب كل قطعة ومحاسنها من غير أي تردد على الإطلاق، فقد اكتشفت أن لديَّ الموهبة المعاكسة تماماً: إنها موهبة التشويش والغموض، والقدرة على الكلام عن قطع قليلة الأهمية على نحو يجعل الناس راغبين فيها. أثناء بيع قطعة ما، أي عندما أحاول الإعلاء من شأنها (على العكس من حالة الجلوس بعيداً وترك العميل غير الحذر يأتي بنفسه إلى الفخ)، تكون اللعبة متركّزة على فهم العميل واكتشاف الصورة التي يريد إظهارها، وهي صورة ليست قريبة كثيراً من الناس على حقيقتهم، (مصمم ديكور يعرف كل شيء؟ ربة منزل من نيوجرسي؟ رجل مِثليّ لا يريد الكشف عن نفسه؟)، بل الناس كما يريدون أن يكونوا. كان الأمر كله دخاناً ومرايا، حتى على أعلى المستويات. وكان كلُّ شخص منخرطاً في تمثيل دور يريده. وأما اللعبة فهي أن تخاطب الصورة المرغوبة، أو الذات المتخيَّلة... الشخص الذواقة، ومحب الحياة الفطن... وأن تنسى الشخص فاقد الإحساس بالأمان الواقف أمامك في واقع الأمر. وكان من الأفضل أيضاً أن يتنحّى المرء قليلاً وألا يكون شديد المباشرة. سرعان ما تعلمت كيف أخاطب العملاء البسطاء وغير البسطاء (أقف عند الحد بين التحفظ والكذب)، فأتعامل مع كل منهم بقدر محسوب من اللباقة والتراخي: أفترضُ المعرفة لدى الاثنين، وأسارع إلى امتداح كل منهما، وأسارع أيضاً إلى فقدان اهتمامي أو التنحّي جانباً في اللحظة المناسبة تماماً.

وأما مع لوسيوس ريف فقد فشلت فشلاً ذريعاً على الرغم من هذا كله. لم أعرف ما أراده هذا الرجل! والواقع أنه كان شديد القسوة في تجاوز اعتذاراتي وتوجيه غضبه كله إلى هوبي، حتى بدأت أظن أنني تعثّرت بشخص يكنّ لهوبي كرهاً أو يحمل عليه ضغينة من قبل أن ألقاه. لم أحب أن أقيّد نفسي بهوبي من خلال ذكر اسم ريف أمامه؛ لكن من عساه يستطيع حمل هذه الضغينة العنيفة تجاه هوبي الملائكي حسن النية؟ لم يثمر شيئاً بحثي في الإنترنت عن لوسيوس ريف باستثناء أمور قليلة لا أهمية لها وجدتها في الصفحات الاجتماعية. ولم تكن له أية علاقة *بهارفارد* أو بنادي هارفارد... لا شيء إلا عنوان محترم في الجادة الخامسة. لم أعثر له على عائلة ولا على وظيفة أو مورد عيش واضح. كان غباء مني أن أحرّر له شيكاً... بل كان ذلك جشعاً من جانبي: كنت أحاول إنشاء تاريخ لملكية القطعة... لكني وصلت إلى هذه النقطة التي لا جدوى عندها حتى من مال موضوع في مغلف تحت منديل المائدة لضمان أن يقبل هذا الرجل بالتغاضي عن الأمر.

كنت واقفاً دافناً قبضتَيْ يديَّ في جيبي معطفي وقد ضبّبت رطوبة الربيع نظارتي؛ وكنت أحدق تعساً في مياه البركة الموحلة: بضع بطات بنية حزينة، وأكياس من النايلون تستحم بين نباتات القصب. كان أكثر المقاعد حاملاً أسماء المتبرعين ـ *في ذكرى السيدة روث كليم*، أو أشياء من هذا القبيل ـ وأما مقعد أمي، نقطة اللقاء، فقد حمل، خلافاً لكل المقاعد في هذه الحديقة، رسالة أكثر غموضاً وترحيباً تركها عليه من تبرّع به: ***كل ما هو محتمل***. لقد كان مقعدها منذ ما قبل ولادتي. في أول أيامها في المدينة، كانت تجلس على هذا المقعد مع كتاب من المكتبة في أوقات العصر التي لا يكون لديها عمل فيها. كانت تخرج من غير غداء عندما يلزمها ثمن تذكرة للذهاب إلى متحف الفن الحديث، أو عندما يلزمها ثمن بطاقة للدخول إلى «*سينما باريس*». وعلى مسافة أبعد، خلف البركة، حيث يصير الدرب مظلماً خالياً، كانت تقع رقعة الأرض المعزولة غير المشجّرة حيث ذهبتُ مع آندي ونثرنا رمادها. كان

آندي هو من أقنعني بالتسلل إلى ذلك المكان ونثر الرماد في مخالفة لأنظمة المدينة... أقنعني بنثر الرماد في تلك البقعة تحديداً:

حسناً، أعني... إنه المكان الذي كانت تلقانا فيه.

صحيح، لكن انظر إلى تلك اللافتات... سم فئران!

هيا! يمكنك فعل ذلك الآن. ما من أحد قادم.

كانت تحب سباع البحر أيضاً. وكان علينا دائماً أن نذهب وننظر إليها.

نعم، لكنك لا تريد أبداً أن تنثر رمادها هناك لأن لذلك المكان رائحة الأسماك. كما أن رعشة ذعر تتملّكني كلما فكّرت في وجود هذا الوعاء في غرفتي.

6

نظر هوبي إليَّ ملياً تحت نور المصباح. قال: «يا إلهي، أنت أبيض اللون كملاءة السرير. هل أصابك شيء؟».

«ممم...». كان موشكاً على الخروج وقد حمل معطفه على ذراعه، ومن خلفه وقف كل من السيد والسيدة فوغل مبتسمَيْن ابتسامتَيْن سامّتَين وقد زررا معطفيهما. كانت علاقتي بهذين الاثنين (أو «الكاسرَين»، كما كان غريشا يدعوهما) قد بردت كثيراً منذ أن توليت أمر المتجر، لأنني كنت منتبهاً تماماً إلى كثرة القطع التي أخذاها من هوبي أمامي بأسعار بخسة تكاد تكون سرقة علنية؛ فما كان مني إلا أن رفعت سعر كل ما ظننت، ولو من بعيد، أنه قد يثير اهتمامهما. صارت السيدة فوغل ـ لم تكن غبية ـ تتصل بهوبي مباشرة؛ لكني كنت أفلح عادة في إحباط مسعاها بأن أزعم لهوبي بأنني قد بعت القطعة التي تسأله عنها لكني نسيت تسجيلها.

سألني هوبي الذي بقي، بفعل شرود ذهنه اللطيف، غير منتبه أبداً إلى أن العلاقة بيني وبين الزوجين فوغل قد صارت رسمية تماماً: «هل أكلت؟ إننا ذاهبون إلى مطعم في شارعنا لتناول طعام العشاء، فلماذا لا تأتي معنا؟».

قلت له: «لا، شكراً...». أحسست كما لو أن نظرة السيدة فوغل تثقبني، وابتسامتها الكاذبة، وعينيها كأنهما رقاقتان من العقيق في وجهها الصقيل الأبيض الشائخ. عادة ما كنت أجد نوعاً من السرور في التراجع خطوة إلى الخلف ورد ابتسامتها بابتسامة مثلها، لكني شعرت بأنني مرهق خائر القوى... «أظنني سآكل في البيت هذه الليلة، شكراً».

قال السيد فوغل بنبرة مداهنة: «هل تشعر بأنك لست على ما يرام؟ يا للأسف؟». كان رجلاً من الغرب الأوسط، أصلع الرأس، يضع نظارة من غير إطار ويرتدي معطفاً أنيقاً ـ ما أسوأ حظك إن كان مدير مصرف وكنتَ متأخراً في سداد أقساط قرض بيتك.

قالت السيدة فوغل وهي تتقدّم خطوة وهي تضع يدها الممتلئة على ذراعي: «يسرني أن أراك. هل استمتعت بزيارة بيبا؟ ليتني تمكّنت من رؤيتها... لكنها كانت منشغلة بصديقها؟ ما رأيك فيه؟ ما اسم ذلك الشاب؟»... استدارت إلى هوبي... «إيليوت؟».

قال هوبي بصوت محايد: «اسمه إيفريت. فتى لطيف».

قلت: «صحيح»، ثم استدرت لأخلع معطفي. كان ظهور بيبا القادمة من لندن مع هذا الـ«إيفريت» واحدة من أسوأ الصدمات في حياتي كلها. كنت أعد الأيام والساعات وأرتعش لقلة نومي وشدة إثارتي غير قادر على منع نفسي من النظر إلى ساعتي كل خمس دقائق. كنت أقفز كلما رن جرس الباب وأجري حتى أفتحه... وهناك رأيتها يداً بيد، مع هذا الإنكليزي الحقير.

«وما عمله؟ هل هو موسيقي أيضاً؟».

قال هوبي: «يعمل قيّم مكتبة موسيقية. لست أدري ما الذي يشتمل عليه هذا العمل مع وجود الكمبيوتر وتلك الأشياء كلها».

قال السيد فوغل: «أوه، أنا واثق من أن ثيو يعرف كل شيء عن الأمر».

«لا، أنا لا أعرف شيئاً».

قال السيد فوغل وهو يطلق ضحكة مرتفعة مرحة على نحو غير مألوف: «هل نقول إنه كمبيو/ موسيقي؟ ما صحة ما يقال من أنه صار من الممكن اليوم إنهاء الدراسة بنجاح من غير دخول المكتبة مرة واحدة؟».

«لا أعرف شيئاً عن هذا». قيّم مكتبة موسيقية! اضطررت إلى الاستعانة بكل ما في داخلي من قوة وتناسق حتى يظل وجهي خالياً من أي تعبير (أحشائي تتقطع، ونهاية كل شيء) عندما صافحت يده الإنكليزية الرطبة: مرحباً! *أنا إيفريت، لا بد أنك ثيو، سمعت عنك كثيراً.* وكلام فارغ كثير بينما وقفت بالباب متجمداً كمن طعنته حربة، ورحت أنظر إلى هذا الغريب الذي قذف بي إلى الموت. كان شخصاً ضئيلاً، متسع العينين، بريئاً، لا طعم له، مبتهجاً على نحو يثير الغضب، مرتدياً بنطلون جينز وكنزة لها قبعة مثلما يفعل المراهقون؛ وأما ابتسامته الدفاعية السريعة عندما كنا وحدنا في غرفة المعيشة فقد جعلتني أغلي غضباً.

كانت كل لحظة من فترة زيارتهما عذاباً. لكني تحمّلتها على نحو ما. حاولت البقاء بعيداً عنهما إلى أقصى حد أستطيعه. وعلى الرغم من مهارتي في النفاق، فقد كان من الصعب عليَّ كثيراً حتى أن أجامله وأكون مهذّباً معه... كل ما فيه: جلده المتورد، وضحكته العصبية، والشعر البارز من تحت نهايتي كمي قميصه، ذلك كله كان يجعلني راغباً في القفز عليه وضربه حتى تتساقط أسنانه الإنكليزية الكبيرة. قلت في نفسي بتجهّم وقنوط وأنا أحدّق جالساً إلى الناحية الأخرى من الطاولة إن الأمر لن يكون مفاجئاً إذا اقتلع بائع الأنتيكات ذو النظارة خصيتيه من بين ساقيه! لكني كنت غير قادر على البقاء بعيداً عن بيبا، على الرغم من محاولاتي كلّها! كنت أحوم حولها متطفلاً عليها وأكره نفسي لأنني أفعل ذلك... وكان قربها مني يستثيرني حتى الألم: قدماها العاريتان عند الإفطار، وساقاها العاريتان، وصوتها. لمحات مفاجئة من بياض إبطيها عندما تخلع كنزتها. عذاب لمسة كفها على كم قميصي. «مرحباً عزيزي. مرحباً حبيبي». تأتي من خلفي وتضع يديها على عيني: «مفاجأة». أرادت أن تعرف كل شيء عني، وعن كل ما أفعله. تحشر نفسها إلى جانبي على الأريكة الصغيرة

فتلامس ساقها ساقي: أوه، يا ربي! تسألني عن الكتاب الذي أقرأه. تسألني إن كانت تستطيع إلقاء نظرة على الآيبود! ومن أين اشتريت تلك الساعة الجميلة؟ تنفتح الجنة كلما ابتسمت لي. لكنني أسمعه قادماً كلما اخترعت ذريعة لكي أكون معها وحدها... طبْ طبْ طبْ، خطواته، وابتسامته الوديعة، وذراعه حول كتفيها... فينهار كل شيء. كلام في الغرفة المجاورة، وانفجار ضحك: هل يتحدّثان عني؟ هل يحيط خصرها بذراعه ويدعوها «بيبز»؟ كانت اللحظة المحتملة الوحيدة، أو اللحظة المسلّية بعض الشيء، خلال زيارته كلها لحظة قفز بوبتشيك ـ صار كبير السن شديد الحرص على منطقته، فعض إبهام يده. «أوه، يا إلهي!». أسرع هوبي ليجلب الكحول، وفزعت بيبا، وحاول إيفريت أن يظل هادئاً لطيفاً على الرغم من خوفه الواضح: بالتأكيد... الكلاب رائعة! أنا أحب الكلاب! لكننا لم نقتنِ كلباً في بيتنا لأن أمي لديها حساسية. لقد كان «القريب الفقير» (هذه عبارته) لواحد من زملائها القدامى في المدرسة. أم أميركية، وإخوة كثر، وأب يعلّم شيئاً رياضياً/ فلسفياً غير مفهوم في جامعة *كامبريدج*. وعلى غرار بيبا، كان نباتياً أيضاً!... «شبه نباتي». ثم ازداد قنوطي عندما اتضح لي أنهما يعيشان في شقة واحدة(!) ـ وبطبيعة الحال، كان ينام في غرفتها خلال زيارتهما. على امتداد تلك الليالي الخمس، طيلة فترة وجودهما، كنت أستلقي صاحياً أكابد الغضب والحزن، وأذناي مصغيتين إلى كل حركة في السرير، إلى كل تنهيدة وهمسة آتية من الغرفة المجاورة.

ودّعت هوبي والزوجين فوغل وتمنّيت لهم أمسية رائعة، ثم استدرت مبتعداً، متجهماً... ما الذي كان يمكن لي توقّعه؟ لقد أغضبَتْني كثيراً، جرحتني حتى العظم، تلك النبرة المتلطّفة الحذرة التي استخدمتها في حديثها معي عن ذلك الـ«إيفريت»، وعندما سألتني عما إذا كنت أرى أحداً، أجبتها: «لا، ليس بالحقيقة!». على الرغم من أنني كنت في واقع الأمر أضاجع فتاتين مختلفتين لا تعرف أي منهما شيئاً عن الأخرى (كنت معتزاً بذلك على نحو كئيب، فاضح). كان لإحداهما صديق في مدينة أخرى؛ وكان للثانية خطيب ضجِرَت

منه، وكانت تنظر إلى شاشة الهاتف عندما يتّصل بها أثناء وجودنا في السرير معاً ولا تجيب على اتصالاته. كانتا فتاتين جميلتين؛ بل إن تلك التي تخون صديقها كانت ذات جمال متميز ـ كأنها كارول لومبارد[1] الصغيرة ـ لكنَّ أياً منهما لم تكن لتعني أي شيء حقيقي في نظري: كانتا بديلتين عنها، لا أكثر.

أغاظني إحساسي بهذا الأمر. فإن جلست «كسير القلب» (للأسف، كان هذا أول تعبير يخطر في بالي)، فإن ذلك سيكون حماقة وغباء... سيكون شيئاً ضعيفاً بِكّاءً يدعو إلى الازدراء... أوه، هوْ هوْ هوْ هوْ، إنها في لندن، وهي مع شخص غيري، اذهب واشرب بعض النبيذ وضاجع كارول لومبارد، وتجاوز الأمر! لكن التفكير فيها كان مصدر كَرَب متواصل لأنني كنت غير قادر على نسيانها بأكثر مما يستطيع المرء نسيان ألم أسنانه. كان ذلك شيئاً عفوياً يائساً لا أستطيع مقاومته. مرّت عليَّ سنين كثيرة كانت فيها أول شيء أتذكّره عندما أستيقظ صباحاً وآخر شيء يمر في ذهني قبل أن أغفو. وكانت تأتيني في النهار فتقحم نفسها وتستحوذ على عقلي فأحس بصدمة مؤلمة: كم الساعة في لندن الآن؟ كنت أطرح وأجمع وأحسب اختلاف التوقيت، وأتفقد ـ رغماً عني ـ حالة الطقس في لندن على هاتفي: 53 درجة فهرنهايت، العاشرة واثنتي عشرة دقيقة ليلاً، ومطر خفيف. كنت واقفاً عند تقاطع *الجادة السابعة وشارع غرينتش* عند تمثال القديس فينسنت المحاط بألواح خشبية. كنت في طريقي إلى لقاء الموزّع الذي يأتيني بالمخدرات، فماذا عن بيبا؟ وأين هي الآن؟ هل هي في المقعد الخلفي لسيارة التاكسي، أم تتناول العشاء؟ أم تشرب مع أشخاص لا أعرفهم؟ أم هي نائمة في سرير لم أره أبداً؟ كانت لدي رغبة كبيرة يائسة في رؤية صور لشقتها حتى أضيف إلى خيالاتي بعض التفاصيل التي لا بد منها؛ لكن حرَجي الشديد منعني من طلب تلك الصور. مع وخزة ألم مفاجئة، رحت أفكّر في ملاءات سريرها... كيف هو شكلها؟ هل هي داكنة اللون كما تخيّلتها،

(1) كارول لومبارد: ممثلة سينمائية أميركية اشتهرت كثيراً في الثلاثينات وكانت أعلى الممثلين أجراً في هوليوود.

مكرمشة، غير مغسولة... عشّ طالبة مظلم! ووجنتها المنمشة تبدو شاحبة على غلاف الوسادة الأرجواني أو الأحمر الداكن، ومطر إنكليزي يقرع زجاج نافذتها. صورها التي على جدار الممر خارج غرفتي ـ صور مختلفة كثيرة في أعمار مختلفة كثيرة، كانت تلك الصور عذابي اليومي، عذابي المفاجئ دائماً، عذابي المتجدّد دائماً. وعلى الرغم من محاولتي الإشاحة بوجهي عن تلك الصور كلما عبرت الممر، فكان يبدو دائماً أنني ألتفت إليها من غير قصد فأراها ضاحكة لنكتة سمعَتْها أو لشخص لم يكن أنا... ألمٌ طازج جديد دائماً، ضربة تصيب القلب إصابة مباشرة.

لكنْ ثمة أمرٌ غريبٌ: كنت أعرف أن أكثر الناس لا يراها مثلما أراها... بل كنت أعرف أن الناس يجدون مظهرها غريباً بعض الشيء، بمشيتها المتقافزة المتعثّرة، وشحوبها الشبحي وشعرها الأحمر. ومهما يكن سبب ذلك غبياً، فقد كنت أجامل نفسي دائماً بالقول إنني الشخص الوحيد في العالم الذي يقدّرها حق قدرها ـ ستصيبها الدهشة وتتأثر كثيراً لو عرفت كم أراها جميلة، بل يمكن حتى أن تبدأ النظر إلى نفسها بعين مختلفة. لكن هذا لم يحدث أبداً. رحت أركّز (غاضباً) على عيوبها وأتعمد إمعان النظر في الصور المتلقَطة لها في أوقات ووضعيات تظهر تلك العيوب: أنف طويل، ووجنتان هزيلتان، وعينان تبدوان عاريتين تحت أهدابهما الطويلة التي تكاد تكون شفافة (على الرغم من لون تلك العينين الذي يخطف القلب)... وجه مسطّح لا تميُّز فيه كأنه وجه هاكلبري فِن[1]. لكن هذه القسمات كلها كانت في نظري شديدة الرقة؛ بل إنها هي ما جعل يأسي يبلغ حد القنوط. فمع فتاة جميلة، كنت قادراً على مواساة نفسي بالقول إنها ليست ضمن «دائرتي»؛ لكنني كنت مسكوناً بحب يحرّكه ويغذّيه ما يوحي به مظهرها من بساطة وتسطّح... حب (يا للشؤم!) أشد وثاقاً من الانجذاب الجسدي؛ مصيدةٌ للروح يمكن أن أظل عالقاً فيها متقلباً سنين كثيرة.

(1) هاكلبري فِن: بطل رواية «مغامرات هاكلبري فِن» لمارك توين. وهو أيضاً الشخصية الثانية في روايته الأسبق «توم سوير».

كان المنطق عديم الفائدة في أعمق أعماق نفسي. وكانت هي مملكتي المفقودة؛ ذلك الجزء الذي بقي سليماً من نفسي التي فقدتها عندما فقدت أمي. كان كل ما فيها عاصفة من سحر... من بطاقات الفالنتاين العتيقة والأغطية الصينية المطرَّزة التي كانت تضعها على زجاجات مواد التجميل الصغيرة العطرة، كان هنالك شيء لامع سحريٌّ في حياتها البعيدة التي لا أعرف عنها شيئاً: *فود سويس، 23 شارع تمبكتو، لينهاين كريسنت* ـ غرفة مفروشة في بلاد لم أرها قط. ومن الواضح أن ذلك الإيفريت (الفقير كفأر كنيسة ـ بحسب تعبيره)، كان يعيش على مالها، بل على مال العم ويلتي: أوروبا العجوز تقتات على أميركا الشابة، عبارة استخدمتها في الموضوع الذي قدّمته عن هنري كينز في الفصل الأخير لي في المدرسة. هل يمكنني أن أحرر له شيكاً حتى يتركها وشأنها؟ كانت تلك الفكرة تأتيني عندما أجلس في المتجر وحدي في ساعات بعض الظهر البطيئة الباردة: خمسون *ألفاً إذا تركتها الليلة؛ ومئة ألف إذا لم ترها بعد ذلك*. أعرف أن المال أمر يهمه؛ فخلال زيارتهما، كان على الدوام يبحث في جيوبه قلقاً، وكان يتوقّف كثيراً عند آلة الصراف في الشارع فيسحب عشرين دولاراً في المرة الواحدة. يا إلهي!

لا أمل! بكل بساطة، لا يمكن أبداً أن تعني بيبا للسيد «المكتبة الموسيقية» ولو نصف ما تعنيه لي. أنا وهي، ينتمي كل منا للآخر؛ كان في هذا سحر وصدق خياليان... كان أمراً لا مجال للمناقشة فيه. كان التفكير فيها يغمر كل زاوية من زوايا عقلي بنور وألق فَرِح، فيرفعني إلى ذُرى عجائبية ما كنت أعرف حتى إنها موجودة، كان يأخذني إلى آفاق ما كانت تبدو موجودة أبداً إلا في ما هو متصل بها. كنت أستمع، مرة بعد مرة، إلى موسيقى أرفو بارت المفضّلة عندها؛ وكانت تلك طريقة تسمح لي بأن أكون معها. ما كان عليها إلا أن تذكر لي اسم رواية قرأتْها في الآونة الأخيرة حتى ألتهم تلك الرواية التهاماً لكي أكون داخل أفكارها، لكي يكون ذلك نوعاً من تواصل بين عقلينا. كانت تمر بالمتجر قطعٌ أراها آثاراً ملموسة للحياة التي يجب أن نعيشها معاً، أنا وهي: بيانو من صنع

بلييل[1]؛ حجر روسي صغير منقوش يبدو غريب الشكل، مخدوشاً. كتبت لها رسائل بريد إلكتروني بلغت الواحدة منها ثلاثين صفحة، ثم حذفتها قبل أن أرسلها مستخدماً صيغة ابتكرتها حتى لا أجعل من نفسي أضحوكة: أكتب رداً أقصر بثلاثة سطور من الرسالة التي تصلني منها؛ وأتريث قبل إرسالها يوماً إضافياً زيادة على مدة انتظاري ردّها. وأحياناً، في السرير، منجرفاً مع أحلامي اللاهثة المخدَّرة الشهوانية، أنظر في أحاديث طويلة صريحة معها: *لا شيء يفرّق بيننا*، أتخيّل كلاً منا يقول هذا للآخر، وأتخيل كلاً منا واضعاً يده على وجنة الآخر... *لا يمكن أن نفترق أبداً*. ومثلما يفعل شخص مهووس يلاحق امرأة خلسة، جمعت بقايا شعر بلون أوراق الخريف، أخرجتها من سلة المهملات بعد أن قصّت ذؤابات شعرها في الحمام ـ بل فعلتُ ما هو أغرب من هذا: قميص غير مغسول كان لا يزال فائحاً برائحة عرقها النباتي الشبيهة برائحة القش.

لا أمل في هذا. بل أكثر حتى من ذلك: شيء مهين! عندما تأتي في زيارة، كنت أترك باب غرفتي نصف مفتوح... دعوة ليست خفية تماماً! حتى ذلك التثاقل المعهود في خطواتها كان يدفعني إلى الجنون (مثل حورية البحر الصغيرة؛ أكثر رقة وهشاشة من أن تستطيع السير على اليابسة). كانت الخيط الذهبي الذي يتخلل كل شيء؛ كانت عدسة مكبّرة للجمال تجعل العالم كله يتجلى من خلالها، من خلالها وحدها. حاولت تقبيلها مرتين: مرة في سيارة تاكسي، وكنت ثملاً؛ ومرة في المطار جَزِعاً لتفكيري في أنني لن أراها إلا بعد شهور (أو سنين، فمن يدري!) ـ قلت متأخراً قليلاً عما يجب: «إنني آسف».

«لا بأس».

«لا، في الحقيقة، أنا...».

«اسمع...». ابتسامة هائمة حلوة... «لا مشكلة! لكنهم سينادونك قريباً من أجل الصعود إلى الطائرة».

لم يكن الأمر هكذا في الحقيقة... «يجب أن أذهب، انتبه لنفسك. إلى اللقاء».

---

(1) إنياز جوزيف بلييل: مؤلف موسيقي نمساوي/ فرنسي، اشتهر أيضاً بصنع آلات البيانو.

انتبه لنفسك! ما الذي تراه في هذا الـ«إيفريت»؟ كم تجدني مضجراً إن كانت قد فضلت عليّ هذا الشخص الفاتر المتطفّل؟ *في يوم ما، عندما يصير لدينا أطفال.* صحيح أنه قال هذا بما يشبه المزاح، لكنَّ دمي تجمّد عندما سمعته. تماماً، إنه من ذلك النوع من الفاشلين... أولئك الذين يذهبون لشراء عبوة من الحفاضات والكثير من مستلزمات الأطفال المبطنة... صرت ألوم نفسي لأنني لم أكن أكثر وضوحاً وقوة معها؛ لكن الحقيقة هي أنني ما كنت قادراً على إبداء إلحاح أشدّ تجاهها من غير شيء من التشجيع من جانبها. صار الأمر محرجاً حقاً: دبلوماسية هوبي كلما ذُكر اسمها، وتلك الحيادية المحسوبة في صوته! لكن شوقي إليها كان مثل زكام معنّد استمر سنين طويلة على الرغم من اقتناعي بأنني سأتجاوزه في أية لحظة. عجباً... حتى بقرة مثل السيدة فوغل كانت قادرة على رؤية الأمر! لم يكن ذلك كما لو أن بيبا قد أغوتني ـ بل على العكس تماماً ـ لو كان لديها أي اهتمام بي لعادت إلى نيويورك من أوروبا بعد انتهائها من الدراسة؛ لكني، لسبب لا أعرفه، كنت غير قادر على نسيان نظرتها إليَّ يوم جئت في أول زيارة لي إلى بيت هوبي فجلست على حافة سريرها. لازمتني ذكرى تلك الأمسية من أيام طفولتي سنوات طويلة. كان ذلك كما لو أن إحساسي بالوحدة بعد أمي جعلني ألتصق بها كأنني حيوان يتيم. في حين كانت بيبا... ما أسخفني!... مخدَّرة بفعل الدواء، غير قادرة على التفكير نتيجة إصابة رأسها... كانت مستعدة لأن تطوّق بذراعيها أول غريب يدخل الغرفة.

كانت «أقراصي»، كما كان جيروم يدعوها، موضوعة في علبة تبغ معدنية قديمة. سحقت واحداً من أقراص *أو*كسيكونتينز القديمة على سطح طاولة الزينة، ثم قسّمته إلى خطوط متوازية مستخدماً بطاقة كريستيز وأخرجت قطعة نقود ورقية جديدة من محفظتي فلففتها على شكل أنبوب. انحنيت فوق الطاولة وقد تندّت عيناي لفرط لهفتي: اقتربت واستنشقت... طعم مر في حلقي، ثم نفحة ارتياح. سقطت مستلقياً على السرير عندما أصابت اللكمة الحلوة قلبي إصابة مباشرة: مسرّة خالصة، مسرّة مؤلمة ساطعة، أكثر سطوعاً بقدر كبير من تلك العلبة المعدنية الصغيرة البائسة.

7

كانت ليلة عشائي في بيت آل باربر ليلة عاصفة ماطرة، هبت فيها ريح عنيفة جعلتني شبه عاجز عن فتح مظلّتي. لم أجد سيارة تاكسي في الجادة السادسة. وكان المشاة يسيرون خافضي الرؤوس متدافعين تحت المطر، قاصدين رصيف المترو المختنق برطوبة تشبه رطوبة الأقبية. كانت قطرات ماء تتساقط رتيبة من السقف الإسمنتي.

خرجت من محطة المترو فوجدت جادة ليكسنغتون خالية من الناس. كانت قطرات المطر تتراقص على الأرصفة... مطر غزير بدا كما لو أنه يضخّم أصوات الشارع كلها. سيارات التاكسي المندفعة تنشر أقواساً كبيرة من رذاذ الماء. دخلت متجراً قريباً من المحطة حتى أشتري زهوراً: أزهار السوسن؛ ثلاث باقات لأنها كانت باقات هزيلة جداً. فاجأني شذاها في ذلك المتجر الذي بالغوا في تدفئته، فاجأني وصدمني على نحو مزعج لم أفهم له سبباً إلا عندما وصلت إلى الصندوق لأدفع ثمن ما اشتريته: كانت هي نفسها تلك الرائحة الحلوة المريضة المؤذية في القداس التأبيني الذي أقيم لأمي. خفضت رأسي من جديد وجريت عابراً الرصيف إلى بارك آفنيو... تشبّعت جواربي ماء، وصفعني المطر البارد في وجهي. ندمت على شراء تلك الأزهار، وكدت ألقي بها في حاوية قمامة؛ لكن عنف زخات المطر جعلني غير قادر على إبطاء خطواتي ولو لحظة واحدة، فتابعت الجري.

وقفت في المدخل... شعري ملتصق برأسي، ومعطفي الذي يفترض أنه واق من المطر صار مبتلاً كله كأنني نقعته في حوض الاستحمام. انفتح الباب فجأة وأطل منه وجه كبير منفتح لفتى جامعي، مرت لحظة أو لحظتان قبل أن أعرف فيه وجه تودي. وقبل أن أتمكّن من الاعتذار عن الماء السارح مني، احتضنني وعانقني عناقاً شديداً وهو يربت على ظهري.

قال وهو يقودني إلى غرفة المعيشة: «أوه، يا إلهي! دعني آخذ

معطفك... وهذه الأزهار ستعجب ماما كثيراً. ما أروع أن أراك! كم سنة مضت؟». كان أطول من بلات وأقوى منه جسداً؛ وكان شعره أشقر داكناً لا يشبه شعر أسرة باربر... وأيضاً، ابتسامة ليس فيها ما يشبه أسرة باربر أيضاً: ابتسامة حماسية متألقة ليس فيها شيء من السخرية.

جعلني دفئه، الذي بدا لي مبنياً على علاقة حميمة قديمة لم تكن موجودة بيننا، أشعر بشيء من الغرابة: «حسناً... لقد مر زمن طويل. لا بد أنك في الجامعة الآن، أليس كذلك؟».

«صحيح، جورج تاون. جئت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. أدرس العلوم السياسية، لكني آمل بأن أتجه بعد ذلك إلى دراسة المنظمات غير الربحية... شيء له صلة بالشباب!...». لقد كبر فصار، بابتسامته الطلابية الحاضرة هذه، مستعداً للإنجازات الكبيرة مثلما كان بادياً على بلات في ما مضى... «وأيضاً... أعني... آمل ألّا يبدو قولي هذا غريباً... أنا مدين لك بجزء من الفضل في هذا».

«عفواً؟».

«نعم، أعني... هذه الرغبة في العمل مع أشخاص محرومين في مقتبل العمر. لقد كان لك أثر كبير عليّ عندما أقمت معنا قبل كل تلك الفترة. لقد فتحت حالتك عينَيَّ على هذا الأمر. صحيح أنني كنت في الصف الثالث، أو نحو ذلك، لكنك جعلتني أفكر في أن هذا ما أريد فعله ذات يوم... شيء على صلة بتقديم المساعدة إلى الأطفال».

أجبته: «واو... هذا رائع!»... كنت لا أزال متوقفاً عند كلمة *محرومين*.

«ثم إن الأمر مثير حقاً لأن هنالك طرقاً كثيرة لتقديم المعونة إلى من يحتاجها من صغار السن. أعني... لست أدري إن كنت تعرف مدينة واشنطن؛ لكن فيها كثير من الأحياء التي لا تتمتّع بخدمات كافية. إنني مشارك في مشروع للخدمة معني بتوفير الإشراف التعليمي للأطفال المعرّضين للمخاطر، بحيث نساعدهم في القراءة والرياضيات... وخلال الصيف، سأذهب إلى هاييتي مع منظمة *هابيتات* الإنسانية...».

سمعت صوتاً: «أهذا هو؟». نقرات حذاء أنيقة على الأرضية الخشبية، وأطراف أصابع خفيفة على كمي، ثم رأيت كيتزي تطوقني بذراعيها، فابتسمت لذلك الوجه الذي أحاط به شعر شديد الشقرة.

«أوه، أنت مبتل تماماً...». كانت تقول هذا وهي مادة ذراعيها ممسكة بي... «انظر إلى حالتك. كيف وصلت إلى هنا؟ هل أتيت سباحة؟». كان لها أنف أبيها الطويل الرقيق، ونظرة عينيه الواضحة المباشرة على نحو يكاد يوحي بالبلاهة ـ تماماً مثلما كانت تلك الفتاة متشابكة الشعر ذات السنوات التسع في ملابس المدرسة تأتي متورّدة الوجه، مستعجلة التخلص من حقيبتها المدرسية ـ لكن الخرس أصابني الآن، عندما نظرت إليَّ، عندما رأيت كم صارت ذات جمال بارد محايد.

«أنا...». استدرت إلى تودي حتى أخفي ارتباكي. كان منشغلاً بمعطفي وبالأزهار التي أخذها مني... «آسف... ما أغرب هذا! أعني، أنتِ خاصة، كم كان عمرك عندما رأيتك آخر مرة، سبعة؟ ثمانية؟».

قالت كيتزي: «واضح! الفأر الصغير... صار شخصاً حقيقياً، أليس كذلك؟ بلات...». كان بلات قد دخل غرفة المعيشة بخطوات متمهلة. ذقنه غير حليقة تماماً. بنطلون صوف وكنزة فضفاضة، كأنه صياد سمك حزين في واحدة من مسرحيات سينج[1]... «أين تريدنا ماما أن نجلس؟».

بدا بلات محرجاً. مر بيده على ذقنه النابت قليلاً... «ممم، تريدنا في غرفتها». ثم نظر إليّ... «لا مانع عندك، صحيح؟ لقد أعدّت إيتا طاولة الطعام هناك».

كشرت كيتزي قليلاً: «أوه، عجباً! لا بأس، لا بأس، في ما أظن. ما رأيك في أن تضع الكلبين في المطبخ، هيا بنا». أمسكت بيدي وجرّتني عبر الممر بخطوات متعجلة صاخبة... «علينا أن نأتي لك بشراب. أنت

---

(1) جون ميلنغتون سينج: كاتب مسرحي إيرلندي اهتم أيضاً بكتابة الشعر وكتب الرحلات وبتسجيل الفولكلور. يعتبر شخصية رئيسية في حركة الإحياء الأدبي الإيرلندية أواخر القرن التاسع عشر.

في حاجة إلى كأس». كان في ثبات نظرة عينيها وفي تقطع أنفاسها شيء ذكرني بآندي... كأن فمه المفتوح دائماً بسبب الربو قد تشكّل من جديد، على نحو جميل، فصار شفتين منفرجتين كأنهما نجمة تهمس بشيء... «كنت آمل أن تطلب منا الجلوس في غرفة الطعام، أو في المطبخ على الأقل، لأن عرينها رهيب حقّاً ـ ماذا تشرب؟». قالت هذا وهي تستدير في اتجاه البار حيث كانت الكؤوس جاهزة وإلى جانبها دلو مكعّبات الثلج.

«قليل من فودكا ستوليتشنايا سيكون أمراً عظيماً...».

«حقّاً! هل أنت متأكد من هذا؟ لا أحد منا يشربها...». تناولت زجاجة الفودكا... «كان بابا يشتري هذا النوع دائماً لأن اللصاقة على الزجاجة كانت تعجبه... إنها معبّرة جداً عن الحرب الباردة. كيف تنطق اسمها؟ قله مرة أخرى».

«ستوليتشنايا».

«يبدو اسماً أصيلاً جداً. لن أحاول قوله لأنني لن أستطيع، هل تعرف؟...». قالت هذا وهي تحوِّل عينيها الرماديتين في اتجاهي... «كنت خائفة ألا تأتي».

«الطقس في الخارج ليس سيئاً إلى هذا الحد».

«صحيح، لكن...». رفرفت عيناها... «ظننت أنك تكرهنا».

«أكرهكم! لا».

«لا؟». عندما ضحكت، سحرتني رؤية شحوب آندي في وجهها... شحوب أعيد تشكيله فصار جميلاً... بريق خيوط سكرية لامعة لأميرة من عالم ديزني... «لكني كنت فظيعة!».

«ليس هذا مهمّاً».

«جيد». وبعد فترة صمت طالت، عادت فاستدارت إلى كؤوس الشراب. قالت بصوت مسطح: «كنا فظيعين معك؛ أنا وتود».

«ماذا بك؟ كنتما صغيرين جداً».

«صحيح، ولكن...». عضّت على شفتها السفلى... «لكننا كنا نعرف أن هذا سيئ... بعد ما حدث لك خاصة. والآن، أعني... بعد موت آندي وبابا...». انتظرتُ، فقد بدا لي أنها تحاول صياغة فكرة ما. إلا أنها اكتفت بأن أخذت رشفة من نبيذها (نبيذ أبيض، بيبا تشرب نبيذاً أحمر). ثم مسّت معصمي وقالت: «ماما في انتظار رؤيتك. لقد كانت منفعلة طيلة النهار. هل نذهب إليها؟».

«بالتأكيد».

وبرفق، برفق شديد... وضعت يدي على مرفقها مثلما كنت أرى السيد باربر يفعل مع ضيوف «من جماعة الإناث» وقدتها عبر الممر.

8

كانت الليلة مزيجاً متشابكاً من الماضي والحاضر، أشبه بالحلم: عالم طفولة ظل، بأعجوبة، سليماً من بعض النواحي، وتغيّر تغيّراً محزناً من نواحي أخرى، كما لو أن روح عيد الميلاد الماضي وروح عيد الميلاد الآتي[1] قد اجتمعتا من أجل استضافة تلك الأمسية. لكن، على الرغم من الألم البشع المستمر الذي سببه غياب آندي (*آندي وأنا، هل تتذكّر عندما قال آندي؟...*)، وعلى الرغم من أن كل شيء كان غريباً منكمشاً (فطائر منزلية على طاولة قابلة للطي في غرفة السيدة باربر؟)، إلا أن الجزء الأكثر غرابة في تلك الأمسية كان إحساسي العميق، غير المنطقي، بأنني عدت إلى البيت. حتى إيتا... عندما ذهبت إلى المطبخ لإلقاء التحية عليها... فكّت مريلتها واندفعت فاحتضنتني: *كانت الليلة عطلتي، لكني فضلت البقاء لأنني أريد رؤيتك.*

اكتشفت أن تودي («من فضلك، إنه تود الآن») قد تسنّم موقع والده فصار «قبطان الطاولة»، وصار يوجّه الحديث بطريقة تبدو أوتوماتيكية

---

(1) روح عيد الميلاد الماضي وروح عيد الميلاد الآتي: شخصيتان روائيتان في رواية «ترنيمة عيد الميلاد» لتشارلز ديكنز.

بعض الشيء رغم كونها صادقة ساحرة على نحو واضح؛ إلا أن السيدة باربر لم تكن مهتمة بالحديث مع أحد غيري ـ عن آندي قليلاً، لكن أكثر ذلك الحديث كان عن أثاث عائلتها: بضع قطع مشتراة من متجر *ساك* في الأربعينات، لكن أكثر ذلك الأثاث كان قد انحدر إليها من أسرتها عبر عدة أجيال. نهضتْ عن الطاولة في منتصف الوجبة وأمسكت بيدي، فأخذتني لأرى مجموعة من الكراسي وصندوق دروج منخفضاً من خشب الماهوغاني على طراز الملكة آن، من صنع مدينة *سالم* في *ماساشوستس* ـ إنه لدى أسرة أمها منذ ستينات القرن الثامن عشر! (قلت في نفسي: *سالم*؟ هل كان أسلاف أمها ممن يحرقون الساحرات هناك؟ أم لعلهم كانوا هم الساحرات؟). باستثناء آندي، الغامض، المنعزل، المكتفي بنفسه، غير القادر على الكذب لافتقاره التام إلى الخبث والسحر معاً، كان لدى بقية أسرة باربر ـ بمن فيهم تود ـ شيء غريب على نحو ما: مزيج ماكر يقظ من اللباقة والشقاوة يجعل من السهل كثيراً أن يتخيّل المرء أسلافهم يجتمعون في الغابة بعد حلول الظلام فيخلعون زيهم البيوريتاني ويقيمون حفلاً مرحاً حول نار وثنية. لم يجرِ كلام كثير بيني وبين كيتزي... لم نكن قادرَيْن على ذلك بفضل السيدة باربر! لكني كنت ألاحظ عينيها المسلطتين عليّ كلما التفتّ في اتجاهها. وبعد العشاء، انتحى بي بلات جانباً، وقال لي بلسان متلعثم قليلاً، بعد خمس (أو ست؟) كؤوس كبيرة من الجن بالليمون: «إنها تتناول مضادات الاكتئاب».

فوجئت فقلت: «أوه!».

«أعني كيتزي... ماما لا يمكن أن تمسّها».

«حسناً...». جعلني صوته المنخفض أشعر بشيء من عدم الارتياح، فقد بدا الأمر كما لو أنه يسألني شيئاً أو يريد مني التدخّل بطريقة ما... «آمل أن يكون تأثيرها عليها أحسن مما كان عليّ».

فتح بلات فمه حتى يضيف شيئاً، لكنه بدا كمن يعيد النظر. قال وهو

يتراجع إلى الخلف قليلاً: «أوه، أظنها في تحسّن. لكن ذلك كان صعباً عليها. كانت كيتزي شديدة القرب منهما... يمكنني القول إنها كانت قريبة من آندي أكثر من أي واحد منا».

«أوه! حقاً؟». لم يكن ممكناً وصف العلاقة التي عرفتها بينهما في طفولتي بأنها «قرب» على الإطلاق، على الرغم من أنها كانت حاضرة في الخلفية دائماً (أكثر من شقيقَي آندي)، وإن كان ذلك لمجرد المضايقة والتشكّي.

تنهد بلات... أطلق نفحة من رائحة الجن كادت تصيبني بالغثيان: «نعم. لقد أخذتْ إذناً بالتغيب عن كلية *ويلزلي*. لكني لست واثقاً من أنها ستعود إليها. قد تنتسب إلى جامعة *نيو سكول*، أو من الممكن أن تبحث عن عمل. من الصعب عليها كثيراً أن تظل في *ماساشوستس* بعد أن... أنت تعرف الأمر. كانا يلتقيان كثيراً جداً في كامبريدج. لقد كانت في حالة مزرية جداً، فلم تذهب للعناية ببابا. كانت تجيد التعامل معه أكثر منا جميعاً؛ لكن... كانت هناك حفلة، فاتصلتْ بآندي ورجته أن يذهب بدلاً منها. حسناً... حسناً...».

«يا اللعنة!». كنت واقفاً عند البار، مفزوعاً، حاملاً ملقط الثلج بيدي، شاعراً بالغثيان لمجرد التفكير في أن شخصاً آخر ـ كيتزي هذه المرة ـ قد أصابه الدمار بفعل السم نفسه الذي دمّر حياتي... *لماذا فعلت؟ فقط لو أنني!*

قال بلات وهو يصبّ لنفسه كأساً جديدة من الجن: «نعم، إنه أمر قاسٍ ثيو».

«لكن، لا يمكن أن تلوم نفسها! لا يمكنها أن تلوم نفسها! هذا جنون...». قلت هذا وقد أثارت اضطرابي عينا بلات الرطبتين بنظرتهما الميتة من فوق حافة كأسه... «لو كانت على ذلك القارب، لكانت هي الشخص الميت الآن، لا آندي».

قال بلات بصوت بارد: «لا، لن تموت. كيتزي شديدة المهارة في الإبحار. لديها ردود أفعال جيدة ورأسها صاحٍ بين كتفيها منذ أن كانت صغيرة. أما آندي... آندي كان يفكر في مسائلِ التجاوب بين المدارات، أو في أي شيء من ذلك الهراء العلمي الذي يعمل عليه في البيت، على كمبيوتره، ففقد السيطرة على القارب في تلك اللحظة. أمر عادي تماماً. على أية حال...». تابع حديثه بهدوء من غير أن يبدو عليه أي انتباه إلى دهشتي... «لكنها الآن في حالة ضياع بعض الشيء؛ وأنا واثق من أنك تفهم هذا. عليك أن تدعوها إلى العشاء، أو شيء ما... سوف تَسَرّ ماما كثيراً بهذا».

9

عندما خرجت، بعد الساعة الحادية عشرة، كان المطر قد توقّف وصارت الشوارع نظيفة لامعة كالزجاج بفعل الماء. وعلى الباب، قابلت الحارس الليلي كينيث (العينان الثقيلتان نفسهما، ورائحة الشراب نفسها، وكرش أكبر قليلاً... لم يتغير فيه شيء غير ذلك).

قال لي: «لا تعتبر نفسك غريباً هنا». كان ذلك نفس ما اعتاد أن يقوله لي دائماً أيام كنت طفلاً صغيراً عندما كانت أمي تأتي لتأخذني بعد أن أقضي الليلة عند آندي... الصوت الفاتر نفسه، لكنه أبطأ قليلاً الآن. حتى لو أصابت مانهاتن كارثة كبرى، فمن الممكن للمرء أن يتخيله واقفاً متمايلاً عند الباب مرتدياً الخرق المتبقية من ملابسه الرسمية السابقة، بينما يجلس آل باربر في شقتهم ويحرقون أعداداً قديمة من ناشيونال جيوغرافيك من أجل التدفئة ويعيشون على الجن ولحم السرطان المعلّب.

كان موت آندي أكبر من أن أستطيع استيعابه على الرغم من أنه تخلّل كل شيء في تلك الأمسية كأنه سمّ بطيء. لكن الأمر الغريب أيضاً هو أن ذلك الموت كان يبدو أمراً محتوماً عندما يستعيده المرء... كان يبدو أمراً

متوقَّعاً على نحو غريب كما لو أن آندي كان يعاني عيباً ولادياً ما قاتلاً. حتى عندما كان طفلاً في السادسة ـ طفلاً حالماً، متعثّراً، مصاباً بالربو، ميؤوساً منه ـ فقد كانت علامات النحس والهلاك المبكر واضحة تماماً في شخصه السقيم الصغير، علامات تُميّزه عن غيره كأنها لافتة معلّقة على ظهره كتب عليها: «اركلوني».

لكن الأمر العجيب أيضاً كان أن عالمه قد صار يبدو ناقصاً من غيره. قلت في نفسي وأنا أقفز من فوق بركة ماء على الرصيف: أمر غريب كيف لبضع ساعات أن تغيّر كل شيء... بل كم هو غريب اكتشاف المرء أن في داخله تلك الشذرة المتألّقة من الماضي الحيّ... شذرة متآكلة، معطوبة، لكنها غير مدمرة. كان آندي طيباً معي عندما لم يكن لي أحد غيره. وأقل ما أستطيع فعله له هو أن أكون لطيفاً مع أمه وأخته. لم يخطر في بالي آنذاك (على الرغم من أنه يخطر في بالي الآن بكل تأكيد) أن سنين مرت منذ أن أفلحت في انتزاع نفسي من سبات البؤس والانطواء على الذات: بين الشذوذ والنشوة، بين عطالتي ووضعي لنفسي خارج العالم وقضميَ لقلبي شيئاً بعد شيء، كان هناك الكثير من الأمور اللطيفة اليومية الصغيرة، اليسيرة التي ضيّعتها ولم أنتبه إليها؛ بل إن كلمة *لطافة* نفسها كانت مثل الخروج من حالة فقدان الوعي في مستشفى ما وبدء الانتباه إلى الأصوات والناس، وتمييز ذلك عن أزيز الأجهزة الطبية.

10

إن اعتياد شيء يومي، ثم فعله يوماً والانقطاع عنه يوماً، يظل اعتياداً على فعله... هذا ما كان جيروم يذكّرني به كثيراً، خاصة بالنظر إلى أنني لم أكن شديد الالتزام بهذه القاعدة. كانت نيويورك مليئة بمختلف الأهوال اليومية في المترو وبين حشود الناس: لم تفارقني أبداً فُجاءَة ذلك الانفجار؛ وكنت دائم الترقّب لحصول شيء ما؛ وكان جزءاً من انتباهي دائم الانصراف إلى مراقبة ما يحدث من حولي... من الممكن

أن يطلق تلك الحالة عندي وقوف أشخاص في تشكيلات معيّنة في أماكن عامة، فتنتابني حالة تأهّب كما لو أنني في فترة حرب؛ شخص يمر من أمامي فيعترض طريقي، أو شخص يسير بسرعة زائدة في اتجاه ما... كان ذلك كافياً للرمي بي في حالة من الذعر الشديد ومن تسارع نبضات القلب، فأسير متعثراً إلى أقرب مقعد في الحديقة. لقد اعتدت أن تُوفرَ لي أقراص أبي المسكّنة مهرباً لذيذاً منعشاً عندما بدأت تناولها لكي تريحني من جروح قلقي؛ لكني سرعان ما بدأت أستخدمها كنوع من المكافأة لنفسي: بدأ ذلك بقرص واحد فقط في عطلة نهاية الأسبوع، ثم صار قرصاً واحداً بعد انتهاء المدرسة كل يوم، ثم صار هناء أثيرياً ناعماً يستقبلني في أحضانه كلما أحسست حزناً أو ضجراً (هذا ما كان يحدث في أوقات كثيرة جداً، للأسف). وفي ذلك الوقت، جاء ذلك الاكتشاف المذهل عندما عرفت أن الأقراص المدوّرة الصغيرة التي كنت أتجاهلها لأنها بدت لي ضعيفة عديمة الشأن كانت أقوى بعشر مرات من أقراص فيكوديل وبيركوسيكس التي كنت ألتهم منها الكثير ـ *أوكسي كونتين 80 ملغ*، قوي إلى حد يجعله قادراً على قتل شخص ضعيف على التحمل، لكني لم أكن ذلك الشخص أبداً. كان مخزوني من الأقراص المخدّرة كبيراً، وبدا أنه لا ينتهي؛ لكنه نفد آخر الأمر! نفد قبيل عيد ميلادي الثامن عشر. وهذا ما اضطرني إلى بدء شراء المخدرات من الشارع. وصرت أنفق مبالغ كبيرة من المال جعلت بائعي المخدرات أنفسهم يوجّهون إليَّ انتقادات قاسية: آلاف الدولارات كل بضعة أسابيع! وبَّخني جاك (سلف جيروم) مرات كثيرة وهو جالس في كرسيه القذر الذي يدير أشغاله انطلاقاً منه. قال لي وهو يعدّ أوراقاً مالية من فئة مئة دولار سحبتها من البنك قبل لحظات: «يمكنك أيضاً أن تقوم بإحراقها!». كان الهيروين أرخص ثمناً ـ خمسة عشر دولاراً للعبوة الواحدة. فحتى إذا لم آخذه عن طريق الحقن (بذل جاك جهداً غير قليل في إجراء الحسابات من أجلي

على الوجه الداخلي لورقة تغليف سندويتش هامبرغر)، فسوف يكون المبلغ الذي أنفقه أقل بكثير؛ سيكون في حدود أربعمئة وخمسين دولاراً في الشهر، لا أكثر!

لكني لم أكن أتناول الهيروويين إلا إذا قدّمه لي أحد ما، ضربة هنا، وضربة هناك. لم أكن أشتريه أبداً على الرغم من محبتي له ومن توقي الدائم إليه. إذا بدأت أشتري الهيروويين، فلن يكون لدي سبب يحملني على التوقف عن ذلك. لقد كانت التكلفة المرتفعة لشراء المستحضرات الصيدلانية عاملاً مساعداً لا في إبقاء تلك «العادة» تحت السيطرة فحسب، بل أيضاً في إعطائي سبباً وجيهاً يحملني على النزول إلى المتجر كل يوم لبيع قطع الأثاث. وأما حكاية أن المرء لا يستطيع العمل جيداً تحت تأثير المخدرات، فقد كانت خرافة، لا أكثر. قد يكون تعاطي الحقن المخدرة أمراً آخر، وأما بالنسبة إلى شخص مثلي، شخص يقفز فيُفزِع الحمامات على الرصيف، شخص متأثر باضطراب ما بعد الصدمة إلى حد يقارب الوقوع في حالة من التشنّج والشلل الدماغي، فقد كانت الأقراص مفتاحاً لا إلى أن أكون قادراً على العمل فحسب، بل أيضاً إلى تحقيق سوية عالية من الأداء. إن الشراب يجعل الإنسان مسترخياً غير قادر على التركيز: يكفي النظر إلى بلات باربر جالساً يرثي نفسه في بارج. *ميلون* عند الساعة الثالثة عصراً. وماذا عن أبي؟ حتى بعد أن تخلّص من الشراب، ظل لديه ذلك الأثر من خراقة الحركات كأنه ملاكم تلقى عدة لكمات قوية على رأسه... كنت أرى أصابعه المتراخية على الهاتف أو على مؤقت الموقد في المطبخ. هذا ما يدعوه الناس «تلفاً دماغياً»... أذيّة عقلية ناتجة عن الإفراط العنيف في الشرب... شيء عصبيّ لا يزول أبداً. كانت مناقشة أبي المنطقية مختلة إلى حد خطير؛ وما كان قادراً أبداً على الاستمرار زمناً طويلاً في أي عمل. أما أنا... نعم، ربما لم تكن لديَّ صديقة، بل لم يكن لديَّ أيّ أصدقاء ممن لا يتعاطون المخدرات؛ لكني كنت أعمل

اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وما كان أي شيء قادراً على جعلي أتوتّر وأفقد أعصابي. كنت أرتدي بدلات أنيقة، وأتواصل مبتسماً مع أشخاص لا أطيقهم، وأسبح مرتين كل أسبوع، وألعب التنس أحياناً، وكنت أمتنع عن تناول السكر والمأكولات المعالَجة. كنت شخصاً مرتاحاً، مسترخياً، حلو المعشر؛ وكنت نحيلاً كقضيب معدني. لم أتورط في أي نوع من رثاء النفس أو التفكير السلبي. كنت بائعاً ممتازاً، وكان الجميع يقول لي هذا؛ وكان العمل يسير سيراً حسناً إلى حد جعلني لا أكاد أبالي بالمال الكثير الذي أنفقه على المخدرات.

لا يعني هذا أنني لم أكن أقع في بعض الزلّات: انزلاقات غير متوقعة تخرج خلالها الأمور عن السيطرة بضع لحظات مخيفة، مثلما يحدث عندما تنزلق السيارة على الجليد مسافة صغيرة فوق جسر، فيجعلني ذلك أرى كم يمكن أن يسوء الأمر، وكم يمكن أن يحدث ذلك سريعاً. لم تكن المشكلة مشكلة مال، بل مشكلة تزايد الجرعات، ومشكلة نسيان أنني بعت بعض القطع، أو نسيان إرسال الفواتير. ينظر هوبي إليَّ نظرة غريبة عندما يراني أبالغ في بعض الأمور وعندما يراني نازلاً السلم متجمّداً ذاهلاً بعض الشيء. حفلات عشاء، وعملاء، آسف، هل كنت تكلّمني؟ هل قلت شيئاً؟ لا، إنني متعب قليلاً فحسب، أشعر بأنني لست على ما يرام، قد آوي إلى فراشي في وقت مبكر بعض الشيء. لقد ورثت عن أمي لون العينين الخفيف. وهذا ما كان يجعلني عاجزاً (إلا عندما أضع نظارات شمسية في مناسبات افتتاح المعارض الفنية) عن إخفاء تضيّق حدقتَيْ عينَيَّ ـ لم يبد على أحد من جماعة هوبي أنه لاحظ شيئاً، باستثناء (أحياناً) قلة من الناس الأصغر سناً، أي الأكثر اطلاعاً على هذه الأمور ـ في وليمة عشاء رسمية، همس في أذني شخص مفتول العضلات كان صديق واحدة من عميلات المتجر: «أنت ولد سيئ». فأفزعني كثيراً. خفت ذات مرة من الذهاب إلى قسم المحاسبة في واحد من بيوت المزادات لأن أحد الأشخاص هناك ـ

أكبر سناً، بريطاني، مدمن أيضاً ـ كان يتودّد إليّ. وبالطبع، كان ذلك يحدث مع النساء أحياناً: واحدة من الفتيات اللواتي كنت أضاجعهن (مصممة أزياء متدرّبة) قابلتها في حلبة لعب الكلاب الصغيرة في واشنطن سكوير عندما كنت مع بوبتشيك. سرعان ما اتضح لكل منا، بعد ثلاثين ثانية من جلوسنا معاً على مقعد الحديقة، أننا نتشارك الحالة نفسها. كنت أخفف الجرعة كلما بدأت الأمور تخرج عن نطاق السيطرة؛ بل إنني انقطعت تماماً عدة مرات استمرت أطول واحدة منها ستة أسابيع متّصلة. كنت أقول لنفسي إن هذا أمر لا يقدر عليه الجميع. المسألة مسألة انضباط، بكل بساطة. لكني أدركت الآن، في ربيع سنتي السادسة والعشرين، أنني لم أنقطع أكثر من ثلاثة أيام متصلة منذ أكثر من ثلاث سنين.

كنت قد درست طريقة الإقلاع عن المخدرات إقلاعاً نهائياً، إن أردت ذلك: خفض متدرج للجرعات، وجدول زمني أسبوعي، والكثير من الإيوبيرامايد[1]، ومتمّمات غذائية تحتوي على المغنيزيوم والأحماض الآمينية الحرة من أجل ترميم النواقل العصبية التالفة، ومسحوق البروتين، ومسحوق إلكتروليتي، إضافة إلى الميلاتونين[2] (والماريغوانا)، حتى أستطيع النوم. وإلى جانب ذلك كله تشكيلة واسعة من المستحضرات العشبية والدوائية المذابة في الكحول التي كانت صديقتي مصممة الأزياء المتدرّبة مصرة على جدواها، مع عرق السوس و«حليب» القندريس[3]، وأوراق القرّاص والجنجل، وزيت بذور الكمّون الأسود، وجذور الناردين وخلاصة النعناع البري. كان لدي كيس تسوّق من متجر المواد الغذائية الصحية يحتوي على هذه المواد اللازمة كلها. وكان ذلك الكيس قابعاً في الجزء الخلفي من أرضية خزانة ملابسي منذ سنة ونصف

(1) مستحضر دوائي من الفصيلة الأفيونية يستخدم عادة في حالات الإسهال الحاد.

(2) مادة هرمونية تفرزها الغدة الصنوبرية.

(3) القندريس: نبات شوكي له زهور بنفسية جميلة. الناردين نبتة عشبية لها زهور بيضاء أو وردية صغيرة تكون على شكل عناقيد.

السنة. لم أمسّ شيئاً من محتوياته كلها باستثناء الماريغوانا التي انتهت منذ زمن طويل. كانت المشكلة (هكذا قالوا لي مرات كثيرة) اضطرارك إلى ملازمة البيت ستاً وثلاثين ساعة يكون جسدك في حالة ثورة شديدة ترى خلالها بقية حياتك ـ الخالية من المخدرات ـ ممتدة أمامك، كالحة، كئيبة كأنها ممر طويل في سجن. وعند ذلك، تكون في حاجة إلى سبب يجبرك حقاً على مواصلة السير إلى الأمام في تلك الظلمة بدلاً من العودة والوقوع مباشرة على فراش الريش الوثير الذي هجرته بمنتهى الحماقة.

في تلك الليلة، عندما عدت من العشاء عند آل باربر، ابتلعت قرص مورفين مديد الأثر، مثلما اعتدت فعله كلما عدت إلى البيت في مزاج حزين وأحسست بأنني في حاجة إلى شيء لشد عزيمتي: جرعة منخفضة، أقل من نصف ما يلزمني حتى أحس بأي شيء... جرعة كافية فقط، بعد الشراب، حتى أتفادى أن أكون زائد الاهتياج أثناء نومي. وفي الصباح التالي، استيقظت خائر العزم (عادة ما كنت أستيقظ مع إحساس بالغثيان في هذه المرحلة من خطة الإقلاع عن المخدرات فأفقد شجاعتي بسرعة كبيرة)، فسحقت ثلاثين ميلغراماً من *الروكسيدكودون* على سطح طاولة الزينة الرخامي، ثم جعلتها ستين ميليغراماً، ثم استنشقت المسحوق ونهضت، فارتديت ملابسي، وغسلت أنفي بمحلول ملحي. كنت غير راغب في رمي الأقراص الباقية لدي (ثمنها أكثر من ألفي دولار). أخرجت بضعة أقراص من المورفين مديد الأثر تحسباً لأن تصير آثار «الانسحابات»، مثلما كان جيروم يدعوها، مزعجة كثيراً. وضعت العلبة المعدنية الصغيرة في جيبي، وخرجت في السادسة صباحاً، قبل أن يستيقظ هوبي، فأخذت سيارة تاكسي متّجهاً إلى المستودع.

كان مبنى المستودعات ـ يفتح أبوابه على مدار الساعة ـ أشبه بمدفن كبير من مدافن المايا[1] لولا وجود موظف ثمل جالس في مكتب

---

(1) المايا: شعب أميركي أصلي كانت له حضارة متقدمة في الجزء الجنوبي من المكسيك

الاستقبال يتابع التلفزيون. سرت متوتراً في اتجاه المصاعد. لم أدخل هذا المكان إلا ثلاث مرات خلال سبع سنين؛ وكنت أدخله خائفاً، ثم لا أصعد إلى حجرة التخزين التي استأجرتها بل أكتفي بمرور سريع على المكتب في ردهة الدخول حتى أدفع الإيجار نقداً: أدفع إيجار سنتين كل مرة، الحد الزمني الأقصى الذي يسمح به قانون الولاية.

كان مصعد الحمولة في حاجة إلى استخدام بطاقة الدخول الممغنطة التي لم أنسها في البيت، لحسن الحظ. لكنني فشلت في إدخالها في المكان الصحيح، فبقيت بضع دقائق واقفاً في ذلك المصعد المفتوح أحاول جعل البطاقة تنزلق في الشق المخصص لها، آملاً بأن يكون الموظف في المكتب على درجة من الثمالة تمنعه من ملاحظة ما يجري. وفي النهاية، هسهس الباب المعدني وانزلق مغلقاً. كنت متوتر الأعصاب كثيراً، وكان لديَّ إحساس بأنني مراقب، فبذلت أقصى جهد حتى أدير وجهي عن انعكاس صورتي المشوش في مرآة المصعد. صعدت إلى الطابق الثامن. ممرات كثيرة، جدران رمادية وصفوف من أبواب لا وجوه لها كأنها أبديّة مصطنعة، لا لون فيها غير ذلك اللون الرمادي المصفر، ولا غبار يمكن أن يستقر عليها طيلة ما بقي من الزمان.

الباب رقم 8I: مفتاحان، وقفل له رقم سرّي، 7552، نهاية رقم بوريس في لاس فيغاس، انفتح الباب مصدراً زقزقة معدنية. رأيت كيس التسوّق الذي أتيت به من متجر المعدات الرياضية ـ بطاقة الخيمة الصغيرة لا تزال متدلية، 43,99 دولاراً، ولا تزال نضرة جديدة المظهر مثلما كانت يوم اشتريتها قبل ثماني سنوات. وعلى الرغم من الصدمة البشعة، كأنها لسعة كهربائية على صدغي، التي أتتني عندما رأيت حافة غلاف الوسادة تلوح من فتحة الكيس، فقد كانت الرائحة مفاجأة أكبر: رائحة الشريط اللاصق البلاستيكي التي صارت شديدة جداً لانحباسها في هذا الحيّز

قبل الفتح الأوروبي.

الضيق... رائحة أثارت لديَّ مشاعر عنيفة، لأنني لم أشمها ولم أتذكرها منذ سنين، رائحة البوليفينيل المميزة التي رمتني عائداً إلى أيام طفولتي في غرفتي في لاس فيغاس: مواد تنظيف كيميائية، وسجادة جديدة، والنوم ثم الاستيقاظ كل صباح عندما كانت اللوحة ملصقة على ظهر لوحة رأس السرير... رائحة الشريط اللاصق نفسه لا تزال في منخري. لم أفتح تلك الحزمة منذ سنين؛ يستغرق فتحها عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة إذا استخدمت مشرطاً قوياً، لكني وقفت وقد طغت عليّ مشاعري (تعثّر وتشوّش يشبهان ما أصابني عندما سرت في نومي، فوقفت بباب غرفة بيبا غير عارف ما أفكر فيه، وما يتعين عليه فعله)، واخترقني حافز ملحّ يقارب الهذيان: أن أجدها على مسافة ذراع مني بعد هذا الزمن كله، كان أن أجد نفسي فجأة واقفاً على حافة شديدة الخطر تدعوني إليها... حافة لم أكن أعرف أنها موجودة. كان لتلك الحزمة ـ أو للجزء الصغير البائن منها ـ مظهر شخصي مؤثر، جارح إلى حد كبير... شيء لا يشبه جسماً هامداً عديم الروح، بل مخلوقٌ بائسٌ، مقيدٌ، عاجزٌ في الظلام غير قادر على الصراخ، لكنه يحلم بمن ينقذه. لم أكن على هذه المقربة من اللوحة منذ أن كنت في الخامسة عشرة. لم أستطع في تلك اللحظة فعل شيء، لم أستطع التقاطها ووضعها تحت إبطي والخروج بها. لكني كنت قادراً على الإحساس بكاميرا المراقبة مسلطة على ظهري، فألقيت بالعلبة المعدنية في كيس التسوق ـ بحركة متشنجة سريعة ـ وأغلقت الباب، ثم أدرت المفتاح. لقد نصحتني ميا، صديقة جيروم المثيرة جداً: «تخلّص من تلك الأقراص إذا كنت تريد الإقلاع عنها حقاً؛ وإلا فسوف تجد نفسك ذاهباً إلى المستودع في الساعة الثانية صباحاً». لكن الأقراص كانت آخر ما يمكن أن أفكر فيه عندما سرت خارجاً من الباب وقد استولى عليَّ الدوار. هزتني هزاً عنيفاً رؤية اللوحة المُقمّطة، وحيدة، حزينة، كما لو أن إشارة من قمر صناعي في الماضي قد أتت فجأة فحجبت عني الاتصالات كلها.

11

مع أن أيام انقطاعي (أحياناً) كانت قد حالت دون حدوث شطط كبير في زيادة الجرعات، فقد صارت أعراض الانسحاب مزعجة في وقت أبكر مما كنت أتوقع. وحتى في وجود الأقراص التي احتفظت بها من أجل الخفض التدريجي للجرعات، فقد أمضيت الأيام التي تلت في حالة سيئة حقّاً: غثيان شديد حرمني الطعام، وعطاس متواصل لا يهدأ. قلت لهوبي: «هذا زكام، لا أكثر. أنا بخير».

قال هوبي عابساً بعد أن عاد من الصيدلية بمزيد من *البينادريل والإيموديوم*[1]، إضافة إلى مقرمشات مالحة وشراب الزنجبيل من *جيفرسون ماركت*: «لا! إذا كان لديك اضطراب هضمي، فهذا يعني أنك مصاب بالأنفلونزا. ما من سبب يدعوك إلى البقاء هكذا. لو كنت مكانك، لذهبت إلى الطبيب من غير أية كلمة».

«لا، هذا ليس أكثر من توعّك بسيط».

كانت لدى هوبي عادة ثابتة لا تتغير: يشرب زجاجة *فيرنيه برانكا* كلما أصابه شيء، ويتابع حياته.

«ربما يكون هذا صحيحاً؛ لكنك لم تأكل شيئاً منذ أيام. لا معنى لأن تجرجر نفسك إلى المتجر وتجعل نفسك بائساً هكذا».

لكن العمل كان يشغل عقلي عن ذلك الضيق الذي كنت فيه. كانت نوبة تشنج تأتيني كل عشر دقائق، ثم يبدأ التعرّق بعدها. سيلان الأنف، وسيلان العينين، واختلاجات كهربائية مفاجئة. كان الطقس قد تغير، وكان المتجر مليئاً بالناس والكلام والحركة. أشجار الشارع أزهرت في الخارج فصارت انفجارات كبيرة من هذيان أبيض. كانت يداي ثابتتين على آلة المحاسبة، معظم الوقت، لكن داخلي كان يتلوّى ألماً. لقد قالت

---

(1) بينادريل (بينادريلين): دواء مضاد للتحسس ولأعراض الزكام. إيموديوم: دواء مستخدم لمعالجة اضطرابات الجهاز الهضمي.

لي ميا: «ليست المرحلة الأولى أصعب المراحل. ففي الجولة الثالثة أو الرابعة، ستتمنّى أن تموت». كانت معدتي تتشنج وتنقبض متهيجة كأنها سمكة؛ آلام، وعضلات متوترة وثابة... وما كنت قادراً على الاستلقاء ساكناً أو العثور على الراحة في سريري أثناء الليل بعد أن أغلق المتجر، فأجلس محمرَّ الوجه أعطس في حوض حار لا يكاد يُحتمل، وعلى صدغي كأس فيه شراب الزنجبيل وقطع ثلج شبه ذائبة، في حين يجلس بوبتشيك على حصيرة الحمام وينظر إليَّ بعينين قلقتين (كبر وصار أضعف من أن يستطيع الوقوف مستنداً بقائمتيه الأماميتين إلى حافة المغسلة مثلما كان يحب أن يفعل).

لم يبلغ شيء من هذا كله مقدار السوء الذي توقّعته. لكن الشيء الذي لم أكن أتوقّع ربع شدته وصعوبته كان ما دعته ميا «الجانب الذهني» لأنه صار شيئاً لا يُطاق، شيئاً يشبه إسدال ستارة رعب سوداء. ميا وجيروم، وكذلك مصممة الأزياء المتدرّبة... كان أكثر أصدقائي ممن يتعاطون المخدرات قد أمضوا في هذا زمناً أطول مما أمضيت؛ وعندما كانوا يجلسون منتشين ويخبرونني كيف يكون الأمر عندما يحاول المرء الإقلاع (من الواضح أن ذلك كان الوقت الوحيد الذي يستطيعون فيه تحمّل الكلام عن الإقلاع)، كان كل منهم يحذّرني تكراراً من أن الأعراض الجسدية ليست هي الجزء الأكثر صعوبة؛ ذلك لأن الاكتئاب الذي يصاحب العملية ـ حتى عندما يكون الإدمان حديث العهد، مثل إدماني ـ سوف يكون شيئاً «لم أره حتى في أحلامي». كنت أبتسم بأدب وأنحني فوق المرآة[1] وأقول في نفسي: *هل تراهنون؟*

لكن كلمة *اكتئاب* لم تكن وصفاً صالحاً لتلك الحالة. كان الأمر غوصاً عميقاً في بحر واسع من حزن وقرف يتجاوزان كثيراً ما هو شخصي: إحساس مريض مشبّع بالغثيان تجاه البشر وتجاه كل ما سعى إليه البشر

(1) المقصود أنهم يضعون المسحوق على مرآة بينهم قبل تنشقه.

منذ فجر الزمان. اشمئزاز عنيف من النظام البيولوجي كله. الشيخوخة، والمرض، والموت. لا مهرب لأي إنسان من هذه البشاعة كلها! وحتى من يكون جميلاً، فهو ليس أكثر من ثمرة طرية ناضجة موشكة على الفساد. لكن الناس ـ لا أدري كيف ـ يواصلون المضاجعة والتوالد وإنتاج طعام جديد للقبور. ليس إنتاج المزيد والمزيد من الكائنات الجديدة حتى تعاني على هذا النحو شيئاً حسناً، ولا شيئاً مُخلِّصاً، ولا حتى شيئاً أخلاقياً يدعو إلى الإعجاب: بل جر مزيداً من المخلوقات البريئة إلى هذه اللعبة الخاسرة أبداً. أطفال صغار يسيرون متثاقلين مرتبكين، وأمهات راضيات عن فعلتهن وقد خدّرت الهرمونات عقولهن. *أوه، أليس هذا جميلاً؟ واو!* أطفال يصرخون ويتقافزون في الملاعب من غير أن تكون لديهم أية فكرة عن جحيم المستقبل الذي ينتظرهم: وظائف مملة، وديون كارثية، وزيجات فاشلة، وفقدان الشعر، واستبدال مفصل الورك، وفناجين قهوة يشربونها وحدهم في بيت خالٍ، وأكياس الفضلات المعلّقة من أجسادهم بعد عمليات القولون. يبدو أكثر الناس راضياً بتلك القشرة التزيينية الواهية وبأنوار المسرح المصطنعة التي تجعل ـ أحياناً ـ الفظاعة الكامنة في قرار المأزق البشري تبدو أكثر غموضاً أو أقل شناعة. يقامر الناس، ويلعبون الغولف، ويغرسون الحدائق، ويتاجرون بالأسهم، ويمارسون الجنس، ويشترون سيارات جديدة، ويمارسون اليوغا، ويعملون، ويتعبّدون، ويزيّنون بيوتهم، ويهتمون بالأخبار، ويقلقون على أطفالهم، ويَنِمّون على جيرانهم، ويمعنون النظر في قوائم المطاعم، ويؤسسون منظمات خيرية، ويساندون مرشحين سياسيين، ويحضرون مباريات بطولة التنس الأميركية المفتوحة، ويتعشّون، ويسافرون، ويُلهون أنفسهم بأجهزة وأدوات لا حصر لها، ويغمرون أنفسهم، من غير توقّفٍ، بمعلومات ونصوص واتصالات وتسليات من كل حدب وصوب، حتى يحاولون جعل أنفسهم ينسون الأمر: أين نحن. وما نحن؟ لكن، تحت ضوء

قوي، ما من تفسير سائغ لهذا. شيء فاسد متعفّن من أعلاه إلى أدناه. تكريس وقتك للعمل في مكتب؛ واهتمامك مخلصاً بإنشاء أسرة مثالية؛ والابتسام أدباً في حفل تقاعدك؛ ثم العض على ملاءة السرير والاختناق بطعامك المعلَّب في مأوى العجزة. من الأفضل لو أنك لم تولد أصلاً! من الأفضل لو أنك لم تُرِد أي شيء أبداً، ولم تأمل بشيء أبداً. كان هذا التخبّط العقلي كله، وهذا التقلّب كله، ممتزجاً بصور لا تنفك تتكرّر مرة بعد مرة، أو بأشباه أحلام أرى فيها بوبتشيك ضعيفاً، نحيلاً، مستلقياً على جانبه وأضلاعه تعلو وتهبط. لقد نسيته في مكان ما وتركته وحده من غير أن أطعمه؛ إنه يموت ـ تكرر هذا مرّة بعد مرّة، حتى عندما كان بوبتشيك في الغرفة معي يرفع رأسه سريعاً كلما أجفلت. وبحثت عنه شاعراً بالذنب: أين بوبتشيك؟ وكان هذا ممتزجاً أيضاً بلمحات خاطفة تشق الرأس شقاً، أرى فيها غلاف الوسادة الملفوف بالشريط اللاصق المحبوس في تابوته الفولاذي. مهما يكن السبب الذي جعلني أخزّن اللوحة تلك السنين كلّها؛ بل حتى مهما يكن السبب الذي جعلني آخذها من المتحف أصلاً؛ فقد صرت الآن عاجزاً عن تذكّره. ضيّع الزمن ملامح الأسباب كلها. كان ذلك جزءاً من عالم لا وجود له، أو كان ذلك كأنني أعيش في عالمين اثنين، وكأن حجرة المستودع جزء من العالم المتخيَّل لا من العالم الحقيقي. كان سهلاً أن أنسى حجرة المستودع وأتظاهر بأنها غير موجودة؛ وكان لدي شبه توقّع بأن أفتحها فأجد اللوحة قد اختفت رغم معرفتي بأنها لن تختفي، بل ستظلّ خلف الباب المقفل في الظلام، ستظل في انتظاري دائماً طالماً تركتها هناك... كما لو أنها جثة شخص قتلته ووضعته في قبو في مكان ما.

وفي الصباح الثامن، استيقظت غارقاً في عرقي بعد نوم مضطرب استمر أربع ساعات. أحسست بأنني مفرغ من داخلي، وأحسست بقنوط لم أعرفه طيلة حياتي كلها. لكني كنت ثابت الخطوة إلى الحد الذي

سمح لي بأن آخذ بوبتشيك في نزهة خارج البيت، ثم أعود إلى المطبخ حتى أتناول فطور نقاهتي الذي أصر هوبي على ضرورته: بيض مسلوق وفطيرة مافن إنكليزية.

انتهى هوبي من تناول طعامه وبدأ يرفع الأطباق من غير استعجال. قال لي: «بدأت حالتك تتحسّن في التوقيت المتوقَّع تقريباً. صرت أبيض اللون كزهرة سوسن! لو كنت مكانك لصرت مثلك. أسبوع كامل لم تأكل فيه غير مقرمشات مالحة ولا شيء غيرها. أنت الآن في حاجة إلى شيء من ضياء الشمس، وإلى شيء من الهواء. يجب أن تخرج مع الكلب وتقوما بنزهة طويلة على الأقدام».

«هذا صحيح». لكني لم أكن أعتزم الذهاب إلى أي مكان غير المتجر حيث المكان هادئ خافت الإنارة.

«لم أرد إزعاجك لأنك كنت في حالة سيئة فعلاً...». قال هذا بنبرة من يستعد للذهاب إلى العمل مع هزة رأس ودية فجعلني أشيح بوجهي مضطرباً وأنظر إلى طبقي... «لكنْ، هناك مكالمات أتتك على هاتف البيت عندما كنت مريضاً».

«أوه، حقّاً؟». كنت قد فصلت هاتفي الخليوي وتركته في الدرج، ثم لم أنظر إليه بعد ذلك خشية أن أجد رسائل من جيروم.

«فتاة لطيفة جداً...». نظر إلى دفتر ملاحظاته من فوق حافة نظارته... «بيزي هورسلي!» (بيزي هورسلي كان الاسم الحقيقي لكارول لومبارد)... «قالت إنها مشغولة في عملها...» (إشارة متفق عليها تعني: خطيبي هنا. *ابق بعيداً*)... «وقالت إن من الممكن أن تكتب لها رسالة نصية إذا أردت رؤيتها».

«حسناً، عظيم. أشكرك». سيكون زفاف بيزي الكبير الهام في الكاتدرائية الوطنية في شهر حزيران، إذا تم الزفاف، ثم تنتقل بعدها إلى واشنطن العاصمة مع «*إلى الأبد*»، مثلما كانت تسمّيه.

«اتصلت أيضاً السيدة هيلدزلي. سألت عن خزانة الدروج المصنوعة

من خشب الورد. ليست الخزانة ذات الغطاء المتحرّك، بل الأخرى. قدَّمتْ عرضاً طيباً، ثمانية آلاف، فوافقت. آمل ألا تكون معترضاً على ذلك، فتلك الخزانة لا تساوي ثلاثة آلاف، إن أردت رأيي. وأيضاً اتصل مرتين شخص اسمه لوسيوس ريف!». شرقت وكدت أختنق بقهوتي (أول قهوة استطعت تناولها منذ أيام)، لكن هوبي لم ينتبه.

«لقد ترك رقمه وقال إنك تعرف الموضوع. أوه...». جلس فجأة وضرب الطاولة براحة يده... «جاء اتصال من أسرة باربر أيضاً!».

«كيتزي؟»

أخذ رشفة من فنجان الشاي: «لا. إنه بلات. أليس اسمه بلات؟».

12

كادت فكرة التعامل مع لوسيوس ريف من غير أن أكون تحت تأثير الأقراص كافيةً لجعلي أعود إلى حجرة المستودع حتى أستعيد تلك العلبة الصغيرة. وأما في ما يخص أسرة باربر، فلم أكن شديد الحرص على التحدث مع بلات. إلا أنني ارتحت عندما أجابت كيتزي على اتصالي.

قالت على الفور: «سوف ندعوك إلى العشاء».

«عفواً؟».

«ألم نخبرك بهذا؟ أوه، ربما كان عليَّ أن أتصل بك. على أيّ حال، كانت ماما شديدة السرور برؤيتك. تريد أن تعرف متى تعود مرة أخرى؟».

«في الحقيقة...».

«هل أنت في حاجة إلى دعوة؟».

«حسناً، نوعاً ما».

«يبدو صوتك غريباً».

«آسف، إنني مصاب بـ... بالأنفلونزا».

«حقّاً؟ يا ربي. لقد كنا في صحة ممتازة، كلنا. ولا أظن أنك التقطت

العدوى منا... عفواً؟». قالت هذا رداً على صوت غير واضح سمعتُه يخاطبها... «اسمع... بلات يحاول أن يأخذ الهاتف مني. سأكلمك قريباً».

قال بلات عندما أمسك الهاتف: «مرحباً يا أخي».

أجبته وأنا أحكّ صدغي محاولاً التفكير في مدى غرابة أن يدعوني بلات بكلمة *أخي*: «مرحباً».

«أريد...». صوت خطوات؛ ثم صوت إغلاق باب... «أريد أن أدخل في الموضوع مباشرة».

«ماذا؟».

قال بنبرة ودّية: «موضوع بعض قطع الأثاث. أهناك إمكانية لأن تبيع بعض القطع من أجلنا؟».

«بالتأكيد...». جلست... «ما القطع التي تفكر أمّك في بيعها؟».

«حسناً. المسألة هي أنني لا أريد إزعاج ماما بهذا الأمر، إن كان هذا ممكناً. لست واثقاً من أنها مستعدة له. إن كنت تفهم ما أعنيه».

«أوه؟».

«أعني، حسناً، إن لديها أشياء كثيرة جداً... أشياء في البيت في ولاية ماين، وأشياء في المخزن لن تنظر إليها بعد الآن... هل تفهم هذا؟ ليست قطع أثاث فقط، فضّيات، ومجموعة نقود معدنية، وبعض السيراميك الذي أظنه شيئاً مهماً، لكنه يبدو كالخراء، إن شئت الصراحة. لست أقول هذا على سبيل المجاز. أعني أنه أشبه بكتل من روث الأبقار».

«أظن أن السؤال الذي يجب أن أطرحه هو لماذا تريدون بيع هذه الأشياء؟».

قال متعجلاً: «الحقيقة أنه ليست هنالك حاجة إلى بيعها. لكن المسألة أن ماما شديدة المعاندة عندما يتعلّق الأمر ببعض هذه التوافه القديمة».

دعكت عينيَّ وقلت: «بلات؟».

«أعني أن تلك القطع جالسة هناك فحسب. وكلها أشياء لا فائدة منها. كثير منها يخصّني أنا... مجموعة العملات المعدنية وبعض البنادق والأشياء القديمة، لأن جدتي تركتها لي. أعني...». صارت نبرة صوته حادة بعض الشيء... «سأكون صريحاً معك. لديَّ شخص آخر أتعامل معه؛ لكني، صدقاً، أفضل التعامل معك. أنت تعرفنا. وأنت تعرف ماما. وستعطيني سعراً جيداً».

«صحيح...». قلتها بصوتٍ غير واثق. ثم تلا ذلك صمت مترقّب بدا كأنه من غير نهاية ـ كأننا كنا نقرأ من نص مكتوب فراح ينتظر، واثقاً، أن أقرأ تتمة جملتي ـ كنت أبحث في ذهني عن طريقة لجعله يصرف النظر عن الأمر عندما وقعت عيني على اسم لوسيوس ريف ورقمه المكتوبَيْن بخط يد هوبي المنفتح المعبّر.

قلت: «لا بأس. ممم... الأمر شديد التعقيد. أعني أنه لا بد لي من رؤية تلك الأشياء بنفسي قبل أن أكون قادراً على قول أي شيء. صحيح، صحيح...». كان يحاول أن يقول لي شيئاً عن إرسال صور... «لكن الصور ليست وافية بالغرض. ثم إني لا أتعامل بالعملات النقدية القديمة، ولا بنوع السيراميك الذي حدّثتني عنه. في ما يتعلّق بالعملات المعدنية عليك أن تذهب إلى شخص متخصّص. وأما في الوقت الحاضر...». قلت هذا وهو مستمر في محاولة مقاطعتي... «إذا كانت المسألة هي الحصول على بضعة آلاف من الدولارات، فأظنني قادر على مساعدتك في هذا».

جعله هذا يسكت تماماً. لم يقل إلا: «نعم».

أزحت نظارتي لكي أمسح أنفي: «اسمع ما سأقوله لك. إنني أحاول إنشاء مصدر مثبَت لقطعة أثاث ـ صار الأمر كابوساً لأن ذلك الشخص لا يريد أن ينصرف عني. حاولت استعادة القطعة عن طريق شرائها منه من جديد بثمن أكبر. لكنه يبدو مصرّاً على إثارة مشكلة. لا أعرف

السبب الذي يجعله مصراً على ذلك. لكني أظن أن إصدار فاتورة بيع لتلك القطعة يمكن أن يفيدني كثيراً بحيث تكون تلك الفاتورة إثباتاً أنني اشتريت تلك القطعة من جامع أثاث آخر».

«حسناً. إن ماما تقيم اعتباراً كبيراً لك...». قال هذا بمرارة وبنبرة حادة... «وأنا واثق من أنها ستفعل أي شيء ستطلبه منها».

«نعم، المسألة هي...». كان هوبي في الأسفل يعمل على الفارزة الكهربائية، لكني خفضت صوتي إلى أقصى حد ممكن... «يجب أن يظل هذا الكلام بيننا فقط».

«بالطبع».

«في الحقيقة، لا أرى أي سبب لإدخال أمك في الأمر أصلاً. يمكنني أن أحرّر فاتورة البيع بتاريخ سابق. وإذا كانت لدى ذلك الشخص أية أسئلة ـ قد تكون لديه أسئلة ـ فإنني أريد إحالته إليك، أي إعطاءه رقم هاتفك: الابن الأكبر لأم فقدت زوجها منذ فترة وجيزة، كذا وكذا...».

«من هو ذلك الشخص؟».

«اسمه لوسيوس ريف، هل سمعت به؟».

«لا».

«حسناً... فقط، حتى تكون على بيّنة، أقول لك إن من المحتمل أن يكون على معرفة بأمك، أو قد يكون قد التقاها في وقت ما؟».

«لن تكون هذه مشكلة. ماما لا تكاد ترى أحداً هذه الأيام...». سمعته يشعل سيجارة... «إذاً، لنقل إن هذا الرجل سيتّصل بي».

وصفت له القطعة التي اشتراها لوسيوس ريف... «يسرني أن أرسل لك صورتها. العلامة المميّزة فيها هي صورة العنقاء المحفورة في أعلاها. ليس عليك أنت فعل أي شيء غير إخباره، إذا اتصل، بأن تلك القطعة كانت في بيتكم في ولاية ماين إلى أن باعتها أمك لي منذ نحو سنتين. قل له إنها اشترتها من تاجر خرج من السوق منذ زمن بعيد، أو

من شخص عجوز مات منذ بضع سنين، وقل إنك لا تستطيع تذكر اسم ذلك الشخص. أظهر له أسفك لأن عليه أن يتحقّق من الأمر بنفسه. وأما إذا ظل مصراً...». كان أمراً مدهشاً ما تعلّمته من أن بضع بقع شاي وبضع دقائق في الفرن، على درجة حرارة منخفضة، كافية تماماً لتعتيق الفواتير الفارغة في دفتر فواتير منذ 1960 اشتريته من سوق الأشياء المستعملة... «من السهل عليَّ أن أزوّدك أيضاً بفاتورة تثبت أن أمك قد اشترت تلك القطع».

«فهمت».

«جيّد. على أية حال...». كنت أتحسّس جيوبي بحثاً عن سجائر أعرف أنني لا امتلكها... «إذا توليت هذا الأمر من جانبك... أعني، إذا التزمت بمساندتي في حال اتصال هذا الشخص بك، فسوف أعطيك عشرة بالمئة من السعر الذي سأدفعه له».

«وكم تعادل هذه النسبة؟».

«سبعة آلاف دولار».

ضحك بلات، ضحكة فرحة خالية البال على نحو غريب... «كان بابا يقول دائماً إن المشتغلين بالأنتيكات محتالون كلّهم».

13

أغلقت الهاتف شاعراً بارتياح كبير. لقد كان لدى السيدة باربر كمية من قطع الأنتيكات من الدرجة الثانية ومن الدرجة الثالثة، لكنها كانت تمتلك أيضاً كثرة كبيرة من القطع المهمة إلى حد جعلني أشعر بالاضطراب والقلق عندما فكرت في قيام بلات ببيع الأشياء من غير علمها، ومن غير أن تكون لديه أية فكرة عما يفعله. وأما أن يكون بلات «واقعاً في مشكلة»... طبعاً... إن كان هناك أي شخص تفوح منه رائحة التورّط في مشكلات مستمرة غامضة، فهو بلات! صحيح أن سنوات كثيرة مرّت منذ أن تذكّرت آخر مرة قصة طرده من الكلية. لكن ملابسات ما حدث

آنذاك قد أخفيت بحرص بدا لي معه أن بلات قد فعل شيئاً خطيراً حقاً، شيئاً كان يمكن أن يؤدي إلى تدخل الشرطة لولا ذلك القدر الكبير من «السيطرة على الموقف». وهذا ما جعلني ـ بطريقة غريبة ـ أشعر بنوع من الاطمئنان لأنني كنت واثقاً من أنه سيأخذ المال ويبقي فمه مطبقاً. ثم إنني أحسست سروراً حقيقياً، من كل قلبي، عندما فكرت في أن بلات كان أصلح الناس لإخافة لوسيوس ريف وإلزامه حده: متكبر من طراز رفيع، ومتنمّر بطبيعته.

قلت بكل كياسة عندما رفع سماعة الهاتف: «سيد ريف؟».

«لوسيوس، من فضلك».

«لا بأس... لوسيوس». استولى عليَّ غضب بارد عندما سمعت صوته. لكن معرفتي بوجود بلات في صفي جعلتني أكثر غروراً وثقة بنفسي... «لقد اتصلت بي، فماذا لديك؟».

أتتني إجابته السريعة: «لعله ليس ما تظنه».

فاجأتني نبرة صوته لكنني أجبته بالقدر الكافي من اليسر: «حقاً؟ لا بأس إذاً. أخبرني».

«أظنك تفضّل أن أخبرك وجهاً لوجه».

أجبته سريعاً: «عظيم. ما رأيك في اللقاء في قلب المدينة بما أنك كنت في غاية اللطف عندما دعوتني إلى ناديك في المرة الماضية؟».

14

كان المطعم الذي وقع عليه اختياري في حي *تريبيكا*. مكان في قلب المدينة بعيد إلى حد يعفيني من القلق من احتمال مصادفة هوبي أو أي واحد من أصدقائه؛ إضافة إلى أنه مزدحم بالشبيبة إلى الحد الكافي لإفقاد ريف توازنه (هذا ما أملته). ضجيج وأضواء وكلام وحركة أجساد لا تهدأ. وبحواسي التي تجدّدت فعادت مرهفة، جلست وسط الروائح

الطاغية: نبيذ وثوم وعطر وعرق... أطباق حارة من الدجاج بالليمون تتوالى خارجة من المطبخ؛ والمقاعد الطويلة التركوازية، والفستان البرتقالي اللامع للفتاة الجالسة بالقرب مني... كان ذلك كله شبيهاً بمواد كيميائية صناعية مقذوفة مباشرة إلى عينيّ. كانت معدتي في غاية التوتر، وكنت أمضغ قرصاً من عبوة الأقراص المضادة للحموضة في جيبي عندما رفعت رأسي فرأيت النادلة الطويلة الجميلة ذات الوشم ـ متراخية خالية البال ـ تشير إلى لوسيوس ريف إلى طاولتي بحركة لا مبالية.

قلت من غير أن أقف للترحيب به: «أهلاً، أهلاً. لطيف أن أراك من جديد».

كان ينظر من حوله وقد ظهر النفور على وجهه: «هل تحب حقّاً أن تجلس في هذا المكان؟».

قلت بصوت مسطّح: «لم لا؟».

لقد تعمّدت اختيار طاولة في وسط الضجيج والزحام... لم يكن ضجيجاً شديداً إلى حد يضطرنا إلى الصياح، لكنه كافٍ للإزعاج؛ كما أني تركت له الكرسي الذي يجعل الشمس في مواجهته.

«هذا شيء سخيف تماماً».

«أوه. إنني آسف. إذا لم تكن مرتاحاً هنا...». أشرت إلى النادلة الطويلة المشغولة بنفسها. كانت تسير متمايلة عائدة إلى موقعها.

جلس ريف مستسلماً لحقيقة أن المطعم كان مزدحماً. وعلى الرغم من جسمه المشدود وأناقة حركاته وكلامه وبدلته حسنة التفصيل بالنسبة إلى رجل في مثل سنه، فقد ذكّرتني هيئته كلها بسمكة البالون، أو بشخصية كارتونية قوية، أو بشرطي على الطراز القديم صدمته دراجة: ذقن منخمصة قليلاً، وأنف كأنه كرة من عجين، وفم مشدود الشفتين مزروع وسط وجه لامع ورديّ كوجوه من يعانون ارتفاع ضغط الدم.

بعد وصول الطعام ـ تشكيلة طعام آسيوي من فطائر صغيرة مقرمشة

وبصل أخضر مقلي، أدركت من تعبير وجهه أنه لا يحبه ـ انتظرت إلى أن يقول ما أراد قوله لي. كانت النسخة الكربونية من فاتورة البيع المزوَّرة التي حررتها على صفحة فارغة من دفتر فواتير ويلتي القديم وجعلت تاريخها قبل خمس سنين مطوية في جيب سترتي الداخلي؛ لكني لم أكن أعتزم إخراجها قبل أن أجد ضرورة لذلك.

كان ريف قد طلب لنفسه شوكة. ومن طبق «جمبري العقرب» المخيف قليلاً الذي كان أمامه، سحب عدة خيوط تزيينية من مادة نباتية ما فوضعها جانباً. ثم رفع رأسه ونظر إليّ. كانت عيناه الحادتان الصغيرتان شديدتي الزرقة في وجهه المتورد. قال لي: «إنني أعرف بأمر المتحف».

قلت بعد أن انجلت عنّي موجة المفاجأة: «تعرف ماذا؟».

«أوه، أرجوك. أنت تعرف جيداً ما أتحدّث عنه».

أحسست بطعنة خوف في أسفل ظهري، لكني حرصت على إبقاء عينيَّ متجهتين إلى طبقي: أرز أبيض وخضار مقلية خفيفة الدسم... أبسط ما وجدته في قائمة الطعام... «حسناً، لكني أفضل، إذا لم يكن لديك مانع، ألّا نتحدث عن هذا الأمر لأنه موضوع مؤلم».

«نعم، أفهم هذا».

قال جملته بنبرة تهكّمية مستفزّة جعلتني أرفع رأسي بحركة حادة وأقول: «لقد ماتت أمي، إن كان هذا ما تعنيه».

«نعم، ماتت...». فترة صمت طويلة... «مات أيضاً ويلتون بلاكويل».

«هذا صحيح».

«حسناً... أعني... لقد كتبت الصحف عن هذا، بحق السماء! هذه معلومات عامة يعرفها الجميع. لكن...». مر بطرف لسانه على شفته العلوية... «هنالك ما أتساءل عنه. ما الذي يجعل جيمس هوبارت يكرر تلك القصة أمام الجميع؟ ظهورك عند باب بيته حاملاً خاتم شريكه؟ لو أنه أبقى فمه مطبقاً، لما أقام أحد تلك الصلة المنطقية!».

«لا أفهم ما ترمي إليه».

«أنت تعرف جيداً ما أرمي إليه. إن لديك شيئاً أريده. بل هو شيء يريده أشخاص كثيرون، في واقع الأمر».

توقّفت عن الأكل؛ كانت يدي في منتصف الطريق إلى فمي. وكان الدافع الأول الذي أتاني من غير تفكير أن أنهض وأخرج من المطعم، لكني أدركت سريعاً أن تلك ستكون فعلة شديدة الغباء.

استند ريف في كرسيه: «أرى أنك لا تقول شيئاً».

أجبته بنبرة حادّة وأنا أضع عودَي الأكل: «هذا لأن ما قلته لا معنى له». وبلمحة خاطفة ـ شيء استدعته إلى ذهني سرعة حركتي ـ عاد تفكيري إلى أبي: كيف يتصرّف بهذا الموقف؟

«تبدو مضطرباً كثيراً. أتساءل عن السبب».

«أظنني لا أفهم صلة هذا بالقطعة التي اشتريتها مني. أقول هذا لأنني كنت أتصوّر أنها سبب وجودنا هنا».

«أنت تعرف جيداً جداً ما أتحدّث عنه».

قلت مع ضحكة غير مصدّقة، ضحكة بدت حقيقية تماماً: «لا. أخشى أنني لا أفهم».

«أتريدني أن أنطقها بصوت مسموع؟ هنا؟ لا بأس؛ سأفعل. لقد كنت مع ويلتون بلاكويل وابنة أخته. كان ثلاثتكم في الجناح رقم 32؛ وكنت أنت...» ابتسامة مناكفة بطيئة... «الشخص الوحيد الذي خرج من تلك الصالة. ونعرف ما الذي خرج أيضاً من الصالة رقم 32، أليس كذلك؟».

أحسست كما لو أن الدم قد غاض من قدميّ. وفي كل مكان من حولنا، كانت قعقعة أدوات الطعام، والضحكات، وصدى الأصوات المنعكس عن الجدران المبلّطة.

قال ريف بصوت متعجرف: «هل رأيت؟...». كان قد توقّف عن الأكل... «أمر في غاية البساطة. أعني أنه، بالتأكيد...». قال هذا بنبرة صقيعية وهو يضع شوكته من يده... «بالتأكيد، لم يدُرْ في خلدك أن أحداً يمكن أن يربط بين الأمرين! لقد أخذت اللوحة؛ وعندما أتيت بالخاتم

إلى شريك بلاكويل، أعطيته اللوحة أيضاً. لست أعرف السبب الذي جعلك تعطيه إياها ـ نعم، نعم...». قال هذا عندما حاولت مقاطعته وأزاح كرسيه إلى الخلف قليلاً ثم رفع يده ليحجب الشمس عن عينيه... «لقد أنهيتَ وصاية جيمس هوبارت عليك. بحق السماء، يجب أن تنهي وصاية جيمس هوبارت على اللوحة أيضاً. عليك أن تنهي وصايته! إنه 'يستغل' ذلك التذكار الصغير الذي أخذته من المتحف ويستخدمه منذ ذلك الوقت كضمان من أجل جمع المال».

جمع المال؟ هوبي؟

قلت: «يؤجّره؟...». ثم تذكّرت نفسي... «يؤجِّر ماذا؟».

«انظر... لقد صار هذا التظاهر بأنك لا تعرف ما يجري أمراً متعباً بعض الشيء».

«لا؛ إنني أعني هذا. ما الذي تتحدّث عنه، بحق الجحيم؟».

شد ريف على شفتيه وبدا شديد السرور بنفسه. قال: «إنها لوحة رائعة. عجيبة صغيرة جميلة... شيء فريد تماماً. لن أنسى أبداً يوم رأيتها أول مرة في متحف موريتشس في هولندا... لوحة مختلفة حقّاً عن أي عمل فني آخر، أو عن أي عمل فني آخر من زمانها، إن شئت سماع رأيي. يصعب تصديق أنها مرسومة في القرن السابع عشر. إنها واحدة من أعظم اللوحات الصغيرة على مر الزمان. ألا توافقني؟ ماذا كان...». توقف لحظة ونظر إليَّ نظرة ساخرة... «ماذا كان ذلك الذي قاله جامع اللوحات. أنت تعرف، الناقد الفني، الفرنسي، الذي أعاد اكتشافها. وجدها مدفونة في غرفة مستودع لدى أحد النبلاء في العقد الأخير من القرن التاسع عشر؛ ومنذ ذلك الوقت، بذل الرجل ُ جهوداً مضنية' ...». رفع أصابعه كمن يرسم علامة اقتباس... «لكي يقتنيها.' *لا تنسوا أن عليَّ أن أحصل على هذا الحسون الصغير بأي ثمن*' . لكني لست مهتماً بما قاله. أنا مهتم بشيء آخر. ولا بد أنك تعرفه بنفسك. بعد هذا الزمن كلّه. لا بد أنك صرت على معرفة ممتازة باللوحة وبتاريخها».

وضعت منديل الطعام: «لست أعرف ما تتحدّث عنه». لم يكن لديَّ ما أستطيع فعله غير أن أتمسّك بموقفي وأواصل قول هذا له. *أنكر، أنكر، أنكر*. مثلما كان أبي، محامي رجل العصابات في فيلمه المهم الوحيد، ينصح موكله في المشهد الذي سبق مشهد إطلاق النار عليه.

لكنهم رأوني

لا بد أنهم رأوا شخصاً آخر.

هناك ثلاثة شهود عيان.

لا تهتم، إنهم مخطئون جميعاً. «لم أفعل ذلك».

سوف يأتون بأشخاص يشهدون ضدي، طيلة النهار.

فليكن، دعهم يفعلون ذلك.

كان أحدهم قد أسدل ستارة النافذة فألقت على طاولتنا ظلاً مخطّطاً كجلد النمر. نظر ريف إليَّ نظرة متكبرة، ثم طعن بشوكته قطعة جمبري برتقالية لامعة وأكلها.

قال لي: «ما أقصد قوله هو أنني كنت أحاول التفكير في أنك قد تكون قادراً على مساعدتي. فأية لوحة أخرى في مثل حجمها يمكن أن تكون من مرتبتها؟ لعلها تلك اللوحة الصغيرة الجميلة لفيلاسكيز، أظنك تعرفها، حديقة فيلا نيديتشي. وبالطبع، فإن الندرة لا علاقة لها بهذا الأمر».

«قل لي من جديد. عمّا تتحدّث. لأنني لا أدرك ما تريد الوصول إليه».

«لا بأس، ابقَ كما أنت إن أحببت...». قال هذا بنبرة لطيفة دمثة وهو يمسح فمه بالمنديل... «أنت لا تستطيع خداع أحد. لكن عليَّ القول أيضاً إنه تصرف غير مسؤول أبداً أن تعهد بها لهؤلاء الأوغاد الحمقى حتى يتصرفوا بها ويرهنوها هنا وهناك».

أمام دهشتي التي كانت حقيقية صادقة كل الصدق، رأيت لمحة مما قد يكون مفاجأة قد عبرت وجهه. لكنها اختفت بالسرعة نفسها.

قال وهو منهمك في مضغ اللقمة في فمه: «لا يجوز أن يُعهد بشيء قيّم إلى هذا الحد لأناس كهؤلاء، مجرمي شوارع... جهلة».

قلت بنبرة حادة: «لا معنى أبداً لما تقوله».

وضع شوكته: «لا معنى له؟ لا بأس. ما أعرضه عليك ـ إذا كنت مهتماً بإدراك ما أتحدّث عنه ـ هو شراء ذلك الشيء منك».

عاد إلى أذني ذلك الطنين ـ صدى الانفجار القديم ـ عاد مثلما يفعل دائماً في لحظات التوتر: أزيز حاد يشبه صوت طائرة تقترب.

«هل تريد أن أحدّد رقماً؟ حسناً... أظن أن نصف مليون سيكون أمراً جميلاً بالنظر إلى أنني في موقع يسمح لي بإجراء مكالمة هاتفية في هذه اللحظة». أخرج هاتفه الخليوي من جيبه ووضعه بجانب كأس الماء... «فأضع نهاية لمشروعك كله».

أغمضت عينيَّ، ثم فتحتهما: «انظر. كم مرة يجب أن أقول لك هذا؟ أنا لا أفهم حقاً ما تفكر فيه، لكن ...».

«سأقول لك بالضبط ما أفكّر فيه يا ثيودور. أفكّر في حفظ اللوحة، في إنقاذها. من الواضح أن هذا لم يكن مهماً في نظرك أو في نظر الأشخاص الذين تعمل معهم. وأنا واثق من إدراكك أن هذا هو أفضل ما يمكن أن تفعله ـ من أجلك ومن أجل اللوحة أيضاً. من الواضح أنك جنيت ثروة؛ لكنه تصرّف غير مسؤول أن تترك اللوحة تتجوّل هنا وهناك في شروط تمثل خطراً عليها، ألا توافقني في هذا؟».

الظاهر أن حيرتي الصادقة الواضحة إزاء ما قاله كانت في صالحي. بعد فترة صمت غريب من جانبه، أدخل يده في جيب سترته.

على نحو مفاجئ، ظهر إلى جانبنا نادل أنيق: «هل كل شيء على ما يرام؟».

«نعم، نعم. كل شيء على ما يرام».

انسحب النادل وعبر إلى حيث تقف النادلة الجميلة، وراح يتحدّث معها. أخرج ريف من جيبه عدة أوراق مطوية وضعها على الطاولة ودفعها في اتجاهي. كانت صفحة إنترنت مطبوعة على الورق. مسحتها بنظرة سريعة: إف بي آي... هيئات دولية... غارة فاشلة... تحقيق...

«ما هذا الهراء؟». قلتها بصوت مرتفع جعل امرأة على الطاولة المجاورة تجفل مفزوعة. ظل ريف منهمكاً في تناول طعامه، ولم يقل شيئاً.

«إنني أعني هذا، ما علاقتي بهذا الكلام؟». نظرت إلى الأوراق منفعلاً... قتل عن طريق الخطأ... كارمن هيدوبرو، عاملة مؤقتة لدى شركة للتدبير المنزلي في ميامي، قتلت نتيجة إطلاق النار من قبل عملاء *إف بي آي* الذين اقتحموا المنزل ـ كنت موشكاً على سؤاله من جديد عما يمكن أن يكون لي علاقة به في هذه الأوراق عندما تجمّدت في مكاني.

واحدة من اللوحات القديمة المميزة كان الاعتقاد السائد أنها تلفت (الحسون، كاريل فابريتيوس، 1654) قيل إنها استخدمت بمثابة ضمان في صفقة مع إحدى العصابات. لكن من المؤسف أن الإغارة على مجمَّع سكني في جنوب فلوريدا لم تسفر عن استعادتها. على الرغم من أنه يحدث استخدام الأعمال الفنية المسروقة لتكون وسائل تفاوض وضمان لتزويد تجار المخدرات والأسلحة برأس مال مغامر، إلا أن إدارة مكافحة المخدرات دافعت عن نفسها في مواجهة النقد الذي تعرّضت له بعد ما دعاه قسم الجرائم الفنية في إف بي آي تعاملاً «غير متقن» و«غير محترف» مع المسألة، فأصدرت بياناً اعتذرت فيه عن القتل غير المقصود للسيدة هيدوبرو؛ لكنها أوضحت أيضاً أن عملاءها غير مدربين على التعرف على الأعمال الفنية المسروقة ولا على استعادتها. قال الناطق باسم المكتب الصحافي في مكتب مكافحة المخدرات: «في أوضاع تتسم بالضغط الكبير، كهذه الحالة، تكون سلامة العناصر والمدنيين في رأس أولوياتنا عندما نلاحق خروقات كبيرة لقوانين مكافحة المخدرات في أميركا». إلا أن الغضب الذي نشأ، بعد مقتل السيدة هيدوبرو خاصة، قد أدّى إلى المطالبة بتعاون أكبر بين الوكالات الفيدرالية. وقد قال

المتحدث باسم قسم الجرائم الفنية في الإنتربول هوفستيد فون مولتكه في مؤتمر صحافي عقد في زيورخ يوم أمس: «لا يفكر هؤلاء في شيء غير اعتقال المشتبه فيهم وإدانتهم في المحكمة. لكن هذا أمر في غاية السوء لأن تلك اللوحة قد اختفت من جديد. وقد تمر عشرات السنين قبل أن تظهر مرة أخرى».

يقدَّر حجم تجارة اللوحات والمنحوتات المسروقة في العالم بنحو ستة بلايين دولار. وعلى الرغم من أن مشاهدة تلك اللوحة أمر غير مؤكد، فإن المحققين يعتقدون بأن ذلك العمل الفني الهولندي النادر قد صار خارج البلاد؛ ومن المحتمل أن يكون قد نُقل إلى هامبورغ حيث بيع بسعر من المحتمل كثيراً ألا يتجاوز جزءاً صغيراً من الملايين الكثيرة التي يمكن أن يحققها في مزاد...

وضعت الأوراق من يدي. كان ريف قد توقّف عن الأكل. وراح ينظر إليَّ مع ابتسامة ماكرة متوتّرة. قد تكون تلك الابتسامة الصغيرة المفاجئة التي ارتسمت على وجهه الشبيه بالإجاصة هي السبب... لست أدري... لكني انفجرت ضاحكاً على غير توقّع: تلك الضحكة التي انفجرت بعد الكبت، ضحكة الذعر والراحة، تماماً مثلما ضحكت مع بوريس عندما انزلق الشرطي السمين في المول (بعد أن كاد أن يمسك بنا) وسقط على مؤخرته فوق الأرض الرطبة في صالة الطعام.

قال ريف: «ماذا؟ هل وجدت شيئاً مضحكاً؟».

كانت على فمه بقعة برتقالية من أثر القريدس... ذلك الغبيّ!

لكني ما كنت قادراً على فعل شيء غير هز رأسي والنظر حولي. كنت أنظر عبر صالة المطعم. ثم نظرت إليه وقلت له وأنا أمسح عيني: «يا رجل. أنا لا أعرف ما أقوله لك. واضح أنك واهم، أو... لست أدري!».

لم يبدُ على ريف أي اضطراب، والحق يقال؛ لكن انزعاجه كان واضحاً.

فقلت وأنا أهز رأسي: «لا، فعلاً... إنني آسف. ما كان يجب أن أضحك. لكن هذا أسخف شيء رأيته في حياتي كلها».

طوى ريف منديل الطعام ووضعه على الطاولة. قال لي مبتسماً: «أنت كاذب. قد تظن أنك قادر على شق طريقك بالأكاذيب، لكنك لا تستطيع ذلك».

«قتل امرأة عن طريق الخطأ؟ مجمع سكني في فلوريدا؟ ماذا؟ هل تعتقد حقاً بأن لهذا الأمر علاقة بي حقاً؟».

حدّجني ريف بنظرة حادة من عينيه الزرقاوين الحادّتين: «كن عاقلاً. إنني أتيح لك فرصة للتخلص من الأمر كله».

«التخلّص؟...». ميامي، هامبورغ، حتى أسماء الأماكن جعلتني أنفجر في نوبة ضحك جديدة... «التخلّص من أي شيء؟».

مسح ريف شفتيه بالمنديل وقال بنبرة ناعمة: «يسرني أن تجد هذا مضحكاً لأنني مستعد تماماً للاتصال بذلك السيد في قسم الجرائم الفنية، الرجل الذي ورد اسمه في الأوراق التي كنت تقرأها، وأقول كل ما أعرفه عنك وعن جيمس هوبارت وعن هذا المخطط الذي تنفّذانه معاً. ما رأيك في هذا؟».

رميت بالأوراق ودفعت بالكرسي إلى الخلف: «سأقول لك رأيي. هيا، اتصل به. افعل ما تريد. وعندما تحب الحديث عن الأمر الآخر، اتصل بي».

15

جعلني اندفاعي السريع بعد خروجي من المطعم غير منتبهٍ إلى وجهة سيري؛ لكني بدأت أرتعد ارتعاداً عنيفاً بعد أن اجتزت ثلاثاً أو أربع كتل من البنايات، فكان لا بد لي من التوقّف في الحديقة الوسخة الصغيرة الواقعة إلى الجنوب من *شارع القنال*. جلست على واحد من المقاعد في الحديقة واضعاً رأسي بين ركبتي وقد غرقت السترة تحت إبطي بعرق

غزير. كنت كأنني بائع مخدرات شاب أساء التصرف فخسر عشرة ملايين (كنت أعرف أنني بدوت هكذا في نظر الجدات الجامايكيات الواثقات والإيطاليين العجائز الذين راحوا ينظرون إليَّ نظرة شك وهم يهوّون وجوههم بصحف مطوية).

رأيت متجراً على الناحية الأخرى من الشارع. وما إن هدأ تنفسي حتى سرت إليه (شاعراً بالارتخاء والعزلة في نسيم الربيع اللطيف)، فاشتريت علبة بيبسي كولا من آلة بيع المرطبات خارج المتجر، ثم سرت مبتعداً من غير أن آخذ بقية النقود فعدت إلى ظل أوراق الأشجار في الحديقة، وإلى مقعدي الذي كساه السخام. حمامات تطير عالياً. ضجيج حركة السير في اتجاه النفق، وأحياء أخرى، ومدن أخرى، ومولات وحدائق، تيارات عديمة الهوية من التجارة بين الولايات. كانت في ذلك الهدير المتواصل وحدة هائلة مغرية تكاد تكون نداءً. شيء يشبه نداء البحر؛ وللمرة الأولى فهمت ذلك الدافع الذي جعل أبي يسحب رصيده المصرفي ويأخذ قمصانه من محل تنظيف الملابس، ويملأ خزان السيارة وقوداً ويترك المدينة من غير أيّ كلمة. طرق سريعة تشويها الشمس، وصوامع الحبوب، وعوادم السيارات، ورقاع واسعة من الأرض تتتالى كأنها خطايا خفية.

لم أستطع منع أفكاري من الذهاب في اتجاه جيروم. كان يعيش على مسافة بعيدة في منطقة *آدم كلايتون باول* على مسافة بضع بنايات سكنية بعد آخر محطة لخط المترو الثالث. لكن، كان هناك بار اسمه *براذر جيز* في الشارع رقم 110 كنا نلتقي فيه أحياناً: حانة عُمّال أرضها دبقة يسمع فيها المرء أغاني بيل ويذرز، ويرى فيها أشخاصاً أدمنوا الكحول طيلة حياتهم مسترخين في جلستهم أمام كأس الويسكي الثالثة عند الساعة الثانية بعد الظهر. لكن جيروم لم يكن يبيع الأقراص المخدّرة بكميات أقل من ألف دولار؛ وعلى الرغم من معرفتي بأنه سيكون مسروراً كل السرور بأن يبيعني بضع عبوات من الهيروين فقد وجدت أن من الأيسر أن أمضي قدماً وآخذ سيارة تاكسي مباشرة إلى جسر بروكلين.

سيدة عجوز مع كلب من نوع شيواوا؛ وأطفال صغار يتشاجرون من أجل مصاصة. وهذيان صفارات بعيد يعوم فوق سماء شارع القناة، نغمة رسمية في خلفية المشهد اشتبكت مع الطنين في أذني: مزيج صوتي فيه نكهة حرب كيميائية، وأزيز متواصل لصواريخ آتية.

سرت ضاغطاً بيديَّ على أذنيَّ (ما كان هذا مفيداً من أجل الطنين، ما كان مفيداً أبداً... بل كان يضخّمه)، ثم جلست ساكناً تماماً وحاولت التفكير. الآن، صرت أرى ألاعيبي الطفولية في ما يخص خزانة الدروج التي اشتراها ريف مني أمراً سخيفاً إلى حد مفاجئ... ليس أمامي غير الذهاب إلى هوبي والاعتراف بما فعلت: ليس في هذا شيء ممتع، بل سيكون أمراً بالغ السوء في واقع الأمر، لكن من الأفضل أن يسمع القصة مني. وأما كيف ستكون ردة فعله، فهذا ما لم أستطع تخيّله. كان عالم الأنتيكات كل ما أعرفه؛ وسوف أعاني حتى أفلح في الحصول على عمل آخر في مجال بيعها. لكني صرت أمتلك قدراً من المهارة اليدوية يسمح لي بالعثور على عمل في ورشة ما إذا وجدت نفسي مضطراً إلى ذلك. سأصقل الإطارات أو أقص الأضلاع الخشبية. لم تكن أعمال الاستصلاح تدر دخلاً جيداً، لكن قلة من الناس فقط كانت تمتلك مهارة إصلاح قطع الأنتيكات بشكل لائق؛ ومن المؤكد أنني سأجد من يقبل بأن أعمل عنده. وأما تلك المقالة... كنت حائراً بسبب ما قرأته فيها مثلما يحار من يدخل صالة سينما في منتصف فيلم غير الفيلم الذي أراد مشاهدته. من ناحية ما، كان الأمر واضحاً بالقدر الكافي: لقد أقدم محتال مغامر على تزوير لوحة الحسون (لم تكن لوحة يصعب تقليدها من حيث الحجم والتقنيات الفنية)؛ وصارت النسخة المزيفة تتجوّل هنا وهناك، في مكان ما، فتستخدم بمثابة تأمين على المال في صفقات المخدرات، فينخدع بها كثيرون من لوردات المخدّرات والعملاء الفيدراليين الذين لا يعرفون شيئاً عن الفن. لكن، ومهما تكن القصة خيالية لا أساس لها،

ومهما تكن لا صلة لها بي أو باللوحة، فإن العلاقة التي استنتجها ريف كانت علاقة حقيقية. من عساه يعرف عدد الأشخاص الذين أخبرهم هوبي بقصة ظهوري في بيتهم. ومن عساه يدري عدد الأشخاص الذين أخبرهم هؤلاء؟ إلا أن أحداً من أولئك الناس جميعاً، بمن فيهم هوبي نفسه، لم ينتبه إلى أن خاتم ويلتي يثبت أنني كنت مع اللوحة في صالة واحدة. كان هذا «لب البسكويتة»، كما كان أبي يقول. وكانت هذه هي القصة التي من شأنها أن تضعني في السجن. لم يتلق لص الأعمال الفنية الفرنسي الذي أحرق عدداً كبيراً من اللوحات التي سرقها (لوحات لغراناتش وواتو وغورو) أكثر من الحكم بالحبس ستة وعشرين شهراً. لكن ذلك كان في فرنسا بعد وقت قصير من أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ أي قبل أن تصير سرقات المتاحف مشمولة بتهم أكثر خطورة: قوانين مكافحة الإرهاب. (من بينها نهب الإنتاج الثقافي). لقد صارت العقوبات أشد كثيراً مما كانت، في أميركا خاصة. ثم إن التدقيق في حياتي الشخصية لن يكون في صالحي أبداً. سأنال خمس سنين، أو عشر سنين، حتى إذا كنت محظوظاً.

إن شئنا الصدق، فأنا أستحق هذا. كيف فكرت أصلاً بأنني قادر على إبقاء الأمر في الخفاء؟ أمضيت سنين طويلة معتزماً إنهاء مسألة اللوحة وإعادتها إلى حيث تنتمي؛ لكنني لا أعرف كيف واصلت العثور على أسباب حتى لا أفعل ذلك. كان التفكير في اللوحة المغلّفة المخفية في مكان بعيد في المدينة يجعلني أشعر بالانمحاء، يجعلني أنسى نفسي، كما لو أن دفنها بعيداً لم يفعل إلا زيادة قدرتها وإعطائها صيغة أكثر هولاً وأكثر قدرة على قتلي. على نحو ما، حتى بعد تكفينها ودفنها في حجرة المستودع، تمكّنت اللوحة من تحرير نفسها لتصير قصة احتيال منشورة على الملأ، لتصير وهجاً ساطعاً في عقل العالم كله.

16

قلت له: «هوبي. لدي مشكلة».

رفع رأسه عن الصندوق ذي الطراز الياباني الذي كان يضع عليه لمساته الأخيرة: ديوك وغرانيق، ومعابد ذهبية على أرضية سوداء. «هل أستطيع مساعدتك؟»... كان يخطط جناح غرنوق بطلاء مائيّ الأساس من الأكريليك ـ شيء مختلف تماماً عن الطلاء الأصلي الذي كان أساسه من اللكر؛ لكنه كان قد علمني منذ زمن طويل أن القاعدة الأولى في ترميم قطع الأثاث القديمة هي ألّا تقدم أبداً على فعل شيء لا تستطيع التراجع عنه[1].

«الحقيقة أن الأمر هو... لقد وضعتك في مشكلة... من غير قصد».

«حسناً...». لم يهتزّ الخط الذي يرسمه... «إن كنت قد قلت لباربرا غيبوري إننا سنساعدها في ذلك البيت الذي تُجدِّد تصميمه الداخلي في رينبيك، فإن عليك أن تقوم بذلك وحدك. *'ألوان تشارا'*[2]... لم أسمع بهذا من قبل أبداً».

«لا...». كنت أحاول التفكير في شيء طريف أقوله، أو في شيء سهل... كانت السيدة غيبوري التي أطلق عليها أحدهم لقب «تريبي»[3]، منبعاً للنكات... لكن ذهني نضب تماماً فلم أجد شيئاً أقوله... «لا، الأمر ليس كذلك».

نصب هوبي قامته ووضع فرشاة الرسم خلف أذنه، ثم مسح جبهته بمنديل ذي رسوم عجيبة، ولون أرجواني مجنون كما لو أن بنفسجة أفريقية قد تفتّحت عليه. لعله شيء وجده بين متاع عجوز مجنونة في

---

(1) إزالة الطلاء المائي ممكنة، وأما إزالة اللكر فهي غير ممكنة إلا باستخدام مواد تترك أثراً على الخشب.

(2)في الفكر الهندي، تشارا هي كل مركز من مراكز القوة الروحانية في جسم الإنسان؛ وعادة ما يعتبر عددها سبعة مراكز.

(3) أي التي تتعثّر كثيراً.

واحد من المزادات. قال بصوت هادئ وهو يتناول طبقاً من الأطباق الصغيرة التي يمزج فيها الألوان: «فما الأمر إذاً؟»

الآن، بعد أن صرت في العقد الثالث من العمر، اختفت بيننا الشكليات المرتبطة باختلاف الأجيال فصارت العلاقة بيننا علاقة زمالة على نحو يصعب عليّ تخيله مع أبي لو أنه ظل حياً: سأكون في حالة توتر دائمة محاولاً تحديد مقدار اضطرابه وسكره وتخمين احتمال حصولي على إجابة واضحة منه.

«أنا...». مددت يدي حتى أتأكد من أن الكرسي الذي خلفي غير مطلي حديثاً حتى أجلس عليه... «هوبي... أنا... لقد ارتكبت غلطة غبية. لا، إنها غلطة غبية حقاً!». كررت العبارة لأنه أشار بيده إشارة طيبة القلب كأنما أراد بها القول إن لا أهمية للأمر وإنه لا يريد سماعه.

كان يضع في الطبق الصغير قليلاً من لون بنّي مصفرّ مستخدماً قطارة عينية: «حسناً، لا أعرف مدى غباء الأمر، لكني أستطيع القول لك إنني بقيت منزعجاً طيلة النهار عندما اخترقت ريشة المثقب سطح طاولة السيدة واسرمان في الأسبوع الماضي. كانت طاولة جيدة من طراز ويليام وميري. أعرف أنها لن ترى أثر ذلك الثقب. لكن، صدقني... كانت تلك لحظة سيئة حقاً».

صار الوضع أكثر صعوبة نتيجة حالته نصف المنتبهة إلى ما أريد قوله. أسرعت، كأنني أسير منزلقاً في حلم، واندفعت أحكي له قصة لوسيوس ريف والقطعة التي اشتراها، لكني تغاضيت عن ذكر بلات وإيصال الشراء بتاريخ سابق الذي لا يزال في جيب سترتي. بدأت الكلام فصرت غير قادر على التوقّف كما لو أن الأمر الوحيد الذي أستطيعه هو الكلام والكلام كأنني قاتل أو قاطع طريق يدلي باعترافاته تحت ضوء المصباح في مركز شرطة ريفيّ. عند نقطة ما، توقف هوبي عن العمل ووضع الفرشاة على أذنه من جديد. راح يصغي منتبهاً وقد انعقد حاجباه قليلاً فاكتسب هيئة طائر

متجمّع على نفسه، تلك الهيئة التي أعرفها جيداً. ثم تناول الريشة السوداء من خلف أذنه وغسلها بالماء قبل أن يجففها جيداً بقطعة قماش قطنية.

قال لي وهو يرفع يده ويغمض عينيه: «ثيو، توقّف. صارت الصورة واضحة». توقّفت قبل أن أصل في كلامي إلى الشيك الذي امتنع ريف عن صرفه، وإلى الوضع السيئ والطريق المسدود الذي وجدت نفسي فيه.

لكني لم ألبث أن تابعت ثرثرتي: «إنني آسف. ما كان يجوز أن أفعل هذا. لكن الأمر صار كابوساً حقيقياً. إنه غاضب يريد الانتقام؛ والظاهر أن لديه موقفاً تجاهنا، لسبب ما... هل ترى؟... لسبب مختلف لا علاقة له بهذا الأمر».

نزع هوبي نظارته. كانت حيرته ظاهرة من خلال حركاته خلال الصمت القصير الذي أعقب ذلك... كان يحاول صياغة رده: «حسناً؛ لقد حدث ما حدث. ونحن لا نستطيع تغييره. لا معنى لأن نجعل الأمر أكثر سوءاً، لكن...». توقف وفكّر قليلاً... «أنا لا أعرف هذا الرجل! لكن، إذا ظن فعلاً أن ذلك الصندوق كان من صنع *آفليك*، فهذا يعني أنه يملك مالاً أكثر مما لديه من فهم. أن يدفع المرء خمسة وسبعين ألف دولار... أليس هذا هو المبلغ الذي دفعه من أجل ذلك الصندوق؟».

«صحيح».

«إذاً... معنى هذا أن على الرجل أن يفحص عقله. هذا كل ما أستطيع قوله. لا تظهر قطع من صنع *آفليك* إلا مرة أو مرتين كل عشر سنين، إذا ظهرت! ثم إنها لا تظهر فجأة من غير أن يعرف أحد من أين أتت».

«نعم، لكن...».

«كما أن أي غبي يعرف أن ثمن قطعة من صنع *آفليك* يجب أن يكون أعلى من ذلك بكثير. فمن الذي يشتري قطعة من هذا النوع قبل أن يدرس كل ما يتعلّق بها؟ الغبي وحده من يفعل هذا. وأيضاً... لقد كان تصرفك صائباً عندما قلت له إنك تريد استرجاع القطعة. لقد حاولت إعادة ماله إليه، لكنه لم يأخذه، أليس هذا ما قلته لي؟».

«لم أعرض عليه استرجاع الصندوق مقابل إعادة المال. لقد حاولت شراءه منه».

«حاولت شراءه بسعر أعلى من السعر الذي دفعه فيه. فكيف سيبدو الأمر إذا لجأ إلى القانون؟ وأنا واثق منذ الآن أنه لن يفعل ذلك».

في الصمت الذي تلا هذا، تحت وهج مصباح العمل، كنت مدركاً أن أحداً منا لم يكن واثقاً في شأن الخطوة التي يجب أن أقوم بها بعد ذلك. كان بوبتشيك نائماً على منشفة وضعها له هوبي بين قوائم طاولة على هيئة قوائم ذات مخالب، فراح يتململ ويهرّ في نومه.

قال هوبي بعد أن مسح السواد عن يديه وتناول فرشاته بحركة جامدة كما لو أنه شبح عازم على الانكباب على عمله: «أعني... لم يكن البيع ميداناً لي في يوم من الأيام، وأنت تعرف هذا. لكني أمضيت في هذا العمل زمناً طويلاً. وفي بعض الأحيان...». نفض الفرشاة ليزيل عنها ما علق بها... «يكون الحد الفاصل بين الاحتيال والمغالاة في وصف القطعة حداً غائماً غير واضح أبداً».

انتظرت غير واثق مما يريد قوله بعد ذلك. ظلت عيناي مثبتتين على الصندوق الياباني. كان قطعة جميلة مقدمة هدية إلى بيت قبطان بحري متقاعد في مدينة بوسطن البعيدة عن البحر: أصداف وحلزونات بحرية، ورموز من العهد القديم طرّزتها راهبات بقُطَب متصالبة... رائحة زيت احتراق زيت الحوت في الأمسيات، وهدأة التقدّم في السن.

وضع هوبي فرشاته من جديد. قال، نصف حانق وهو يدعك جبهته بظهر يده فيترك عليها بقعة داكنة: «أوه، يا ثيو! هل تتوقّع أن أقف هنا وأوبّخك؟ لقد كذبت على ذلك الرجل، ثم حاولت تصحيح الغلطة. لكنه لا يريد أن يبيعك تلك القطعة، فما الذي تستطيع فعله أكثر من هذا؟».

«لم تكن القطعة الوحيدة».

«ماذا؟».

لم أستطع النظر في عينيه: «ما كان ينبغي أن أفعل هذا. لكني فعلته أول الأمر من أجل تسديد الفواتير حتى نخرج من الحالة الصعبة التي كنا فيها. وبعد ذلك، أعني أن هناك قِطعاً مدهشة حقاً... لقد دوَّختني تلك القطع، وكانت قابعة طيلة الوقت هناك، في المستودع...».

أظنني كنت أتوقّع منه شيئاً من عدم التصديق، صوتاً مرتفعاً، وغضباً من نوع ما. لكن الأمر كان أسوأ من ذلك كله. لو انفجر غاضباً، لكنت قادراً على تدبر الأمر، على تحمله. لكنه لم ينبس ببنت شفة بل اكتفى بالنظر إليَّ تلك النظرة الثقيلة الحزينة، وقد أحاطت به هالة من وهج مصباح العمل، وانتشرت الأدوات من خلفه كأنها أيقونات ماسونية. تركني أخبره بكل ما أردت إخباره به. ثم أصغى إليَّ بهدوء وأنا أفعل ذلك؛ وعندما تكلم آخر الأمر، كان صوته أكثر هدوءًا من المعتاد، كان صوتاً لا شيء فيه من حرارة الغضب.

كان مظهره كأنه شخصية مأخوذة من حكاية: نجّار زاهدٌ مرتدٍ مئزر العمل الأسود. نصفه في الظل: «لا بأس. لا بأس. فما اقتراحك من أجل التعامل مع هذا الوضع؟».

«أنا...». لم تكن هذه استجابة توقّعتها. كنت خائفاً من غضبه (ذلك أن هوبي يمكن بالتأكيد أن يفقد أعصابه على الرغم من طيبة قلبه وبطء غضبه) فحضّرت مختلف أنواع الأعذار والمبررات، لكني صرت الآن أمام هدوئه الغريب وصار من المستحيل أن أستطيع الدفاع عن نفسي... «سأفعل ما تقوله لي. الغلطة غلطتي... وأنا أتحمّل كامل المسؤولية عنها». لم يسبق لي أن أحسست بهذا القدر من العار، ومن الخجل، منذ أن كنت طفلاً.

«حسناً. صارت تلك القطع عند الناس الذين اشتروها...». بدا كأنه يحاول تبيّن الأمر شيئاً فشيئاً، أثناء كلامه؛ كان كمن يتكلّم مع نفسه... «لكن أحداً غيره لم يتصل بك، أليس هذا صحيحاً؟».

«صحيح».

«منذ متى يحدث هذا؟».

«أوه...». منذ خمس سنين، على أقل تقدير... قلت: «منذ سنة، أو سنتين».

تأوّه هوبي حزيناً، ثم قال مسرعاً: «يا إلهي. لا، لا. إنني سعيد لصراحتك وصدقك معي. لكن عليك أن تشرع في العمل الآن. اتصل بهؤلاء العملاء وقل إن لديك شكوكاً... لست مضطراً إلى شرح الأمر كله... لا تقل إلا إن لديك بعض التساؤلات، وإن لديك شكاً في الأصول الحقيقية لتلك القطع. أعرض عليهم أن تشتريها منهم بالأثمان التي دفعوها فيها. إذا لم يستجيبوا، فلا بأس. لقد عرضت عليهم ذلك. وأما إذا استجابوا، فإن عليك أن تعيد المال. هل فهمت؟».

«فهمت». لكن ما لم أقله، وما لم أكن قادراً على قوله، هو أن ما لدينا من مال غير كافٍ لتعويض ربع هؤلاء العملاء. سوف نفلس في يوم واحد.

«قلت لي إنها عدة قطع. أية قطع؟ وكم عددها؟».

«لا أعرف».

«لا تعرف؟».

«الحقيقة... أعرف؛ لكن الأمر هو...».

«من فضلك يا ثيو...». لقد غضب الآن؟ أراحني غضبه... «كف عن هذا! وكن صادقاً معي».

«حسناً... لقد أجريت تلك الصفقات خارج السجلات. كنت أستلم المال نقداً. أعني أن ما من طريقة لمعرفة الأمر حتى إذا رجع المرء إلى سجل المبيعات...».

«ثيو... لا تجعلني أكرر السؤال. ما عدد القطع؟».

تنهدت وقلت: «أوه، أكثر من عشر؟... ربما!».

قلت هذا ورأيت تعبير الدهشة على وجه هوبي. الحقيقة أن العدد كان ثلاثة أضعاف ذلك، لكني كنت واثقاً تماماً من أن القسم الأكبر من الناس الذين احتلت عليهم كانوا عديمي الخبرة إلى حد يجعلهم غير قادرين على اكتشاف الأمر أبداً، أو كانوا أكثر ثراء من أن يُظهروا اكتراثاً بما جرى.

قال هوبي بعد أن تخلّص من صمت المفاجأة: «يا إلهي! يا ثيو! أكثر من عشر قطع! لا تقل لي إنك بعتها بتلك الأسعار... مثلما فعلت بصندوق *آفليك*».

قلت مستعجلاً: «لا، لا. ولم يكن أولئك العملاء من الأشخاص الذين يتردّدون علينا عادة». (الحقيقة أنني بعت بعض القطع بضعفي المبلغ الذي دفعه ريف. لكن جملتي الأخيرة، على الأقل، كانت صادقة).

«أشخاص من الساحل الغربي. وأشخاص يعملون في السينما... والتكنولوجيا. أشخاص من وول ستريت أيضاً، لكنهم من الشباب، أنت تفهم هذا... أثرياء جدد. مال من غير خبرة».

«وهل لديك قائمة بهؤلاء المشترين؟».

«ليست لدي قائمة حقيقية، لكني...».

«هل أنت قادر على الاتصال بهم؟».

«حسناً... الأمر معقّد كما ترى، لأن...». لم أكن مشغول البال بالأشخاص الذين ظنّوا أنهم اكتشفوا قطعاً أصلية وتمكنوا من شرائها بأثمان منخفضة، فانصرفوا مسرعين حاملين النسخ المقلّدة ظانين أنهم قد خدعوني. هؤلاء من تنطبق عليهم *قاعدة مسؤولية المشتري*[1] انطباقاً تاماً. لم أزعم أمامهم أبداً أن تلك القطع كانت أصلية. أما من كان يشغل بالي، فهم الأشخاص الذين بعتهم عامداً متعمداً... الأشخاص الذين كذبت عليهم.

(1) مسؤولية المشتري: المبدأ القائل بأن المشتري وحده مسؤول عن التحقّق من جودة السلعة وملاءمتها قبل إتمام عملية الشراء.

«أنت لم تحتفظ بسجل لتلك المبيعات؟».

«لا».

«لكن لديك فكرة. أنت قادر على البحث عنهم».

«إلى حد ما».

«إلى حد ما! لا أعرف معنى هذا الكلام».

«هنالك ملاحظات صغيرة... وإيصالات نقل. يمكنني تجميع المعلومات بهذه الطريقة».

«وهل نحن قادران على إعادة المال إليهم جميعاً؟».

«الحقيقة...».

«هل نستطيع؟ نعم أم لا؟».

ما كنت قادراً على نطق الإجابة الحقيقية، وهي لا... «ممم... هذا يتطلب زمناً».

دعك هوبي عينيه: «حسناً، علينا أن نفعل هذا سواء كان يتطلب زمناً أو لا يتطلب زمناً. لا خيار. نستطيع أن نشدّ الأحزمة. حتى إذا صار الوضع صعباً لفترة من الزمن... حتى إذا تأخرنا عن دفع الضرائب. لأننا...». قال هذا عندما رآني مستمراً في النظر إليه... «لأنه لا يجوز لنا أن نترك قطعة واحدة من تلك القطع تبقى هناك زاعمين أنها أصلية. يا إلهي...». هز رأسه كمن لا يصدّق ما جرى... «كيف فعلت هذا، بحق الجحيم؟ بل إنها ليست حتى قطعاً مقلدة تقليداً جيداً! إن بعض المواد التي أستخدمها... أي شيء يتوفّر تحت يدي... أجمّعها معاً كيفا اتفق...».

«في الحقيقة...». الحقيقة هي أن عمل هوبي كان جيداً إلى الحد الكافي لخداع هواة الأنتيكات الجادّين؛ لكن اللحظة لم تكن مناسبة لقول هذا!

«... وأنت ترى أن المسألة... إذا افتضح أمر قطعة واحدة من تلك القطع التي بعتها على أنها حقيقية، فهذا يعني أنها كلها غير حقيقية.

سيصير كل شيء موضع شك، وكل قطعة أثاث خرجت من هذا المتجر. لست أدري إن كنت قد فكرت في هذا».

لقد فكّرت في هذا؛ فكرت فيه كثيراً. وأنا أفكر فيه من غير انقطاع منذ ذلك الغداء مع لوسيوس ريف.

ظل هوبي صامتاً، شديد الهدوء، لفترة طويلة إلى حد جعلني متوتراً. لكنه تنهّد بعد ذلك ودعك عينيه من جديد واستدار نصف استدارة عائداً إلى عمله من جديد.

بقيت صامتاً أنظر إلى الخط الأسود اللامع الذي تتركه فرشاته على غصن شجرة الكرز. الآن صار كل شيء جديداً. أنا وهوبي كنا شريكين، وكنا ندفع ضرائبنا معاً. كنت أنفّذ ما أراده. فبدلاً من تركي البيت وانتقالي إلى شقة تكون مكاناً لسكني، اخترت أن أبقى في غرفتي في الطابق العلوي، وأن أدفع له إيجاراً رمزياً. بضعة دولارات في الشهر. إن كان لي بيت، فهذا هو بيتي. وإن كان لي أهل، فهو أهلي. عندما نزلت إلى الأسفل وساعدته في تصميغ بعض القطع أول مرة، لم يحدث ذلك لأنه في حاجة إلى مساعدة مني، بل لأنني كنت سعيداً بالبحث عن المَلازم والمقامط المناسبة، وبأن يصيح كلٌ منا مخاطباً الآخر محاولاً أن يجعل صوته أعلى من صوت المسحج الكهربائي. وفي بعض الأحيان، عندما كنا نسير إلى بار *الحصان الأبيض* في المساء لنتناول شراباً ونأكل سندويتشاً... في أكثر الأحيان، كان ذلك أحسن أوقات اليوم في نظري.

قال هوبي: «ماذا؟». كان مدركاً أنني لا أزال واقفاً خلفه رغم أنه لم يرفع رأسه عن عمله.

«أنا آسف. لم أقصد أن يصل الأمر إلى هذا الحد».

توقّفت الفرشاة.

«ثيو... أنت تعرف حقيقة الأمر معرفة جيدة ـ من المؤكد أن أناساً كثيرين سيربّتون على ظهرك مستحسنين، لو كانوا هنا. وسوف أكون

مباشراً معك فأقول لك إن جزءاً من نفسي لديه ذلك الإحساس نفسه لأنني... وبكل صدق... لا أعرف كيف استطعت أن تحقّق شيئاً من هذا النوع. حتى ويلتي، كان مثلك، وكان العملاء يحبّونه. كان قادراً على بيع أي شيء. حتى ويلتي، كان يعاني أوقاتاً صعبة عندما يكون الأمر متعلّقاً ببيع القطع المتميزة. وكان يقول للناس: *هيبلوايت* حقيقي، *تشيبنديل* حقيقي! لم يكن قادراً على التخلص من هذه الأشياء. أما أنت، هناك، في الأعلى، فإنك قادر على بيع سقط المتاع هذا بمبالغ هائلة!».

قلت وقد أسعدتني فرصة قول شيء حقيقي، ولو مرة واحدة: «إنها ليست من سقط المتاع. هنالك الكثير الكثير من القطع الممتازة فعلاً. كان الأمر يحيّرني. وأظنك لا تستطيع رؤية ذلك لأنك اشتغلت عليها بنفسك. لا تستطيع رؤية كم هي مقنعة».

«نعم، ولكن...». توقف لحظة وبدا كما لو أنه لا يستطيع العثور على كلمات... «الناس الذين لا يعرفون الأثاث، يكون من الصعب أن تجعلهم ينفقون عليه مالاً».

«أعرف هذا».

كانت لدينا خزانة دروج طويلة مزينة الواجهة، قطعة أصلية من طراز كوين *آن* حاولت كثيراً، أيام الرخاء، أن أبيعها بثمنها الصحيح الذي كان في حدود مئتي ألف دولار، على أقل تقدير. ظلّت تلك الخزانة في المتجر عدة سنين. وعلى الرغم من أنني تلقيت في الآونة الأخيرة بضعة عروض لشرائها، فقد رفضت تلك العروض لمجرد أن وجود تلك القطعة، التي لا تشوبها شائبة، في موقع جيّد، حسن الإنارة عند مدخل المتجر كان من شأنه أن يُكسِبَ القطع غير الحقيقية المدفونة في الداخل قدراً غير قليل من التألق والمصداقية.

«أنت أعجوبة يا ثيو! أنت عبقري في ما تفعله، ولا مجال لأي شك في هذا. لكن...». صارت نبرة صوته متردّدة من جديد. وكنت قادراً على

الإحساس به وهو يتلمّس طريقه لمتابعة كلامه... «حسناً، أعني أن من يتعاملون بالأنتيكات يعيشون على سمعتهم. إنه نظام الشرف! وأنت لا تجهل هذا. الأخبار تنتقل. وبالتالي، فإن ما أريد قوله...». غمس فرشاته في الطلاء ونظر إلى الصندوق كمن لا يراه جيداً... «يصعب كثيراً إثبات تزوير القطع. لكن، إذا لم تنتبه إلى هذا الأمر، فمن المؤكد تماماً أنه سيظهر فجأة في يوم ما ويعضّنا بعد أن نكون قد سرنا شوطاً طويلاً...». كانت يده ثابتة؛ وكان الخط الذي تتركه الفرشاة واثقاً تماماً... «عندما تكون هنالك قطعة قد أُجريت عليها إصلاحات كبيرة... لست أتحدّث عن فحصها بالأشعة؛ لكنك ستفاجأ عندما ينقلها شخص ما إلى غرفة ساطعة الإنارة... بل إن الكاميرا قادرة على التقاط الاختلافات في عروق الخشب، تلك الاختلافات التي لا ترصدها العين المجردة. فإذا التقط أحد الناس صوراً لتلك القطع، أو إذا قرر ـ لا سمح الله ـ أن يضعها في مزاد كبير لدى كريستيز أو سوذبيز...».

حل الصمت، ثم امتد وكبر بيننا فصار أكثر فأكثر خطراً... صار صمتاً من الصعب ملؤه بأي شيء.

«ثيو...». توقّفت الفرشاة، ثم عادت إلى الحركة من جديد... «لست أحاول اختلاق أعذار لك، لكن... إياك والظن أنني لا أفهم الأمر، فأنا هو الشخص نفسه الذي وضعك في هذا المركز. أنا من تركك على هواك، هناك، في الأعلى، أنا من انتظر منك اجتراح الأعاجيب. أنت لا تزال في سن صغيرة جداً، نعم...». قال هذا بنبرة مقتضبة وهو يستدير صوبي نصف استدارة عندما حاولت مقاطعته... «أنت صغير السن؛ وأنت موهوب جدّاً، جدّاً، في جوانب عملنا التي ليس لدي اهتمام بها. وقد كنت بارعاً حقّاً في انتشالنا من الحفرة التي كنا فيها؛ وهذا ما كان مناسباً لي تماماً... كان مناسباً لي إلى حد جعلني أُبقي رأسي مدفوناً في الرمل

فلا أنظر إلى ما يجري في الأعلى، في المتجر. هذا يعني أنني ملوم في الأمر بقدر ما أنت ملوم فيه».

«هوبي، أقسم لك... أبداً لم...».

«هذا لأن...». حمل زجاجة الصباغ ونظر إلى لصاقتها كأنه غير قادر على تذكر طبيعة استخدامها، ثم وضعها من جديد... «حسناً، كان ذلك جيّداً إلى حد لا يمكن أن يكون حقيقياً. أليس كذلك؟ هذا المال كلّه الذي يتدفق علينا! شيء رائع أن يرى المرء ذلك! فهل كلّفت نفسي عبء التدقيق في الأمر؟ لا! لا أظن أنني لم أدرك الأمر... لو لم تنغمس في تلك الألاعيب، هناك، في الأعلى، لكان من المحتمل أن نؤجّر هذا المكان ونبحث عن مكان آخر نعيش فيه. لذا عليك أن تنتبه إلى ما أقوله... سوف نبدأ من جديد، سنفتح صفحة جديدة؛ وسوف نقبل ما يحدث. خطوة فخطوة. هذا كل ما نستطيع فعله».

لكنّ هدوءه أفزعني: «انظر... أريد أن أوضح الأمر: أنا المسؤول. إذا وصلت الأمور إلى تلك النقطة، فأريدك أن تعرف هذا منذ الآن».

«بالتأكيد...» نفض الفرشاة فأثارت أناقة حركته وتلقائيتها اضطرابي على نحو غريب... «مهما يكن من أمر، دعنا نترك المسألة حيث هي الآن؛ فهل أنت موافق؟ لا؟...». قال هذا عندما حاولت أن أقول شيئاً آخر... «أرجوك. أريدك أن تهتم بالأمر، وسوف أفعل ما أستطيع فعله في حال وجود شيء خاص، وأما في غير تلك الأحوال، فإنني لا أريد المزيد من الحديث في هذا الموضوع. هل اتفقنا؟».

في الخارج مطر. وفي القبو برد ورطوبة، صقيع بشع تحت الأرض. ظللت واقفاً أنظر إليه غير عارف ما يجب أن أقول، أو أفعل.

قال لي عندما بقيت واقفاً هناك: «من فضلك. أنا لست غاضباً. لكني أريد الانتهاء من هذا العمل. سوف يستمر طيلة الليل. اذهب إلى الأعلى الآن. من فضلك. لقد وصلت الآن إلى الجزء الصعب، ولا بد لي من التركيز جيّداً وإلا سوف أفسده كلّه».

17

صعدت إلى الأعلى صامتاً؛ لكن ألواح الأرضية كانت تصدر صريراً مرتفعاً تحت قدمَيَّ. مررت بصف صور بيبا فلم أستطع احتمال النظر إليها. عندما نزلت، كنت قد اعتزمت أن أبدأ بالأخبار الأكثر سهولة، ثم أنتقل إلى الخبر السيئ فعلاً. لكنني أحسست بنفسي قذراً غير مخلص إلى حد منعني من فعل ذلك. كلما قلّ ما يعرفه هوبي عن اللوحة، كلما كان ذلك أكثر أماناً له. أمر خاطئ من النواحي كلّها أن أجرّه إلى هذا الأمر.

لكني تمنيت أن يكون لدي من أستطيع أن أكلمه... أن يكون لدي من أثق به. تظهر كل بضع سنين مقالة جديدة أخرى عن الأعمال الفنية المفقودة من المتحف. كان من بين تلك الأعمال، إضافة إلى لوحتي ولوحتين من لوحات فان آسبس كان المتحف قد استعارهما من متحف آخر، عدد من القطع القيّمة من العصور الوسطى ومجموعة من الأنتيكات المصرية القديمة. كتب الباحثون دراسات عن الأمر، وظهرت كتب أيضاً. وقد أورد موقع *إف بي آي* على الإنترنت تلك الحادثة باعتبارها واحدة من أكبر عشر جرائم فنية. كنت مرتاحاً في ما مضى لحقيقة أن أكثر الناس افترض أن من أخذ لوحتيْ آسبس من الصالتين 29 و30 هو نفسه من سرق لوحتي. وعلى وجه التقريب، كانت الجثث التي عثروا عليها في الصالة رقم 32 (صالة لوحتي) متجمعة بالقرب من مدخلها الذي انهار. قال المحققون إن زمناً تراوح من عشر ثوانٍ إلى ثلاثين ثانية قد انقضى قبل أن ينهار ذلك الباب. أي إن الوقت كان كافياً لخروج عدد محدود من الناس. لقد غربلوا الركام في الصالة رقم 32 وكنسوا *المكان* كله بمكانس ناعمة، بعناية فائقة. عثروا إلى إطار لوحة *الحسُّون* سليماً. علّقوه بعد ذلك فارغاً على الجدار في متحف موريتشوس في لاهاي «ليكون تذكرة لتلك الخسارة التي لا تعوَّض لأثرٍ من آثارنا الثقافية». لكنهم لم يعثروا على أي جزء من اللوحة نفسها... لا شظية خشب، ولا مسماراً عتيقاً، ولا

حتى على قشرة من الألوان المميزة المستخدمة فيها، ألوان تحتوي على الرصاص والقصدير. لكن اللوحة كانت مرسومة على الخشب! من هنا، كان يمكن طرح فرضية مفادها أن الانفجار قد جعل لوحة *الحّسون* تنخلع من إطارها وتنقذف إلى نار الحريق الكبير الذي شب في متجر الهدايا حيث كان مركز الانفجار (كان هنالك مؤرخ مشهور، متغطرس أيضاً، شدَّد بقوة على هذه الفرضية؛ وكنت له شاكراً). رأيت ذلك المؤرخ في برنامج وثائقي على شبكة PBS وكان يخطر جيئة وذهاباً أمام ذلك الإطار الفارغ في المتحف في لاهاي ويحدق في الكاميرا بعينيه القديرتين اللتين تعرفان كيف تتعاملان مع وسائل الإعلام... كان يقول: «وأما حقيقة أن هذا العمل الفني الكبير قد نجا من انفجار مستودع البارود في *ديلفت* ليلقى مصيره، بعد قرون من ذلك، في انفجار آخر من صنع الإنسان، فهي واحدة من العجائب التي لا نراها إلا عند و. هنري أو غي دو موباسان».

وأما في ما يخصّني ـ بحسب الرواية الرسمية التي ظهرت مطبوعة في أحد المصادر، والتي كانت مقبولة على اعتبارها الرواية الحقيقية ـ فقد كنت على مسافة عدة صالات من لوحة *الحسون* عندما وقع الانفجار. وخلال تلك السنين كلّها، حاول عدد من الكتاب إجراء مقابلات معي، لكني كنت أرفض ذلك. كان عدد غير قليل من الناس، من شهود العيان، قد شاهد أمي في لحظاتها الأخيرة في الصالة رقم 24... المرأة الجميلة ذات الشعر الداكن والمعطف المصنوع من الساتان؛ كما أكد عدد من شهود العيان أنني كنت إلى جانبها. قتل في تلك الصالة أربعة بالغين وثلاثة أطفال. وفي النسخة الرسمية من القصة، النسخة التي تلقّاها الناس، كنت واحداً من تلك الأجساد التي رآها الشهود ملقاة على الأرض: فقدت الوعي ولم ينتبه إليَّ أحد في تلك الفوضى!

إلا أن خاتم ويلتي كان دليلاً مادياً على مكان وجودي. من حسن حظي أن هوبي لم يكن يحب الحديث عن موت ويلتي. لكنه كان

يجنح إلى التذكّر من حين إلى آخر ـ ليس كثيراً؛ عادة ما يحدث ذلك في ساعة متأخرة من الليل عندما يتناول عدة كؤوس... «هل يمكنك تخيُّل شعوري؟ أليست معجزة أن...». لا بد أن ينتبه أحد ما إلى تلك الصلة، في يوم ما! لم أنسَ هذا أبداً، لكن الضباب الذي كان يلفّ رأسي دائماً جعلني أمضي وأمضي متجاهلاً على امتداد تلك السنين كلّها. قد لا ينتبه أحد!... قد لا يعرف أحد!

كنت جالساً على حافة سرير أنظر من النافذة إلى الشارع العاشر... الناس خارجون من أعمالهم، ذاهبون إلى تناول العشاء؛ وانفجارات من ضحك صاخب؛ مطر ناعم ضبابيّ يتساقط منحرفاً في دائرة الضوء الأبيض المنبعث من مصباح الشارع مقابل نافذتي تماماً. بدا لي كل شيء خشناً، مهتزاً. أحسست برغبة شديدة في تناول قرص من تلك الأقراص. وكنت موشكاً على النهوض وإعداد كأس لنفسي، عندما لاحظت ـ بالقرب من دائرة الضوء، شخصاً واقفاً وحده تحت المطر من غير أية حركة. كان وقوفه هناك غير منسجم مع شدة الحركة في الشارع.

مر نصف دقيقة، ولم يزل الرجل واقفاً مكانه. أطفأت النور في الغرفة، واقتربت من النافذة. تحرّك ذلك الشبح مبتعداً عن مصباح الشارع كأنه استجاب لاقترابي. تمعَّنت جيداً في تفاصيل شكله على الرغم من أن ملامح وجهه كانت غير واضحة في الظلام: كتفان عاليان محدودبان قليلاً، وساقان قصيرتان، وجذع إيرلندي غليظ. بنطلون جينز، وسترة لها قبعة، وحذاء ثقيل. ظل الرجل واقفاً برهة من الزمن... هيكل رجل عامل غير متّسق مع مظهر الشارع في تلك الساعة من النهار: مساعدو تصوير، وأزواج في ملابس حسنة، وطلبة جامعيون فرحون خارجون من أجل مواعيد على العشاء. ثم استدار الرجل. بدأ يسير مبتعداً بخطوات سريعة نافدة الصبر. وعندما دخل دائرة الضوء التالية، رأيته يضع يده في جيبه فيخرج هاتفاً خليوياً ويتصل بأحد ما وهو خافض رأسه مشغول بما

يفعله. تركت رماد السيجارة يسقط على الأرض. كنت واثقاً تماماً من أنني أتوهّم رؤية أشياء. الحقيقة أنني كنت أرى أشياء غريبة طيلة الوقت. كان ذلك جزءاً من العيش في مدينة حديثة... هذه البذرة نصف المرئية، بذرة الرعب والكارثة؛ أقفز عند سماع أبواق السيارات، وأتوقّع دائماً حدوث شيء ما، دخان، وصوت تكسّر زجاج. على الرغم من ذلك كلّه، تمنّيت أن أكون واثقاً مئة بالمئة من أن ذلك الرجل كان من صنع خيالي.

كان كل شيء هادئاً هدأة الموت. ألقى مصباح الشارع ظلالاً عنكبوتية مشوَّهة على الجدران من خلال ستائر الدانتيلا المخرَّمة. طيلة الوقت الذي مضى، كنت أعرف أن الاحتفاظ بتلك اللوحة غير صحيح... لا يمكن أن ينتج خير عن ذلك. ثم إنها لم تنفعني بشيء ولم تمنحني أية بهجة. أيام سكني في لاس فيغاس، كنت قادراً على النظر إليها كلما شئت، عندما أكون مريضاً أو نعِساً أو حزيناً، في الصباح الباكر وفي منتصف الليل، في الخريف والصيف، فأراها تتغير مع تغير الطقس ومع تغير ضوء الشمس. إن رؤية اللوحة في المتحف مختلفة جداً عن رؤيتها في هذه الأضواء والأمزجة والفصول، لأنك تراها بألف طريقة وطريقة؛ وأما أن أحبسها في الظلام ـ هي شيء مصنوع من نور، شيء لا يعيش إلا في النور ـ فهو خاطئ من نواحي أكثر من أن أستطيع شرحها. بل هو أكثر من خاطئ: إنه جنون.

جلبت من المطبخ كأساً فيها قطع ثلج. ثم مضيت إلى الخزانة وسكبت الفودكا في الكأس. عدت إلى غرفتي وأخرجت هاتفي من جيب سترتي ـ بعد أن نقرت على الأرقام الثلاثة الأولى من رقم هاتف جيروم، أغلقت الخط وطلبت رقم أسرة باربر بدلاً من ذلك.

أجابت إيتا. قالت لي وقد بدا عليها السرور: «ثيو!... سمعتُ صوت تلفزيون المطبخ في الخلفية... «هل تتصل من أجل كاثرين؟». وحدهم أفراد أسرة كيتزي وأصدقاؤها المقربون ينادونها كيتزي؛ وأما عند بقية الناس فهي كاثرين.

«هل هي في البيت؟».
«ستعود بعد العشاء. أعرف أنها كانت تترقّب اتصالك».
«ممم....». لم أستطع منع نفسي من الإحساس بالسرور... «هل يمكنك إخبارها بأنني اتصلت؟».
«متى تأتي لرؤيتنا؟».
«آمل أن آتي قريباً. هل بلات في البيت؟».
«لا، إنه خارج البيت أيضاً. لكني سأحرص على إخباره باتصالك. عد لرؤيتنا قريباً. هل اتفقنا؟».

أغلقت الهاتف وجلست على حافة السرير أشرب الفودكا. كانت معرفتي بأنني قادر على الاتصال مع بلات إذا احتجت إلى ذلك أمراً مطمئِناً ـ لا في ما يخص اللوحة لأنني لا أثق به ثقة تسمح لي بإدخاله في الأمر، لكن في ما يخص بالتعامل مع ريف. أزعجني أن ريف لم يقل كلمة عن ذلك.

ولكن، ما الذي أستطيع فعله؟ كلما ازداد تفكيري في الأمر، كلما بدا لي أن ريف قد بالغ في المراهنة على مهارته عندما واجهني تلك المواجهة العارية. ما الذي سيجنيه من ملاحقتي من أجل قطعة أثاث. وماذا يمكن أن يستفيد إذا اعتقلتني الشرطة واكتُشفت اللوحة عندي فصارت خارج متناول يده إلى الأبد؟ إذا كان يريدها، فليس له إلا أن يتنحّى جانباً ويصبر إلى أن أقوده إليها. النقطة الوحيدة التي كانت في صالحي ـ الشيء الوحيد ـ هي أن ريف لا يعرف مكان اللوحة. يمكنه استئجار شخص لمراقبتي، لكنه لن يستطيع الاهتداء إلى اللوحة أبداً إذا حرصت على البقاء بعيداً عن ذلك المستودع.

الفصل العاشر

الأبـله

1

بعد ظهر يوم أحد قبيل عيد الميلاد، قالت كيتزي وهي تلتقط واحداً من قرطَيْ أمي الزمرديَّيْن وترفعه قبالة النور: «أوه، ثيو!». كنا قد تناولنا في مطعم *فْرِد* غداء استغرق زمناً طويلاً بعد أن أمضينا فترة الصباح كلها في متجر *تيفاني* نتفرج على قطع الفضة والخزف الصيني: «قرطان جميلان! المسألة فقط...». تغضَّنت جبهتها.

«ماذا؟».

كانت الساعة الثالثة، ولا يزال المطعم صاخباً مزدحماً. عندما ذهبت كيتزي لإجراء مكالمة هاتفية. أخرجت القرطَيْن من جيبي ووضعتهما على مفرش الطاولة.

«حسناً، المسألة هي... أتساءل...». تغضَّن حاجباها كما لو أنها تنظر إلى زوج من الأحذية من غير أن تكون واثقة من رغبتها في الشراء... «أعني... إنهما في غاية الجمال! شكراً لك! لكن، هل سيكونان مناسبين... من أجل ذلك اليوم؟».

قلت: «حسناً، كما تريدين». مددت يدي إلى كأس *بل دي ميري* وأخذت جرعة كبيرة حتى أموّه عن دهشتي وانزعاجي.

«لأن... الزمرد...». حملَت أحد القرطين فقربته من أذنها وأدارت عينيها جانباً بحركة ذكية... «أنا أحب الزمرد كثيراً، لكن...». رفعت القرط من جديد فتلألأ في ضوء مصابيح السقف غير المباشر... «الزمرد ليس حَجَري حقاً. أظن... قد يبدوان نافرين بعض الشيء، فما رأيك؟ مع لون الفستان الأبيض؟ ومع لون جلدي؟ ماء النيل![1] ماما أيضاً لا تستطيع استخدام اللون الأخضر».

«كما ترين».

«أوه، أنت منزعج الآن».

«لا، لست منزعجاً».

«بل أنت منزعج! لقد جرحت مشاعرك».

«لا. إنني متعب فقط».

«تبدو في مزاج سيئ حقاً».

«من فضلك يا كيتزي، أنا مرهق».

كنا نبذل جهوداً مضنية في البحث عن شقة لنا. عملية صعبة مخيبة للآمال تعاطينا معها بروح إيجابية أكثر الأحيان، على الرغم من أن الشقق العارية والغرف الفارغة المسكونة بأرواح أناس هجروها كانت تثير (بالنسبة إلي) كثرة من الأصداء البشعة من طفولتي: صناديق النقل، وروائح المطبخ، وغرف نوم ظليلة هجرتها الحياة كلّها؛ وأكثر من هذا... كانت تثير في داخلي نوعاً من هدير ميكانيكي مشؤوم مسموع لي وحدي (هذا واضح... مسموع لي وحدي!) ومخاوف من شرور مرتقَبة تتنفّس مع أصوات الوكلاء العقاريين التي تتردّد على السطوح الملمَّعة رنَّانة فرحة وهم يسيرون في كل مكان وينيرون المصابيح ويشيرون إلى أجهزة المطبخ المصنوعة من الستانلس ستيل... لكن أصواتهم لم تكن لتبدّد ذلك الهدير.

---

(1) ماء النيل (Eau de NEIL): لون بين الأخضر والأزرق. هذا تعبير فرنسي في الأصل؛ وقد انتقل إلى الإنكليزية بالمعنى نفسه مع المحافظة على كتابته الفرنسية.

لماذا كان الأمر هكذا؟ لم يكن سكان كل شقة من الشقق التي رأيناها قد هجروها نتيجة مأساة مثلما كنت أظن (هكذا كنت أشعر، على نحو ما). وأما مسألة أنني كنت أشم رائحة طلاق أو إفلاس أو موت في كل مكان رأيناه، فمن الواضح أنها كانت نتيجة وهم، لا أكثر! ... ثم كيف يمكن لمشكلات أولئك السكان السابقين، حقيقية كانت أم متخيَّلة، أن تلحق ضرراً بكيتزي أو بي؟

قال لي هوبي الذي كان شديد الحساسية مثلي إزاء أرواح البيوت والأشياء، وإزاء الآثار التي خلّفها الزمان: «لا تفقد العزم. انظر إلى الأمر كما لو أنه وظيفة، كما لو أنك تبحث في صندوق القطع الخشبية. سوف تعثر على القطعة المناسبة إذا بقيت على إصرارك وواصلت البحث».

لقد كان محقاً. تعاملت مع المهمة بروح رياضية، مثلما فعلت كيتزي، ورحنا نتنقّل من بيت مفتوح إلى بيت مفتوح من بيوت ما قبل الحرب، بيوت تسكنها أشباح سيدات يهوديات وحيدات متقدّمات في السن، وواجهات زجاجية باردة كنت أعرف أنني غير قادر على العيش خلفها، من غير أن أشعر بأن بنادق القنّاصة موجهة إليَّ عبر الشارع. ما من أحد يمكن أن يجد متعة في احتمال اصطياده وهو جالس في شقته!

وأما نقيض ذلك فكان الذهاب مع كيتزي لتحضير قائمة الزواج[1] في متجر *تيفاني*، فقد بدا ذلك انحرافاً ساراً عن مهمة البحث عن شقة. اللقاء مع «استشارية قائمة الزواج»، والإشارة إلى ما يعجبنا، ثم الخروج يداً بيد لتناول غداء عيد الميلاد! بدلاً من ذلك ـ على نحو غير متوقّع أبداً ـ ألفيتُ نفسي أسير مترنحاً نتيجة التوتر وضغط التجوال في واحد من أكثر متاجر *مانهاتن* ازدحاماً في يوم جمعة قبل عيد الميلاد: مصاعد وسلالم مزدحمة فائضة بشالات السياح ومتسوّقي العطلة، الواقفين صفوفاً أمام

---

(1) أي قائمة الأشياء التي يختارها العروسان من أحد المتاجر فيشتريها الأصدقاء والأقارب كهدايا لهما.

واجهات العرض لشراء ساعات وأوشحة وحقائب يد وساعات وكتب إتيكيت، ومختلف ضروب السلع الكمالية التي تحمل توقيع «Robin’s Egg Blue». كنا قد أمضينا ساعات مرهِقة في الطابق الخامس. وكانت تسير معنا «استشارية زواج» تبذل قصارى الجهد من أجل تقديم «خدمة لا تشوبها شائبة» لمساعدتنا في الاختيار واتخاذ قراراتنا؛ كانت تؤدي مهمتها بثقة جعلتني غير قادر على منع نفسي من الشعور بأنني محاصَر («يجب أن تشعرا كما لو أن مجموعة أدوات المائدة الخزفية قد صنعت من أجلكما: 'هذا يمثّلنا'... إن هذا الإحساس تعبير مهم عن النمط المفضل لديكما»)؛ في حين كانت كيتزي تتنقّل من مجموعة إلى مجموعة: «ذات الإطار الذهبي! لا، الأزرق! انتظر... أيهما كانت الأولى؟ أليس في هذه الأشكال ذات الأضلاع الثمانية شيء من المبالغة؟ وكانت الاستشارية على تجاوب تام مع توصيفاتها: أشكال هندسية مدينية... رسوم مزهرة رومانسية... رونق أبدي... تألّق متّقد... وعلى الرغم من قولي دائماً: بالتأكيد هذه المجموعة حلوة، وهذه أيضاً، سأكون سعيداً بأية واحدة منهما، القرار قرارك أنت يا كيتزي، فقد واصلت الاستشارية عرض المزيد والمزيد، إذ كان من الواضح أنها طامعة في أن تسمعني أعبّر عمّا أفضّله بقوة أكبر؛ فراحت تشرح لي، بلطف، النقاط المتميزة في كل مجموعة: الطلاء المفضَّض هنا، والخطوط المرسومة باليد هناك، إلى أن وجدت نفسي مضطراً إلى العض على لساني حتى أمنعه من قول رأيي الحقيقي: على الرغم من المهارة الحرفية العالية، فقد كان الفارق صفراً مطلقاً بين اختيار كيتزي هذه المجموعة أو تلك المجموعة لأني رأيتها متماثلة كلها: جديدة، لا سحر فيها، ميتة في يد الإنسان، هذا إذا لم أقل شيئاً عن الأسعار: ثمانمئة دولار من أجل طبق صُنع يوم أمس؟ طبق واحد؟ هنالك مجموعات جميلة من القرن الثامن عشر يمكن أن يحصل المرء عليها مقابل جزء من ثمن هذه الأشياء اللامعة، الباردة، المصنوعة حديثاً.

قالت كيتزي لتلك الموظفة التي ظلّت تحوم من حولنا صابرة: «لا يمكن للمرء أن يحبّها كلها بالقدر نفسه تماماً! نعم، صحيح... بالتأكيد أنني أعود باستمرار إلى مجموعة ' ديكو' ، لكنها قد لا تكون المجموعة المناسبة لنا بالضبط، مع أنها تعجبني كثيراً...». ثم توجّهت بالكلام إلي: «ما رأيك؟».

«اختاري ما يعجبك. أية مجموعة منها. بصدق!». قلت هذا وأنا أدسّ يدي في جيبي وأشيح بوجهي. أما هي فظلّت واقفة تنظر إليَّ باحترام منتظرة أن أضيف شيئاً.

«تبدو لي متوتراً جداً. ليتك تقول لي ما تفضله؟».

«نعم، لكن...». لقد أخرجتُ الكثير من مجموعات الطعام الخزفية والأدوات المنزلية القديمة المُكسّرة من صناديقها في مزادات بيع ممتلكات أشخاص ماتوا، فصرت أرى ما يكاد يكون حزناً لا حدود له في هذه العروض اللامعة البريئة، وفي تأكيدها المضمر على أن أدوات الطعام الجديدة تلك تعِدُ بمستقبل لامع مثلها، بمستقبل خالٍ من المآسي.

«هل تفضل مجموعة *تشينويز*؟ أم مجموعة *عصافير النيل*؟ قل لي يا ثيو! لا بد أنك تفضّل إحداها على الأخرى».

«المجموعتان جيدتان. كل منهما فاخرة وجميلة. وهذه مجموعة بسيطة، من أجل الاستخدام اليومي». قدمت استشاريتنا هذا الرأي المفيد. فمن الواضح أن كلمة' *بسيطة*' كانت في ذهنها الكلمة المفتاح في التعامل مع العرسان المرهَقين المستنزَفين... «حقاً، حقاً إنها بسيطة محايدة...». بدا لي أن من تقاليد إعداد قائمة هدايا الزواج أن يُسمح للعريس باختيار الخزفيات كثيرة الاستخدام (أظنها من أجل حفلات *مباريات كرة القدم الكبرى*' التي سأقيمها مع ' *الشباب*' في بيتي... هاهاها)؛ في حين تُترك «أدوات الطعام الرسمية» للخبراء!... للسيدات».

عندما أدركت أنهما تنظران إليَّ منتظرتين مني إجابة ما، قلت باقتضاب

أشد مما أردت: «إنها جميلة». لم أكن قادراً على إبداء حماسة كبيرة إزاء مجموعة طعام خزفية بيضاء حديثة، خاصة عندما يكون الثمن أربعمئة دولار للطبق الواحد. جعلني هذا أفكر في السيدات العجائز اللطيفات بملابسهن من تصميم *مارينيكو* اللواتي كنت أذهب أحياناً لرؤيتهم في برج ريتز: أرامل لهنَّ أصوات خشنة كقعقعة الحجارة، وعلى رؤوسهن ما يشبه العمامات، وفي أيديهن أساور من جلد النمر تنتظرن الانتقال إلى ميامي وقد امتلأت شققهن بالزجاج المدخَّن، وبأثاث مصنوع من فولاذ مطلي بالكروم اشترينه في السبعينات عن طريق مصممين داخليين، مقابل أثمان تعادل أثمان أثاث جيد من طراز *كوين آن*. لكن أثاثهن (كنت مسروراً بإخبارهن بالحقيقة، كارهاً) لم يحتفظ بقيمته، ولم يعد يمكن بيعه حتى بنصف الثمن الذي دفعنه فيه.

قالت استشاريتنا وهي تمر على حافة الطبق بإصبعها المعتنى به جيداً، لكن من غير بهرجة: «الخزف الصيني... مثلما أحب أن ينظر عملائي إلى القطع الفضية الراقية، إلى الكريستال والخزف...! إنها طقوس آخر النهار. إنها النبيذ والمرح والأسرة والاجتماع معاً. إن مجموعة من الخزف الفاخر طريقة رائعة لإضفاء الرومانسية والاستمرار على زواجكما».

قلت من جديد: «صحيح». لكن تلك العاطفة روَّعتني؛ ولم يفلح الكأسان اللذان تناولتهما في مطعم فْرِد في إزالة ذلك التأثير تماماً.

كانت كيتزي جالسة تنظر إلى القرطَيْن نظرة بدت لي غير واثقة. ثم قالت لي: «حسناً، انظر. سوف أضعهما في العرس. إنهما جميلان. وأنا أعرف أنهما كانا لأمك».

«أريد أن تضعي ما تريدين».

«سأقول لك ما أريده...».

مدّت يدها من فوق الطاولة بحركة لعوب وأمسكت بيدي: «أظنك في حاجة إلى قيلولة».

«بالتأكيد». قلت هذا وأنا أرفع يدها وألصقها بوجهي متذكراً أنني محظوظ إلى أقصى حد.

2

جرت الأمور على نحو سريع حقاً. فمنذ ذلك العشاء في بيت أسرة باربر قبل شهرين، صرت ـ عملياً ـ أقابل كيتزي كل يوم. نخرج في نزهات طويلة على الأقدام، ثم نتناول العشاء معاً (في مطعم *ماتش 65*، أو في مطعم *لو بيل بوكيت* أحياناً، أو نكتفي بتناول السندويتشات في المطبخ أحياناً أخرى). وكنا نتحدّث عن أيام زمان: عن آندي، وكيف كنا نلعب لعبة *مونوبولي* أيام الأحد الماطرة («كنتما نذلين حقاً... وكان ذلك كما لو أن *شيرلي تيمبل*[1] تقف في مواجهة هنري فورد وج. ب. *مورغان*...»). وكنا نتحدّث عن تلك الليلة التي بكت فيها عندما أجبرناها على مشاهدة فيلم *هِل بوي* بدلاً من *بوكاهانتس*، وكذلك عن ليالي العذاب، ليالي الملابس الرسمية ـ سترة وربطة عنق ـ عندما كنا نجلس من غير حركة في النادي (ليالي عذاب للأولاد الصغار، على أية حال)، ونشرب الكوكا كولا مع الليمون، وننظر إلى السيد باربر يتلفّت قلقاً نافد الصبر ناظراً إلى أنحاء الصالة كلها باحثاً عن نادله المفضل أماديو، الذي كان مصرّاً على أن يستخدم معه القدر السخيف الذي يعرفه من اللغة الإسبانية... نتحدّث عن زملاء المدرسة، والحفلات... نجد دائماً ما نتحدث عنه، هل تتذكّر هذا، وهل تتذكّرين ذاك، هل تتذكّرين عندما... لم تكن مثل *كارول لومبارد* التي كنت أمضي الوقت كله معها في الشراب أو في السرير من غير أن نجد الكثير مما يمكن أن يقوله أحدنا للآخر.

لا يعني هذا أننا لم نكن شخصين مختلفين أشد الاختلاف؛ إلا أن هذا كان أمراً لا بأس به: بعد كل حساب، وكما أشار هوبي على نحو معقول

---

(1) شيرلي تيمبل: ممثلة أميركية شهيرة اشتهرت منذ طفولتها، ثم صارت دبلوماسية وعملت سفيرة في عدد من البلدان.

تماماً، أوَليس من المفترض أن يكون الزواج اتحاداً بين متضادَين؟ أوَلم يكن من المفترض أن أجلب جديداً إلى حياتها وأن تجلب اهتمامات جديدة إلى حياتي. وفوق هذا كلّه، أوَلم يحِن الوقت للتحرّك إلى الأمام والتخلي عن الماضي، والتحول عن البستان الذي كان مقفلاً في وجهي. عِش في الحاضر، وركز على اللحظة الراهنة بدلاً من أن تبكي وتحزن على ما لن تستطيع الحصول عليه أبداً! أمضيت سنين كثيرة متمرغاً في دفء حزن مدمّر: بيبا، بيبا، بيبا، وفي الابتهاج ثم القنوط... أمر لا نهاية له: حوادث لا أهمية ولا معنى لها في حقيقة الأمر كانت قادرة على جعلي أطير حتى النجوم، أو أغوص في اكتئاب شنيع. ظهور اسمها على هاتفي، أو رسائل البريد الإلكتروني التي تنهيها بعبارة «مع الحب» كانت تحملني أياماً على أجنحتها (هكذا كانت بيبا تنهي رسائلها كلها، إلى الجميع). وأما إذا اتصلتْ بهوبي ولم تطلب الحديث معي (ولماذا تطلب الحديث معي؟) فقد كنت أجد نفسي مسحوقاً محطماً إلى حد غير معقول. كنت واهماً؛ وكنت أعرف أنني واهم! والأسوأ من هذا أن حبي تجاه بيبا كان فيه جانب خفيٌّ يعكّره موت أمي: خسارتي لأمي وعجزي عن استعادتها. ذلك الجوع الطفولي الأعمى كله إلى إنقاذ الآخرين، وإلى أن ينقذني الآخرون، إلى تكرار الماضي وجعله مختلفاً. لقد تمكن ذلك الجوع من ربط نفسه بها! كان ذلك اضطراباً، كان مرضاً. وكنت أرى أشياء غير موجودة. كدت أصير مثل شخص يعاني الوحدة واقفٍ في ساحة السيارات يلاحق فتاة رآها في المول التجاري. هذا لأن حقيقة الأمر كانت على النحو التالي: بيبا وأنا، لم يكن أحدنا يرى الآخر أكثر من مرتين في السنة. كنا نتبادل رسائل البريد الإلكتروني والرسائل النصية، وإن يكن ذلك من غير انتظام. وعندما تأتي إلى المدينة، يعير أحدنا الآخر كتباً، ونذهب معاً إلى السينما. لقد كنا صديقين، ولا شيء أكثر من هذا. كانت آمالي في إقامة علاقة معها غير حقيقية على الإطلاق. لكن بؤسي

المستمر، وخيبات أملي كانت واقعاً حقيقياً مخيفاً. فهل يكون ذلك الهاجس الذي لا أساس له ولا أمل فيه سبيلاً إلى إضاعة ما بقي من حياتي؟

كان تحرّري منها قراراً واعياً. وقد فعلت كل ما يلزم لكي أتمكن من تنفيذه، مثلما يقضم حيوان أحد أطرافه حتى يتخلص من فخ أمسك به. نجحت في هذا، على نحو ما؛ وكانت كيتزي موجودة على الضفة الأخرى تنظر إليَّ بعينيها الخضراوين الرماديتين الفرحتين.

كنا مستمتعَين معاً. كنا منسجمَين معاً. وكان ذلك أول صيف لها في المدينة «*طيلة حياتي كلها*». كان البيت في ولاية مين مغلقاً لأن العم هاري وأطفاله ذهبوا إلى *أرخبيل لا مادالين* في كندا... «وأنا ضجِرة بعض الشيء مع ماما؛ و... أوه، من فضلك، فلنفعل شيئاً معاً. ألا تذهب معي إلى الشاطئ في عطلة نهاية الأسبوع؟».

وهكذا صرنا نذهب إلى *إيستهامبتون* في عطلة نهاية الأسبوع، فننزل في بيت أصدقاء لها يمضون الصيف في فرنسا. وكنا نلتقي في وسط المدينة خلال أيام الأسبوع بعد أن أفرغ من عملي فأشرب نبيذاً فاتراً في مقاهي الرصيف في أمسيات منطقة *تريبيكا*، التي هجر الناس أرصفتها الحارة... ريح دافئة منبعثة من فتحات التهوية في المترو تجعل شرارات تتطاير من سيجارتي. أمسيات لطيفة في صالات السينما، وفي مطعم *كينغ بول* وفي بار *أويستر* في فندق *غراند سنترال*. كانت تأتي مرتين في الأسبوع: قبعة وقفازان وحذاء رياضي وتنورة جميلة، وقد طلت نفسها من رأسها إلى أخمص قدميها بالواقي الشمسي طويل المفعول (لأن لديها حساسية من أشعة الشمس، مثل آندي)، فتقود سيارتها الميني كوبر السوداء بنفسها إلى شينيكوك أو إلى *ميدستون*... سيارة مجهَّزة خصيصاً بحامل لمضارب الغولف. وعلى النقيض من آندي، كانت تحب أن تتكلّم وتثرثر وتطلق ضحكات عصبية، فأرى فيها طيف طاقات

أبيها المبعثرة، لكن من غير لا مبالاته. كان ممكناً أن تظهر في إعلان من إعلانات مستحضرات التجميل؛ وكان ممكناً أن تكون نبيلة من نبيلات قصر فيرساي بجلدها الأبيض ووجنتيها الورديتين وبهجتها المتلعثمة. كانت ترتدي فساتين كتّانية قصيرة، في المدينة وخارج المدينة؛ وتحمل حقائب يد فاخرة من جلد التمساح. وكانت تلصق اسمها وعنوانها داخل حذائها ذي الكعب المرتفع ـ ماركة *كريستان لوفوتين* ـ («حذاء مؤلم كثيراً») تحسّباً لأن تخلعه لكي ترقص أو تسبح، ثم تنسى أين وضعته: حذاء فضّي، وحذاء مطرز، وحذاء مدبَّب مزيَّن بشرائط: الزوج بألف دولار. صاحت بي من أعلى السلم «يا شرير!» عندما نزلتُ في الثالثة صباحاً، بعد تناول الكثير من الروم مع الكوكا كولا لكي أذهب بسيارة تاكسي لأن لديَّ عملاً في اليوم التالي.

كانت هي من طلب مني الزواج. كنا ذاهبَين إلى حفلة. عطر *شانيل 19*، وفستان بلون أزرق سماوي. خرجنا إلى بارك آفنيو وقد لعبت برأسينا كؤوس الكوكتيل التي تناولناها في الأعلى. أنيرت مصابيح الشارع لحظة خروجنا من الباب فتجمّدنا في مكاننا ونظر كل منا إلى الآخر: هل نحن من فعل هذا؟ كانت لحظة طريفة إلى حد جعلنا ننفجر معاً في ضحك هستيري. كنا كأننا نفيض نوراً... كأننا قادرَان على إنارة بارك آفنيو. وعندما أمسكت كيتزي بيدي وقالت: «هل تعرف ما أفكر في أن علينا فعله يا ثيو؟». عرفت بالضبط ما كانت تريد قوله.

«أعلينا أن نفعل ذلك؟».

«نعم، أرجوك! ألا ترى هذا؟ أظنّه سيجعل أمي سعيدة».

لم نتمكّن حتى من تحديد موعد ثابت. ظل الموعد يتغيّر بحسب الوقت الشاغر المتوفّر في الكنيسة، وبحسب أوقات ومواعيد أشخاص لا غنى عن حضورهم... مباراة هامة عند أحدهم، وموعد هام عند غيره، وأشياء من هذا القبيل. ومن هنا بدا أن الزفاف سيصير مناسبة كبيرة جداً:

قائمة ضيوف فيها مئات الأشخاص، وتكلفة تبلغ آلافاً كثيرة، وتحضيرات وملابس وتدريبات كما لو أننا نستعد لتقديم مسرحية في *برودواي*... لم أعرف أبداً كيف صار هذا الزفاف شيئاً بتلك الضخامة! كنت أعرف أن أم العروس تكون أحياناً ملومة في ما يتصل بالمبالغة الشديدة في كل ما يتعلّق بالزفاف. وأما في هذه الحالة، فما كان ممكناً إلقاء اللوم على السيدة باربر التي لا تكاد تترك غرفتها وسلة تطريزها ولا تتلقى مكالمات هاتفية، ولا تقبل الدعوات ولا تذهب حتى إلى صالون الشعر: كانت تصفّف شعرها بنفسها مرة كل يومين، من غير انقطاع. كان لها موعد ثابت في الساعة الحادية عشرة قبل أن تذهب لتناول طعام الغداء في الخارج.

همست لي كيتزي وهي تلكزني بين أضلاعي بمرفقها الحادّ الصغير ونحن مسرعان إلى غرفة السيدة باربر: «ألن تكون ماما مسرورة؟».

أتذكّر فرحة السيدة باربر عندما سمعَت الخبر (قالت لي كيتزي: *أخبرها أنت. ستكون سعادتها أكبر إذا سمعته منك*). كانت تلك لحظة أعدتُها في ذهني مرات كثيرة من غير ملل: دهشة في عينيها، ثم فرحة تزهر من غير تحفّظ على وجهها البارد المتعب. يدها ممدودة لي، ويدها الأخرى ممدودة إلى كيتزي؛ لكن تلك الابتسامة الحلوة ـ ابتسامة لن أنساها أبداً ـ كانت لي كلّها.

هل كان أحدٌ يعرف أن لديَّ قدرة على جعل أي إنسان سعيداً إلى هذا الحد... أو أنني يمكن أن أكون سعيداً إلى هذا الحد؟ كان مزاجي في حالة رائعة؛ وبعد بقاء قلبي محبوساً، مخدّراً، طيلة سنوات كثيرة، صار الآن يتحرّك سريعاً ويقفز هنا وهناك مثل نحلة تحت كأس: كل شيء متألّق، حاد، محيّر، خاطئ... لكن ذلك كان ألماً نظيفاً حلواً، على العكس من ذلك البؤس البليد الذي غزاني زمناً طويلاً جدّاً تحت غطاء المخدّرات كأنه ألم سن متسوّس، ذلك الوجع الوسِخ الناجم عن شيء فاسد. صارت روحي مبتهجة كأنني نزعت عن عيني نظارة متسخة مجللة

بالسواد تجعل كل ما أراه ضبابياً. أمضيت الصيف كله في حالة أشبه بهذيان حقيقي فرِح: كنت مرتعشاً، ممتلئاً طاقة، سخيفاً، أحيا على الجن والجمبري وعلى صوت اصطدام كرات التنس المنعش النشط. وما كنت قادراً على التفكير في شيء غير كيتزي، كيتزي، كيتزي!

مرت خمسة شهور، وصرنا في شهر كانون الأول بصباحاته المنعشة ونفحة من طنين أجراس عيد الميلاد في الهواء. كنت وكيتزي مخطوبين موشكَين على الزواج، فكم هو سعيد حظي؟ لكني كنت أحس لمسة من الغثيان على الرغم من كمال كل شيء، من القلوب والزهور، وعلى الرغم من عيشي أجواء نهاية فيلم غنائي جميل. لأسباب لا أعرفها، كانت موجة الطاقة التي حملتني وجرت بي طيلة الصيف قد انتهت وتركتني أسقط بعنف، أواسط تشرين الأول، في قبضة حزن يتقطّر كالمطر ويمتد في كل اتجاه من غير نهاية: صرت أكره أن أكون مع الناس باستثناء أشخاص قلائل (كيتزي، هوبي، السيدة باربر)، وصرت غير قادر على الانتباه إلى ما يقوله أي شخص، وغير قادر على الحديث مع العملاء في المتجر، ولا على وضع لصاقات الأسعار ولا استخدام المترو والذهاب إلى أي مكان. صار كل نشاط بشري منعدم المعنى، غير قابل للفهم كأنني أعيش داخل تلة نمل سوداء في البرية... ما من بصيص نور أينما نظرت! لم تنفعني مضادات الاكتئاب التي واظبت على ابتلاعها ثمانية أسابيع، ولم تنفعني مضادات الاكتئاب التي تناولتها قبلها (لقد جرّبت أنواعها كلها؛ من الواضح أنني كنت من ضمن نسبة العشرين بالمئة، أصحاب الحظ السيئ الذين لا تجعلهم تلك الأدوية ينعمون بالفراشات وحقول الأقحوان، بل ترميهم في حالات من الصداع العنيف والأفكار الانتحارية). صحيح أن الظلمة كانت تنجلي أحياناً بالقدر الكافي لأن أدرك ما يحيط بي وأتبيَّن الأشكال المألوفة مثلما يتبين المرء أثاث غرفة النوم عندما يستيقظ في ضياء الفجر، إلا أن راحتي لم تكن أبداً أكثر من حالة مؤقتة عابرة، لأن

اكتمال الصباح لم يكن يأتي أبداً، بل كانت الأشياء تسوَدّ في عينيَّ قبل أن أتمكن من تحديد اتجاهي، فأتلمس طريقي مرتعشاً في الظلام كأن حبراً قد سُكب في ناظريّ.

لم أدرِ ما كان يجعلني ضائعاً هكذا! كنت أعرف أنني لم أتجاوز بيبا؛ وكنت أعرف أنني لن أستطيع تجاوزها أبداً، وأن ذلك شيء قد أجد نفسي مضطراً إلى التعايش معه، إلى التعايش مع أسى حب لا أستطيع تحقيقه. لكني كنت مدركاً أيضاً أن مشكلتي الأكثر إلحاحاً كانت في تصاعد (هذا ما اكتشفته، على أية حال) لتبلغ أبعاداً اجتماعية مزعجة. لم تعد أمسيات «التعافي» ممتعة لي ولا لكيتزي، تلك الأماسي التي نجلس فيها معاً، متشابكي الأيدي، على مقعد واحد في مقصورة معتمة في أحد المطاعم. حلّت محل ذلك، في كل ليلة تقريباً، حفلات عشاء، وطاولات مطاعم مزدحمة بأصدقائها، ومناسبات مرهقة (كنت فيها متوتراً، محروماً من الأثر المهدّئ للمخدرات، متهدماً حتى آخر عصب من أعصابي)، حيث أجد صعوبة في إظهار القدر اللائق من الحماسة الاجتماعية، خاصة عندما أكون متعَباً بعد العمل ـ ثم أيضاً تحضيرات الزفاف: سيل منهمر من التوافه والتفاصيل التي كان متوقعاً مني أن أنشغل بها بحماسة لا تقل عن حماستها، وتلك الكثرة المتألّقة من البروشورات الملونة والمشتريات الكثيرة. بالنسبة إليها، كان ذلك يرقى إلى مرتبة وظيفة بدوام كامل، زيارة متاجر القرطاسية وبائعي الأزهار، والبحث عن البائعين ومتعهّدي تقديم الطعام، وتجميع «مساطر» من المنسوجات وعلب من البيتيفور ونماذج التورتة، ومضايقتي وإرباكي ومطالبتي المتكرّرة في مساعدتي في الاختيار بين درجتين من اللون العاجي ولون الخزامى (درجتان أراهما متطابقتين على لوحة نماذج الألوان)، وفي ترتيب سلسلة مواعيد من أجل قضاء الليل مع وصيفاتها في الزفاف، واحدة بعد أخرى، وكذلك بحث «عطلة نهاية أسبوع للشباب» من أجلي (من تنظيم بلات؟؟) يمكنني، على

الأقل، الاعتماد على أنني أستطيع البقاء ثملاً طيلة الوقت. وبعد ذلك كلّه تأتي خطط شهر العسل: أكوام من الكتيّبات الملونة اللامعة (جُزُر فيجي أم نانتوكيت[1]؟ ميكونوس أم كابري). كنت أقول بصوتي العذب اللطيف الجديد، الذي أتحدث به مع كيتزي: «رائع! تبدو عظيمة كلّها». على الرغم من غرابة الأمر بالنظر إلى تاريخ أسرتها في ما يتعلّق بالمياه والبحار! أليس غريباً أنها لم تكن مهتمة بالذهاب إلى باريس أو فيينا أو براغ أو إلى أية وجهة لا تكون جزيرة وسط محيط مخيف؟

ومع هذا، لم أشعر قبل ذلك في حياتي كلها بأنني واثق من المستقبل إلى هذا الحد؛ وعندما كنت أذكّر نفسي بصحة توجّهي (كثيراً ما كنت أجد مناسبات لفعل ذلك)، فإن أفكاري ما كانت تتجه إلى كيتزي وحدها، بل إلى السيدة باربر أيضاً التي كانت سعادتها تجعلني أحس اطمئناناً في قلبي، كأن غذاء راح يسري في قنواته التي ظلت جافة على امتداد سنين كثيرة. كانت أخبارنا تنعشها وتجعلها مبتهجة مشرقة؛ بل إنها بدأت تتحرّك في الشقة، وأشرق وجهها بقليل من أحمر الشفاه، وصار أبسط كلام بيني وبينها ملوناً بنور ثابت مستقر هادئ، زاد المكان من حولنا اتساعاً وألقى ضياء رائقاً في أكثر زوايا قلبي ظلمة.

«لم أكن أظن أبداً أنني سأكون سعيدة هكذا من جديد»؛ اعترفتْ بهذا ذات ليلة على العشاء بعد أن قفزت كيتزي على نحو مفاجئ وركضت لكي ترد على الهاتف، كعادتها دائماً. بقينا نحن الاثنان جالسَين إلى الطاولة الصغيرة في غرفتها نأكل الهليون وشرائح سمك السالمون... «لأنك... لأنك كنت طيباً جداً مع آندي ـ كنت تسانده وتطوِّر ثقته بنفسه. لقد كان في أحسن أحواله معك، في أحسنها على الإطلاق... وأنا سعيدة لأنك ستصير واحداً من أفراد الأسرة بشكل رسمي؛ وسوف يصير الأمر

---

(1) نانتوكيت: جزيرة في ولاية ماساشوستس الأميركية ـ مايكونوس: جزيرة في اليونان ـ كابري: جزيرة في إيطاليا.

قانونياً الآن. هذا لأن، أوه، أظن أنه لا يجوز أن أقول هذا! آمل ألا يزعجك أن أتحدّث من قلبي لحظة واحدة. لكني كنت أعتبرك دائماً واحداً من أطفالي، فهل كنت تعرف ذلك؟ حتى عندما كنت صبياً صغيراً».

هزّني ما قالته، وأثّر في نفسي كثيراً إلى حد جعل ردة فعلي خرقاء. تلعثمت مضطرباً، فأشفقت عليَّ وأدارت الحديث في جهة أخرى. لكني ظللت أجد نفسي غارقاً في دفء متألّق كلما تذكّرت كلماتها. وعلى قدم المساواة، كنت أجد متعة، وإن تكن متعة خسيسة، كلما تذكّرت صمت بيبا القصير المصدوم عندما أخبرتها على الهاتف. كنت أعيد في ذهني ذكرى ذلك الصمت، مرة بعد مرة، مستمتعاً به، مستمتعاً بسكوتها المصعوق: «أوه؟». ثم، عندما استعادت نفسها... «أوه يا ثيو! كم هذا رائع! لا أطيق انتظار رؤيتها!».

كانت إجابتي مسمومة: «أوه، إنها رائعة، وأنا أحبها منذ أن كنا طفلين».

هذا ما كان صحيحاً بكل معنى الكلمة ـ كنت لا أزال مقبلاً على إدراك ذلك بطرق مختلفة كثيرة. كان ذلك التداخل بين الحاضر والماضي مغرياً بشكل عجيب: أستمدُّ حضوراً لا آخر له من ذكرى ازدراء كيتزي ذات السنوات التسع تجاه الصبي غريب الأطوار ذي الثلاثة عشر عاماً الذي كنته (تفتح عينيها مستاءة، ويتجهّم وجهها عندما تجد نفسها مضطرة إلى الجلوس إلى جانبي لتناول طعام العشاء). وكنت أجد لذة أكبر من ذلك عندما تبدو الدهشة واضحة على وجوه أشخاص عرفونا في طفولتنا: أنت؟ أنت وكيتزي باربر؟ معقول؟ كيتزي؟ كنت أحب وأستظرف متعة ذلك، وخبث ذلك، وأستمتع بأنهم كان يجدون الأمر خارج كل احتمال معقول. أتسلل إلى غرفتها بعد نوم أمها ـ الغرفة نفسها التي كانت تحرص على إبقائها مقفلة في وجهي عندما كنا صغاراً، وورق الجدران الورديّ نفسه لم يتغير منذ أيام آندي، واللافتات المكتوبة بخط اليد، *ابتعدوا*، يرجى *عدم الإزعاج* ـ أحتضنها من الخلف، فتقفل كيتزي الباب من ورائنا

وتضع إصبعها على فمي، ثم تمرّ به على شفتيَّ... ذلك التقلّب الأول اللذيذ على سريرها... ماما نائمة، ششش!

كنت أجد مناسبات كثيرة في كل يوم لتذكير نفسي بأنني محظوظ كثيراً. لم تكن كيتزي تعرف التعب أبداً؛ ولم تكن كيتزي غير سعيدة أبداً. كانت جذابة، متحمسة، عاطفية. كانت جميلة ذات طبيعة منيرة بيضاء، سكّرية، تدير رؤوس الناس في الشارع. وكنت معجباً بنزعتها الاجتماعية وإقبالها على العالم؛ كنت معجباً بعفويتها وخفة روحها ـ كان هوبي يدعوها بقدر كبير من الرقّة «*خفيفة الرأس*» ـ كانت كأنها نسمة هواء منعشة عذبة! وكان الجميع يحبها. بالنظر إلى لطافتها وطرافتها اللتين تنتقل عدواهما إلى كل من حولها، كنت أعرف أن الإشارة إلى ما يبدو عليها من عدم تأثّر بأي شيء ليست إلا اعتراضاً قليل الشأن إلى أقصى حد. حتى صديقتي كارول لومبارد، كانت لها عينان تدمعان عندما تتذكّر أصدقاء سابقين، أو ترى في الأخبار حيوانات أليفة أسيئت معاملتها، أو عندما تعلم بإغلاق بعض البارات القديمة التي أَلِفتها في شيكاغو حيث كانت تعيش. وأما كيتزي فما كان لأي شيء أن يثير لديها انتباهاً خاصاً على أنه عاجل، أو طارئ، أو حتى مفاجئ. من هذه الناحية، كانت أشبه بأمها وأخيها ـ إلا أن تحفّظ السيدة باربر، وتحفّظ آندي أيضاً ـ كانا مختلفين تماماً عن أسلوب كيتزي في إبداء ملاحظة وقحة أو في التقليل كثيراً من شأن أمر ما كلما طرح أحد شيئاً مهماً. (كنت أسمعها تقول: «هذا ليس ممتعاً»، مع زفرة انزعاج أو مع تكشيرة صغيرة كلما سألها أحد عن أمها). ثم إنني كنت أترصّد دليلاً يشير إلى حزنها على آندي أو على والدها ـ كنت أشعر بالهول والغثيان كلما فكّرت في الأمر ـ وبدأت تزعجني حقيقة أنني لم أر شيئاً من ذلك. ألم يكن لموتهما أثر عليها أبداً؟ أليس من المفترض، أن نتحدّث عن هذا الأمر يوماً ما؟ من إحدى النواحي، كنت معجباً بشجاعتها: ذقن مرفوعة في مواجهة المأساة، أو في مواجهة أي شيء. لعلها كانت شديدة التحفظ

والحذر في حقيقة الأمر، لعلها أغلقت قلبها على ذلك كله وصنعت لنفسها تلك الواجهة الظاهرية المتقنة. لكن تلك العينين اللامعتين الزرقاوين الضحلتين ـ ما أشد جاذبيتهما للوهلة الأولى! ـ لم يكن فيهما تدرّج إلى ما هو أكثر عمقاً... أحياناً، كان ينشأ لدي ذلك الإحساس المقلق الذي يعيشه من يخوض طويلاً في ماء يبلغ الركبة آملاً أن يصل إلى منحدر ما، إلى مكان له من العمق ما يسمح بالسباحة.

كانت كيتزي تربّت على معصمي: «ماذا؟»

«ما رأيك بالذهاب إلى متجر *بارنيز*؟ أعني، بما أننا هنا، لماذا لا نقوم بجولة في قسم الأثاث المنزلي؟ أعرف أن أمي لن تكون مسرورة إذا سجلنا قائمة الزواج هنا، لكن قد يكون من الممتع لنا أن نبحث عن شيء أكثر تقليدية من أجل الاستخدامات اليومية».

تناولت كأسي وأفرغت بقيتها دفعة واحدة في فمي: «لا. يجب أن أذهب إلى وسط المدينة إذا لم يكن لديك مانع. لديَّ اجتماع مع أحد العملاء».

«هل ستأتي إلى شقتي الليلة؟». كانت كيتزي مشتركة مع فتاتين غيرها في شقة واحدة في منطقة *إيست سيفنتيز*، غير بعيد عن مكتب المنظمة الفنية الذي تعمل فيه.

«لست متأكداً من هذا. قد أكون مضطراً للذهاب إلى العشاء. سأتخلّص منه إن استطعت».

«تعال لتناول الكوكتيلات، رجاءً. أو تعال لتناول كأس بعد العشاء، على الأقل. سوف يخيب أمل الجميع إذا لم تستطع القدوم ولو قليلاً. تشارل وبيت...».

«سأحاول. أعدك بأن أحاول...». ثم قلت لها وأنا أومئ في اتجاه القرطين اللذين لا يزالان على الطاولة أمامها... «لا تنس هذين!».

«أوه، لا! لن أنساهما بالتأكيد!». قالت هذا بنبرة إحساس بالذنب، ثم أخذت القرطين ورمتهما في الحقيبة كأنهما بضعة قطع نقود صغيرة.

سرنا خارجَيْن معاً، فانضممنا إلى حشد عيد الميلاد في الشارع. أحسست بالامتعاض والحزن... ولم يفعل مشهد البنايات الملفوفة بشرائط ملونة، وتلألؤ النوافذ أيضاً، إلا أن زاد تلك الكآبة الثقيلة: سماء شتوية مظلمة، وواد رمادي ضيق فيه مجوهرات وفراء، وكل ما في الثروة من قوّة وكآبة.

ما مشكلتي؟ كنت أفكّر في هذا عندما اجتزت جادة *ماديسون* مع كيتزي وكان معطفها الوردي ـ ماركة *برادا* ـ يحتك بالعابرين جذلاً. لماذا أحمل على كيتزي أنها لا تبدو مسكونة بموت آندي وأبيها... لأنها تتابع حياتها؟

لكني أمسكت بمرفق كيتزي، فكافأتني بابتسامة متألقة جعلتني أشعر ـ لحظة فقط ـ بالراحة من جديد. وجعلتني أبتعد عما يشغل ذهني. مضت تسعة شهور منذ أن تركت لوسيوس ريف في ذلك المطعم في تريبيكا؛ ولم يتصل بي أحد بعد من أجل أية قطعة من القطع «السيئة» التي بعتها على الرغم من استعدادي التام للاعتراف بغلطتي، إذا اتصلوا. قليل الخبرة، جديد على هذا العمل، ها هي نقودك يا سيدي، أرجو أن تقبل اعتذاري! كنت أستلقي في الليالي مستيقظاً أطمئِنُ نفسي بحقيقة أنني لم أترك خلفي أدلة كثيرة ضدي (إن ساءت الأمور): حاولت عدم توثيق المبيعات إلا بالقدر الذي كنت مضطراً إليه؛ وكنت أعرض تخفيضاً في السعر مقابل دفع الثمن نقداً.

على الرغم من ذلك... على الرغم من ذلك! كانت المسألة مسألة وقت فحسب. فما إن يأتيني أحد العملاء حتى يتدفّق السيل كله من خلفه! يكفي سوءاً أنني سأدمّر سمعة هوبي؛ لكني سأعجز عن إعادة المال للناس عندما تكثر المطالبات. وعندها، ستكون هنالك ملاحقات قضائية: ملاحقات قضائية يكون اسم هوبي مدرَجاً فيها لأنه شريكي. وسيكون أمراً صعباً أن أقنع المحكمة بأنه لم يعرف شيئاً عمَّ كنت أفعله،

خاصة في ما يتعلّق ببعض القطع المهمة. وإذا وصلت الأمور إلى هذا الحد، فإنني لست واثقاً من أن هوبي سيدافع عن نفسه دفاعاً حقيقياً إذا رأى أن ذلك يعني تركي وحيداً في مواجهة الأمر. بالتأكيد، كان هناك أشخاص كثيرون ممن بعتهم يمتلكون ثروات كبيرة تجعلهم غير مبالين بذلك كله. على الرغم من ذلك... على الرغم من ذلك، عندما يقرّر أحدهم أن يلقي نظرة تحت أرضيات مقاعد كراسي الطعام (من نوع هيبلوايت، على سبيل المثال) فيلاحظ أنها ليست متماثلة كلها، وأن عروق الخشب غير منسجمة، وأن الأرجل غير متطابقة، فماذا سيحدث؟ أو... إذا أخذ أحدهم طاولة ليحصل على تقييم مستقل لقيمتها، فسوف يعرف أن قشرة الخشب التي عليها من نوع لم يكن مستخدماً، أو لم يكن مبتكراً، في العقد الثاني من القرن الثامن عشر، فماذا سيحدث؟ وفي كل يوم، كنت أتساءل متى وكيف يمكن أن تنكشف أول حالة احتيال: خطاب يصلني من محامٍ، أو هاتف من قسم الأثاث الأميركي في دار سوذبيز، أو خبير تصميم، أو واحد من هواة جمع التحف يندفع داخلاً المتجر ويواجهني. هوبي ينزل إلى المتجر ويصغي. عندنا مشكلة، فهل لديك دقيقة حتى نتكلم؟

ثم إنني لم أكن واثقاً مما يمكن أن يحدث إذا ظهرت على السطح هذه المطالبات المالية التي يمكن أن تودي بالزواج. كان هذا شيئاً أكبر من أن أستطيع التفكير فيه. قد لا يلغى الزفاف في آخر المطاف... لكن، من أجل كيتزي، ومن أجل أمها... سيبدو الأمر أكثر قسوة وبشاعة إذا ظهر بعد الزفاف، خاصة لأن أسرة باربر لم تعد موسرة مثلما كانت قبل موت السيد باربر. كانت لديهم مشكلات في ما يتعلّق بالسيولة المالية، وكان مالهم مجمَّداً في صندوق استثماري. وقد اضطرت «ماما» إلى إنقاص عدد العاملين في بيتها وإلى إنقاص ساعات عمل من بقي منهم. ثم إن «بابا»... كما أسرّ لي بلات عندما حاول إثارة اهتمامي ببعض قطع

الأثاث في بيتهم... قد جن بعض الشيء قبيل موته فأقبل على استثمار أكثر من نصف المال في بنك فيستا (وحش استثماري مصرفي) لأسباب «عاطفية». [كان جد جد السيد باربر رئيس أحد البنوك الأولى في *ماساشوستس*، إلا أن ذلك البنك فقد اسمه بعد اندماجه في بنك *فيستا*]. وللأسف توقّف بنك *فيستا* عن دفع الأرباح، ثم أفلس قبل موت السيد باربر بفترة وجيزة. ومن هنا، فقد شهدت تقديمات السيدة باربر للجمعيات الخيرية تقلّصاً كبيراً بعد أن كانت شديدة الكرم في وقت ما. ومن هنا أيضاً جاء ذهاب كيتزي إلى العمل. ثم إن ما كان بلات يتقاضاه من عمله كمحرّر في دار النشر الصغيرة ذات الذوق الرفيع كان أقل مما اعتادت «ماما» دفعه لمدبرة المنزل في الأيام الخوالي ـ كثيراً ما كان بلات يذكّرني بالأمر عندما يثمل. كنت واثقاً كل الثقة من أن السيدة باربر ستفعل كل ما تستطيع فعله إذا ساءت الأمور. وستكون كيتزي ملزمة بمساعدتي، لأنها زوجتي، سواء أحبتْ ذلك أم لم تحبه. لكن كل ذلك كان حيلة قذرة من جانبي، خاصة وأن الثناء الذي أغدقه هوبي عليّ قد أقنعهم جميعاً بأنني ساحر في الأمور المالية دفعه القدر إلى إنقاذهم ـ خاصة بلات الذي كان منشغل البال بتناقص موارد الأسرة. قال لي بصراحة تامة عندما أخبرني عن سعادتهم جميعاً بأن كيتزي ستتزوجني بدلاً من أن تتزوج واحداً من المتبطرين الذين كانت تصاحبهم: «أنت تعرف كيف تجني المال، أما هي فلا تعرف». لكن لوسيوس ريف كان يقلقني أكثر من أي شيء آخر. فعلى الرغم من أنني لم أتلقَ منه أي اتصال، فقد وصلتني خلال الصيف سلسلة رسائل مقلقة: رسائل بخط اليد لا تحمل توقيعاً، كانت مكتوبة على بطاقات مراسلة ذات إطار أزرق تحمل في أعلاها اسمه مطبوعاً على أرضية نحاسية اللون: **لوسيوس ريف**

كادت ثلاثة شهور تنقضي منذ أن طرحت عليك ما كان، وفق كل معيار، عرضاً منطقياً معقولاً منصفاً. فهل تعتبر أن ذلك العرض كان غير منطقي؟

ورسالة أخرى:

مرت ثمانية أسابيع أخرى. أظنك قادراً على فهم مشكلتي. إن ضيقي في تزايد.

ثم، بعد ثلاثة أسابيع من تلك، أتت رسالة من جملة واحدة:

صمتك غير مقبول.

عذّبني التفكير في تلك الرسائل على الرغم من محاولتي المستمرة لإبعادها عن تفكيري. كلما تذكّرتها (وهذا ما كان يحدث كثيراً، وعلى غير توقّع: في منتصف وجبة طعام عندما تكون اللقمة في منتصف الطريق إلى فمي)، كان ذلك كمن تأتيه صفعة توقظه من حلم. حاولت عبثاً تذكير نفسي أن مزاعم ريف في المطعم كانت عديمة الأساس تماماً. كان أمراً غبياً أن أردّ عليه بأية طريقة كانت. لم أجد شيئاً أفعله غير تجاهله كما يتجاهل المرء متسولاً وقحاً في الطريق.

لكنّ أمرين مقلقين حدثا بعد ذلك... حدثا على التوالي. صعدت إلى الأعلى لكي أسأل هوبي إن كان يريد الخروج لتناول الغداء.

قال لي: «بالتأكيد. انتظر لحظة». كان جالساً عند بوفيه الطعام ينظر في مجموعة من الرسائل ونظارته على رأس أنفه. قال وهو يقلّب أحد المغلفات حتى ينظر إلى وجهه الأمامي: «همم». فتح المغلف ونظر إلى البطاقة: أبعدها على طول ذراعه حتى ينظر إليها من فوق نظارته، ثم قرّبها منه.

ناولني البطاقة وقال لي: «انظر إليها. عمَّ تتحدث؟».

كانت البطاقة بخط ريف الذي ألفته تماماً. وكانت مؤلّفة من جملتين فحسب من غير رأس ولا توقيع.

متى ينتهي هذا التأجيل غير المنطقي؟ ألا نستطيع التقدّم خطوة إلى الأمام في شأن ما اقترحته على شريكك الشاب طالما أن أحداً منكما لا يستفيد شيئاً من مواصلة حالة الجمود هذه؟

قلت وأنا أضع البطاقة على الطاولة وأشيح بوجهي عن هوبي: «أوه، يا إلهي. بحق الرب!».

«ماذا؟».

«إنه هو. إنه الرجل الذي اشترى الصندوق».

قال هوبي: «أوه، أهذا هو؟...». عدّل من وضع نظارته ونظر إليَّ بهدوء... «هل قام بصرف الشيك الذي حررته له؟».

مررت بأصابعي في شعري: «لا».

«وما هو اقتراحه؟ ما الذي يتحدّث عنه؟».

«انظر...». ذهبت إلى المجلى حتى أملأ كأس ماء؛ حيلة قديمة كان يستخدمها أبي عندما يكون في حاجة إلى لحظة حتى يستجمع شتات نفسه... «لم أرد مضايقتك بهذا الأمر، إلا أن هذا الشخص صار مزعجاً كثيراً، وقد بدأت أرمي برسائله من غير أن أفتحها، وإذا أتتك رسالة أخرى منه فأقترح أن ترميها في سلة المهملات».

«ماذا يريد؟».

كان صوت الصنبور مرتفعاً. شربت بعض الماء واستدرت ومسحت جبهتي بيدي وقلت: «حسناً، إنه مجنون حقيقي. لقد حررت له شيكاً من أجل ذلك الصندوق. حررت له شيكاً بمبلغ أكبر من المبلغ الذي دفعه».

«فما المشكلة إذاً؟».

شربت جرعة من كأس الماء: «آه... للأسف يبدو أنه يفكّر في شيء آخر. إنه يظن... يظن أن لدينا خط تجميع هنا. وهو يحاول إدخال نفسه في الأمر. هل رأيت؟ يريد هذا بدلاً من صرف الشيك! لديه امرأة عجوز موشكة على الموت... ممرضات على مدار أربع وعشرين ساعة، وهو يريد أن نستخدم شقتها من أجل...».

ارتفع حاجبا هوبي عجباً: «للزرع ؟».

قلت وقد سرّني أنه نطق تلك الكلمة بنفسه: «بالضبط». كانُ *الزرعُ*

حيلة توضع بموجبها قطع الأثاث المزيَّفة، أو قليلة القيمة، في بيوت خاصة ـ غالباً ما تكون بيوت أشخاص مسنّين ـ حتى تباع بعد ذلك للضواري الذين يتجمعون عند فراش الموت: يكونون كالكواسر التي تعتاش على الجثث... متلهفين إلى سلب السيدة العجوز التي صارت غير قادرة على التنفس من غير قناع الأوكسجين غير مدركين أنهم يقعون ضحية السلب، هم أنفسهم... «عندما عرضت عليه أن أعيد نقوده إليه، كان هذا ما عرضه بالمقابل. نحن علينا تقديم قطع الأثاث. ثم نتقاسم المال مناصفة معه. إنه يلاحقني باقتراحه منذ ذلك الوقت».

كانت نظرة هوبي مسطحة، فارغة: «هذا سخف».

أغمضت عينيَّ ودعكت أنفي: «صحيح، لكنه شديد الإلحاح. ولهذا أنصحك بأن...».

«من هي المرأة؟».

«إنها واحدة من أقاربه العجائز... مهما تكن!».

«ما اسمها؟».

ضغطت بكأس الماء على صدغي: «لست أدري».

«هنا؟ في المدينة؟».

«أظن هذا».

لم أكن مهتماً بهذه الأسئلة: «على أية حال... ما عليك إلا أن ترمي برسالته في القمامة. آسف لأنني لم أخبرك بالأمر قبل الآن، لكني لم أرد إزعاجك به. لا بد من أن يتعب ويمل من الأمر كله إذا تجاهلناه».

نظر هوبي إلى البطاقة، ثم نظر إليَّ وقال بنبرة حادة عندما كنت أحاول أن أقول شيئاً: «سوف أحتفظ بها، إنها أكثر مما يلزم حتى نستطيع تقديم شكوى ضده لدى الشرطة إذا وجدنا حاجة إلى ذلك. لست أبالي بأمر الصندوق. لا، لا...». قال هذا وهو يرفع يده ليسكتني... «هذا لن يجدي نفعاً لأنك حاولت تصحيح الأمر فما كان منه إلا أن بدأ يحاول إرغامك على القيام بشيء لا يعدو كونه جريمة. منذ متى يرسل إليك هذه البطاقات؟».

«لست أدري...». ثم قلت عندما واصل النظر إلي منتظراً إجابتي... «لعلهما شهران».

راح يتمعّن في البطاقة وقد قطب حاجبيه: «ريف؟ سوف أسأل نويرا». كان نويرا الاسم الأول للسيدة ديفريز... «أخبرني إذا كتب إليك من جديد». «بالطبع».

لم أجرؤ حتى على التفكير في ما يمكن أن يحدث إذا كانت السيدة ديفريز تعرف لوسيوس ريف، أو إذا كانت تعرف عنه شيئاً. لكني لم أسمع بعد ذلك أية كلمة عن هذا الأمر، لحسن الحظ. ومن حسن حظي أيضاً أن تلك الرسالة التي وصلت لهوبي كانت غامضة إلى تلك الدرجة. إلا أن الخطر الكامن وراءها كان واضحاً. كان من السخف والغباء أن يقلق المرء من أن يعمد ريف إلى تنفيذ وعيده بإبلاغ السلطات لأن فرصته الوحيدة في الحصول على اللوحة لنفسه ـ هذا ما كنت أذكّر نفسي به دائماً، مرة بعد مرة ـ كانت في تركي وشأني إلى أن أذهب لأخذها.

لكن الغريب، بل غير الطبيعي على الإطلاق، أن هذا الأمر جعلني أكثر توقاً إلى أن تكون اللوحة قريبة مني، تحت متناول يدي، لكي أنظر إليها كلما شئت. كنت أفكر في الأمر دائماً على الرغم من معرفتي باستحالته. فحيثما نظرت، وفي كل شقة أذهب مع كيتزي لرؤيتها، كنت أرى مخابئ محتملة: خزانات مرتفعة، ومواقد مزيفة، وعوارض سقف عريضة لا يمكن النزول إليها إلا باستخدام سلم مرتفع، وألواح أرضية من السهل رفعها. كنت أرقد أثناء الليل محدقاً في الظلام متخيّلاً خزانة سرية مبنية داخل الموقد حيث أستطيع وضع اللوحة بأمان، أو أتخيل شيئاً أكثر غرابة وسخفاً: خزنة سرية مقاومة لأحوال الطقس لها قفل برقم سري.

لوحتي، لوحتي. خوف، ووله أعمى، وحب اقتناء. متعة الفيتيشية[1]ورعبها. حمّلت على كمبيوتري وعلى هاتفي صوراً للّوحة

---

(1) فيتيشية: انحراف نفسي/ جنسي يتمثل في الانجذاب إلى شيء من الأشياء (حذاء – قدم – ثوب تحتي...)، للحصول على إثارة جنسية.

(كنت مدركاً حماقة تلك الفعلة تمام الإدراك) حتى أكون قادراً على التمتع بالنظر إليها على انفراد: ضربات فرشاة معالجة رقمياً، ومسحة من ضياء شمس القرن السابع عشر مضغوطة إلى نقط مضيئة؛ لكنني كنت أصير أكثر جوعاً إلى اللوحة الحقيقية نفسها كلما كان اللون أكثر نقاء، وكلما كان الإحساس بطبقات الطلاء المتراكبة النافرة أكثر غنى... كنت أصير أكثر جوعاً إلى اللوحة نفسها، اللوحة الرائعة المغسولة بالنور، اللوحة التي لا يعوّضني عنها شيء.

بيئة خالية من الغبار. حراسة على مدار الساعة. على الرغم من محاولتي الامتناع عن التفكير في ذلك الرجل النمساوي الذي حبس امرأة في قبوٍ مدة عشرين سنة[1]، فقد ظل هذا التشبيه ماثلًا في ذهني على الدوام. ماذا لو متّ؟ ماذا لو دهسني باص في الشارع؟ هل يمكن أن يظنوا تلك الحزمة البشعة في حجرة المستودع شيئاً لا قيمة له فيحرقونها؟ اتصلت بمنشأة التخزين تلك، ثلاث أو أربع مرات، من غير أن أفصح عن نفسي، لكي أطمئن نفسي بمعلومات كنت أعرفها أصلاً من خلال زياراتي الكثيرة إلى موقعهم على الإنترنت. إنهم يضمنون بقاء درجتي الحرارة والرطوبة ضمن الحدود المناسبة للمحافظة على الأعمال الفنية. كنت أستيقظ أحياناً فيبدو لي الأمر كله أشبه بحلم، لكني كنت أدرك سريعاً أنه ليس كذلك.

لكن، كان من المستحيل حتى أن أفكر في الذهاب إلى ذلك المكان في وجود ريف الذي ينتظرني مثل قطة متأهبة تنتظر أن يجري الفأر على أرض الغرفة. كان علي أن ألزم مكاني. ولسوء حظي، كان قد بقي على موعد دفع إيجار وحدة التخزين ثلاثة أشهر فقط. وبالنظر إلى الظروف المحيطة كلها، لم أجد أية إمكانية للذهاب حتى أدفع الإيجار نقداً.

(1) قصة انتشرت سنة 2008 عن عجوز نمساوي اكتشفت السلطات أنه حبس ابنته أربعة وعشرين عاماً كان يغتصبها خلالها، فأنجب منها سبعة أطفال.

كان علي أن أطلب من غريشا، أو من واحد آخر من الشباب أن يذهب ويدفع الإيجار بدلاً مني. يجب أن يدفعه نقداً؛ وهذا ما كنت واثقاً من أنهم سيقبلونه من غير طرح أي سؤال. وعند ذلك، وقع الأمر التعس الثاني: قبل ذلك بعدة أيام فقط، فاجأني غريشا، فاجأني تماماً، عندما دخل المتجر واقترب مني مائلاً برأسه جانباً عندما كنت أحسب مجموع الفواتير في نهاية الأسبوع وقال لي: «يا ماجور، يجب أن أكلمك».

«ماذا لديك؟».

«هل أنت مغلق؟».

«ماذا؟». بين لغة البيدش ولغة روسية مهلهلة مخلوطة بتشكيلة غريبة من مصطلحات *بروكلين* وكلمات عامية ملتقطة من أغاني الراب، كانت تعابير غريشا تشكّل لغة بعيدة كل البعد عن الإنكليزية التي أستطيع فهمها.

صاح غريشا غاضباً: «لا أظنك تفهمني على نحو صحيح. أسألك إن كان كل شيء لديك على ما يرام... في ما يتعلق بالقانون».

قلت له: «انتظر لحظة...». كنت في منتصف عملية جمع عدد كبير من الأرقام؛ لكنني رفعت رأسي عن الآلة الحاسبة... «انتظر! ماذا قلت؟».

«أنت أخي. لا أحاسبك ولا أحكم عليك. أريد أن أعرف فقط. هل كل شيء على ما يرام؟».

«لماذا، ماذا حدث؟».

«أشخاص يتسكعون حول المتجر. يراقبون المتجر. هل تعرف شيئاً عن هذا؟».

ألقيت نظرة سريعة عبر واجهة المتجر: «من؟ ماذا؟ متى حدث هذا؟».

«أردت أن أسألك. خفت من الذهاب بالسيارة إلى *بورو بارك* للقاء ابن عمي جينكا من أجل عمل لديه. خفت أن يلحق بي هؤلاء الناس».

جلست في مقعدي: «يلحقونك أنت؟».

هز غريشا كتفيه: «حصل ذلك أربع أو خمس مرات. كنت أنزل من

شاحنتي يوم أمس فرأيت واحداً منهم يتجوّل أمام المتجر من جديد. لكنه ابتعد في الشارع. بنطلون جينز... متقدّم في السن بعض الشيء. ملابس عادية تماماً. جينكا لا يعرف شيئاً عن الأمر، لكنه خاف لأننا نفعل شيئاً، كما قلت لك. قال لي أن أسألك إن كنت تعرف شيئاً عن الأمر. لم يتكلّم الرجل أبداً. يقف وينتظر فقط...». ثم قال لي بصوت منخفض... «أتساءل إن كان للأمر علاقة بالأسود».

«لا». كان المقصود بالأسود جيروم؛ لكني لم أكن قد رأيته منذ شهور.

«لا بأس إذاً. لا أحب أن أقول لك هذا، لكني أظن أن الشرطة تتشمّم المكان هنا. مايك... لقد لاحظ الأمر أيضاً. ظن مايك أن الأمر على صلة بقضية نفقة طفلهِ. لكن ذلك الرجل يتسكّع هنا ولا يفعل شيئاً».

«منذ متى يجري هذا؟».

«منذ شهر، على الأقل. مايك يقول إن المدة أطول من ذلك».

«هل تدلّني عليه عندما تراه في المرة القادمة؟».

«قد يكون محقّقاً خاصاً».

«لماذا تقول هذا؟».

«لأنه يبدو، من بعض النواحي، أشبه بشرطي سابق. هذا ما يظنه مايك... مايك إيرلندي، يعرف الشرطة. يقول مايك إنه يبدو متقدماً في السن كأنه شرطي متقاعد، ربما!».

«حسناً». قلت هذا وأنا أتذكر الشخص قوي البنية الذي رأيته من نافذتي. لقد لمحته أربع أو خمس مرات متتالية؛ أو لعلّي لمحت شخصاً يشبهه يتجول أمام المتجر خلال أوقات العمل. كنت أراه دائماً عندما أكون مع هوبي أو مع أحد العملاء، أي في وقت غير مناسب لمواجهته. صحيح أنه كان ذا مظهر عادي... سترة ذات قبعة وحذاء مرتفع الساق مثل أحذية عمال البناء... لكني لم أكن واثقاً. ذات مرة (أفزعني ذلك حقاً)، رأيت شخصاً يشبهه أمام بناية أسرة باربر؛ لكني اقتربت ونظرت إليه فعرفت أنني مخطئ.

«إننا نراه منذ فترة. لكن هذا أمر...». توقّف غريشا لحظة... «لم أكن لأذكره لك، فقد يكون لا شيء. لكن، يوم أمس...».

قلت عندما راح يدعك رقبته ويشيح بوجهه جانباً كأنه اقترف ذنباً: «حسناً، ماذا؟ تابع...».

«شخص آخر، شخص مختلف. لقد رأيته بالقرب من المتجر في وقت سابق، في الخارج. لكنه دخل المتجر يوم أمس، وسأل عنك بالاسم، لم يعجبني مظهره».

انتصبت في مقعدي فجأة. لقد كنت أتساءل متى سيصمم لوسيوس ريف على المجيء بنفسه.

«لم أتحدّث معه. كنت في الخارج... كنت أضع بعض الأشياء في الشاحنة. لكني رأيته يدخل. إنه من ذلك النوع من الأشخاص الذين يلفتون نظرك. ملابس أنيقة، لكنه لم يبدُ لي شخصاً يريد شراء شيء. في ذلك الوقت، كنتَ قد ذهبت لتناول طعام الغداء، وكان مايك في المتجر وحده... دخل ذلك الرجل وسأل: ثيودور بيكر؟ حسناً... قال له مايك إنك غير موجود. 'متى يعود'، طرح أسئلة كثيرة عنك: هل تعمل هنا، وهل تعيش هنا، ومنذ متى، وأين كنت، وتلك الأشياء كلها».

«وأين كان هوبي؟».

«لم يكن يريد هوبي. لقد سأل عنك أنت. وبعد ذلك... خرج من المتجر. ثم سار حوله. نظر هنا. نظر هناك. نظر في كل مكان. رأيت هذا من حيث كنت واقفاً، على الناحية الأخرى من الشارع. بدا لي الأمر غريباً. ومايك... لم يذكر لك مايك شيئاً عن هذه الزيارة لأنه قال إنها قد لا تعني أي شيء... قد يكون أمراً شخصياً، '*من الأفضل أن نبقى خارج الأمر*'. لكني رأيته أيضاً وقلت في نفسي إنك يجب أن تعرف. لأن... أنت تفهمني... أنا أعرف هذه الأنواع من الناس».

سألته: «كيف كان شكله؟...». وعندما لم يجبني غريشا، سألته من جديد... «كبير السن؟ ضخم؟ شعره أبيض؟».

قال غريشا معترضاً: «لا، لا، لا...». وراح يهز رأسه بقوة... «ليس رجلاً عجوزاً أبداً».

«فكيف كان شكله إذاً؟».

«كان شخصاً يجعلك مظهره لا تريد مقاتلته... هكذا كان شكله».

وفي الصمت الذي أعقب ذلك، أشعل غريشا سيجارة وقدم لي واحدة أيضاً: «إذاً، ما الذي يجب أن أفعله يا ماجور؟».

«عفواً؟».

«هل هنالك ما يستوجب قلقنا، أنا وجينكا؟».

قلت: «لا أظن ذلك. نعم...». ضربت كفي بكفه التي رفعها بحركة ظافرة... «لا بأس، لكن، هل أستطيع أن أطلب منك شيئاً؟ هل يمكن أن تناديني عندما ترى أي واحد من هذين الرجل مرة أخرى؟».

«بالتأكيد». ثم سكت ونظر إليَّ نظرة فاحصة... «هل أنت واثق من أن هذا ليس شيئاً يمكن أن يكون مقلقاً لنا، أنا وجينكا؟».

«حسناً، أنا لا أعرف ماذا تفعلان، أليس كذلك؟».

أخرج غريشا من جيبه منديلاً قذراً ومسح به أنفه المحمر: «لا تعجبني هذه الإجابة».

«حسناً... كيفما يكن الأمر، فمن الأفضل أن تظلا منتبهين، من باب الاحتياط».

«علي أن أقول لك الشيء نفسه يا ماجور».

4

لقد كذبت على كيتزي! لم يكن لديَّ شيءٌ أفعله. وقفنا أمام متجر *بارني* وتبادلنا قبلة وداع عند زاوية الشارع الخامس قبل أن تسير إلى *تيفاني* وتنظر إلى الكريستال ـ لم نكن قد وصلنا إلى قسم الكريستال في *تيفاني*. أما أنا فذهبت إلى محطة المترو. لكني أحسست بالفراغ والتشتت، وكنت متعباً ضائعاً غير مرتاح؛ وبدلاً من الانضمام إلى تيار

المتسوّقين النازلين سلم المحطة، توقفت لأنظر عبر واجهة مطعم *ساب واي* المتسخة فعاد بي الزمن، كأنما انزلق انزلاقاً، وحملني من حيث كنت أقف عند مدخل البضاعة في متجر *بلومينغ ديل*، ذلك المكان الذي كان باقياً مثلما ظهر في فيلم *«عطلة نهاية الأسبوع الضائعة»*، أيام كان أبي مدمناً على الشراب. في الخارج: مصابيح نيون على طريقة أفلام الجرائم. وفي الداخل: الجدران الحمراء المتّسخة نفسها، والطاولات الدبقة، وبلاطات الأرضية المكسورة، ورائحة *كلوركس* قوية، وعامل بار محدودب على كتفه خرقة وقد وقف يسكب الشراب لشخص وحيد منعزل محتقن العينين واقف عند البار. تذكّرت كيف أضعنا أبي ذات مرة؛ وتذكّرت كيف عرفت أمي ـ على نحو بدا لي غامضاً في ذلك الوقت ـ كيف تخرج من المتجر وتجتاز الشارع مباشرة فتجده هنا في البار يشرب أقداحاً (الواحد بأربعة دولارات) مع سائق شاحنة كبير السن له صوت كالصفير، وشخص آخر يضع عمامة بدا لي أنه متشرّد. وقفت عند الباب منتظراً وقد ملأت أنفي هبة من رائحة بيرة بائتة، وسحرتني ظلمة المكان الدافئة السرية، وذلك التألّق السحري لمصابيح آلة الموسيقى ولعبة '*صياد الدولارات*' ، التي لاحت لي من بعيد في أعماق المكان... «آه، رائحة الرجال العجائز ويأسهم!». قالت أمي هذه الكلمات بامتعاض شديد وقد كشّرت قليلاً وهي تخرج من البار حاملة أكياس التسوق، فأمسكت بيدي ومضينا معاً.

قدح ويسكي جوني ووكر بلاك، من أجل أبي. بل ربما قدحان. لم لا؟ بدت لي أعماق البار المظلمة دافئة مرحّبة... تلك الهالة الكحولية العاطفية التي تجعلك تنسى لحظةً من أنت وما الذي أتى بك إلى هذا المكان. لكني، في آخر لحظة، بعد أن خطوت داخلاً عبر الباب والتفتت عاملة البار في اتجاهي، استدرت خارجاً وتابعت السير.

جادة *ليسينغتون*. ريح رطبة. كانت أمسية مسكونة بالأشباح، مسكونة

بالرطوبة. سرت حتى عبرت موقف الباص في الشارع رقم واحد وخمسين، ثم موقف الشارع رقم اثنين وأربعين. لكني تابعت السير حتى يصفو رأسي. بنايات سكنية بيضاء بلون الرماد. جموع الناس في الشارع، وأشجار عيد الميلاد المنارة تتألّق عالياً على شرفات البيوت، وموسيقى عيد الميلاد الواثقة من نفسها تسبح خارجة من المتاجر فتنتشر أمواجاً بين الناس. كان لديَّ إحساس غريب بأنني قد مت وبأنني أسير على رصيف ماديٍّ متّسع كثيراً، رصيف لا يستوعبه الشارع، ولا حتى المدينة نفسها... روحي منفصلة عن جسدي تطفو في الضباب بين أرواح أخرى في مكان ما، بين الماضي والحاضر، سِر، **لا تسِر**[1]، مشاة يعودون أفراداً على نحو غريب منعزل وحيد أمام عيني، ووجوه خاوية في آذانها سماعات، تنظر أمامها مباشرة، وتتحرك شفاهها من غير صوت، وضجيج المدينة يأتي مكتوماً أبكم تحت سماوات ضاغطة ساحقة بلون الغرانيت تخنق الأصوات المنبعثة من الشارع ومعها القمامة والصحف والإسمنت والمطر الخفيف... شتاء رماديٌّ وسخٌ، ثقيل كالسخم.

بعد أن نجحت في الهرب من البار، فكّرت في الدخول لحضور فيلم سينما ـ لعل الوحدة في دار العرض تصحّح حالتي! كنت في حاجة إلى صالة شبه خالية في أول المساء تعرض فيلماً قارَب نهاية فترة رواجه. لكني بلغت صالة العرض عند تقاطع الشارعين الثاني والثاني والثلاثين، وقد دار رأسي وبدأت ألهث لشدة البرد، وجدت أن عرض الفيلم البوليسي الفرنسي الذي أردت رؤيته قد بدأ، وبدأ معه أيضاً فيلم إثارة آخر. لم تكن قد بقيت إلا مجموعة من أفلام العطلات والأفلام الرومانسية التي لا يمكن احتمالها: ملصقات فيها عرائس مهلهلات، ووصيفات يتشاجرن، وأب مذعور في قبعة بابا نويل حاملاً في ذراعيه رضيعَيْن باكيَيْن.

كانت سيارات التاكسي قد بدأت تنصرّف في نهاية يوم عملها. وفي

---

(1) إشارة السير الخاصة بالمشاة.

الأعالي، على مسافة كبيرة فوق الشارع، في تلك الأمسية القاتمة، كانت المصابيح مضيئة في مكاتب منعزلة وفي أبراج سكنية. انعطفت مبتعداً، وتابعت السير في اتجاه قلب المدينة من غير أن تكون لديَّ فكرة واضحة عن وجهتي، أو عن السبب الذي جعلني أسير في ذلك الاتجاه. ومع سيري، كان لديَّ ذلك الإحساس ذو الإغراء الغريب... إحساسي بأنني أفكّك نفسي، بأنني أحلّها خيطاً بعد خيط، فتتساقط مني رُقَعي وأسناني، بينما كنت أجتاز الشارع رقم اثنين وثلاثين، وأطفو في خضمّ حشود الناس المنصرفين من أعمالهم، المتدحرجين من اللحظة التالية إلى اللحظة التي تليها.

تكرّرت القصة نفسها في صالة العرض الثانية التي وجدتها بعد عشرة أو اثنتي عشرة كتلة سكنية: كان فيلم المخابرات المركزية الأميركية قد بدأ، وكذلك بدأ فيلم حظيَ بمتابعة جديدة وكان يعرض سيرة ذاتية لسيدة بارزة من زمن الأربعينات. ساعة ونصف الساعة حتى يبدأ الفيلم البوليسي الفرنسي؛ وإذا لم أرِد مشاهدة فيلم عن مرض نفسي أو فيلم دراما عائلية حزينة (لم أكن أريد ذلك)، فليس أمامي غير المزيد من أفلام العرائس وحفلات العازبين وقبعات بابا نويل، وأفلام الرسوم المتحرّكة أيضاً!

سرت بعد ذلك إلى صالة سينما في الشارع السابع عشر، لكني لم أتوقف عند مدخلها، بل تابعت السير. على نحو ما... على نحو غامض غير مفهوم، خلال اجتيازي يونيون سكوير وقد غرقت في دوامة قاتمة أصابتني من حيث لا أدري، توصلت إلى قرار: سأتصل بجيروم! وجدت في تلك الفكرة فرحة باطنية غامضة... إفناءً طُهرياً للذات. هل سيتمكّن من تأمين أدوية مخدرة في خلال هذا الوقت القصير، أم سيكون عليَّ أن أشتري المخدرات الشعبية المعتادة؟ ما كنت مبالياً بذلك. شهور مضت منذ آخر مرة؛ لكن... ومهما يكن سبب ذلك، كانت فكرة قضاء الأمسية غائباً عن وعيي في غرفتي في بيت هوبي قد بدأت تبدو لي أشبه برد

منطقي تماماً على أنوار عيد الميلاد، وزحام عيد الميلاد، وعلى أجراس عيد الميلاد المتواصلة ذات النغمات الجنائزية المريضة، وكذلك على دفتر ملاحظات كيتزي الوردي الذي اشترته من مكتبة كيت ووضعت فيه لصاقات كتبت عليها: **الوصيفات؛ المدعوون؛ ترتيب الجلوس؛ الأزهار؛ النُدل؛ قائمة التحقق؛ توريد الطعام والشراب.**

تراجعت سريعاً ـ كانت إشارة السير قد تغيّرت، وكدت أخطو أمام سيارة قادمة ـ ترنحت وأوشكت على السقوط. لم يكن هناك أي معنى لاستسلامي أمام خوفي غير المنطقي من إقامة حفل زفاف كبير ـ الأماكن المغلقة، ورهاب الأماكن المغلقة، والحركات المفاجئة، وأشياء في كل مكان قادرة على إطلاق نوبات الذعر عندي... لسبب من الأسباب، لم يكن المترو يزعجني بقدر ما تزعجني الأبنية المزدحمة... أتوقّع دائماً حدوث شيء... نفثة دخان... ورجل يجري سريعاً عند أطراف حشد الناس! ما كنت لأطيق حتى أن أكون في صالة عرض سينما إذا احتوت على أكثر من خمسة عشر شخصاً... أفرّ هارباً بعد دفع ثمن البطاقة وأخرج إلى الشارع. لكن، لست أدري كيف حدث ذلك... كان ذلك الزفاف في كنيسة مزدحمة قد نبت من حولي كأنه تجمع مفاجئ للناس. سوف أبتلع بضعة أقراص *كزاناكس* حتى أستطيع تحمّل الأمر.

ومن ثم: كنت آمل أن ينتهي هذا الهدير الاجتماعي المتصاعد الذي وجدت نفسي عالقاً فيه كأنني في قارب وسط إعصار؛ سيهدأ بعد الزفاف لأن ما كنت أريده حقاً هو العودة إلى أيام السكينة التي عشتها في الصيف عندما كانت كيتزي كلّها لي: نتناول العشاء وحدنا، ونشاهد الأفلام في السرير. كانت الدعوات واللقاءات المتواصلة ترهقني كثيراً: دوامات لامعة من أصدقائها وصديقاتها، وأمسيات مزدحمة، وعطلات نهاية أسبوع محمومة، كنت أترنح فيها وأغمض عينيَّ وأتمسك بأي شيء كأنني أريد إنقاذ حياته: لينزي؟ لوري؟ آسف... وهذه...؟ فريدا؟ مرحباً

يا فريدا... تريف؟ تراف؟ سعيد برؤيتك! كنت أقف متأدّباً بالقرب من طاولاتهم التقليدية الريفية، وأشرب إلى أن أصل إلى حالة من الخدر بينما يتحدّثون من حولي عن بيوتهم الريفية ومجالس إدارة جمعياتهم ومناطقهم التعليمية وأنظمتهم الرياضية ـ هذا صحيح... تحوّل سلس من الإرضاع الطبيعي، على الرغم من أن لدينا تغيّرات كبيرة في مواعيد النوم في الفترة الأخيرة؛ بدأ العدد الأكبر الذهاب إلى الحضانة... أيام الخريف مدهشة في ولاية كونيكتيكت، أوه، بالطبع، إن لدينا جميعاً رحلتنا السنوية مع الفتيات، لكنك سمعت عن رحلات الشباب فقط التي نقوم فيها مرتين في السنة إلى بلدة *فيل* في ولاية *كولورادو*، بل حتى إلى البحر الكاريبي. وفي السنة الماضية ذهبنا لممارسة الصيد بالصنارة في اسكوتلندة، وزرنا ملاعب غولف متميزة فعلاً... لكن، أوه، صحيح يا ثيو! أنت لا تلعب الغولف، ولا تتزلج، ولا تمارس رياضة الإبحار بالقوارب، أليس كذلك؟

«آسف فأنا لا أمارس هذه الهوايات». كانت عقلية تلك المجموعة (نكات وفكاهات خاصّة بهم؛ والجميع متحلّق حول مقاطع العطلات في الآيفون) من النوع الذي يجعل من الصعب أن يتخيّل المرء واحداً منهم ذاهباً إلى السينما وحده، أو جالساً يتناول الطعام بمفرده على البار؛ وفي بعض الأحيان، كانت روح المجاملة الدمثة، بين الرجال خاصة تشيع في نفسي إحساساً بأنني في مقابلة للحصول على وظيفة. وأيضاً... تلك النساء الحبالى كلهنَّ!؟ «أوه، ثيو! أليس رائعاً!». كانت كيتزي تقول هذا وهي تدفع صوبي طفل إحدى صديقاتها المولود حديثاً فأقفز إلى الخلف بذعر حقيقي صادق كما لو أن أحداً أشعل عود ثقاب أمام وجهي.

قال لي ريس بولدفارب بنبرة رضا تام عن نفسه بعد أن لاحظ عدم ارتياحي: «أوه، يستغرق الأمر بعض الوقت لدينا، نحن الرجال، أحياناً...». ارتفع صوت بكاء الطفل وهو يتجه إلى زاوية غرفة المعيشة تشرف عليها مربية أطفال... «لكن، دعني أقول لك يا ثيو إنك، عندما

تحمل ابنك أو ابنتك بين ذراعيك للمرة الأولى...». ربت على بطن زوجته الحبلى... «فسوف تحسّ كما لو أن قلبك قد انكسر قليلاً. أقول لك هذا لأنني، عندما رأيت بلين الصغير أول مرة...». (وجه دبق، يترنّح سائراً عند قدمي أبيه ـ شيء غير جذاب)... «وحدّقت في هاتين العينين الزرقاوين الكبيرتين، في هاتين العينين الحلوتين... أصابني تحوّل تام. لقد وقعت في الحب. كان ذلك كأنه يقول لي: مرحباً يا صاحبي، هل أنت هنا لتعلّمني كل شيء؟ وأنا أقول لك إن تلك الابتسامة الأولى جعلتني أذوب تماماً، مثلما نذوب جميعاً، ألم يحدث هذا يا لورين؟».

قلت بأدب: «صحيح، صحيح»، ثم ذهبت إلى المطبخ فسكبت لنفسي كأساً كبيرة من الفودكا. كانت لدى أبي أيضاً حساسية مفرطة تجاه النساء الحوامل (الحقيقة أنه طرد من الملهى نتيجة ملاحظاته وعباراته التي تجاوزت الحدود المقبولة... تلك النكات الإنجابية التي لم تلقَ قبولاً حسناً في الملهى). وعلى النقيض تماماً من حكمة «ذوبان الآباء» التقليدية، لم تكن لديه أية قدرة على تحمّل الأطفال أو الرضّع، ولا على أداء مشهد الأب الشغوف بطفله، ولا كان قادراً على تقبل ابتسامات النساء الغبية وهن يتحسسن بطونهن، ولا منظر الرجال الذين يحملون أطفالهم الرضع على صدورهم. كان يذهب إلى الخارج ليدخن، أو ينسحب مظلم الوجه إلى الهوامش كلما أجبر على حضور أية مناسبة مدرسية، أو حفلة للأطفال فيبدو كأنه بائع مخدرات وجد نفسه في ذلك المكان من غير قصد. وكان من الواضح أنني ورثت هذا الأمر عنه؛ بل لعل جدي بيكر كان كذلك أيضاً ـ من يدري؟ ـ كان هذا النفور العنيف من كل ما يتعلّق بإنجاب الأطفال يجري في دمي، وكنت أحسه أمراً فطرياً، وراثياً، مزروعاً في داخلي.

أومأت برأسي مودعاً في الليل. هوبي: نعمة حقيقية بربطة عنق سوداء! لا، شكراً يا هوبي؛ لقد أكلت، وأظنني سأجلس في السرير لأقرأ.

يا للأشياء التي يتحدّث هؤلاء الناس عنها، حتى الرجال! جعلني التفكير في تلك الليلة في بيت غولدفاربز شديد الرغبة في تناول أي نوع من المخدرات، حتى صرت عاجزاً عن السير في خط مستقيم.

مع اقترابي من منطقة *آستور بليس* ـ عازفو طبول أفريقية، وسكارى يتجادلون، وغيوم من البخور صادرة عن أحد البائعين في الشارع ـ أحسست بأن روحي تعود إلي. من المؤكد أن قدرتي على تحمل المخدرات قد انخفضت كثيراً: هذه فكرة سارّة! يكفيني قرص في الأسبوع، أو قرصان، حتى أصير قادراً على الثبات في أسوأ تلك المناسبات الاجتماعية... ولن أتناولها إلا عندما أكون في حاجة حقيقية إليها، في حاجة حقيقية! لقد صرت أشرب بدلاً من تناول الأقراص، صرت أشرب كثيراً؛ وما كان ذلك يساعدني. عندما أتناول المخدرات، أصير مسترخياً، متسامحاً، قادراً على احتمال الآخرين، قادراً على كل شيء، بل قادرٌ حتى على الوقوف مبتهجاً عدة ساعات في أوضاع لا تُطاق، فأستمع إلى هراء مضجر أو سخيف من غير أن تنشأ لدي رغبة في السير إلى الخارج وإطلاق النار على رأسي.

لكني لم أتصل بجيروم منذ زمن طويل؛ وعندما دخلت أحد المتاجر حتى أتصل به، انتقل الاتصال مباشرة إلى البريد الصوتي ـ رسالة آلية لا تحمل طابع جيروم أبداً. هل غيّر رقم هاتفه؟ فكرت في هذا وقد بدأت أقلق بعد المحاولة الثانية. من الممكن لأشخاص مثل جيروم ـ حدث هذا مع جاك، قبله ـ أن يختفوا عن الخريطة على نحو مفاجئ تماماً حتى إذا كان المرء على اتصال منتظم بهم.

لم يعد لدي شيء أفعله فبدأت السير في شارع *سانت مارك* متجهاً إلى ساحة تومب كينز. لافتات: *مفتوح طيلة النهار وطيلة الليل؛ يجب أن تكون في الحادية والعشرين حتى تستطيع الدخول*... في قلب المدينة، بعيداً عن الزحام الشديد، صارت الريح أكثر برودة، لكن السماء صارت

أكثر انفتاحاً أيضاً، وصار التنفس أكثر سهولة. رجال مفتولو العضلات يسيرون مع كلاب صغيرة وفتيات يشبهن بيتي بيج[1] على أجسادهن وشوم كثيرة: فساتين هفهافة و... متسكعون لا عمل لهم ببنطلونات واسعة وأسنان مخيفة وأحذية مرقّعة. أمام المتاجر رفوف عليها نظارات شمسية وأساور من جماجم صغيرة، وشعر مستعار بألوان كثيرة من أجل المتحوّلين جنسياً. أعرف أن في هذه المنطقة مركزاً لإعطاء الحقن المخدرة، بل يمكن أن يكون فيها أكثر من مركز واحد. لكني لم أكن أعرف المكان. يشتري العاملون في وول ستريت ما يلزمهم من الشوارع ـ إذا صدقنا ما يقوله الناس ـ لكني لم أكن فطناً إلى الحد الكافي لكي أعرف أين يمكن أن أذهب أو من يمكن أن أسأل... ثم، من عساه يقبل أن يبيعني، أنا الغريب صاحب النظارة العظمية وقصة الشعر المميزة الشائعة في الضواحي الثرية، أنا صاحب الملابس الأنيقة التي ارتديتها حتى أذهب لانتقاء خزفيات الزفاف مع كيتزي؟

قلب مضطرب. فتيشية السرية. كان هؤلاء الناس يفهمون ـ مثلي ـ الأزقة الخلفية للروح، والهمسات والظلال والمال المنتقل من يد إلى أخرى. كلمة السر، والرمز، والذات الثانية، وكل وسائل المواساة الخفية التي تجعل الحياة ترتفع إلى ما فوق العادي، وتجعلها تستحق العيش.

توقّفت على الرصيف أمام مطعم سوشي رخيص حتى أستجمع شتات نفسي ـ كان جيروم قد أخبرني عن بار له مظلة حمراء بالقرب من *سانت مارك*، لعله في *الجادة آ*! كان يأتي دائماً من ذلك الاتجاه، أو يتوقف هناك في طريقه إلى لقائي. كانت عاملة البار تتولى التسليم من وراء طاولتها لمشترين لا يمانعون في دفع سعر مضاعف حتى لا يضطروا إلى الشراء من الشارع. وكان جيروم يقوم دائماً بتوصيل الطلبيات إليها.

---

(1) بيتي بيج: عارضة أميركية اشتهرت في الخمسينات بصورها المغرية التي كانت تطبع على ملصقات كبيرة، وصارت نموذجاً جمالياً استلهمه فنانون كثر.

بل إنني أتذكّر اسمها. إنه كاترينا! لكن كل واجهة في ذلك الحي كانت تبدو لي باراً.

سرت في الشارع جيئة وذهاباً أول الأمر؛ ثم دخلت أول بار رأيته على الرغم من أن لون المظلة التي أمامه لم يكن أحمر تماماً، بل لونٌ أصفر مريضٌ لوّحته الشمس... لعله كان أحمر ذات يوم. دخلت وسألت: «هل تعمل كاترينا هنا؟».

أجابتني فتاة البار ذات الشعر الأحمر الناري وهي تسكب كأس بيرة من غير حتى أن تنظر في اتجاهي: «لا».

سيدات أمامهن عربات تسوّق غفين واضعات رؤوسهن على مقابضها. وواجهات متاجر عليها صور متألّقة لمادونا وملصقات لـ«*يوم الموتى*». أسراب رمادية من حمام يخفق بأجنحته من غير صوت.

سمعت صوت رجل يقول في أذني: «تعرف أنك تفكر في الأمر، تعرف أنك تفكر في الأمر».

استدرت فوجدت رجلاً أسود ناضجاً ممتلئ الجسم، مبتسماً ابتسامة عريضة أبانت سناً ذهبية في فمه. دس الرجل بطاقة في يدي: فن الوشم.

ضحكت ـ ضحك الرجل أيضاً، ضحكة غنية ممتلئة. كأننا تشاركنا نكتة. وضعت البطاقة في جيبي وتابعت سيري. لكني ندمت بعد لحظة لأنني لم أسأله أين يمكنني أن أجد ما أبحث عنه. بدا لي شخصاً يعرف الإجابة، حتى لو لم يجبني.

وشم الأجساد. ووخز الأقدام بالإبر. لافتة: نشتري الذهب. ونشتري الفضة. أطفال كثيرون شاحبون، ثم فتاة ذات ضفائر، بعد مسافة ـ فتاة واقفة وحدها ـ معها كلب قذر ولوحة كرتونية قذرة لم أستطع قراءة ما كتب عليها. مددت يدي في جيبي باحثاً عن بعض النقود... بشيء من الإحساس بالذنب؛ لكن المحفظة التي أهدتني إياها كيتزي كانت شديدة الضيق، فوجدت صعوبة في إخراج أوراق نقدية منها. تابعت المحاولة

منتبهاً إلى أن كل من حولي كان ينظر إلي. ثم... «كفى!». صحت ورجعت خطوة إلى الخلف عندما زمجر كلبها وانقضّ علي فأطبق بأسنانه الشبيهة بالإبر على طرف بنطلوني من الأسفل.

ضحك الجميع ـ الأطفال، وبائع في الشارع، وطباخة جالسة على دكّة تتكلّم على هاتفها الخليوي وقد لفت رأسها بشبكة للشعر. انتزعت بنطلوني من فم الكلب ـ مزيد من الضحك ـ واستدرت فدخلت أول بار رأيته ـ حتى أهرب من الذعر الذي أصابني (مظلّة سوداء فيها مساحات حمراء) ـ قلت لعامل البار: «هل تعمل كاترينا هنا؟».

توقّف الرجل عن تجفيف كأس كانت في يده: «كاترينا؟».

«أنا من أصدقاء جيروم».

«كاترينا؟ هل تقصد كاتيا؟». كان الأشخاص الجالسون إلى البار قد صمتوا ـ أوروبيون شرقيون.

«ربما».

«وما اسم عائلتها؟».

«ممم...».

كان أحد الرجال الجالسين عند البار ـ في سترة جلد ـ قد استدار في اتجاهي خافضاً رأسه محدّقاً بطريقة ذكرتني ببيلا لوغوسي[1].

حدّجني عامل البار بنظرة ثابتة: «هذه الفتاة التي تسأل عنها... ما الذي تريده منها؟».

«حسناً، في الواقع، أنا...».

«ما لون شعرها؟».

«أوه ـ أشقر. أو، في الواقع...».

كان واضحاً من تعبير وجهه أنني موشك على أن يُرمى بي في الخارج، أو أسوأ من ذلك... أبصرت عيناي مضرب غولف كبيراً خلف البار...

---

(1) بيلا لوغوسي: ممثل مجري ـ أميركي اشتهر بلعب شخصية الكونت دراكولا سنة 1931.

«يبدو أنني أخطأت. انسَ الأمر». خرجت من البار وسرت في الشارع مسافة لا بأس بها عندما سمعت صيحة من خلفي: «بوتر!».

تجمّدت في مكاني عندما سمعت ذلك الصوت من جديد. ثم استدرت غير مصدق. كنت لا أزال واقفاً غير قادر على تصديق عيني، وكان الناس يمرّون بنا من الجانبين... ضحكَ واندفع إليَّ فطوقني بذراعيه.

«بوريس!». حاجبان أسودان مدببان، وعينان سوداوان فرحتان. صار أكثر طولاً، وصار وجهه أكثر نحولاً: معطف أسود طويل، والندبة القديمة نفسها فوق عينه، إضافة إلى ندبتين جديدتين... «واو!».

«واو لك أنت أيضاً!». أبعدني عنه، على طول ذراعه... «ها! ها أنت أخيراً... بعد زمن طويل!».

كنت مصعوقاً بهذه المفاجأة فوجدت صعوبة في الكلام: «أنا... ماذا تفعل هنا؟».

«أنا من يجب أن يسألك...». تراجع خطوة إلى الخلف وألقى عليَّ نظرة فاحصة سريعة أخرى، ثم أشار بيده إلى الشارع كما لو أنه شارع يخصّه... «ماذا تفعل أنت؟ ولمن أنا مدين بهذه المفاجأة؟».

«ماذا؟».

«لقد توقّفت أمام متجرك منذ أيام! حتى أراك». قال هذا وهو يزيح الشعر عن وجهه.

«هل كان ذلك أنت؟».

«ومن غيري؟».

«كيف عرفت أين تجدني؟». هززت رأسي غير مصدّق.

نظر إليَّ بدهشة وسألني: «ألم تكن تبحث عني؟ لا؟ هل هذه مصادفة؟ مثلما تتلاقى سفينتان في البحر؟ مدهش! ولماذا وجهك شاحب هكذا؟».

«ماذا؟».

«يبدو شكلك رهيباً!».

«اللعنة عليك».

طوَّق رقبتي بذراعه... «آه، بوتر، بوتر... ما هذه الدوائر السوداء؟». مر بإصبعه تحت عيني... «لكن بدلتك جميلة. وأيضاً...». تركني ونقر بإصبعه على صدغي... «لا تزال هذه النظارات نفسها على وجهك، ألم تغيّرها؟».

«أنا...». لم أجد شيئاً أقوله فاكتفيت بهز رأسي نفياً.

رفع يديه وقال: «ماذا؟ هل تلومني على سعادتي برؤيتك».

ضحكت. لم أعرف من أين أبدأ. قال: «هل يعني هذا أنك لست غاضباً مني؟ هل يعني هذا أنك لا تكرهني إلى الأبد؟».

صحيح أنه لم يكن مبتسماً، لكنه كان يعض على شفته السفلى بحركة مازحة. أشار برأسه في اتجاه الشارع... «أنت لا تريد... ألا تريد أن تقاتلني، أو شيئاً من هذا القبيل؟».

«مرحباً!». كان هذا صوت امرأة رشيقة، فولاذية العينين، رشيقة الردفين في بنطلون من الجينز الأسود. تقدّمت فوقفت إلى جانب بوريس على نحو مفاجئ وبطريقة جعلتني أظنها صديقته أو زوجته.

قالت وهي تمد يداً بيضاء اصطفت خواتم فضية على أصابعها: «بوتر الشهير! سعيدة بلقائك. لقد سمعت عنك الكثير...». كانت أطول منه بقدر بسيط، ولها شعر طويل وجسد أنيق ممشوق مكتسٍ بالسواد كلّه، كأنها ثعبان... «أنا ميريام».

«ميريام؟ مرحباً! أنا ثيو بالفعل».

كانت يدها باردة في يدي؛ ولاحظت نجمة خماسية زرقاء موشومة على باطن معصمها: «أعرف هذا. لكنه يذكّرك دائماً باسم بوتر».

«يذكّرني دائماً، حقاً؟ فماذا يقول؟».

لم ينادني أحد باسم بوتر منذ سنين طويلة، لكن صوتها الناعم أعاد إلى ذهني كلمة منسية من تلك الكتب القديمة، من لغة الأفاعي والسحالي الداكنة: *بارسيلتونغ*[1].

---

(1) بارسيلتونغ: لغة الثعابين والكائنات الأخرى التي تشبهها في رواية هاري بوتر لـ ج. ك. رولينغ.

كان بوريس قد أفلتني عند اقترابها بعد أن كانت ذراعه على كتفي؛ كأنما كان ذلك بفعل إشارة أو كلمة سر. سرت نظرة سريعة بيننا ـ نظرة لها ذلك الثقل الذي أحسسته به على الفور لأنني أعرفه منذ أيام كنا نسرق من المتاجر، أيام كنا قادرين على قول *فلنذهب*، أو *ها هو قادم* من غير أن ننطق كلمة واحدة ـ وبدا على بوريس شيء من الاضطراب جعله يمرر أصابعه في شعره وينظر إليَّ نظرة متمعّنة.

سألني وهو يتراجع خطوة: «هل ستكون هناك؟».

«هناك، أين؟».

«أعني في هذا الحي».

«هذا ممكن».

أريد أن...». توقف، وتغضّن حاجباه ونظر من فوق رأسي في اتجاه الشارع... «أريد أن أكلمك، لكن الآن...». بدا عليه القلق... «ليس الآن، ربما بعد ساعة، فما رأيك؟».

التفتت ميريام في اتجاهي وقالت شيئاً باللغة الأوكرانية. تبادلا بضع عبارات. ثم شبكت ميريام ذراعها بذراعي بحركة ودية حميمة إلى حد غريب وسارت بي في الشارع.

قالت وهي تشير بيدها: «هناك. اذهب في هذا الاتجاه... أربع كتل سكنية، أو خمس كتل. ستجد باراً بعد الشارع الثاني. بار بولندي قديم. سوف يأتي إليك هناك».

5

مرت ثلاث ساعات تقريباً، وكنت لا أزال جالساً في مقصورة لها أرضية حمراء من الفينيل في البار البولندي: أنوار عيد الميلاد المتلألئة، وخليط مزعج من أغاني الروك الفاسقة وموسيقى عيد الميلاد البولندية منبعث من آلة التسجيلات الموسيقية. ضجرت من الانتظار ومن التساؤل عمَّ إذا كان سيأتي أم لا؛ وصرت أحدّث نفسي بأن عليَّ الذهاب إلى البيت. لم أحصل

حتى على عنوانه أو رقمه. جرى الأمر كله بسرعة كبيرة. في الماضي، كنت قد بحثت عن بوريس كثيراً عبر غوغل فلم أجد شيئاً على الإطلاق؛ لكني لم أتصور حقيقة أن بوريس يمكن أن يكون له أي نوع من الحياة التي أستطيع تتبعها على الإنترنت. من الممكن أن يكون في أي مكان، وأن يفعل أي شيء: يمسح الأرض في أحد المستشفيات، أو يحمل بندقية في بعض الأدغال في بلد أجنبي، أو يلتقط أعقاب السجائر من الشارع.

كانت قد اقتربت نهاية «الساعة السعيدة»، فترة الأسعار المخفضة في البار. وكان بضعة أشخاص يبدو أنهم طلاب وفنانون يتقاطرون على البار، ويتوزّعون بين رواده البولنديين البدناء المتقدّمين في السن، وبين عاهرات مستهلَكات صرن في الخمسين من أعمارهن. أنهيت كأس الفودكا الثالثة. كانت كؤوس الفودكا المقدّمة هنا كبيرة، وكان من الحماقة أن أطلب كأساً أخرى. لم أشعر بالجوع على الرغم من معرفتي بأن عليَّ أن آكل شيئاً. وكان مزاجي يزداد قتامة مع كل لحظة تمر. كان تفكيري في أنه تجاهلني بعد هذه السنين كلها أمراً محبطاً، محزناً إلى حدٍّ لا يصدَّق. لو أردت التفلسف لقلت إنني، على الأقل، قد انشغلت عن مهمة البحث عن المخدرات: لم أتناول جرعة زائدة، لم ينته بي الأمر إلى التقيؤ في حاوية قمامة ما، ولم يسلبني أحد مالي، لم أعتقل لمحاولتي شراء مخدرات من شرطي متخفٍّ.

«بوتر». ها قد أتى! رأيته يشق طريقه قادماً في اتجاهي وينتر رأسه ليزيح شعره عن وجهه بتلك الحركة التي استحضرت الماضي كله.

«كنت موشكاً على الذهاب».

«أنا آسف». الابتسامة القذرة الساخرة نفسها... «كان لدي شيء لا بد من إنجازه. ألم تشرح لك ميريام».

«لم تشرح شيئاً».

«حسناً. لست كمن يعملون في مكتب للمحاسبة. انظر...». قال لي

هذا وهو يميل إلى الأمام باسطاً كفيه على الطاولة... «لا تغضب! لم أكن أتوقّع مصادفتك هكذا! جئت بأسرع ما استطعت! لقد جئت جرياً في حقيقة الأمر». مد يده عبر الطاولة وصفعني بلطف على خدي... «يا ربي! يا له من زمن طويل! سعيد لأنني رأيتك! ألست سعيداً برؤيتي أيضاً؟».

لقد صار وسيماً. حتى في لحظات الحماقة والسكر، كانت فيه دائماً تلك الفطنة المحببة: عينان متقدتان حياة، وذهن ذكي حادّ؛ لكنه فقد تلك الفجاجة شبه الجائعة، فاجتمع كل ما عداها على النحو الصحيح. كان أثر الطقس واضحاً على جلده، لكن ثيابه بدت أنيقة عليه. وكانت تقاطيعه حادة وعصبية كأنه فارس بطل، أو عازف بيانو في فرقة موسيقية؛ وأسنانه الرمادية الصغيرة غير المنتظمة... حلّت محلها أسنان بيضاء نموذجية. رآني أنظر إليه فنقر على أسنانه بظفر يده: «أسنان جديدة».

«لاحظت هذا».

قال بوريس وهو يشير بيده إلى النادل: «إنها من صنع طبيب أسنان في السويد. كلّفتني ثروة. ظلت زوجتي تلح عليَّ... بوريا، فمك، هذا معيب! قلت لها إن من المستحيل أن أفعل هذا؛ لكنه كان أحسن ما أنفقت عليه مالاً في حياتي كلها».

«متى تزوّجت؟».

«ماذا؟».

«كان من الممكن أن تأتي بها معك، إن أحببت».

بدت عليه المفاجأة: ماذا؟ هل تعني ميريام؟ لا، لا». مد يده إلى جيبه وأخرج هاتفه... «ميريام ليست زوجتي! هذه...». ناولني الهاتف... «هذه هي زوجتي. ما الذي تشربه؟». ألقى هذا السؤال قبل أن يلتفت إلى النادل ويكلمه باللغة البولندية.

نظرت إلى الهاتف فرأيت صورة بيت جبلي تراكم الثلج فوقه؛ وأمامه امرأة شقراء جميلة على لوح تزلج. وإلى جانبها ـ على لوحَيْ تزلج أيضاً

ـ رأيت طفلين صغيرين أشقرين في ملابس ثقيلة، لكن جنسهما لم يكن واضحاً. لم تبدُ لي صورة ملتقطة بالهاتف، بل إعلانٌ عن منتج سويسري صحّي ما: لبن رائب أو وجبة جاهزة من الشوفان.

رفعت رأسي ونظرت إليه بدهشة. أشاح بوجهه عني، بحركته الروسية القديمة التي تعني: نعم، حسناً، هكذا هي اللعبة.

«زوجتك؟ هل أنت جاد في هذا؟».

رفع حاجبيه وقال: «نعم... هذان طفلاي أيضاً. توأمان».

«غريب!».

قال بنبرة ندم: «نعم. ولدا عندما كنت في سن صغيرة جداً... أصغر مما يجب. لم يكن وقتاً مناسباً... لقد أرادت الاحتفاظ بهما... ’*بوريا*، *كيف يمكن أن تقول هذا الشيء؟*‘ . فماذا أفعل؟ وإذا أردت الصدق، فأنا لا أعرفهما جيداً. والحقيقة أن طفلي الصغير ـ هو ليس في الصورة ـ الحقيقة أنني لم أره بعد. أظنه لا يزال... كم عمره؟ ستة أسابيع!».

«ماذا؟». نظرت إلى الصورة من جديد محاولاً إيجاد صلة بين بوريس وهذه الأسرة السويدية تماماً... «هل أنتما مطلقان؟».

«لا، لا، لا...». وصلت الفودكا؛ دورق بارد مع قدحين صغيرتين جداً. بدأ بوريس يسكب، لكل منا قدحاً... «غالباً ما تكون أستريد مع الأطفال في *ستوكولهم*. وأحياناً تأتي إلى *آسبن* في الشتاء لكي تتزلج على الثلجـ كانت بطلة تزلج، وتأهلت للألعاب الأولمبية عندما كانت في التاسعة عشرة من عمرها».

«أوه، حقاً!!!». قلت هذا وأنا أبذل جهداً كبيراً لكي لا أبدو غير مصدق ما يقوله لي. بعد التمعّن في الصورة جيداً، كان واضحاً لي أن الطفلين أكثر شقرة بكثير، وأكثر جمالاً، من أن تكون لهما أية صلة ببوريس، ولو من بعيد.

قال بوريس بنبرة جادة مخلصة تماماً مع إيماءة تأكيد من رأسه: «نعم،

نعم. إنها تحرص دائماً على الذهاب حيث تتوفر إمكانية للتزلج... وأنت تعرفني، وتعرف كم أكره الثلج، ها! أبوها يميني متشدّد كثيراً ـ إنه نازي في الأساس. أظن... لا عجب في أن آستريد تعاني مشكلات اكتئابية بسبب والدها. يا له من عجوز كريه قبيح! لكنهم شعب حزين بائس، كلهم، أولئك السويديون! تراهم في لحظة يضحكون ويشربون، وفي اللحظة التالية ظلام... ولا كلمة واحدة! دجيكويي[1]». قالها للنادل الذي ظهر حاملاً صينية فيها أطباق صغيرة: خبز أسود، وسلطة بطاطس، ونوعان من سمك الرنجة، وخيار مع صلصة حامضة، وملفوف مخلل، وبيض مخلل.

«لم أكن أعرف أنهم يقدمون الطعام هنا». قال بوريس وهو يضع بعض الزبدة على قطعة خبز أسود، ثم يرش عليها ملحاً: «إنهم لا يقدمون الطعام. لكني في غاية الجوع. طلبت منهم أن يأتوا بشيء من المطعم المجاور». قرع قدحه بقدحي وقال: «ستو لات[2]!»... نخبه القديم.

«ستو لات». كانت الفودكا معطرة منكّهة بعشبة مرة لم أستطع تحديد نوعها.

بدأت أتناول الطعام معه. قلت: «إذاً... ميريام؟».

«ماذا؟».

بسطت راحتَي يديّ... إشارتنا الطفولية: *أوضح من فضلك!*

«آه، ميريام! إنها تعمل عندي! يمكنك القول إنها ساعدي الأيمن. لكن أقول لك إنها أحسن من أي رجل يمكن أن تعثر عليه. يا لها من امرأة؛ يا إلهي! أؤكد لك أن أمثالها قليلات؛ تعادل وزنها ذهباً». قال هذا وهو يعيد ملء القدحين ويعيد قدحي في اتجاهي. رفع القدح... «*ذا فيستري ثو... نخب لقائنا!*».

«إنه دوري لكي أرفع نخباً!».

---

(1) دجيكويي: شكراً بالبولندية.

(2) ** ستو لات: مئة عام بالبولندية.

قرع قدحه بقدحي: «صحيح، إنه دورك... لكني جائع، وأنت بطيء جداً».

«إذاً... نخب لقائنا».

«نخب لقائنا! ونخب الحظ أيضاً!... الحظ الذي جمعنا من جديد».

بعد أن شربنا ذلك النخب، انقض بوريس على الطعام انقضاضاً، لكني سألته: «ما العمل الذي تقوم به، بالضبط؟».

أجابني وهو مستمر في الأكل بأسلوبه الطفولي الجائع البريء: «هذا وذاك؛ أشياء كثيرة. أتدبر أمري».

سألته عندما لم يجبني: «وأين تعيش؟ في *ستوكهولم*؟».

لوح بيده في كل اتجاه: «في كل مكان».

«مثلاً؟».

«أوه، أنت تعرف، أوروبا، آسيا، أميركا الجنوبية، وأميركا الشمالية، هذا يشتمل على مناطق واسعة جداً». ثم قال بفم مليء بالرنجة وهو يمسح عن ذقنه قطرة صلصة: «حسناً... إنني أيضاً مالك لشركة صغيرة، إن كنت تفهم ما أريد قوله».

«عفواً، ماذا؟».

ابتلع اللقمة التي كانت في فمه مع جرعة كبيرة من البيرة: «تعرف كيف يكون هذا. عملي الرسمي يحمل اسم مؤسسة لتنظيف البيوت. معظم عمالي من بولندا. إنها لعبة كلمات ظريفة أيضاً... 'خدمة تنظيف بولندية'... أرأيت هذا؟...». قضم بيضة مخللة... «فما هو شعار الشركة؟ هل تستطيع أن تحزر؟... '*نحن ننظفكم تماماً*'، ها! ما رأيك؟»[1].

قررت أن أتغاضى عن هذا: «هل تعني أنك كنت في الولايات المتحدة طيلة هذه الفترة؟».

---

(1) خدمة تنظيف بولندية (Polish Cleaning Service). تحمل كلمة Polish معنيين: بولندي ويلمّع، أو تلميع.
وأما شعار الشركة فمن الممكن أن يفهم أيضاً على النحو التالي: نحن نسلبكم مالكم.

«أوه، لا!». كان قد سكب لكل منا قدح فودكا جديداً. رفع كأسه وقال: «أسافر كثيراً. إنني هنا منذ... أكون هنا مدة... ستة أو ثمانية أسابيع في السنة. وخلال بقية الوقت...».

«روسيا؟». قلت هذا وأنا أبتلع ما في قدحي وأمسح فمي بظاهر يدي.

«لا أذهب كثيراً إلى روسيا. شمال أوروبا. السويد. بلجيكا، ألمانيا أحياناً».

«ظننت أنك عدت إلى روسيا».

«ماذا؟».

«لأنك... حسناً... لأنني لم أسمع عنك شيئاً».

دعك بوريس أنفه بحركة موحية بالخجل: «آه... كان زمناً مضطرباً. هل تتذكّر بيتك... تلك الليلة الأخيرة؟».

«بالطبع».

«حسناً. لم أر هذه الكمية من المخدرات في حياتي كلها. كانت قرابة نصف أونصة من الكوكايين. لم أبع منها شيئاً، ولو حتى ربع غرام. لقد وزعت الكثير، بالتأكيد ـ صرت صاحب شعبية كبيرة في المدرسة، أحبني الجميع، لكن القسم الأكبر من الكمية استنشقته بأنفي هذا. ثم، تلك المظاريف الصغيرة التي وجدناها ـ أقراص من مختلف الأنواع. هل تتذكّرها؟ تلك الأقراص الخضراء الصغيرة؟ إنها دواء شديد المفعول من أجل مرضى السرطان في مراحله الأخيرة، قبل الموت. لا بد أن أباك كان مدمناً إدماناً جنونياً إذ كان يتناول تلك الأقراص».

«نعم، أعرف، لقد تناولت بعضها أيضاً».

«لا بأس، أنت تعرف إذاً! لم يعودوا يصنعون هذه الأقراص الخضراء الحلوة! صارت لديهم الآن أدوية ’*تهزم المدمنين*‘ بحيث لا يمكنك ابتلاعها أو شمها بعد سحقها. لكن والدك! ترك الشرب وبدأ يتناول تلك الأقراص؟ من الأفضل أن يكون المرء ثملاً في الشارع. عندما تناولت

أول قرص منها، فقدت الوعي قبل أن أفلح في قول جملتين فقط. لو لم تكن كوتكو موجودة آنذاك... بف». مرّ بإصبعه على رقبته.

تذكّرت حالة النشوة الغبية التي أصابتني وأنا منقلب على وجهي فوق طاولة المكتب في الطابق العلوي في بيت هوبي.

تجرّع بوريس قدحه دفعة واحدة، ثم صب الفودكا لنا من جديد: «على أية حال، كساندرا كانت تبيع هذه الأشياء. لا أقصد تلك الأقراص الخضراء، فقد كانت لأبيك. كانت من أجل استعماله الشخصي. وأما الأقراص الأخرى فقد كانت تبيعها حيث كانت تعمل. هل تتذكّر ذلك الزوج ستيوارت وليزا اللذين كان مظهرهما أشبه بمظهر من يعملون في عالم العقارات؟ لقد كانا يغطيانها مالياً».

وضعت شوكتي من يدي: «وكيف تعرف هذا؟».

«لأنها أخبرتني! أظنهما صارا سيئين معها عندما لم يعد لديها شيء. كانا في غاية اللطف معها، جاءا إلى بيتها، وربتا على رأسها... ʼ *ما الذي نستطيع أن نفعله من أجلك؟*ʻ ؛ ʼ *مسكينة كساندرا!*ʻ ... ʼ *نحن حزينان من أجلك*ʻ ؛ ثم اختفت مخدراتهما! اختلف الأمر تماماً! عندما أخبرتني انتابني شعور سيئ حقاً بسبب ما فعلناه. كانت مشكلة كبيرة لها! لكن، في ذلك الوقت...». أشار إلى أنفه... «كان كله قد صار هنا. انتهى!».

«انتظر... هل أخبرتك كساندرا بهذا؟».

«نعم، هي من أخبرتني، بعد رحيلك. أخبرتني عندما كنت أعيش هناك، معها».

«أريدك أن تحكي لي أكثر».

تنهد بوريس وقال: «حسناً، لا بأس. إنها قصة طويلة، لكننا... لم ير أحدنا الآخر منذ زمن بعيد، أليس كذلك».

«هل قلت إنك عشت مع كساندرا؟».

«أنت تعرف كيف، عندها وليس عندها. أظنني أمضيت هناك أربعة

أو خمسة أشهر. كان ذلك قبل انتقالها إلى مدينتها الأصلية، رينو. فقدت اتصالي بها بعد ذلك. كان أبي قد سافر عائداً إلى أستراليا... هل ترى كيف كان الأمر، وكوتكو أيضاً سافرت؛ وبقيت من غير أحد...».

«لا بد أن ذلك كان صعباً جداً».

قال متململاً: «حسناً، إلى حد ما»... استند إلى مقعده وأشار إلى النادل من جديد... «هل رأيت؟ كنت في حالة سيئة حقاً. بقيت مستيقظاً عدة أيام. تعرف كيف يكون الأمر عندما تفرط في تناول الكوكايين... شيء مخيف! كنت وحيداً؛ وكنت مذعوراً حقاً. تعرف كيف يكون ذلك الإحساس بالغثيان في روحك ـ أنفاس سريعة ومخاوف كثيرة ـ كأن الموت موشك على مد يده لأخذك! كنت خالي الوفاض، قذراً، خائفاً، مرتجفاً. كنت مثل قطة صغيرة نصف ميتة! كان ذلك في فترة عيد الميلاد... سافر الجميع. اتصلت بعدد من الناس فلم يجبني أحد منهم. ذهبت إلى ذلك الشخص، كان اسمه لي، حيث كنت أنام أحياناً في الغرفة الملحقة ببركة السباحة عندهم، لكني لم أجده؛ كان الباب مقفلاً. مشيت، ومشيت... كنت أسير مترنحاً. برد وخوف! لا أحد في بيته! وهكذا ذهبت إلى بيت كساندرا. لم تكن كوتكو تكلّمني في ذلك الوقت».

«يا رجل... إنك صاحب شجاعة حقيقية. ما كنت لأعود إلى بيتها ولو مقابل مليون دولار».

«أعرف أن ذلك كان لا بد له من جرأة، لكني كنت مريضاً، وكنت في وحدة شديدة. كان فمي يرتعش كله. كان ذلك ... مثلما تريد أحياناً أن تستلقي ساكناً وأن تنظر إلى الساعة وتحصي أنفاسك؟ لكني كنت من غير مكان أستلقي فيه ساكناً! ولم تكن لدي ساعة أنظر إليها! كنت موشكاً على الانفجار باكياً؛ ولم أعرف ما الذي يمكن أن أفعله. لم أعرف حتى إذا كانت كساندرا لا تزال في بيتها. لكن الأنوار كانت مضاءة هناك ـ المصابيح التي في اتجاه الشارع فقط ـ فاقتربت من الواجهة الزجاجية

ورأيتها. كانت مرتدية ذلك القميص نفسه، في المطبخ، تحضّر بيتزا مارغريتا».

«فماذا فعلتْ؟».

«ها! لم تسمح لي بالدخول أول الأمر. وقفت في الباب وراحت تصرخ عليَّ زمناً طويلاً. سبّتني وأطلقت علي أبشع الصفات. لكني رحت أبكي. وعندما سألتها إن كنت أستطيع الإقامة عندها...». هز كتفيه... «قالت لي نعم».

مددت يدي إلى القدح الذي صبَّه لي وقلت: «ماذا؟ هل تعني بالإقامة... إقامة؟».

«كنت مذعوراً! تركتني أنام في غرفتها! وتركت التلفزيون عاملاً... كانت تُعرَض فيه أفلام عيد الميلاد!».

«هممم...». رأيت أنه يريد مني مطالبته بمزيد من التفاصيل؛ لكن تعبير وجهه المبتهج جعلني غير واثق في أنني أصدّقه تماماً في ما يتعلّق بنومه في غرفتها... «حسناً، يسعدني أنك نجحت في ذلك. هل قالت عني شيئاً؟».

«في الحقيقة، نعم، قليلاً...». أطلق ضحكة قصيرة... «بل تحدّثت عنك كثيراً في واقع الأمر! هذا لأنني، أعني، لا تغضب مني، لأنني ألقيت عليك باللائمة... في بعض الأمور».

«لا مشكلة عندي. تسرني مساعدتك!».

قرع كأسه بكأسي جذِلاً: «صحيح، طبعاً! أشكرك كثيراً! لو كنت مكاني لفعلت الأمر نفسه، ولم أكن لأمانع في ذلك أبداً. على الرغم من ذلك، صدقاً، تلك المسكينة كساندرا... أظنها كانت سعيدة لرؤيتي. كانت ستسعدها رؤية أي إنسان. أعني...». ابتلع القدح مرة واحدة... «كان ذلك فظيعاً... أولئك الأصدقاء السيئون... كانت وحدها هناك، تشرب كثيراً، وتخشى الذهاب إلى العمل. كان من الممكن أن يحدث

لها شيء، بكل سهولة... لا جيران من حولها؛ شيء مخيف حقاً. وكذلك بوبو سيلفر - حسناً، بوبو لم يكن شخصاً سيئاً في حقيقة الأمر. *'الرجل'* ... لم يطلقوا عليه هذا الاسم عبثاً! كانت كساندرا خائفة منه خوفاً قاتلاً لكنه لم يلاحقها من أجل ديون أبيك. لم يلاحقها ملاحقة جدية على أية حال. لقد كان المبلغ المترتب على أبيك كبيراً! لعل بوبو أدرك أن كساندرا لا تملك شيئاً. لقد سلبها أبوك كل ما كان عندها، هي أيضاً! أظن بوبو وجد أن العقل يقتضي عدم الضغط عليها... لا يمكن أن يخرج دم من اللفت، مهما عصرته! وأما هؤلاء الناس، هؤلاء الأصدقاء... الذين كانت تعتبرهم أصدقاء لها... فقد كانوا حقيرين، سيئين، كالمرابين. هل تعرف كيف كانوا؟ *'أنت مدينة لنا'* ... مطالِبون ملحّون كثيراً، ولهم علاقات قوية؛ شيء مخيف، كانوا أسوأ من بوبو! صحيح أن المبلغ لم يكن كبيراً، لكنه لم يكن متوفّراً لديها... وكم كانوا أشراراً معها!...». مال برأسه جانباً وراح يشير بإصبعه متوعداً... «أشياء من قبيل *'اللعنة عليكِ؛ لن ننتظر؛ ومن الأفضل لكِ أن تجدي حلاً ما!'* على أية حال، أمرٌ جيد أنني عدت في ذلك الوقت لأنني كنت قادراً على مساعدتها آنذاك».

«مساعدتها، كيف؟».

«من خلال إعادة المال الذي أخذته منها».

«هل كنت لا تزال تحتفظ بذلك المال؟».

قال: «حسناً، لا! لقد أنفقته. لكن... كانت لدي أشياء أخرى. هل فهمت؟ فبعد أن نفد الكوكايين الذي كان عندي، أخذت ذلك المال إلى جيمي في متجر الأسلحة واشتريت المزيد. أرأيت؟ اشتريت الكوكايين من أجلي ومن أجل آمبر. لنا نحن الاثنين فقط. فتاة جميلة جداً، جداً. بريئة جداً، فتاة خاصة. كانت أيضاً صغيرة جداً... أظنها كانت في الرابعة عشرة! لكننا تقاربنا كثيراً في تلك الليلة في فندق *إم جي إم*. جلسنا نتحدّث طيلة الليل على أرض الحمام في جناح والد كيتي. نتحدّث فقط.

ولا حتى قبلة واحدة! كلام، كلام، كلام! بكيت لشدة تأثري. نعم، لقد فتح كل منا قلبه للآخر. ثم...». وضع يده على أعلى صدره... «انتابني حزن شديد عندما جاء الصباح... لماذا يجب أن ينتهي هذا؟ كنا قادرين على البقاء جالسَيْن هناك نتبادل الحديث إلى الأبد! كان ذلك شيئاً رائعاً، شيئاً سعيداً! أرأيت كم كان التقارب بيننا؟ كان الكوكايين لدى جيمي رديئاً حقاً ـ ليس بنصف جودة كوكايين ستيوارت وليزا. ثم سمع الجميع بالأمر... سمع الجميع بتلك العطلة في فندق *إم جي إم*. سمعوا بأن لديَّ ذلك الشيء. وهكذا بدأ الناس يأتون إلي. جاءني أكثر من عشرة في أول يوم من عودتنا إلى المدرسة. كانوا يرمون بنقودهم إليّ رمياً. ' *هل يمكن أن تعطيني قليلاً؟... هل يمكن أن تعطيني قليلاً؟... هل يمكن أن تعطيني قليلاً من أجل أخي؟ لديَّ مشكلة في التركيز عندما أدرس، وأنا في حاجة إليه عندما أنجز واجباتي المدرسية...*' وسرعان ما صرت أبيع الكوكايين للاعبي كرة القدم في المدرسة، ولنصف فريق كرة السلة، ولبنات كثيرات أيضاً، صديقات آمبر وكيتي... أصدقاء وصديقات جوردان أيضاً... طلاب من جامعة نيفادا أيضاً! خسرت مالاً في الدفعات الأولى التي بعتها. لم أكن أعرف الثمن الذي يجب أن أطلبه، فبعت بأسعار رخيصة جداً. أردت أن يحبني الجميع، ياه ياه ياه. لكني لم ألبث أن فهمت الأمور... فصرت ثرياً! منحني جيمي تخفيضاً ضخماً على السعر. كان يجني مالاً كثيراً أيضاً. لقد كنت أقدم له خدمة عظيمة، هل ترى؟ أبيع المخدرات لأولاد وبنات يرعبهم الذهاب لشرائها ـ يرعبهم الأشخاص الذين يبيعونها، من أمثال جيمي. أوه، كيتي... وجوردان... كان لدى تلك الفتيات مال كثير! وكنّ سعيدات دائماً بإعطائي ذلك المال. الكوكايين ليس مثل الأقراص... كنت أبيع الأقراص أيضاً؛ لكن ذلك كان في صعود وهبوط. أبيع دفعة كبيرة في يوم، ثم تمضي أيام لا أبيع شيئاً. وأما الكوكايين، فقد كان لدي أشخاص كثر ممن يشترونه على

نحو منتظم... يتّصلون بي مرتين وثلاث مرات في الأسبوع الواحد. أعني، كيتي وحدها...».

«واو!». لا يزال ذكر اسمها ينقر على وتر في جسمي حتى بعد هذه السنين كلها.

«نعم، نخب كيتي». رفعنا قدحينا وشربنا.

وضع بوريس قدحه: «يا للجمال! كنت أشعر بالدوار عندما أقترب منها... فقط عندما أتنفس الهواء الذي تتنفسه».

«هل نمت معها؟».

«لا... يا إلهي، لقد حاولت... لكنها داعبت قضيبي قليلاً ذات ليلة في غرفة نوم شقيقها الصغير. كانت منتشية تحت تأثير الكوكايين... كانت في حالة مزاجية حلوة».

«يا رجل... أظنني رحلت في وقت غير مناسب».

«صحيح. هذا ما حدث. قذفت في ملابسي الداخلية، حتى قبل أن تحل كيت أزرار بنطلوني. وذلك المال الذي كان يأتيها من أهلها...». مد يده إلى قدحي الفارغ... «ألفا دولار! هذا ما كانت تحصل عليه من أجل الملابس وحدها! لكن كيتي كانت تمتلك ملابس كثيرة جداً، فلماذا تشتري المزيد؟ على أية حال، كان وضعي في فترة عيد الميلاد شيئاً يشبه ما تراه في الأفلام عندما يبدأ قرع الأجراس وتظهر الدولارات في كل مكان. لم يكن هاتفي يتوقف عن الرنين. أصدقاءُ الأشخاصِ الذين أعرفهم؛ وفتيات لم أرهنَّ قبل ذلك، يقدّمن إلي المال، ويعطينني حليّهن الذهبية. ينتزعن تلك الحلي من رقابهن! ومن ناحيتي، كنت أستهلك المخدرات إلى أقصى حد أستطيعه، كل يوم، وكل ليلة، كميات كبيرة! ومع ذلك، كانت النقود في كل مكان. كنت كأنني سكيرفيس[1]

---

(1) سكيرفيس: اسم فيلم بوليسي أميركي من عقد الثمانينات يسيطر بطله (آل باتشينو) على تجارة المخدرات في ميامي ويقتل كل من يعترض طريقه إلى أن يصير ملك المخدرات في الولاية كلها.

في مدرستنا! أعطاني أحد الفتيان دراجة آلية، وأعطاني واحد آخر سيارة مستعملة. كنت ألتقط ملابسي عن الأرض فتتساقط من جيوبها آلاف الدولارات... مال كثير لا أعرف من أين أتى».

«هذه كمية كبيرة من الأخبار!... أتت في وقت قصير حقّاً».

«حسناً... أعرف هذا! هكذا هو مساري التعليمي المعتاد. يقولون إن التجربة أحسن المعلمين؛ وعادة ما يكون هذا صحيحاً. لكني محظوظ لأن هذه التجارب لم تقتلني. من حين لآخر... عندما أشرب شيئاً من البيرة... من الممكن أحياناً أن أستنشق القليل من الكوكايين. لكني لم أعد أحبه، معظم الوقت. أحس بأنني أحرقت نفسي. لو رأيتني قبل خمس سنين من الآن!... لقد كنت مثل...». امتص وجنتيه إلى الداخل فصار وجهه هزيلاً بائساً... «هكذا كنت. لكني اكتفيت من ذلك كله». كان النادل قد ظهر من جديد، آتياً بالمزيد من سمك الرنجة والبيرة. نظر بوريس إليّ متسائلاً... «وأنت؟ ماذا؟ هل يمكن القول إن أمورك تسير على أحسن ما يرام؟».

«لا بأس بها، على ما أظن».

استند إلى الخلف ووضع ذراعه على المقعد: «هاه! عالم غريب، أليس كذلك؟ تجارة الأنتيكات؟ مع ذلك الشخص نفسه؟ هل هو من جعلك تدخل هذا الميدان؟».

«هذا صحيح».

«سمعت أنها تجارة رائجة».

«هذا صحيح».

نظر إلي ملياً، ثم سألني: «هل أنت سعيد؟».

«ليس كثيراً».

«اسمع إذاً! لديَّ فكرة عظيمة! تعال واعمل عندي».

انفجرت ضاحكاً.

أسكتني بحركة أحسست فيها بشيء من الغطرسة؛ ثم قال وهو يسكب لي قدحاً ويضعه على الطاولة أمامي: «لا، لست أمزح، لا، لا. كم يعطيك هذا الرجل؟ جدّياً؟ سأعطيك ضعفَي ذلك».

«لا فأنا أحب عملي...». قلت هذه الكلمات مشدداً على كل كلمة منها. هل كنت ثملاً بقدر ما كان يبدو علي من صوتي؟... «أحب ما أفعله».

رفع كأسه لي: «حقاً؟ فلماذا تقول إنك غير سعيد؟».

«لا أريد الكلام في هذا».

«لماذا لا تريد الكلام؟».

لوّحت بيدي مهوِّناً الأمر. لم أعرف كم كأساً شربت: «لأن... فقط الآن».

«إن لم يكن ذلك بسبب عملك، فما السبب إذاً؟». كان قد شرب قدحه فراح يهز رأسه، ثم بدأ يأكل من طبق الرنجة الثاني... «مشكلات مالية؟ فتاة؟».

«لا هذا ولا ذاك».

قال بنبرة منتصرة: «إنها فتاة إذاً! كنت أعرف هذا».

أنهيت قدح الفودكا، وصفعت الطاولة بكفي... كم أنا عبقري! كنت غير قادر على الابتسام: اهتديت إلى أحسن فكرة منذ سنين!... «كفانا شراباً. هيا بنا، ولنذهب! لدي مفاجأة كبيرة لك، مفاجأة كبيرة جداً».

قال بوريس وقد ظهر عليه انزعاج حقيقي: «نذهب؟ أين نذهب؟».

«تعال معي، سوف ترى».

«أريد أن أبقى هنا».

«بوريس».

ظل بوريس جالساً. قال لي وهو يرفع كفيه في اتجاهي: «دعك من هذا يا بوتر. اجلس واسترخ».

«بوريس!...». نظرت إلى الناس في البار كأنني أتوقّع انفجار غضبهم؛ ثم نظرت إليه من جديد... «قرفت الجلوس هنا. إنني جالس هنا منذ ساعات...».

كان انزعاجه حقيقياً: «لكن... لقد فرّغت هذه الليلة كلها من أجلك! لدي أعمال أقوم بها. هل أنت ذاهب؟».

«نعم! وأنت آتٍ معي. لأن...». فتحت ذراعي على اتساعهما... «لأن عليك أن ترى المفاجأة...».

رمى منديل الطعام على الطاولة: «مفاجأة؟ ما هذه المفاجأة؟».

ما مشكلته؟ هل نسي كيف يمضي المرء وقتاً ممتعاً؟ قلت له: «سوف تكتشف ذلك، تعال معي الآن. فلنخرج من هنا».

«لماذا؟ ولماذا الآن؟».

«من غير سبب! هيا بنا. اشرب كأسك!». صارت الأصوات في البار هديراً في أذني؛ لم أشعر بهذا القدر من الثقة بالنفس طيلة حياتي. كنت في غاية السرور لشدة ذكائي.

«هل نحن مضطران حقاً إلى فعل هذا؟».

قلت وأنا أنحني فوقه وأهز كتفه بحركة ودية، أو بحركة ظننتها ودّية: «سوف تكون سعيداً جداً، أعدك بهذا. هيا بنا. أعني... لست أخدعك... هذه مفاجأة لا يمكنك تصديق روعتها».

استند إلى ظهر مقعده وطوى ذراعيه إلى صدره ونظر إلي نظرة متشككة: «أظنك غاضباً مني».

«بوريس، ماذا دهاك. لا تناقشني». كنت ثملاً، مترنّحاً. وبعد أن وقفت، صرت في حاجة إلى الاستناد إلى الطاولة حتى أظل واقفاً.

«أظن أن من غير الصائب أن يذهب المرء معك إلى أي مكان».

نظرت إليه بعين نصف مغلقة: «هل أنت قادم، أم لا؟».

نظر إلي نظرة باردة، ثم دعك أنفه وقال: «ألن تخبرني بوجهتنا؟».

«لا».

«هل تمانع في أن يأخذنا سائقي؟».

«سائقك؟».

«نعم، إنه في انتظاري على مسافة بنايتين أو ثلاث بنايات من هنا».

أدرت وجهي وضحكت: «اللعنة عليك، هل لديك سائق؟».

أجابني: «إذاً، هل يعني هذا أنك موافق على ذهابنا معه؟»

قلت بعد صمت قصير: «ولماذا لا أوافق؟». على الرغم من شدّة سكري، فقد جعلتني ردة فعله أصحو بعض الشيء: كان ينظر إلي بطريقة غريبة، نظرة ثابتة فيها حذر لم أعهده فيه من قبل.

شرب بوريس الفودكا الباقية في قدحه، ثم نهض واقفاً وقال وهو يضع بين أصابعه سيجارة غير مشتعلة: «لا بأس. فلنذهب حتى ننتهي من هذا الهراء».

6

ظل بوريس واقفاً بعيداً عندما كنت أضع المفتاح في قفل باب بيت هوبي. كان ذلك كما لو أنه توقّع حدوث انفجار ضخم ينسف البيت كله ما إن أضع المفتاح في القفل. كان السائق قد أوقف السيارة في صفٍّ ثانٍ إلى جانب السيارات المتوقفة وترك محركها يعمل. خلال وجودنا في السيارة، كان الكلام كله بين بوريس والسائق باللغة الأوكرانية: لم أستطع فهم شيء من كلامهما على الرغم من القليل الذي تعلمته خلال فصلين دراسيين من *«المحادثة الروسية»* في المدرسة.

قلت له وأنا أرغم نفسي على الابتسام: «ادخل!». ما الذي يظنّه، هذا الأحمق؟ أيظن أنني سأهجم عليه، أو سأختطفه، أو شيء من هذا القبيل؟ لكنه كان لا يزال واقفاً في الشارع واضعاً يديه في جيبي معطفه وقد التفت ناظراً إلى السائق الذي كان اسمه غينغا أو غيوري أو غيورغي أو... لست أدري!

سألته: «ماذا بك؟». لو كنت أقل سكْراً، لأغضبني خوفه هذا؛ وأما في تلك اللحظة، فقد وجدته مضحكاً.

سألني وهو لا يزال واقفاً إلى الخلف: «قل لي مرة أخرى، لماذا أتينا إلى هنا؟».

«سوف ترى».

اقترب وقال بنبرة شك وهو يلقي نظرة داخل الردهة: «وهل تعيش هنا؟ هل هذا بيتك؟».

لقد أثرتُ جلبة أكثر مما أردت عندما فتحت الباب. سمعت صوت هوبي آتياً من آخر البيت: «ثيو؟ هل هذا أنت؟».

«إنه أنا». كان هوبي قد ارتدى ملابسه من أجل الخروج للعشاء، بدلة وربطة عنق ـ لم أنتبه إلى الأمر إلا في تلك اللحظة... اللعنة، هل لديه ضيوف أيضاً؟ أدركت ساعتها أننا كنا في وقت العشاء تقريباً؛ لكن إحساسي كان أننا في الثالثة صباحاً.

كان بوريس قد دخل خلفي بخطوات حذرة ويديه لا تزالان في جيبيه. ترك الباب مفتوحاً خلفه وراحت عيناه تنظران إلى الجرار البازلتية الكبيرة، وإلى الشمعدان.

رأيت هوبي في الممر. رفع حاجبيه ناظراً إلينا، وظهرت من خلفه السيدة ديفريز سائرة بخطوات حذرة. قلت له: «هوبي! مرحباً هوبي. هل تتذكّر عندما حدثتك عن...».

صرخ بوريس: «بوبتشيك!».

تجمّدت الصرة البيضاء الصغيرة ـ كان بوبتشيك آتياً في الممر متجهاً إلى الباب- ثم أطلق صرخة حادة وبدأ يجري بأقصى سرعته (لم يعد سريعاً على الإطلاق). أما بوريس فانفجر ضاحكاً وخرَّ على ركبتيه.

راح بوبتشيك يتلوى عندما رفعه بوريس... «أوه! لقد صرت سميناً! لقد صار سميناً!». كان يكلّمه موبِّخاً، فوثب بوبتشيك وقبله على وجهه...

«لقد تركته يسمن، نعم، مرحباً يا بوستوشكا[1]... مرحباً يا طويل الشعر، مرحباً! أنت تتذكرني؟». كان قد سقط مستلقياً على ظهره. راح يضحك بينما بدأ بوبتشيك ـ مواصلاً نباحه الفرح ـ يقفز فوقه... «إنه يتذكّرني!».

عدّل هوبي وضع نظارته. كان واقفاً مستمتعاً بما يراه. لكن السيدة ديفريز لم تكن مستمتعة، فظلت واقفة وراء هوبي وراحت تنظر عابسة قليلاً إلى ضيفي الذي تفوح منه رائحة الفودكا وهو يتقلب على السجادة ويلعب مع الكلب.

وضع هوبي يديه في جيبّيْ سترته وقال لي: «لا تقل شيئاً. هذا الشاب يجب أن يكون...».

«بالضبط. إنه هو».

7

لم نبق في البيت طويلاً ـ كان هوبي قد سمع الكثير عن بوريس خلال تلك السنين. وأما بوريس فلم يكن لديه فضول أو اهتمام أكثر مما قد يكون لديّ لو ظهرت أمامي تلك المرأة جودي من *كارني ولاغ*، أو أي شخص أسطوري من ماضي بوريس. لكننا كنا ثملَيْن صاخبين كثيراً؛ وأحسست بأننا يمكن أن نكون مزعجين للسيدة ديفريز التي جلست ساكنة في كرسي في الممر واضعة يديها الصغيرتين في حجرها مبتسمة ابتسامة مهذبة من غير أن تقول شيئاً تقريباً.

وهكذا ذهبنا، وسار بوبتشيك في إثرنا سعيداً متحمساً. كان بوريس يصيح مسروراً ملوِّحاً للسائق ومشيراً له أن يدور حول الكتلة السكنية ليأخذنا. قال مخاطباً بوبر: «نعم يا بوستوشكا. نعم! ها نحن هنا! إن لدينا سيارة!».

ثم اتضح لي فجأة أن السائق يتكلم الإنكليزية مثلما يتكلمها بوريس،

---

(1) بوستوشكا: بالروسية. فتاة جميلة جذابة من غير عقل.

فصرنا أصحاب، نحن الثلاثة ـ بل نحن الأربعة إذا أدخلنا بوبتشيك في الحساب، فقد كان منتصباً على قائمتيه الخلفيتين مستنداً بقائمتيه الأماميتين على زجاج النافذة ينظر بجدية تامة إلى أضواء الطريق، بينما كان بوريس يثرثر له بكلام غير مفهوم ويحتضنه ويقبله على مؤخر رأسه ويشرح للسائق، باللغتين الإنكليزية والروسية، كم إنني شخص رائع، وإنني صديق الصبا، صداقة تجري في عروقه! (استدار السائق ومد يده من فوق المقعد فصافحني بوقار وأنا جالس في الخلف)... وكم هي رائعة الحياة التي تجعل صديقين، في هذا العالم الكبير، يلتقيان من جديد بعد هذا الفراق الطويل!

قال السائق حزيناً وهو يدخل شارع هاوستون منعطفاً انعطافاً حادّاً جعلني أصطدم بالباب: «كان الأمر هكذا بيننا، أنا وفاديم، لا يفارقني حزني عليه في أي يوم... أحزن عليه كثيراً حتى إنني أستيقظ في الليل فأجد نفسي حزيناً. كان فاديم أخي». التفت إلى الخلف ونظر إليّ فجرى الناس في كل اتجاه مسرعين عندما اقتحم ممر المشاة. رأيت وجوههم الخائفة عبر زجاج النوافذ المعتم... «بل كان أكثر من أخ لي. كانت علاقتي به مثل علاقتي مع بوريا[1] الآن. لكن فاديم...».

قال بوريس لي بصوت منخفض: «كان ذلك شيئاً فظيعاً...» ثم خاطب السائق... «نعم، نعم، كان فظيعاً...».

«رأينا الأرض تُغيّب فاديم في وقت مبكر كثيراً. صحيح ما تقوله تلك الأغنية في الراديو؛ هل تعرفها؟ رجل يغني مع عزف على البيانو... *وحدهم الطيبون يموتون باكراً !*».

قال بوريس مواسياً وهو يمد يده من فوق المقعد ويربت على كتف الرجل: «سوف يكون في انتظارنا هناك».

دمدم السائق: «نعم، هذا ما قلت له أن يفعله...»، وضغط على المكابح فجأة فكدت أسقط لولا حزام الأمان، وطار بوبتشيك من مكانه... «هذه

(1) تصغير (وتحبب) لاسم بوريس.

أشياء عميقة لا يمكن للكلمات أن تفيها حقّها. لسان الإنسان عاجز عن التعبير. لكن، في النهاية، عندما وضعته في الفراش مع مجرفة، قالت له روحي: ' *سيكون فراقاً طويلاً يا فاديم. فافتح الباب من أجلي يا أخي، عندما آتي. احتفظ لي بمقعد هناك، حيث تذهب*' . وحده الرب...». كنت أقول في نفسي: *أرجوك!* محاولاً ضبط تعابير وجهي والتقاط بوبتشيك ووضعه في حضني. *أنظر إلى الطريق أمامك، اللعنة عليك*... «ثيودور، ساعدني من فضلك يا ثيودور. إن عندي سؤالين كبيرين عن الرب. أنت أستاذ جامعي...» (ماذا؟)... «وبالتالي، قد تكون قادراً على الإجابة. السؤال الأول...» التقطت عيناه عينيَّ عبر المرآة. رفع إصبعه مشيراً إلى الأعلى... «هل لدى الرب روح فكاهة؟ السؤال الثاني: هل لدى الرب روح الفكاهة القاسية؟ المقصود بهذا: هل يلعب بنا ويعذبنا حتى يستمتع فقط، مثلما يفعل طفل شرير بالحشرات في الحديقة؟».

انتبهت منزعجاً إلى نظرته المركّزة عليّ، لا على المنعطف القادم في الطريق: «أوه، حسناً، ربما... لست أدري، لكني آمل بالتأكيد ألّا يكون كذلك».

قال بوريس وهو يقدم لي سيجارة ثم يقدم أخرى للسائق: «ليس هذا بالرجل المناسب لأن تطرح عليه مثل هذه الأسئلة. لقد عذّب الرب ثيو كثيراً. وإذا كانت المعاناة تجعل المرء نبيلاً، فإنه نبيل. لكني سأطلب الآن منك معروفاً...». قال هذا ونفث سحابة دخان كثيفة.

«أي شيء؟».

«هل يمكن أن تعتني بالكلب بعد أن تنزلنا. قد به السيارة، وهو في المقعد الخلفي. خذه إلى حيث يريد الذهاب!».

كان النادي في منطقة كوينز، لكني لم أعرف مكانه على وجه التحديد. بدت لي الصالة الأمامية المفروشة بسجاد أحمر أشبه بغرفة تذهب إليها لتقبّل خد جدك بعد إطلاق سراحك من السجن... غرفة ضخمة عائلية

المظهر يجتمع فيها أشخاص يشربون جالسين على كراسي من طراز لويس السادس عشر... يأكلون ويدخّنون ويصيحون، ويضرب واحدهم الآخر على ظهره... طاولات مجللة بقماش ذي لمعة معدنية ذهبية. ومن خلفهم، على جدران مطلية بلون أحمر داكن لامع، علقت أكاليل عيد الميلاد وتزيينات من الحقبة السوفييتية مؤلفة من مصابيح كهربائية غريبة وأشكال ملونة من الألمنيوم... ديوك، وطيور في أعشاشها، ونجوم حمراء، وسفن فضائية، ورمز المنجل والمطرقة مع شعار كبير مكتوب بحروف كيريلية[1] (*سنة جديدة سعيدة أيها العزيز ستالين*). كان ذلك كلّه موزَّعاً بكثافة، لكن على نحو يبدو واضحاً أنه مؤقت. كان بوريس ثملاً تماماً فقد ظل مسافة الطريق كلها يشرب من زجاجة معه وهو جالس في المقعد الخلفي. أحاطني بذراعه وراح يقدمني للشباب وكبار السن، باللغة الروسية، قائلاً إنني أخوه. وهذا ما أدركت أن الناس كانوا يفهمونه على نحو حرفي لأن الرجال والنساء راحوا يعانقونني ويقبلونني ويحاولون أن يسكبوا لي أقداحاً من زجاجات الفودكا الكبيرة الموضوعة في دلاء من الكريستال فيها قطع ثلج.

على نحو ما، وصلنا آخر الأمر إلى قاعة داخلية في آخر النادي: ستائر مخمل سوداء يحرسها بلطجي حليق الرأس ذو عينين كعيني ثعبان؛ وكانت وشوم بأحرف كيريلية تصل حتى حنكه. في الداخل، كانت الغرفة السوداء ضاجة بالموسيقى، عابقة بروائح العرق وكولونيا الحلاقة والماريغوانا ودخان السيجار: ملابس من صنع *آرماني*، وبيجامات رياضية، وساعات *رولكس* بلاتينية مزينة بالماس. لم أر في حياتي كلها هذا العدد الكبير من الرجال المتزينين بهذه الكمية من الذهب: خواتم ذهبية، وسلاسل ذهبية، وأسنان ذهبية. كان ذلك كله أشبه بحلم غريب محير متلألئ؛ وكنت في تلك المرحلة الصعبة من السكر حيث صرت غير

(1) الأبجدية الكيريلية هي الأبجدية المستخدمة في اللغات السلافية.

قادر على تركيز نظري أو على فعل أي شيء غير الإيماء برأسي والتلويح بيدي وترك بوريس يجرّني عبر ذلك الجمع من الناس. وفي ساعة متأخرة من الليل، ظهرت ميريام من جديد كأنها شبح. حيّتني بقبلة على الخد أحسستها مظلمة، مخيفة، متجمدة في الزمن كأنها حركة طقسية. اختفت مع بوريس وتركاني عند طاولة مليئة بمواطنين روس في غاية السكر يدخنون من غير انقطاع، وبدا عليهم جميعاً أنهم يعرفون من أكون... «*فيودور!*»... راحوا يربّتون على ظهري ويسكبون لي أقداحاً، ويقدمون لي طعاماً، ويعرضون عليَّ سجائر *مارلبورو*، ويخاطبونني صياحاً بكل مودة، باللغة الروسية، من غير أن يبدو عليهم توقّع أي رد مني.

شعرت بيد على كتفي. أحدهم يرفع نظارتي عن وجهي. قلت «مرحباً؟» للمرأة الغريبة التي جلست في حضني فجأة.

جانا. مرحباً جانا! ماذا تفعل الآن؟ لا شيء مهماً. وأنتِ؟ ممثلة إباحية، جلد مسمرّ بفعل الصالونات الشمسية، وثديان مضخَّمان جراحياً ظاهران من أعلى فستانها. إن موهبة كشف المستقبل متوارثة في عائلتي: هل تسمح لي بقراءة كفك؟ طبعاً، بالتأكيد. كانت لغتها الإنكليزية جيدة، لكني وجدت صعوبة في فهم ما تقوله لي بسبب الضجيج الشديد في النادي.

«أرى أنك فيلسوف بطبيعتك». كانت تمر برأس إصبعها على راحة يدي، ظفر وردي كظفر باربي... «ذكي جداً جداً. نجاحات كثيرة ونكسات كثيرة... فعلت القليل من كل شيء في الحياة. لكنك تشعر بالوحدة. تحلم بأن تجد فتاة تكون معها حتى نهاية حياتكما، أليس هذا صحيحاً؟».

وعندها ظهر بوريس. كان وحده هذه المرة. جذب كرسياً وجلس عليه. جرى بينه وبين صديقتي الجديدة كلام ممتع باللغة الأوكرانية، فما كان منها إلا أن أعادت وضع نظارتي على وجهي وذهبت. لكنها لم تذهب إلا بعد أن استجدت سيجارة من بوريس وقبّلته على خده.

قلت لبوريس: «هل تعرفها؟».

قال بوريس وهو يشعل سيجارة: «لم أرها قبل الآن أبداً. يمكننا الذهاب الآن، إذا أردت. السائق ينتظرنا في الخارج».

8

صار الوقت متأخّراً. وكان المقعد الخلفي في السيارة مريحاً منعشاً بعد ذلك الضجيج في النادي (وهج لوحة العدادات اللطيف، وصوت الراديو المنخفض). تجوّلنا ساعات بالسيارة مع بوبتشيك الذي كان يغط في نوم عميق في حضن بوريس. كنا نتحدث ونضحك. وكان السائق يشاركنا أيضاً بصوته المرتفع الأجش، فيروي قصص طفولته في *بروكلين* في منطقة أطلق عليها اسم ' *الأشواك* ' (المشاريع)، بينما كنا جالسين في المقعد الخلفي نشرب فودكا دافئة من زجاجة ونستنشق الكوكايين من كيس أخرجه من جيب معطفه. كان يمرر الكيس إلى السائق من حين لآخر. كان جوّ السيارة حارّاً، حارقاً، على الرغم من جهاز التكييف، وكان وجه بوريس متعرّقاً وأذناه متوهّجتين احمراراً. خلع سترته قبل حين؛ وكان الآن ينزع الزرَّين المعدنيَّيْن عن كمَّيْ قميصه ويضعهما في جيبه، ثم يطوي الكمين إلى الأعلى. قال لي: «هل تعرف أن أباك علّمني كيف أرتدي الملابس بشكل صحيح. إنني ممتن له لأنه علمني».

«صحيح... علمني أبي أشياء كثيرة».

مسح أنفه بكفه وقال بنبرة مخلصة مع إيماءة عنيفة من رأسه ـ من غير أي ظل للسخرية ـ: «نعم. كان له دائماً مظهر شخص محترم. مثل... هل رأيت أولئك الناس في النادي؟ معاطف جلد، وسترات من القطيفة، يبدون كأنهم وصلوا مهاجرين لتوّهم. من الأفضل كثيراً أن يرتدي المرء ملابس بسيطة، مثلما كان يفعل والدك. سترة جميلة، وساعة يد بسيطة، لكنها راقية... أشياء منسجمة...».

«صحيح». كان عملي معتمداً على ملاحظة أشياء من هذا النوع؛ وقد لاحظت الساعة التي كانت في يد بوريس ـ ساعة سويسرية، قد يبلغ

ثمنها خمسين ألف دولار؛ ساعة شاب أوروبي مستهتر... ساعة شديدة البهرجة بالنسبة إلى ذوقي، لكنها شديدة التحفظ بالمقارنة مع الساعات المزينة بالجواهر والذهب والبلاتين التي رأيتها في النادي. رأيت على باطن ساعده نجمة داوود السداسية موشومة بلون أزرق.

سألته: «ما هذا؟».

رفع ذراعه حتى صار معصمه أمامي حتى أستطيع الرؤية جيداً: «إنها ماركة IWC. الساعة الجيدة مثل المال في حسابك المصرفي. يمكنك دائماً أن ترهنها أو أن تبيعها في الحالات الطارئة. هي من الذهب الأبيض، لكنها تبدو كأنها من الستانلس ستيل، من الأفضل للمرء أن يحمل ساعة تبدو أقل قيمة مما هي عليه في الحقيقة».

«لا. عنيت الوشم».

«آه...». رفع كمّه إلى الأعلى ونظر إلى ذراعه نظرة ندم. لكنني لم أعد أنظر إلى الوشم. كان الضوء في السيارة ضعيفاً، لكنني أعرف آثار الحُقن عندما أراها... «أنت تقصد النجمة. هذه قصة طويلة».

كان من الصواب ألا أسأله عن آثار الحقن... فقلت: «لكن، أنت لست يهودياً».

قال بوريس بنبرة ساخطة وهو ينزل كمّ قميصه: «لا! بالطبع، لست يهودياً!»

«حسناً... أظن أن السؤال هو لماذا...».

«لأنني قلت لبوبو سيلفر إنني يهودي».

«ماذا؟».

«لأنني أردت أن يشغّلني معه. وهكذا كذبت عليه».

«غير معقول».

«بلى! لقد فعلت ذلك. كان يأتي كثيراً إلى بيت كساندرا ـ يتجوّل في الشارع ويتشمّم هنا وهناك علّه يكتشف خدعة ما من قبيل، مثلاً،

أن أباك لم يكن ميتاً في الحقيقة! استجمعت شجاعتي في أحد الأيام وذهبت للحديث معه. عرضت نفسي للعمل. كانت الأمور في حالة سيئة ـ حدثت مشكلات في المدرسة؛ وأرسلوا بعض الناس إلى مركز إعادة التأهيل. وطردوا أشخاصاً آخرين. كان عليَّ أن أقطع صلتي مع جيمي وأن أعمل بعض الوقت في مجال آخر. صحيح أن اسم عائلتي غير مناسب، لكن اسمي، بوريس، هو الاسم الأول ليهود كثيرين في روسيا. وهكذا قلت في نفسي: لم لا؟ كيف سيعرف الحقيقة؟ ظننت بأن هذا الوشم سيكون فكرة حسنة من أجل إقناعه. لم تكن لديَّ مشكلة في ذلك. جعلت شخصاً يدين لي بمئة دولار يصنع لي هذا الوشم، ثم اخترعت قصة حزينة كبيرة... كانت أمي يهودية بولندية، وكان أهلها في معسكر اعتقال، بو بو بو... ما أغباني! لم أكن أعرف أن الوشم مخالف لشريعة اليهود. لماذا تضحك؟». قال هذا بنبرة دفاعية... «شخص مثلي ـ يمكن أن يكون مفيداً له. ألا ترى هذا؟ أتكلم الإنكليزية والروسية والبولندية والأوكرانية، وأنا متعلّم. على أية حال، كان يعرف أنني لست يهودياً. ضحك في وجهي، لكنه أخذني لأعمل معه على أية حال. كان ذلك لطفاً كبيراً منه».

«كيف استطعت أن تعمل مع ذلك الشخص الذي أراد أن يقتل أبي؟».

«لم يكن يريد أن يقتل أباك، هذا غير صحيح، وغير منصف أيضاً. أراد إخافته، لا أكثر. لكن، حسناً، لقد عملت معه مدة سنة تقريباً».

«وماذا كنت تفعل من أجله؟».

«لا شيء قذراً، صدِّق أو لا تصدق! كنت مساعداً له فقط: صبي مراسل، يبعث بي في مهام هنا وهناك، وأشياء من هذا القبيل. كنت آخذ كلابه الصغيرة في نزهة! وأجلب ملابسه من محل تنظيف الملابس. كان بوبو صديقاً طيباً، كريماً في أوقات الشدة. كان أباً لي، تقريباً. يمكنني قول هذا، ويمكنني أن أقسم على أنني أعني ما أقول. وبالتأكيد، كان لي أباً أكثر من

أبي الحقيقي. كان بوبو منصفاً معي، بل أكثر من منصف. كان لطيفاً، عطوفاً. تعلّمت منه الكثير، وكنت أراقب أسلوب عمله. وبالتالي، فإنني لا أمانع في وضع هذه النجمة من أجله هو. وأما هذا الوشم...». رفع كمَّ قميصه فكشف عن عضده. كان عليه وشم وردة وكتابة بالأحرف الكيريلية... «هذا من أجل كاتيا، حب حياتي، أحببتها أكثر من أية امرأة في حياتي كلها».

«أنت تقول هذا عن الجميع».

«نعم، لكنه صحيح في ما يتعلق بكاتيا! يسعدني أن أمشي على زجاج مهشّم من أجلها! وأنا مستعد للذهاب إلى الجحيم من أجلها، للذهاب إلى النار. أقدم حياتي كلّها من أجل سعادتها. لم أحب أي إنسان على وجه الأرض مثلما أحببت كاتيا، ولا حتى جزءاً من ذلك الحب. كانت هي حبّي. كنت مستعداً للموت من أجل يوم واحد معها. لكن...». أنزل كمَّ قميصه... «لا يجوز أبداً أن تضع اسم شخص وشماً على جسدك، لأنك ستفقد ذلك الشخص. كنت أصغر سناً عندما وضعت هذا الوشم».

9

لم أكن قد تعاطيت الهيرويين منذ رحيل كارول لومبارد عن المدينة، ولم تكن هنالك الآن أي إمكانية للذهاب إلى النوم: بلغت الساعة السادسة والنصف صباحاً. وكان سائق بوريس لا يزال يتجوّل بنا في شوارع الحي الجنوبي الشرقي مع بوبتشيك النائم في المقعد الخلفي («سوف آخذه إلى متجر *بيلي*!... وسأشتري له سندويتشاً باللحم والبيض والجبن!»). جلسنا نتحدّث ونشرب في بار رطب بارد يعمل على مدار الساعة في الجادة C. كان ذلك البار حافلاً برسوم جدارية غير متقنة؛ وكانت ستائر من الخيش مسدلة على نوافذه لكي تحجب أشعة الشمس... اسمه *نادي علي بابا*؛ ثلاثة دولارات للقدح الواحد، أسعار مخفضة من العاشرة صباحاً حتى الواحدة بعد الظهر. كنا نحاول أن نشرب قدراً من البيرة كافياً لجعلنا نصحو قليلاً.

قلت لبوريس: «أتعرف ما فعلته في المدرسة؟ لقد واظبت سنة كاملة على دروس المحادثة باللغة الروسية. كان ذلك من أجلك أنت فقط. في الواقع، كان أدائي سيئاً. لم أتحسن بالقدر الذي يسمح لي بأن أقرأ باللغة الروسية... أنت تفهم هذا... أن أجلس وأقرأ يوجين *أونيجين* ـ يقولون إن على المرء أن يقرأها بالروسية لأن الترجمة غير قادرة على التعبير عنها. لكن... كنت أفكر فيك كثيراً! وكنت أتذكّر أشياء صغيرة قلتها لك... أتذكّر مختلف أنواع الأشياء... أوه، واو، استمع، إنها أغنية *كونفي إن نوتيكا*، فهل تتذكّرها. فرقة *باندا بير*، لقد نسيت ذلك الألبوم تماماً. على أية حال، قدّمت في نهاية الفصل ورقة عن رواية *الأبله* من أجل صف الأدب الروسي المترجَم. أعني أنني كنت أفكر فيك طيلة وقت قراءتي بالروسية، وأتذكر كيف كنا نجلس في غرفتي في الأعلى وندخن سجائر أبي. كنت أتخيلك تنطق الأسماء الروسية في تلك الرواية فيصير من الأسهل عليَّ أن أتذكّرها. وواقع الأمر أنني كنت أتخيّل سماع الكتاب كله بصوتك أنت! عندما كنا في *لاس فيغاس* أمضينا نحو ستة شهور وأنت تقرأ لي *الأبله*، فهل تتذكّر هذا، باللغة الروسية؟ كان ذلك كل ما فعلته على امتداد زمن طويل. هل تتذكّر كيف ظللت وقتاً طويلاً غير قادر على النزول إلى الأسفل بسبب كساندرا، وكان عليّ أن أجلب لك الطعام؟ كان هذا مثل فيلم *آن فرانك*! الحقيقة أنني قرأت رواية *الأبله* بالإنكليزية أولاً؛ وكدت أصل إلى تلك النقطة، إلى حيث تصير لغتي الروسية جيدة بالقدر الكافي؛ لكني لم أتمكّن من ذلك أبداً».

قال بوريس: «تلك المدرسة الملعونة...». كان واضحاً أنه لم يتأثّر بكلامي... «إذا كنت تريد أن تتعلّم الروسية، فتعال معي إلى روسيا، وسوف تتكلّم الروسية خلال شهرين؟».

«إذاً، فهل ستخبرني عن عملك، وماذا تفعل؟».

«مثلما قلت لك. هذا وذاك. أعمل بالقدر الكافي للاستمرار...»

ركلني من تحت الطاولة... «يبدو أن حالتك قد تحسّنت، أليس كذلك؟».

«ماذا؟». لم يعد في صالة المطعم غيرنا سوى شخصين اثنين: شخصان جميلان، شاحبان على نحو غريب، غير أرضي؛ رجل وامرأة لكل منهما شعر داكن قصير؛ عيون متعانقة؛ والرجل ممسك بيد المرأة فوق الطاولة يقبّل باطن رسغها. وخزة ألم أصابتني... *بيبا*! قاربت الساعة وقت الغداء في لندن. ماذا تفعل بيبا الآن؟».

«عندما صادفتك في الشارع، كان مظهرك كمظهر شخص موشك على القفز في النهر».

«آسف، لقد كان يوماً صعباً».

لم يكن بوريس قادراً على رؤية المرأة والرجل من مكان جلوسه. قال لي: «إن ذلك المتجر مكان لطيف. أفهم أنكما شريكان... إذاً، هل أنتما شريكان؟».

«لا... ليس هكذا!»

نظر إليَّ بوريس نظرة فاحصة: «أنا لم أقل إن الأمر هكذا! يا إلهي، بوتر، لا تكن حسَّاساً إلى هذا الحد؟ ثم إن تلك المرأة كانت زوجته، أليس كذلك؟»

استقمت في جلستي وقلت متململاً: «في الحقيقة، نوعاً ما».

كانت العلاقة بين هوبي والسيدة ديفريز لا تزال سراً عميقاً بالنسبة إليّ مثلما كانت حالة زواجها من السيد ديفريز الذي لا يزال قائماً... «لفترة طويلة، كنت أظنّها أرملة. لكنها ليست أرملة. إنها...». انحنيت إلى الأمام ودعكت أنفي بيدي... «أترى كيف؟ هي تعيش في الضواحي، وهو يعيش في قلب المدينة. لكنهما معاً طيلة الوقت... لديها بيت في كونكتيكت يذهبان معاً إليه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. إنها متزوجة. لكن... لم أر زوجها أبداً. ولم أستطع فهم الأمر. وإذا شئت الحقيقة، يمكنني القول إن بينهما صداقة عميقة، على الأرجح. آسف لهذا الاستطراد الطويل. في الحقيقة، لا أعرف ما يجعلني أخبرك هذا كله».

«هو من علّمك المهنة! يبدو لي شخصاً لطيفاً. شخصاً محترماً».

«ماذا قلت؟».

«صاحب العمل، رئيسك؟».

«هو ليس رئيسي، إنه شريكي».

كان توهّج المخدرات قد بدأ يتراجع؛ وصار الدم يهسهس في أذني هسهسة حادة تشبه غناء جنادب الحقول... «في واقع الأمر، أنا أدير المبيعات كلها... إلى حد كبير».

رفع بوريس يده وقال: «عفواً! لا حاجة إلى الغضب. لكني كنت أعني ما قلت عندما طلبت منك أن تأتي لكي تعمل معي».

«وكيف يفترض أن أجيب على هذا؟...».

قاطعني وقال بنبرة مفخَّمة: «اسمع، أريد أن أعوّضك. أريد أن أشاركك كل ما أتاني من خيرات. لأنني مدين لك بكل شيء. كل ما أصابني من خير في حياتي، يا بوتر، حدث بسببك أنت».

قلت وأنا أشعل سيجارة من عنده، ثم أدفع بعلبة السجائر عبر الطاولة في اتجاهه: «هل جعلتك تدخل مجال بيع المخدرات؟ جميل أن أعرف هذا لأنه يجعلني أعرف أنني فعلت شيئاً عظيماً. شكراً لك».

«بيع المخدرات؟ من قال لك إنني أتحدّث عن بيع المخدرات. قلت لك إنني أريد تعويضك عمَّ فعلته بك. إنها حياة رائعة. سوف نستمتع كثيراً معاً».

«هل تدير شركة دعارة؟ هل هذا هو الأمر؟».

«انظر، أريد أن أخبرك شيئاً».

«تفضل».

«إنني آسف حقاً لما فعلته بك».

«انس الأمر».

«فلماذا لا يكون لك نصيبك من هذه الأرباح الممتازة التي جنيتها منك؟ لماذا لا يكون لك بعض القشدة أنت أيضاً؟».

قلت: «اسمع يا بوريس، هل يمكنني أن أقول لك شيئاً؟ لا أريد التورّط في أي شيء غير سليم. لا أقصد الإساءة إليك، لكني أحاول جاهداً أن أتخلّص من شيء ما. وكما قلت لك، فقد خطبت، وسوف أتزوج. صارت الأمور مختلفة، والحقيقة... لا أظن أنني راغب في...».

«إذاً، لماذا لا تسمح لي بمساعدتك؟».

«ليس هذا ما أعنيه. أعني... أفضّل ألا أدخل في التفاصيل، لكني فعلت أشياء ما كان ينبغي لي أن أفعلها. ما أريد قوله هو أنني أحاول التوصّل إلى طريقة مناسبة لتصحيح الأمور».

«إن تصحيح الأمور شيء صعب. وغالباً ما لا تتاح للمرء فرصة لفعل ذلك. كل ما يستطيع فعله أحياناً هو ألّا يُلقى القبض عليه».

كان الرجل والمرأة الجميلان قد نهضا ليغادرا، يداً بيد. سارا معاً فأزاحا الستارة المصنوعة من حبال خرزية وخرجا معاً إلى نور الصباح البارد الذي لا يزال باهتاً. نظرت إلى حبال الخرز تهتز وتتصادم عند خروجهما... كانت تتموج مع تموّج ردفي الفتاة.

استند بوريس إلى الخلف. كانت عيناه مثبتتين عليّ. قال لي: «لقد كنت أحاول إعادتها إليك. ليتي استطعت فعل ذلك؟».

«ماذا؟».

عبس قليلاً: «حسناً، هذا هو السبب الذي جعلني أذهب إلى المتجر. أنت تعرف... لا بد أنك سمعت بتلك القصة في ميامي. أقلقني ما يمكن أن تفكّر فيه عندما تسمع تلك الأخبار، و... صدقاً، خفت قليلاً من أن يتتبعوا الأمر حتى يصلوا إليك، من خلالي. هل رأيت؟ هذه هي القصة، لا أكثر؛ لكن... مع ذلك...! وبالطبع، كنت غارقاً في الأمر حتى رقبتي ـ لقد أدركت أن ذلك الترتيب كان سيئاً. كان علي أن أثق بغريزتي. وأنا...».

أخرج الأنبوب الصغير ليتناول نشقة صغيرة أخرى؛ كنا وحدنا في الصالة؛ وكانت النادلة القصيرة ذات الوشوم، أو صاحبة البار، أو مهما تكن، قد

اختفت في الغرفة الخلفية الغامضة التي رأيت فيها (بلمحة سريعة جداً) أشخاصاً جالسين على أرائك قديمة بدا لي أنهم مجتمعون لمتابعة فيلم إباحي من السبعينات... «كيفما يكن الأمر، فقد كان مخيفاً. كان يجب أن أعرف. أصيب بعض الأشخاص، وخسرت مالاً كثيراً، لكن ذلك علّمني درساً ثميناً. من الخاطئ دائماً ـ لحظة، انتظر، دعني آخذ نشقة من الجهة الأخرى ـ مثلما كنت أقول لك، من الخاطئ دائماً أن تتعامل مع أشخاص لا تعرفهم...». ضغط على منخريه بإصبعيه فأغلقهما، ثم ناولني الكيس من تحت الطاولة... «إنه الشيء الذي تعرفه جيداً، لكنك تنساه دائماً. لا تعامل دائماً مع أشخاص غرباء في أمور كبيرة... أبداً! من الممكن أن يقول الناس: *'أوه، هذا جيد'* ، وأنا أحب تصديق هذا، لأن طبيعتي هكذا. لكن الأمور السيئة تحدث على هذا النحو أيضاً. انظر... إنني أعرف أصدقائي. لكن، ماذا عن أصدقاء أصدقائي؟ لا أعرفهم معرفة حسنة. هكذا يصاب الناس بالإيدز مثلاً، أليس هذا صحيحاً؟».

كان هذا أمراً خاطئاً ـ كنت أعرف، حتى وأنا أفعله. كان أمراً خاطئاً أن أستنشق المزيد من الكوكايين. فقد تناولت أكثر مما يجب وصار فكي متوتراً والدم يقرع صدغي قرعاً عنيفاً حتى عندما بدأ الاسترخاء يحل علي... هشاشةٌ تشبه لوحاً زجاجياً مهتزاً.

كان بوريس يتكلّم بسرعة كبيرة، وكانت قدمه تنقر الأرض وتتحرك قلقة تحت الطاولة... كان يقول: «على أيّ حال، أحاول التفكير في طريقة لاستعادتها. فكّر، فكّر، فكّر! من الطبيعي أنني لم أعد قادراً على استخدامها بنفسي. لقد أحرقت نفسي في ما يتعلق بها، أحرقتها حتى النهاية. وبالطبع، ليس هذا ما جعلني آتي لرؤيتك؛ ليس هذا بالضبط. فمن ناحية، أردت الاعتذار. أردت أن أقول لك *'آسف'* بطريقتي الخاصة، هذا لأنني آسف حقّاً، آسف بكل صدق! ومن ناحية أخرى، فإنه مع ظهور تلك الأشياء كلّها في الأخبار، أردت أيضاً إخبارك بألا تقلق...

لأنك قد تظن؛ حسناً، لست أدري ما تظنه. لكني لم أكن مرتاحاً للتفكير في أن تسمع ذلك كلّه، ثم تخاف وتقلق من غير أن تفهم شيئاً. قد تفكّر في أنَّ تَتبُّعها يمكن أن يقودهم إليك. جعلني هذا التفكير في حالة سيئة جداً. وهذا هو سبب رغبتي في الكلام معك. أريد أن أقول لك إنني أبقيتك خارج الأمر تماماً. وأن أحداً لا يعرف أن لك صلة بي. وفوق هذا، إنني أحاول استعادتها، أحاول حقّاً، أحاول بكل ما أستطيع. أحاول لأنني...». رفع ثلاث أصابع إلى جبهته... «لأنني جنيت منها ثروة، وأريد حقاً أن تكون لك كلّها من جديد ـ أنت تفهم ما أعنيه، أن تكون هي لك من جديد، كرمى لأيامنا الماضية... أريدك أن تمتلكها، أن تكون لك بكل معنى الكلمة، وأن تضعها في خزانتك، أو حيث تشاء، أن تخرجها وتنظر إليها، مثلما كنت تفعل في الأيام الخوالي. أقول هذا لأنني أعرف كم تحبها. لقد وصلتُ إلى نقطة صرت عندها أحبها، أنا أيضاً، صرت أحبها فعلاً».

حدّقت فيه. حدقت في الومضة الجديدة التي خلفتها نشقة المخدرات. بدأ ما كان بوريس يقوله يتضح لعقلي... بدأ يتضح أخيراً: «بوريس، ما الذي تتحدّث عنه؟».

«أنت تعرف».

«لا، لا أعرف».

«لا تجعلني أقولها بصوت مسموع».

«بوريس...».

«لقد حاولت إخبارك. رجوتك ألا تذهب. لو انتظرت يوماً واحداً، لأعدتها إليك».

كانت الستارة الخرزية لا تزال تهتز وتتماوج في تيار الهواء. تموجات زجاجية صغيرة. رحت أنظر إليه؛ وكنت مذهولاً تحت وطأة إحساس خفيف غامض بحلم يصطدم بحلم آخر: قرقعة أدوات الطعام في ساعة ظهر قاسية في مطعم في منطقة *تريبيتا*... لوسيوس ريف ينظر إليَّ ويبتسم ابتسامة متكلّفة من الناحية الأخرى من الطاولة.

قلت: «لا». دفعت بالكرسي إلى الخلف وقد أغرقني عرق بارد وغطيت وجهي بيدي... «لا».

«ماذا؟ هل كنت تظن أن أباك هو من أخذها؟ كنت آمل أن تظن ذلك. لأنه كان في حفرة عميقة. لقد كان يسرقك بالفعل».

مررت بيدي على وجهي، ثم نظرت إليه غير قادر على قول أي شيء: «لقد بدّلتها. نعم. أنا من فعل هذا. ظننت أنك تعرف. انظر... إنني آسف!». قال هذا عندما رآني مستمراً في النظر إليه فاغر الفم... «وضعتها في خزانتي في المدرسة. كان ذلك مزاحاً...». ابتسم ابتسامة واهنة... «حسناً، لعله لم يكن مزاحاً! كان نوعاً من المزاح. لكن، اسمع...». نقر على الطاولة حتى أنتبه إليه... «أقسم لك أنني لم أرد الاحتفاظ بها. لم تكن تلك خطتي. فكيف كان يمكن أن أعرف بما سيحدث لأبيك؟ لو أنك بقيت تلك الليلة...». رفع ذراعيه إلى الأعلى... «لأعدتها إليك. أقسم أنني كنت سأعيدها. لكنني لم أستطع جعلك تبقى. كنت مصرّاً على الذهاب!... في تلك الدقيقة تحديداً!... يجب أن أذهب! الآن يا بوريس، الآن! لم ترض الانتظار حتى الصباح! يجب أن أذهب، يجب أن أذهب، يجب أن أذهب في هذه اللحظة، وقد كنت خائفاً من مصارحتك بفعلتي».

نظرت إليه. كان حلقي جافّاً، وكان قلبي قد بدأ يخفق سريعاً إلى حد جعلني غير قادر على فعل أي شيء غير البقاء ساكناً، راجياً أن تتباطأ ضرباته قليلاً.

قال بوريس بنبرة مستسلمة: «الآن، أنت غاضب. تود أن تقتلني».

«ما الذي تحاول قوله لي؟».

«أنا...».

«ماذا تعني بقولك إنك أبدلتها؟».

تلفّت من حوله متوتراً: «انظر، إنني آسف. كنت أعرف أنها ليست

فكرة حسنة أن نكون على صلة بالأمر معاً. كنت أعرف أن هذا سينتهي بأن تظهر الحقيقة في يوم بشع ما! لكني...». انحنى قليلاً إلى الأمام ووضع راحتَيْ يديه على الطاولة... «لم أكن مرتاحاً لهذا الأمر. صدقاً... لولا ذلك، فهل كنت سآتي لرؤيتك؟ هل كنت سأناديك باسمك في الشارع؟ وعندما قلت لك إنني أريد أن أعوّضك... ماذا؟ إنني جاد في هذا. سوف أعوضك لأن هذه اللوحة حققت لي ثروة... لقد جعلتني...».

«فما الذي في الحزمة التي جلبتها معي؟».

«ماذا؟». قال هذا وانخفض حاجباه، ثم تراجع إلى الخلف وهو ينظر إليَّ خافضاً رأسه... «هل تمزح؟ كل هذا الوقت، وأنت لم...».

لكني لم أستطع الإجابة بشيء. تحرّكت شفتاي، لكن صوتي لم يخرج.

صفع بوريس الطاولة بكفّه: «يا أبله. هل تعني أنك لم تفتحها أبداً؟ كيف أمكنك ألا...».

مد يده من فوق الطاولة وهزّني من كتفي عندما رأى أنني لم أجبه بشيء بل بقيت دافناً وجهي بين كفيّ.

قال بإلحاح وهو يحاول أن ينظر في عيني: «حقّاً! ألم تفتحها؟ ألم تفتحها لتنظر إليها؟».

صيحة نسائية ضعيفة باهتة فارغة أتت من الصالة الداخلية، ثم تبعتها موجات من ضحك ذكوري، فارغة مثلها. وبعدها، صوت مرتفع مثل صوت منشار كهربائي: خلاط بدأ يعمل عند البار! بدا لي أنه استمر زمناً طويلاً إلى حد مبالغ فيه.

قال بوريس عندما هدأ ذلك الضجيج آخر الأمر، وسُمعت من الصالة الخلفية موجة جديدة من الضحك والتصفيق: «ألم تكن تعرف؟ كيف أمكنك ألا...». لكني لم أستطع نطق كلمة واحدة. رسوم جدارية متداخلة، ولصاقات وخربشات، وسكارى على وجوههم صلبان بدلاً

من العيون. ومن الخلف، بدأ يعلو غناء بأصوات خشنة. *هيا هيا هيا*! أشياء كثيرة كانت تومض أمامي فصرت غير قادر على التقاط أنفاسي.

قال بوريس، نصف عابس: «طيلة هذه السنين كلّها؟ وأنت لم تقم ولا مرة واحدة، بـ...».

«أوه، يا إلهي...».

«هل أنت بخير؟».

هززت رأسي: «أنا... كيف عرفت أصلاً أنها موجودة عندي، كيف عرفت ذلك؟...». وعندما لم يجبني... «هل فتشت غرفتي؟ هل فتشت أشيائي؟».

كان بوريس ينظر إليّ. مرر أصابع يديه الاثنتين في شعره ثم قال: «أنت تفقد وعيك تماماً عندما تسكر يا بوتر، ألا تعرف هذا؟».

أجبته بعد لحظة شك في كلامه: «ماذا تقول؟».

قال بصوت لطيف: «لا، إنني أعني ما قلته. أنا مدمن على الكحول. أعرف هذا! وقد كنت كحولياً منذ كان عمري عشر سنين. منذ شربت أول كأس. وأما أنت يا بوتر... مثل أبي، يشرب كثيراً، ثم يفقد أي إدراك، فيفعل أشياء لا يستطيع أن يتذكّرها. يحطّم السيارة، أو يضربني، أو يتورّط بمشاجرات مع الناس، أو يسير بأنف مكسور، أو يجد نفسه في مدينة أخرى مستلقياً على مقعد في محطة قطار...».

قلت محتجّاً: «أنا لا أفعل هذه الأشياء».

تنهّد بوريس: «صحيح، صحيح، لكنك لا تتذكّر شيئاً. هذا ما يحدث لك. لست أقول إنك تفعل أشياء سيئة أو عنيفة، فأنت لست مثل أبي. لكن ذلك يكون كأنه... أوه، في تلك المرة عندما ذهبنا إلى منطقة الألعاب عند *ماكدونالدز*، مساحة ألعاب الأطفال، وكنتَ في حالة سكر شديد جعلتْ تلك المرأة تطلب لك الشرطة، فأخرجتك من هناك سريعاً، ثم بقينا واقفين في متجر *وول مارت* نصف ساعة متظاهرين بأننا ننظر

إلى أنواع أقلام الرصاص المدرسية، وبعدها خرجنا لكي نعود إلى البيت بالباص، فهل تتذكّر أي شيء من تلك الليلة؟ أظنك لا تتذكّر شيئاً! هل ستقول لي الآن ’ *ماكدونالدز يا بوريس، أي ماكدونالدز؟* ‘ ...». نشق بأنفه نشقة كبيرة، ثم تابع كلامه... «أو، ذلك اليوم عندما كنت في حالة سكر شديد فجعلتَني أخرج معك من أجل نزهة في الصحراء؟ لا بأس، ذهبنا في نزهة، لكنك كنت شبه عاجز عن المشي؛ وكان الطقس شديد الحرارة. لم تلبث أن تعبت فاستلقيت على الرمل. طلبت مني أن أتركك تموت هناك. ’ *اتركني يا بوريس، اتركني أموت* ‘ . هل تتذكّر هذا؟».

«ما الذي تريد الوصول إليه؟».

قال: «ما الذي أستطيع قوله؟ لقد كنتَ تعساً. كنت تشرب كثيراً حتى تفقد وعيك، طيلة الوقت».

«هذا ما كنت تفعله أنت أيضاً».

«صحيح. أتذكّر هذا. فقدت وعيي على السلم مرّة وسقطت على وجهي. هل تتذكّر؟ سرت وابتعدت عن البيت أميالاً، ثم أفقت فوجدت نفسي مستلقياً بقدمين بارزتين من تحت شجيرة صغيرة. لم أعرف أبداً كيف وصلت إلى هناك! تخيّل أنني كتبت مرة رسالة إلكترونية إلى سيبرسكايا، معلمتنا، كتبتها في منتصف الليل، كانت رسالة مجنونة ثملة قلت فيها إنها امرأة جميلة وإنني أحبها حباً شديداً. كنت أحبها في تلك اللحظة! ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي وأنا لا أزال تحت تأثير الشراب: ’ *بوريس، يا بوريس، يجب أن أتحدّث معك* ‘ . لا بأس، عن أي شيء؟ كانت شديدة اللطف واللباقة، عندما حاولتْ أن تجعلني أدرك سوء تصرفي. رسالة بالبريد الإلكتروني؟ أية رسالة؟ لم أتذكّر شيئاً أبداً! وقفت أمامها محمر الوجه بينما راحت تعطيني صفحات مصورة من كتاب الشعر، وقالت إن عليَّ أن أحب فتيات من سني. نعم، بالتأكيد، كنت أفعل أشياء غبية، أشياء أكثر غباء من الأشياء التي كنت تفعلها

أنت! لكني...». قال هذا وهو يعبث بالسيجارة... «لكني كنت أحاول أن أستمتع وأن أكون سعيداً. أما أنت فكنت تريد أن تموت، هذا شيء مختلف كثيراً».

«لماذا أحس كما لو أنك تحاول تغيير الموضوع؟».

«لست أحاول الحكم عليك! كل ما في الأمر هو أننا كنا نقوم بأشياء جنونية في ذلك الوقت. كنا نفعل أشياء أظنك لا تتذكّرها. لا، لا!...». قال هذا بسرعة وهو يهز رأسه عندما رأى تلك النظرة في عيني... «لست أعني ذلك الأمر! لكني سأقول لك إنك الصبي الوحيد الذي كنت معه في السرير طيلة حياتي كلها!».

صدرت عني ضحكة مغمغمة غاضبة كما لو أنني أسعل أو أختنق، أو شيء ما.

اتكأ بوريس على ظهر مقعده بحركة فيها شيء من الازدراء، ثم أغلق منخريه بأصبعيه وقال: «ذلك الأمر، أفف! أظنّه يحدث في تلك السن، أحياناً. كنا صغاراً، وكنا في حاجة إلى فتيات. لعلك ظننته شيئاً آخر. لكن، لا، انتظر...». قال هذا بسرعة وقد تغيّر تعبير وجهه عندما رآني أدفع بالكرسي إلى الخلف حتى أنهض. قال من جديد وهو يمسك بكمّي... «انتظر. لا تذهب، أرجوك. استمع إلى ما أحاول قوله لك. ألا تتذكّر شيئاً من تلك الليلة التي كنا نشاهد فيها فيلم *الدكتور نو*؟».

في تلك اللحظة، كنت أرفع معطفي عن ظهر الكرسي. لكني توقّفت عندما سمعته يقول ذلك.

سألني مجدداً: «هل تتذكّر؟».

«وهل من المفترض أن أتذكّر شيئاً، لماذا؟».

«أعرف أنك لا تتذكّر. أعرف لأنني كنت أختبرك أحياناً. كنت أشير إلى فيلم *الدكتور نو* بنوع من المزاح. كنت أفعل هذا حتى أرى إن كنت ستقول شيئاً».

«وما أمر فيلم *الدكتور نو*؟».

«كان ذلك بعد تعارفنا بفترة غير طويلة». راحت ركبته تتقافز تحت الطاولة بحركة مجنونة... «أظنك لم تكن معتاداً على شرب الفودكا ـ ولم تكن تعرف أبداً المقدار الذي يجب أن تسكبه. أتيت حاملاً كأساً كبيرة، بهذا الحجم، كأنها كأس ماء! وأما أنا فقد استغربت الأمر كثيراً، هل تتذكّر هذا؟».

«كانت هنالك ليالٍ كثيرة من هذا القبيل».

«أنت لا تتذكّر. كنت أنظّف المكان عندما تتقيأ. وكنت أضع ملابسك في الغسالة. لم تكن تعرف أصلاً أنني كنت أفعل هذه الأشياء. كنت تبكي وتحكي لي أشياء كثيرة».

«أي نوع من الأشياء؟».

بدا نفاد الصبر على وجهه: «أشياء من قبيل... أوه. كنت تقول إنك المخطئ في موت أمك. وإنك تتمنّى لو أنك متّ أيضاً. لو متّ لكنت معها، لكنتما في العتمة معاً... لا فائدة من الخوض في ذلك الآن فأنا لا أريد أن أجعلك تشعر بالسوء. كنتَ في حالة عجيبة يا ثيو...لكن الوقت معك كان ممتعاً، معظم الأحيان! كنتَ مستعداً لأي شيء! لكنك كنت في حالة فوضى داخلية شاملة. ربما كان من الأفضل أن توضع في مستشفى. لقد كنت تصعد إلى السطح وتقفز منه إلى بركة السباحة! كان ممكناً أن تكسر رقبتك. أمر جنوني بكل معنى الكلمة. كنت تستلقي على ظهرك في الشارع ليلاً... شارع غير منار، ولا يمكن لأحد أن يراك هناك. تنتظر أن تأتي سيارة لتدهسك. وأما أنا فكنت مضطراً إلى مقاتلك لكي أجعلك تعود إلى البيت».

«في ذلك الشارع الملعون، كان من الممكن أن أستلقي زمناً طويلاً قبل أن تأتي أي سيارة. كان من الممكن أن أنام هناك وأن آتي معي بكيس النوم أيضاً».

«لا أريد الخوض في هذا. لقد كنت مجنوناً. وكان من الممكن أن

تسبب في مقتلنا معاً. أتيت بأعواد ثقاب ذات ليلة وحاولت إضرام النار في البيت. هل تتذكر هذا؟».

قلت منزعجاً: «كان ذلك مزاحاً».

«وماذا عن السجادة؟ والثقب المحترق الكبير في الأريكة؟ هل كان ذلك مزاحاً أيضاً؟ لقد قلبتُ فراش الأريكة حتى لا ترى كساندرا الثقب».

«كانت تلك الأريكة القذرة رخيصة جداً، ولم تكن مقاومة للّهب».

«صحيح، صحيح، فليكن ما تريد. على أية حال، كنا نشاهد فيلم *الدكتور نو* في تلك الليلة. لم أشاهده قبل ذلك؛ وكنتُ مستمتعاً به كثيراً. أما أنت فكنت في حالة يرثى لها. يكون الرجل على جزيرته، وكل شيء جميل؛ ثم يضغط مفتاحاً فتظهر اللوحة التي سرقها!».

«أوه، يا إلهي».

أطلق بوريس ضحكة قصيرة: «لقد فعلتَها آنذاك! فليكن الرب في عونك! كان ذلك رائعاً! كنت ثملاً إلى حد جعلك تسير مترنحاً... عبرت من أمام التلفزيون وقلت لي: لدي شيء سأجعلك تراه! لدي شيء رائع! إنه أفضل شيء على الإطلاق!».

«غير معقول!».

«نعم، هذا ما حدث! كنت جالساً أشاهد الفيلم، أفضل جزء في الفيلم؛ أما أنت فلم تعد تعرف كيف تطبق فمك. اخرس! على أية حال، جعلك ذلك تغضب كثيراً وتشتمني وتصدر ضجيجاً كثيراً. بام بام. ثم، أخرجت اللوحة من مخبئها... أرأيت...». ضحك وهو يقول هذا... «الغريب في الأمر أنني كنت واثقاً من أنك تخدعني على نحو ما. عمل فني من المتحف مشهور في العالم كله؟ ماذا تقول؟ لكن... كانت اللوحة حقيقية. يمكن لأي شخص أن يدرك ذلك على الفور».

«أنا لا أصدقك».

«حسناً، إنه صحيح. لقد عرفت ذلك لأن من غير الممكن أن يرسم

أحد نسخة مقلّدة تبدو على ذلك النحو. لو أن ذلك ممكن، لكانت لاس فيغاس أجمل مدينة في تاريخ الكرة الأرضية كلّها! نعم... كان ذلك مضحكاً! أنا أُعلّمك ـ معتزاً بنفسي ـ كيف تسرق التفاح والشوكولاته من المتجر في حين أنك سرقت واحداً من الأعمال الفنية الشهيرة على مستوى العالم كله».

«أنا لم أسرقها».

ضحك بوريس: «لا، لا. لقد أوضحت لي هذا. كنت تحفظها بأمان. وكان ذلك واجباً كبيراً تقوم به في الحياة...». انحنى إلى الأمام قليلاً... «هل تقول لي الآن إنك لم تفتحها لتنظر إليها؟ بعد هذه السنين كلها؟ ما مشكلتك؟».

قلت من جديد: «لا أصدقك»... وعندما رأيت عينيه تتّسعان، ورأيته يشيح بوجهه عني قلت: «متى أخذتَها؟ وكيف؟».

«أنظر، مثلما قلت لك...».

«كيف تتوقّع أن أصدق كلمة واحدة من هذا؟».

نظر بوريس إليَّ مستغرباً من جديد. وضع يده في جيب معطفه وأخرج هاتفه الآيفون، ثم فتح صورة فيه. ناوَلني الهاتف من فوق الطاولة.

كانت صورة لخلفية اللوحة. يمكن العثور على تقليد للوحة في أي مكان. لكن ظهرها كان ذا بصمة متميزة: قطرات كبيرة من شمع الأختام، بنية وحمراء؛ ومجموعة غير منتظمة من لصاقات أوروبية (أرقام رومانية؛ وتواقيع عنكبوتية ذات التفافات وطيّات) شيء يذكّر بمظهر صندوق كبير من تلك الصناديق التي كانوا يستخدمونها لنقل الأمتعة في السفن، أو بمظهر معاهدة دولية في زمن بعيد. كانت الألوان البنية والصفراء المتفتتة على شكل طبقات غنية على نحو يكاد يكون عضوياً، كأنها أوراق أشجار ميتة.

أعاد بوريس الهاتف إلى جيبه. جلسنا صامتين زمناً طويلاً. ثم تناول بوريس سيجارة.

قال لي وهو ينفث الدخان من زاوية فمه: «هل تصدقني الآن؟».

كانت الذرات في رأسي تدور... كل واحدة على هواها. وكان وهج النشقة الأخيرة التي أخذتها قد بدأ يخبو ويحل محله إدراك وذعر يتقدمان خلسة، مثلما تسير جبهة هواء داكن أمام العاصفة. مرّت برهة طويلة ثقيلة كان كل منا ينظر فيها إلى الآخر: تردّد كيميائي غنيّ، ووحدةٌ مقابل وحدةٍ. كأننا راهبان من التيبت واقفان على قمة جبل من الجبال.

ثم نهضت من غير أن أنبس ببنت شفة، وحملت معطفي. قفز بوريس واقفاً أيضاً. قال لي عندما تحرّكت وتجاوزته: «انتظر يا بوتر. لا تكن غاضباً. كنت أعني ما قلته عندما أخبرتك أنني سأعوِّضك عن هذا».

صاح من جديد عندما عبرت ستارة حبال الخرز وخرجت إلى الشارع: «بوتر!». لكني صرت في ضياء النهار الرمادي الوسخ. كان الشارع خالياً إلا من سيارة تاكسي وحيدة بدت سعيدة برؤيتي مثلما كنت سعيداً برؤيتها، فأسرعت في اتجاهي على الفور. وقبل أن يتمكّن بوريس من قول أية كلمة، كنت قد جلست في السيارة تاركاً إياه هناك مرتدياً معطفه واقفاً عند صف من صفائح القمامة.

10

كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً عندما وصلت إلى حجرة التخزين وقد صار فكي يؤلمني لكثرة ما شددت على أسناني. كان قلبي موشكاً على الانفجار. ضوء نهار بيروقراطي. صباح مُدوٍّ للسائرين على أقدامهم، متألق بالخطر. وعندما بلغت الساعة العاشرة إلا ربعاً، كنت جالساً على أرض غرفتي في بيت هوبي وعقلي مترنّح مثل دوّامة مجنونة... يتقلّب من ناحية لأخرى. وعلى السجادة إلى جانبي زوج من أكياس التسوق: واحد فيه خيمة لم تُستخدم أبداً، والثاني فيه غلاف وسادة لا يزال يحمل رائحة غرفة نومي في لاس *فيغاس*. علبة معدنية صغيرة فيها مجموعة متنوعة من أقراص *الروكسيكودون* والمورفين كنت

أعرف أن من الأفضل أن أرميها في المرحاض. حزمة متشابكة من الشريط اللاصق قصصتها بصعوبة كبيرة مستخدماً مشرطاً قوياً... عشرون دقيقة من العمل المتأني بينما كانت ضربات قلبي نابضة في أطراف أصابعي لشدة ذعري من أن يمضي المشرط أبعد مما يجب، فيبلغ اللوحة من غير أن أقصد ذلك. تمكّنت آخر الأمر من فتح جانب الحزمة، وبيدين مرتجفتين، قشرت الشريط اللاصق قطعة بعد قطعة: لم أجد إلا نسخة من كتاب التربية المدنية مغلّفة بالورق المقوّى، ملفوفة بجريدة (عنوان الكتاب: الديمقراطية والتنوع، أنت!).

حشدٌ لامع متعدّد الثقافات. على الغلاف، أطفال آسيويون، وأطفال لاتينيون، وأطفال أميركيون أفارقة، وأطفال أميركيون أصليون، وفتاة في غطاء رأس إسلامي، وطفل أبيض في كرسي بعجلات يرفع يديه مبتسماً أمام العلم الأميركي. وداخل الكتاب، في قلب عالَم المواطنة الحسنة البهيج البليد، حيث يساهم أشخاص من مجموعات إثنية مختلفة في حياة مجتمعاتهم بكل سعادة، ويقف أطفال في قلب المدينة من حول المشروع السكني الذي يقيمون فيه حاملين أوعية السقاية من أجل العناية بشجرة في حوضٍ تمثّل أغصانها فروع الحكومة المختلفة. كان بوريس قد رسم خناجر وسيوفاً تحمل اسمه، وأزهاراً وقلوباً محيطة بالحرفين الأولين من اسم كوتكو، وكذلك مجموعة عيون متلصّصة تنظر نظرة جانبية ماكرة من فوق نموذج اختبار لم يُجِب على أسئلته كلها:

سؤال: ما حاجة الإنسان إلى حكومة؟

إجابة بوريس: *لكي تفرض إيديولوجيتها وتعاقب أصحاب الأفعال السيئة وتشجع المساواة والأخوة بين الشعوب.*

سؤال: ما هي واجبات المواطن الأميركي؟

إجابة بوريس: *التصويت في انتخابات الكونغرس، والاحتفاء بالتنوّع، ومحاربة أعداء الدولة.*

لحسن حظي، كان هوبي خارج البيت. لم يظهر عليَّ أي أثر للأقراص التي ابتلعتها. وبعد ساعتين من التلوي والتقلب في السرير في حالة من نصف اليقظة/ نصف الحلم، حالة من السقوط والعذاب... أفكار متطايرة، وإرهاق نتيجة ضربات قلبي السريعة، وصوت بوريس لا يزال يتكلّم في عقلي... أرغمت نفسي على النهوض، ونظفت أرض غرفتي مما تناثر عليها، وأخذت حماماً، وحلقت ذقني: جرحت نفسي أثناء الحلاقة لأن شفتي العليا كانت مخدرة كأنني آت من عند طبيب الأسنان؛ كانت مخدرة لكثرة الدم الذي نزف من أنفي. بعد ذلك، أعددت لنفسي قهوة، ووجدت في المطبخ كعكة بائتة فأرغمت نفسي على أكلها. نزلت إلى المتجر عند الظهر وفتحت بابه تماماً في اللحظة نفسها التي كانت فيها السيدة التي توزع البريد آتية، وقد وضعت واقياً مطرياً بلاستيكياً (بدا عليها شيء من الذعر فتوقّفت على مسافة مني، على مسافة من ذلك الشخص ذي العينين الدامعتين والشفة المجروحة والمنديل الورقي المدمى). ناولتني البريد بيد ترتدي قفازاً مطاطياً. جاءني الإدراك في تلك اللحظة: ما أهمية الأمر؟ فليكتب لوسيوس ريف لهوبي ما يريد أن يكتبه، وليتصل بالإنتربول ـ ما عدت أبالي!

كان الطقس ماطراً. وكان الناس يهرولون في الشارع محاولين الاحتماء من المطر. قطرات المطر تصفع واجهة المتجر صفعاً عنيفاً، والماء يقطر من أكياس القمامة البلاستيكية عند حافة الرصيف. كنت جالساً إلى المكتب، على كرسي عتيق ذي ذراعين. وكنت أحاول تهدئة نفسي أو، على الأقل، العثور على شيء من الراحة في الحرائر الباهتة من حولي وفي الإضاءة الخافتة داخل المتجر... في تلك الكآبة الحلوة المرة التي ذكرتني بغرف مدرسية في أيام مطيرة مظلمة في طفولتي؛ لكن أثر الدوبامين عليّ كان شديداً فجعلني في الحالة التي تسبق ارتعاشة شيء أحسسته أشبه بالموت ـ حزن تحسّه في بطنك أول الأمر، ثم يضرب جبهتك من الداخل، فتأتي العتمة التي حبستها؛ تأتي كلها مزمجرة من جديد.

رؤية نفَقية[1]. كنت سابحاً، منجرفاً، طيلة تلك السنين. منعزلًا لا ترى عيني شيئاً يثير اهتمامها في العالم الواقعي الذي كنت ماضياً فيه: هذيانٌ كان يقلّبني على أمواجه البطيئة المتراخية منذ طفولتي ويطرحني مخدَّراً على السجادة الخشنة في لاس فيغاس فأضحك لمروحة السقف... لكني لم أعد أضحك الآن، بل صرت كأنني ريب فان وينكل[2] مكشراً ممسكاً برأسه وهو مستلقٍ على الأرض بعد تأخر طال مئة سنة.

أي سبيل أمامي لكي أصحِّح الأمور؟ ما من سبيل! على نحو ما، كان بوريس قد أسدى إلي جميلاً بأن أخذ عنّي ذلك الشيء ـ أعرف، على الأقل، أن أكثر الناس سينظر إلى الأمر بهذه الطريقة: لقد تحرّرت من المشكلة، وما عاد أحد قادراً على لومي. بضربة حظ، صار القسم الأكبر من مشكلاتي محلولاً! وعلى الرغم من معرفتي بأن أي شخص عاقل سيشعر بالراحة إن أزيح عبء تلك اللوحة عن كاهله، فإنني لم أشعر في حياتي كلها بهذا القدر من الحرقة والقنوط وكره الذات والإحساس بالعار.

المتجر كئيب، حارّ. صرت غير قادرٍ على البقاء جالساً في مكاني. نهضت واقفاً، ثم جلست، ثم ذهبت إلى النافذة، ثم عدت من جديد. كان كل شيء مشبَعاً بالذعر. رأيت دمية خزفية تنظر إليَّ نظرة غِلّ. بل حتى الأثاث نفسه بدا لي مريضاً، مشوَّهاً. كيف استطعت إقناع نفسي بأنني شخص أفضل، بأنني شخص أكثر حكمة وأكثر معنى وقيمة... شخص أكثر استحقاقاً للحياة؟ كيف اقتنعت بذلك كله اعتماداً على سرّي الذي خبأته في مستودع في الضواحي؟ لكني صدقت هذا. كانت اللوحة

(1) الرؤية النفقية (Tunnel Vision): عيبٌ في الرؤية يتمثّل في القدرة على رؤية الأجسام التي تتواجد على خط مباشر مع العين فقط مع انعدام الرؤية الجانبية، أو المحيطية، كأن المرء ينظر عبر نفق.

(2) ريب فان وينكل: بطل قصة قصيرة للكاتب الأميركي واشنطن إيرفينغ ظهرت العام 1918. يسقط هذا الرجل نائماً، ثم يستيقظ بعد عشرين عاماً.

تجعلني أحس بنفسي أقل فناءً، وأقل عادية. كانت سنداً وتبرئة. كانت غذاءً وحصيلة. كانت اللوحة حجر الزاوية الذي يقوم عليه البناء كله. عندما اختفى ذلك الحجر من تحتي على نحو مفاجئ، كان فظيعاً إدراكي أن حياتي الناضجة كلها كانت قائمة ـ سراً ـ على تلك الفرحة الوحشية الخبيئة الكبرى... كان فظيعاً اقتناعي بأن حياتي تقف متوازنة فوق سرٍّ يمكن أن يودي بها كلّها في أية لحظة.

11

عندما عاد هوبي قرابة الساعة الثانية بعد الظهر، دخل المتجر من الشارع، فرنّت الأجراس المعلقة عند الباب مثلما ترن عند دخول زبون.

«نعم، لقد كانت تلك مفاجأة حقيقية ليلة أمس». كانت وجنتاه محمرتين من المطر. خلع معطفه وهزّه حتى ينفض الماء عنه. إنها الملابس التي يرتديها عند الذهاب إلى المزادات: ربطة عنق بعقدة أنيقة، وبدلة من بدلاته الجيدة القديمة. أنبأني مزاجه الحسن بأنه حقق نجاحاً في المزاد. على الرغم من ميله إلى الامتناع عن المزايدة العنيفة، فقد كان يعرف ما يريده، وكان يفوز بكمية طيبة من الأشياء الجميلة عندما تكون جلسات المزاد بطيئة هادئة فلا يتصدّى له أحد. «أظنكما أمضيتما ليلة حافلة».

كنت قابعاً في الزاوية أشرب الشاي. وكان صداعي قوياً، بل فظيعٌ.

«كان أمراً جميلاً أن أراه بعد كل ما سمعته عنه. هذا يشبه أن تلتقي بشخصيةٍ تعرفها من خلال قراءة كتاب. كنت أتصوّره دائماً أشبه بشخصية المحتال الماهر في رواية أوليفر تويست... أنت تفهم قصدي... الصبي الصغير، العفريت، ما اسم الممثل الذي لعب دوره في الفيلم؟ جاك، شيء ما! معطف مهلهل. ورقبة متسخة».

«صدقني، لقد كان في ذلك الوقت وسخاً بما فيه الكفاية».

«حسناً، تعرف أن ديكنز لا يخبرنا بما حدث لذلك المحتال في روايته. لعله كبر وصار رجل أعمال محترماً، من يدري؟ أرأيت كيف جُن

جنون بوبر عندما رآه. لم أر في حياتي كلها حيواناً سعيداً تلك السعادة كلها...». كان ملتفتاً إليَّ نصف التفاتة لأنه مشغولٌ بمعطفه، فلم يلاحظ كيف تجمَّدت عندما ذكر اسم بوبر... «أوه، وأيضاً... قبل أن أنسى، اتصلت بك كيتزي».

لم أجبه. لم أستطع أن أجيبه. لم أفكر في بوبر قبل تلك اللحظة.

«اتصلَتْ في ساعة متأخّرة، في العاشرة، فقلت لها إنك صادفت بوريس وجئت به إلى البيت، ثم ذهبتما معاً. آمل أن تكون إجابتي موفّقة».

قلت بعد لحظة صمت مرهقة كنت أحاول فيها استجماع أفكاري التي راحت تجري في اتجاهات كثيرة سيئة: «جيّد. جيّد».

وضع هوبي إصبعه على شفتيه وقال: «ما الذي يجب أن أذكّرك به؟ لقد طلبت مني كيتزي شيئاً. دعني أفكّر...». أوشكَ على الكلام من جديد، ثم سكت، ثم هز رأسه وقال: «لا أستطيع التذكّر. عليك أن تتّصل بها. لديكما عشاء الليلة. أعرف هذا. إنه في بيت أحد ما. العشاء في الساعة الثامنة! أتذكّر هذا. لكني لا أستطيع تذكّر المكان».

كنت أحس كما لو أن قلبي قد سقط من مكانه، لكني أجبته: «في بيت *لونغستريتس*».

«يبدو هذا صحيحاً. على أية حالة، بوريس! أمر جميل... إنه جذاب... كم من الوقت سيبقى في المدينة؟ كم من الوقت سيبقى هنا؟». كرّر السؤال بطريقته اللطيفة عندما لم أجبه بشيء. كان غير قادر على رؤية وجهي لأنني كنت ملتفتاً عنه أنظر إلى الشارع مذعوراً... «يجب أن ندعوه إلى العشاء، ألا تظن ذلك؟ لماذا لا نطلب منه أن يمنحنا ليلتين عندما يتوفّر لديه وقت لذلك؟...». لم أجبه بشيء، فأضاف: «هذا إذا أحببت ذلك. الأمر متعلّق بك أنت، أخبرني بما تقرره».

12

بعد نحو ساعتين من ذلك ـ مستنفَداً؛ عيناي دامعتان من ألم الصداع

ـ كنت لا أزال أفكّر تفكيراً محموماً باحثاً عن طريقة أعيد بها بوبر. وفي الوقت نفسه، كنت أخترع، وأرفض أيضاً، تفسيرات لغيابه. *تركته مربوطاً أمام أحد المتاجر! لا بد أن أحداً سرقه!* هذه كذبة مكشوفة: فبمعزل عن حقيقة أن المطر كان شديداً في الخارج، فإن بوبر كلب عجوز، شديد النزق إزاء الرسن إلى حد يجعل من الصعب أن يسير به المرء خطوتين وهو مربوط. *أخذته إلى من تعتني بالكلاب*. كانت المرأة التي تعتني ببوبر امرأة كبيرة السن يبدو عليها الفقر اسمها سيسيليا؛ تمارس هذه المرأة عملها في شقتها، وتعيد بوبر دائماً في الساعة الثالثة بعد الظهر. *أخذته إلى الطبيب البيطري!* بصرف النظر عن أن بوبر لم يكن مريضاً (وإن كان مريضاً، فلماذا لم أقل شيئاً عن ذلك؟)، فقد كان بوبر يذهب إلى الطبيب البيطري نفسه الذي يعرفه هوبي منذ أيام ويلتي وكلبه. إنه د. ماكدرموت. لكن عيادة د. ماكدرموت في شارعنا نفسه، فما الذي يجعلني آخذه إلى طبيب آخر؟

تنهّدتُ ونهضتُ واقفاً وسرت إلى النافذة. كنت أصل إلى الطريق المسدود نفسه مرة بعد مرة. أتخيّل هوبي بعد ساعة أو ساعتين من الآن يسير في البيت مشغول الذهن، ثم يأتي إلى المتجر باحثاً عن الكلب ويسألني: «*أين هو بوبر؟ هل رأيته؟*». هكذا كان الأمر: حلقة مفرغة لا نهاية لها... لا وجود لمفتاح alt كما في الكمبيوتر! يمكن أن يغلق المرء البرنامج إغلاقاً قسرياً ثم يغلق الكمبيوتر نفسه، ثم يشغِّله من جديد، لكن اللعبة ستظلّ تتوقّف متجمّدة في المكان نفسه. «*أين هو بوبر؟*». لا يوجد رمز سرّي للغش. انتهت اللعبة. ما من سبيل لتجاوز تلك اللحظة!

كان المطر الغزير قد صار رذاذاً هيّناً، وصارت الأرصفة لامعة والماء يقطر من المظلات. بدا أن كل من في الشارع قد انتهز اللحظة لكي يضع معطفه المطريّ ويسرع خارجاً إلى زاوية الشارع مع كلبه: كلاب أينما نظرت، كلاب كبيرة تسير متثاقلة، وكلاب سوداء عادية، وكلاب صغيرة من أنواع مختلفة، وكلب بولدوغ فرنسي عجوز، وكلبان من

كلاب الدانشينغ الألمانية يسيران معجبَيْن بنفسَيْهما، رافعين رأسيهما، متشامخَيْن جنباً إلى جنب في الشارع. عدت إلى مقعدي مضطرباً فجلست وتناولت بروشور المبيعات في بيت كريستيز للمزادات ورحت أقلّب صفحاته بحركة عنيفة: لوحات مائية حداثية مفزعة، وألفا دولار ثمناً لتمثال برونزي فكتوري بشع لجاموسين يتعاركان... شيء سخيف!

ماذا أقول لهوبي؟ كان بوبر عجوزاً أصمَّ؛ وكان بعض الأحيان يسقط نائماً في أماكن غريبة فلا يسمعنا حين نناديه. لكن، سرعان ما يحين وقت إطعامه؛ وسوف أسمع هوبي يسير في الطابق العلوي باحثاً عنه خلف الأريكة وفي غرفة بيبا، ثم في كل مكان اعتاد أن ينام فيه. «بوبسكي؟ تعال يا فتى! إنه وقت الغداء! فهل أستطيع ادّعاء الجهل؟ هل أقوم وأتظاهر بأنني أفتش البيت معه؟ هل أحك رأسي حائراً؟ اختفاء غريب غامض؟ مثلّث برمودا؟ عندما عدت من جديد، بقلبي الوجل، إلى فكرة وجوده عند السيدة التي تعتني بالكلاب، سمعت رنين الأجراس المعلّقة عند الباب.

«لقد بدأ يصير كلبي».

بوبر ـ مبتل كلّه، لكنه لا يبدو في حالة سيئة نتيجة مغامرته. وقف بقوائم متصلّبة (وقفة رسمية بعض الشيء) عندما وضعه بوريس على الأرض؛ ثم لم يلبث أن سار إليَّ ورفع رأسه حتى أداعبه تحت ذقنه.

قال بوريس: «لم يكن في شوق إليك أبداً. لقد أمضينا معاً يوماً جميلاً جداً».

«ماذا فعلتما؟». قلت هذا بعد صمت طويل لأنني لم أهتدِ إلى شيء آخر أقوله.

«نمنا معظم الوقت. أوصلنا السائق...» دعك عينيه المحمرتين وتثاءب... «أخذنا قيلولة لطيفة جداً، نحن الاثنان. تعرف كيف كان ينام متكوّراً كأنه قبعة فراء فوق رأسي!». أبداً لم يكن بوبر يحب أن ينام

واضعاً ذقنه على رأسي مثلما يفعل مع بوريس ـ مع بوريس وحده... «ثم استيقظنا. أخذت دوشاً، ثم أخرجته في نزهة. لم نذهب بعيداً لأنه لم يرد الذهاب بعيداً. أجريت بعض المكالمات الهاتفية، ثم أكلنا سندويتشين وجلبنا السيارة. اسمع، إنني آسف...». قال العبارة الأخيرة بسرعة عندما لم أجبه بشيء، ومرر أصابعه في شعره المشعّث... «أنا آسف بالفعل. وسوف أصحّح الأمر من جديد؛ نعم، سوف أصحّحه».

كان الصمت بيننا شديد الثقل.

«على أية حال، هل استمتعت الليلة الماضية؟ كانت ليلة ممتعة لي. ليلة كبيرة في الخارج! لكني لم أجد نفسي في حالة ممتازة هذا الصباح!...». ثم أضاف عندما لم يسمع مني إجابة... «أرجوك، قل شيئاً. كان شعوري سيئاً طيلة النهار. كان سيئاً جداً».

كان بوبر قد عبر الغرفة إلى وعاء الماء. بدأ يشرب مستمتعاً. مر زمن طويل ما كان في المكان خلاله أي صوت غير صوت شربه الرتيب.

وضع بوريس يده على قلبه: «حقّاً يا ثيو... أنا آسف جداً. مشاعري ـ خجلي ـ ليست لديَّ الكلمات المناسبة للتعبير عنهما...». صار صوته أكثر جدّية عندما بقيت صامتاً ولم أجبه بشيء... «نعم، أنا أعترف بهذا، أعترف بأن جزءاً من عقلي يسألني: '*لماذا خرّبت كل شيء يا بوريس؟ ولماذا فتحت فمك الكبير وتكلّمت؟*' ، لكن، كيف أستطيع أن أكذب عليك وأتنصَّل من الأمر؟ آمل أن تعترف لي بهذا، على الأقل!». راح يفرك يديه مرتبكاً، مستثاراً... «أنا لست جباناً. لقد أخبرتك. لقد اعترفت لك. لم أقبل أن أتركك في حالة قلق غير عارف بما يجري. وسوف أعوِّضك عمَّ حدث، بطريقة ما، أعدك بهذا».

«لماذا...». كان هوبي في الأعلى مشغولاً بتنظيف المكان بالمكنسة الكهربائية، لكني حرصت على إبقاء صوتي منخفضاً على الرغم من ذلك... الهمس الغاضب نفسه الذي كنا نلجأ إليه عندما تكون كساندرا في الأسفل، فلا نريد أن تسمع صوت مشاجرتنا... «لماذا؟».

«لماذا ماذا؟».

«لماذا أخذتها، بحق السماء؟».

رفرفت عينا بوريس، ثم قال بثقة كان واضحاً أن لا أساس لها: «لأن مافيا يهودية كانت ستأتي إلى بيتك؛ هذا هو السبب!».

«لا، لم يكن هذا سبب ما فعلته».

تنهّد بوريس: «حسناً، إنه سبب جزئي، قليلاً. هل كان بيتك مكاناً آمناً؟ لا! ولم تكن المدرسة آمنة أيضاً. أتيت بكتابي المدرسي القديم ولففته بصحيفة، ثم ألصقته بالطريقة نفسها...».

«سألتك لماذا أخذتها؟».

«ما الذي أستطيع قوله؟ إنني لص».

كان بوبر لا يزال مستمراً في لعق الماء من الوعاء. كان يشرب بحماسة جعلتني أتساءل إن كان بوريس قد فكّر في تقديم الماء إليه طيلة اليوم الرائع الذي أمضياه معاً.

قال وهو يهزّ كتفيه قليلاً: «ثم... لقد أردتها. نعم، من عساه لا يريدها؟».

«لماذا أردتها؟...». ثم أضفت عندما لم يجبني... «أمن أجل المال؟».

قال بوريس: «بالطبع لا، لا يمكنني بيع شيء من هذا القبيل. لكن عليَّ أن أعترف بأنني كنت في مأزق، منذ أربع أو خمس سنين، وأوشكت على بيعها فعلاً، أوشكت على بيعها بسعر منخفض جداً يكاد يكون لا شيء... فقط حتى أتخلص منها... يسعدني أنني لم أفعل ذلك. كنت في ورطة كبيرة وفي حاجة إلى المال، لكن...». نشق نشقة قوية ثم مسح أنفه... «إن محاولة بيع لوحة كهذه هي الطريقة الأسرع للذهاب إلى السجن. وأنت تعرف هذا بنفسك. وأما عندما تستخدمها ضماناً، فإن القصة تصير مختلفة! إنهم يبقونها عندهم على سبيل التأمين حتى يتمكنوا من إعطائك البضاعة من غير أن تدفع ثمنها مقدّماً. وبعد ذلك، تبيع البضاعة وتعود

حاملاً رأس المال فتعطيهم نصيبهم حتى يعيدوا اللوحة إليك. انتهت اللعبة. هل فهمت؟».

لم أقل شيئاً. عدت إلى تقليب صفحات كاتالوج كريستيز الذي كان لا يزال مفتوحاً أمامي على طاولة المكتب.

«أنت تعرف ما يقال...». صار صوته حزيناً، وصار في الوقت نفسه مسترضياً... «يقولون، الفرصة تصنع اللص... أنت تعرف هذا أكثر من أي شخص آخر! لقد فتحتُ خزانتك في المدرسة بحثاً عن نقود للغداء. قلت في نفسي: ماذا؟ غريب؟ ما هذا؟ كان أمراً سهلاً أن آخذها وأخبئها. ثم ذهبت بذلك الكتاب القديم إلى ورشة الأشغال اليدوية التي كان لكوتكو درس فيها: الحجم نفسه، والثخانة نفسها ـ استخدمت الشريط اللاصق نفسه، وكل شيء... ساعدتني كوتكو في فعل ذلك. لم أقل لها شيئاً عن سبب ما كنت أفعله. لا يمكن إخبار كوتكو بأشياء من هذا القبيل...».

«ما زلت غير قادر على تصديق أنك سرقتها مني».

«انظر. لن أحاول اختلاق الأعذار. لقد أخذتها. لكن...». ابتسم ابتسامة ظافرة... «هل أنا كاذب؟ هل كذبت عليك في هذا الأمر؟».

أجبته بعد فترة صمت قصيرة كان واضحاً فيها أنني لم أصدّقه: «بلى... لقد كذبت عليَّ في ما يخص اللوحة».

«أنت لم تسألني عنها سؤالاً مباشراً! لو سألت لقلت لك».

«هذا كلام فارغ يا بوريس. لقد كذبت عليّ».

قال بوريس وهو ينظر من حوله مستسلماً: «حسناً، أنا لست كاذباً الآن. كنت أظنّ أنك قد اكتشفت الأمر بنفسك! منذ سنين! وكنت أظنّك تعرف أنني الفاعل».

سرت مبتعداً عنه، باتجاه السلم، فسار بوبتشيك في أعقابي. كان هوبي قد أوقف المكنسة الكهربائية فحل محل صوتها صمت صارخ. لم أكن أريد أن يسمع هوبي كلامنا.

تمخطّ بوريس في منديله، ثم كشّر عندما فتحه ونظر فيه: «ليس الأمر واضحاً لي تماماً، لكني واثق من أنها في مكان ما في أوروبا...». طوى المنديل ووضعه في جيبه... «جَنَوا... هذا محتمل... لكني أرجح أن تكون في بلجيكا أو ألمانيا. ربما في هولندا. هناك، ستكون لها فائدة أكبر في التفاوض لأن الناس في تلك الأماكن يقيمون لها وزناً أكبر».

«هذا لا يجعل الأمر أكثر بساطة».

«حسناً، اسمع! كن سعيداً لأنها ليست في أميركا الجنوبية! لو كانت هناك، فإنني أضمن لك أنك لن تتمكّن من رؤيتها مجدداً».

«ظننت أنك قلت لي إنها ضاعت من يدك».

«لست أقول شيئاً إلا أنني أظن... إن من المحتمل أن أتمكّن من معرفة مكانها. ربما. هذا أمر مختلف تماماً عن معرفة كيف أستطيع استعادتها. لم يسبق لي التعامل مع هؤلاء الناس على الإطلاق».

«أي ناس؟».

ظل بوريس صامتاً؛ وظلت عيناه منكّستين إلى الأرض... تماثيل كلاب حديدية صغيرة، وكتب مكدسة، وسجادات صغيرة كثيرة.

سألني وهو يشير برأسه إلى بوبتشيك: «ألا يبوّل على هذه الأنتيكات؟... على هذا الأثاث الجميل كله؟».

«لا».

«كان يبوّل في كل مكان في بيتكم. وكانت السجادة في الأسفل فائحة برائحة البول كلّها. أظن ذلك لأن كساندرا لم تكن تحرص على أخذه إلى الخارج قبل أن تسكن معهما».

«أي ناس؟».

«ماذا؟».

«من هم الناس الذين لم تتعامل معهم من قبل؟».

«الأمر معقّد...». ثم أضاف مسرعاً... «سأشرحه لك إذا أردت. لكني

أظن أننا مرهقان، وأن الوقت ليس مناسباً. سأجري بعض المكالمات الهاتفية وأخبرك بما أتوصّل إليه. هل اتفقنا؟ وعندما أنجز ذلك، سأعود إليك وأحكي لك كل شيء. أعدك بهذا. وبالمناسبة...». أشار بإصبعه إلى شفتي العليا.

فاجأتني إشارته، فقلت: «ماذا؟».

«لديك بقعة هنا. تحت أنفك».

«جرحت نفسي أثناء الحلاقة».

«أوه!».

نظرت إليه واقفاً هناك فبدا لي كأنه موشك على الاندفاع في نوبة جديدة من الاعتذار الحار، أو من الغضب، لكن الصمت الذي ظل معلّقاً بيننا كان محمَّلاً بشيء قاطع، نهائي... «حسناً».

«حسناً».

«إذاً، أراك في وقت لاحق».

«طبعاً. بالتأكيد». سار خارجاً من الباب. ووقفت خلف الزجاج يخفض رأسه تحت قطرات الماء المتساقطة من الخيمة أمام المتجر، ثم يبتعد مسرعاً. رأيت هيئته تسترخي وتبدو أكثر ارتياحاً بمجرد وصوله إلى نقطة ظن فيها أنه صار خارج مجال نظري. أحسست بأن هنالك احتمالاً كبيراً جداً لأن تكون تلك آخر مرة أراه فيها.

13

لم أجد أي معنى لإبقاء المتجر مفتوحاً بالنظر إلى الحالة التي كنت فيها... حالة أقرب إلى الموت لشدة صداعي، ولأن بؤساً هائلاً كان يلفّني، فصرت شبه عاجز عن الرؤية. بدأ الناس يسيرون في الشارع لأن الشمس ظهرت بعد المطر؛ لكني وضعت لافتة «مغلق»، ثم جرجرت نفسي صاعداً السلم وقد أصابتني مطارق الألم خلف عينيَّ بما يشبه الغثيان. سار بوبر في أعقابي بخطواته المتدحرجة القلقة. قررت أن أنام بضع ساعات قبل حلول موعد العشاء.

كنت قد اتفقت مع كيتزي على اللقاء في بيت أمها في الساعة الثامنة إلا ربعاً قبل أن نتوجه إلى بيت لونغستريتس، لكني وصلت في وقت مبكر بعض الشيء لأنني أردت رؤيتها وحدها بضع دقائق قبل أن نذهب إلى دعوة العشاء، ولأنني أتيت معي بشيء من أجل السيدة باربر: كاتالوج نادر لمعرض فني وجدته بين مجموعة أشياء اشتراها هوبي دفعة واحدة. كان ذلك الكاتالوج بعنوان «*طباعة الأعمال الفنية في عهد رامبراندت*».

قالت لي إيتا عندما ذهبت إلى المطبخ حتى أطلب منها أن تنقر على باب السيدة باربر قبل دخولي: «لقد استيقظت ونهضت. أخذتُ الشاي إليها قبل أقل من ربع ساعة».

كان معنى «استيقظت ونهضت» بالنسبة إلى السيدة باربر هي أن تكون مرتدية بيجامتها وشبشباً، إضافة إلى ما يبدو كأنه رداء أوبرا قديم ترميه على كتفيها.

قالت لي: «أوه، ثيو!». ظهرت على وجهها بساطة صريحة مؤثّرة جعلتني أتذكر آندي في تلك المناسبات النادرة التي يكون فيها مسروراً حقاً نتيجة حدوث شيء ما... وصول القطعة العينية من تلسكوب «نادلر 22 ملم» التي طلبها عبر البريد، أو اكتشافه السعيد لموقعٍ إباحيٍّ على الإنترنت يعرض مشاهد حية تتضمّن تمثيل أدوار، وتظهر فيها فتيات كبيرات الأثداء تلوّحن بسيوفهن وهن تمارسن الجنس مع فرسان وسحرة، وأشياء من هذا القبيل. كانت السيدة باربر تقول لي: «يا لك من شخص لطيف عزيز جداً».

«آمل ألا يكون هذا الكاتالوج لديكِ من قبل!».

قالت وهي تقلب صفحاته مسرورة: «لا... كم هو رائع أنك جلبته من أجلي! لن تصدق هذا أبداً، أبداً، لكني شاهدت هذا المعرض في بوسطن عندما كنت في الجامعة».

«لا بد أنه كان معرضاً متميزاً». قلت هذا وأنا أجلس على أحد المقاعد.

كنت أشعر بسعادة أكبر مما كان يمكن أن أظنّه ممكناً قبل ساعة واحدة من ذلك. انزعاجي بسبب اللوحة، وصداعي المؤلم، وقنوطي لأنني مضطر إلى تناول العشاء مع الزوجَين لونغستريتس... أتساءل كيف سأكون قادراً على قضاء الأمسية في تناول صلصة السرطان الحارة والاستماع إلى فوريست لونغستريتس يطرح وجهات نظره في الاقتصاد في حين لا أكون راغباً إلا في إطلاق النار على رأسي. لقد حاولت الاتصال بكيتزي معتزماً أن أرجوها إخبارهما بأننا مريضان معاً بحيث نتمكن من التملّص من تلك الدعوة وقضاء الليلة في شقتها، في السرير. لكن، وكما يحدث أكثر الأحيان (ويغضبني كثيراً) عندما تخرج كيتزي من البيت، تظلّ مكالماتي من غير إجابة، ولا يأتيني رد على رسائلي الإلكترونية ولا النصّية، ولا يبقى لي غير البريد الصوتي. عندما اشتكيت من هذه 'الاستعصاءات' الكثيرة في التواصل بيننا، قالت لي متجهّمة الوجه: «يجب أن أشتري هاتفاً جديداً. هناك شيء غير طبيعي في هذا الهاتف». وعلى الرغم من مطالبتي إياها، مرات كثيرة، ونحن في الشارع بأن ندخل *آبل* ستور ونشتري هاتفاً جديداً، فقد كان لديها دائماً عذر يحول دون ذلك: هناك صف انتظار طويل في المحل؛ لا وقت لدينا الآن، لست في مزاج حسن اليوم؛ ظمأى؛ جائعة؛ في حاجة للذهاب إلى المرحاض؛ ألا نستطيع أن نفعل هذا في وقت آخر؟

عندما جلست على حافة سريري بعينين مغمضتين وقد اعتراني ضيق حقيقي لعدم قدرتي على الاتصال بها (كان يبدو لي أنني لا يمكنني الاتصال بها على الإطلاق عندما أكون في حاجة حقيقية إلى ذلك)، فكّرت في الاتصال بفوريست وإخباره بأنني مريض. لكنني كنت راغباً في رؤيتها على الرغم من إحساسي بسوء حالتي، حتى إذا كان معنى ذلك أن نجلس معاً إلى طاولة عشاء واحدة مع أشخاص لا أحبهم. وحتى أصير قادراً على إرغام نفسي على النهوض من السرير والذهاب إلى حيث

يعيش فوريست وزوجته وتحمل الجزء الأسوأ من تلك الأمسية، ابتلعت ما كان ـ في الأيام الخوالي ـ جرعة معتدلة من الأقراص. صحيح أن تلك الجرعة لم ترحني من صداعي، إلا أنها جعلتني في مزاج حسن إلى حد فاجأني فعلاً. لم أشعر منذ شهور بأنني في حالة حسنة إلى هذا الحد.

قالت لي السيدة باربر التي كانت لا تزال جالسة تتصفّح الكاتالوج وقد بان عليها سرور واضح: «هل ستتعشى الليلة مع كيتزي في الخارج؟ مع فوريست لونغستريتس؟».

«هذا صحيح».

«لقد كان في صفكما، أنت وآندي».

«صحيح، لقد كان معنا».

«ألم يكن واحداً من أولئك الأولاد الفظيعين؟».

كان أثر الأقراص السعيد قد جعلني كريم الطبع. فقلت لها: «لم يكن فظيعاً حقاً...». كان ساذجاً، بطيء الفهم *(يقول للمعلم: «سيدي، هل تُعتبر الأشجار من النباتات؟»)*، وما كان لديه القدر الكافي من الذكاء حتى يصير قادراً على اضطهاد آندي واضطهادي بأية طريقة فعالة... «لكن، نعم، أنت محقّة! لقد كان واحداً من تلك المجموعة، أنت تعرفينهم، تيمبل وثارب وكاتاناو وشيفرمان».

«نعم. تيمبل. أتذكره بالطبع. وابن كيبل أيضاً».

قلت بشيء من الدهشة: «ماذا؟».

قالت من غير أن ترفع رأسها عن الكاتالوج: «لقد اتخذت أموره منحًى سيّئاً، بالتأكيد. صار يعيش على القروض... ولا يستطيع الاحتفاظ بعمله. كما كانت له مشكلات مع القانون، على ما سمعت. لقد حرّر شيكات من غير رصيد. ومن المؤكد أن أمّه عانت الكثير حتى تمكّنت من إقناع الناس بعدم توجيه اتهامات قضائية إليه. وأما وين تيمبل...».

رفعت رأسها ونظرت إليَّ قبل من أن أتمكن من توضيح أن كيبل لم يكن

في حقيقة الأمر جزءاً من عصبة الأولاد التي كانت تضايقنا وتسخر منا... «فقد كان هو الذي ضرب رأس آندي بالحائط في حمّامات المدرسة».

«صحيح، هو من فعل ذلك».

لم يكن ضرب رأس آندي بالجدار الأمر الرئيسي الذي أتذكّره من حادثة الحمّامات تلك، بل كان قيام شيفرمان وكافاناو بالإمساك بي وإجباري على الانحناء ومحاولة إدخال إصبع مزيل الرائحة في مؤخّرتي.

لفَّت السيدة باربر نفسها بمعطفها ـ بحركة رقيقة ـ ووضعت شالها على وسطها كأنها جالسة على مزلجة في طريقها إلى حفلة عيد الميلاد. كانت مستمرة في تقليب صفحات الكتاب. قالت: «هل تعرف ما قاله ذلك الولد، تيمبل؟».

«عفواً؟».

ظلت عيناها تنظران إلى الكتاب، لكن صوتها كان واضحاً رنّاناً كأنها تكلم شخصاً غريباً في حفلة كوكتيل: «هل تعرف ما قاله تيمبل لتبرير موقفه عندما سألوه عن السبب الذي جعله يضرب رأس آندي بالجدار؟».

«لا، لا أعرف».

«قال: لأن ذلك الولد يثير أعصابي». لقد صار محامياً الآن. هكذا قالوا لي. آمل أن يتمكّن من ضبط أعصابه على نحو أفضل قليلاً عندما يكون في قاعة المحكمة.

قلت لها بعد لحظة صمت كسلى: «لم يكن وين تيمبل أسوأ واحد بينهم. إن كافاناو وشيفرمان...».

قالت معترضة: «لم تكن أمّه تصغي إليَّ أصلاً. كانت تكتب رسائل على هاتفها الخليوي طيلة الوقت. قالت إن لديها مسألة طارئة مع أحد العملاء».

نظرت إلى ياقة كم قميصي. لقد حرصت على ارتداء قميص جديد بعد العمل ـ إن كان هناك أمر واحد علّمتني إياه سنوات طويلة من تعاطي

المخدرات (إذا لم أقل شيئاً عن سنوات قِطَع الأنتيكات المستصلحة على أنها أصلية)، فهو أن القمصان المنشّاة والبدلات الآتية لتوها من محل تنظيف الملابس، تمتلك قدرة كبيرة جداً على إخفاء خطايا كثيرة ـ لكني كنت في حالة ذهول وعدم انتباه نتيجة أقراص المورفين، وكنت أتجول في الغرفة وأدمدم بأغنية لإيليوت سميث وأنا أرتدي ملابسي، *ضياء الشمس... يبقيني صاحياً منذ أيام!* لاحظت الآن أن ياقة أحد الكمّين لم تكن مكوية بشكل صحيح. ثم إن الزرين المعدنيين اللذين اخترتهما لم يكونا زوجاً واحداً: واحد بنفسجي، والآخر أزرق.

قالت السيدة باربر شاردة الذهن: «كان يمكننا أن نلجأ إلى القضاء. لست أتذكّر السبب الذي جعلنا نمتنع عن ذلك». رأى تشانس يومها أن من شأن ذلك أن يزيد الوضع صعوبة على آندي في المدرسة.

لم تكن أمامي طريقة تسمح لي بإصلاح وضع قميصي من غير أن يلاحظ أحد ذلك. عليَّ أن أنتظر سيارة تاكسي: «لا بأس... كان شيفرمان هو المسؤول عمَّ حدث في الحمّامات».

«نعم، هذا ما قاله آندي. وكذلك تيمبل. لكن الضربة الفعلية التي أصابت آندي بارتجاج دماغ ما كانت موضع شك».

«كان شيفرمان ولداً خبيثاً. هو من دفع آندي في اتجاه تيمبل. كان شيفرمان واقفاً في الناحية الأخرى من غرفة الخزائن غارقاً في الضحك مع كافاناو وبقية الأولاد عندما بدأت المشاجرة».

«حسناً، لست أعرف شيئاً عن ذلك، إلا أن ديفيد...». كان ديفيد الاسم الأول لشيفرمان... «لم يكن مثل الآخرين على الإطلاق، بل كان في غاية اللطف دائماً، وفي غاية التهذيب. لقد استقبلناه في بيتنا مرات كثيرة، وكان طيباً دائماً في ما يخص إشراك آندي بكل شيء. أنت تعرف، يكون عدد الأولاد كبيراً في حفلات عيد الميلاد...».

«صحيح، لكن شيفرمان كان يضمر بغضاً لآندي، دائماً، وهذا لأن أمه

كانت ترغمه دائماً على الاهتمام به. ترغمه على سؤال آندي عن بعض الأشياء، وترغمه على المجيء إلى بيتكم. تنهّدت السيدة باربر ووضعت شايها. كان شاياً بالياسمين. شممت رائحته من حيث كنت جالساً.

قالت على نحو مفاجئ وهي تجذب ياقتها المطرَّزة فتلفّ نفسها بالرداء على نحو أكثر إحكاماً: «ربما... يعرف الرب أنك كنت على معرفة بآندي أكثر مني. لم أكن أبداً أراه على ما هو؛ وقد كان طفلي المفضّل، بطريقة ما. ليتني لم أكن حريصة دائماً على محاولة جعله شخصاً آخر. أنا واثقة من أنك كنت قادراً على قبوله على حاله أكثر من قدرتي وقدرة أبيه، بل حتى أكثر من قدرة شقيقه». وفي الصمت الصقيعي الذي أعقب ذلك، قالت بنبرة الصوت نفسها وهي مستمرّة في تقليب صفحات الكتاب: «انظر، ها هو القديس بطرس يبعد الأطفال الصغار عن يسوع المسيح».

نهضت طائعاً وأتيت فوقفت خلفها. كنت أعرف ذلك العمل، فهو موضوع واحدة من اللوحات المطبوعة العظيمة الموجودة في متحف *مورغان*؛ يطلقون عليه اسم *«طبعة المئة جلدر»*: إنه السعر الذي تقول الأسطورة إن رامبراندت اضطر إلى دفعه حتى يستعيد لوحته هذه بعد أن باعها.

«إنه شديد الاهتمام بالتفاصيل... رامبراندت. حتى موضوعاته الدينية ـ كما لو أن القديسين آتون من نموذج حقيقي لديه في الحياة. انظر إلى هاتين الصورتين، إلى القديس بطرس...». أشارت إلى اللوحة الصغيرة على الجدار، تلك اللوحة المرسومة بالقلم... «عملان مختلفان تماماً تفصل بينهما سنوات كثيرة، لكن الرجل نفسه تماماً. جسداً وروحاً. يمكن تمييزه من بين حشد من الناس. هذا الرأس الآخذ بالصلع، الوجه نفسه... وجه شخص صادق مخلص لعمله. ينبعث الصلاح من ملامحه كلها، لكن فيه دائماً تلك النزعة الخفية إلى القلق والاضطراب؛ فيه ذلك الظل الخفيّ للخائن». على الرغم من أنها كانت مستمرّة في النظر إلى

الكتاب، فقد وجدت نفسي أنظر إلى صورة آندي ووالده ذات الإطار الفضّي على الطاولة إلى جانبها، كانت صورة عادية، لكن ما يظهر فيها من نذيرٍ، ومن إيحاء بدنو الأجل وسرعة الزوال، كان مزيجاً يعجز سيد من سادة المدرسة الهولندية في الرسم عن تركيبه على نحو أكثر مهارة. آندي والسيد باربر على خلفية قاتمة، وشموع مزروعة في حوامل جدارية، ويد السيد باربر مستقرة على نموذج سفينة صغير. ما كان يمكن لهذا الانطباع أن يصير أكثر إثارة للذعر، أو أكثر إنباءً بما سيحدث، لو أن جمجمة كانت تحت تلك اليد! وفي أعلى الصورة، محل الساعة الرملية المحبوبة لدى رسّامي لوحات الطبيعة الصامتة[1] الهولنديين في القرن السابع عشر، ساعة جدارية قاسية موحية بشيء من الشر، وعلى الساعة أرقام رومانية. عقربان أسودان: الثانية عشرة إلا خمس دقائق. كاد الوقت ينفد!

«ماما!». كان ذلك بلات الذي اقتحم الغرفة اقتحاماً ثم تجمَّد عندما رآني.

قالت السيدة باربر من غير أن ترفع رأسها: «لا تشغل بالك بقرع الباب!».

حملق بلات فيّ وقال: «أنا... كيتزي...». بدا عليه الاضطراب، وضع يديه في جيبي سترته المنتفخين... قال لأمه: «ثمة ما أخّرها».

بدا على السيدة باربر كما لو أنها أجفلت. قالت: «أوه». نظر كل منهما للآخر. فبدا لي أن شيئاً لم يُقَل قد مر بينهما.

سألتُ بنبرة لطيفة وأنا أنظر إلى ما بينهما: «يؤخّرها؟ أين؟».

لم أتلق إجابة على هذا السؤال. كانت عينا بلات مركّزتين على أمه. فتح فمه ثم أغلقه. وضعت السيدة باربر الكتاب جانباً بحركة سلسة من غير أن تنظر في اتجاهي... «حسناً، لدي ما يجعلني أظن، بعض الظن، أنها ذهبت اليوم لتلعب الغولف».

(1) تظهر في لوحاتهم دائماً رموز موحية بالموت لتكون تذكيراً بحتميته.

قلت وقد فوجئت بعض الشيء: «حقّاً؟ أليس الطقس غير مواتٍ لذلك؟».

قال بلات بلهفة وهو يلقي نظرة سريعة في اتجاه أمّه: «هناك زحمة سير. إنها عالقة. حالة فوضى على الطريق السريع...». استدار نحوي وقال... «لقد اتصلت بفوريست. سوف يؤخّرون موعد العشاء».

قالت السيدة باربر بعد لحظة صمت: «ربما، ربما يكون من المستحسن أن تخرج مع ثيو لتتناولا شراباً. نعم». قالت هذا بنبرة قاطعة مخاطبة بلات وقد ضمت يديها معاً كما لو أن المسألة منتهية... «أظنها فكرة ممتازة. اخرجا أنتما الاثنين واشربا شيئاً...». التفتت إليَّ مبتسمة... «وأنت، أيُّ ملاك أنت؟ أشكرك كل الشكر على هذا الكتاب. إنه أجمل هدية في العالم». قالت هذا وهي تمد يدها وتمسك بيدي...

قلت: «لكن...».

«ماذا؟».

قلت بعد لحظة صمت نتيجة ارتباكي: «ألن تكون كيتزي في حاجة للعودة إلى البيت حتى تستعد للعشاء؟». نظرا إليَّ معاً.

«أليست في حاجة إلى تغيير ملابسها إن كانت تلعب الغولف؟ لا أظنّها ستذهب إلى بيت فوريست في ملابس الغولف». قلت هذا وأنا أنقِّل نظراتي بينهما. وعندما لم يجب أحد منهما على سؤالي، أضفت: «لا مانع عندي في الانتظار هنا».

شدت السيدة باربر على شفتيها بحركة فطنة. كانت عيناها ثقيلتين ففهمت الأمر على الفور: إنها متعبة. ليست مستعدة الآن للجلوس معي لتسليتي، لكن تهذيبها الجمّ لا يسمح لها بقول ذلك.

وقفت محرجاً بعض الشيء وقلت: «أرحّب بكأس كوكتيل على الرغم من أن الوقت ليس متسعاً كثيراً». في تلك اللحظة تماماً، أطلق الهاتف في جيبي رنة مرتفعة بعد سكوته طيلة النهار: رسالة نصية أتتني.

رحت أبحث عنه بحركات خرقاء... جعلني إرهاقي شبه عاجز عن معرفة مكان جيبي!

كانت الرسالة من كيتزي، بالطبع: *مرحباً حبيبي.* ***سأتأخّر ساعة.*** ***آمل أن تقرأ رسالتي! فوريست وسيليا سيؤخران العشاء. أراك هناك في التاسعة. أحبك كثيراً. كيتزي.***

14

مرت خمسة أيام بعد ذلك، أو ستة أيام، ولم أتعافَ تماماً من تلك السهرة التي أمضيتها مع بوريس. فمن جهة أولى كنت مشغولاً بالعملاء وبمزادات يجب أن أذهب إليها، وكذلك بمحتويات بيوت لا بد من معاينتها. ومن ناحية أخرى، كان ذلك نتيجة سلسلة من المناسبات المرهقة مع كيتزي في كل ليلة تقريباً: حفلات الأصدقاء، ودعوات عشاء رسمية، والذهاب لحضور أوبرا *بيلياس وميليساند* في مسرح *متروبوليتان*. كنت أنهض في السادسة من كل صباح، ثم لا أنام إلا بعد منتصف الليل؛ بل إنني سهرت حتى الثانية صباحاً في إحدى الليالي. نادراً ما كنت أحظى بلحظة واحدة مع نفسي؛ وأسوأ من هذا، نادراً ما كنت أحظى بلحظة واحدة مع كيتزي، على انفراد. هذا ما كان يمكن أن يدفعني إلى الجنون في الحالة الطبيعية، لكن ظروفي أبقتني غارقاً محطماً من الإرهاق إلى حد لم يترك لي وقتاً للتفكير في أي شيء.

أمضيت الوقت على امتداد الأسبوع كلّه مترقّباً حلول ليلة الثلاثاء التي تمضيها كيتزي مع صديقاتها ـ لا لأنني كنت غير راغب في رؤيتها، بل لأن هوبي كان مدعواً للعشاء في تلك الليلة، فصرت تواقاً لأن أجلس وحدي في البيت فآكل ما تيسر من بقايا طعام أجدها في البراد وآوي إلى فراشي في ساعة مبكرة. لكن ساعة إغلاق المتجر قد حانت. وما زلت في حاجة إلى إكمال بعض الأعمال في المتجر. كان قد جاءني ـ بأعجوبة ـ اختصاصي تصميم داخلي سائلاً عن بعض القطع المصنوعة

من البيوتر[1]... قطع غالية الثمن لم تعد دارجة ولم يعد بيعها ممكناً. كانت تلك القطع المكسوَّة بالغبار جاثمة فوق الخزانة منذ أيام ويلتي. لم أكن أعرف الكثير عن البيوتر؛ وكنت أبحث عن بيانات تلك المواد في الأقسام الأخيرة من سجل الأنتيكات عندما ظهر بوريس مندفعاً على الرصيف ونقر على الباب الزجاجي قبل أقل من مضي خمس دقائق من انتهاء عملي وإقفالي المتجر في ذلك اليوم. كان المطر غزيراً. وفي غبش ذلك الانصباب الرمادي، ظهر لي بوريس ظلاً غامضاً في معطف طويل. ما كانت شخصيته واضحة؛ إلا أن إيقاع نقراته المميز كان حياً في ذاكرتي منذ أيامنا القديمة معاً عندما كان يدور حول بيت أبي حتى يصل إلى نافذة الشرفة فينقر عليها نقرات قصيرة حتى أفتح له.

دخل خافضاً رأسه وهز نفسه بعنف فتناثرت منه قطرات الماء. قال من غير مقدمات: «هل تريد أن تذهب معي إلى الضواحي؟».

«إنني مشغول».

قال بصوت مستاء مستعطف مجروح على نحو طفولي شفاف: «ألن تسألني عن السبب؟ أظنك قد تكون راغباً في الذهاب». جعلني صوته أستدير وأنظر إليه.

«في الضواحي، أين؟».

«سوف أتحدّث مع بعض الأشخاص».

«وهل سيكون ذلك الحديث عن...؟».

قال مبتسماً وهو ينشق ويمسح أنفه: «بالضبط، نعم. لست مضطراً إلى المجيء معي. أوشكت أن أصطحب صديقي تولي، لكني رأيت أنه قد يكون حسناً ـ لأسباب كثيرة ـ أن تأتي أنت أيضاً... بوبتشيك، نعم، نعم!». قال هذا واقترب فحمل الكلب الذي جاء مرحِّباً به... «يسعدني

(1) بيوتر: خليط معدني رمادي اللون من القصدير المضاف إليه النحاس والأنتيموان تصنع منه أوانٍ وتماثيل.

أن أراكَ أيضاً!...» ثم قال لي وهو يحكّ رأس بوبر خلف أذنيه ويدس أنفه عند رقبته: «إنه يحب اللحم. هل تعد له اللحم أحياناً؟ يحب الخبز أيضاً عندما يكون غارقاً في الدسم».

«تتحدّث مع من؟ من هو هذا الشخص؟».

أزاح بوريس شعره عن وجهه: «شخص أعرفه، اسمه هورست. واحد من أصدقاء ميريام القدامى. لقد لسعَته هذه الصفقة أيضاً... إذا أردت الصدق، فأنا لا أظنه قادراً على مساعدتنا. لكن ميريام تقول إن ما من ضرر في الكلام معه! وأظن أنها محقّة في هذا».

15

أخبرني بوريس عن هورست في طريقنا إلى الضواحي ونحن جالسان في المقعد الخلفي في سيارته الفاخرة والمطر ينهمر غزيراً إلى حد جعل السائق يصيح حتى نستطيع سماعه («يا للطقس الفظيع!»). قال لي بوريس: «قصة حزينة، حزينة. إنه ألماني. شخص يلفت النظر، فهو حسّاس شديد الذكاء. وعائلته مهمة أيضاً. لقد شرح لي أهميتها ذات مرة، لكني نسيت. كان أبوه نصف أميركي. وقد ترك له مالاً كثيراً. لكن أمه تزوجت من...». وذَكَرَ اسماً ذا شهرة عالمية في عالم الصناعة له صدى نازيّ قاتم... «ملايين. لا يمكنك أن تصدق مقدار المال الذي يمتلكه أولئك الناس. إنهم يتمرغون في المال. كأن المال يخرج من مؤخراتهم».

«نعم، هذه قصة حزينة بالفعل».

«حسناً... إن هورست مدمن كثيراً. أنت تعرفني...». هز كتفيه هزّة فلسفية... «فأنا لا أحكم على أحد ولا أدين أحداً. افعل ما شئت، فلست أبالي! لكن هورست حالة محزنة جداً. وقع في حب فتاة مدمنة جعلته مدمناً بدوره. كانت متعلّقة به كثيراً. وعندما نفد ماله، تركته. أما عائلة هورست... فقد تبرأت منه منذ سنين طويلة. لكن قلبه لا يزال يتعذب من أجل هذه الفتاة الفظيعة القذرة. أقول إنها فتاة... لكنها يجب أن تكون

في حدود الأربعين من العمر. اسمها أولريكا. كلما حصل هورست على بعض المال... تأتي أولريكا إليه بعض الوقت، ومن ثم تتركه من جديد».

«وما علاقته بموضوعنا؟».

«لقد قام شريكه ساشا بترتيب بعض الأمور المتعلّقة بهذه الصفقة. لقد قابلته فبدا لي شخصاً لا بأس به ـ وما أدراني؟ قال لي هورست إنه لم يتعامل قبل ذلك شخصياً مع هذا الشخص الذي يعرفه ساشا؛ لكني كنت مستعجلاً ولم أدقّق في الأمر مثلما ينبغي أن أفعل...» رفع ذراعيه إلى الأعلى... «بووف! كانت ميريام محقّة. كان يجب أن أصغي إليها».

كانت خطوط الماء تجري على النوافذ، ثقيلة كالزئبق، فتعزلنا داخل السيارة. أضواء تومض ثم تذوب في هدير ذكرني بتلك الأيام عندما كنت أجلس مع بوريس في مقعد سيارة الليكزس الخلفي عندما يدخل بها أبي محطة غسيل السيارات.

«من عادة هورست أن يكون انتقائياً بعض الشيء في ما يتعلّق بالأشخاص الذين يتعامل معهم، وهكذا ظننت بأن الأمور ستكون على ما يرام. لكن... إنه شخص شديد التحفّظ، لا يفصح عن شيء! لم يقل إلا ' *غير معتاد* ' و' *غير تقليدي* ' ! حسناً... ما الذي يمكن فهمه من هذا؟ وعندما ذهبت إليهم... هؤلاء الناس مجانين. تصور أنهم يطلقون النار على الدجاج! كان الوضع كما أقول لك... تذهب إليهم وتريد أن يكون كل شيء هادئاً! لكنهم كانوا كأنهم أفرطوا في مشاهدة التلفزيون، أو شيء من هذا القبيل! هكذا كانوا يتصرّفون...! عادة، يكون الجميع في هذه الحالات في غاية التهذيب؛ أصوات منخفضة، وكل شيء هادئ! قالت ميريام ـ وقد كانت محقّة ـ إن عليَّ تجاهل مسدساتهم! ما هؤلاء الناس المجانين الذين يربّون الدجاج في ميامي؟ حتى أمر صغير من هذا القبيل... في حي لا يخلو بيت فيه من حوض جاكوزي... ملاعب تنس... أنت تفهمني... من عساه يُربّي دجاجاً؟ لا تريد أن يتّصل بك الجيران

متذمرين من أصوات الدجاج في فناء البيت. لكن، في ذلك الوقت...». هز كتفيه... «كنت هناك. كنت قد دخلتُ تلك العملية. قلت لنفسي يجب ألّا أبالغ في القلق؛ لكني أدركت بعد ذلك أن مخاوفي كانت في محلّها».

«فماذا حدث؟».

«لست أعرف حقّاً. استلمت نصف كمية البضاعة التي وعدوني بها ـ تأتي البقية بعد أسبوع ـ ليس هذا شيئاً غير مألوف. لكنهم اعتُقلوا بعد ذلك، ولم أستلم النصف الثاني، ولم أستلم اللوحة، إن هورست... يريد هورست أن يفهم الأمر لأنه خسر مبلغاً كبيراً أيضاً. على أيّ حال، آمل أن تكون لديه الآن معلومات أكثر مما كان لديه عندما كلّمته آخر مرة».

16

أنزلنا السائق في منطقة سكستيز، ليس بعيداً أبداً عن بيت أسرة هاربر. قلت وأنا أنفض المطر عن مظلة هوبي التي جلبتها معي: «أهذا هو المكان؟». كنا واقفين أمام واحد من البيوت الحجرية الكبيرة القريبة من الجادة الخامسة ـ بوابة حديد سوداء، ودقّاقة باب ضخمة على شكل رأس أسد.

«نعم، إنه بيت والده. تحاول عائلته الاستيلاء على البيت بطريقة قانونية؛ لكن من المستبعد أن ينجحوا».

فُتح لنا الباب، ثم أخذنا المصعد إلى الطابق الثاني. شممت رائحة بخور، وماريغوانا، وصلصة سباغيتي يجري طهوها. فتحت لنا الباب امرأة شقراء طويلة هزيلة لها شعر قصير ووجه هادئ ذو عينين صغيرتين يشبه وجه جمل. كانت ملابسها أشبه بملابس موزع صحف صبي صغير على الطراز القديم: بنطلون عليه خطوط متكسرة، وحذاء يغطّي الكاحلين، وقميص شتوي متّسخ، وحمالات بنطلون أيضاً. وعلى أرنبة أنفها نظارة ذات إطار سلكي تشبه نظارة بنيامين فرانكلين.

فتحت الباب لنا وانصرفت من غير أن تقول شيئاً، فتركتنا وحدنا في

صالون ضخم وسخ خافت الإضاءة كأنه نسخة منسية من مشهد في دوائر المجتمع العليا في واحد من الأفلام الغنائية: سقف مرتفع، وجصّ متساقط، وبيانو كبير، وثريّا مُسودّة تساقط نصف ما فيها من الكريستال، أو ضاع، وسلّم هوليوودي ملتف تناثرت عليه أعقاب سجائر. وفي الخلفية أناشيد صوفية رتيبة خفيضة الصوت: *الله الله الله حق... الله الله الله حق!* شخص ما رسم بالفحم على الجدار عدداً من الشخوص العارية بالحجم الطبيعي تهبط السلم كأنها صور متتالية في فيلم. وفي المكان قطع أثاث قليلة جداً، إضافة إلى أريكة مهترئة وعدد من الطاولات والكراسي التي بدت كأنها جُمعت من الشوارع. إطارات صور فارغة على الجدار؛ وجمجمة ثور. وعلى شاشة التلفزيون، فيلم رسوم متحرّكة يتراقص ويفرقع بنشاط أشبه بحالة صَرَع، وأشكال هندسية تدور مع حروف متداخلة وصور مأخوذة من سباق للسيارات. إضافة إلى الضوء المنبعث من التلفزيون ومن الباب الذي خرجت منه المرأة الشقراء واختفت، كان مصدر الضوء الوحيد في الغرفة مصباحاً يلقي دائرة ضوء ساطع على شموع ذائبة وكابلات كمبيوتر وزجاجات بيرة فارغة وعبوات غاز صغيرة وعلب من أقلام التلوين وعدد كبير من الكاتالوغات الفنية، وكذلك كتب بالألمانية والإنكليزية من بينها رواية «*اليأس*» لنابوكوف، وكتاب هيدغر «*الكينونة والزمان*» وقد تمزّق غلافه. دفاتر رسم، وكتب فنية، وأطباق سجائر، ورقائق قصديرية محترقة، ووسادة قذرة المظهر تنام فوقها قطة رمادية من قطط الشوارع. وفوق الباب ـ كأنه تذكار من نُزُل صيد في الغابة السوداء في ألمانيا ـ رفٌّ عليه قرنا وعل يلقيان ظلالاً مشوهة تنتشر وتتشعب على السقف موحية بقصة خرافية مخيفة من قصص الشمال.

كلام يدور في الغرفة المجاورة. كانت النوافذ مجلّلة بملاءات رقيقة بما يسمح بتسرب وهج بنفسجي من الشارع. وعندما نظرت من حولي، ظهرت لي من الظلمة أشكال راحت تتحوّل بغرابة تشبه الحلم: الحاجز

المؤقت في الغرفة (سجادة مما يوضع في الشقق السكنية متدلية من خيط لصيد السمك معلّق عند السقف ـ نظرت إليها عن قرب فرأيت أنها بساط جداري، بل بساط كبير القيمة لعله من القرن السادس عشر، أو لعله أكثر قدماً من ذلك. كان توأم بساط رأيته في مزاد في مدينة *آميين* الفرنسية قُدِّر ثمنه بأربعين ألف جنيه استرليني. لم تكن الإطارات على الجدران فارغة كلها. رأيت لوحات في بعضها. وبدت لي واحدة من تلك اللوحات ـ حتى في ذلك النور الشحيح ـ أشبه بعمل من أعمال جان باتيست كرو.

كنت موشكاً على التقدم من تلك اللوحة للنظر إليها عن كثب عندما ظهر بالباب رجل يمكن أن يكون في أي عمر بين الثلاثين والخمسين: شخص ذو مظهر رث، نحيل الساقين، له شعر سبط بلون الرمل مردود إلى الخلف. بنطلون جينز أسود ممزَّق عند الركبتين، وكنزة كوماندوس بريطانية مجعَّدة فوقها سترة رسمية كبيرة المقاس.

قال الرجل لي بصوت بريطاني فيه لمسة خفيفة من لكنة ألمانية: «مرحباً! لا بد أنك بوتر...». ثم قال لبوريس: «يسرّني قدومك. أنتما الاثنان يجب أن تبقيا لتناول الطعام معنا. كاندي ونيال يحضران طعام العشاء مع أولريكا».

حركة خلف السجادة، عند قدمَيَّ، جعلتني أخطو خطوة سريعة إلى الخلف: حزم مُقمَّطة على الأرض، وأكياس نوم، ورائحة تشرد.

قال بوريس بعد أن حمل القطة وراح يداعبها خلف أذنيها: «إننا غير قادرين على البقاء من أجل العشاء. لكننا سنشرب القليل من هذا النبيذ».

من غير أية كلمة ناوله هورست كأسه، ثم نادى، باللغة الألمانية، شخصاً في الغرفة المجاورة. وبعدها قال لي: «أنت تاجر أعمال فنية، أليس هذا صحيحاً؟». كانت عيناه الشبيهتان بعيني نورس تلمعان في الضوء الشاحب المنبعث من شاشة التلفزيون... عينان ثابتان، لا تطرفان.

قلت متحفّزاً: «صحيح». ثم... «آه، شكراً». كانت قد ظهرت امرأة

أخرى تحمل زجاجة نبيذ مع كأسين، كأس لهورست، وكأس لي: سمراء قصيرة الشعر في حذاء أسود مرتفع الساق، وتنورة قصيرة تكشف عن وشم قط أسود على فخذها الحليبي.

قال هورست: «دانكِه[1] يا عزيزتي...». ثم توجّه إلى بوريس... «ألا تريدان تنشّق شيء أيها السيدان؟».

كان بوريس قد انحنى إلى الأمام فسرق قبلة من المرأة ذات الشعر الداكن قبل خروجها. أجابه: «ليس الآن. لكني كنت أتساءل... ماذا سمعت من ساشا؟».

جلس هورست على الأريكة وأشعل سيجارة: «ساشا». أكسبه بنطلون الجينز الممزّق وحذاؤه العسكري مظهراً أشبه بنسخة بالية من شخصية ممثل هوليوودي متواضع من الأربعينات... شخص قليل الشأن من أوروبا الشرقية يؤدي دور عازف كمان ذي مصير مأساوي أو دور لاجئ مثقّف... «يبدو أن المعلومات تقودنا إلى إيرلندا. وهذا خبر جيد إذا شئت سماع رأيي».

«لا يبدو هذا منطقياً».

«ولا يبدو منطقياً لي أيضاً. لكني تحدّثت مع بعض الناس وهم يتحقّقون من الأمر الآن». كان يتكلّم ببطء وبصوت خافت غير منتظم، مثلما يفعل أي مدمن، لكن من غير غمغمة أو ابتلاع للأحرف... «إذاً... يجب أن نعرف المزيد عمَّ قريب... آمل ذلك».

«هل هم من أصدقاء نيال؟».

«لا. يقول نيال إنه لم يسمع بهم أبداً. لكنها بداية!».

كان النبيذ رديئاً: نبيذ من نوع سايرا مما يباع في السوبرماركت. وبما أنني كنت غير راغب في المكوث قريباً من الأجساد التي على الأرض، فقد ابتعدت قليلاً لأنظر إلى مجموعة مصبوبات فنية موضوعة على طاولة

---

(1) دانكة: شكراً بالألمانية.

متهالكة: جذع رجل؛ وتمثال فينوس في غلالة، مستندة إلى صخرة؛ وقدم بشرية في صندل. في ذلك الضياء الخافت، بدت تلك الأشياء كأنها مصبوبات جصية عادية معروضة للبيع في متجر *بيرل بينت*[1] قطع توضع في استوديو حتى يرسمها الطلاب. لكني مررت بإصبعي على قمة تلك القدم فأحسست بنعومة المرمر... سطح حريري صقيل.

قال له بوريس بنفاد صبر: «ولماذا يذهبون بها إلى إيرلندا؟ أية سوق هناك؟ كنت أظن أن الجميع يحاول إخراج القطع الفنية من ذلك المكان، لا إدخالها إليه».

«صحيح، لكن ساشا يظن أنه استخدم اللوحة من أجل سداد دين عليه».

«هل يعني هذا أن لذلك الشخص صلات هناك؟».

«هذا واضح».

«أجد تصديق ذلك صعباً بعض الشيء».

«ماذا؟ هل تعني وجود صلات؟».

«لا، بل أعني الدين. إن هذا الرجل... يوحي شكله بأنه كان يسرق أغطية عجلات السيارات في الشارع منذ ستة أشهر فقط».

هز هورست كتفيه بحركة واهية: عينان ناعستان وجبهة متغضنة... «من يدري؟ لست واثقاً من أن ذلك صائب، لكني غير مستعد أبداً لأن أثق بحظي. فهل أغامر بقطع يدي من أجل ذلك؟...». قال هذا وهو ينفض رماد سيجارته على الأرض... «لا».

كان بوريس ينظر في كأس النبيذ بوجه عابس: «لقد كان هاوياً، صدقني. لو رأيته بنفسك لعرفت ذلك».

«نعم، لكن ساشا يقول إنه مولع بالمقامرة».

«ألا تعتقد أن ساشا يعرف أكثر مما قاله لك؟».

---

(1) بيرل بينت: متجر ضخم للأعمال الفنية في نيويورك.

«لا أظن هذا...». كان في هيئته شيء من البعد كما لو أنه يحدّث نفسه... «لا أسمع منه إلاّ *فلننتظر لنرى* إجابة غير مرضية. بل هي إجابة مريبة، إذا أردت رأيي. لكني أظن أن علينا مواصلة استطلاع الأمر لأننا لم نصل إلى قراره بعد».

«متى يعود ساشا إلى المدينة؟».

جعلني نصف الضياء في تلك الغرفة أعود إلى طفولتي، إلى لاس فيغاس... حالة غامضة لحلم ظل متلكئاً بعد اليقظة: ضباب دخان سجائر، وملابس قذرة على الأرض، ووجه بوريس يبْيضّ ثم يزْرقّ في وهج شاشة التلفزيون.

«يعود في الأسبوع القادم. سوف أتصل بك. يمكنك أن تتحدّث معه بنفسك».

«نعم. لكن أظن أن علينا أن نكلمه معاً».

كان هورست يحكّ رقبته بحركة بطيئة كأنه شارد الذهن وهو يقول: «نعم. أظن ذلك أيضاً. سوف نكون، نحن الاثنان، أكثر ذكاء في المستقبل... ما كان يجب أن يحدث هذا. لكن، على أي حال... أظنّك تدرك أنني أخشى المبالغة في الضغط عليه».

«إنها قصة ملائمة تماماً لساشا».

«هل لديك شكوك! أخبرني».

«أظنك...». اتجهت عينا بوريس إلى الباب.

«ماذا؟».

خفض بوريس صوته: «أظن أنك متساهل معه أكثر مما يجوز. نعم، نعم...». رفع يده معترضاً... «أعرف! لكن... من المناسب له تماماً أن يختفي هذا الرجل الذي لا يعرفه أحد غيره، أن يختفي من غير أثر. وأما هو فلا يعرف شيئاً».

«حسناً، ربما...». بدا لي منفصلاً عمَّ نحن فيه، بل بدا كأنه في مكان

آخر، إلى حد ما... مثل شخص بالِغ في غرفة مع أطفال صغار... «هذا يضغط على أعصابي... يضغط على أعصابنا كلنا... أريد أن أصل إلى قرارة الأمر، مثلما تريد ذلك أنت. إلا أن كل ما نعرفه يشير إلى أن هذا الرجل كان شرطياً».

قال بوريس بنبرة قاطعة: «لا. لم يكن شرطياً. لم يكن شرطياً. أنا واثق من هذا».

«حسناً... سأكون صريحاً معك فأنا لا أظن ذلك بدوري. إن في الأمر أكثر مما نعرف حتى الآن. لكني أظل محتفظاً بالأمل...». كان قد تناول عن طاولة الرسم علبة خشبية وراح يبحث فيها... «هل أنتما واثقان، أيها السيدان، من أنكما لا تريدان مشاركتي؟».

أشحت بوجهي. كانت لدي رغبة شديدة في ذلك. كانت لدي أيضاً رغبة في الاقتراب من لوحة كورو للنظر إليها عن كثب، لكن ذلك كان يقتضي السير بين الأجسام الراقدة على الأرض. لم أكن أريد ذلك. لاحظت أن في الجهة الأخرى من الغرفة لوحات كثيرة مستندة إلى ألواح الجدار الخشبية: طبيعة صامتة ومنظران طبيعيان صغيران.

قال لي هورست: «اذهب وانظر إليها إن أردت. إن لوحة ليبين غير حقيقية. لكن لوحتَيْ بلايز وبريتشن للبيع، إذا كنت مهتماً».

ضحك بوريس ومد يده إلى علبة سجائر هورست وأخذ منها سيجارة: «إنه ليس في سوق هذه الأشياء».

قال هورست بنبرة صوت لطيفة: «أهو ليس فيها؟ يمكنني إعطاءه سعراً جيداً في هاتين اللوحتين. إن بائعهما يريد التخلّص منهما».

اقتربت لكي أنظر: طبيعة صامتة. شمعة وكأس نبيذ نصف فارغة. «أليست هذه اللوحة لوليم بلايز هيدا؟».

«لا، إنها لبيتر بروغل. لكن هذا الموضع فيها...». وضع هورست العلبة الخشبية من يده ثم أتى ووقف إلى جانبي ورفع مصباح القراءة

فغمر اللوحتين ضوء خشن. أشار إلى اللوحة بإصبع معقوف... «انعكاس اللهب هنا؟ وحافة الطاولة... مفرش الطاولة؟ من الممكن، تقريباً أن يكونا من صنع بيتر في واحد من أيامه السيئة».

«قطعة جميلة».

«صحيح، قطعة جميلة من صنفها». عندما صار قريباً، فاحت منه رائحة شخص لم يغتسل منذ فترة... رائحة مبتذلة فيها أثر قوي من شيء غباريّ يشمه المرء في صناديق الكرتون الصينية في متجر للسلع المستوردة... «عمل ركيك بعض الشيء بالنسبة إلى الذوق الحديث. هذا الميل إلى تقليد الآثار الكلاسيكية. قدر كبير من التظاهر. لكن لوحة بيرتشم جيدة جداً!».

قلت بنبرة محايدة: «إن في السوق الكثير من لوحات بيرتشم المقلَّدة».

كان الضوء المنسكب من المصباح المرفوع على ذلك المنظر الطبيعي في اللوحة ضوءاً مزرقاً... غريباً... «صحيح، لكن هذه اللوحة حلوة... إيطاليا 1655... هذا اللون الأحمر البني، جميل، أليس كذلك؟ لكني أظن أن لوحة كلايز ليست جيدة تماماً؛ إنها فجَّة، على الرغم من أن إثبات أصل اللوحتين لا تشوبه شائبة. لطيف أن يحتفظ بهما المرء معاً. لم تفترقا أبداً. هاتان اللوحتان. كأنهما أم وابنتها. كانتا تُتوارثان معاً في أسرة هولندية قديمة، ثم انتهى بهما الأمر في النمسا بعد الحرب. بيتر كلايز...». رفع المصباح أكثر من ذي قبل... «لم يكن أداء بيتر كلايز متماثلاً تمام التماثل، حتى في اللوحة الواحدة! أسلوب عجيب، وسطوح عجيبة. لكنْ في هذه اللوحة شيء غريبٌ بعض الشيء، ألا توافقني على هذا؟ إن بنيتها غير متماسكة، غير منسجمة، فيها شيء من عدم التوافق، على نحو ما. وأيضاً...». أشار بإبهامه إلى اللمعان الزائد لسطح اللوحة... «ملمَّعة على نحو مبالغ فيه».

«معك حق. وهنا أيضاً...». أشرت بإصبعي إلى القوس القبيح حيث أدى التنظيف إلى كشط الطلاء حتى بانت الأرضية من تحته.

أجابني بنظرة ودود ناعسة: «نعم، هذا صحيح تماماً. إنه أثر الأسيتون. أياً يكن ذلك الذي فعل هذا، فإنه يستحق إطلاق النار عليه. على الرغم من هذا، فإن لوحة متوسطة السوية، كهذه، في حالة سيئة ـ بل هي أيضاً عمل مجهول ـ تساوي أكثر من عمل فني كبير. هذه هي المفارقة في الأمر! تساوي أكثر من عمل فني كبير في نظري على أية حال. المناظر الطبيعية خاصة. بيعها سهل كثيراً، كثيراً. لا تثير انتباه السلطات كثيراً، كما يصعب التعرف عليها من الوصف... لكن قيمتها قد تبلغ مئتي ألف دولار. والآن، لوحة فابريتيوس...». صمت مسترخٍ طويل... «إنها شيء من عيار مختلف تماماً. لم يمر بين يدَيَّ عمل أكثر تميزاً منها. يمكنني قول هذا من غير أي تردّد».

جاء صوت بوريس مدمدماً من الظلال: «نعم، وهذا ما يجعلنا راغبين كثيراً في استعادتها».

تابع هورست بصوت هادئ: «استثنائية تماماً! لوحة طبيعة صامتة كهذه اللوحة». أشار إلى لوحة كلايز بتلويحة بطيئة من كفه (أظافر مسودَّة الحواف، وشبكة من عروق متكدِّمة على ظهر يده)... «حسناً، إنها عمل شديد الإصرار على خداع البصر. مهارة فنية عالية، لكنها مصقولة على نحو مبالغ فيه. دقة تكاد تكون هاجسية. فيها شيء يشبه الموت. هذا سبب وجيه جداً لإطلاق اسم ’ *طبيعة ميتة*‘ على هذه اللوحات. أليس كذلك؟ لكن لوحة فابريتيوس...». انتقل خطوة إلى الخلف بركبتين متراخيتين... «أعرف نظرية ’ *الحسُّون*‘ ، بل إنني أعرفها جيداً! يدعوها الناس خداعاً للنظر، لكن الواقع أنها تلفت النظر كأنها تصفعه صفعاً. إلا أنني غير مهتم بما يقوله المؤرخون. الحقيقة أن فيها أشياء مصنوعة بما يشبه خداع النظر: الجدار والمَجثَم ولمعان الضوء على النحاس؛ لكن الحياة تبلغ أقصاها في ريش صدر الطائر. زغبي رقيق... ناعم، ناعم. لو رسمها كلايز لحرص على الدقة والإتقان حتى الموت. بل إن رساماً مثل

فان هوغستراتل كان يمكن أن يصل في الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك، إلى آخر مسمار في النعش. وأما فابريتيوس!! لقد أنتج شيئاً فريداً من نوعه... لقد قدّم إجابة فنان معلّم على فكرة خداع النظر كلها... هذا لأن بقية أجزاء العمل ـ الرأس، الجناح ـ ليست حية ولا حرفية أبداً. إنه يفكك الصورة على نحو مقصود لكي يجعلنا نرى كيف رسمها. بقع وضربات ريشة غير متقنة، وشيء شديد التجسيد، مصنوع باليد، خط الرقبة خاصة، مساحة طلاء جامدة... شيء شديد التجريد. هذا ما يجعله عبقرياً، لا في زمانه فحسب، بل في زماننا أيضاً. إن في عمله ازدواجاً. ألم تر تلك العلامة؟ ألم تر ذلك الأثر؟ ألم تر الطلاءَ طلاءً؟ لكن رأيت الطائر حياً».

زمجر بوريس في الظلام خلف دائرة الضوء وأغلق قداحة السجائر: «نعم... إذا لم ترَ الطلاء طلاءً فإنك لن ترى شيئاً».

التفت هورست فصار نصف وجهه في الظل، مقطوعاً: «بالضبط!... إنها نكتة، نكتة فابريتيوس. إن في قلب عمله نكتة. وهذا ما يفعله أكبر الفنانين جميعاً. رامبراندت وفيلاسكيز. وتيتيان في آخر أيامه. إنهم يصنعون نكاتاً. إنهم يمتّعون أنفسهم. إنهم يبنون الإيهام، الخدعة. لكن، يكفي أن تقترب خطوة أخرى وسترى كل شيء يتفكك إلى ضربات فرشاة. شيء مجرّد. لا حياة فيه. نوع مختلف من الجمال، أكثر عمقاً إذا نظرت إليه بمجموعه. الشيء نفسه، لكنه ليس الشيء نفسه! يمكنني القول إن لوحة صغيرة واحدة تضع فابريتيوس في صف أعظم الفنانين الذين عرفهم العالم. فماذا فعل في لوحة *الحسّون*؟ إنه ينجز أعجوبته في حيّز ضيّق إلى هذا الحد. لكنني أعترف بأنني فوجئت...». استدار لينظر إلي... «عندما حملتها بين يدي أول مرة. فاجأني وزنها!».

لم أستطع منع نفسي من الإحساس بالعرفان (على نحو غامض) لأنه انتبه إلى هذا التفصيل الذي كانت له أهمية غريبة عندي... أهمية لها نسيجها الخاص من أحلام الطفولة وكل ما يتصل بها ـ وتر عاطفي... «إن خشبها أكثر وزناً مما قد يظنه المرء. إن فيها ثقلاً».

ثقل. هذا صحيح. هذه هي الكلمة الصحيحة. تابع هورست: «وخلفية اللوحة... إنها أقل اصفراراً مما كانت عليه عندما رأيتها أيام كنت صبياً. لقد خضعت اللوحة للتنظيف. أظن ذلك حدث في أوائل التسعينات. صارت أكثر إضاءة بعد ذلك».

«يصعب عليَّ قول هذا لأنني لا أستطيع مقارنتها بشيء لم أره».

كان دخان سيجارة بوريس يتصاعد متطايراً خيوطاً آتية من الظلام، من حيث كان جالساً، فأعطى الدائرة المغمورة بفيض الضوء، حيث كنا واقفين، مظهر خشبة مسرح عند منتصف الليل. قال هورست: «حسناً. قد أكون مخطئاً. لم أكن إلا صبياً، في الثانية عشرة، عندما رأيتها أول مرة».

«وأنا كنت في تلك السن تقريباً عندما رأيتها أول مرة».

قال هورست مسلّماً وهو يدعك حاجبه بيد بانت على ظهرها كدمات مدورة صغيرة: «حسناً، كانت تلك المرة الوحيدة التي أخذني فيها أبي في رحلة عمل معه. ذهبنا إلى هولندا. غرف إقامة باردة كالثلج. سكون تام لا تتحرك فيه ورقة على شجرة. أردت الذهاب بعد الظهر إلى حديقة الألعاب دريفليت، لكنه أخذني إلى المتحف بدلاً من ذلك. متحف عظيم فيه لوحات عظيمة كثيرة. لكن اللوحة الوحيدة التي أتذكر رؤيتها هي لوحتك، *الحسّون*. لوحة تجذب الطفل، أليس كذلك؟ عرفتها أول الأمر باسمها الألماني *ديستلفينك*».

أتانا صوت بوريس ضجراً من الظلمة: «ياه، ياه، ياه. صار هذا مثل القناة التعليمية في التلفزيون».

خيّم صمت بعد ذلك، فقلت لهورست: «هل تتعامل بأي نوع من أنواع الفن الحديث؟».

نظر إليَّ بعينيه الشتويتين الجافّتين؛ لم تكن كلمة «*تتعامل*» بالكلمة المناسبة، لكنني أحسست بأنه يجد اختياري للكلمات طريفاً مسلياً: «في الحقيقة... أحياناً. منذ فترة غير بعيدة، كان عندي عمل لكورت شيترز ـ

استانون ماكدونالد رايت ـ هل تعرفه؟ رسام جميل. الأمر معتمد كثيراً على ما يأتي في طريقي. بصدق تام... هل لديك أي تعامل باللوحات؟».

«أمر نادر جداً. تجار الأعمال الفنية يسبقونني دائماً».

«هذا مؤسف. الأشياء القابلة للحمل هي ما ينفعني في عملي. لدي الكثير من الأعمال ذات المستوى المتوسّط التي أستطيع بيعها بسهولة لو كانت لديَّ وثائق مناسبة».

نفحة من رائحة ثوم؛ وقدور تقعقع في المطبخ؛ ورائحة خفيفة لسوق مغربي... ضوء وبخور. وعلى نحو متواصل لا يزداد ولا ينقص، ظلت همهمة الإنشاد الصوفي تدور وتدور من حولنا في الظلام... ترانيم لا تنتهي موجَّهة إلى الرب.

«انظرْ إلى لوحة ليبين هذه. تقليد متقن تماماً. هناك هذا الشخص الذي يرسمها بناء على الطلب ـ شخص كنديّ، مسلّ تماماً، سوف يعجبك. لوحات لبولوك وأخرى لموديلياني... يسرني أن أجمع بينكما، إن أحببت. لست أجني منها مالاً كثيراً، على الرغم من أن هنالك ثروة يمكن صنعها إذا ظهرت لوحة منها في المكان والوقت المناسبَيْن».

ثم أضاف بصوت ناعم في الصمت الذي تلا ذلك: «وأما من الأعمال الأقدم عهداً، فإنني أرى لوحات إيطالية كثيرة. إلا أنني أفضّل أعمال شمال أوروبا، كما يمكنك أن ترى. إن لوحة بيرشم هذه مثال ممتاز جداً على الفن الشمالي الذي أعنيه؛ وأما تلك المناظر الطبيعية الإيطالية النمط بما فيها أعمدة محطَّمة وخادمات بسيطات بيضاوات كالحليب، فليست مناسبة تماماً للذوق الحديث، أليس كذلك؟ أفضّل كثيراً لوحة فان كوين تلك. المؤسف أنها ليست للبيع».

«فان كوين. كان من الممكن أن أقسم على أنها لوحة من لوحات كورو».

سرَّته هذه المقارنة: «نعم، من الممكن أن تظن هذا عندما تنظر إليها

من هنا. رسامان متشابهان كثيراً ـ لقد أشار فنست فان كوخ نفسُه إلى هذا الأمر ـ هل تعرف تلك الرسالة؟ لقد اعتبر فان كوين ُكورو *الهولنديين*ُ ؟ الرِّقة نفسها في رسم الضباب الخفيف، وذلك الإحساس بالانفتاح والانفراج وسط الضباب. هل تعرف ما أعنيه؟».

«من أين...». كنت موشكاً على طرح السؤال التقليدي، *من أين حصلت عليها*، قبل أن أمسك لساني.

«رسام رائع. غزير الإنتاج. وهذه اللوحة خاصةً مثال جميل على عمله...». قال هذا بكل ما يكون لدى جامع التحف من اعتزاز... «تفاصيل مدهشة كثيرة عند النظر إليها عن قرب ـ الصياد الصغير، والكلب النابح. وأيضاً، إمضاؤه على سارية المركب ـ شيء مثالي تماماً. شيء ساحر تماماً. إذا لم يكن لديك مانع...». قال هذا وهو يشير برأسه في اتجاه الأجساد خلف السجادة... «فاذهب إليها. لن يزعجهم هذا».

«لا، لكن...».

رفع يده وقال: «انتظر. إنني أفهمك تماماً. هل آتي لك بها؟».

«أجل. أحب أن أنظر إليها».

«عليَّ القول إنني صرت شديد الولع بها؛ وصرت أكره أن أراها تفارقني. كان فان كوين أيضاً يشتري اللوحات ويبيعها. كثير من كبار الرسامين الهولنديين كان يفعل ذلك. يان ستين. فيرنر. رامبراندت. لكن فان كوين...». ابتسم عندما قال هذا... «كان مثل صديقك بوريس هناك. له يد في كل شيء. اللوحات، والعقارات، وصفقات أزهار التوليب الآجلة».

أصدر بوريس، الجالس في الظلام، صوت استياء عندما سمع هذا الكلام، وبدا كأنه موشك على قول شيء ما عندما جاء فتى هزيل (لعله في الثانية والعشرين) في فمه مقياس حرارة زئبقي حديث الطراز... جاء مترنحاً من المطبخ حاجباً بيده ضوء المصباح المرفوع عن عينيه. كان في

عباءة غريبة محبوكة نسائية المظهر تكاد تبلغ ركبتيه، كأنها مئزر حمام. بدا الفتى عليلاً مضطرباً. كان كمه مرفوعاً، ورأيته يهرش باطن ذراعه بإصبعين اثنتين، ثم لم يلبث أن خرّ على ركبتيه وانقلب جانباً فاصطدم بالأرض. طار مقياس الحرارة من فمه فتدحرج على الباركيه مصدراً صوتاً زجاجياً، لكنه لم يتحطم.

قال بوريس: «ماذا...؟». وأطفأ سيجارته، ثم وقف فقفز القط من حضنه واختفى في الظلال. تجهّم وجه هورست ووضع المصباح على الأرض. راح الضوء يتأرجح مجنوناً على السقف والجدران. قال غاضباً وهو يزيح الشعر عن عينيه ويركع على ركبتيه لينظر إلى الفتى: «آخ... عودوا إلى الداخل». قالها بصوت منزعج للنساء اللواتي ظهرن بالباب مع شخص بارد داكن الشعر بدا مثل ملاكم متحفّز وإلى جانبه صبيان صغيران باردا العينين لا يتجاوزان ستة عشر عاماً. عندما رأى أنهم ظلوا واقفين في أماكنهم، أشار إليهم بيده وقال مخاطباً المرأة الشقراء: «فليذهبوا معك إلى المطبخ يا أولريكا. وليبقوا هناك!».

رأيت السجادة المعلّقة تتحرّك. ومن خلفها، صدرت أصوات ناعسة عن الحزم الملفوفة بالبطانيات: «ماذا؟ ما الذي يجري؟».

صاحت الشقراء: «استريحوا، وعودوا إلى النوم»، ثم التفتت إلى هورست وراحت تكلمه بلغة ألمانية سريعة كالنار.

تثاؤب؛ وأنين؛ وفي الخلف، جلست إحدى الحزم وانبعث منها صوت أميركي متذمّر ثمل: «ها؟ كلاوس؟ ماذا قالت؟».

«أطبق فمك يا عزيزي وعد إلى النوم».

كان بوريس قد حمل معطفه وبدأ يرتديه. قال لي: «بوتر!». وعندما وجد أنني لم أجبه بشيء، بل وقفت أنظر مذعوراً إلى ما يحدث على الأرض حيث تحوّل نفس الفتى إلى حشرجة، قال لي من جديد وهو يمسكني من ذراعي: «بوتر. هيا بنا. فلنذهب».

قال هورست آسفاً وهو يهز كتف الفتى المرتخي: «نعم، إنني آسف. سيكون علينا أن نتحدث في وقت لاحق». كانت له هيئة والد يقدم عرضاً غير مقنع تماماً يتظاهر فيه بتوبيخ طفله... «اللعنة. أيها الغبي القذر! أحمق! ما الجرعة التي تناولها يا نيال؟» كان يخاطب الملاكم الذي ظهر بالباب من جديد ووقف يعاين المشهد بنظرة متفحّصة.

قال الملاكم الإيرلندي: «اللعنة عليَّ إن كنت أعرف»؛ وأومأ برأسه إيماءة جانبية منذرة بالشؤم.

قال بوريس وهو يمسك بذراعي: «هيا يا بوتر». كان هورست قد وضع أذنه على صدر الفتى، بينما ركعت الشقراء على ركبتيها وراحت تتفحص تنفسه.

وبينما كانوا يجرون مشاوراتهم العاجلة باللغة الألمانية، ازدادت الضجة والحركة خلف السجادة المعلّقة التي راحت تتحرّك وتنتفخ كأنما دبت فيها الحياة فجأة: أزهار ذابلة، واحتفال في الهواء الطلق، وحوريات باذخات لاهيات بين النافورة والنبيذ. كنت أحدّق في شخص شبق يسترق إليهن نظرة ماكرة من خلف شجرة عندما أحسست، على غير توقّع، بشيء يمسّ ساقي. تراجعت إلى الخلف بحركة عنيفة عندما رأيت يداً تندفع من تحت السجادة وتمسك بساق بنطلوني من الأسفل. وعلى الأرض، من واحدة من تلك الحزم القذرة، رأيت وجهاً أحمر متورماً يطل من تحت السجادة ويقول لي بصوت مهذّب ناعس: «إنه طاغية يا عزيزي، فهل كنت تعرف هذا؟». حرّرت ساقي من تلك القبضة وتراجعت إلى الخلف. كان الفتى المستلقي على الأرض يحرّك رأسه قليلاً ويصدر أصواتاً مختنقة كأنه يغرق.

كان بوريس قد التقط معطفي ورماه في وجهي: «بوتر! هيا بنا! فلنذهب! ...». ثم صاح في اتجاه المطبخ رافعاً ذقنه... «إلى اللقاء». ظهر في باب المطبخ رأس جميل أسود الشعر، وارتفعت يد بالتحية: «مع السلامة يا

بوريس، مع السلامة». دفعني أمامه فأخرجني من الباب وخرج خلفي وهو يصيح: «إلى اللقاء يا هورست». ويرفع يده بإشارة *كلمني في ما بعد*.

«مع السلامة يا بوريس! آسف لهذا! سنتكلم قريباً. كان الإيرلندي قد اقترب وأمسك بالفتى من تحت إبطه. قال له هورست: «ارفع»، ثم انهضاه معاً فتدلت قدماه كأنهما مشلولتان وانسحبت أصابعهما على الأرض. حملاه وسط الحركة المستعجلة عند الباب فتراجع المراهقان إلى الخلف خائفَين. عبرا به الباب إلى الغرفة المجاورة المضاءة حيث كانت سمراء بوريس تملأ حقنة طبية بسائل موضوع في زجاجة صغيرة.

17

أحاط بنا السكون فجأة ونحن نازلَيْن في المصعد: احتكاك المسننات، وأنين البكرات.

كان المطر قد توقّف في الخارج وصار الطقس صحواً. قال لي بوريس وهو يلقي نظرات قلقة على امتداد الشارع: «هيا بنا. فلنجتز الشارع إلى الجهة الأخرى. هيا بنا!». أخرج هاتفه من جيب معطفه.

إن أسرعنا فسوف نلحق بإشارة السير: «ماذا؟ هل ستتصل برقم الطوارئ من أجله؟».

قال بوريس ساهماً وهو يتمخّط وينظر من حوله: «لا، لا. لا أريد الوقوف هنا في انتظار السيارة. إني أتصل بالسائق لكي يأخذنا من الناحية الأخرى من الحديقة. سنسير عبر الحديقة. في بعض الأحيان...». قال عندما رآني ألتفت وأنظر قلقاً في اتجاه البيت الذي غادرناه... «في بعض الأحيان، يتناول بعض هؤلاء الأولاد جرعات أكبر مما ينبغي. لا تقلق، سوف يكون بخير».

«لم يبدُ لي أنه بخير».

«صحيح، لكنه كان يتنفّس. هورست لديه دواء اسمه *ناركان*. وسوف يجعله الدواء يتجاوز هذه الحالة كلها. إنه أشبه بالسحر؛ فهل رأيته في

يوم من الأيام؟ يجعلك تصل إلى أعراض الانسحاب على الفور. تكون في حالة مزرية إلى أقصى حد، لكنك تعيش».

«عليهم أن يأخذوه إلى وحدة العناية المركَّزة».

قال بوريس: «لماذا؟ ماذا سيفعل له هؤلاء الناس هناك. سيعطونه *ناركان*. هذا ما سيفعلونه. يمكن لهورست إعطاؤه ذلك الدواء بسرعة أكبر. صحيح أنه سيصحو ويتقيأ على نفسه ويحس كما لو أن أحداً يطعنه في رأسه، لكن من الأفضل أن يحدث ذلك في البيت، لا في سيارة الإسعاف. يقصّون قميصه، ويضعون على وجهه قناع التنفس، ويصفعونه حتى يستيقظ، ويتدخل القانون، ويكون الجميع قاسياً خشناً متحاملاً عليه ـ صدقني عندما أقول لك إن تناول *ناركان* تجربة عنيفة جداً، جداً. يكون إحساسك في غاية السوء عندما تستعيد وعيك، حتى من غير أن تكون في المستشفى بإنارته الساطعة وبالعاملين الذين يلومونك ويتخذون منك موقفاً عدائياً ويعاملونك كأنك شيء قذر... '*مدمن مخدرات*'، '*جرعة زائدة*'، وتلك النظرات الكريهة كلها. وقد لا يتركونك تعود إلى البيت عندما تشاء. بل من الممكن أن يرسلوك إلى جناح الأمراض النفسية. وسوف يأتيك عامل اجتماعي حتى يلقي عليك كلمة تجعلك '*تحب الحياة*'. وفوق هذا كله، من الممكن تماماً أن تأتيك زيارة لطيفة من جانب الشرطة. انتظر قليلاً، لحظة واحدة من فضلك...». قال هذا وبدأ يتكلم اللغة الأوكرانية في الهاتف. ظلام. تحت هالة الضوء الضبابية من حول مصابيح الشارع، كانت أغصان الأشجار مبللة لامعة، نقطة، نقطة، نقطة... أشجار سوداء مبتلّة تماماً. أقدامنا تغوص عميقاً في أوراق الأشجار على الأرض مصدرة صوتاً كصوت النشيج. وقلة من موظفي المكاتب السائرين فرادى مستعجلين العودة إلى بيوتهم. سار بوريس خافضاً رأسه واضعاً يديه في جيبيه ناظراً إلى الأرض. كان قد أنهى مكالمته وراح يتمتم لنفسه بشيء ما.

سألته وأنا ألقي عليه نظرة جانبية: «عفواً، ماذا قلت؟».

شد بوريس على شفتيه ورفع رأسه. قال لي بنبرة غاضبة: «أولريكا. تلك العاهرة. إنها المرأة التي فتحت لنا الباب».

مسحت جبهتي بيدي. كان لديَّ إحساس بالتوتر والغثيان. بدأت أتعرق عرقاً بارداً: «كيف تعرف هؤلاء الناس؟».

هز بوريس كتفيه. قال وهو يركل شلالاً من أوراق الأشجار على الأرض: «هورست. أعرفه ويعرفني منذ سنين. تعرفت على ميريام من خلاله. وأنا ممتن له كثيراً على ذلك».

«وماذا أيضاً؟».

«ماذا؟».

«ذلك الذي على الأرض هناك...؟».

«هو؟ ذلك الشاب؟». كشّر بوريس تكشيرته القديمة التي تعني من يدري؟... «سوف يعتنون به، لا تقلق، يحدث هذا. لكن الأمر ينتهي دائماً على خير...». قالها بنبرة أكثر جدّية وصدقاً... «لأن... اسمع، اسمع...». قال هذا وهو يلكزني بخصري بمرفقه... «كثيراً ما يأتي هؤلاء الأولاد إلى بيت هورست ويمضون بعض الوقت عنده ـ وهم يتغيّرون كثيراً؛ تجد دائماً جماعة جديدة. فتيان في سن الجامعة، وفي سن المدرسة الثانوية. أكثرهم من أطفال الأغنياء... كأنهم صندوق استثماري... قد يرغب أحدهم في تسديد ثمن ما يأخذه من هورست عن طريق لوحة يأخذها من بيت أسرته. يعرفون أنهم يستطيعون المجيء إليه لأنه...». رفع رأسه من جديد وأزاح شعره عن عينيه... «لأن هورست، منذ زمن بعيد، في التسعينات... ذهب سنة أو سنتين إلى واحدة من مدارس الفتيان المرتفعة الكلفة في هذه المنطقة ـ حيث يجعلونك ترتدي سترة رسمية. كانت المدرسة في مكان لا يبعد كثيراً من هنا. كنا في سيارة تاكسي ذات مرة وأشار لي إلى تلك المدرسة. على أية حال ـ ذلك الصبي على الأرض!...

نشق بأنفه قبل أن يتابع... «إنه ليس صبياً فقيراً من الشارع. ولن يسمحوا بأن يحدث له شيء. فلنأمل أن يكون قد تعلّم الدرس. أكثرهم يتعلم الدرس! لن يكون في حياته كلها في حالة مزرية كالتي سيعيشها بعد حقنة *ناركان*! ثم إن كاندي ممرضة، وسوف تعتني به عندما يصحو. هل عرفت كاندي؟ إنها ذات الشعر الأسود!...». قال هذا وهو يلكزني من جديد بين أضلاعي عندما لم أجبه بشيء. أطلق ضحكة قصيرة... «هل رأيتها؟ إنها مثل...». انحنى قليلاً ورسم بطرف إصبعه خطاً عند ركبتيه كأنه يشير إلى ارتفاع ساق حذائها... «إنها رائعة. يا إلهي لو كنت قادراً على أخذها من ذلك الشخص الإيرلندي، نيال، لأخذتها من دون تردّد. ذهبنا في أحد الأيام إلى جزيرة *كولي*، أنا وهي فقط. كان وقتاً رائعاً لم أعش مثله في حياتي كلّها. إنها تحب حياكة الكنزات، فهل تتخيّل هذا؟...». نظر إليَّ نظرة ماكرة من زاوية عينه... «امرأة كهذه... هل يمكن أن يخطر في ذهنك أنها امرأة تحب حياكة الكنزات؟ لكنها تحبّها! عرضت عليَّ أن تصنع لي واحدة. وقد كانت جادة في ذلك. ′ بوريس، *سأصنع لك كنزة في أي وقت تشاء. ما عليك إلا أن تحدد لي اللون وسوف تحصل عليها*′ ». أدركت أنه يحاول التسرية عني، لكن حالة الصدمة التي كنت فيها جعلتني غير راغب في الكلام. سرنا برهة وقد خفض كل منا رأسه إلى الأرض. لا صوت من حولنا غير صوت خطواتنا في ذلك الدرب المظلم. بدا لي كأن صدى تلك الخطوات يتردّد من خلفنا إلى الأبد فيعلو فوق ليل المدينة الهائل المحيط بنا... أبواق سيارات وصفارات تتناهى أصواتها إلينا كأنها آتية من مسافة نصف ميل.

سرعان ما قال بوريس وهو يرميني بنظرة جانبية أخرى: «لا بأس، فقد صرت أفهم الأمر الآن... على الأقل! ما رأيك أنت؟».

قلت مجفلاً: «ماذا؟». كان عقلي لا يزال مشغولاً بالصبي، وكنت أرى نفسي في مثل حالته، عما قريب: أفقد الوعي في الحمام في بيت هوبي،

وينزف رأسي دماً بعد اصطدامه بحافة المغسلة. أو... أستيقظ على أرض المطبخ في بيت كارول لومبارد، فأجد كارول تهزّني وتصرخ قائلة: *كانت أربع دقائق فقط، لحسن الحظ. كنت سأتصل برقم الطوارئ إذا لم تستعد وعيك بعد خمس دقائق.*

قال بوريس: «أنا واثق تماماً من هذا. ساشا هو من أخذ اللوحة».

«من؟».

حملق بوريس في وجهي وقال: «إنه شقيق أولريكا... شيء غريب!». قال هذا وهو يطوي ذراعيه على صدغه الضيّق... «واحد زائد واحد يساوي اثنين، إن كنت تفهم ما أعنيه. إن العلاقة بين ساشا وهورست وثيقة جداً. لا يقبل هورست سماع أيّ كلمة تطال ساشا! يصعب كثيراً ألّا تحب ساشا... يحبه الجميع. إنه أكثر وداً ولطفاً من أولريكا. لكن شخصيتينا لم تتوافقا أبداً. يقول الجميع إن هورست كان مستقيماً، بل في غاية الاستقامة، إلى أن بدأت علاقته بهذين الاثنين. كان يدرس الفلسفة؛ وكان يعتزم تولي إدارة شركة أبيه... وها هو الآن، كما رأيته. بالنظر إلى هذا كله، لم أتصوّر أبداً أن ساشا يمكن أن يعمل ضد هورست، ولا بعد مئة سنة. هل تابعت كل ما جرى هناك من كلام؟».

«لا».

«حسناً... يظن هورست بأن كلام ساشا صادق تماماً، يظنّه ذهباً خالصاً. أما أنا، فلست واثقاً مثله. ثم إنني لا أظن اللوحة في إيرلندا. حتى الإيرلندي نيال لا يظن ذلك. كم تزعجني عودة أولريكا!... لا أستطيع أن أقول صراحة كل ما أفكر فيه...». دفن يديه في جيبيه... «لأنني فوجئت بعض الشيء بأن يجرؤ ساشا على فعل هذا... لكني لا أستطيع قول ذلك لهورست ـ لم أجد تفسيراً آخر ـ أتصور أن كل ما جرى... الصفقة الخائبة، والاعتقال، والاصطدام مع الشرطة، وكل ذلك. ما كان إلا حجة لكي يسرق ساشا اللوحة. إن لدى هورست عشرات الأشخاص الذين يعيشون على حسابه

ـ إنّه أكثر لطفاً وأكثر ميلاً إلى الثقة بالناس مما ينبغي له أن يكون ـ شخص لطيف الروح حسن الظن بالناس. لا بأس... يمكنه أن يترك ساشا وأولريكا يسرقانه، لا مشكلة عندي... لكني لن أسمح لهما بسرقتي».

لم أقل غير «ممم». لم أر هورست إلا لوقتٍ قصير، لكنه لم يبد لي *'لطيف الروح'* على نحو خاص.

قال بوريس متجهم الوجه وهو يخوض في برك الماء الصغيرة: «على الرغم من ذلك، فالمشكلة الوحيدة هي الرجل الذي أتى به ساشا! الرجل الذي ربطني به! اسمه الحقيقي!؟! لا فكرة عندي أبداً. كان يدعو نفسه تيري؛ وهذا غير صحيح. أنا أيضاً لا أستخدم اسمي الحقيقي. لكن، تيري، من كندا... هذا ما لا أصدقه أبداً! إنه من جمهورية التشيك؛ وهو ليس 'تيري وايت' بأكثر مني! أظنّه واحداً من مجرمي الشوارع ـ شخص خارج من السجن حديثاً ـ لا يعرف شيئاً ـ غير متعلّم ـ بهيمة حقيقي. أتصوّر أن ساشا التقطه من مكان ما حتى يستخدمه لتسهيل ما فعله؛ بل أظنه أعطاه نسبة مقابل هذه الصفقة... نسبة تافهة، على الأرجح. لكني أعرف شكل 'تيري' هذا؛ وأعرف أيضاً أن له صلات في مدينة *آنتويرب*. سأتصل بصديقي تشيري وأكلفه بالبحث عنه».

«تشيري؟».

«تشيري، نعم... إنه *'مفتاحٌ'* صديقي فكتور تشيري هذا. ونحن ندعوه تشيري بسبب أنفه الأحمر؛ لكنْ، هناك سببٌ آخر أيضاً لأن اسمه الروسي، فيتيا، قريباً من الكلمة الروسية المقابلة لكلمة تشيري[1]. وهناك أيضاً مسلسل روسي شهير اسمه كرز *الشتاء*... حسناً، يصعب شرح هذا! وأنا أستخدم دائماً ذلك المسلسل لمناكفة فيتيا. يزعجه هذا كثيراً. على أية حال، تشيري يعرف كل شخص، وكل شيء. ويسمع الأحاديث الداخلية كلها. يمكنك أن تعرف بأي أمر من فكتور تشيري قبل حدوثه

(1) تشيري (في اللغة الإنكليزية) تعني كرز.

بأسبوعين! إذاً، لا حاجة للقلق على عصفورك! هل فهمتني؟ أنا واثق تماماً من أننا سنرتب الأمر».

«ماذا تعني بـ'سنرتّب الأمر'؟».

قال بوريس بنبرة استياء: «لأن هذه دائرة مغلقة؛ ألا تفهم هذا؟ كان هورست محقاً عندما تحدّث عن المال. *لن يشتري أحد هذه اللوحة*. إن بيعها مستحيل. لكن، السوق السوداء، واستخدام اللوحة أداة للمقايضة! من الممكن أن يجري تبادلها مرات كثيرة، جيئة وذهاباً! كبيرة القيمة سهلة الحمل. غرف فنادق... تذهب وتجيء. مخدرات، أسلحة، فتيات، مبالغ نقدية... أي شيء».

«فتيات؟».

«فتيات، أولاد، ماذا بك؟ انظر، انظر...». قال هذا وهو يرفع يده... «أنا لا علاقة لي بأي شيء من هذا القبيل. لقد اقتربت كثيراً، أنا نفسي، من أن أكون ضحية البيع عندما كنت ولداً ـ إن تلك الأفاعي موجودة في كل مكان في أوكرانيا، أو فلنقل إنها كانت موجودة. عند كل زاوية، وفي كل محطة قطارات. أستطيع التأكيد لك أن الأمر قد يبدو صفقة طيبة إذا كان المرء صغير السن أو تعيساً إلى الحد الكافي. شخص عادي المظهر يعدك بوظيفة في مطعم في لندن، أو شيء من هذا القبيل، ويقدم لك جواز سفر وتذكرة سفر! ها! ثم تستيقظ فجأة فتجد نفسك مقيداً من يدك بسلسلة في قبو ما. لا يمكن أبداً أن أتورط في أي شيء من هذا القبيل. إنه خاطئ، لكنه يحدث. بعد أن خرجت اللوحة من بين يدي، ومن بين يدي هورست ـ فمن عساه يعرف بماذا تجري مقايضتها؟ تحوزها هذه الجماعة، ثم تحوزها تلك الجماعة. لكن الفكرة هنا...». رفع إصبعه... «الفكرة هي أن لوحتك لن تختفي وتصير جزءاً من مجموعة واحد من مجانين أوليغارشية الفن. إنها أشهر بكثير، بكثير، من أن يحدث لها ذلك. لا يرغب أحد في شرائها، فما الذي يستطيع فعله بها إذا اشتراها؟

لا شيء! هذا إلا إذا تمكّنت الشرطة من العثور عليها. لكنهم لم يعثروا عليها بعد. هذا ما نعرفه».

«أريد أن تعثر الشرطة عليها».

دعك بوريس أنفه بحركة خفيفة وقال: «لا بأس... نعم، هذا شيء نبيل جداً. وأما الآن، فما أعرفه هو أن اللوحة سوف تنتقل؛ وهي لن تنتقل إلا ضمن شبكة صغيرة نسبياً. إن فكتور تشيري صديق مهم. وهو مدين لي كثيراً. لهذا كله عليك أن تنتعش!...». قال هذا هو يمسك بذراعي... «لا تتخذ هذه الهيئة البائسة المريضة. سوف نتكلم قريباً. أعدك بهذا».

18

بقيت واقفاً تحت مصباح الشارع حيث تركني بوريس. قال لي: «لا يمكنني إيصالك إلى البيت، لقد تأخّرت. يجب أن أذهب». وكنت مهزوزاً مشوَّشاً إلى حد جعلني محتاجاً إلى النظر حولي حتى أعرف موقعي ـ الواجهة الرمادية الشبيهة بالزبد... بناية *آلواين* كأنها شيء من عهد الباروك مصاب بفقدان ذاكرة رهيب ـ الأضواء الكشافة على الفتحات، وتزيينات عيد الميلاد عند باب مطعم *بتروسيان* نقرت على وتر مدفون في مكان عميق في ذاكرتي: شهر كانون الأول؛ وأمي في قبَّعة الثلج: *اسمع يا حبيبي! دعني أذهب إلى الشارع الآخر سريعاً لأشتري لك كرواسان من أجل الإفطار*...

كان ذهني شارداً. أتى رجل التف مسرعاً عند الزاوية فاصطدم بي اصطداماً مباشراً: «انتبه!».

قلت مبتعداً عنه: «آسف»، على الرغم من أنه كان هو المخطئ... كان شديد الانشغال بالصراخ والثرثرة على هاتفه الخليوي فلم ينظر أمامه. نظرات لائمة من عدة أشخاص سائرين على الرصيف. في غمرة إحساسي بالتشوش والضياع، كنت أحاول التفكير في ما أفعله. يمكنني أن أذهب بالمترو إلى بيت هوبي. إذا أحببت الذهاب بالمترو. لكن شقة

كيتزي كانت أقرب لي. سوف تكون خارج البيت مع شريكتيها في السكن فرانسي وإيميلي. إن لديهن *«ليلة بنات»* (لا معنى لأن أحاول الاتصال بها أو أن أكتب لها رسالة نصية. هذا ما أعرفه من تجربتي. عادة ما تذهبن إلى السينما). لكن مفتاح الشقة كان معي. أستطيع الدخول. وأستطيع أن أعدّ لنفسي شراباً، ثم أستلقي في انتظار عودتها إلى البيت.

كان المطر قد توقف، وظهر قمر شتويٌّ ضعيف عبر ثغرة في الغيوم. بدأت السير شرقاً من جديد متمهلاً من حين إلى آخر حتى أحاول استيقاف تاكسي. لم يكن من عادتي أن أعرّج على بيت كيتزي من غير اتصال لقلة اهتمامي برؤية صديقاتها، ولقلة اهتمامهن برؤيتي. لكن، وعلى الرغم من وجود فرانسي وإيميلي، ومن مجاملاتنا المتكلّفة في المطبخ، فقد كانت شقة كيتزي من الأماكن القليلة في نيويورك التي أجد فيها أماناً حقيقياً. لا يعرف أحد كيف يصل إليّ في بيت كيتزي. وقد كانت الشقة تعطيني ذلك الإحساس بأنها حالة مؤقتة: لم تكن كيتزي تحتفظ هناك بثياب كثيرة، بل كانت ثيابها كلها في حقيبة موضوعة على طاولة منخفضة عند أسفل السرير. ولسبب غير واضح، كنت أحب فراغ الشقة وانعدام هويتها... شقة مزينة، على نحو بهيج لكنه شحيح... مزينة بسجادات عليها رسوم تجريدية، وقطع أثاث حديثة من متجر ذي أسعار مقبولة. كان سريرها مريحاً. وكان مصباح القراءة جيداً. ولديها جهاز تلفزيون له شاشة بلازما كبيرة نستلقي في السرير قبالتها ونتابع أفلاماً... إذا أحببنا ذلك. كان البراد المغلف بالستانلس ستيل عامراً على الدوام بـ«مأكولات البنات»: حمّص وزيتون، ومعجنات وشامبانيا، والكثير من السلطات السخيفة الجاهزة، وعدة أنواع من الآيس كريم.

بحثت عن المفتاح في جيبي، ثم فتحت القفل وأنا شارد الذهن (كنت أفكر في ما قد أجده من طعام... هل سأضطرّ إلى طلب طعام من الخارج؟ لا معنى لانتظارها لأنها ستكون قد تناولت العشاء قبل عودتها)، فكاد أنفي يصطدم بالباب الذي أوقفته السلسلة.

أغلقت الباب، ثم بقيت واقفاً أمامه دقيقة... كنت حائراً. فتحت الباب من جديد فأوقفته السلسلة مرة أخرى. أريكة حمراء، وصور معمارية ذات إطارات، وشمعة مشتعلة على طاولة القهوة.

صحت: «مرحباً!». ثم صحت من جديد: «مرحباً!»، صحت بصوت أعلى عندما سمعت حركة في الداخل.

كنت أدق الباب بقوة كافية لإيقاظ الجيران عندما أتت إيميلي ـ بعد ما بدا لي زمناً طويلاً جداً ـ ونظرت إليَّ عبر شق الباب. كانت مرتدية كنزة بيتية قديمة وبنطلوناً ذا ألوان صاخبة جعل مؤخرتها تبدو أكبر من حجمها بكثير. ومن غير أن تفك السلسلة، قالت بصوت لا حياة فيه: «كيتزي ليست هنا».

قلت منزعجاً: «لا بأس. أعرف هذا؛ ليست مشكلة».

«لا أعرف متى تعود».

عندما قابلت إيميلي أول مرة، كانت فتاة سمينة الوجه في التاسعة من عمرها. يومها، أغلقت في وجهي باب شقة باربر ثم لم تحاول أبداً إخفاء حقيقة أنها لم تكن تعتبرني شخصاً مناسباً لكيتزي.

قلت لها بضيق واضح: «حسناً، افتحي الباب، من فضلك. أريد أن أنتظرها في الداخل».

«آسفة. الوقت الآن غير مناسب». كان شعر إيميلي البني ـ القمحيّ قصيراً على حاله مثلما كان أيام طفولتها. كما أن شكل فمها ـ مثلما كان منذ الصف الثاني ـ جعلني أتذكّر آندي الذي كان يكرهها كثيراً ويشبّهها بشخصية سخيفة في أفلام الرسوم المتحركة.

قلت من جديد، منزعجاً: «هذا سخف. ماذا بك؟ دعيني أدخل». لكنها ظلّت واقفة تنظر إليَّ من شق الباب. لم تكن تنظر إلى وجهي بل إلى نقطة ما إلى جانبه... «انظري يا إيميلي... لا أريد غير أن أذهب إلى غرفتها حتى أستلقي وأنتظرها».

أجابتني بعد لحظة صمت غير طبيعية: «أظن من الأفضل أن تأتي في وقت لاحق. آسفة».

«اسمعي... لا يهمني ما تفعلينه في الداخل...». على الأقل، كانت فرانسي، زميلة السكن الأخرى، تتظاهر بشيء من المودة الاجتماعية... «لا أريد إزعاجك. أريد فقط أن...».

«آسفة. أظن من الأفضل أن تذهب. لأن... لأن، انظر، إنني أعيش هنا». قالت هذا وهي ترفع صوتها أكثر من صوتي.

«شيء عجيب! يستحيل أن تكوني جادّة في هذا».

رفرفت عيناها ضيقاً: «... إنني أعيش هنا. هذا بيتي، ولا يمكنك أن تأتي وتقتحم المكان في أي وقت يعجبك».

«ماذا بك؟».

كانت قلقة أيضاً: «و، و... انظر... أنا لا أستطيع مساعدتك. الوقت غير مناسب الآن. من الأفضل أن تذهب. اتفقنا؟ إنني آسفة». ثم بدأت تغلق الباب في وجهي... «أراك في الحفلة».

«ماذا؟».

قالت إيميلي وهي تفتح الباب سنتيمترات قليلة وتنظر إليّ بحيث رأيت عينيها الزرقاوين المرتبكتين لحظة واحدة قبل أن تغلق الباب من جديد: «حفلة الخطوبة».

19

وقفت في الممر بضع لحظات في ذلك الصمت المطبق الذي حل على المكان. وقفت أحدّق في ثقب مفتاح ذلك الباب المغلق. وتخيلت في ذلك الصمت أنني أسمع إيميلي على مسافات إنشات خلف ذلك الباب... إنني أسمع صوت تنفّسها اللاهث مثلما كان صوت تنفسي.

حسناً... هكذا هو الأمر! لقد تم حذفكِ من قائمة وصيفات العروس! هكذا قلت في نفسي وأنا أستدير مبتعداً، وأنزل السلم بقدر كبير من

الضجيج المُفتعل، ومن الإحساس بالغضب، وببهجة غريبة نتيجة تلك الحادثة لأنها أكدت لي تماماً صحة فكرتي السيئة عن إيميلي. كانت كيتزي قد اعتذرت لي أكثر من مرة عن «فظاظة» إيميلي؛ لكن هذه الحادثة كانت شيئاً استثنائياً. لماذا لم تذهب إلى السينما مع البقية؟ هل كانت مع رجل ما في البيت؟ صحيح أن إيميلي كانت سمينة بعض الشيء، ولم تكن شديدة الجاذبية، لكنها كانت على علاقة بشخص اسمه بيل يعمل مديراً تنفيذياً في *سيتي بانك*.

شوارع سوداء لامعة. فور خروجي من ردهة مدخل البناء، وقفت أمام باب متجر الأزهار المجاور حتى أتفقد الرسائل على هاتفي، وأكتب لكيتزي رسالة قبل أن أتوجّه إلى قلب المدينة... من باب التحسّب فقط: إذا كانت خارجة من السينما الآن، فمن الممكن أن أقابلها لنذهب ونتعشى ونحتسي كأساً معاً (وحدنا، من غير صديقاتها: بدا لي أن غرابة الحادثة تستدعي ذلك). وبالتأكيد، سيجري بيننا حديث فكاهي عندما نخمِّن الأسباب المحتملة لسلوك إيميلي.

واجهة يغمرها الضوء. تألّق الموت في ذلك الحيّز المغلق المُبرَّد. خلف الزجاج الذي ضبّبه تكاثف بخار الماء عليه، رأيت زنابق الأوركيد التي ينساب عليها الماء، رأيتها تهتز وتتمايل في تيار الهواء الصادر عن المروحة: بيضاء كالأشباح، ملائكية. كانت الأنواع الأكثر ندرة وغرابة مصطفة في المقدمة... يباع بعضها بآلاف الدولارات: مشعّرة ومعرّقة، منقّطة ومسنَّنة، أزهار عليها بقع حمراء كالدم، وأزهار لها وجه شيطان... ألوان تتدرّج من عفن الجثث إلى أرجوان الكدمات... بل كان بينها أيضاً زهرة أوركيد سوداء رمادية الجذور تلوَّت صاعدة من أصيص مكتسٍ فراء طحلبياً. (قالت لي كيتزي عندما أنبأها حدسها الصائب بشيء من خططي في عيد الميلاد: «أرجوك يا عزيزي. لا تفكّر في الأوركيد! إنها رائعة كلها. لكنها تموت لحظة ألمسها»).

لا رسائل جديدة في الهاتف. كتبت لها سريعاً: *مرحباً. اتصلي بي. يجب أن نتكّلم. حدث قبل قليل شيء مضحك جداً*. ثم طلبت رقمها حتى أتأكد من أنها لم تخرج من السينما بعد. لكن... مع انتقال المكالمة إلى البريد الصوتي، رأيت انعكاساً في الزجاج الذي أمامي، في الأعماق المتشابكة الخضراء في آخر المتجر. استدرت غير مصدّق عينيّ.

إنها كيتزي، خافضة رأسها، في معطفها الوردي. ذراعها مشبوكة بذراع رجل عرفته... كانت تهمس له بشيء... لم أره منذ سنين لكني عرفته على الفور: وضعية الكتفين نفسها، والوقفة المخاتلة سائبة العظام... إنه توم كيبل!... لا يزال شعره البنّي المجعَّد طويلاً مثلما كان. ولا يزال يرتدي الملابس نفسها، ملابس الأولاد الأغنياء مدمني المخدرات، الملابس التي كانت يرتديها أيام المدرسة (حذاء سويدي من ماركة *تريتورن*، وكنزة إيرلندية كبيرة سميكة من غير معطف). رأيت كيس تسوق من متجر النبيذ معلّقاً من كتفه. متجر النبيذ الذي كنا نجري إليه بعض الأحيان، أنا وكيتزي، فنشتري منه زجاجة. لكن ما أدهشني أن كيتزي، التي اعتادت أن تمسك بيدي محافظةً على مسافة صغيرة بيننا فتشدّني من خلفها، وتؤرجح ذراعي كأننا أطفال نلعب لعبة، كانت الآن ملتصقة به، مندسّة فيه! وقفت أنظر إليهما وقد صار ذهني صفحة بيضاء أمام هذا المشهد الذي لم أفهمه. كانا ينتظران إشارة السير. دوى صوت باص يمر بهما. وكان كل منهما مشغولاً بالآخر إلى حد جعلهما لا يلاحظان وجودي. كان كيبل يحدّثها بصوت منخفض ويعبث بخصلة من شعرها، ثم استدار وجذبها إليه وقبلها قبلة استجابت لها برقة حزينة أكثر من استجابتها لأية قبلة من قبلاتي.

كانا يجتازان الشارع. أدرت ظهري سريعاً. كنت قادراً على رؤية انعكاس صورتهما بكل وضوح على واجهة المتجر المنارة. اقتربا من باب بناية كيتزي فصارا على مسافة أقدام مني. رأيت ما هو أكثر... كانت

كيتزي قلقة، وكانت تكلّمه بصوت منخفض أكسبه اضطراب مشاعرها بحّة خفيفة. كانت مائلة عليه ملصقة خدها بكتفه، بينما التفّت يده من خلفها وضغطت كفه بحب على ذراعها. صحيح أنني لم أكن قادراً على فهم ما تقوله، لكن نبرة صوتها كانت واضحة تماماً: على الرغم من حزنها، ما كانت فرحتها به، ولا فرحته بها، خافيةً على الإطلاق. كان ذلك واضحاً لأي شخص غريب يراهما في الشارع. ومع مرورهما من خلفي، مع مرور صورتهما في الواجهة الزجاجية القاتمة... شبحان متحابّان يميل كل منهما على الآخر... رأيتها ترفع يدها بسرعة وتمسح دمعة عن خدها، فوجدت نفسي أنظر إلى ذلك المشهد بكل دهشة: لسبب ما ـ شيء غير منتظر أبداً ـ وللمرة الأولى على الإطلاق، رأيت كيتزي باكية!

20

بقيت صاحياً معظم الليل؛ وعندما نزلت لأفتح المتجر صباح اليوم التالي، كنت مشغول الذهن إلى حدٍّ بقيت معه جالساً نصف ساعة، محدّقاً في الفراغ، قبل أن أنتبه إلى أنني نسيت أن أقلب لافتة ' *مغلق* ' المعلّقة عند الباب على وجهها الآخر.

رحلتا كيتزي الأسبوعيتان إلى *هامبتون*. أرقام غريبة تومض على هاتفها فتسرع إلى إنهاء المكالمة. كيتزي تنظر عابسة إلى الهاتف أثناء العشاء، ثم تغلقه وتقول: «أوه، إنها إيميلي. أوه، إنها ماما. أوه، إنه مجرد مندوب تسويق... أظنهم وضعوا رقم هاتفي في واحدة من قوائمهم».

رسائل نصّية تأتيها في منتصف الليل... شيء على شاشة الهاتف مثل غواصة تظهر على لوحة رادار، ونبضة سونار زرقاء على الجدران... مؤخرة كيتزي العارية وهي تقفز من السرير لتقفل الهاتف فأرى في الظلام لمحات سريعة من ساقيها البيضاوين: «أوه، إنه رقم خاطئ!... أوه، إنه تودي في الخارج، ثمل في مكان ما!».

ثم أتذكّر، فأحس كما لو أن قلبي يغرق: السيدة باربر! كنت منتبهاً تماماً

إلى لمسة السيدة باربر الخفيّة في الأوضاع الشائكة ـ قدرتها على إدارة المسائل الحساسة من خلف ستار. صحيح أنني لم أسمع منها أي كذب مباشر (على حدّ علمي)، لكني واثق تماماً من أن كل معلومات تأتيني من قبلِها كانت خاضعة للتصفية وحذف بعض الأشياء. بدأت أتذكّر أموراً صغيرة كثيرة، كتلك اللحظة قبل بضعة شهور عندما دخلتُ على كيتزي والسيدة باربر فسمعتها تقول للبواب بصوت منخفض مستعجل ـ عبر الإنترفون: *«لا؛ لا أهمية لهذا. لا تدعه يصعد. أبقه في الأسفل»*. بعد ذلك بأقل من نصف دقيقة، بعد النظر إلى رسالة نصية أتتها على هاتفها، قالت كيتزي على غير انتظار إنها ستأخذ الكلبين في نزهة سريعة حول البناء! لم يُثر الأمر انتباهي على الرغم من لمحة صقيعية من الاستياء ظهرت على وجه السيدة باربر، لمحة لا تخطئها العين، ثم حلّ محلها دفء وطاقة جديدان عندما استدارت في اتجاهي ـ بعد أن أغلقت كيتزي الباب من خلفها ـ ومدت يدها فأمسكت بيدي.

كنا قد اتفقنا على اللقاء في تلك الليلة: أصطحبُها إلى حفلة عيد ميلاد واحدة من صديقاتها، وبعد ذلك نعرّج قليلاً على حفلة أخرى. لم تتصل بي كيتزي، لكنها كتبت لي رسالة نصية مستعجلة: ***ماذا هنالك يا ثيو؟ أنا في العمل، اتصل بي***. كنت لا أزال محدّقاً في هذه الرسالة، غير فاهم شيئاً منها. تساءلت إن كان عليَّ أن أرد عليها، أم لا... وماذا يمكن أن أقول لها؟ في تلك اللحظة، دخل بوريس باب المتجر مسرعاً وقال: «لديَّ بعض الأنباء».

قلت له بعد لحظة صمت قصيرة بفعل شرود ذهني: «أوه، ماذا؟».

مسح جبهته وقال وهو يتلفّت من حوله: «هل نستطيع الكلام هنا؟».

هزرت رأسي حتى يصفو ذهني قليلاً: «آه، بالطبع!».

قال وهو يدعك عينيه: «إنني أحس نعاساً اليوم... كان شعره مشعّثاً، منتصباً في كل اتجاه... «يجب أن أشرب قهوة. لا، ليس لديَّ وقتٌ

لذلك...». كانت عيناه غائمتين. رفع يديه وقال: «بل حتى لا أستطيع الجلوس. يمكنني البقاء دقيقة واحدة. لكنها أنباء جيدة. عثرت على خط جديد يتعلّق بلوحتك».

وعلى الفور، خرجت من ضباب كيتزي كله. قلت له: «ما هو؟».

«حسناً، سوف نعرف عما قريب». قالها بنبرة مراوغة.

كم كان التركيز صعباً. سألته: «أين؟ هل هي بخير؟ أين يحتفظون بها؟».

«هذه أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها».

كنت أجد صعوبة في استجماع أفكاري. مررت بيدي على سطح الطاولة حتى أتمالك نفسي، ثم رفعت رأسي.

سألني: «ماذا؟».

«يجب أن تظل اللوحة ضمن مجال محدد من درجات الحرارة، وضمن درجة رطوبة محددة. أنت تعرف هذا. أليس كذلك؟». كأنني أتكلّم بصوت شخص آخر، ليس صوتي... «لا يمكن أن يضعوها في قبو رطب، أو في أي مكان».

شدّ بوريس على شفتيه بأسلوبه الساخر القديم. قال لي: «صدقني، كان هورست يعتني بها كأنها طفله الصغير. لكن...». أغمض عينيه... «لكني لا أستطيع قول شيء يتعلّق بهؤلاء الأشخاص. يحزنني إخبارك بأنهم ليسوا عباقرة. ليس لنا غير الأمل بأن لديهم من العقل ما يمنعهم من وضعها خلف فرن البيتزا، أو شيء من هذا القبيل! إنني أمزح...». أضاف عندما رآني أفتح فمي مذعوراً... «لكن، ومما سمعته، يبدو لي أنها موجودة في مطعم، أو في مكان قريب من أحد المطاعم. على أيّ حال، إنها في المبنى نفسه الذي فيه ذلك المطعم. سنتحدّث عن هذا في وقت لاحق». قال هذا وهو يرفع يده لكي يسكتني.

قلت بعد صمت غير مصدِّق: «هنا؟ في المدينة؟».

قال بوريس بنبرة حذرة وهو ينظر في أرجاء المكان ويلقي نظرة أخرى من فوق رأسي: «في ما بعد. هذا أمر يمكنه الانتظار. لكن، هنا شيءٌ آخر. اسمع، اسمع. في الحقيقة، هذا ما أتيت لإخبارك به. هورست ـ لم يكن يعرف أن اسم عائلتك بيكر؛ لم يكن يعرف ذلك إلى أن سألني على الهاتف اليوم. هل تعرف شخصاً اسمه لوسيوس ريف؟».

جلست وسألته: «لماذا؟».

«يقول هورست إن عليك أن تبقى بعيداً عنه. يعرف هورست أنك تعمل في الأنتيكات، لكنه لم يُقم أية صلة بين عملك وبين ذلك الشيء الآخر إلى أن عرف اسمك».

«وما ذلك الشيء الآخر؟».

«لم يقبل هورست أن يوضح لي الأمر كثيراً. لا أعرف طبيعة علاقتك بلوسيوس هذا. لكن هورست يقول إن عليك الابتعاد عنه. وقد ظننت أن من المهم أن تعرف هذا على الفور. لقد تسبّب بضرر كبير لهورست في مسألة أخرى لا علاقة لها بموضوعنا. كلف هورست مارتن بملاحقته».

«مارتن؟».

لوح بوريس بيده: «أنت لم تر مارتن! صدقني، لو رأيته لتذكّرته. على أية حال، من السيئ جداً لشخص يعمل في مجالك أن يكون على صلة بلوسيوس».

«أعرف هذا».

«ما علاقتك به؟ إن كان لي أن أسألك عن هذا؟».

هززت رأسي مدركاً استحالة الخوض في هذا الأمر: «إنني... الأمر معقّد».

«حسناً، لا أعرف ما يمكن أن يكون لدى لوسيوس ضدك. إذا كنت في حاجة إلى مساعدة مني، فأنا جاهز بالطبع ـ إنني أتعهّد لك بهذا. يمكنني القول إن هورست يتعهّد بذلك أيضاً لأنك تعجبه. كانت رؤية اهتمامه

وكثرة كلامه بالأمس أمراً لطيفاً! لا أظنه يعرف أشخاصاً كثيرين يمكنه أن يكون على طبيعته معهم وأن يشاركهم اهتماماته. هذا محزن! هورست شخص شديد الذكاء. إن لديه الكثير مما يمكنه تقديمه. لكن...». ألقى على ساعته نظرة سريعة... «آسف؛ لا أريد أن أكون فظّاً، لكن عليَّ الذهاب إلى مكان آخر ـ لدي أمل كبير في ما يتعلّق باللوحة. أظن ـ هذا احتمال ـ بأننا قد نستعيدها! لذا...». نهض واقفاً وضرب بقبضة يده على صدره... «علينا أن نتحلّى بالشجاعة. وسوف نتكلّم عمَّ قريب».

«بوريس؟».

«ماذا؟».

«ماذا تفعل إذا كانت فتاتك تخونك؟».

كان بوريس في طريقه إلى الخروج من الباب، لكنه توقّف والتفت صوبي. قال: «ماذا قلت؟».

«إذا ظننت أن فتاتك تخونك، فماذا تفعل؟».

«ألست واثقاً؟ أليس لديك دليل؟».

قلت: «لا»؛ لكني قلتها قبل أن أدرك أن إجابتي ليست صادقة تماماً.

قال بوريس بلهجة قاطعة: «في هذه الحالة عليك أن تسألها على نحو صريح مباشر. اسألها في لحظة ود لا تتوقع فيها هذا السؤال ولا تكون مستعدة له. ربما في السرير. إذا استطعت أن تسألها في اللحظة المناسبة، فسوف تعرف الأمر حتى إن كذبت عليك. سوف تفقد أعصابها».

«هذه المرأة لا تفقد أعصابها».

ضحك بوريس وقال: «حسناً، هذا يعني أنك وجدت امرأة جيّدة! امرأة نادرة! هل هي جميلة؟».

«نعم».

«هل هي غنية؟».

«نعم».

«هل هي ذكية؟».
«يقول أكثر الناس إنها ذكية. نعم، إنها ذكية».
«وهل هي من غير قلب؟».
«نوعاً ما».
ضحك بوريس من جديد: «وأنت تحبها، أليس كذلك؟ لكن ليس كثيراً».
«لماذا تقول هذا؟».
«لأنك لست غاضباً، ولأنك لست خارجاً عن طورك، ولست حزيناً جداً! أنت لا تزمجر وتقول إنك ستخنقها بيديك العاريتين! هذا يعني أن روحك ليست ممتزجة كثيراً مع روحها. وهذا أمر حسن. إليك ما تقوله تجربتي: ابق بعيداً عمن تحبهم كثيراً. إنهم الذين سيقتلونك. ما يلزمك حتى تعيش وتكون سعيداً في العالم هو امرأة تكون لها حياتها الخاصّة وتسمح لك بأن تكون لديك حياتك».
ربّت على كتفي مرتين، ثم خرج وتركني محدّقاً في العلبة الفضية وقد انتابني إحساس متجدّد باليأس من حياتي المتّسخة.

21

عندما فتحت كيتزي لي الباب في تلك الليلة، لم أجدها متمالكة نفسها مثلما تكون عادة. كانت تتحدّث عن أشياء كثيرة في وقت واحد... فستان جديد تريد أن تشتريه، جرَّبَته لكنها لم تستطع اتخاذ قرار فتركته في الانتظار. عاصفة في ولاية ماين؛ سقطت آلاف الأشجار العتيقة في الجزيرة. اتصل العم هاري. شيء حزين جداً! التفتت سريعاً بحركة فاتنة وشبت على أطراف أصابعها حتى تصل إلى كؤوس النبيذ... «أوه، يا عزيزي. هل تساعدني؟ من فضلك!». لم أر أثراً لزميلتيها في السكن، إيميلي وفرانسي، كأنهما قررتا ـ لحكمة ما ـ الاختفاء مع صديقيهما قبل وصولي. «أوه، لا تهتم ـ تمكّنت من الوصول إلى الكؤوس. اسمع، إن

لدي فكرة جيدة جداً. فلنذهب لتناول اللحم بالكاري قبل الذهاب إلى بيت سينثيا. إنني أشتهي اللحم بالكاري. ما اسم ذلك المطعم المختبئ عن الأنظار الذي أخذتني إليه في شارع *ليكسنغتون* ـ المطعم الذي يعجبك ـ ما اسمه؟ اسمه *محل*، أو شيء من هذا القبيل!».

أجبتها بصوت خالٍ من التعبير: «هل هو المطعم الذي في ذلك الفندق البائس». لم أكن قد اهتممت حتى بخلع معطفي.

«عفواً، ماذا قلت؟».

«المطعم الذي يقدم طبق روغان جوش[1] كثير الدسم. والعجائز الذين سببوا لك الاكتئاب. الناس الذين كانوا في مزاد *بلومنغبيلد*». كان مطعم *جال محل* (كذا!) مطعماً هندياً مهلهلاً منزوياً في شارع *ليكسنغتون* في الطابق الثاني من بناية تشغل المتاجر واجهتها؛ مطعم لم يتغير فيه شيء منذ أن كنت طفلاً: لم يتغير خبز البابادون، ولا قائمة الأسعار، ولا السجادة الوردية التي حال لونها نتيجة تسرب الماء في منطقة قريبة من النافذة، ولا حتى العاملون... الوجوه الثقيلة اللطيفة المبتهجة نفسها التي أتذكرها منذ طفولتي عندما كنت أذهب إلى ذلك المكان مع أمي بعد مشاهدة فيلم سينما لكي نتناول السمبوسك والآيس كريم بالمانغو... «بالتأكيد، لم لا؟' *أكثر مطاعم مانهاتن حزناً* يا للفكرة العظيمة!».

استدارت في اتجاهي وقالت عابسة: «لا أهمية للأمر. مطعم *بالوتشي* أقرب إلينا. أو... من الممكن أن نفعل أي شيء تريده».

«أوه، حقاً؟». وقفت مستنداً إلى إطار الباب دافناً يدي في جيبي. لقد جعلتني سنوات من العيش مع كاذبة من طراز عالمي شخصاً عديم الرحمة... «نفعل أي شيء أريده! هذا خيار غني!».

«آسفة! كنت أقول في نفسي إن اللحم بالكاري قد يكون فكرة لطيفة. انسَ الأمر».

---

(1) روغان جوش: طبق هندي من لحم الخروف بالكاري وصلصة الطماطم الكثيفة الدسمة.
جال محل: قصر في وسط بحيرة مانسافار في مدينة جال بور الهندية.

«لا بأس. يمكنكِ التوقف عن ذلك الآن».

رفعت رأسها ونظرت إليَّ بابتسامة على وجهها كانت خالية من المعنى: «عفواً، ماذا تعني بهذا؟».

«لا تفعلي هذا! أنت تعرفين ما أتحدّث عنه تمام المعرفة».

لم تقل كيتزي شيئاً. ظهرت عقدة على جبينها الأنيق.

«لعل هذا يعلّمك أن تبقي هاتفك عاملاً عندما تكونين معه. أنا واثق من أنها حاولت الاتصال بك عندما كنتِ في الشارع».

«عفواً... أنا لا أعرف ما...».

«كيتزي... لقد رأيتك».

صمتت قليلاً وعيناها ترفرفان، ثم قالت لي: «أوه، من فضلك! لا يمكن أن تكون جادّاً في هذا. أنت لا تقصد توم... لا يمكن أن يكون هذا ما قصدته! حقّاً، يا ثيو...». ثم أضافت بعد الصمت الثقيل القاتل الذي أعقب ذلك... «توم صديق قديم لي، منذ زمن بعيد. نحن متقاربان كثيراً...».

«صحيح. هذا ما فهمته».

«... ثم إنه صديق إيميلي أيضاً. و... و... و... أعني...». رفرفت عيناها بشدّة واتخذ وجهها هيئة من يتعرّض لاضطهاد لا مبرر له... «أعرف كيف يمكن أن يكون ذلك قد بدا لك. وأعرف أنك لا تحب توم وأن لديك سبباً وجيهاً لعدم محبته. هذا لأنني أعرف عن ذلك الأمر... عندما ماتت أمك... وبالتأكيد، نعم، نعم، لقد كان تصرّفه سيئاً. لكنه لم يكن إلا طفلاً؛ وهو الآن آسف جداً للأسلوب الذي تصرّف به...».

«أهو آسف جداً؟!».

تابعت الكلام سريعاً كأنها ممثلة قوطعت في منتصف حديثها... «لكن، كانت لديه أخبار سيئة الليلة الماضية؛ أخبار سيئة تخصّه هو...».

«هل تتحدّثين عني معه؟ هل تجلسان سوياً وتناقشان أموري وتشعران بالحزن والأسف على حالي؟».

«... وتوم... لقد أتى إلى هنا لرؤيتنا، أنا وإيميلي، كلتينا... أتى على نحو مفاجئ تماماً... مباشرة قبل الموعد الذي كان من المفترض أن نذهب فيه إلى السينما. كان هذا سبب بقائنا في البيت وعدم خروجنا مع الآخرين. يمكنك أن تسأل إيميلي إذا كنت لا تصدقني. ليس له مكان آخر يذهب إليه. لقد أصابته مشكلة صعبة، شيء شخصي. وما كان يريد غير أحد يتكلم معه؛ فماذا كان علينا أن؟...».

«هل تتوقّعين مني تصديق هذا الكلام؟».

«اسمع. لا أعرف ما قالته إيميلي لك...».

«قولي لي أنتِ، ألا يزال ذلك البيت في *إيستهامبتون* ملكاً لوالدة توم كيبل؟ لا زلت أتذكّر كيف كانت ترميه دائماً في النادي الريفي على امتداد ساعات طويلة بعد أن طردت جليسة الأطفال التي كانت تعمل فيه... أو بعد أن تركت جليسة الأطفال العمل لديها. دروس تنس، أو دروس غولف. أظن أنه صار لاعب غولف جيداً حقاً، أليس كذلك؟».

قالت بنبرة باردة: «صحيح، إنه لاعب جيد جداً».

«يمكنني أن أقول كلاماً وضيعاً هنا، لكني لن أفعل».

«ثيو، لا حاجة إلى أن نفعل هذا».

«هل تريدين سماع نظريتي عنك؟ هل لديك مانع؟ أنا واثق من أن فيها بعض التفاصيل الخاطئة، لكني أظنها صحيحة من حيث الأساس. أقول هذا لأنني أعرف بأمر علاقتك القديمة مع توم. أخبرني بلات بها عندما صادفته بالشارع؛ ولم تكن سعادته كبيرة بذلك...». حاولتْ مقاطعتي، لكني تابعت كلامي بنبرة أظنها كانت قاسية ميتة... «و، نعم، صحيح. لا حاجة إلى التماس الأعذار. كانت البنات معجبات بكيبل على الدوام. شخص مرح يكون مسلياً فعلاً عندما يريد ذلك. وحتى إذا صار في الآونة الأخيرة يحرّر شيكات من غير رصيد أو يسرق أشياء الناس من النادي الريفي أو يفعل أي شيء من تلك الأشياء التي سمعت عنها...».

«هذا غير صحيح! هذا كذب! لم يسرق أبداً أي شيء من أي شخص...».

«... أبوك وأمك لم يكونا يحبّان توم كثيراً، أو لعلهما لم يحبّانه على الإطلاق. وبعد موت أبيك وآندي، وجدتِ نفسك غير قادرة على مواصلة تلك العلاقة، ليس في العلن على أية حال... ستحزن ماما وتنزعج كثيراً! وكما أشار بلات، في مرات كثيرة جداً...».

«لن أراه بعد الآن».

«هذا يعني أنك تعترفين بالأمر».

«لم أكن أظن أن لهذا أهمية قبل زواجنا».

«وكيف لا تكون له أهمية؟».

أزاحت الشعر عن عينيها ولم تقل شيئاً.

«هل ظننتِ أن هذا شيءٌ لا أهمية له؟ لماذا؟ هل ظننتِ أنني لن أكتشف الأمر؟».

رفعت رأسها بحركة غاضبة وقالت: «أنت شديد البرودة، فهل تعرف هذا؟».

أشحت بوجهي وضحكت: «أنا؟ أأنا هو الشخص البارد؟».

«أوه، صحيح! *' الطرف المظلوم'* ، *' مبادئ شديدة السموّ'* !».

«أسمى من مبادئ بعض الناس... على ما يبدو!».

«أنت مستمتع بهذا تماماً!».

«صدّقي أنني لست مستمتعاً به».

«أوه، ألست مستمتعاً؟ إن ابتسامتك الساخرة لا توحي بذلك».

«وماذا تنتظرين مني غير هذا؟».

«قلت لك إنني لن أراه بعد الآن. والواقع أنني أخبرته منذ فترة بأنني سأكف عن رؤيته».

«لكنه أصرّ. إنه يحبك. وهو لا يقبل صَدّك».

فوجئتُ كثيراً عندما رأيت وجهها يحمرّ. قالت: «هذا صحيح».
«كيتزي الصغيرة المسكينة!».
«لا تكن بغيضاً هكذا!».
قلتها من جديد، متهكّماً: «كيتزي المسكينة!»... لأنني لم أجد شيئاً آخر أقوله.
كانت تبحث في الدرج عن أداة فتح الزجاجات. التفتتْ ونظرت إليّ نظرة باردة. قالت: «اصغ إليَّ! لا أنتظر منك أن تفهم هذا، لكن من القاسي كثيراً أن تقع في حب شخص غير مناسب».
بقيت صامتاً. عندما دخلت الشقة، كنت في حالة غضب شديد بعد رؤيتها؛ غضب جعلني أقول لنفسي إنها عاجزة عن جرحي ـ لا سمح الله ـ عاجزة عن جعلي أشعر بالأسف عليها. لكن، من عساه يعرف أكثر مني حقيقة ما قالته؟
قالت من جديد وهي تضع الأداة من يدها: «اصغِ إلي...» آ ـ لقد رأتِ المنفذ وبدأت تستفيد منه. تماماً مثلما تفعل في حلبة التنس عندما تراقب نقطة ضعف خصمها وتستغلها من غير رحمة!
«ابتعدي عني».
قلت هذا بنبرة عاطفية أكثر مما ينبغي. قلته بنبرة غير مناسبة. لقد بدأت أخطئ السبيل. كنت أريد أن أسيطر على الموقف وأن أكون بارداً.
«ثيو. من فضلك...». ها هي الآن. يدها على كمي. أنفها بدأ يتورد، والدموع في عينيها: تماماً مثلما كان يبدو وجه آندي المسكين عندما تصيبه الحساسية الموسمية، مثل أي شخص عادي يمكن أن تشعر بالحزن عليه... «إنني آسفة. آسفة حقاً. آسفة من كل قلبي. ماذا أقول؟... لا أعرف!».
«أوه، لا!».
«بلى. لقد أسأت إليك إساءة كبيرة».

«إساءة! هذه طريقة معقولة للتعبير عن الأمر».

«وأنا... أعني... أعرف أنك لا تحبّ توم».

«ما علاقة هذا بالأمر؟».

«ثيو. هل الأمر مهم حقاً إلى هذا الحد بالنسبة إليك؟ لا، أنت تعرف أنه ليس مهماً إلى هذا الحد، ليس إذا فكّرتَ فيه. وأيضاً...». قالت ذلك بسرعة ثم توقفت لحظة قبل أن تتابع كلامها... «لا أريد محاسبتك، أعرف كل شيء عن أمورك، لكني لا أتوقف عندها».

«أموري؟».

قالت بصوت ضجر: «أوه، من فضلك! تمضي الوقت مع أصدقائك الفاسدين، وتتعاطى ما تريد من أنواع المخدرات، لكني لا أهتم بهذا».

وفي الخلفية، بدأ مشع التدفئة يطقطق ويصدر أصواتاً عنيفة.

«... انظر! إن كلاً منا مناسب للآخر. وهذا الجواب صحيح بالمطلق، لي ولك. أنت تعرف هذا، وأنا أعرف هذا. أعني... لأن... انظر، إنني أعرف. لست مضطراً إلى إخباري. وأنا أيضاً... أعني... صارت أمورك أحسن، بعد أن بدأت علاقتنا، أليس هذا صحيحاً؟ لقد استقام وضعك كثيراً».

«أوه، حقّاً؟ استقام وضعي؟ ماذا تعنين بهذا؟».

تنهدت غاضبة: «انظر... لا معنى للتظاهر يا ثيو. مارتينا ـ إيميلي ـ تيسا مارغوليس، هل تتذكرها؟».

«اللعنة!». لم أكن أظن أن أحداً يعرف بأمر تيسا.

«كان الجميع يحاول إخباري. ' *ابتعدي عنه. إنه ظريف، لكنه مدمن مخدرات* '. تيسا أخبرت إيميلي بأنها تركتك بعد أن ضبطتك تشم الهيرويين على طاولة المطبخ عندها».

قلت غاضباً: «لم أكن أشم الهيرويين». كانت تلك أقراص مورفين سحقتها على الطاولة. كان استنشاقها فكرة سيئة... مجرد هدر لتلك الأقراص... «وعلى أية حال، من المؤكد أن تيسا لم يكن لديها أي

اعتراض في ما يتعلق بالشم... كانت تطلب مني، طيلة الوقت، أن أجلب لها تلك الأشياء...».

قالت بصوت أعلى من صوتي: «انظر. هذا أمر مختلف، وأنت تعرف ذلك. ماما...».

رفعت صوتي أكثر من صوتها: «أوه، ماذا؟ أمر مختلف؟ كيف يكون مختلفاً؟ كيف؟».

«ماما... أقسم على هذا... استمع إليَّ يا ثيو. ماما تحبّك كثيراً. تحبك كثيراً. لقد أنقذتَ حياتها عندما أتيت. صارت تتكلّم وتأكل وتهتم وتخرج في نزهة إلى الحديقة. صارت تترقّب رؤيتك. لا يمكنك أن تتخيّل كيف كانت قبل ذلك. أنت جزء من الأسرة...». كانت تستفيد من نقطة القوة هذه... «حقاً. أعني، لأن آندي...».

«آندي؟». ضحكتُ ضحكة لا بهجة فيها. لم تكن لدى آندي أية أوهام على الإطلاق بخصوص أسرته المعتوهة كلها.

«انظر يا ثيو... لا تكن هكذا». لقد استعادت وضعها الآن: ودودٌ، منطقيةٌ، في مباشرتها شيء من طبع أبيها... «إنه الشيء الصحيح. الزواج. أنا مناسبة لك وأنت مناسب لي. والأمر مقنع في نظر كل من له علاقة به، وليس في نظرنا نحن فحسب».

«أوه، حقّاً؟ كل من له علاقة؟».

قالت بهدوء تام: «نعم. لا تكن هكذا. فأنت تعرف ما أعنيه. لماذا نترك هذا الأمر يفسد كل شيء. فبعد كل حساب، نحن نصير أفضل عندما نكون معاً، أليس كذلك؟ أنا وأنت!»... ابتسمتْ ابتسامة باهتة صغيرة كابتسامة أمها... «نحن زوج جيد. يعجب كل منا الآخر. ونحن منسجمان معاً».

«إذاً، هذا كلام العقل، لا القلب».

قالت: «إذا كنت تريد التعبير عن الأمر هكذا، فنعم». نظرت إليَّ بعاطفة وشفقة واضحتين... وعلى نحو غير متوقّع أبداً، أحسست بأن

صخرة الغضب التي كنت واقفاً عليها قد هوتْ من تحتي: هوت أمام ذكائها البارد، ذكائها هي... ذكاءٌ صافٍ كجرَسٍ فضّي. وقفت على رؤوس أصابعها وقبلتني على خدي... «والآن، لنكُن طيبين، وليكن كل منا صادقاً مع الآخر... ليكن لطيفاً. دعنا نكون سعيدين معاً حتى تكون حياتنا ممتعة دائماً».

22

وهكذا أمضيت الليلة عندها! طلبنا طعاماً في وقت لاحق. ثم عدنا إلى السرير. لكن، وعلى الرغم من السهولة التامة للتظاهر، على مستوى ما، بأن كل شيء ظلّ كما كان (هذا لأن...، على نحو ما... ألم يكن كل منا يتظاهر طيلة الوقت؟). فقد كنت أحس بنفسي شبه مختنق تحت وطأة كل ما لم يُعرَف، وكل ما لم يُقَل... كان هذا ضاغطاً بيننا، يباعدنا. وفي ما بعد، عندما نامت متكوّرة على نفسها، ملتصقة بي، بقيت يقظاً أنظر عبر النافذة وأشعر بأنني وحيد تماماً. فترات الصمت في تلك الأمسية (ذنبي أنا، لا ذنب كيتزي ـ فحتى في أشد الأحوال، لم تكن كيتزي تعاني قلة الكلام). كانت تلك المسافة بيننا، المسافة التي بدت لي غير قابلة للاجتياز، قد ذكّرتني أشد تذكير بنفسي عندما كنت في السادسة عشرة ولم تكن لدي أية فكرة عما يمكن أن أقوله أو أفعله عندما أكون مع جولي... جولي التي ما كان ممكناً، بالتأكيد، أن أدعوها صديقتي، لكنها كانت أول امرأة فكّرت فيها بتلك الطريقة. تقابلنا أمام متجر المشروبات في شارع هدسون عندما كنت واقفاً حاملاً نقودي بيدي راجياً أن أحظى بمن يدخل فيشتري لي زجاجة من أي شيء. ثم أتت ـ خافقة ـ من عند زاوية الشارع مرتدية عباءة غريبة أشبه بالخفاش غير منسجمة أبداً مع ثقل خطواتها وهيئتها الموحية بفتاة ريفية... وجه بسيط، لكنه ظريف؛ وجه زوجةٍ في براري أوائل القرن العشرين. أخرجت من الحقيبة زجاجة النبيذ التي اشترتها لنفسها: «مرحباً يا فتى. ها هي بقية نقودك. لا، حقاً. لا تهتم

بالأمر. هل تعتزم البقاء وشرب هذه هنا، في البرد؟». كانت في السابعة والعشرين، أي أكبر مني باثني عشر عاماً. وكان لها صديق موشك على إنهاء دراسة إدارة الأعمال في جامعة كاليفورنيا. عندما يعود صديقها، ليس لي أن أزورها أو أن أتصل بها أبداً. كان هذا أمراً مفروغاً منه تماماً. وكان كل منا يعرفه من غير أن تضطر إلى إخباري به. أصعد السلم جرياً، خمسة طوابق، إلى الاستوديو الذي تقيم فيه ـ في الأمسيات النادرة (نادرة في نظري) التي سمحتْ لي فيها بالمجيء لرؤيتها. كنت آتيها دائماً ممتلئاً بالكلمات وبمشاعر كبيرة لا أكاد أستطيع احتواءها. لكن كل ما أخطط لقوله لها كان يختفي دائماً لحظة تفتح لي الباب. كنت أقف عاجزاً عن الكلام بدلاً من أن أكون قادراً على خوض حديث معها، ولو لدقيقتين اثنتين مثلما يفعل إنسان طبيعي. أسير خلفها ثلاث خطوات واضعاً يدي في جيبي. أكره نفسي. وأما هي، فتتجول في الاستوديو حافية وتتكلّم من غير مشقة، وتعتذر لأنها تركت الملابس المتسخة على الأرض، ولأنها نسيت أن تأتي بزجاجات البيرة ـ تسألني إن كنت أريد أن تنزل لتأتي بها؟ ثم ألقي بنفسي عليها في لحظة ما في منتصف كلامها، فأدفعها على السرير بعنف يجعل نظارتي تطير عن وجهي أحياناً. كان ذلك أمر رائعاً جداً، رائعاً إلى حد يجعلني موشكاً على الموت لفرط سعادتي. لكني أرقد مستيقظاً بعد ذلك فأحس بالغثيان لشدة ما في نفسي من خواء... ذراعها البيضاء على غطاء السرير، وأضواء الشارع تدخل الغرفة... أرقد في ذعر بعد حلول الساعة الثامنة لأن ذلك يعني أن عليها أن تنهض وترتدي ثيابها حتى تذهب إلى عملها في بار في *ويليامزبرغ* حيث لا يسمح لي بالدخول لزيارتها لأنني أصغر من السن القانونية. بل إنني حتى لم أحب جولي! كنت معجباً بها، كنت مهووساً بها، كنت أحسدها على ثقتها بنفسها، بل حتى كنت أخافها قليلاً؛ لكني لم أحبها حقاً، ليس أكثر مما أحبتني. وأيضاً، لم أكن واثقاً من أنني كنت أحب كيتزي (على الأقل، ليس مثلما

تمنيت يوماً أن أحبها). على الرغم من هذا، كانت شدة انزعاجي مفاجئة لي ... ألم أمر بهذا كله من قبل؟

23

كان كل ما حدث بيني وبين كيتزي قد دفع بزيارة بوريس إلى خارج ذهني، مؤقتاً. وعندما ذهبت إلى النوم، عاد كل شيء بطرق جانبية؛ في أحلامي. استيقظت مرتين، وانتصبت في فراشي جالساً: مرة عندما رأيت باب حجرة المستودع ينفتح بحركة كابوسية وقد اجتمعت أمامه نساء في أغطية رأس ورحن يتشاجرن على كومة من ملابس مستعملة. عدت إلى النوم بعدها، وعدت إلى مشهد آخر من الحلم نفسه... رأيت حجرة التخزين. جدرانها من ستائر واهية وسقفها مفتوح على السماء. لم يكن طول تلك الجدران القماشية المرفرفة كافياً للمس العشب الذي في الأسفل. وخلف الحجرة، رأيت حقولاً خضراء وفتيات في فساتين طويلة بيضاء: مشهد مفعم (بطريقة غامضة) بشحنة موت وبرعب شعائري جعلاني أستيقظ لاهثاً.

نظرت إلى الساعة في هاتفي: الرابعة صباحاً. وبعد بؤس استمر نصف ساعة، جلست في السرير عاري الصدر، جلست في الظلام. كان إحساسي بنفسي كأنني نصّاب في فيلم فرنسي. أشعلت سيجارة ورحت أنظر من النافذة إلى جادة *ليكسنغتون* التي كانت شبه خاوية في تلك الساعة: سيارات تاكسي بدأت عملها للتو، وسيارات تاكسي منصرفة من العمل. لا يمكن تمييز هذه عن تلك! لكن الحلم الذي بدا لي حلماً نبوئياً رفض أن يتبدد عني فظل معلقاً مثل بخار سام، وظل قلبي يخفق سريعاً أمام الهول الذي توهمته في الحلم، أمام ذلك الإحساس بالانفتاح والمخاطرة.

تذكرت قول بوريس: *يستحق إطلاق النار عليه*. لقد قلقت على اللوحة بما فيه الكفاية عندما كنت معتقداً أنها محفوظة في مكان آمن على مدار الساعة. هذا ما أكده لي بروشور شركة التخزين بعباراته المهنية الجافة.

في ظل معايير الحفظ المقبولة: سبعون درجة فهرنهايت ورطوبة مضبوطة عند خمسين بالمئة. لا يمكن حفظ شيء من هذا النوع كيفما اتفق، أو في أي مكان. لا يجوز أن تتعرّض اللوحة للبرد أو الحر أو الرطوبة أو أشعة الشمس المباشرة. إنها في حاجة إلى بيئة مضبوطة مثلها مثل زنابق الأوركيد في متجر الأزهار. وأما تخيّلها مرمية خلف فرن للبيتزا فقد كان كافياً لجعل قلبي المولّه بها يقفز من مكانه، مثلما قفز للذعر الذي اعتراني عندما ظننت أن السائقة تريد رمي بوبر المسكين من الباص... تريد رميه في المطر، في مكان بعيد، على قارعة الطريق.

فبعد كل حساب: كم كان الزمن الذي أمضته اللوحة عند بوريس؟ بوريس! وحتى هورست، عاشق الفن الكبير! لم أر في شقته تلك ما يجعلني مقتنعاً بأن لديه حرصاً بالمحافظة على اللوحات. وما أكثر الاحتمالات الكارثية: لوحة ' *عاصفة في بحر الجليد* ' لرامبراندت، وهو المشهد البحري الوحيد الذي رسمه، تقول الشائعات إنها تلفت نتيجة تخزينها في شروط غير ملائمة. لوحة فرينير الكبرى ' *رسالة الحب* ' ، انتزعها من إطارها عامل في الفندق، ثم تجعدت وتقشرت بعد وضعها تحت الفراش. ' *الفقر* ' لبيكاسو و' *منظر من تاهيتي* ' لغوغان... أتلفهما الماء عندما خبأهما شخص غبي في دورة مياه عامة. خلال قراءاتي المهجوسة، كانت القصة التي سكنتني أكثر من غيرها قصة لوحة' *الميلاد مع القديس فرنسيس والقديس لورانس* ' لكارافاجيو: سرقت هذه اللوحة من كنيسة سان لورِنزو وانتزعت من إطارها بإهمال شديد جعل جامع اللوحات الذي سُرقتْ من أجله ينفجر باكياً ويرفض استلامها عندما رآها.

لاحظت أن هاتف كيتزي لم يكن في مكانه المعهود عند حامل الشحن الموضوع على إفريز النافذة حيث تمد يدها إليه دائماً لحظة استيقاظها عند الصباح. كنت أستيقظ أحياناً في قلب الليل فأرى وهج

الشاشة الأزرق إلى جانبها في السرير تحت الغطاء، أراه في الظلمة منبعثاً من عش الملاءات السري المحيط بها. فإذا اقتربت منها نعساً لأسألها عمَّ يجري، تقول لي: «*أوه، إنني أنظر إلى الساعة*». تخيلته الآن مقفلاً، مدفوناً عميقاً في حقيبة يدها المصنوعة من جلد التمساح. تلك الحقيبة بفوضاها المعتادة: أحمر الشفاه، ومرطّب الشفاه، وبطاقات العمل، وزجاجات صغيرة من نماذج العطور، وقطع نقود سابحة بين هذا كله، قطع مكرمشة من فئة عشرين دولاراً تسقط من حقيبتها كلما أخرجت منها فرشاة الشعر. نعم، في تلك المتاهة المعطرة، سيكون توم كيبل قد اتصل مراراً أثناء الليل. وترك لها رسائل نصّية ورسائل صوتية كثيرة حتى تجدها عندما تستيقظ في الصباح.

ما الذي يتحدّثان عنه؟ ماذا يقول أحدهما للآخر؟ أليس غريباً أن تخيّل حواراتهما كان سهلاً عليّ؟ ثرثرة سطحية، ولمسة من التواطؤ. كيبل يدعوها بأسماء سخيفة في السرير ويدغدغها إلى أن تصرخ.

أطفأت سيجارتي. لا شكل، ولا حِسّ، ولا معنى! كانت كيتزي تكره أن أدخن في غرفتها، لكني كنت أشك في أن تجد شيئاً تقوله عندما تكتشف عقب سيجارتي المسحوق في علبة الحلي الصغيرة إلى جانب السرير. حتى تفهمَ العالم بمجمله، ليس عليك أحياناً إلا أن تركّز على جزء صغير منه وأن تمعن النظر جيداً في ما هو قريب إليك، في متناول يدك. أن تجعل ذلك الجزء ممثلاً للكل. لكني، منذ أن اختفت اللوحة من تحتي، صرت أشعر بأنني غارق في رحابة العالم، مُطفَأ فيها ـ لا في رحابة الزمن التي يستطيع المرء التنبؤ بها، ولا في رحابة المكان، بل في المسافات الشاسعة بين الناس حتى عندما لا يبعد أحدهم عن الآخر أكثر من ذراع... وفي موجة من دوار، رحت أفكر في الأماكن التي كنت فيها كلّها، وفي الأماكن التي لم أكن فيها، في عالم مأخوذ واسع لا سبيل إلى معرفته، في متاهة مختبرة من مدن وأزقّة، في رماد يتطاير بعيداً، وفي

اتساعات عدوانية، وفي روابط وصلات مفقودة، وفي أشياء ضاعت ولم يُعثر عليها... كانت لوحتي تطفو مبتعدة في ذلك التيار القوي الذي يجري بها بعيداً، إلى مكان ما: شجرة صغيرة من روح، وسط شرارة واهية متراقصة في بحر مظلم.

24

عجزت عن العودة إلى النوم، فخرجت من غير أن أوقظ كيتزي. خرجت في تلك الساعة الصقيعية السوداء قبل شروق الشمس. كنت أرتجف عندما ارتديت ملابسي في الظلام. كانت واحدة من شريكتَيْها في السكن قد خرجت من غرفتها ودخلت إلى الحمام. وكان آخر شيء أريده هو أن أصادف أياً منهما في طريق خروجي. كان لون السماء قد بدأ يصير شاحباً عندما خرجت من المترو. جرجرت نفسي إلى بيت هوبي في ذلك البرد القارس، ثم دخلته مكتئباً أكاد أموت من التعب، دخلته من الباب الجانبي مجرجراً خطواتي. كانت نظّارتي مغبّشة، وفاحت مني رائحة الدخان والجنس والكاري وعطر كيتزي. توقفت لتحية بوبتشيك الذي هرول في الممر قادماً إلي وراح يدور ويدور حول قدميَّ. نزعت ربطة عنقي حتى أعلّقها على المشجب المثبت على ظهر الباب، فكاد دمي يتجمد عندما سمعت صوتاً من المطبخ: «ثيو؟ أهذا أنت؟».

رأس أحمر يبرز من عند زاوية الممر. إنها هي؛ فنجان قهوة في يدها.

«آسفة. هل أخفتك؟ لم أقصد ذلك». وقفت مذهولاً عاجزاً عن الحركة، أما هي فمدت ذراعيها نحوي مصدرة صوت هديل سعيد. وكان بوبتشيك يعوي ويثب فرحاً عند أقدامنا. كانت لا تزال مرتدية ملابس النوم: بنطلون بيجاما مخطط وقميص قطني طويل الكمين ومن فوقه كنزة قديمة من كنزات هوبي. لا تزال لها رائحة السرير والأغطية التي أزاحتها عنها قبل قليل: أوه، يا إلهي!... أغمضت عينَيّ ودفنت وجهي في كتفها وقد اجتاحتني موجة من الفرح والخوف، تيار آتٍ من الجنة... يا إلهي!

«ما أجمل أن أراك!». تلك كانت هي. شعرها... عيناها، أظافرها المقضومة مثل أظافر بوريس، وانتفاخ طفيف في شفتها السفلى كأنها طفلة أفرطت في مص إبهامها، ورأس أشعث أحمر كأنه زهرة أضاليا... «كيف حالك؟ اشتقت إليك!».

ضاع ثباتي كله في ثانية واحدة: «أنا... ماذا تفعلين هنا؟».

«كنت في طريقي إلى مونتريال!». ضحكة خشنة كضحكة فتاة أصغر سناً بكثير... ضحكة فتاة تلعب... «سأتوقّف لرؤية صديقتي سام بضعة أيام قبل أن أذهب لألتقي بإيفريت في كاليفورنيا. لكنهم غيّروا مسار طائرتي...». أخذت رشفة من قهوتها. ثم مدت لي الفنجان من غير كلام: *أتريد؟ لا؟* رشفة أخرى... «وجدت نفسي عالقة في مطار نيورك، فقلت في نفسي، لم لا؟ فلأذهب إلى المدينة لأراكما».

«ها. شيء عظيم!»... *أراكما*. هذا يشملني.

«فكرت في أن المرور سريعاً سيكون شيئاً لطيفاً لأني لن أكون هنا في عيد الميلاد. وأيضاً، بما أن حفلتك ستكون غداً. ستتزوج! أهنئك!». وضعت أصابعها على ذراعي، وعندما اشرأبت على أطراف أصابعها لتقبّلني على خدي، أحسست كما لو أن قبلتها سرت في جسدي كله... «متى أقابلها؟ يقول هوبي إنها جذابة. ألست سعيداً؟».

كنت لا أزال مصعوقاً تحت تأثير المفاجأة، فوضعت يدي على المكان الذي مسته شفتاها حيث كنت لا أزال أحس بضغطهما متوهجاً. وعندما أدركت كيف بدت حركتي لها، أنزلت يدي سريعاً وقلت: «أنا... نعم. أشكرك».

«تسرني رؤيتك من جديد. تبدو على أحسن ما يرام».

لم يبدُ عليها أنها لاحظت كم كنت مذهولاً وكم كنت مصعوقاً لرؤيتها. أو... لعلها لاحظت ولم تحب أن تجرح مشاعري.

قلت لها: «أين هوبي؟» لم يكن سؤالي هذا ناجماً عن اهتمامي بمعرفة

مكانه، بل لأن كوننا في البيت وحدنا بدا لي شيئاً أجمل من أن يكون حقيقياً... بدا لي أيضاً مخيفاً بعض الشيء.

فتحت عينيها على اتساعهما: «أوه، لقد أصر على الذهاب إلى المخبز. قلت له ألا يزعج نفسه، لكنك تعرف كيف يكون. إنه يحب الذهاب لكي يأتي لي ببسكويت التوت البري الذي كان ويلتي وماما يشتريانه لي عندما كنت صغيرة. لا أصدق أنهم لا يزالون يصنعونه حتى الآن ـ قال هوبي إنهم لا يصنعونه كل يوم. هل أنت متأكد من أنك لا تريد قهوة؟». سارت إلى الموقد فلم أر في خطواتها أكثر من عرج طفيف.

كان ذلك رائعاً إلى حد غير معقول. لم أكد أسمع كلمة مما قالته لي. هكذا يصير الأمر دائماً عندما أكون في غرفة واحدة معها، فهي تطغى على كل ما عداها... جلدُها، وعيناها، وصوتها الأجش قليلاً، وشعرها الناري، وطريقة إمالتها رأسها التي تجعلها أحياناً تبدو كما لو أنها تدندن بشيء لنفسها. كان الضوء الذي في المطبخ ممتزجاً بضياء حضورها، باللون والنضارة والجمال.

«لقد نسخت لك بعض أقراص السي دي!...». التفتت ونظرت إليَّ من فوق كتفها... «ليتني فكرت في جلبها معي. لكني لم أكن أعرف أنني سأتوقف هنا. سأحرص على إرسالها بالبريد عندما أعود».

«وأنا نسخت بعضاً منها من أجلك...» كانت في غرفتي كمية ضخمة من أشياء اشتريتها لأنها تذكّرني بها. لكن تلك الأشياء كانت كثيرة جداً إلى حد يجعل إرسالها إليها أمراً مضحكاً غير طبيعي... «وكتبٌ أيضاً». لم أقل لها إن لديَّ أيضاً حليّاً لها، وملصقات، ووشاحات، وعطور، وأسطوانات موسيقية، وطائرة ورقية يمكنها تركيبها بنفسها، ولعبة على شكل معبد باغودا بوذي! وعقد من حجر التوباز من القرن الثامن عشر، ونسخة من الطبعة الأولى من كتاب *«أوزما ملكة أوز»*[1]. كان شراء الأشياء أسلوباً

---

(1) أوزما ملكة أوز: شخصية روائية من مجموعة' بلاد أوز' للكاتب الأميركي ل. باول. تظهر شخصية أوز في سلسلة الكتاب كلها، ما عدا الكتاب الأول. بدأ صدور هذه المجموعة في سنة 1900. والأميرة أوزما هي حاكمة بلاد أوز.

للتفكير فيها، لأكون معها. أعطيت كيتزي بعضاً من تلك الأشياء، لكني بقيت غير قادر على الذهاب إلى غرفتي والعودة منها حاملاً كومة ضخمة من هدايا اشتريتها لها على مر السنين لأن ذلك سيبدو جنوناً مطبقاً.

«كتب؟ أوه، هذا رائع. لقد أنهيت كتابي في الطائرة؛ وأنا في حاجة إلى كتاب غيره. يمكن أن نتبادل».

«طبعاً». قدمان حافيتان، وأذنان ورديتان. والجلد الأبيض اللؤلؤي حول ياقة قميصها القطني.

«إنه كتاب ' *حلقات زُحل* ' ، قال إيفريت إنه قد يعجبك. وبالمناسبة، هو يسلم عليك».

«أوه، صحيح. سلّمي عليه...». لا أحب هذا التظاهر... تظاهرها بأنني وإيفريت صديقان... «أنا، ممم...».

«ماذا؟».

كانت يداي مرتعشتين. لست صاحياً بعد. لكني تمنيت ألا تلاحظ ذلك: «في الحقيقة، في الحقيقة، سأذهب إلى غرفتي لحظة واحدة؛ لا بأس؟».

بدت عليها المفاجأة. لمست جبهتها بأصابعها. ما أسخفني!... قالت: «أوه، لا بأس. آسفة! سأكون هنا».

لم أبدأ التنفس من جديد إلا بعد إن صرت في غرفتي وأغلقت الباب من خلفي. كان شكل بدلتي لا بأس به، بالنظر إلى أنني ارتديتها بالأمس. إلا أن شعري كان متسخاً، وكنت في حاجة إلى دوش. هل أحلق ذقني؟ هل أغير قميصي؟ أم إنها ستلاحظ ذلك! هل سيبدو إسراعي إلى غرفتي ومحاولتي تنظيف نفسي أمراً غريباً في نظرها؟ هل أستطيع الوصول إلى الحمام لكي أنظّف أسناني من غير أن تلاحظ ذلك؟ لكن موجة من ذعر معاكس داهمتني على نحو مفاجئ؛ ذعرٌ لأنني كنت جالساً في غرفتي مغلقاً بابها على نفسي: إنني أهدر لحظات ثمينة يجب أن أمضيها معها. نهضت من جديد وفتحت الباب. ناديتها عبر الممر.

برز رأسها من باب المطبخ: «ماذا؟».
«هل تحبّين الذهاب معي إلى السينما الليلة؟».
فوجئت قليلاً: «حسناً، بالتأكيد. ما الفيلم؟».
«فيلم وثائقي عن غرين غولد. أنا في غاية الشوق إلى رؤيته». الحقيقة أنني رأيت ذلك الفيلم، وأنني جلست في السينما طيلة الوقت متخيلاً أنها كانت معي: تخيّلت ردة فعلها على لحظات مختلفة منه، وتخيّلت بيننا حديثاً رائعاً عن الفيلم بعد ذلك.
«يبدو هذا جيداً. في أية ساعة؟».
«في حدود الساعة السابعة. سوف أتأكّد».

25

أمضيت طيلة النهار مسلوب العقل لشدة إثارة التفكير في الأمسية التي تنتظرني. كنت في الأسفل، في المتجر (حيث كان نهاراً شديد الازدحام بمشتري عيد الميلاد، فلم أستطع تكريس تركيزي كله لمشروعي المسائي)، كنت أفكر في ما سوف أرتديه (ملابس عادية، وليس بدلة. يجب ألا يكون ما أرتديه شيئاً مدروساً أكثر مما ينبغي)، وأين آخذها للعشاء ـ لن آخذها إلى مطعم فخم كثيراً لأنني لا أريد جعلها متوترة أو حذرة، ولا أريد أن أبدو شديد الاهتمام من ناحيتي؛ لكن المطعم يجب أن يكون شيئاً خاصّاً... مطعماً متميزاً، ساحراً، هادئاً على نحو يسمح لنا بالكلام. ويجب ألا يكون شديد البعد عن السينما... ثم إنها بعيدة عن المدينة منذ حين، ومن المرجح أنها ستستمتع بالذهاب إلى مكان جديد لا تعرفه («أوه، هذا المطعم الصغير؟ نعم، إنه عظيم، يسرّني أنه يعجبك... لقية حقيقية»). لكن، وبصرف النظر عن هذا كله (كانت كلمة *هادئ* أهم شيء... أهم من الطعام، وأهم من الموقع! لم أكن أريد أي مكان نجد نفسينا فيه مضطرَّيْن إلى الصراخ). يجب أن يكون مكاناً أستطيع حجز طاولة فيه قبل وصولنا بوقت قصير. ثم هنالك أيضاً مسألة الطعام

النباتي. مطعم جميل. مطعم ليس غالياً إلى حد يثير انتباهها. لا يجوز أن أبدو كمن تعب كثيراً حتى يعثر على مطعم مناسب. يجب أن يبدو ذلك شيئاً غير مخطّط له، شيئاً أتى عفو الخاطر. بحق الجحيم، كيف يمكن أن تعيشي مع ذلك الغبي الساذج إيفريت؟... بثيابه البشعة وأسنانه الأرنبية وعينيه اللتين تبدوان مشدوهتين دائماً؟... ذلك الذي يوحي مظهره بأن فكرته عن قضاء وقت ممتع منحصرة في شراء أرزٍّ بني وأعشاب بحرية من قسم المأكولات الجاهزة في أعماق متجر للطعام الصحي؟

وهكذا، زحف ذلك النهار بطيئاً؛ ثم صارت الساعة السادسة، وعاد هوبي من النهار الذي أمضاه في الخارج مع بيبا. مد رأسه داخل المتجر.

قال لي بعد صمت قصير: «إذاً!...». انتبهت إلى أن نبرته كانت حذرة فذكّرتني (على نحو منذر بالشؤم) بالنبرة التي كانت لصوت أمي مع أبي عندما تعود إلى البيت فتجده نشطاً مرحاً موشكاً على دخول حالة من حالات *«تحسّنه»*. كان هوبي يعرف بمشاعري تجاه بيبا ـ لم أخبره بها أبداً، ولم أنبس ببنت شفة على الإطلاق؛ لكنه كان يعرف. وحتى لو لم يكن عارفاً بذلك، فمن المؤكد أن الحالة كلها كانت واضحة تماماً له (أو لأي شخص غريب يدخل من الشارع) لأن الشرر كان يتطاير من رأسي.

قال لي: «كيف الأحوال؟».

«عظيمة! كيف كان يومكما؟».

أجابني بارتياح ظاهر: «أوه، كان رائعاً. تمكنت من الحصول على مكان لنا من أجل تناول طعام الغداء في يونيون سكوير. جلسنا إلى البار. ليتك كنت معنا. وبعد ذلك، ذهبنا إلى بيت نويرا فتوجهنا، ثلاثتنا، على الأقدام إلى ُ جمعية *آسيا*ُ . وأما الآن، فقد ذهبتْ لكي تتسوّق من أجل عيد الميلاد. قالت لي إنك ستراها في وقت لاحق من هذه الليلة».

قال ذلك بطريقة عادية، لكني لمحت شيئاً من الضيق الذي يكون لدى أب يتساءل إن كان يجدر به السماح لمراهق غير مستقر بأن يذهب في جولة بسيارته... «أستذهبان إلى السينما؟».

«صحيح». قلتها متوتراً بعض الشيء لأنني تمنيت ألا يعرف أنني سآخذها إلى فيلم غرين غولد، فهو يعرف أنني شاهدته.
«قالت لي إنكما ذاهبان إلى مشاهدة فيلم غرين غولد؟».
قلت متردداً: «نعم، في الحقيقة، ممم... إنني في غاية الشوق إلى رؤيته مرة ثانية. لا تقل لها إنني شاهدته». ثم أضفت... «هل قلت لها إنـ...».
قال بسرعة: «لا، لا. لم أقل لها».
«هذا جيّد».
دعك هوبي أنفه: «حسناً، اسمع. أنا واثق من أن ذلك شيء ممتاز. وأنا أيضاً أتمنى أن أشاهد الفيلم مرة أخرى...». ثم أضاف سريعاً... «لكن ليس الليلة».
«أوه!»... حاولت أن أظهر خيبة أملي، لكنّي فشلت في ذلك.
«على أية حال، هل تريد أن أجلس في المتجر بدلاً منك؟... إذا كنت راغباً في الصعود لكي تستحم وتستعد للذهاب. عليك أن تخرج قبل السادسة والنصف إن كنت تريد الذهاب إلى هناك سيراً على الأقدام».

26

لم أستطع منع نفسي من الدندنة والابتسام في طريقي إليها. وعندما انعطفت حول الزاوية ورأيتها منتظرة أمام السينما، كنت في حالة توتّر شديد أجبرتني على الوقوف حتى أتمالك نفسي وأحييها وأحمل عنها بعض أكياس التسوق (كانت تحمل أكياساً كثيرة، وكانت تثرثر عما فعلته طيلة النهار). نعمة! نعمة كبيرة، أن أقف معها في صف الانتظار، أن تكون شبه ملتصقة بي لأن الطقس شبه بارد. ثم صرنا في الداخل. السجادة الحمراء والأمسية كلها أمامنا. صفقت بيديها اللتين لا تزالان في القفازين وقالت: «أوه، ألا تريد البُوشار؟». «بالتأكيد! البُوشار ممتاز هنا». ذهبتُ مسرعاً إلى مكان بيعه. دخلنا الصالة معاً، وكنت أمسّ ظهرها

بحركة عفوية، أمسّ ظهر معطفها المخملي: معطف بني جميل، وقبعة خضراء جميلة، ورأس صغير أحمر جميل، جميل... «هنا. هل تحبين الجلوس من جهة الممر؟ هل تفضلين الممر؟». سبق لنا الذهاب إلى السينما عدداً كافياً من المرات (خمس مرات)، عدداً كافياً لأن أنتبه بدقة إلى الأماكن التي تحب الجلوس فيها؛ ثم إنني كنت أعرف ذلك جيداً من خلال هوبي بعد سنين من طرح أسئلة مخاتلة عليه، بقدر ما تجرّأت، لكي أصير على معرفة بذوقها، وبما تحبه، وما لا تحبه، وبعاداتها. كنت أدس الأسئلة في الكلام على نحو عارض، ولا أطرح إلا سؤالاً واحداً في المرة الواحدة. أمضيت في فعل هذا قرابة عشر سنين: هل تحب هذا الشيء؟ وهل تحب ذلك الشيء؟ وها هي الآن تلتفت وتبتسم لي... تبتسم لي أنا! كان في الصالة عدد كبير من الناس لأنه عرض الساعة السابعة... عدد أكبر من الحد المريح بالنظر إلى ما لديّ من قلق عام ومن كره للأماكن المزدحمة. بل كان مزيد من الناس مستمراً في الدخول حتى بعد أن بدأ الفيلم. لكني لم أبال. لا أبالي حتى لو كنت معها أيام الحرب في خندق في فرنسا يقصفه الألمان؛ فلا أهمية لشيء آخر عندما تكون جالسة في المقعد المجاور لي، في الظلام، وذراعها إلى جانب ذراعي، والموسيقى! غلين غود يعزف البيانو، شعره أشعث، متحمّس في عزفه، رأسه مرتد إلى الخلف، مبعوث من مملكة الأرواح، سابح في عالم آخر، ذائب في الأعالي! صرت استرق نظرات إليها غير قادر على منع نفسي من فعل ذلك. مر زمن لا يقل عن نصف ساعة قبل أن أتجرأ وأنظر إليها نظرة كاملة ـ وجهها أبيض في وهج الشاشة ـ فأدركت، يا للهول، أنها غير مستمتعة بالفيلم. إنها ضجرة! لا: إنها منزعجة!

أمضيت بقية الفيلم في بؤس حقيقي، ولم أكد أرى شيئاً منه، أو بالأحرى، كنت أراه ولكن بطريقة مختلفة كل الاختلاف: لم أر نشوة المعجزة، ولا ذلك الرجل المتوحّد الغامض يترك العزف بكل بطولة

في أوج شهرته حتى ينزوي بعيداً في ثلوج كندا... صرت أرى رجلاً استباحَتْهُ أوهامُهُ، أرى الرجل المتوحّد المنعزل. صرت أرى شخصاً مذعوراً يبتلع الأقراص. لا: صرت أرى مدمن مخدرات! صرت أرى صاحب الوساوس: مصاب برهاب الجراثيم، يضع قفازات دائماً، ويلف رقبته بأوشحة على مدار السنة... شخص ينتفض ويتململ لأن لديه نفوراً من كل شيء. صار في نظري رجلاً غريب الأطوار ليلياً محدودباً، لا يعرف كيف يتدبّر أمر أبسط العلاقات مع الناس إلى حد جعله يسأل مهندس الصوت (في مقابلة اكتشفت فجأة أن متابعتها ليست أكثر من تعذيب للنفس) إن كان ممكناً أن يذهبا إلى المحامي حتى يعلنهما أخوين بموجب القانون... نسخة تراجيدية، ما فوق عبقرية، لي ولتوم كيبل عندما جرحنا إبهامينا وضغطناهما معاً في الفناء الخلفي المعتم، أو بوريس الذي أمسك بيدي المدماة بعد أن لكمته في الملعب ويشدها إلى فمه النازف.

27

قلت متردداً أثناء خروجنا من السينما: «لقد أزعجك الفيلم. إنني آسف!».

نظرت إليَّ نظرة سريعة كأنها فوجئت بأنني لاحظت حالها. كنا قد خرجنا إلى عالم مزرق حلُمِيُّ الضوء... الثلج الأول في هذا الموسم. خمسة إنشات من الثلج على الإرض.

«كان من الممكن أن نخرج لو أردتِ ذلك».

لم تجبني إلا بأن هزت رأسها كأنها فوجئت. الثلج يُدوّم سحرياً من حولنا نازلاً كأنه فكرة صافية عن أرض الشمال، عن أرض الشمال النقيّة التي كانت في الفيلم.

قالت متردّدة: «الحقيقة، لا. أعني أن الأمر ليس لأنني لم أجد الفيلم ممتعاً».

سرنا في الشارع بخطوات متعثّرة. لم يكن أي منا قد انتعل حذاء

مناسباً. كان الثلج يتكسّر تحت أقدامنا بصوت مرتفع؛ وكنت مصغياً بكل انتباه منتظراً أن تكمل كلامها ومستعداً للإمساك بمرفق ذراعها على الفور إذا انزلقت. لكنها التفتت إليّ ولم تقل إلا «أوه، يا ربي! يبدو أننا لن نستطيع الحصول على سيارة تاكسي، أليس كذلك؟».

بدأت أفكر سريعاً. ماذا عن العشاء؟ وماذا أفعل؟ هل تريدنا أن نذهب إلى البيت؟ اللعنة! قلت لها: «ليست المسافة بعيدة».

صاحت: «أوه، أعرف، لكن... أوه، ها هي سيارة تاكسي!».

توقف قلبي إلى أن رأيت، لحسن الحظ، أن شخصاً غيرنا قد صعد إليها.

كنا قريبين من شارع *ليكفورد*، من الأضواء، ومن المقاهي. قلت لها: «اسمعي. ما رأيك في أن نجرّب حظّنا هنا؟».

«في العثور على تاكسي؟».

«لا، بل لنجد شيئاً نأكله...». (هل هي جائعة؟ أرجوك يا ربي: اجعلها جائعة)... «أو شيئاً نشربه، على الأقل».

28

على نحو ما ـ كأنما ذلك بترتيب من الآلهة ـ كان البار نصف الخالي الذي قررنا دخوله من غير تفكير، مكاناً دافئاً ذهبياً، تنيره الشموع؛ وكان أفضل بكثير، بكثير جداً، من أي مطعم من المطاعم التي فكّرت فيها.

طاولة صغيرة. ركبتاي تمسان ركبتيها ـ هل كانت منتبهة إلى هذا؟ هل كانت منتبهة مثلما كنت؟ تورّد لهب الشمعة على وجهها. لهبٌ ذو تلألؤ معدنيّ في شعرها. شعر متألق كثيراً حتى لكأنه موشك على الاشتعال. كل شيء متّقد، كل شيء حلو. وضعوا أغاني قديمة لبوب ديلان. شيء أكثر من رائع في الشوارع الضيقة في تلك المنطقة من المدينة قبيل عيد الميلاد، والثلج يتساقط ندفاً كبيرة ريشية... إنه ذلك النوع من الشتاء الذي يجعلك راغباً في السير في شوارع المدينة مطوِّقاً بذراعك فتاة مثل

تلك التي على غلاف الأسطوانة ـ لأن بيبا كانت مثل تلك الفتاة تماماً. ليست الأجمل، لكنها من غير ماكياج. فتاة عادية المظهر اختارها ليكون سعيداً معها... بل إن تلك الصورة كانت تجسيداً للسعادة بطريقتها: كتفاه المرتفعتان، وذلك الإيحاء بشيء بسيط من الحرج في ابتسامتها، وتلك النظرة ذات النهايات المفتوحة كأنها يمكن أن تسير مبتعدة إلى حيث تشاء. وها هي الآن أمامي! هي! كانت تتحدّث عن نفسها بعاطفة وألفة. وكانت تسألني عن هوبي وعن المتجر وعن أحوالي. كانت تسألني عما أقرأه وعما أستمع إليه: أسئلة كثيرة، كثيرة؛ لكنها بدت تواقة إلى أن تحكي لي عن حياتها أيضاً، عن شقتها الباردة التي تكلّف تدفئتها مالاً كثيراً. وعن الضوء الباعث على الاكتئاب ورائحة الرطوبة المقيمة. عن الملابس الرخيصة في الشوارع الرئيسية. وعن كثرة سلاسل المتاجر الأميركية الآن في لندن التي صارت كأنها مركزاً كبيراً للتسوق. الأدوية التي تتناولها. والأدوية التي أتناولها. (نحن الاثنان مصابان باضطراب ما بعد الصدمة؛ حالة مَرَضية بدا لي أن لها تصنيفاً مختلفاً في أوروبا، وأنها يمكن أن تقذف بالمرء إلى مستشفى للمحاربين القدامى إذا لم يكن منتبهاً). ثم... حديثها عن حديقتها الصغيرة المشتركة مع عدة أشخاص، وعن المرأة الإنكليزية المعتوهة التي ملأت الحديقة بسلاحف مريضة هرّبتها من جنوب فرنسا (*«تموت كلها من البرد ومن سوء التغذية ـ شيء قاسٍ حقاً! لا تطعمها على نحو صحيح، ولا تضع لها إلا فتات الخبز، فهل تتخيّل هذا؟ أشتري لها طعام السلاحف من متجر الحيوانات الأليفة، لكن من غير أن أقول لها شيئاً عن ذلك»*). حدّثتني عن رغبتها الشديدة في اقتناء كلب. لكن ذلك، كان أمراً صعباً في لندن نتيجة الحظر الذي كان مفروضاً عليها في سويسرا أيضاً... كيف ينتهي بها الأمر دائماً إلى العيش في هذه الأماكن التي لا ترحّب بالكلاب؟ وأيضاً... واو، إنني أبدو في حالٍ أفضل مما كنت على امتداد بضع سنين. لقد اشتاقت إليَّ، اشتاقت إليَّ كثيراً. وما هذه السهرة

المدهشة! ـ أمضينا ساعات جالسين هناك نضحك على أشياء صغيرة، لكننا نقول كلاماً جادّاً أيضاً، كلاماً جاداً تماماً. كانت سخية؛ وكانت تجيد تلقّي الكلام (كان هذا شيئاً آخر فيها: تعرف كيف تصغي. انتباهها مدهش. لم أكن أشعر بأن الأشخاص الآخرين يصغون إليَّ بنصف انتباهها. أحس بأنني شخص مختلف عندما أكون معها، شخص أفضل، وأكون قادراً على أن أقول لها أشياء لا أستطيع قولها لأي كان، وبالتأكيد لا أستطيع قولها لكيتزي، التي لها بدورها طريقتها السريعة في تتفيه أي كلام جاد بأن تجد الأمر نكتة، أو تحوّل الحديث إلى موضوع آخر، أو بأن تقاطعني، أو بأن تتظاهر أحياناً بأنها لم تسمع ما قلته). كان وجودي معها سعادة خالصة. أحببتها في كل دقيقة من كل يوم. أحببتها بقلبي وعقلي وروحي، وكل شيء. صار الوقت متأخراً؛ وودت لو أن البار لا يغلق أبداً، أبداً.

«لا، لا...». كانت تقول هذا وتمر بإصبعها دائرةً على حافة كأس النبيذ أمامها ـ كان شكل يديها يثير مشاعري إثارة شديدة؛ خاتم ويلتي في سبابتها! يمكنني التحديق في يديها بطريقة لا أستطيع التحديق بها إلى وجهها من غير أن أبدو مزعجاً... «لقد أحببت الفيلم، أحببته حقّاً. وتلك الموسيقى...». ضحكت، فكان في ضحكتها، بالنسبة إلي، كل فرحة الموسيقى التي من خلفها... «لقد أذهلتني موسيقى الفيلم. رآه ويلتي يعزف ذات مرة في مؤسسة كارنيجي. قال لي إنها كانت من أعظم الليالي في حياته، إنها...».

«إنها ماذا؟»... رائحة نبيذها. بقعة نبيذ حمراء على فمها. كانت ليلة من أعظم الليالي في حياتي.

هزّت رأسها: «حسناً، مشاهد الحفلة الموسيقية. ومنظر قاعات التمرين تلك. لأنها، أنت تعرف...». فركت ذراعيها بيديها... «كان ذلك الأمر صعباً جداً؛ كان صعباً فعلياً، تمرين، تمرين، تمرين، ست ساعات في اليوم. كانت ذراعاي تؤلمانني من حمل الفلوت طيلة ذلك الوقت.

و... أظنك سمعت الكثير من ذلك، أنت أيضاً، ذلك الهراء عن التفكير الإيجابي الذي يسهُل كثيراً على المعلمين وعلى المعالجين الفيزيائيين قوله لنا... *'أوه، يمكنك فعل هذا!'* ، *'نحن مؤمنون بقدراتك!'* ... فتنكبّ على الأمر، وتعمل بجد، وتعمل بجد أكبر، وتكره نفسك لأنك لا تعمل بجدٍّ كافٍ، وتقول في نفسك إنها غلطتك لأنك لا تصل إلى ما هو أحسن، ثم تعمل بجد أكبر من ذي قبل، ثم، إن...».

كنت صامتاً. أعرف هذا كله من هوبي الذي كان يتحدّث عنه بحزن كبير، ويطيل الحديث. بدا لي أن خالتها مارغريت قد كانت مصيبة تماماً عندما أرسلتها إلى المدرسة السويسرية المجنونة بمن فيها من معالجين وأطباء. على الرغم من أنها شفيت تماماً من آثار الحادثة، وفق المعايير العادية كلّها، إلا أن قدراً بسيطاً من الأذى العصبي قد بقي. بقي بالقدر الكافي لأن يكون مهمّاً في آخر المطاف: ضعف بسيط في المهارات الحركية الدقيقة. شيء لا يكاد يبين، لكنه موجود. لا أهمية لهذا الضعف بالنسبة إلى مهن أو هوايات كثيرة، كأن يكون المرء مغنّياً أو صانع خزفيات أو عاملاً في حديقة حيوان، أو طبيباً (عدا الجراحة)؛ لكنه كان مهماً في حالتها.

«ثم، لا أعرف! أستمع كثيراً إلى الموسيقى في البيت. أنام ويظل الآيبود عاملاً كل ليلة. لكن... متى كانت آخر مرة ذهبتُ فيها إلى حفلة موسيقية». قالت هذا بصوت حزين.

تنام ويبقى الآيبود يعمل، هل يعني هذا أنها لا تمارس الجنس مع... ماذا كان اسمه؟ قلت بعد أن خبّأت هذه المعلومة لوقت لاحق: «لماذا لا تذهبين إلى الحفلات الموسيقية؟ هل يقلقك الجمهور؟ كثرة الناس؟».

«كنت أعرف أنك تفهم هذا».

قلت: «نعم، أنا واثق من أنهم أوحوا إليك بهذا، لأنهم أوحوا إليَّ به، بكل تأكيد».

«ماذا؟»... آه، ما سرّ سحر تلك الابتسامة الحزينة؟ كيف يمكن تحليلها؟... «أدوية: كزاناكس؟ حاصرات بيتا؟ وتنويم مغناطيسي؟».

«كلها!».

قالت: «حسناً... إن كانت نوبة هلع، فقد تكون تلك الأشياء مفيدة. لكنها ليست كذلك. ندم. أسى. غيرة... وهذا أسوأ شيء على الإطلاق. أعني ـ تلك الفتاة... اسمها بيتا ـ اسم سخيف، أليس كذلك؟ بيتا؟ كانت عازفة متواضعة حقاً. لا أريد أن أكون متكبّرة، لكن تلك الفتاة كانت شبه عاجزة عن مواكبة بقيتنا عندما كنا صغاراً؛ لكنها الآن في فرقة *غريفلاند* الفيلهارمونية؛ وهذا يزعجني أكثر مما يمكن أن أعترف به لأي شخص. لكن، ليس لديهم دواء لأي شيء من هذا، أليس كذلك؟».

«ممم...». إن هنالك أدوية في حقيقة الأمر. كما أن أعمال جيروم، هناك في ساحة *آدم كلايتون باول*، مزدهرة تماماً في هذا الميدان.

«صوت الموسيقى ـ جمهور الحاضرين ـ يطلق هذا شرارة شيء ما ـ أذهب إلى البيت، وأكره نفسي، وأكلّم نفسي، وأجادل نفسي بأصوات مختلفة، وأظل مضطربة أياماً. و... أعني، لقد أخبرتك بأنني جرّبت التعليم، لكنه لم يكن مناسباً لي»؛ لم تكن بيبا مضطرة إلى العمل بفضل خالتها مارغريت وبفضل ما تركه لها ويلتي من مال (وأيضاً، لم يكن إيفريت يعمل بفضل... بفضل الشيء نفسه ـ فهمت أن عمله في ' *المكتبة الموسيقية*' ما كان أكثر من فترة تدريب غير مدفوعة الأجر على الرغم من تقديمه في البداية على أنه خيار مدهش رائع لصورته المهنية. وأما تسديد الفواتير، فقد كانت بيبا *تتولّى أمره*. «تلامذة مراهقون... حسناً، لن أقبل لنفسي هذا العذاب... لا أريد رؤيتهم متجهين إلى الكونسرفاتوار أو إلى مكسيكو سيتي لقضاء الصيف هناك والعزف مع الفرقة السيمفونية. ليست لدى الأطفال الأصغر سناً الجدّية الكافية لهذا الأمر. أشعر بالضيق منهم لأنهم أطفال. في نظري، هم يتعاملون مع الأمر بخفة شديدة ويفرّطون في ما حصلوا عليه».

أجبتها: «حسناً، التعليم مهنة سيئة. أنا أيضاً لا أحب هذا العمل».

جرعة نبيذ... «نعم، لكن إذا كنت غير قادرة على العزف، فماذا لدي غيره؟ أعني أنني... أعني أنني أعيش على مقربة من الموسيقى ـ نوعاً ما ـ مع إيفريت. كما أواظب على الذهاب إلى المدرسة لمتابعة دورات الموسيقى. لكنني لا أحب لندن كثيراً! أقولها بكل صدق. إنها مظلمة، كثيرة المطر؛ وليس لدي فيها أصدقاء كثيرون. وفي شقتي، أسمع أحياناً صوت شخص يبكي في الليل... ذلك النحيب المنكسر المخيف الآتي من عند الجيران. وأنت... أنت عثرتَ على شيء تحب فعله. سعيدة من أجلك لأنني أتساءل أحياناً عما أفعله بحياتي».

حاولت يائساً أن أعثر على الشيء الصحيح الذي يجب أن أقوله... «أنا... عودي!».

«أعود؟ هل تعني أن أعود إلى هنا؟ وماذا عن إيفريت؟».

لم يكن لدي ما أقوله رداً على هذا السؤال.

نظرت إليَّ نظرة بتمعّن: «أنت لا تحبه في حقيقة الأمر، أليس كذلك؟».

«ممم...». لماذا أكذب عليها؟

«حسناً، لو عرفته معرفة أفضل لأحببته. إنه شخص جيد، شديد الهدوء، معتدل الطبع... مستقرّ جداً».

مرة أخرى، لم يكن لديّ ما أقوله. ولم تكن لدي أية صفة من هذه الصفات.

«وأيضاً، لندن... أعني أنني فكّرت حقّاً في العودة إلى نيويورك».

«أتقولين إنك فكرت في العودة؟».

«بالطبع! أشتاق إلى هوبي. أشتاق إليه كثيراً. يمازحني ويقول لي إنه يستطيع استئجار شقة لي هنا بما يعادل المال الذي ينفقه على اتصالاته الهاتفية معي ـ بالطبع، لا يزال هوبي يعيش في تلك الأيام عندما كانت مكالمة هاتفية إلى لندن تكلف خمسة دولارات للدقيقة الواحدة، أو شيئاً

من هذا القبيل. يحاول إقناعي بالعودة كلما تحدّثنا في الهاتف. حسناً، أنت تعرف هوبي، وتعرف أنه لا يطرح الأمر مباشرة، لكنك تدرك ما يسعى إليه: تلميحات دائمة؛ ويخبرني باستمرار عن فرص عمل مطروحة هنا، وشواغر في *جامعة كولومبيا*، وهذه الأشياء...».

«هل يفعل هذا حقّاً؟».

«الحقيقة أنني ـ على مستوى ما، لا أشعر بأنني أعيش في مكان بعيد إلى هذا الحد. كان ويلتي يأخذني إلى دروس الموسيقى، وإلى عروض الفرقة السيمفونية؛ لكن هوبي هو الشخص الموجود في البيت دائماً، أرأيت؟ كان الشخص الذي يصعد إلى الطابق العلوي، ويعدّ لي الطعام بعد المدرسة، ويساعدني في غرس أزهار من أجل مشروع درس العلوم الطبيعية. وحتى الآن، عندما أصاب بزكام شديد مثلاً؛ عندما أعجز عن تذكّر كيفية طهو الأرضي شوكي، أو كيفية إزالة الشمع عن مفرش الطاولة... فبمن أتصل؟ أتصل به. لكن...». هل كنتُ أتخيّل الأمر، أم إن النبيذ جعلها منطلقة قليلاً؟... «أأقول لك الحقيقة؟ أتعرف لماذا لا أعود؟ في لندن...». هل هي موشكة على البكاء... «لا أقول هذا لأيٍّ كان! لكن، على الأقل، عندما أكون في لندن لا أفكر في الأمر كل ثانية ′، *هذا هو الطريق الذي سرت فيه عائدة إلى البيت في اليوم الذي سبق ذلك!*′ ، ′ *هنا تعشيت مع ويلتي وهوبي المرة قبل الأخيرة*′ . عندما أكون هناك فإنني لا أفكر هكذا إلى هذا الحد. هل عليّ أن أنعطف يساراً؟ هل يجب أن أنعطف يميناً؟ قدَري كله متوقف على ما إذا كنت سأصعد إلى خط المترو هذا أو ذاك. حالات حدس داخلي فظيعة. كل شيء متحجّر مثلما كان. أعود إلى هنا فأجد نفسي في الثالثة عشرة من جديد. أعني... لا أعود طفلة بالمعنى الحسن لهذا. توقّف كل شيء في ذلك اليوم؛ توقّف بكل معنى الكلمة. بل إنني توقّفت عن النمو أيضاً. فهل تعرف السبب؟ لم يزدد طولي إنشاً واحداً بعد حدوث ذلك... ولا إنش».

«لكن طولك جيّد تماماً».

قالت متجاهلة مجاملتي الخرقاء: «حسناً، هذا أمر شائع كثيراً. غالباً ما يكون الأطفال الذي يتعرّضون لإصابة أو لحالة صدمة كبيرة غير قادرين على النمو والوصول إلى الطول الطبيعي». ومن غير وعي منها، صارت تتحدّث تارة بصوتها وتارة بصوت طبيبها كامنزيند ـ صحيح أنني لم أقابل د. كامنزيند أبداً، لكني كنت قادراً على الإحساس باللحظة التي يبدأ فيها كلامه: نبرة آلية بعيدة، باردة... «يتحوّل اتجاه الموارد في الجسم. ويتوقّف نظام النمو عن العمل. كانت معي في المدرسة فتاة ـ أميرة عربية اختطفت عندما كان عمرها اثني عشر عاماً. لقد أعدم الأشخاص الذين فعلوا ذلك. لكن... عرفتُها عندما كانت في التاسعة عشرة، فتاة لطيفة، لكنها ضئيلة الجسم لا يبلغ طولها خمس أقدام، أو شيئاً من هذا القبيل. كانت الصدمة التي أصابتها كبيرة إلى حد توقّف معه نموها توقفاً تاماً منذ يوم اختطافها».

«تلك الفتاة التي حبسوها في قبو تحت الأرض! هل كانت معكِ في المدرسة؟».

«كانت مدرسة مونت *هايفيلي* غريبة حقاً، كان فيها بنات تعرّضن لإطلاق النار خلال فرارهن من قصر رئاسي؛ وكانت فيها أيضاً بنات أرسلهن أهلهن إليها لإنقاص أوزانهن، أو للتدريب من أجل المشاركة في الألعاب الأولمبية الشتوية».

قَبِلتْ يدي بين يديها من غير أن تقول شيئاً ـ كانت جالسة متدثّرة بثيابها كلها. لم تقبل أن يأخذوا معطفها. كُمان طويلان في الصيف، وأوشحة على رقبتها دائماً كأنها حشرة مختبئة في شرنقتها: تدابير وقاية من أجل فتاة تكسّرت عظامها فأعادوا تجميعها وخياطتها من جديد. كيف كنتُ أعمى إلى هذه الدرجة؟ من الطبيعي أن يكون الفيلم قد أزعجها وأحزنها: كان غلين يمضي السنة كلها في معطف ثقيل، وكانت زجاجات الأدوية

مكوَّمة من حوله... خشبة مسرح مهجورة، وثلج يتراكم من حوله ويزداد عمقاً على مدار السنة.

أعادني صوتها إلى اللحظة: «أقول هذا لأنني... أعني أنني سمعتك تتحدّث عنه؛ وأعرف أنك موسوس به، مثلي. لكنني أستعيده مرة بعد مرة، أستعيده دائماً». كانت النادلة قد أتت، كأنما خلسة، وصبت لها مزيداً من النبيذ فملأت الكأس من غير أن تطلب بيبا ذلك، بل حتى من غير أن يبدو عليها أنها لاحظت شيئاً. قلت في نفسي: *عزيزتي النادلة، فليباركك الرب، سوف أترك لك بخشيشاً يدهشك*... «لو أني سجلت اسمي من أجل إجراء تجربة الأداء يوم الثلاثاء، أو يوم الخميس! لو أني تركت ويلتي يأخذني إلى المتحف عندما أراد... كان يحاول أخذي لرؤية ذلك المعرض منذ أسابيع. وكان مصمماً على أن أراه قبل انتهائه... لكنني كنت أجد دائماً شيئاً أفضل أفعله. كان ذهابي إلى السينما مع صديقتي لي آن أمراً أكثر أهمية! وبالمناسبة، اختفت لي آن بعد الحادثة، ولم أرها أبداً بعد تلك الأمسية التي ذهبنا فيها إلى السينما وشاهدنا فيها فيلماً سخيفاً. تلك الإشارات الصغيرة التي تجاهلتُها أو التي لم أدركها إدراكاً تاماً... لو أنني انتبهت إليها لجرى كل شيء على نحو مختلف تماماً. فمثلاً، حاول ويلتي كثيراً أن يأخذني إلى المتحف في وقت أبكر؛ لا بد أنه ذكّرني بذلك عشر مرات! كأنه أحس، هو نفسه، بأن هناك شيئاً ما، شيئاً سيئاً موشكاً على الحدوث. أنا المخطئة في ذهابنا إلى المتحف في ذلك اليوم».

«على الأقل، لم يكونوا قد طردوك من المدرسة».

«هل طردوك؟».

«هددوني بالطرد. أمر سيئ بما فيه الكفاية».

«غريب التفكير في أن... لو لم يحدث ذلك أبداً! لو لم نكن هناك، كلانا، في ذلك اليوم! لولا ذلك، لمن المحتمل كثيراً ألا يجري تعارف بيننا. كيف تظن أن حالك سيكون اليوم، لو لم يحدث ذلك كله؟».

قلت وقد فوجئت قليلاً: «لست أدري. لا أستطيع حتى أن أتخيّل هذا».

«صحيح... لكن... لا بد أن تكون لديك فكرة».

«لم أكن مثلكِ. لم تكن لديَّ الموهبة».

«ما الذي كنت تستمتع بفعله؟».

«لا شيء مهماً. كالمعتاد... ألعاب الكمبيوتر، وأفلام الخيال العلمي. عندما كان الناس يسألونني عمَّ أريد أن أكونه، كنت أتذاكى وأقول عادة إنني أريد أن أصير بليد رانر[1]، أو شيء من هذا القبيل».

«يا إلهي!... لقد سكن هذا الفيلم أفكاري. أفكر كثيراً بابنة أخت تيريل».

«ماذا تعنين بهذا؟».

«أعني ذلك المشهد حيث تنظر إلى الصورة الموضوعة على البيانو. عندما تحاول تحديد ما إذا كانت ذكرياتها منتمية إليها أو إلى ابنة أخت تيريل. إنني أفكّر في ماضي حياتي أيضاً، وأبحث عن علامات تشير إلى ما حدث. هل تفهم هذا؟... أبحث عن أشياء كان عليَّ أن ألتقطها، وأن أفهمها، لكني أخطأتها!».

«نعم، إنكِ على حق. أفكر بهذه الطريقة أيضاً. لكن الإشارات والنذر والمعرفة الجزئية... ما من سبيل منطقي يمكنك من خلاله...». ما الذي يجعلني عاجزاً عن إكمال جملة واحدة إلى آخرها عندما أكون على مقربة منها؟... «هل يمكنني القول إن هذا يبدو شيئاً غبياً تماماً، خاصة عندما يقوله شخص آخر؟ أن تلومي نفسك لأنك عجزت عن التنبؤ بالمستقبل».

«لا بأس. لكن، د. كامنزيند يقول إننا نفعل هذا جميعاً. الحوادث والكوارث ـ إن قرابة خمسة وسبعين بالمئة من ضحايا الكوارث، هؤلاء

---

(1) بليد رانر: شخصية في فيلم «أنبياء الخيال العلمي» للمخرج الإنكليزي رادلي سكوت. تكلف هذه الشخصية بقتل الروبوتات المهندسة وراثياً بحيث تصير أقوى ممن صنعوها، مع ذكاء لا يقل عن ذكائهم.

الناس جميعاً، مقتنعون بأنه كانت هناك علامات تحذير لكنهم تغاضوا عنها ولم يهتموا بها كما يجب. النسبة أكبر من ذلك بكثير لدى الأطفال تحت الثمانية عشر عاماً. لكن هذا لا يعني أن العلامات لم تكن موجودة».

«لا أظن أن الأمر هكذا. إنه يبدو لنا هكذا، بالتأكيد، عندما نفكّر في الأمر رجوعاً بالزمن. لكني أظن أن من الممكن أن يكون الأمر أشبه بعمود من الأرقام التي تقومين بجمعها. تخطئين جمع رقمين في البداية، فتسري تلك الغلطة إلى النتيجة النهائية. يمكنك رؤية الغلطة إذا راجعت المسار كله... تكتشفين النقطة التي كان يمكن أن تحصلي على نتيجة مختلفة انطلاقاً منها».

«نعم، لكن هذا ليس أقل سوءاً، أليس كذلك؟ أن ترى غلطك، الموضع الذي أخطأت فيه، لكنك تكون عاجزاً عن العودة إليه لإصلاحه! تجربة الأداء...» تناولتْ جرعة نبيذ كبيرة... «الذهاب إلى الأوركسترا في مدرسة غيليارد... كان مدرّس الصولفيج قد أخبرني بأن من الممكن أن أحصل على المرتبة الثانية؛ لكني كنت أعرف أنني قد أحصل على المرتبة الأولى إذا عزفت جيداً. أظنها كانت مسألة مهمة، نوعاً ما. لكن ويلتي...». نعم، بالتأكيد، دموع، عينان تلمعان في ضوء الشموع... «أعرف أنني كنت مخطئة في الإلحاح عليه بأن يأتي معي إلى مركز المدينة في حين لم يكن هنالك أي سبب لمجيئه ـ كان ويلتي يدلّلني إلى حد إفسادي، حتى عندما كانت أمي حية. ثم صار يدلّلني أكثر بعد موتها. كان ذلك يوماً كبيراً في نظري، بالتأكيد! لكن، هل كانت أهميته كبيرة إلى الحد الذي جعلته تبدو عليه؟ لا!...». لقد بدأت تبكي الآن، قليلاً... «هذا لأنني لم أكن راغبة حتى في الذهاب إلى المتحف. أردته أن يأتي معي لأنني كنت أعرف أنه سيأخذني إلى تناول الغداء في الخارج قبل تجربة الأداء... سيأخذني إلى أي مكان يعجبني. كان يجب أن يظل في البيت ذلك اليوم، وكانت لديه أشياء يقوم بها. ثم إنهم لم يكونوا يسمحون بدخول الأهالي، كان سيضطر إلى انتظاري في الممر...».

«لقد كان يعرف ما يفعله».

رفعت رأسها ونظرت إليَّ كما لو أنني قلت شيئاً غير مناسب أبداً، لكني كنت أعرف أنه الشيء الصحيح تماماً... فقط لو أنني كنت قادراً على قوله بالشكل الصحيح.

قلت: «لقد كنا معاً طيلة الوقت. وكان يحدّثني عنك. و...».

«وماذا؟».

«لا شيء!...». أغمضت عينيَّ وقد أغرقني النبيذ، وقد أغرقني حضورها، وأغرقتني استحالة شرح الأمر... «المسألة هي... هل تدركين أن تلك كانت آخر لحظاته على وجه الأرض؟ كان الحيّز بين حياتي وحياته صغيراً، صغيراً جداً. ما كان هناك أي حيّز فاصل! كما لو أن شيئاً قد انفتح بيننا. شيء مثل تألق هائل لما هو حقيقي... لما له أهمية. لم أكن أنا؛ ولم يكن هو. كنا الشخص نفسه. الأفكار نفسها... وما كنا في حاجة إلى أي كلام. استمر الأمر بضع دقائق فحسب، لكن من الممكن أن ذلك الزمن كان سنين كثيرة... من الممكن أيضاً أننا لا نزال هناك. و... ممم، أعرف أنك سترين ما أنا موشك على قوله غريباً...». في الواقع، كان ما أقوله محاكاة مجنونة تماماً، محاكاة غير طبيعية، لكني لم أجد طريقاً آخر للوصول إلى ما أردت قوله... «هل تعرفين باربرا بيبوري التي تقيم بعض الندوات في *راينبيك*؟ تلك الأشياء... الرجوع إلى الحياة الماضية؟ التناسخ وروابط الكارما، وتلك الأشياء كلّها؟ أرواح كانت معي خلال حيوات كثيرة؟ أعرف، أعرف...». قلت هذا عندما رأيت نظرتها المجفلة (المتحفّزة قليلاً)... «كلما رأيت باربرا تقول لي إنني في حاجة إلى إنشاد *أووم أو رووم*، أو شيء ما حتى أشفى؛ وتقول إن لدي *تشاكرا* معطلة أو مسدودة ـ *'نقص في المولادارا*[1] ـ لست أقول هذا مازحاً! كان ذلك

(1) المولادارا، أو «التشاكرا الجذر» هي واحدة من التشاكرا السبع الرئيسية في مذهب التانترا الهندوسي. والتشاكرا هي كل مركز من مراكز القوة الروحية في جسم الإنسان (عادة ما يكون عددها سبعة مراكز).

تشخيصها لحالتي: ’ *مقتلعٌ* ، ’ *انقباض القلب*ٌ ، ’ *حقل طاقة متفتّت...*‘ . كنت واقفاً هناك أشرب كأس كوكتيل وأهتم بشؤوني عندما أتت إليّ من تلقاء نفسها وأخبرتني عن المأكولات التي يتعين عليَّ تناولها حتى أقوّي نفسي...». كنت أفقد انتباه بيبا؛ كان ذلك واضحاً لي... «آسف لأنني خرجت عن الموضوع قليلاً. حسناً، لقد جرى بيننا هذا الكلام، لقد أزعجتني هذه الأشياء كثيراً. كان هوبي واقفاً يشرب كأس ويسكي كبيراً، فقال لها: ’ *وماذا عني يا باربرا؟ هل ترين أن عليَّ أكل بعض الجذور النباتية؟ هل أقف على رأسي؟*‘ . لكنها ربتت على ذراعه وقالت له: ’ *أوه، لا تقلق يا جيمس، فأنت كائن متقدّمٌ* ».

جعلها ذلك تضحك.

... «لكن ويلتي... ويلتي كان كذلك أيضاً، كان كائناً متقدماً. كان كأنه ـ لست أمزح. إنني جاد في هذا. كان خارج القياس. تلك القصص التي تقولها باربرا... عن معلم مرشد ـ لا أعرف اسمه ـ وضع يده على رأسها في بورما؛ فامتلأت معرفة في تلك اللحظة وصارت شخصاً مختلفاً».

«حسناً، أعني... إيفريت. صحيح أنه لم يلتقَ كريشنا مورتي[1]، لكنه...».

«نعم، صحيح»... إيفريت! لماذا يزعجني إلى هذا الحد؟ لست أدري. كان إيفريت قد التحق بمدرسة داخلية في جنوب إنكلترا قائمة على تعاليم مرشد روحي ما. وكانت لصفوف تلك المدرسة أسماء من قبيل ’ *الاهتمام بالكرة الأرضية*ٌ ، وَ’ *التفكير في الآخرين*ٌ ... «لكني أعني أن ذلك كان كأنه طاقة ويلتي، أو كأنه مجال قوى ـ يا إلهي، أعرف أن هذا يبدو شيئاً مبتذلاً، لكني لا أجد له اسماً آخر. إنه يرافقني منذ تلك الساعة. كنت معه؛

---

(1) ** جيدو كريشنا مورتي: فيلسوف هندي له خطب وكتابات كثيرة. تناولت أعماله الارتقاء النفسي، وطبيعة العقل، والتأمل، والبحث، والعلاقات البشرية. تركزت دعوته على ضرورة الثورة النفسية في كل كائن بشري؛ لكنه شدد على أن هذه الثورة لا يمكن أن تحدث بفعل أي كيان خارج الفرد، سواء أكان دينياً أم سياسياً أم اجتماعياً.

وكان هناك من أجلي. شيء كأنه دائم أبداً...». لم أتكلّم في هذا قبل تلك اللحظة، أبداً، لم أتكلم مع أي شخص؛ لكنه كان شيئاً أحسه شديد العمق في نفسي... «كأن... أفكر فيه. إنه حاضر. شخصيته موجودة معي. دخلتُ الورشة منذ تلك اللحظة التي أتيت فيها لكي أقيم في بيت هوبي. صار ذلك شيئاً يسري في داخلي. إنه هذا الأمر الغريزي الذي لا أستطيع شرحه. لأنني... هل كنت مهتماً بالأنتيكات؟ لا ـ ولماذا أهتم بها؟ لكني صرت هناك. صرت بين القطع التي جمعها ويلتي. صرت أقرأ الملاحظات التي دوَّنها على هوامش كاتالوغات المزادات. عالمه. أشياؤه. كل شيء هناك كان يجذبني كأنه شعلة لهب. لم أكن أبحث عنه، بل كان هو الذي يبحث عني. أقول هذا لأن ذلك كله حدث قبل أن أبلغ الثانية عشرة. لم يعلمني أحد. كنت أبدو كأني أعرف كل شيء مسبقاً. صرت هناك، في المتجر، أقوم بعمل ويلتي. كأنني...». لم أعد أطيق الجلوس ساكناً، فوضعت ساقاً فوق ساق... «هل فكرتِ، ولو مرة، في غرابة ذلك؟ في حقيقة أنه أرسلني إلى بيتكم؟ مصادفة، ربما! لكنها لم تبدُ لي مصادفة على الإطلاق. كان ذلك كأنه رأى حقيقتي فأرسلني إلى حيث يجب أن أكون، إلى من يجب أن أكون معه. لذلك، نعم...». عدت إلى نفسي؛ كنت أتكلّم بسرعة... «نعم، إنني آسف، لم أكن أريد الاسترسال هكذا».

«لا بأس عليك».

صمت.

عيناها في عيني. لقد كانت مصغية إليّ على عكس كيتزي التي كانت دائماً في مكان آخر ـ جزئياً على الأقل. كيتزي التي تكره أي كلام جاد. لو كانت كيتزي مكانها، لبدأت الآن تتلفّت باحثة عن النادلة أو لقالت شيئاً خفيفاً أو مازحاً، أي شيء يخطر في بالها، حتى تمنع اللحظة من أن تصير مفرطة التركيز... بيبا كانت مصغية؛ كانت معي تماماً. وكنت قادراً على رؤية كم أحزنتها حالتي؛ بل زاد في حزنها حقيقة أنني أُعجِبها حقاً: كانت

لدينا مشتركات كثيرة، حالة ذهنية، وحالة شعورية أيضاً. كانت تستمتع برفقتي، كانت تثق بي وتتمنى لي الخير. وفوق كل شيء، أرادت أن نكون صديقين دائماً. إن من النساء من قد تنفش ريشها وتستمتع ببؤسي؛ لكن بيبا لم تكن لتجد شيئاً مسلياً في رؤية شدة تمزقي من أجلها.

29

في اليوم التالي (كان يوم حفلة الخطوبة)، كان تقارب الليلة السابقة قد اختفى كلّه ولم يبق منه (على الإفطار، وفي تحيتنا السريعة في الممر) إلا الضيق والإحباط الناتجَيْن عن معرفتي بأنها لن تكون لي بعد ذلك. خراقة وارتباك في سلوك كل منا مع الآخر. يصطدم واحدنا بالآخر في الرواح وفي المجيء. نتكلّم بصوت مبالغ في ارتفاعه وفي ابتهاجه. تذكّرت ـ يا لحزني ـ زيارتها الصيف الماضي قبل أربعة شهور من زيارتها التالية مع «إيفريت». وتذكّرت الأحاديث الغنية الحارة التي دارت بيننا ونحن جالسَين على درجات السلم أمام البيت، وحدنا، قبيل الليل: جلسنا جنباً إلى جنب، شبه متلاصقين (كأننا عجوزان متشرّدان) ركبتي عند ركبتها، وذراعي تلمس ذراعها. كنا ننظر إلى الناس في الشارع ونتحدّث عن أشياء كثيرة: الأطفال، ومواعيد اللعب في *سنترال بارك*، والتزلج على الجليد في حلبة *وولمان* (هل رأى أحدنا الآخر في تلك الأيام الخوالي؟ هل مرَّ أحدنا بالآخر في التزلج على الجليد؟)، وعن برنامج *ذا لوتسفيتس* الذي كنا قد شاهدناه على التلفزيون مع هوبي قبل قليل، وعن مارلين مونرو التي كان كلانا يحبها (*«الشبح الربيعي الصغير»*)، وكذلك عن الممثل مونتغومري كليفت، المسكين المفلس الذي كان يتجوّل وفي جيبه حفنة أقراص مخدّرة (معلومة لم أكن أعرفها، ولم أعلّق عليها)، وعن موت كلارك كيبل وإحساس مارلين مونرو الفظيع بالذنب جراء موته... كانت تُحمّل نفسها المسؤولية، على نحو ما! ثم انتقل الحديث، بطريقة غريبة، إلى موضوع القَدَر وإلى ما وراء الطبيعة

وكشف الطالع: هل لتواريخ الميلاد أيّ علاقة بالحظ، أو بقلة الحظ؟ التحولات السيئة؛ والنجوم عندما تتخذ وضعيات تجلب سوء الطالع؟ ما الذي يمكن أن يقوله طالعك؟ وهل قرأ أحد كفك؟ لا، وأنت؟ لعل علينا أن نسير إلى محل '*المعالج الروحي*' في الجادة السادسة بإنارته البنفسجية وكراته الزجاجية؟ يبدو كأنه يظل مفتوحاً ليل نهار... أوه، صحيح، هل تعني ذلك المكان عند المصباح ذي الإنارة الشديدة حيث تقف امرأة رومانية مجنونة وتتجشأ عند الباب؟ بقينا نتحدّث إلى أن صار الظلام شديداً وصار أحدنا شبه عاجز عن رؤية الآخر. كان كلامنا همساً رغم عدم وجود أي سبب للهمس: *هل تريدين الدخول؟ لا*، *ليس بعد!* ثم ظهر القمر الصيفي الكبير أبيض، مشعاً، نقيّاً من فوقنا؛ وكان حبي لها نقيّاً مثله. كان حبّاً بسيطاً ثابتاً مثل القمر. ولكن، كان علينا أن ندخل البيت آخر الأمر، ولحظة دخولنا تقريباً، تكسّر السحر. في الضوء القوي في الممر، صار كل منا محرَجاً تجاه الآخر، متيبّساً، كما لو أن مصابيح البيت قد أنيرت في نهاية مسرحية، فانكشف كل ما كان بيننا من قرب وبان على حقيقته: تمثيل! أمضيت بعد ذلك شهوراً يائسة أحاول استعادة تلك اللحظة؛ وقد استعدتها ـ ساعة أو ساعتين ـ عندما كنا في البار. لكن كل شيء صار غير حقيقي من جديد، وعدنا إلى حيث بدأنا. حاولت القول لنفسي إن هذا يكفيني... يكفيني أنها كانت لي، كانت كلها لي، بضع ساعات. لكنه ما كان كافياً!

30

كانت آن دو لارميسين ـ عرّابة كيتزي ـ تستضيف حفل خطوبتنا في نادٍ خاصٍّ لم يسبق، حتى لهوبي أن دخله. لكنه كان يعرف كل ما يتعلق به: تاريخه (المحترم) وعمارته (اللامعة)، وطبيعة أعضائه (نجوم مشاهير،

من آرون بور[1] إلى آل وارتون). قال لنا هوبي بسرور صادق: «يقال إنه واحد من أفضل النماذج في نيويورك لأوائل عهد *الإحياء الإغريقي*[2] في مجال الديكور الداخلي. السلالم، والمواقد... لا أعرف إن كانوا سيسمحون لنا بدخول صالة القراءة. قيل لي أيضاً إن الزينات الجصّية أصلية. شيء يستحق رؤيته بالفعل».

سألت بيبا: «ما عدد الأشخاص الذين سيكونون حاضرين؟».

لقد أرغمها هوبي على الذهاب إلى متجر *مورغان لوفاي* وشراء فستان لأنها لم تأتِ معها بما يصلح لارتدائه هناك.

«مئتان». من ضمن هذا الرقم، لعل ضيوفي كانوا في حدود خمسة عشر شخصاً (بمن فيهم بيبا وهوبي والسيدة بريسغيردل والسيدة ديفريز)؛ ومئة من ضيوف كيتزي. وأما بقية المدعوّين، فهم أشخاص زعمت كيتزي نفسها أنها لا تعرفهم.

قال هوبي: «ومن بين الضيوف أيضاً عمدة نيويورك، وعضوا نيويورك في مجلس الشيوخ. وكذلك أمير موناكو، آلبرت، أليس هذا صحيحاً؟».

«لقد دعوا الأمير آلبرت، لكنني أشك في أنه سيأتي».

«أوه، يعني هذا أنها حفلة خاصة! للعائلة فقط!».

«انظري... لن أفعل شيئاً أكثر من الذهاب وفعل ما يقولون لي فعله».

كانت آن دو لارميسين ممسكة بزمام ترتيبات الزفاف كلها في ضوء «أزمة» (كانت هذه كلمتها) لا مبالاة السيدة باربر. آن دو لارميسين هي من تفاوض من أجل الكنيسة المناسبة، والقس المناسب؛ وآن دو لارميسين هي من انكبَّ على إعداد قوائم المدعويين (المبهرة)، ومخططات الجلوس (مخططات دقيقة إلى حد لا يصدَّق). وهي من

---

(1) آرون بور: نائب رئيس الولايات المتحدة الأميركية توماس جيفرسون.

(2) الإحياء الإغريقي: حركة في عالم العمارة أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين. انتشرت في الولايات المتحدة وأوروبا الشمالية. وقد كان آخر مراحل تطور العمارة النيوكلاسيكية.

سيكون له آخر الأمر، كما بدا لي، القول الفصل في كل شيء، من الوسادة الصغيرة التي سيوضع عليها الخاتمان إلى كعكعة الزفاف. كانت آن دو لارميسين هي من رتّب أمر الحصول على المصمم المناسب للفستان. كما قدّمت عزبتها في *سانت بارث* لكي نمضي فيها شهر العسل. وهي من كانت كيتزي تتصل معها كلما واجهها سؤال من الأسئلة (هذا ما كان يحدث مرات كثيرة في اليوم الواحد). وهي من عيَّنت نفسها قائداً أعلى لحفل الزفاف (بحسب تعبير تودي). وأما ما جعل الأمر كلّه فكاهياً فهو أن آن دو لارميسين كانت غير مرتاحة لي على الإطلاق، بل شبه عاجزة حتى عن النظر إليّ. كنت بعيداً جدّاً عن القرين الذي كانت تريده لابنتها في المعمودية. وحتى اسمي نفسه كان سوقياً إلى حد يصعب عليها أن تتلفّظ به. «وما رأي *العريس*؟»، «هل سيعطيني *العريس* قائمة ضيوفه عمّا قريب؟». من الواضح أن زواج كيتزي من شخص مثلي (تاجر أثاث) كان في نظرها قدَراً أشبه بالموت. من هنا كانت أبّهة الترتيبات ومشهديتها موحية بلمسة كالحة من قداس جنازة، كما لو أن كيتزي كانت أميرة ضائعة يتعيّن الاحتفال بها وإلباسها حللاً مبهرجة ـ مع عازفين ووصيفات من حولها ـ لتسير إلى العالم السفلي وسط تلك الفخامة كلها.

31

بما أنني لم أجد أي سبب يجعلني في حاجة إلى أن أكون صاحياً تماماً في الحفلة، فقد حرصت على تناول ما يكفل لي البقاء محلّقاً في حالة ذهنية مريحة، ثم خرجت ومعي بضعة أقراص احتياطية في جيب قميصي الفاخر.

جعلني جمال النادي مغتاظاً لكثرة المدعوين، لأن تلك الكثرة كانت تمنعني من التملّي في تفاصيل عمارته وزينته وفي اللوحات المعلّقة متلاصقة على الجدران ـ كان بعضها جميلاً جداً ـ ومن رؤية الكتب النادرة على الرفوف. ستائر مخملية حمراء، وأكاليل زهور عيد الميلاد... أهي

شموع حقيقية تلك التي على الشجرة؟ وقفت في أعلى السلم مبهوراً غير راغب في السلام على الناس أو في الكلام معهم، بل حتى غير راغب في الذهاب إليهم. أحسست بلمسة يد على كمي. قالت لي بيبا: «ما الأمر؟».

«ماذا؟» لم أستطع النظر في عينيها.

«تبدو لي حزيناً».

أجبتها: «إنني حزين». لكني لم أكن واثقاً من أنها سمعت إجابتي لأنني لم أكد أستطع سماع نفسي أقول هذا؛ ففي تلك اللحظة عينها، كان هوبي قد أحسَّ بتأخرنا فاستدار وعاد باحثاً عنا بين الناس. صاح بنا: «آه، ها أنتما هنا...».

لكزني بطريقة أبوية ودّية وقال لي: «اذهب واهتم بضيوفك. الجميع يسأل عنك!». بين أولئك الغرباء جميعاً، كان هو وبيبا الشخصين الوحيدين الفريدَيْن حقاً، أو اللذين يستحقان النظر إليهما: هي... مثل فراشة سحرية في فستانها الأخضر الشفاف ذي الكمين المخرَّمين؛ وهو... أنيق جذّاب في سترته الزرقاء الداكنة وحذائه الأسود الجميل.

نظرت من حولي عاجزاً عن الحركة في أي اتجاه: «أنا...».

«لا تشغل بالك بنا. نراك في ما بعد».

حاولت التماسك. قلت: «نعم»؛ ثم تركتهما لأنظر إلى بورتريه لجون آدمز بالقرب من حيّز إيداع المعاطف حيث كانت السيدة ديفريز تخلع معطفها الفرائي، ثم سرت عبر الصالات المزدحمة فلم أعرف أحداً غير السيدة باربر التي أحسست بأنني غير قادر على مواجهتها في تلك اللحظة. لكنها رأتني قبل أن أتمكّن من تجاوزها فأمسكت بكمّي. كانت منزوية عند عتبة أحد الأبواب حاملة كأس الجن مع الليمون، وكان يحدّثها سيد عجوز، صاخب، مرِح، له وجه قاسٍ محمَرّ، وصوت قوي واضح، ولمة من شعر رمادي فوق كل أذن من أذنيه.

سمعته يقول وهو واقف يتمايل على كعبيه: «أوه، ميدورا. لا تزال

فرحة للقلب كعهدها دائماً. يا للفتاة العزيزة! نادرة، تثير الإعجاب. تكاد تبلغ التسعين! إن عائلتها من سلالة قديمة نقية، كما تحرص دائماً على تذكيرنا... أوه، ليتك ترينها، وليتك ترين حيويتها مع الخدم...».
عند هذه النقطة سمح لنفسه بضحكة صغيرة متسامحة... «شيء مخيف يا عزيزتي، لكنه مسلٍّ أيضاً. على الأقل، أظنك ستجدينه مسلّياً... لا يمكنهم الآن استئجار خدم *ملوَّنين*؛ هذا هو المصطلح المستخدَم الآن، أليس كذلك؟ *ملوَّنون*. هذا لأن لدى ميدورا نزعة إلى استخدام أسلوب الكلام الذي كان متَّبَعاً أيام شبابها. تكون عنيفة معهم خاصة عندما يحاولون كبح جماحها أو يحاولون إدخالها حوض الاستحمام. سمعت أنها تكون مقاتلة حقيقية عندما تستولي عليها نوبة من نوبات غضبها! لقد لاحقت ممرضاً أميركياً أفريقياً بقضيب الموقد. ها ها ها. نعم... أنت تعرفين ما تقوله... ’ *هذا من أجل مجد الرب!*‘ . كانت ميدورا من ذلك النوع الذي أظن أن من الممكن تسميته’ *جيل له بيت في السماء*‘ . كان للأب بيت كبير في فرجينيا، في مقاطعة كوتشلاند، أليس كذلك؟ زواج مصلحة، إن صدق ظني. إلا أن الابن ـ لقد رأيتِ الابن، أليس كذلك؟ كان مخيباً للآمال بعض الشيء ـ من ناحية الشرب؛ والابنة، حالة من حالات الفشل الاجتماعي! حسناً، هذا إن عبَّرتُ عن الأمر بطريقة ملطفة. سمينة كثيراً! فتاة لا تفلح في شيء. ولدينا أيضاً شقيق ميدورا. اسمه أوين. لقد كان أوين رجلاً عزيزاً، عزيزاً حقاً. مات بنوبة قلبية في حجرة الخزائن في النادي الرياضي... كان يمضي لحظة حميمة في غرفة الخزائن في النادي، إن كنت تفهمين قصدي، رجل لطيف، أوين. لكنه كان دائماً روحاً ضالة. لديَّ إحساس يقول إنه كف عن الحياة من غير أن يعثر على نفسه».

قالت السيدة باربر وهي تمد يدها أمامي على نحو مفاجئ تماماً حتى تمنعني من الهرب مبتعداً، مثلما قد يحاول فعله شخص وجد نفسه في

سيارة مشتعلة وأراد أن ينقذ نفسه في اللحظة الأخيرة: «ثيو، ثيو! أريدك أن تتعرّف إلى السيد هافيستوك إيرفينغ».

التفت السيد هافيستوك إيرفينغ ونظر إليَّ مبتسماً ابتسامة موحية بالاهتمام ـ بدا لي أنها غير منسجمة مع حقيقة طبعه: «ثيودور بيكر».

فوجئت فقلت: «إنه اسمي».

«نعم، نعم...». صار إعجابي بنظرته أقل مما كان... «يدهشك أنني أعرفك! حسناً... كما ترى... أعرف شريكك المحترم، السيد هوبارت، وكنت أيضاً على معرفة بشريكه المحترم السيد بلاكويل».

أرغمت نفسي على مسايرته: «هكذا إذاً!» تصادفني كل يوم، في تجارة الأنتيكات، مناسبات للتعامل مع سادة عجائز خبثاء دسّاسين من صنف هذا الرجل. لم تكن السيدة باربر قد تركت يدي، لكنها ضغطت عليها بقوة أكبر في تلك اللحظة.

قالت محاولة مساعدتي: «هافيستوك واحد من أحفاد واشنطن إيرفينغ[1] المباشرين. إنه يكتب سيرته».

«أمر مثير للاهتمام!».

قال هافيستوك بنبرة لطيفة: «نعم؛ أمر مثير للاهتمام بعض الشيء. إلا أن الدوائر الأكاديمية الحديثة صارت أقل اهتماماً بواشنطن إيرفينغ. إنها تهمّشه...» بدا عليه السرور لأنه استطاع العثور على الكلمة المناسبة... «يقول الباحثون الآن إنه لم يكن صوتاً أميركياً خالصاً. كوزموبوليتي أكثر مما ينبغي... أوروبي أكثر مما ينبغي أن يكون. أفترض أن هذا أمر متوقَّع بالفعل، لأن إيرفينغ تعلم القسم الأكبر من حرفة الكتابة من أديسون وستيغ. على أيّ حال، أنا واثق من أن نظامي اليومي جدير برضا سَلَفي الشهير».

«نظامك اليومي الذي هو...؟».

(1) واشنطن إيرفينغ: كاتب أميركي عاش في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

«العمل في المكتبات. وقراءة الصحف القديمة. ودراسة السجلات الحكومية القديمة».

«ما الغاية من دراسة السجلات الحكومية؟».

لوح بيده مبتهجاً: «إنها تثير اهتمامي. لكنها تثير اهتماماً أكبر لدى واحد من أصدقائي يعمل معي، فهو ينجح أحياناً في الحصول على كثرة من المعلومات المهمة في ما يتعلّق ببعض الأمور... أظن أن ثمة معرفة بينكما!».

«من هو صديقك؟».

«لوسيوس ريف».

في الصمت الذي تلا ذلك، ارتفع صوت ثرثرة جمع الحضور ورنين كؤوسهم، فصار هديراً كما لو أن هبّة ريح قد سَرَت في الصالة.

شد على شفتيه الرقيقتين ورفع حاجبيه مسروراً: «نعم، لوسيوس. بالضبط! كنت أعرف أن اسمه لن يكون غريباً على سمعك. لقد بعته قطعة أثاث مهمة؛ وأظنك تتذكّرها».

«هذا صحيح. وأود كثيراً أن أشتريها منه، إن أمكن إقناعه بهذا».

«أوه، أعرف هذا تماماً. لكنه غير راغب في بيعها مثلما، مثلما...».

كرّر الكلمة محاولاً إسكاتي بطريقته الخبيثة... «مثلما سأفعل أيضاً لو كنت محله. بالنظر إلى وجود قطعة أخرى ـ أكثر أهمية ـ في الصفقة».

قلت مبتسماً: «حسناً، يؤسفني القول إن عليه نسيان الأمر كله». كانت صدمتي لسماع اسم ريف فعلاً انعكاسياً محضاً... مثلما ينفلت وتر ملفوف أو قطعة من حبل على الأرض.

أطلق هافيستوك ضحكة قصيرة: «ينسى؟ أوه، لا أظنّه سينسى الأمر».

لم أجب إلا بابتسامة. لكن هافيستوك صار أكثر صفاقة.

قال: «إنها لمفاجِئة حقاً تلك الأشياء التي يمكن أن يعثر المرء عليها عبر الكمبيوتر».

«أوه».

«حسناً، لعلك لا تعرف أن لوسيوس تمكّن في الآونة الأخيرة من الوصول إلى بعض المعلومات المتعلّقة بقطع أخرى مثيرة للاهتمام قمتَ ببيعها. ولست أظن، في حقيقة الأمر، أن الذين اشتروها يعرفون كم يمكن أن تكون مثيرة لاهتمامهم أيضاً. اثنا عشر كرسي طعام ' *دونكان فايف*' إلى *دالاس*!...». قال هذا وتناول رشفة من كأس الشامبانيا الذي يحمله... «وقطعة ' *شيراتون*' مهمة لمشترٍ من *هاوستون*! وقطع كثيرة أخرى من النوع نفسه في لوس أنجلوس!».

حاولت المحافظة على ثبات تعبير وجهي.

«كلّها ' *قطع ذات جودة جديرة بالمتاحف*' . وبالطبع...». توجّه بكلامه إلى السيدة باربر... «ألسنا نعرف جميعاً أن معنى عبارة ' *جديرة بالمتاحف*' معتمد على طبيعة المتحف الذي يتحدّث المرء عنه. ها ها! إلا أن لوسيوس قد توصّل إلى نتائج طيبة حقاً من خلال تعقّب بعض مبيعاتك الرابحة في الآونة الأخيرة. يفكر لوسيوس في الذهاب في رحلة إلى تكساس بعد انتهاء فترة العطلات... آه!». قال هذا وهو يستدير مبتعداً عني ويخطو خطوة رشيقة أشبه بالرقص عندما اقتربت كيتزي للسلام علينا ـ فستان من الساتان بلون أزرق جليدي ـ قال لها وهو ينحني ليقبلها: «يا للوافد الجميل المرحَّب به! تبدين رائعة يا عزيزتي. لقد كنت أتحدّث مع عريسك الساحر. شيء مفاجئ حقّاً... الأصدقاء المشتركون بيننا!».

قالت: «أوه؟!». لم أدرك قبل أن تلتفت في اتجاهي لتنظر إليَّ وتقبّلني قبلة سريعة على وجنتي، أن كيتزي لم تكن واثقة مئة بالمئة من أنني سآتي حقّاً. كان ارتياحها لرؤيتي جليّاً.

التفتت إلى هافيستوك وقالت له: «هل تحكي لثيو وماما أخبار الفضائح كلها؟».

«أوه، كيتزي، أنت شريرة!». وبحركة رشيقة، شبك ذراعه بذراعها، ثم ربَّت بيده الأخرى على يدها: شيطان في صورة إنسان بيوريتاني

المظهر، نحيل، جذاب، نشط. قال لها: «أرى الآن يا عزيزتي أنك في حاجة إلى شراب. وأنا في حاجة إلى شراب أيضاً. ما رأيك في أن نتجوّل وحدنا قليلاً؟»... ألقى نظرة سريعة في اتجاهي... «ونجد مكاناً لطيفاً هادئاً يمكننا أن نقف فيه لتبادل بعض النمائم عن خطيبك».

32

تمتمت السيدة باربر بعد ابتعادهما في اتجاه طاولة المشروبات: «لقد ذهب، والشكر للرب! هذه الأحاديث الصغيرة تتعبني كثيراً».

«وأنا أيضاً».

كنت أتفَصَّد عرقاً. كيف اكتشف ذلك؟ لقد شحنتُ القطع التي ذكرها كلها من خلال الشركة نفسها. ومع ذلك... كيف استطاع أن يعرف؟ ـ كنت توّاقاً إلى كأس من الشراب.

انتبهت إلى أن السيدة باربر قالت لي شيئاً: «عفواً، ماذا قلت؟».

قلت: «أليس هذا شيئاً مميزاً؟ لقد أدهشني هذا الجمع الكبير من الناس». كانت في ملابس شديدة البساطة: فستان أسود، وحذاء أسود، وبروشها الرائع الذي يشبه ندفة ثلج ـ لكن الأسود لم يكن لون السيدة باربر المفضل؛ ثم إنه أضفى عليها إيحاء واضحاً بالمرض والحداد... «هل يتعيّن عليَّ الاختلاط بالناس؟ يجب أن أفعل ذلك، على ما أظن. أوه، يا إلهي. انظر. ها هو زوج آن. يا له من ممل. أيكون شيئاً سيئاً جداً إن قلت إنني أتمنى لو كنت في بيتي؟».

سألتها: «من الرجل الذي كان معنا الآن؟».

ضغطت بيدها على جبهتها: «هافيستوك؟ يسرّني أنه يحرص على ذكر اسمه دائماً وإلا لواجهت صعوبة حقيقية في تذكّره عندما عرّفتك إليه».

«بدا لي أنه من أصدقائك المقرّبين».

رفرفت عيناها بانزعاج جعلني أحس بالذنب لأنني استخدمت تلك اللهجة في سؤالي.

قالت بنبرة قاطعة: «الحقيقة أنه شخص أعرفه منذ زمن بعيد. أعني أنه... إن له أسلوباً شديد الألفة. وهو هكذا مع الجميع».

«كيف تعرفينه؟».

«أوه، يؤدي هافيستوك عملاً تطوعياً لصالح جمعية *نيويورك التاريخية*. يعرف كل شيء، وكل شخص. لكني ـ وليبق هذا بيننا ـ لا أظنه من أحفاد واشنطن إيرفينغ».

«أليس من أحفاده؟»

«حسناً، إنه شخص ساحر. وعلي القول إنه يعرف الجميع فعلاً... يزعم أيضاً أن هنالك صلة تربطه بعائلة آستور، بالإضافة إلى صلته بواشنطن إيرفينغ؛ فمن عساه يقول إن هذا غير صحيح؟ لقد لفت انتباه بعضنا أنه يكثر من إسناد ما يقوله إلى أشخاص متوفين. على الرغم من هذا، فإن لهافيستوك حضوراً ممتعاً... أو يمكن أن يكون ممتعاً. إنه جيد جداً في ما يتعلق بأداء واجب الزيارة للسيدات المتقدّمات في السن ـ نعم، لقد سمعت كلامه قبل قليل. إنه كنز معلومات حقيقي في ما يتصل بتاريخ نيويورك ـ الأسماء والتواريخ والأنساب. كان يحدّثني، قبل مجيئك، عن تاريخ كل بناية في هذا الشارع؛ وعن الفضائح القديمة كلها؛ وعن جريمة هزّت المجتمع وقعت في البيت المجاور في العقد الثامن من القرن التاسع عشر. يعرف كل شيء على الإطلاق. في مأدبة غداء منذ بضعة شهور، كان يمتع الحاضرين بقصة فضائحية تماماً عن فِرْدْ آستير، فكان لديَّ إحساس بأن تلك القصة لا يمكن أن تكون صحيحة على الإطلاق! هل يعقل أنه شارك في مشاجرة وراح يشتم كأنه بحّار؟ حسناً، لا مشكلة عندي في القول إنني لم أصدِّق تلك القصة... بل لم يصدِّقها أحد منا! كانت جدة زوجي تعرف فرد آستير منذ أن عملت في هوليوود؛ وقد قالت إنه كان أروع إنسان على وجه الأرض. لم تُسمع همسة واحدة تقول عكس ذلك. صحيح أن بعض أولئك النجوم القدامى كان فظيعاً.

وقد سمعنا قصصهم كلها. أوه، كم أنا متعبة، وكم أنا جائعة!». قالت الجملة الأخيرة بنبرة يائسة.

أحسست بالأسف عليها فأخذتها إلى كرسي شاغر.

«هنا، اجلسي. هل أحضر لك شيئاً من الطعام؟».

«لا. من فضلك. أريدك أن تبقى معي؛ على الرغم من أنني لا يجوز أن أستأثر بك لنفسي...». قالت هذا بطريقة غير مقنعة... «ضيف الشرف».

«لن يستغرق هذا أكثر من دقيقة واحدة، صدّقيني». جالت عيناي في الصالة. كانت صواني المقبلات تتجوّل في المكان؛ وكانت طاولة الطعام في الغرفة المجاورة. لكن عليَّ أن أتكلّم مع هوبي فوراً... «سأعود في أسرع وقت ممكن».

لحسن الحظ، كان هوبي طويل القامة ـ أطول من الحاضرين جميعاً ـ فلم أجد صعوبة في العثور عليه. كأنه منارة السلامة في هذا الزحام.

«مرحباً...». قالها أحدهم وهو يمسك بذراعي قبل أن أصل إلى هوبي. إنه بلات. سترة مخملية خضراء تفوح برائحة كرائحة النفتالين. كان شكله مشعّثاً قلقاً، نصف ثمل... «هل كل شيء على ما يرام بينكما؟».

«ماذا؟».

«أنت وكيتزي... هل هدأت الأمور؟».

لم أكن واثقاً تماماً من كيفية الإجابة عن هذا السؤال. وبعد لحظات من الصمت، دفع بلات خصلة شعر رمادية شقراء خلف أذنه. كان وجهه وردياً منتفخاً عليه سيماء أواسط العمر، قبل أوانها. لم تكن تلك أول مرة ألاحظ فيها أن بلات لم يكن حراً في اختيار رفضِ أن يكبُرَ هكذا. تكاسلَ وتراخى زمناً طويلاً حتى أفلح في تدمير آخر ما بقي له من تميز أسرته، فصار الآن متسكّعاً على هامش الحفلة حاملاً كأس الجن بالليمون، بينما كان أخوه الأصغر تودي الذي لا يزال طالباً في الجامعة واقفاً يتحدّث مع مجموعة من الأشخاص ضمت رئيس كلية جامعية شهيرة ومصرفياً من أصحاب البلايين وناشر إحدى المجلات البارزة.

كان بلات مستمراً في النظر إليّ. قال لي: «اسمع، أعرف أن هذا ليس من شأني. أنت وكيتزي».

رفعت كتفي.

قال مندفعاً: «توم لا يحبها. كان مجيئك أفضل ما حدث لكيتزي؛ وهي تعرف هذا. أعني... كيف يعاملها! لقد كانت معه في ذلك الأسبوع... عندما مات آندي. كان ذلك هو السبب الكبير المهم الذي جعلها ترسل آندي حتى يعتني ببابا، على الرغم من أنه كان عاجزاً عن القيام بذلك. فلماذا لم تذهب بنفسها؟ توم، توم، توم. كل ذلك كان بسبب توم. و، نعم، واضح، إنه *'الحب الذي لا ينتهي'*، و*'حبه الوحيد'*... أو هذا ما تقوله هي. لكن، صدقني، هنالك قصة مختلفة من وراء ظهرها. لأن...».

توقف قليلاً ونظر إليَّ محبطاً... «كيف يجرجرها خلفه. وكيف يتطفّل على مالها دائماً... وكيف يعاشر فتيات غيرها ويكذب عليها! كان هذا يصيبني بالغثيان، ويصيب ماما وبابا بالغثيان أيضاً. السبب الأكثر أهمية في ذلك هو أنه يعتبرها شيئاً مضموناً. هكذا يراها. لكنها... لا تسألني عن السبب، كانت مجنونة به. فقدت عقلها تماماً».

«يبدو لي أنها لا تزال كذلك».

كشَّر بلات: «أوه، ماذا بك؟ إنها تتزوجك أنت».

«لا أظن توم كيبل شخصاً يريد الزواج».

ابتلع جرعة كبيرة من كأسه: «حسناً... مهما تكن تلك التي سيتزوجها توم، فإنني حزين عليها. قد تكون كيتزي متهوّرة، لكنها ليست غبية».

«لا، ليست غبية!». لم تكن كيتزي غبية على الإطلاق. لم تتمكّن فقط من ترتيب هذا الزواج الذي يسعد أمها، بل كانت أيضاً تضاجع الشخص الذي تحبّه حقاً.

«ما كان لهذا أن ينجح أبداً. وكما تقول ماما: *'مجرد إعجاب قصير العمر'*. *'حبل من رمل'*!».

«قالت لي إنها تحبّه».

أجابني بلات من غير أن يكلّف نفسه الاعتراض على ما قلته: «حسناً، تقع الفتيات دائماً في حب السيئين! ألم تلاحظ هذا؟».

قلت في نفسي بحزن: *لا ... غير صحيح! فلماذا لم تحبني بيبا؟*

شرب بلات ما بقي في كأسه: «ألست في حاجة إلى شراب يا صاحبي؟ الحقيقة أنني أريد كأساً أخرى».

«اسمع... يجب أن أذهب لكي أتحدّث مع أحد الأشخاص. ثم إن أمك...». استدرت وأشرت في اتجاه المكان الذي أجلستها فيه... «في حاجة أيضاً إلى شراب، وإلى شيء تأكله».

«ماما!». قالها بلات وقد بدا كما لو أنني ذكّرته الآن بشيء نسيه يغلي على الموقد زمناً طويلاً. ذهب مسرعاً.

33

«هوبي!».

استدار سريعاً كما لو أنه أجفل من لمسة يدي على كمّه. قال على الفور: «هل كل شيء بخير؟».

أحسست بأنني صرت بحال أحسن لمجرد وقوفي بجانبه، لمجرد تنفّسي هواء هوبي النظيف. قلت وأنا أتلتفت من حولي قلقاً: «اسمع... ألا يمكن أن نتحدّث سريعاً...».

قاطعتني امرأة واقفة ضمن المجموعة المتحلّقة من حوله: «آه، هل هذا هو العريس؟».

«نعم، تهانينا!». مزيد من الغرباء يقتربون مني.

شدّت على يدي امرأة شقراء في أواسط الخمسينات: «كم يبدو فتياً! أنت تبدو فتياً جداً!...». التفتت إلى صديقتها «وكم هو وسيم! ساحر كأنه أمير! هل يبدو لك عمره أكثر من اثنين وعشرين عاماً، ولو للثانية واحدة؟».

قدّمني هوبي، بلباقة، إلى الأشخاص الواقفين في تلك الدائرة ـ لطيف، لبق، متمهّل، أسد اجتماعي من ألطف ما يكون.

قلت وأنا أنظر في أرجاء الصالة: «ممم... يؤسفني أن أعطّلك يا هوبي. آمل ألا تراني فظّاً إذا...».

«كلمة على انفراد! بالتأكيد! هل تسمحون لنا؟».

قلت فور وصولنا إلى زاوية هادئة نسبياً: «هوبي، هل تعرف شخصاً اسمه هافيستوك؟».

صار الشعر على صدغي رطباً لكثرة تعرّقي.

تغضّن حاجباه الشاحبان. قال: «من؟...». ثم نظر في وجهي متمتعاً... «هل أنت واثق من أنك على ما يرام؟».

جعلني تعبير وجهه، ونبرة صوته، أدرك أنه كان مدركاً حالتي الذهنية أكثر مما يفصح عنه. صحّحت وضع نظارتي على أنفي وقلت: «بالتأكيد، لكن، هافيستوك إيرفينغ، هل يذكّرك هذا الاسم بشيء؟».

«لا. هل يجب أن يعني لي شيئاً؟».

شرحت له الأمر بطريقة عشوائية إلى حد ما ـ كنت أموت شوقاً إلى كأس من الشراب. ألم يكن غباء مني أنني لم أتوقّف عند البار عندما كنت آتياً إلى هوبي؟ كان وجه هوبي يصير أكثر تجهّماً مع استمراري في الكلام.

قال وعيناه تجولان في الصالة: «ماذا؟ هل تراه الآن؟».

«ممم...». أشخاص متجمعون عند البوفيه. ودلاء مكعّبات الثلج، وخدم يرتدون قفازات يقشّرون كميات كبيرة من المحار... «ها هو!».

لم يكن هوبي قادراً على الرؤية جيداً من غير نظارته. رفرفت عيناه ثم تقلصتا وهما تنظران إلى القاعة. قال باقتضاب: «ماذا؟ هل هو صاحب...». رفع يديه إلى رأسه مقلداً كتلتي الشعر على جانبي رأس الرجل.

«نعم، إنه هو».

«حسناً». طوى ذراعيه على صدره بحركة خشنة لم أعتد رؤيتها. لمحة سريعة من هوبي الآخر... لم يكن المشتغل بالأنتيكات، الأنيق، بل الشرطي أو القس الخشن القوي الذي لعله كان شخصيته القديمة في حياته السابقة في *آلباني*.

«هل تعرفه؟ من هو؟».

«آه». ربت هوبي منزعجاً، غير مرتاح على جيب سترته باحثاً عن سيجارة ما كان مسموحاً له تدخينها في ذلك المكان.

«هل تعرفه؟». كررت سؤالي ملحّاً غير قادر على منع نفسي من إلقاء نظرات سريعة في اتجاه البار حيث كان هافيستوك واقفاً.

كان أخذ معلومات من هوبي في مواضيع حساسة أمراً صعباً بعض الأحيان. فقد كان ميالاً إلى تغيير موضوع الحديث، أو الصمت، أو الجنوح إلى الغموض؛ ثم إن أسوأ مكان لسؤاله عن أي شيء كان صالة مزدحمة من الممكن فيها أن يأتي إليه شخص لطيف فيقاطعه.

«لن أنكر معرفته. كانت هناك تعاملات بيننا. ماذا يفعل هنا؟».

قلت: «إنه من أصدقاء العروس». فتلقّيت نظرة مشدوهة بسبب نبرة الصوت التي استخدمتها.

«كيف تعرفه؟».

رفرفت عيناه وقال بشيء من التردد: «حسناً، أنا لا أعرف اسمه الحقيقي. عرفناه، ويلتي وأنا باسم سلون كريسغام. لكن اسمه الحقيقي، كان مختلفاً تمام الاختلاف».

«من هو؟».

قال هوبي باقتضاب: «صياد».

قلت بعد لحظة تفكير: «صحيح». أعرف أن مصطلح «صياد» في مهنتنا يعني القرش الذي يشق طريقه إلى بيوت العجائز بمعسول الكلام حتى يغشّهم ويشتري أشياء قيِّمة بأثمان زهيدة، أو حتى يسرقهم بطريقة مباشرة بعض الأحيان.

شد هوبي قامته وأشاح بوجهه منزعجاً: «إن لديه احتمالات صيد غنية هنا؛ هذا أمر مؤكّد. نصّاب من الدرجة الأولى، هو وشريكه أيضاً. ذكيان كالشيطان... هذان الاثنان».

كان رجل أصلع الرأس يقترب منا مبتسماً ابتسامة كبيرة. رأيت حول

رقبته ياقة كنسية. طويت ذراعي على صدري واستدرت قليلاً فأوليته ظهري جزئياً حتى أتفادى اقترابه. كنت آمل ألا يراه هوبي فيتوقّف عن الكلام لتحيته والترحيب به.

قال هوبي: «كان اسم شريكه لوسيان ريس. على الأقل، كان هذا هو الاسم الذي يستخدمه... أوه، لقد كانا زوجاً رهيباً. كان هافيستوك، أو سلون، أو مهما يكن الاسم الذي يطلقه على نفسه الآن، يدخل في أحاديث مع سيدات متقدّمات في السن، ومع رجال متقدّمين في السن أيضاً. فيعرف منهم مكان إقامتهم، ثم يأتي للزيارة... يبحث عنهم في ولائم العشاء الخيرية، والجنازات، والمزادات الكبيرة، وفي كل تلك الأماكن. على أية حال، كان يأتي للزيارة مع صديقه اللطيف، السيد ريس. وبينما يكون المضيف العجوز مشغولاً بشيء ما... كان ذلك أمراً فظيعاً بالفعل. مجوهرات، ولوحات، وساعات، وفضيات، وأي شيء تطاله أيديهما...». أضاف بنبرة صوت مختلفة... «حسناً، كان ذلك منذ زمن بعيد».

كانت رغبتي في الشراب شديدة فعجزت عن منع نفسي من التلفّت المستمر في اتجاه البار. رأيت تودي يشير إليّ حتى أنتبه إلى رجل وامرأة متقدّمين في السن. كانا يبتسمان ابتسامة ترقّب كأنهما موشكان على السير في اتجاهي لكي نتعارف؛ فما كان مني إلا أن أدرت ظهري معانداً وقلت لهوبي آملاً في سماع المزيد منه: «كنت تحدّثني عن العجائز».

«صحيح، يؤسفني قول هذا، لكنهما كانا يقتاتان على أشخاص عاجزين تماماً. كانا يقتاتان على كل من يسمح لهما بالدخول. وبما أن أكثر أولئك الناس المتقدّمين في السن لم يكن يمتلك كثرة من الأشياء الثمينة، فقد كانا يسرقان ما يقدران على سرقته في جولة واحدة. وأما إذا كانت هنالك مغانم حقيقية، فقد كانا يثابران على جلب سلال الفاكهة والدخول في أحاديث خاصة والتربيت على أيدي الضحايا على امتداد أسابيع...».

كان القس، أو الكاهن، أو كيفما يكن لقبه، قد رأى انشغالي مع هوبي

فرفع يده بالتحية ـ في وقت لاحق! ـ وتجاوزنا ماضياً بين الناس فشيّعته بابتسامة شاكرة. أهو الأسقف، الأب... ماذا كان اسمه؟... الذي من المفترض أن يزوجنا؟ أم هو واحد من القساوسة الكاثوليك من كنيسة *سانت أغناطيوس* التي صارت السيدة باربر مواظبة على الذهاب إليها بعد موت آندي والسيد باربر؟

«كانا شخصين في غاية النعومة! وكانا يتظاهران أحياناً أنهما ممن يقومان بتقييم قطع الأثاث القديمة فيعرضان خدماتهما مجاناً. هكذا كانا يحصلان على موطئ قدم لهما. وأما في الحالات الصعبة حقاً ـ شخص طريح الفراش، أو شخص أصم ـ فقد كانا يخدعان الممرضات المكلّفات برعاية هؤلاء الأشخاص ويزعمان أنهما من أفراد العائلة. وعلى أية حال...». هز هوبي رأسه... «هل أكلت شيئاً؟». طرح هذا السؤال بتلك النبرة التي يستخدمها عندما يغير الحديث.

قلت، على الرغم من أنني لم آكل شيئاً: «أكلت. شكراً لك. لكن قل...».

قال بارتياح ظاهر: «أوه، هذا جيد. لديهم هناك محار وكافيار. كان طبق السرطان لذيذاً أيضاً. أنت لم تصعد اليوم لتناول طعام الغداء. تركت لك طبقاً من لحم البقر مع السلطة والفاصولياء الخضراء... لكنك لم تأكله. رأيت أنه لا يزال في البراد...».

«وما الأمر الذي كان بينكما، أنت وويلتي، وبينه؟».

رفرفت عينا هوبي وقال بشرود ذهنه المعتاد: «عفواً؟ أوه...». أومأ برأسه في اتجاه هافيستوك... «هو؟».

«نعم، هو».

كانت البهجة الاحتفالية السائدة في الصالة ـ الأنوار والمرايا ونيران المواقد وتألق الشمعدانات ـ قد جعلتني في حالة كابوسية من الإحساس بأنني مضغوط ومراقب من كل اتجاه.

تحوّل انتباه هوبي عني. لقد أتوا بطبق جديد من الكافيار ـ صار هوبي مستديراً نصف استدارة في اتجاه البوفيه. لكنه توقف... «حسناً، لقد أتى إلى المتجر بكمية من الحلي والفضة لكي يبيعها. كان ذلك منذ سنين. زعم أنها من مقتنيات عائلته. لكن مملحة قديمة مهمة كانت بين تلك الأشياء؛ وقد عرفها ويلتي لأنه يعرف السيدة التي اشترتها منه. وكان يعرف أيضاً أن اثنين من *'الصيادين'* قد خدعاها عندما زارا منزلها زاعمين أنهما كانا يجمعان كتباً قديمة من أجل جمعية خيرية. على أية حال، قبل ويلتي أن يضع تلك الأشياء عنده لبيعها برسم الأمانة. ثم اتصل بالسيدة العجوز واتصل بالشرطة. أما من ناحيتي...». مسح جبهته بمنديل مزين بالأزهار أخرجه من جيبه؛ وكان صوته منخفضاً لا أكاد أسمعه، لكني لم أجرؤ على مطالبته برفعه... «كنت قد اشتريت مجموعة أشياء قديمة من أحد الأشخاص قبل ذلك بثمانية عشر شهراً؛ وكان يجب أن أعرف أن هناك شيئاً غير سليم في الأمر، لكن لم يكن لدي ما أستطيع وضع إصبعي عليه تماماً! بناية جديدة في منطقة *إيست إيتيز*. ومجموعة غريبة من الأنتيكات الأميركية مكوّمة كيفما اتفق في وسط الغرفة: صناديق شاي، وساعات بانجو وتماثيل صغيرة من عظم الحوت، وكمية كبيرة من كراسي *ويندسور*. لكن، لا سجاد، ولا أريكة، ولا آنية طعام، ولا شيء للنوم ـ حسناً، لو كنت مكاني لأدركت الأمر قبلي، أنا واثق من هذا. لم تكن المسألة مسألة بيع موجودات البيت، ولا مسألة عمته التي تركتها له. كانت تلك شقّة مستأجرة لتخزين الغنائم التي حصل عليها بطرقه الملتوية. ثم إنني كنت مخدوعاً بسمعته؛ فقد كان لديه في ذلك الوقت متجر صغير، يكاد يكون واجهة فقط... شيء أشبه بعلبة في شارع *ماديسون* غير بعيد عن *غاليري بارك بيرنيت*... مكان جميل جداً لا يستقبل أحداً إلا بموعد مسبق. كان اسم المتجر *تشيفاليت آنتيكس*. وكانت فيه مجموعة قطع فرنسية من الدرجة الأولى ـ هذا خارج ميدان تخصصي. كنت أجد المتجر مغلقاً كلما ذهبت إلى تلك المنطقة. وقد اعتدت الوقوف أمام

واجهته والنظر إلى محتوياته. لم تكن عندي أية فكرة عن مالكه إلى أن اتصل بي من أجل تلك المجموعة التي حدثتك عنها».

«وماذا أيضاً؟». قلت هذا وأنا أدير ظهري من جديد طالباً من بلات ـ كأنما عن طريق التخاطر ـ أن يظل بعيداً عني بصحبة مدير دار النشر التي يعمل بها، فقد كان آتياً به في اتجاهي مبتسماً ابتسامة انتصار.

تنهّد هوبي، ثم... «سأختصر القصة: وصل الأمر إلى المحكمة. قدّمت شهادتي. وقدّم ويلتي شهادته. اختفى سلون عن الأنظار ـ كان ويلتي يدعوه *'النصاب'*. أُفرغ المتجر من محتوياته بين ليلة وضحاها ووضعت عليه لافتة تقول *'إصلاحات'*. وبالطبع، لم يفتح بعد ذلك. لكني أظن أن ريس ذهب إلى السجن».

«متى حدث هذا؟».

عض هوبي طرف إصبعه وفكر قليلاً قبل أن يقول: «أوه، أوه، يا إلهي! يجب أن يكون قبل ثلاثين عاماً، بل يمكن أن تكون خمسة وثلاثين عاماً».

«ماذا عن ريس؟».

تجهّم وجهه: «أهو هنا؟». وراحت عيناه تفتشان بين الناس من جديد.

«لم أره هنا».

«شعره حتى هنا». أشار هوبي إلى أسفل رقبته... «ينسدل فوق الياقة، يشبه قصة الشعر الإنكليزية. قصة الشعر الإنكليزية في وقت ما».

«هل شعره أبيض؟».

«لم يكن أبيض في ذلك الوقت. لعله كذلك الآن. له فم صغير مزعج...». شد شفتيه حتى صارتا رقيقتين... «هكذا هو فمه».

«إنه هو».

راح يفتش في جيبه عن مصباحه الكاشف قبل أن ينتبه، كما بدا عليه، إلى أن المناسبة لا تستدعي استخدامه: «حسناً، لقد عرضتَ عليه إعادة ماله. فإذا كان هو ريس نفسه... لست أفهم السبب الذي يجعله ملحّاً

هكذا، فهو ليس على الإطلاق في موقع يسمح له بإثارة المشكلات أو بالمطالبة بأي شيء، أليس كذلك؟».

أجبته بعد صمت: «هذا صحيح». لكن إجابتي كانت كذبة كبيرة إلى حد جعلني أرغم فمي إرغاماً على النطق بها.

قال هوبي وقد ظهر عليه ارتياح واضح للانتهاء من هذا الأمر: «حسناً، لا تتخذ هذه الهيئة القلقة! هذا آخر ما ينبغي أن تسمح له بإفساد ليلتك. لكن عليك...». ربت على كتفي وهو ينظر عبر الغرفة في اتجاه السيدة باربر. عليك بالتأكيد أن تُحذّر سامانثا. لا يجوز أبداً أن تسمح لهذا النذل بدخول بيتها. لا يجوز أن تسمح له بدخوله مهما يكن السبب. مرحباً!...». قالها للرجل والمرأة المتقدّمة في السن اللذين أفلحا أخيراً في المجيء إلينا ووقفا خلفنا مبتسمين.. «أنا جيمس هوبارت. هل تسمحان لي بأن أعرفكما إلى العريس؟».

34

كان من المقرّر أن تستمر الحفلة من السادسة إلى التاسعة. كنت أبتسم وأتعرّق وأحاول الوصول إلى البار، لكني أقاطَع وأساق في اتجاهات أخرى، بل يجرني أحدهم أحياناً من يدي فيعيدني إلى الخلف كأنني تانتالوس[1]... أموت عطشاً والماء أمامي... *«ها هو، رجل الساعة!»*، *«الفتى المبتسم!»*، *«تهانينا!»*، *«تعال يا ثيودور. يجب أن تسلّم على فرانسيس، ابنة عم هاري - إن بين عائلتَيْ لونغستيريت وآبرنافي قرابة من جهة الأب. فرع العائلة في بوسطن. جد تشانس كان ابن العم المباشر لفرانسيس. أوه، هل يعرف كل منكما الآخر؟ ممتاز! وها هي... أوه، إليزابيث، ها أنت هنا. اسمحي لي بأن أسرقك لحظة. كم تبدين جميلة.*

(1) تانتالوس: في الأسطورة اليونانية عاقبت الآلهة تانتالوس بأن جعلته يقف وسط الماء تحت شجرة فاكهة دانية قطوفها. لكن الثمار كانت تبتعد كلما مدّ يده إليها ويغور الماء كلما أراد الشرب.

هذا اللون الأزرق مناسب لك تماماً. أحب كثيراً أن أعرفك على...».

وفي نهاية الأمر، صرفت النظر عن فكرة الشراب (وعن فكرة الطعام أيضاً)، ووقفت مطوقاً بضغط أشخاص غرباء يتغيّرون على نحو مستمر، ورحت أخطف كؤوس الشامبانيا من صواني الندل الذين يمرون بالقرب مني من حين لآخر، وأختطف مع الشامبانيا بعض المقبّلات... فطائر صغيرة، وشرائح من الخبز بيليني عليها كافيار... غرباء يأتون ويذهبون وأنا واقف بينهم أومئ برأسي أدباً وسط حشد من أثرياء وأبناء أسر كريمة وأصحاب نفوذ...

(*لا تنسَ أبداً أنك لست واحداً منهم!* هكذا همس في أذني زميل مخدرات عندما رآني أحدّث عملاء مهمين في مزاد للوحات انطباعية ولوحات من الفن الحديث).

كنت أتجمّد، وألتفت لكي أبتسم برفقة مجموعات عشوائية من الأشخاص كلما اقترب المصوّر مني وأحس نفسي أسير نتف من أحاديث تخدّر ذهني... أحاديث عن مباريات الغولف والسياسة وكتب الأطفال وعن البيوت في *هايرز وهانيس وباريس ولندن وجاكسون هول* وجوبيتر... و... أليس شيئاً بشعاً أن يرى المرء كيف بُنيت بلدة *فيل* بشكل فظيع، وكيف صارت؟ هل تتذكّر عندما كانت قرية صغيرة جميلة، لا أكثر... أين تذهب للتزلج يا ثيو؟ هل تتزلّج؟ هذا يعني، بالتأكيد، أن عليكما أنت وكيتزي أن تأتيا معنا إلى بيتنا في...

لم أر هوبي وبيبا إلا في لحظات نادرة على الرغم من أن عيني كانت تبحث عنهما دائماً. تأتي كيتزي جارّة الناس بطريقتها العابثة لتعرّفهم إليَّ، ثم تختفي سريعاً كعصفور يطير عن حافة النافذة. ولحسن الحظ، لم يكن هافيستوك ظاهراً في أي مكان. وأخيراً، بدأ الزحام يتراجع، لكن ليس كثيراً: بدأ أشخاص يتحركون لاستلام معاطفهم، وبدأ الندل يرفعون الحلوى وأطباق المقبلات من البوفيه عندما التفتُّ ـ كنت عالقاً في حديث

مع مجموعة من بنات عمومة كيتزي ـ ونظرت عبر الغرفة باحثاً عن بيبا (هذا ما كنت أفعله، رغماً عني، طيلة الليلة محاولاً أن أرى ذلك الرأس الأحمر الذي كان الشيء الوحيد الذي يهمني في تلك الصالة كلها)... ففوجئت كثيراً عندما رأيتها واقفة مع بوريس. كانا يتحدّثان ويشيران بأيديهما. وكان مائلاً عليها واضعاً يده على كتفها وقد تدلّت بين أصابعه سيجارة لم يشعلها. يهمس. يضحك. هل كان يعض أذنها؟

قلت: «اعذروني»، ثم سرت سريعاً فعبرت الغرفة إلى حيث كانا واقفين إلى جانب الموقد. استدارا معاً، بحركة واحدة، ومد كل منهما ذراعيه في اتجاهي.

قالت بيبا: «مرحباً! كنا نتحدّث عنك».

قال بوريس: «بوتر!». وطوّقني بذراعيه. صحيح أنه كان متأنّقاً من أجل هذه المناسبة: بدلة زرقاء مخطّطة بالأبيض (لقد فوجئت كثيراً عندما رأيت كمية الروس الأثرياء في متجر *رافل ورين* في شارع ماديسون)، لكن ما من سبيل إلى جعله يبدو نظيفاً: جعلته عيناه العكرتان يبدو شخصاً هائجاً، صاحب سمعة سيئة... وصحيح أن شعره لم يكن وسخاً، لكنه يعطي انطباعاً بالقذارة. قال لي: «تسعدني رؤيتك!».

«وأنا سعيد أيضاً». لقد دعوت بوريس إلى هذه الأمسية، لكني لم أتصوّر أنه يمكن أن يأتي. لم تكن من طبيعة بوريس أن يتذكّر أشياء مزعجة من قبيل المواعيد أو العناوين، ولا من قبيل الحضور في الوقت الصحيح، حتى عندما يتذكّر الموعد والعنوان. استدرت إلى بيبا وقلت لها: «أنت تعرفين من هو هذا؟ أليس كذلك؟».

«بالطبع تعرفني! تعرف كل شيء عني! صرنا الآن من أعز الأصدقاء! والآن...». خاطبني بطريقة متسلّطة استعراضية هازئة... «كلمة صغيرة على انفراد». ثم قال لبيبا: «اعذرينا، من فضلك!».

ركلتْ حذائي بحذاء الباليه وقالت لي بنبرة عابسة: «مزيد من الأحاديث الخاصة».

أرسل بوريس إليها قبلة وقال لها: «لا تقلقي! سوف أعيده! إلى اللقاء».

ثم قال لي، في أذني ونحن مبتعدين: «إنها جميلة. يا إلهي، لكني أحب امرأة حمراء الشعر».

«وأنا أيضاً، لكنها ليست من ستكون زوجتي».

بدت عليه المفاجأة: «أليست هي؟ لكنها سلّمت عليَّ... باسمي! آه...». نظر إليّ نظرة أكثر تدقيقاً... «هل احمر وجهك؟ نعم، لقد احمرّ وجهك يا بوتر!...». قالها ضاحكاً... «يحمرّ! كأنه فتاة صغيرة!».

التفتّ إلى الخلف خوف أن تكون قد سمعته. همست له: «اخرس!».

«ليست هي، إذاً! ليست ذات الشعر الأحمر. أمر سيء. هاه...». كانت عيناه تجولان في الصالة... «أي واحدة هي؟».

أشرت إليها: «هناك».

«آه! ذات الفستان الأزرق السماوي!».

قرص ذراعي قرصة ودية... «بوتر، يا إلهي! هذه؟ أجمل امرأة في الصالة! سماوية! إلهة!». ثم تظاهر بأنه يريد الركوع على الأرض.

«لا، لا...». أمسكت بذراعه وجذبته إلى أعلى.

«إنها ملاك! من الجنة مباشرة! نقية كدمعة طفل! أحسن كثيراً مما يستحقه أمثالك...».

«نعم، أظن أن هذا هو الرأي العام».

أخذ كأس الفودكا من يدي وشرب منها جرعة كبيرة قبل أن يعيدها إليّ: «لكنها... باردة قليلاً عندما ينظر المرء إليها، أليس كذلك؟ أما أنا، فأحب أن تكون المرأة أكثر دفئاً. إنها... إنها زنبقة. ندفة ثلج. آمل أن تكون أقل برودة عندما تكونان معاً على انفراد».

«لو عرفت لدهشت».

رفع حاجبيه: «آه. و... هل هي التي...».

«نعم».
«أهي التي أقرّت بالأمر؟».
«نعم».
«وهكذا فأنت لست واقفاً معها. أنت منزعج».
«إلى هذا الحد أو ذاك».
مرر أصابعه في شعره: «حسناً، يجب أن تذهب وتكلّمها الآن».
«لماذا؟».
«لأن علينا أن نذهب».
«نذهب؟ لماذا؟».
«لأنني أريدك أن تخرج معي».
قلت: «لماذا؟». ورحت أنظر في أنحاء الصالة متمنّياً لو أنه لم يجرني بعيداً عن بيبا. كنت أفتش عنها. الشموع، ووهج النار البرتقالي في الموقد حيث كانت واقفة جعلني أتذكر دفء بار النبيذ، كما لو أن ذلك الضوء اللطيف نفسه يمكن أن يكون ممراً يعيدنا إلى الليلة السابقة، وإلى تلك الطاولة الخشبية الصغيرة التي تلاصقت ركبنا تحتها... الضوء البرتقالي نفسه يغسل وجهها. لا بد من وجود طريقة تسمح لي باجتياز الصالة ذاهباً حتى أمسك بيدها وأشدها معي عائدَيْن إلى تلك اللحظة.
هز بوريس رأسه ليزيح الشعر عن عينيه: «هيا، سوف يسرّك كثيراً سماع ما سأقوله لك. لكن عليك أن تذهب إلى البيت. عليك أن تحضِّر جواز سفرك. ويجب أيضاً أن يكون معك مال».
من فوق كتف بوريس: وجوه هادئة لنساء غريبات باردات. رأيت السيدة باربر مستديرة قليلاً صوب الجدار ممسكة بيد رجل دين ظريف لم يعد يبدو لي ظريفاً على الإطلاق.
«ماذا؟ هل أنت مصغٍ إلى ما أقوله؟»، هز ذراعي. إنه الصوت نفسه الذي شدّني مرات كثيرة فأعادني إلى أرض الواقع. أعادني من سماوات متكسّرة، سماوات شم الصمغ، حيث أكون مستلقياً على السرير مفتوح

العينين غير مدرك شيئاً، وحيث أرقد محدّقاً في انفجارات مهولة زرقاء وبيضاء على السقف.

«هيا! ستتكلّم في السيارة. فلنذهب. لدي بطاقة طائرة من أجلك».

«نذهب». نظرت إليه. تلك كانت الكلمة الوحيدة التي سمعتها.

«سأشرح لك، لا تنظر إليَّ هكذا. كل شيء في أحسن حال. لا تقلق. لكن، قبل كل شيء، عليك أن ترتب أمورك لأن تغيب يومين اثنين. ثلاثة أيام كأقصى حد. لذا...». لوَّح بيده... «اذهب، اذهب ورتّب الأمر مع نُدفة الثلج ودعنا نخرج من هنا. لا يمكنني التدخين هنا، أليس كذلك؟». قال هذا وهو ينظر من حوله... «لا أرى أحداً يدخن!».

فلنخرج من هنا... إنها الكلمات الوحيدة التي قيلت لي في تلك الليلة فوجدت لها معنى.

كان يحاول النظر في عيني بطريقته المألوفة: «لأن علينا أن نذهب إلى البيت على الفور. يجب أن تأتي بجواز سفرك على الفور. وبالمال أيضاً. ما المبلغ الجاهز الذي لديك الآن؟».

صحّحت وضع نظارتي على أنفي وقد جعلتني نبرة صوته أصحو: «حسناً... لدي في البنك...».

«لست أسألك عن البنك. ولست أتحدّث عن الغد. أسألك عمَّ هو موجود لديك الآن».

«ولكن...».

«أؤكد لك أنني أستطيع استعادتها. لكن، لا يجوز أن نظل واقفَين هنا. علينا أن نذهب الآن. علينا الذهاب فوراً. هيا، انطلق...». قال هذا وركلني ركلة ودية صغيرة على قصبة ساقي.

35

قالت كيتزي: «ها أنت يا عزيزي!»، ثم شبكت ذراعها بذراعي وشبَّت على رؤوس أصابعها حتى تقبّلني على خدي. قبلة التقطها، على

الفور، المصوران اللذان كانا يدوران من حولها. واحد من الصفحات الاجتماعية، والآخر استأجَرَتْه آن لهذه المناسبة... «أليس هذا رائعاً؟ هل أنت مرهق؟ آمل ألا تكون عائلتي قد أثقلت عليك كثيراً! آني، عزيزتي».
مدّت يدها إلى آن دو لارميسين ـ شعر أشقر قاس، وفستان قاس من التافتا، ورقبة مجعدة غير منسجمة مع وجهها المشدود المنحوت نحتاً... «هذه الليلة جنّة حقيقية... هل يمكن أن نلتقط صورة عائلية؟ فقط أنت وأنا وثيو؟ فقط نحن الثلاثة؟».

فور فراغنا من التقاط تلك الصورة الغريبة المرتبكة، وبعد ابتعاد آن دو لارميسين (التي كان من الواضح أنها لا تعتبرني من ضمن العائلة، ولا حتى شيئاً يقارب ذلك)، بعد ابتعادها عنا لكي تودّع ضيوفاً آخرين أكثر أهمية، قلت لها مستعجلاً نافد الصبر: «اسمعي... إنني ذاهب».

بدت عليها الحيرة: «لكن... أظن أن آن قد حجزت طاولة في مكان ما».

«حسناً، سيكون عليك أن تجدي لي عذراً. لن يكون ذلك صعباً عليك. أليس كذلك؟».

«ثيو، لا تكن بغيضاً هكذا!».

«بما أن أمك ليست ذاهبة إلى المطعم؛ وأنا واثق من هذا...». كان من شبه المستحيل جعل السيدة باربر تذهب إلى مطعم إلا إذا كان مكاناً يجعلها مطمئنة إلى أنها لن تصادف فيه شخصاً تعرفه... «قولي إني أخذتها إلى البيت. قولي إنها قد توعّكت قليلاً واضطرت إلى الذهاب. قولي إنني مرضت. استخدمي مخيلتك. لا بد أنك قادرة على التوصل إلى شيء ما».

«هل أنت متضايق مني؟».

إنها لغة العائلة: *متضايق*. كلمة اعتدت سماعها من آندي عندما كنا أطفالاً.

«متضايق! لا». الآن، بعد أن تمّت تسوية الأمر. وبعد أن اعتدت الفكرة (كيبل؟ كيتزي؟)، صار الأمر كله يبدو أشبه بنوعٍ من النمائم البذيئة التي لا علاقة لها بي. لاحظتُ أنها قد وضعت قرطَيْ أمي ـ كان ذلك مؤثّراً على نحو غريب، لأنني اكتشفت أنها محقّة تماماً: ليسا مناسبين لها على الإطلاق ـ وبوخزة من ألم، مددت يدي فمسستهما، ثم مسَّت أصابعي خدها.

صاح بعض من ينظرون إلينا «آآه»، وقد سرهم أن يروا أخيراً شيئاً من العاطفة بيننا. استجابت كيتزي على الفور وأمسكت يدي وقبّلتها مستجلبة موجة جديدة من التقاط الصور. ملت مقترباً منها وهمست في أذنها: «هل اتفقنا؟ إذا سألك أحد، فإنني ذاهب في مهمة عمل. اتصلت بي سيدة عجوز لكي ألقي نظرة على مقتنياتها».

«بالتأكيد».

إنها جديرة بأن يُعهد إليها بأي شيء. كانت هادئة، باردة مثل لعنة.

«متى تعود؟».

قلت بنبرة غير مقنعة تماماً: «أوه، قريباً». كان مما يسعدني أن أسير فأخرج من تلك الصالة ثم أتابع السير أياماً وشهوراً إلى أن أصل إلى شاطئ ما، قد يكون في المكسيك، إلى شاطئ منعزل حيث أصير قادراً على التجول وحيداً وعلى البقاء مرتدياً ملابسي نفسها إلى أن تهترئ وتتساقط عني... أن أكون الأميركي المجنون ذا النظارة العظمية الذي يصلّح الكراسي والطاولات لكي يكسب عيشه... «انتبهي لنفسك. واحرصي أن يبقى هافيستوك بعيداً عن بيت أمك».

أجابتني بصوت منخفض لم أستطع سماعه إلا بصعوبة: «حسناً. لقد كان مزعجاً في الآونة الأخيرة. يتصل دائماً، ويريد أن يأتي لزيارتها، ويجلب الزهور والشوكولاته... شيء مزعج! لن تقبل أمي أن تستقبله. أشعر بشيء من الذنب لأنها تصدّه هكذا».

«حسناً، لا تشعري بالذنب. احرصي على بقائه بعيداً عنها. إنه محتال. والآن، إلى اللقاء». قلت الكلمات الأخيرة بصوت مرتفع وقبّلتها على خدها (مزيد من طقطقة الكاميرات). كانت تلك هي اللقطة التي انتظرها المصوران طيلة السهرة. ثم ذهبت لكي أخبر هوبي بأنني سأغيب قليلاً (كان واقفاً سعيداً متأمّلاً إحدى اللوحات منحنياً عليها حتى صار أنفه على مسافة إنشات قليلة منها).

التفت إلي وقال بنبرة حذرة: «لا بأس...». لم أكد آخذ أية عطلة طيلة عملي مع هوبي؛ وبالتأكيد، لم أسافر خارج المدينة. أضاف وهو يومئ برأسه في اتجاه كيتزي: «أنت و...».

«لا».

«هل كل شيء على ما يرام؟».

«بالتأكيد».

نظر إليَّ، ثم نظر إلى بوريس الواقف في الناحية الأخرى من الصالة.

قال لي فجأة: «أنت تعرف... إذا كنت في حاجة إلى أي شيء، فإنك قادر على أن تطلبه مني».

فاجأني هذا، ولم أكن واثقاً مما يعنيه، ولم أعرف بما أجيبه. قلت: «نعم، أكيد. شكراً لك».

هز كتفيه وبدا عليه شيء من الحرج، ثم انتبه إلى نفسه فاستدار عائداً إلى اللوحة. كان بوريس واقفاً عند البار يشرب كأساً من الشامبانيا ويلتهم بعض بقايا خبز بيليني بالكافيار. رآني، فأفرغ بقية كأسه وأشار برأسه إلى الباب بمعنى: *فلنخرج من هنا*.

قلت لهوبي: «إلى اللقاء»، ثم صافحت يده (كان هذا شيئاً لا أفعله عادة)، وتركته واقفاً ينظر إليَّ مستغرباً. وددت أن أودع بيبا، لكني لم أرها. أين هي؟ أهي في غرفة المكتبة؟... في الحمام؟ كنت مصمماً على رؤيتها مرة أخرى ـ مرة واحدة فقط ـ قبل ذهابي. استدرت عائداً

إلى هوبي وقلت له: «هل تعرف أين هي؟». لكنه هز رأسه. وهكذا وقفت بضع دقائق متوتّراً عند مكان استلام المعاطف منتظراً عودتها إلى أن جذبني بوريس من ذراعي - فمه لا يزال محشواً بالمقبلات - فنزلنا السلم وخرجنا من الباب.



الفصل الحادي عشر

قناة الجنتلمان

1

كانت سيارة بوريس الفخمة تتجول في الشوارع المحيطة. وعندما وقفت من أجلنا، لم يكن سائقها غيوري، بل شخصٌ آخر لم أره من قبل، له قَصة شعر تبدو كأنَّ من صنعها له كان غارقاً في السُّكر. وشم، وشحوب، وعينان زرقاوان قطبيتان.

قدم بوريس كلاً منا للآخر باللغة الروسية. مدَّ لي الرجل يداً ملطخة بوشوم تيجان نيلية اللون، وبنجوم متفجّرة تشبه رسوم بيض الفصح الأوكراني. وقال لي بالروسية: «مرحباً! اسمي أناتولي».

أجبته بالروسية، لكن بحذر وتردّد: «أناتولي! سعيد بلقائك!».

أجابني بسيل من كلمات روسية لم أفهم واحدة منها. فاستدرت إلى بوريس يائساً.

قال بوريس مسروراً: «لا يتكلّم أناتولي الإنكليزية أبداً. هل تتكلّم يا أناتولي الإنكليزية؟».

ألقى علينا أناتولي نظرة جادة عبر المرآة وانطلق في خطبة روسية أخرى. كنت واثقاً من أن الوشوم على أصابع يده لها صلة بالسجن: تشير الأيدي الموشومة إلى مدة الحكم، ومدة المكوث في السجن؛ ويشار إلى الزمن بخطوط متزايدة الطول، مثل حلقات جذع الشجرة.

قال بوريس ساخراً: «يقول إنك متحدّث لبق، وإنك شديد التهذيب».

«أين غيوري؟».

قال بوريس وهو يبحث عن شيء في جيب سترته: «أوه... لقد طار منذ البارحة».

«طار؟ إلى أين طار؟».

«إلى آنتويرب».

«هل لوحتي هناك؟».

«لا».

كان بوريس قد أخرج من جيبه ورقتين نظر إليهما في الضوء الخافت قبل أن يناولني واحدة منهما... «لكن شقتي موجودة في آنتويرب. وكذلك سيارتي. سوف يجلب غيوري السيارة وبعض الأشياء، ثم يوافينا إلى المطار».

رفعت الورقة في الضوء فرأيت أنها نسخة مطبوعة من حجز طائرة إلكتروني.

تم تأكيد الحجز

بيكر/ثيودور

DL3324

مطار نيوارك الدولي (EWR) إلى أمستردام، هولندا (AMS)

توقيت الصعود إلى الطائر: 12:45

الزمن الكلي للرحلة سبع ساعات وأربع وأربعون دقيقة.

قال بوريس: «لا تزيد المسافة بين آنتويرب وأمستردام على ثلاث ساعات بالسيارة. سنصل إلى مطار شيكهول في الوقت نفسه تقريباً ـ قد أصل بعدك بساعة واحدة ـ لقد طلبت من ميريام أن تحجز لنا على طائرتين مختلفتين. لديَّ تبديل للطائرة في فرانكفورت. أما رحلتك فمباشرة».

«الليلة؟».

«نعم ـ حسناً، هذا لا يترك لنا وقتاً كثيراً، كما ترى».

«ولماذا أسافر؟».

«لأنني قد أكون في حاجة إلى بعض العون، ولا أريد إدخال أي شخص آخر في هذا الأمر. حسناً... لدي غيوري هناك! لكني لم أخبر أحداً، حتى ميريام، بالغرض من رحلتنا. أوه، أوه كان يمكنني...». قال هذا ليمنعني من مقاطعته... «المسألة فقط... كلما قلّ عدد الأشخاص الذين يعرفون بهذا الأمر كلما كان أفضل. على أية حال، عليك أن تذهب إلى البيت سريعاً وتأتي بجواز سفرك وما تجده من مال. سيوصلنا آناتولي إلى مطار نيوارك». ربَّت بيده على الحقيبة الصغيرة التي كانت على المقعد الخلفي لكني لم ألاحظ وجودها قبل تلك اللحظة... «أنا جاهز. سوف أنتظرك في السيارة».

«وماذا عن المال؟».

«كل ما لديك».

«كان عليك إخباري في وقت أبكر».

راح يبحث عن السجائر في جيوبه: «لا حاجة! المال... حسناً، لا تجزعِ من أجله. مهما يكن لديك؛ مهما يكن مناسباً!... لأنه ليس أمراً مهماً. نريد المال من أجل المظاهر فقط».

خلعت نظارتي ومسحتها بكمّي: «لم أفهم!».

«يجب أن يكون معنا مال لأنني...». نقر بأصابعه على صدغه ـ حركته القديمة التي تعني *أغبياء* ـ «لأنني سأدفع لهم، لكني لن أدفع المبلغ المطلوب كله. هل أكافئ هؤلاء الناس لأنهم سرقوني؟ إن فعلت هذا، فلماذا لا يسرقونني كلما أرادوا؟ فأي درس لهم يكون هذا؟ ´*هذا رجل ضعيف*´. ´*نستطيع أن نفعل به ما نريد*´. لكني...». صالب ساقيْه وراح يمسح على جيوبه بحثاً عن القداحة... «أريد إيهامهم بأننا مستعدون لدفع المبلغ كله. من الممكن أن نكون في حاجة إلى التوقّف أمام آلة النقود

لسحب بعض المال. يمكننا فعل ذلك في طريقنا، أو في المطار. ستبدو الأوراق المالية الجديدة جميلة. أظن أن الاتحاد الأوروبي لا يسمح للشخص الواحد بإدخال أكثر من عشرة آلاف دولار نقداً. لكني سأحزم الكمية الزائدة وأضعها في حقيبتي. وأيضاً...». قدّم لي سيجارة... «لا أظن أن من المنصف أن تتحمّل المبلغ كله وحدك. سوف أوفر مزيداً من النقود عندما نصل إلى وجهتنا. ستكون هدية مني. سأعطيهم أيضاً شيكاً مصرفياً ـ على أية حال، سيكون شيكاً من غير رصيد. إنه بنك واجهة في واحد من بلدان الكاريبي. يبدو جيداً تماماً، قانونياً تماماً. لست أدري إن كان هذا الجزء سينجح حقاً. سيكون علينا أن نرتجل بعض الشيء. ما من أحد له ذرة من عقل يمكن أن يقبل شيكاً مصرفياً بدلاً من الدفع نقداً في هذه الحالة! لكني أظنهم معدومي الخبرة، وأظنهم مستعجلين أيضاً. أنا متفائل. وسوف نرى!

2

وصلنا. راح آناتولي يدور بالسيارة حول الكتلة السكنية بينما دخلت المتجر وأخذت كل ما كان باقياً فيه من مال لم نضعه في البنك. لم أحصِ المال، لكن المبلغ كان في حدود ستة عشر ألفاً. جريت إلى الأعلى ـ بينما كان بوبر يقفز ويدور ويصرخ مستثاراً ـ ووضعت بضعة أشياء في حقيبتي: جواز السفر، وآلة الحلاقة، وجوارب، وملابس داخلية، وأول بنطلون وجدته، وزوج من القمصان الإضافية، وكنزة. كانت علبة الأقراص في أسفل درج الجوارب، فالتقطتها أيضاً؛ لكني عدت وألقيتها في الدرج وأغلقته عليها سريعاً.

مضيت مسرعاً في الممر. ثم وقفت في مكاني. كان حذاء بيبا ذو الساق المرتفعة منتصباً أمام باب غرفتها، فجعلني أتذكّر: استيقظت في ذهني خضرة الصيف الزاهية معها، ومع السعادة. بقيت لحظة واقفاً، متردّداً. ثم عدت إلى غرفتي وأخذت الطبعة الأولى من الكتاب الذي اشتريته لها

أوزما ملكة أوز، الكتاب الذي أخبرتها عنه؛ وكتبت لها رسالة صغيرة سريعة لم أتمهَّل لكي أفكر فيها. *رحلة موفقة. أحبك. لست مازحاً.* وضعت الورقة في الكتاب، ثم وضعت الكتاب على الأرض إلى جانب حذائها. كانت اللوحة التي تشكّلت على السجادة عند الباب (مدينة الزمرد، والحذاء الأخضر، ولون أوزما) كما لو أنني عثرت على قصيدة *هايكو* يابانية، أو على تشكيلة كلمات رائعة تشرح لها ما كانته بالنسبة إليَّ. وقفت لحظة في حالة هدوء تام... تكتكات الساعة، وذكريات غارقة من أيام الطفولة، وباب ينفتح على أحلام نهارية متألقة نسير فيها معاً على مروج صيفية. وبعد ذلك، عدت إلى غرفتي بخطوة واثقة فأتيت بالعقد الذي ناداني باسمها في واجهة واحد من بيوت المزادات. أخرجته من علبته المخملية السوداء سواد الليل، ووضعته بعناية حول عنق إحدى فردتي الحذاء، فتألق الذهب في الضوء. كان عقداً من التوباز، من القرن الثامن عشر... كان عقد ملكة من ملكات الجن، كأنه حامل شموع من قوس ماسية وحجارة ضخمة صافية عسلية اللون... تماماً مثل ظلِّ اللون في عينيها. وبعدها، استدرت مبتعداً، ومنعت عيني من النظر إلى صورتها على الجدار المقابل، ثم نزلت السلم مسرعاً كما يسرع طفل مبتهج مذعور رمى حجراً على نافذة الجيران. سيعرف هوبي، بالضبط، قيمة هذا العقد. لكن بيبا لن تراه، ولن تقرأ كلماتي، قبل أن أكون قد صرت بعيداً جداً.

3

كانت رحلتانا منطلقتين من محطتين مختلفتين في المطار، فودعته على الرصيف حيث أنزلني آناتولي. انفتح الباب الزجاجي منزلقاً من غير صوت. وفي الداخل، بعد النقطة الأمنية، على الأرض اللامعة في الصالة الداخلية قبيل الفجر، ألقيت نظرة على شاشة المعلومات، ثم سرت عابراً متاجر مغلقة مظلمة كانت بواباتها المعدنية لا تزال مغلقة... *بروكستون*،

داي راك، ميثانز هوت دوغ. موسيقى السبعينات تنداح من بعيد فتدخل وجداني (*الحب... سيجمعنا الحب معاً... تذكّرني يا حبيبي كلما...*). مررت ببوابات شبحية باردة أمامها حواجز من حبال؛ خالية كلها إلا من فتية جامعيين مستلقين، يشغل الواحد منهم أربعة مقاعد، ومررت بالبار الوحيد الذي لا يزال مفتوحاً، وبمحل الآيس كريم الوحيد، ثم دخلت متجر السوق الحرة الوحيد مثلما كان بوريس ينصحني دائماً... مثلما كان ينصحني ملحّاً... فتوقفت وأخذت زجاجة من الفودكا («كن آمناً حتى لا تندم في ما بعد. المشروبات الكحولية غير متوفّرة هناك إلا في متاجر تديرها الدولة. ربما ترغب في أن تأخذ زجاجتين»). سرت بعدها طيلة المسافة إلى أن بلغت بوابة رحلتي (المزدحمة). كان المكان ممتلئاً بأسرٍ أجنبية ميتة العيون، وبمسافرين مع حقائبهم الظهرية جالسين على الأرض، وبرجال أعمال مرهقين مزيتي الوجوه، منكبّين على كمبيوتراتهم المحمولة... بدا لي أنهم قد ألفوا هذه المشقّة.

كانت الطائرة ممتلئة إلى آخرها. شققت طريقي. زحام في الممر (الدرجة السياحية، منتصف الصف، المقعد الخامس). عجبت كيف تمكّنت ميريام من حجز مقعد لي على الرغم من هذا الازدحام. ومن حسن حظي أنني كنت مرهقاً إلى حد منعني من التفكير في أشياء أخرى؛ فقد نمت حتى قبل أن تنطفئ إشارة شدّ الأحزمة ـ نمت ولم أتناول شراباً، ولا طعاماً، ولم أتابع الأفلام التي تُعرض على الشاشة. ثم استيقظت عندما بدأوا يرفعون ستائر النوافذ فتدفق الضوء إلى الطائرة، وجاءت المضيفة دافعة عربتها آتية بوجبات الإفطار المغلّفة مسبقاً: خصلتا عنب؛ وكوب عصير بارد؛ وقطعة كرواسان دسمة صفراء مغلفة بالنايلون، إضافة إلى ما يختاره المسافر: قهوة أو شاي.

كنا قد اتفقنا على اللقاء في صالة استلام الأمتعة. وكان رجال الأعمال يلتقطون حقائبهم صامتين، ثم يمضون، إلى اجتماعاتهم، إلى خططهم

المستقبلية، إلى عشيقاتهم، من يدري؟ فتيان على حقائبهم الظهرية لصاقات على شكل قوس قزح يتصايحون بأصوات مرتفعة، ويدفع أحدهم الآخر محاولاً اختطاف واقٍ مطري من زميل له. كانوا يتجادلون مختلفين على المقهى الأفضل الذي يجب أن يذهبوا إليه في الصباح... «أوه، يا شباب، إنه *بلوبيرد*، بالتأكيد...».

«لا، انتظر؛ بل هو *هامرمنمسترات*. لا! هكذا هو الاسم، لقد دوَّنته عندي. إنه في هذه الورقة. لا، انتظروا، استمعوا يا شباب، علينا أن نذهب في هذا الاتجاه. لا أستطيع تذكّر هذا الاسم، لكنه يفتح في ساعة مبكرة، ولديهم فطور رائع أيضاً. يمكنك تناول المعجنات ومشاهدة فيلم *أوجي* وفيلم الفضاء *أبولو 13*، وأن تدخّن سيجارة إلكترونية وأنت جالس إلى الطاولة».

سار الفتيان مبتعدين... خمسة عشر، أو عشرون فتًى خليّ البال، لامع الشعر، ضاحكاً، ساروا حاملين حقائبهم الظهرية متحدّثين عن أرخص الطرق للوصول إلى المدينة. على الرغم من عدم وجود أمتعة أستلمها، فقد وقفت في صالة استلام الأمتعة أكثر من ساعة أنظر إلى حقيبة عليها لصاقات كثيرة تدور وتدور على السير الناقل، إلى أن جاء بوريس من خلفي وحيّاني بأن طوَّق ذراعه على رقبتي بحركة خنقة وحاول أن يدوس على حذائي من الخلف.

قال لي: «ماذا بك؟ تبدو في حالة فظيعة. فلنذهب ونأكل شيئاً ما ونتحدّث. أتى غيوري في السيارة، وهو ينتظر في الخارج».

4

على نحو ما، كان ما لم أتوقعه أبداً هو رؤية مدينة متزينة قبيل عيد الميلاد. أغصان التنوب وشرائط معدنية لامعة، ونجوم على واجهات المتاجر، وريح باردة قوية آتية من القنوات، ونيران وأكشاك احتفالية، وأشخاص على دراجات، وألوان وحلوى، وزحام العيد وضجيجه

وبريقه. كلاب صغيرة، وأشخاص صغار، وأشخاص يثرثرون، وأشخاص يتفرّجون، وحاملو حقائب، ومهرِّجون في قبعات مرتفعة ومعاطف عسكرية طويلة وثقيلة، ومهرّج صغير راقص في ملابس عيد الميلاد التي يراها المرء في لوحات آفركامبو. كنت لما أستيقظ تماماً بعد؛ ولم يعد شيء من ذلك كله واقعياً أكثر مما كان في حلمي العابر في الطائرة الذي رأيت فيه بيبا في حديقة ومن حولها نوافير مرتفعة كثيرة، وكوكب ذو حلقات مثل حلقات زحل معلَّق في سماء منخفضة.

عندما اقتربنا من دائرة كبيرة في وسطها قلعة من قلاع الحكايات لها أبراج، ومن حولها سوق في الهواء الطلق ونباتات دائمة الخضرة عليها طبقة خفيفة من الثلج المتجمّد، وبائعون قد ارتدوا قفازات كبيرة وراحوا يضربون الأرض بأقدامهم... صورة من كتاب من كتب الأطفال. قال غيوري: «هذه *نيوماركت*. هو، هو، هو».

قال بوريس متجهّماً بعض الشيء وهو ينزلق في اتجاه الباب عندما انعطف غيوري بالسيارة انعطافاً حادّاً: «كثير من الشرطة هنا، دائماً».

لأسباب كثيرة، كان لديَّ قلق في ما يتعلق بترتيبات الإقامة؛ وكنت مستعداً للإعراب عن قلقي إذا تضمّنت تلك الترتيبات تطفّلاً على بيت أحد ما، أو نوماً على الأرض. لكن حظّي كان حسناً، إذا إن الفندق الذي حجزت لي ميريام غرفة فيه كان جزءاً من بناية على القناة في الجزء القديم من المدينة. وضعت حقيبتي الصغيرة، وأودعت المال في الخزنة، ثم عدت إلى الطريق للقاء بوريس. كان غيوري قد ذهب يبحث عن مكانٍ لإيقاف السيارة. رمى بوريس سيجارته على بلاط الرصيف وسحقها بقدمه. قال: «لم أكن هنا منذ زمن طويل». كانت أنفاسه تخرج من فمه بيضاء، وكان ينظر من حوله نظرة إعجاب إلى الناس السائرين في الشارع مرتدين ملابس أنيقة... «شقتي في آنتويرب ـ إنني في آنتويرب لأسباب متّصلة بعملي ـ وهي مدينة جميلة أيضاً: هذه الغيوم البحرية نفسها، وهذا الضوء نفسه. سنذهب إلى آنتويرب ذات يوم. لكني أنسى دائماً كم أحب

المكان هنا أيضاً. أنت جائع كثيراً، أليس كذلك؟ قال هذا ولكمني على ذراعي... «هل يزعجك أن نمشي قليلاً؟».

تجوّلنا في شوارع ضيقة وأزقة رطبة لا يسمح عرضها بدخول السيارات إليها... متاجر مضبَّبة مصفرَّة بعض الشيء، ممتلئةٌ بطبعاتٍ فنيةً قديمة وقطع بورسلين يكسوها الغبار. جسر المشاة على القنال: ماء بنّي، وبطة بنية وحيدة. كأس بلاستيكية نصف مغمورة تتمايل في الماء. كانت الريح باردة رطبة فيها شذرات مطر متجمد، لها وخزات كالدبابيس. أحسست بالمكان من حولنا مغلقاً، بارداً، شديد الرطوبة. سألته: «ألا تتجمّد القنوات في الشتاء».

مسح أنفه وقال: «بلى، لكن... إنه الاحترار العالمي على ما أظن». بدا في معطفه وبدلته اللذين ذهب بهما إلى الحفلة الليلة الماضية غريباً عن المكان تماماً، منتمياً إلى المكان تماماً... «ما هذا الطقس البشع؟ هل ندخل هذا البار؟ ما رأيك؟».

كانت جدران البار القذر إلى جانب القناة ـ البار أو المقهى، أو مهما يكن اسمه ـ مكسوَّة من الداخل بخشب داكن اللون؛ وكان ديكوره ذا طابع بحري: مجاذيف وأطواق نجاة وشموع حمراء مشتعلة تمنح المكان إحساساً ضبابياً بعيداً، حتى في وضح النهار. ضوء دخاني يخالطه ضباب. قطرات ماء متكثفة على زجاج النوافذ من الداخل. ما من قائمة طعام. وفي الخلف، رأيت لوحاً كتبت عليه بالطباشير أسماء مأكولات لم أفهم منها شيئاً: *داغسوب*، *غرادجيزفيلز*، *كابوسيجميرشوتل*، *زولكورستانبوت*.

قال بوريس: «اسمع؛ دعني أطلب الطعام...». فاجأني عندما ذهب وفعل ما قاله، لكن باللغة الهولندية. ثم أتى الطعام، فكان الوجبة المعتادة التي يتناولها بوريس مع البيرة: خبز، ومقانق، وبطاطس مع قطع اللحم، والملفوف المخلل. راح بوريس يأكل مسروراً ويحدثني عن محاولته الأولى ـ الوحيدة ـ لقيادة دراجة في المدينة (هزيمة، كارثة)؛ وكذلك عن استمتاعه الكبير ببداية موسم الرنجة في أمستردام. ومن حسن الحظ

أننا لم نكن في الموسم، فقد تبين لي أنك تأكل السمكة عن طريق رفعها إلى الأعلى ممسكاً بها من ذيلها وتدليها في فمك. ولكني كنت مشوّشاً بفعل ما يحيط بي، فلم أستطع الإصغاء جيداً. بدأت أحاول التقاط بعض البطاطس بشوكتي وقد استنفرت كل حواسي (حواسي المتوتّرة إلى حّد الألم). أحسست بغرابة المدينة ضاغطة عليَّ من كل اتجاه، وبروائح التبغ والبيرة وجوزة الطيب. جدران المقهى بنية كئيبة مثل غلاف من الجلد لكتاب قديم؛ ومن خلف تلك الجدران، أزقة معتمة وماء مالح مترقرق وسماء منخفضة وبنايات قديمة مستندة واحدتها إلى الأخرى بإحساس مرهف شاعري، بإحساس الواقف على حافة الانهيار... وحِدّةُ الشوارع الحجرية في مدينة تجعل المرء يحس ـ مجرد إحساس، على أيّ حال ـ بأن هذا مكان يمكن أن يأتي إليه لكي يترك الماء يغرقه وينغلق فوق رأسه.

لم يمض وقت طويل قبل أن ينضم غيوري إلينا من جديد. جاء مبهور الأنفاس محمر الوجنتين. قال: «آسف. إيقاف السيارة مشكلة هنا». مدَّ لي يده وقال: «تسرّني رؤيتك!». ثم عانقني بدفء بدا لي صادقاً ففاجأني... كما لو أننا صديقان يلتقيان بعد فراق طويل... «هل أمورك بخير؟».

كان بوريس قد بدأ الكأس الثانية من البيرة، وبدأ أيضاً يهاجم هورست بعض الشيء. قال وهو يقضم مسروراً قطعة مقانق: «لا أدري لماذا لا ينتقل إلى أمستردام. إنه دائم التذمّر والشكوى من نيويورك! يكرهها يكرهها يكرهها!...» لوح بيده في اتجاه القناة الواقعة خلف النافذة التي غشاها الضباب... «يقول طيلة الوقت إنه يحبّ كل شيء هنا. بل إن اللغة نفسها مثل لغته. لو أراد هورست هذا أن يكون سعيداً في العالم، وأن تكون له حياة سعيدة فرحة، لدفع عشرين ألف دولار حتى يعود إلى مصحة المدمنين التي كان فيها فيشفى سريعاً، ثم يعود إلى هذه المدينة ويدخن بود*ا* هيز[1] ويتجول في المتاحف طيلة النهار».

---

(1) بودا هيز (ضباب بوذا): عشبة قابلة للاستخدام كنوع من المخدرات الخفيفة مثل الماريغوانا والقنّب والحشيش.

رحت أنظر إليهما واحداً بعد الآخر. قلت: «هورست؟».

«هورست؟».

«ماذا؟».

«هل يعرف أنك هنا؟».

ابتلع بوريس جرعة بيرة: «هورست. لا. إنه لا يعرف. سيكون الأمر أفضل كثيراً إذا علم هورست بهذا كله في وقت لاحق. هذا لأن شكوكي... لعق نقطة خردل عن إصبعه... «كانت صحيحة. ساشا الملعون هو من سرق ذلك الشيء. *شقيق أولريكا...*». قالها بسرعة... «وهذا ما وضع هورست في وضع سيئ مع أولريكا. لذا... من الأفضل كثيراً أن أعالج الأمر بنفسي. هل فهمت؟ إنني أُسدي هورست جميلاً بهذه الطريقة... لن ينسى هذا الجميل أبداً».

«ماذا تعني بقولك ' *أعالج الأمر* '». تنهّد بوريس ثم نظر من حوله ليتحقّق أن ما من أحد يسمعني على الرغم من أننا كنا وحدنا في المكان: «إنه... حسناً، الأمر معقّد. يمكنني أن أتحدث ثلاثة أيام، ويمكنني أيضاً إخبارك عما حدث بثلاث جمل».

«هل تعرف أولريكا أنه سرقها؟».

فتح عينيه على اتساعهما: «*فتّشني!*». كانت تلك عبارة من العبارات التي علّمته إياها قبل سنين طويلة عندما كنا نلهو في بيتي بعد المدرسة. *فتّشيني! كف عن هذا!* غسق صحراوي دخاني، وستائر مسدلة... *اتخذ قرارك! فنواجه الأمر! مستحيل!* الظلال نفسها على وجهه الآن. الضياء الذهبي المنبعث من الباب عند بركة السباحة.

قال غيوري وقد اكتسى وجهه تعبير القلق: «أظن أن ساشا سيكون في غاية الغباء إن أخبر أولريكا».

«لا فكرة عندي عما تعرفه أولريكا أو عما لا تعرفه. لا أهمية لهذا. إن ولاءها لأخيها أكبر من ولائها لهورست. وهذا ما أظهرته أكثر من مرة في الماضي. هل تظن؟...». لوّح للنادلة بحركة متعالية مشيراً إليها أن تأتي

لغيوري بكأس بيرة... «قد تظن أن لدى ساشا من العقل ما يجعله يصبر عليها حيناً من الزمن. لكن، لا... لا يمكنه إيداعُها ضمانة لاستدانة المال في هامبورغ أو فرانكفورت بسبب هورست... لأن هورست سيسمع بالأمر بعد ثانية واحدة، وهذا ما جعله يأتي بها إلى هذه المدينة».

«حسناً، إذا كنت تعرف مكانها، فما علينا إلا أن نتصل بالشرطة».

صمتٌ أعقب قولي هذا، ونظرات فارغة أعقبت قولي هذا، كأنني أخرجت علبة بنزين واقترحت عليهما أن نضرم النار بأنفسنا.

قلت بنبرة دفاعية بعد أن أتت النادلة ببيرة غيوري ووضعتها أمامه ثم ذهبت، وبعد أن بقي غيوري وبوريس صامتَيْن ولم ينطقا بأي كلمة: «حسناً، أعني... أليست تلك أكثر الطرق أماناً؟ وأكثرها سهولة؟ أعني، إذا استعادتها الشرطة، ولم تكن لك أية علاقة بها!».

رنة جرس دراجة، ووقع خطوات امرأة في الخارج على الرصيف، وصوت مكابح في الشارع، ورداء أسود طويل يطير ماراً بالنافذة.

رحت أنقِّل نظرتي بينهما... «لأنه عندما تفكّر في ما تعرضت له هذه اللوحة... حينما تفكر في ما عانته... لا أعرف إن كنت تفهم هذا، يا بوريس، وإن كنت تدرك مقدار العناية اللازمة لنقل لوحة. مجرد تغليفها على نحو سليم. لماذا يغامر المرء بأي شيء؟».

«هذا هو إحساسي بالضبط».

«اتصال من شخص مجهول. اتصال مع شرطة الجرائم الفنية. هؤلاء ليسوا مثل رجال الشرطة العاديين ـ ولا علاقة لهم برجال الشرطة العاديين ـ ليسوا مهتمين إلا باللوحة. وسوف يعرفون ما يتعيّن عليهم فعله».

استند بوريس إلى الخلف في كرسيّه. نظر من حوله. ثم نظر إليَّ. قال: «لا. هذه ليست فكرة حسنة...». كانت نبرة صوته أشبه بمن يخاطب طفلاً في الخامسة... «فهل تريد أن تعرف السبب؟».

«فكر في الأمر. إنها أسهل طريقة. لن يكون عليك أن تفعل شيء».

وضع بوريس كأس البيرة بهدوء.

قلت: «إن أمامهم فرصة أكبر لاستعادتها من غير أن يصيبها أذى. وأيضاً، إذا قمت أنا بالأمر ـ إذا اتصلت بهم ـ بل يمكنني أن أجعل هوبي يتصل بهم...». وضعت يدي على رأسي... «كيفما نظرت إلى الأمر فسوف تجد أنك لا تعرِّض نفسك لأية مخاطرة. أعني بهذا...». كنت في غاية التعب. عيناي مثل ثقبين عميقين. كنت غير قادر على التفكير... «إذا قمت أنا بالأمر، أو إذا قام به شخص آخر ليس جزءاً من... من مؤسّستك...».

أطلق بوريس ضحكة صاخبة: «مؤسّستي! حسناً...». هز رأسه بشدة فتساقط شعره فوق عينيه «أظن أننا مؤسسة من نوع ما لأننا ثلاثة أشخاص، أو أكثر! لكننا لسنا مؤسسة كبيرة ولا شديدة التنظيم، كما ترى».

قال لي غيوري خلال الصمت القصير المتوتّر الذي أعقب ذلك: «عليك أن تأكل شيئاً...». كان ينظر إلى طبق اللحم والبطاطس أمامي، إلى الطبق الذي لم آكل منه شيئاً بعد. قال لبوريس: «يجب أن يأكل. قل له أن يأكل».

قال لي بوريس وهو يلتقط قطعة لحم من طبقي ويأكلها: «دعه يقتل نفسه جوعاً إن كان يريد ذلك».

«إنه اتصال واحد فقط! يمكنني القيام به».

قال بوريس وقد صارت نظرته غاضبة على نحو مفاجئ: «لا. لن تفعل هذا؟ لا، لا. اخرس. اللعنة عليك. لن تفعل هذا». كان يقول هذه الكلمات وقد رفع ذقنه متّخذاً هيئة عدائية عندما رأى أنني أحاول مقاطعته ـ وعلى نحو مفاجئ، أحسست بيد غيوري على معصمي. لمسة أعرفها معرفة جيدة. لغة لاس فيغاس المنسية عندما كان أبي يقف في المطبخ صارخاً... *«بيت من هذا؟ من الذين يدفع ثمن هذا الشيء أو ذاك؟»*.

قال بوريس بنوع من الغطرسة بعد أن لمس في استجابتي صموداً لم يتوقّعه: «وأيضاً، وأيضاً، أريد أن تكفّ فوراً عن هذا الكلام الغبي *'اتصال، اتصال، اتصال'* ...». وعندما لم يسمع مني إجابة، واصل

كلامه وهو يلوِّح بيده في الهواء بحركة سخيفة كأن كلمة ' *اتصال*' كانت كلمة طفولية سخيفة تعني شيئاً من قبيل ' *وحيد القرن*' ، أو ' جنّية' . قال: «أعرف أنك تحاول تقديم مساعدة، لكن هذا الاقتراح من جانبك ليس مفيداً. لذا، انسَ الأمر. لا أريد سماع المزيد من هذا الكلام. على أية حال...». تحول صوته إلى نبرة ودية وسكب بعض البيرة من كأسه في كأسي نصف الفارغة... «مثلما كنت أقول لك. بما أن ساشا مستعجل كثيراً؛ وبما أن هذا يجعله غير قادر على التفكير الواضح، فهل يمكنه أن يحسب أكثر من نقلة واحدة إلى الأمام، أو ربما نقلتين؟ لا. ساشا غريب عن المدينة. صلاته هنا سامة بالنسبة إليه. وهو في حاجة إلى مال. يحاول جاهداً أن يظل بعيداً عن هورست. هذا ما جعله يصل إليَّ».

لم أقل شيئاً. كان من السهل تماماً أن أتصل بنفسي مع الشرطة. وما من حاجة أبداً إلى إدخال بوريس أو غيوري في الأمر.

«إنها ضربة حظ مدهشة، أليس كذلك؟ ثم صديقنا الجورجي ـ رجل واسع الثراء، لكنه بعيد تماماً عن عالم هورست، وبعيد كثيراً عن أن يكون من المهتمين بالأعمال الفنية؛ بل إنه لم يكن يعرف حتى اسم تلك اللوحة، مجرد عصفور... عصفور صغير أصفر. لكن تشيري مقتنع بأنه يقول الحقيقة وبأنه رآها. شخص قوي جداً في ميدان العقارات. هنا، وفي آنتويرب. لديه مال كثير. وهو يكاد يكون أباً لتشيري، لكنه ليس شخصاً متعلّماً كثيراً، إن كنت تفهم ما أعنيه».

«أين هي الآن؟».

دعك بوريس أنفه بحركة عنيفة: «لست أدري. أتظنهم سيقولون لنا ذلك؟ لكن فيتيا اتصل بهم وقال إنه يعرف شخصاً يريد الشراء. وقد تم الاتفاق على اللقاء».

«أين؟».

«لم يستقرّوا على ذلك بعد. تم تغيير المكان عدة مرات حتى الآن.

إنهم خائفون...». رفع يده إلى جانب رأسه وحرَّكها كما لو أنه يرخي لولباً... «قد يجعلوننا ننتظر يوماً أو اثنين. وقد لا نعرف المكان إلا قبل ساعة من اللقاء».

قلت: «تشيري هذا...». ثم سكتُّ. فيتيا صيغة مختصرة من اسم تشيري الروسي؛ فهل هو فكتور ـ أظن أن فكتور هو النسخة الإنكليزية من الاسم. لكن تشيري ما كان إلا لقَباً له. ثم إني لم أكن أعرف أي شيء عن ساشا: لا سنّه، ولا اسم عائلته، ولا حتى شكله... لا شيء على الإطلاق غير أنه أخ أولريكا. بل إن هذه المعلومة نفسها كانت غير مؤكدة في حقيقة الأمر، وذلك بالنظر إلى أن بوريس كان يتكلّم بعمومية كبيرة عندما ذكرها.

امتص بوريس الدهن عن إبهام يده، وقال: «كانت فكرتي أن نجهّز شيئاً عنك. هل فهمتني؟ أنت، أميركي، شخصية مهمة، مهتم باللوحة. وهم...». خفض صوته لأن النادلة أتت فأخذت كأسه الفارغة ووضعت كأساً جديدة. شكرها غيوري بإيماءة مهذبة من رأسه... «سيأتون إلى غرفتك. هكذا يجري الأمر عادة. يجري كل شيء مثلما تجري صفقات الأعمال. لكن...». رفع كتفيه قليلاً... «لكنهم مستجِدّون في هذا الأمر؛ ويخافون من كل شيء. إنهم راغبون في أن يجري اللقاء في موقعٍ من اختيارهم».

«أين هو المكان؟».

«لست أدري بعد. ألم أقل لك هذا قبل قليل؟ إنهم يغيّرون رأيهم دائماً. إذا أرادوا أن ننتظر، فسوف ننتظر. علينا أن نتركهم يظنّون أنفسهم سادة الأمر. والآن، آسف...». قال هذا ثم تمطّى وتثاءب؛ وبإصبعه، دعك عينه التي أحاطت بها دائرة قاتمة اللون... «إنني مرهق! أريد أن أنام قليلاً!». التفت إلى غيوري وقال له شيئاً بالأوكرانية، ثم التفت إليَّ من جديد، ثم انحنى إلى الأمام ووضع يده على كتفي قائلاً: «هل تستطيع العثور على طريق العودة إلى فندقك؟».

حاولت تحرير نفسي من يده من غير أن يبدو عليَّ أنني أفعل ذلك.
«لا مشكلة. أين مكان إقامتكما؟».
«في شقة صديقة لنا ـ منطقة *زيديجك*».
قال غيوري وهو ينهض واقفاً بعزم... بحركة مهذّبة فيها ملمح عسكريٌّ غامض: «بالقرب من *زيديجك*. منطقة الحي الصيني قديماً».
«ما هو العنوان؟».
قال بوريس: «لا أستطيع تذكّر العنوان. أنت تعرفني. إنني عاجز عن تذكّر العناوين والأشياء من هذا القبيل. لكن عنوان فندقك معي». قال هذا وهو يربّت على جيبه.
«لا بأس».
عندما كنا في لاس فيغاس، كان بيتي نقطة اللقاء دائماً عندما نضطر إلى الافتراق ـ عندما نجري هاربين من رجال الحراسة في المول وقد ملأنا جيوبنا ببطاقات الهدايا المسروقة.
«إذاً... أراك هناك. ثم إن لديك رقم هاتفي ولديَّ رقم هاتفك. سأتصل بك عندما أعرف شيئاً جديداً. والآن...». صفعة صغيرة على رأسي من الخلف... «كف عن القلق يا بوتر. لا تقف هنا بهذا المظهر الحزين! إذا خسرنا نربح، وإذا ربحنا نربح! كل شيء جيد! أنت تعرف طريق العودة إلى فندقك، أليس كذلك؟ اذهب من هذا الشارع، ثم انعطف يساراً عندما تصل إلى فندق *سينغيل*. نعم، هناك. سنتكلم عما قريب».

5

انعطفت في اتجاه خاطئ في طريق عودتي إلى الفندق فأمضيت عدة ساعات في التجول من غير طائل: متاجر مزينة بحلي زجاجية، وأزقة رمادية لها أسماء يصعب نطقها، وتماثيل بوذا المذهبة، ومنسوجات مذهَّبة، ومنسوجات آسيوية منشّاة، وخرائط قديمة، وقيثارات قديمة، ومتاجر ذات لون بني غائم كلون السيجار فيها آنية فخّارية وكؤوس

مزخرفة عتيقة. كانت الشمس قد بانت؛ وكان عند القنوات شيء قاس لامع، تألقٌ يستطيع المرء أن يتنفّسه. نوارس تنقضّ وتصيح. رأيت كلباً يجري حاملاً في فمه سرطاناً حياً. كنت تحت وطأة التعب وثقل الدوار الذي عصف برأسي فجعلني أحس بأنني منقطع تماماً عن نفسي كما لو أنني أرى ذلك كله من خارجي. مررت ببائعي الحلويات، وبمقاهٍ، وبمتاجر فيها قطع أنتيكات صغيرة وبلاطات دِلْفت مرسومة من القرن التاسع عشر، ومرايا، وفضة تلمع في الضوء الغني المصطبغ بلون الكونياك، وخزانات وطاولات فرنسية مرصّعة على نمط البلاط الفرنسي، لها انحناءات مزيّنة وتغليف بقشرة الخشب قادر على أن يجعل هوبي يشهق معجَباً ـ والحقيقة أن تلك المدينة الضبابية المهذبة الودود كلها بما فيها من بائعي أزهار وخبّازين وتجار أنتيكات ذكرتني بهوبي، لا لازدحامها الغنيّ بالأنتيكات فحسب، بل لأن في المكان اشتمالاً على كل ما يشبه هوبي... شيء مثل كتاب مصوّر للأطفال فيه حرَفيّون في مآزر العمل يكنّسون الأرض وقطط بيتية غافية خلف نوافذ تغمرها الشمس.

لكن، كان هنالك الكثير الكثير مما يُرى، وكان قد طغى عليَّ التعب والبرد. وفي آخر المطاف، سألت أشخاصاً في الشارع عن الطريق إلى فندقي (ربات بيوت ورديات تحملن أحضاناً من الزهور، وهيبّيّون في نظارات سلكية الإطار بَقّع التبغ أيديهم). عدت أدراجي من فوق جسور القنال، عبر شوارع ضيقة ناعمة الإنارة إلى أن بلغت فندقي حيث ذهبت على الفور. فبدّلت بعض الدولارات في مكتب الاستقبال، ثم صعدت حتى آخذ دوشاً في الحمام ذي الزجاج المقوّس والتجهيزات الفاخرة... شيء هجين بين الفن الحديث وصور الخيال العلمي الصقيعية المخدّرة. وبعد ذلك، غرقت في النوم منكباً على وجهي فوق السرير، فلم أستيقظ إلا بعد ساعات على صوت اهتزاز هاتفي على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير... زقزقة مألوفة جعلتني أظن، لحظةً، أنني في البيت.

«بوتر؟».

انتصبت جالساً في السرير وامتدت يدي إلى نظارتي. لم أسدل الستائر قبل نومي، فراحت انعكاسات القنال تتراقص على سقف الغرفة المظلمة.

«ماذا بك؟ هل تعاطيت شيئاً؟ لا تقل لي إنك ذهبت إلى واحد من تلك المقاهي».

«لا، أنا...». تجوّلت عيناي المنبهرتين في أرجاء الغرفة ـ نوافذ بارزة، وعوارض السقف، وخزانات، وجدران مائلة... ومن خلف النافذة التي وقفت أمامها أهرش رأسي، كانت انعكاسات الإنارة التزيينية على صفحة الماء السوداء تنير جسور القنال.

«حسناً، إنني صاعد إليك. لا أظن أن معك فتاة في الأعلى، أليس كذلك؟».

6

يمر الطريق إلى غرفتي بمصعدين مختلفين، إضافة إلى مسافة السير من ردهة مكتب الاستقبال. ولهذا فوجئت بسرعة نقرهِ على بابي. دخل غيوري من غير أن يقول لي شيئاً، ووقف عند النافذة مديراً ظهره لنا، في حين نظر بوريس إليَّ وقال: «ارتدِ ملابسك». كنت حافي القدمين مرتدياً ثوب الحمام الخاص بالفندق؛ وكان شعري منتصباً لأنني نمت بعد الدوش مباشرة... «عليك أن ترتب نفسك. اذهب ومشِّط شعرك واحلق ذقنك».

عندما خرجت من الحمام (حيث كنت قد تركت سترتي معلّقة حتى أتخلص من بعض تجاعيدها)، زمَّ شفتيه غير راضٍ وقال لي: «أليس لديك شيء غير هذه البدلة؟».

«إنها من ماركة *تيرندول وآسر*».

«نعم، لكنها تبدو كما لو أنك نمت بها».

«هذا بسبب الوقت الذي مر منذ أن ارتديتها. لدي قميص أفضل من هذا».

«اذهب وارتدِ ذلك القميص...». كان يفتح حقيبة صغيرة وضعها على السرير... «أخرج نقودك واجلبها إليّ».

عندما كنت أزرر كمَّيْ قميصي وأنا عائد إلى الغرفة، تجمّدت في مكاني وسط الغرفة عندما رأيته واقفاً أمامي منحنياً فوق السرير منهمكاً في تجميع مسدس: كان يجمّعه بمهارة واضحة مثلما يكون هوبي أثناء عمله في الغرفة. شد القسم المتحرك إلى الخلف بحركة قوية فاستقرّ في مكانه مطلقاً طقطقة مرتفعة الصوت.

قلت: «بوريس! ما هذا؟».

رماني بالتفاتة جانبية وقال لي: «اهدأ...». ثم أخرج مخزن المسدس من جيبه وأدخله في مكانه... «هذا ليس كما تظن. ليس كذلك على الإطلاق. إنه من أجل المظاهر فقط».

نظرت إلى ظهر غيوري العريض الهادئ تماماً مثلما تكون وقفتي أحياناً عندما أستدير، في المتجر، متظاهراً بعدم الانتباه عندما يكون لديّ رجل وامرأة يناقشان ما إذا كانا سيشتريان قطعة أثاث أعجبتهما أم لا.

كان بوريس يحرك شيئاً في المسدس، إلى الأمام وإلى الخلف، بحركة شخص خبير. كان يختبره. رفعه أمام وجهه ونظر إليه... حركات سوريالية من مكان عميق في الذاكرة حيث كانت صور أفلام بالأبيض والأسود تتتالى أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. «إنه مجرّد... سوف نجتمع بهم على أرضهم. وسوف يكونون ثلاثة أشخاص. حسناً... بل اثنان في حقيقة الأمر. اثنان يمكن إدخالهما في الحساب. أستطيع أن أقول لك الآن إنني كنت قلقاً بعض الشيء من احتمال أن يكون ساشا موجوداً. ففي تلك الحالة، لا يمكنني أن أذهب معك. لكن كل شيء جرى على أحسن ما يرام؛ وها أنا معك!».

«بوريس... كنت واقفاً هناك وقد اتضح لي فجأة، دفعة واحدة، بسرعة مدوّخة، أنني ورطت نفسي في شيء غبي جداً».

«لا تقلق! لقد قلقت بدلاً منك...». ربَّت على كتفي... «ساشا متوتر كثيراً. إنه خائف من إظهار وجهه في أمستردام ـ خائف من احتمال وصول الأمر إلى هورست. لديه أسباب وجيهة لذلك. وهذه أخبار جيدة جداً في ما يتعلق بنا. لذا...».

أغلق المسدس: كروم بلون الفضة، وأسود لامع كالزئبق، مع كثافة صقيلة شوَّهت الفراغ من حوله مثلما تفعل قطرة من زيت السيارات في كأس ما.

قلت له بعد صمتي المذهول الذي أعقب ذلك: «لا تقل لي إنك ستأخذ المسدس معك».

«حسناً، سآخذه. سأضعه في القراب... آخذه حتى يكون في القراب، لا أكثر. لكن، مهلاً، مهلاً...». قال هذا وهو يرفع كفّه في الهواء... «قبل أن تقول شيئاً...». لكني لم أكن أقول شيئاً. كنت واقفاً فحسب وقد استولى عليَّ الذعر... «كم مرة يجب أن أقول لك هذا؟... إنه من أجل المظاهر فحسب».

«لا بد أنك تمزح».

قال بنبرة مقتضبة كما لو أنه لم يسمعني أتكلم: «ارتد ملابسك. ليس في الأمر شيء أكثر من المظاهر... إنني أحمله حتى يكونوا قلقين من فعل أي شيء بعد أن يروه معي؛ هل فهمت؟». وعندما رآني لا أزال واقفاً في مكاني أنظر إليه... «إجراء احتياطي! لأن... لأنك الرجل الثري، ولأننا حارساك الشخصيان. هكذا هو الأمر. ولسوف يتوقّعون هذا. سيتم كل شيء بطريقة متحضّرة. وإذا أزاح كل منا معطفه هكذا...». كان على وسطه قراب مسدس فارغ مختفٍ تحت معطفه... «فسوف يتصرّفون باحترام ويمتنعون عن فعل أي شيء. إن من الخطير جداً أن يتجوَّل المرء هكذا...». فتح عينيه على اتساعهما ونظر في أرجاء الغرفة مثلما تفعل بنت سخيفة.

أحسست بالخوف والتشوش. قلت: «بوريس، لا أستطيع فعل هذا».

«لا تستطيع ماذا؟». تراجع إلى الخلف ورفع ذقنه ناظراً إليّ... «ألا تستطيع أن تخرج من السيارة وتقف معي خمس دقائق أستعيد فيها لوحتك اللعينة؟».

«لا، أنا أعني ما قلته». كان المسدس قابعاً على غطاء السرير. تنشَدّ العين إليه... بدا كما لو أنه يُبلوِر ويُضخّم كل ما في هواء الغرفة من طاقة سيئة... «لا أستطيع. جدّياً. دعنا ننسى الأمر».

كشَّر بوريس وقال: «ننسى؟ لا تفعل هذا! جعلتني آتي إلى هنا من أجل لا شيء؛ وأنا الآن أجد نفسي في ورطة ثم، الآن...». لوَّح بذراعه... «تبدأ في الدقيقة الأخيرة بوضع شروط وبالقول ُ *هذا غير آمن، هذا غير آمنَ* ، وتريد تعليمي كيف أقوم بالأمر! ألا تثق بي؟».

«بلى، لكن...».

«حسناً إذاً، ثق بي في هذا الأمر من فضلك». ثم أضاف عندما رآني لا أجيبه بشيء... «أنت المشتري. تلك هي القصة. لقد تم ترتيب الأمر».

«كان علينا أن نتكلّم في هذا الأمر مسبقاً».

«أوه، هيا...». قالها حانقاً، ثم التقط المسدّس عن السرير ووضعه في قرابه... «لا تجادلني، من فضلك. سوف نتأخر. لو طال بقاؤك في الحمام دقيقتين فقط، لما رأيت المسدس أصلاً... لما عرفت على الإطلاق بأن لديَّ سلاحاً. لأن... بوتر! اصغ إلي، هل ستصغي إليّ؟ من فضلك! هذا كل ما سيحدث. سوف ندخل، خمس دقائق؛ نحن سنتكلّم معهم. كلام فقط. تحصل على لوحتك. سيسَرّ الجميع. نخرج ونذهب لتناول العشاء. هل اتفقنا؟».

كان غيوري قد ابتعد عن النافذة وراح ينظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل. كان وجهه مقطّباً قلقاً. قال لبوريس شيئاً باللغة الأوكرانية. ثم جرى بينهما حديث لم أفهمه. وبعدها، مد بوريس يده إلى معصمه وبدأ يفك ساعته.

قال غيوري شيئاً آخر وهو يهزّ رأسه بعنف.

قال بوريس: «صحيح. أنت محق». ثم أومأ برأسه في اتجاهي وقال لي: «خذ هذه».

ساعة *بلاتينيوم رولكس بريزيدنت*. وجهها مرصَّع بالماس. كنت أحاول التفكير في طريقة مهذبة للرفض عندما خلع غيوري خاتمه الماسي الضخم من إصبعه ومدَّ إليَّ يده المفتوحة وعليها الخاتم والساعة... مدها بحركة فيها شيء من الرجاء والأمل مثلما يفعل طفل يقدم هدية من صنع يدوي.

قال بوريس عندما رآني متردّداً: «نعم. إنه محق. لا تبدو ثرياً كما يجب. ليت حذاءك كان مختلفاً...». قال هذا وهو ينظر نظرة ناقدة إلى حذائي الأسود ذي الإبزيمين... «لكن، علينا الآن أن نقبل بهذا الحذاء. سنضع المال في هذه الحقيبة هنا ثم نذهب...». حزام تثبيت جلدي في وسط الحقيبة الممتلئة تحته بأكوام من رزم مالية. بدأ يضع المال في الحقيبة بيدين ماهرتين كأنه عاملة فندق ترتب سريراً... «الفئات الأكبر في الأعلى. هذه المئات الجميلة كلها. شيء بديع جداً».

7

خرجنا إلى الشارع: زحمة العيد وروعته. انعكاسات متراقصة متلألئة على صفحة الماء: أروقة من الدانتيلا على امتداد الشارع، وأكاليل من ضوء على زوارق القنال.

كان بوريس يقلّب موجات راديو السيارة. تجاوز فرقة بي غيز. ثم الأخبار بالهولندية، ثم الأخبار بالفرنسية. كان يحاول العثور على أغنية تعجبه. قال: «سيكون هذا كله شيئاً مريحاً فائق السهولة. إنني معتمد على حقيقة أنهم يريدون الحصول على المال سريعاً. كلما تخلّصوا من اللوحة في وقت أسرع، كلما قل احتمال أن يقعوا في طريق هورست. لن يدقّقوا كثيراً في ذلك الشيك المصرفي. لن يروا منه إلا المبلغ المسجل عليه... ستمئة ألف دولار».

كنت جالساً وحدي في المقعد الخلفي، وإلى جانبي حقيبة المال. (قال لي غيوري عندما دار من حول السيارة وفتح لي الباب الخلفي حتى أجلس: «لأنك يجب أن تصير معتاداً على هذا يا سيدي... أن تعتاد كونك شخصية مميزة!»).

كان بوريس يقول: «هل رأيت؟... آمل أن يخدعه... شيك قانوني تماماً. كل ما في الأمر هو أنه من بنك في حالة سيئة. *بنك آنغويلا*. إن الروس في آنتويرب ـ وهنا أيضاً، في أمستردام ـ يأتون لكي يستثمروا ويغسلوا أموالهم ويشتروا الأعمال الفنية. كان هذا البنك سليماً تماماً منذ ستة أسابيع، لكنه لم يعد كذلك».

تجاوزنا القنوات، وتجاوزنا المياه. وفي الشارع: ملائكة ملوَّنة من أضواء النيون، كالأشباح مطلة من أعالي البنايات مثل تماثيل على مقدمات سفن. أضواء متلألئة زرقاء، وأضواء متلألئة بيضاء، ومصابيح كشافة، وشلالات من ضياء أبيض ونجوم عيد الميلاد... كل شيء متَّقد، منيع، لا يعني في نظري أكثر مما يعنيه الخاتم الماسيّ الضخم الذي يلمع على إصبعي.

قال بوريس ناسياً أمر الراديو عندما استدار في اتجاه المقعد الخلفي لكي يخاطبني: «هل تعرف ما أريد قوله لك؟ أريد أن أقول لك ألا تقلق. كل شيء على ما يرام... من كل قلبي!». قال هذا وهو يعقد حاجبيه ويمد يده ويهز كتفي محاولاً تشجيعي.

قال غيوري: «من أسهل ما يكون!». ثم ابتسم ابتسامة عريضة في المرآة وقد سرَّه قول تلك العبارة.

«ها هي الخطة. هل تريد أن تعرف الخطة؟». أظن أن من المنتظر مني أن أقول نعم.

«سنترك السيارة. سنخرج من المدينة قليلاً، ثم يلاقينا تشيري في موقع ما، فيأخذنا بسيارته إلى مكان اللقاء».

«وهل سيجري الأمر كلّه من غير عنف؟».

«بكل تأكيد. فما السبب؟ لأن معك المال. وهذا كل ما يريده هؤلاء. حتى في وجود الشيك الزائف... تبقى الصفقة جيدة بالنسبة إليهم. أربعون ألف دولار من غير أن يفعلوا شيئاً! ليس بالمبلغ الكبير! وبعد ذلك، سيعيدنا تشيري إلى موقف السيارات حيث تركنا سيارتنا؛ وستكون اللوحة معنا، وبعد ذلك سنخرج ونحتفل».

قال غيوري شيئاً.

أوضح لي بوريس: «لا يعجبه ترك السيارة في الموقف. أُخبرك بهذا حتى تعرف ما قاله. يظن أنها فكرة سيئة. لكني... لا أريد الذهاب بسيارتي! ثم إن آخر ما نريده هو أن ننال مخالفة وقوف».

«أين سيكون مكان اللقاء؟».

«حسناً... شيء مثير للصداع، إلى حد ما. سنخرج من المدينة، ثم نعود إليها. لقد أصر على أن يكون اللقاء في مكان يخصّه، فوافق تشيري لأن... نعم، فعلاً، هذا أفضل. على الأقل. عندما نكون على أرضهم، يمكننا أن نكون واثقين من عدم وجود أي تدخل من جانب الشرطة».

وصلنا إلى جزء من الطريق أكثر استقامة ووحشة وبُعداً. صارت حركة السيارات أكثر تباعداً، وصارت مصابيح الشارع أكثر تباعداً أيضاً. أخلى ازدحام المدينة القديمة وتلألؤ أضوائها وزيناتها المُنارة المكان لمشهد مديني أكثر كآبة وألفة: *فوتوكادو*، *لوكسميث*، *سلوتن كلويس*، ولافتات بحروف عربية... شاورما، كباب تندوري... بوابات المتاجر مغلقة، وكل شيء مغلق.

قال غيوري: «هذه منطقة *أوفرتيم*. ليست جميلة كثيراً، وليس فيها ما يثير الاهتمام».

«هذا هو موقف السيارات الخاص بصديقي ديما[1]. لقد وضع على المدخل لافتة تقول إن ما من أماكن شاغرة هنا حتى لا يزعجنا أحد.

---

(1) ديما: صيغة تصغير وتحبب من اسم ديمتري.

سوف نوقف السيارة في قسم المُدد الطويلة ـ آه»، ثم أطلق شتيمة باللغة الروسية عندما اندفعت أمامنا سيارة نقل صغيرة مطلقة بوقها، فأرغمت غيوري على الانعطاف بالسيارة والضغط على المكابح.

قال غيوري عابساً وهو يشغّل مصابيح الإشارة الوامضة وينعطف بالسيارة من جديد حتى يدخل إلى الموقف: «أحياناً، يكون الناس هنا عدوانيين بعض الشيء من غير سبب».

قال بوريس: «أعطني جواز سفرك».

«لماذا؟».

«لأنني سأضعه في علبة القفازات في السيارة وأقفلها عليه إلى أن نعود. من الأفضل ألّا يكون معك، من باب التحسّب. سوف أضع جواز سفري أيضاً...». قال هذا ورفع جواز سفره حتى أراه... «وكذلك جواز سفر غيوري. إن غيوري مواطن شريف مولود في أميركا...». رفع صوته أعلى من اعتراض غيوري الضاحك... «نعم، هذا جيد جداً بالنسبة إليك وليس بالنسبة إلي! من الصعب كثيراً أن أحصل على جواز سفر أميركي. ثم إنني لا أريد حقاً أن أخسر هذا الشيء». ثم نظر إليَّ وقال: «هل تعرف يا بوتر أنك ملزم، بحكم القانون في هولندا، على حمل ما يثبت شخصيتك طيلة الوقت؟ تجري الشرطة تفتيشاً عشوائياً في الشارع... وتعاقب المخالفين. أعني... في أمستردام! أية دولة بوليسية هذه؟ من يمكن أن يصدّق هذا الأمر؟ هنا؟ وأما أنا... أبداً! ولا حتى بعد مئة سنة!». أغلق علبة القفازات وأقفلها... «على أية حال، من الأفضل أن أدفع الغرامة وأقول كلاماً لطيفاً للشرطة على أن يكون جواز سفري الحقيقي معنا... إذا تعرضنا لحالة من ذلك النوع».

8

دخلنا موقف السيارات الذي كانت إنارته باهرة بلون زيتوني أخضر كئيب. كانت في قسم المُدد الطويلة بضعة أماكن خالية على الرغم من

تلك اللافتة التي تقول إن المكان ممتلئ. وعند دخولنا ذلك القسم، تقدّم من سيارتنا رجل في معطف طويل كان متكئاً على سيارة *رانج روفر* بيضاء. رمى سيجارته فتناثر منها رماد برتقالي متوهج. شعر متراجع، ونظارة شمسية داكنة، وقامة عسكرية مشدودة... كان ذلك كله يمنحه مظهر طيار سابق عصفت به الريح، أو مظهر رجل كان يراقب أجهزة حسّاسة في موقع اختبار ما في جبال الأورال الروسية.

نزلنا من السيارة فشد على يدي بقوة عندما صافحني وقال: «فكتور».

ثم تلقى كل من غيوري وبوريس صفعة على الظهر. وبعد مقدمات سريعة باللغة الروسية، خرج من السيارة مراهق له وجه طفولي وشعر أجعد، فحياه بوريس بصفعة صغيرة على خده مع صفرةٍ طروب متعددة النغمات تحاكي أغنية أطفال شائعة.

قال لي بوريس وهو يعبث بحلقات شعر الفتى: «هذا هو شيرلي تي. شيرلي تيمبل. لكننا ندعوه شيرلي تي ـ لماذا؟ هل يمكنك أن تحزر؟». ضحك عندما لم يستطع الفتى كتم ابتسامة محرَجة أظهرت غمازتين عميقتين في وجنتيه.

قال لي غيوري بصوت منخفض: «لا تدع مظهر هذا الفتى يخدعك. يبدو شيرلي تي طفلاً، لكن لديه شجاعة لا تقل عن شجاعة أي منّا».

حيّاني شيرلي تي بإيماءة مهذّبة من رأسه ـ هل يتكلّم الإنكليزية؟ لم يبدُ لي أنه يتكلمها ـ ثم فتح الباب الخلفي في سيارة *الرانج روفر* حتى نجلس ثلاثتنا (بوريس وغيوري وأنا)، في حين ذهب فكتور تشيري وجلس في المقعد الأمامي.

التفت وخاطبني بنبرة رسمية لحظة خروج السيارة من الموقف وانطلاقها في حي أوفرتوم: «يجب أن يكون هذا أمراً سهلاً؛ عملية رهن واضحة مباشرة!». على هذه المسافة القريبة، رأيت أن له وجهاً عريضاً ذكياً وفماً صغيراً أنيقاً، إضافة إلى ذلك التعبير المنتبه الساخر الذي

جعلني، على نحو ما، أشعر بقدر أقل من التوتر حيال المنطق الذي كان يحكم تلك الليلة، أو قلة المنطق التي كانت تحكمها: تغيير السيارات، وانعدام المعلومات، وعدم معرفتي بوجهتنا، وإحساسي الكابوسي بغرابة كل شيء... «إننا نقدّم خدمة لساشا. ولهذا السبب، سوف يكون سلوكه معنا جيداً».

بنايات منخفضة طويلة. وأضواء متباعدة. كان لديَّ إحساس أن ذلك كله لا يحدث لي بل لشخص آخر غيري... إحساس بأنني لست ذلك الشخص.

كان فكتور يقول متفلسفاً: «هذا لأن ساشا غير قادر على الذهاب إلى البنك والحصول على قرض مقابل إيداع اللوحة. هل يستطيع فعل ذلك؟ لا. هل يستطيع أن يذهب إلى متجر الرهونات ويأخذ مالاً مقابل رهن اللوحة؟ لا! وبما أن ساشا قد حصل على اللوحة عن طريق السرقة، فهل يستطيع أن يستفيد من علاقاته المعتادة التي اكتسبها من خلال هورست لكي يأخذ قرضاً مقابلها؟ لا. من هنا، سيكون ساشا في غاية السعادة عندما يظهر الأميركي الغامض ـ أي أنت ـ الذي عثرتُ عليه من أجله».

قال لي غيوري بصوت منخفض: «يتعاطى ساشا الهيروين، مثلما نتنفس أنا وأنت. لحظة يحصل على دفعة من المال، ستراه ذاهباً من غير تأخير لشراء كمية من المخدرات».

صحّح فكتور تشيري وضع نظاراته: «بالضبط. هو ليس عاشقاً للفن، وليس كثير التدقيق. يريد الاستفادة من اللوحة كما يستفيد من بطاقة ائتمان ذات معدل فائدة مرتفع، أو هكذا يظن أنه سيفعل. استثمار بالنسبة إليك، وسيولة نقدية بالنسبة إليه. تعطيه المال مقدَّماً وتحتفظ باللوحة عندك على سبيل الضمان. ثم يذهب ويشتري المخدرات فيحتفظ بنصف الكمية لنفسه ويجزّئ النصف الآخر ويبيعه. وبعد ذلك، يعود إليك بمالك مضاعفاً بعد شهر واحد لكي يستعيد لوحته. وماذا لو...؟

ماذا لو مر شهر واحد ولم يعد بمالك مضاعفاً في آخره؟ تصير اللوحة لك. الأمرُ مثلما أخبرتك تماماً. عملية رهن بسيطة».

تمطّى بوريس وتثاءب: «لكنها ليست بهذه البساطة لأنك ستختفي، وسيتضح له أن الشيك المصرفي غير سليم. فما الذي يستطيع فعله؟ إذا ذهب إلى هورست طالباً مساعدته، فسوف يكسر رأسه».

نزع فكتور نظارته السوداء وراحَ يمسحها بقميصه. قال: «يسرني أنهم غيروا مكان اللقاء مرات كثيرة جداً. هذا أمر سخيف بعض الشيء. لكنه مفيد لنا لأننا الآن في يوم الجمعة! لقد جعلتهم يظنّون أنك قررت التراجع وصرف النظر عن الأمر كله لكثرة تغييرهم الخطط وإلغائهم المواعيد. صحيح أنك لم تصل إلا صباح اليوم، لكنهم لا يعرفون هذا. قلت لهم بعد أن غيروا الموعد عدة مرات إنك تعبت وغضبت نتيجة جلوسك في أمستردام منتظراً أخباراً منهم ومعك حقيبة من الدولارات. هذا ما دفعك إلى إعادة نقودك إلى البنك لكي تطير عائداً إلى الولايات المتحدة. لم يعجبهم سماع هذا. وبالتالي...». أشار برأسه إلى الحقيبة... «لقد صرنا الآن في نهاية عطلة الأسبوع. البنوك مقفلة، وأنت ذاهب إلى لقائهم آخذاً معك ما توفر لديك الآن من مال وـ حسناً، لقد تحدّثوا معي كثيراً، مرات كثيرة على الهاتف؛ كما التقيتهم مرة واحدة في أحد البارات فوافقوا على جلب اللوحة لإجراء التبادل اليوم من غير اشتراط لقائك قبل ذلك. وهذا لأنني أخبرتهم أن طائرتك ستقلع غداً وقلت لهم إن ألاعيبهم كانت سبب تأخير الأمر كله، وإن عليهم الآن أن يقبلوا شيكاً مصرفياً لإكمال المبلغ المتفق عليه، وإلا فلن يحصلوا على شيء. من الطبيعي هذا لم يعجبهم، لكنهم قبلوه باعتباره تفسيراً منطقياً للشيك المصرفي. وهذا ما يجعل الأمور أكثر سهولة».

قال بوريس: «نعم، هكذا يصير الأمر أسهل بكثير. لم أكن واثقاً من أن قصة الشيك المصرفي سوف تسير على ما يرام. من الأفضل أن يكونوا

مقتنعين بأن مماطلتهم تلك كانت السبب الذي جعلك تدفع لهم بهذه الطريقة».

«أين المكان؟».

«مطعم صغير اسمه *روبارسكويه*».

قال بوريس موضحاً: «هذا يعني '*البقرة القرمزية*' بالهولندية. مطعم هيبي قريب من المنطقة الحمراء[1]».

شارع طويل موحش. متاجر معدات وأدوات مغلقة. أكداس من القرميد إلى جانب الطريق. كان ذلك كله موحياً بالأهمية وبالدلالات الكبيرة على الرغم من أننا كنا ماضين في الشارع بسرعة لا تسمح بالنظر إليه».

قال بوريس: «الطعام لديهم فظيع... قمح مبرعَم وخبز قمح قديم قاس. قد يظن المرء أن فتيات مثيرات يذهبن إلى ذلك المكان، لكنك لا تجد فيه غير عجائز بدينات رماديات الشعر».

«ولماذا هناك؟».

قال فكتور تشيري: «لأنه شارع هادئ في المساء. يغلق المطعم بعد انتهاء ساعات العمل في المنطقة. لكن الأمور تظل تحت السيطرة لأن المكان شبه عام».

غرابة في كل مكان. ومن غير انتباه، غادرت الواقع وعبرت الحد الفاصل في اتجاه أرض مجهولة حيث ما من معنى لأي شيء. حالة حلم؛ حالة تشتت. أسلاك ملفوفة وأكوام من الأنقاض أزاحت الريح جانباً أغطيتها البلاستيكية.

كان بوريس يكلّم فكتور بالروسية عندما انتبه إلى أنني أنظر إليه.

التفت إلي قائلاً: «نقول إن ساشا في فرانكفورت الليلة، يقيم حفلة هناك في أحد المطاعم من أجل صديق له خرج لتوّه من السجن. وقد تأكدنا من

(1) المنطقة الحمراء (دو والن): منطقة في قلب أمستردام القديمة تجتازها قنوات ماء وأزقة ضيقة عامرة بالبارات والمقاهي.

ذلك من ثلاثة مصادر مختلفة. يظن ساشا أنه يفعل شيئاً ذكياً ببقائه خارج المدينة هذه الليلة. لو عرف هورست بما حدث هنا الليلة، فإن ساشا يظن نفسه قادراً على رفع يديه والقول: ' *من، أنا؟ لا علاقة لي بالأمر* '».

قال لي فكتور: «قلت لهم إنك مقيم في نيويورك. وقلت لهم إنك تشتري الأعمال الفنية وتبيعها، لكنك اعتقلت بسبب لوحة مزيفة فصرت الآن تقوم بعمليات مثل التي يقوم بها هورست ـ على نطاق أصغر بكثير في ما يتعلق باللوحات؛ وعلى نطاق أكبر بكثير في ما يتعلّق بالأموال».

قال بوريس: «هورست، فليبارك الرب هورست! كان من الممكن أن يصير هورست أغنى رجل في نيويورك لولا أنه يبدد ذلك المال كلّه... كل سنت منه! هذا ما يفعله دائماً. ينفق على عدد كبير جداً من الناس، إضافة إلى إنفاقه على نفسه».

«هذا أمر سيئ للعمل».

«صحيح. لكنه مستمتع بصحبتي».

قال فكتور تشيري: «محسن إلى المدمنين، ها...». نطق كلمة ' محسن' بطريقة غريبة... «أمر جيد أنهم يموتون من وقت لآخر، وإلا لازداد كثيراً عدد المتراكمين لديه في ذلك الجُحر. على أيّ حال... كلما كان كلامك اليوم أقل، كلما كان ذلك أحسن. لن يتوقّعوا أحاديث مهذّبة ومجاملات. صفقة عمل، ولا شيء أكثر من ذلك. سوف أكون سريعاً. أعطه الشيك المصرفي يا بوريا[1]».

قال له بوريس شيئاً بالأوكرانية... بنبرة حادة. ثم قال بالإنكليزية: «لا! يجب أن يكون هو من يقدّم الشيك. يجب أن يستلموه من يده».

كان كل من الشيك وإيصال الإيداع يحمل اسم فاروسو فرانتيسيك ـ بنك سيتزن *أنغويلا*. لم يفعل هذا إلا أن زاد سوية إحساسي بأن الأمر كله حلم... بأنه مسار منطلق بسرعة كبيرة لا تترك متسعاً لأي إبطاء.

---

(1) بوريا: صيغة تصغير وتحبب من اسم بوريس.

قلت: «*فاروسو فرانتيسيك*، هل هذا أنا؟». في ظل ذلك الوضع، بدا لي هذا السؤال ذا معنى... كما لو أن من المحتمل أن أخرج من جسدي على نحو ما، أو أن أعبر إلى أفق ما أتحرّر فيه من حقائق أساسية، كهويتي مثلاً.

أجابني بوريس: «لم أختر هذا الاسم. كان عليَّ القبول بما استطعت العثور عليه».

«وهل يجب أن أقدّم نفسي بهذا الاسم؟».

كان هناك شيء غير مريح في ما يتعلّق بالورق ـ أحسسته رديئاً واهياً أكثر مما يجب. ثم إن اسم البنك نفسه ُ سيتزن *بانك*ُ زاد هذا الإحساس شدة.

«لا، تشيري سوف يقدّمك إليهم». فاروسو فرانتيسيك. رحت أجرّب هذا الاسم من غير صوت، وأتلمّسه بلساني. صحيح أنه كان اسماً يصعب تذكّره، لكنه كان قوياً غريباً بما ينسجم مع تلك الكثافة الشديدة التائهة للشوارع السوداء وسكك الترام والطرقات المرصوفة والملائكة المصنوعة من مصابيح النيون. صرنا الآن في المدينة القديمة ـ مدينة تاريخية لا سبيل إلى معرفتها... قنوات ومسارات للدراجات وأضواء عيد الميلاد المتراقصة على صفحة الماء القاتمة.

سمعت فكتور تشيري يسأل بوريس: «متى كنت تعتزم إخباره؟ يجب أن يعرف اسمه».

«لا بأس، صار يعرفه الآن».

شوارع لا أعرفها، ومنعطفات لا أفهمها، ومسافات أجهلها. كففت حتى عن محاولة قراءة أسماء الشوارع أو متابعة مسارنا. من بين الأشياء المحيطة بي كلها ـ كل ما كنت قادراً على رؤيته ـ كان القمر النقطة المرجعية الواضحة الوحيدة: قمر عالٍ فوق الغيوم بدا لي غير مستقر على الرغم من تألقه واكتماله؛ بدا لي أنه قد فقد جاذبيته وما عاد ذلك

القمر المستقرّ الثابت في سماء الصحراء. صار أشبه بخدعة في حفلة من الممكن أن تنفجر مع غمزة من عينِ مَن ابتكَرها، أو أن تعوم في الظلام مبتعدة وتختفي عن الأنظار.

9

كان مطعم *"البقرة القرمزية"* في شارع مقفر، ضيق لا يكاد يسمح بمرور سيارة واحدة. وكانت المتاجر المحيطة بالمطعم مغلقة كلّها ـ صيدلية، ومخبز، ومتجر للدراجات ـ كل شيء مغلق إلا مطعم إندونيسي في آخر الشارع. أنزلنا شيرلي تي من السيارة أمام المطعم. رسوم جدارية على الجدار المقابل للمطعم: وجه مبتسم وسهام، وشارة التحذير من المواد المشعّة، وصاعقة تخترق كلمة *شازام* التي تقطر حروفها بشيء أشبه بالدم كما في أفلام الرعب.

نظرت إلى الداخل عبر باب المطعم الزجاجي. كان المكان ضيقاً طويلاً. وللوهلة الأولى، بدا لي خالياً. جدران قرمزية؛ وثريا زجاجية متّسخة؛ وطاولات غير متناسبة الأبعاد كراسيها مطلية بألوان تذكّر بحضانة الأطفال. أنوار خافتة في المكان كله باستثناء منطقة طاولة البيع وخزنة باردة منارة تتوهّج في الخلف. نباتات زينة هزيلة؛ وصورة بالأبيض والأسود لجون ويوكو[1] تحمل توقيعاً؛ ولوحة إعلانات عليها نشرات لأشخاص غرباء ودروس يوغا ونصائح صحّية متنوعة. كانت هنالك لوحة مرسومة على الجدار فيها بيوت من ورق اللعب؛ وعلى الواجهة الزجاجية، رأيت قائمة طعام هزيلة مطبوعة على الكمبيوتر تعرض بضعة مأكولات صحية كاملة من النوع الذي يفضله إيفريت: حساء الجزر، وحساء القراص، وهريس القراص، وفطائر العدس ـ لا شيء مثيراً للشهية؛ لكنها ذكّرتني بأن آخر وجبة حقيقية تناولتها، أي آخر

(1) جون ويوكو: المغني جون لينون وصديقته اليابانية يوكو أون.

وجبة أكبر من بضع لقمات كانت في بيت كيتزي عندما طلبنا الدجاج بالكاري وأكلناه في السرير.

رآني بوريس أنظر إلى القائمة فقال لي بنبرة رسمية بعض الشيء: «إنني جائع أيضاً. سوف نذهب معاً لتناول وجبة عشاء حقيقية جيدة. مطعم *بليك*. عشرون دقيقة».

«ألن تدخل؟».

«ليس بعد». كان واقفاً متنحياً قليلاً بحيث يكون خارج مجال رؤية من ينظر عبر الباب الزجاجي؛ وكان يراقب الشارع في الاتجاهين. كان شيرلي تي يدور بالسيارة حول الكتلة السكنية... «لا تقف هنا وتتكلّم معي. ادخل مع فكتور وغيوري».

كان الرجل الذي تقدّم من باب المطعم الزجاجي رجلاً نحيلاً ضامراً في الستينات يبدو عليه شيء من القلق. كان وجهه طويلاً ضيقاً، وشعره العجيب منسدلاً إلى ما تحت كتفيه، وعلى رأسه قبعة من القماش كأنها من برنامج ’*سول ترين 1973*‘ . ظلّ واقفاً حاملاً حلقة مفاتيح في يده. تجاوزت نظرته فكتور الذي كان في المقدّمة، وراحت تتفحّصنا أنا وغيوري. بدا عليه أنه لم يقرّر بعد إن كان سيسمح لنا بالدخول أم لا. أكسبته عيناه المتقاربتان، وحاجباه الرماديان الكثيفان، وشاربه الرمادي الكبير، هيئة كلب *شناوزر* عجوز مرتاب. ثم ظهر شخص آخر أصغر منه سناً، بكثير، وأضخم منه حجماً، بكثير؛ بل كان حتى أطول من غيوري بمقدار نصف ارتفاع الرأس. لعله ماليزي أو إندونيسي. وجه موشوم. وفي أذنيه ماسات تفقأ العين، إضافة إلى شعر مربوط في ما يشبه كرة فوق رأسه جعله أشبه بواحد من صيادي الحيتان في فيلم ’ *موبي ديك*‘ ... إن كان لواحد من صائدي الحيتان في ذلك الفيلم أن يرتدي بنطلوناً مخملياً وسترة بيسبول دراقية اللون.

كان الوغد العجوز يجري اتصالاً على هاتفه الخليوي. ظلت عيناه

الحذرتان ترقباننا طيلة الوقت. ثم أجرى اتصالاً هاتفياً ثانياً وأدار ظهره وسار مبتعداً عنا ضاغطاً بكفه على خده وأذنه مثلما تفعل ربة منزل هستيرية، في حين أتى الإندونيسي فوقف ينظر إلينا من خلف الباب الزجاجي. كان ساكناً سكوناً غير طبيعي. كانت المكالمة الثانية قصيرة جاء بعدها الوغد العجوز بحاجبيه المتغضنين وبدأ ـ على نحو بائن التردّد ـ يعبث بحلقة المفاتيح، ثم أدخل المفتاح في القفل. ولحظة دخولنا، بدأ يصيح على فكتور تشيري ويطوّح بذراعيه في الهواء، في حين تراجع الإندونيسي ووقف مستنداً إلى الجدار طاوياً ذراعيه على صدره. كان مصغياً.

من المؤكد أن هناك انزعاجاً ما. عدم ارتياح. ما اللغة التي كانوا يتكلّمون بها؟ الرومانية؟ التشيكية؟ لم أفهم شيئاً من محتوى الحديث. لكن فكتور تشيري بدا منزعجاً، في حين صار ذو الشعر الرمادي أكثر اهتياجاً ـ أهو غاضب؟ لا: منزعج، قلق، محبط، بل حتى متوسّل... كان في صوته شيء يشبه النحيب! وطيلة ذلك الوقت، ظلت عينا الإندونيسي ثابتتين علينا مع ذلك السكون المقلق كسكون أفعى *أناكوندا*. كنت واقفاً على نحو مسافة عشر خطوات ـ على الرغم من أن غيوري، ومعه حقيبة المال، كان ملتصقاً بي تقريباً. تعمدت أن يظل وجهي خالياً من أي تعبير ورحت أتظاهر بالنظر إلى الشارات والشعارات التي على الجدار: ’*السلام الأخضر ـ منطقة خالية من الفراء ـ الصداقة النباتية ـ في حماية الملائكة*‘.

وبما أنني اشتريت المخدرات مرات كثيرة في ظروف لا تنقصها الغرابة (شقق عامرة بالصراصير في *هارلم الإسبانية*، وسلالم عابقة برائحة البول في مشاريع *سانت نيكولاس*)، فقد كنت أعرف أن عليَّ أن أظهر بمظهر غير المهتم لأن هذه الأنواع من الصفقات متشابهة في أكثرها ـ بحسب خبرتي، على الأقل. على المرء أن يبدو مسترخياً غير

مهتم كثيراً، وألّا يتكلم إلا إذا كان في حاجة إلى الكلام، وأن يتحدّث بصوت رتيب عندما يضطر إلى الحديث... وأن يذهب فور حصوله على ما جاء من أجله.

همس بوريس في أذني بعد أن اقترب من غير صوت ووقف إلى جانبي: «فلتحرسه الملائكة! مؤخّرتي!». لم أقل شيئاً، بعد تلك السنين، ظل من السهل علينا كثيراً استخدام عادة الهمس برأسين متقاربين كما كنا نفعل في درس المعلمة سبيرستسكايا؛ لكن هذا بدا لي أسلوباً غير مناسب تماماً في الوضع الراهن.

قال بوريس: «وصلنا في الموعد الصحيح. لكن واحداً من رجالهم لم يأتِ بعد. هذا ما يجعل صاحبنا نصف الميت هذا متوتراً إلى هذه الدرجة. يريدون أن ننتظر إلى أن يأتي. هم المخطئون في تغيير مكان اللقاء هذه المرات كلّها».

«ما الذي يحدث هناك؟».

قال: «دع فيتيا يعالج الأمر». كان يضرب برأس حذائه شيئاً صغيراً فرائياً على الأرض ـ فأر ميت؟ أجفلت عندما فكرت في هذا؛ لكنني سرعان ما أدركت أن ذلك الشيء كان واحدة من الألعاب التي تعضها القطط لأنني رأيت عدداً منها على الأرض إلى جانب الوعاء الذي تقضي فيه القطة حاجتها. كان لونه داكناً نتيجة البول، وكان فيه أيضاً براز قطط. لقد وضعوه نصف مختبئ تحت طاولة لأربعة أشخاص.

كنت أتساءل في نفسي كيف يمكن وضع هذا الشيء بحيث يكون من المحتمل جداً أن يدوس عليه واحد ممن يأتون ليتناول الطعام، فهذا غير معقول عند النظر إلى تنظيم أي مرفق يقدّم الطعام (هذا إذا لم نقل شيئاً عن وجوب كون المكان جذاباً، أو نظيفاً، أو مستوفياً الشروط الصحية). عندها انتبهت إلى أن الكلام قد توقّف وإلى أن الرجلين قد كانا ينظران إلينا، أنا وغيوري: فكتور تشيري والرجل الستيني الذي تقدّم في اتجاهنا وعلى

وجهه نظرة ترقّب قلقة. راحت عيناه تنتقلان بيني وبين الحقيبة التي في يد غيوري. تقدّم غيوري بحركة لطيفة، ثم فتح الحقيبة ووضعها على الطاولة مع انحناءة مذعنة من رأسه، ثم تراجع حتى يتيح للرجل أن ينظر إليها.

نظر الرجل إلى الحقيبة نظرة شخص قصير النظر، ثم كشّر قليلاً ونظر إلى تشيري نظرة انزعاج، لكن تشيري لم يبدِ أية ردة فعل. أعقب ذلك حوار غامض. بدا الرجل الأشيب غير راض. ثم أغلق الحقيبة وانتصب واقفاً. نظر إليَّ بعينين ثاقبتين كنت متوتّراً لأنني نسيت اسم عائلتي: «فاروسو». تمنيت ألا أجد نفسي مضطراً إلى إكمال الاسم.

نظر إليَّ تشيري نظرة فهمت معناها: *الأوراق*.

قلت: «نعم، نعم». ثم مددت يدي إلى جيب سترتي الداخلي فأخرجت الشيك وإيصال الإيداع في البنك. فتحت الورقتين بحركة كنت آمل أن تبدو طبيعية، غير مكترثة، ونظرت فيهما قبل أن أقدّمهما إلى الرجل.

فرانتيسيك. لكن، في اللحظة التي مددت بها يدي بالورقتين... بووووم... جرى الأمر كما لو أن هبة ريح اجتاحت المكان فصفقت الباب بقوة في مكان لا تتوقعه. تقدم فكتور تشيري سريعاً خلف الرجل الأشيب وضربه بمقبض المسدس على مؤخّر رأسه ضربة قوية جعلت قبعته تسقط وقدميه تنطويان من تحته، فهوى إلى الأرض مصدراً صوتاً كقباع الخنزير. ظل الإندونيسي واقفاً مستنداً إلى الجدار، وبدا لي أنه فوجئ مثلما فوجئت. تجمّد جسده متوتراً، والتقت عينانا في لحظة تساؤل حاد: *ما هذا*؟ نظرة كأنها بين صديقين! لم أستطع فهم السبب الذي جعله يظل ملتصقاً بالجدار إلى أن نظرت خلفي فذعرت عندما رأيت مسدسي بوريس وغيوري مصوبين إليه: بوريس مسنداً مسدسه إلى راحة يده اليسرى بحركة أنيقة؛ وغيوري حاملاً مسدسه بيد، وحقيبة المال بالأخرى، يتراجع خارجاً من الباب.

لمحة منفصلة عمَّ يجري؛ شخص يتحرّك خفية آتياً من المطبخ في

الخلف: امرأة آسيوية شابة ـ لا، إنه فتى: جلد أبيض، عينان سوداوان مذعورتان تمسحان القاعة. شال مُوشّى على الطريقة الإندونيسيّة، وشعر أسود طويل متطاير. عَبَر ذلك الشخص سريعاً واختفى.

نظرت من حولي وقلت سريعاً: «هنالك أحد ما في الخلف». نظرت في كل اتجاه. دارت الغرفة من حولي كأنني في أرجوحة دوّارة، وراح قلبي ينبض مجنوناً. لم أستطع نطق الكلمات بشكل صحيح؛ ولم أكن واثقاً من أن أحداً قد سمع ما قلت ـ على أيّ حال، لم أكن واثقاً من أن تشيري قد سمعني، لأنه كان يُنهض الرجل الشائب على قدميه ممسكاً به من سترة الجينز. طوّق عنقه بذراعه وألصق فوهة المسدس بصدغه، وصاح به بلغة أوروبية شرقية، ثم دفعه في اتجاه الغرفة الخلفية بينما ترك الإندونيسي الجدار الذي كان مستنداً إليه وتحرّك برشاقة وحذر ناظراً إليَّ وإلى بوريس مدة بدت لي أنها طويلة.

قال لي بصوت هادئ: «سوف تندمون على هذا، أيها القذرون».

أجابه بوريس بنبرة ودية: «ارفع يديك. ارفع يديك، أريد أن أراهما».

«ليس معي سلاح».

«ارفعهما مع ذلك».

قال الإندونيسي بنبرة لا تقل وداً: «سأرفعهما».

نظر إليَّ من الأعلى إلى الأسفل بعد أن رفع يديه في الهواء. أدركت أنه يحفظ شكل وجهي فانتابتني قشعريرة... صورة تنتقل مباشرة إلى ملف البيانات ـ ثم نظر إلى بوريس.

قال له: «إنني أعرفك».

برّاد عصير الفاكهة متألق مثل غواصة. كنت أسمع صوت تنفسي، شهيق وزفير، شهيق وزفير. قعقعة شيء معدني في المطبخ. أصوات غير واضحة.

قال بوريس مشيراً برأسه إلى الأرض: «انبطح، هيا».

جثا الإندونيسي على ركبتيه طائعاً ـ بحركة شديدة البطء ـ ثم انبطح على الأرض بطوله كله. لكنه لم يبدُ مرتبكاً أو خائفاً.

قال الرجل من جديد: «إنني أعرفك». كان صوته مكتوماً بعض الشيء.

حركة مندفعة سريعة رأيتها من زاوية عيني، فالتفت على الفور: قطة سوداء كالشيطان، كأنها ظلّ حي... ظلام مسرع إلى ظلام.

«قل لي إذاً، من أكون؟».

«أنت بوريا من آنتويرب». لم يكن صحيحاً أنه من غير سلاح؛ فحتى أنا كنت قادراً على رؤية مسدسه بارزاً تحت إبطه... «بوريا البولندي. بوريا المخدرات. صديق هورست».

قال بوريس بصوت لطيف: «وماذا إن كان هذا صحيحاً؟».

ظل الرجل صامتاً. أزاح بوريس الشعر عن عينيه بهزة من رأسه، ثم ضحك ضحكة متهكمة وبدا موشكاً على قول شيء ساخر؛ لكن فكتور تشيري عاد من المطبخ في تلك اللحظة؛ عاد وحيداً وأخرج من جيبه ما بدا لي أشبه بقيود بلاستيكية لليدين. توقف قلبي لحظة عندما رأيت تحت ذراعه حزمة في مثل مساحة اللوحة وثخانتها. كانت ملفوفة بقماش أبيض، مربوطة بخيط من القنب. جثا واضعاً ركبته على ظهر الإندونيسي وبدأ يقيّد يديه.

قال لي بوريس: «اخرج...»، لكنني بقيت واقفاً لأن عضلاتي تجمّدت، فدفعني دفعة صغيرة وقال لي: «اذهب! اجلس في السيارة».

نظرت من حولي غير مبصر شيئاً... لم أستطع رؤية الباب... لم يكن هناك باب... ثم رأيته فخرجت بحركة سريعة إلى حد جعلني أنزلق، فدست على لعبة القطة وأوشكت على السقوط. اتجهت إلى سيارة *الرانج روفر* الواقفة عند الرصيف. كان غيوري يراقب واجهة المطعم واقفاً في الشارع تحت مطر خفيف بدأ يهطل قبل قليل... قال هامساً وهو يجلس في مقعد السيارة الخلفي ويفسح لي مكاناً حتى أصعد إلى السيارة بعده:

«ادخل، ادخل». وفي تلك اللحظة، اندفع بوريس وفكتور تشيري من المطعم فقفزا إلى السيارة التي انطلقت بنا انطلاقاً سلساً، ثم زاد سرعتها.

10

عمّ المرح السيارة عندما صرنا على الطريق الرئيسية: ضحك، وتبادل تحيات، في حين كان قلبي يضرب عنيفاً فيكاد يجعلني عاجزاً عن التنفس.

سألتهم عدة مرات بصوت متحشرج: «ما الذي يجري؟» ـ كنت أعبّ الهواء وأنظر إليهم واحداً بعد الآخر، لكنهم تابعوا تجاهلي وظلوا يتحدّثون بخليط مزعج من الروسية والأوكرانية، كلهم، بمن فيهم شيرلي تي. صحت فجأة: «أنغليسكي!».

التفت بوريس إليَّ ومسح عينيه، ثم طوّق رقبتي بذراعه. قال لي: «تغيير في الخطة. حدث ذلك كله من غير تحضير... حدث ارتجالاً. ما كان يمكن أن نتمنى شيئاً أحسن من هذا. رجُلهم الثالث لم يأت».

«فاجأناهم قبل أن يكتمل عددهم».

«كانوا عاجزين».

«في المرحاض، وقد أنزلوا بنطلوناتهم».

«قلت لي...». كنت ألهث حتى أستطيع إخراج الكلمات من فمي... «قلت لي إنكم لن تستخدموا المسدسات».

«حسناً، لم يصب أحد بأذى، فما الفارق إذاً؟».

«لماذا لم نكتف بدفع المال؟».

رفع بوريس ذراعيه: «لأن حظنا كان عظيماً! حظ يأتي مرة في العمر! سنحت لنا الفرصة! ماذا كان في وسعهما أن يفعلا؟ كانا اثنين فقط... وكنا أربعة. لو كان لديهم عقل، لما سمحا لنا بالدخول. ثم... نعم، أعرف أن المبلغ لم يكن إلا أربعين ألفاً؛ لكن، لماذا أدفع لهم سنتاً واحداً إذا لم أكن مضطراً إلى ذلك؟ أأدفع لهم لأنهم سرقوا شيئاً أمتلكه؟...». ضحك

بوريس ضحكة صغيرة... «هل رأيت تلك النظرة على وجهه؟ ذلك الوغد نصف الميت؟ عندما ضربه تشيري على قمة رأسه؟».

التفت فكتور تشيري إليَّ مبتسماً فرحاً وقال: «أتعرف سبب تذمّر ذلك التيس العجوز؟ كان يريد المبلغ باليورو؟ ′ *ماذا، دولارات؟* ′...». قلد تعبير وجهه النَّكِد... «*لقد جلبتم لي دولارات!*».

«أراهنكم أنه يتمنى الآن لو أخذ الدولارات».

«بل أراهنك أنه تمنّى لو أبقى فمه مطبقاً».

«ليتني استمعت إلى تلك المكالمة الهاتفية مع ساشا».

«أتمنى لو أني عرفت اسم ذلك الرجل؛ الرجل الذي تخلّف عن المجيء... لأنني أحب أن أدعوه إلى كأس من الشراب».

«أتساءل أين ذهب؟».

«لعله في بيته، يستحم».

«إنه يراجع درس الكتاب المقدس».

«بل يتابع فيلم ′ *ترنيمة عيد الميلاد* ′ على التلفزيون».

«أُرجّح أنه ينتظر في مكان خاطئ».

«ألا...». كان حلقي منقبضاً فاضطررت إلى ابتلاع ريقي قبل أن أتكلم... «ماذا عن الطفل؟».

«ماذا؟».

كان المطر يهطل... مطر خفيف تناثرت قطراته على زجاج السيارة. شوارع سوداء، لامعة.

«أي طفل؟».

«ولد. بنت. صبي يعمل في المطبخ، لا أدري».

التفت فكتور تشيري ـ لا يزال يصيح ويتنفّس لاهثاً: «ماذا؟ لم أرَ أحداً!».

«وأنا لم أر أحداً».

«أما أنا فرأيت».

«كيف كان شكلها؟».

«صغيرة السن...». كنت لا أزال قادراً على رؤية صورة ثابتة لذلك الوجه الشبحيّ الشاب... فم مفتوح قليلاً... «معطف أبيض. شكلها ياباني».

قال بوريس مستغرباً: «حقاً؟ هل تستطيع التمييز بالنظر؟ هل تستطيع تحديد بلد الشخص؟ اليابان، الصين، فيتنام؟».

«لم أستطع النظر جيّداً. رجل آسيوي».

«ذكر أم أنثى؟».

قال غيوري: «أظن أنهم ليس لديهم غير الفتيات في المطبخ. طعام عضوي. أرز بنّي، وأشياء من هذا النوع».

«إنني...». صرت الآن غير واثق مما رأيت.

مسح فكتور تشيري بيده على قمة رأسه ذي الشعر المقصوص قصيراً: «لا بأس... يسعدني أنها فرَّت، كائناً من كانت. لأنني، هل تعرفون ما وجدته هناك؟ وجدت بندقية موسبرغ *500* ماسورتها مقطوعة».

ضحكٌ وصفيرٌ عند سماع هذا.

«عجباً!».

«أين كانت؟ ألم يحاول غروزدان...؟».

«لا. كانت في...». أشار بيده محاكياً شكل شيء معلّق... «ما اسم هذا الشيء؟». كانت معلّقة تحت الطاولة؛ معلقة بشيء قماشي. رأيتها مصادفة عندما انخفضت إلى الأرض. رفعت رأسي... فرأيتها. كانت فوق رأسي تماماً».

«أنت لم تتركها هناك، هل تركتها؟».

«لا! لم يكن لدي مانع من أخذها؛ إلا أنها كانت كبيرة، وكانت يداي مشغولتين. أخرجتها، ورميتها في الزقاق. وأيضاً... وجدت هذا!».
أخرج من جيبه مسدساً فضياً أفطس الأنف وناوله لبوريس.

رفعه بوريس في الضوء ونظر إليه.

«مسدس صغير يسهل إخفاؤه. قراب صغير مما يوضع على الكاحل، لكنه كان في جيب بنطلون الجينز! إلا أن الرجل لم يكن سريعاً إلى الحد الكافي، لسوء حظه».

مال غيوري برأسه صوبي وقال لي: «قيود بلاستيكية! فيتيا يحتاط مقدَّماً».

مسح فكتور تشيري العرق عن جبينه العريض وقال: «حسناً، إنها قيود خفيفة سهلة الحمل. وقد وفّرت عليَّ في مرات كثيرة إطلاق النار على الناس. لا أحب إيذاء أحد إذا لم أكن مضطراً إلى ذلك».

مدينة من القرون الوسطى: شوارع معوجّة، ومصابيح مجللة على الجسور يتلامع نورها على مياه قنوات منقطة بحبات المطر، ذائبة تحت ذلك الهطل الخفيف. عدد لا نهاية له من متاجر لا أسماء لها، وواجهات عرض متلألئة... ملابس داخلية وجوارب بحمّالات ومستلزمات المطابخ مصفوفة كأنها أدوات جراحية؛ وكلمات أجنبية في كل مكان... *سميل بستيلم، ريتم ستيل، شودرلس كسبوتيك*.

قال فكتور تشيري وهو يخلع معطفه ويتناول جرعة من زجاجة فودكا أخرجها شيرلي تي من تحت المقعد الأمامي: «كان الباب الخلفي مفتوحاً على الزقاق...». كانت يداه مرتعشتين قليلاً ووجهه ـ أنفه خاصة ـ لامعاً، متوتراً، محمراً... «لا بد أنهم تركوه مفتوحاً من أجله، من أجل رجلهم الثالث، حتى يأتي من الخلف. لقد أغلقته وأقفلته. جعلت كروزدان يغلقه ويقفله. كان مسدسي مصوَّباً إلى رأسه، فصار يبكي ويسيل مخاطه كأنه طفل صغير».

قال لي بوريس وهو يتناول الزجاجة التي ناوله إياها صديقه من المقعد الأمامي: «ذلك الوغد! شيء شرير قذر. ماسورة البندقية مقطوعة...! إنها تنثر الكرّيات الصغيرة من هنا حتى هامبورغ. حتى إذا صوبتها بعيداً عن كل من في الغرفة، فسوف تصيب نصفهم».

قال فكتور تشيري بنبرة فلسفية: «كان من الممكن أن تكون تلك خدعة جيدة، أليس كذلك؟ أن يقولا لنا إن رجلهما الثالث غير موجود! *' انتظروا خمس دقائق، من فضلكم' ، ' لقد أخطأنا، نعتذر' ، ' سيصل في أية لحظة'* ـ بينما يكون الرجل الثالث في الخلف ومعه تلك البندقية. لو فكّروا في هذا الأمر لأوقعوا بنا».

«لعلهم فكّروا في هذا. وإلا فلماذا كانت البندقية هناك».

«أظنّه تأخّر قليلاً».

قال غيوري: «كانت هنالك سيارة متوقّفة أمامنا أخافتنا، أنا وشيري تي. ترجّل منها رجلان عندما كنا كلنا هناك، فظننا أننا قد وقعنا في مشكلة. لكنهما كانا رجلين فقط، رجلين فرنسيين يبحثان عن مطعم».

كان فكتور تشيري يقول: «... أشكر الرب على أن أحداً لم يكن مختبئاً في الخلف. جعلت غروزدان ينبطح على الأرض وقيّدته إلى مشعّ التدفئة. لكن، آه... قبل هذا... هذه من أجلك». رفع الحزمة الملفوفة بطبقة من اللباد.

تناولها غيوري من فوق ظهر المقعد، ثم حملها بحرص، بأطراف أصابعه، كما لو كانت طبقاً يمكن أن تنسكب محتوياته ـ وناولني إياها. أنزل بوريس مسدسه ومسح فمه بظهر يده، ثم ضربني بالزجاجة ضربة مازحة على ذراعي وهو يدندن: *نتمنى لك عيداً سعيداً، نتمنى لك عيداً سعيداً.*

صارت الحزمة على ركبتي، مررت بأصابعي على امتداد حافتها. كان الغلاف اللبادي رقيقاً فأحسّت رؤوس أصابعي، على الفور، بأن اللوحة الحقيقة موجودة تحته بالفعل... الملمس الصحيح والوزن الصحيح.

أومأ بوريس برأسه وقال لي: «هيا، من الأفضل أن تفتحها وتتأكد من أنها ليس كتاب الحقوق المدنية هذه المرة...». ثم سأل فكتور تشيري عندما رحت أحاول فك خيط القنب... «أين كانت؟».

«كانت في خزانة المكانس الصغيرة القذرة. وجدتها موضوعة في

كيس تافه من النايلون. أخذني كروزدان إليها مباشرة. توقّعت أن يحاول مخادعتي، لكن مسدسي كان مصوَّباً إلى رأسه ونحن نتكلّم. عندما يكون ذلك المال موجوداً في متناوله، فلا معنى لأن يعرِّض نفسه إطلاق النار».

قال بوريس محاولاً لفت انتباهي: «بوتر!»؛ ثم قال من جديد: «بوتر!».

«ماذا؟».

رفع بوريس الحقيبة: «لدينا هنا أربعون ألف دولار، وسوف يذهب هذا المال إلى غيوري وتشيرلي تي. سوف يصيران ثريين. هذا من أجل الخدمة التي قدَّماها إلينا. فبفضل هذين الاثنين لم ندفع لساشا سنتاً واحداً لقاء قيامه بسرقة لوحتك. وأما فيتيا...». انحنى وصفع يد فيتيا... «نحن متعادلان الآن، بل أكثر من متعادلين. صرت مديناً لك».

أجاب فكتور تشيري: «لا يا بوريا! لا أستطيع أبداً أن أفيك ما أنا مدين به لك».

«انس الأمر، إنه لا شيء».

«لا شيء، لا شيء؟ هذا غير صحيح يا بوريا، فأنا حي حتى هذه الليلة بفضلك أنت؛ وستكون صاحب الفضل حتى آخر ليلة في حياتي».

كانت القصة التي يرويها مثيرة حقاً، لو أن أذنيَّ كانتا قادرتين على الاستماع إليها حتى نهايتها ـ وجّه أحدهم الاتهام إلى فكتور تشيري في جريمة لم أفهم طبيعتها، إلا أن من الواضح أنها كانت جريمة خطيرة جداً. لكنه لم يرتكبها ولم تكن له أي علاقة بها. كان بريئاً تماماً. حصل الشخص الذي وجه الاتهام إليه على حكم مخفف بالحبس؛ وما كان تشيري قادراً على فعل شيء مماثل إلا بأن يوجه الاتهام إلى من هم أعلى منه مكانة («لم يكن فعل ذلك أمراً حكيماً، إذا أردت أن أظل حيّاً!»). كان من المتوقع أن ينال حكماً بعشر سنوات. لكن بوريس أنقذه بأن تتبع الشخص الذي تسبب له بذلك ـ كان في آنتويرب بعد أن أُطلق سراحه بكفالة. كانت تفاصيل قصة ما فعله بوريس حماسية معقدة صعبة الفهم؛

وكان فكتور تشيري يرويها بصوت مختنق لشدة تأثّره، وهو ينشق بأنفه أيضاً... تبين لي أن هنالك المزيد وأن الأمر اشتمل على افتعال حريق وإراقة دماء، بل وعلى أمر له علاقة بمنشار كهربائي. لكنني لم أعد قادراً على سماع شيء في تلك اللحظة لأنني حللت عقدة الخيط وبدأ نور مصابيح الشارع، وانعكاسات ماء المطر الجاري على النافذة، يسبح على ظهر لوحتي، على طائر الحسّون... فعرفت، من غير أي شك، حتى قبل أن أقلبها لأنظر إلى خلفيتها، أنها لوحتي الحقيقية.

قال بوريس مقاطعاً فيتيا الماضي متحمساً في سرد قصته: «أرأيت؟ عصفورك الذهبي يبدو في حالة حسنة، أليس كذلك؟ ألم أخبرك بأننا اعتنينا به جيداً؟». مررت بإصبعي غيرَ مصدقٍ على حواف اللوحة مثلما مر توما بكفه على يد المسيح لكي يزول عنه شكه[1]. يعرف كل مشتغل بالأثاث القديم (هذا ما كان يعرفه القديس توما أيضاً) أن خداع حاسة اللمس أصعب من خداع البصر. فحتى بعد هذه السنين كلها، ظلت يداي محتفظتين تماماً بذكرى ملمس اللوحة مما جعل أصابعي تمضي على الفور إلى آثار المسامير عند أسفلها... تلك الثقوب الصغيرة التي بقيت فيها بعد أن جرى (في وقت من الأوقات، أو بحسب ما يُقال) تثبيتها بالمسامير لتصير لافتة حانة أو جزءاً من خزانة... لا يعرف أحد حقيقة الأمر!

قال فكتور تشيري: «أهو حيٌّ ذلك الجالس في الخلف؟».

لكزني بوريس بمرفقه بين أضلاعي. قال: «أظن هذا. قل شيئاً». لكنني لم أستطع قول شيء. كانت اللوحة حقيقية، أدركت هذا حتى في الظلام. لمسة بقعة طلاء نافرة صفراء على الجناح، وريشات مرسومة باستخدام عقب الفرشاة. نقرة صغيرة على الحافة العلوية لم تكن موجودة من قبل... تشوّه صغير أقل من ميليمترين، وأما غير ذلك، فقد كانت اللوحة

---

(1) رفض القديس توما (هو واحد من حواريي المسيح الاثني عشر) أن يؤمن، من غير دليل ملموس، بأن المسيح قد بُعِث حياً بعد صلبه، فلمس كف يده وتحسس جراحها. وهناك لوحة شهيرة للرسام الإيطالي كارافاجيو باسم «شك القديس توما».

كاملة، كما هي. لقد تغيّرت، لكنها لم تتغير! ومع وميض الضوء واضطرابه عليها وهي بين يدي، كان لدي إحساس كأن حياتي كلها، بالمقارنة معها، اندفاعة عابرة من طاقة لا شكل لها، أو فورة من وجود بيولوجي... فورة عشوائية مثل ومضات مصابيح الشوارع التي تمر بنا سريعاً.

قال غيوري معجَباً وهو يميل حتى يلقي نظرة: «آه، شيء جميل! نقي كأنه زهرة أقحوان...» وعندما لم أجبه لكزني قائلاً... «هل تفهم ما أحاول التعبير عنه؟ زهرة في أوجها، وحيدة في حقل! إنها...». أشار بيده كأنه يقول: *ها هي! رائعة*... «هل تفهم ما أقوله؟» سألني وهو يلكزني من جديد. لكني كنت لا أزال أكثر ذهولاً من أن أستطيع الرد عليه.

في تلك الأثناء، كان بوريس يتمتم مخاطباً فيتيا بخليط من الإنكليزية والروسية. كان يحدّثه عن *الطائر* وكذلك عن شيء آخر لم أستطع التقاطه تماماً... شيء عن أم وطفل صغير، وعن حب جميل. قال وهو يضع ذراعه على كتفي ويقرب رأسه من رأسي، تماماً مثلما كان يفعل أيام طفولتنا. قال لي: «ألا تزال تتمنّى لو أنك اتصلت بشرطة الفنون؟».

أطلق غيوري ضحكة صاخبة ولكمني على ذراعي الأخرى قائلاً: «لا نزال قادرين على الاتصال بهم!».

نظر بوريس إلى غيوري وقال رافعاً حاجبه: «هذا صحيح يا بوتر، فهل نتّصل بهم؟ لا؟ لعلها لم تعد فكرة حسنة الآن! أليس هذا صحيحاً؟».

11

كان الجميع لا يزال في حالة نشوة عندما وصلنا إلى الموقف ونزلنا من السيارة. كان الضحك مستمراً، وكذلك إعادة رواية أجزاء من قصة ذلك الكمين، بلغات متعددة ـ كان الجميع كذلك، إلا أنا وحدي بقيت صامتاً وبقيتْ أصداء الصدمة تتردد في داخلي: بالنسبة إليّ، كانت التحولات السريعة، والحركات المفاجئة، لا تزال تدوّي في الظلمة فتجعلني مخدَّراً مصدوماً غير قادر على قول شيء.

توقف بوريس في منتصف كلامه ودفعني في ذراعي قائلاً: «انظروا إليه! يبدو كمن فرغ لتوه من أفضل ممارسة جنسية في حياته كلها».

ضحك مني جميعهم، حتى شيري تي. كان العالم كله ضحكات تدوّي وتتكسّر متردّدة أصداؤها المعدنية على الجدران القرميدية؛ جذل وهذيان سوريالي، وإحساس بأن العالم يتضخّم وينتفخ كأنه بالون خيالي راح يطير مرتفعاً إلى النجوم فصرت أضحك مثلهم، لكني لم أعرف ما يضحكني لأنني كنت لا أزال مهزوزاً إلى حد جعل جسمي كله مرتعشاً.

أشعل بوريس سيجارة. كان وجهه مخضرّاً في ذلك الضوء الغريب في موقف السيارات تحت الأرض. قال لي بعطف وهو يومئ برأسه في اتجاه اللوحة: «لفّها بغلافها. وسوف نضعها في خزنة الفندق، ثم نذهب لكي ندبر لك تجربة جنسية حقيقية».

قال غيوري عابساً: «ظننت أننا سوف نأكل أولاً».

«أنت محق فأنا جائع جدّاً. العشاء أولاً، ثم الجنس».

قال تشيري وهو يفتح باب سيارة *الرانج روفر*: «مطعم *بليك*، هل نلتقي هناك بعد ساعة؟».

«يبدو هذا حسناً».

قال شيري تي وهو يجذب ياقة قميصه الذي صار مبللاً ملتصقاً به لشدة تعرقه: «أكره أن أذهب هكذا. لكنني راغب في شيء من الكونياك. ذلك الكونياك الذي يبلغ ثمن الزجاجة منه مئة يورو. يمكنني ابتلاع زجاجة كاملة في هذه اللحظة. فكتور تشيرلي... غيوري...». قال لهما شيئاً باللغة الأوكرانية.

قال بوريس في خضم عاصفة الضحك التي انطلقت بعد ذلك: «إنه يخبر فكتور وغيوري بأن عليهما أن يدفعا ثمن العشاء هذه الليلة. سيدفعانه من...». رأيت غيوري يرفع حقيبة المال بحركة ظافرة.

أعقب ذلك صمت قصير. بدا الضيق على غيوري. قال شيئاً لشيرلي

تي، لكن شيرلي ـ ضاحكاً منه حتى بانت غمازتاه العميقتان المدورتان ـ لوح بيده رافضاً كلامه ودفع الحقيبة التي حاول غيوري تقديمها إليه. فتح عينيه على اتساعهما عندما كرر غيوري محاولته.

قال فكتور تشيري منفعلاً: «ني سيتشاس... ليس الآن! نقتسم المال في ما بعد».

قال غيوري: «من فضلك»، وقدَّم إليه الحقيبة مرة أخرى.

«أوه، ماذا بك؟ سنقتسم المال في ما بعد وإلا فسنبقى هنا طيلة الليل!».

قال غيوري بالروسية: «*أريد أن يأخذ شيرلي تي المال!*» جملة بسيطة سهلة قالها بنطق واضح تماماً. استطعت فهمها على الرغم من رداءة لغتي الروسية.

«مستحيل!». قال شيرلي تي بالإنكليزية ثم ألقى ـ في اتجاهي نظرة سريعة حتى يتأكد من أنني سمعته يقولها. فعل ذلك مثلما يفعل طفل في المدرسة معتزاً بمعرفته الإجابة الصحيحة على السؤال.

قال بوريس وقد وضع يديه على خصره وأشاح بوجهه صاخباً: «ماذا بكما؟ ما أهمية أن يحمل الحقيبة في السيارة هو أو أنت؟ سوف يحملها واحد منكما، أليس كذلك؟ نحن كلّنا أصدقاء! ماذا ستفعلان؟». سألهما عندما رأى أن أحداً منهما لم يتحرّك... «هل أتركها على الأرض هنا حتى يجدها ديمتري؟ فليأخذها واحد منكما! من فضلكما!».

مرت فترة صمت طويلة. ظل شيرلي تي واقفاً طاوياً ذراعيه على صدره وهو يهز رأسه بإصرار أمام إلحاح غيوري المتكرّر؛ ثم طرح سؤالاً على بوريس وقد بدا عليه القلق.

أجابه بوريس بصبر نافد: «نعم، نعم، لا مشكلة عندي...». ثم قال مخاطباً غيوري... «هيا، اذهبوا معاً، أنتم الثلاثة».

سأله غيوري: «هل أنت متأكد من أنك لست في حاجة إلى وجودي؟».

«نعم، متأكد تماماً. لقد بذلت ما يكفي من جهد هذه الليلة».
«وهل ستتدبر أمرك؟».
«لا، سوف نمشي معاً، نحن الاثنان!... بالطبع، بالطبع...». قال هذا وهو يشير بيده لمنع غيوري من الاعتراض... «يمكننا تدبّر أمرنا. اذهبوا!». ثم ضحك الجميع، ولوَّح لنا فكتور تشيري وتشيرلي تي وغيوري بأيديهم مودّعين، ثم قفزوا بسيارة *الرانج روفر* وانطلقوا بها. خرجوا إلى بوابة موقف السيارات، ثم انطلقوا من جديد إلى منطقة *أوفرتوم*.

12

قال بوريس وهو يهرش بطنه: «آه... يا لهذه الليلة! أموت جوعاً! فلنخرج من هنا. لكن...». التفت إلى الخلف ناظراً إلى سيارة *الرانج روفر* مبتعدة وقد انعقد حاجباه: «حسناً، لا مشكلة. سنكون بأحسن حال. مسافة قصيرة. المشي سهل من فندقك إلى مطعم *بليك*. وأنت...». قال لي وهو يشير لي برأسه إلى اللوحة: «أنت مهمل! عليك أن تربطها من جديد! لا تكتفِ بحملها ملفوفة هكذا من غير خيط».
أجبته: «صحيح، صحيح». استدرت فوضعت اللوحة على سطح السيارة ورحت أبحث عن الخيط في جيبي.
أتى بوريس من خلفي وقال: «هل يمكنني النظر؟».
أزحت الغلاف اللبادي ووقفنا معاً لحظة غريبة كأننا اثنان من صغار النبلاء الفلامنكيين ينظران إلى لوحة مولد المسيح.
أشعل بوريس سيجارة ونفث الدخان جانبياً... بعيداً عن اللوحة: «كثير من العناء. لكنها تستحقه، أليس كذلك؟».
أجبته: «صحيح». كانت أصواتنا مازحة، لكنها خافتة مكتومة مثل صبيَّيْن يشعران بالضيق في كنيسة.
قال بوريس: «لقد احتفظتُ بها مدة أطول من أي شخص آخر، إذا حسبت الأيام...». ثم تابع، لكن بنبرة مختلفة... «تذكّر ـ إذا أحببت ذلك،

فإنني قادر دائماً على ترتيب أمر ما للحصول على المال. صفقة واحدة فقط، ثم يمكنك أن تنسحب بعدها».

هززت رأسي ولم أجبه بشيء آخر. لم أكن قادراً على التعبير عن إحساسي بالكلمات على الرغم من أنه كان إحساساً عميقاً أساسياً شاركني ويلتي إياه، وشاركته إياه، عندما كنا في المتحف معاً قبل مرور تلك السنين كلها.

قال بوريس وهو يمر بأصابعه على كمّي: «كنت أمزح. حسناً...! لكن، لا، اللوحة ملكك أنت، بكل معنى الكلمة. لا يستطيع أحد منازعتك عليها. لماذا لا تحتفظ بها فترة من الزمن قبل أن تعيدها إلى جماعة المتحف؟».

بقيت صامتاً. بالفعل، كنت أتساءل في نفسي عن طريقة واضحة تسمح لي بإخراجها من هولندا.

«هيا، اربطها! يجب أن نخرج من هنا. انظر إليها قدر ما تشاء، لكن في ما بعد. أوه، أعطني هذا...». قال ذلك وهو يختطف الخيط من بين يديَّ الخرقاوين لأنني كنت لا أزال أبحث عن نهايتيه... «هاتها. دعني أربطها أنا، وإلا بقينا هنا طيلة الليل».

13

صارت اللوحة مغلّفة، مربوطة، فدسّها بوريس تحت إبطه وسار ـ آخذاً نفساً أخيراً من سيجارته ـ دائراً حول السيارة متجهاً إلى جهة السائق. كان موشكاً على الجلوس في المقعد عندما جاء من خلفنا صوت ذو لكنة أميركية يقول بنبرة عادية بدت لي ودية: «عيد ميلاد سعيد».

استدرت فرأيت ثلاثة أشخاص. رجلان متوسطا العمر يسيران بخطوات متكاسلة بطيئة مقتربين منا بطريقة بدت لي متردّدة بعض الشيء. كان لهما مظهر من هو آتٍ لكي يسدي إلينا جميلاً ـ لم تكن تحيتهما موجهة إليّ، بل إلى بوريس. بدا عليهما السرور لرؤيته! ثم رأيت الصبي الآسيوي

سائراً بخفة متقدّماً إياهما قليلاً. لم يكن رداؤه الأبيض مئزر عامل مطبخ مثلما خُيّل لي عندما رأيته في المطعم. لم يكن كذلك على الإطلاق، بل شيئ غير منسجم مصنوع من صوف أبيض تكاد تبلغ ثخانته إنشاً. رأيته يرتجف وقد ازرقّت شفتاه ذعراً. كان الصبي غير مسلح، أو هكذا بدا لي، وهو ما اعتبرته أمراً حسناً لأن أول ما شد انتباهي في الرجلين الآخرين ـ رجلين ضخمين، جادَّين ـ كان اللمعان المعدني المزرق لمسدسيهما تحت ضوء النيون المرتجف. لم أفهم الأمر حتى في تلك اللحظة ـ لقد ضللني الصوت الودود؛ وظننت أنهما أمسكا بالصبي فأتيا به إلينا، إلى أن نظرت إلى بوريس فرأيته قد سكن تماماً وابيضّ لونه حتى صار كالطباشير.

قال الأميركي لبوريس: «يؤسفني أن أفعل هذا بك». لكن نبرة صوته لم تحمل أي أسف... بل كانت مسرورة في واقع الأمر. كان رجلاً عريض المنكبين يبدو عليه الضجر. وكان في معطف رماديٍّ ناعم. وعلى الرغم من سنّه، فقد لمحت فيه شيئاً من مظهر طفل بريء مشاكس زائد النضج... يدان بيضاوان ولطف ناعم كما لدى بعض المديرين.

ظل بوريس متجمّداً في مكانه. وظلت السيجارة في فمه: «مارتن؟».

قال مارتن بنبرة لطيفة: «نعم. مرحباً!». بينما اتجه الرجلٍ الآخر مباشرة إلى بوريس ـ بلطجي أشقر رمادي في معطف ذي صفّين من الأزرار. كانت تقاطيع وجهه خشنة كأنه صورة من فولكلور بلاد الشمال. مدّ يده إلى خصر بوريس وأخذ مسدسه فناوله إلى مارتن. نظرت حائراً إلى الصبي ذي الرداء الأبيض فوجدته كمن تلقى ضربة بمطرقة على رأسه. لم يبدُ لي مسروراً بأكثر مما كنت.

قال مارتن: «أعرف أن هذا سيئ بالنسبة إليك. لكن... واو...». كان صوته اللطيف المنخفض على تضاد مفاجئ مع نظرة عينيه التي أحسستها أشبه بفحيح ثعبان... «اسمع! هذا سيئ بالنسبة إليَّ أيضاً. كنت مع فريتز في مطعم بيم. ولم نتوقّع أن نخرج منه. طقس بشع، أليس كذلك؟ أين عيد الميلاد الأبيض؟».

قال بوريس: «ماذا تفعل هنا؟»، كان في حالة خوف لم أره في مثلها من قبل، على الرغم من سكونه الشديد.

هز مارتن كتفيه هزة ساخرة: «وماذا تظن؟ لقد فوجئت مثلما فوجئت أنت... إن كان هذا يغيّر شيئاً! لم يكن ممكناً لي أبداً تصور أن ساشا لديه الشجاعة الكافية لأن يسرق هذا الشيء من هورست. لكن... وماذا؟ فاشل مثل هذا، لا يمكنه أن يسرق أحداً آخر، على ما أظن! أعطنا إياها...». قال هذا مع إشارة ودية بالمسدس فأدركت أن مسدسه كان مصوباً إلى بوريس وأنه أشار به إلى اللوحة المغلّفة باللباد تحت إبطه... «هيا. هاتها».

هز بوريس رأسه ليزيح الشعر عن عينيه وقال: «لا».

رفرفت عينا مارتن بنوع من الارتباك المفاجئ: «ماذا قلت؟».

«لا».

ضحك مارتن: «ماذا؟ أتقول لي لا؟ هل تسخر مني؟».

قلت متلعثماً وأنا واقف، متجمّداً من الرعب لرؤيتي الآخر الذي كان اسمه فريتز يضع مسدسه على صدغ بوريس ثم يمسكه من شعره ويشد رأسه إلى الخلف بعنف جعله يئن: «بوريس! أعطهم إياها».

قال مارتن بلطف وهو ينظر إليَّ نظرة سريعة كأننا زميلان، كما لو أنه يقول: *انظر، هؤلاء الروس... حمقى؛ ألست محقّاً*؟ ثم قال لي: «أعرف...». قال لبوريس: «هيا! أعطنا إياها».

أنّ بوريس من جديد عندما جذب الرجل رأسه مرة أخرى ونظر إليّ من الناحية الأخرى من السيارة نظرة لا يمكن أن أخطئ فهمها... نظرة أفهمها بكل وضوح كما لو أنه ينطق الكلمات بصوت مرتفع... حركة سريعة مع إغماضة للعين أعرفها منذ أيام كنا نسرق من المتاجر: *اهرب يا بوتر، اهرب!*

قلت بعد لحظة صمت غير مصدّق: «بوريس! من فضلك، أعطهم إياها».

لكن بوريس لم يفعل إلا أن أطلق أنّة أخرى، أنّة يائسة، عندما ضغط فريتز بفوهة المسدس تحت ذقنه، وتقدّم مارتن ليأخذ اللوحة من تحت إبطه.

قال مارتن بصوت مرح: «ممتاز. أشكرك على هذا». ثم دسّ المسدس تحت ذراعه وبدأ يحاول فك الخيط الذي كان بوريس قد عقده عقدة محكمة عنيدة. لم تكن أصابعه تعمل على نحو حسن. كنت قد أدركت السبب عندما مد يديه ليأخذ اللوحة: لقد تناول جرعة كبيرة. «على أيّ حال...»، قال مارتن هذا وألقى نظرة إلى الخلف كما لو أنه أراد أن يسمع نكتته أصدقاءٌ غير موجودين، ثم نظر إلى بوريس مرة أخرى ورفع كتفيه بحركة ساخرة... «إنني آسف. خذهما إلى هناك يا فريتز». أومأ برأسه في اتجاه زاوية موقف السيارات الشبيهة بالزنزانة وهو لا يزال مشغولاً بمحاولة فك اللوحة. كانت تلك الزاوية أكثر ظلمة من بقية المكان. وعندما استدار فريتز عن بوريس نصف استدارة لكي يشير لي بالمسدس ـ*هيا، هيا، أنت أيضاً*ـ أدركت وقد انتابني ذعر صقيعي ما أدرك بوريس أنه سيحدث منذ أن شاهدهما: أدركت السبب الذي جعله يريدني أن أهرب، أو أن أحاول الهرب على الأقل.

خلال نصف اللحظة الذي كان فريتز خلاله يشير لي بالمسدس، لم يكن أحد منّا جميعاً منتبهاً إلى بوريس الذي اندفعت سيجارته مطلقة شلالاً من شرر. زعق فريتز وصفع خده، ثم تراجع بخطوة متعثّرة ممسكاً بياقته حيث استقر عقب السيجارة عند عنقه. وفي اللحظة نفسها، رفع مارتن رأسه بعد أن كان مشغولاً باللوحة. كان قبالتي مباشرة. وكنت لا أزال مستمراً في النظر إليه عاجزاً من فوق سقف السيارة عندما سمعت الصوت إلى يميني: ثلاثة انفجارات سريعة جعلتنا نلتفت سريعاً. ومع الطلقة الرابعة (أجفلت وأغمضت عيني)، اندفع رشاش من الدم من فوق سطح السيارة وأصابني في وجهي. عندما فتحت عيني من جديد رأيت الصبي الآسيوي يتراجع مذعوراً واضعاً يده على جبهته التي غطتها بقعة

مدمّاة. حدقت في اللافتة المضاءة حيث كان رأس بوريس. كان الدم يسيل من تحت السيارة. وكان بوريس على الأرض مستنداً إلى مرفقيه. رأيت قدميه تتحركان عندما حاول أن ينهض عن الأرض، لكنني لم أستطع معرفة إن كان مصاباً أم لا. لا بد أنني جريت باتجاهه من غير تفكير لأنني وجدت نفسي بعد ذلك إلى الناحية الأخرى من السيارة محاولاً مساعدته في النهوض. كان الدم في كل مكان. وكان فريتز متكوّماً على الأرض مستنداً إلى جسم السيارة وفي رأسه ثقب بحجم كرة البيسبول. كنت قد لاحظت مسدس فريتز الذي سقط على الأرض عندما سمعت بوريس ينبّهني بصوت حاد، ورأيت مارتن قادماً وقد ضاقت عيناه وظهرت على كمه بقعة دم. كان يدسّ يده تحت ذراعه محاولاً إخراج مسدسه.

حدث الأمر حتى قبل أن يحدث... مثلما يقفز قرص (دي في دي) أحياناً قفزة إلى الأمام فينقلني لحظة في الزمن؛ لأنني لا أتذكّر أبداً أنني التقطت المسدس عن الأرض. لا أتذكّر إلا رجّة قوية طوحت بذراعي في الهواء. لم أدرك أنني سمعت صوت الانفجار إلا بعد تلك الرجّة، وبعد أن طارت الطلقة الفارغة إلى الخلف فأصابتني في وجهي. أطلقت النار من جديد. كانت عيناي مغمضتين في ذلك الضجيج. وكانت ذراعي ترتج مع كل طلقة لأن زناد المسدس كان يقاومني، كان قاسياً كما لو أنني أشد مزلاج باب شديد الثقل. تطاير زجاج نافذة السيارة. وصار مارتن على مسافة ذراع مني. حطام زجاج السيارة، وفتات أسمنتي متطاير من أحد الأعمدة. لقد أصبت مارتن في كتفه ورأيت قماش معطفه الرمادي الناعم مخضّلاً بالدم، قاتماً، وبقعة داكنة تنتشر عليه. رائحة البارود، وصدى الصوت المصِمّ، دفعاني عميقاً داخل جمجمتي، فما عاد ذلك صوتاً حقيقياً يضرب طبلتَي أذنيَّ، بل جدارٌ يصطدم بعقلي عنيفاً ويعيدني إلى قلب ظلمة داخلية قاسية مقيمة في داخلي منذ طفولتي. عينا مارتن الثعبانيتان تنظران في عينيّ. رأيته منحنياً إلى الأمام مسنداً مسدسه إلى

سقف السيارة، فأطلقت النار من جديد وأصبته فوق عينه. انفجار أحمر جعلني أتراجع مجفلاً. وعندها، سمعت في مكان ما خلفي صوت أقدام جارية تصفع الأرضية الأسمنتية: إنه الصبي في ثوبه الأبيض، يجري صوب بوابة الخروج حاملاً اللوحة تحت ذراعه. كان مندفعاً في اتجاه الشارع؛ وكانت أصداء خطواته تتردّد على الجدران. أطلق النار عليه، لكن اللحظة كانت لحظة مختلفة تماماً، وكنت أستدير مبتعداً عن السيارة عندما وجدت نفسي أنحني واضعاً يدي على ركبتي وصار المسدس على الأرض. لا أتذكر أنني أسقطته. لكني سمعت الصوت. سمعت قعقعته على الأرض، ثم ظللت أسمعها وأسمع الأصداء كلها وأشعر باهتزاز المسدس لا يزال يسري في ذراعي. انطويت على نفسي موشكاً على التقيؤ؛ وكان طعم دم فريتز يتلوى زاحفاً على لساني.

صوت أقدام تجري آتيةً من الظلمة. ومن جديد، لم أستطع الرؤية، ولم أستطع الحركة. كان كل شيء أسود اللون، إلى اليمين وإلى اليسار. كنت أسقط، حتى مع أنني لم أكن أسقط. فقد وجدت نفسي ـ على نحو ما ـ جالساً على امتدادٍ منخفض لجدار مكسوٍّ بالبلاط وقد وضعت رأسي بين ركبتيَّ ورحت أنظر إلى بصاق أحمر اللون، أو قيء أحمر اللون، على الأرض الأسمنتية الوسخة المطلية بالإيبوكسي بين حذائي والمكان الذي كان فيه بوريس... هناك كان بوريس، مبهور الأنفاس، مدمّى، يجري عائداً وقد خفض رأسه. سمعته يقول بصوتٍ آتٍ من مسافة مليون ميل: بوتر، *هل أنت بخير؟ لقد ذهب. لم أستطع الإمساك به. لقد هرب.*

مررت بيدي على وجهي، ثم نظرت إلى البقعة الحمراء التي ظهرت عليها. كان بوريس لا يزال يكلمني بإلحاح واستعجال. كان يهزّ كتفي، لكني لم أسمع شيئاً من كلامه، حركة شفاه فقط، شيء لا معنى له أراه عبر زجاجٍ كاتمٍ للصوت. كانت رائحة دخان المسدس الذي أطلقت النار منه شبيهةً على نحو غريب برائحة الأمونيا المنعشة التي تنبعث من عواصف

مانهاتن الرعدية وأرصفة المدينة الرطبة. نتف من دماغ مارتن على باب سيارة ميني كوبر زرقاء. وعلى مسافة أقرب، بقعة صقيلة لامعة تأتي زاحفة من تحت سيارة بوريس. كان اتساعها نحو ثلاث أقدام؛ وكانت تتّسع وتتقدّم كالأميبا[1]. كم يطول الوقت قبل أن تبلغ حذائي؟ وماذا أفعل عندما تبلغه؟

بقوة، لكن من غير غضب، لكمني بوريس بقبضة يده على جانب رأسي: ضربة لا مشاعر فيها ولا حرارة على الإطلاق. كما لو أنه يقوم بإجراء طبي إنعاشي.

قال لي: «هيا بنا». ثم أضاف مع إيماءة قصيرة من رأسه... «نظارتك».

نظارتي. كانت نظارتي على الأرض عند قدمي، ملطخة بالدم، غير مكسورة. لم أتذكر أنها سقطت عن وجهي.

التقطها بوريس بنفسه، ومسحها بكمّه، ثم ناولني إياها.

أمسك بذراعي وشدّني لكي أنهض. قال لي: «هيا بنا». كان صوته متزناً، مستقراً، مريحاً، مهدّئاً، لكني رأيته ملطخاً بالدم وأحسست بيديه مرتعشتين: «انتهى كل شيء الآن. لقد أنقذتنا».

كان صوت المسدس قد أطلق في أذني طنيناً شديداً كما لو أن سرباً من جراد قد استقر داخل رأسي... «لقد تصرّفت جيداً. والآن... تعال، أسرع». قادني إلى خلف المكتب ذي الواجهة الزجاجية الذي كان مقفلاً ومظلماً، كانت على معطفي بقعة دم فخلعه بوريس عني مثلما يفعل موظف عند نقطة استلام المعاطف في مطعم. قلَبَه وعلّقه على عمود إسمنتي.

اعترته رعشة عنيفة قال بعدها: «علينا أن نتخلّص من هذه الأشياء. القميص أيضاً. ليس الآن، في ما بعد. تعال معي الآن». فتح باباً فدفعني فيه ودخل خلفي وأنار المصباح... «هيا... هيا!».

حمام رطب فاحت منه رائحة بول متراكمة. لم أر فيه مغسلة... صنبور ماء عار، ومصرف ماء في الأرض.

---

(1) أميبا (amoaba): نوع من وحيدات الخلية يتغير شكله باستمرار.

فتح بوريس الصنبور إلى أقصاه. قال لي: «بسرعة. بسرعة. إننا لا نبحث عن الكمال. فقط. أوو...». كشّر عندما أدخل رأسه تحت الصنبور، فغسل وجهه ونظّف راحتي يديه.

وجدت نفسي أقول: «ذراعك». كانت في وضع غير طبيعي.

«نعم، نعم». الماء البارد يتطاير في كل اتجاه، تتطاير نقاطه في الهواء... «لقد أصابني قليلاً. ليست إصابة سيئة. مجرد خدش، لا أكثر ـ أوه، يا إلهي...». بصق وغمغم قائلاً... «كان عليَّ أن أصغي إليك. لقد حاولتَ إخبارنا ـ قلتَ... بوريس، هناك شخص في الخلف! إنه في المطبخ! فهل أصغيت إليَّ؟ هل انتبهت إلى ما قلتَه؟ لا، لم أعِرْ كلامك اهتماماً! ذلك القذر الصغير. الفتى الصيني... إنه عشيق ساشا. اسمه وو، وو، لست قادراً على تذكّر اسمه». وضع رأسه تحت تيار الماء من جديد، ودعكه بيديه لحظة بينما كان الماء منساباً على وجهه... «لقد أنقذتنا يا بوتر. ظننت أننا ميتان...».

انتصب واقفاً ودعك وجهه بيديه. وجه محمَرٌّ، وماء يقطر منه. قال وهو يمسح الماء عن عينيه، ثم ينفضه عن يديه ويدفعني في اتجاه الصنبور المتدفق: «لا بأس. دورك الآن. ضع رأسك تحت الماء. نعم، أعرف أنه بارد!...». دفع برأسي تحت التيار عندما رآني أجفل مبتعداً... «آسف، أعرف. اغسل يديك ووجهك».

ماء بارد كالجليد. برودة خانقة. أحسست الماء يصعد في أنفي. لم أحسّ برداً مثل هذا من قبل. لكن الماء جعلني أصحو وأستعيد وعيي بعض الشيء.

جذبني بوريس إلى الأعلى وقال: «أسرع، أسرع. بدلتك داكنة اللون... لا يظهر شيء عليها. ولا نستطيع أن نفعل شيئاً من أجل القميص. ارفع ياقتك، هكذا. دعني أرفعها لك. الوشاح في السيارة. يمكنك أن تلفه على رقبتك. لا، لا، انسَ أمره». كنت أرتجف وأحاول التقاط معطفي بعد أن

راحت أسناني تصطك برداً. كان نصفي الأعلى غارقاً كله بالماء... «لا بأس، البسه، سوف تتجمّد. عليك أن تبقيه مقلوباً، البطانة إلى الخارج».

قلت له: «ذراعك». كان معطفه داكن اللون، وكانت الإنارة سيئة، لكني رأيت منطقة محروقة عند عضده... صوف أسود جعله الدم لزجاً.

«انس أمرها. هذا لا شيء. يا إلهي، بوتر...». عدنا في اتجاه السيارة بخطوات سريعة تكاد تكون جرياً. أسرعت حتى ألحق به وقد أرعبتني فكرة فقدانه، فكرة أن أظل وحدي... «مارتن... ابن الحرام هذا مصاب بحالة شديدة من السكّري. كنت آمل أن يموت منذ سنين. لكنه مات الآن، وأنا مدين لك بهذا!». قال هذه الكلمات وهو يدسّ المسدس ذا الأنف الأفطس في جيبه. أخرج من جيب سترته العلوي كيساً فيه مسحوق أبيض ففتحه ونثر محتوياته.

قال: «هكذا...». تراجع خطوة إلى الخلف وصفّق بيديه ليزيل ما علق بهما من مسحوق. كان أبيض اللون كالرماد؛ وكان بؤبؤا عينيه ثابتين فبدا كما لو أنه لا يراني، حتى عندما نظر إليّ... «هذا كل ما سيبحثون عنه. سيجدون أنه كان يحمل معه هذه المادة. لقد كان مخدَّراً تماماً؛ ألم تلاحظ؟ هذا ما جعله بطيئاً هكذا... هو وفريتز أيضاً. لم يتوقعا ذلك على الإطلاق؛ لم يتوقعا أن يخرجا إلى العمل الليلة». أغمض عينيه بشدة... «يا إلهي! لقد كنّا محظوظين». كان متعرّقاً، شديد الشحوب. مسح جبهته... «مارتن يعرفني، ويعرف أنني أحمل مسدساً. لكنه لم يتوقّع أن يكون لديَّ ذلك المسدس الصغير الآخر. وأنت... لم يحسبا حسابك على الإطلاق. اصعد إلى السيارة!... لا، لا...». أمسك بذراعي. كنت سائراً خلفه إلى ناحية باب السائق كأنني سائر في نومي... «لا تأتِ إلى هنا، فالأرض متسخة...». وقف متجمّداً في مكانه؛ ومر زمن أحسسته دهراً في ذلك الضوء المتراقص المخضرّ قبل أن ينحني ويلتقط مسدسه عن الأرض. مسحه جيداً بقطعة قماش أخرجها من جيبه. ظل ممسكاً به داخل قطعة القماش إلى أن فرغ من تنظيفه، ثم أسقطه على الأرض.

قال محاولاً التقاط أنفاسه: «سوف يربكهم هذا ويحيّرهم. سيمضون سنوات في محاولة تعقب هذا المسدس». توقف ممسكاً بذراعه الجريحة. نظر إليَّ وقال: «هل تستطيع قيادة السيارة؟».

لم أستطع الإجابة. كنت مرتجفاً تائهاً. بعد تجمّد اللحظة وتضاربها، بدأ قلبي ينبض وكانت ضرباته قاسية حادة مؤلمة كأنها قبضة يد تضربني في منتصف صدري.

سرعان ما هزّ بوريس رأسه وأطلق صوت استياء. قال لي عندما تحرّكت قدماي من غير إرادتي وسارتا خلفه من جديد: «إلى الناحية الأخرى، لا، لا!». قادني فالتفَّ بي حول السيارة وفتح لي الباب ثم دفعني لكي أجلس.

غارقاً بالماء. مرتجفاً. مصاباً بالغثيان. على الأرض: علكة *ستيمورول*. خريطة للطرق: *فرانكفورت أوفنباخ هاناو*.

ذهب بوريس إلى الجهة الأخرى من السيارة وتفقّد مظهرها من الخارج، ثم عاد مسرعاً إلى جهة السائق. سار متعرّجاً بعض الشيء محاولاً ألّا يدوس في بركة الدم. جلس خلف المقود وأمسكه بيديه الاثنتين. ثم استنشق نفساً عميقاً.

أطلق نفَسَه ببطء، ثم قال محدثاً نفسه كما يفعل طيار موشك على الإقلاع في مهمة: «لا بأس. ضع الحزام. أنت أيضاً. مصباح إشارة الفرامل يعمل! الأنوار الخلفية!». جعل المقعد يرتفع قليلاً، ثم شغل التدفئة ورفعها إلى الحد الأقصى... «لدينا وقود كثير ـ جيد. مقاعد مدفَّأة أيضاً ـ سوف تدفئنا. لا يمكن أن نجعل أحداً يوقفنا...». ثم قال موضحاً... «لأنني لا أستطيع القيادة».

أصوات صغيرة كثيرة: طقطقة المقعد الجلدي، وماء يقطر من كم معطفي المبتل.

سألته في ذلك الصمت الشديد الرنان: «كيف لا تستطيع القيادة؟».

قال كمن يدافع عن نفسه: «حسناً، أستطيع القيادة. لكن لديَّ...» أدار المحرك وتراجع بالسيارة إلى الخلف واضعاً يده على ظهر المقعد... «حسناً، في رأيك، لماذا يعمل لديَّ سائق؟ هل أحب تدليل نفسي إلى هذا الحد؟ لا!». رفع إصبعه... «لقد تلقيت حكماً بالمنع من قيادة السيارة نتيجة القيادة في حالة سكر».

أغمضت عينيَّ حتى لا أرى الجسدين المدمَّيَيْن على الأرض عندما مررنا بهما.

«لذا، كما ترى، إذا أوقفونا لأي سبب، فسوف يأخذونني إلى السجن. وهذا ما لا نريد حدوثه...». كاد الطنين العنيف في رأسي يمنعني من سماع ما يقوله... «عليك أن تساعدني. انتبه إلى إشارات الطريق، ونبهني حتى لا أقود السيارة في الحيز المخصص للباصات. الحيز المخصص للدراجات أحمر اللون هنا، ولا تجوز قيادة السيارة عليه أيضاً. لذا، ساعدني في الانتباه إليهما».

صرنا في أوفرتوم من جديد عائدين في اتجاه أمستردام: *لوكسميث سلوتلكلويس؛ فاكات تورس، ديجيتال برينتن، حاجي تليكوم، أون بيركيت جينيتن*. وحروف عربية، وأضواء تطير إلى الخلف. كان شيئاً أشبه بكابوس. لن أتخلّص من هذا الطريق اللعين أبداً.

قال بوريس متجهماً: «يا إلهي، من الأفضل أن أخفّف السرعة...». بدا بائساً، خائر القوى... «*تراجكتكونترول*. ساعدني في الانتباه إلى لافتاتها».

بقعة دم على ياقة كمّي. قطرات كبيرة، ضخمة.

«*تراجكتكونترول*. تشير هذه الكلمة إلى أجهزة تخبر الشرطة بأنك تسير بسرعة زائدة. وهم يقودون سيارات عادية، الكثيرون منهم. وهم يتبعونك أحياناً مسافة غير قليلة قبل أن يوقفوك آخر الأمر. لكن حظنا حسن لأن الزحام ليس كثيراً على هذا الطريق في الليل. أظن السبب

هو أننا في عطلة نهاية الأسبوع... وعطلة عيد الميلاد. لا أظن أن هذه المنطقة تحتفل كثيراً بعيد الميلاد... إن كنت تفهم ما أعنيه!». ثم التقط أنفاسه وقال لي وهو يدعك أنفه بقوة... «أنت تدرك ما حدث قبل قليل، أليس كذلك؟».

«لا»... شخص آخر يتكلّم. ليس أنا!

«حسناً... إنه هورست. هذان الرجلان يعملان مع هورست. ولعل فريتز الشخص الوحيد في أمستردام الذي يعرف هورست كيف يستدعيه خلال هذه الفترة القصير؛ وأما مارتن... اللعنة...». كان يتكلّم بسرعة شديدة ومن غير تركيز. كانت عيناه ساكنتين محدّقتين. تطايرت الكلمات من فمه بسرعة كبيرة جداً... «من كان يعرف حتى أن مارتن موجود في المدينة؟ هل تعرف كيف حصل اللقاء بين هورست ومارتن؟...». قال هذا ملتفتاً صوبي نصف التفاتة... «في مصحّة للأمراض العقلية! مصحّة أمراض عقلية فاخرة في كاليفورنيا! كان هورست يدعوها ' *فندق كاليفورنيا* ' ! حدث هذا عندما كانت عائلة هورست لا تزال مهتمة به. دخل هورست المصحّة من أجل إعادة التأهيل؛ أما مارتن فكان فيها لأنه مجنون حقاً، مجنون بكل معنى الكلمة. لقد رأيت مارتن يفعل أشياء لا أحب الحديث عنها أبداً. إنني...».

«إن ذراعك...». كانت تؤلمه. دموع في عينيه.

كشَّر بوريس قليلاً: «لا. هذا لا شيء. هذا صِفر. آها...». قال هذا ورفع مرفقه حتى أتمكن من ربط كابل شاحن الهاتف حول ذراعه ـ لففته مرتين على ذراعه، فوق الجرح، ثم ربطته بأشد ما استطعت ـ «أنت ذكي. احتياط جيد. أشكرك! لكن، لا ضرورة له في حقيقة الأمر. إنه مجرد سحجة، لا أكثر. أظن أن المسألة لا تتجاوز كونها كدمة أصابت ذراعي. من حسن حظي أن هذا المعطف ثقيل. سأنظّف المنطقة... مضاد حيوي وشيء لتخفيف الألم. سأكون بخير. إنني...». نفسٌ عميقٌ مرتجف...

«إنني في حاجة للعثور على غيوري وتشيري. آمل أن يكونا قد ذهبا مباشرة إلى مطعم *بليك*. ديمتري... يجب تنبيه ديمتري أيضاً بخصوص ما تركناه له في موقف السيارات. لن يعجبه هذا... ستأتي الشرطة إليه. سيسببّون له صداعاً كبيراً. لكن الأمر سيبدو حادثة عشوائية. ليس فيها ما يشير إلى أن لديمتري أية صلة بها».

أضواء السيارات تمر سريعاً. والدم يصخب في أذني. لم تكن السيارات كثيرة على الطريق. لكنني كنت أجفل كلما مرت واحدة.

ارتجف بوريس ومسح وجهه بكف يده. كان يقول شيئاً بسرعة وانفعال كبيرين.

«ماذا تقول؟».

«لقد قلت لك... هذه فوضى. لا أزال أحاول فهم ما حدث...». صوته متقطّع ومتكسّر... «لأن ـ هذا ما أفكّر فيه الآن ـ قد أكون مخطئاً. وقد أكون مفرطاً في الارتياب. لكن، لعلّ هورست كان يعرف بالأمر منذ البداية! لعلّه كان يعرف أن ساشا أخذ اللوحة. كل ما في الأمر هو أن ساشا أخرج اللوحة من ألمانيا وحاول رهنها واقتراض المال من وراء ظهر هورست. وعندما ساءت الأمور، أصيب ساشا بالذعر... فبمن يمكنه أن يتصل؟ بالطبع، أنا أفكر بصوت مرتفع ـ هذا كل ما في الأمر ـ ولعل هورست لم يكن يعرف أن ساشا قد أخذ اللوحة. ولعله ما كان ليعرف أبداً لولا أن ساشا بلغ من الغباء والإهمال حداً جعله...». قال بوريس فجأة... «اللعنة على هذا الطريق الدائري...»، لقد خرجنا من *أوفرتوم* وبدأنا ندور... «ما الاتجاه الذي يجب أن آخذه؟ منعطف في اتجاه *ناف*».

نظرت من حولنا فرأيت كلمات لم أفهم شيئاً منها، وكلمات لم أستطع قراءتها.

«أوه، إلى الجحيم. سوف نجرب هذا الطريق. يا إلهي... إنه مغلق».

قال بوريس هذا وهو ينعطف بقوة جعلت السيارة تنزلق قليلاً... «إن لديك عقلاً يا بوتر. فريتز... لقد استطعتُ إخراج فريتز من الأمر بسهولة. أما مارتن... يا إلهي. وعندها، أنت... اتضح أنك شجاع جدّاً! هورا! لم أتوقّع منك فعل شيء. لكنك فعلت! قل لي، هل أمسكت مسدساً من قبل؟».

أجبته: «لا». شوارع مبللة سوداء.

«سأخبرك شيئاً قد يبدو لك غريباً. لكن... الأمر معقّد. أنت تطلق النار مثل البنات. هل تعرف السبب الذي يجعله معقّداً؟ هذا لأن...». كان في صوت بوريس تقطع محموم كأن دواراً أصابه... «في حالات الخطر، يكون الاختلاف بين الذكر الذي لم يطلق النار وبين الأنثى التي لم تطلق النار من قبل، هو أن الأنثى من المحتمل أكثر أن تصيب هدفها ـ هكذا كان يقول بوبو. فماذا عن أكثر الرجال؟ يريد الرجل أن يبدو قوياً... لقد شاهد أفلاماً كثيرة... فيبالغ في الثقة في نفسه ويطلق النار بأسرع مما يجب... اللعنة، ما هذا؟». قالها بوريس فجأة وهو يضغط على المكابح.

«ماذا حدث؟».

«نحن لا نريد هذا».

«لا نريد ماذا؟».

«هذا الطريق مغلق». بدأ يرجع بالسيارة إلى الخلف ليخرج من ذلك الشارع.

أعمال بناء. أسيجة تقف من خلفها بلدوزرات؛ وبنايات خالية يغطي نوافذها نايلون أزرق. أكداس من الأنابيب، وكتل إسمنتية، وكتابات على الجدران باللغة الهولندية.

سألته في الصمت المشلول الذي أعقب ذلك: «ماذا سنفعل؟». كنا قد دخلنا شارعاً آخر بدا لي أنه غير منار على الإطلاق.

«حسناً... لا وجود هنا لجسر نستطيع عبوره بالسيارة. وهذا الشارع مسدود أيضاً. لذا...».

«لا، أعني... ما الذي سنفعله؟».

«في شأن ماذا؟».

كانت أسناني تصطك بقوة جعلتني شبه عاجز عن نطق الكلمات: «أنا... بوريس... لقد انتهى أمرنا».

«لا! لم ينته أمرنا. هذا مسدس غروزدان؟». ربّت على جيب معطفه بحركة خرقاء... «سوف ألقيه في القنال. لا يمكنهم الوصول إليَّ من خلاله إن كانوا غير قادرين على الوصول إليه. وما من شيء آخر يربطنا بالأمر كلّه. ماذا عن مسدسي؟ نظيف. ليس له رقم متسلسل. بل إن إطارات السيارة جديدة أيضاً! سوف أسلم غيوري السيارة، وسوف يغير إطاراتها الليلة».

قال لي عندما وجد أنني لم أجبه بشيء: «انظر إليّ! لا تقلق! نحن في أمان، هل أقولها لك من جديد؟ أ ـ م ـ ـ ا ـ ن». (رفع أمامي أربع أصابع بعدد حروف الكلمة).

اهتزت السيارة عند عبورها أخدوداً صغيراً في الشارع فأجفلت من غير وعي... ردة فعل خائفة... غطيت وجهي بيديَّ.

«وما الذي يجعلنا آمنين أكثر؟ لأننا صديقان قديمان ـ لأن كل منا يثق بالآخر. وكذلك لأن... أوه، يا ربي! ها هو شرطي. عليَّ تخفيف السرعة».

نظرت إلى حذائي. حذاء. حذاء. حذاء. صرت غير قادر على التفكير في شيء غير أنني انتعلت هذا الحذاء قبل بضع ساعات.

«... لأن... بوتر، بوتر، فكر في هذا. استمع إليَّ لحظة من فضلك. ماذا لو كنتُ شخصاً غريباً، شخصاً لم تكن تعرفه من قبل ولم تثق به؟ ماذا لو كنتَ آتياً من موقف السيارات مع شخص غريب؟ عندها ستكون حياتك معلقة بذلك الغريب. وسيكون عليك أن تأخذ حذرك الكامل من ذلك الشخص طالما بقيت حياً».

يدان باردتان. قدمان باردتان. بار، سوبرماركت، أهرام مضاءة من الفاكهة والحلويات، متجر فيركوب *غيستارت*!

«حياتك، حرّيتك، متوقّفة على ولاء شخص غريب! فماذا تفعل في تلك الحالة؟ نعم. ستقلق. ستكون واقعاً في مشكلة كبيرة جداً. وأما الآن... لا يعرف أحد بما جرى إلا أنا وأنت. حتى غيوري لا يعرف!».

كنت غير قادر على الكلام فهززت رأسي بعنف عندما سمعت هذا. حاولت التقاط أنفاسي.

«من؟ الولد الصيني؟...». صدر عن بوريس صوت موح بالتقزز... «ومن سيخبر؟ إنه قاصر. وهو ليس مقيماً بصورة قانونية. كما أنه لا يعرف اللغة».

ملت إلى الأمام قليلاً. كان لديَّ إحساس بأنني موشك على فقدان الوعي: «بوريس، إن اللوحة معه».

كشَّر بوريس ألماً: «آه... أخشى أن اللوحة قد ضاعت».

«ماذا؟».

«من الممكن أن تكون ضاعت إلى الأبد... يؤلمني هذا... قلبي يتألّم لهذا. لأن ـ لا أحب قولها ـ وو، أوو، بوو، أو مهما يكن اسمه، بعد كل ما رآه...؟ لن يفكر في شيء غير نفسه. سيكون خائفاً حتى الموت! أشخاص قتلى! احتمال ترحيله! لا يريد أن تكون له أية علاقة بالأمر. انسَ أمر اللوحة. لا فكرة لديه عن قيمتها الحقيقية. فماذا إذا وجد نفسه في خطر من ناحية الشرطة؟ لن يحب أن يمضي ولو يوماً واحداً في السجن! لن يكون راغباً في شيء أكثر من التخلص منها. لذا...». رفع كتفيه حائراً... «فلنأمل في أن يتمكّن من الإفلات، ذلك القذر الصغير. ففي غير هذه الحالة، هنالك احتمال كبير لأن ينتهي الأمر بعصفورك في مياه القنال... أو محترقاً!».

أنوار الشارع تلمع على سقوف السيارات المتوقّفة. أحسست كما لو أن وجودي يذوب ويفلت مني؛ كما لو أنني أنفصل عن نفسي. ما كنت قادراً على تخيّل كيف يكون إحساسي عندما أعود إلى جسدي من جديد.

صرنا في المدينة القديمة. ارتجاج السيارة على بلاط الشارع. ضياء ليليٌّ وحيد اللون كأنه آت من لوحة لآيرت فاندر نير، والقرن السابع عشر يقترب مني كأنه وجهان لكل قطعة نقود فضية متراقصة على سطح ماء القنال الأسود.

قال بوريس حزيناً: «آخ... الشارع مغلق». أوقف السيارة من جديد، ثم بدأ يتراجع بها... «علينا العثور على طريق آخر».

«هل تعرف أين نحن الآن؟».

قال بوريس بصوت مبتهج منفصل عمَّ نحن فيه انفصالاً أفزعني: «بالطبع، أعرف! ها هي قناتك، هناك. قناة هيرن *كراخت*».

«أي قناة؟».

قال بوريس كما لو أنني لم أقل شيئاً: «التجوّل في أمستردام أمر سهل. ففي المدينة القديمة، ليس عليك إلا أن تتبع القنوات ـ أوه، يا ربي، لقد أغلقوا هذا الشارع أيضاً». اتدرّجات صوتية. ظلمات متجدّدة على نحو غريب. القمر الشبحي الصغير فوق منحنيات قبة الجرس... بدا لي قمراً صغيراً جداً كأنه قمر كوكب آخر: ضبابيٌّ غامض، وخيالات غيوم لا تنيرها إلا مسحة طفيفة من الأزرق والبنّي.

«لا تقلق. يحدث هذا باستمرار. تراهم دائماً يبنون شيئاً ما هنا. حالة فوضى إنشائية كبيرة. أظن أن هذا كله من أجل خط مترو جديد، أو شيء من هذا القبيل. الجميع منزعج منه. وهناك اتهامات كثيرة بالاحتيال والفساد. الأمر نفسه في كل مدينة، أليس كذلك؟». كان صوته ضبابياً مشوَّشاً فبدا كما لو أنه ثمل... «أعمال طرق في كل مكان؛ وسياسيون يغتنون! هذا ما يجعل الجميع يستخدم الدراجات، لأنها أكثر سرعة... إلا أنا... آسف، فلن أقود دراجة إلى أي مكان خلال الأسبوع الذي يسبق عيد الميلاد. أوه، لا...». جسر ضيق، ثم توقّفنا في نهاية صف من السيارات... «هل سنتحرك؟».

توقّفنا عند جسر للمشاة. قطرات وردية ظاهرة على نوافذ السيارة التي بلّلها المطر. وأناس سائرون جيئة وذهاباً على مسافة قدم واحدة منا.

قال بوريس بصبر نافد قبل أن أتمكّن من استجماع شتات نفسي: «اخرج من السيارة وانظر. أوه، انتظر»... وضع محوّل سرعات السيارة في وضعية الوقوف، ثم خرج بنفسه.

رأيت ظهره في ضوء السيارات التي خلفنا، رأيته واضحاً كأنه صعد إلى خشبة مسرح وسط غمامات من عوادم السيارات.

عاد وجلس في السيارة: «سيارة نقل صغيرة». أغلق الباب بقوة. استنشق نفساً عميقاً، ثم استند بذراعيه إلى مقود السيارة.

«لماذا هي متوقّفة؟». كنت أتلفَّت من جهة إلى أخرى مذعوراً، منتظراً أن ينتبه أحد السائرين في الشارع إلى نقط الدم فيندفع إلى السيارة وينقر على نافذتها، ثم يفتح بابها.

قال بوريس: «كيف لي أن أعرف؟ إن في هذه المدينة اللعينة سيارات كثيرة. انظر...». كان متعرّق الوجه، شاحباً في ضوء المصابيح الخلفية المتوهّجة للسيارة المتوقفة أمامنا. أتت سيارات بعدنا وتوقفت خلفنا، فصرنا محصورين... «من يدري كم من الوقت سنظل عالقين هنا. يقع فندقك على مسافة بضع كتل سكنية من هنا، لا أكثر. من الأفضل أن تذهب سيراً على الأقدام».

«أنا...». هل تبدو قطرات الماء على الزجاج الأمامي حمراء إلى هذا الحد بسبب مصابيح السيارة المتوقّفة أمامنا، أم هو دم حقاً؟

لوّح بيده نافد الصبر وقال لي: «اذهب يا بوتر. لست أعرف ما يحدث عند سيارة النقل الصغيرة المتوقّفة هناك. أخشى أن تأتي شرطة السير. من الأفضل لنا الآن ألّا نكون معاً. من الأفضل أن نكون متباعدين. ابحث عن *هيرنغرافت* ـ لا يمكن أن تخطئها. القنوات هنا على شكل دوائر. أنت تعرف هذا، ألا تعرفه؟ ليس عليك إلا أن تذهب في هذا الاتجاه». أشار بيده... «وسوف تجدها».

«وماذا عن جرح ذراعك؟».

«إنه لا شيء! لو لم يكن ذلك صعباً الآن، لخلعت معطفي حتى أجعلك ترى الجرح. اذهب الآن. يجب أن أتصل مع تشيري...». أخرج هاتفه من جيبه... «قد يكون عليَّ ترك المدينة لفترة من الزمن».

«ماذا؟».

«... لكن، إذا لم يجرِ اتصال بيننا خلال بعضِ الوقت، فلا تقلق. أعرف مكانك. من الأفضل ألا تحاول الاتصال بي هاتفياً، أو التواصل معي. سأعود بأسرع ما يمكنني. سينتهي كل شيء على خير. اذهب ـ نظِّف نفسك ـ ولا تنسَ أن تضع الوشاح على رقبتك. ارفعه عالياً. سوف نتكلّم قريباً. حاول ألّا تبدو شاحباً مريضاً إلى هذا الحد! هل معك شيء؟ هل تريد شيئاً؟».

«ماذا؟».

بحث في جيبه. «ها هو. خذ هذا». مغلّف من ورق لامع شفاف عليه طابع ضاعت ملامحه... «ليس كثيراً، لكنه نقيّ جداً. بحجم رأس عود الكبريت. ليس أكثر! لن يكون الوضع سيئاً عندما تستيقظ. والآن، تذكّر...». كان يطلب رقماً على هاتفه؛ وكنت منتبهاً جداً إلى تنفّسه الثقيل... «ابقِ وشاحك على رقبتك، ارفعه عالياً، وسر في الجانب المظلم من الشارع، بقدر ما تستطيع. اذهب...». صاح بي عندما بقيت ساكناً؛ صاح بصوت مرتفع إلى حد رأيت معه رجلاً سائراً على الجسر يلتفت وينظر في اتجاهنا. «هيا، أسرع... تشيري...». قال هذا وهو يعود إلى جلسته الأولى بارتياح واضح ويبدأ الكلام بالأوكرانية. أما أنا فخرجت من السيارة إلى حيث أحسست نفسي مكشوفاً في خضمّ دفق مروّع من أضواء السيارات الواقفة خلفنا. سرت إلى الخلف، فعبرت الجسر ذاهباً في الاتجاه الذي أتينا منه. كان آخر ما رأيته من بوريس صورته متكلماً في الهاتف وقد أنزل زجاج النافذة قليلاً، ومال برأسه إلى الخارج وسط غيمة كبيرة من عوادم السيارات، محاولاً أن يرى ما يجري عند سيارة النقل المتوقّفة في الأمام.

14

أمضيت الساعة التي تلت ذلك (أو لعلها ساعات) في التجوّل على امتداد حلقات القنوات باحثاً عن فندقي، فكانت ساعة بائسة مثل أية ساعة من ساعات حياتي... ألا يقول هذا شيئاً عني؟

انخفضت درجة الحرارة انخفاضاً واضحاً؛ وكان شعري رطباً وملابسي مبتلة. كانت أسناني تصطك من البرد؛ وكانت الشوارع مظلمة إلى حد يجعلها تبدو متشابهة كلّها، لكنها لم تكن مظلمة إلى الحد الكافي لأن أتجوّل فيها بملابس ملوّثة بدم رجل قتلته قبل قليل. سرت في الشوارع السوداء؛ سرت سريعاً. والغريب في الأمر أن وقع خطواتي كان يبدو واثقاً على الرغم من إحساسي بالاضطراب، وبأنني ظاهر لأعين الجميع مثلما يحسّ شخص يرى نفسه يتجوّل عارياً في حلم كابوسيّ. كنت أحاول الابتعاد عن مصابيح الشوارع، وأبذل جهداً كبيراً لطمأنة نفسي (بنجاحٍ متضائل) إلى أنّ مظهر معطفي الذي ارتديته مقلوباً يبدو للناس طبيعياً، وأن لا شيء فيه غير عادي على الإطلاق. كان في الشارع بعض السائرين، لكنهم كانوا قلائل. نزعت نظارتي خشية أن يتعرف أحد عليّ. كنت أعرف ـ من التجربة ـ بأن نظارتي هي أكثر ملامحي تميزاً لأن الناس يلاحظونها قبل أي شيء آخر، ويتذكّرونها أيضاً. صحيح أن نزع النظارة كان غير مفيد للعثور على الطريق الصحيح، لكنه منحني إحساساً غير منطقي بالأمان وبالتخفّي عن الأنظار: لافتات شوارع لا أستطيع قراءتها، ومصابيح شوارع مغبشة تبدو كأنها هالات نور عائمة في الظلام، مفصولة عن كل شيء. وأما أنوار السيارات المشوَّشة وزينات العيد، فقد جعلتني أحس بنفسي واقعاً تحت أنظار مطارِدين لا يرونني جيداً.

وأما ما حدث في الحقيقة فهو أنني تجاوزت فندقي بعدة كتل سكنية. ثم إنني لم أكن قد ألفتُ الفنادق الأوروبية التي يجد المرء نفسه فيها بحاجة إلى قرع الجرس حتى يدخلها بعد ساعة بعينها في الليل. وعندما

بلغت الفندق أخيراً ـ مبللاً، عاطساً، وقد بلغ البرد عظامي ـ وجدت الباب الزجاجي مقفلاً فوقفت زمناً لا أعرف كم طال أحاول فتحه وأعبث بمقبضه كأنني زومبي... أديره مرة بعد مرة، مرة بعد مرة، بحركة إيقاعية عاجزة، رتيبة وخرقاء. جمّد البرد عقلي فلم أفهم سبب عجزي عن فتح ذلك الباب. حدّقت يائساً عبر الزجاج فرأيت المكتب الصقيل اللامع في غرفة الاستقبال: ما من أحد وراءه!

ثم ظهر رجل أنيق داكن الشعر في بدلة داكنة أيضاً وأتى مسرعاً من غرفة في الخلف وقد رفع حاجبيه. أحسست بومضة فظيعة عندما لاقت عيناي عينيه، فأدركت مدى غرابة مظهري. إلا أن الرجل أشاح بوجهه وأدار القفل ففتح الباب.

قال لي: «آسف يا سيدي. إننا نقفل الباب بعد الساعة الحادية عشرة». لا تزال عيناه تتحاشيان النظر إليّ... «وهذا حرصاً منا على سلامة نزلائنا».

«لقد علقتُ في المطر».

«طبعاً يا سيدي»... أدركت أنه ينظر إلى ياقة كم قميصي التي كانت عليها نقطة دم بنية بحجم قطعة من فئة ربع دولار... «عندما تلزمك مظلة، فإن لدينا مظلات في مكتب الاستقبال».

أجبته: «شكراً». ثم قلت من غير أن يكون لما قلته موجب أو معنى: «أوقعت صلصة الشوكولاتة على نفسي».

«يؤسفني سماع هذا يا سيدي، ويسعدنا أن نحاول إزالة بقع الشوكولاتة في قسم تنظيف الملابس، إذا أحببت أن نساعدك في ذلك».

«سيكون هذا شيئاً عظيماً». ألم يشم رائحتي، رائحة الدم؟ كانت تلك الرائحة فائحة مني في ردهة الفندق الدافئة: رائحة الصدأ والملح... «أفسدت أيضاً قميصي المفضّل. كنت آكل بروفيتي *رول* فسالت الشوكولاتة منها...». *أطبق فمك، أطبق فمك*... «لكنها كانت لذيذة حقاً».

«يسرني سماع هذا يا سيدي. وسنكون سعداء أن نحجز لك طاولة في مطعمنا في ليلة غد إن أعجبتك الفكرة».

«أشكرك». دم في فمي. رائحته وطعمه في كل مكان. كنت آمل فقط ألا يكون قادراً على شم تلك الرائحة بقوة شمّي لها.

«سيكون هذا عظيماً».

«سيدي؟!». ناداني عندما سرت متجهاً إلى المصعد.

«أظنك في حاجة إلى مفتاح الغرفة!». التفَّ حول المكتب واختار مفتاحاً من حجرات المفاتيح الصغيرة في الجدار... «الغرفة رقم سبعة وعشرين، أليس كذلك؟».

أجبته: «صحيح». وشعرت على الفور بالامتنان لأنه ذكّرني برقم غرفتي، لكني قلقت أيضاً لأنه عرف رقم غرفتي بهذه السرعة... كأنه كان على طرف لسانه.

«أتمنّى لك ليلة سعيدة يا سيدي. وأرجو لك إقامة ممتعة عندنا».

مصعدان مختلفان. وممرات لا نهاية لها مفروشة بسجاد أحمر. دخلت الغرفة وأضأت مصابيحها: مصباح الطاولة، ومصباح السرير، ومصابيح الثريا كلها. خلعت معطفي وتركته يسقط على الأرض، وبدأت أحل أزرار قميصي متجهاً إلى الحمام مترنحاً مثل وحش *فرانكشتاين* في مواجهة المَذاري. جمعت كومة ملابسي الدبقة ورميتها في أسفل حوض الاستحمام، ثم أدرت عليها الماء بأقصى قوة وبأعلى حرارة ممكنة. فبدأت جداول وردية تسيل تحت قدمي. دعكت جسدي بجلّ الاستحمام ذي نكهة السوسن إلى أن صارت رائحتي مثل رائحة إكليل زهور في جنازة وصار جلدي متّقداً ناراً.

كان القميص في حالة مزرية: بقيتْ تحت ياقته بقع ولطخات بنية بعد أن صار الماء يجري صافياً. تركته في الحوض حتى ينتقع، وانصرفت إلى تنظيف الوشاح، ثم إلى تنظيف السترة. كانت على السترة بقع دم، لكن

لونها الداكن جعل تلك البقع غير ظاهرة. وبعد ذلك، قلبت المعطف بأقصى حد ممكن من الحذر (لماذا ارتديت هذا المعطف للذهاب إلى الحفلة ولم أرتدِ المعطف الأزرق؟). كانت إحدى الطيَّتين الصدريتين في حالة ليست سيئة كثيراً. وكانت الطية الأخرى في حالة سيئة كثيراً. شكَّل أثر رشاش الدم الداكن كالنبيذ صورة حية ناطقة، أعادت لي من جديد طاقة إطلاق النار كلها: الصدمة، وتفجّر الدم، ومسار قطراته المندفعة في الهواء. وضعت المعطف في المغسلة تحت الصنبور وسكبت عليه الشامبو، ثم رحت أدعكه وأدعكه بفرشاة الأسنان التي أخرجتها من خزانة الحمام. وبعد نفاد الشامبو كله، وجِلّ الاستحمام كله، رحت أدعك البقعة بقطعة صابون كأنني خادم يائس في قصة خيالية محكوم عليه بإنجاز مهمة مستحيلة قبل طلوع الفجر، وإلا مات. أخيراً، لجأت، وأنا أترنح إرهاقاً، إلى معجون الأسنان فعصرته من الأنبوبة مباشرة وتابعت العمل بفرشاة الأسنان ـ الأمر الغريب حقاً هو أن مفعول معجون الأسنان كان أفضل من مفعول كل شيء آخر جرّبته قبله... لكنه لم يؤدِّ المهمة كاملة!

أقلعت عن المحاولة آخر الأمر، واعتبرتها عديمة الجدوى، فعلّقت المعطف فوق حوض الاستحمام حتى يقطر منه الماء: شبح مبلّل للسيد بافليكوفسكي! لقد حرصت على ألا تتسخ المناشف بالدم؛ واستخدمت ورق المرحاض الذي رحت أكوّره وأرميه في المرحاض كل بضع لحظات. وبكل عناية، مسحت ما كان على البلاط من بقع وقطرات بلون الصدأ. استخدمت فرشاة أسناني لأداء هذه المهمة. نظافة وبياض جديران بمستشفى. جدران كالمرايا. وحشةٌ متعدّدة الانعكاسات. تابعت العمل، حتى بعد اختفاء آخر أثر من اللون الوردي. رحت أدعك بالماء المناشف الصغيرة التي اتّسخت. كنت لا أزال أرى في مائها أثراً وردياً مريباً. وبعد ذلك، بعد أن بلغ بي التعب حدّاً جعلني مترنّحاً غير قادر

على الوقوف، دخلت تحت الدوش وفتحت الماء حارّاً إلى أقصى ما استطعت احتماله، ثم دعكت جسدي من جديد، من رأسي حتى أخمص قدميَّ. وغسلت شعري بقطعة الصابون المتبقية فسالت دموعي عندما أحرق الصابون عينيّ.

15

لم أدرِ كم كانت الساعة؛ لكني استيقظت على جرس مرتفع الصوت في غرفتي جعلني أقفز كمن سُكب عليه ماء يغلي. كانت ملاءات السرير مجعدة، مخضلة بالعرق. وكانت الستائر مسدلة فلم تكن لدي أية فكرة عن الوقت... لم أعرف حتى إن كان ليلاً أو نهاراً. نهضتُ نصف نائم، وارتديت ثوب الحمام، ثم شققت الباب قليلاً وقلت: «بوريس؟».

امرأة لامعة الوجه في ملابس عمال الفندق. قالت لي: «الملابس، يا سيدي».

«عفواً؟».

«مكتب الاستقبال يا سيدي. قالوا إنك طلبت أن نأتي هذا الصباح لكي نأخذ الملابس للتنظيف».

نظرتُ إلى مقبض الباب الخارجي. كيف أمكنني إهمال وضع شارة ' يرجى *عدم الإزعاج* ' . قلت لها: «انتظري لحظة».

أخرجت من حقيبتي القميص الذي ارتديته في حفلة آن ـ ذلك القميص الذي قال بوريس إنه ليس حسناً بما فيه الكفاية من أجل الذهاب لرؤية غروزدان. ناولتها إياه عبر الباب، ثم قلت: «انتظري».

سترة البدلة. والوشاح، كلاهما أسود اللون. فهل أجرؤ؟ كانا رطبين، مجعَّدين، في حالة مزرية. لكني أشعلت مصباح المكتب وتفحّصتهما تحت الضوء بدقة، بدقة عين درّبها هوبي. ثم قرّبت أنفي منهما: لا أثر للدم. بمنديل ورقي أبيض، مسحت عدة مواضع لأرى إن كان المنديل سيحمل أثراً من لون وردي. ظهر لون وردي على المنديل؛ لكنه لون لا يكاد يُرى.

كانت المرأة لا تزال منتظرة عند الباب فكان ذلك راحة وخلاصاً... الاضطرار إلى الاستعجال: قرار سريع؛ لا وقت للتردّد. أخرجت من جيوب السترة محفظتي وقرص *الأ*وكسيكونتين ـ رطب، لكنه سليم على نحو مدهش ـ إنه القرص الذي دسسته في جيبي قبل ذهابي إلى حفلة دو لارميسين. وبعد ذلك، أخرجت المغلّف الذي أعطاني إياه بوريس قبل أن أسلّم المرأة السترة والوشاح. غمرني ارتياح كبير بعد أن أغلقت الباب. لكن ثلاثين ثانية مرّت، ثلاثين ثانية فقط، ثم بدأ همس قلق يتسلل إليَّ. ثم لم يلبث قلقي أن اكتسب إيقاعاً صارخاً بعد لحظات. قرار متسرع اتخذته في لحظة واحدة. جنون. كيف كنت أفكر؟

استلقيت. نهضت. استلقيت من جديد وحاولت أن أنام. ثم انتصبت جالساً في السرير. وبسرعة كالحلم ـ لم أستطع منع نفسي ـ وجدت يدي تطلب رقم مكتب الاستقبال.

«نعم يا سيد بيكر. كيف أستطيع خدمتك؟».

«ممم...». أغمضت عينيّ بشدة. لماذا استخدمت بطاقتي الائتمانية عندما دفعت للفندق... «كنت أتساءل، قبل قليل، أرسلت بدلة من أجل تنظيفها... لكنني أتساءل الآن إن كانت لا تزال في الفندق».

«لم أفهم».

«عفواً، هل أرسلتم الملابس إلى التنظيف؟ أم لم ترسلوها بعد؟ أو... هل يتم ذلك في الفندق؟».

«إننا نرسل الملابس إلى الخارج يا سيدي. نتعامل مع شركة موثوقة جداً».

«هل من طريقة، أية طريقة، يمكنك بها التأكد مما إذا كانت الملابس قد ذهبت أم لا؟ انتبهت الآن إلى أنني في حاجة إلى البدلة من أجل مناسبة هذه الليلة».

«انتظر لحظة من فضلك يا سيدي. سوف أتحقّق من الأمر».

انتظرت، من غير أمل؛ ورحت أحدّق في ظرف الهيرويين على الطاولة إلى جانب السرير. كان عليه ما يشبه طابع البريد: جمجمة بألوان قوس قزح كتب عليها ُ *بعد الحفلة*ُ . عاد الموظف بعد لحظة وقال لي: «في أيّ ساعة تلزمك البدلة يا سيدي؟».

«في ساعة مبكرة من هذا المساء».

«يؤسفني القول إنها ذهبت إلى التنظيف. انطلقت سيارة النقل قبل قليل. لكن هذه الشركة تنظف الملابس وتعيدها خلال اليوم نفسه. ستكون البدلة عندك اليوم بعد الظهر، في الساعة الخامسة، أضمن لك هذا». ثم سألني في الصمت الذي ساد بعد ذلك... «هل هناك أي شيء آخر، يا سيدي؟».

16

كان بوريس محقّاً في ما قاله عن الهيرويين الذين أعطاني إياه: كم كان نقياً! نقاء أبيض! كان مقدار الجرعة اعتيادياً، لكنها طرحتني تماماً، فأمضيت فترة لا أعرف كم طالت كنت فيها أَحضُرُ وأغيب مستمتعاً، على شفير الموت. مدن وبلدان. أنزلق بحركة بطيئة، داخلاً، خارجاً، فرحاً، ظلال منسحبة، وأحلام سماوية فارغة، وخيالات متنامية، وهدأة مثل هدأة الطرائد الميتة في لوحات يان وينكس،[1] طيور مقتولة معلّقة من أرجلها وقد لطخ دمُها ريشَها... وفي لحظات الإدراك التي بقيت لي، كنت أحس بأنني فهمت سر عظمة الموت، وأدركت كل ما لم تدركه البشرية كلها حتى لحظة النهاية: لا ألم، ولا خوف، بل انفصال بديع، ومكوث في حالة تعلو مركب الموت، وانسحاب إلى داخل اتساعات سامية مثلما وقف إمبراطور قديم، قديم، يرقب كل المهرولين عند الشاطئ البعيد وقد تحرّر من الصغائر البشرية كلها، صغائر الخوف والحب والحزن والموت.

---

(1) يان وينكس: رسام هولندي من القرن الخامس عشر. اشتهر بتصوير مناظر الصيد والطرائد المقتولة.

لم أجفل، بل حتى لم أرتعش، عندما دوّى رنين الجرس في أحلامي، بعد ساعات، أو بعد مئات السنين. نهضت نهوضاً لطيفاً، مقبلاً... وطفوت سعيداً، متهادياً في الهواء، مستنداً إلى قطع الأثاث في سيري. ابتسمت للفتاة الواقفة في الباب: شقراء، خجولة المظهر، تمد يدها لي بملابسي مغلفة بالنايلون.

«ملابسك النظيفة، يا سيد بيكر». مثلما يفعل الهولنديون جميعاً، أو مثلما بدا لي أنهم يفعلون، كانت تنطق اسم عائلتي «بيكا»، مثل اسم الممثلة بيكا ويتفورد التي كانت ذات يوم من معارف السيدة ديفريز...

«نقدّم إليك اعتذارنا».

«ماذا؟».

«آمل ألا يكون هذا التأخير قد سبب لك إزعاجاً». ما أحلاها! هاتان العينان الزرقاوان! كانت لكنتُها ساحرة.

«عفواً، لم أفهم!».

«وعدناك بأن نأتي بالملابس في الساعة الخامسة بعد الظهر. أبلغنا مكتب الاستقبال بألّا نسجّلها على فاتورتك».

أجبتها: «أوه». وتساءلت في نفسي إن كان عليَّ أن أعطيها بقشيشاً، قبل أن أدرك أن النقود، وعد النقود، كان أكبر مما أطيق التفكير فيه الآن. أغلقت الباب. ووضعت الملابس على حافة السرير، ثم سرت مترنّحاً إلى الطاولة الصغيرة، فألقيت نظرة على ساعة غيوري. السادسة وعشرون دقيقة. ابتسمت عندما رأيت هذا. تخيّلت القلق الرهيب الذي جنَّبني إياه المخدر... ساعة وعشرون دقيقة من العذاب! لو كنت مستيقظاً لأمضيتها في هياج شديد... أتصل بمكتب الاستقبال! وأتصوَّر رجال الشرطة في الأسفل!... غمرني هذا بصفاء وسكينة صوفيتين. القلق! أي هدر للوقت هو! إن الكتب المقدّسة محقّة كلها. كان واضحاً لي أن *القلق* سمة لشخص بدائي غير متطوِّر روحياً. كيف كانت تلك الجملة لدى

ييتس[1]... جملته عن الحكماء الصينيين الحائرين؟ الأشياء كلها تسقط ثم تُبنى من جديد. عيون عتيقة لامعة. هذه هي الحكمة. أمضى الناس قروناً في الغضب والبكاء وتدمير الأشياء، وفي النواح على حيواتهم الفردية التافهة... فما معنى ذلك؟ ما معنى هذا الحزن العقيم كلّه؟ *تأمّل زنابق الحقول*. لماذا يقلق أي شخص جراء أي شيء؟ أوَلم نوضع على هذه الأرض، نحن الكائنات القادرة على الإحساس، حتى نكون سعداء خلال الوقت القصير المخصَّص لنا؟

بكل تأكيد!

كان هذا سبب عدم خوفي عندما دُست تحت عقب الباب ورقة مطبوعة من خدمة الغرف (*عزيزنا النزيل، حاولنا خدمة غرفتك؛ وللأسف، لم نتمكن من دخولها...*). بل كنت أكثر من سعيد عندما خرجت إلى الممر في ثوب الاستحمام وفاجأت العاملة بملء ذراعيَّ من المناشف المبتلة - كانت كل منشفة في الغرفة مشبعة ماء لأنني لففت معطفي بها حتى تمتص الماء منه. رأيت الآن على بعضها آثاراً وردية لم ألاحظها من قبل. سألتني إن كنت أريد مناشف نظيفة! بالتأكيد! أوه، لقد نسيت مفتاحك في الداخل يا سيدي! وقد أغلق الباب! أوه، لحظة واحدة... هل أفتحه من أجلك؟ بعد ذلك، لم أفكر مرتين قبل أن أطلب الطعام إلى غرفتي وأسمح لعامل الخدمة بدخولها دافعاً الطاولة ذات العجلات حتى حافة السرير: حساء الطماطم، والسلطة، وسندويتشات صغيرة، ورقائق البطاطس. أفلحت في تقيؤ هذا كله بعد نصف ساعة من ذلك، فكان تقيؤاً ممتعاً، سارّاً، جعلني أضحك: يا سلام! أحسن مخدّر في حياتي كلها! كنت مريضاً. وكنت أعرف ذلك: ساعات أمضيتها في ملابس مبتلة... ساعات في ملابس مبتلة في طقس انخفضت حرارته حتى صفر فهرنهايت[2] أصابتني

---

(1) ويليام بتلر ييتس: شاعر إيرلندي اعتبر من أهم الشخصيات الأدبية في القرن العشرين.

(2) أي 17,7 درجة مئوية تحت الصفر، تقريباً.

بحمى شديدة وقشعريرة، إلا أنني كنت محلّقاً عالياً في حالة مفارِقة لذلك كله، فلم أعبأ بشيء. إنه الجسد: ضعيف، معرّض للإصابات. المرض، والألم. لماذا يجزع الناس ويهتمون به هذا الاهتمام كله؟ ارتديت كل قطعة ملابس وجدتها في حقيبتي (قميصان، وكنزة، وبنطلون إضافي، وزوجان من الجوارب)، ثم جلست أرشف من علبة كوكا كولا أخرجتها من الميني بار. كنت لا أزال أحلّق، ثم أهبط، أدخل ثم أخرج من أحلام يقظة حية: ماسات غير مصقولة، حشرات سوداء متألّقة... حلمٌ عن آندي كان حياً أكثر من غيره: رأيته يبكي ويذرف دموعاً، وحذاء تنس ممتلئ ماءً يترك من خلفه آثاراً في الغرفة. كان فيه شيء مختلف قليلاً عن آندي، شيء غريب بدا لي غير منسجم تماماً مع ما قاله...

ما الأخبار يا ثيو؟

لا شيء مهماً. وأنت؟

ليس لدي الكثير. سمعت أنكما ستتزوجان، أنت وكيتزي. بابا أخبرني.

جميل

نعم، جميل، لكننا لا نستطيع المجيء. لدى بابا مناسبة في نادي اليخوت

أوه، أمر سيئ جداً!

ثم كنا ذاهبَيْن معاً إلى مكان ما، آندي وأنا، حاملين حقائب ثقيلة. وكنا، ذاهبين في قناة، لكن آندي كان يرفض الصعود إلى المركب، وأحسست بأنني واثق من تفهّمي موقفه ففككت المركب الشراعي، قطعة فقطعة، ووضعت تلك القطع كلها في حقيبتي. كنا سائرين على الأرض حاملين الحقيبة والأشرعة وكل شيء، هكذا كانت الخطة. ليس عليك إلا أن تتبع القنوات لأنها ستأخذك مباشرة إلى حيث تريد الذهاب أو قد تعيدك مباشرة إلى حيث بدأت. لكن المهمة كانت أكبر مما ظننت.

تفكيك قارب. أمر مختلف عن تفكيك طاولة أو كرسي. وقطعةُ كبيرة لا تتسع لها الحقيبة. وكانت هناك مروحة الدفع الضخمة التي حاولت حشرها مع ملابسي. وكان آندي ضجِراً متنحّياً جانباً يلعب الشطرنج مع شخص لم يعجبني شكله. قال لي حسناً إذا كنت غير قادر على التخطيط مسبقاً فإن عليك أن تتبين خطتك خلال سيرك.

17

أحسست بما يشبه فرقعة في رأسي عندما استيقظت. غثيان ووخز في كل مكان كأن نمالاً تزحف تحت جلدي. عندما كان المخدر يغادر نظام جسمي، عاد الذعر بقوة مضاعفة لأنني كنت مريضاً حقاً. حمّى ونوبات تعرّق. لا مجال لأي مزيد من إنكار هذا. سرت مترنّحاً إلى الحمام وتقيأت من جديد (هذه المرة، لم يكن تقيؤ شخص مخدَّر مستمتع بالأمر، بل الشيء البائس المعتاد). عدت إلى غرفتي وتأمّلت بدلتي ووشاحي في الغلاف النايلوني على حافة السرير وفكّرت ـ مع رجفة ـ كم كنت محظوظاً. سار كل شيء على ما يرام وكان من الممكن ألا يكون كذلك (هل سار حقّاً على ما يرام؟).

بحركات خرقاء، أخرجت البدلة والوشاح من غلافهما. كانت الأرض من تحتي تتمايل تمايلاً ناعساً، بحرياً، جعلني أستند إلى الجدار حتى أقي نفسي من السقوط. تناولت نظارتي وجلست على السرير لكي أفحص الملابس تحت الضوء. بدا النسيج مهترئاً بعض الشيء، لكنني لم أر فيه عيباً غير ذلك. ثم صرت غير واثق من جديد. كان النسيج داكناً جدّاً. رأيت بقعاً، ثم لم أر بقعاً. لا تزال عيناي غير قادرتين على الرؤية بشكل صحيح تماماً. لعلها خدعة ـ ربما أجد الشرطة في انتظاري إذا نزلت ردهة الفندق. لكن، لا، دفعت بتلك الفكرة عني ـ سخافة ـ لو وجدت الشرطة أمراً مريباً في الملابس لاحتفظتْ بها، أليس كذلك؟ من المؤكد أنهم لن يعيدوها إليَّ نظيفة مكوية.

كنت لا أزال خارج العالم، إلى حد ما: لم أكن أنا نفسي. لست أدري كيف تجسّد حلم القارب من جديد وغزا غرفة الفندق؛ فكانت غرفة فندق لكنها قمرة مركب أيضاً: حزامات جدارية (فوق سريري، وتحت النوافذ)، خزائن مثبتة بمسامير نحاسية متسعة الرؤوس... كانت أيضاً مصقولة ملمَّعة إلى أقصى حد. أرضية مركب؛ وسطح متمايل. وفي الخارج أمواج تلعق جوانب المركب، وماء القنال الأسود. هذيان: هذيان منفلت عائم في كل اتجاه. كان الضباب خارج النافذة كثيفاً. انعدمت الريح تماماً. أتى ضوء مصابيح الشارع عبر ذلك الضباب مشتتاً، أتى هادئاً، ضعيفاً، رمادياً، زائغاً... حتى صار، هو نفسه، أشبه بالضباب.

حكةٌ، حكةٌ، جلدي على نار. غثيان وصداع يشقّ رأسي. كلما ازداد المخدّر فخامة، كلما صار الألم أكثر عمقاً ـ ألم عقلي وجسديّ ـ خلال انجلاء تأثيره. عدت إلى انبثاق دماغ مارتن من تلك الفتحة في جبهته، لكن على نحو أكثر قرباً... كدت أصير داخل ذلك الانبثاق، داخل كل نبضة وكل دفقة. وكان هناك حتى ما هو أسوأ من هذا: نقطة تجمُّدٍ كُليّ عميقة في داخلي... لقد ضاعت اللوحة. معطف ملطخ بالدم، وإحساس بالصبي الهارب. سواد. كارثة. لا رحمة للبشر العالقين في بيولوجيا أجسادهم: نعيش برهة، ونعبث قليلاً هنا وهناك، ثم نموت. ثم نتفسّخ في الأرض مثل القمامة. يهلكنا الزمن، كلنا، خلال وقت قصير. وأما أن تخسرَ أو تُتلفَ شيئاً لا يموت... أن تُحطّمَ روابط أقوى من كل شيء زمني، فهو افتراق ميتافيزيقي في حد ذاته... طعم جديد مفاجئ للقنوط.

أبي إلى طاولة الباكارا في منتصف ليلٍ مكيَّفٌ هواؤه. في الأشياء، *هنالك دائماً المزيد؛ هنالك* مستوى خفيّ. الحظ في أكثر أمزجته وظهوراته قتامة. أبي يستطلع النجوم منتظراً أن يُقدِمَ على الرهانات الكبيرة عندما يبدأ وصول كوكب عطارد... يحاول الوصول إلى معرفةٍ متجاوزة لكل ما هو معروف. الأسود لون الحظ لديه؛ والتسعة رقم

الحظ. فاجِئني من جديد يا صاحبي. *هنالك نمط متكرر؛ ونحن جزء منه.*
مع هذا، إذا نقّبتَ عميقاً جداً في تلك الفكرة عن النموذج المتكرر (من الواضح أنه لم يجشّم نفسه أبداً عناء فعل ذلك)، فسوف تصيبُ خواءً قاتماً... قاتماً إلى حد يجعله قادراً، قطعاً، على تدمير أي نور رأيته، أو على تدمير أي شيء ظننته نوراً.

الفصل الثاني عشر

نقطة اللقاء



1

انقضت الأيام التي سبقت عيد الميلاد ضباباً في ضباب. فبفعل المرض، وكذلك بفعل ما كان يقارب حالة الاحتجاز الانفرادي، سرعان ما فقدت القدرة على متابعة الزمن. لازمت الغرفة على الدوام؛ وظلت لافتةُ *يرجى عدم الإزعاج* معلّقة على بابي. والتلفزيون... بدلاً من توفير همهمة موحية بسير حياة طبيعية، وإن يكن إيحاء كاذباً، لم يفعل إلا أن زاد إحساسي المضاعف بالتشوش والارتباك: لا منطق، ولا بنية... لا تعرف ما سيكونه البرنامج التالي... يمكن أن يكون أي شيء، من *شارع السمسم* باللغة الهولندية إلى أشخاص هولنديين يتكلّمون من خلف طاولة، إلى مزيد من أشخاص هولنديين يتكلّمون من خلف طاولة! وعلى الرغم من وجود محطات أخرى... *سكاي نيوز*، *سي إن إن*، *بي بي سي*... فإن أيّاً منها ما كانت تقدم أخباراً محلية باللغة الإنكليزية (لا شيء ذا أهمية، ولا شيء يخصّني أو يخص موقف السيارات). لكني أجفلت فزعاً في لحظة من اللحظات عندما كنت أقلّب القنوات فمررت بفيلم بوليسي أميركي قديم. توقفت مذهولاً عندما رأيت أبي في الخامسة والعشرين من عمره. كان ذلك واحداً من أدواره الكثيرة التي لا يقول فيها شيئاً؛

شخص موافق على طول الخط واقف من خلف مرشَّح لمنصب سياسي في مؤتمر صحافي يومئ برأسه كلما ذكر المرشح وعداً من وعود حملته الانتخابية. وللحظة وجيزة غريبة، التفتَ أبي إلى الكاميرا فامتد نظره عبر المحيط حتى بلغ المستقبل، حتى وصل إليّ! كانت المفارقات الكثيرة في هذا معقَّدة، غريبة، كثيرة الطبقات، ففتحت فمي مذعوراً. شكله: من الممكن أن يكون شقيقي التوأم لولا قصّة شعره ولولا جسمه الأثقل بنياناً (نتيجة رفع الأثقال: كان يكثر من الذهاب إلى النادي الرياضي في تلك الأيام). لكن الصدمة الأكبر كانت آتية من مظهره المستقيم الشريف... أبي الكاذب إلى حد إجرامي منذ سنة 1985 (تقريباً)، وانزلاقه إلى إدمان الكحول. ما كان شيء من طبعه، ولا من مستقبله، مرئياً في صورة وجهه. لقد بدا مصمِّماً، مهتماً، بل بدا نموذجاً للثقة والأمل الواعد.

أغلقت التلفزيون بعد ذلك. وعلى نحو متزايد، صار احتكاكي الأكبر بالعالم الواقعي يجري من خلال خدمة الغرف التي لا أطلبها إلا في أحلك الساعات عند الفجر عندما يصير عمال توصيل الطلبات من الخارج بطيئين، ناعسين. قلت (بالإنكليزية) للفتى الذي أتاني عندما قرعت الجرس وكان لا يتكلم إلا الهولندية: «أريد صحفاً هولندية، من فضلك». لقد جلب لي صحيفة *إنترناشنال هيرالد تريبيون* مع فطائري الهولندية وقهوتي، إضافة إلى اللحم بالبيض وتشكيلة من الأجبان الهولندية. لكنه ظل يأتيني بتلك الصحيفة، على الرغم من اعتراضي، فصرت أنزل عبر السلم الخلفي قبيل شروق الشمس لشراء الصحف المحلية التي كانت مصفوفة - على نحو ملائم لي - على طاولة عند آخر ذلك السلم حيث لم أكن مضطراً إلى المرور بردهة الاستقبال.

دم مسفوك. جريمة قتل. كان يبدو لي أن الشمس لا تشرق إلا نحو الساعة التاسعة صباحاً. وحتى ذلك الوقت، يكون الجو ضبابياً كئيباً إذ تُلقي شمس الصباح ضوءاً منخفضاً، شحيحاً، طاهراً من الآثام كأنه واحد

من المؤثرات البصرية في أوبرا ألمانية. كان واضحاً أن معجون الأسنان الذي استخدمته لتنظيف صدر معطفي كان محتوياً على بيروكسيد، أو على عنصر قاصر آخر، لأن البقعة التي دعكتها به حال لونها فصارت هالة مُبيضّة بحجم كف يدي، لها حواف خارجية بلون الطباشير. كانت شبحاً مرئياً للسائل المنبثق من جمجمة فريتز. يبدأ أفول ضوء النهار نحو الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر. ثم يكتمل حلول الظلام في الخامسة. فإذا لم يكن زحام الناس شديداً في الشارع آنذاك، أرفع ياقة معطفي وأطوِّق رقبتي بالوشاح ـ أحرص أيضاً على إبقاء رأسي مطرقاً إلى الأرض ـ وأخرج في الظلام قاصداً سوقاً صغيراً فيه باعة آسيويون لا يبعد عن الفندق أكثر من مئة ياردة. وهناك، أشتري بالقليل الباقي لديّ من اليورو، سندويتشات معدّة مسبقاً، وتفاحاً، ومعجون أسنان جديداً، وأقراصاً لتخفيف السعال، وأسبريناً، وبيرة. أهذا كل شيء؟ تسألني البائعة العجوز بلغة هولندية تبدو لي مكسرة. تحصي النقود ببطء مثير للغضب. تحصيها، وتحصيها، وتحصيها. صحيح أنني كنت أحمل بطاقات ائتمان، لكني صمّمت على عدم استخدامها ـ قاعدة اعتباطية أخرى في تلك اللعبة التي اخترعتها لنفسي؛ إجراء وقائيٌّ غير منطقي أبداً... فمن أخدع بهذا؟ وما أهمية شرائي السندويتشات من متجر محلّي صغير في حين يمتلك الفندق معلومات بطاقتي كلّها؟

كان ذلك في جزء منه خوفاً، وفي جزء آخر منه مرضاً شوّش سلامة أحكامي، لأن ما أصابني من زكام وقشعريرة لم يفارقني أبداً. ففي كل ساعة، كان يبدو لي أن سعالي يزداد عمقاً وأن الألم في رئتيّ يتفاقم أكثر فأكثر. كان ما سمعته عن اهتمام الهولنديين بالنظافة صحيحاً... مستحضرات التنظيف الهولندية!! رأيت في السوق منتجات عجيبة لم أرها من قبل. عدت إلى غرفتي حاملاً زجاجة عليها صورة بجعة بيضاء كالثلج ومن خلفها جبل مكلل بالثلوج، إضافة إلى لصاقة على

العبوة عليها رمز الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين. كانت قوة ذلك المستحضر كافية لإزلة ألوان قميصي وإزالة ما عليه من خطوط، لكن قوّته ما كانت كافية لإزالة البقع عن ياقته. تحوّلَت من بقع بنية داكنة إلى هالات مشؤومة متداخلة أشبه بالفطر الذي ينمو على الأشجار. كانت عيناي دامعتين عندما غسلتهما بالماء أربع مرات، أو خمس مرات، ثم كوّرته ووضعته في كيس من النايلون وربطته ودفعت به إلى أقصى أعماق رف مرتفع في الخزانة. فكّرت في رميه في القنال، لكنه سيطفو إذا لم أضع فيه ثقلاً. ثم إنني خشيت أن أخرج به إلى الشارع وألقيه في حاوية القمامة... من الممكن أن يراني أحدٌ ما، وأن يُلقى القبض عليّ. هذا ما سيحدث... كنت أعرف ذلك في أعماقي، أعرفه معرفة لا عقلانية مثل المعرفة التي تأتي في الحلم.

فترة قصيرة. ما معنى فترة قصيرة؟ ثلاثة أيام بالحد الأقصى. هذا ما قاله لي بوريس عندما كنا في حفلة دو لارميسين. لكنه لم يُدخل مارتن وفريتز في الحساب عندما قال ذلك.

أجراس وأكاليل زهور، ونجوم ملوّنة في واجهات المتاجر، وشرائط وجوزات مطلية بلون الذهب. كنت أنام الليل مرتدياً جواربي ومعطفي بلطخاته، وكنزة مرتفعة الياقة، بالإضافة إلى غطاء السرير، لأن إدارة مقبض التحكّم في مشعّ التدفئة ـ كما يقولون في كتيب إرشادات الفندق ذي الغلاف الجلدي لم تفلح في تدفئة الغرفة بالقدر الكافي لتخفيف ألمي وقشعريرتي. إوزات بيضاء، وبجعات بيضاء. كانت الغرفة عابقة برائحة ذلك السائل المنظّف كأنها حوض جاكوزي رخيص. هل تشم عاملات الخدمة هذه الرائحة عند سيرهن في الممر؟ لا يحكمون على المرء بأكثر من عشر سنين عقاباً على سرقة أعمال فنية. وأما مع مارتن، فقد تجاوزت الحدود إلى بلاد أخرى ـ بطاقةٌ في اتجاه واحد؛ ولا عودة.

إلا أنني توصلت ـ على نحو ما ـ إلى طريقة عملية للتفكير في موت

مارتن، أو للتفكير ′حولَ′ موته. لقد رمى بي ذلك الفعل (أبديّة ذلك الفعل) في عالم مختلف تمام الاختلاف بحيث صرت ميتاً بالفعل، إذا نظرت إلى الأمر انطلاقاً من الغايات العملية كلها. كان لديَّ إحساس بأنني تجاوزت كل شيء، وبأنني أنظر إلى اليابسة من بعيد، من فوق قطعة جليد عائمة، سابحة في اتجاه عرض البحر. كان ما جرى غير قابل للإبطال. لقد ضعت. لقد ضعت.

لقد كان هذا أمراً حسناً. لا أهمية كبيرة لي ضمن النظام العام للأشياء؛ ولا أهمية كبيرة لمارتن أيضاً. سوف يلفّنا النسيان، بكل سهولة. كان هذا درساً أخلاقياً ودرساً اجتماعياً، إن لم تكن فيه دروس أخرى أيضاً. لكن، وعلى امتداد الزمن المنظور القادم كلّه ـ طالما استمرّت كتابة التاريخ، وإلى أن يذوب جليد القطبين ويغمر الماء شوارع أمستردام ـ سوف يتذكّر الناس اللوحة ويحزنون عليها. فمن عساه يعرف، أو يهتم بمعرفة الأسماء؟... أسماء الأتراك الذين فجَّروا سقف البارثينون؟... أو أسماء الشيوخ الذي أمروا بتدمير تماثيل بوذا في باميان؟ إلا أن أفعالهم ظلت قائمة، سواء عاشوا أو ماتوا. هذا أسوأ نوع من أنواع القنوط. وسواء كنت أقصد فعل ما فعلته أو لم أكن أقصده، فقد أخمدتُ نوراً كان في قلب هذا العالم.

هذا ما تدعوه شركات التأمين ′ *فعل من أفعال الربّ*′ : كارثة عشوائية أو غامضة لا سبيل أبداً إلى اتخاذ أية تدابير للوقاية منها. نعم، هناك حساب للاحتمالات؛ إلا أن ثمة أحداثاً واقعة خارج جداول حساب الاحتمالات من شأنها إرغام الجميع، حتى خبراء التأمين أنفسهم على الاستنجاد بما هو فوق طبيعي لتفسير ما يجري ـ *«حظ نتن»* مثلما قال أبي حزيناً في ليلة عند بركة السباحة عقب حلول الغسق. كان يدخّن سيجارة تلو سيجارة لإبعاد البعوض عنه؛ وكانت تلك واحدة من المرّات القليلة التي حاول فيها أن يحدّثني عن موت أمي، لماذا تحدث أشياء سيئة؟ ولماذا هي؟

ولماذا أنا؟ المكان الخاطئ والزمان الخاطئ! مجرد طفل عاثر الحظ، واحد من مليون، طفل ليس فيه اختلاف أو استثناء من أي نوع كان... لكني لمست في كلامه إقراراً بنوع من الإيمان، فكان ما قاله أفضل إجابة يمكنه إعطائي إياها؛ إجابة هي صنو القول بأن *'الله قد كتب هذا'* ، أو *'إنها مشيئة الرب'* ... انحناءة صادقة أمام *'الحظ'* الذي كان أكبر ربّ عرفه أبي.

لو كان أبي مكاني... كادت هذه الفكرة تجعلني أضحك! تخيّلته، بوضوح شديد، يذرع المكان منفعلاً، عالقاً، حذراً، مستمتعاً بدراما المأزق... صورة تُظهر شرطياً في زنزانة السجن، كذلك الدور الذي لعبه الممثل فيرلي غرانغر. لكني كنت قادراً أيضاً على تخيل افتتانه بمحنتي الراهنة، بمنعطفاتها وتقلّباتها وتكشّفها عن طبيعة عشوائية مثلما تكون الحال في ورق اللعب... تخيّلت تماماً هزة رأسه الحزينة: *وضع الكواكب سيئ. إن لهذا الأمر شكله المحدَّد، صورته الأكثر اتساعاً. لو كنا نسرد قصصاً، يا فتى، فهذه واحدة منها.* لو كان هنا لانكبَّ على دراسة دلالات الأعداد والأرقام، أو على دراسة أي شيء. لو كان هنا لنظر في كتاب الأبراج، لاستشار النجوم. مهما يكن ما يمكن أن يُقال عن أبي، فإن من غير الممكن القول إنه لم يكن يمتلك نظرة منسجمة إلى العالم.

كان الفندق يمتلئ بنزلاء فترة العطلة. أزواج. جنود أميركيون يتحدّثون في الممرات بنبرة عسكرية رتيبة: يسمع المرء في أصواتهم رتَبهم العسكرية وسلطات كل واحد منهم. وفي السرير، في غمرة الحمّى المخدّرة، كنت أحلم بجبال جلّلتها الثلوج فصارت نقية، مخيفة؛ كنت أحلم بصور سهول من أفلام عند السفوح الألمانية لجبال الألب، وبرياح شديدة تعزف ألحانها وتعصف فوق بحر هائج في اللوحة الزيتية المعلّقة فوق مكتبي. قارب صغير تتقاذفه الأمواج وحيداً على صفحة مياه داكنة.

أبي: ضع جهاز التحكم من يدك عندما أكلمك.

أبي: حسناً، لن أقول إن هذه كارثة؛ بل فشل.

أبي: هل من الضروري أن يأكل معنا يا أودري؟ ومن هل من الضروري أن يجلس معنا إلى الطاولة في كل ليلة؟ ألا يمكنك جعل ألاميدا تطعمه قبل عودتي إلى البيت؟

ألعاب: أونو؛ السفينة الحربية؛ قرص لوحة؛ الأقراص الملونة. تماثيل جنود خضراء، وحشرات مطاطية زاحفة أتتني هدية في عيد الميلاد.

السيد باربر: هناك إشارات بالأعلام الملاحية.

'فكتور': أريد مساعدة.

'*إيكو*': إنني أغير مساري في اتجاه اليمين[1].

الشقة التي في الجادة السابعة. يوم رماديٌّ ماطر. ساعات طويلة مضت في نفخ رتيب في آلة هارمونيكا صغيرة، لعبة، نفخ، نفخ، نفخ.

رأيت طاقماً تلفزيونياً في الشارع أمام فندقي في يوم الاثنين، أو لعله كان يوم الثلاثاء، أي عندما صار لديَّ أخيراً قدر من الشجاعة سمح لي بأن أزيح الستارة عن النافذة في ساعة متأخرة من بعد الظهر قبل أن يرحل ضوء النهار. كان ذلك الفريق يستوقّف سيّاحاً أتوا من أجل عيد الميلاد. أصوات إنكليزية. وأصوات أميركية. حفلة عيد الميلاد الموسيقية في كنيسة *سانت نيكولاس*، وأكشاك موسمية تبيع فطائر *أوليبول*[2]... *«كادت دراجة تصدمني، وأما غير ذلك فقد كان وقتاً جميلاً ممتعاً»*. آلمني صدري. أسدلت الستائر من جديد. ثم وقفت تحت الدوش الحار وتركت الماء متدفّقاً على جسدي إلى أن صار جلديورديّ اللون. كان الحي كله متلألئاً... زينات المطاعم المضيئة، ومتاجر جميلة تعرض معاطف من الكشمير وكنزات ثقيلة يدوية الحياكة، وكثير من أنواع الملابس الدافئة التي أهملتُ وضع شيء منها في حقيبتي. لكني لم أجرؤ

---

(1) فكتور: راية من رايات الإشارات الملاحية بيضاء اللون عليها خطان قطريان متقاطعان لونهما أحمر. إيكو: راية ملاحية نصفها أزرق ونصفها أحمر.

(2) ** أوليبول: نوع من كرات العجين حلوة.

حتى على الاتصال بمكتب الاستقبال لطلب فنجان قهوة بسبب الصحف الناطقة بالهولندية، التي بدأت أقلّب صفحاتها قبل شروق الشمس بوقت طويل: رأيت على الصفحة الأولى في واحدة منها صورة موقف السيارات وشريط الشرطة الأصفر على امتداد بوابته.

كانت تلك الصحف منشورة على الأرض، بين السرير والنافذة، كأنها خريطة لمكان مخيف لا أريد الذهاب إليه. وكنت غير قادر على منع نفسي من الذهاب والنظر إليها، مرة بعد مرة، بين إغفاءات تجري فيها أحاديث محمومة لا وجود لها مع أشخاص لا أحدّثهم... كنت أبحث عن كلمات هولندية شبيهة بمقابلاتها الإنكليزية؛ لكنها كانت قليلة، متباعدة. أأميركان دوود آآ آنغتروفن (العثور على أميركي مقتول) هيرويين. كوكايين. موورد (جريمة قتل): قلّبت هذه الكلمة على معاني محتملة كثيرة... الموت، لاذع، فاتر، جريمة قتل!

دروغز غيري لا تيرد كريمينالي تيت (جريمة على صلة بالمخدرات): فريتز آآتينغ آفكونستيغ ويت أمستردام أون ماكاو فييدلر مارتن ويت لوس أنجلوس. بلوديغ: مدمى. شوتنويسلينغ: من عساه يعرف معنى هذا؟... لكن الجزء الأول منها، شوتن، يمكن أن يعني إطلاق نار! ديزمووردن كوامن ألس إن خوك فوور... (تشكل جرائم القتل هذه صدمة أمام...)؛ ماذا؟

بوريس. سرت إلى النافذة ووقفت، ثم سرت عائداً من جديد. حتى في اللحظات المرتبكة عندما كنا واقفَيْن عند الجسر، أتذكر أنه أمرني بعدم الاتصال به. كان شديد الحزم في هذا الأمر، على الرغم من أننا افترقنا في حالة من الاستعجال جعلتني غير واثق من أنه شرح لي السبب الذي يرتب عليَّ انتظاره، أو انتظار اتصال منه. وعلى أيّ حال، لم أكن واثقاً من أن أهمية هذا الأمر لا تزال قائمة. لقد كان شديد التأكيد أيضاً على مسألة أنه غير مصاب، أو لعلّي كنت مستمراً في تذكير نفسي بهذا.

إلا أنني ـ على الرغم من قصف تلك الذكريات غير المرغوب فيها تلك الليلة ـ بقيت أرى ذلك الثقب المحترق في ذراع معطفه... أرى الصوف الأسود الدبق في وهج مصابيح الشارع. أغلب الظن أن شرطة السير قد ألقت القبض عليه عند الجسر وزجت به في السجن لأنه من غير رخصة قيادة: صحيح أنه احتمال سيئ، إن كان الأمر هكذا، لكنه أحسن كثيراً من بعض الاحتمالات الأخرى التي كنت قادراً على التفكير فيها.

تري دوودن بي بلودي غي ... (ثلاثة جثث مدماة في ...) لم يتوقف الأمر. كان هناك المزيد. في اليوم التالي، والذي بعده، كل يوم مع فطوري الهولندي التقليدي، كان هنالك المزيد عن مقتل الرجلين في منطقة أوفرتوم: صارت المقالات أصغر حجماً، لكنها أكثر غنى بالمعلومات. تويي دودي ليكي سلاخ توفرز. نوغ إيم أوف مير بترو خيلن. وابنغي ويلد إي نيترلاند (قتيلان. شخص متورّط آخر، أو أكثر. العنف المسلح في هولندا). صور فوتوغرافية إلى جانب صور لأشخاص آخرين لهم أسماء هولندية، ومقالة مطوَّلة لم يكن لدي أي أمل في أن أستطيع قراءتها. عنوان: دودي ليكي فيتبارتي نوغ أونو بغي خيل ديرد (قتلى في إطلاق نار لم تتضح ملابساته بعد)... أقلقني أنهم كفّوا عن التعرض لذكر المخدرات ـ وسيلة التضليل التي راهن عليها بوريس ـ وانتقلوا إلى التركيز على زوايا أخرى. صار الأمر على كل لسان. صار في العالم كله. وصار الناس يقرأون عنه في أنحاء المدينة ويتحدّثون عنه بلغة ليست لغتي.

إعلان كبير *لتيفاني* في صحيفة *هيرالد تريبيون*، جمال لا يزول وصنعة متقنة. *تيفاني* تتمنّى لكم عطلة سعيدة. كان أبي يحب القول إن للحظ ألاعيبه. أنظمةٌ، وانهيارات واسعة.

أين هو بوريس؟ حاولت من غير نجاح، في سديم الحمى، أن أروِّح عن نفسي ـ أو أن ألهيها ـ بأفكار تقول إن من المحتمل كثيراً أن يظهر

في أية لحظة لا أتوقّع ظهوره فيها. يفرقع بأصابعه ويخيف الفتيات. يأتي إلى المدرسة بعد نصف ساعة من بدء *امتحان القدرات الحكومي*... ضحكات في غرفة الصف كلّها عندما ظهر وجهه الحائر خلف زجاج باب الخزانة المقوّى بأسلاك معدنية: *هاه، مستقبلنا اللامع!* هذا ما قاله بنبرة ازدراء عندما حاولت أن أوضح له فكرة الامتحانات الموحدة عندما كنا في طريق عودتنا إلى البيت.

لم أستطع الوصول في أحلامي إلى حيث أردت الوصول. كان هناك على الدوام شيء يمنعني من الوصول إلى حيث يتعيّن عليَّ أن أصل.

كان قد بعث إليَّ برقم هاتفه عبر رسالة نصية قبل أن نغادر الولايات المتحدة. وعلى الرغم من خشيتي من كتابة رسالة نصية إليه الآن لأنني لم أكن أعرف ظروفه، ولم أكن أعرف إن كان تعقّب الرسالة للوصول إليّ أمراً ممكناً على نحو ما، فقد كنت أذكّر نفسي دائماً بأنني قادر على الوصول إليه إن اضطررت إلى ذلك. كان يعرف مكاني. لكنني كنت أستلقي ساعات طويلة في الليل مستيقظاً أجادل نفسي: شيء مضجر لا نهاية له، جيئة وذهاباً... ماذا لو، ماذا لو، فأي ضرر يمكن أن ينتج عن ذلك؟

انهارت مقاومتي أخيراً في لحظة طائشة ـ في ضوء المصباح الليلي، نصف حالم، نصف خارج من الحلم ـ ومددت يدي إلى الهاتف الموضوع على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريري فبعثت إليه برسالة قبل أن تسنح لي فرصة التفكير من جديد: *أين أنت؟*

أمضيت بعد ذلك، ساعتين أو ثلاث ساعات، مستلقياً صاحياً في قبضة قلق أكاد لا أستطيع ضبطه. كنت مستلقياً في سريري واضعاً ذراعي على وجهي حتى أحجب الضوء عن عينيَّ على الرغم من عدم وجود أي ضوء. ثم استيقظت من نومي الغارق في العرق، استيقظت في ساعة ما عند الفجر، فرأيت هاتفي ميتاً، لأنني نسيت ـ لسوء الحظ ـ أن أقفله قبل نومي. لم أكن أريد الذهاب إلى مكتب الاستقبال لأسألهم إن كان لديهم

شاحن للهاتف يمكن أن أستعيره منهم. ترددت ساعات قبل أن أتمكّن من هزيمة ذلك التردد بُعيد الظهر.

قال موظف مكتب الاستقبال وهو يكاد لا ينظر في اتجاهي: «بالتأكيد يا سيدي. الولايات المتحدة؟»[1].

شكرت الرب في سري؛ وحاولت منع خطواتي من المبالغة في سرعتي عندما صعدت السلم إلى غرفتي. كان هاتفي قديماً، بطيئاً. وصلتُه بالشاحن ووقفت برهة منتظراً، ثم مللت انتظار ظهور شعار شركة *آبل* على الشاشة فذهبت إلى الميني بار وأخذت شيئاً لأشربه، ثم عدت وحدقت في الهاتف برهة أخرى إلى أن ظهرت شاشة التوقف... صورة مدرسية قديمة وضعتها على هاتفي على سبيل المزاح ـ في حياتي كلها، لم أكن سعيداً هكذا برؤية أية صورة من الصور ـ كيتزي في العاشرة من عمرها وقد قفزت لكي تصدّ الكرة عن المرمى. لكن الشاشة ارتجفت لحظة هممتُ بكتابة رمز الدخول إلى الهاتف، ثم تجمدت نحو عشر ثوان وظهرت فيها خطوط سوداء وخطوط رمادية متحركة، ثم متكسرة إلى أجزاء صغيرة، قبل أن تظهر صورة تعبيرية لوجه حزين. وبعد ذلك، صارت الشاشة سوداء كلها.

الرابعة وخمس عشرة دقيقة بعد الظهر. بدأ لون السماء يتحوّل إلى أزرق داكن فوق قباب الأجراس خلف القنال. كنت جالساً على السجادة مستنداً بظهري إلى السرير ممسكاً بالشاحن بيدي بعد أن جربت، مرتين، كل مأخذ كهرباء في الغرفة؛ وبعد أن حاولت مئات المرات إقفال الهاتف وفتحه، ورفعته في ضوء المصباح حتى أرى إن كان لا يزال يعمل على الرغم من اسوداد شاشته. حاولت إعادة تشغيله، لكنه كان ميتاً: لم يحدث شيء... شاشة سوداء باردة ميتة كأنها مسمار في جدار. تذكّرت أن البلل أصابه في تلك الليلة في موقف السيارات فأدركت أن عطلاً داخلياً قد

(1) المقصود هو توتر 110 فولت المستخدم في الولايات المتحدة.

لحق به (رأيت قطرات ماء على الشاشة عندما أخرجته من جيبي). صحيح أنني انتظرته، في ذلك الوقت، دقيقة أو دقيقتين حتى بدأ العمل، لكنه بدا لي سليماً فبقيت على ذلك الظن إلى أن وصلته بالشاحن. كانت لدي على كمبيوتري في البيت نسخة احتياطية من بيانات هاتفي كلها. باستثناء الشيء الوحيد الذي كنت في حاجة إليه: رقم بوريس الذي أعطاني إياه عبر رسالة نصية عندما كنا في السيارة متجهين إلى المطار.

انعكاسات مائية متذبذبة على سقف الغرفة. وفي الخارج، في مكان ما، رنين موسيقى عيد الميلاد وأصوات ناشزة تغنّي معها باللغة الألمانية ... *يا شجرة عيد الميلاد، يا شجرة عيد الميلاد، كم هي مؤمنة أوراقك!*

لم تكن لديَّ بطاقة عودة. لكن بطاقتي الائتمانية معي. أستطيع الذهاب إلى المطار في سيارة تاكسي. قلت لنفسي: *أستطيع الذهاب إلى المطار في سيارة تاكسي!* مطار *شيبهول*. أول طائرة مغادرة. الوجهة: مطار *كيندي* أو مطار *نيوارك*. كنت أحدّث نفسي مثلما يفعل طفل. أين هي كيتزي الآن؟ لا بد أنها في *هامبتون*. لكن جانيت، مساعدة السيدة باربر (لا تزال محتفظة بوظيفتها القديمة على الرغم من أن السيدة باربر لم يعد لديها شيءٌ يتطلّب مساعدة)، كانت من ذلك النوع من الأشخاص الذين يمكن أن يحجزوا للمرء بطاقة طائرة إلى أي مكان حتى لو كان ذلك قبل ساعات محدودة من موعد الرحلة، وحتى في أعياد الميلاد. جانيت. كان التفكير في جانيت مطمئناً على نحو غريب حقاً. جانيت التي كانت نظاماً مزاجياً فعّالاً قائماً بحد ذاته. جانيت البدينة المتورّدة في سترتها الصوفية الوردية وثوبها المقلم كأنها حورية في لوحة لفرانسوا بوشيه مرتدية ملابس من شركة ج. كرو... جانيت التي تقول '*ممتاز!*' رداً على كل شيء، وتشرب القهوة من فنجان خزفيٍّورديٍّ مكتوب عليه اسمها.

ارتحت عندما رأيت أنني أفكر تفكيراً واضحاً. ماذا يستفيد بوريس، أو أي شخص آخر، من انتظاري هنا؟ البرد، والرطوبة، وهذه اللغة التي لا

أستطيع قراءتها! الحمّى والسعال! صور السجن التي أراها في كوابيسي! ما كنت راغباً في الرحيل من غير بوريس، أو من غير معرفة أنه بخير... شيء يشبه الهرب وترك صديق سقط مصاباً من غير أن تكون لدى الهارب أية فكرة عمَّ إذا كان هارباً إلى جحيم أسوأ من نار. وفي الوقت نفسه، كانت رغبتي في الخروج من أمستردام شديدة، فرحت أتخيّل نفسي راكعاً على ركبتي ألمس الأرض الإسمنتية بجبهتي فور وصولي إلى مطار *نيوارك*.

دليل الهاتف. ورقة وقلم. لم يرني إلا ثلاثة أشخاص. الإندونيسي، وغروزدان، والصبي الآسيوي. صحيح أن من الممكن تماماً أن يكون لمارتن وفريتز زملاء يبحثون عني الآن (سبب وجيه آخر لمغادرة المكان)، إلا أنني لم أجد أي سبب يدعوني إلى الظن أن الشرطة تبحث عني. وما من سبب أيضاً يدعوني إلى الظن أنهم قد وجدوا جواز سفري.

أجفلت عند ذلك كما لو أن أحداً صفعني على وجهي. لا أعرف السبب الذي جعلني أفترض أن جواز سفري موجود في الأسفل منذ أن أبرزته في مكتب الاستقبال في الفندق يوم أتيت. لكني في الحقيقة لم أفكر فيه على الإطلاق، لم أفكر فيه منذ أن أخذه بوريس مني ووضعه في صندوق القفازات في السيارة، ثم أقفله عليه.

بهدوء شديد، شديد، وضعت دليل الهاتف من يدي محاولاً جعله يستقر على نحو يبدو اعتباطياً غير مدروس في عين مراقب محايد. من شأن هذا، في أحوال عادية، أن يكون أمراً واضحاً مباشراً. أبحث عن العنوان فأجد مقر القنصلية وأعرف إلى أين يتعين علي الذهاب. أقف في صف الانتظار. أنتظر إلى أن يأتي دوري. أتكلّم بصبر ولباقة. لدي بطاقات ائتمان: إثبات شخصية مزوَّد بصورة فوتوغرافية. يستطيع هوبي أن يرسل لي شهادة ميلادي بالفاكس. حاولت، نافد الصبر، أن أبعد عن ذهني نكتة رواها تودي باربر ذات مرة على العشاء ـ كيف فقد جواز سفره،

في إيطاليا؟ في إسبانيا؟ فكان عليه أن يستدعي شخصاً يشهد على هويته.

سماوات حبرية ملبدة. لا يزال الوقت مبكراً في أميركا. إنه وقت استراحة الغداء عند هوبي. إنه سائر الآن إلى سوق جيفرسون. ولعله يشتري بعض الأشياء من أجل من دعاهم لتناول طعام الغداء عنده يوم عيد الميلاد. ألا تزال بيبا في كاليفورنيا؟ تخيّلتها تتقلب في سرير الفندق، ثم تمد إلى الهاتف يداً ناعسة. عيناها لا تزالان مغمضتين. ثيو؟ أهذا أنت؟ هل أصابك شيء؟

قال بوريس: من الأفضل أن ندفع الغرامة ونخلّص أنفسنا بقليل من الكلام، إذا أوقفونا.

انتابني تعب شديد. إن في مثولي لدى القنصلية (أو مهما تكن)، والخضوع لمجموعة من المقابلات وملء أوراق رسمية مشقّة، أكبر مما يلزمني. لم أكن قد وضعت حدّاً زمنياً للانتظار... لم أقرر المدة التي سأمضيها منتظراً؛ لكن أية حركة ـ حركة عشوائية، حركة من غير عقل، حركة كحركة حشرة طائرة تئزّ داخل زجاجة مغلقة ـ بدت لي أمراً أفضل من بقائي حبيس الغرفة ولو لدقيقة إضافية أخرى... أفضل من بقائي هنا ألمح بطرف عيني ظلال أشخاص أتوهّمهم من حولي.

إعلان *تيفاني* ضخم آخر في صحيفة تريبيون يقدّم لي تحية بمناسبة بدء الموسم الجديد. ثم، على الصفحة المقابِلة، إعلان عن كاميرات رقمية مكتوب بخط فني... إعلان يحمل توقيع جون ميرو:

يمكنك النظر إلى صورة أسبوعاً كاملاً، ثم لا تتذكّرها مرة أخرى.

يمكنك أيضاً أن تنظر إلى صورة مدّة ثانية واحدة، لكنك تفكّر فيها طيلة حياتك.

محطّة القطارات المركزية. نحن في الاتحاد الأوروبي. لا يطلبون جوازات السفر عند الحدود. أي قطار، إلى أي مكان. تصورت نفسي ماضياً في دوائر لا هدف لها في أنحاء أوروبا: شلالات نهر الراين،

وممرات جبل تيرول، وأنفاق كالتي أراها في السينما، وعواصف ثلجية.

تذكرت ما قاله أبي مرة عندما كان ناعساً، نصف نائم على الأريكة: يتوقّف الأمر كله أحياناً على أداء حركة صحيحة، حتى عندما يكون الوضع سيئاً.

نظرت إلى الهاتف وقد جعلَتني الحمى في حالة دوار. جلست ساكناً تماماً، وحاولت التفكير. كان بوريس قد تحدّث على الغداء عن السفر من أمستردام إلى آنتويرب وإلى فرانكفورت أيضاً (لم أكن أريد الذهاب إلى أي مكان في ألمانيا)؛ لكن... أيضاً، إلى باريس. إذا ذهبت إلى القنصلية الأميركية في باريس من أجل تقديم طلب للحصول على جواز سفر جديد، فقد يكون أي ربط بمسألة مارتن أمراً أقل احتمالاً. لكن، لا مهرب من حقيقة أن الفتى الصيني كان شاهد عيان. كنت واثقاً من أنني موجود في كل كمبيوتر للشرطة على امتداد أوروبا بأسرها.

ذهبت إلى الحمّام لأغسل وجهي بالماء. مرايا كثيرة، كثيرة. أغلقت الماء وتناولت المنشفة لكي أجفّف وجهي. حركات منهجية متتالية، واحدة بعد أخرى. دائماً، يسوء مزاجي بعد حلول الليل، وأصير خائفاً. كأس من الماء. قرص أسبرين من أجل تخفيف الحمى. الحمى أيضاً، كانت تتصاعد بعد حلول الظلام. أفعال بسيطة. كنت أوتّر نفسي، وكنت أعرف هذا. لم أكن أعرف شيئاً عن الأحكام الصادرة في حق بوريس؛ لكن التفكير في احتمال أن يكون قد جرى اعتقاله كان يقلقني كثيراً. وكان يقلقني أكثر التفكير في احتمال أن تكون جماعة ساشا قد أرسلت شخصاً آخر لتعقبه. لكنني لم أسمح لتفكيري بمتابعة هذا الاحتمال.

2

في اليوم التالي ـ ليلة عيد الميلاد ـ أرغمت نفسي على تناول إفطار ضخم أتتني به خدمة الغرف على الرغم من أنني لم أكن راغباً فيه؛ ورميت بالصحيفة بعيداً من غير أن أنظر إليها لأنني خشيت أن أرى من

جديد كلمات ُ جريمة قتلَ ، وُ قتيلَ ، فأصير عاجزاً عن حمل نفسي على فعل ما يجب أن أفعله. أنهيت إفطاري من غير إحساس بطعمه. ثم جمعت الصحف التي تراكمت على سريري ومن حولي طيلة الأسبوع فلففتها كلها معاً ووضعتها في سلة القمامة. أخرجت من الخزانة قميصي الذي أفسدتُه بسائل التنظيف ذي البجعة البيضاء ـ تحقّقت من أن كيس النايلون الذي وضعته فيه كان مربوطاً جيداً ـ ورميت به في كيس آخر من السوق الآسيوي. تركت الكيس مفتوحاً ليصير حمله أكثر سهولة ولكي أضع فيه حجراً، إن عثرت على حجر في الطريق. وبعد أن رفعت ياقتي ولففت رقبتي من فوق الياقة بالوشاح، قلبت لافتةُ يرجى *عدم الإزعاج*َ حتى تدخل عاملة الخدمة لتنظيف الغرفة.

كان طَقساً سيئاً؛ وهذا ما كان مفيداً لي. مطر متجمّد رطب تقذفه الريح جانبياً فيقطر فوق القنال. سرت نحو عشرين دقيقة ـ متجمّداً، بائساً، لا أكف عن العطاس. إلى أن وجدت حاوية قمامة عند زاوية مهجورة لا سيارات فيها ولا مشاة ولا متاجر... بيوت عمياء أحكمتْ إغلاق نوافذها في وجه الريح.

ألقيت بالكيس سريعاً في تلك الحاوية، وتابعت سيري مبتهجاً فاجتزت أربعة شوارع، أو خمسة، بسرعة كبيرة على الرغم من اصطكاك أسناني. تبلّلت قدماي، وكان نعل حذائي رقيقاً لا يصلح للسير في هذه الشوارع المرصوفة بالحجارة؛ وانتابني برد شديد. متى يجمعون القمامة؟ لا أهمية لهذا!

إلا إذا ـ هززت رأسي حتى أبعد هذه الفكرة عنه ـ ذلك الكيس من السوق الآسيوي. كان اسم السوق الآسيوي مكتوباً على كيس النايلون، ولا يبعد السوق عن فندقي أكثر من بضع كتل سكنية! لكني حاولت إقناع نفسي بأن التفكير بهذه الطريقة ليس إلا سخفاً. هل رآني أحد. ثم، من يمكن أن يكون قد رآني، لا أحد!

كان ذلك مثل حوار لاسلكي بين وحدتين عسكريتين ـ *ألفا: تم الأمر. دلتا: إنني أتقدّم بصعوبة.*

كف عن هذا. كف عن هذا. لا مجال للتراجع.

لم أكن أعرف أين يمكن أن أجد موقف سيارات تاكسي فتابعت سيري نحو عشرين دقيقة أو أكثر، إلى أن نجحت آخر الأمر في استيقاف سيارة تاكسي في الشارع. قلت لسائقها التركي: «محطة القطارات المركزية».

لكن، عندما أنزلني السائق بعد رحلة في شوارع رمادية مسكونة ذكّرتني بالأفلام القديمة، ظننت للحظة أنه لم يأخذني إلى المكان الصحيح لأن واجهة ذلك المبنى أشبه بواجهة متحف: قباب وأبراج فانتازية من قرميد أحمر، نموذج من العمارة الفكتورية الهولندية الفظة. دخلت فتجولت بين حشود مسافري عطلة العيد؛ وبذلت ما استطعته حتى أبدو منتمياً إلى المكان وحتى أتجاهل عناصر الشرطة الذين بدو لي واقفين في كل مكان وفي كل زاوية أنظر إليها. أحسست بالضيق والحيرة مع تدفق هذا العالم الديمقراطي الكبير من حولي: أجداد وجدات، وطلاب وطالبات، وشباب وشابات متزوّجون حديثاً... مراهقون، وأطفال صغار يحملون حقائب الظهر؛ أكياس تسوّق، وأكواب قهوة، وقعقعة عجلات الحقائب، ومراهقون يجمعون تواقيع الناس من أجل منظمة السلام الأخضر؛ خلفية واسعة من همهمة أشياء بشرية. وجدت قطاراً إلى باريس ينطلق بعد الظهر؛ لكني كنت أريد آخر قطار لديهم.

كانت صفوف المنتظرين طويلة، لا آخر لها؛ صفوف ممتدة حتى أكشاك الصحف. قالت الموظفة عندما بلغت نافذتها آخر الأمر: «بطاقة لهذه الليلة؟». امرأة شقراء عريضة الكتفين في منتصف العمر لها صدر كبير. امرأة لطيفة مع الجميع كأنها شخصية في لوحة متوسطة المستوى تصوِّر مشهداً من مشاهد الحياة العامة.

أجبتها آملاً ألا يكون شكلي موحياً بشدة مرضي: «نعم، صحيح».

قالت من غير أن تنظر إليّ: «ما عدد المسافرين؟».

«واحد فقط».

«حسناً، جواز السفر من فضلك».

«لحظة...». قلتها بصوت أجش نتيجة المرض ورحت أتلمس جيوبي. كنت آمل ألا يطلبوا جواز السفر... «آه، آسف. جواز السفر ليس معي. إنه في خزانة الفندق. لكن...». أخرجت بطاقة إثبات الشخصية النيويوركية، وبطاقة الائتمان، وبطاقة الضمان الاجتماعي، ثم دفعت بها كلها عبر النافذة... «تفضّلي».

«لا بد من جواز السفر حتى تسافر بالقطار».

«أوه، بالطبع...». حاولت أن أبدو منطقياً، عارفاً... «لكني لست مسافراً قبل حلول الليل. ألا ترين؟...» أشرت إلى الأرض الخالية عند قدمي... «ما من أمتعة؟ إنني أودع صديقتي الآن. وبما أنني أتيت إلى المحطة، فقد قررت أن أقف في الصف وأشتري تذكرتي من أجل السفر ليلاً».

ألقت الموظفة نظرة على شاشتها: «حسناً، لديك متسع من الوقت. أقترح أن تقف في صف الانتظار وتشتري بطاقتك عندما تعود هذا المساء».

ضغطت بأصابعي على أنفي حتى لا أعطس: «نعم، لكني أريد شراء بطاقتي الآن».

«يؤسفني أن هذا غير ممكن».

«من فضلك، سيكون هذا عوناً كبيراً منك. إنني واقف هنا منذ خمس وأربعين دقيقة. ولست أدري كم سيكون طول صف المنتظرين في الليل». كنت واثقاً تماماً من أنني أتذكّر سماع بيبا ـ تجولت بالقطارات عبر أوروبا كلها ـ تقول إنهم لا يطلبون جوازات السفر في القطارات... «لست أريد إلا شراء البطاقة الآن حتى أتمكن من إنجاز بعض الأمور المتبقية لي قبل أن أعود في المساء».

نظرت الموظّفة إلى وجهي نظرة مدقّقة، ثم تناولت بطاقة إثبات الشخصية ونظرت إلى الصورة. نظرت في وجهي من جديد.

ترددت المرأة؛ أو بدت لي متردّدة. قلت: «انظري! يمكنك أن تري أنها صورتي. لديك اسمي، وبطاقة الضمان الصحي. وأيضاً...». مددت يدي إلى جيبي وأخرجت قلماً وورقة... «هذا إمضائي. يمكنك مقارنته بالإمضاء الذي على البطاقة». قارنتْ الإمضاءين. وضعتهما جنباً إلى جنب. نظرت إليَّ من جديد. نظرت إلى البطاقة، ثم بدا عليها فجأة أنها اتخذت قرارها: «لا أستطيع قبول هذه الوثائق». دفعت بالبطاقات عبر النافذة معيدة إياها.

«لم لا؟».

كان صف الانتظار من خلفي يزداد طولاً.

كررتُ سؤالي: «لماذا؟ وثائقي قانونية تماماً. وهي ما أستخدمه بدلاً من جواز السفر عندما أسافر في الولايات المتحدة. وقد رأيت بنفسك أن الإمضاءين متطابقان». أضفت عندما لم تجبني بشيء: «ألا ترين ذلك؟».

«آسفة».

«هل تعنين؟...». بدأت أسمع رنة اليأس في صوتي. لمست شيئاً عدائياً في نظرتها؛ كما لو أنها تتحدّاني أن أجادلها... «هل تقولين لي إن عليَّ أن أعود إلى المحطة الليلة وأقف في صف الانتظار من جديد؟».

قالت الموظفة وهي تنظر من فوق كتفي إلى المسافر التالي: «آسفة يا سيدي، لا يمكنني أن أساعدك. التالي».

سرت مبتعداً، أشق طريقي عبر زحام الناس، وأصطدم بهم. سمعت أحداً يناديني من الخلف: «أنت. أنت، يا صاح!».

ظننت أول الأمر أنني أهلوس وأسمع صوتاً غير موجود. كنت مشوشاً بعد وقوفي عند نافذة التذاكر. لكني استدرت، بصعوبة، فرأيت مراهقاً محبحب الوجه في نظارة وردية الإطار. كان رأسه حليقاً، وكان واقفاً

على رؤوس أصابعه في حذاءٍ رياضيٍّ ضخم. انتبهت إلى تلفّته الدائم من حوله فتوقّعت أن يعرض عليَّ أن يبيعني جواز سفر. لكنه مال في اتجاهي وقال: «لا تحاول!».

قلت غير واثق مما سمعت: «ماذا؟». وألقيت نظرة في اتجاه الشرطية الواقفة على مسافة خمس أقدام من خلفه.

«اسمع يا صاحبي. سافرت مئة مرة، جيئة وذهاباً، عندما كان جواز سفري معي. فلم يطلبه أحد مني. وعندما أتيت للمرة الأولى من غيره...؟ أأنت ذاهب إلى فرنسا؟ لقد حبسوني في سجن فرنسي للمهاجرين. حبسوني اثنتي عشرة ساعة... طعامهم قمامة، ومعاملتهم قمامة. شيء مخيف! زنزانة شرطة قذرة إلى حد فظيع. ثق بي. يجب أن تكون وثائقك سليمة. لن يكون الأمر مزاحاً إذا لم يكن جواز سفرك معك».

أجبته: «نعم، أنت محق». كنت أتعرّق في معطفي الذي لم أجرؤ على فك أزراره. لم أجرؤ على إرخاء وشاح رقبتي أيضاً.

حر. صداع. سرت مبتعداً عنه؛ وأحسست بالنظرة الغاضبة لكاميرا مراقبة تدور في اتجاهي. حاولت أن يكون مظهري عادياً خلال سيري بين الناس، لكني كنت مشتعلاً بالحمّى، مرتبكاً، وكنت ممسكاً في جيبي بالورقة التي سجلت عليها رقم هاتف القنصلية الأميركية.

مر بعض الوقت قبل أن أتمكّن من العثور على هاتف مدفوع. سرت على الجهة الأخرى فوصلت إلى منطقة مزدحمة بمراهقين فوضويين جالسين على الأرض في ما يشبه مجلساً قبَلياً، ثم استغرقت وقتاً أطول حتى أتبيَّن كيفية إجراء المكالمة.

سيل من الكلمات باللغة الهولندية. ثم رحَّب بي صوت أميركي مريح: أهلاً بكم في قنصلية الولايات المتحدة الأميركية في هولندا؛ هل تفضلون المتابعة باللغة الإنكليزية؟ مزيد من التعليمات؛ ومزيد من الخيارات. اضغط الرقم واحد من أجل كذا. واضغط الرقم اثنين من

أجل كذا. واضغط مفتاح التوقف من أجل التكلم مع الموظف. طبقت التعليمات صابراً ووقفت أنظر إلى جموع الناس حتى انتبهت إلى أن ترك وجهي مكشوفاً أمامهم قد يكون فكرة سيئة. فاستدرت في اتجاه الجدار. استمر رنين الهاتف زمناً طويلاً انجرفت خلاله في أفكار ضبابية لا علاقة لها بالأمر. ثم انقطع الرنين وسمعت صوتاً أميركياً سارّاً بدا لي كأنه آتٍ من شاطئ البحر في *سانتا كلوز*: «صباح الخير. القنصلية الأميركية في هولندا. كيف أستطيع مساعدتكم؟».

قلت مرتاحاً: «مرحباً. إنني...». كنت قد فكرت في تقديم اسم زائف، فقط حتى أحصل على المعلومات اللازمة. لكني كنت واهناً، مرهقاً، إلى حد جعلني غير مهتم بهذا... «أظنني وقعت في مشكلة. اسمي ثيودور بيكر. وقد سُرق مني جواز سفري».

«أوه، يؤسفني سماع هذا...». كانت تنقر على مفاتيح شيء ما. هذا ما كنت أسمعه. وكنت أسمع أيضاً موسيقى عيد الميلاد في الخلفية... «وقت سيئ من السنة لحدوث هذا الأمر... فالجميع يسافر، أليس كذلك؟ هل أبلغت السلطات بسرقة جواز سفرك؟».

«ماذا؟».

«ألم تقل لي إنه قد سُرق؟ عليك إبلاغ السلطات على الفور. يجب أن تعرف الشرطة بالأمر في أسرع وقت».

لعنت نفسي لأنني قلت لها إن جواز سفري مسروق: «أنا... لا، آسف، هكذا حدث الأمر. محطة القطارات المركزية...». نظرت من حولي... «أتصل بك الآن من هاتف عمومي. وإذا أردت الحقيقة، فأنا لست واثقاً تماماً من أنه قد سرق مني. من الممكن أن يكون قد سقط من جيبي».

مزيد من النقر على المفاتيح. قالت لي: «حسناً، سواء كان مفقوداً أو مسروقاً فإن عليك إبلاغ الشرطة».

«نعم، لكن عليَّ أن أسافر بالقطار بعد قليل. هل تدركين ذلك؟ لكنهم

لا يريدون السماح لي بالصعود إلى القطار من غير جواز سفر. يجب أن أكون في باريس الليلة».

«انتظر لحظة...». كان زحام الناس في المحطة شديداً جداً. روائح الصوف الرطب، وروائح الناس المزدحمين من حولي، صارت فظيعة في هذا الدفء المبالغ فيه. عادت إليَّ الموظفة بعد لحظة... «الآن، اسمح لي بأن آخذ منك بعض المعلومات...».

الاسم. تاريخ الميلاد. تاريخ إصدار جواز سفري، ومكان إصداره. كنت أتعرق في معطفي. أجساد تتنفس رطوبة في كل مكان من حولي.

قالت لي: «هل لديك وثائق تثبت أنك مواطن أميركي؟».

«عفواً، لم أفهم».

«هل لديك جواز سفر منتهي المدة؟ شهادة ميلاد؟ أو شهادة اكتساب الجنسية؟».

«لدي بطاقة الضمان الاجتماعي. ولدي بطاقة إثبات شخصية من ولاية نيويورك. أستطيع أيضاً أن أجعلهم يرسلون شهادة ميلادي من الولايات المتحدة عن طريق الفاكس».

«أوه، ممتاز. هذا كافٍ تماماً».

«حقّاً؟». وقفت من غير حركة. أهذا كل ما في الأمر؟

«هل هنالك كمبيوتر متاح لك؟».

«ممم... كمبيوتر من الفندق! ... بالتأكيد».

«حسناً...». أعطتني عنواناً على الإنترنت.

«عليك أن تقوم بتنزيل نموذج التصريح الخاص بجوازات السفر المفقودة أو المسروقة. وبعد ذلك املأه واجلبه إلينا. اجلبه إلى مقر القنصلية. نحن قريبون من متحف ريكز. هل تعرف المكان؟».

بلغ مني الارتياح حداً جعلني غير قادر إلّا على البقاء واقفاً حيث كنت والاستسلام المذهول لضجيج الناس وثرثرتهم من حولي.

كانت الفتاة الكاليفورنية تقول لي بصوت مقتضب النبرة أخرجني من استغراقي الحالم الملون المحموم: «إذاً... هذا ما أريده منك. نموذج التصريح. الوثائق التي سيرسلونها لك بالفاكس. وصورتان شخصيتان بقياس 5×5 سم بخلفية بيضاء. ولا تنسَ أيضاً إحضار نسخة من محضر الشرطة».

سألتها منزعجاً: «ماذا؟».

«مثلما كنت أقول لك... في حالة جواز السفر المسروق أو المفقود، يكون عليك إبلاغ الشرطة وتنظيم محضر لديهم».

«إنني...». كنت أنظر إلى امرأة عربية محجَّبة تسير بالقرب مني، من غير صوت، مرتدية السواد من رأسها إلى أخمص قدميها... «لن يكون لديَّ وقت لهذا».

«ماذا تعني؟».

«لا أقول لك إنني مسافر إلى أميركا اليوم. لكن الأمر...» نوبة سعال جعلت الدموع تقطر من عيني، فلم أستطع استعادة نفَسي إلا بعد برهة... «ينطلق قطاري إلى باريس بعد ساعتين من الآن. لذا، أعني... لا أعرف ما الذي يجب أن أفعله. لست واثقاً من أنني قادر على تحضير الأوراق اللازمة كلها والذهاب إلى مركز الشرطة أيضاً».

«لا بأس...». بدت آسفة... «اسمع، في الحقيقة، يغلق مقر القنصلية أبوابه بعد خمس وأربعين دقيقة من الآن».

«ماذا تقولين؟».

«ينتهي عملنا في ساعة مبكرة اليوم. إنها ليلة عيد الميلاد، كما تعلم! ولدينا عطلة غداً، وثم تأتي عطلة نهاية الأسبوع. لكننا سنعود إلى العمل في الثامنة والنصف صباحاً يوم الاثنين، بعد عيد الميلاد».

«الاثنين؟».

قالت لي وبدا في صوتها شيء من الاعتذار: «نعم، إنني آسفة. هذه معاملة رسمية».

«لكنها حالة طارئة...». صوتي متحشرج بفعل المرض.
«حالة طارئة! عائلية أم صحية؟».
«أنا...».
«هذا لأنه، في بعض الحالات النادرة جداً، يمكننا إصدار جواز سفر طارئ خارج ساعات العمل...». لم يعد صوتها ودوداً؛ صارت مستعجلة، تقرأ من نص أمامها. سمعت رنين هاتف آخر عندها. كان مثل رنين هاتف في فيلم سينما... «وللأسف، فإن هذا الإجراء منحصر بالحالات الطارئة، حياة أو موت. وعند ذلك يتعيّن على العاملين في القنصلية اتخاذ قرار بأنها حالة طارئة وفق المعايير المحلية قبل إصدار جواز السفر. لذا، ما لم تكن هنالك ظروف من قبيل وفاة أو مرض خطير تتطلّب سفرك إلى باريس هذا المساء، وما لم تتمكن من تزويدنا بمعلومات تثبت وجود هذه الحالة الطارئة ـ أي بتصريح من طبيب يشرف على الحالة، أو من رجل دين، أو من مؤسسة لدفن الموتى...».
الاثنين! اللعنة! لا أريد حتى التفكير في محضر الشرطة... «لحظة، آسف، استمعي...». كانت تحاول إنهاء المكالمة!
«هذا صحيح. أحضر الوثائق المطلوبة يوم الاثنين الثامن والعشرين من هذا الشهر. ثم... نعم، عندما يصير طلبك قيد المعالجة، فسوف ننجزه في أسرع وقت ممكن ـ آسفة، اعذرني لحظة». صوت الضغط على مفتاح. صار صوتها خافتاً، بعيداً... «صباح الخير. قنصلية الولايات المتحدة الأميركية في هولندا. انتظر لحظة من فضلك!». وعلى الفور، بدأ الهاتف يرن من جديد. نقرة على مفتاح. صباح الخير. قنصلية الولايات المتحدة الأميركية في هولندا، انتظر لحظة من فضلك!
سألتها عندما عادت إلي: «كم تستطيعون الإسراع في إصدار جواز السفر من أجلي؟».
«أوه، بعد أن تقدم الطلب. يجب أن يكون جواز سفرك جاهزاً لدينا في غضون عشرة أيام عمل، بالحد الأقصى. عشرة أيام عمل. لكن... لو كنا

في الأيام العادية لبذلت كل جهدي حتى أستعجل العملية وتحصل عليه بعد سبعة أيام. لكننا في فترة العطلات. أنا واثقة من أنك تفهم هذا. عدد الموظفين لدينا قليل الآن. كما أن مواعيد عملنا ستظل غير منتظمة تماماً حتى بداية السنة الجديدة. لذلك، آسفة...». أضافت هذا خلال الصمت المذهول الذي حلّ علي... «قد يستغرق وقتاً. أعرف أنها أخبار سيئة».

«وماذا أفعل؟».

«هل أنت في حاجة إلى ُ *معونة المسافر*ُ ؟».

«لست متأكد من أنني أفهم معنى هذا».

العرق يتصبب مني. هواء حار رطب، ثقيل بروائح الناس، لا أكاد أستطيع تنفسه.

«إرسال نقود إليك... إيواء مؤقت...».

«كيف أستطيع العودة؟».

«هل أنت مقيم في باريس؟».

«لا. بل في الولايات المتحدة».

«الحقيقة أنه... في حال استخدام جواز السفر المؤقت... إن جواز السفر المؤقت لا يحتوي على الشريحة التي لا بد منها لدخول الولايات المتحدة. وبالتالي، فلا أظن أن هناك أية طرق مختصرة تسمح لك بالعودة إلى البلاد في وقت أسرع مما وصفته لك...». رنين هاتف، رنين، رنين... «لحظة واحدة يا سيدي، هل يمكنك الانتظار قليلاً؟».

«الآن... اسمي هولي. هل تريد أن أعطيك رقم هاتفي الفرعي هنا؟... تحسباً لاحتمال تعرضك لمشكلة ما أو إذا وجدت نفسك في حاجة إلى مساعدة خلال إقامتك هنا».

3

لأسباب لا أعرفها، كانت الحمى ميالة إلى بلوغ ذروتها مع حلول الليل. لكن هذا الوقت الطويل من وقوفي على قدميّ في البرد جعلها

تبدأ نشاطها على شكل قفزات متقطعة ذات طبيعة مفاجئة أشبه بجسم ثقيل يصطدم عنيفاً بجانب بناية مرتفعة. سرت عائداً وأنا لا أكاد أفهم السبب الذي يجعلني أتحرّك، أو سبب عدم سقوطي، أو حتى سبب سيري إلى الأمام... نوع من انزلاق غير واعٍ، غير مستند إلى الأرض، حملني عالياً فوق نفسي في شوارع جانبية مطِيرة عند القنال، وعلا بي، بلا جسد، فوق عِلّيات البيوت وتيارات الهواء حيث بدا لي أنني أنظر إلى نفسي من الأعلى. أخطأت عندما لم آخذ سيارة تاكسي من عند المحطة. ظللت أرى كيس النايلون في حاوية القمامة؛ وظللت أرى وجهة قاطعة التذاكر الورديّ اللامع؛ وظللت أرى بوريس دامع العينين، ويده الملطخة بالدم قابضة على الموضع المحترق في كم معطفه. كانت الريح تزأر من حولي، ورأسي يحترق؛ وعلى فواصل غير منتظمة، كنت أجفل عند إحساسي برفرفة قاتمة عند طرف مرفقي تشبه رفرفة الصرع.

دفقات سوداء، ووجوه زائفة، ولا أحد هناك. في الواقع، لم يكن في الشارع ـ من حين لآخر ـ غير راكب دراجة منطوٍ على نفسه تحت المطر.

رأس مثقل. حلق متورم. عندما أفلحت أخيراً في استيقاف سيارة تاكسي في الشارع. كنت على بعد دقائق معدودة من الفندق. كان الأمر الجيد الوحيد عندما صعدت إلى غرفتي ـ مرتجفاً، متجمّداً حتى العظام ـ هو أنهم قد نظفوا الغرفة واستكملوا النواقص في الميني بار. كنت قد شربت كل شيء فيه، حتى زجاجة الكوانترو[1].

أخرجت زجاجتَيْ الجن الصغيرتين فمزجتهما بماء حار من الصنبور ثم جلست على الكرسي المزخرف عند النافذة. كأسي متدلية من أطراف أصابعي. جلست أرقب إنزلاق الساعات: غير مستيقظ تماماً؛ حالة نصف حلمية؛ وضوء شتوي رزين يدخل الغرفة مائلاً، من جدار إلى جدار، في أشكال هندسية... متوازيات مستطيلات تنزلق منسكبة على السجادة ثم

(1) الكوانترو: شراب كحولي عديم اللون مستخلص من البرتقال.

تضيق إلى أن تخبو فتصير لا شيء. وكان الوقت وقت العشاء. معدتي تؤلمني. العصارة الحامضة المتصاعدة تؤلم حلقي. بقيت جالساً، في الظلام. ما كان هنالك شيء لم أفكر فيه، كثيراً، في ظروف أخف وطأة بكثير. كان ذلك الدافع يهزني هزاً عظيماً غير متوقع، كان همساً سامّاً لم يفارقني تماماً في يوم من الأيام، كان همساً يقف بعض الأيام متلكئاً عند عتبة سمعي، ثم يزمجر منفلتاً في أيام أخرى فيصير أشبه بنوبة سعار رؤيوي... لماذا؟ لم أكن واثقاً من السبب... أحياناً، كان فيلم سيئ، أو وليمة عشاء مزعجة قادرَاً على إطلاق ذلك الصوت. ضجر معجَّل، وألم مؤجَّل، ذعر مؤقت، وقنوط لا يزول... تأتيني كلها معاً وتضطرم في ضوء رمادي كئيب كنت أراه، أراه حقاً، أراه عندما ألتفت ناظراً عبر السنين فأبصر، بذهن صافٍ تماماً وبيأس واضح تماماً، أن العالم وكل شيء فيه خراب دائم لا سبيل إلى احتماله وما من شيء حسن فيه، أو حتى مقبول... رهاب احتجاز الروح الذي لا يُطاق، والغرفة التي لا نوافذ فيها ولا مخرج منها، موجات من عار وذعر، *اتركوني وشأني*، أمي ميتة على أرض رخامية، *أوقفوا هذا، أوقفوا هذا*. أتمتم لنفسي في المصاعد وفي سيارات التاكسي. *اتركوني وشأني، أريد أن أموت*. غضب بارد، ذكيّ، غضب يغذي نفسه بنفسه، غضب قادني ـ أكثر من مرة ـ إلى الطابق العلوي، إلى غرفتي، يلفني ضباب التصميم على ابتلاع تشكيلة عشوائية من كل ما تقع يدي عليه من مشروبات وأقراص مخدرة: يفشل ذلك لخراقتي ولقدرتي الغريبة على التحمل فيكون استيقاظي بعدها مفاجأة غير سارة. لكني أشعر بالارتياح لأن هوبي لن يكون مضطراً إلى العثور عليَّ ميتاً.

طيور سوداء. سماء كارثية بلون الرصاص كأنها آتية من لوحة لإغبريت فان بربويل.

نهضت واقفاً وشغلت مصباح طاولة المكتب. سرت متمايلاً في

ضوئه الضعيف، بلون البول. كان هنالك انتظار. كان هنالك فرار. لكنهما لم يكونان خيارين ممكنَيْن ضمن قدرتي على التحمل: هرولات ووقفات متجمّدة لا معنى لها لفأر في قفص أفعى؛ أشياء لا فائدة منها إلا إطالة المعاناة والانتظار. كان هنالك أيضاً خيار ثالث: أحسست بأن ثمة أسباباً متنوعة يمكن أن تجعل موظفاً في القنصلية يستجيب سريعاً فيتصل بي هاتفياً إذا تركت ـ بعد ساعات العمل ـ رسالة صوتية تقول إنني مواطن أميركي راغب في تسليم نفسي للسلطات لأنني ارتكبت جريمة قتل.

فعل تمرّد. حياة فارغة، عبثية، غير محتملة. فلماذا أكون مديناً بالولاء لها؟ لا ولاء على الإطلاق. لماذا لا أنازل القدر؟ لماذا لا أرمي بالكتاب في النار وأنتهي من الأمر كله؟ ما من نهاية منظورة لهذا الرعب الحاضر، بل هنالك الكثير من الرعب التجريبي، الخارجي، الذي يمكن أن ينضاف إلى مؤونة الرعب التي هي عندي، التي تغذّي نفسها بنفسها. وبما أن لديَّ ما يكفي من المسحوق المخدر (تحقّقت من الكيس: بقي أقل من نصف الكمية التي كانت فيه) فسوف يسعدني أن أتناوله كله دفعة واحدة وأهوي على وجهي: ظلمة عظيمة الروح، وانفجار نجوم.

لكن الكمية ما كانت كافية لأن أضمن الإجهاز على نفسي. وما كنت راغباً في إهدار ما كان لديَّ من أجل بضع ساعات من الغياب والنسيان أستيقظ بعدها لأجد نفسي حبيس قفص (أو، أسوأ من هذا، في مستشفى هولندي، من غير جواز سفر). لكن مقاومة جسدي كانت ضعيفة، وكنت واثقاً تمام الثقة من أن لديَّ ما يكفي لإنجاز المهمة إذا سبقت ذلك بشرب ما لديَّ من كحول، ثم أتبعته بالقرص المخصص للحالات الطارئة الذي أحمله معي.

زجاجة فودكا مثلّجة في الميني بار. لم لا؟ شربت بقية كأس الجن، ثم فتحت الزجاجة شاعراً بالتصميم والبهجة ـ كنت جائعاً. لقد عوَّضوا ما استهلكته من مُكَسَّرات وعصائر ومأكولات خفيفة! لكن الأمر سيسير سيراً أفضل إذا كانت معدتي فارغة.

كان الارتياح غامراً. انصراف هادئ. متعة تامة، كاملة، متعة استنشاق المسحوق كله دفعة واحدة. عثرت في الراديو على محطة موسيقى كلاسيكية ـ أغاني عيد الميلاد البسيطة، أغاني طقسية كئيبة، فيها تكوُّنٌ شبحي أكثر مما فيها من أنغام ـ فكرت في أن أقوم فأستحم.

لكن هذا يستطيع الانتظار.

بدلاً من ذلك، فتحت درج المكتب فوجدت فيه مصنفاً باسم الفندق يحتوي على أوراق للكتابة. حجارة رمادية في كاتدرائية، ونغمات سداسية متدرّجة. أنشودة كنسية: *ركس فيرجينَم أماتور*. بين الحمى وماء القنال المتثني في الخارج، كان، في وقت واحد، الفراغ من حولي قد تهاوى هادئاً فصار حالة ازدواج مسكونة، منطقة حدّية هي غرفة الفندق وقمرة سفينة تتمايل تمايلاً هيّناً. الحياة في أعالي البحار. الموت في الماء. آندي يخبرني، عندما كنا طفلين... يخبرني بصوته البشع أنه سمع على *'القناة التعليمية'* أن العذراء شفيعة البحّارة وأن تكرار الصلوات لها يحميك من الموت غرقاً. العذراء مريم، نجمة البحر.

فكرت في هوبي خلال قداس منتصف الليل راكعاً في الكنيسة مرتدياً بدلته السوداء. يبلى الطلاء الذهبيّ بشكل طبيعي. على باب خزانة، وعلى سطح مكتب، غالباً ما تكون هنالك أثلام دقيقة.

تبحث الأشياء عن مالكيها الشرعيين. إن لها صفات بشرية. إنها مراوغة أو صادقة أو شكّاكة أو رفيعة.

إن القطع الاستثنائية حقاً لا تظهر آتية من لا مكان.

لم يكن قلم الفندق ممتازاً. تمنيت لو أن لديَّ أفضل منه. إلا أن الورق كان سميكاً ناعماً. أربع رسائل. يجب أن تكون رسالتا هوبي والسيدة باربر أكثر طولاً لأن هذين الشخصين أكثر من يستحق تفسيراً، ولأنهما الشخصان الوحيدان اللذان سيهتمان للأمر حقاً، إن مت. لكني سأكتب رسالة لكيتزي أيضاً حتى أطمئنها إلى أن الذنب ليس ذنبها. وسوف تكون

رسالة بيبا أقصر تلك الرسائل كلها. أريد أن تعرف كم أحببتها؛ وأريد أيضاً إخبارها بأنها ليست ملومة على الإطلاق على أنها لم تبادلني الحب.

لكني لن أقول هذا. أردت أن أنثر بتلات الورد، لا سهام السم. المهم في الأمر هو أن تعرف، باختصار، كم جعلتني سعيداً؛ في حين أترك الجزء الأكثر وضوحاً من غير أن أقول عنه شيئاً. عندما أغمضت عينيَّ، فاجأتني ومضات الذاكرة الحادة التي جعلتها الحمى تتفجّر آتية من لا مكان مثلما ينطلق متعقبو الأثر في الأدغال، مثل شهب متوهجة من مادة شديدة التفصيل معقدة العواطف. أوتار قيثارة من نور عبر النوافذ المحجوبة في شقتنا القديمة في الجادة السابعة، حصير السيزال[1] الخشن، وأثره الأحمر الذي كان ينطبع على يديَّ وركبتيّ عندما ألعب على الأرض. فستان الحفلات الأحمر البرتقالي عند أمي، وتلك الأشياء اللامعة عند حافة التنورة، الأشياء التي كنت أحب لمسها دائماً. خادمتنا ألاميدا تهرس الموز الأخضر في وعاء زجاجي. آندي يحييني قبل أن يلج مدخل شقة أهله الكئيب: *هاي، كابتن*. أصوات من القرون الوسطى، متقشّفة، من عالم آخر. جاذبية أغنية بسيطة، غير متكلفة،...

في الحقيقة، لم أكن أحس بأي انزعاج؛ ذلك هو الأمر. بدلاً من الضيق، كنت أحس الأمر أشبه باقتلاع آخر الجذور وأصعبها عندما انحنى عليَّ طبيب الأسنان تحت مصباحه وقال: *انتهينا تقريباً*.

24 ديسمبر

عزيزتي كيتزي،

يؤسفني كثيراً ما حدث، لكني أريد أن تعرفي أن الأمر لا علاقة له بك على الإطلاق، ولا علاقة له بأي فرد من أفراد أسرتك. سوف أكتب لأمك رسالة مستقلة تتضمّن مزيداً من المعلومات؛ لكني أريد أن أؤكد لك الآن، بيني وبينك، أن الأشياء التي فعلتُها لم تكن متأثرة بأي شيء مما جرى بيننا. وأخص بهذا ما حدث في الآونة الأخيرة.

---

(1) السيزال: نبات صحراوي منتشر في المكسيك تصنع الحصر من أوراقه الليفية.

من أين أتت هذه النبرة المتيبّسة، ومثلها خط يدي المتيبّس على نحو غير طبيعي؟ لم أكن أعرف هذا ـ كان شيئاً غير متسق مع هلوساتي وذاكرتي التي تمطرني بمشاهد من كل نوع، ومن كل ناحية. كان في المطر المتجمد الذي يصفع زجاج النوافذ ثقل تاريخي عميق، وجوع، وجيوشٌ تسير، وحزن يتقطر من غير انقطاع.

تعرفين جيداً، بل قلت لي ذلك بنفسك أيضاً، إن لدي مشكلات كثيرة بدأت قبل لقائنا بزمن طويل. وتعرفين أنك لا تتحمّلين أية مسؤولية عن هذه المشكلات. وإذا كانت لدى أمك شكوك حول دورك في ما حدث مؤخراً، فإنني أحثّك على إحالتها إلى تيسا مارغوليس، أو إلى إيميلي ـ سيكون هذا أفضل ـ التي ستكون شديدة السرور بأن تطلعها على آرائها في شخصيتي. وأحثّك أيضاً ـ هذه مسألة مختلفة تماماً ـ على عدم السماح أبداً لهافيستوك إيرفينغ بدخول شقتكم بعد الآن.

كيتزي عندما كانت طفلة. شعرها الأشقر متدلٍ على وجهها. *أطبق فمك أيها الغبي. أسكت وإلا قلت لأمي.*

أخيراً، وليس آخراً ـ

(تردّد قلمي عند هذه الجملة)

أخيراً، وليس آخراً، أود أن أقول لك إنك كنت جميلة جداً في الحفلة، وإنني تأثّرت كثيراً لما رأيتك قد وضعت قرطَيْ أمي. لقد كانت تحب آندي كثيراً. لو كانت حية لأحبتك أنت أيضاً، ولفرحت كثيراً بأن نكون معاً. يؤسفني أن الأمر لم ينجح. لكني آمل حقاً أن تسير حياتك سيراً حسناً.

مع الحب

ثيو

وقّعت الرسالة؛ ووضعتها في مغلف؛ ثم أغلقت المغلف، ووضعته جانباً. لا بد أن لديهم طوابع في مكتب الاستقبال.

والآن؛

عزيزي هوبي،

ستكون كتابة هذه الرسالة أمراً صعباً. يحزنني أن أكتبها.

موجات متناوبة من تعرّق وبرد شديد. بدأت أرى بقعاً خضراء. كنت في حالة حمى شديدة أحسست معها كما لو أن الجدران تتقلص من حولي.

لا علاقة للأمر بالقِطع غير الأصلية التي بعتها. وأظنك ستسمع في وقت قريب جداً بالسبب الذي جعلني أكتب إليك.

حمض النتريك. سخام المصباح. قطع أثاث اكتسبت، مثل كل شيء حي، علامات وندوب كثيرة على مر الزمن. إنها آثار الزمن، مرئية، وغير مرئية.

... و، لست أعرف كيف أقول لك هذا، لكني أظن أن ما أفكّر فيه هو تلك الجروة الصغيرة المريضة التي وجدناها، أنا وأمي، في أحد الشوارع في الحي الصيني. كانت قابعة بين حاويتَيْ قمامة. كانت صغيرة جداً، قذرة، كريهة الرائحة. كانت شديدة النحول؛ جلد وعظم؛ غير قادرة على الوقوف لشدة ضعفها. كان الناس يتجاوزونها سائرين من غير أن يلقي أحد إليها بالاً. ضايقني هذا، فوعدتني أمي بأن نأخذها معنا إذا وجدناها باقية في مكانها بعد أن ننهي طعامنا. وعندما خرجنا من المطعم، كانت الكلبة الصغيرة لا تزال هناك. وهكذا، أوقفنا سيارة تاكسي وحملتها بين ذراعيَّ. وعند وصولنا إلى البيت، أعدت لها أمي صندوقاً وضعته في المطبخ، فسرّت المسكينة كثيراً، وراحت تلعق وجوهنا، وشربت طناً من الماء، وأكلت طعام الكلاب الذي اشترته لها أمي، ثم تقيأت.

سوف أختصر هذه القصة الطويلة كلها وأقول إنها ماتت. لم نكن مذنبين في موتها. لكننا شعرنا بأننا مسؤولان عنها. أخذناها

إلى الطبيب البيطري، واشترينا لها طعاماً خاصاً، لكن حالتها استمرت في التدهور. مع الوقت، صرنا مولعين بها كثيراً، أنا وأمي. أخذتها أمي مرة أخرى إلى طبيب متخصص في المركز الطبي للحيوانات. قال الطبيب إن الكلبة مصابة بمرض ـ نسيت اسمه ـ وإنها كانت مصابة به قبل أن نجدها. قال: أعرف أنكما لا تحبّان سماع هذا، لكن من الأفضل والأكثر رحمة لها أن ننهي حياتها الآن.

كانت يدي تطير على الورقة طيراناً... قفزات متقطعة مجنونة. بلغت نهاية الصفحة، ومددت يدي لكي أتناول واحدة أخرى، ثم توقفت وقد هالني ما رأيت. أحسست خلال الكتابة بالتحرر من العبء، وبنوع من الانزلاق اليسير الهيّن؛ لكن ما كتبته كان خالياً من كل ما تخيلته من طلاقة ووداع مؤثّر. كانت السطور التي كتبتها معوجّة، منحنية إلى الأسفل؛ وما كان خطي جميلاً ولا متسقاً، ولا حتى مقروءاً. لا بد لي من العثور على طريقة حتى أشكر هوبي وأقول ما أردت قوله له: تحديداً، ألّا يحزن من أجلي، وأن يعرف أنه كان طيباً معي على الدوام وأنه فعل ما في وسعه من أجلي تماماً مثلما فعلنا ـ أنا وأمي ـ كل ما استطعناه لمساعدة تلك الكلبة الصغيرة. كان حديثي عنها وثيق الصلة بالفكرة، على الرغم من عدم الرغبة في المضي في تفاصيل تلك القصة... كانت خصالها الحلوة اللطيفة ذات أثر تخريبي لا يمكن تصديقه خلال الأيام التي سبقت موتها، فقد عاثت في الشقة فساداً ومزقت أريكتنا كلها.

كتابة عديمة الطعم، مشبعة بالبكاء، غارقة في ذاتها! أحسست كما لو أن سكيناً حادّاً قد كشط بطانة حلقي.

صوت أمي: *لقد تمزّق تنجيد الأريكة. انظر هنا: لدينا تسوّس في الخشب! علينا أن نعالجه بالكوبرينول*[1].

---

(1) الكوبرينول: مستحضر على شكل طلاء يستخدم لوقاية الخشب من التسوس.

توقّعت ألّا أستيقظ أبداً في تلك الليلة التي تناولت فيها جرعة زائدة في حمّام الطابق العلوي في بيت هوبي؛ لكنني استيقظت على أية حال فوجدتني منبطحاً على بلاط الأرض السداسي القديم، فأذهلني كم يمكن أن يكون ذلك الحمّام القديم العائد إلى فترة ما قبل الحرب متألقاً بما فيه من تجهيزات بيضاء عند النظر إليه من الحياة الأخرى، بعد الموت.

بداية النهاية؟ أو نهاية النهاية؟ *فابلهافت*[1].

تلك هي أكبر متعة على الإطلاق!

لكل شيء وقت. أقراص الأسبرين. ماء بارد من الميني بار. تعثَّر الأسبرين وعلق في صدري كأنني ابتلعت حصى. دققت على صدري حتى تنزل الأقراص إلى معدتي. لم يفعل الشراب إلا أن جعلني أشعر بقدر كبير من الغثيان والظمأ والتشوّش. أحسست كما لو أن حلقي ممتلئ بخطافات لصيد السمك. سال الماء على خدي؛ وكنت ألهث وأتنفس صافراً. لقد فتحت زجاجة النبيذ لكي استمتع بها (هكذا افترضت)، لكن السائل دخل جوفي كأنه بنزين وراح يحرق معدتي ويجرّحها. هل أدخل وأستحم؟... هل أتصل بخدمة الغرف وأطلب شراباً حاراً... شيئاً بسيطاً، حساء أو شايا؟ لا: ليس عليَّ إلا أن أنهي هذا النبيذ، أو ربما أنتقل مباشرة إلى شرب الفودكا. قرأت في مكان ما على الإنترنت أن نسبة نجاح محاولات الانتحار عن طريق تناول جرعة مخدرات زائدة لا تتجاوز اثنين بالمئة فقط، وهذا ما بدا لي رقماً منخفضاً إلى حد غريب. إلا أن تجربتي السابقة كانت مؤيدة له! *لن تمطر بعد الآن!* هكذا كانت الرسالة التي تركها أحد المنتحرين. *ما كان ذلك كله إلا مسخرة!* كلمات زوج الممثلة جين هارلو الذي قتل نفسه ليلة زفافهما. لكن الممثل جورج ساندرز كان الأفضل... فيلم كلاسيكي قديم من أفلام هوليوود كان أبي يعرفه عن ظهر قلب، وكان يحب الاستشهاد بعبارة منه: *عزيزي العالم، أنا ذاهب لأنني ضجرت!* ومن ثم الشاعر هارت

(1) فابلهافت: رائع، بالألمانية.

كرين. استدار وقفز فانتفخ قميصه كالبالون مع سقوطه. *أودّعكم جميعاً!* هكذا كانت صيحته الوداعية عندما قفز من السفينة.

ما عدت أعتبر جسدي لي. لقد كف عن كونه جزءاً مني. تتحرك يداي فأحسهما مستقلتين عائمتين من تلقاء نفسيهما. وعندما وقفت، كان ذلك كأنني أحرّك دمية ... أنصب قامتي، وأنهض مهتزاً كأن خيوطاً تحركني.

أخبرني هوبي مرة بأنه كان في أول شبابه يشرب ويسكي من نوع كَتي *ساك* لأن هارت كرين كان يشربه. معنى كتي *ساك* هو' *تنورة قصيرة*' .

جدران خضراء شاحبة في صالة البيانو، وأشجار نخيل، وآيس كريم بطعم الفستق.

نوافذ يكسوها الجليد. غرف غير مدفَّأة في طفولة هوبي.

المعلمون القدامى لم يكونوا مخطئين أبداً.

فيم كنت أفكر، وبم كنت أحس؟

كان التنفس مؤلماً. وكان مغلف الهيروين في درج الطاولة الصغيرة إلى الناحية الأخرى من السرير. على الرغم من أن أبي (بما كان لديه من حب شديد لجحيم عالم المشاهير) كان سيعجب كثيراً بهذا المشهد كله ـ المخدِّر، وطبق السجائر القذر، والمشروبات الكحولية، وبقية ذلك ـ لم أكن قادراً على تحمل فكرة أن يجدوني على الأرض في ثوب الحمام الخاص بالفندق مثل واحد ممن يؤدّون الأغاني الرخيصة في الصالات. كان عليَّ أن أنظف المكان وأغتسل وأحلق ذقني وأرتدي بدلتي حتى لا يكون مظهري مزرياً عندما يجدوني. فقط بعد ذلك، في آخر الأمر، بعد أن تنصرف عاملات خدمة الغرف، سأرفع لافتة' يرجى *عدم الإزعاج*' .

من الأفضل أن يعثروا عليَّ سريعاً لا أن يجدوني بسبب الرائحة.

كان إحساسي كما لو أن عمراً بأسره قد أتى وانقضى منذ أن كانت أمسيتي مع بيبا. تذكّرت كم كنت سعيداً، مسرعاً إلى لقائها في الظلمة الشتوية التي كانت برودتها مثل حد السكين. وتذكّرت ابتهاجي عندما

لمحتها واقفة تحت مصباح الشارع أمام مجمَّع السينما، وكيف وقفت عند الزاوية مستمتعاً بالنظر إليها... متعة أن أقف وأرقبها وهي تترقّبني. نظراتها إلى وجوه الناس متوقّعة رؤيتي بينهم. أنا من كانت تنتظرني: أنا! ارتعاشة قلبي عندما صدقتُ، ولو لحظة واحدة، أن من الممكن أن يكون لي ما لا يمكن أن يكون لي أبداً.

البدلة من الخزانة. قمصاني متّسخة كلها. لماذا لم أفكر في إرسالها لتنظيفها. كان حذائي في حالة بائسة، مشبعاً بالماء، مما أضاف إلى الصورة لمسة أسف أخيرة ـ لكن لا (توقفت في وسط الغرفة مشوشاً)... أأريد أن أرى نفسي راقداً متأنقاً، حذاء وبدلة، كأنني جثة على بلاطة التشريح؟ تفجّر عرَقي بارداً؛ وهاجمتني القشعريرة والارتعاش من جديد. تكررت الدورة كلها. كنت في حاجة إلى الجلوس. ربما يكون عليَّ أن أعيد التفكير في العرض كله. أمزق الرسائل. أجعل الأمر يبدو أشبه بحادثة. من الألطف كثيراً أن يظهر الأمر كما لو أنني كنت موشكاً على الذهاب إلى حفلة غامضة تستوجب التأنق، لكن شيئاً أصابني قبيل خروجي ـ جالس على حافة السرير. أطلت الجلسة أكثر مما ينبغي. شرارات سوداء واندفاع جَيّاش. انقلاب لذيذ. شهقة.

أجنحة نوبة بيضاء. جري، وقفزة في المطلق.

وعندها، قفزت في مكاني مجفلاً ـ دويّ أبواق! تنحّى ذلك الإنشاد الطقسي فحلّ محلّه انفجار موسيقي احتفالي. ألحان آلات نحاسية. تصاعدت في داخلي موجة قنوط ضخمة. مقطوعات متتالية من أوبرا *كسّارة البندق*. هذا ظلم. هذا ظلم. ليست هذه الروعة الكاملة باللحن المناسب لذهابي... وصلة أوركسترالية مفعمة بالحياة... تقلّصت معدتي على الفور. اندفاعة عنيفة مباشرة إلى حلقي. أحسست كما لو أنني ابتلعت زجاجة من عصير الليمون فلم أدرِ إلا وقد خرج كل ما في معدتي، موجة صفراء بعد موجة صفراء من طوفان حامضي صافٍ قبل أن أتمكن من الانحناء فوق سلة المهملات.

بعد انتهاء ذلك، جلست على السجادة مسنداً جبهتي على الحافة المعدنية الحادة لسلة المهملات بينما استمرت الموسيقى الطفولية الراقصة، على نحو مزعج، مترقرقة في خلفية المشهد كله: أسوأ ما في الأمر هو أنني لم أكن ثملاً على الإطلاق... غثيانٌ، فحسب! وقوقةُ أصوات أميركية تناهت إلى سمعي آتية من الممر: أزواج، يضحكون ويتبادلون تحيات وداع صاخبة وهم يفترقون ذاهبين إلى غرفهم... زملاء دراسة قدامى، ووظائف في القطاع المالي، وأكثر من خمس سنين من دراسة قانون الشركات، وفيونا التي ستبدأ هذا الخريف سنتها الأولى في المدرسة، وكل شيء على ما يرام في أوكلانديا، وتصبحون على خير، ويا إلهي ـ نحبكم يا ناس... حياة كان من الممكن أن تكون لي، أنا أيضاً، لو لا أنني لم أرِدها لنفسي. كان ذلك آخر شيء أتذكر أنني فكرت فيه قبل أن أنهض وأقف على قدميَّ متمايلاً، ثم أوقف تلك الموسيقى وألقي بنفسي ـ معدتي لا تزال تغلي ـ فأسقط فوق السرير على وجهي مثل من يلقي بنفسه من فوق جسر. مصابيح الغرفة كلها مضاءة، لكني غرقت مبتعداً عن الضوء وانغلقت الظلمة فوق رأسي.

4

عندما كنت صغيراً، بعد موت أمي، كنت أحاول دائماً، وبشدة، أن أجعلها حاضرة في عقلي عندما أغفو فلعلي أحلم بها؛ لكني لم أحلم بها أبداً. بل إنني كنت أحلم بها دائماً لكنها كانت غياباً، لا حضوراً: نسمة تسري عبر بيت أُخليَ لتوّه، وكتابة بخط يدها على صفحة دفتر، ورائحة عطرها، وشوارع في بلدات ضائعة غريبة أعرف أنها كانت تسير فيها قبل لحظة فقط ثم اختفت، وظِلّ يتحرّك مبتعداً عني على جدار يغمره ضوء الشمس. ألمحها بين الناس أحياناً، أو في سيارة تاكسي تتحرّك مبتعدة. كنت أتعلق بهذه اللمحات على الرغم من حقيقة أنني لم أتمكن أبداً من العثور عليها. كانت تخاتلني دائماً، من غير نهاية: دائماً أتأخر لحظة عن

اتصالها، أو أخطئ في كتابة رقم هاتفها، أو أجري لاهثاً متقطع الأنفاس إلى حيث يجب أن تكون لكني اكتشف أنها ذهبت. وعندما كبرت، صارت هذه النبضات المزمنة، حيث أكاد أدركها ولا أدركها، أكثر عشوائية وأكثر توتراً وألماً: ينتابني الذعر عندما أعرف، أو أتذكّر، أو عندما يقول لي أحد يصعب تصديق كلامه، إنها تعيش في الناحية الأخرى من المدينة في شقة في حي فقير بائس حيث لم أذهب لرؤيتها ـ لأسباب لا تفسير لها ـ ولم أتواصل معها منذ سنين. كثيراً ما كنت أرى نفسي أبذل محاولات محمومة لاستيقاف سيارة تاكسي، أو للذهاب إليها، لكني أستيقظ من نومي. كانت هذه السيناريوات التي تلحّ على أحلامي ذات طبيعة متكررة شديدة القسوة تذكرني بالزوج الموتور لإحدى عميلات هوبي الذي كان يحب ـ عندما يكون في حالة نفسية بعينها ـ أن يروي قصصه الثلاث نفسها عن تجربته في حرب فيتنام، فيكرّرها مرة بعد مرة بالكلمات والحركات الآلية نفسها: لعلعة الرصاص نفسها، واليد المقطوعة نفسها، في البقعة نفسها دائماً. تتجمّد وجوه الجميع وهم يتناولون الشراب بعد العشاء عندما ينطلق الرجل في ذلك السرد المتكرّر الذي شهده الجميع مليون مرة، والذي كان سرداً ثابتاً لا تغير فيه على الإطلاق (تماماً مثل الحلقة المفرغة التي كنت أمضي فيها باحثاً عن أمي ليلة بعد ليلة، وسنة بعد سنة، وحلماً بعد حلم). كان الرجل يتعثّر بجذر الشجرة نفسه ويقع في كل مرة؛ وكان يفشل دائماً في الوصول إلى صديقه الجريح في الوقت المناسب... تماماً مثلما لم أفلح أبداً في العثور على أمي.

وأما في تلك الليلة، فقد وجدتها! أو، فلأكن أكثر دقة: لقد وجدتني! أحسست كما لو أنها مرة لا تتكرّر... لكن، لعلها تأتي إليَّ هكذا مرة أخرى، في ليلة أخرى، في حلم آخر... لعلّها تأتيني عند موتي؛ على الرغم من أنها أمنية تكاد تبدو أكبر من أن تتحقّق. إن أتت، فأنا واثق من أنني سأكون أقل خوفاً من الموت (لا من موتي أنا فحسب، بل من موت

ويلتي أيضاً، ومن موت آندي، ومن الموت عامةً). كيف يكون الأمر إذا اعتقدنا بأن شخصاً ألِفناه سيأتي ليلاقينا عند الباب؟ أكتب هذا الآن، وأكاد أبكي لتذكر كيف أخبرني آندي المسكين وقد بان الذعر على وجهه أن أمي كانت الشخص الوحيد الذي مات بعد أن عرفه وأحبه. لذا... لعل آندي، عندما لفظه البحر مختنقاً بسعاله على شاطئ تلك الأرض الأخرى، لعله صار هناك فكانت أمي هي من ركع إلى جانبه ورحّب به على ذلك الشاطئ الغريب. لعل من الغباء حتى أن أعبّر عن آمال من هذا النوع. لكن، لعل من الغباء أكثر ألّا أعبّر عن أملي.

كيفما يكن الأمر ـ إن كانت مرة وحيدة لا ثاني لها، أو كانت غير ذلك ـ فقد كانت نعمة. حتى إن كانت لها زيارة واحدة فقط، وحتى إن كان ذلك كل ما يسمحون لها به، فأنا أعرف أنها خبأتها إلى الوقت الذي تكون فيه مهمة. ظهرت لي فجأة، على غير توقّع. كنت واقفاً أمام مرآة أنظر إلى انعكاس الغرفة من خلفي. وكانت الغرفة مكاناً يشبه متجر هوبي، أو لعلها كانت مكاناً أكثر رحابة، أو نسخة أكثر خلوداً من المتجر بجدرانه البنية الكستنائية وواجهته المفتوحة التي بدت لي أشبه بمدخل إلى مسرح لا يصدَّق، إلى مسرح واسع من نور الشمس. ضمن إطار المرآة، لم يكن الفضاء من خلفي فضاءً بالمعنى التقليدي، بل تناغمٌ تام التكوين، واقعٌ أكثر اتساعاً وأكثر واقعية فيه صمت عميق ممتد إلى ما بعد الصوت وما بعد الكلام... هناك، حيث كان في كل شيء سكينة وصفاء؛ هناك حيث كان ممكناً في الوقت نفسه، كما في فيلم يدور عكسياً، أن يتخيل المرء الحليب المنسكب يتجمّع عائداً إلى الإبريق، والقط القافز يطير رجوعاً فيحط على الطاولة من غير صوت، محطة في الطريق حيث لا وجود في الزمان أو، بدقة أكبر، حيث يوجد الزمان جميعه دفعة واحدة في كل اتجاه... تواريخ وأحداث تجري متزامنة.

ابتعدت عيني عن المرآة لحظة، ثم نظرتُ من جديد فرأيت خيالها

خلفي منعكساً في المرآة. عجزت عن الكلام. وعلى نحو ما، أدركت أنه ليس لي أن أستدير ـ لا تسمح قواعد المكان بالاستدارة، مهما تكن تلك القواعد ـ لكنْ، كلٌ منّا كان قادراً على رؤية الآخر، وكانت عيوننا قادرة على التلاقي في المرآة؛ وكانت سعيدة برؤيتي مثلما كنت سعيداً برؤيتها. كانت هي نفسها. حضوراً مجسَّداً وكانت فيها حقيقة روحية، وعمق، ومعرفة بيني وبين المكان الذي خطت آتية منه، المكان الذي وراءها. كانت اللحظة كلها بهجة ومفاجأة عندما تلامست أنظارنا عند الزجاج: عيناها الزرقاوان الجميلتان، والدوائر الداكنة حول حدقتيهما. عينان زرقاوان فيهما نور كثير: مرحباً! ولع، وذكاء، وحزن، ودعابة. كانت هنالك حركة، وكان هنالك سكون... سكون وتحوّل، وكل ما في لوحة عظيمة من طاقة وسحر. عشر ثوانٍ، أبدٌ. كان كل شيء دورةً عائدة إليها. أمر يستوعبه المرء في لحظة؛ أمر يعيشه المرء إلى الأبد: كانت موجودة في المرآة فقط، داخل الحيز الذي يحصره إطار المرآة. ومع أنها لم تكن حية، لم تكن حية تماماً، إلا أنها لم تكن ميتة تماماً، لأنها كانت غير مولودة بعد، ولأنها لم تكن أبداً غير مولودة ـ مثلما لم أكن أنا. كنت أعرف أنها قادرة على إخباري بكل ما أردت معرفته (الحياة، والموت، والماضي، والمستقبل) على الرغم من أنه كان موجوداً أصلاً... كانت موجودة في ابتسامتها إجابات الأسئلة كلها، ابتسامة ما قبل عيد الميلاد على وجه شخص لديه سر أكثر روعة من أن يبوح به: *حسناً، سيكون عليك أن تنتظر وترى، أليس كذلك؟* ولحظة كانت موشكة على الكلام، لحظة استنشقتْ نفَساً رقيقاً ساخطاً أعرفه تمام المعرفة، نفَساً لا أزال قادراً على سماعه حتى الآن، استيقظت من نومي.

5

كان الوقت صباحاً عندما فتحت عيني. كانت مصابيح الغرفة لا تزال متوهجة؛ وكنت تحت الأرضية من غير أن أتذكّر كيف صرت تحتها. كان كل شيء لا يزال مشبعاً بحضورها، مستحماً به ـ أعلى من الحياة، وأكثر

اتساعاً منها، وأكثر عمقاً. تحوّل في الرؤية أثمر شيئاً مثل قوس قزح. أتذكر أنني فكرت وقتها في أن هذا ما يحسه الناس بعد رؤية القديسين... لست أعني أن أمي قديسة، بل إن ظهورها كان فريداً، مفاجئاً مثل لسان لهب يثبُ في غرفة مظلمة.

كنت لا أزال نصف نائم، سابحاً بين ملاءات السرير، محمولاً على حلاوة الحلم المترقرق هادئاً من حولي. حتى أصوات الصباح الآتية من الممر اكتسبت جو حضورها ولونه؛ فإذا أصختُ السمع، في حالتي نصف الحالمة تلك، كان يبدو لي أنني قادر على سماع ذلك الصوت الخفيف البهيج المتميز، صوت خطواتها مختلطاً بقرقعة عربات خدمة الغرف الآتية والذاهبة في الممر وبأنين كابلات المصعد، وبانفتاح أبوابه وإغلاقها: صوت مدينيٌّ تماماً، صوت ارتبط عندي بشقتنا في سوتون *بليس*، وبأمي.

عندها، وعلى نحو مفاجئ، انفجرت أصواتٌ عنيفةٌ ممزِّقةً آخر خصلات الألق العضوي المنسحب في إثر الحلم... انطلقت أجراس الكنيسة القريبة في جلجلة عنيفة جعلتني أقفز فزعاً وأبحث حولي عن نظارتي. لقد نسيت في أي يوم كنت: يوم الميلاد!

نهضت واقفاً ـ غير مستقر ـ ومضيت إلى النافذة. أجراس. أجراس. كانت الشوارع بيضاء، مقفرة. جليد متلامع على السطوح القرميدية. وفي الخارج، فوق قنال هيرنكر*اخت*، كان الثلج يتراقص محلّقاً. سرب ناعق من طيور سوداء ينساب فوق القنال. ملأت تلك الطيور السماء... انزلاقات جانبية ضخمة، وتحويم على هيئة جسد واحد واعٍ يدور أماماً وخلفاً. بدت حركة تلك الطيور كما لو أنها تمر عبرٍ جسديٍ وتكاد تغزو خلاياه كلها... سماء بيضاء، وثلج متطاير، وريح الشُّعراء تعصف عنيفة.

أول قاعدة من قواعد استصلاح الأثاث: لا تقدِم أبداً على شيء لا تستطيع إبطاَله!

أخذت دوشاً، ثم حلقت ذقني وارتديت ملابسي. وبعدها، مضيت بهدوء إلى ترتيب المكان وحزم أمتعتي. عليَّ أن أعيد الخاتم والساعة إلى غيوري، على افتراض أنه لا يزال حياً، وهذا ما كان لدي شك متزايد فيه: تعادل الساعة وحدها ثروة ـ ساعة من سلسلة EMW 7 كافية لأن تكون دفعة أولى من أجل شراء بيتٍ صغير. سوف أرسل الساعة والخاتم إلى هوبي عبر FedEX لكي يحفظهما عنده؛ وسوف أترك لغيوري اسمه لدى مكتب الاستقبال في الفندق، فقد يأتي في يوم ما.

جليد على زجاج النوافذ، وأرض الشارع الحجرية غطاها الثلج. شوارع عميقة، خرساء، لا حركة سير فيها؛ قرون متراكبة، من أربعينات القرن السادس عشر إلى أربعينات القرن العشرين.

كان أمراً مهماً ألّا أتعمق في التفكير كثيراً. وكان أمراً مهماً أن أسير ممتطياً طاقة الحلم التي ظلت تلحق بي. بما أنني لا أتكلم اللغة الهولندية فسوف أذهب إلى القنصلية الأميركية وأطلب منهم أن يتّصلوا بالشرطة الهولندية. سوف أفسد على عدد من موظفي القنصلية يوم عيد الميلاد، والوجبة العائلية الاحتفالية. لم تكن لدي ثقة في أنني سأظل على قراري إن انتظرت. لعلها فكرة جيدة أن أنزل إلى الأسفل وأبحث عن موقع وزارة الخارجية الأميركية على الإنترنت لكي أستفيد من حقوقي باعتباري مواطناً أميركياً، من المؤكد أن هنالك في العالم سجون كثيرة أسوأ من سجون هولندا؛ وربما يتمكّنون من العثور على اللوحة إذا أقررت مباشرة بكل ما أعرفه (هورست وساشا، مارتن وفريتز، فرانكفورت وأمستردام).

لكن، من عساه يعرف كيف ستسير الأمور. ما كنت متأكداً من شيء غير أن زمن المراوغة قد ولّى. فمهما حدث، لن أكون مثل أبي، ولن أواصل التهرب والتلاعب حتى تلك اللحظة نفسها عندما انقلبت به السيارة وتحطمت واشتعلت ناراً. سوف أتقدّم وأقبل ما يأتيني. بهذه الروح، مضيت إلى الحمام، وأفرغت المغلف اللامع في المرحاض.

هكذا يجب أن يكون الأمر: سريعٌ مثلما كان مع مارتن، وغير قابل

للتراجع. ما العبارة التي كان أبي يحب أن يقولها: *واجِهِ الموسيقى!* شيء لم يفعله في حياته قط.

تحرّكت في أنحاء الغرفة كلها، وفعلت كل ما ينبغي فعله. لكني لم أمس الرسائل. حتى أن أكتب بيدي، كانت فكرة مؤلمة. لكني أدركت شيئاً أرغمني على العودة إلى الكتابة... لا بد لي من الكتابة إلى هوبي: عليَّ أن أكتب له بضعة سطور بخصوص العمل، لا تلك الثرثرة السكرى المتباكية: يجب أن أخبره بمكان دفاتر الشيكات، والسجل المالي، ومفتاح صندوق الودائع. وقد يكون أمراً حسناً أن أخبره كتابةً، بكل أعمال الاحتيال التي مارستها عند بيع قطع الأثاث بحيث يكون واضحاً أنه لم يكن على معرفة بشيء من ذلك أبداً. قد أتمكّن من جعلهم يشهدون على هذا الاعتراف ويوثّقونه في القنصلية الأميركية... فلعل هولي (أو أي موظف آخر) تشفق عليَّ وتستدعي أحداً لإنجاز هذا الأمر قبل أن يتّصلوا بالشرطة. يستطيع غريشا أن يؤيد الكثير من أقوالي من غير أن يدين نفسه بأي شيء: لم يجرِ بيننا أي كلام يخص عمليات البيع تلك؛ ولم يطرح عليَّ أية أسئلة أبداً. لكنه كان مدركاً أن ذلك ما كان حلالاً[1]، تلك الرحلات الخفية كلّها إلى المستودع.

وماذا عن رسالتَيْ بيبا والسيدة باربر؟ يا إلهي... وتلك الرسائل التي كتبتها من أجل بيبا ولم أرسلها إليها أبداً! بدأ جهدي الأكبر، الأكثر إبداعاً، وانتهى، بعد زيارتها الكارثية مع إيفريت، فكان جملة أحسستها خفيفة مؤثرة: *سأغيب بعض الوقت*. بما أن هذه العبارة كانت الرسالة الأخيرة لشخص أزمع الانتحار، فقد بدت لي في ذلك الوقت تحفة فنية صغيرة (من حيث إيجازها، على الأقل). لكن من المؤسف أنني أخطأت تقدير الجرعة اللازمة فاستيقظت، بعد اثنتي عشرة ساعة على سريري الذي تقيأت عليه كله. فكان عليَّ أن أجرجر نفسي إلى الأسفل وأنا في حالة مزرية من الغثيان حتى أذهب إلى اجتماع مع دائرة الضرائب.

---

(1) كوشِر: كلمة إنكليزية عبرية الأصل. معناها «حلال».

لكن رسالة شخص ذاهب إلى السجن ستكون شيئاً مختلفاً، ومن الأفضل أن تظل من غير كتابة. لم تكن بيبا مخدوعة بحقيقتي. وما كان لديَّ شيء أقدمه إليها. لقد كنتُ مرَضاً، وعدم استقرار، وكلَّ شيء تريد الابتعاد عنه. وسوف يؤكد لها حبسي كل ما كانت تعرفه عني. قطع الصلة بيننا أحسن ما أستطيع فعله. لو أن أبي أحب أمي حقاً ـ لو أنه أحبها في يوم من الأيام مثلما قال إنه يحبها ـ ألم يكن ليفعل الأمر نفسه؟

ومن ثم... السيدة باربر. شيء أشبه بالمعرفة التي تأتي المرء عند غرق سفينته؛ ذلك الشيء المفاجئ كثيراً الذي لا تدركه في نفسك إلا عند اللحظة الأخيرة، عندما تكون زوارق النجاة قد أنزلت إلى البحر وصارت ألسنة اللهب مستعرةً في السفينة كلها ـ لكنها، في آخر الأمر، كانت (عندما فكّرت في قتل نفسي) الشخص الذي لم أتحمل فكرة فعل ذلك به.

خرجت من الغرفة ـ كنت ذاهباً حتى أسألهم عن توفر خدمة FedEX وحتى أنظر في موقع وزارة الخارجية على الإنترنت قبل أن أتصل بالقنصلية ـ لكني توقّفت. كيس صغير من السكاكر مربوط بشريطة، معلقٌ من مقبض الباب ومعه بطاقة مكتوبة بخط اليد: **ميلاد مجيد**. كان أناسٌ يضحكون في مكان ما. وأتت عبر الممر رائحة لذيذة، قهوة قوية وسكر محروق وخبز طازج. كانت آتية من غرفة الخدمة. كنت أطلب فطور الفندق كل صباح، ثم آكله متجهماً متعكر المزاج ـ أليست هولندا شهيرة بقهوتها؟ لكني كنت أشربها كل يوم فلا أحس لها طعماً.

دسست كيس السكاكر في جيب سترتي، ووقفت في الممر أستنشق أنفاساً عميقة. حتى الأشخاص المحكومون بالموت يحق لهم اختيار وجبتهم الأخيرة... موضوع للمناقشة طرحه هوبي (الطبّاخ المجتهد الذي يستمتع بالأكل) أكثر من مرة قبيل انتهاء السهرة عندما نتناول الكونياك الفرنسي وهو يدور في الغرفة باحثاً عن علب سعوط فارغة وأطباق صغيرة إضافية لاستخدامها أطباق سجائر باذخة من أجل ضيوفه: بالنسبة إليه، كان

ذلك سؤالاً من أسئلة ما وراء الطبيعة يفضل التفكير فيه على معدة ملأى بعد رفع أطباق الحلويات وتقديم الطبق الأخير، طبق الكراميل بالياسمين؛ وذلك لأنه ـ عندما ينظر المرء إلى نهاية الأمر، في آخر الليل، ويغمض عينيه مودعاً الدنيا ـ فما الذي يمكن أن يختاره فعلاً؟ هل يختار تذكاراً مريحاً من الماضي؟ هل يطلب وجبة دجاج بسيطة يستحضرها من يوم عطلة ضائع في طفولته؟ أو... هل يكون ما يطلبه تمسّكاً أخيراً بالرفاهية، بالأفق البعيد ـ طيور الحجل مع الكلاودبيري والكمأة البيضاء من آلبا[1]. فماذا عني أنا؟ لم أدرك أنني جائع إلى أن خطوت إلى الممر. في تلك اللحظة، وقفت هناك، بمعدة موجوعة وطعم سيئ في فمي أفكر في وجبتي الأخيرة التي أختارُها بملء حريتي، فبدا لي أنني لم أشمّ في حياتي كلها رائحة ألذ من ذلك الدفء السكري: قهوة بالقرفة، ولفافات مدهونة بالزبدة. عدت إلى الغرفة وتناولت قائمة الطعام: أليس أمراً مضحكاً أن أكون راغباً في شيء بسيط هذه البساطة كلها، وأن أحس بشهية إلى الشهية نفسها؟

بوليك كيرشتفيست!... *' ميلاد مجيد'* ، قالها لي صبيّ المطبخ بعد نصف ساعة من ذلك ـ مراهق مهمل المظهر ممتلئ الجسم كأنه آت مباشرة من لوحة ليان ستين. كان على رأسه إكليل من الزهور، وخلف أذنه عِرق من نبات عَطِر.

قال لي وهو يرفع الأغطية الفضية عن الأطباق بحركة سريعة مرحة: «خبز عيد الميلاد الهولندي الخاص...». أشار إلى الخبز بطريقة ساخرة، ثم أضاف... «لهذا اليوم فقط». لقد طلبت *«فطور شامبانيا الاحتفالي»*. الذي يشتمل على زجاجة شامبانيا، وبيض بالكافيار، وسلطة فاكهة، وطبق من شرائح السلمون المدخّن، وقطعة خبز عليها باتيه، وعدة أطباق صغيرة فيها صلصة وخيار الكورنيشون، والكيبر، وبعض التوابل، وبصل مخلل.

---

(1) كلاودبيري: عشبة معروفة في البلاد الباردة تنتج ثمرة صغيرة وردية شبيهة بثمار التوت البري . ألبا: هو الاسم الغالي القديم لسكوتلندا.

فتح الصبي زجاجة الشامبانيا ثم انصرف، بعد أن نفحته بقشيشاً اشتمل على معظم ما بقي معي من يورو. كنت قد سكبت لنفسي شيئاً من القهوة وبدأت أتذوقها بحذر، متسائلاً إن كانت معدتي قادرة على تقبلها (كنت لا أزال أشعر بالغثيان، فلم تبد لي رائحة القهوة طيبة عندما شممتها عن قرب) عندما رن جرس الهاتف.

كان ذلك موظف مكتب الاستقبال. قال بسرعة: «ميلاد مجيد يا سيد بيكر. إنني آسف، لكنني أخشى أن لديك شخصاً في طريقه إليك الآن. لقد حاولنا إيقافه هنا...».

تجمّدت: «ماذا؟» كان الفنجان في منتصف الطريق إلى فمي.

«إنه في الطريق إليك الآن. لقد حاولت إيقافه. طلبت منه الانتظار. لكنه لم ينتظر. ما حدث هو... زميلي من طلب منه الانتظار. لكنه انطلق صاعداً قبل أن أتمكن من الاتصال...».

«آه...». نظرت في أرجاء الغرفة. تبخّر تصميمي كله في لحظة واحدة.

«إن زميلي...». انزاح صوته عن السماعة لحظة فصار مكتوماً... «الآن، لحق به زميلي على السلم. حدث ذلك على نحو مفاجئ تماماً. وظننت أن عليَّ أن...».

سألته: «هل قال لك اسمه؟». وسرت إلى النافذة متسائلاً إن كنت أستطيع كسرها بالكرسي. لم أكن في طابق مرتفع؛ مسافة غير كبيرة إن قفزتها... لعلها اثنا عشر قدماً.

«لا، لم يقل لنا اسمه يا سيدي...». كان يتكلم بسرعة شديدة... «لم نستطع. لقد كان شديد الإصرار... مر من أمام المكتب قبل أن...».

سمعت حركة في الممر. صياح باللغة الهولندية.

«إن عدد الموظفين لدينا قليل هذا الصباح. وأنا واثق أنك تفهم...».

قرعٌ واثق على الباب ـ هزة عصبية فظة مثل انبثاق رشاش الدم المتواصل من جبهة مارتن، ورائحة قهوتي المنقذفة في الهواء. اللعنة!...

نظرت إلى بدلتي وقميصي... انتشرت القهوة عليهما. ألم يكونوا قادرين على الانتظار إلى ما بعد الإفطار؟ مسحت قميصي بمنديل وحدقت في الباب بنظرة كالحة. قلت في نفسي: لعلهم رفاق مارتن. ولعل الأمر يكون أسرع مما ظننت.

لكني لم أكد أصدق عينيَّ عندما فتحت الباب فرأيت بوريس. كان مشعثاً، محمرّ العينين، يبدو عليه الإنهاك. ثلج في شعره، وثلج على كتفي معطفه. فاقت دهشتي ارتياحي. قلت له عندما عانقني: «ماذا؟...». ثم قلت لموظف الفندق الذي كان آتياً في الممر مقترباً منا بخطوات سريعة مصممة: «لا، لا بأس».

قال بوريس غاضباً وهو يلوّح بذراعه في اتجاه الموظف الذي وقف متجمداً في مكانه وراح يحدق فيه: «هل رأيت؟ لماذا يتعيّن عليَّ الانتظار؟ لماذا يتعيّن عليَّ الانتظار؟ ألم أقل لك، إنني أعرف مكان غرفته. كيف أعرف مكان غرفته إذا لم يكن الرجل صديقي؟...». ثم قال لي: «لا أعرف سبباً لهذا الاستعراض كله. شيء سخيف! وقفت هناك زمناً طويلاً ولم أجد موظفاً وراء المكتب. لا أحد! كأنك في الصحراء الكبرى!». نظر إلى الموظف غاضباً... «انتظرت وانتظرت، قرعت الجرس. ثم، لحظة قررت الصعود. ' *انتظر يا سيدْ* ' *عليك أن تعودْ* ... وها هو هنا يجري خلفي». قال العبارات الأخيرة بصوت طفولي باكٍ.

قلت للموظف: «شكراً لك». لكني وجّهت هذا الشكر إلى ظهره لأنه في تلك اللحظة كان قد استدار ذاهباً بعد أن وقف بضع ثوانٍ ينقّل أنظاره بيننا بدهشة وانزعاج. خطوت إلى الممر وصحت في إثره: «أشكرك كثيراً. وأنا أعني هذا». كانت معرفتي بأنهم يوقفون الناس الذين يحاولون صعود السلم من تلقاء أنفسهم أمراً مريحاً بعض الشيء.

أجابني من غير أن يلتفت إلي: «بالطبع يا سيدي. ميلاد مجيد».

قال بوريس عندما انغلق باب المصعد من خلف الموظف وصرنا وحدنا: «هل ستسمح لي بالدخول؟ أم نقف هنا ونتبادل نظرات لطيفة؟».

كانت رائحته فائحة كأنه لم يستحم منذ أيام. بدا منزعجاً بعض الشيء من هذا الأمر، لكنه بدا مسروراً من نفسه أيضاً.

كانت خفقات قلبي سريعة، وأحسست بالغثيان من جديد: «أنا... ادخل دقيقة... بالتأكيد».

نظر إليَّ من الأعلى إلى الأسفل، نظرة فيها ازدراء ودهشة: «دقيقة؟ هل أنت ذاهب إلى مكان ما؟».

«في الحقيقة نعم».

«بوتر!». قالها بنبرة نصف مرحة وهو يضع حقيبته على الأرض ويمس جبهته بظهر أصابع يده... «شكلك سيئ. لديك حمى. تبدو كما لو أنك انتهيت لتوك من حفر قناة بناما».

قلت بنبرة مقتضبة: «أنا في حالة جيدة».

«لا تبدو لي في حالة جيدة. أنت شاحب مثل سمكة. لماذا أنت مرتدٍ ملابسك هكذا. ولماذا لم تجب على اتصالاتي؟ ما هذا؟...». قالها وهو ينظر إلى ما خلفي. عيناه معلّقتان بالطعام الذي على طاولة خدمة الغرف.

«هيا، تفضل!».

«حسناً، سأفعل... إن لم يكن لديك مانع. يا له من أسبوع. كنت مسافراً بالسيارة طيلة الليل. طريقة شديدة السوء لقضاء ليلة عيد الميلاد...». خلع معطفه وتركه يسقط على الأرض... «إذا أردت الحقيقة، فقد أمضيت ليالي كثيرة أسوأ من هذه، على الأقل، لم يكن الطريق السريع مزدحماً. توقفنا في مكان فظيع على الطريق؛ المكان الوحيد الذي وجدناه مفتوحاً، محطة بنزين! تناولنا شطائر فرانكفورتر مع الخردل. تعجبني هذه الشطائر عادة؛ لكن... أوه، يا إلهي... يا معدتي...». كان قد تناول كأساً من البار وبدأ يصب الشامبانيا لنفسه.

أشار بيده: «وأنت جالس هنا. أرى أنك تحيي هذه الليلة في أحضان الرفاهية!...» خلع حذاءه وداس على الأرض بجوربيه الغارقين ماء...

يا ربي... أصابع قدميَّ متجمدة. الثلج يذوب في الشوارع... يتحوّل إلى ماء...». جذب إليه كرسياً... «اجلس معي. وكل شيئاً. توقيت جيد جداً...». رفع الغطاء عن الطبق وراح يتشمَّم البيض بالكافيار... «لذيذ! لا يزال حارّاً! ماذا؟ ما هذا؟...» سألني عندما وضعت يدي في جيب معطفي وأخرجت ساعة غيوري وخاتمه... «أوه، لقد نسيت! لا تهتم بهما الآن. يمكنك إعادتهما إليه بنفسك».

«لا، يمكنك أن تفعل هذا بدلاً مني».

«لا بأس. علينا أن نتصل به. هذه وليمة كافية لخمسة أشخاص. لماذا لا نتصل بهم في الأسفل...» رفع زجاجة الشامبانيا ونظر إلى مستوى السائل فيها كما لو أنه يتفحّص قائمة حسابات مالية مقلقة... «لماذا لا نتصل ونطلب زجاجة أخرى، زجاجة كاملة. أو... فلنجعلهما زجاجتين، ولنطلب مزيداً من القهوة، أو ربما بعض الشاي؟ إنني...». قرّب كرسيه من الطاولة... «إنني أموت جوعاً! سأقول له...». تناول شريحة من السلمون المدخن ودلاها فوق فمه، ثم التهمها قبل أن يمد يده إلى جيبه ويخرج هاتفه... «سأطلب منه أن يضع السيارة في مكان ما ويأتي إلينا، ما رأيك؟».

أجبته: «لا بأس». كان شيء في نفسي قد تجمّد، مات، عندما رأيته؛ تقريباً مثلما كان يحدث لي مع أبي عندما كنت صغيراً: أمضي ساعات طويلة وحدي في البيت، ثم تأتيني موجة الارتياح التلقائية عندما أسمع صوت مفتاحه في قفل الباب، ثم يغور قلبي على الفور عندما أراه بعيني.

لعق أصابعه مصدراً صوتاً مرتفعاً: «ماذا؟ ألا تريد أن يأتي غيوري؟ من الذي كان يقود بي السيارة طيلة الليل؟ من الذي لم ينم أبداً؟ قدّم له إفطاراً على الأقل. لقد حدث الكثير». كان قد بدأ يأكل طبق البيض.

«حدث لي الكثير أيضاً».

«وأين أنت ذاهب الآن؟».

أجبته وأنا أخرج بطاقة فتح الباب من جيبي وأناوله إياه: «أطلب ما شئت، سوف أترك الحساب مفتوحاً. ضع قيمة الإفطار على حساب الغرفة».

«بوتر...». رمى منديل الطعام وتقدم في اتجاهي، ثم توقف في منتصف خطوته ـ ولدهشتي الشديدة ـ راح يضحك: «اذهب إذاً، اذهب إلى صديقتك الجديدة أو إلى مشاغلك المهمة كثيراً!».

«لقد حدث لي الكثير».

قال بنبرة متعجرفة: «حسناً... لا أعرف شيئاً عما حدث لك، لكني أستطيع القول إن ما حدث لي يعادل ما حدث لك خمسة آلاف مرة، على الأقل. لقد كان أسبوعاً فظيعاً. كان أسبوعاً يستحق أن تسجله الكتب. أما أنت، فكنت تعيش في رفاهية الفندق هنا. وأنا...». تقدّم في اتجاهي ووضع يده على ذراعي... «انتظر...».

رن الهاتف في يده فاستدار نصف استدارة وتكلم بالأوكرانية قبل أن يصمت فجأة وينهي المكالمة تماماً عندما رآني متجهاً إلى الباب.

«بوتر...». أمسك بي من كتفي، ونظر في بؤبؤي عينيّ، ثم أدارني ودفعني داخل الغرفة مغلقاً الباب بقدمه... «ماذا دهاك؟ إنك مثل ' *ليلة الزومبي* ' ... ما اسم ذلك الفيلم الذي كنا نحبه؟ فيلم بالأبيض والأسود؟ لم يكن ' *الموتى الأحياء* ' ، بل ذلك الفيلم الشعري...».

«إنه فيلم ' مشيت مع زومبي ' . رواية فال ليوتون».

«هذا صحيح. هذا هو الفيلم. اجلس. الماريغوانا قوية جداً هنا، حتى إذا كنت قد اعتدت تدخينها. كان عليَّ أن أحذرك من...».

«لم أدخن الماريغوانا».

«... لأنني ـ سأقول لك ـ عندما أتيت إلى هذه المدينة أول مرة... أظنني كنت في العشرين. كنت أدخن الماريغوانا كل يوم، وظننت أنني قادر على التعامل مع أي شيء. ثم... أوه، يا إلهي، لقد كانت غلطتي!

كنت غبياً مع ذلك الرجل في المقهى. قلت له: ' *أعطني أقوى ما لديك*' . حسناً؛ لقد أعطاني! ثلاثة أنفاس صرت بعدها غير قادر على السير! صرت غير قادر على الوقوف. كان ذلك كما لو أنني نسيت كيف أحرّك قدمي! رؤية نفقية، وانعدام تام للتحكّم بالعضلات. انفصال تام عن الواقع». كان قد دفعني حتى السرير. جلس إلى جانبي ووضع ذراعه على كتفي... «أعني، أنت تعرفني، لكن... مستحيل! كان قلبي يدقّ سريعاً كما لو أنني أجري. لكني بقيت جالساً من غير حركة ـ كنت لا أفهم شيئاً مما يدور حولي ـ ظلمة فظيعة. كنت وحيداً، وبكيت قليلاً، ورحت أخاطب الرب في ذهني وأقول له' *ماذا فعلت؟ ولماذا أستحق هذا؟*' ، لا أتذكّر كيف خرجت من ذلك المكان! شيء مثل حلم مخيف. كان ذلك ماريغوانا، فحسب! ماريغوانا! خرجت إلى الشارع أسير بساقين متراخيتين وأتمسك بقضبان الحديد المخصصة لإيقاف الدراجات في ساحة *دام*. ظننت بأن السيارات قد صعدت إلى الرصيف وأنها موشكة على الاصطدام بي. أخيراً، وجدت طريقي إلى شقة فتاتي في *جوردان* فاستلقيت زمناً طويلاً في حوض الحمام من غير أن يكون فيه ماء. لكنك تقول لي الآن...». كان ينظر نظرة مرتابة إلى قميصي الملطخ بالقهوة.

«لم أدخن شيئاً».

«أعرف أنك قلت هذا. لكني كنت أخبرك قصة فحسب. لعلك تجد فيها ما يثير اهتمامك. حسناً... ما من شيء مخجل في هذا...». تلا ذلك صمت من غير نهاية... «نسيت أن أقول ـ نسيت أن أقول...». كان يصب لي كأساً من المياه المعدنية... «بعد تلك الحادثة التي أخبرتك عنها، رحت أتجوّل في ساحة *دام*. ظل وضعي غير طبيعي ثلاثة أيام كاملة بعد ذلك. قالت لي صديقتي: ' *فلنخرج يا بوريس. لا يمكنك أن تظل مستلقياً هنا بعد الآن فأنت تهدر العطلة كلها*' . تقيأت في متحف فان غوخ. متحف جميل، رفيع المستوى».

كان الإحساس بالماء البارد في حلقي الملتهب قد جعل جلدي يتحبحب كله. عاودتني ذكرى جسدية داخلية من طفولتي: شمس الصحراء المؤلمة، وصداع مؤلم بعد الظهر من أثر الشراب، وأسنان مصطكة في برودة جهاز تكييف الهواء. أنا وبوريس نتقيأ من غير توقف. ونضحك لأننا نتقيأ مما يجعلنا نتقيأ بقوة أكبر. نلتهم مقرمشات بائتة في علبة في غرفتي.

استرق بوريس نظرة جانبية في اتجاهي: «حسناً... لعل هنالك شيئاً غريباً. لو لم نكن في يوم عيد الميلاد لنزلت وأحضرت شيئاً من أجل معدتك. خذ، خذ». وضع بعض الطعام في طبق ومده في اتجاهي. تناول زجاجة الشامبانيا من دلو الثلج ونظر إلى مستوى السائل فيها من جديد ثم صب ما تبقى في كأس عصير البرتقال نصف الفارغة التي كانت أمامي (نصف فارغة لأنه شرب نصفها بنفسه).

رفع رأسه وقال: «هيا. ميلاد مجيد لك! وحياة مديدة لنا! إنه مولد المسيح؛ لنمجد الرب! والآن...». شرب ما في الكأس ـ كان قد وضع لفافات الخبز على مفرش الطاولة وراح يسكب الطعام لنفسه في طبق الخبز السيراميكي... «إنني آسف، أعرف أنك تريد سماع كل شيء، لكني جائع ولا بد لي من الأكل أولاً».

الباتيه. الكافيار. خبز عيد الميلاد. على الرغم من كل شيء، فقد كنت جائعاً أيضاً. قررت أن أكون شاكراً لتلك اللحظة وللطعام الذي أمامي فبدأت آكل. مرت برهة لم يقل أحد منا فيها شيئاً. نظر إليّ بعد هنيهة ثم قال: «هل صرت أحسن؟ أنت مرهق...». وضع لنفسه مزيداً من شرائح السلمون... «هنالك عدوى أنفلونزا شديدة سارية في البلد الآن. لقد أصابت تشيرلي تي أيضاً».

لم أقل شيئاً. بدأت الآن أتكيّف مع حقيقة وجوده في الغرفة معي.

«ظننت أنك قد تكون في الخارج مع فتاة ما. حسناً... إليك ما

فعلناه أنا وغيوري...». قال هذا عندما لم أجبه بشيء... «لقد كنا في فرانكفورت. نعم، أنت تعرف هذا. لقد كان وقتاً جنونياً! ولكن...». أفرغ كأس الشامبانيا وسار إلى الميني بار ثم انحنى لينظر في داخله.

«هل جواز سفري معك؟».

«إن جواز سفرك معي. نعم. واو، لديك نبيذ جيد هنا! ولديك كمية من زجاجات فودكا أبسوليوت الصغيرة!».

«أين هو؟».

عاد إلى الطاولة بزجاجة نبيذ أحمر تحت ذراعه وثلاث زجاجات فودكا صغيرة وضعها في دلو الثلج. أخرج جواز السفر من جيبه وألقاه على الطاولة بحركة لا مبالية: «ها هو جواز سفرك...». جلس على الكرسي... «والآن، هل نشرب نخباً معاً؟». بقيت جالساً على حافة السرير من غير أية حركة. كان طبق الطعام الذي لم أنهِ نصفه على ركبتي. جواز سفري.

في الصمت الطويل الذي أعقب ذلك، انحنى بوريس من فوق الطاولة ونقر كأسي بإصبعه مصدراً رنيناً كريستالياً حادّاً مثل النقر بملعقة على كأس كبيرة بعد العشاء.

سألني متهكّماً: «هل لي بانتباهك؟ من فضلك؟».

«ماذا؟».

«سنشرب نخباً!» مد كأسه في اتجاهي.

مسحت جبهتي بيدي: «وأنت... ماذا هنا؟».

«ماذا تقول؟».

«نشرب نخب ماذا بالضبط؟».

«نخب يوم الميلاد! نعمة الرب! هل يعجبك هذا؟».

لم يكن الصمت الممتد بيننا عدائياً على وجه الدقة، لكنه تواصل فاكتسب مسحة حانقة يصعب ترويضها. وأخيراً، استند بوريس إلى

الخلف في كرسيه وأومأ برأسه في اتجاه كأسي وقال: «لا أحب أن أواصل المطالبة. لكن، عندما تنتهي من النظر إليّ، فهل تظن أننا...؟».

«سيكون عليَّ أن أحاول فهم هذا كله في لحظة ما».

«ماذا؟».

«أظن أنه سيكون عليَّ أن أحاول فهم هذا كله في عقلي، في وقت ما. سيكون الأمر صعباً. هذا الأمر هنا... وهذا الأمر هناك. مجموعتان مختلفتان. ربما ثلاث مجموعات مختلفة».

«بوتر، بوتر، بوتر...» انحنى في اتجاهي بطريقة عاطفية فيها شيء من الازدراء... «أنت غبي. ليس لديك أي إحساس بالعرفان، ولا بالجمال».

«أيُّ إحساس بالعرفان؟ أظنني سأشرب نخب هذا».

«ماذا؟ ألا تتذكّر ليلة عيد الميلاد السعيدة في تلك المرة؟ تلك الأيام السعيدة في الماضي؟ الأيام التي لن تعود أبداً؟ أبوك... على طاولة المطعم! عندما استمتعنا بتلك الوليمة! احتفالنا السعيد! ألا تحتفظ في قلبك بذكرى جميلة من تلك الليلة؟».

«بربك يا بوريس!».

«اسمع يا بوتر...» حبس أنفاسه لحظة... «أنت غريب. أنت أسوأ من امرأة. ' *أسرع، أسرعْ* . ' *انهض، وانطلقْ* . ألم تقرأ رسائلي النصية؟».

«ماذا؟».

كانت يد بوريس ممتدة إلى الكأس، لكنها توقفت فجأة. ألقى نظرة في اتجاه الأرض فانتبهت فجأة، انتبهت تماماً إلى الحقيبة الموضوعة إلى جانب الكرسي.

عض بوريس على إبهام يده بأسنانه الأمامية ونظر إليَّ نظرة عابسة. قال: «هيا. عليك بها!».

حامت كلماته فوق بقايا طعام الإفطار. انعكاسات مشوَّهة على غطاء الطبق الفضي المقبَّب.

حملت الحقيبة وانتصبت واقفاً. لكن ابتسامته خبت عندما اتجهت صوب الباب.

قال لي: «انتظر!».

«انتظر ماذا؟».

«ألا تريد أن تفتحها؟».

«انظر...». كنت أعرف نفسي تمام المعرفة؛ ولم أكن واثقاً منها إن أنا انتظرت. لن أسمح بحدوث الأمر نفسه مرتين.

«ماذا تفعل؟ إلى أين أنت ذاهب؟».

«سوف آخذها إلى الأسفل حتى أضعها في خزانة الأمانات لديهم».

لم أكن أعرف حتى إن كانت لديهم خزانات أمانات. لكني لم أكن راغباً في أن تكون اللوحة قريبة مني ـ وجودها مع غرباء أكثر أماناً لها: في خزانة المعاطف، في أي مكان. وأيضاً سوف أتصل بالشرطة لحظة ذهاب بوريس. لكني لن أفعلها قبل ذهابه. لا معنى لتوريطه في هذا الأمر.

«أنت لم تفتحها. بل إنك لا تعرف ما فيها».

«قلتَ لي هذا».

«ما الذي يجب أن أفهمه من إجابتك؟».

«قد لا أكون راغباً في معرفة ما فيها».

«أوه، ألست راغباً؟ لعلك غير راغب في ذلك». ثم أضاف بنوع من العجرفة... «إنها ليست ما تظنه».

«أليست كذلك؟».

«لا».

«وكيف تعرف ما أظنه؟».

«بالطبع، أعرف ما تظنه موجوداً في هذه الحقيبة! وأنا أقول لك إنك مخطئ. آسف، لكن ما في الحقيبة...». رفع يديه ليسكتني... «أحسن مما تظنه، بل أحسن كثيراً، كثيراً».

«أتقول إنه أحسن؟».

«نعم».

«كيف يمكن أن يكون أحسن؟».

«لأنه أحسن. أحسن بمرات كثيرة. عليك أن تصدقني عندما أقول لك هذا. افتحها وانظر بنفسك». قال هذا وهو يومئ برأسه في اتجاه الحقيبة.

سألته بعد نصف دقيقة من الذهول: «ماذا قد يكون فيها؟». فتحت الحقيبة وأخرجت منها حزمة كبيرة من الدولارات ـ مئات ـ ثم حزمة أخرى.

دعك بوريس مؤخر رأسه بباطن يده: «هذا ليس المبلغ كلّه... جزء منه».

نظرت إليه، ثم قلت: «جزء من أي مبلغ؟».

قال بابتسامة متكلّفة: «حسناً... لكن وقعه يكون أكبر دراماتيكية عندما يكون أوراقاً نقدية، أليس كذلك؟».

أصوات ضحك تأتي مكتومة من الغرفة المجاورة. برنامجٌ فكاهيٌّ يُعرض في التلفزيون.

«مفاجأة لطيفة بالنسبة إليك! لكن، عفواً! هذا ليس المبلغ كله. قلت في نفسي إن العملة الأميركية ستكون مناسِبة أكثر لأن تعود بها إلى نيويورك. المبلغ الذي أتيت به من هناك ـ أكثر قليلاً! الحقيقة أنهم لم يدفعوا بعد. لم يحوّلوا أي مبلغ. لكن... آمل أن يتم هذا قريباً».

«من هم؟ من الذي لم يدفع؟... لم يدفع ماذا؟».

«هذه النقود لي. إنها ملكي الشخصي. أتيت بها من خزنة البيت. توقفت في آنتويرب حتى آخذها. رأيت أن الأمر هكذا سيكون أكثر جمالاً... جميل أن تفتح هذه الحقيبة، أليس كذلك؟ صباح عيد الميلاد، هو هو هو! لكنّ مبلغاً أكثر من هذا كثيراً في طريقه إليك».

رحت أقلّب حزمة المال في يدي وأنظر إليها من كل النواحي. حزمة مال ضمن شريط مختوم عليه اسم سيتي بانك.

قال: «شكراً يا بوريس!». ثم أجاب نفسه بنفسه ساخراً: «أوه، لا تقل هذا! من دواعي سروري!».

حزمُ نقود. خارج الحدث كلّه. نقود نضرة في اليد. كان في الأمر كله نوع من معنى واضح، أو من عاطفة واضحة لا أدركها.

«كما قلت لك... هذا جزء من المبلغ. مليونا يورو. وبالدولار، يصير المبلغ أكبر حجماً. إذاً... ميلاد مجيد! هذه هديتي لك! يمكنني أن أفتح لك ببقية المبلغ حساباً في سويسرا وأن أُعطيك دفتر ذلك الحساب. وبتلك الطريقة... ماذا؟...». قالها وهو يكاد ينكمش على نفسه عندما رآني أعيد حزمة الأوراق النقدية إلى الحقيبة ثم أغلقها وأدفعها في اتجاهه.

«لا. إنها لك».

«لا أريدها».

«لا أظنك تفهم الأمر. دعني أشرح لك، من فضلك!».

«قلت لك إنني لا أريد المال».

«بوتر...» طوى ذراعيه على صدره ونظر إليَّ ببرودة ـ النظرة نفسها التي رماني بها في البار البولندي... «لو كان مكانك رجل آخر لخرج ضاحكاً ثم لم يعد أبداً».

«فلماذا لم تفعل هذا؟».

راح يتلفّت في الغرفة كأنه يبحث عن سبب لذلك: «أنا... سوف أخبرك بالسبب الذي يجعلني لا أفعل هذا. سأخبرك كرمى لأيامنا القديمة. سأفعل هذا على الرغم من أنك تعاملني كما لو أنني مجرم؛ وكذلك لأنني أريد تعويضك...».

«تعويض ماذا؟».

«عفواً؟».

«ماذا بالضبط؟ هل تشرح الأمر لي؟ من أين أتى هذا المال، بحق الجحيم؟ وكيف يمكن لهذا أن يصلح أي شيء؟».

«حسناً... في الواقع، لا يجوز لك أن تقفز بهذه السرعة إلى...».
«لست أبالي بهذا المال!...». قلتها بصوت يكاد يكون صراخاً... «اللوحة هي ما يهمني. أين اللوحة؟».
«فقط... لو أنك تتمهل لحظة ولا تطير من...».
«لماذا هذا المال؟ ومن أين أتى؟ من أي مصدر بالضبط؟ هل هو من بيل غيتس؟ من بابا نويل؟ من الجنيّة التي تأخذ أسنان الأطفال؟».
«أرجوك! أنت مثل أبيك... بهذه الدراما كلها».
«أين هي؟ ما الذي فعلته بها؟ لقد ضاعت، أليس كذلك؟ هل رهنتها؟ هل بعتها؟».
«لا... بالطبع لا... إنني...». أزاح الكرسي إلى الخلف مسرعاً... «يا إلهي. اهدأ يا بوتر. أنا لم أبع اللوحة على الإطلاق. لماذا تقول شيئاً كهذا؟».
«لست أدري. وكيف لي أن أدري؟ لماذا كان هذا كله؟ وما الغاية من أي شيء من هذا؟ بل حتى لماذا جئتُ معك؟ لماذا جررتني إلى هذا الأمر؟ هل فكرت في أن تأتي بي إلى هنا حتى أساعدك في قتل الناس؟ أهذا هو الأمر؟».
قال بوريس ضاحكاً: «لم أقتل أحداً في حياتي كلها».
«أوه! أأنت من يقول هذا؟ وهل تتوقّع مني أن أضحك؟ هل سمعتك حقّاً تقول إنك لم...».
«كان ذلك دفاعاً عن النفس. وأنت تعرف هذا. إنني لا أتجوّل وأقتل الناس من أجل متعة القتل، لكني سأحمي نفسي عندما أكون مضطراً إلى ذلك. وأنت أيضاً...». قال هذا بغطرسة... «مع مارتن، بصرف النظر عن حقيقة أنني لم أكن لأجلس معك الآن، وعن أن من الممكن كثيراً أنك أنت أيضاً...».
«هل أستطيع أن أطلب منك شيئاً؟ إذا كنت لا تريد أن تطبق فمك،

فهل يمكن أن تذهب وتقف هناك دقيقة؟... لأنني لا أريد رؤيتك أبداً، ولا أريد النظر إليك الآن».

«... في حالة مارتن... إذا علمت الشرطة، فسوف تقلّدك ميدالية. هذا ما سيفعله الكثيرون أيضاً، أشخاص أبرياء ليسوا أحياء الآن، بفضل مارتن. لقد كان مارتن...».

«أو... يمكنك أن تذهب. سيكون ذلك أفضل».

«كان مارتن شيطاناً. لم يكن بشرياً. ليس الذنب ذنبه بالكامل، فقد ولد هكذا. لم تكن لديه أية مشاعر! أعرف أن مارتن كان يفعل بالناس أشياء أسوأ كثيراً من إطلاق النار عليهم. ليس بنا نحن...». قال هذا مستعجلاً ملوِّحاً بيديه كما لو أن سوء التفاهم كله كان ناجماً عن هذه النقطة... «نحن! كان سيطلق النار علينا على سبيل اللباقة، وما كان ليفعل بنا شيئاً آخر من أشيائه السيئة الشريرة. لكن... هل كان مارتن رجلاً صالحاً؟ هل كان كائناً بشرياً طبيعياً؟ لا. لم يكن كذلك. فريتز أيضاً، لم يكن زهرة بين الأزهار. لذا! هذا الندم والألم اللذان تعيشهما! عليك أن تنظر إلى الأمر في ضوء مختلف. عليك أن تعتبره بطولة في سبيل الخير الأعلى. لا يمكنك أن تنظر هذه النظرة المظلمة إلى الحياة. أنت تعرف، هذا سيئ جدّاً من أجلك».

«هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً؟ سؤالاً واحداً؟».

«اسأل عن أي شيء».

«أين هي اللوحة؟».

تنهد بوريس وأشاح بوجهه بعيداً عني. قال: «انظر، كان هذا أفضل ما استطعت فعله. أعرف كم كنت تريدها. ولم أكن أظن أبداً أنك ستغضب هكذا إذا لم تحصل عليها».

«أين هي؟... ألا يمكنك إخباري بهذا فقط؟».

وضع يده على قلبه: «بوتر... يؤسفني أنك غاضب إلى هذا الحد.

لم أكن أتوقّع هذا. لكنك قلت إنك لا تريد الاحتفاظ بها. قلت إنك ستعيدها...». ثم أضاف عندما رآني مستمرّاً بالتحديق إليه... «أليس هذا ما قلته لي؟».

«بحق الجحيم، كيف يكون ما فعلتَه هو الشيء الصحيح؟».

«حسناً، سوف أخبرك. لو أنك فقط تطبق فمك وتتركني أتكلم بدلاً من أن تثرثر هكذا وترغي وتزبد وتفسد علينا ليلة عيد الميلاد».

«ما الذي تتحدث عنه؟».

نقر بأصابعه على صدغه وقال: «أأنت أبله؟ من أين تظن أن هذا المال قد جاء؟».

«وكيف أعرف هذا؟».

«هذا المال قسم من المكافأة».

«المكافأة!؟».

«مكافأة الإعادة الآمنة للوحة!».

استغرق فهم ذلك لحظة. كنت واقفاً. كان لا بد لي من الجلوس.

سألني بوريس بنبرة حذرة: «هل أنت غاضب؟».

أصوات في الممر. وضياء شتوي كالح يلمع على غطاء المصباح النحاسي.

«ظننت أن هذا سيسرك. ماذا؟».

لكني لم أكن قد صرت في حالة تسمح لي بالكلام. ما كنت قادراً إلا على النظر إليه... مصعوقاً.

عندما رأى بوريس ذلك التعبير على وجهي، هز رأسه ليزيح الشعر عن وجهه: «أنت من أعطاني هذه الفكرة. ولا أظنك كنت مدركاً كم هي فكرة رائعة. فكرة عبقرية! أتمنى لو أنني فكرت فيها بنفسي. ’*نتصل بشرطة الجرائم الفنية؛ نتصل بشرطة الجرائم الفنية*‘. حسناً... شيء جنوني! هكذا قلت في نفسي آنذاك! سأكون صادقاً تماماً معك وأقول

إنني أعتبرك مجنوناً بعض الشيء في ما يتعلق بهذا الأمر. لكن تلك الأحداث المؤسفة وقعت، مثلما تعرف جيداً. تحدثت مع تشيري بعد افتراقنا عند الجسر... ماذا نفعل، ماذا نفعل؟ وقعنا في حيرة؛ ثم تشممنا بعض الأخبار من هنا وهناك. ثم...». رفع لي كأسه... «نعم، فكرة عبقرية في حقيقة الأمر! ما الذي يجعلني أشك في ذكائك في يوم من الأيام؟ أبداً! أنت دماغ هذا الأمر كله منذ البداية! عندما كنت في آلاسكا، وكنت أمشي خمسة أميال حتى أسرق قطعة من شوكولاته نستله... أما أنت، أنظر إليك، عبقري! لماذا أشك فيك؟ لقد فكّرت في الأمر واكتشفت... اكتشفت أنك محق. من كان يمكن أن يفكر في هذا؟ مكافأة أكثر من مليون دولار تنتظر من يعيد لوحتك! بل... ليست حتى من أجل إعادة اللوحة، بل لقاء معلومات تؤدي إلى استعادتها! من غير طرح أية أسئلة! نقداً! مال نظيف مضمون!».

في الخارج، كان الثلج يطير في اتجاه النافذة. وفي الغرفة المجاورة كان شخص يسعل سعالاً شديداً، أو يضحك ضحكاً شديداً. ما كنت قادراً على التمييز بين الأمرين.

«جيئة وذهاباً، جيئة وذهاباً، تلك السنين كلها! لعبة الفاشلين! شيء خطر، غير مريح. وأيضاً... سؤال أطرحه على نفسي الآن... لماذا كنت أفعل ذلك أصلاً؟ فمع كل هذا المال السليم قانونياً، الذي لا يستطيع أحد التشكيك فيه...! لقد كنت محقّاً ـ إنهم مستقيمون في هذا الأمر. لم يطرحوا أية أسئلة. وما كانوا يريدون شيئاً غير استعادة اللوحة». أشعل بوريس سيجارة. رمى بعود الثقاب في كأس ماء، فانطفأ مصدراً صوت هسيس... «أنا لم أر اللوحة بنفسي. أتمنى لو أنني رأيتها ـ لكني رأيت أن من غير المستحسن أن أكون قريباً من الأمر. هل تفهمني؟ فريق شرطة ألماني! مسدسات، وسترات واقية من الرصاص. اتركوا كل شيء! انبطحوا أرضاً! حركة وضجة وأناس مجتمعون في الشارع! لكم كنت أحب أن أرى وجه ساشا في تلك اللحظة!».

«هل أنت من اتصل بالشرطة؟».

«لا، لم أتصل بهم شخصياً! فتاي ديمتري... إنه غاضب من الألمان بسبب إطلاق النار في موقف السيارات. شيئاً كان غير ضروري على الإطلاق، وكان أيضاً مصدر صداع له». وبحركة عصبية، وضع ساقاً فوق ساق ونفثَ من فمه غيمة دخان كبيرة... «كانت لديَّ فكرة بخصوص المكان الذي وضعوا فيه اللوحة. هنالك شقة في فرانكفورت. كانت لصديقة قديمة من صديقات ساشا. يحتفظ ساشا ببعض الأشياء هناك. لكن دخولي إلى تلك الشقة كان أمراً مستحيلاً تماماً. حتى لو اصطحبت معي بضعة رجال: مفاتيح وأجهزة إنذار وكاميرات وكلمات مرور. إلا أن المشكلة الوحيدة...». تثاءب، ثم مسح فمه بظهر يده... «حسناً، كانتا مشكلتين! الأولى هي أن الشرطة في حاجة إلى سبب معقول من أجل تفتيش الشقة. لا يمكنك الاكتفاء بالاتصال بهم وذكر اسم اللص؛ مجرد اتصال من مواطن مجهول يريد أن يقدّم يد المساعدة! إن كنت تفهم ما أعنيه! كانت المشكلة الثانية هي أنني لم أستطع تذكر تلك الشقة على وجه التحّديد. إنهم شديدو الحرص على السرية. ذهبت إلى تلك الشقة مرة واحدة فقط. كان ذلك في وقت متأخر من الليل، ولم أكن في أحسن أحوالي. أعرف المنطقة على وجه التقريب... كانت منطقة بائسة، لكنها الآن جميلة جداً. جعلت غيوري يقود بي السيارة جيئة وذهاباً في تلك الشوارع. تجوّلنا فيها وقتاً طويلاً. كان وقتاً طويلاً جداً. وأخيراً... حدّدت المكان ضمن صف من البنايات، لكني لم أكن متأكداً مئة بالمئة من البناية التي تضم تلك الشقة. وهكذا، خرجت من السيارة ومشيت في ذلك الشارع. صحيح أنني كنت خائفاً من السير هناك لأنني خشيت أن يروني. إلا أنني خرجت من السيارة وسرت. سرت بقدميَّ هاتين. أغمضت عينيَّ نصف إغماضة. نومت نفسي مغناطيسياً، بعض الشيء، محاولاً أن أتذكر عدد الخطوات! حاولت أن أترك الأمر لإحساس جسدي! على أية

حال... إنني أستبق نفسي». كان منكباً على التقاط فتات الخبز عن مفرش الطاولة... «ديمتري... إن زوجة ابن عم ديمتري، بل زوجته السابقة في واقع الأمر لأنها متزوجة الآن من شخص هولندي ولهما ابن اسمه أنطون. لعله في الحادية والعشرين أو في الثانية والعشرين. شخص نظيف تماماً من عائلة فاندنبرينك. أنطون مواطن هولندي؛ وقد تعلّم اللغة الهولندية منذ صغره فكان هذا مفيداً لنا. أنطون...». راح يقضم لفافة خبز، ثم كشر وقذف من فمه بذرة شوفان... «يعمل أنطون في بار يذهب إليه أثرياء كثر. يقع ذلك البار بالقرب من شارع *بيتر كورنيليز هوفتسترات*، أي في منطقة فاخرة في أمستردام ـ شارع *غوتشي*، شارع *كارتييه*. ولد طيب. يتكلّم الإنكليزية والهولندية، إضافة إلى كلمتين من اللغة الروسية. على أية حال، جعل ديمتري أنطون يتصل بالشرطة ويبلغهم بأنه رأى ألمانيين اثنين تطابق أوصاف واحدٍ منهما أوصاف ساشا، بكل دقة: نظارة مثل نظارات العجائز، وقميص عليه شارة مسلسل ′ *بيت صغير في البرية*′ ، ووشم قبَليّ على يده (كان أنطون قادراً على رسم ذلك الوشم بدقة بعد أن زودناه بصورة لساشا). اتصل أنطون بالشرطة وقال لهم إنه رأى هذين الألمانيين في بارِه في حالة سكر شديد وكانا يتجادلان غاضبين؛ ثم بلغ بهما الانفعال حداً جعلهما يذهبان ويتركان... ماذا؟ يتركان مصنَّفاً! حسناً، إنه مصنف مختلق بالطبع. لقد أردنا إجراء ذلك الاتصال؛ لكن أياً منا لم يكن مغفلاً إلى الحد الذي يظن معه أن تتبع ذلك الاتصال سيكون مستحيلاً تماماً. وهكذا قمت بطباعة بعض الصور... لقد جعلتك ترى تلك الصور... إضافة إلى صور أخرى كانت موجودة على هاتفي... لوحة الحسُّون مع عدد حديث نسبياً من إحدى الصحف بغية تثبيت التاريخ. كان تاريخ العدد منذ سنتين، لكن... لا أهمية لذلك. لقد وجد أنطون ذاك المصنف مصادفة، أرأيت، وجده تحت كرسي؛ وكانت فيه وثائق أخرى متعلّقة بقضية ميامي ـ أنت تتذكّرها ـ من أجل إقامة الصلة مع مشاهدات سابقة للوحة. وجرى إدخال

ذلك العنوان في فرانكفورت ضمن القصة، بالإضافة إلى اسم ساشا. كانت هذه فكرة ميريام! إنها تستحق الاعتراف لها بالفضل. عليك أن تدعوها إلى شراب عندما تعود. لقد أرسلتْ شيئاً من أميركا عن طريق FedEX ـ حركة مقنعة جداً. أرسلَته باسم ساشا. لقد كان...».

«هل ساشا في السجن الآن؟».

أطلق بوريس ضحكة صغيرة ساخرة وقال: «حقاً، إنه في السجن! حصلنا على الفدية، واستعاد المتحف اللوحة، وفرحت الشرطة بإغلاق القضية، واستردت شركة التأمين مالها، وعادت الثقافة إلى الجمهور... ربح الجميع».

«هل قلت *فدية*؟».

«حسناً... إنها مكافأة، فدية، جائزة، مهما يكن الاسم الذي يعجبك إطلاقه عليها».

«من الذي دفع هذا المال؟».

لوَّح بوريس بيده منزعجاً بعض الشيء: «لست أدري، المتحف، الحكومة، مواطن فرد، هل لهذا أهمية؟».

«إنه يهمّني».

«حسناً، لا ينبغي أن يكون مهماً بالنسبة إليك. عليك أن تطبق فمك وأن تكون شاكراً. أقول هذا لأنك...». قال هذا ورفع ذقنه وراح يكلّمني بشيء من الاستعلاء... «هل تعرف ماذا؟ يا ثيو؟ هل تعرف ماذا؟ احزر؟ احزر كم كنا محظوظين! لم يتوقّف الأمر عند استعادة عصفورك، بل ـ من كان يمكن أن يتوقّع هذا ـ لقد استعادوا لوحات أخرى كثيرة، مسروقة!».

«ماذا؟».

«عشرون لوحة، أو أكثر. لوحات بعضها مفقود منذ سنين كثيرة! ليست كلها جميلة مثل لوحتك؛ بل إن بعضها ليس جميلاً على الإطلاق، في حقيقة الأمر. إنني أعبّر عن رأيي الشخصي. على الرغم من ذلك،

كان هنالك مكافآت كبيرة من أجل أربع أو خمس لوحات، أكبر من لوحتك. بل إن عدداً من اللوحات غير الشهيرة تماماً ـ بطة ميتة، لوحة مملة فيها رجل ممتلئ الوجه، لا أعرفه ـ حتى هذه اللوحات كانت لها مكافآت أصغر حجماً ـ خمسون ألف دولار، مئة ألف دولار، هنا وهناك. من كان يظن هذا الشيء... ' *معلومات تؤدّي إلى استعادة...*' ؟ يصير مجموع المكافآت كبير جداً. وأنا آمل...». قال هذا بشيء من الصدق في صوته... «آمل أن تسامحني على ذلك!».

«ماذا؟».

«إنهم يقولون ' *واحدة من أعظم عمليات استعادة الأعمال الفنية في التاريخ*' ! هذا هو الجزء الذي توقّعت أن يسعدك... قد لا يسعدك ـ من يدري؟ ـ لكني تمنّيت هذا. أعمال متحفيّة كبرى أعيدت إلى الملكية العامة! حماية الكنوز الثقافية! فرحة كبرى! الملائكة كلها تغنّي! لكن شيئاً من هذا ما كان يمكن أن يحدث لولاك أنت».

بقيت جالساً، صامتاً، مذهولاً.

أضاف بوريس وهو يومئ برأسه صوب الحقيبة المفتوحة فوق السرير: «بالطبع، هذا ليس المبلغ كله. يجب أن يكون بعض ما في هذه الحقيبة هدية عيد ميلاد لطيفة لكل من ميريام وتشيري وغيوري. ثم إنني أعطيت أنطون وديمتري ثلاثين بالمئة مما استلمته. خمسة عشرة بالمئة لكل منهما. الحقيقة أن أنطون قام بالعمل كله، وأنا أرى أنه يجب أن يأخذ عشرين بالمئة، في حين يأخذ ديمتري عشرة بالمئة. لكن هذا مبلغ كبير بالنسبة إلى أنطون، وقد أسعده كثيراً».

«هل تقول إنهم استعادوا لوحات أخرى أيضاً؟... لم يستعيدوا لوحتي فقط؟».

«صحيح. ألم تسمعني أقول لك قبل قليل...؟».

«ما هي اللوحات الأخرى؟».

«أوه... بضع لوحات شهيرة! مفقودة منذ سنين!».
«أعطني مثلاً!».
«تنهد بوريس بقدر من الضيق والانزعاج: «أوه، أنا لا أعرف الأسماء. ألا تدرك أنه لا يجدر بك أن تطرح عليَّ هذا السؤال؟ بضعة أشياء حديثة... كبيرة الأهمية، غالية الثمن، والكل متحمس كثيراً لها! لكني سأكون صريحاً معك وأقول لا أفهم سبب هذا الاهتمام الكبير ببعضها. لماذا تكون باهظة الثمن هكذا؟ أشياء كأنها من رسم أطفال في حضانة؟ 'بقعة سائل بشعة'. 'عصا سوداء لها أفرع صغيرة متشابكة'».
«لكن، كانت هنالك أيضاً مجموعة أعمال تاريخية عظيمة من بينها لوحة لرامبراندت. لا تقل لي إنها لوحة' *الفرار*' ؟».
«لا... لوحة فيها أشخاص في غرفة مظلمة. مضجرة بعض الشيء. وأيضاً لوحة لطيفة لفان غوخ تصوِّر شاطئ البحر. ولوحات أخرى... أوه، لست أدري، الأشياء المعتادة: العذراء، ويسوع، وملائكة كثر. وجدوا بعض المنحوتات أيضاً، ووجدوا أعمالاً فنية آسيوية. بدت لي تلك الأعمال عديمة القيمة، لكني أظن أن ثمنها كبير...». أطفأ سيجارته بعنف... «وهذا ما يذكّرني بأمر. لقد تمكن من الفرار!».
«من هو؟».
«صبي ساشا الصيني...» كان قد ذهب إلى الميني بار وعاد بكأسين وبأداة فتح الزجاجات... «لم يكن في الشقة عندما وصلت الشرطة. إنه محظوظ!... إذا كان ذكياً، وهو كذلك، فلن يعود أبداً. سيجد لنفسه رجلاً ثرياً آخر لكي يعيش على ماله. هكذا هي حياته. عمل جيد إذا تمكن المرء على الحصول عليه. على أية حال...». عض على شفته وهو ينزع سدادة الزجاجة... «ليتني فكرت في العمل بهذه الطريقة، منذ سنين! شيك مصرفي كبير ضخم! مالٌ مشروع بدلاً من هذا الجري وراء كرة تقفز من هنا لهناك، بدلاً من هذا الجري على امتداد سنوات كثيرة...».

راح يلوِّح بأداة فتح الزجاجات يميناً وشمالاً وراح مقبضاها يطقطقان، تيك، توك... «جيئة وذهاباً! شيء قاتل للأعصاب! هذا الوقت كله، وهذا الصداع كله، وهذا المال الحكومي السهل القابع تحت أنفي من غير أن أراه...». استدار صوبي وسكب في كأسي دفقة صاخبة من النبيذ الأحمر... «من ناحية ما، أظن أن هورست سعيد بأن انتهت الأمور على هذا النحو. يحب هورست أن يجني المال، مثلما يحب ذلك أي شخص آخر. لكن لديه أيضاً إحساس بالذنب... أفكار عن المصلحة العامة، والتراث الثقافي، كذا كذا كذا!».

«لست أفهم! ما علاقة هورست بهذا الأمر؟».

قال بوريس بنبرة قاطعة: «لا، لست أفهم الأمر أيضاً. ولن نعرف هذا أبداً. إنه شخص شديد الحرص، شديد التهذيب، و، نعم، نعم...». بحركة نافدة الصبر، شرب جرعة سريعة من كأسه... «نعم، إنني غاضب من هورست، غاضب قليلاً. وأظنني ما عدت واثقاً فيه مثلما كنت في الماضي... بل ربما... الحقيقة أنني لم أعد أثق فيه كثيراً، على الإطلاق. لكن هورست يقول إنه ما كان يمكن أن يرسل مارتن لو عرف أنه يرسله في إثرنا نحن. ولعله يقول الحقيقة. '*أبداً، يا بوريس... لا يمكن أن أفعل هذا*' . ومن عساه يستطيع أن يعرف الحقيقة؟ حتى أكون صادقاً معك تماماً ـ وليكن الكلام بيننا ـ أظن أن هورست يقول هذا لإنقاذ ماء وجهه. فما الذي يستطيع فعله بعد أن قُضي على مارتن وفريتز، لا يستطيع فعل شيء غير أن يتراجع محتفظاً بكرامته!... يزعم بأنه لا يعرف شيئاً! لا أقول إن هذه هي الحقيقة بالضبط، اعذرني... إنها نظريتي فحسب! لدى هورست قصة أخرى».

«وما هي؟».

تنهد بوريس: «يقول هورست... يقول هورست إنه لم يكن يعرف أن ساشا أخذ اللوحة. وإنه لم يعرف بالأمر إلى أن أخذناها من ساشا الذي

اتصل به على نحو مفاجئ تماماً وطلب مساعدته من أجل استرجاعها. كان وجود مارتن في المدينة مصادفة ـ كان آتياً من لوس أنجلوس لقضاء العطلة هنا. بالنسبة للمدمنين، أمستردام مكان شعبيّ جداً، تتمتّع أمستردام بشعبية كبيرة لقضاء عطلة عيد الميلاد فيها. وأيضاً، ذلك الجزء...».
دعك عينه بيده... «نعم، أنا واثق تماماً من أن هورست يقول الحقيقة هنا. كان الاتصال الذي أتاه من ساشا مفاجأة له. لقد وضع نفسه تحت رحمة هورست! لا وقت للكلام! يجب التصرّف سريعاً! فكيف لهورست أن يعرف أننا نحن من أخذ اللوحة من ساشا؟ بل إن ساشا لم يكن حتى في أمستردام... لقد سمع بالأمر كله عبر الهاتف، من الفتى الصيني الذي لا يتكلّم الألمانية جيداً. ثم سمع هورست بالخبر من ساشا! رواية مترابطة مقنعة إذا نظر إليها المرء من هذه الزاوية. وبالنظر إلى هذا كله...». هز كتفيه وسكت.

«ماذا؟».

«حسناً... بالتأكيد، لم يكن هورست على علم بأن اللوحة في أمستردام، ولا بأن ساشا كان يحاول رهنها للحصول على المال. لم يعرف بذلك قبل أن يصيب الذعر ساشا عندما أخذنا اللوحة فاتصل به مستنجداً. أنا واثق من أن الأمر كان هكذا. لكن: هل تواطأ هورست وساشا، في الأصل، لجعل اللوحة تختفي وتذهب إلى فرانكفورت بعد تلك الصفقة الفاشلة في ميامي؟ أمر محتمل. كان هورست يحب تلك اللوحة كثيراً. أحبها كثيراً. ألم أقل لك؟... عرفها على الفور، لحظة رآها أول مرة! عرفها كأنها حاضرة في ذهنه! اسمها، وكل شيء!».

«إنها لوحة من أشهر اللوحات في العالم».

هز بوريس كتفيه: «حسناً... إنه مثقف مثلما قلت لك! لقد ترعرع على مقربة من الجمال. يجب أن أقول أيضاً إن هورست لا يعرف أنني من أعدَّ المواد التي وضعناها في ذلك المصنَّف. قد لا يسعده ذلك كثيراً.

وأيضاً...». ضحك ضحكة مرتفعة... «هل كان يمكن أن يخطر هذا في ذهن هورست؟ لست أدري! كانت هذه المكافأة منتظرة هناك، طيلة الوقت! نقود مجانية قانونية! نقود تلمع أمام أنظار الجميع، كالشمس. أعرف أنني لم أفكر في الأمر أبداً، لم أفكر فيه قبل الآن، سعادة وفرحة بحجم العالم كله! استعادة أعمال فنية كبرى! صار أنطون بطلاً كبيراً. يقف أمام المصورين، ويتحدّث على قناة *سكاي نيوز*. كانوا يصفّقون ويهللون له في المؤتمر الصحافي يوم أمس. أحبه الجميع... مثل ذلك الرجل الذي هبط بالطائرة في النهر وأنقذ الناس جميعاً، هل تتذكّره؟ لكن، كما أرى، ليس أنطون هو من يصفق له الجميع. إنه أنت!».

كانت هنالك أشياء كثيرة أقولها لبوريس، لكني لم أكن قادراً على قول شيء منها. إلا أنني كنت أشعر بنوع شديد التجريد من العرفان والامتنان. قلت في نفسي وأنا أمد يدي إلى الحقيبة وأتناول رزمة نقود وأنظر إليها... لعل الحظ الطيب مثل الحظ السيئ من حيث إنه يستغرق بعض الوقت ريثما يفهمه الإنسان... ريثما يدركه الإنسان. لا يشعر المرء بأي شيء أول الأمر. ثم يأتي الإحساس في ما بعد.

قال بوريس وقد بدا عليه ارتياح واضح لأنني استعدت نفسي أخيراً: «شيء جميل، أليس كذلك؟ أأنت سعيد؟».

«بوريس، يجب أن تأخذ نصف هذا المال».

«لم أهمل نفسي... صدقني! لديَّ الآن ما يكفي لأن أحصل على أي شيء أريده، لبعض الوقت. من يدري؟... ربما أفتتح باراً في ستوكهولم. أو ربما، لا! هذا مضجر قليلاً! وأما أنت... هذا كله لك! وسوف يأتي المزيد. هل تتذكّر تلك المرة عندما أعطى أبوك كلاً منا خمسمئة دولار؟ أحسست وقتها بأنني أطير مثل ريشة! تصرّف كريم، نبيل جداً! حسناً... كان ذلك في نظري مبلغاً هائلاً! كنت جائعاً معظم الوقت؛ وكنت حزيناً، وحيداً! لا أمتلك شيئاً! كان ذلك المال ثروة! كان أكثر من أي مبلغ رأيته

في حياتي! وأنت...». صار أنفه ورديّ اللون فظننت أنه موشك على العطاس... «أنت، كنت طيباً معي دائماً، كنت لطيفاً، كنت تشاركني كل شيء... وأما أنا، ماذا فعلت؟».

قلت بصعوبة: «أوه، بوريس، هيا، ماذا بك؟».

«لقد سرقتك... هذا ما فعلته...». لمعان كحولي في عينيه... «أخذت أعز ما كنت تملكه. كيف استطعت أن أعاملك بهذا السوء كله في حين كنت لا أتمنى لك إلا الخير؟».

قلت عندما رأيته قد بدأ يبكي: «كفّ عن هذا. رجاءً، كفّ عن هذا».

«ماذا يمكنني أن أقول لك؟ سألتني عن السبب الذي جعلني آخذها؛ فبماذا أجيبك. لا أستطيع قول شيء غير... الأمر ليس كما يبدو، أبداً... كله حسن، كله سيئ. لو كانت الأمور هكذا لكانت أسهل كثيراً. حتى أبوك... كان يطعمني، ويحدّثني، ويمضي الوقت معي، ويؤويني تحت سقفه، ويعطيني ملابس من عنده... أعرف أنك كنت تكرهه كثيراً، لكنه كان رجلاً طيباً من بعض النواحي».

«لن أقول إنه كان طيباً».

«حسناً، أنا أقول هذا».

«إذاً، ستكون الشخص الوحيد الذي يحمل هذا الرأي. وستكون مخطئاً».

«انظر!... أنا أكثر تسامحاً منك...». قال بوريس هذا وقد دبت فيه الحيوية عندما لمح احتمال خلاف بيننا. نشق بأنفه مبتلعاً دموعه... كساندرا، وأبوك ـ كنت دائماً تريد أن تصورهما سيئين، شريرين. وأنت؟ كنت طفلاً... وكان أبوك شخصاً غير مسؤول؛ كان يدمر حياتك. لكن روحه كانت كبيرة. كان هذا يؤلمه كثيراً! لكن الأذى الذي ألحقه بنفسه كان أكبر من أي أذى ألحقه بأي شخص آخر. وأيضاً...». قالها بطريقة مسرحية محاولاً منعي من الاعتراض... «نعم، لقد سرقك، أو حاول

ذلك. لكن، هل تعرف ماذا؟ أنا سرقتك أيضاً؛ ولم تعرف أنني سرقتك! فأيهما أسوأ؟ لأنني... أقول لك...» لكز الحقيبة بأصابع قدمه... «العالم مكان أكثر غرابة مما نظن؛ أكثر غرابة مما يمكننا قوله. أنا أعرف كيف تفكّر، أو كيف تحب أن تفكّر؛ لكن... قد يكون هذا مثالاً على الحالات التي يمكن اختصارها إلى خيرٍ صِرفٍ أو شرٍّ صرفٍ مثلما تحب أن تفعل دائماً! مثل تلك الكومتين المختلفتين اللتين كنت تتحدّث عنهما! السيئ هنا، والجيد هناك! قد لا يكون الأمر بهذه البساطة كلها. لأن... طيلة فترة سفرنا في السيارة قادمين إلى هنا، سائرين في الليل، وأضواء عيد الميلاد على الطريق... لست أخجل من القول لك إنني أحسست بالاختناق... لأنني كنت أفكّر، ولم أستطع منع نفسي من التفكير، في تلك القصة في الكتاب المقدس...! أنت تعرفها. القيّم الذي سرق مال الأرملة ثم فر إلى بلد بعيد واستثمر ذلك المال استثماراً حكيماً، وعاد إلى الأرملة بعد ذلك بألف ضعف المال الذي سرقه منها! صفحت عنه الأرملة. وكانت سعيدة. وذبحا العجل السمين. وأقاما احتفالاً!».

«أظن أن القصة التي لدينا ليست هي القصة نفسها تماماً».

«حسناً... مدرسة الكتاب المقدس، في بولندا؛ كان ذلك منذ زمن بعيد. ومع هذا، فإن ما أحاول قوله لك ـ ما كنت أفكر فيه خلال سفري قادماً من آنتويرب الليلة الماضية ـ هو أن الخير لا يكون دائماً نابعاً من أعمال خيّرة، ولا تؤدي الأفعال الشريرة دائماً إلى نتائج شريرة! حتى الإنسان الحكيم الخيّر لا يستطيع رؤية النتيجة النهائية لأفعاله كلها. فكرة مخيفة! هل تتذكّر الأمير ميشكين في رواية *الأبله*؟ ».

«الحقيقة أنني لست مستعداً الآن لحديث ثقافي».

«أعرف هذا، أعرف هذا. لكن، اسمعني حتى النهاية. لقد قرأت *الأبله*، أليس هذا صحيحاً؟ والآن. حسناً... لقد كانت رواية *الأبله* كتاباً سبّب لي اضطراباً وقلقاً كبيرين. والحقيقة أن الاضطراب الذي أصابني

نتيجة ذلك الكتاب جعلني أمتنع عن قراءة روايات كثيرة بعده، باستثناء أشياء من قبيل *'وشم التنين'*...» حاولت مقاطعته، لكنه استمر... «نعم، ربما تقول ما تريد قوله في وقت لاحق. يمكنك أن تقول رأيك في وقت لاحق. لكن، دعني الآن أخبرك عن السبب الذي جعلني أجد ذلك الكتاب مقلقاً. هذا لأن كل ما فعله الأمير ميشكين كان حسناً... كان غير أناني... وكان يعامل الناس جميعاً بتفهم وتعاطف. فما الذي نتج عن هذا الخير؟ جريمة قتل! كارثة! كان هذا يقلقني كثيراً. وكنت أرقد في الليل مستيقظاً، وأفكر قلقاً. لأن... لماذا؟ كيف يمكن أن يكون الأمر هكذا؟ قرأت ذلك الكتاب ثلاث مرات؛ وكنت أظن أنني لا أفهمه على الوجه الصحيح. كان ميشكين طيباً، لطيفاً. كان يحب الجميع. كان رقيقاً، يصفح دائماً؛ ولم يفعل أي شيء خاطئ. لكنه وضع ثقته في أشخاص ما كان يجب أن يضع ثقته فيهم. واتخذ قرارات أدّت إلى أذية كل من كان من حوله. إن في هذا الكتاب رسالة قاتمة جداً. *'لماذا يكون المرء طيباً؟'* لكن... هذا ما كان مستولياً على تفكيري الليلة الماضية وأنا قادم إليك في السيارة. ماذا لو كان الأمر أكثر تعقيداً من ذلك؟ ماذا لو كان العكس صحيحاً أيضاً؟ فإذا كان من الممكن أحياناً أن ينتج الشر عن الخير...؟ أفلا يمكن أحياناً أن يكون الطريق الخاطئ هو الطريق الصحيح؟ من الممكن أن تتخذ طريقاً خاطئاً ثم تصل إلى حيث تريد الوصول. أو، يمكن قلب الأمر على وجهه الآخر. من الممكن أحياناً أن ترتكب مختلف أنواع الأغلاط، ثم تصل إلى نتيجة صحيحة!».

«لست واثقاً من أنني أفهم فكرتك».

«حسناً... علي القول إنني، شخصياً، لم أكن في يوم من الأيام واحداً ممن يرسمون ذلك الخط الحاد الفاصل بين *'الخير'* و*'الشر'* مثلما تفعل أنت. بالنسبة إليَّ، غالباً ما يكون هذا الخط زائفاً. ولا يمكن أبداً الفصل بين الاثنين. لا يمكن أن يوجد أحدهما من غير الآخر. طالما أنني

أتصرّف انطلاقاً من الحب، فأنا أحس بأنني أفعل أحسن ما أستطيع فعله. وأما أنت... أنت الغارق في الأحكام، الذي يتحسّر دائماً على الماضي، ويلعن نفسه ويلومها، ويسأل ُ *ماذا لو*َ وُ *ماذا لو*َ . أنت الذي يقول لنفسه دائماً ُ *الحياة قاسية*َ . ُ *ليتني أنا من مات*َ . حسناً... فكر في هذا الأمر. ماذا لو أن أفعالك وخيارتك كلها، حَسَنها وقبيحها، خيرها وشرها، لا أهمية لها في نظر الرب؟ ماذا لو كان كل شيء مقدّراً سلفاً؟ لا، لا ـ انتظر لحظة ـ هذا سؤال يستحق العناء. ماذا لو أن شرورنا وأغلاطنا هي ما كان مقدّراً لنا أن نفعله، وهي ما يصل بنا إلى الخير؟ ماذا لو أننا، لو أن بعضنا، غير قادرين على بلوغ ذلك بأية طريقة أخرى؟».

«بلوغ ماذا؟».

«افهمني!... عندما أتحدث عن الرب، فأنا لا أستخدم هذه الكلمة إلا للإحالة إلى النموذج المرسوم على المدى البعيد الذي لا نستطيع إدراكه. شيء مثل نظام مناخي ضخم بطيء الحركة يتحرّك قادماً إلينا من بعيد، ثم يعصف بنا عشوائياً مثل...». حرّك يده في الهواء مثلما تتحرّك ورقة شجرة تتقاذفها الريح... «لكن، قد لا يكون الأمر عشوائياً إلى هذا الحد، لا يمكن أن يكون من غير إرادة خلفه... إن كنت تفهمني».

«آسف، لكني لا أدرك الغاية هنا».

«لست في حاجة إلى فكرة جوهرية. قد تكون الفكرة هي أن الفكرة الجوهرية أكبر من أن نستطيع رؤيتها أو تدبر أمرها من تلقاء أنفسنا. وهذا لأن...». ارتفع حاجبه المنكسر الذي يشبه جناح خفّاش... «لو أنك لم تأخذ الصورة من المتحف، ولم يسرقها ساشا، ولم أفكر في الحصول على الجائزة المرصودة من أجلها. نعم.. ألم تكن عشرات اللوحات تلك ستظل مفقودة؟ وربما إلى الأبد؟ مغلفة بورق بنّي؟ محبوسة في شقة حتى الآن؟ ولا أحد يستطيع النظر إليها؟ معزولة، وحيدة، وقد خسرها العالم؟... قد تكون تلك اللوحة الواحدة فُقدت حتى يتم العثور على البقية؟».

«أظن أن هذا أقرب إلى فكرة ’ *السخرية التي لا تعرف الهوادة*‘ منه إلى *العناية السماوية*‘ !».

«نعم... لكن، لماذا نعطي الأمر اسمين؟ ألا يمكن أن يكونا شيئاً واحداً؟».

نظر كل منا إلى الآخر. خطر في ذهني أن السبب الذي جعلني أحب بوريس وأشعر بالسعادة عندما أكون قريباً منه، تقريباً منذ لحظة لقائنا الأول ـ على الرغم من عيوبه الواضحة الكثيرة ـ هو أنه لا يخاف أبداً. لا يصادف المرء أشخاصاً كثيرين يتحرّكون بحرية في هذا العالم، وبهذا القدر من الازدراء العنيف له، مع إيمان غريب، إيمان لا يتزعزع، فيما كان يحب أن يدعوه في طفولته «كوكب الأرض».

أفرغ بوريس بقية كأس النبيذ، ثم سكب المزيد منه: «إذاً... فما هي مشاريعك الكبيرة؟».

«بخصوص ماذا؟».

«كنت لا تطيق الجلوس هنا قبل لحظة فقط. لماذا لا تبقى هنا؟».

«هنا؟».

«لا. لم أكن أعني هنا، أي في أمستردام! أوافقك على أنها ستكون فكرة جيدة جداً إذا ابتعدنا عن المدينة. ومن ناحيتي، فإنني لا أجد أية مشكلة في الغياب عنها فترة من الزمن. ما قصدته هو أن تسترخي وترتاح قليلاً قبل أن تطير عائداً إلى نيويورك. تعال معي إلى آنتويرب. سترى بيتي، وستتعرف إلى أصدقائي. ابتعد قليلاً عن مشكلات الفتيات».

«لا، إنني عائد إلى البلاد».

«متى؟».

«اليوم إن استطعت».

«أبهذه السرعة؟ لا! تعال إلى آنتويرب! لدينا خدمة رائعة ـ ليست مثل ما تراه في منطقة ’ رِدلايت‘ هنا ـ فتاتان اثنتان. ألفا يورو. عليك أن تتّصل

قبل يومين اثنين. من كل شيء اثنان! من الممكن أن يأخذنا غيوري. سأجلس في المقعد الأمامي ويمكنك أن تستلقي وتنام في الخلف. ما قولك؟».

«في الحقيقة، أظن أن من الأفضل أن توصلني إلى المطار».

«في الحقيقة... أظن أنه ليس من الأفضل أن أوصلك إلى المطار. لو كنت أنا من يبيع التذاكر، لما سمحت لك بالصعود إلى الطائرة. يبدو مظهرك كما لو أنك مصاب بأنفلونزا الطيور أو بالسارز». كان يفك رباط حذائه الغارق في الماء محاولاً إدخال قدمه فيه... «أوف! هل تستطيع إجابتي عن هذا السؤال؟ لماذا...». رفع إحدى فردتي الحذاء الذي كان حاله مزرياً... «قل لي، لماذا أشتري هذه الأحذية الجلدية الإيطالية الفاخرة على الرغم من أنني أتلفها في أسبوع واحد؟ كان لدي ذلك الحذاء الصحراوي القديم، هل تتذكّره؟ كان جيداً من أجل سرعة الفرار! ومن أجل القفز من النوافذ! عاش سنوات! لست أبالي إذا كان مظهره غير منسجم مع بدلتي. سوف أبحث عن أحذية من ذلك النوع. وعندما أجدها سأواصل استخدامها طيلة ما بقي من عمري. أين...». قال هذا ونظر إلى ساعته عابس الوجه... «أين ذهب غيوري؟ لا يعقل أن يكون قد واجه مشكلة في العثور على مكان لإيقاف السيارة لأننا في عطلة عيد الميلاد».

«هل اتصلت به؟».

ضرب بوريس رأسه بكفّه وقال: «لا! لقد نسيت. اللعنة! لا بد أن يكون قد تناول إفطاره الآن. أو لعله لا يزال جالساً في السيارة متجمّداً من البرد». أفرغ بقية نبيذه في فمه ووضع زجاجات الفودكا الصغيرة في جيبه... «هل أمتعتك جاهزة؟ نعم؟ عظيم. يمكننا الذهاب الآن...». لاحظت أنه يضع بقايا الخبز والجبن في منديل طعام قماشية... «انزل وادفع الحساب. لكن...». ألقى نظرة استنكار إلى معطفي الملطخ بالقهوة الذي رميته على السرير... «عليك أن تتخلّص من هذا الشيء».

«كيف؟».

أومأ برأسه في اتجاه القناة العكرة التي تلوح خلف النافذة.

«أحقاً؟».

«لم لا؟ ما من قانون يمنع رمي معطف في القناة!».

«أظن أن هنالك قانوناً يمنع هذه الأشياء».

«حسناً... من يدري؟ قد يكون قانوناً غير مطبَّق تطبيقاً حازماً إذا أردت رأيي. عليك أن ترى بعض الخراء الذي رأيته في تلك القناة خلال إضراب عمال النظافة. قد تظن أن أميركيين سكارى كانوا يتقيأون فيها. لكن...». ألقى نظرة عبر النافذة... «أنا معك؛ فمن الأفضل عدم فعل هذا في وضح النهار. يمكننا أخذه معنا إلى آنتويرب في صندوق السيارة، وعندما نكون هناك سنلقيه في الفرن ونحرقه. ستعجبك شقتي كثيراً...». أخرج هاتفه من جيبه وطلب رقماً... «شقة كأنها علّية فنان، لكن من غير فن. وسوف نخرج ونشتري لك معطفاً جديداً عندما تفتح المتاجر بعد العطلة».

6

طرت عائداً إلى نيويورك في رحلة ليلية بعد يومين من ذلك (بعد قضاء اليوم الذي أعقب ليلة في آنتويرب من غير مرح ومن غير فتيات... حساء معلّب، وحقنة بنسلين، وبعض الأفلام القديمة شاهدتها مستلقياً على أريكة بوريس). كانت أنفاسي غيوماً صغيرة بيضاء عندما وصلت إلى بيت هوبي نحو الساعة الثامنة صباحاً. دخلت عبر الباب المزيّن بالزهور فعبرت الردهة ورأيت فيها شجرة عيد الميلاد المظلمة التي لم يكن تحتها إلا قليل من الهدايا. سرت حتى عمق البيت حيث وجدت هوبي متورّم الوجه، ناعس العينين، مرتدياً ثوب الحمام وشبشباً منزلياً. كان واقفاً على سلم المطبخ الصغير لكي يضع على رف مرتفع قدر الحساء ووعاء مزج شراب البنتش اللذين استخدمهما من أجل غداء عيد الميلاد.

قلت له: «مرحباً». وتركت حقيبتي تسقط من يدي. كنت منشغلاً

ببوبتشيك الذي راح يدور حول قدميَّ في دوائر ترحيبية. وعندما رفعت رأسي ونظرت إلى هوبي نازلاً عن السلم لاحظت ذلك التصميم البادي على وجهه: مضطرب، لكن ابتسامة دفاعية صارمة كانت مثبتة على وجهه.

«وأنت أيضاً». قلتها للكلب، ثم خلعت معطفي ووضعته على كرسي المطبخ... «هل من جديد؟».

«ليس كثيراً». لم ينظر إليّ.

«ميلاد مجيد! حسناً... إنها متأخّرة قليلاً. كيف كان عيد الميلاد عندكم؟».

قال بنبرة جامدة بعد مضي بضع ثوان: «جيد. وكيف كان عيدك؟».

«لم يكن سيّئاً...». ثم أضفت عندما لم يقل شيئاً... «كنت في أمستردام».

«أوه، حقاً؟ لا بد أن ذلك شيء لطيف». كان مشغول الذهن، غير حاضر تماماً.

سألته بعد لحظة صمت حذرة: «كيف كان غداء عيد الميلاد؟».

«أوه، جيد جداً. هطل بعض المطر المتجمد، وأما غير ذلك فقد كان لقاء جيداً...». كان يحاول طي سلم المطبخ لكنه يجد صعوبة في ذلك... «هنالك بضع هدايا لك لا تزال تحت الشجرة... إن كنت راغباً في فتحها».

«أشكرك. سأفتحها الليلة. إنني مرهق تماماً. ألا أساعدك في طي السلم؟». قلت هذا وتقدّمت في اتجاهه.

«لا، لا، أشكرك...». كان واضحاً من صوته أن هنالك أمراً ما... «لقد حللت مشكلته».

أجبته: «لا بأس». وتساءلت في سري عن السبب الذي جعله يمتنع عن ذكر الهدية التي تركتُها له: قطعة صغيرة من تطريز يد طفل... حروف

وأرقام بلونٍ بنيٍّ محمرٍّ، وحيوانات مزرعة مشغولة بخيوط صوفية، تطريز *ماري ستور تيفانت في سن 11 ـ 1779*. ألم يفتح هديته؟ لقد عثرت على تلك القطعة في علبة من البوليستر لجوارب العجائز في سوق الأشياء المستعملة ـ لم يكن سعرها رخيصاً بالقياس إلى تلك السوق، أربعمئة دولار... إلا أنني رأيت قطعاً مماثلة في مزادات أميركية تباع بعشرة أضعاف هذا المبلغ.

وقفت صامتاً أنظر إليه يحوم في المطبخ متحرّكاً حركات آلية... يتجوّل في دوائر، ثم يفتح باب البراد ويغلقه من غير أن يأخذ منه شيئاً، ثم يملأ غلاية الشاي، وهو ملتف بشرنقته من غير أن ينظر في اتجاهي.

قلت له آخر الأمر: «هوبي، ما الذي يجري؟».

أجابني: «لا شيء». كان يبحث عن ملعقة، لكنه فتح درجاً آخر غير درج الملاعق.

«ماذا؟ ألا تريد إخباري؟».

استدار فرأيت في عينيه لمحة من التردد قبل أن يلتفت صوب الموقد من جديد ويقول بسرعة: «لم يكن أمراً مناسباً أبداً أن تقدّم ذلك العقد هدية لبيبا».

فوجئت وقلت: «ماذا؟ هل ضايقها ذلك؟».

قال لي وهو ينظر إلى الأرض ويهز رأسه: «أنا... لست أدري ما الذي أصابك. ولم أعد أعرف كيف أفهم الأمر...». وعندما رآني أجلس ساكناً... «أنظر... لا أريد أن أفرض وجهة نظري. حقاً، أنا لا أريد ذلك. والحقيقة أنني أفضّل عدم الكلام في هذا الأمر على الإطلاق. لكن...». بدا كما لو أنه يفتش عن الكلمات المناسبة... «ألا ترى أنه أمر مؤلم وغير مناسب؟... أن تقدم لها عقداً بقيمة ثلاثين ألف دولار؟ أن تقدّم هذا العقد ليلة حفلة خطوبتك؟ وأن تضعه هكذا... على حذائها؟ أمام بابها؟».

«لم أدفع ثلاثين ألف دولار ثمناً له».

«لا. يمكنني القول إنك دفعت سبعين ألفاً إن كنت قد اشتريته من متجر ما. وأيضاً... هنالك أمر آخر...». جذب كرسياً بحركة مفاجئة كثيراً، ثم جلس عليه وقال بصوت حزين بائس... «أوه، لا أعرف ما الذي علي فعله. ليست لدي أية فكرة من أين أبدأ؟».

«عفواً؟».

«من فضلك، قل لي إن تلك الأشياء الأخرى كلها... لا علاقة لها بك».

سألته: «أية أشياء؟».

موسيقى صباحية كلاسيكية من راديو الترانزستور في المطبخ؛ سوناتا بيانو تأملية: «حسناً، قبل عيد الميلاد بيومين تلقيت زيارة استثنائية من صديقك لوسيوس ريف».

كان أثر هذه الضربة فورياً... سرعته وعمقه.

«كانت لديه اتهامات مفزعة. أكثر مما توقعت، وأبعد مما توقعت...». ضغط هوبي على عينيه بسبابته وإبهامه. بقي هكذا لحظة قبل أن يتابع... «فلنترك المسألة الأخرى جانباً بعض الوقت. لا، لا...». قال هذا عندما حاولت أن أتكلم... «فلنأخذها بالترتيب. مسألة قطع الأثاث!».

تدحرج بيننا صمت لا يحتمل.

... «أفهم أنني لم أُسهّل عليك كثيراً أن تصارحني. وأفهم أيضاً أنني الشخص الذي وضعك في هذا الموقع. لكن...». نظر من حوله حائراً... «مليونا دولار يا ثيو!».

«اسمع، دعني أقول لك شيئاً...».

«كان عليَّ أن أسجل ملاحظاتي ـ لقد أتى بصور الوثائق، وفواتير الشحن... قطع لم نكن نبيع مثلها ولم تكن موجودة لدينا أصلاً. قطع في مستوى المزادات الكبرى، لا وجود لها. لم أستطع إحصاء عدد القطع في عقلي لأنني توقّفت عن العد في لحظة ما. بالعشرات! لا فكرة عندي

عن حجم تلك الكمية. وقد كذبت عليَّ في ما يتعلق بنيّاته عندما قلت لي إنه يريد أن يجعلنا نشاركه أعماله المشبوهة. ليس هذا ما كان يريده أبداً».

«هوبي! هوبي، اسمعني...».

كان ينظر إليَّ من غير أن ينظر إليَّ حقاً... «يؤسفني أنك عرفت الأمر بهذه الطريقة. كنت آمل أن أتمكّن من تصحيح كل شيء قبل أن تعرف. لكن... صرت الآن قادراً على تصحيح كل شيء. أستطيع الآن استعادة تلك القطع كلها ودفع ثمنها. أستطيع استعادتها كلها».

لم يظهر عليه أي ارتياح. لم يفعل شيئاً إلا أن هز رأسه وقال: «هذا مفزع يا ثيو. كيف أمكنني تركه يحدث؟».

لو كنتُ ساعتها في حالة أقل اضطراباً، لقلت له إنه لم يرتكب إلا خطيئة واحدة، ألا وهي إيلائي ثقته وتصديق ما قلته له. لكنه بدا في حيرة حقيقية فلم أستطع إرغام نفسي على قول أي شيء.

«كيف بلغ الأمر هذا الحد؟ وكيف أمكنني ألا أعرف شيئاً عما يجري؟ لقد كان لديه...». أشاح هوبي بوجهه وهز رأسه من جديد. هزّه هزّة سريعة كأنه يحاول أن يطرد منه تلك الأشياء التي لا يريد تصديقها... «وثائق بخط يدك يا ثيو. وثائق بإمضائك. طاولة *دونكان فايف*... كراسي طعام *شيراتون*... أريكة *شيراتون* شُحنت إلى كاليفورنيا... أنا من صنع تلك الأريكة يا ثيو؛ صنعتها بيديَّ هاتين. ولقد رأيتَني أصنعها؛ ليس فيها من *شيراتون* أكثر مما في كيس التسوق ذلك الذي هناك. إطار جديد بالكامل. وحتى مساند الذراع جديدة أيضاً. ليس فيها إلا ساقين أصليتين! وأنت كنت واقفاً هنا ورأيتني أصنع الساقين الجديدتين».

«إنني آسف يا هوبي. كانت إدارة الضرائب تتصل كل يوم. لم أجد شيئاً أفعله غير...».

«أعرف أنك لم تجد شيئاً تفعله...». قال هذا على الرغم من نظرة عينيه التي بدت كأنها تحمل سؤالاً حتى عندما نطق هذه الكلمات...

«أعرف أن الوضع هنا كان في غاية السوء. لكن...». دفع بكرسيه إلى الخلف ورفع نظره إلى السقف... «لماذا لم تتوقّف؟ لماذا تابعت هذا الأمر؟ إننا ننفق مالاً لا نمتلكه! غرقنا في الأرض حتى صرنا في منتصف الطريق إلى الصين. هذا الأمر جارٍ منذ سنين. حتى لو تمكّنا من تغطية تلك المبالغ كلها، وهو ما لا نستطيعه بالتأكيد، وأنت تعرف هذا...».

«هوبي، قبل كل شيء، أستطيع تغطية المبلغ؛ وثانياً...». كنتُ في حاجة إلى قهوة لأنني لم أكن صاحياً تماماً. لكني لم أر قهوة على المدفأة، ولم تكن اللحظة مناسبة لكي أنهض وأعدّ لنفسي قهوة... «وثانياً، إن الأمر على ما يرام، لأن... بالتأكيد... ليس كذلك. لقد كنت أحاول إنقاذ الوضع وتسديد بعض الديون، ولست أدري كيف تركت الأمور تكبر إلى هذا الحد وتخرج عن السيطرة. لكن، لا، لا، اسمعني...». قلت هذا ملحّاً لأنني رأيته يبتعد عني كأنه يغيب في الضباب، مثلما كانت أمي تفعل عندما تجد نفسها مضطرة إلى الجلوس ومعاناة سماع كذبة طويلة مستحيلة معقدة من أكاذيب أبي... «مهما يكن ما قاله لك ذلك الرجل، ومهما تكن تلك الأشياء التي أعرفها، فإن لدي المال الآن. كل شيء بخير الآن. هل تفهمني؟».

«أظن أنني لا أجرؤ على سؤالك عن مصدر المال الذي صار لديك...». ثم أضاف بنبرة حزينة بعد أن استند إلى ظهر كرسيه... «أين كنت حقاً؟ إن لم يكن لديك مانع من طرح هذا السؤال».

تململت في جلستي وغطيت وجهي بكفي يدي: «أمستردام».

«لماذا أمستردام؟» وعندما ترددت قبل أن أجيبه... «لم أكن أتوقّع عودتك».

«هوبي...». كان إحساسي بالعار يحرقني. لقد كنت دائماً أبذل جهداً كبيراً حتى أخفي عنه ذاتي المراوغة الكاذبة، بحيث لا يرى مني غير النسخة الجيدة اللامعة. لم أتركه يرى ذاتي المبتذلة المخجلة التي كنت

أفعل كل شيء لحجبها عن عينيه... شخصية المخادع، الجبان، الكذاب، الغشّاش...

«لماذا عدت؟». كان يتكلم سريعاً، ببؤس واضح، كما لو أنه لا يريد إلا إخراج تلك الكلمات من فمه. نهض في غمره اهتياجه وراح يسير في الغرفة. كان شبشبه البيتي يصفع الأرض مع كل خطوة... «ظننت أننا لن نراك بعد الآن. رقدت مستيقظاً في السرير طيلة الليلة الماضية ـ طيلة الليالي الماضية ـ محاولاً التفكير في ما أفعله. تحطمت سفينتي. كارثة. وتلك الأخبار كلها عن اللوحات المسروقة. يا له من عيد ميلاد! وأنت... لم أستطع العثور عليك. ولم أعرف مكانك. لم تجب على هاتفك... ولم يعرف أحد عنك شيئاً...».

أصابني فزع حقيقي، فقلت: «يا ربي! إنني آسف يا هوبي. لكن، اسمعني، اسمعني...». رأيته يشد على شفتيه ويهز رأسه كما لو أنه فصل نفسه تماماً عما كنت أحاول قوله، كما لو أنه ما عاد يجد أي معنى حتى في الإصغاء إلى كلامي... «إن كنت قلقاً في ما يتعلّق بقطع الأثاث...».

«أثاث؟...». هوبي المتسامح، الرائق، المسالم: كان يغلي كأنه مرجل موشك على الانفجار... «من ذكر شيئاً عن الأثاث؟ قال ريف إنك فررت، إنك هربت من الأمر كله...». رفرفت عيناه بسرعة؛ كان يحاول تهدئة نفسه... «لم أصدّق هذا الكلام عنك، ولم أستطع تصديقه؛ وكنت أيضاً خائفاً من أن يكون الأمر شيئاً أسوأ من ذلك. أوه، أنت تفهم ما أعنيه...». قال هذا بنبرة نصف غاضبة عندما رأى أنني لم أجبه بشيء... «ماذا كان يمكنني أن أظن؟ تلك الطريقة التي انسحبت بها من الحفلة... بيبا وأنا... لا يمكنك تخيّل هذا! استاءت المضيفة، صاحبة الحفلة، قليلاً، وقالت: ’*أين هو العريس*‘، وراحت تتشمّم هنا وهناك. لقد خرجتَ على نحو مفاجئ تماماً. لم نكن مدعوّين إلى العشاء بعد الحفلة، فانسحبنا. وبعد ذلك... تخيّل كيف كان إحساسي عندما عدت إلى البيت فوجدت الباب

غير مقفل، بل كان مفتوحاً في حقيقة الأمر؛ ووجدت درج المال فارغاً... وبصرف النظر عن العقد، فإن تلك الرسالة التي تركتها لبيبا كانت في غاية الغرابة، لقد قلقتْ عليك بيبا مثلما قلقتُ...».

«هل قلِقَتْ حقّاً؟».

لوّح بذراعه: «لقد كانت قلقة بالطبع!...». صار صوته الآن صراخاً... «في أي شيء كنت تفكّر ساعتها؟ ثم أتت تلك الزيارة المفزعة، زيارة ريف. كنت منهمكاً في تحضير بعض الفطائر ـ ما كان ينبغي لي أن أذهب لأفتح الباب، لكني ظننت أنها نويرا، لأننا كنا في التاسعة صباحاً. وقفت أنظر إليه فاغراً فمي وقد تناثر الطحين على ملابسي. ثيو، لماذا فعلت هذا؟». كان صوته يائساً.

لم أدرك ما كان يعنيه بسؤاله هذا ـ لقد فعلت الكثير ـ ما كان لدي خيار آخر غير أن أهز رأسي وأشيح بوجهي بعيداً عنه.

«... كان كلامه منافياً للعقل تماماً، فكيف يمكن أن أصدقه؟ الحقيقة أنني لم أصدقه أبداً. لم أصدقه لأنني أفهم... انظر...». قال هذا لأنه لم يرَ مني أية استجابة... «انظر، إنني أفهم مسألة الأثاث. لقد فعلتَ ما كان عليك أن تفعله. صدّقني... إنني شاكر لك؛ فلولاك لكنت أعمل في مكان ما لقاء أجر، وأعيش في غرفة بائسة صغيرة. لكن...». دسَّ قبضتّيْ يديه في جيبَيْ ثوب الحمام... «هذا الكلام الفارغ كله!؟ من الواضح أنني لم أستطع منع نفسي من التساؤل عن علاقتك بهذه الأمور كلّها، خاصة أنك ذهبت فجأة من غير أن تقول كلمة واحدة. ذهبت مع صاحبك... صاحبك الذي... لا أحب أن أقول هذا لأنه فتى جذاب حقاً، لكنه يبدو شخصاً عرف زنزانة السجن أكثر من مرة...».

«هوبي...».

«أوه، ريف! كان عليك أن تسمعه...». بدا كما لو أن طاقته كلّها قد تركته فصار مظهره هامداً، مهزوماً... «ذلك الثعبان! وأنا... أريد منك

أن تعرف كم بلغ به الأمر... سرقة أعمال فنية!؟ لقد دافعت عنك من غير أي تحفظ. فمهما يكن ما فعلته... كنت واثقاً من أنك لم تفعل هذا الأمر أبداً. ثم ماذا؟ بعد أقل من ثلاثة أيام! ما الذي ظهر في الأخبار؟ أيّ لوحة كانت؟ ... إلى جانب عدد من اللوحات الأخرى! هل كان يقول لي الحقيقة؟». قال عندما لم أجبه بشيء... «أهو أنت؟».

«نعم. حسناً، أعني... نعم، من الناحية الشكلية».

«ثيو!».

«يمكنني شرح الأمر».

قال لي وهو يدعك عينيه بكفيه: «اشرحه، من فضلك».

«اجلس».

«أنا...». نظر من حوله عاجزاً كأنما خشي أن يفقد تصميمه كلّه إذا جلس إلى الطاولة معي.

«يجب أن تجلس. يجب أن تجلس. إنها قصة طويلة. سأحاول اختصارها إلى أقصى حدٍّ ممكن».

7

لم يقل هوبي أية كلمة. بل إنه لم يرد على الهاتف عندما انطلق رنينه. كنت مرهقاً حتى العظام. وكان جسدي متألماً بعد سفر طويل بالطائرة. صحيح أنني تجنّبت ذكر القتيلين، إلا أنني أعطيته أحسن خلاصة عن بقية القصة كلها: جمل قصيرة، وتقرير حقائق، وامتناع تام عن أية محاولة للتفسير أو التبرير. أنهيت قصتي فظل جالساً في مكانه. هزني صمته. لا صوت في المطبخ غير همهمة رتيبة منبعثة من البراد العتيق. لكنه لم يلبث أن انتصب في جلسته وطوى ذراعيه على صدره.

قال: «تتغير الأمور على نحو غريب أحياناً، أليس كذلك؟».

بقيت صامتاً لأنني لم أعرف بأي شيء أجيب.

دعك عينيه: «أعني أنني لم أفهم هذا إلا بعد أن تقدّمت في السن. ما أغرب الزمان! وما أكثر مفاجآته وألاعيبه».

كانت كلمة ألاعيب الكلمة الوحيدة التي سمعتها، أو التي فهمتها. وفجأة، نهض واقفاً بطوله البالغ ست أقدام وخمسة إنشات... كان في هيئته شيء صارم، نادر، أو لعله بدا لي كذلك؛ لعله بدا لي شبحاً عتيقاً لشرطي خارج في دورية، أو لحارس أمني موشك على طردي من الحانة.

قلت: «سوف أرحل».

رفرفت عيناه سريعاً: «ماذا؟».

«سأحرر لك شيكاً بالمبلغ كله. لكن أرجو أن تحتفظ به ريثما أبلغ بأنك صرت قادراً على صرفه. أقسم أنني لم أقصد أن أسبب لك أي ضرر».

أزاح كلماتي جانباً بحركة من ذراعه، حركة عرفتها منذ زمن بعيد. قال: «لا، لا. أريد أن أريك شيئاً».

نهض واقفاً وخرج إلى الردهة. كانت ألواح الأرضية الخشبية تطقطق تحت خطواته. غاب برهة من الزمن. وعندما عاد، كان معه ألبوم صور عتيق متهالك. جلس على الكرسي ومضى يقلب بضع صفحات. وعندما وصل إلى صفحة بعينها، دفع بالألبوم في اتجاهي، فوق الطاولة، وقال: «هاك! انظر». صورة فوتوغرافية باهتة. صبيٌّ حاد الأنف، ضئيل كأنه عصفور، مبتسم أمام البيانو في غرفة من طراز ما قبل الحرب العالمية الأولى مزينة بسعف النخل: ليست باريسية... ليس تماماً... بل قاهرية. حوض نباتات مزدوج، وبرونزيات فرنسية كثيرة، ولوحات صغيرة كثيرة. لوحة زهور في كأس تعرفت فيها على أسلوب مانيه. لكن عينيَّ توقفت عند صورة مألوفة لي أكثر منها، فوقها بلوحة أو لوحتين.

كانت تقليداً للوحة الأصلية، بطبيعة الحال. لكنها كانت، حتى في تلك الصورة الفوتوغرافية القديمة التي فقدت بريقها، متألقة في حد ذاتها، متألقة بضيائها الذاتي الحديث على نحو بدا لي غريباً.

قال هوبي: «نسخة رسمها فنان. رسم لوحة مانيه أيضاً. ما من شيء متميّز، لكن...». ضم يديه على الطاولة... «هذه اللوحات كانت جزءاً

كبيراً من طفولته، بل كانت الجزء الأكثر فرحاً قبل مرضه... طفل وحيد أفسدته مربياته بكثرة الدلال ـ تين ويوسفي وأزهار ياسمين على الشرفة ـ كان يتكلّم العربية، والفرنسية أيضاً. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟».
طوى ذراعيه على صدره من جديد وراح ينقر على شفتيه بطرف إصبعه...
«كان يتحدّث عن أن معرفة المرء باللوحات العظيمة جداً من الممكن أن تمضي عميقاً في داخله، وأن تسكنه، حتى من خلال نسخة عنها. حتى عند بروست... هنالك مقطع شهير حيث تفتح أوديت الباب وهي مصابة بالزكام، متجهمة الوجه، شعرها مشعّث محلول، وجلدها مبقّع، فيقع سوان في حبها على الرغم من أنه لم يكن مهتماً بها على الإطلاق قبل تلك اللحظة. يقع في حبها لأنها تبدو له أشبه بفتاة لوحة جدارية لبوتيشيللي أصابها شيء من العطب[1]. ما كان بروست نفسه قد رأى إلا نسخاً مقلدة من لوحات بوتيشيللي[2]. ولم يذهب إلى كنيسة سكستين في الفاتيكان، ولم ير عملاً أصلياً لبوتيشيللي. على الرغم من هذا، فإن تلك اللحظة هي مدار الرواية كلها ـ على نحو ما. ثم إن العطب جزء من الجاذبية... الوجنات المبقّعة في اللوحة. تمكن بروست، وإن من خلال نسخة مقلَّدة، من أن يجعل من تلك الصورة حلماً مستعاداً، ومن أن يعيد تشكيل الواقع بها فيستخلص منها شيئاً خاصاً به وحده ويقدمه إلى العالم. لأن... لأن الجمال هو الجمال. ولا أهمية لأن يمر عبر آلة النسخ مئة مرة».

أجبته: «صحيح!». لكني لم أكن أفكر في اللوحة، بل في تلك القطع التي أجرى عليها هوبي استبدالات كثيرة. كانت قطعاً أحيتها لمسته وأعادت إليها ألقها حتى صارت تبدو كما لو أن زمناً ذهبياً صافياً قد

---

(1) مارسيل بروست: روائي فرنسي اشتهر بروايته الكبيرة "*بحثاً عن الزمن المفقود*" التي صدرت في سبعة أجزاء منذ 1913 حتى 1920.
سوان: الشخصية الرئيسية في رواية مارسيل بروست.

(2) ساندرو بوتيشيللي: رسام إيطالي من بدايات عصر النهضة.

سُكب عليها... صارت قطعاً تجعلك تحب *شيراتون* وهيبلوايت حتى إن لم يسبق لك النظر، في حياتك كلها، إلى قطعة *شيراتون* وهيبلوايت، أو لم يسبق لك أن فكرت فيها.

«حسناً ـ أنا لست إلا نسّاخاً عجوزاً يكلم نفسه. أظنك سمعت بقولة بيكاسو: *الفنانون السيئون ينسخون، والفنانون الجيدون يسرقون*. إلا أن العظمة الحقيقية تجعلك تحس بنبضك في نهاية السلك. لا أهمية لأن تكون قد أمسكت بذلك السلك كثيراً، ولا أهمية لأن تكون كثرة من الناس قد أمسكت به قبلك. إنه خط الجمال نفسه متنزلاً من حياة أعلى. وهو يظل حاملاً بعضاً من تلك الصدمة نفسها. وهذه النسخ كلها...». انحنى إلى الأمام ضامّاً كفيه على الطاولة... «هذه النسخ التي أنتجها فنانون حقيقيون، النسخ التي ترعرع ويلتي معها، ضاعت عندما احترق البيت في القاهرة. وإذا شئت الحقيقة، فإنها قد ضاعت بالنسبة إليه في وقت أسبق من ذلك؛ ضاعت عندما مرض فأرسلوه إلى أميركا. لكنه... حسناً، كان شخصاً مثلنا، وكان يرتبط بالأشياء فتصير لها عنده شخصيات وأرواح. على الرغم من أنه خسر كل شيء آخر كان له في تلك الحياة، فإن تلك اللوحات لم تذهب خسارة أبداً لأن أصولها لا تزال موجودة في العالم. لقد قام برحلات كثيرة لرؤية تلك الأعمال... والحقيقة أننا سافرنا معاً بالقطار إلى *بالتيمور* لرؤية لوحة مانيه الأصلية حيث عرضوها قبل سنين كثيرة عندما كانت والدة بيبا لا تزال على قيد الحياة. كانت رحلة طويلة بالنسبة إلى ويلتي، لكنه كان مدركاً أنه لن يستطيع أبداً أن يذهب لرؤيتها في متحف *دورساي* في باريس؛ فما اللوحة التي تظنّه أخذ بيبا خصيصاً لرؤيتها في معرض الأعمال الهولندية في المتحف يوم وقع الانفجار؟».

كان ما أثار اهتمامي في الصورة التي أمامي هو أن ذلك الصبي الرقيق، صاحب الركبتين المجرَّحتين، المبتسم ابتسامة حلوة في ملابس البحارة

التي يرتديها، كان هو نفسه الرجل العجوز الذي أمسك بيدي في لحظة موته: صورتان منفصلتان موضوعة إحداهما فوق الأخرى؛ صورتان لروح واحدة. وأما اللوحة المعلّقة فوق رأسه فهي النقطة الثابتة التي كان كل شيء معلقاً منها: الأحلام والعلامات، الماضي والمستقبل، الحظ الحسن والقدر القاتل. ما كان فيها معنى واحد، بل معانٍ كثيرة. كانت أحجية لا تكف عن الاتساع، أكثر، فأكثر، فأكثر.

تنحنح هوبي وقال: «هل لي بسؤال؟».

«بالطبع».

«كيف حفظتَ اللوحة؟».

«في غلاف وسادة».

«هل كان قطنياً؟».

«الحقيقة... هل يعتبر نسيج بيركيل قطنياً؟».

«من غير بطانة؟ من غير شيء يحميها؟».

أجبته عندما رأيت عينيه المنتبهتين المتيقظتين: «ورق وشريط لاصق. نعم!».

«كان عليك أن تستخدم ورق الزبدة العازل وغلافاً ذا فقاعات!».

«صرت أعرف هذا الآن».

علت وجهه تكشيرة ألم. وضع يده على صدغه: «آسف! لا أزال أحاول استيعاب الأمر. هل قلت لي إن اللوحة كانت في حجرة الأمتعة على طائرة كونتيننتال *إيرلاينز*؟».

«مثلما أخبرتك. كنت في الثالثة عشرة».

قال عندما رآني أهز رأسي: «لماذا لم تسألني؟ كنت قادراً على سؤالي».

أجبته بسرعة بعض الشيء: «أوه، بالطبع». لكني تذكّرت عزلتي وذعري في ذلك الوقت: تذكّرت خوفي الشديد من *الخدمات الاجتماعية*؛

وتذكرت الرائحة الثقيلة كالصابون في غرفتي التي لا يقفل بابها، وكذلك البرودة الحادة في غرفة الاستقبال الرمادية الحجرية حيث انتظرنا مقابلة السيد بريسغيردل... تذكّرت خوفي من إرسالي إلى مكان بعيد.

«لو أخبرتني لفكرت في شيء ما، لكنك عندما كنت مشرَّداً فأتيت إليَّ... حسناً، آمل ألا يزعجك قولي هذا؛ لكن محاميك نفسه... حسناً، أنت تعرف هذا مثلما أعرفه، تعرف أن الوضع جعله متوتراً، وتعرف أنه كان قلقاً عليك وأراد إخراجك من هنا... ومن ناحيتي أيضاً، قال لي أصدقاء كثيرون: جيمس، *هذا كثير عليك، كثير جداً*... حسناً، يمكنك أن تفهم ما جعلهم يفكرون هكذا...». أضاف الجملة الأخيرة عندما رأى تعبير وجهي.

«أوه، بالتأكيد»، آل فوغل، وآل غروسمان، وآل مايلدبرغر... كانوا مهذبين جميعاً، لكنهم نجحوا دائماً في التعبير عن فلسفتهم، حتى من غير كلام: *لدى هوبي ما يكفيه!*

«كان الأمر جنوناً، على مستوى ما. أعرف كيف كان يبدو للناس. حسناً... مع هذا، بدا لي الأمر كله رسالة واضحة تماماً: كيف أرسلك ويلتي إلى هذا البيت؟ وكيف أتيت؟ ثم ظللت تعود وتعود إليه مثلما تفعل حشرة صغيرة...». فكّرَ لحظة وقد انعقد حاجباه فصار وجهه نسخة معمقة عن تعبير القلق الدائم المرتسم عليه... «سأخبرك بما أحاول، بشيء من الخراقة، قوله لك: كنت أمشي، وأمشي، في ذلك الصيف الفظيع الذي طال كثيراً بعد موت أمي. أمشي أحياناً طيلة المسافة من *آلباني إلى تروي*. وعندما يهطل المطر، أتوقّف تحت المظلات أمام واجهات المتاجر. كنت أفعل أي شيء يجنّبني العودة إلى ذلك البيت الذي لم تعد أمي موجودة فيه. كنت أحوم هنا وهناك كأنني شبح. أبقى في المكتبة إلى أن يطردوني منها، ثم أصعد إلى باص *ووترفيت* فأمضي فيه زمناً أعود بعده إلى التجوّل. كنت طفلاً ضخماً... في الثانية عشرة، لكنّي

طويل كالرجال. كان الناس يظنونني متشرداً، فتطردني ربات البيوت بالمكانس عن عتبات منازلهن. لكن هذا ما جعلني ألتقي السيدة بيستر... فتحت الباب عندما كنت جالساً في مدخل بيتها، وقالت لي: «لا بد أنك ظمآن؛ فهل تحب أن تدخل؟ لوحات فيها أشخاص؛ وتماثيل صغيرة، وصور فوتوغرافية قديمة؛ والعمة فلانة، والعم فلان، وهكذا دواليك. ذلك السلم الحلزوني النازل من الطابق العلوي. هناك، وجدت زورق نجاتي. لقد وجدته! في ذلك البيت، يكون عليك أحياناً أن تقرص نفسك حتى تذكّرها بأنك لست في سنة 1909. كانت لديها بعض أجمل القطع الكلاسيكية الأميركية التي رأيتها في حياتي كلها، حتى اليوم؛ و... يا إلهي... مرآة *تيفاني* تلك! كان ذلك قبل أن يصير اسم *تيفاني* متميزاً، وقبل أن يصير الناس مهتمين به. لعلهم كانوا يضعون أثماناً مرتفعة لمنتجاتهم في المدينة آنذاك، لكنك كنت قادراً على العثور عليها في متاجر الأحياء القديمة بأسعار بخسة تماماً. وبعد وقت قصير من ذلك، بدأت أزور تلك المتاجر بنفسي، وأفتش فيها. وأما تلك الأشياء التي رأيتها في بيتها، فقد كانت كلها منحدرة إليها من أسرتها. كانت لكل قطعة قصة. وكانت تلك السيدة مسرورة دائماً بأن تخبرني بالمكان الذي يجب أن أقف فيه، وبالساعة المناسبة، حتى أرى كل قطعة في أفضل ضوء ممكن. في وقت متأخر بعد الظهر، عندما تمسح أشعة الشمس الغرفة، كانت تلك القطع... راح يفرقع بأصابعه... «تشتعل واحدة بعد أخرى كأنها ألعاب نارية متتالية على فتيل واحد».

كان جسر سفينة نوح في مطبخ هوبي ظاهراً بوضوح تام من حيث كنت جالساً: أزواج من الأفيال والحمير الوحشية، وحيوانات منحوتة كثيرة سائرة مثنى مثنى وصولاً إلى دجاجة وديك صغيرين وإلى أرنبين وفأرين في آخر تلك القافلة. هناك، كانت الذكرى، خلف الكلمات، فوقها، رسالة مُرمَّزة من عصر ذلك اليوم الأول: مطر منهمر على النافذة

في السقف، وصفٌّ أليف من مخلوقات واقفة على طاولة في المطبخ تنتظر إنقاذها. نوح: المنقذ العظيم؛ الراعي العظيم.

كان هوبي قد نهض لكي يعد القهوة: «و... أظن أن من التفاهة أن يمضي المرء عمره مهتماً هذا الاهتمام كله *بأشياء*...».

«من يقول هذا؟».

استدار مبتعداً عن الموقد وقال: «حسناً... فلنعبّر عن الأمر هكذا، ليس الأمر كما لو أننا ندير هنا مستشفى للأطفال المرضى! أين النبل في ترقيع وإصلاح مجموعة من الطاولات والكراسي العتيقة؟ بل من الممكن تماماً أن يكون هذا عملاً يأكل الروح. رأيت من البيوت والقصور القديمة ما يكفي لأعرف هذا. شيء وثنيّ أشبه بعبادة الأصنام! من الممكن لفرط الاهتمام بالأشياء أن يدمّرك. وأما إذا كان لديك اهتمام كبير جداً، بشيء من الأشياء، فإنه يكتسب حياة خاصة به، أليس هذا صحيحاً؟ أوليست الغاية من الأشياء، كل الغاية من الأشياء الجميلة، أن تجعلك متصلاً بجمال أكبر، أكثر اتساعاً؟ تلك الصور الأولى التي تفتح قلبك واسعاً فتمضي بقية عمرك في البحث عنها، أو تحاول الإمساك بها... بطريقة أو بأخرى! لأن... أعني... أعني أن إصلاح الأشياء القديمة، والمحافظة عليها، والعناية بها، أمر... على مستوى ما... ما من أساس عقلاني له!...».

«ما من أساس عقلاني لأي شيء أهتم به».

قال بنبرة منطقية: «صحيح، وأنا أيضاً. لكن...». ضيَّق عينيه الحسيرتين وهو ينظر في علبة البن، ثم أخرج بعضاً منه بالمعلقة... «حسناً، آسف لأنني أُكثرُ من هذا الهذيان. لكن الأمر يبدو من هنا، من حيث أقف، كأنه نوع من مأزق، أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

ضحك هوبي: «ماذا أقول؟ تلك اللوحات العظيمة... يأتي الناس لرؤيتها أفواجاً. تستقطب جموع الناس، ويطبعونها مرات لا نهاية لها

على فناجين قهوة وعلى كل ما يخطر في بالك. يمكنك أن تمضي حياتك كلها ـ هذا ما يشتمل عليَّ أيضاً ـ في الذهاب إلى المتاحف من غير انقطاع حيث تتمشّى فيها مستمتعاً بكل شيء، ثم تذهب وتتناول طعاماً. لكن...». عاد إلى الطاولة وجلس من جديد... «إذا ما دخلت لوحة ما قلبك فعلاً وغيرتْ طريقة رؤيتك وتفكيرك وإحساسك، فإنك لا تقول في نفسك: '*أوه، أحب هذه اللوحة لأنها عالمية*' ؛ أو '*أحب هذه اللوحة لأنها قادرة على مخاطبة الناس جميعاً*' . ليست هذه أسباباً تجعل أي شخص يحب عملاً فنياً. إنه همس سرّي آت من زقاق: بسْتْ، *أنت! يا ولد! نعم، أنت*». انزلق رأس إصبعه فوق اللوحة التي حال لونها ـ لمسة من يستصلح الأشياء، لمسة من غير لمس، طبقة رقيقة من حيّز مشترك بين السطح والإصبع... «صدمة لقلب شخص واحد. حلمك، حلم ويلتي، حلم فيرمير! ترى لوحة، وأرى أخرى، بل إن كتاباً للأعمال الفنية يضع الأمر على سوية أخرى أيضاً، وكذلك تضعه سيدة تشتري بطاقة معايدة من متجر الهدايا في المتحف... إنها ترى شيئاً مختلفاً تماماً. هذا إن لم نقل شيئاً عن الناس الذين يفصلنا الزمن عنهم ـ أربعمئة سنة قبلنا، أو أربعمئة سنة بعد ذهابنا ـ لن تصعقَ اللوحةُ شخصاً آخر بالطريقة نفسها، ولن تصعق أكثرية الناس العظمى على الإطلاق. لكن اللوحة العظيمة حقاً تمتلك من السيولة ما يمكّنها من شق طريقها إلى العقل وإلى القلب عبر الزوايا كلها وبطرق فريدة متميّزة بعينها. *إنني لك، إنني لك! لقد رُسمتُ من أجلك*. و... لست أدري، أوقفني إذا كنت أثرثر بكلام لا معنى له...». مسح جبهته بكف يده... «لكن ويلتي نفسه كان يتحدّث عن الأشياء التي لها هذا القَدَر. أشياء يعرفها كل مشتغل بالأنتيكات. إنها الأشياء التي تحدث، ثم تحدّث من جديد. لعلها لا تكون مجرد أشياء في نظر شخص آخر لا علاقة له بهذا المجال. لعلها تكون مدينة، أو لوناً، أو وقتاً من أوقات اليوم. لكنها المسمار الذي سيعلّق قدرَك به».

«يبدو هذا مثل كلام أبي».

«حسناً، فلأعبّر عن الأمر بطريقة أخرى. من القائلُ إن المصادفة هي طريقة الرب في البقاء خفياً عن الأعين؟».

«صرت الآن مثل أبي حقاً».

«ومن قال لك إن المقامرين لا يفهمون الأمر أحسن من غيرهم؟ ألا يستحق كل شيء مقامرة؟ ألا يمكن أحياناً أن يأتي الخير عبر أبواب خلفية غريبة؟».

8

نعم، صحيح! أظنه يمكن أن يأتي هكذا. أو، إن اقتبست جوهرة غريبة أخرى من جواهر أبي: أحياناً يكون عليك أن تخسر لكي تربح.

كادت تنقضي سنة كاملة أمضيتها في الارتحال معظم الوقت. أحد عشر شهراً أمضيت أكثرها في صالات المطارات وغرف الفنادق وأماكن ليست أكثر من أماكن عبور، موقف سيارات تاكسي، ومأكولات جاهزة، وهبوط، وصَوانٍ بلاستيكية وهواء بائت عبر فتحات تهوية في الطائرة تشبه خياشيم سمك القرش. على الرغم من أن عيد الشكر لم يأتِ بعد، فقد أضيئت الأنوار وبدأ الناس يسمعون أغاني عيد الميلاد المألوفة التي يسهل سماعها، من قبيل *«تاننباو»* لوينس غارالدي و*«غرينسليفز»* لبولترين في مقاهي *ستاربكس* في المطارات. ومن بين الأشياء الكثيرة الكثيرة التي تسنّى لي الوقت للتفكير فيها (أشياء من قبيل ما الذي يستحق الحياة من أجله؟ وما الذي يستحق الموت من أجله؟ وما الشيء الذي يكون السعي من أجله حماقة؟). أفكّر كثيراً في ما قاله هوبي: كلامه عن تلك الصور التي تصعق القلب وتجعله يتفتح مثل زهرة، صورة تفتح أمام المرء جمالاً أكبر بكثير، بكثير، بحيث يمكن أن تنفق عمرك كله في البحث عنه من غير أن تجده.

كان الوقت الذي قضيته وحيداً على الطرقات خيراً لي. سنة

أمضيتها في التجول وحدي بهدوء لإعادة شراء القطع المزيفة التي لا تزال منتشرة هنا وهناك... عملية دقيقة وجدت أن أفضل طريقة للقيام بها هي أن أؤدّيها بنفسي: ثلاث رحلات في الشهر أو أربع رحلات... *نيوجرسي*، *وأولستر باي*، *وبروفايدنس*، *ونيو كانان* ـ وإلى مناطق أكثر بعداً... *ميامي*، *هاوستون*، *دالاس*، *تشارلوتسفيل*، *أتلانتا* حيث أمضيت بدعوة من عميلتي اللطيفة ويندي (زوجة رجل من أقطاب تجارة قطع تبديل السيارات اسمه إيرل) ثلاثة أيام لطيفة جداً في بيت ضيافة هو قصر جديد من حجارة مرجانية رائعة يضم ردهة بليارد، و«حانة السادة» (يعمل على البار فيها شخص إنكليزي المولد، أصلي، مستورد)، وحلبة رماية مغلقة فيها نظام أهداف متحركة. كان لدى عدد من عملائي على الإنترنت وعبر الصناديق التحوطية بيوت أخرى في أماكن غريبة ـ غريبة بالنسبة إليَّ على أية حال ـ أنتيغوا ومكسيكو وجزر الباهامَس وجون لي آنز وسانترا... خمور محلية تستلفت النظر، وكوكتيلات في حدائق مدرّجة تزينها نخلات وصبار أميركي ومظلات بيضاء تخفق عند بركة السباحة كأنها أشرعة. وبين هذا وذاك، كنت في حالة بين الموت والبعث أطير هنا وهناك وسط هدير رمادي وأمرّ بنوافذ بلّلها المطر فأتسلق سلالم يغمرها ضوء الشمس ثم أهبط إلى غيوم مطيرة وسلالم متحرّكة نازلة عميقاً عميقاً إلى حيث وجوه صرت أعرفها في صالات استلام الأمتعة، إلى نوع غريب من الحياة الآخرة، من ذلك الحيز بين الأرض واللاأرض، بين العالم واللاعالم، أرضيات شديدة التلميع، وأصداء كنسية تحت سقوف زجاجية وباحات شديدة الترحاب، هوية جماعية لا أريد أن أكون جزءاً منها، بل إنني لست جزءاً منها... لكني، كما لو أنني قد مت، صرت أحس بنفسي مختلفاً، صرت مختلفاً، وصرت أجد مسرة خدرة في الدخول إلى عقل الجماعة والخروج منه، وفي الإغفاءات القصيرة على الكراسي البلاستيكية والتجول في الممرّات المتألقة في المنطقة الحرة

حيث يكون كل شخص في غاية اللطف لحظة دخولك... حلبات تنس مغلقة، وشواطئ خاصة... وبعد الجولة الإلزامية، يكون كل شيء لطيفاً، وأكون معجباً بلوحات بونار وفويّار... غداء خفيف في الخارج عند بركة السباحة، وشيك بمبلغ ضخم. ومن جديد، عودة بالتاكسي إلى الفندق بعد أن أكون قد صرت أكثر فقراً.

إنها لنقلة كبيرة! لست أدري بالضبط كيف السبيل إلى تفسيرها. نقلة بين الرغبة واللارغبة، بين الاهتمام واللااهتمام.

لكنها أكثر من هذا، كثيراً، بالطبع! الصدمة، وهالة التوهج. صارت الأشياء أكثر قوة، وأكثر إشراقاً، وصرت أحس بأنني على شفير شيء لا سبيل إلى التعبير عنه. رسائل مرمّزة في المجلات على متون الطائرات. درع من الطاقة. رعاية لا تهاود فيها. كهرباء، وألوان، وألق. لكل شيء علامة تشير إلى شيء آخر. أستلقي على سريري في غرفة صقيعية بلون البسكويت في مدينة نيس؛ غرفة لها شرفة مطلة على *رومينات دي زانغليه*، وأرقب انعكاسات الغيوم على زجاج الباب المنزلق فأعجب كيف يمكن حتى لحزني أن يجعلني سعيداً، وكيف لهذه السجادة الممتدة من الجدار إلى الجدار، ولأثاث *بيدر بيير* غير الأصلي وهمهمة صوت المذيع الفرنسي على *كانال بلوس*... أعجب كيف لهذه الأشياء كلها أن تبدو، على نحو ما، ضرورية، صحيحة.

كان يمكن أن أنسى سريعاً، لكني لا أستطيع. شيء مثل طنين شوكة رنانة. شيء يظل موجوداً. إنه معي، هنا، طيلة الوقت. ضجيج أبيض، وهدير لا هوية له. همهمة صالات المغادرين القاتل في المطارات. ولكن... حتى هذه الأماكن المعزولة، التي لا روح فيها، تظلّ مشبّعة بالمعنى، تظل متلألئة به، مرعدة به! *سكاي مول*. أنظمة ستيريو محمولة. ممرات ذات مرايا... نبيذ *درامب وي* وجِن *تانكيراي* وعطر *شانيل*... تنظر كلها إلى وجوه المسافرين الآخرين، إلى وجوههم الفارغة...

حاملين حقائبهم الصغيرة، وحقائبهم الظهرية، يسيرون متثاقلين في اتجاه بوابات الخروج. أفكر في ما يقوله هوبي: الجمال يبدل تعريفات الواقع. أواصل أيضاً التفكير في الحكمة الأكثر تقليدية: ليس السعي خلف الجمال المحض إلا فخاً، ليس إلا درباً يصل بالمرء سريعاً إلى المرارة والحزن. لا بد من ربط الجمال بشيء أكبر معنى.

فما هو ذلك الشيء؟ لماذا صُنعت هكذا، مثلما أنا؟ لماذا أهتم بالأشياء الخاطئة كلها ولا أهتم إطلاقاً بالأشياء الصحيحة؟ بل، فلأقل هذا بطريقة أخرى: كيف أستطيع أن أرى بهذا الوضوح كله أن كل ما أحبه أو أهتم به ليس إلا وهماً، لكن كل ما يستحق العيش من أجله ـ بالنسبة إلي، على أية حال ـ كامن في هذا السحر.

حزن كبير؛ أسى بدأت الآن فقط أفهمه: نحن لا نختار قلوبنا. نحن لا نستطيع أن نجعل أنفسنا راغبة في ما هو خير لنا أو في ما هو خير للآخرين. ليس لنا أن نختار من نكون!

لأن... أليس مزروعاً فينا، دائماً، منذ طفولتنا، ثم على امتداد أعمارنا كلها، ذلك الابتذال في الثقافة الذي لا يضعه أحد موضع التساؤل؟ من ويليام بليك إلى ليدي غاغا، ومن روسو إلى جلال الدين الرومي إلى توسكا إلى ميستر روجرز... رسالة موحدة إلى حد غريب، مقبولة من الأعلى إلى الأسفل: عندما يعترينا الشك، فماذا نفعل؟ كيف نعرف ما هو صائب من أجلنا؟ كل طبيب نفسي، وكل استشاري مهني، وكل أميرة من أميرات ديزني... إنهم يعرفون الإجابة كلهم: «كن أنت نفسك!»... «اتبع قلبك!».

لكنَّ لدي شيئاً أريد كثيراً، كثيراً جداً، أن يشرحه أحد لي. ماذا لو حدث أن استحوذ على المرء قلبٌ ليس موضع ثقة؟ وماذا لو أن القلب يقود المرء، لأسبابه الخاصة التي لا سبيل إلى سبر أغوارها... ماذا لو أنه يقوده عامداً متعمّداً ضمن غلالة من توهّج وألق لا يوصفان فيأخذه بعيداً عن

الصحة وعن أُلفة الحياة المنزلية، وعن المسؤولية المدنية، وعن الروابط الاجتماعية القوية وكل الفضائل التي يقر بها الجميع، فيدفع به، بدلاً من ذلك كله، صوب نور الخراب الجميل، صوب جعل نفسه قرباناً، صوب الكارثة؟ هل كيتزي محقّة؟ إذا كانت ذاتك، في أعمق أعماقك، تغني لك وتستدرجك إلى النار مباشرة، فهل يكون من الأفضل أن تنعطف مبتعداً؟ هل تغلق بالشمع أذنيك؟ هل تتجاهل البهاء الشاذّ كلّه الذي يصيح بك قلبك مطالباً به؟ وهل تضع نفسك على المسار الذي سيقودك مخلصاً في اتجاه المعيار الذي ألفه الناس جميعاً: ساعات عمل منطقية، وفحوصات طبية منتظمة، وعلاقات مستقرة، وتقدم متواصل في حياتك المهنية، وصحيفة *نيويورك تايمز*، وتناول عشاء مبكر يوم الأحد... وذلك كله على أمل أن تكون، على نحو ما، شخصاً أفضل؟ أم... أم من الأحسن أن تكون شخصاً مثل بوريس... أن ترمي بنفسك من غير تبصّر وتندفع ضاحكاً في شهوة الغضب التي تناديك باسمك؟

لا علاقة لهذا بالمظاهر الخارجية، بل بالدلالة الداخلية، بالمعنى. عَظَمة تعيشها في العالم، لا من العالم؛ عَظَمة لا يفهمها العالم. تلك اللمحة الأولى من الاختلاف الصرف؛ لمحة يجعلك حضورها تتفتح، وتتفتح، وتتفتح.

ذاتٌ لا يريدها المرء. قلبٌ لا يستطيع صاحبه اجتنابه.

على الرغم من عدم إلغاء خطوبتي... من عدم إلغائها رسمياً على أية حال... فقد أُفهمت، بالكياسة كلها، وبأسلوب آل باربر الأرق من الهواء، أن أحداً لا ينتظر مني التزاماً بأي شيء. وهذا ما كان غاية المنى. ما كان شيء يقال، ولا شيء يقال الآن. عندما أُدعى إلى العشاء لديهم (يحدث هذا كثيراً عندما أكون في المدينة)، يكون الجو كله لطيفاً، خفيفاً؛ ويدور كلام كثير كثير، كلام وديٌّ رقيق، لكنه غير شخصي أبداً: يعاملونني كأنني فرد من أفراد الأسرة (تقريباً). ويرحبون بقدومي كلما شئت. بل تمكّنت

أيضاً من إغراء السيدة باربر بالخروج من الشقة قليلاً. أكثر من مرة، أمضينا فترة بعد ظهر لطيفة فتناولنا طعام الغداء في مطعم بيير وذهبنا إلى مزاد أو اثنين. كما عرف تودي، من غير أن يكون فظاً على الإطلاق، كيف يخبرني باسم طبيب جيد جداً... ذكر اسمه عرَضاً، بما يشبه المصادفة، من غير أي إيحاء إلى ما قد يُحتمل أن يجعلني في حاجة إلى معرفة اسمه.

وأما بيبا: [صحيح أنها أخذت كتاب *«أوزما ملكة أوز»*، لكنها تركت العقد وتركت معه رسالة فتحتُها فمزقت مغلفها وقطعتُها نصفين لشدة لهفتي واستعجالي. كانت خلاصة الرسالة ـ بعد أن ركعت على ركبتي وجمعت نصفيها معاًـ على النحو التالي: قالت إنها تحب رؤيتي، وإن الوقت الذي أمضيناه في المدينة قد عنى لها الكثير؛ ومنْ غيري، في العالم كله، يمكن أن ينتقي لها عقداً بهذا الجمال؟ عقدٌ هو الكمال؛ بل أكثر من الكمال؛ لكنها لم تكن قادرة على قبوله لأنه كثير، كثير جداً جداً. قالت إنها آسفة وإنها ـ استدركت متخوفة أن يكون كلامها قاسياً، واعتذرت طالبة أن أسامحها. قالت إنه لا يجوز لي أبداً الظن أنها لا تبادلني حباً بحب، فهي تحبني، هي تحبني. (قلت في نفسي مذهولاً: أتحبينني؟) لكن الأمر معقد، فهي لا تفكر في نفسها فقط، بل تفكر فيّ أيضاً؛ فقد مر كل منا بالكثير الكثير من الأمور نفسها... هي وأنا... نحن متشابهان إلى حد رهيب، أكثر مما ينبغي. ولأن جراحاً كبيرة أصابتنا معاً، في وقت مبكر من عمرَيْنا، بطرق عنيفة لا سبيل إلى إصلاحها... جراح لا يفهمها ولا يستطيع فهمها أكثر الناس. إذاً، ألا يكون الأمر خطيراً، بعض الشيء؟ أمر متعلّق بحفظ الذات؟ شخصان كسيحان نَزّاعان إلى الموت محتاجان إلى أن يستند كل منهما إلى الآخر إلى حد كبير جداً؟ ليس معنى هذا القول أن أحوالها لا تسير على نحو حسن، بل هي حسنة حقاً؛ لكن ذلك كله يمكن أن يتغيّر في طرفة عين، عندي وعندها، أليس كذلك؟ أفلا يكون النكوص خطيراً؟ الانزلاق الحاد إلى الأسفل، أليس هذا هو الخطر؟ عيوبنا ونقاط

ضعفنا هي نفسها إلى حد كبير؛ أفلا يمكن لأي منا أن يودي بالآخر على نحو سريع جداً؟ مع أنها تركت هذا الكلام كله عائماً في الهواء بعض الشيء، فقد أدركت على الفور ما كانت ترمي إليه، أدركته بقدر غير قليل من الدهشة. (كان غباء مني ألّا أرى هذا في وقت أبكر، بعد الإصابات كلها، والساق المحطمة، والعمليات الجراحية الكثيرة؛ التلكؤ البديع في صوتها، التلكؤ البديع في خطوتها، واحتضانها لذراعِها، وشحوبها، والأوشحة والكنزات وطبقات الملابس الكثيرة، والابتسامة البطيئة الناعسة: هي نفسها، الطفولة الحالمة هي، كانت سناءً وكارثة، كانت هي مصاصة المورفين التي أمضيت هذه السنين كلها جارياً خلفها).

لكن، مثلما سيصير قارئ هذا الكلام متيقناً (إن كان هنالك قارئ له) فإن فكرة أن يجرّني أحد إلى أسفل، إلى هاوية، لا ترعبني أبداً. لا يعني هذا أنني لا أعبأ بأن أجرَّ أحداً إلى الهاوية معي، لكن، ألا يمكن أن أتغير؟ ألا يمكن أن أكون الطرف القوي؟ لم لا؟].

[قال لي بوريس وهو جالس على الأريكة معي في علّية بيته في آنتويرب: يمكنك أن تأخذ أي واحدة تريدها من هاتين الفتاتين! قال هذا وهو يكسر حبات الفستق بين أضراسه عندما كنا نتابع فيلم «*اقتلوا بيل*».

لا، لا أستطيع.

ولماذا لا تستطيع؟

سآخذ *ندفة الثلج* لنفسي. لكن، إذا كنت تريد الأخرى، فلم لا؟

لأن لها صديقاً، أليس كذلك؟

وماذا؟

وهو يعيش معها.

وماذا؟

هذا ما أفكر فيه أيضاً: وماذا؟ وماذا لو ذهبت إلى لندن؟. وماذا؟

إما أن يكون هذا سؤالاً كارثياً تماماً، أو أنه أكثر الأسئلة التي طرحتها على نفسي معقولية، خلال حياتي كلها].

شيء غريب! كتبت هذا كله وفي ذهني فكرة مفادها أن بيبا سوف تراه يوما ما ـ بالطبع، لن تراه. لن يراه أحد... لأسباب واضحة. لم أكتبه من الذاكرة: كان ذلك الدفتر الفارغ الذي أعطتني إياه معلمة اللغة الإنكليزية قبل تلك السنين كلها الأول من سلسلة دفاتر، وكان بداية عادةٍ غير منتظمة، رافقتني طيلة حياتي منذ كنت في الثالثة عشرة. بدأ الأمر بأن كتبت لأمي سلسلة رسائل رسمية، لكنها حميمة إلى حد يثير العجب!

رسائل طويلة، وسواسية، فيها حنين كثير؛ رسائل حملت نبرة مخاطبة أُمّ حية تنتظر قلقة أن تسمع أخباري؛ رسائل تصف أين كنت «أقيم» (وليس أعيش)، والناس الذين كنت «مقيماً معهم»؛ رسائل مغرقة في التفصيل عما أكلت وشربت وشاهدت في التلفزيون، وما أقرأ من كتب، وما ألعب من ألعاب، وما أتابع من أفلام، وما قاله آل باربر وما فعلوه، وما قاله أبي وكساندرا وما فعلاه ـ هذه الرسائل مؤرخة وموقَّعة، بخط معتنى به، جاهزة، لأن تُنتزع صفحاتها من الدفتر وتُرسل بالبريد)... رسائل تتناوب فيها انفجارات بائسة من *' أكره الجميع' ، و' أتمنى لو أنني مت'* ... تمر شهور لا أكتب فيها أكثر من سطر مفكّك، أو سطرين مفككين، بيت ب (بوريس)، لم أذهب إلى المدرسة منذ ثلاثة أيام، وقد صرنا في يوم الجمعة. حياتي في هايكو[1]، أنا في حالة شبه زومبي، يا إلهي... كنا مخدرين كثيراً الليلة الماضية فأحسست كما لو أنني موشك على فقدان الوعي. لعبنا لعبة اسمها *حظ الكاذب* وأكلنا على العشاء كورن فليكس وسكاكر النعناع.

واصلت الكتابة حتى بعد عودتي إلى نيويورك... «بحق الجحيم، لماذا أجد الطقس هنا أبرد كثيراً مما أتذكره؟ ولماذا يجعلني مصباح القراءة الغبي اللعين حزيناً إلى هذا الحد؟». كنت أصف حفلات العشاء

---

(1) هايكو: أسلوب شعر ياباني قائم على قصيدة شديدة القصر مؤلفة من ثلاثة أبيات فيها سبعة عشر مقطعاً صوتياً.

الخانقة، وأسجل ما يجري من أحاديث، وأكتب على الورق أحلامي. سجلت أيضاً ملاحظات متأملة كثيرة عن الأشياء الكثيرة التي علمني هوبي إياها في الورشة.

مطابقة خشب الماهوغاني من القرن الثامن عشر أسهل من مطابقة خشب الجوز ـ إن لونه الداكن يخدع العين.

عندما يكون الشيء مصطنعاً... نجده منفَّذاً بدقة زائدة!

1- يظهر اهتراء خزانة كتب على رفوفها السفلية لأنها تتعرض أكثر للمسات الناس وللتنظيف من الغبار، لكن الرفوف العلوية لا تكون كذلك.

2- في الأشياء المزودة بالقفل، انظر إلى الأثلام والخدوش تحت ثقب المفتاح حيث يتعرض الخشب لصدمات كثيرة عند فتح القفل بمفتاح معلق مع حزمة مفاتيح.

وبين هذه المعلومات كلها، معلومات متناثرة عن نتائج المزادات الأميركية الكبيرة؛ ومعها مخططات وجداول مشؤومة، متزايدة العدد، لا أعرف كيف كنت أظنها غير مفهومة لمن قد يفتح الدفتر؛ لكنها كانت واضحة كل الوضوح.

1- 8 كانون الأول	320 ملغ
9- 15 كانون الأول	202 ملغ
16- 22 كانون الأول	171.5 ملغ
23- 30 كانون الأول	420.5 ملغ

... لكن السر الذي كان يتخلّل صفحات هذا السجل اليومي كلها ويرفعها إلى ما هو أعلى منها كان مرئياً لي وحدي: مزهراً في الظلمة، غير مذكور بالاسم ولو حتى مرة واحدة.

السبب: إذا كانت أسرارنا تعريفاً لنا، على عكس الوجه الذي نظهره للعالم، فقد كانت اللوحة هي السر الذي رفعني أعلى من سطح الحياة

وسمح لي بأن أعرف من أنا. إنها موجودة هناك: في دفاتري، في كل صفحة منها، على الرغم من عدم وجودها! حلم وسحر؛ سحر وهذيان. نظرية الحقل الموحد[1]. سر عن السر!

[قال بوريس عندما كنا في السيارة متجهين إلى آنتويرب: «ذلك الصغير! لقد رآه الرسام... لم يكن يرسم الطائر من ذهنه... هل تفهم هذا؟ إنه كائن حقيقي صغير مقيَّد إلى ذلك الجدار، هناك. لو رأيته بين عشرة طيور أخرى من النوع نفسه، فسوف أعرفه على الفور، من غير تردد].

لقد كان بوريس محقّاً. أنا قادر على تمييزه أيضاً. ولو استطعت العودة في الزمن، لقطعت السلسلة في لحظة واحدة ولما اهتممت دقيقة بأن تلك اللوحة ما كانت لتُرسم أبداً.

لكن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك. من عساه يعرف ما جعل فابريتيوس يرسم الحسون أصلاً. عمل فنّيٌ ضخم متميز صغير الحجم، عمل فريد من نوعه! كان فابريتيوس شاباً؛ وكان شهيراً. وكان لديه رعاة مهمون (على الرغم من أن معظم الأعمال التي أنجزها لهم لم يصلنا، للأسف! يتخيله المرء محاطاً بوفود الزائرين الكبار، مثل رامبراندت الشاب؛ ويتخيل مرسمه متألقاً بالجواهر والفؤوس الحربية والكؤوس والفراء، وجلود الفهود، ودروع مما يلبسه الفرسان، وكل ما في الأشياء الدنيوية من قوة وحزن. فلماذا جعل هذا الطائر موضوع لوحته؟ طائر أسير وحيد؟ لم يكن هذا سمة مميزة لزمانه أو لعصره، فقد كانوا يرسمون الحيوانات ميتة في لوحات مترفة تمثل الطرائد: أجساد أرانب برية وأسماك وطيور مكوَّمة عالياً قبل تقديمها على المائدة! لماذا يبدو لي أمراً كبير الدلالة أن يكون الجدار من خلف هذا الطائر عارياً ـ لا زخرفات قماشية، ولا أبواق صيد، ولا أي نوع من أنواع الزينة؟ لماذا يبدو في نظري أمراً كبير

(1) نظرية في الفيزياء تحاول التوحيد بين نظرية آينشتاين في النسبية ونظرية الحقل الكهرومغنطيسي.

الدلالة اهتمامه بكتابة اسمه وتاريخ اللوحة بهذا الشكل الظاهر كثيراً، فمن المستبعد تماماً أن يكون عارفاً (أو، لعله عرف!) أن سنة 1654، سنة رسم اللوحة، ستكون سنة موته أيضاً؟ هنالك نوع من ارتجافة الهاجس المسبق كما لو أن حدساً أخبره بأن هذا العمل الغامض صغير الحجم سيكون واحداً من أعماله القليلة جداً التي ستظل حية بعده. تسكنني غرابة الأمر، تسكنني على كل مستوى. لماذا لم يرسم شيئاً أكثر اعتيادية؟ لماذا لم يرسم مشهداً بحرياً، أو منظراً طبيعياً، أو لوحة تاريخية، أو بورتريهاً كلفته برسمه شخصية مهمة، أو مشهداً من مشاهد الحياة الوضيعة لأشخاص يشربون في حانة، أو باقة من أزهار التوليب، بدلاً من هذا الأسير الصغير المتوحد؟... مقيَّداً إلى مجثمه بسلسلة؟ من عساه يعرف ما أراد فابريتيوس قوله لنا من خلال اختياره هذا الموضوع الصغير؟... من خلال تقديمه هذا الموضوع الصغير؟... من خلال اختياره هذا الموضوع الضئيل؟ وإذا كان ما يقال صحيحاً ـ إذا كانت كل لوحة عظيمة صورة ذاتية لصاحبها ـ فما الذي يقوله فابريتيوس عن نفسه، إن كان يقول شيئاً؟ رسام اعتبره كبار رسّامي زمانه فائق العظمة؛ رسام مات شاباً في مقتبل العمر، منذ زمن بعيد؛ رسام لا نكاد نعرف عنه شيئاً! في هذه اللوحة، يقول فابريتيوس الكثير عن نفسه باعتباره رساماً، خطوطه تتكلم بذاتها. جناحان مرسومان بضربات فرشاة خشنة؛ وزغب على هيئة شطبات صغيرة. سرعة فرشاته ظاهرة، واضحة... ثقة يده، وطبقات الطلاء الكثيفة. لكن هنالك أيضاً مساحات مرسومة بقدر كبير من المحبة إلى جانب ضربات الفرشاة الجريئة القوية بحيث تنبعث من هذا التضاد شفافية حنون، بل تنبعث فكاهةٌ أيضاً. طبقة طلاء الأساس مرئية تحت شعرات فرشاته كأنه أراد أن نحسَّ زغب الصدر الناعم ورقّة تشكيله... هشاشة المخلب الصغير الملتف حول المجثم النحاسي.

فما الذي تقوله اللوحة عن فابريتيوس نفسه؟ لا تقول شيئاً عن ولاء

عائلي أو رومانسي أو ديني، ولا تقول شيئاً عن اهتمام مدني أو طموح مهني أو احترام للثروة والسلطة. ليس فيها إلا عزلة وضربات قلب ضئيلة، وجدار مشمس زاهٍ، وحس بانعدام سبل النجاة. زمان لا يتحرّك؛ زمان لا يصح أن يدعى زماناً. حبيس في قلب الضياء: السجين الصغير، الثابت في مكانه. أفكر الآن في شيء قرأته عن سارجنت[1]: كيف كان سارجنت يبحث دائماً في بورتريهاته عن الحيوان في الشخص الجالس أمامه (ميلٌ صرت أراه في كل مكان في أعماله بعد أن تعلّمت أن أبحث عنه: في الأنوف الثعلبية الطويلة؛ وفي الآذان المدببة لدى الوريثات الثريات اللواتي رسمهن؛ في الأسنان الأرنبية عند المثقفين؛ وفي مظهر الأسُود عند قادة الصناعة... وأيضاً، في الوجوه البوميّة لأطفال ممتلئين). وأما في هذا البورتريه الصغير الصامد، فمن الصعب عدم رؤية البشري في الحسُّون. ماجدٌ، سريع الهلاك، سجين ينظر إلى سجين.

فمن عساه يعرف ما أراده فابريتيوس! لم يبقَ من أعماله ما يسمح حتى بالتخمين. ينظر الطائر إلينا. ليس مؤنسَناً، ولا مجعولاً مثالاً. هو طائر فحسب! هو طائر منتبه، مستسلم. لا قصة هنا، ولا عبرة! وما من قرار. لا شيء إلا هاوية مزدوجة: بين الرسّام والطائر الحبيس؛ وبين الصورة التي تركها لنا عن الطائر ومعرفتنا به بعد قرون.

نعم ـ قد يهتم الدارسون بأسلوبه المجدِّد في استخدام الفرشاة وفي استخدام الضوء، وكذلك بأثره التاريخي ومغزاه الفريد في الفن الهولندي. لكنني لست مهتماً بهذا كله. وكما كانت أمي تقول قبل تلك السنين كلها، أمي التي أحبت اللوحة من خلال كتاب استعارته من مكتبة مقاطعة *كومانتشي* في طفولتها: لا أهمية للمغزى! إن المغزى التاريخي يقتل العمل. عبر تلك المسافات التي لا سبيل إلى جَسْرها ـ بين الطائر

---

(1) جون سينغر سارجنت: رسام أميركي من النصف الثاني من القرن الثامن عشر. يعتبر أهم رسّامي البورتريه في جيله.

والرسام، بين اللوحة والناظر إليها ـ أسمعُ جيداً جداً ما يقال لي، أسمع بسْتْ من الزقاق (مثلما عبَّر هوبي)، أسمع هذا الصوت عبر زمان ممتد أربعمئة سنة... صوت شخصي جداً، فريد جداً. إنه هناك، في جو يغسله الضوء، ضربات الفرشاة التي يتركنا نراها عن قرب، نراها على حقيقتها تماماً ـ لمحات ساطعة من الطلاء، مشغولة باليد، وأثر شعرات الريشة نفسها ظاهرٌ لنا ـ ثم، يبتعد المرء مسافة وينظر فيرى الأعجوبة، أو يرى النكتة على حد تعبير هورست؛ إلا أنها الاثنان معاً، أعجوبة ونكتة، انزلاقة التحوّل حيث يكون الطلاء طلاءً لكنه ريش وعظم أيضاً. إنه المكان الذي يصعقُ فيه الواقعُ المثالَ وحيث تصير النكتة جادة ويصير أي شيء جاد نكتة. هي النقطة السحرية حيث تصير كل فكرة ونقيضها صحيحين على قدم المساواة.

وأنا آمل أن تكون في هذا حقيقة ما، حقيقة أكبر من المعاناة، أو من فهمي للمعاناة على الأقل. لكني صرت مدركاً أن الحقائق الوحيدة التي لها أهمية عندي هي الحقائق التي لا أفهمها ولا أستطيع فهمها. كل ما هو غامض، ملتبس، غير قابل للتفسير. كل ما لا يمكن وضعه في قصة؛ وكل ما ليست له قصة. لمحة تألّقٍ على سلسلة لا تكاد تكون موجودة. بقعة من ضياء الشمس على جدار أصفر. الوحدة التي تفصل كل كائن حي عن كل كائن حي آخر. حزن لا يقبل عن الفرح انفصالاً.

فماذا لو أن ذلك الحسّون بعينه (وهو متميّز جداً، بعينه) لم يؤسر، أو لم يولد في الأسر، ولم يُعرض في بيت ما حيث كان الرسام فابريتيوس قادراً على رسمه؟ لو لم تكن حاله هكذا، لما أدرك أبداً السبب الذي يجعله مرغماً على العيش في هذا البؤس: حائراً بين الأصوات (هكذا أتخيله)، منزعجاً من الدخان ونباح الكلاب وروائح الطهو، يضايقه الأطفال والسكارى... مقيَّدٌ غير قادر على الطيران بأكثر من مقدار تلك السلسلة القصيرة. لكن جلاله ظاهر؛ حتى الطفل يستطيع رؤيته: حلقة

معدنية شاهدة على شجاعته، وزغب، وعظام هشّة. ليس خائفاً، ولا حتى منقطع الرجاء، بل ثابت ملتزم مكانه، رافض أن ينسحب من العالم.

وعلى نحو متزايد، أجد نفسي أركز على ذلك الرفض للانسحاب. ذلك أنني لست مهتماً بما قد يقوله أي شخص، أو كم يكرر قوله، أو كم يضع فيه من نبرة انتصار: لن يستطيع أحد إقناعي أبداً، أبداً، بأن الحياة دعوة رائعة مُجزيَة. لأن... لأن الحقيقة هي أن الحياة كارثة. حقيقة الوجود الأساسية نفسها ـ حقيقة تجوالنا محاولين إطعام أنفسنا والعثور على أصدقاء لنا، وكل ما نفعله ـ ليس إلا كارثة! انسوا هذا الهراء السخيف كله عن ' *مدينتنا* ' ، الهراء الذي يكرره الجميع: أعجوبة ولادة طفل، وفرحة تفتح زهرة بسيطة واحدة، و' *حياة أنت أكثر روعة من أن تستطيع فهمها* ' . في نظري... وسوف أظل مصرّاً على ترديد هذا إلى أن أموت، إلى أن أسقط منكبّاً على وجهي العَدَمي الجاحد فأصير أضعف من أن أستطيع قولها: لو لم نولد، لكان ذلك أفضل من ولادتنا في هذه الحمأة! بالوعات أسرة المستشفيات، وتوابيت، وقلوب محطمة! لا عِتْقَ، ولا لومَ، لا إخلاءَ سبيل، ولا استئنافَ، ولا «فرصة أخرى» إذا ما استخدمت عبارة كساندرا، ولا سبيل إلى الأمام غير الخسارة والتقدم في السن، ولا مخرجَ إلا الموت.

[مكتب للشكاوى! أتذكر كيف راح بوريس يتذمر كأنه طفل بعد ظهر ذات يوم في بيته بعد أن تحدثنا زمناً طويلاً في موضوع ذي طبيعة ميتافيزيقية غامضة... أمهاتنا: لماذا يمتن ـ ملائكة، ربات؟ بينما يظل آباؤنا الفظيعون أحياء فيسكرون ويستلقون ويفشلون ويواصلون التعثّر هنا وهناك ويثيرون الفوضى، ولا يبدو عليهم أي اعتلال صحي؟ «إنهم يخطئون في من يأخذونه! لقد ارتُكِبَت غلطة! كل شيء ظالم! فلمن نشتكي في هذا المكان البائس؟ من المسؤول هنا؟»].

و... لعل من السخف أن أواصل المضيّ في هذا الكلام، على الرغم

من أن ما من أهمية للأمر لأن أحداً لن يرى هذا! ولكن، أهنالك أي معنى، مهما يكن، لمعرفة أن الأمر ينتهي نهاية سيئة بالنسبة إلينا جميعاً، حتى أسعدنا؟... وأننا نخسر كلنا، في آخر المطاف، كل ما له أهمية لدينا؟... بل أن نعرف أيضاً، على الرغم من هذا كله، وبكل ما في اللعبة من قسوة، أن من الممكن أن نلعبها بنوع من الفرح؟

تبدو محاولة استخراج أي معنى من هذا كله أمراً غريباً لا يمكن تصديقه؛ فلعلّي أرى نموذجاً متكرراً عاماً لأنني أواصل التحديق منذ زمن بعيد! لكن من الممكن أيضاً أن أعيد صياغة الأمر على طريقة بوريس فأقول: لعلي أرى النموذج المتكرر العام لأنه موجود بالفعل!

على مستوى ما، كتبت هذه الصفحات في محاولة للفهم. وأما على مستوى آخر، فأنا لا أريد أن أفهم شيئاً. ولا أريد محاولة فهم أي شيء، لأني أخون الحقيقة إن أنا فعلتُ ذلك. كل ما أستطيع قوله واثقاً هو أنه لم يسبق لي أبداً أن أحسست بغموض المستقبل إلى هذا الحد: إحساسٌ بساعة رملية موشكة على النفاد، وإحساس بحمّى الزمن الجارية سريعاً. قوى غير معروفة، غير مختارة، غير مقصودة. وأنا أرتحل منذ وقت طويل؛ فنادق قبل الفجر في مدن غريبة؛ وزمان ممتد على الطرقات حتى صرت أحس اهتزاز الطائرات السريعة في عظامي، في جسدي، إحساس بحركة دائمة عبر القارات وعبر مناطق التوقيت، إحساس يستمر طويلاً بعد خروجي من الطائرة وذهابي إلى بوابة الصعود إلى طائرة أخرى... مرحباً، اسمي إيما/ سيلينا/ نانسي/ دومينيك، أهلاً بك في... كذا وكذا! ابتسامات مرهقة، وإمضاء بيد مرتجفة، وتناول زوج جديد من تلك القطع السوداء المستخدمة لتغطية العينين عند النوم، والاستلقاء في سرير غريب آخر في غرفة غريبة أخرى تصطخب من حولي، وغيوم وظلال، وغثيان يكاد يكون هذياناً، وإحساس بأنني قد مت وذهبت إلى السماء.

فقط... بالأمس فقط، حلمت برحلة وبثعابين، ثعابين مخططة، ثعابين

سامة، ثعابين لها رؤوس على هيئة سهام. ولم أخف منها على الرغم من شدة قربها مني، لم أخف منها أبداً. وفي رأسي جملة سمعتها في مكان ما: نكون *بالقرب منك، فننسى أن نموت*. هذه هي الدروس التي جاءتني في غرف الفنادق الظليلة بأضوائها المتألقة وأصوات أجنبية آتية من الممر حيث تصير الحدود بين العوالم واهية.

بعد أمستردام، التي كانت دمشقي[1] حقاً، التي كانت محطتي في الطريق وذروة تحوّلي (أظنكم تدعونه هكذا)، ظل الاحتمال مفتوحاً، متواصلاً، وظللت متأثراً تأثراً عميقاً بحالة الانتقال الدائم في الفنادق: ليس بأسلوب *السفر والمتعة الدنيوية*، بل بحماسة وحَميّة تاخمت ما هو فوق بشري. في وقت ما من تشرين الأول، والواقع أن ذلك كان في يوم قريب من «يوم الموتى»، نزلت في فندق مكسيكي على شاطئ البحر كانت صالاته سابحة في ستائر متطايرة مع النسيم، وكانت غرفُه كلُّها بأسماء الزهور. غرفة الأضاليا، غرفة الكاميليا، غرفة الدُّفلى. ترف ورونق، وممرات يسافر فيها النسيم فتنداح إلى شيء كالأبدية. وكل غرفة بباب من لون مختلف. الأحمر الشاحب، والليلكي المزرق، والوردي، والبنفسجي اللطيف. ومن يدري... لعل هذا ما ينتظرنا في نهاية المشوار... جلالةٌ لا نستطيع تخيلها إلى أن تأتي تلك اللحظة، لحظةَ نجد أنفسنا سائرين عبر بابها... هي ما نجد أنفسنا محدّقين فيها بعيون أصابتها الدهشة عندما يزيح الرب يديه عن أعيننا آخر الأمر ويقول لنا: انظروا!

[هل فكّرت في الإقلاع يوماً ما؟ سألته خلال الجزء الممل من فيلم *«إنها حياة رائعة»*، عند مشهد تلك النزهة تحت ضوء القمر مع دونا ريد، عندما كنت في آنتويرب أنظر إلى بوريس ممسكاً بملعقة يسكب فيها ماء من قطّارة عينية. كان يمزج لنفسه ما أطلق عليه اسم «شراب».

---

(1) كانت دمشقي أي «كانت نقطة تحولي». استعارة من قصة بولص الرسول عندما تحول إلى المسيحية في ذهابه الأول إلى دمشق. تأتي كلمة «تحوّلي» في الجملة التالية ضمن المعنى نفسه.

إليك عني! ذراعي تؤلمني! كان قد أراني أثر الرصاصة في ذراعه وقد اسودّت حوافه. كان جرحاً عميقاً في عضلة العضد. فلتصبك رصاصة ليلة عيد الميلاد لنرى إن كنت ستجد نفسك راغباً في الجلوس وابتلاع الأسبرين.

صحيح، لكنك مجنون لأنك تفعل هذا.

حسناً، صدّق أو لا تصدّق ـ هذه ليست مشكلة كبيرة عندي. لا أفعل هذا إلا في مناسبات خاصة.

سمعت هذا الكلام من قبل!

نعم، لكنه كلام صحيح! لا أزال غير مدمن... حتى الآن. أعرف أشخاصاً استمروا على هذا ثلاث سنين، أو أربع سنين، من غير إدمان. وهم الآن بخير. لا مشكلة في الأمر إذا حرصت على أن يظل ضمن حدود مرتين في الشهر، أو ثلاث مرات! بعد أن قال بوريس هذا، أضاف متجهماً: إنني مدمن على الكحول! (كان الضوء المنبعث من الشاشة يلمع على حافة الملعقة). لقد حدثت الأذية، هنا، في رأسي. سأظل ثملاً إلى أن أموت. وإن كان هنالك شيء سيقتلني ـ أشار برأسه إلى زجاجة الفودكا الروسية الموجودة على الطاولة الصغيرة ـ فهو هذا. هل تقول لي إنك لم تجرب الحقن قبل الآن؟

صدّقني، كانت لديَّ مشكلات تكفيني، من نواحي أخرى.

حسناً، وصمة كبيرة وخوف كبير، أفهم هذا. أنا... صدقاً، أفضّل أن أستنشق، معظم الوقت ـ النوادي والمطاعم، وعند التعافي من مرض. من الأسهل والأسرع أن يدخل المرء دورة المياه ليأخذ نشقة سريعة. بهذه الطريقة، تجد نفسك توّاقاً إليه دائماً. سوف أكون تواقاً إليه عندما أكون على فراش موتي. من الأفضل ألا يزيد المرء جرعاته. لكن... من المزعج حقاً أن ترى غبياً جالساً هناك يدخن غليون الكوكايين ويقول أشياء... أشياء عن مدى قذارة الحُقن وخطرها، ويقول إنه لا يمكن أن يستخدم الحقن أبداً! يظنون أنفسهم أكثر عقلاً منك!

لماذا بدأت؟
لماذا يبدأ أي شخص؟
تركتني فتاتي التي كانت في ذلك الوقت. وأردت أن أكون سيئاً، وأن أدمر نفسي. هاه! حصلت على ما أردت!
في الفيلم: جيمي ستيوارت مرتدياً بلوزته الرياضية الجامعية. قمر فضّي، أصوات مرتعشة. تقول فتيات في *بوفالو*: ألن تخرج الليلة؟ فلنخرج الليلة!
قلت له: لماذا لا تتوقّف؟
لماذا أتوقّف؟
هل عليّ حقاً أن أقول لك السبب؟
صحيح، لكن ماذا إن كنت غير راغب في ذلك؟
إذا كنت قادراً على التوقّف، فلماذا لا تتوقّف؟
قال بوريس باقتضاب: عِشْ بالسيف، ومتْ بالسيف! قالها وهو يضغط بذقنه مفتاح الوِثاق الذي عصَّب به ذراعه (شيء ذو مظهر احترافي طبي) ويرفع كم قميصه].
كان أمراً مخيفاً، لكني فهمته. لا نستطيع اختيار ما نريده وما لا نريده؛ تلك هي الحقيقة الصلبة الوحيدة. أحياناً، نريد ما نريده حتى لو عرفنا أنه سوف يقتلنا. لا نستطيع الهرب مما نحن عليه، من طبائعنا. (أمر واحد لا بد لي من قوله في صالح أبي: لقد حاول، على الأقل، أن يريد الشيء المنطقي ـ أمي، ووظيفته، وأنا ـ قبل أن يجن جنونه ويفر من ذلك كله).
وبقدر ما أحب تصديق أن هنالك حقيقة ما وراء الوهم، فقد صرت مؤمناً بأن ما من حقيقة وراء الوهم. فبين «الواقع» من ناحية، والنقطة التي يصيب فيها العقل ذلك الواقع، من ناحية أخرى، هنالك منطقة وسطى، حافة قوس قزح حيث يأتي الجمال إلى حيز الوجود، حيث يختلط سطحان مختلفان كل الاختلاف ويندغمان معاً فينتجان ما لا تنتجه الحياة: إنه ذلك الحيز حيث يوجد الفن كلّه، حيث يوجد السحر كلّه.

سأذهب إلى القول أيضاً بأنه ذلك الحيّز حيث يوجد ذلك الحب كله، أو... لعل هذا أكثر دقة... أو أن هذه المنطقة الوسطى تبيّن التناقض الكائن في أساس الحب. نظرة عن قرب: يد منمّشة على معطف أسود، وضفدع ورقي منقلب على جانبه. ابتعد خطوة، وسوف ينبثق الوهم من جديد: حياة أكثر من الحياة، لا تموت أبداً. بيبا نفسها هي اللعبة بين هذين الشيئين، الحب واللاحب، الوجود واللاوجود. صور فوتوغرافية على الجدار، وجورب متكوِّر على نفسه تحت الأريكة. لحظةَ مددت يدي لأزيل من شعرها زغابة فضحكت وانكمشت خافضة رأسها تحت لمستي. تماماً مثلما تكون الموسيقى موجودة في الفواصل بين النغمات؛ تماماً مثلما تكون النجوم جميلة نتيجة الفراغات بينها؛ تماماً مثلما تسقط أشعة الشمس على قطرات المطر بزاوية ما فتلقي موشوراً ملوناً على امتداد السماء ـ هكذا هو الحيز الذي أنا موجود فيه، الذي أود أن أظل موجوداً فيه... ولأكن صريحاً كل الصراحة... أود أن أموت فيه، إنه المسافة الوسطى بالضبط: حيث ينقلب القنوط غرابة خالصة ويخلق شيئاً رفيعاً، سامياً.

هذا ما جعلني أختار أن أكتب هذه الصفحات مثلما كتبتها. ذلك أن دخول تلك المنطقة الوسطى، تلك الحافة متعدّدة الألوان بين الحقيقة واللاحقيقة، هو ما يجعل وجودي هنا وكتابتي هذه الكلمات أمراً أستطيع احتماله.

مهما يكن ما يعلمنا أن نكلم أنفسنا، فهو مهم. ومهما يكن ما يعلمنا أن نغني لكي نخرج أنفسنا من القنوط، فهو مهم. لكن اللوحة علمتني أيضاً أننا قادرون على أن يكلّم أحدنا الآخر عبرها. أشعر بأن لديَّ شيئاً مهماً، شيئاً جدّياً كثيراً، أقوله لك يا قارئي غير الموجود، وأشعر بأن عليَّ أن أقوله لك بإلحاح كما لو كنت واقفاً معك في غرفة واحدة: إن الحياة قصيرة ـ مهما تكن وجوهها الأخرى. وإن القدَرَ قاسٍ، لكن لعله لـ..

عشوائياً. وإن الطبيعة (أي الموت) تفوز دائماً؛ لكن هذا لا يعني أن علينا أن ننحني أمامها، وأن نركع لها. وربما... حتى إذا لم نكن على الدوام فرحين لأننا هنا، ربما تكون مهمتنا أن نغمر أنفسنا فيها على أية حال: أن نخوض فيها من غير تردد، وأن نسبح عبر تلك البالوعة مع إبقاء عيوننا وقلوبنا مفتوحة. وفي منتصف موتنا، مع ارتفاعنا من العضوي وعودتنا إلى الغرق المخزي في العضوي، يكون مجداً ويكون شرفاً أن نحب ما لا يقدر الموت على مسّه. فإن كانت الكوارث والنسيان قد حاقت بهذه اللوحة عبر الزمن، فقد أحاط بها الحب أيضاً. وبقدر ما هو الحب خالد، فإن لي من هذا الخلود جزءاً صغيراً، متألقاً، ثابتاً. إنه موجود، وهو مستمر في الوجود. وأنا أضيف حبي إلى تاريخ البشر الذين أحبوا الأشياء الجميلة، الذين بحثوا عنها، الذين انتشلوها من النار، الذين التمسوها عندما كانت ضائعة وحاولوا صيانتها وحفظها وهم يتناقلونها ـ حرفياً ـ من يد إلى يد، ويغنّون بأصوات صادحة من تحت حطام الزمان، إلى الجيل التالي من المحبّين، وإلى الجيل الذي بعده.

عن الكاتبة

ولدت دونا تارت في مدينة غرينوود بولاية ميسيسيبي، وتخرجت في كلية بينينغتون. وفي سن السابعة عشرة قال لها أستاذها في الجامعة: «يوماً ما ستكونين مشهورة».

لها روايتان مترجمتان إلى ثلاثين لغة: *«سر التاريخ»* و*«الصديق الصغير»*.

منذ روايتها الأولى «التاريخ السرّي» أحدثت دونا تارت ضجة كبيرة وأعطت كاتبتها شهرة أدبية بين ليلة وضحاها، فحصلت على موقع متقدّم بين الروايات الأكثر مبيعاً، ولفتت الأنظار وصار القراء ينتظرون أعمالها، لكن دونا تارت مقلّة فهي نشرت رواية كل عشر سنوات.

حازت روايتها التي بين أيدينا على جائزة بوليتزر، وقررت شركة وارنر بروس تحويلها إلى فيلم سينما.

عن المترجم

الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق ـ سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من ثلاثين عملاً مترجماً؛ من أهمها:

نعوم تشومسكي: «سنة 501، الغزو مستمر».

هوارد زِن: «ماركس في سوهو» ـ مسرحية.

إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: «اختراع التقاليد».

تشارلز تايلر: «المتخيّلات الاجتماعية الحديثة».

إيفان كليما: «حب وقمامة» ـ رواية.

جورج أورويل: «1984» ـ رواية.

جون ستيوارت مِل: «سيرة ذاتية».

سول بيلو: «مغامرات أوجي مارتش» ـ رواية.

سينكلير لويس: «بابيت» ـ رواية.

كارل أوفِه كناوسغارد: «كفاحي» ـ رواية.

لاسلو كراسناهوركاي: تانغو الخراب» ـ رواية.

الكتاب الأكثر مبيعاً في الولايات المتحدة والعالم

أكثر من ثلاثة ملايين نسخة مباعة

فائز بجائزة بوليتزر للرواية وبميدالية أندرو كارنيجي للتميز الروائي، وبجائزة مالابارت

« قصة «استثنائية» عن صبيّ وأمّه وعملٍ فنّي غيّر حياته»

مورين كوريغان - NPR



بأعجوبة، ينجو الفتى النيويوركي ذو الثلاثة عشرة عاماً، ثيو ديكر، من حادث يُودي بحياة أمه. تؤوي ثيو أسرة ثرية من بارك آفينيو لأنه صديق ابنها، وكان والده قد هجر أسرته. يحيّره مسكنه الجديد الغريب، وتعذبه أشواقه إلى أمه، فيتعلق بالشيء الوحيد الذي يذكّره بها: لوحة صغيرة ذات سحر غامضٍ آسرٍ صارت في حوزته.

يكبر ثيو، ويعيش حياة ملأى بالمغامرات... يعيش اغتراباً واضطراباً وحباً، وتجذبه دائماً قوة تلك اللوحة جذباً عنيفاً إلى دائرة ضيقة خطيرة.

«رواية ديكنزية لامعة تجمع مواهب دونا تارت المتميزة في القصّ ضمن كُلٍّ سيمفونيٍّ ممتع وتذكّر القارئ بالمسرّة الغامرة للسهر والقراءة طيلة الليل». - ميتشيكو كاكوتاني -

NEW YORK TIMES

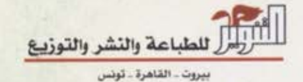
«كتاب عجيب، قاتم، جذّاب، يمضي شوطاً كبيراً صوب تفسير ما جعل كاتبته تُحرِز مكانتها بين كبار الروائيين الأميركيين بمن فيهم جون أبدايك وفيليب روث وتوني موريسون وذلك الديكنزي المتأخر جون إيرفينغ... قراءة واجبة لكل محبي الأدب العظيم من هذا القرن وغيره من القرون». - كيفن نانس -

USA TODAY



ولدت دونا تارت في غرينوود بولاية ميسيسيبي. هي صاحبة روايتَيّ «التاريخ السري» و«الصديق الصغير» المترجمَتين إلى ثلاثين لغة.


ISBN 978-614-472-059-2


التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس

الغلاف @awthings